

رءوف أبو سعدة

العلم الأعجمي في
القرآن مفسرا بالقرآن

من إعجاز القرآن

وجه في إعجاز القرآن جديد

(الجزء الأول)

دار الهلال

من إعجاز القرآن

العَلَمُ الأعجمى فى القرآن
مفسراً بالقرآن

وجه فى إعجاز القرآن جديد

بقلم :

رءوف أبو سعدة

●

دار الهلال

(الجزء الأول)

الغلاف للفنان :
محمد العيسوي

بسم الله الرحمن الرحيم

من إعجاز القرآن الكريم
في أعجمي القرآن

تقديم : د. محمود محمد الطناحي

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عِوَجا. لسانُ الذى يُلحدون إليه أعجميٌّ وهذا لسانٌ عربيٌّ مبين . والصلاة والسلام على خير خلق الله سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله، الذى أُوتيَ الكتابَ ومثلَه معه، ثم أُوتىَ الحكمة وفصلَ الخطاب. فبالبيان القرآنىّ المحكم، وبالفصاحة والبلاغة النبويَّة تضوَّأتْ تلك اللغة العربية الشريفة، واستكملت أسباب جلالها وبهائها .

ثم أمَّا بعد :

فإن من علوم القرآن التى اعتنى بها الأئمة، وأفردوها بالتصنيف علمَ «إعجاز القرآن»، وقد بدأ الكلام فى هذا العلم: شذراتٍ ونُتَفًا فى كتب التفسير، كشفًا لمواطن الكمال والجلال فى كلام ربِّنا عزّ وجلّ .

وقد دخل المفسِّرون إلى الإعجاز من طريق تلك الآيات التى أمر بها المولى- تباركت أسماؤه - رسولَه الأمين ﷺ أن يطلب من مشركى قريش الإتيان بمثل ماأُنزل عليه، تدرجاً وتنزلاً، وذلك قوله تعالى : ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات﴾ هود ١٣ - وقوله تعالى: ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نُزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله﴾ البقرة ٢٣ - ثم قضى عليهم بالعجز وأيأسهم أن يأتوا بشىء من ذلك، فقال عزّ

من قائل: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾ الإسراء ٨٨ .

ومعلوم أن مشركى قريش الذين سمعوا كلام الله يتلى على لسان رسوله الأمين كانوا أرباب فصاحة وبيان، وكانوا يعرفون مواقع الكلام وحلاوة البيان، ولذلك أدهشهم القرآن حين سمعوه، وَدَلَّهَ عقولهم بعظمة بيانه وروعة معانيه، ودقة نظمه واتساقه، وحين لم يجدوا فى الطعن إليه سبيلا لم يسعهم إلا أن يقولوا: إنه شعر، وإنه سحر، وإنه أساطير الأولين اكتتبها محمد- ﷺ - فهى تُمْلَى عليه بكرة وأصيلا. وهذا كله إقرار بعظمة ماسمعوا، وإذعان لأنه كلامٌ مباين لكلام البشر، لكنّ ماانغمسوا فيه من العناد والمكابرة صدهم عن الاعتراف بأنه وحىٌ يُوحَى، نزل به الروح الأمين على قلب المصطفى المختار ليخرج الناس به من ظلمات الوثنية والشرك إلى نور الإيمان وصفاء التوحيد .

ثم كان أن هدى الله بهذا القرآن العظيم أقواماً، فأقبلوا على تلاوته، وتدبر أغراضه ومراميه، وتمثلوا أوامره، وانتهوا عن نواهيه. وكان هو كتابَهم الذى يعتصمون به ويلجأون إليه فيما دقّ وجلّ من أمورهم .

وبقيت طائفة - ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة - لم تهتد ولم تذعن، وظل عداؤها للقرآن قائماً، فأخذت تنقّر وتنقّب، التماساً للمعابة فى هذا الكتاب المحكم، باتباع متشابه، وتحريف كَلِم عن مواضعه، وتخيُّل فساد نظمٍ، أو لَحْنِ أسلوب، أو تناقض معنى. وقد أخذت هذه الطائفة تدب دبيبا فى القرنين الأولين، تستخفى بآرائها مرة، وتُصْحِرُ بها أخرى، لكنها فى كلتا حالتيها لم تترك أثراً يذكر، إذ لم تكن لها شوكة، وكانت العقيدة على صفائها، لم تكدّرها مقولات المتكلمين، ولا خلافات المتأولين، ثم كان اللسان العربى لا يزال صحيحا محروساً لم يتداخْله الخلل، ولم يتطرق إليه الزلل، لكن الصغير يكبَر ويشِب، والزرع الضعيف يستحصد ويقوى، وتأتى أيام كالحات، تنجُم فيها الفتن بدواعٍ كثيرة: منها اختلاط اللّسان العربى بغيره من الألسنة، وانتشار الكتب المترجمة بغثها وسمينها، وتغلغل أهل المذاهب والنحل الأخرى فى صلب العقيدة الإسلامية، وإغرائها بالجدل وعلم الكلام، وأصْحَر أهل العداء

القديم بآرائهم، وإذا الذى كان بالأمس هَمْساً ونَجْوى يصبح اليوم وله دوى وصليل، فأخذت المجالس وحلقات الدرس تموج بتلك الآراء وتضطرب، وإذا بالذى كان مشافهة ومسامرة يُسطَّر ويُكتب وتتعاوره الأيدى .

ولم يكد المسلمون يدخلون فى النصف الثانى من القرن الثالث [1] حتى انكشف كلُّ خبيء وظهر كل مكنون، واستعلن العداء للقرآن والعربية مُلفَّفاً فى ثياب الخلاف الفلسفى والكلامى، ثم ماجر إليه كل ذلك من القول بفتنة خلق القرآن وأشباه لها من الكوائن والطامَّات .

لكن الله الذى تكفل بحفظ كتابه وفَّق طائفة من عباده ذادةً مُنافحين، قاموا لهذه المطاعن والشبهات، وألقوا بحججهم وبراهينهم فإذا هى تلقف مايأفكون. ولعل أول حامل لهذا اللواء هو الإمام الجليل أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قُتيبة الدينورى، خطيب أهل السنة، المولود سنة ٢١٣، والمتوفى سنة ٢٧٦، فقد انتدب لهذه الشكوك

---

(١) نعم يكاد يُجمع أهل النظر والبصر بتاريخ هذه الأمة أن بداية الخلاف والنزاع والجذب فى ثقافة الأمة العربية الإسلامية قد كانت مع هذا الوقت: أواخر القرن الثالث الهجرى للأسباب التى أوجزت الإشارة إليها .

على أنه من حسن الحظ، بل قل إنه من حفظ الله لهذه الأمة أن أصول علومنا قد وضعت كاملة قبل هذا الخلل الذى طرأ على المجتمع العربى المسلم فى القرن الثالث، أى قبل فساد الزمان وتغير الأحوال. وحسْبنا هاهنا أن نذكر أن المسلمين كانوا قد فرغوا فى القرنين الأولين من نقط المصحف وشكله، وضبط القراءات القرآنية رواية ودراية، وتدوين الحديث، فإن أصحاب الكتب الصحاح الستة كانوا كلهم فى ذلك الوقت، وكذلك الإمام أحمد صاحب «المسند» إلا ماكان من أمر الإمام النسائى، فقد نصوا على أنه كان أطول أصحاب «السنن» سنا، فقد ولد سنة ٢١٥، وتوفى سنة ٣٠٣ .

وفى ذلك الزمان أيضا كانت كتب الأئمة الأربعة فى الفقه، ووضع الشافعى من بينهم علم أصول الفقه، وكتب فيه «الرسالة» .

وفى ذلك الزمان المتقدم من تاريخنا أيضاً وضع الخليل بن أحمد أول معجم معربى «العين» ثم وضع علم «العروض» غير مسبوق ولا مشارَك، وثنى تلميذه سيبويه بوضع «الكتاب» فى علم النحو. وكذلك رأينا طبقات العلماء الرواة الثقات جامعى اللغة والشعر، من أمثال خلف الأحمر والمفضّل والأصمعى وأبى زيد الأنصارى، وأبى عبيدة وأبى عبيد وأبى عمرو ابن العلاء وأبى عمرو الشيبانى وابن الأعرابى وابن حبيب وابن سلام الجمحى وأبى حاتم السجستانى والسُّكرى والمبرد وثعلب وأبى العباس الأحول .

ولأمرٍ حكيم وقف علماء اللغة الأقدمون بقبول الرواية فى الأمصارعند نهاية القرن الثانى.

ومعلوم أن الذى وصل الينا من علم هؤلاء الأوائل قليل، ولو سلم لنا كله لرأينا العجب العجيب، على نحو ماقال أبو عمرو بن العلاء: «ماانتهى إليكم مما قالته العرب إلا أقله، ولو جاءكم لجاءكم علمٌ وافر وشعرٌ كثير». لكن القدر الذى وصل إلينا من علومهم كافٍ بحمد الله، فى الدلالة على أن أصول علومنا وضعت وعرفت حدودها ومعالمها فى هذين القرنين الأولين وشطر كبير من الثالث، أعنى فى ذلك الزمان الرخيِّ المستقر، قبل أن تهب رياح الخلاف وتكدر الموارد الصافية. وأيضاً فإن جمهور أهل الملة الذين جاءوا بعد ذلك كانوا حراساً أمناء حفظة، ولن تخلو الأرض من قائم لله بحجة .

فليهدأ هؤلاء الذين يقولون: إن الخلاف والنزاع كانا معنا من أول الطريق.. واللهم لا .

والمطاعن التى تثار حول القرآن، فجمعها ثم سدد إليها سهامه وأعمل فيها معاوله، فاقتلعها من جذورها، وكان مجلى ذلك كتابه العظيم «تأويل مشكل القرآن»، إلى مانثره فى كتبه الأخرى، مثل «تأويل مختلف الحديث» .

ثم ظهرت مسألة «إعجاز القرآن» مبحثاً قائماً بذاته، يُقصد إليه قصداً. وكانت تلك المسألة «من أبرز المسائل التى تعاورها العلماءُ بالبحث فى أثناء تفسيرهم للقرآن، وردهم على منكرى النبوة، وخوضهم فى علم الكلام، كعلىٍّ بن رَبَّن كاتب المتوكل فى كتاب «الدين والدولة» وكأبى جعفر الطبرى فى تفسيره «جامع البيان عن وجوه تأويل آى القرآن» وكأبى الحسن الأشعرى فى «مقالات الإسلاميين» وأبى عثمان الجاحظ فى كتابه «الحجة فى تثبيت النبوة». وكان علماء الاعتزال أكثر المثيرين للكلام فى إعجاز القرآن، فقد ذهب النَّظَّام – من بينهم – إلى أن القرآن نفسه غير معجز، وإنما كان إعجازه بالصَّرْفة، وقال: «إن الله ما أنزل القرآن ليكون حجة على النبوة، بل هو كسائر الكتب المنزلة لبيان الأحكام من الحلال والحرام، والعرب إنما لم يعارضوه، لأن الله تعالى صرفهم عن ذلك، وسلب علومهم به». وذهب هشام الفُوَطى، وعباد بن سليمان إلى أن القرآن لم يُجعل عَلَماً للنبى، وهو عرض من الأعراض، والأعراض لايدل شىء منها على الله ولا على نبوة النبى. وكان ذلك وغيره من أقوال أئمتهما منبعاً غزيراً للقول فى إعجاز القرآن. وقد انبرى كثير منهم للرد على من أنكر إعجازه جملة، كأبى الحسين الخياط وأبى علىّ الجبَّائى، اللذين نقضا على «ابن الراوندى» كتابه «الدامغ» الذى طعن فيه على نظم القرآن ومايحتويه من المعانى، وقال: إن فيه سفهاً وكذباً. وكذلك رد كثير منهم على من خالف عن قول جماعتهم، بأن تأليف القرآن ونظمه معجز، وأنه عَلَمٌ لرسول الله ﷺ ، كالجاحظ الذى رد على النظام رأيه فى الصُّرْفة، فى كتاب: «نظم القرآن» (١)

ثم أُفرد علم «إعجاز القرآن» بالتصنيف، ومن أشهر ماصُنِّف فيه مما هو مطبوع ومتداول :

---

(١) مقدمة تحقيق «إعجاز القرآن» للباقلانى ص ٨.٧ للشيخ العلامة السيد أحمد صقر، رحمه الله ورضى عنه. وانظر بقية كلامه، فإنه عالٍ نفيس !

١ – النكت فى إعجاز القرآن، لأبى الحسن على بن عيسى الرُّمّانى المتوفى سنة ٣٨٦.

٢ – بيان إعجاز القرآن، لأبى سليمان حَمْد بن محمد الخطابى البُسْتى المتوفى سنة ٣٨٨.

٣ – إعجاز القرآن لأبى بكر محمد بن الطّيب الباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣.

٤ – الرسالة الشافية، للشيخ أبى بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١، وهو صاحب «دلائل الاعجاز» و«أسرار البلاغة» [١].

ويعد كتاب أبى بكر الباقلانى من أَوْعب ماأُلف فى هذا العلم. قال ابن العربىّ: «ولم يصنَّف مثله» [٢].

على أن بعض أهل العلم قد عالجوا «إعجاز القرآن» فى ثنايا مؤلفاتهم القرآنية أو البلاغية، كالذى تراه فى البرهان فى علوم القرآن للزركشى، وكتابى ابن الزملكانى: التبيان فى علم البيان المطلع على إعجاز القرآن» و «البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن»، و« نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز» [٣] لفخر الدين الرازى، و «بديع القرآن وتحرير التحبير»، كلاهما لابن أبى الإصبع المصرى، و «الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز»، لأمير المؤمنين يحيى بن حمزة العلوى اليمنى.

ولايزال الناس بعد الباقلانى إلى يوم الناس هذا، يعتادون هذا العلم الشريف، ويعالجونه، وقد اختلفت كتاباتهم فيه شرعة ومنهاجاً، إلى أن رأينا فى عصرنا الحديث من نَحَوْا بالإعجاز القرآنى منحى جديداً، وهو مايسمونه:

«الإعجاز العلمى فى القرآن»، وبرغم ماانتهى إليه بعضهم من نتائج تسر الناظرين، فإنه طريق مَخُوف، ومنهج محفوف بالمخاطر، للذى علمتَه من تغير الظواهر العلمية واختلاف النظر إليها والحكم عليها. ولذلك حديثٌ آخر.

---

(١) نشرت رسائل الرمانى والخطابى والجرجانى معاً، باسم: ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن.
وقد نشر شيخنا أبو فِهْر محمود محمد شاكر – حفظه الله – «الرسالة الشافية» بآخر الطبعة التى قرأها وعلق عليها من «دلائل الإعجاز».

(٢) البرهان فى علوم القرآن للزركشى ٢ / ٩٠.

(٣) وله أيضاً: الإشارة إلى الايجاز فى بعض أنواع المجاز. وقد أقامه كله على القرآن العزيز.

« هـذا الكـتاب »

ويأتى كتابنا هذا فى «علم إعجاز القرآن» نمطاً وحده، فقد أداره مؤلفه على وجه من إعجاز القرآن جديد، لم يسبقه إليه سابق، ولم يفطن إليه باحث، وكأن كعب بن زهير، رضى الله عنه، لم يكن مصيباً حين قال :

ماأرانا نقول إلا مُعاراً ... أو مُعاداً من قولنا مكروراً (١)

إلا أن يكون أراد الشعر وحده !

فقد يفتح الله على الأواخر بما لم يفتح به على الأوائل، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وهذا أيضاً وجه من وجوه إعجاز القرآن، وأنت ترى هذا من نفسك، فقد تتلو الآية أو السورة فى صلاتك، أو فى مَغْداك ومَراحك، وعند أخذ مضجعك، وتمر عليها مرا، ثم تتلوها نفسها فى ساعة أخرى من ساعاتك، وفى حالة مباينةٍ من حالاتك، أو تسمعها من قارىءٍ غيرك، فإذا هى تهزك هزاً، وإذا هى تملأ كل ماحولك بهجة وضياء، ثم تفجر أمامك ينابيع من الحكمة والهدى لم يكن لك بهما عهد، وتعجب، كيف غُيِّب عنك كل هذا الخير فيما سلف لك من أيام !

وكل الكلام يُمَلُّ ، إلا كلام ربنا عز وجل، وصدق رسول الله ﷺ فى وصفه وهو المنزل عليه: «ولا يشبع منه العلماء، ولا يَخْلَق على كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه» (٢)

★ ★ ★

وهذا الوجه من الإعجاز القرآنى الذى قام له المؤلف ونهض به، وجه قاطع باتّ، لا تصح فيه لَجاجة، ولا تَسُوغ معه مخالفة، لأنه قائم على قواعد اللغة، ومستند إلى أحكام

---

(١) هكذا يستشهد به أهل المعانى والأدب. انظر مثلا العقد الفريد ٣٣٨/٥، لكن الرواية فى ديوانه ص ١٥٤ :
ماأرانا نقول إلا رجيعاً ... ومعاداً من قولنا مكروراً .

(٢) عارضة الأحوذى بشرح صحيح الترمذى، لأبى بكر بن العربى - أبواب فضائل القرآن ٣١/١١، وسنن الدارمى - فضائل القرآن ٤٣١/٢ .

التاريخ، وليس للهوى فيه حظ أو نصيب .

وعنوان الكتاب كما ترى (من إعجاز القرآن فى أعجمىّ القرآن) - العَلَم الأعجمى فى القرآن مفسراً بالقرآن - وهو عنوان دال على موضوعه صراحة، مُتَّجهٌ إليه مباشرة، ومنهج الوضوح دائر فى هذا الكتاب كله، فالمؤلف يمضى إلى قضاياه ويعالجها دون ثرثرة أو تلكؤ أو فضول .

يقرر المؤلف أن القرآن يفسِّر فى ثنايا الآيات المعنى الدقيق لكل اسم أعجمى عَلَمٍ ورد فى القرآن، أياً كانت اللغة المشتق منها هذا الاسم الأعجمىّ العلم، وإن كانت لغة منقرضة يجهلها الخلق أجمعون عصر نزوله .

وأسلوب القرآن فى ذلك - كما يقول المؤلف - «المجانسة على الاسم العلم بما يفسر معناه أبين تفسير»، ومثال ذلك ماذكره فى تفسير اسم «زكريا» عليه السلام: يقول ربنا عز وجل :﴿ ذكر رحمة ربك عبده زكريا﴾ - مريم ٢، ويقول المؤلف: زكريا فى اللسان العبرانىّ معناه حرفياً «ذاكر الله» ثم يدعوك المؤلف إلى أن تتأمل المجانسة بين قوله تعالى : ﴿ذكر رحمة ربك عبده زكريا﴾ «وبين ذاكر الله» ، وكأنه عز وجل يقول- وهو أعلم بما يريد - ذ كر اللهُ ذاكرَ الله، أو: ذكر الله فذكره الله، أو: ذكر الله فذكرتْه رحمة الله

وقد يأتى تفسير العلم العجمى فى القرآن بذكر المرادف العربى لمعناه بغير العربى : ومن ذلك أن معنى «جبريل» فى العبرية: الشديد القوى، وجاء التعبير عنه فى القرآن بذلك، قال تعالى : :﴿علَّمه شديد القوى. ذو مرة فاستوى﴾ النجم ٥ ، ٦. والمِرَّة بكسر الميم وتشديد الراء : بمعنى القوة أيضا. وكذلك قوله تعالى عن جبريل عليه السلام: ﴿إنه لقول رسول كريم. ذى قوة عند ذى العرش مكين﴾ التكوير ١٩ ، ٢٠ .

ومثل ذلك ماانتهى إليه المؤلف فى أمر «نوح» عليه السلام، فقد رده بعض مفسرى القرآن إلى «النواح» فقالوا: هو من ناح ينوح، وجاء المؤلف فطبق عليه منهجه فرده - اعتماداً على قواعد اللغة العبرية - إلى معنى التلبث والإقامة، ثم فسره بالسياق القرآنى الكاشف، فى قوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا

خمسين عاماً﴾ العنكبوت ١٤، وقوله عز وجل: ﴿واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه ياقوم إن كان كَبُرَ عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت﴾ يونس ٧١، وقوله تباركت أسماؤه: ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾ الصافات ٧٧.

وثالثة: يذكر المؤلف أن «إسماعيل» ينطق فى العبرية «يشمعيل» ومعناه : سَمِعِ الله، أو سميعُ الله، ثم التمس هذا المعنى فى سياق القرآن الكريم، فوجده فى قوله عز وجل على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربى لسميع الدعاء﴾ إبراهيم ٣٩، وفى قوله عز وجل على لسان الخليل أيضا وابنه إسماعيل عليهما السلام: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾ البقرة ١٢٧ .

وهكذا يمضى المؤلف بهذا المنهج فى تفسير أسماء الأعلام الأعجمية ومايشبهها من أسماء الأجناس والمواضع، وقد أحصى فى ذلك واحداً وستين علماً أعجميا أو مختلفاً فى عُجمته فى القرآن، فسرها من القرآن نفسه، تعالى مُنْزِله. ثم ذكر أن القرآن لا يفعل هذا فقط، ولكنه يصحح أيضاً لعلماء العبرية وعلماء التوراة، وقت نزوله وإلى يوم الناس هذا، تفسيراتهم اللغوية لمعنى هذا العلم العبرانى أو ذاك، من مثل أسماء بنى إسرائيل الواردة فى القرآن وغيرها من أسماء المواقع، مثل «مدين» فيخطىء أصحاب اللغة ويصيب القرآن .



فهذا هو عمود صورة الكتاب، كما أقامه مؤلفه، وكما أراد له أن يكون، ولكنه من وراء ذلك ومن قدامه قد استطرد إلى قضايا كثيرة، عقيدية ولغوية وتاريخية.

ومن أنفس مافى هذا الكتاب- وكله نفيس إن شاء الله - ماذكره المؤلف حول تاريخ كتابة التوراة والإنجيل، وأن نص التوراة مستنسخ من الذاكرة بعد نحو ثمانية قرون من وفاة موسى عليه السلام، وكذلك الأناجيل الأربعة المتداولة لم يخُطُّها عيسى عليه السلام بيده، ولم يُملها على حوارييه، وبهذا تكون سلسلة السند فى التوراة والإنجيل منقطعة، وليس كذلك القرآن .

ومما يتصل بالتوراة: ماسجله المؤلف من قصورها وتقصيرها فى ذكر الأنبياء الذين هم من قبل إبراهيم عليه السلام، فتكون بذلك «توراة بنى إسرائيل» ليس غيرُ .

وقد أفضى ذلك بالمؤلف إلى أن طعن كثيراً فى «سفر التكوين» الذى بين أيدينا الآن، وكذلك شنع على كاتب التوراة، وكشف تدليسه وكذبه فى أكثر من موضع، بل إنه نبه على تناقضه مع نحو اللغة العبرية ومعجمها .

أما بنوة عيسى لآدم عليهما السلام، وعبوديته لله عز وجل فقد عالجها المؤلف فى غير مكانٍ من الكتاب .



والكتاب فى تسعة فصول، خصص المؤلف الفصول الثلاثة الأولى منها لما يمكن أن نسميه تسميةَ علماء القراءات: الأصول، والفصول الستة الباقية جعلها لما يسمى عندهم الفَرْش، وهو تنزيل الكلام على أسماء الأعلام: عَلَماً عَلَماً، كما ينزل الكلام فى اختلاف القراء على سور القرآن: سورة سورة.

أما الأصول فقد أدار المؤلف عليها كلاماً عالياً شريفاً، حول أصناف الملاحدة ومناقشتهم، ثم تكلم عن خصائص اللسان العربى وعبقرية العربية وقِدَمها، وأوجه التقابل والتغاير بينها وبين العبرية، ليجيب بعد ذلك: لماذا كانت العربية هى أم الساميات جميعاً ؟

وأشار إلى لغات العالم المعروفة وقت نزول القرآن، ثم أورد كلاماً عزيزاً عن القرآن، وأورد اجتهادات فى لغة آدم عليه السلام، التى تكلم بها على الأرض مَهْبطَه من الجنة .

وتحدث عن استعارة معانى الأفعال، وحدود الأخذ والاستعارة من اللغات الأخرى.

ولهذا المؤلف اجتهادات جيدة فى الاشتقاق، وتأصيل عربية بعض مايظنه الناس أعجمياً، مثل «جهنم» وتخطئة بعض اللغويين العرب فى أصل «إبليس» واشتقاقه.



وهناك أمر لا يزال المؤلف يعتاده وُيلم به كثيراً، وهو الرد على المستشرقين ومن إليهم من متحذلقة الأساتيذ فى هذا القرن، الذين أدركتهم عُجمة العِلم واللسان.. أو

كما قال. وقد ردَّ على المستشرقين فى طعنهم على القرآن، وأنه وحى من الله يوحى على خاتم الأنبياء ﷺ .

وكان أكثر المستشرقين حظا من الرد والتعقيب المستشرق الألمانى جوزيف هورفيتس، المولود سنة ١٨٧٤م، والمتوفى سنة ١٩٣١م (١) .

★ ★ ★

ولعل أغنى بحثٍ فيما وقع لى من أصول هذا الكتاب: هو الكلام على اسم أبى إبراهيم عليه السلام، وهو «آزر» فى القرآن، و «تارح» فى التوراة، وقد تختلف مع المؤلف فى بعض ماانتهى إليه من الربط بين «آزر»، و «تارح»، ولكنك تكبر فيه صدق الجهد وقوة الحجة .

★ ★ ★

ومن أطرف ماقرأته فى هذا الكتاب تنبه المؤلف لما يصنعه بعض الأدباء والشعراء فى هذا الزمان- الذين يزعمون أنهم يوظفون التراث فى أعمالهم الأدبية- من تمجيد «إبليس» رمزاً للبطولة فى محنة السجود لآدم، وأنه أول من قال : لا، فهذا سخف من القول. فيقول المؤلف: «والذى يجب التنصيص عليه فى هذا السياق، هو النعى علي أهل التفسير والسِّيَر، وأيضاً علي أهل الفن والفكر والأدب، الذين تناقلوا مادسه إبليس على أوليائه من أساطير وتهاويل لايخلو منها «أدب الخرافة» فى كل الشعوب، تتحدث عن «أمجاد» إبليس قبل أن يبلس، تريد تفخيمه وتعظيمه وغرس المهابة منه فى صدور الناس، حتى خصوه بأضوأ كوكب فى السماء الدنيا، كوكب الصبح، أى كوكب «الزُّهَرة»، وجعله بعضهم نداً لله، وجعله بعضهم شهيد البطولة فى محنة السجود لآدم، وأول من قال : «لا». ليس التنكر للخالق عز وجل بطولة، لا صحيحة ولا زائفة، وإنما هو وضاعة، هذا كله فسوقٌ وصَغار، لايجوز لمؤمن تجميل ماقبحه الله، ولايجوز لمؤمن إعلاء ماوضعه الله أسفل سافلين، لايجوز لمؤمن تمجيد مارذّله الله، ولا يجوز لمؤمن تعظيم من لعنه الله، ناهيك بموالاة عدو الله، بل لايجوز لعاقل موالاة من أقسم ليجرُنَّهُ وراءه إلى قاع جهنم» .

★ ★ ★

(١) انظر ترجمته وآثاره فى: المستشرقون، للأستاذ نجيب العقيقى ٢/٤٣٢ ، ٤٣٣- الطبعة الرابعة .

وهكذا تتوالى القضايا فى هذا الكتاب النفيس. على أنى أحب أن أسجل هاهنا أن كلام هذا الكاتب- وأنا لا أعرفه- لاتستطيع أن تفرق فيه بين أصلٍ وحاشية، بل إن كثيراً من حواشيه ينبغى أن تنقل إلى صلب الكتاب أو متنه، وتأمل مثلاً حاشيته فى الفصل الأول، عند حديثه عن صور المغايرة بين العربية والعبرية، فى توجيهه لتسميته ﷺ «محمدا» ومظهر الحمد فيه، وماتلا ذلك من حديثه عن «المؤآبية» والمقارنة أو الموازنة بين «ساذج» و «سادة، و «كيسر» المعرب إلى «قيصر»، والاسم الإسبانى «رذريجو» المعرب إلى «لذريق».. وغير ذلك كثير من العلم المنثور فى حواشى الكتاب .

ومع غزارة هذه المعارف التى يقدمها لنا الكاتب، ونفاستها، فهو لا يُدِلُّ بها على قارئه، ولا يسوقها فى موكب تتقدمه الخَيَّالة ، ويحف به راكبو الدراجات، وتكتنفه دقات الطبول، كما يفعل كثيرٌ من الكتاب الآن، وإنما يأتيك كلامه سهلا رَهْواً، يتهادى فى إهاب الكرامة والتواضع والإسماح، وعليه من العلم بهاؤه، ومن الجِد أماراته، بأسلوبٍ عذب مصفى، أسلوب كاتب يحترم عقل قارئه، ويريد إمتاعه لا التعالى عليه. يقول فى الفصل الثانى- الأعجمى المعنوى والأعجمى العلم - فى مناقشة المفسرين الذين اعتمدوا فى تفسير أسماء أنبياء بنى إسرائيل على المعجم العربى وحده، يقول: «وأنا أيها القارىء العزيز- إن كنت لا تعرف عبرية التوراة أويونانية الأناجيل، بما فى هذه وتلك من أعلام آرامية بل ومصرية أحيانا- لاأريد لك أن يفوتك شىء من حلاوة بحثٍ أريد أن أُحبِّره لك تحبيراً : أريد منك أن تشترط علىَّ توثيق ماأحدثك به، فلا أكيل لك القول جزافاً آمنا ألا تكشف زيفى، لأنك لا تعلم شيئاً من أمر تلك اللغات التى ذكرت لك. ليس هذا من العلم فى شىء، وإنما هو من التدليس».

وقوله: «أحبره لك تحبيرا» أنتزعه - مُحْسِناً- من قول أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه، وقد أخبره ﷺ أنه استمع لقراءته القرآن، فقال: «أما إنى لو علمتُ بمكانك لحبَّرته لك تحبيراً» (١) .

وهذا الاقتباس الذى جرى على قلم الكاتب ترى له أشباهاً ونظائر فى غير هذا الموضع من كتابه، وهو يدلك على انتماء أسلوب الكاتب لذلك النمط العالى من البيان

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٩/٩٣ - باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن. من كتاب فضائل القرآن.

المشرق الوضىء، الذى هو السمة الغالبة على أسلوب علمائنا الأوائل، ليس فى كتب الأدب فقط، بل تراه فى كل ماكتبوه، حتى فى علوم الفقه والأصول والتاريخ والأنساب والبلدانيات (الجغرافيا) والطبِّ والفلك والفلاحة (الزراعة)، فنحن أمة بيان وفصاحة، وإن أريد لنا أن نفرغ من هذا كله، وأن نعايش الواقع ونعانق لغة العصر- هكذا يقولون- لنضيق الفجوة بين مايقرأه التلاميذ فى الكتب وبين مايسمعونه فى الشارع والبيت. لقد أفضى ذلك العبثُ كله إلى هجر الكلام العالى، والتردى فى هوة العجمة والسوقية. إن كثيراً من أساليب الكتاب الآن تمضى تتخبط فى طريق مظلم كئيب، وتدور تسعى فى فلك ألفاظٍ مستهلكة مستبردة، مما كان يوصف قديماً بالكلام المغسـول[1] .

وقد صدَّهم عن حسن البيان وجمال العبارة وَهْمٌ خادع وظنٌّ كذوب: أن العناية بتحسين العبارة أصباغ وزخارف، وأن التفكير العلمى والموضوعية يأبيان ذلك ويرفضانه.. وهذا حديث طويل، لا ينبغى أن يشغلنا عن ذلك الكتاب الذى حبره مؤلفه تحبيراً، وزينه تزييناً [2] .

إن فى هذا الكتاب علماً كثيراً، وإن فيه خيرا كثيرا، وإن عليه نورًا كثيراً، وما أظن ذلك كله قد كان إلاّ لأن مؤلفه قد تغيَّا به غاياتٍ نبيلة: هى خدمة كتاب الله، بالكشف عن نواحى إعجاز جديدة فيه، والأمور بمقاصدها. يقول تاج الدين السبكى: «ولقد حصل أبو زُرعة على أمرٍ عظيم ببركة حفظه للحديث، وهكذا رأينا من لزم باباً من الخير فُتح عليه غالبـاً منه» [3] .

ويقول عبد اللطيف البغدادى: «أعلم أن للدين عَبْقَةً وعَرْفاً ينادى على صاحبه، ونوراً وضيئاً يشرف عليه ويدل عليه» [4] .

(١) شرحه جار الله الزمخشرى، فى أساس البلاغة، فقال: «وكلام فلان مغسول، ليس بمعسول، كما تقول: عريان وسادج: للذى لاينكّت فيه قائله، كأنما غُسِل من النكت والفقَر غسلاً، أو من حقه أن يغسل ويطمس» .

(٢) إقرأ قوله عن «يعقوب» عليه السلام وبنيه : «وبنوه هؤلاء الذين فجعوه بيوسف ليخلولهم وجه أبيهم، هاهم أولاء يغدون ويروحون أمامه، تنضح أعينهم بما فعلوه، فلا يخلو لهم منه إلا وجه كسيف، ولسانٌ لا يفتأ يذكر يوسف: ترى أين أنت الآن يايوسف؟ أطعمت؟ أدفئت ؟ أى ذئب آخر يترصدك؟» .

هذا كاتب يكتب وهو منشرح الصدر، وقد أنبأنا فى قصة «يوسف» عليه السلام، أنه يستمتع بما يكتب، ويحب لنا أن نستمتع نحن أيضاً .

(٣) طبقات الشافعية الكبرى ١/٦٥ .

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبى ٢٢ / ٣٢٢ .

ويقول أبو الحسن العامرىّ : «إن الدين كريم الصحبة، يُعز من لجأ إليه، ويستر عيوب من اتصل به، مع مايُذْخر له فى عاقبته من الغبطة الأبدية» (١) .

قلت: وقد رأينا كثيراً ممن تطاولوا على الدين وهزءوا به وسخروا منه فى مجالسهم، أو فى أعمالهم الأدبية - شعراً أو نثراً - قد انتهى أمرهم إلى خسارٍ وبوار، بل إن منهم من رأى فقره بين عينيه، ورأى عافيته تتقلّتُ من بين يديه، مع ماتراه من ظلام فى وجوههم..(ومن يُهِن اللهُ فمالَهُ من مُكْرِم) . (٢) .

★ ★ ★

ولما كان كل إنسان يؤخذ من قوله ويترك إلاَّ صاحب ذلك القبر الشريف، المعصوم ﷺ : فإن لى مع المؤلف الفاضل وقفات فيما وقع لى من أصول الكتاب، ولم أسعد بقراءته كله، وإنى أعتقد أن من تحية أى بحث والاحتفال به مناقشته ومفاتشته :

أولاً: استصحب المؤلف تفسيراً واحداً من تفاسير القرآن العزيز، وهو تفسير الإمام أبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى الاندلسى القرطبى، المتوفى بمنية ابن خصيب شمالىّ أسيوط بصعيد مصر، سنة ٦٧١هـ. ويرى المؤلف أن هذا التفسير هو أوسع وأشمل تفاسير القرآن الكريم. وتفسير القرطبى على جلالته ونَباوة محلّه ليس هو أوسع التفاسير ولا هو أشملها، فإن أوسع التفاسير المطبوعة وأشملها هو تفسير شهاب الدين أبى الثناء السيد محمود الآلوسى البغدادى المتوفى سنة ١٢٧٠هـ، وهو المسمى: روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى .

ولو كان تفسير القرطبى هو أوسع التفاسير وأشملها فليس بمغنٍ عن سواه من التفاسير، سابقة أو لاحقة، وذلك أنه فى تاريخنا وثقافتنا «لايُغنى كتابٌ عن كتاب» قُل هذا فى علم التفسير، وقله فى سائر علومنا . ولقد كان من أخطر ماصد الناس عن أبواب العلم، وزهّدهم فى الاستقصاء والتتبع والصبر على تكاليف العلم: الزعم بأن كتبنا تتشابه، وأن غاية اللاحق أن يدخل على السابق، يردد ماقال دون أن يضيف إليه شيئاً، إلا شيئا لايُعْبأ به ، وهو زعمٌ باطل وخَلْفٌ من القول، ورده ودفعه فى غير هذا المكان .

---

(١) الإعلام بمناقب الإسلام ص ١٢٩ .

(٢) سورة الحج ١٨ .

على أن ذلك التشابه الذى يُظَن بكتبنا، عند من لم يحسن النظر والتأمل، يذكرنا بأهل الصين واليابان، تنظر إلى سَحنتهم فتراهم على نمط واحد، ومن بابة واحدة، فتظنهم جميعاً شخصاً واحداً، ولكنهم عند أنفسهم مختلفون جداً، وبينهم من الفروق وأوجه الخلاف ماهو واضحٌ عندهم وضوحاً لا يدخله شك .

ثانياً: من المباحث التى عالجها الكتاب : الترتيب التاريخى للأنبياء، والمدد التى بينهم، كالزمن الذى بين آدم ونوح، والذى بين نوح وإبراهيم عليهم السلام. ولم يستفد المؤلف- فيما رأيتُ - من المصادر العربية التى عالجت هذا الموضوع، مثل المحبَّر لابن حبيب (٢٤٥هـ)، والمعارف لابن قتيبة (٢٧٦هـ)، وتاريخ الطبرى (٣١٠هـ)، ومروج الذهب للمسعودى (٣٤٦هـ)، وقصص الأنبياء لابن كثير (٧٧٤هـ) الذى هو جزء من كتابه: البداية والنهاية .

ولئن كان المؤلف يخالف هؤلاء المؤرخين- لأنى أعتقد أنه لايخفى عليه مكانهم، ولا يجهل مؤلفاتهم- فقد كان ينبغى الإشارة إليهم، والاستئناس بهم .

ثالثاً: ذكر المؤلف الخلاف فى تعيين اسم «الذبيح» وهل هو إسماعيل أم إسحاق؟ وأورد كلاماً جيداً، لكنه لم يرجع إلى المصادر الأولى - فيما ظهر لى - ولم يستفد مما كتبه أهلُ العلم، ولو فعل لما قال إن المفسرين تهيبوا تكذيب التوراة فى قولها: إن الذبيح كان إسحاق بالاسم، لا إسماعيل، فلم يروا بأساً من متابعة التوراة على هذا القول.

فهذا التعميم غير صحيح، فإن الحافظ ابن كثير- وهو من أئمة التفسير - وكتابه عُمدة فى التفسير- ذكر الرأيين، وانتصر للرأى القائل بأن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام[1] .

وقال ابن قيم الجوزية: «وأما القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجهاً، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيميه قدس الله روحه يقول: هذا القول إنما هو متلقى عن أهل الكتاب، مع أنه باطل بنص كتابهم، فإن فيه: إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بِكرَه، وفى لفظٍ: وحيده، ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بِكرُ أولاده،

---

(١) تفسير ابن كثير ٧ / ٢٣ - ٣٠ (سورة الصافات) .

والذى غرَّ أصحاب هذا القول أن فى التوراة التى بأيديهم: اذبح ابنك إسحاق، قال: وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم، لأنها تناقض قوله: اذبح بكرك ووحيدك، ولكن اليهود حسدت بنى إسماعيل على هذا الشرف، وأحبوا أن يكون لهم، وأن يسوقوه إليهم، ويحتازوه لأنفسهم دون العرب، ويأبى الله إلا أن يجعل فضله لأهله، وكيف يسوغ أن يقال: إن الذبيح إسحاق، والله تعالى قد بشر أم إسحاق به وبابنه يعقوب، فقال تعالى عن الملائكة، إنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبشرى: ﴿لا تخف إنا أُرْسلنا إلى قوم لوط . وامرأتُه قائمة فضحكت فبشرناها باسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ هود ٧٠، ٧١، فمحال أن يبشرها بأنه يكون لها ولد، ثم يأمر بذبحه، ولا ريب أن يعقوب عليه السلام داخل فى البشارة، فتناول البشارة لإسحاق ويعقوب فى اللفظ واحد. وهذا ظاهر الكلام وسياقه» (١) .

أرأيت أيها الكاتب الفاضل تصديق كلامك عند الأقدمين؟ وأنت عليمٌ أن مثل هذه القضايا لاتُلتمس من كتب التفسير وحدها، فكتب العربية آخذٌ بعضها برقاب بعض .

رابعاً: هذا كتاب جيد، مرجوٌّ منه الخير والنفع إن شاء الله، ومثله أعلى من أن تذكر فيه الأحاديث الشريفة بمعناها دون لفظها: ومن ذلك ماذكره المؤلف فى مبحث «إبليس» عليه لعائن الله تترى، قال: «وقد روى عن الصادق المصدوق ﷺ مامعناه «ثَوِّروا القرآن» أى ابحثوا وتمعنوا». ولفظ الحديث: «من أراد العلم فليثوِّر القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين» . أخرجه الحافظ نورالدين الهيثمى، من حديث عبد الله بن مسعود، فى مجمع الزوائد ١٦٥/٧ (باب فى فضل القرآن ومن قرأه)، وكذلك رواه ابن الأثير فى النهاية فى غريب الحديث والأثر ٢٢٩/١ والقرطبى فى تفسيره ٤٤٦/١، قال شمر بن حمدويه: «تثوير القرآن: قراءته ومفاتشة العلماء به فى تفسيره ومعانيه». .

وروى أبو منصور الأزهرى، فى تهذيب اللغة ١١٠/١٥، رواية أخرى، من حديث ابن مسعود أيضاً : «أثيروا القرآن فإن فيه خبر الأولين والآخرين». وذكر الروايتين أبو عبيد الهروى فى الغريبين ٣٠٦/١، ٣٠٧، وكذلك عبد اللطيف البغدادى فى المجرد للغة الحديث ٢٦٢/١ .

---

(١) زاد المعاد فى هدى خير العباد ٧١/١، ٧٢ - وانظر بقية كلامه ففيه تحقيق جيد .

ويتصل بالحديث الشريف أيضاً ماذكره المؤلف - فى أثناء الكلام على «آزر» أبى إبراهيم عليه السلام - من قوله ﷺ للنسوة اللائى خرجن لتشييع الجنازة «ارجعن مأزورات غير مأجورات»، والحديث أخرجه ابن ماجة فى سننه ٥٠٣/١ (باب ماجاء فى اتباع النساء الجنائز، من كتاب الجنائز)، و «مأزورات» اسم مفعول من الوزر، وهو الإثم، وقياسه: «موزورات» من وَزَرَ يَزِرُ، قال عز من قائل: (ولاتزر وازرة وزرَ أخرى) الأنعام ١٦٤، وغيرها من الكتاب العزيز، وجاء على الأصل فى كلام على رضى الله عنه: «إن صَبَرْتَ جرى عليك القَدَر وأنت مأجور، وإن جَزِعْتَ جرى عليك القدرُ وأنت مَوْزُور»[1] .

وإنما قال صلى الله عليه وسلم: «مأزورات» للازدواج بمأجورات، فقلب الواو هاهنا همزة، ليس قلبا صرفيا، على أنهما لغتان شائعتان مستعملتان، مثل أكد ووكد، والتأكيد والتوكيد، ولكنه قلب لغاية صوتية، هى مايسمونها الازدواج أو المزاوجة .

فتنظير المؤلف لتعاقب الهمزة والواو بهذا الحديث غير صحيح، وإنما ينظَّر بالشائع المطرد المنقاس، مثل أكد ووكد، وأُقِّتَتْ ووُقِّتَتْ،[2] ، ووجوه وأجُوه، ووشاح وإشاح، ووعاء وإعاء[3] .

والمزاوجة أو الازدواج ظاهرة صوتية، يراد بها الانسجام والتوافق الصوتى، وهذه الظاهرة سماعية، أى أنها مرتبطة بنصوص بعينها، مثل الحديث السابق، ومثل ماجاء فى حديث القبر «لادَرَيْتَ ولاتَلَيْتَ» وإنما هو: تَلَوْتَ. وإنما قلبوا الواو ياءً ليزدوج الكلام، وكذلك قولهم : «إنى لآتيه بالغَدايا والعَشايا» فجمعوا الغداة : غدايا، لتزدوج بالعشايا، وحقها أن تجمع على : غدوات. وكذلك قولهم: «الحِير العِين»، وإنما هى : الحُور .

وهذا كله قلب غير منقاس، ولذلك ذكره ابن قتيبة تحت عنوان :(باب شواذ التصريف) - أدب الكاتب ص ٦٠٠ .

خامساً : فى حديث المؤلف عن «إبراهيم» عليه السلام، خطَّأ المفسرين واللغويين

---

(١) نهاية الأرب للنويرى ١٦٧/٥، قاله على رضى الله عنه للأشعث بن قيس، يعزيه عن ابنه، في كلام بليغ شريف. لكنه جاء بالهمز «مأزور» فى التعازى للمدائنى ص ٦٧، والتعازى والمراثى للمبرد ص ٢٠٦- وتأمل حاشيته ففيها من نسخة: «موزور» - وشرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ١٩٢/١٩ .

(٢) قرأ أبو عمرو: (وإذا الرسل وُقِّتت) المرسلات ١١، السبعة لأبن مجاهد ص ٦٦٦ .

(٣) قرأ سعيد بن جبير : (ثم استخرجها من إعاء أخيه) يوسف ٧٦ ، المحتسب لابن جنى ٣٤٨/١ .

الذين ذهبوا إلى أن قوله تعالى: ﴿إن إبراهيم كان أمة﴾ النحل ١٢٠ : معناه الجامع لخصال الخير، ثم ذكر أن تفسير لفظ «أمة» بذلك لا يساعد عليه أصل المادة، ورأى من عند نفسه أن المعنى الدقيق لاسم إبراهيم هو : «إمام الناس» .

قلت: هذا الذى انتهى إليه المؤلف الفاضل باجتهاده واستخراجه هو ماقاله بلفظه الإمام اللغوىّ ابن فارس، المتوفى سنة ٣٩٥، فى كتابه الفذ: معجم مقاييس اللغة ٢٧/١، قال: «وقيل (إن إبراهيم كان أمة) أى إماماً يهتدى به» ، لكنى قلت من قبل إن المؤلف لم يستفد من الكتب الأولى. واللغة تؤخذ من كتب العربية كلها، أعنى من فنونها ومعارفها كلها، ومن كل ماكتبه أهل العلم، مادق منه وماجل، وقد كانت آفة بعض الذين كتبوا عن اللغة العربية أنهم التمسوها من كتب اللغة فقط [1].. وليس الطريق هنالك !

سادساً : ذكر المؤلف فى الفصل الثانى، قال : «ومن خصائص الاسم العلم أنه لايوصف إلا على الخَبَر أو على البدل، ولا يوصف على النعت، لأن النعت يُخَصِّص والاسم العلم متخصِّص بذات علميته، لايحتاج إلى مخصص. ثم استشهد للوصف على البدل بقوله تعالى : (الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين) فما بعد لفظ الجلالة كله مجرور علي البدل .

وهذا كلام خرج من باب الاجتهاد ليس غير، وقواعد النحو على خلافه، لأن النعت كما يخصص النكرة يوضح المعرفة التى منها الاسم العلم، مثال نعت المعرفة: جاء زيد التاجر، أو التاجر أبوه،فهذا توضيح للمعرفة، ومثال نعت النكرة : جاءنى رجل تاجر، أو تاجر أبوه، فهذا تخصيص للنكرة [2] .

أما إعراب (رب العالمين) فقد أعربها جمهور النحاة والمفسرين نعتاً للفظ الجلالة، لمجرد المدح، لا على التوضيح ولا على التخصيص الذى أراد المؤلف الفاضل أن يفر منه مع لفظ الجلالة، ولكن على إرادة مجرد المدح، وقد نبه على هذا أبو حيان، فقال: «الرحمن الرحيم... هما مع قوله: رب العالمين، صفات مدح، لأن ماقبلهما عَلَمٌ لم يعرض فى التسمية به اشتراكٌ فيخصَّص» [1] .

(١) وكذلك الذين كتبوا عن «النحو» التمسوه من كتب النحو فقط، وفى هذا مافيه. وقد كتبت فى ذلك كثيرا .

(٢) أوضح المسالك لابن هشام ٣٠٠/٣، وغيره من كتب النحو. على أن النعت قد يأتى لغير التوضيح والتخصيص، بأن يأتى لمجرد المدح أو الذم، أو التعميم أو ا لترحم، أو الإبهام، أو التوكيد كما هو مذكور في المطولات .

إذن قول المؤلف: «إن الاسم العلم متخصص بذاته» ليس على الإطلاق والتعميم، وإنما هو فقط فى حق المولى جلت صفاته «الله» المعبود بحق الذى لا شريك له.

ونعم ذكر بعض معربى القرآن أن «رب» يجر على النعت لله، أو البدل منه [٢]، لكن الأكثر على أنه نعت لمجرد المدح، كما ذكرت .

سابعاً : عرض المؤلف فى أثناء حديثه عن «يوسف» عليه السلام لإعراب قوله تعالى: (ماهذا بشراً) يوسف ٣١، فقال فى حاشيته: «تنصب «بشرا» هنا على نزع الخافض، وهو الباء المؤكدة للنفى، فالأصل: ماهذا ببشر! باتَّة قاطعة، والقاعدة فى المجرور بحرف أنك إن نزعت حرف الجر منه نصب. وهذا يغنيك عن تعللات علماء النحو فى هذه الآية، ومنهم أئمة، الذين أجهدوا أنفسهم وأجهدوا تلاميذهم، فى جمع الشواهد على أن من العرب من يجعل لـ «ما» حكم ليس» .

قلت: إن إيراد الكلام على هذا النحو يوحى للقارىء غير المتخصص: أن هذا الإعراب إنما خرج من كِيس المؤلف الفاضل، وأنه لم يسبقه إليه سابق، وآية ذلك أسلوب التعميم فى قوله: «وهذا يغنيك عن تعللات علماء النحو فى هذه الآية» .

وهذا الذى ذكره المؤلف ونصره إنما هو قول الكوفيين- الفريق الثانى من علماء النحو- وهذا موضع من مواضع الخلاف بينهم وبين البصريين. وقد ذكره أبو جعفر النحاس، وأبو البركات الأنبارى وغيرهما من النحاة [٣] .



وتبقى بعد ذلك كلمة :

- لقد قلت من قبل إن أسلوب هذا الكاتب عذبٌ مصَفًّى، واللهم نعم ! لكن شاب هذا الصفاءَ، وعكر هذه العذوبةَ بعضُ أَوْشابٍ [٤] مما يخالط الأساليب الشريفة، تتسلل إليها لِواذًا، وكأنها العدوى المهلكة، تتخلل ذرات الهواء، لا تحس بها إلا وقد داهمتْك فى

---

(١) البحر المحيط ١ / ١٩ .

(٢) التبيان فى إعراب القرآن للعكبرى ٥/١، والدر المصون فى علوم الكتاب المكنون للسَّمين الحلبى ١ / ٤٥ .

(٣) راجع إعراب القرآن للنحاس ١٣٩/٢، والإنصاف فى مسائل الخلاف للأنبارى ١٦٥/١، والتبيين عن مذاهب النحويين البصريين والكوفيين للعكبرى ص ٣٢٤، ثم انظر معانى القرآن لأبى زكريا الفراء الكوفى ٤٢/٢ .

(٤) هذا وصف علمى ، وليس ذما- إن شاء الله - وهو بلاء يصيبنا جميعا فيما نعالج من أساليب الكتابة والبيان، بتأثير مايغشانا من طوارق ومصائب مانقرأ ومانسمع، والملجأ الله ! .

خلايا بدنك– عافاك الله– فلا تستطيع لها دفعاً ولا مَردًا .

ومن ذلك ماجاء فى كلام المؤلف الفاضل من هذا التركيب «موسيقى القرآن» وهو تركيب رِخو ليِّن، لايليق بجلال القرآن وبهائه، ولا تقل: لا بأس علينا من تقارض مصطلحات العلوم، لأن فيه إثراء للغة، لا تقل هذا ولاتغتر به، لأنه مدخل لبلاء عظيم، ولو فتحنا هذا الباب لفسد علينا كل شىء، فإن للكلام حدوداً ومعالم ينتهى إليها، أنَسيتَ أن منا من قال : إن القرآن رسم لوحة صفتها كَيْتَ وكَيْتَ؟ فجعل المولى عز وجل فناناً تشكيلياً يحمل فرشاة يغمسها فى ألوان، تعالى الله عما يقولون علوا كبيراً .

لقد غيروا «النظم القرآنى واتساقه» فجعلوه «موسيقى القرآن» ثم غيروا «العَرُوض» فجعلوه «موسيقى الشعر» ثم غيروا «علم الصَّرف» فسموه «علم الصوتيات» [1] وثَمّ وثَمّ وثَمّ، وبالله نستدفع البلايا ! .



وبعد :

فهذا بحثٌ جيد جداً، احتشد له مؤلفه احتشاداً، وأحكم بناءه إحكاماً، ولم يبق إلاّ أن أُخْلى بينك وبينه، لا أجاذبك الحكم عليه أو الرضا عنه، فهذا لك، أما أنا فإنى أرفعه وأمدحه، وهذا لى، لكنى من باب النصح للمسلمين والبر بهم: أوصيك أيها القارىء العزيز بتأمل هذا الكتاب ومدارسته، فخلِّ له سَرْبَك، وشُدَّ عليه يد الضَّنانة، ثم أغْرِ به من حولك. جعلك الله لكل خير سببا، وأذاقك حلاوة الإنْصاف، وثبَّت نِعَمَه لديك، وأوزعك شكرها. وجزى الله مؤلف الكتاب خير مايُجزى به مسلمٌ يوقر كتابه، ويكشف عن مظاهر الكمال والجلال فيه، وجعل كل ماقدمه من جهدٍ واجتهاد فى موازينه «يوم تجد كل نفس ماعملت من خيرٍ مُحْضَرا» .

والحمد لله فى الأولى والآخرة ...

---

(١) وإن تعجب فعجبٌ أن هذه التسمية الآن بكلية اللغة العربية بالأزهر الشريف! ورحم الله الشيخ محمد على النجار، والشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد، والشيخ ابراهيم حمروش، والشيخ محمد عبد الخالق عضيمة، شيوخ هذه الكلية الأجلاء .

بسم الله الرحمن الرحيم

تصـــــدير

القرآن كلام الله عز وجل مُعجِز للخلق أجمعين ، لا يأتون بمثله ، هكذا وصفه مُنْزِلُه جل شأنه وهكذا هو ، وتلك هى عقيدة المسلم .

وعقيدةُ المسلم فى هذا الإعجاز مترتبةٌ ابتداءً على إيمانه بأن القرآن كلامٌ من الله عز وجل ، خطابٌ لخلقه ، نزل به الروحُ الأمين على قلب محمد صلى الله عليه وسلم . فهو إذن فعلٌ من أفعاله عز وجل ، وخلقٌ من خلقه تبارك وتعالى . والخالقُ لا يحاكيه مخلوقٌ فى قوله وفعله وصنعه .

والمسلمُ أيضا - عربياً وغيرَ عربى - يُسَلِّمُ بإعجاز القرآن تصديقا لقول الحق سبحانه :

﴿ قل لئنِ اجتمعَتِ الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآنِ لايأتون بمثله ولو كان بعضُهُم لبعضٍ ظهيراً ﴾ (الإسراء : ٨٨)

﴿ قل لو كان البحرُ مداداً لكلماتِ ربى لنَفِدَ البحرُ قبلَ أن تَنْفَدَ كلماتُ ربى ولو جئنا بمثله مدداً ﴾ (الكهف : ١٠٩)

﴿ ولو أن ما فِى الأرضِ مِنْ شجرةٍ أقلامٌ والبحرُ يمدُّه من بعدِهِ سبعَةُ أبْحرٍ ما نَفِدَتْ كلماتُ اللهِ إن اللهَ عزيزٌ حكيمٌ ﴾ (لقمان : ٢٧) .

وقد مضى على نزول القرآن أربعةَ عشـرَ قرنا دون أن ينهض لهـذا التحدى أحد ، وما كان لأحدٍ أن يفعلَ من بعد ، وقد عَجَزَ معاصروه المنكرون عليه وهم أصحابُ اللغة .

وليس القرآنُ معجزا بلغته فقط ، أى بمحض لفظه وعبارته ، وإن كان قمةَ الاعجازِ اللغوى لأهل العربية فى كل العصور ، مسلمهم وغير مسلمهم على السواء ، ولكنه مُعجزٌ للناطقين بكل اللغات ، لأنه معجز بموضوعه . معجز بمعانيه ، معجز

بهيمنته على ما سبقه من الكتب ، وكلها غير عربى ، يُصَدِّقُها فَتَصدُق ، ويخالفُها فيصدق هُوَ .

والقرآنُ معجزٌ أيضا بقائله ، أى بصدوره مباشرة عن الله تبارك وتعالى ، فهو سبحانه فى كل القرآن القائلُ المخَاطِبُ المحَدِّثُ الراوى . وليس لهذا نظيرٌ فى الكتب السابقة التى بين يديك : فيها من قول الله ، وفيها من غير قول الله . فيها من قول النبى أو الرسول وأكثرها حديث الرواة عن النبى أو الرسول . إنها أشبه بالتواريخ والسير ، العهدة فيها على الراوى ، لا على النبى أو الرسول . يستبين لك هذا مباشرة من مجرد القراءة فى تلك الكتب ، غيرَ محتاجٍ فى إثباته إلى دليل من خارجها ، بل إن أصحاب تلك الكتب لا يجادلونك فى هذا ، وإنما يُسلمونه : التوراة كتابةُ الربّانيين والأحبار بعد قرون من وفاة موسى عليه السلام ، والأناجيل منسوبة إلى الحواريين والآخذين عنهم بعد رفع المسيح عليه السلام . وهم يُسَلمونه أيضا لأنه بَيِّنٌ من عبارة الكاتب ، الذى يقول لك فى التوراة (كتاب موسى) : وقال الله لموسى ... وذهب موسى ... ومات موسى... الخ ، كما يقول لك فى الإنجيل (كتاب عيسى) : وتهلل يسوع بالروح ... وانطلق يسوع ... وعَلَّمَهُم أن يقولوا فى صلواتهم ... الخ . وهذا أشبه بالسيرة النبوية وكتب الحديث ، لا تُسَلِّمُ إلاّ بعد تمحيص وتدقيق . وأنت لا تجد فى القرآن عبارات من مثل : "جاء محمد " و " ذهب محمد " صلوات الله عليه . تجد مثل هذا فى السيرة النبوية ، ولا تجده فى القرآن . ولكن أصحاب الكتب السابقة يؤمنون بأن كتبة التوراة والأناجيل كتبوا ما كتبوه بإلهام من الله وبوحى من الروح القدس . وأنت قد تُسَلِّمُ بالوحى للنبى ، ولكنك لا تسلمه قط للرواة . فهم لم يَدَّعوه ، بل أنت تقرأ فى " إنجيل لوقا " أن الكاتب يقول لك إنه لم يكتب ما كتب إلا بعد جمع وتمحيص وتدقيق .

وقد أراد الله للقرآن أن يكون المعجزة الكبرى لخاتم النبيين . وقد أرادها عز وجل معجزةً خاتمة خالدة ، تليق بعموم الرسالة فى المكان وخلودها فى الزمان ، فهى رسـالةٌ لكل الناس فى كل العصور. كانت معجزات الأنبياء السابقين معجزات مرئية، يعاينها من شهدها ، فهى حجة على الشاهد وليست حجة على الغائب . الحَـدَثُ المُعايَنُ ينقضى بتمـام حدوثه فيطويه التاريخ . أنت لا تسـتطيع أن تقـول : "ها هنا انشق البحر لموسى " ، فقد عاد البحرُ كما كان . ولا تستطيع أن تقول :" هُوَ ذا

لَعَازَرُ الذى مات بالأمس قد أحياه المسيح "، فقد مات لَعَازَرُ من بعد ، ورفع المسيح .
أما المعجزة السمعية ، أما القولُ الفصل ، أما الآيةُ من القرآن ، فهى الشاهد الناطق أبد الدهر . فالحدث ينقضى بتمام حدوثه ، والكلمة تولد بالفراغ من نطقها، فلا تموت.
وقد أثبت الله عز وجل للقرآن صفة المعجزة الشافية الكافية ، فأنكر على من سألوا محمدا صلى الله عليه وسلم معجزةً مرئية كمعجزات من سبقوه ، ولم يكتفوا بالقرآن .
قال عز وجل : { **أولَمْ يَكْفِهِم أنَّا أنزلنا عليك الكتابَ يُتْلى عليهم ؟** } ﴿العنكبوت : ٥١﴾ .

أراد الله عز وجل للقرآن ـ والحق من أسمائه جل وعلا ـ أن يكون دالا بذاته على مصدره ، فكان القرآنُ محضَ الحق ، نزل من الحق بالحق : { **وبالحق أنزلناهُ ، وبالحق نزل** } ﴿الإسراء : ١٠٥﴾ ، ليكون لنبيه محمدٍ صلى الله عليه وسلم ، فى كل العصور ، الحُجَّةَ الساطعةَ القاطعةَ الخالدةَ ، ولا أقطع من كلمة الحق ، ولا أبقى .

□□□

والمسلم ، عربيا وغير عربى ، الذى يسلم ابتداء بإعجاز القرآن لمجرد إيمانه بصدوره عن الخالق جل وعلا ، مأمورٌ أيضا بالتأمل فى إعجاز الخالق فيما خلق .
قال عز وجل : { **أولم ينظروا فى ملكوتِ السمواتِ والأرض وما خلق الله من شىء؟** } ﴿الأعراف : ١٨٥﴾ . وقال أيضا : { **ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ، فارجِع البصَرَ هل ترى من فطور ؟ ثم ارجِع البصر كرتين ينقلب إليك البصرُ خاسئاً وهو حسير** } ﴿الملك : ٣ : ٤﴾ .
وهذا من دقيق القرآن : خسأ البصرُ وحسَرَ ، أى كَلَّ وأعْيَى ، فارتد منعكسا فى القلب ، فيتطامن القلب ويخشع ، قد غَشِيَتهُ السكينة ، وتَغَشَّاهُ الجلال ، وانقلب البصرُ بصيرة . تلك هى لحظةُ الإيمان الخالص ، واليقين المطلق . إنه ليس إدراكَ فهمٍ ، فهو قد آمَنَ من قبل ، وإنما هو إدراكُ حضور . تلك اللحظة هى التى طلبها ابراهيم عليه السلام من ربه: {**وإذ قال ابراهيمُ ربِّ أرنى كيف تحيى الموتى ، قال أولم تؤمنْ ؟ قال بلى ، ولكن ليطمئن قلبى** } ﴿البقرة : ٢٦٠﴾ أى يتطامن، يستضىءُ بنور الله ، ويَسْتَروِحُ جلال الله ، ويغيب فى كَنَف الله . تلك هى لحظة الوجود الحق ، وتلك فى هذه الدنيا هى جَنَّةُ المؤمن : إنه فى هذه اللحظة دانٍ

قريب ، فى حضرة ذى الجلال . لم يَدْنُ هُوَ ، وإنما تفضل المنعمُ فأدناه . وهو عز وجل لا يتجلى لخلقه بنور ذاته ، إذن لصَعِقُوا ، ولكنه عز وجل يتجلى لهم فى دقيق خَلْقِه ، ولطيف صنعه ، وحكيم إبداعه . قال صلى الله عليه وسلم : " تَفَكَّروا فى خَلْقِ الله ، ولا تفكروا فى ذات الله " .

والتفكر فى خلق الله ، وفى إعجاز الله ، عبادةُ ذِكْرٍ وتسبيح : { **إن فى خلقِ السموات والأرضِ واختلافِ الليلِ والنهارِ لآياتٍ لأولى الألباب . الذين يذكرون اللهَ قياماً وقُعُوداً وعلى جُنُوبِهِم ويتفكرون فى خلقِ السمواتِ والأرض ، ربنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلا ، سبحانك !** } (آل عمران : ١٩٠ : ١٩١) .

□□□

والقارىء فى كتاب الله ، المتدبر فى آى القرآن ، قارىءٌ فى كتاب الكون كله، ماكان ويكون، دَقَّ أو عَظُم ، تَعَلَّقَ بأذيال النجوم ، أو تَخَفَّى فى دبيب النفْس .

إنه القارىءُ السامعُ الرائى .

وَغَيْرُهُ أعمى وأصَمّ .

{ **أفلا يتدبرونَ القرآنَ ، أم على قلوبٍ أقفالها** } (محمد : ٢٤) .

□□□

وقد شُغِلَ المسلمون فى كل العصور بتدبر القرآن ، يستظهرون معانيه ، ويستجْلون وجوه إعجازه ، فلم يستقصوه ، ولن يستقصوه حتى تقوم الساعة ، فالإعجازُ مستمر ، والقرآنُ لكل القرون ، لا يَجِدُّ للخليقة علمٌ إلا وقد سبقت إليه بالقولِ الفصل فى القرآنِ إشارة .

وهذا هو الإعجازُ الأكبر : { **سنريهم آياتِنا فى الآفاقِ وفى أنفُسِهِم ، حتى يتبين لهم أنه الحق** } (فصلت : ٥٣) .

□□□

وهذا وجهٌ من وجوه إعجازِ القرآنِ جديدٌ ، لم أقع عليه فيما كتب المفسرون ، أردتُ وقد هدانى الله إليه بفضل منه ونعمة أن أُشْرِكَكَ معىَ فيه أيها القارىءُ العزيز .

إن تَكُ مسلما ، فَسَبِّح . وإن تَكُ غيرَ مسلمٍ فتأمل . والله يهدى إليه من ينيب .

□□□

اللهم يامُنْزِلَ الكتاب ، خُذْ بيدى : أَنِرْ بصيرتى ، وسَدِّد قلمى ، أرْزُقْنِى الصواب ، واجنُبنِى الزلل ، لك وحدَكَ الفضلُ والمَنُّ ، ومنك وبك التوفيق .

والحمد لله رب العالمين

مقـــــدمة

يتوقف الإيمان بصدق الرسالة ـ أى رسالة ـ على سبق الإيمان بصدق الرسول . فأنت لا تستطيع مثلا تكذيب التوراة (كتاب موسى عليه السلام) ، إلا وقد كذبت موسى من قبل ، شأن فرعون وقومه ، فى دعواه الوحى من الله تبارك وتعالى ، ولا تستطيع تكذيب الإنجيل (كتاب عيسى عليه السلام) إلا وقد كذبت عيسى من قبل فى دعواه البلاغ عن ربه عز وجل ، شأن آباء اليهود فى عصر المسيح . وأنت لا تستطيع بالمثل إنكار الوحى على القرآن (الكتاب المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم) إلا وقد كذبت محمدا من قبل فى دعواه النبوة والرسالة .

المكذب بالرسالة مكذبٌ أصلا بالرسول ، والمكذب بالرسول مكذبٌ ضمنا بالرسالة . عكس هذا ، المصدق بالرسول ، المُسَلِّمُ بأن هذا الوحى من الله ، فهو لا يستدرك على رسل الله ، وإنما يأخذ ما يلقون إليه من رسالات ربه أَخْذَ المذْعِنِ المتَّبِعْ ، المنصت الواعى ، يستمع القول فيتبع أحسنه ، شاكرا أَنْعُمَ الله أن حباه بالمنة الكبرى فأسفر إليه يدعوه ، ويخاطبه عن طريق رسله بكلام .

□□□

أما " أهل الكتاب " ، أصحاب التوراة والإنجيل ، فقد صدَّق اليهودُ بموسى فآمنوا بالتوراة ، وصدَّق النصارى بعيسى وموسى فآمنوا بالتوراة والإنجيل . أما المسلمون - أصحاب القرآن - فقد صدقوا بمحمد خاتم النبيين المصدق لما بين يديه من كتـاب ، صلوات الله وسـلامه عليه وعلى رسله أجمعين ، فآمـنوا بالتوراة والإنجيل والقرآن .

والتصديق والتكذيب هنا أو هناك يدوران على التسليم بالوحى للرسول،أو إنكار الوحى على الرسول : سَلَّمَ اليهودُ بالوحى لموسى وأنكروه على عيسى ومحمد ، وسَلَّمَ النصارى بالوحى لعيسى وموسى وأنكروه على محمد ، صلوات الله عليهم أجمعين ، وسَلَّمَ المسلمون بالوحى لرسل الله جميعا لا يفرقون بين أحد من رسله .

لماذا آمنت طائفةٌ ببعضٍ وكفرت ببعض ؟ لماذا يُكَذِّبُ السابقُ اللاحِقَ ، والموحِي واحد جل جلاله ؟!

هل يَرَوْنَ أن رسالات الله خُتمت بنبيهم ؟ فأين النصُّ [1] على مثل هذا فى كتبهم كما تجده فى القرآن على من خُتمت به النبوةُ والرسالة ؟ .

أم اكتفوا بكلمة الله على رسولهم فلم تعد بهم حاجة إلى من يليه ؟ فهل أمروا بذلك ، أم أمروا بعكسه ؟ كيف إذن توالت النبواتُ تَتْرَى على بنى إسرائيل من بعد موسى ؟ ولماذا آمن اليهود لموسى وقد آمنوا من قبل لكل من سبقوه ، من نوحٍ إلى إبراهيمَ وإسحاق ويعقوبَ وبنيه ؟ وكيف آمن النصارى لعيسى وقد سبقه موسى بالتوراة فيها هُدَىً ونور ؟ .

أَم أن التسليم بالوحى للنبى يحتاج إلى معجزة بيِّنة يُجريها الله على يديه ، ويذعن لها المكابرُ والمعاند ؟

فهل أكبرُ من انشقاق البحر لموسى ، يمشى فيه يَبَسًا ، ومن ورائه فرعونُ لا يذعن للآية الكبرى حتى ينطبق البحرُ عليه ؟

تلك معجزةٌ كونيةٌ عظمى ، لا يكابر فيها ممن عاينها إلا هالك : لم يَضْحَلِ البحرُ لموسى يخوضُ فى مائه ، حتى يسوغ احتجاجُ المكابر بمدٍ أو جزر ، وإنما انحسر البحر بآخر قطرة فى باطن قاعه عن يابسةٍ صلد (طه : ٤٠) ، يجتازها موسى وقومه ، ويتبعهم فرعون ، تَدْرُجُ عليها عجلاتُه وتَدُقُّها سنابكُ خيله .

وهل أبْيَنُ من انشقاق القبر عن " لَعَازَر " ، قد أحياه الله لعيسى ، فيخرج على أعين الناس يَدِبُّ على قدميه ، مُدرجا فى أكفانه ؟

كلتا المعجزتين أعظمُ من أختها ، لا يستطيعهما إلا ربُّ الكونِ ومحيى الموتى : لم يُحْيِ عيسى الميت ، كما لم يشق موسى البحر ، وإنما صنع هذا ربُّ موسى وعيسى ، وربُّ البحر وربُّ لَعَازَر . إنه سبحانه لا يحتاج فى شق البحر إلى ضربةٍ من عصا موسى ، ولا يحتاج فى إحياء لَعَازَر إلى عيسى يناديه : لعازر ! هَلُمَّ خارجاً ! ولكنه عز وجل قَرَنَ هذا بذاك ، كى يستبين للمكابر المعاند أن الذى يخاطِبُ البحرَ

---

(١) النص فى القرآن على خاتم النبيين {الأحزاب :٤٠} نصٌ باتٌ أيضا على أنه صلى الله عليه وسلم خاتم الرسل . ولا يكون الرسول إلا نبيا ، وليس كل نبى رسولا ، فالرسول أخص من النبى ، ومن خُتمت به النبوة فقد خُتمت به النبوةُ والرسالة .

بموسى ، والذى يخاطِبُ لعازر بعيسى ، جماداً وأمواتاً ، هو الذى يخاطبه بموسى وعيسى ، لهما فاسمعوا ، كما سَمِعَ البحرُ وسمع لعازر .

ليست الآية للنبى تكريما وتشريفا ، وإنما هى خاتم الرسالة والسفارة .

فما ظنك بمن يعاينون ولا يؤمنون ؟ ما ظنك بفرعون ، لا يأتيه موسى بآية إلا هى أكبر من أختها ؟ وما ظنك بيهود جحدوا عيسى ، يمشى بينهم لعازر ، الميت الحى ؟

وما بال قوم آمنوا قبل أن يعاينوا ؟ ما بال ذلك النفر من قوم موسى الذين آمنوا له أول من آمن ، لم يروا معه أول ما رأى النار المقدسة فى البقعة المباركة من الشجرة ، ولم يسمعوا الله يكلمه جهرة ، أو يشهدوا معه يدا سمراء تخرج من جيبه بيضاء من غير سوء ، وعصا ككل العِصِيِّ تنقلب ثعبانا لتعود سيرتها الأولى ؟

وما شأن أوائل الحواريين الذين آمنوا لعيسى أول من آمن ، أومَأ لهم فاتبعوه، من قبل أن تُجرى على يديه معجزة ولا آية ؟

ماسر الإيمان للرسول ؟ أهو نور يقذف فى القلب ؟ بل المكذب بالرسول مكذب فى الأصل بمن أرسله .

لا يؤمنن أحد بالله ، ثم يحيل عليه أن يصطفى من عباده من يشاء بشرا رسولا .

إن شككت فتثبت ، فلن تعدم فى الوحى الذى ألقى إليك آية .

□□□

على أن من الناس من ينكر مبدأ الوحى جملة ، وهم أنواع : فريق غير مُؤَلِّـه البتة ، ينكر الخالق ويؤمن بالمخلوق ، أى يؤمن بأن هذا الكون بكل ما فيه موجود ليس له موجد ، منظوم ليس له ناظم ، محكوم بغير مُسَخِّر ، مرزوق بغير مدبِّر ، ولا وحى ثَم ، لأنه ليس ثَم البتة من إله .

ولا منطق فى هذا القول ولا علم : الموجود بذاته لا يحتاج إلى غيره فى استمرار وجوده ، ولا تحكم وجوده قوانين من خارجه . الموجود بذاته لا قَبْل له ولا بَعْد، وإلا فقد كان بعد أن لم يكن ، أو وجد ليزول . الموجود بذاته لا يتبعض ولا يتذرى ، وإلا فأى أبعاضِه الجامع لشتاته ، الحافظ لمتفرقه ؟ وهل فى آحاد الكائنات جرم لا يتبعض ولا يتذرى ، سواء أكان نوية أم خلية ، أم كان بعض أجرام الفلك ؟

يزعم غير المؤله أن هذا الكون لا يحتاج فى تبرير وجوده إلى علة إيجاد من خارجه ، فإن حاججته فحججته ، ظن أنه أفحمك بسذاجته : إذا كان لا بد لهذا الكون من موجد ، فمن ذا الذى أوجده ؟ يجعل الموجود بذاته كالموجود بغيره ، فيشترط علة للخالق ، وهو لم يشترط علة للمخلوق ، فصار محجوجا بذات منطقه . تعالى الواحد الأحد : الواحد لا إله معه ، الأحد فى ذاته لا يتبعض ولا ينقسم . تلك الأحدية هى أدل صفات الموجود بذاته ، الغنى عما سواه ، وتلك بعض معانى قوله عز وجل متحدثا عن نفسه : { **قل هو الله أحد** } ﴿ الإخلاص : ١ ﴾ .

بل الكون دال بذاته على مبدعه ومدبره . ولو أنصف طالبو المعجزات لأدركوا أنهم يسبحون فى بحر إعجاز دائم ، ولما كانت بهم إلى الرسل من حاجة ، لولا فضل من الله ونعمة ، يذكر الناسى ، فينتبه الغافل ، ويزدجر العابث اللاهى .

ثمة أيضا فريق ثان يتفلسف فيتكىء فى كرسيه ويقول لك : نعم ، لهذا الكون موجد ، نعتبره ضرورة منطقية تفرض نفسها علة للإيجاد من خارج الزمان والمكان . إنه عندنا مبدئ هذا الوجود ، أوجد هذا الكون وبث فيه قوانينه ، ثم تركه وانصرف لبعض شأنه ، لا حاجة به إلينا ، ولا حاجة بنا إليه ، فالكون آلة صنعها صانع ما ، وأدارها فدارت، ولا تزال تدور. وهى مبرمجة بقوانين مبثوثة فى هذا الكون منذ بدأ، لا يتدخل فيها أحد إلا انفرط نظامه ، ولا يملك الصانع نفسه تعديلها إلا بعد أن يوقف الآلة عن الدوران . ونحن نعيش هذا الكون مادام لنا، ومادمنا فيه لا يعنينا ما يكون من بعد ، فلن نشـــهد النهاية ، إن كان ثَمَّ نهـــاية . فما معنى الوحى إذن ؟

ولا منطق أيضا فى هذا القول ولا علم : الصانع رقيب حافظ. وفى هذا الكون طائع ، ذلول ، مسخر ، وفيه أيضا عاص ، مارد ، متأب، وكلاهما مقهور. يضع هذا القائل نفسه خارج الكون ، يشهد له بالصنعة ، وينبهر بالنظام ، وينسى نفسه ، وفى خلقه هو نفســه الشاهد البين : ألا يعتلّ منه عضو فيطببه ؟ ألا تهيج به نزوة فيكبتهـا ؟ ألا يُبْتر له ساق قاحت أو غُدَّة تورَّمت ؟ ألا ينهى النفس عن الهــوى إن غوت ؟ ألا يؤدب ابنا عصى؟ ألا يرد إلى سواء الصراط مجرما عن الصراط خرج ؟

على أن قضاء الله فى كونه نافذ ، واعتلال هذا القائل بثبات القوانين الكونية مقبول ، والمعجزة تدل عليه ولا تنفيه : ليست المعجزة تعطيلا لقوانين الكون وإلا لانفرط نظامه، وليست مجرد تعطيل لقانون كونى ما فى نقطة ما من الزمان والمكان

مع ثباته فى غيرها : انشق البحر لموسى فى موضع ما ، برهة ما ، ثم عاد كما كان ، وانشق قبر ما ، عن " لعازر " بعينه ، الذى عاد فمات . ليست المعجزة سلبا محضا يشُل القانون الكونى أو يعادله فيبطله ، ولكنها " فعل محض " : لم تخمد جاذبية الأرض فينداح الماء عن موضعه ، ولكنه جُبِذ ورفع ، كل فرق كالطود العظيم ، ولم ينهدم القبر فوق لعازر ، وإنما انشق عنه . لم يسكن النفَس فى صدر لعازر ، وانما أعيد اليه . المعجزة فعل محض ، والقوانين الكونية قوى مأمورة ، فى ثباتها آية ، وفى قهرها آية ، وفى خرقها دليل الحضور ، ودليل الهيمنة ، ودليل القدرة .

لمثل هذا القائل تُنْصَبُ الآياتُ والنُّذُر ، { **وما نرسِلُ بالآياتِ إلا تخويفاً** } (الاسراء : ٥٩) .

أما الفريق الثالث ، فهو فريق متعالم ، ينكر الوحى جملة لأنه ينكر من منطلق " علمى " أن يكون للطبيعة " فوق " . تلك عنده تهاويم وخيالات ، ومن ثم فلا وجود عنده إلا لما هو مادى تدركه الحواس . أما إن كان ثمة غير مادى وغير محسوس لم نكتشفه بعد ، فلن ينكشف لنا ، لأن الصلة بين المادى وغير المادى مقطوعة ، لا يتواصلان ، ولا يؤثر هذا فى ذاك لاختلاف الطبيعة والتكوين فالوحى إذن محال .

وقد أفلس هذا الفريق "علميا " منذ قرن فى المعامل والمختبرات ، وكان جديرا به أن يفلس منذ قرون لولا تفيهق الآخذين عن فلاسفة اليونان : انحلت نواة المادة إلى " طاقة " بحت ، أى أن المادة إن فنيت تلد الطاقة . فالمادة إذن طاقة " تشيأت " ، أى صارت " بالمشيئة " شيئا ماديا ما . وليس صحيحا ، بل العكس هو الصحيح الثابت المشاهد المختبر ، ما يقال من أن غير المادى لا يعمل فى المادى ، بل المادى لا يتأثر إلا بغير المادى ، أى بالطاقة . والطاقة قوة ، والقوة هى تعريفنا القاصر لفعل غير مسمى الفاعل ، نلمس فعله ، ولا نلمسه هو . ليس المادى المتشيىء هو وحده الموجود ، وإنما كان قبل أن يتشيأ هو عين الوجود ، أى من أمر الله : { **إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقولَ له كُنْ فيكون** } (يس : ٨٢) .

لماذا أعضلت " مسألة الوحى " على هذا الجاهل المتعالم ، يدعى " العلمية " ولا يتابع كشوف العلم الحديث ؟

لماذا يَعجَب " للوحى " ولله المثل الأعلى ، ولا يعجب لرسائل صوتية أو مرئية تنتقل إليه عبر مويجات أثير تسبح فى أجواء الفضاء ؟

والمويجات ـ وقد علمت ـ طاقة .

أما إن تعمقت ، فقد علمت أن ذرات المادة ـ أية مادة ـ ليست بمادة ، وإنما هى فحسب مجموعات قوى ومقاومات ، رتبت على نسق ما ، وعدد ما ، لا تفترق مادة عن مادة إلا بهذا العدد وهذا الترتيب ، ذهبا كانت أو حديدا .

إنها حتى فى صورتها المادية طاقة .

انهدمت " المادية " على رؤوس أصحابها ، فهل بقيت للمتنطع حجة ؟

فى تفجير الذرة آية .

□□□

أما المؤمنون بالله ، فهم يسلمون بوحى الله على رسله ، ولكنهم يطلبون الآية .

ومن يطلب الآية فقد لزمته الآية .

ثمة من يطلبون الآيات تعجيزا ، فإن جاءتهم الآيات كفروا بها : { **فى قلوبهم مرضٌ فزادَهُمُ اللهُ مرضاً** } (البقرة : ١٠) .

وثمة من يطلبون الآيات تصديقا ، فلما جاءتهم الآيات زادتهم الآيات إيمانا: { **ويزيدُ اللهُ الذين اهتدَوا هدى** } (مريم : ٧٦).

ومن الناس أيضا من يستجيبون للرسول لحظة يدعوهم ، ولم يروا الآية : إنهم نواة الدعوة ، ومعدن الرسالة . أولئك يُقذف الإيمان فى قلوبهم وكأنه وحى يوحى ، كما قال عز وجل فى شأن الحواريين : { **وإذْ أوحَيْتُ إلى الحواريينَ أن آمنوا بِى وبرسُولِى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون** } (المائدة : ١١١) .

ربما طلبوا الآية بعد ذلك ، ولكنهم يطلبونها تصديقا وتثبيتا ، ثم يكونون عليها من الشاهدين ، كما قال الحواريون عندما سألوا الله مائدة من السماء على يد عيسى : { **قالوا نريد أن نأكلَ منها وتطمئنَّ قلوبنا ونعلَمَ أن قد صَدَقْتَنَا ونكونَ عليها من الشاهدين** } (المائدة : ١١٣) .

طلبوا الآية فَلَزِمَتْهمُ الآية ، لا عُذرَ من بعدها ولا معذرة ، كما تجد فى قوله عز وجل لحظة نزول المائدة من السماء : { **قال اللهُ إنى مُنَزِّلها عليكم فمن يكفر بعدُ منكم فإنى أعذبُهُ عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمينَ** } (المائدة : ١١٥)

لزِمَت المعجزةُ من طَلَبَها ومن عاينها .

وبقى التصديق بالمعجزات امتحانا لصدق إيمان من لم يطلب ولم يعاين ، شهد عصر الرسالة ، أو جاء بعد من شهدوه .

وهو امتحان عسير لمن لم يشهد ولم يعاين .

حتى جاء رحمة الله للعالمين ، محمد صلى الله عليه وسلم ، بالآية الدائمة التى يستوى فيها الشاهد والغائب ، فلزمت الخلق أجمعين حتى قيام الساعة .

{ فَبِأىِّ حديثٍ بعدَه يؤمنون ؟ } (المرسلات : ٥٠) .

ليس بعد القرآن آية .

□□□

لم يمتحن الله عز وجل الناس بالمعجزات على يدى خاتم النبيين ، وإنما امتحنهم على يديه بالحق : الصدق والتصديق .

لم يكن صلى الله عليه وسلم يصنع الآيات ، وإنما كان يتلوها .

حتى معجزته الكونية الكبرى ، رحلته ما بين مكة وبيت المقدس إلى سدرة المنتهى فى مدة من الليل ، لم تكن معجزة على أعين الناس ، وإنما كانت معجزة بينه وبين ربه ، ليريه هو من آياته الكبرى .

أراد الله لختام رسالاته الإعجاز الدائم ، فاختار له " الكلمة " . والكلمة تسمعُها ، وتتصفحُها ، وتعود إليها : إنها معك فى كل حين ، تدوى فى أذنك ، ماثلة فى سمعك . تستطيع أن تقول : لا أومن لأننى لم أر موسى يشق البحر ، ولم أر عيسى يحيى الميت . ولكنك لا تستطيع أن تقول : لا أومن لأننى لم أر محمدا يتلو هذا القرآن ، فهذا هو القرآن أمامك ، لا شأن لك بمن قاله ، اسمعه ، تصفحه ، امتحنه ! إنه الحق ، ومن الحق نزل .

استجاب الله بمحمد دعوة أبيه إبراهيم عليهما أزكى الصلاة وأتم التسليم :

{ ربنا وابعثْ فيهِم رسولا منهم يتلو عليهِم آياتِكَ } (البقرة : ١٢٩) .

سأل إبراهيم ربه أن يبعث فى المؤمنين رسولا لا يصنع الآيات ، وإنما يتلوها .

ولأمر ما سمى الله الجملة من القرآن آية : { المر ، تلكَ آياتُ الكتابِ والذى أنزِل إليكَ من ربِّكَ الحق } (الرعد : ١) .

هذا " الحق " هو لب إعجاز القرآن ومادته : لا تقرأ فى القرآن إلا حقا ، ولا تجد فيه إلا الحق أخبر عنه أو أنبأ به ، ما كان وما يكون . إنه الصادق المصدوق فى كل حال .

والحق المطلق يقتضى العلم المحيط ، علم المبدأ والمنتهى ، عِلْمُ من لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات والأرض ، علم من هو بكل خلق عليم .

وليس إلا الحق جل جلاله ، بكل شىء عليم .

ولكن لماذا خاطب القرآن الناس بما لم يحيطوا بعلمه ولم يأتهم تأويله ؟ لماذا يصف لهم السحاب بأنه جبال فى السماء من برد {النور : ٤٣} ، ولم يركبوا بعد طائرة تحاذى السحاب الثقال ليروه كما قال ؟ لماذا يتحدث عن تزامن الليل والنهار على سطح الأرض ، نصف مظلم ونصف مضىء ، تأتى الناس الساعة بغتة فتصيب المُنْهِرَ والمُلِيل [1] (يونس : ٢٤) ؟ لماذا يرى الناس السماء سقفا ككل السقوف ويقول لهم إنها غاز وسديم { **ثم استوى إلى السماءِ وهى دُخَانٌ** } (فصلت : ١١) ؟.

لماذا يخوض فى حقائق الكون ولا يتكشف للناس منها - يوما بعد يوم - إلا النزر اليسير ؟

أليس لأن المنكرين الوحى على القرآن يتحداهم القرآن بالعلم ؟

فهل تحقق لهم فى الكون بالدليل الثابت علم يعارض حقائق القرآن ؟

هل سبقوا القرآن ، أم سبقهم القرآن بالقول الثابت ؟

أليس تصديقُ المنْكرِ بعد تكذيب يقتضى أن يتحقق له - عصرا بعد عصر - علم جديد يعاجز به القرآن فيُعجزه القرآن ؟

{ **بل كَذبُوا بما لم يُحيطُوا بعِلمِهِ ولمّا يأتِهِم تأويله** } (يونس : ٣٩) .

{ **لكلِّ نَبَأٍ مُستَقر وسَوفَ تَعلمون** } (الأنعام : ٦٧) .

وهذا هو الإعجازُ الدائم .

□□□

---

(١) أنهر القوم ، صاروا نهاراً ، وألالوا ، عكسه أى صاروا ليلا .

{ وقال الذين كفروا إنْ هذا إلا إفك افتَراه ، وأعانَهُ عليه قومٌ آخرون } (الفرقان : ٤) ، وقالوا أيضا { أضْغَاثُ أحْلامٍ ، بل افْتَرَاهُ بَلْ هو شَاعِر } (الأنبياء : ٥) ، وقالوا : { أسَاطِيرُ الأولين اكْتَتَبَهَا فهى تُمْلَى عليهِ بُكْرَةً وأصِيلا } (الفرقان : ٥) ، وقالوا : { مُعلَّمٌ مجنون } (الدخان : ١٤) .

وكل ما لفقه أدعياء الاستشراق فى تكذيب القرآن يدور حول هذه النقاط الثلاث : (١) محمدٌ حالمٌ مُخَلِّطٌ أو مصروع ، تهيج به الخيالات والرؤى يحسبها وحيا من السماء ألقى اليه . (٢) مازاد محمد فى أساطير قرآنه على ما كان يتناقله فى زمنه رواة الأخبار والأساطير . (٣) استعان محمد فى كتابة قرآنه بمن سبقوه ، وخاصة أهل الكتاب ، أصحاب التوراة والإنجيل .

وتعجب لأدعياء العلم هؤلاء كيف كتبوا ماكتبوه ، وكيف يجوز على عاقل أو مجنون ؟ أكتبوا ما كتبوه دون أن يقرأوا حرفا من القرآن ؟ أم كتبوا ما كتبوه تضليلا لمن لا يقرأون ؟

وهل يحلم المصروع ؟ هل يلقن المجنون ؟ وكيف يأتى بأعظم مما لقنوه ؟ كيف لقنوه ماليس لهم به علم ولا لآبائهم الأولين ؟ كيف يكتتب الأساطير وهو الناعى على رواة الأساطير ؟ كيف يلقنه أهل الكتاب مايعارض به التوراة والإنجيل فيخطئان ويصيب ؟

أين القرآن من كلام حالم أو مصروع ؟ أين القرآن من أحاديث الرواة ؟ أين القرآن من كل ما بين يديه من كتاب ؟

القرآن معجز بذاته ، وكل مقارنة بينه وبين الكتب التى سبقته ظلم ظَلوم ، وجهل مبين .

{ أفلا يَتَدَبَّرون القرآنَ أمْ على قُلوبٍ أقْفَالُها ؟ } (محمد : ٢٤) .

ليس هذا بحثا فى وجوه إعجاز القرآن ، فوجوه إعجاز القرآن بحر لا يُدرك ساحله ، وإنما هو مبحث وجيز فى وجه من وجوه إعجاز القرآن جديد ، لم أقع عليه فيما كتب المفسرون .

إنه العَلَمُ الأعجميُّ فى القرآن مفسراً بالقرآن .

والقرآن يفعل هذا غير مسبوق ، لأنه يفسر ما يفسره على علم ، وغيره يخطىء ويصيب .

وهو يفعله فعل الواثق المتمكن مما يقول ، وإن خالف نصوص أهل الكتاب وأقوال شراح التوراة والإنجيل .

وهو يفعله أيضا غير محتاج إليه ، يُلزم نفسه مالا يُلزمه ، ويتصدى لما ليس من شأنه ، فيزج بنفسه فى مزالق الزلل كما وهم خصومه المنكرون عليه .

ما حاجته إلى تسمية أبى إبراهيم ، فيسميه " آزَر " وهو فى التوراة " تَارَحْ " أو " تِيرَحْ " (بكسر التاء وإمالة الياء) [١] فى لفظه العبرى الآخر ؟

لماذا يقول " عيسى " ، والمسيح فى الإنجيل " يَسُوع " ؟

لماذا ينص على " إدريس " ، وسَمِيُّهُ فى التوراة " أَخْنوخ " (أو حَنُوخْ قبل تعريبها الى أخنوخ) ؟

لماذا يقول " يَحْيَى " ، وهو يريد " يوحنا " ؟

يفعل القرآن هذا لأنه المصدق المهيمن ، يصدق ما صدق فى التوراة والإنجيل ، ويفصل فيما كانوا فيه يختلفون .

□□□

أما كيف يفسر القرآن أعْلامَهُ الأعجمية ، ومعظمها عبرانى ، فهذه هى مادة البحث الذى أضعه بين يديك راجيا من الله التوفيق .

وأما كيف تسنى للقرآن تفسير ما يرد فيه من الأعلام الأعجمية ، فهذا لأن مُنَزِله عز وجل هو العليم الخبير القائل بكل اللغات ، الذى علم آدم الأسماء كلها ، الذى اختلاف ألسنة الناس من آياته ، الذى أنطق بها خلقه : إنه واضعها وملهمها .

وأما كيف هدانى الله إلى موضوع هذا البحث ، فهى بارقة إلهام ، ليس لى فيها من فضل ، وإنما الفضل كله لله سبحانه ، يؤتيه من يشاء حين يشاء .

اللهم اهْدِنا واهْدِ بنا ، وزدنا ولا تَنْقُصنا .

---

(١) إمالة الياء يعنى إسقاطها نطقا والاستعاضة عنها بمد كسرة ما قبلها ، كما فى " ليش " و " ليه " العاميتين . وعلماء القراءات يسمونها ألفا ممالة ترسم فى المصحف ياء بدلا من الألف يكسر ما قبلها بعد أن كان مفتوحا وتمد كسرته ، كما فى " مجريها ومرساها " .

ربما استوقفك ـ كما استوقفنى مرارا ـ ذلك الجرس الجميل ، والنغم العذب ، من قوله عز وجل فى مفتتح سورة مريم :

{ كهيعص . ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زكريا } (مريم : ١ ــ ٢) .

أرأيت إلى تلك المشاكلة بين " ذكر " العربية ، وبين ذلك الاسم الأعجمى العبرانى ، اسم النبى زكريا عليه السلام ؟

أهو مجرد جِناسٍ لفظى يراد به التناغم الذى تلحظه فى كل القرآن ؟

أهو الجرْس الفخم الذى لا تفوت أذنك موسيقاه فى القرآن المكى خاصة والذى يأخذ بلب السامع المنفتح القلب والأذن أيا كانت عقيدته فى القرآن ؟

أم هى مصادفةٌ بحت ؟

كلا ، ليس ثَمَّ مصادفات فى القرآن : إنه يريد المعنى فيختار الكلمة والحرف . لن تستطيع مهما حاولت إبدال كلمة بكلمة أو حرف بحرف . ولن تستطيع تقديم أو تأخير لفظ . إذن لاختل المعنى وانفرط النظم . وهذا من وجوه إعجاز القرآن . النسق القرآنى نسيج وحده ، لا يستطيعه إلا مُنزله عز وجل . وكل كلام منسوق على غير نسقه ليس بقرآن .

إن أردت الدليل فهاكَهْ : كان محمد صلى الله عليه وسلم ألهج الناس بالقرآن، ولكنك تستطيع دون عناء أيا كان حظك من القرآن أن تميز على الفور بين " الحديث النبوى " وبين الآية من القرآن . و " الحديث القدسى " حديث من الله عز وجل ، ليس بعبارة القرآن وليس على نسق القرآن . وفى التوراة والإنجيل كلامٌ من الله عز وجل غير منسوق على نسق القرآن : أريدَ للقرآن أن يكون " قرآنا " وكل ماعداه أيا كان قائله ليس بقرآن .

هذا النسق القرآنى ليس مرادا لذاته فحسب ، ولكنه مرادٌ بموسيقاه ، مُرادٌ بمعناه .

ترى ما معنى اسم ذلك الشيخ الجليل ، " زكريا " عليه السلام ، فى اللسان العبرانى ؟ لابد لهذا الجناس الجميل بين " ذكر " العربيـة و " زكريا " العبريـة من معنى .

وكان لابد لى من دراسة اللغة العبرية لهذا الغرض بالذات . فماذا وَجَدت ؟

" زكريا " فى اللسان العبرانى معناها حرفيا " ذاكر الله " !

وكأنه عز وجل يقول : ذكَرَ اللهُ ذاكرَ الله ، أو ذكَرَ اللهَ فذكره ، أو ذكَرَ اللهَ فذكرتْهُ رحمةُ الله !

ليس الجِناسُ اللفظى وحدَه هو المقصود ، بل تلك المقابلة التى تُفَتِّق لك بحور المعانى .

ليس بعد هذا الجمال جمال .

□□□

ولمعت فى خاطرى بارقةُ إلهام : فى هذه الآيةِ الكريمة آية !

أيفسر القرآن أعلامه الأعجمية بإيراد معناها على التجاور فى ثنايا الآية ؟

وكانت المفاجأةُ الكبرى : نعم ! هذا يَطَّرِدُ فى كل القرآن : لا يكاد يخلو عَلَم أعجمى فى القرآن من النص على ترجمة معناه فى سياق الآية ترجمة دقيقة مطابقة ، ولكنك تمر عليها دون أن تَفْطَنَ لها ، لأن العبارة التى تعطيك معنى الاسم الأعجمى عبارةٌ من نسيج الآية ، معناها مطلوب لذات الآية ، والترجمة إضافة ، تظنها جاءت عَرَضا ، وهى دليل العلم ودليل القدرة .

وكان هذا الكتاب .

□□□

على أن تفاسير القرآن الكريم - وأوسعُها وأشملها تفسير الإمام القرطبى " الجامع لأحكام القرآن " - لا تخلو من محاولة تفسير معانى الأعلام الأعجمية فى القرآن ، وأخصها أسماء الأنبياء من آدم إلى عيسى عليهم وعلى نبينا أزكى الصلاة وأتم التسليم . ولكن المحاولة لم توفق لأن المفسرين كانوا يبنون على افتراض الأصل العربى لأسماء الأنبياء جميعا ، فيزِنُون هذه الأسماء على الوزن العربى ، ويشتقون من جذر عربى ، فيخلصون إلى نتائج أبعد ما تكون عن معنى الاسم الأعجمى فى

لغته . خذ مثلا اسم النبى " يُونُس " عليه السلام : قد تظن أن السين فيه أصلية ، فتحسبه من " وَنِس " ، وكأنها لغةٌ فى " أنِسَ " فتنتهى إلى أن " يونس" ربما تعنى "مؤنس" أو شيئا قريبا من هذا . ولكنك متى علمت أن السين فى " يونس " زائدة ، وأنها علامة الرفع فى اليونانية ، لغة الأناجيل ، وأن "يونس" أصلها "يونا" ومعناها الشائع فى العبرية " حمامة " ، أدركت على الفور أن الفرق بين المعنيين بعيد .

ولكنك لا تستطيع مهما حاولت أن تغمط حق هؤلاء الجهابذة الأعلام فيما بذلوه من جهد يعز نظيره فى البحث والجمع والتمحيص . ربما ابتسمت إشفاقا وأنت تقرأ فى " تفسير القرطبى " ما يُروى من أن فرعون موسى كان اسمه " الوليد بن الريان " ، فتظن الرعونة بهذا الراوى الذى يستخف بعقلك فينتحل لك أسماء عربية لفراعنة مصر . ولكنك لابد ينفثىء غِلُّك حين تعلم أن " فرعون " الذى يعنيه الرواة هو " رَعْمسِس " (أو رمسيس كما نكتبها نحن الآن) وأن " رعمسس " اسم مركب : رَعْ + مْسِس ، وأن " مْسِس " فى المصرية القديمة تعنى " وِلْد " أو " وليد " أو " ابن "، أما "رَعْ " فهى " الإله رع " رمز الشمس ، أى أن رعمسس المصرية القديمة تعنى حرفيا وِلْدُ رَعْ ، ولم يبعد الراوى حين عَرَّبَ " مْسِس " إلى " وليد " وحَرَّف " رَعْ " إلى " الريان " أما " ابن " فى " الوليد بن الريان " فهى حشو . وليس كل ما قال الرواة محض عبث ، وإنما عليك باستصفاء الذهب من التبر . كان رمسيس إذن هو فرعون موسى فيما تناقله الرواة إلى عصر القرطبى . وكما نرجح نحن الآن .

ولم توفق أيضا محاولة المفسرين تفسير الأعلام الأعجمية فى القرآن لأنه قَلّ من كان منهم يتقن اللغة العبرية التى اشتقت منها غالبية العَلَم الأعجمى فى القرآن ، ناهيك بالمصرية القديمة التى وردت منها ألفاظ فى القرآن مثل " فرعون " بل و " موسى " عليه السلام ، كما سترى فى هذا الكتاب . كان المفسرون يعتمدون على أمانة من نقلوا عنهم من أهل الكتاب ، وقليل منهم من حمل الأمانة فأداها على وجهها ، أما أكثرهم فكانوا كما وصفهم عز وجل : { **لا يَعْلمونَ الكتابَ إلا أمَانِيَّ**} .

على أن الجديد الذى وفقنى الله إليه فى هذا الكتاب الذى بين يديك ليس هو ترجمة معانى الأعلام الأعجمية فى القرآن من معاجم اللغات الأعجمية : هذا جهد يستطيعه من يحاوله ، بل هو مبسوط منثور فى بطون الكتب .

الجديد فى هذا الكتاب الذى نكتب هو ترجمة معانى تلك الأعلام ، من القرآن بالقرآن ، وتصويب معانى تلك الأعلام لدى أصحابها ، من القرآن بالقرآن .

وهذا هو السند الأعلى . ولله الفضل من قبل ومن بعد .

الفصل الأول

أعجمي وعربي

(١)

هل وردت فى القرآن ألفاظ أعجمية ؟

كيف ، والمنزل عليه القرآن عربى ، والمنزل إليهم القرآن عرب ؟

أليس تُبْعَثُ الرسل كل بلسان قومه ؟ فكيف يفهمون عنه ؟ كيف يتم البلاغ ؟ كيف يصح التكليف ؟ أيمشى الرسول غريبا فى قومه ، يتوكأ على مترجم يفسر ما يقوله للناس ؟

قال عز وجل : { **ومَا أرْسَلنا مِنْ رَسُولٍ إلا بِلِسَانِ قومِهِ ،لِيُبَيِّنَ لهم** } (ابراهيم : ٤) ، أى كما أنزلنا التوراة عبرانية على موسى العبرانى فكذلك القرآن ، عربيا على عربى .

وكأن من أهل الكتاب من تعاظَمَه أن يخاطب الله الخلق بغير العبرية ، لغة التوراة ، فقال جل شأنه : { **ولوْ جَعَلْنـاهُ قرآناً أعْجَمِيا لقَالُوا لولا فُصِّلَتْ آياتُهُ ، ءَأعْجَمِى وعرَبِى**} (فصلت ٤٤) .

□□□

أما أن القرآن عربى ، فهذا عين الحق ، ليس هذا فحسب ، بل إن عربية القرآن شاهد على عربية العرب ، لا العكس : لا يصح لها فصيح متفق عليه إلا الوجه الذى نزل به .

وأما أنه قـد وردت فى القـرآن ألفاظ أعجمية ، فهـذا حق أيضـا ، ولكنه لا ينتقص شـيئا من عربية القرآن ، وإنما هو يجليها، كما سـترى فى مباحث هذا الكتاب .

□□□

وليس القرآنُ عربيا فحسب ، وإنما هو عربيٌّ مبين . تجد النص على هذا فى قــوله عز وجــل : { وإنه لتَنْزيلُ رَبِّ العــالَمين . نَزَلَ بِهِ الروحُ الأمين . على قلبِكَ لِتَكونَ مِنَ المنذِرِين بِلِسَانٍ عربيٍّ مبــين } (الشعراء : ١٩٢ ــ ١٩٥) .

ولفظ " المبين " حيثما ورد فى كل القرآن ـ وقد ورد لفظه نعتا للمعرفة والنكرة ١١٩ مرة (١) ـ لا يعنى الإفصاح والإبانة ، وإنما يعنى حيث ورد ، تأكيد اكتمال تحقق الصفة فى الموصوف . إليك بعض الأمثلة ، وعليك بالباقى فى مواضعه من المصحف :

- { فألقَى عَصَاهُ فإذا هى ثُعْبَانٌ مُبِين } (الأعــراف : ١٠٧) ، أىْ ثعبان حَق ، لا شك فى ثعبانيته .

- { إن الشيطانَ للإنسانِ عَدُو مُبِينٌ } (يوسف ٥) ، أى هو العدو يقيناً ، لا خفاء لعداوته .

- { إنَّا فَتَحْنَا لك فَتْحاً مُبِيناً } (الفتح : ١) ، أى أن صلح الحديبية وإن تَجَهَّمَه أول الأمر بعض أجلاء الصحابة ، ليس فتحا فحسب ، وإنما هو فتح حق ، ليس له إلا هذا الاسم .

- { هو الحَق المبين }. (النور : ٢٥) ، يصف نفسه تباركت أسماؤه ، أى هو عين الحق جل جلاله ، لا يمارى فيه أحد .

من هنا تدرك أن وصف لغة القرآن بأنها لسان عربى مبين ، يعنى أنه بلسان عربى بين العربيــة ، أو هو حق العربية ، لا يمارى فى عربيته إلا جــاهل بالعربيــة نفسها .

❑❑❑

وليس القرآن عربيا مبينا فحسب ، وإنما هو القول الفصل : قمة البيان ، وذروة الإبانة .

---

(١) راجع " المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم " لمحمد فؤاد عبد الباقى ، طيب الله ثراه ، وأجزل ثوابه ، بما قدم لدارسى القرآن الكريم.

والإبانة شرط لابد منه لتمام البلاغ والتبليغ .

وهى بالذات شرط لابد منه لبلاغ خاتَم ، كَمُلَ به وحى السماء ليس بعده مُسْتَدْرك .

وهى أيضا شرط لابد منه لرسالة تخاطب الكافة ، لا مكان فيها لمتنطِسٍ أو مُتَحَنِّث ، ولا تعويل فيها على كهنوت أو كهانة .

وهى أخيرا شرط لابد منه لرسالة لا تطلب التصديق فحسب ، وإنما هى بالدرجة الأولى رسالة تطلب العمل على مقتضى هذا التصديق .

ولا يصح تكليف بغير إبانة .

لهذا فقد برىء القرآن من العجمة والعوج .

والالتفات إلى هذه النعمة واجب ، وشكرها أوجب .

فـ { **الحمدُ لله الذى أنزَلَ على عَبْدِهِ الكِتابَ ولمْ يجْعَلْ لهُ عِوجَاً** } ⟨الكهف : ١⟩، كما علَّمنا الحق أن نقول ، جل ثناؤه .

□□□

وقد امتن الله على العرب بالقرآن ، وأكْرِم بها منة أن يكون لسان القرآن لسانهم .

قال عز وجل يقسم بالقرآن : { **ص ، والقرآنِ ذِى الذِّكْر** } ⟨ص : ١⟩

وقال جل شأنه : { **ولَقَدْ أنزَلْنا إليكُم كِتاباً فِيه ذِكْرُكم ، أفلا تَعقِلون** } ⟨الأنبياء : ١٠⟩

وقال أيضا تباركت أسماؤه : { **وإنّه لَذِكْرٌ لكَ ولِقَومِكَ ، وسوفَ تُسْألون** } ⟨الزخرف : ٤٤⟩

والذكر فى هذه المواضع الثلاثة جميعا يعنى " الشرف " .

نعم ، شرُفَت العربية بالقرآن ، وشَرُف أهلُها .

والشرف أمانة ، أداؤها أن تعرف حقها ، وإلا فأنت بها مأخوذ . كما قال عز وجل : " وسوف تسألون " فى الآية التى قرأت توا .

□□□

وقد تتساءل : كيف استحقت العربية هذا الشرف ؟

لا يكفى أن تقول نزل القرآن عربيا لمجرد أن المنزل عليه القرآن عربى والمنزل إليهم القرآن عرب .

بل هو تقدير العليم الخبير ، الذى لا يمضى أمرا إلا أحكمه .

إنه عز وجل يصطفى لرسالته الرسول ، ويصطفى لرسوله الجيل الذى يحمل الرسالة ، ويصطفى لخاتم رسله البقعة التى تنطلق منها الرسالة إلى أقاصِىِّ الأرض .

وهو أيضا جل شأنه يصطفى لرسالته الأداة ، وأداة الإسلام هى هذا القرآن الناطق بالعربية .

فكيف وَسِعَت العربيةُ هذا القرآن ؟ كيف حملت وقره ؟ ما تلك الحضارة التى أنضجت تلك اللغة ، واللغة كما تعلم هى نِضاج الحضارة ؟ وهل كانت للعرب قبل القرآن حضارة ؟ فمتى اكتمل لها نحوها وصرفها وإعرابها ؟ متى تهيأ لها شعراؤها وخطباؤها وفصحاؤها ؟ بل كيف فهم العرب عنه ؟ كيف تذوقوا حلاوته ؟ كيف سلَّموا بإعجازه ؟

الحق أن العربية هُيِّئَت تهيئةً لتلقى هذا القرآن ، وزُيِّنَت تزيينا لتليق به ، وأنضجت إنضاجا لتكون وعاءه ، وأحكمت إحكاما لتعبر عنه ، فما نزل القرآن إلا وقد تهيأ لها هذا كله ضد منطق التاريخ ومنطق الحضارة .

وتلك وحدها معجزة ، وليس شىءٌ على الله بعزيز .

لم تكن العربية وقت نزول القرآن ، بمستواها هذا الفنى المحكم ، لغة كتابة ، فقد أريد للقرآن أن يكون " قرآنا " .

كانت العربية وقت نزول القرآن ، بمستواها هذا الفنى المحكم ، لغة الخطاب اليومى ، لا لغة يصطنعها فحسب أهل الفكر والفن والأدب ، ولم تكن بمستواها هذا الفنى المحكم لغة الخطاب لدى الصفوة من سادة قريش فحسب ، بل كانت هى لغة الخاصة والعامة .

وهذا هو أصلا معنى اللغة : لا تلتمس فى المدونات وبطون الكتب ، ولا تهمهم بها الأقلام وتحبر الصحف ، وإنما اللغة هى التى ينطلق بها اللسان سجيةً ، فتبصر بها العين ، وتسمع الأذن .

وكان هذا ـ كما مر بك ـ ضروريا لرسالة تخاطب الكافة ، لا تعويل فيها على متحنث أو متكهن .

□□□

على أن فى العربيـة خصائص لغـوية وبيانيـة وموسـيقية ، قَلّ أن تجتمـع لسواها .

إنها لغةُ الإيجازِ البليغ ، والسُلَّمِ الموسيقيِّ الكامل .

لغةٌ اجتمعت لها كلُّ الحروف ، وصَحَّت المخارج : لا تندغِمُ فى الحلق ، ولا تتآكل على أطراف اللسان ، ولا تَتَحَور فى ذبذبات اللهاة . فيها ما يقرع السمع عنيفا ، وفيها الدمْثُ اللين ، وما بين بين .

لغة غَنِيَت حروفا ، فَغَنِيَت جذورا : لا تعرف اللواصق من رواكب وروادف ، وفى غيرها ينوء جَذْرُ اللفظ بأوزاره ، فيغيمُ المعنى فى ضباباتِه . أما هى ، فَتَنْحِتُ الألفاظَ والأوزانَ للمعنى وضده ، وللمعنى وقريبِه ، وللمعنى والمشتقِّ منه ، وللمعنى والمتداخل معه . ما أن يقع بصرك على اللفظ حتى يَسْتَعلِن لك بكل معناه ودلالاتِه .

لغة تَفَنَّنَت فى أوزانها ، ونَوَّعَت فى تراكيبِها طرائق شتى . تمد بالإعرابِ أواخِـرَ الكَلِمِ ، تَهْمِزُ وتُسَهِّلُ ، وتصـل وتقـف ، وتُنَوِّن وتُرَخِّم ، فمـا اسـتعصى عليها نَغَم .

وتلك كلها خصائص قرآنية .

□□□

وقد أفاد القرآن من العربية ، وأفادت العربية من القرآن . ولكن الذى أفادته العربية من القرآن أضعاف الذى أفاد القرآن :

جَمَع مادتها ، وأحكم نحوَها وصرفَها وإعرابَها ، ورسم لها نموذجها الأعلى . ليس هذا فحسب ، بل تَكَفَّل الله بحفظ القرآن ، فكفل لها القرآن حياتها ، ونماءها ، وبقاءها .

وقد مضى على نزول القرآن بالعربية أربعة عشر قرنا ، بادت خلالها لغات وتحورت لغات ، ولا تزال العربية وحدها تعيش ، بنصاعتها الأولى .

وليس لهذا ـ كما يعرف أهل العلم ـ نظير فى كل اللغات قديمها وحديثها .

وأما الذى أفاده القرآن من العربية فهو - كما مر بك - أنها اللغةُ التى هُيِّئَت له ، لا يصلح إلا لها .

ولسنا هنا فى مقام المفاضلة بين لغة ولغة ، فاللغات كلها من آيات الله سبحانه .

ولكن الذى لا يتوقف عنده كثيرون ، وربما قل من يفطنون إليه ، هو أن اللغة العربية - عصر بدء نزول القرآن فى مطلع القرن السابع للميلاد ، على قلة الناطقين بها يومذاك - كانت هى دون منازع أرقى لغات العالم القديم ، ليس فحسب أرقاها بلاغة وفصـاحة و جمالا ، وإنما أيضا ، وبالمقيـاس اللغوى البحت ، أرقاها دقة وكمـالا .

لم يكن ينقصها لتصبح اللغة العالمية الأولى يومذاك ، إلا أن تتجاوز حدودها الجغرافية السياسية الضيقة ، فتشيع بين الناس فى المشارق و المغارب .

وقد تكفل القرآن بذلك .

(٢)

بدأ نزول القرآن على خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ليلة القدر من رمضان عام ١٣ قبل الهجرة (٦٠٩ م) مطلع القرن السابع للميلاد ، قُبَيْل انقضاء ستة قرون على رفع المسيح عليه السلام [١] ، ليس بينهما نبى .

كانت حضاراتُ العالم القديم كلُّها آنذاك قد تهاوت، وآذنت الدنيا بميلاد جديد

وهى قد تهاوت لأن العمالقة أكل بعضهم بعضا ، وكانت ساحة الصراع هى هذا الشرق الأدنى القديم .

لم يكن الصراع يدور على فكر أو على خطة لحياة ، فقد تداخلت الأفكار والمذاهب ، وتشاكلت الضلالات هنا وهناك . وإنما كان الصراع يدور على الأسلاب والغنائم ، وكان الأسلاب والغنائم هم أهل هذا الشرق الأدنى القديم .

لم يكن لدى الغزاة شىء يفتحون به على أهل الأقطار المغلوبة ، ولم يبق لدى المغلوبين شىءٌ يقدمونه للغزاة .

ولكن الصراع بين العمالقة الآريين الثلاثة ، الفرس و الإغريق و الرومان ، أو اختصارا بين الفرس والروم ، لا ينفك يدور ، لا تضع الحرب أوزارها إلا لالتقاط الأنفاس بضع سنين . وهى حرب عبث ، سواءٌ على التاريخ قامت أم لم تقم ، فالغالب اليوم مغلوب غدا ، لا يعنيك أى الفريقين أدال من الآخر ، ولمن كانت الدائرة فى الحرب اليوم ، فالدائرة على الجميع : إنهم يخربون بيوتهم بأيديهم ويأتون على ما بقى من أطلال حضارتهم . لا تهتم ، فعلى الأنقاض سيبنى صرح جديد . تجد إشارة إلى هذا فى قوله عــز وجل : { **الم . غُلِبَتِ الرومُ فِى أدْنَى الأرضِ ، وهــم مِنْ**

---

(١) ولد المسيح عليه السلام سنة ــ ٤ م على القول الراجح ، ورُفِع وسِنّه ثلاث وثلاثون ، عام ٢٩م .

بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِى بِضْعِ سِنِين . للهِ الأمرُ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ ، ويومئذٍ يفرحُ المؤمنون بِنَصْرِ اللهِ ، يَنْصُرُ من يشاءُ وهو العزيزُ الرحيم . وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ ، ولكِنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون } (الروم : ١ـــ ٦) (١)

احتدم الصراع بين الفرس والروم على ما بقى من أطلال الشرق الأدنى القديم قرونا ، بين كر وفر ، حتى أجهز عليهم المسلمون فى أواسط القرن السابع . ومن قبل ، أثخن الروم ـ إغريقا ورومان ـ بعضهم فى بعض ، وأتى القوطُ والجرمان على القياصرة فى روما ، فارتحلوا شرقا إلى بيزنطة ، قبل قرنين اثنين من ظهور الإسلام.

اختلط الحابل بالنابل فى هذه المنطقة من العالم التى شهدت مولد حضارات البشر ، ولم يعد هناك فكر جامع ، تستند إليه حضارة جامعة ، جديرة بالبقاء . لم تعد ثم - رغم ما قد تسمعه من شهيق وزفير - إلا حضارة ماتت أو أوشكت أن تموت . ولم يعد ثم - رغم ما قد تسمعه بين الفينة والفينة من هدير وزئير - إلا أسد هَرِمَ ، تسلخ جلده ، وتثرمت أسنانُه . وعَشَى بصره ، يرجو رحمة ربه فى ضربة إجهاز تريحه من عذابه .

وكان أن أتى أمر الله .

□□□

---

(١) أما لماذا يفرح المؤمنون يومئذ بنصر الله ، وقد أجهز المسلمون من بعد على الفرس ولم يُفْلِتُوا الروم ، ولماذا يَعِد الله المؤمنين بهذا مؤكدا أنه لا يخلف الله وعده ، فليس هذا إيثارا لأهل كتاب على مجوس ، ولا اهتماما لشأن المعارك بين الفرس والروم ، وإنما هى بشرى للمسلمين بيوم بدر (٢ هـ ــ ٦٢٤ م) الذى توافق مع كرة الروم على الفرس (٦٢٤م) . فى الآيات الست إذن نبوءتان : انتصار الروم على الفرس ، وانتصار المسلمين على قريش فى بدر . كانت النبوءة الأولى توقيتا لتحقق النبوءة الثانية ، لا أكثر ولا أقل ، ولكن المفسرين احتفلوا للأولى ، ولم يفطنوا للثانية ، وبها وحدها تفهم الآيات الست فهما متكاملا . أما « أدنى الأرض » المشار إليها فى الآيات ، فهى ترجمة قرآنية دقيقة لعبارة " أرض كنعان " ، وهى فلسطين ، حيث كانت المعارك المعنية بين الفرس والروم (راجع فى المعجم العربى مادة كنع ؛ وهى نفسها " كنع " العبرية ــ الآرامية) ولم يلتفت إلى هذه الترجمة أحد .

أما اللغة ـ موضوعُنا فى هذا الجزء من الكتاب ـ فأنت تعرف بالطبع العلاقة بين مَوات الحضارة ومَوات اللغة ، فما بادت حضارة قوم إلا بادت لغتهم ، أو ذابتْ فى لغة السادة لتعيش بعضا من حياة ، أو تحورت إلى رطانة شائهة هجينة ، لا تكاد تُبِين .

متى لم يعد للحضارة فكر تعبِّر عنه وتعيشُ عليه ، ومُثُل تدعو إليها وتجاهد من أجلها ، فقد خرست الحضارة ولم يعد لديها ما تقول .

إلى هذا آلت اللغات فى هذه المنطقة من العالم: تهاوت الحضارة فتهاوت اللغة، ولم يكن فى أى من تلك اللغات جميعا كتاب فى عظمة القرآن، يعصمها أن تزول.

□□□

فى مطلع القرن السابع للميلاد كانت اليونانية الفصحى التى تغنى بها من قبل شعراء الإلياذة وكتب بها أمثال أفلاطون وسوفوكل ، وخَطَبَ بها أمثال بريكليس وديموستين ، قد آذنت من قبل بالأفول حوالى مطلع القرن الثالث ، ولم يأت القرن السابع إلا وقد آلت إلى يونانية دارجة هجينة ، لا على ألسنة العامة فحسب وإنما أيضا فى الفن والفكر والأدب .

أما اللاتينية الفصحى ، التى كُتِبَت بها مُدَونات الفقه الرومانى ، ونُظِمت بها إنيادة فرجيل ، وخطب بها أمثال شيشرون وقيصر ، فقد حذت حذو أختها اليونانية ، بنفس الترتيب الزمنى أو تكاد ، فلم يأت القرن السابع إلا وقد تحورت إلى لاتينية دارجة هجينة ، بل قل إلى لاتينيات دارجة هجينة ، يَلِدْن من بعد لغات أوربية تَقْرأ لها الآن ، لم يكتمل لها نموها إلا فى نحو تسعمائة سنة من نزول القرآن .

لم يبق من اليونانية واللاتينية مطلع القرن السابع للميلاد إلا أثارةٌ من أطلال مجد قديم ، تليق بحضارة ذَوَت ، ولا تتسع لحضارة باذخة توشك أن تولد ، لتعيش.

تلك الحضارة الباذخة الوليدة كان القرآن شهادة ميلادها ، وهو إلى الآن عمود حياتها ، وما أوشكت أن تتصدع فى مراحل من عمرها إلا لأن أصحاب القرآن أنْسُوه.

فالحذرَ الحذرَ ممن يرفضونه اليوم دستور حياة .

بل فى المسلمين اليوم من يعاجزون القرآن ، ويختصمونه ، ويجادلون فيه ، ويُحَرِّضون عليه .

بل فيهم ـ لُعنوا بما قالوا ـ من يُشَاقُّون الله ويَسُبُّون رسولَه .

بل فيهم ـ ويا للعار ـ من لا تحمر له أنف ، وإنما يسخر قلمه للدفاع عن هؤلاء وهؤلاء بدعوى حرية الرأى والفكر .

ولو شاء الله لمسخهم على مكانتهم (١) .

كفاهم نقمة ـ بحربهم القرآن ـ أنهم حُرِمُوه .

وكفاهم ذِلة أن طمس الله على عقولهم وبصائرهم فلا يرون ما آلوا إليه بذنبهم : رد الله وجوههم فى أقفيتهم ، وجعل منهم الببغاء والقِردة .

ولكن هذا حديث آخر ، نتصدى له فى كتاب آخر ، ليس موضعه هذا الكتاب.

□□□

أما فى الشرق الأدنى القديم ما بين مصر وفارس ، مهبط الرسالات ، وموئل الحضارات التى سبقت الفرس والروم ، فقد اختلط الحابل بالنابل :

فى مصر ، تصدعت - بانهيار دولة الرعامسة (٢) حوالى القرن الثانى عشر قبل الميلاد- حضارة شامخة زهت نحو ألفى سنة (٣٢٠٠ ق م ـ ١٢٠٠ ق م) ، وآذنت بأفول لا رجعة منه : تعاور مصر الغزاة من شرق وغرب ، ومن شمال وجنوب، نهبا للرائح والغادى ، جائزة لمن غلب ، إلا هَبّات هنا أو هناك ، وجذوة خامدة تريد أن تتوهج وسرعان ما تنطفىء ، حتى غدت مصر ولاية فارسية منذ ٥٢٥ ق م على يدى قمبيز وخلفائه ، ثم إقطاعة يونانية لخلفاء الاسكندر (٣٣٣ ق م) ثم ولاية رومانية (٣٠م) للقياصرة فى روما ، ارتحلت تبعيتُها معهم إلى بيزنطة (٣٩٥م) ، ولم يبق من المصريين إلا الحجر ، وإلا مياه النيل تجرى تهمهم بما كان :

{ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنات وعُيُونٍ ، وزُروعٍ ومَقَامٍ كَرِيمٍ ، ونَعْمَةٍ كانوا فيها فَاكِهِين ، كذلك وأَوْرَثْناها قوماً آخَرِين ، فَما بَكَتْ عليهِمُ السماءُ والأَرضُ وما كانُوا مُنْظَرِين } (الدخان : ٢٥ ــ ٢٩) .

---

(١) على مكانتهم يعنى وهم فى مكانهم لم يبرحوه ، أى من فورهم ولحظتهم .

(٢) الرعامسة جمع رَعْمِسِ ، أو رمسيس كما نكتبها نحن الآن .

ترى هل بقيت للمصريين فى مطلع القرن السابع للميلاد أثارَة من لغة حضارتهم الأولى التى دَرَسَت ؟ هل بقى لديهم شىء من تلك اللغة الفصحى التى ترنم بها اخناتون من قبل ، ابتهالات وتسابيح ؟ هل بقى لديهم شىء من تلك اللغة الفصحى التى حاور بها فرعون موسى وهارون ؟ [١] وهى لم تكن لغة أهل البلاط فحسب ، وإنما كانت هى نفسها اللغة التى قرع بها السحرة أسماع فرعون وملئه [٢] ، يستعلنون بإيمانهم على رغمه ، فيودعون الدنيا ويستقبلون الآخرة بخطبة بليغة تقشعر لها الجلود وتخشع الأسماع والأبصار ؟

أنت بالطبع تعرف الجواب : باندثار الحضارة تندثر اللغة ، لم يبق من المصريين فى مطلع القرن السابع من يتكلم المصرية الفصحى ، ناهيك بمن يفك رموزها ، فضلا عن أن يكتب بها ، وإنما آلت المصرية الفصحى إلى قبطية دارجة هجينة ، تكتب كلها أو تكاد بأحرف يونانية ابتدع رسومها الفينيقيون من قبل ، وتَنْضَحُ برطانة تعرف فيها آثار ألسنة الغزاة ، الإغريق فالرومان ، ومَسحة من آرامية [٣] فارسية انتقلت إليها مع جيوش قمبيز .

---

(١) كانت الفصاحة شرطا فى هذا الحوار البليغ ، يدلك على هذا استنصار موسى بهارون : { وأخى هرون هو أفصح منى لسانا فأرسِلْه معِىَ رِدْءا يُصَدِّقُنِى : إنى أخافُ أن يكَذِّبون } {القصص : ٣٤} .

(٢) الملأ يعنى علية القوم ، الذين تمتلىء منهم العين مهابة .

(٣) الآرامية هى لغة أهل آرام (إرم فى القرآن) . كانت تطلق على ما نسميه نحن "سورية " بالمعنى العام . سماها أهلها كذلك تحنانا إلى موطنهم القديم " آرام نهريم " أى آرام ما بين النهرين ، وهناك كانت " إرم ذات العماد " التى عناها القرآن ، وسيأتى الحديث عنها فى موضعه حين الكلام عن " عادٍ قوم هود " . كانت الآرامية هى اللغة الغالبة فى ربوع الشرق الأدنى القديم ، فاستبقاها الفرس لغة رسمية فى إمبراطوريتهم ، وبها اكتشفت فى مصر مخطوطات ترجع إلى القرن السادس قبل الميلاد ، عصر مجىء قمبيز ، تستند إليها الدراسات الحديثة فى محاولة فهم الآرامية البائدة وتقعيد نحوها وصرفها . وللآرامية أيضا اسمان آخران ، هما "الكلدانية " و " السريانية " ، أما الكلدانية فهى تسمية خطأ ، عدل عنها اليوم علماء اللغات المحققون ، وأما السريانية فهى الآرامية نفسها أو ما آلت إليه الآرامية منذ القرن الثالث الميلادى، ومازالت السريانية تعيش إلى اليوم على بعض الألسنة . وبهذه الآرامية نفسها كان يتحدث المسيح إلى عشيرته وحوارييه ، وبها كان إنجيله الذى لا تجد له اليوم إلا أصولا كتبها أصحابها بيونانية متأخرة تعرف باليونانية الكنسية .

أما فارس ، التى بلغت أقصى اتساعها على عهد الأخْمينيين (القرن السادس ق م) - القرن الرابع ق م) ، فشملت امبراطوريتهم منذ القرن الخامس قبل الميلاد الشرق الأدنى القديم كله من فارس إلى مصر ، ومن بابل وما بين النهرين إلى سواحل البحر الأبيض فى سورية وفلسطين ، واكتسحوا اليونان فى آسيا الصغرى وألزموهم عقر دارهم فى شبه جزيرتهم .. فارس هذه ، ماذا بقى منها ؟

كر عليهم الإسكندر فقوض ملكهم من تخوم الهند إلى مصر (٣٣٣ ق م) ، وورث امبراطوريتهم الشاسعة جميعـها ، ليتوزعها خلفاؤه من بعده ، وليبدأ فى الشرق الأدنى كله العصر " الهِلِينى" [١] أو " المتَهَلْين " ، أى المصطبغ بالصبغة اليونانية فكرا ولغة وحضارة ، وهو تعبير غير دقيق ، وربما كان مضللا أحيانا ، لأنه يغلب العنصر اليونانى الوافد إلى حضارات الشرق الأدنى القديم ، ويُغفل مردود هذه الحضارات نفسها على أرض اليونان الأم ، حتى باتت اليونان نفسها بعد الاسكندر "هلينية " فكرا وحضارة .

لم تكن جحافل الإسكندر يونانية خالصة ، وإنما كانت تستمد فى سيرها المدد من أهل الأقطار المفتوحة ، حتى انتهت " غارة " الإسكندر . واستقر الغزاة بعد الفتح فى مواقعهم ، يموج بعضهم فى بعض ، تتمازج الدماء ، وتختلط الألسنة ، وتتلاقح الثقافات والفلسفات والعقائد .

ولك أن تتصور تأثير هذا كله على اللغة الفارسية فى موطنها الأصلى كما رأيت من قبل تأثيره على لغة شعراء الإلياذة وأفلاطون وسوفوكل : جمدت الفارسية القديمة على الألسنة ولم يعد يستدل عليها إلا من نقوش كتبت ما بين القرنين السابع والرابع قبل الميلاد ، وحلت محلها الفارسية "الفهلوية " التى كتبت بها نصوص "زرادشت" فى القرن الثالث الميلادى ، وآلت إلى " الأفستية" (أى لغة النص الأصلى) فعاشت فى المعابد والأذكار ، وبقيت منها فارسية تزهو حينا وتتحامل على نفسها حينا ، تنوء بأوزار ما تهجنت به ، حتى أجهز عليها الفتح الإسلامى فى القرن السابع ، فصارت همهمة يغمغم بها أمثال البرامكة فى بلاط الرشيد . ولكن تلك

---

(١) " هلينى" لفظة يونانية ، صفة من هلاس ، اسم لليونان قديم .

الهمهمة التى طالت ، قضت على ما بقى من أصالة اللغة ، فلم يستعد الفرس سلطانهم فى أواخر الدولة العباسية إلا وقد آلت الفارسية إلى رطانة ثلثها على الأقل عربى ، هى تلك الفارسية الحديثة التى تقرأ لها الآن .

❑❑❑

لم يبق من الحديث عن لغات الشرق الأدنى القديم إلا الآرامية والعبرية ومنهما كانت غالبية العَلَم الأعجمى الذى نتناوله فى هذا الكتاب .

ولكن الحديث عن الآرامية والعبرية يقتضى الحديث أولا عن اللغات المسماة بالسامية ـ وأمها جميعا "العربية " ـ تقريرا لأصالة العربية عليهما قبل نزول القرآن ، وهذا ما ننتقل إليه الآن .

(٣)

تستطيع أن تصنف لغات البشر إلى سلالات عرقية ، أو جغرافية ـ تاريخية ، تنسبها إلى موطن أقدم من يُظن أنهم تكلموا بها قبل أن ينساحوا فى الأرض ، فتنشعب ألسنتهم لَهَجَاتٍ فلغات ، فتقول مثلا اللغات الآرية [١] ، ومنها السنسكريتية فى الهند ، والفارسية فى إيران ، واليونانية واللاتينية والجرمانية فى أوربا ، وما تفرع عن هذه وتلك من لغات تقرأ لها الآن . أو تقول مثلا اللغات السامية والحامية والكوشية ، ومنها العربية والعبرية والمصرية والحبشية ، بقى منها ما بقى وباد ما باد . والسامية والحامية نسبة إلى سام وحام إبنى نوح ، والكوشية نسبة إلى كوش بن حام .

وليس لك بالطبع أن تتساءل بم كان يكلم نوح أباه ، وبم كان يتفاهم نوح مع ابنيه سام وحام ، ولم شذ حام عن أخيه سام فاصطنع لنفسه لغة انفرد بها لم ترق لابنه كوش فعدل عنها إلى غيرها. تلك على الأرجح ـ إن صحت التسمية ـ ليست أسماء أشخاص ، وإنما هى أسماء قبائل وشعوب تفرقوا فى البلاد ، فتفارقت الألسنة .

أما إن ترجح لديك ـ وأنت اللبيب العاقل ـ وحدة الأصل الإنسانى ، فلا مفر لك من أن ترد لغات أهل الأرض جميعا إلى أصل واحد ، هو تلك اللغة الأولى التى تكلم بها أبو البشر وأمهم ، بعد مهبطهما من الجنة .

على أن افتراض لغة أولى تفرعت عنها كل اللغات ، وهو فرض علمى لا غبار عليه ـ إن لم يكن الفرض المنطقى الراجح ـ ربما يغريك ببحث عقيم عن أى اللغات كان

---

(١) " آريا " لفظة سنسكريتية بمعنى الشريف النبيل الأمثل ، وصف بها الهنود لغة السادة الغزاة ، وبها سميت " إيران " (آريا ـ نام) على الراجح ، أى أرض الأماثل . ومن "أريا " لفظة " أرستو " اليونانية بمعنى الأمثل ، وبها صيغت " أرستو ـ كراتيا " (الأرستوقراطية) أى حكومة الصفوة أو الأماثل .

الأول . ولكنك مهما بذلت من جهد - وأيضا من افتعال ـ فقصاراك أن تقنع بفرض واحد مؤكد ، وهو أن اللغة التى تكلمها آدم بعد مهبطه من الجنة لم يعد يتكلمها اليوم أحد من أهل الأرض ، وإنما هى تفرقت فى لغات البشر جميعا : لكل منهم فيها نصيب ، قل أو كثر .

لهذا عدل اللغويون الآن عن تلك التسميات العرقية الجغرافية ـ التاريخية التى قد توهمك بوجود لغة أو لغات أولى تنتمى إليها الأسر اللغوية التى يتكلمها البشر اليوم . عدل اللغويون عن ذلك الآن ، وأصبحوا ينسبون الأسر اللغوية إلى الأرض التى يعيش عليها فى عصرنا هذا من يتكلمونها اليوم ، أو عاش عليها أسلاف لهم سبقوا ، تكلموا لغة تلمح أصولها فى اللغات المعاصرة، أو عثر فيها على نقوش أو مخطوطات عفا عليها الدهر ، يعكف عليها اللغويون بغية حل رموزها، وفك طلاسمها ، وردها إلى أسرة لغوية ولدت فيها ، ثم تحورت أو بادت . فيقولون مثلا اللغات "الهندية ـ الأوروبية" ما بقى منها وما باد . ويقولون مثلا اللغات " الإفريقية ـ الآسيوية " ، يعنون تلك الأسرة اللغوية بفصائلها " السامية " و " الحامية " و "الكوشية " ، إلخ ، المتقاربة جذور مفرداتها ودلالات ألفاظها ومخارج أصواتها ، التى يتكلمها فى آسيا ، أو تكلمها فى آسيا يوما ما ، عرب شبه الجزيرة من أقصى اليمن إلى أقصى الشام ، كما يتكلمها فى أفريقيا، أو تكلمها فى إفريقيا يوما ما، أهل الضفة المقابِلة من البحر الأحمر ، المصريون والسودانُ والأحباش .

❑❑❑

أما الخصائص التى يستند إليها اللغويون فى تقسيم لغات البشر إلى مجموعات لغوية ، أو أسر لغوية ، فهى تنقسم بدورها إلى فصائل لغوية داخل الأسرة الواحدة ، فأهم هذه الخصائص ما يلى :

١ـ مخارج الأصوات

أى انفراد فصائل الأسرة اللغوية المعينة بنطق أحرف ، أى أصوات ، لا تنطقها غيرها . من ذلك انفراد اللغات الافريقية ـ الآسيوية بنطق الحاء ، وانعدام هذا الصوت ـ على سبيل المثال ـ فى اللغات الهندية ـ الأوروبية . وليست العبرة فى هذا السياق بصورة الحرف ، أى بشكله المكتوب ، أى بالخط الذى تصطنعه اللغة فى الكتابة ، وإنما العبرة بالصوت الموضوع له الحرف .

٢ـ دلالات الألفاظ

تتقارب فى لغات الفصيلة الواحدة ، تقاربا واضحا ، بل وتتطابق أحيانا ، بنية اللفظ الموضوع لنفس المعنى . من ذلك لفظة "عين" الموضوعة لأداة الإبصار ، وعين الماء ، الخ . ، فى اللغات العربية والآرامية والعبرية على السواء . ومن ذلك أيضا مادة الفعل " كتب " بنفس المعنى فى هذه اللغات السامية الثلاث .

٣ـ بناء الألفاظ

من اللغات صَرْفِىّ وغَرَوِىّ . فأما اللغات الغروية ، ومنها أسرة اللغات الهندية ـ الأوروبية ، كالسنسكريتية والفارسية ، وكاليونانية واللاتينية وبناتها الأوروبيات، فهى اللغات التى تستعين فى اشتقاق المعنى الموسع من المعنى البسيط بإضافة اللواصق من خلف ومن قدام ، فيبدو لك اللفظ منحوتا من كلمة واحدة نطقا وكتابة، وهو من بضعة أجزاء موصولة ، وكأنما شد بعضها إلى بعض بغراء . من ذلك فى اللاتينية مثلا كلمة emancipio بمختلف صورها فى اللغات الأوروبية الحديثة ، ومعناها العتق والانعتاق : تظنها من كلمة واحدة ، وهى من ثلاثة أجزاء شدت إلى بعض (cipio) + (man) + (e) الجزء الأول (e) بمعنى " خارجا " ، والثانى (man) بمعنى "اليد" ، والثالث (cipio) بمعنى " الأخذ " ، فهى إذن ليست كلمة وإنما هى جملة أو شبه جملة ، معناها الحرفى " الإخراج من أخذ اليد " ، أو " الإخراج من ملك اليمين " .

وأما اللغات الصرفية ومنها على سبيل المثال العربية والآرامية والعبرية فى الفصيلة السامية المنتمية إلى أسرة اللغات الافريقية ـ الآسيوية ، فهى لا تستعين فى اشتقاق المعنى الموسع من المعنى البسيط بإضافة اللواصق أو بتجميع أجزاء الكلام ، وإنما هى تنحت جذور الألفاظ لجذور المعانى ، ثم تشتق الموسع من البسيط "بالتصرُّف" فى بنية الجذر الأصلى وفق أوزان ثابتة لكل منها معناها التوسعى المحدد ، بغض النظر عن جذر اللفظ الأصلى . من ذلك فى العربية فَعَلَ وفَعّل وتفَعّل وانفعل واستفعل وفاعَلَ وتَفَاعَلَ الخ . وليست أحرف الزيادة التى تلحظها وسط الجذر كتضعيف العين فى فَعّل ، والمد بالألف فى فَاعَل ، أو المضافة فى أول الجذر مثل

الهمزة والنون فى انفعل ، والهمزة والسين والتاء فى استفعل ، كاللواصق فى اللغات الهندية ـ الأوروبية ، لأن أحرف الزيادة هذه ليس لها فى ذاتها معنى كما هو الحال فى لواصق اللغات الهندية ـ الأوروبية ، وإنما لها وظيفة صرفية ، تصرف جذر اللفظ عن معناه البسيط إلى معناه الموسع .

وأيا كانت ميزة الصرفِى على الغَرَوى ، مما لا نتصدى له الآن ، فهى عند اللغويين سمة فارقة حاسمة بين المجموعات اللغوية .

□□□

وأما الفوارق بين لغة ولغة من نفس الفصيلة ، كفوارق ما بين العربية والعبرية من الفصيلة السامية ، والتى تجعل منهما لغتين مختلفتين بحيث تعتجم العبرية على السامع العربى ـ كما تعتجم العربية على السامع العبرى ـ فلا يفهم أحدهما شيئا من لغة الآخر حتى يترجم له ، فمن هذه الفوارق بين العربية والعبرية على سبيل المثال [١] ، القلب والإبدال . أما القلب فهو تغيير ترتيب أحرف الكلمة ، مع اتحاد المعنى ، ومثاله من العربية نفسها الجذران " جَذَب " ، " جَبَذ " ، بمعنى شد فى كليهما ، وغيرهما كثير . وأما الإبدال فهو تغيير حرف بحرف آخر قريب من مخرجه، مع بقاء المعنى ، ومثاله من العربية نفسها " سِراط "، " صِراط " ، بمعنى الطريق فى كليهما . ومن الإبدال أيضا ، المبادلة بين أحرف المد ، كإبدال المد بالواو مدا بالياء ، ومثال هذا من العربية نفسها "ساع / يسوع " ، " ساع / يسيع " ، وكلتاهما بمعنى ضاع وهلك .

ويتفاقم أمر القلب والإبدال ما بين العربية والعبرية حين يكون لصورة اللفظ المتحور فى إحدى اللغتين بالقلب والإبدال معنى مغاير تماما لمعناه فى اللغة الأخرى . من ذلك أن " نِجِب " العبرية (ومعناها الجنوب) ليست من " النجابة " ، وإنما هى

---

(١) اخترنا المقارنة بين العربية والعبرية مثالا فى هذا السياق لقرب ما بين هاتين اللغتين ، تيسيرا على القارىء العربى غير المتخصص . ولأغراض هذا التيسير أيضا التزمنا فى هذا الكتاب رسم الألفاظ العبرية (والآرامية أيضا) بالخط العربى ، لا بالخط العبرى ـ الآرامى . ولن تستعصى القراءة الصحيحة لتلك الألفاظ العبرية الآرامية برسمها العربى على من يجيدون العبرية والآرامية من قراء هذا الكتاب ، فقد ضبطناها بالشكل والنقط أقرب ماتكون إلى نطقها العبرى أو الآرامى .

مقلوب الجذر العربى " جنب " . أما " جنب " عبريا فليست من الجنوب فى شىء ، وإنما هى بمعنى "سرق " . ومن ذلك أيضا أن " صَنَمْ " العربية (مفرد أصنام) تصبح "صِلِم " فى العبرية . ولكن صَلَم عربيا (باللام) تعنى قطع واستأصل (وغلبت فى الأنَف والأذن) ، فلا تفهم أى المعنيين يريد ذلك العبرانى الذى يحدثك . ويزداد الأمر سوءا حين تعلم أن " صلم " العبرانية تفيد أيضا الظلام والظلمة (من أظْلَمَ العربى أبدلَت ظاؤها صادا) ، أما "الظُّلْم " نقيضُ العدل فهو فى العبرية بالطاء " طلم " (وطَلمه عربيا يعنى ضربه بكفه مبسوطة، وهو أيضا وَسَخُ الأسنان من إهمال تنظيفها ، ليس له بالظلم صلة) . أما " صنم " عبرانيا فلا صلة له بالأصنام ، وإنما هو من النضْج والإنضاج . وقِس على هذا الكثير الذى لا يحصى بين هاتين اللغتين .

وإلى جانب القلب والإبدال ، تفتقر العبرية إلى ستة أحرف أصلية موجودة فى العربية ، هى بترتيبها على أحرف الهجاء العربية : الثاء والخاء والذال والضاد والظاء والغين . أما الضاد والظاء فلا وجود لهما مطلقا فى العبرية نطقا وكتابة ، فما كان بالضاد فى العربية انقلب غالبا إلى صاد فى العبرية ، مثل "ضحك" العربية التى تنقلب إلى "صحق" فى العبرية (أبدلت أيضا كافها قافا)، ومنه اسم نبى الله إسحاق كما سترى ، وما كان بالظاء انقلب غالبا إلى طاء أو زاى ، وربما إلى صاد ، مثل "ظبى " التى تصبح " صبى " فى العبرية . أما الأحرف الأربعة الأخرى (ث ـ خ ـ ذ ـ غ) ، فلا وجود لها فى العبرية أيضا ، أى فى الكتابة ، ولكنك تسمعها فى مواضع مخصوصة من محدثك العبرانى الذى ينطق لك التاء ثاء ، والكاف خاء ، والدال ذالا ، والجيم غينا ، حين يتحرك ـ أو يعتل ـ ما قبلها (حين يكون لها قبلُ) ، شريطة ألا تُضَعَّف هى . من ذلك أن " بَيْت " العبرية (وهى بيت العربية) تنطق " بَيْث " ، و "ملك " (وهى مَلك العربية) تُنطق "مِلِخ" (ولكن المؤنث منها وهو مَلْكَه تسكن لامُه قبل الكاف فتنطق الكاف على أصلها). من ذلك أيضا " يِهود " التى تنطق "يِهوذ"، ومثله أيضا " رَجَم " العبرية التى تنطق " رَغَم " لتحرك الراء قبل الجيم فصارت جيمها فى النطق غينا [1] . ولعلك لاحظت أن التفاوت فى نطق هذه الأحرف العبرية الأربعة فى مواضع مخصوصة مع نطق الحرف على أصله فى غيرها ، هذا التفاوت لا يضيف جذرا جديدا إلى تلك اللغة ، وإنما هو مجرد " لهجةٍ " فى نطقه فى مواضع

(١) المعنى به فى هذا الكتاب هو " عبرية التوراة " لا العبرية " المعاصرة "

مخصوصة لا تغير من أصل معناه . ولعلك لاحظت فى هذا السياق أيضا ، أن زيادة الأبجدية العربية (٢٨ حرفا ليس من بينها اللام ألف) بستة أحرف أصلية على الأبجدية العبرية (٢٢ حرفا) تثرى العربية بكم هائل من الجذور الثلاثية لا تستطيعه العبرية ، ذلك أن الحرف الواحد مجموعا إلى حرفين اثنين فقط من حروف الأبجدية (ولتكن ض ـ ب ـ ر) يعطيك عشرة جذور ثلاثية ممكنة : بَضٌ ـ ضَبٌ ـ رَضٌ ـ ضَرٌ ـ ضبر ـ ضرب ـ رضب ـ ربض ـ برض ـ بضر ، كلّها مستعمل مسموع فى العربية عدا الجذرين الأخيرين "برض" و"بضر " الباقيين فى خزائنها ، تستطيع استخراجهما حين تشاء [1] . وقس على هذا اجتماع الضاد مع باقى الحروف .

من جهة أخرى تفتقر العربية إلى صوتين فى العبرية ، هما الپاء (P) الثقيلة ، والباء المرققة التى تخف وتسيل فتصبح ڤاء (V) ولكن هذين الصوتين غير أصيلين فى العبرية ، وإنما هما نفساهما الفاء والباء : تنطق الفاء باء ثقيلة (پاء) حين لا يتحرك أو يعتل ما قبلها (أولايكون لها قبلٌ) أو حين تُضعَّف (مثل پَرْعُو العبرية بمعنى فرعون) وتنطق كالفاء العربية فيما عدا ذلك . أما الباء العبرية فتنطق كالباء العربية حين لا يتحرك أو يعتل ما قبلها (أو حين لا يكون لها قبل) أو حين تُضعَّف ، وتنطق باء مرققة سائلة (ڤاء) فيما عدا ذلك (مثل " آڤ " (AV) العبرية يعنى أَبٌ ، وعكسه " بَا " العبرية ومعناها (جاء) . وهذا أيضا لا يضيف إلى العبرية جذورا جديدة تتميز بها على العربية ، وإنما هو مجرد لهجة فى نطق الحرف فى مواضع مخصوصة ، لا تغير من أصل معنى الجذر الذى يحتويه ، مع نطق الحرف على أصله فى غيرها . من ذلك الفعل " كَفَر " المشترك بين العربية والعبرية معنى ونطقا وكتابة، ولكن الفاء فيه حين تُضعَّف ، تنطق فى العبرية باء ثقيلة (P) ، كما فى " يُوم كِپُّور" أى " يوم الكفَّارة " . ومثله أيضا الاسم العبرانى " أيوب " ، الذى ينطق فى العبرية " إيُّوڤ " ، رُققت باؤه وأسيلت لاعتلال ما قبلها (الواو) فنطقت باؤه ڤاء . ومثله أيضا " أبْراهام " (إبراهيم) الذى ينطقه العبرانيون " أڤراهام " لتحرك الهمزة قبل الباء .

من وجوه المغايرة الصوتية أيضا بين العربية والعبرية ، اصطناع العبرية

---

(١) هذا باب واسع غفل عنه " المعربون ، يتيح " اختراع " الألفاظ لمستحدثات الحضارة .

"المد بالكسر"(أى إطالة زمن نطق الكسرة دون انقلابها ياءً ثقيلة) وقرينه "المد بالضم" (أى إطالة زمن نطق الضمة دون انقلابها واواً ثقيلة) ولا وجود لهما أصلا فى العربية الفصحى [١] ، وإن كانا موجودين فى العربية العامية ، مثلما ترى فى كلمة " بَيْت " العربية التى تنطق فى العامية مكسورة الباء ممدودة الكسـرة " بِيت" ، ومثل كلمة " يَوْم " التى تنطق "يوُم " . والفرق بين المد بالكسر وبين المد بالياء أن الكسر فى المد بالياء ثقيل ، تحتشد له عضلات الفم واللسان ، كما فى كلمة "عِيد" بينما هو فى المد بالكسر مخفف مرقق ، كما فى كلمة " ليش " (بمعنى لأى شىء) العربية العامية ، ترتخى فيه عضلات الفم واللسـان . وهكذا أيضا الفرق بين المد والضم وبين المد بالواو فى مثل " عُود" و " يُوم" وإذا لاحظت أن العبرية ـ شأنها شأن العربية العامية ـ تصنع ذلك كلما كان الأصل فى العربية الفصحى الوقـوف بعد فتح على الواو واليـاء ، فى مثل " يَوْم " و "رَيْب" ، والوقوف عليهما ثقيل ، بدت لك العبرية وكأنما تنشد التسهيل ، كما تفعل العربية العامية ، وكما فعلت الانجليزية المعاصرة مثلا بالحرفين (au) " آو " و (ai) " آى " اللذين سهلتهما الانجليزية المعاصرة ، والفرنسـية المعاصرة أيضا دون سائر أخواتـها اللاتينيات ، إلى " أوه " و "إيه" على الترتيب .

هناك أيضا مغايرة بين العربيـة والعـبريـة فى النحو والصرف ، لا توجد فى العبرية علامات " إعراب " ، وإنما الأصل " البناء " ، أى بقاءُ اللفظ على حاله وصورته أيا كان موضعه من الإعـراب رفعـا ونصبـا وجـرا وجزمـا كما تفعل العربية العامية ، وكما آلت إلـيه الانجليزية والفرنسية بين أمهات اللغات الأوروبية الحديثة .

وليس فى العبرية صيغة للمثنى ، وإنما هو الجمع لا غير . عدا استثناءات قليلة منقرضة من مثل " عَيْنَيْم " مثنى " عين " (أداة الإبصار) ، ومثل " نَهْرَيْم " مثنى "نهر " (فى عبارة " آرام نَهْرَيْم " ، أى آرام ما بين النهرين) . ولا وجود لجمع التكسير فى العبرية ، وإنما هو الجمع السالم لا غير ، وصورته البناء على الياء بعدها ميم (لا نون كما فى العربية والآرامية) فى جمع المذكر ، مثل " بَنِيم " (يعنى " بنون "

---

(١) باستثناء حالات " الألف الممالة " التى تثبت سماعا عن أصحاب القراءات فى مثل ياء " مَجْرِيها ومرساها " . وإمالة الألف هى نفسها المد بالكسر .

العربية) والمد بالضم بعدها تاء ساكنة (لا المد بالألف بعدها تاء كما فى العربية والآرامية) فى جمع المؤنث ، مثل " بَنوت " (يعنى " بنات " العربية) . كما تفتقر العبرية إلى صيغة " أفعل التفضيل " مثل " أكبر" و " أصغر" وما إلى ذلك ، فتحتال عليها بصيغ مخصوصة من مثل " الابن الكبير " فى موضع أكبر الأبناء ، وهلم جرا .

ومن أمثلة المغايرة بين العربية والعبرية فى موازين الصرف ، أن العبرية تضع الوزن " فُعِيل " (مدا بالكسر) لزنة اسم الفاعل ، والوزن " فَعُول " (مداً بالواو) لزنة اسم المفعول ، وأحيانا كثيرة الوزن " فَعُول " (مدا بالضم لا بالواو) لزنة مصدر الثلاثى المجرد . من ذلك " حُمِيذ " بمعنى حامد ، و "حَمُوذ " بمعنى محمود ، و " حَمُوذ " (مدا بالضم) بمعنى الحمد ، الخ .

أما أخطر وجوه التغاير بين العربية والعبرية ، وأدلها أيضا على أصالة العربية وسبقها للعبرية (وللآرامية أيضا) فى الزمان والمكان ، فمنها تفوق العربية تفوقا ساحقا بوفرة المادة اللفظية الأصلية (الجذر الثلاثى) بما لا يُقاس على العبرية والآرامية ليس فقط بسبب زيادة الأبجدية العربية بستة أحرف أصلية (ث ـ خ ـ ذ ـ ض ـ ظ ـ غ) كما مر بك ، فتستطيع الإتيان مثلا بالجذرين " خَرَجَ " و "حَرَجَ" كلا بمعنى ، ولا تستطيع العبرية إلا الثانى وحده بمعنى " ضاق " وغير هذا أكثر من أن يحصى ، وإنما أيضا لكون العربية أوفر أوزانا وأضبط وأقيس ، تستطيع الإتيان بالطريف المعجب دون زيادة فى أحرف الجذر ، وإنما فقط بتغيير حركة عينه . من ذلك الفعل "صَنَعَ " أى كان صانعا شيئا ما ، سَفْسَفَ فيه أو أتقنه ، و" صَنِعَ " أى كان حاذقا ماهرَ الصنعة ، وغيره كثير .

ومن وجوه الأصالة والتفوق أيضا أن العربية تستنفد من الجذر الأصلى كل معانيه ـ الرئيسى والمترتب عليه ـ على حين تقتصر العبرية والآرامية غالبا على وجه واحد تجمدان عليه . من ذلك الفعل " حَمَدَ" ، فهو فى العربية بمعان يتسلسل بعضها من بعض : حَمَدْتُه يعنى رضيتُه وأعجبت به ، وحمدته أيضا يعنى ذكرت محاسنه فمدحته بما هو أهله ، وحمدت له أمرا يعنى استحسنت له ، وحمدته أيضا يعنى ذكرت له نعمة فشكرتها وأثنيت عليه لجوده بها . أما العبرية فتقتصر من

"الحمد" على وجه واحد ، هو الرضا والإعجاب : حمدته العبرية تعنى أعجبنى وحلا لى(١).

أما أكثر أوجه المغايرة دلالة على أصالة العربية وسبقها فهو أن العربية لا يوجد فيها لفظ مشتق إلا وهى تستخدم ثلاثية المجرد فى أصل المعنى الموضوع له، أما العبرية فيكثر فيها المشتق الذى لا جذر له. معنى ذلك أن العبرية تأخذ اللفظ المشتق على صورته عند أصحابه دون فهم أصل معناه فى جذره الثلاثى. والجذر بالطبع أسبق وجودا من اللفظ المشتق منه . العبرية إذن ناقلة عن العربية، ولا يتصور العكس.

من ذلك أن الفعل العربى "نَجَلَ" بمعنى قطع وطعن - ومنه "المِنْجَل" أداة الحصاد - لا وجود له فى العبرية ، ولكن الموجود فى العبرية من مادة الجَذر العربى "نَجَلَ" اللفظ "مَجّال" (وأصلها "مَنْجال") أى المنجل : استعارت العبرية "المِنْجل" ولم تستعر "النَّجْل" .

هذا يفسر لك لماذا يلجأ اللغويون إلى المعجم العربى لمحاولة فهم غوامض العبرية والآرامية وبوائدهما ، مثلما يفعلون لمحاولة فهم غوامض غيرهما من بوائد الساميات .

---

(١) هذا عندى هو الوجه المنعوت به صلى الله عليه وسلم بمقتضى تسميته " محمدا " ، أى الحميد الخَلْق والخُلُق، الحميد الأفعال والصفات . وهو أيضا - وهذا جديد نفيس لم تقرأه من قبل - الذى جاء فى العهد القديم نبوءة بمبعثه صلى الله عليه وسلم على لسان حجاى النبى : " ويا حمدَت كل هَجويم " (سفر حجاى : ٢/٧) ، يعنى " ويجىء حمدَةُ كل الأمم" أى الذى تحمده كل الأمم ، يعنى يحمده كل من نطق باسمه ، وإن جحده وأنكر نبوتَه .

والنصارى يُسقطون هذه النبوءة على المسيح عليه السلام ، وليس بشىء ، لأن المسيح لا يحمده من جحده وأنكره ، ومنهم اليهود على الأقل .

وهذا أيضا بعض معنى قوله عز وجل : { ... النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل } [الأعراف : ١٥٧] ، أى نبى كل الأمم ، الموصوف بنعته فى التوراة والإنجيل اللذين بين أيديهم عصر نزول القرآن وإلى الآن .

ومن أسف أن تراجمة العهد القديم يترجمون عبارة " حمدَة كل الأمم " بعبارة " مُشْتَهى كل الأمم " ، ربما لطمس معنى " الحمد " فى النبوءة . ولو أنصفوا لاستبقوا لفظ " الحمد " فى النص العربى على الأقل - بصورته المشتركة بين العربية والعبرية .

ربما اعتذرتَ لهم بأنهم لو سلموا بهذه النبوءة لسلموا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وربما ظننت أيضا أنهم لا يُسلِّمون بالاشتراك بين "حَمَد" العربى و "حَمَد" العبرانى ولكن آباءهم فى الأندلس كانوا يسلمون بهذا الاشتراك، بدليل نطقهم اسم النبى لنصارى الأسبان والفرنسيس لا على زنة مُفَعَّل العربى - أى محمد - وإنما على زنة نظيره العبرى مفْعُل - أى محْمُد - بنفس المعنى عبريا، ومن هنا قال الأسبان Mahoma وقال الفرنسيون Mahomet اللَتين تحار فى تعليل تحريفهما، وربما أسأت الظن فحسبت أنهما "ما حُمِّد" نفيا للحمد عنه صلى الله عليه وسلم.

لهذا صح عند اللغويين الأثبات أن العربية هى أم الساميات جميعا ، لأنها الخزانة اللغوية التى تغترف منها سائر لغات الفصيلة ولا تنضب هى ، بل لديها دائما المزيد . وربما تَرَجَّحَ عند بعضهم أنها أيضا الأصل البعيد الذى انشقت عنه وتحورت سائر لغات المجموعة الإفريقية ـ الآسيوية ، ومنها المصرية والحبشية .

ولكنك فى أقل القليل تستطيع أن تؤكد ـ مصيبا غير مخطىء ـ أن اللغة العربية ـ أيا كان الشكل الذى تطورت منه إلى الشكل الذى نزل به القرآن فى مطلع المائة السابعة لميلاد المسيح ـ كانت هى نفسها فى عصر ما غير بالغ القدم اللغة السائدة بين سكان شبه الجزيرة من أقصى اليمن إلى أقصى الشام ، وأن الآرامية التى ارتحل بها آباء إبراهيم من العراق إلى سورية ، والعبرية التى ارتحل بها إلى مصر يعقوب وبنوه ، وعاد بها بنو إسرائيل إلى جنوبىِّ فلسطين بغير الوجه الذى ذهبت به فتعاجموا بها على إخوانهم الموآبيين [١] ـ هذه وتلك وسائر ما تكلم به أهل الشرق الأدنى القديم فى شبه الجزيرة ـ ليست إلا لهجات قبلية متحورة عن هذه العربية نفسها ، تَهجَّنت بها ألسنتهم بتأثير الغزو اللغوى الحضارى الذى توالى على أطراف شبه الجزيرة ، شرقيها وشماليها ، وسلم منه قلبُها فى الحجاز ، وإلى حد بعيد جنوبيها فى اليمن .

على أنك إزاء هذا المستوى الفنى الرائع الذى ارتقت إليه تلك اللغة الفذة نحوا وصرفا وإعرابا ـ ضد منطق التاريخ ومنطق الحضارة ـ والذى تلمسه قبيل نزول القرآن ـ فيما صحت نسبته إلى الجاهليين من شعر ـ لابد يخايلك إحساس مبهم بأن تلك اللغة لا ريب سليلة حضارة موغلة فى القدم سبقت عصر الطوفان وسبقت عصر التصحر والجفاف فى شبه الجزيرة ، ثم ضاعت فى ضباب التاريخ .

ولكننا لا نخوض بك فى تاريخ ما قبل التاريخ ، فلا علاقة لموضوعنا بهذا الفن ، ولسنا نحن أيضا من رجاله .

---

(١) الموآبية هى أقرب اللهجات إلى العبرية . والتسمية عبرانية (مو + آب) أى ماء أبينا ، أى الذين يجمعنا بهم أب واحد وتفرقت بنا العلات . ومن أشنع أباطيل سفر التكوين الذى بين يديك قولهم إن الموآبيين هم أبناء لوط من ابنتيه : خلتا به بعد أن أسكرتاه الواحدة بعد الأخرى ليكون له منهما نسل ، وكأنما عدمت الأرض رجالها ونساءها بعد خراب سدوم ، وكأنما لوط فى فراره بابنتيه من القرية التى كانت تعمل الخبائث ، كان يفر من الرمضاء إلى النار . بل النار مثوى الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ويقولون هذا من عند الله !

(٤)

تحدثنا فيما سبق عن أوجه التقابل والتغاير بين العربية والعبرية داخل الفصيلة السامية ، وما ذكرناه بشأن العربية والعبرية ينطبق فى جملته ، مع بعض تفاوت ، على ما بين العربية والآرامية ، وعلى ما بين الآرامية والعبرية تلك اللغات السامية الثلاث الألصق بموضوع هذا الكتاب . ما أردناه هو التمثيل لوجوه التقابل والتغاير بين أفراد الفصيلة اللغوية الواحدة ، التى تجعل إحداها كلاما أعجميا فى سمع أهل اللغة الأخرى من نفس الفصيلة ، وفيما ذكرناه كفاية . بل قد أطنبنا إطنابا نعتذر لك عنه أيها القارىء العزيز ، وعذرنا أن الإفاضة بعض الشىء فى المقارنة بين العربية والعبرية بالذات ، تفيدنا فى استجلاء " عجمة " العَلَم العبرانى الذى نتصدى له فيما يلى من فصول الكتاب .

□□□

هذا التقارب ، والتغاير أيضا ، بين أفراد فصيلة لغوية معينة ، ولتكن الفصيلة السامية، داخل أسرة لغوية معينة، ولتكن أسرة اللغات الإفريقية ـ الآسيوية، يدلان على أن التقارب قد كان منشؤه التجاور فى الزمان والمكان حقبة من الدهر بين أبناء الفصيلة اللغوية الواحدة ، لأن اللغات تُتَعلَّم بالمحاكاة والتقليد ، وهذا لا يتسنى إلا فى بيئة معيشية مشتركة .

على أن التقارب ـ وهو دون التطابق ـ يفيد بذاته وجود مغايرة بقدر ما بين اللغتين من ذات الفصيلة ، لا يمكن تفسيره إلا بحدوث انفصال بيئى بنفس القدر بين أبناء هاتين اللغتين تعرضت إحداهما خلاله ـ بالمحاكاة والتقليد أيضا ـ لتأثيرات لغوية من حضارات مجاورة ، أو غزوات لغوية ـ حضارية شنها أقوام يتحدثون غير اللغة . ليس هذا فحسب ، بل إن هذا الانفصال البيئى ربما صاحبه انفصال حضارى فى اتجاه

مغاير ، استتبع تطور اللغة فى اتجاه مغاير لتطور اللغة التى انشقت منها ، فتتباعدان إلى حد التعاجم .

ذلك أن اللغات ، بغض النظر عن الغزو اللغوى ـ الحضارى ، لا تثبت قط على حال ، بل تنمو وتتحور أيضا ، لا بفعل المؤثرات الخارجية وحدها ، وإنما أيضا بفعل ارتقاء ـ أو ارتكاس ـ الحضارة الذاتية لأبناء اللغة : تنتعش الحضارة فتغنى اللغة ، وينضب معين الحضارة فتذوى اللغة أو تموت . والأصل فى هذا أن الألفاظ أوعية المعانى ، تماما كما أن الجسد وعاء الروح : لا يولد فى اللغة لفظ جديد إلا متلبسا بمعنى جدّ لأهل اللغة .

والحضارة التى يصيبها العقم فلا تتطور ولا تُبدع ولا تبتكر ، تعقم لغة أهلها أيضا فلا تولدُ فيها ألفاظ جديدة لمعان ومسميات جديدة سبقهم إلى الوقوع عليها أبناء الحضارة الغالبة ، أصحاب الحق الأول فى تسمية ما يكتشفونه ويبتدعونه . وبقدر ما تتهجن الحضارات التوابع ، تتهجن اللغة ، لأن اللغة التى عقمت بعقم حضارة أهلها لا تجمد مفرداتها فحسب على ما جمدت عليه حضارتهم ، ولا تضمر مفرداتها فحسب وتشيخ ، وإنما يهجرها أهلها أيضا إلى ألفاظ "أعجمية" تلتوى بها ألسنتهم ، هى تلك الألفاظ التى اصطنعها أصحاب الحضارة الغالبة لما استحدثوه أو تطوروا إليه من أنماطِ حياةٍ وأدوات حياة .

وعيبُ اللفظ المنقول علَى أصلَه الأعجمى إلى اللغة المستعيرة أنه ليس دالا بذاته على أصل معناه فى لغة المنقول عنهم ، فيلتبس على غير المتخصص من أبناء اللغة المستعيرة ، وربما استخدم فى غير ما وضع له . يحدث هذا بالتحديد فى ألفاظ "المعانى" ، أى الألفاظ الدالة على الفعل وهيئة الفعل ، من مثل " الاستراتيجية " و " الديمقراطية " ، الخ ، فى اللغات المعاصرة ، مما ليس له مقابل مادى خارج الذهن، يوضحه ويجليه ويذكّر به ، أكثر مما يحدث فى أسماء الأشياء والمنتجات والمصنوعات والعُدد والآلات والمكتشفات والمخترعات التى سبقت إليها الحضارة الغالبة مثل " الرادار" وغيره ، مما له خارج الذهن مقابل مادى يوضحه ويجليه ويذكِّر به .

أما اللغة التى تستعير من غيرها معانى الأفعال وأسماء الأفعال ، فهى لغة قد عقم تفكير أهلها وضحل ، ينتظرون من غيرهم أن يفكر لهم ، ثم يأخذوا عنه أخذ الببغاء والقردة ، فيزدادوا تبعية ويمعنوا ارتكاسا ، لغة أهل الحضارة الغالبة هى المثل

على تطور اللغة بتطور الحضارة الذاتية لأبناء اللغة ، ولغة الحضارة التابعة هى المثل على تحور اللغة بتأثير الغزو اللغوى ـ الحضارى .

ولأن الألفاظ هى أوعية المعانى ، تماما كما أن الجسد وعاء الروح ، تستطيع أن تقول إن المعانى يتوالد بعضها من بعض بقدر ما تتوالد الألفاظ بعضها من بعض، أى بقدر ما تكون اللغة قادرة على نحت الألفاظ واشتقاق اللفظ من اللفظ .

وتستطيع أن ترتب على هذا ـ مصيبا غير مخطىء ـ أن اللغة الأغزر ألفاظا أو الأقدر على نحت جذور الألفاظ ، هى اللغة الأقدر على توليد المعانى،وأنها اللغة الأدق عبارة، الأوضح فكرة ، الأطوع لتشقيق المعانى ، الأقوى على التخيل والإبداع، الأملك لعنان الفكر ، الأثبت فى وجه الغزو اللغوى ـ الحضارى .

ولأن الحروف ـ أى الأصوات ـ هى لَبِناتُ الألفاظ ، تستطيع أن تقول إن اللغة الأقدر على نحت جذور الألفاظ ، هى اللغة الأكثرُ احتواءً لكافة الأصوات المفردة الممكنة ، أى الأوفرُ أصواتاً وحروفَ نطق .

وتستطيع أن تضيف إلى هذا أن اللغات الصرفية ذوات الأوزان ، كما هو الحال فى اللغات السامية ، وأمها العربية ، هى وحدها ـ دون اللغات الغروية ـ الأقدر على تمثيل الألفاظ الأعجمية وهضمها ، لأنها ـ وبالذات اللغة العربية ـ لا تقبل اللفظ الأعجمى على صورته فى لغته ، وإنما تعربه فتجانس بين حروفه على مقتضى مخارج أصواتها ، ثم تُقَوْلِبه فى قوالبها وتصبه فى أوزانها، ثم تشتق منه ، وتتصرف فيه، حتى يبدو اللفظ الأعجمى لغير المتخصص وكأنما ولد عربيا لأبٍ عربى .

واللغة العربية فى هذا كله ـ دون سائر اللغات ـ فرس لا يدانى ، لأنها الأكثر حروفا ، الأغزر جذورا ، الأوفر أوزانا ، الأضبط نحوا وموازين صرف . ولكنها أيضا ـ ولنفس الأسباب ـ اللغة الأقمن باشتباه الأعجمى فيها بالعربى ، لأن اللفظ المنقول إليها ذابت عجمة معناه فى عروبة صورته بعد تعريبه [(١)] .

□□□

---

(١) قارن فى هذا السياق " ساذَج " المعربة عن الفارسية " ساده " بمعنى النقى الخالص ، وأيضا الاسم اللاتينى " كَيْسَر" المعرب إلى" قَيْصَر" ، والاسم الأسبانى " رُذريجو " المعرب إلى "لُذريق"، وغيرها كثير . ومن متحذلقة " الأساتيذ " فى هذا القرن الذين أدركتهم عجمة العلم واللسان من عاب على القدماء ، فرماهم بالجهل أو ظن بهم الخطأ ، ولا يدرى أنه مقصود .

على أن النَّقَلَةَ العرب فى العصر الحديث ، لا سيما فى نصف هذا القرن الأخير ، لم يلتزموا قواعد التعريب التى تقتضيها أوزان اللغة العربية ومخارج أصواتها : عربوا " الخط " ولم يعربوا " اللفظ " ، فأساءوا ولم يحسنوا . وقد مهد لهذا ـ رغم جهود محو الأمية ونشر التعليم فى عصرنا ـ شيوع العامية وتراجع الفصحى على الألسنة ، لا فى لغة الحديث اليومى فحسب ، بل وفى الخطابة وفى الإذاعة والتلفزة ، حتى استجازتها الصحف فتسللت إلى أقلام أهل الفكر والفن والأدب ، وحتى أصبح استيعاب قواعد النحو والصرف والإعراب وتعلمها وتعليمها ، على بساطتها فى العربية وانضباطها ، مشكلة كبرى لجمهرة المثقفين أنفسهم ، فما بالك بغيرهم ؟

بمثل هذا ـ وقد بدأ بالفعل ـ تستحيل اللغة رطانة شائهة هجينة ، تعتجم على القائل والسامع . والذى تَشُوه لغته وتعتجم لا يحسن القول ولايحسن الفكر ، ومن ثم لا يحسن التلقى ولا يحسن العمل .لأن اللغة ليست أداة التعبير فحسب ، ولكنها أيضا ـ وبالدرجة الأولى ـ أداة العقل والفكر [١] .

والغريب أن دعاة " التحضر " فى هذا العصر ، لا يُعيرون هذه "القضية الحضارية" التفاتا . والأعجب أن دعاة القومية " العربية " فى هذا العصر ـ واللغة العربية عنصرها الأول والأهم ـ هم دعاة " التغريب" أيضا . ويا له من تناقض !

على أن اللغة العربية ـ والقرآن كافلها وكفيلها ـ أكرم على الله عز وجل من أن تهان ، وأسمى من أن تبتذل ، وأقوى من أن تهزم ، وأخلد من أن تبيد .

تلك كبوة حضارية عابرة ، ليست القاصمة . وكم صادف أهل القرآن كلما تنكبوا صراط القرآن كبوات .

لن تقوم الساعة حتى يُتْلَى القرآنُ عربيا فلا يُفهَم ، ويدعى به فلا يُستَجاب .

فهل آن لأهلِ القرآنِ أن ينتبهوا من غفلتهم ، فيردعوا سُفهاءَهُم ؟

قال صلى الله عليه وسلم يأمر أهل القبلة : {**أيها الناس ، إن لكم معالم، فانتهوا إلى معالمكم !**}

نعم . لا علاجَ لهذه القضية الحضارية إلا العلاجُ الحضارى الشامل . وهو لهذه

---

(١) أولى بمن لا يحسن التفكير والتعبير بلغته ألا يحسن التفكير والتعبير بغيرها . من ذلك ما تسمعه من محدثك فى الإذاعة والتلفزة الذى يردف لك اللفظ العربى بما يظنه المقابل الأعجمى ، وكأنما يريد أن يثبت المعنى فى ذهنه وذهنك .

الأمة ـ كما كان لها فى كل زمن ـ عودة أهلِ القبلة إلى قبلتهم ، أى ثوبان المسلمين إلى قرآنهم الذى اتخذوه اليوم وراءهم ظِهْرِيا ..

فالآن الآن .. وإلا فلا .

أما كيف السبيل وما المنهج ، فالحديث فى هذا يطول ، ليس موضعه بالطبع هذا الكتاب ، وإنما عليك به فى كتاب آخر ،مدققا مفصلا، ولنرجع نحن الآن إلى ما كنا فيه قبل هذا الاستطراد ، لنصل ما انقطع .

(٥)

مر بك أن اللغات يلقح بعضها بعضا ، ويستعير بعضها من بعض . وهو تلاقح محمود ، فوق أنه محتوم .

وهو محتوم لا مناص منه لأنه ناشيء عن احتكاك القبائل والشعوب بعضها ببعض سلما أو حربا ، يموج بعضهم فى بعض ، ويجوس بعضهم فى ديار بعض ، فيعرفون وينكرون [١] : يعرفون ما ألفوا له مثيلا فى قومهم ، وينكرون ما لم يسبق لهم به عهد ، حسن أو قبح . ويعود كل إلى أهله بما رأى وسمع .

هَبْ أنك عربى عاش فى قرون خلت ، زرت الصين فقدم لك أهلها شرابا قوى النكهة حسوته فاستطبته فسألت عنه ، فقالوا لك : هذا شا ! [٢] فقلت فى نفسك : ما أطيب هذا الـ " شا " ! وما عتمت أن رجعت إلى أهلك وفى جرابك بعض من هذا النبْت العجيب ، تغلى لهم ورقه ، وتديره على جلسائك ، يحتسونه ويستطيبونه كما استطبته أنت من قبل ويسألونك عنه فتقول :هذا " شاى " ! أضفت الياء من عندك ليستقيم لك الوزن العربى الذى مرن عليه لسانك . على هذا النحو أو قريب منه عرف العرب " الشاى " ، الاسم والمسمى . وقس فى المقابل على الشاى ما شئت من مثل "جمل" العربية التى صارت Kamelos فى اليونانية و Camelus فى اللاتينية ، و Chameau فى الفرنسية و Camel فى الانجليزية ، إلى آخره . من هذا أيضا أن اليونان ما كان لهم أن يسموا "الواحة" قبل أن يروا الصحراء ، وما كان لهم أن يروا الصحراء قبل أن يزوروا مصر ، ومن هنا " Oasis " اليونانية التى انتقلت بنصها إلى اللاتينية وبناتها والآخذات عنها ، وهى فى الأصل مصرية قبطية .

---

(١) نَكِرت الشيء يعنى انبهم عليك فلا تدرى ما هو ، ومنه تنكر بمعنى تخفى وتجهل ، لا يريد أن يتعرف لك ، أى لا يريد أن يبدو منه ما " تَعْرِفُه " به . ومن هذين أيضا " المعروف والمنكر " : المعروف هو المأنوس الذى طابق العادة والإلف ، والمنكر هو المرذول الذى خرق العادة والإلف .

(٢) تنطق أيضا شينُها تاء فى حوالى ١٠ فى المائة من اللهجات الصينية ، ومن هذه جاءت Tea الانجليزية و 'The الفرنسية ، الخ .

هذا التلاقح اللغوى المحتوم ، محمود أيضا لأنه يثرى اللغة المستعيرة بما يحتاج أهلها إلى اصطناعه ، مما ليس لديهم ، اسما ومسمى . وهو مقبول مشكور بالذات فى أسامى النبات والحيوان والجماد ، مما سبقك غيرك إلى تسميته ، ومثلها أسامى الأطعمة والألبسة والعدد والأجهزة ، الخ . متى اصطنعت المسمى فلا بأس عليك من استعارة التسمية . التوقف فى هذا عقيم مرذول ، فوق أنه تنطع ونفاق : كيف تأنف من تسمية " الفالوذج " فارسيا معربا وأنت تسرطه سرطا (١) ؟ وكيف تأنف من قول " رابوت " تعريبا على وزن " تابوت " تلك اللفظة التشيكوسلوفاكية . Robot (التى لم يأنف من استعارتها أصحاب الحضارة الغالبة) ولاتخجل من تشوفك إلى استخدام " الروابيت " فى مصنعك ، تريد " الرَّوْبَتة " ولا تريد " الرابوت " ؟ لو أردت الترجمة بالمعنى ـ و Robot التشيكوسلوفاكية معناها " الخادم " ـ لابتعدت عن ذلك اللفظ السقيم المركب ـ الإنسان الآلى ـ "الخَيْشُبان " فى قصصك الشعبى ـ لأن "الرابوت" ليس بإنسان وليس بالضرورة على شكل إنسان ـ ولقلت مثلا " العفْرِيت " (خادم الخاتم فى قصصك الشعبى) . ولكن هذا وذاك لا يصلحان لأنهما كليهما يشتبهان بمعان أخرى فى لغتك ، فلا يؤمن الخطأ واللبس على السامع والقائل ، كما قلت فى " التليفون " " الهاتف " ، ولو شهده العرب القدماء لقالوا فيه " طَلْفان" ولاشتقوا منه فعلا ومصدرا (طلفن ـ طلفنة) ، يبدلون من التاء فى الجذر طاء كيلا يشـتبه بمادة الجذر " تلف " . هذه هى شـروط " التعريب " الجـيد المقبول فى العربية: (١) اختزال أحرف اللفظ الأعجمى إلى جذر رباعى ـ على الأكثر ـ كى يتاح الاشتقاق منه . (٢) تهذيب أصواته ، أى حروفه ، على مقتضى مخارج الأصوات العربية . (٣) تجنب اشتباهه بجذر لفظ أصيل فى لغتك . إن لم يتسن لك ذلك كله مجتمعا ، فالترجمة أولى .

أما السقيم المقبوح ، فهو استعارة أهل اللغة من أصحاب الحضارة الغالبة لفظا أعجميا لا يحتاجون إليه ، وعندهم مثله ، كمن أراد العدول عن تحية الإسلام إلى تحية الجاهلية ، فقال " بُنْجُور" Bonjour الفرنسية ، ولديه فى لغته " عِمْ صباحا " (وأصلها نعمت صباحا) ، وهى طبق الأصل من تلك . وتستطيع أن تجزم ـ كما أجزم

---

(١) سرط الطعام يعنى التهمه .

ـ بأن هذا القـــائل بغير لغتـــه ، فى " بنجور" وأمثالهـــا هو نفســـه الذى يقول لك : لا مشكلة ! (No problem !) يريد لا بأس ! وهو فى الحالتيـن ـ الرطانة والترجمة ـ ببغاء يهرف بما لا يعرف .

على أن الحديث عن أسباب هذا " التعريب" الببغاوى ونتائجه ، ليس من مقاصد هذا الكـتاب ، وإنما الذى نعنى به هو ذلك التلاقح المحمـود المحتوم بين اللغات ، قديمها وحديثها .

❑❑❑

فى التلقيح والاستلقاح دلالة تاريخية ـ حضارية لا تخفى ، ليست هى فى كل حال أخذ التابع عن المتبوع ، والمغلوب عن الغالب ، فقد يأخذ الغالب عن المغلوب ، والمتبوع عن التابع (كما فى " بطاطة " التى استعارها الغزاة الأوربيون عن أهل الأمريكتين ، وكما " تفلسف " الرومان اللاتينيون على أيدى أرقائهم اليونان ، مثلما أخذ اليونان عن القبط ، والعرب عن الصين على ما مر بك) . بل قد تتجاور الحضارات على استواء تجاور الأنداد ، فيفضى بعضهم إلى بعض ، دون استعلاء أو غضاضة ، مثلما تجاور الفرس واليونان ، والهند والصين ، وآشور ومصر . الدلالة التاريخية ـ الحضارية للتلقيح والاستلقاح فى اللغات ، أى دلالة السبق إلى المعنى بدليل السبق إلى اللفظ ، لا سيما فى المعانى المجردة مثل " تفلسف " وأسامى العدد والأدوات مثل "المنجل" ، هى دلالةُ الأقدمِ وجودا ، الأسبق ارتقاء ، الأفعل تطورا : إنها دلالة الأستاذية أو التلمذة .

وإذا جاز لعلماء التاريخ ومؤرخى الحضارات الاستعانة فى تأصيل مقولاتهم بهذا الشاهد اللغوى فى جملة ما يتاح لهم من شواهد الأحافير والنقوش والمخطوطات فليس من شأن اللغوى المحقق أن يفعل العكس ، فيستدل بسبق حضارى مزعوم على سبق لغوى مفترض ، بل عليه أن يترك لمؤرخى الحضارات مهمتهم ، ويستقل هو بمهمته ، فيبنى مقولاته استنادا إلى مباحثه اللغوية وحدها ، غير متأثر بمقولات المتخصصين فى غيرها ، صحيحها ومنحولها ، مغرضها وبريئها : أصالة اللفظ فى اللغة تبنى أول ما تبنى على وجود جذر أسبق منه ، يستخدم فيها بمعان متعددة متقاربة يتوالد بعضها من بعض ، نحت منها اللفظ المختلف عليه مادته .

من ذلك ، مادة الجذر " قلم " بمعنى قطع وبرى . إنها الأصل العربى لأداة الكتابة الموصوفة فى القرآن بالقلم (العلق : ٤) ، فالقلم هو المقطوع المبرى ، أى المحدد طرفه . والقلم أيضا من أسماء " الزلم " أى العود يُستَقْسَمُ به ، كما تجد فى قوله عز وجل : { **وما كنتَ لديهِم إذْ يُلقُون أقلامهم أيهُم يَكْفُلُ مريم** } [آل عمران : ٤٤] ، وزلمه يعنى قطعه . والقالم يعنى العَزْب المنقطع عن الزواج . والقلامة هى ما يقطع من طرف الظفر والحافر والعود . وقَلّم الشجرة يعنى أخذ من أطرافها لتقوى ، فالقلم أيضا بمعنى الغصن أو العود المقطوع من أمه ، ولا شك أنه قبل اصطناع المداد ، كان القلم من هذه العيدان ، لا من القصب واليراع [١] ، هو أول ما كتب به على عَسيب النخيل ولحاء الشجر ، كما تجد فى قوله عز وجل : { **ولو أنّ ما فِى الأرضِ مِنْ شَجَرَةٍ أقْلام** } [لقمان : ٢٧] .

لفظ القلم إذن ، الذى وصفت به أداة الكتابة فى السورة التى سميت باسمه : { **ن . والقلمِ وما يَسطُرون ، ما أنتَ بنِعْمَةِ ربكَ بمجنون** } (القلم : ١) ، وأداة العلم والتعلم فى أول ما نزل من القرآن : { **إقرَأ وربك الأكرم ، الذى علّم بالقلم، علّم الإنسانَ ما لم يعلَم** } (العلق : ٣ ـ ٤ ـ ٥) ، لفظ عربى أصيل ، منحوت من جذر عربى أصيل (ق ـ ل ـ م) ، تدور معانيه على القطع والقط . وليس من حذاق اللغويين من توهم أن لفظة قلم الموضوعة فى العربية لمطلق أداة الكتابة أيا كان شكله ومادته ـ أى اسم جنس لكل ما يكتب به ـ لفظة مستعارة من اليونانية " كَلَمُس " Kalamos لمجرد التشابه بين اللفظتين ، أولا: لأن " كَلَمُس " هذه فى اليونانية لا تعنى القلم بالذات ، أى ليست هى فى اليونانية اسم جنس لمطلق القلم ، وإنما هى تعنى القصبة واليراعة . ولا شك أن الناس قبل اصطناعهم القلم من القصب ـ والعرب بعض الناس ـ كتبوا بكل ما ينحت وينقش ويخط ، بل كتب المصريون القدماء بالأزميل ، وكتب الإنسان أول ما كتب بإصبعه مجردا . وليس اليونان أول من كتب ، بل إنهم تعلموا فن الكتابة من عرب الشمال (الفينيقيين) [٢] ، بدلالة لغوية قاطعة ، وهى اصطناعهم الأبجدية الفينيقية برسومها وأسامى حروفها .

---

(١) اليراع هو مطلق القصب (نبات القصب) ، أو هو رِقَاقُ القصب.

(٢) فينيقيا هو الاسم الذى أطلقه اليونان قديما على من فى قبالتهم من أهل الشام ، وهى من "فوينوس" Phoinos اليونانية بمعنى الأحمر الداكن . ومن هذه Phoinikas اليونانية بمعنى " النخلة " . فكأن الفينيقيين عند اليونان هم " أصحاب النخيل " ، أو هم " السمر فى حمرة " ، وكأنها من " ادومى " العبرية (جيران لبنى إسرائيل) : قارن "آدم" العربية ، بمعنى الشديد السمرة . وهذا نفيس ، فتأمله .

والذى ينتحل الخط لا يبعد أن يستعير من أستاذه القلم . وثانيا : لأن العرب حين اتخذوا القلم من القصب بعد عصر القرآن سموا هذا النوع من الأقلام باسمه النوعى : " اليراعة " ، وما كان لهم أن يستعيروا اسمه النوعى من اليونانية " كلمس " بمعنى القصبة أو اليراعة . ولديهم المقابل العربى الأصيل ، إلا إذا زعمت أن العرب بالمعنى العام ، أى سكان شبه الجزيرة ، لم يعرفوا القصب ـ ذلك النبت الأنبوبى الذى يفشو فى المناقع ومجارى الأنهار ـ قبل أن يعرفه اليونان ، والعرب بالسبق إليه أشبه ، وبالتعرف عليه عند أصحابه ـ جيرانهم المصريين ـ أولى . وثالثا : لأن اليونان حين اتخذوا العصىَّ من كبار القصب ، لم يسموا تلك العصا " كَلَمُس" ـ أى القصبة ـ ولكنهم سموها " كنّا " Kanna ، أخذا عن الفينيقية " قَنُوَ " ، وهى نفسها " قنا " العربية اسم جنس مفردُه " قناة " . ومن هذه العصا ذات "العُقَل " اتخذ اليونان المقاس الذى تقاس به الأطوال [١] ، وتوسعوا فقالوا Kanon ، أى القانون الذى يقاس به ويقاس عليه . ها أنت ترى أن " القانون " لفظةٌ عربية الجذر يونانية الاشتقاق فحسب ولو كانت " كَلَمُس " بمعنى القصبة أسبق وجودا فى اليونانية لقالوا فى معنى القانون " كَلَمُون " Kalamon ولما قالوا " كنون " Kanon بل لما استعاروا " قَنُو " الفينيقية أصلا .

كان هذا بحثا لغويا مجردا ، أوردناه مثالا لكيفية التدليل على عجمة لفظ ما أو أصالته فى لغة بعينها ، لا نستطرد منه الآن إلى أمثال " الصراط " [٢] و"القسطاس" و " إبليس" ، الخ .، عند من قال بعجمتها فى عربية القرآن من أدعياء الاستشراق المتطفلين على مباحث اللغة ، الذين خبطوا فى القرآن خبط عشواء ـ بعد

---

(١) عرف العرب " القصبة " مقاسا للأطوال . وعرفها العبرانيون أيضا ، ولكنهم اشتقوها من " قَنِي " العبرية ـ وهى " قنا " العربية ـ فقالوا : " قَنِي هَمِّدا " أى قصبة القياس (همدا = المدى) . أنظر أسفار العهد القديم فى نصها العبراني : حزقيال ٤٠/٣ على سبيل المثال .

(٢) السراط (صراط فى القرآن) مأخوذ من الجذر العربى " سرط " ، و .. انسرط الطعام فى الحلق : لان وسهل فمر سريعا ، فالسراط هو الطريق الواضح ، لا عوج فيه ولا أمت ، تسلكه ذلولا مذللا، وقريب منه اشتقاق " السبيل " فهو الرَّخِيّ المرسل . وليس " الصراط " من " ستراتا " Strata الرومية اللاتينية (ومعناها "المرصوفة " أى الطريق المرصوفة Via strata) فلم يعرف العرب الطرق المرصوفة حتى يصطنعوا لها اسما ، وليست السهولة فى "صراط" العربية من الرصف بل من الاستواء والاستقامة .

أن أنكـروا على القرآن أن يكون من عند الله ، واستعظموا فى الوقت ذاته على محمد صلى الله عليه وسلم أن يستقل " بصنعه" دون أن يُعينه عليه قوم آخرون - فخاضوا على غير علم فى إثبات عجمة العديد من ألفاظه ، استدلالا بعجمة اللفظ على عجمة الفكر ، فما أثبتوا إلا جهلهم وجهالتهم ، وماتوا بغيظهم . وقد تابعهم للأسف أشياع لهم مسلمون عرب فيهم من تُجِله وتوقره ، بل من لا تشك فى علمه وإسلامه وعروبته ، فلا تملك إلا أن تستغفر الله لهم .

وإذا كنا نعيِبُ هذا التخبط وهذا الإسراف ، فنحن لا نقصد إلى تنزيه العربية عن الاقتباس من غيرها . وقد مر بك أن التلاقح بين اللغات أمر محتوم ، فوق أنه محمود مقبول حين تدعو إليه الحاجة . بل لا تخلو معاجم أى لغة من ألفاظ أعجمية الأصل . وليست العربية بدعا بين اللغات . فلا غضاضة فى هذا على العربية أو على غيرها .

ونحن ابتداءً - ولنفس السبب - لا نُحيل على القرآن أن يصطنع اللفظ "الأعجمى المعرب" ، فليس هذا مما يقدح فى عربية القرآن ، وإنما هو يجليها ، لأن الأعجمى المعرب بمجرد سيرورته على اللسان وإيناسه فى الأذن ، تنفك بالتعريب عجمته ، وتستبين دلالته ، فيصير " عربيا " ، أى يفهمه العربى القُحُّ مباشرة ، لحظة يقرع مسمعه . أما " الأعجمى الأعجم " الذى يقع فى سمع العربى غريبا بجرْسه ، مستغلقا بمعناه ، لا يفهمه إلا أن يُتَرْجَم له ، فمحال وقوعه فى القرآن ، دع عنك سماعه فى أى قول فصيح .

ونحن كذلك - ولنفس السبب - نُحيل على القرآن " اختراع " ألفاظ أعجمـية لا سابقة بها للعرب ولا عهد ، يلتقطها من الأعاجم ويعربها للعرب ، فالأعجمى المعرب يظل أعجميا أعجم حتى تنفك عُجْمَتُه بطول الاستعمال .

ثم .. ما حاجة القرآن إلى التعاجم على العرب بألفاظ من مثل الصراط والقسـطاس [١] ، ولديه فى الفصـحى جم وفير من الألـفاظ فى معنى " الطـريق "

---

(١) مر بك اشتقاق الصراط . أما القسطاس فهو من القسط ، كررت فيه السين تفخيما وتغليظا . والقسطاس أيضا اسم جنس للميزان العدل لا جمع له وإنما يُجمع - على المعنى - بعبارة الموازين القسط ، كما فى قوله عز وجل : { ونضع الموازينَ القسط ليوم القيامة } [الأنبياء : ٤٧] . والجذر " قسط " أصيل فى العربية ، تجد له فى الفصيلة السامية قرينا من العبرية ، وهو " قشط " ، الذى اشتقت منه " قاشاط " العبرية بمعنى الميزان .

ومعنى " العدل والميزان " ؟ وإذا كانت " الصراط " و " القسطاس " من محدثات القرآن ـ وهما كذلك بالفعل ـ فهل اعتجمتا على العرب ، أم فهموا على الفور أن الأولى من السراط والثانية من القسط ؟ أم ظل العرب قرونا لا يفهمون معنى القسطاس على سبيل المثال حتى فسرها لهم ذلك الدعىُّ المستشرق (١) ؟

بل قد فهم العرب هذا وأمثاله منذ أن تلى عليهم، لأنه ـ على جِدّته فى الأذن ـ عربى الاشتقاق ، يرده العربى سليقة ، فور سماعه ، إلى جذره المشتق منه . ولو كان لفظا أعجميا اخترعه القرآن فى كلام العرب ـ لم تتحقق له سيرورة الأعجمى المعرب ـ بَدَهَ أسماعَهم ، لمّا فهموه قط إلا أن يُتَرْجَمَ لهم .

ثم .. ماذا يريد ذلك الدعى المستشرق وأضرابه وأشياعهم ؟ أينعون على القرآن أن أعيته العربية فتسقّط كلام العجم ، أم يعيبون على العرب أن جهلوا معانى الصراط والقسطاس حتى ساروا فى " صراط " بروما أو ابتاعوا بالموازين " القسط " فى أسواقها ؟

ألا ما أسخف هذا الكلام وما أحمقه !

ما أكثرَ ما خاض كفار قريش فى مقام النبـوة ، وكم سَفِهوا وتسـافـهوا . ولكنهم ما جرؤوا فى لدادتهم أن يمسوا القرآن بسـوء ، لا تقصيرا ولا تعففـا . بل لو وجدوا فى القرآن مغمزا لما عَفّوا وما أقصروا . ولكن القرآن أعجزهم أن ينالوه بسوء ، ولو ادعوا عليه العجمة لافتضحوا بين العرب .

بل ما أكثر ما قالوا ـ وقال الذين لا يعلمون مثل قولهم ـ إنما يعلمه بشر . ما قالوه إلا إعظاماً لشأن القرآن ـ الذى أنكروا عليه الوحى ـ أن يعلم علمه عربى من العرب ، ولكنهم سقطوا وأفحموا . قال عز وجل : { **ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يُعَلّمه بشر ، لسانُ الذى يُلحِدون إليه أعجـمىٌّ ،وهذا لسانٌ عربىٌّ مبينٌ** } ﴿النحل : ١٠٣﴾ .أى لم تكتفوا بإنكار الوحـى على القرآن ، وإنما استكثرتم على النبى العربى أن تنحلوه إياه ، فكيف بعَيِـىٍّ أعجمى يلقنه كتابا هو لب العـربية ولُبابُها ؟

(١) ظنها الشقى من Justus اللاتينية نعتا لما هو حق وعدل ، وتندهش كيف خَفى عليه أنها تبدأ بالحرف J الذى ينطقه اللاتين ياء ، فهى عندهم " يُستس " لا " جُستس " التى تحورت ياؤها جيما الآن فى الانجليزية والفرنسية والإيطالية .

هذه القدرة الفذةُ المذهلة على تعريب أعجمى القرآن وتفسيره بأدق معانيه - كما سترى - وهذا العلم المحيط فى لغات درست بألفاظ يَحار فيها إلى اليوم علماء اللغات وأحبارها ، وهذا التصويب المعجز - كما سترى - لما وقر فى وهم كتاب الأسفارِ وشراحها ، أنى لبعض هذا أن يعلمه بشر ؟

ولكن من دهاقنة هؤلاء الأدعياء من يدس لك السم فى العسل ، وربما استهواك العجب زهوا بنبيك ، واستخفك الشيطان فطربت وانتشيت وهو يطرى لك خير البرية دون أن يصلى عليه : كان محمد أفصح العرب ، وأحفظهم لما يسمع . كان محمد أبصر الناس بصيرة ، وأقدر مصلح اجتماعى على صنع التغيير . كان محمد أعظم من قاد مسيرة التاريخ .. كان محمد عبقريا بين البشر !

نعم ، كان صلى الله عليه وسلم - بفضل من الله ونعمة - العبقرى الفذ فى تاريخ البشر .

ولكن .. حذارِ ! لعبقرية البشر حدود ، تتقاصر - مهما تطاولت - دون قطوف عظمة هذا القرآن وأكنافها .

أنت بإزاء عظمة هذا الكتاب المعجز أمام أمرين اثنين :

إما أن تصدق محمدا فى دعواه الوحى من الله ، أو تُؤله محمدا !

ولكنك إن ألهته - معاذ الله - فقد كذبته ، واستصغرته وتقمَّأته : كيف تؤلِّهُ من ادعيت عليه الكذب ؟

تلك هى المعضلة الكبرى أمام كل خائض فى هذا القرآن ، وهذا النبى .

وهى بذاتها أيضا - ولله على عباده الحجة البالغة - وجه من وجوه إعجاز هذا القرآن ، لمن أراد أن يتأمَّله .

الفصل الثانى

الأعجمى المعنوى والأعجمى العَلَم

(١)

الأعجم أصلُ معناها " الأعوج " ، من عَجَمَه يعنى لواه ، ومنه عجم عوده ، أى ثناه ، يختبر صلابته . واعتجم عليك الكلام ، واعتجم عليك اللفظ ، أى التوى ، فلا يستقيم له معنى عندك . ومنه أيضا " العجماوات " ، أى البهائم ، التى تعتجم عليك أصواتها ، أى تنبهم ، فلا تفهم عنها ما تريد ، ولا تعى ما تحاول هى أن تفصح عنه ، فتظن بها البله ، أو تظن بها الحبسة ، وهى تتكلم بكلام لا يفهمه إلا بنات جنسها وحدهن (١) ، كما لا تفهم أنت إلا كلام بنى أمتك ، إلا أن تتعلم لغة غير لغة أهلك . وصدق الحق سبحانه إذ يقول : { **وما مِنْ دابةٍ فِى الأرضِ ولا طائرٍ يطيرُ بجناحيْه إلا أممٌ أمثالُكم** } (الأنعام :٣٨) ، { **يُسبِّحُ له من فى السموات والأرض والطيرُ صافّاتٍ كل قد عَلِمَ صلاتَه وتسبيحَه** } (النور : ٤١) ، { **وإنْ من شىءٍ إلا يُسَبِّحُ بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحَهُم** } (الإسراء : ٤٤)

وسُمِّىَ " الأجنبىُّ " أعجميا ، لأنه يتكلم لغة لا تفهمها . وأنت أيضا "أعجمى" عنده لأنك لاتفهم ما يقول ، أو لأنك تقول ما لا يفهمه هو .

واللفظ " الأعجمى " هو اللفظ بلغة أعجمية ، لا تفهم معناه ، إلا أن تتعلم تلك اللغة . وهو أعجمى أيضا لأنه يلتوى به لسانك . إنه فى الغالب الأعم لفظ لا تستطيع النطق به على أصل وضعه عند أصحابه : ربما ثَقُل عليك وزنه ، وربما حوى أحرفا لا مقابل لها فى أصوات لغتك ، فتحتال على نطقه قدر ما تستطيع ، ولكنك لا تستطيع الاستمرار فى المحاكاة والتقليد فتعود إلى سليقتك ، وتنطقه محرفا ، بعد أن تهذبه وتنقح فيه ، حتى يستقيم لك نطقه على وزن "عربى" بأصوات " عربية " : ربما أسقطت حرفا أو حركة ، وربما زِدت فيه أو أبدلت منه .

---

(١) يكفيك فى هذا قوله عز وجل : {قالت نملة} ! (النمل :١٨) ، وأيضا قوله عز وجل على لسان سليمان بن داود عليهما السلام : { يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء } {النمل :١٦} .

والأعجمى المنقح على هذا النحو - أى المصبوب فى قوالب العربية وأوزانها - يسميه اللغويون " الأعجمى المعرب " . وفى هذه التسمية إشارة إلى أن الأعجمى المعرب يظل أعجميا أيضا بعد تعريبه ، لا بحكم ما كان عليه ، فقد استعرب لك ، ولا بحكم دلالته على مسماه ، فقد استبان المسمى، ولا بصورته ، فقد استقامت على موازين العربية ومخارج أصواتها ، وإنما هو يظل أعجميا بمادته ، أى بجذره الأعجمى المشتق منه فى لغة أصحابه ، وهو جذر لا مفهوم له عندك . بل أنت تدرك من الأعجمى المعرب معناه فى مجمله ، ولا تدرى مما نحت لفظه ، أو تركب ، كى يؤدى هذا المعنى .

خذ مثلا لفظة " سِجّيل" ، ذلك الرجز الذى وقع على أبرهة وجيشه : { **وأرسل عليهم طيرا أبابيل . ترميهم بحجارةٍ من سجيلٍ . فجعلهم** [1] **كعصف مأكول** } (الفيل : ٣ ــ ٥) ، وعلى قوم لوط : { **فلما جاء أمرُنا جعلنا عالِيَها سافِلَها وأمطرنا عليها حجارةً من سجّيل منضود . مسومةً عند ربك ، وما هى من الظالمين ببعيد** } (هود : ٨٢ ، ٨٣) . أنت فى سِجّيل تقف عند المعنى العام. ولكنك لو أخذت برأى من قال إن سِجّيل معربة عن الفارسية " سكّيل " ، بمعنى الطين المتحجر (سِكْ = جاف ، كِيلْ = طِين) لأدركت ماهية السِّجّيل ومادته فى أصل معناه .

ومن طرائف الأعجمى المعرب أنه يعتجم علي أصحابه الأصلاء حين ترد إليهم بضاعتهم "مُنَكَّرَة " متحورة : هب مثلا أنك ممن يرون أن " المقوقس" ، عظيم القبط ، معربة عن اليونانية "مِجِستُس" Megistos (ومعناها " الأعظم ") . وهبك أيضا كلفت بترجمة رسالة النبى صلى الله عليه وسلم إلى ذلك اليونانى المتمصر ، أفتترك فى ترجمتك اليونانية لفظ المقوقس على حاله أم ترده إلى أصله اليونانى "مجستس" ؟ إن لم تفعل فلن يفهم عنك المقوقس ماتقول . وهبك كلفت بترجمة رد المقوقس على

---

(١) أى السجيل جعلهم ، لا الحجارة بدلالة بناء الفعل للمفرد المذكر . السجيل إذن شيء مادى ما يرمى به ، وليس واديا فى جهنم أو سجل عذاب الكفار كما تقرأ لبعض المفسرين . ربما استطعت إسناد هذا الفعل المفرد المذكر إلى "ربك " فى أول سورة الفيل : " ألم تر كيف فعل ربك ... فجعلهم .. " ، ولكن ما قولك فى " سجيل منضود " فى الآية ٨٢ من سورة هود : { وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود } ؟ لا يوصف الوادى بأنه " منضود " ، والسجل كذلك .

النبى ، أفتقول فى ترجمتك العــربية : من " مجستس " إلى محمــد (صلى الله عليه وســلم) ؟ إن فعلت فلن يفقه قارئك العربى ما تريد . وقل مثل هذا فى رسالته صلى الله عليه ســلم إلى عظــيم الروم " هرقل " ، وأصــلها بالرومية هركليوس Heraclius ، امبراطور بيزنطة آنذاك، وإن كان المخاطب بها فى واقع الأمر والى هرقل على الشام .

من هنا ترى أن اللفظ الأصيلَ فى بلده حين يرتحلُ غريباً فى غيرِها ، يعود إلى أهله - حينَ يعود - بغير الوجه الذى ذهب به فَيُنكرونه ، شأنُ المغتربِ فى مُهاجَرِه ، يطولُ مُكْثُهُ فتغيِّرُهُ السنون ، قَلِقًا فى مُهاجَرِه ، قَلِقًا فى أَهْلِهِ .

استعرب الأعجميُّ إذن للعرب ، فاستعجم على أهله حين اهتَجَن .

على أن المستَعْرِب يغدو عربيا بالتقادم ، والأعجمى فى اللغة يغدو بعد ذهاب لكنته أصيلا أو كالأصيل فى مفرداتها ، يخفى على غير المتخصص أصل منبته ، كما ترى فى لفظة " المهندس" ، المأخوذة من الفارسية " هنداز" ، بمعنى القدر والحد ، وكما رأيت من قبل فى " ساذج" و "سجيل " و " المقوقس" و " هرقل " وأمثالها : الأعجمى المعنوى ، والأعجمى العلم .

وهذا هو شأن أعجمى القرآن كله ، معنويه وأعلامه .

والذى يستوقف النظر أن القرآن لم يسم أحدا من معاصريه : لم يسم كسرى ولا قيصر أو غيرهما من العجم . وإنما الذى ورد فى القرآن من أعلام عصره ثلاثة أسماء لا غير ، كلها عربى :محمد صلى الله عليه وسلم ،ومولاه زيد رضى الله عنه ، والذى تبَّ وتبت يداه أبو لهب .

كانت الأولى فيما نرى - وقد وردت فى القرآن خمس مرات إحداها بلفظ "أحمد " - تشريفا - للنبى ، وكانت الثانية تنصيصا على دخول زيد بن حارثة بزينب بنت جحش رضى الله عنهما وحلها من بعده للنبى تأكيدا لبطلان بنوة المتبنَّى (راجع الآيات ٣٧ إلى ٤٠ من سورة الأحزاب) ، وكانت سورة المسد حكما قاطعا بالتَّباب والخسران على شخص بعينه ،وعلى امرأته حمالة الحطب، وامتناع قَبُولِ التوبة منهما ، وأريد إعلان هذا الحكم لأبى لهب وقومه فى هذه الدنيا ، فكان لابد من تسميته بالإسم ، كيلا يختلف فيه أحد .

(٢)

أما الذى نعنيه بالاسم المعنوى ـ بعيدا عن مواضعات أهل النحو والصرف ـ فهو الإسم المشترك الدال بذاته على معنى ما يجتمع فيه كل أفراده لا يشذ منهم أحد، نكرة ما لم يعرف بالإضافة أو بالألف والـلام ، عام لا يتخصص إلا بالإضـافة أو النعت ، يقبل بطبيعته الإفراد والتثنية والجمع : إنه بالتحديد أسماء الأفعال ، والصفات ، وأسماء الجنس ، أحيائه وجماده .

من ذلك أن لفظة " إنسان " تصدق على كل فرد من بنى آدم . أما إن عرفتها بالألف واللام فهى مطلق " الإنسان" . وتستطيع أيضا تعريفها بالإضافة فتقول مثلا "إنسان العين " ، تعنى "بؤبؤها " ، أعنى صورة ذلك الإنسان التى يطل بها عليك محدثك كلما حدقت فى عينيه، وهى صورتك أنت انعكست على بِلَّوْرِيَّةِ عينى أخيك. وتستطيع أيضا أن تثنى وتجمع ، فتقول " إنسانان" وتقول " ناس" و " أناسى" . وقس على ذلك أمثال الزهرة والسنبلة ، والنملة والهدهد، والصخر والحديد ، والسندس والإبريسم والديباج ، والأسد والقسورة ، والبحر والجبل ،والشيخ والصبى ، والغنى والفقير ، والصغير والكبير . وقس على ذلك أيضا أسماء الأفعال من مثل "فلسفة" ، التى تُجمع على فلسفات ، أو "تَعَب" التى تُجمع على أتعاب ومتاعب .

لكل من الألفاظ التى ذكرت ، وأشباهها ، كما ترى ، معنى محدد فى ذهنك وذهن محدثك ، إن تحدثت به إليه فإنما تريد هذا المعنى بالذات ، ولا تريد "شخص" من اتصف به أو وقع عليه ، فكل الجبال جبل ،وكل الآساد أسد ، وكل الأثرياء ثرى ، وكل ما كان من الجمال بوجه فهو جميل .

بل حتى إن خصصت فقلت : هذا الأسد ، فقد خصصت " أسدا " ما بالإشارة ، ولم تزد على أن سميته باسمه " المشترك " بين سائر بنى جنسه .

وليس هكذا أمثال " زيد " أو " عمرو " .

الاسم " المعنوى" ، يريد المعنى ولا يريد الشخص .

والاسم " العلم " ، على النقيض من هذا كما سترى ، يُريد الشخص ولا يُريد المعنى .

□□□

يُطلق الاسمُ " العلم" لا يراد منه معناه ، وإنما يراد منه شخص المسمى ذاته ، ناسَبَه الاسم أو تناقض معه .

خذ مثلا ذلك الصديقَ الذى لم يُرَ قط عبوسا ، بل تلقاه دائما أبدا منفرج الأسارير متهلل الوجه ، ولكنك لا تنفك تناديه بما سماه به أبوه ، فتقول : يا عباس ! أو ذلك الشيخ الذى تمادى به العمر ، وهو وليد . بل كم من عبلة عجفاء ، وهيفاءَ ليست بهيفاء ، أو خديجة لم يُخْدَجْ بها (١) .

ورب عمرو لم يعمر ، أو زيد ولا زيد ثم ولا فضل. وليست "القاهرة" لمجرد إسمها وحده بالتى تقهر دائما الغزاة ، وإنما سميت عاصمة مصر بهذا الاسم تيمنا فحسب .

الاسم ها هنا " علم " على ذات صاحبه ، والعلم من العلامة : إنه مجرد رمز ترمز به إلى شخص أو شعب أو بلدة أو موضع ، يلخص فى ذهنك كل ما " تعرفه" عن ذلك الشخص أو الشعب أو البلدة أو الموضع ، تعلم هذا أو ذاك بتلك العلامة التى اصطلحت مع محدثك عليها كيلا تختلط عليكما الأشخاص والأماكن ، مثلما يعلم الأب أبناءه بتلك الأسامى التى يطلقها عليهم ، لايريد من التسمية إلا هذا ، ولو سميت ابنك عمْرا بزيد وسميت زيدا بعمرو ، أو خالفوا فى التسمية بين بغداد والقاهرة، لجاز . ولكنك متى سميت ، فقد خرج الأمر من يدك ، لا تملك له تبديلا : لصقت التسمية بالمسمى وانتهى الأمر .

الاسم العلم إذن هو اسم " الذات " مجردة من الصفات ، لا معنى له ـ مهما كان أصل وضعه واشتقاقه ـ إلا تلك " الذات " التى يدل عليها فى ذهنك وذهن محدثك ، لا تختلط بغيرها .

---

(١) الخداج ، النقص . وأخدجت الحامل ، ألقت بولدها قبل تمام أيامه ، وإن كان تام الخلق ، فهو خديج .

ربما ثنيت فقلت " العمران" ، ولكنك عندئذ تريد أبا بكر بن أبى قحافة وعمر ابن الخطاب رضى الله عنهما ، ولا تريد أىَّ أبى بكر وأىَّ عمر .

بل ربما جمعت فقلت " المناذرة " ، ولكنك تريد " آل المنذر " ملوك الحيرة ، لا كل " منذر " .

ومع أن الاسم العلم يطلق على كثيرين ، أى يطلق نفس الاسم على " ذوات " متعددة ، متجاورة أو متباعدة فى الزمان والمكان ، وربما تكرر اسم جد لحفيد ، بل فى مصر "اسكندرية " وفى الولايات المتحدة صنوها ،وفى قرى مصـــر " باريس" غير "باريس" عاصمة فرنسا، إلا أنك حين تتحدث بالاسم العلم فإنما تتحدث عن واحد بعينه ، لا عن كل من تسموا باسمه ، تريد الشخص أو الموضع ، ولا تريد "سَمِيَّه" .

لهذا كان الاسمُ العلم " معرفة" بذاته ، لا يتعرف بالإضافة إلى معرفة ، ولا يتعرف بالألف واللام ، وإنما يتعرف بالعَلَمِيَّة ، لأن الإبهام لا يرد عليه ، والمقصود منه "واحد" . ربما وقعت فيه الألف واللام ، ولكن هذا مجرد حشو ، كما فى أمثال "القاهرة" أو " الحسن " ،. فأنت تعنى فى الأولى عاصمة مصر ، لا اسم الفاعل المؤنث من " القهر" ، ولا تقصد من الثانية صفة " الحسن" ، وإنما تريد الحسن بن على رضى الله عنهما . وربما جازت الإضافة فى الإسم العلم ، كما فى "نيل مصر" ، ولكنك تريد ذلك " النهر" الذى فى "مصر" ، فلا "نيل" فى غيرها . كما تقول " قاهرة المعز" ، ولا "قاهرة" فى ذهنك وذهن محدثك إلا هى .

ومن خصائص الاسم العلم أنه لا يُوصَفُ إلا على الخبر أو على البدل ، ولا يُوصَفُ على النعت ، لأن النعت يخصص ، والاسم العلم متخصص بذات " علميته " ، لا يحتاج إلى مخصص . من ذلك قولك : " الله أكبر" ، على الخبر ، تنزه ذات الله عز وجل عن المثيل والند ، ولا تقول : " الله الأكبر" ، على النعت ، لأن معنى هذا أن ثمة آلهة الله أكبرهم ، وهو لغو أو تجديف ، بل زلة ينقطع دونها اللسان ، أشـــبهت بها عبدة الأوثان والأقانيـم . أما الوصـف على البدل فمنـه قولـه عـز وجـل : { الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين } (الفاتحة : ١ـــ٣) أى الحمد لله الذى هو رب العالمين ، الذى هو الرحمن ، الذى هو الرحيم ، الخ . فالله علم على ذاته تباركت أسماؤه ، وسائرها بدل منه . ينطبق

هذا بتمامه على قولك : زيد وفى ، على الخبر ، تنبىء محدثك بصفة لمستها فى "زيد" ، ومثله قولك : زيد الوفى ، على البدل لا على النعت ، وكأنك قلت : زيد ، هذا الوفى ، .. الخ . متى نعتَّ فقد لقبت ، على البدل من المنعوت ، تؤكد لمحدثك ذاتية زيد الذى تعنيه ، كيلا يختلط " الأزياد " عليه ، كما فى " محمد الفاتح " أو "الحسن البصرى" ، وكما فى " الحسن بن على " رضى الله عنهما . كل هذا على البدل ، لا على النعت .

على أن للاسم العلم ـ فوق اختصاصه بالدلالةِ على ذات صاحبه ـ معنى ما ، كان بالتأكيد وراء اختياره عَلَما على أول من تسمى به ثم جرى من بعد فى أسماء الناس ، ربما لمعناه ، وربما لجرسه ، وربما إعزازا لعزيز تسمى به ، أو عظيم فى أمتك ذى شأن . ربما جال بخاطرك هذا كله أو بعضه وأنت تختار اسما لمولود ولد لك ، ولكنه يمحى تماما من ذهنك بعد ما اخترت وسميت ، فلا يبقى لديك من معنى الاسم إلا جرسه ، وإلا دلالته فى سمعك وسمع محدثك على "ذات" المسمى ، أى لا يبقى من الاسم إلا ذلك " الصوت " الذى تطلقه فيستجيب المنادى به ، وكأنك حين تقول : يا زيد ! لا تعنى إلا " يا هذا " ، لا أكثر ولا أقل .

وهذا يفسر لك لماذا تنبهم على كثير من الناس - بل وعلى أصحابها أحيانا - معانى الأسماء الأعلام ، إما لأنهم يطلقون الاسم ولا يتعمقون معناه، وإما لأن الاسم قديم موروث ، لا يستعلن بمعناه إلا للباحثِ العَكُوفِ المتخصص : كم من زينب لا تعرف ما الزَّيْنَب [١] وكم من خديجة ولا تدرى أنها من الخِداج . بل قد يكون الاسم من أصل أعجمى يفوت معناه على صاحبه ، بل وعلى أبيه الذى سماه به ، لا يدرى من أى لغة هو ، وعلام يدل ، لأنه لم يرد المعنى أصلا ، وإنما أراد الجرس ، أو أراد شخصا عزيزا أو بطلا ، وربما أراد شخص نبى أو أراد ملكا ، كما فى جبرائيل وميخائيل (جبريل وميكال فى القرآن) ، وكما فى يونس ويوسف ونوح وإبراهيم ، صلوات الله وسلامه على ملائكته وأنبيائه ، ثم تمضى القرون ، وتتكرر التسمية فى أجيال وأجيال ، ويذوب المعنى فى الجرس فينسى ، ثم يندثر .

---

(١) شجر حسن المنظر طيب الرائحة . راجع فى معجمك العربى مادة "زنب".

وليس هذا وقفا على العربية وحدها ، ولكنه شائع ذائع فى كل اللغات : كم فرنسية تعلم أن هنريبت [١] معناها "ست الدار" ؟ وكم من جورج [٢] (جرجس فى مصر) يعلم أن معناها "الحارث"؟ وكم من كلود [٣] (قلدس وأقلاديوس فى مصر) يعتزى فخورا إلى قيصر تسمي به (كلاوديوس) ولا يدرى أن معناها " الأعرج " أو " العرجى ؟ بل كم من مارك [٤] (مرقص فى مصر) يدرى أنها "المريخى" المزاج ، أى الغضوب أو " الحربى" وأن مؤنثه مارسيل كذلك ؟ وكم من راشيل (راحيل العبرية) تعلم أن معنى الاسم فى العبرية هو " النعجة " أنثى الغنم ؟ ربما لو توقف الناس عند معنى الاسم العلم لترددوا فى التسمية ، ولكنهم لايتوقفون ، إما لأن المعنى لايعنيهم ، وإما لأنهم جهلوه أو أنسوه .

وهذا يفسر لك أيضا لماذا لا تجوز ترجمة الاسم العلم إلى معناه فى اللغة المنقول إليها ، وإنما الجائز فقط هو "تعريبُه " ، أى تهذيبُه على مقتضى مخارج أصوات اللغة وأوزانها : يجوز لك تعريب "جيورجيوس" اليونانية " إلى " جرجس " ، ولا يجوز لك ترجمتها إلى " الحارث " أو الفلاح . لا تجوز لك ترجمة الاسم العلم إلا إذا كنيت وأبهمت ، أو تظارفت ، فقلت فى معلقة " الحارث بن حلزة " : قالها جورج بن حلزة ! أو ناديت صديقك " رمسيس" (رع + مسيس المصرية القديمة) بقولك : ابنَ الشمس ! أو أردت كمصرى ـ مطلع هذا القرن ـ أن تخوض فى " جورج الخامس " ملك انجلترا التى كانت تستعمر مصر آنذاك ، فقلت : الفلاح بن الفلاح ! تكنى وتُبْهِم ، تخشى على نفسك سلطانه وحوارييه ، وعيونه وأعوانه .

وكما لا تجوز ترجمة الأعجمى العلم إلى معناه فى اللغة المنقول إليها ، لا يجوز أيضا الإبدال منه بمرادف من نفس اللغة فى ذات معناه ، كأن تنادى صاحبك زيدا بقولك : يا فضل ! ثق أن " زيدا" لن يسمع منك ، وإن سمع فلن يستجيب : ذاتيته هى " زيد" لا " فضل " ، وإن تطابق المعنى .

---

(١) Henriette مؤنث Henri على التصغير من الجرمانية HEINRICH المركبة من HEIN بمعنى الدار ، RICH بمعنى السيد .

(٢) جيورجيوس اليونانية المشتقة على التركيب من GEO + ERGOS (البادئة بمعنى الأرض واللاحقة بمعنى العامل) والمعنى العامل فى الأرض ، وهو الحارث أو الفلاح

(٣) من CLAUDUS اللاتينية ومعناها الأعرج . ومن هذه CLAUDIUS أى العرجى .

(٤) MARCUS نسبة إلى MARS أى كوكب المريخ ، إله الحرب عند الرومان .

وهذا يفسر لك أخيرا ـ وهو بيت القصيد فى كل ما سبق ـ ضرورة احتواء القرآن هذا الشطر من اللفظ الأعجمى ، أى الأعجمى العلم ، ضربة لازب ، وهو يحدث بأخبار من لا تشك قط فى عجمته ويقص عليك نبأ القرون الأولى ، منذ بدء الخلق بآدم . ناهيك بالملأ الأعلى ، وناهيك بيأجوج ومأجوج ، وهاروت وماروت ، وإبليس وفرعون ، وعاد وثمود ، وقوم لوط وأصحاب مدين .

وإذا كان قد وُجِدَ من علماء القرآن من ينكر البتة احتواء القرآن لفظا أعجميا واحدا ، ولو كان من الأعجمى المعرب أمثال سندس وسرادق واستبرق وقسورة ، وبذلوا من الجهد ، وأيضا من الافتعال الشديد الوعر فيما يحسبونه ذودا عن القرآن بإثبات أصالة هذا اللفظ أو ذاك فى العربية ونفى عجمته ، إذا كان هذا هو موقف بعض علماء القرآن من أعجمى القرآن ، فهذا كله فى باب الأعجمى " المعنوى " ، لا فى باب الأعجمى العلم ، لأن العلم الأعجمى لا يصح فيه جدل .

ونحن لا نبتغى جدال هذا الفريق من العلماء فى موقفهم من الأعجمى المعنوى فى القرآن ، وإن ألممنا به فى سياق ما نكتب ، لأننا فى المقام الأول لا نريد أن نخوض بك فى جدل يذهب بحلاوة ما هدانا الله إليه بفضل منه ونعمة ، وهو تفسير أعجمى القرآن بالقرآن ، وثانيا لأنه يخالف المقصد الأساسى لهذا الكتاب ، لأن تفسير القرآن لأعجميه المعنوى ـ إن وجد ـ ليس فيه علم ولا إعجاز ، وقد عرفها العرب " معربة " قبل القرآن لا تحتاج إلى تفسير .

وإنما الإعجاز كل الإعجاز أن تفسر فى لغات شتى ـ بعضها دارس ـ علما أعجميا يفوت معناه على صاحبه ، ويجهله أبوه ، ناهيك بأساليب القرآن فى هذا التفسير ، كما سترى .

ربما خالف القرآن مبدأ عدم جواز ترجمة العلم الأعجمى كما ذكرنا آنفا ، أعنى إسقاط الأصل الأعجمى جملة والإتيان به مترجما ، على نحو ما فعل القرآن فى أمثال " إدريس " و" ذى الكفل " ، مما نتناوله فيما يلى من فصول هذا الكتاب .

ولكن هذه أيضا من إعجاز القرآن . وسيأتى .

(٣)

يكثر فى العبرية ـ كما فى الآرامية ـ التسمية بالفعل المضارع مسندا إلى المفرد الغائب ، لا يعنون منها الفعل ، وإنما يقصدون منها اسم الفاعل ، وكأن "يقول" بمعنى " قائل " و " يسمع " بمعنى " سامع " . ومن هنا كثرة العلم العبرانى المبدوء بياء المضارعة ، ومثال ذلك " يصْحاق" [(١)] (اسحاق فى القرآن) مضارع الفعل العبرانى " صحق " (وهى ضحك العربية) ، التى لا يقصد منها الفعل "يضحك" ، وإنما يقصد منها اسم الفاعل من " ضحك " ، أى " الضاحك " ، وهذا هو اسم نبى الله اسحاق بن إبراهيم عليهما السلام ، وقد سمى العرب بمعناه على المبالغة، فقالوا " الضُّحَّاك " .

وللتسمية بالفعل المضارع نظير باقٍ فى العربية ، تجده فى أمثال "يزيد" و"يثرب" و "ينبع". والأصل فى هذا أن الفعل المضارع يتضمن معنى الاستمرار ، فيصلح للحال كما يصلح للاستقبال ، والتسمية به تسمية على التيمن والتفاؤل ، أى "يضحك " وسيظل ، فهو ضاحك وضَحُوك .

وقس على ذلك أمثال " يعقوب " ومعناها العاقب ، و " يوسف " بمعنى يزيد .

□□□

والذى يستوقف النظر هو سكوت " علماء بنى إسرائيل " الذين عاصروا القرآن وعايشوا مفسريه إبان الدولتين الأموية والعباسية عن " تصويب" ما وقع فيه بعض

---

(١) الصاد السامية ، كالصاد العربية ، ينطقها يهود العراق صادا على أصلها ، وهو الصحيح . ودع عنك ما تسمعه فى العبرية المعاصرة من مثل نطق هذه الصاد بالحرفين ت س ، كما فى "يتسحاق شامير" . تلك " صاد" تحورت عند يهود الشتات بالنطق الجرمانى للحرف Z (tset) . قارن أيضا " إيزاك " Isaac الفرنسية بمعنى إسحاق .

هؤلاء المفسرين الذين تصدوا بغير علم ـ ولا سند من قرآن أو سنة ـ لتفسير معانى الأعلام الأعجمية فى القرآن ـ وخاصة أعلام أنبياء بنى إسرائيل وكلها عبرانى ـ بالعربية وحدها ، فقالوا على سبيل المثال إن إسحاق من " السحق " ، ويوسف من "الأسف " ، ويونس من " الإيناس"، فى حين أن أبسط علم بالعبرية ـ ناهيك بيهودى من أهلها ـ يكفى كى تعرف أن يونس يعنى حمامة، وأن يوسف يعنى يزيد، وأن إسحاق يعنى ضحوك ، لا سحق ثم ولا انسحاق .

وربما بلغ بك العجب وقد علمت أن من علماء بنى إسرائيل هؤلاء من أسلم على عصر الرسول حقا وصدقا فحسن إسلامه ، بل ومنهم من زكاه الحق تبارك وتعالى فقال فيه : { **وشهد شاهد من بنى إسـرائيل على مثله فآمن واستكبرتم** } (الأحقاف : ١٠) كما قال عز وجل : { **أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل** } (الشعراء : ١٩٧) .

فكيف سكت أمثال هؤلاء عن هذا العبث ، وهم من هم فى العلم بالعبرية التى يتدارسون بها التوراة ؟

يدفع هذا الاعتراض أن تفسير أسماء الأنبياء لم يُثَرْ على عهده صلى الله عليه وسلم ، ولم يؤثر عنه فى المسألة حديث صحيح ، وإذن فلم يكن بأمثال ابن سلام ومن فى طبقته ورتبته حاجة إلى الرد أو إلى التصويب .

أما من جاءوا من بعدهم ، من يهود أسلموا فحسن إسلامهم ، أو يهود أسلموا تَقيَّةً ولما يدخل الإسلام فى قلوبهم ، أو يهود ظلوا على يهوديتهم ، فهولاء وأولئك فِرَق : الفرقة الأولى مسلم حسن إسلامه فانقطعت صلته بتوراته وعبريته ، والثانية يهودى أسلم على دَخَل يريد أن يُترك وشأنه لايُزَنُّ بريبة فيبرأ من توراته ومن عبريته ، لا يسمع له فى المسألة قول وإن علم ، والثالثة يهودى فى دار إسلام انقطعت صلته بالعبرية ولم تنقطع بالتوراة ، ولكنه لا يعلم التوراة إلا " أمانى" أى تلاوة فحسب ، لا يفقه كثيرا مما يردده فى صلواته وأذكاره ، شأن مسلم فلبينى لايعرف من العربية إلا "الفاتحة " التى لقنها فى طفولته ليقرأ بها فى صلاته ، أو شأن قبطى فى مطلع القرن الرابع الهجرى لا يفهم إلا العربية وحدها يقرأ فى صلواته من إنجيله اليونانى . مثل هذا ينأى بنفسه عن مواطن الزلل فيحاذر الخوض فيما لم يعد له به علم .

أما الفرقة الرابعة ، المعنيةُ باللوم ، أو المعنيةُ بالتساؤل ، فهم أحبار اليهود ، ورؤساء الملة، المتضلعون من العبرية ومن التوراة ، المتقنون العربية كأبنائها ومثقفيها. لماذا سكتوا ؟

أفلم يكن من بينهم من يعلم أن يوسف ليست من الأسف وإنما هى بمعنى "يزيد"؟ أو ليس تفسير اسم يوسف واردا بنصه العبرانى على لسان والدته " راحيل " حين وضعته : "وتقْرا إتْ ـ شمُو يُوسفْ ليمُرْ يُوسفْ يِهْوَا لِى بِنْ أحير" (يعنى) وَدَعَت اسمَهُ يُوسُفَ قائلةً يزيدُنى يِهْوَا ابنا آخر ، أى "سَمَّيْتُهُ يزيد ويزيدُنى اللهُ ابنا آخر " ؟ (تكوين ٣٠/٢٤) .

هل سكتوا يأسا أن يُصَدِّقَهُم أولئك المفسرون ، وقد وصم القرآن آباءهم من قبل بالكَذِب على التوراة ؟

أم سكتوا ضَنًّا بعلمهم أن يُعينوا أولئك المفسرين على تصويب أخطائهم ، أى سكتوا ضِغْنَاً على الإسلام وأهله أن يُمنعوا من اللغو فى قرآنهم ؟

أم لم تكن لمفسرى القرآن وأصحاب السِّيَر صلةٌ بأحبارِ يهود ؟

كيف ، وقد نقلوا عنهم ما نقلوه من " اسرائيليات " واضحة الزيف ، ليس أقلها ما يروى عن " كعب الأحبار" من قوله فى سورة " آل عمران " : اسمها فى التوراة طيبة ! فلا تدرى ـ وليس فى التوراة من هذا شىء ـ أساءت طَوِيَّةُ كعب فقالها تملقا وتدليسا ، أم قالها تعالما بما لا يَعْلَم ؟

قل فى هذا أو ذاك ما شئت ، فقد كان من هؤلاء الأحبار مخلصٌ ليهوديته ، باقٍ على وهمه ، القرآنُ عنده مدسوسٌ كُلُّه على الله عز وجل ، حبذا لو لغا فيه بعض أهله ، ولكنه يئس من مناطحة القرآن بالتوراة أو لعله جبن ، فانصرف إلى توراته لايسمع منه قول فى غيرها . وكان منهم أيضا الذى كاد للقرآن وأهله ، بكتمان ما علمه الله ، أو بالتزييف على التوراة ، آمنا ألا يفضحه مسلم يجهل العبرية ويصدف عن مطالعة التوراة . وكان من هؤلاء الأحبار أيضا ـ لا نشك فى هذا ـ أولئك الذين وصفهم الحق تبارك وتعالى بقوله : " لا يعلمون الكتاب إلا أمانى " .

أما الذى يجب أن تعلمه أنت وتطمئن إليه ، فهو أن التوراة عصر تصنيف تفاسير القرآن ، بل وإلى عصرٍ جِد متأخر ، لم تحظ ببحث لغوى نقدى تحليلى جدير بهذا الوصف ، وأن الذين ضربوا بسهم موفور فى هذا البحث كانوا ـ على عكس ما

قد تظن ـ مسيحيين مؤمنين أو ملحدين يرون جميعا أن التوراة جزء لا يتجزأ من كتابهم المقدس ، على خلافِ ما بينَهم فى التفسير بالهوى أو بالعقيدة .

ولكن القرآن سبق ففصل .

ليس "يوسف"من الأسف ، وليس بالضرورة " يزيد " : القرآن يدلك على معنى آخر لاسم هذا النبى الكريم ، الذى ائتمر به أخوته فكان " ضيف" الله فى " الجب" ، وكادت له النسوة والتى هو فى بيتها فكان "ضيف" الله فى "السجن" . وشاء عز وجل ـ بيوسف ـ أن يوطىء لبنى إسرائيل فى مصر كى يخرج من بينهم ـ وليس شىء على الله بعزيز ـ من يُنَشأ فى بلاط طاغوت علا فى الأرض، يتخذه ولدا ليكون له من بعد عدواً وحزنا : يلتقط موسى من اليم ليدسه موسى فى ظلمات اليم الأعظم ، بعد أن أقام الله عليه الحجة : ما كان لرسالة موسى عليه السلام أن تولد فى قصر فرعون لو لم يأت الله بيوسف من قبل " ضيفا " على مصر عند ملك يستخلصه لنفسه فيقيمه على خزائن الأرض ، ويستأذن يوسف الملك فيأذن له فى الإتيان بأهله إلى مصر جميعا ، ليتم الدور المقدور لهذا النبى الكريم :" ايواء" بنى إسرائيل أو " حضانتهم " فى مصر إلى حين ، فتنة لفرعون سيأتى حينه ، وارصادا له بنبى مصرى ، من ذرية إبراهيم الآرامى ـ العبرانى ، عبر إسحاق ، كما سيحدث بعد نحو ألفى سنة أو أقل ، بنبى عربى من ذرية إبراهيم أيضا ، عبر إسماعيل ، صلوات الله وسلامه على رسله وأنبيائه، يهدم به الله الطواغيت أجمع ، على فارق فى مدى ما بين الرسالتين عظيم.

نعم ، كان يوسف عليه السلام " ضيف" الله فى مصر ، وكان عليه السلام أيضا لبنى إسرائيل فى مصر " الآوى " المضيف (١) .

وتندهش إذ تعلم ـ كما سترى ـ أن اسم النبى يوسف عليه السلام الـذى ينطق فى العبـرية بكسر السين ، يعنى أيضا ، بنفـس النطق فى العبريـة ، " الآوى " المضيف .

فأىُّ إعجازٍ ، وأىُّ عِلم !

□□□

(١) الفعل (أوَى يَأْوِى أوِيًّا) فعل لازم ومتعد ، يصلح أيضا بمعنى آواه إيواء ، أى استضافة، وهو المقصود هنا .

على أنك قد تلتمس العذر لأولئك المفسرين الذين اعتمدوا فى تفسير أسماء أنبياء بنى إسرائيل على المعجم العربى وحده ، فالتشابه القوى بين جذور اللغتين من نفس الفصيلة - أى بين العربية والعبرية على ما مر بك - قمين بالاشتباه ، إن تصب مرة فقد أخطأت مرات . لا يكفى أن تكون لفظة " عين " العربية هى نفسها " عين " العبرية - الآرامية ، كى تقرر دون تَثَبُّت ، ودونَ الرجوع إلى المعاجم العبرية - الآرامية ، أن اسم زوج إبراهيم عليهما السلام "سارة " من السرور ، أو أن اسم نبى الله " نوح " عليه السلام من النواح ، أو أن اسم "يوسف" عليه السلام مشتق من الأسف على نحو ما قال بعضهم ، كما مر بك . نعم ، قد أصابوا فى أن "يعقوب" من العاقبة ، وهو صحيح ، ولكن ما كل مرة تسلم الجرة كما يقول المثل .

وأنا أيها القارىء العزيز - إن كنت لا تعرف عبرية التوراة أو يونانية الأناجيل بما فى هذه وتلك من أعلام آرامية بل ومصرية أحيانا - لا أريد لك أن يفوتك شىء من حلاوة بحث أريد أن أحَبِّره لك تحبيراً : أريد منك أن تشترط علىَّ توثيق ما أحدثك به ، فلا أكِيلُ لك القول جُزافا آمنا ألا تكشفَ زيفى ، لأنك لا تعلم شيئا من أمر تلك اللغات التى ذكرت لك . ليس هذا من العلم فى شىء ، وإنما هو من التدليس، كمن قال لك إن " إبراهيم " تعنى " الأب الرحيم " لمجرد أنه يرى أن "رحيم" العربية تقابل "رهيم" فى الآرامية ، ولا تملك أن ترد عليه ، فهى كما قال ، لأنك لا تدرى ما الخطأ وما الصواب فى لغة لا تفهمها ، ولا علم لك بأن " رهيم " هذه لا وجود لها فى الآرامية ، ولا فى العبرية كذلك ، وأن " الرحمة " فى هذه وتلك جميعا ، بالحاء لا بالهاء ، كالعربية تماما . كان على مثل هذا القائل أن يدلك علام استند فى اشتقاق تلك اللفظة التى ابتدعها فى الآرامية ، أو على معجم آرامى وجد جذرها فيه ، أو على موضع فى التوراة (أو ترجمتها العربية) يفسر معنى "إبراهيم " بالأب الرحيم . مثل هذا القائل الذى لا يحترم عقلك لا يصح أن توليه ثقتك، بل عليك أن تكون منه دائما على حذر فى كل ما يقوله لك . بل ما أدراك أن " إسحاق" هى "يِصْحَاق" أو أن " يِصْحَاق " تعنى " الضَّحُوك " ، أو أن " يُونُس " هى "يُونا" وأن "يونا "يعنى" حمامة " ، إلى آخر ما دَبَّجْتُهُ لك أنا فيما سبق وأمثاله مما سوف يلى ؟ لا تقبله منى إلا إذا وَثَّقْتُهُ لك ، ورجعت بك معى إلى مراجعى فيه .

فأنا لا أرضى لك متابعتى متابعة صماء فيما أحدثك به ، فتسلم لى بكل ما أقول ، تاركا العهدة علىّ فيما أقصه عليك . ولا أرضى لك أيضا أن تقفز على التفاصيل سريعا إلى نتيجة تشبع لديك فضولا ربما استثاره عنوان هذا الكتاب ، أى إلى معرفة مجملة لمعنى العلم الأعجمى فى القرآن - أشخاصا ومواضع - غير مبال بالاشتقاق والتأصيل وكأن هذا أو ذاك لا يعنيك . إن فعلت ، فسوف يفوتك الكثير ، لأن هذه التفاصيل لا تخلو من أسرار هذا اللون من إعجاز القرآن الذى أريد أن أدلك عليه .

ثق أننى لن أشُقَّ عليك بعون الله . عليك فقط بالتُّؤَدَة والأناة ، وأنا ضامنٌ لك بإذن الله ألا تَـمَلَّ .

□□□

على أن القرآن لا يكتفى بتفسير أعلامه الأعجمية - موضوعنا فى هذا الكتاب - ولكنه يفسر أيضا اللفظ العربى الأصيل المجعول فى حكم العَلَم من مثل "المَلَك" واحد الملائكة صلوات الله عليهم ، أو من مثل " الشيطان" ، إبليس اللعين، مما تفاوت اللغويون العرب فى تحديد أصل اشتقاقه فى العربية ، ومن ثم تفاوتوا فى تأصيل معناه ، لا يقطعون فيه بيقين . ولكن القرآن سبق فحسم الخلاف ، وأصَّلَ المعنى .

من ذلك ما تلاحظه من تردد المعجم العربى فى اشتقاق لفظة " المَلَك " واحد الملائكة ، أو مطلق جنس الملائكة ، هل هو من " المُلْك " و " المَلَكُوت " ، أم هو من "الإِلاكة" و" الملأكة ؟ إن كانت الأولى فهو المِلْكُ المملوك ، وإن كانت الثانية فهو الرسول المُرسَل .

أما " المَلَك " فى القرآن فهى تسميةٌ بالمصدر الميمى "مَفْعَل" من الجذر لأك ومقلوبه ألك[1] ، فهو " الملأك " على المصدر ، بمعنى الرسالة والرسول ، سُهِّلت فيها الهمزة فصارت " الملك " . وهى نفسها على التطابق فى الآرامية والعبرية ، بل وفى الحبشية أيضا ، ملاك ، بإثبات الهمزة وتسهيلها ، وتُنْطَقُ فى الآرامية والعبرية بالخاء : " ملآخ " و" ملاخ " لتحرك ما قبل الكاف كما مر بك . وعبرية التوراة لا تفرق بين " ملآخ " بمعنى " المَلَك " وبين " ملآخ" بمعنى " الرسول " . وإنما هما فيها واحد، كما تجد فى سفر حَجَّاى : " وَيُمِرْ حَجَّاى مَلآخ يهْوا بملأخوتْ يهوا"،

(١) لأكَ ، ومقلوبه " ألَكَ " - بنفس المعنى - يعنى أرسله برسالة .

أى: "وقال حَجّاى رسولُ اللهِ برسالة الله" (حجاى ١: ١٣) فتفهم أن "ملآخ" و"ملأخوت" العبريتين بمعنى الرسول والرسالة ، لا " المُلك " أو " الملكوت " .

المَلَك والرسول إذن واحد فى أصل معناهما ، ولكن عربية القرآن تخصص لفظ المَلَك لرسل الله من أهل السماء ، تفرقةً بينهم وبين رسل الله من أهل الأرض ، صلوات الله وسلامه على ملائكته وأنبيائه . ولعلك تلمس هنا الدقة البالغة لهذا القرآن من نصه فى سورة الأحزاب على " خاتَم النبيين" ولا يقول " خاتَم الرسل " ، ليس فقط اكتفاء بدلالة العام على الخاص كما مر بك (١) ، وإنما وبالأخص لأن محمدا صلى الله عليه وسلم إنما خُتمت به الرسل من أهل الأرض فحسب ، ولا ختام لرسل الله من أهل السماء أى الملائكة صلوات الله عليهم ، لأن الرسالة بهم فى ملكوت السموات والأرض لا تنقطع .

أما أسلوب القرآن فى النص على أن "المَلَك" معناها "الرسول" ، فهو التفسير بالترادف على التجاور، كما تجد فى قوله عز وجل: {**قلْ لو كان فِى الأرضِ ملائكةٌ يمشون مطمئنين لنَزّلنا عليهم من السماءِ مَلَكاً رَسُولاً**} (الإسراء: ٩٥) فى مقابل قوله عز وجل : { **قلْ سبْحانَ ربى هل كنْتُ إلا بشراً رسولا ؟**} (الإسراء : ٩٣) ، وقس على ذلك قولـه عز وجل : { **اللهُ يَصْطَفِى من الملائكةِ رُسُلا ومِن الناس** } (الحج : ٧٥) ، وإبدال " الرسل " من الملائكة مطلقا ، أى إثبات " الرسل " فى موضع الملائكة ، فى مثل قوله عز وجل : { **حَتى إذا جَاء أحَدَكُمُ الموتُ تَوَفتْهُ رُسُلُنا وهم لا يُفَرِّطون** } (الأنعام : ٦١) ، { **قل الله أسرع مكرا ، إن رسلنا يكتبون ما تمكرون** } (يونس : ٢١) ، { **ولقد جاءت رسلُنا إبراهيمَ بالبشرى** } (هود : ٦٩) ، {**ولما جاءت رسلُنا لوطاً سِيءَ بهم وضاق بهم ذَرعا**} (هود : ٧٧) الخ، والرسل فى هذا كله تعنى الملائكة بلا خلاف.

أما لفظة " الشيطان" عَلَماً على إبليس اللعين ، فقد اختلف اللغويون والمفسرون فى نُونه هل هى زائدة فتكون " شيطان " على وزن " فَعْلان " من شاط يشيط شَيْطا أى احترق ، حُكْما على الرجيم بمآله ، أم هى أصلية فتكون "شيطان" على وزن " فَيْعَال" من شَطَن يشْطُن شُطونا ، أى بعد فهو الخاسِيء المبْعد ، أو شطنه شَطْنًا أى ناوأه وخالفه فى القصد والوجهة ، فهو المناوىء المعانِد ؟

(١) راجع فى مقدمة هذا الكتاب الحاشية الأولى .

والصحيح - بمقتضى " النحو" وحده - أنها " فيعال " من شطن ، وليست "فعلان" من شاط ، لأن "فعلان" كما تعلم يمتنع تنوينه ، و "شيطان" مصروفة فى كل القرآن ، منونة بالألف نصبا ، فى مثل قوله عز وجل : { **ومن يَعْشُ عن ذكر الرحمن نُقَيِّض له شيطاناً فهو له قرين** } (الزخرف : ٣٦) ، فهو الخاسىءُ المُبْعَدُ المناوِىءُ المعاند .

أما " سَطَنْ " العبرية - الآرامية ، ومنها " ساطان" ، أى "شيطان " العربية ، فهى فى العبرية - الآرامية بمعنى المناوىء المخاصِم ، أى العدو . والعداوة فى العربية من المعاداة ، أى المباعدة والمناوأة والمخالفة ، ومنها " العُدْوَة" أى شاطىءُ الوادى وجانبه ، تقف فيه قُبالة الواقف فى " العُدْوَة " الأخرى .

ولأن " الشيطان " عند الجاهليين لم يكن عَلَما على إبليس اللعين ، وإنما كان مرتبطا فى ذهنهم الوثنى بنقيض معناه اللغوى ، فكان عندهم بمعنى المُوالى المعين على الإتيان بالأمر العبقرى أو الطريف المُعْجِب ، كما تجد فى مثل " شيطان " الشعر وغيره [١] ، فقد رده القرآن إلى أصل معناه فى اللغة ، أى العدو المناوىء المخالف.

أما أسلوب القرآن فى تفسير الشيطان بالعدو ، فهو إيراد اللفظتين على التجاور فى أكثر من آية : { **ولاتتبعوا خطواتِ الشيطان إنه لكم عدوٌ مبين** } (البقرة : ١٦٨ و ٢٠٨) ، { **إن الشيطان للإنسانِ عدوٌ مبين** } (يوسف : ٥) ، {**أفتتخذونه وذريته أولياءَ من دُونِى وهم لكم عدو ؟**} (الكهف : ٥٠) ، { **قال هذا من عَمَلِ الشيطانِ إنه عدوٌ مُضِلٌ مُبين** } (القصص : ١٥) ، {**إن الشيطان لكم عدوٌ فاتخذوه عدوا** } (فاطر :٦) ، {**أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدوٌ مبين**} (يس:٦٠)، {**ولا يَصُدَّنَّكُمُ الشيطانُ إنه لكم عدوٌ مبين**} (الزخرف : ٦٢). وغيرُه كثير .

لو التفت اللغويون والمفسرون إلى هذا التنصيص القرآنى على معنى "المَلَك" ومعنى " الشيطان " لما ترددت فيهما المعاجم ، ولما تخبط المتحذلقون المتفيهقون .

ولكن .. لم يَفْطُن إلى هذا من اللغويين والمفسرين أحد .

هذا الجِنَاس المعنوى المُفَسِّر ، إعجازٌ مقصود .

---

(١) قارن فى اللغات الأوربية الحديثة Demon و Diable الفرنسيتين ، الأولى بالمعنى الحميد ، كشيطان الشعر وغيره ، والثانية الشيطان نفسه .

وكما فات هذا الإعجازُ مفسرى القرآن من أهْله ، فقد اعتجم أيضا على أدعياء الاستشراق المتطفلين على مباحث اللغة ، الذين وهموا أن القرآن - على أصالة لفظى " المَلَك" و" الشيطان" فى العربية - استعارهما رأسا من "التوراة" على العَلَمية المجردة من المعنى فى "ملآخ" و "ساطان" .

ولكنك لا تستكثر شيئا على مرضى الهوى والغرض . أما إن أضفت الجهل والجهالة، فحدث ولا حرج : قد قالوا مثله [١] فى "فُرقان" و "صِدّيق" و "طهارة" و "صدقات" و "زكاة " ، بل وفى "سُلّم " ! ، ناهيك برب العالمين. هذا كله صَغَارٌ يُضِلون به القارئينَ لهم ، وما يُضِلون إلا أنفُسَهُم . فأولَى لهم ، ثم أولَى لهم .

---

(1) Joseph Horovitz, JEWISH PROPER NAMES AND DERIVATIVES IN THE KORAN , Georg Olms Verbuchhandlung, Hildesheim, 1964.

(٤)

مَرَّ بك أننا نكتفى فى هذا الكتاب بتفسير العَلَم الأعجمى فى القرآن ، لا نتجاوزه إلى أعجَميِّه المعنوى ـ إن سَلَّمْتَ بوجوده ـ لأن مقصد الكتاب هو استجلاء إعجاز القرآن فى تفسير المختلف فيه ، الذى لا علم للعرب بمعناه ، لا الأعجمى المعنوى الذى عربوه من قبل وتكلموا به .

أما لب هذا الوجه من إعجاز القرآن ، فمداره أيضا على " العِلْم " : القرآن يُعَلِّم علماء التوراة والإنجيل ، أحبار الآرامية والعبرية على عصر النبى صلى الله عليه وسلم وفى كل عصر، السابق واللاحق ، والخائضين فى أسرار اللغة المصرية القديمة منذ القرن الماضى فحسب، علم ما لم يعلموه ، أو ترددوا فيه، جهلوه أو أنسوه.

ولعلك تذكر أن كفار قريش وأهل الكتاب فى يثرب ونجران ، شأنهم شأن أدعياء الإستشراق فى هذا العصر ، اتهموا القرآن بالأخذ من الكتب السابقة ، وبالنقل عن الأحباروالرهبان ، من يهود ونصارى . قالوا حين يتفق القرآن مع التوراة والإنجيل : سمع فأدى ، ما أحفظه وما أوعاه ! وقالوا عكس هذا تماما حين يعارض القرآن كتبهم التى بين أيديهم : تشوشت فى ذهنه الأمور ، واختلطت الرؤى والأحلام، وتحرفت عليه الوقائع والمواقع والأعلام ! فما "آزر" هذا الذى يسميه أبا لإبراهيم وهو "تارح" ؟ أليس قد تحرف عليه إسم " لعازر" خادم إبراهيم فظنه أباه ؟ وما " طالوت" تلك التى يسمى بها " شاءول " ملك بنى إسرائيل ؟ وما "مريم" أخت موسى وهارون التى يخلط بينها وبين " مريم " أم عيسى ؟ أين ذهبت حافظته ؟ أين إتقانه ؟ وما شأن ذلك السامرى الذى صنع العجل من ذهب لبنى إسرائيل فى التيه ؟ ألم يلقنه الأحبار أن الذى صنع العجل هارون ؟ وما باله ينكر الصلب على "عيسى" ويثبت تشريف الله إياه برفعه إليه ؟ أغاية همه تبرئة الطبقة التى ينتسب إليها ـ الأنبياء

بزعمه ـ من الدنية والنقيصة [1] ، كما فعل فى "سليمان" الذى أسجدته زوجته الوثنية للصنم فسجد ، وأبى عليه هو ذلك ، فقال فى" قرآنه " : " **وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا** " ؟ إلى آخر ما قالوه ، فَخَبُّوا وأوضعوا .

ولعلك تذكر أيضا رد القرآنِ على هؤلاء الخائنين أَنْفُسَهُم : جادلهم فى دعوى النقل بمحض عربية القرآن ، الذى تحدَّى العرب أنفسَهُم أن يأتوا بمثله أو بسورةٍ من مثله ، فكيف بِعَيِيٍّ أعْجَمِيٍّ يُلَقِّنُهُ إياه ؟

ولعلك تعلم أيضا أن التوراة والإنجيل لم يترجما إلى العربية إلا بعد قرون من نزول القرآن ، فمن أين أوتى العلم بهما ؟ بل وما كان يقرأ قبله من كتاب ؟

ومن أين له العلم بالعبرية واليونانية وهو يلحن فى أسماء الأعلام ويخلط بين خادم إبراهيم وأبيه ؟ كيف يسمعها " لعازر " وتتحرف عليه إلى" آزر " ؟ أثمة عربى لا يحسن نطق العين ، أم إنجليزى هو أو فرنسى ، تتحرف عليه " لعازر" إلى "لازار" ؟

والقرآن لا يلتفت إلى هذا الهُراء ، ولكنه صفع المكابر المتعنت المتعالم بالقاطعة الباترة من قوله عز وجل : { **فلم تُحاجُّونَ فيما ليس لكم به علم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون** } {آل عمران :٦٦} .

وقد كان من بين الذى علمه الله ولم يعلموه ، "آزر" هذه نفسها التى يحاجون بها القرآن ، كما سترى .

❒❒❒

أما الذى لا يعلمه كثيرون ، فهو أن علماء الآرامية والعبرية الذين عابوا "آزر" على القرآن ، لا يعرفون إلى اليوم معنى " تارح" إسم أبى إبراهيم فى التوراة ،

---

(١) قالها همزة لمزة ، أبعده الله ، يتفكه بها على الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم ، فتعجب له وهو الفيلسوف الملحد (برتراند رسل)، يعلى رواية الإنجيل عن صلب المسيح على قول القرآن : {وما قتلوه وماصلبوه ولكن شبه لهم } {النساء : ١٥٧} وكلا الكتابين بزعمه أساطير رواة ، ولكن مسيحيته التى يتنكر لها غلبت عليه : إنه الانتماء لا الإيمان . لا يبرأ من هذا ملحد من أبناء أى دين . راجع قوله هذا فى كتابه :

BERTRAND RUSSELL, " History of Western Philosophy ", George Allen & Unwin, London, 6th impression, 1957, P. 345.

لا يهتدون إلى الجذر المشتق منه فى الآرامية والعبرية، ولا يتفقون على معنى "إسرائيل"، شهرة يعقوب عليه السلام، ويسيئون فهم معنى إسم "موسى" عليه السلام بإصرارهم على تفسيره بالعبرية " موشيه" على زنة الفاعل فى العبرية من " مشا" (ومقابلها فى العربية مسا / يمسو بمعنى سَلَّ أى أخرج ، ومنه مسا الناقة يعنى أخرج الولد من بطنها ميتا) فيخطئون النحو العبرى ، لأن مرادهم من التسمية أنه " المَمْسُوّ" (من الماء ، إشارة إلى التقاط آل فرعون إياه من اليم) لا " الماسى" (والماسى هو فرعون وآله لا موسى)، والتسمية بالفاعل على قصد المفعول غير واردة فى العبرية ، فالتفسير مفتعل . وهم أيضا لايقطعون برأى فى معنى " هارون " (أهارون فى العبرية) اسم أخى موسى عليهما السلام ، هل هو من الخفة والنشاط (من الجذر "أَرَنْ ") أم هو من العلو والاستكبار والنفج (من الجذر " يَهَرْ ")، إلى آخر ما نعرض له فيما يلى من فصول هذا الكتاب، استكشافا لمعنى العَلَم العبرانى فى القرآن[١] .

والذى يجب أن تعرفه أيضا ، وبالأخص ، أن أقدم نسخة للتوراة التى بين يديك لم تكتب على عصر موسى وخلفائه ، ولم تكتب على عصر داود وسليمان ، وإنما كتبت " من الذاكرة " بعد هدم الهيكل وعودة اليهود من سبى بابل . وأيا ما قلت فى أمانة الكاتب وحفظه وتقواه ، فأنت لا تحيل عليه الخطأ فى الحرف والكلمة : آية ذلك ما تجده فى حواشى التوراة العبرانية تعليقا على صحة النطق فى بعض الكلمات بعبارة : " كثيف ... : قرى .. " (أى كُتِبَت كذا وتُقْرَأ كذا) . ومن ذلك أيضا التردد فى هجاء بعض الأعلام ، من مثل " يُوسِفْ " ، التى كتبت " يِهُوسِفْ " مرة واحدة لم يعلق عليها أحد .

والذى يجب أن تعرفه أيضا أن النص العبرانى للتوراة التى بين يديك ، والذى مر بك أنه مستنسخ من الذاكرة إثر عودة بنى إسرائيل من سبى بابل بعد حوالى ثمانية قرون من وفاة موسى عليه السلام ، ظل أيضا نصا غير معجم ، أى غير مقيد بالشكل والنقط ، يلحن فيه قارئه ، مثقفا وغير مثقف ، [٢] لا سيما بعد تراجع

(١) راجع فى هذا وأمثاله معجمهم التحليلى العبرى ـ الآرامى لألفاظ التوراة :
Benjamin Davidson, The Analytical Hebrew & Chaldee Lexicon, Regency Reference Library, Zondervan Publishing House, Grand Rapids, Michigan, 49506.

(٢) الخط العربى يهمل حروف العلة فى الكتابة حين تَقْصُر ، ويُثْبِتها حين تطول ، ويهمل أيضا تكرار الحرف المضَعف . وعلاجُ هذا النقط و الشكل . وهما ألزمُ للخط العبرى الذى يهمل أحيانا كثيرة حروف المد : الألف والواو و الياء ، بالإضافة الى ما يهمله الخط العربى .

العبرية على الألسنة وحلول الآرامية محلها فى ربوع فلسطين منذ القرن الثالث قبل الميلاد . وقد تصدى لتحقيق النص بالنقط والشكل والتعليق على صحة النطق ، فى مدى ثمانية قرون ، من القرن الثانى الميلادى إلى القرن العاشر، طائفة يدعون " بَعَلِى ماسورا" أى " أهلُ الأثر " ، حُفَّاظ المأثور المتلقن .

ولك أن تتصور ماذا يمكن أن يحدث لنصٍ أعيدت كتابته من الذاكـرة بعـد وفاة موسى عليه السـلام بحـوالى ثمـانية قرون ، غيـر مضبوط بالشكل والنقط ، وظـل كذلك ، إلى القـرن الـثانى لميـلاد المسـيح ، واسـتغرق " تحقيقـه " بالشـكل والنقـــط والتعقيـــب ثمانيـــة قـــرون أخـــرى فما اكتمـــل إلا فى القـــرن العاشـــر الميلادى .

هذا وذاك يقوى لديك شبهة وقوع الإضافة والحذف فى النص الذى بين يديك . أما الحـذف ، فهـذا ما لا سـبيل لك اليـوم إلى إثباته . وأما الإضافة ، فإثباتها هين بين ، تحفظ المسيحيون من قبل على بعضها بالنسبة إلى أسفار برمتها سموها "أبوكريفا" أى المنحولة ، وتستطيع أنت التحفظ على كثير مما تضمنه صلب أسفار موسى الخمسة نفسها من سفاسف وشناعات لا يقبل ورودها فى نص إلهى مقدس ، ليس أشنعهاْ زِنى بنتى لوط بأبيهما ليكون له منهما " نسل " كما مر بك . وهو يقوى لديك أيضا شبهة صرف النص فى بعض مواضعه ـ بمجرد النقط و الشكل ـ عن أصل معناه. وهو يقوى لديك أخيرا ـ وهنا بيت القصيد فى مقاصد هذا الكتاب الذى نكتب ـ احتمال وقوع التحريف فى نطق الأسماء الأعلام .

وتستطيع أن تقول الشىء نفسه ـ أو قريبا منه ـ فى الأناجيل الأربعة المتداولة، التى لم يخطها عيسى عليه السلام بيده ، كما خط موسى عليه السلام بإزميله فى الألواح ، لولا أن أصحاب هذه الأناجيل لا ينسبونها ابتداء اليه ، أى إلى عيسى عليه السلام : لم يُملِها عليهم ، ولم يراجعوها عليه ، وإنما هم ينسبونها إلى ذات أنفسهم ، كتبوها من الذاكرة أيضا بعدما تمادت بهم السن . أو كتبها آخذون عنهم لم يروا المسيح ولم يسمعوا منه . وهؤلاء وأولئك لم يكتبوا ما نطق به المسيح بلغته (الآرامية ـ العبرية) وإنما ترجموا ما وعوه إلى لغة ليسوا من أهلها (اليونانية)، لا تستثنى " لوقا " الطبيب اليونانى ، لأنه بنى إنجيله على ما سمعه منهم مترجما إلى اليونانية من قبل . وهذا يفسر لك بعض أخطائهم فى الترجمة ، سواء فى ترجمة ما

استشهدوا به من التوراة العبرية فى الأناجيل اليونانية [1]، أو فى اختيار اللفظ اليونانى المناسب للمقابل العبرى أو الآرامى : ظنوا " باتر " Pater اليونانية (أى "الأب" الوالد لا غير) تصلح ترجمة للفظة " آب " العبرية ـ الآرامية حيثما وردت ، على بَوْنٍ ما بينهما فى مجاز اللغات السامية ومنه معنى الفاطر المنشىء البارىء . وظنوا باسيليا Basileia اليونانية (وهى المُلك والمملكة) تصلح دائما أبدا لترجمة اللفظين العبريين الآراميين " مَلْخُوت" و"مَلَخُوت" على السواء ، الأولى بمعنى الملك والملكوت ، والثانية بمعنى الرسالة والرسول (على ما مر بك فى مقابلهما العربى) ، فيتجافى بك المنطق أن تفهم عبارة من مثل: " من يَسْمَعُ كلمةَ الملكُوت ولا يَفهَم " (متى ١٣/١٩) ، إلا أن يكون أصلُها : " من يَسْمَعُ كلامَ الرسول " . أو مثل عبارة: "فصَلُّوا أنتم هكذا : أبانا الذى فى السموات ! ليتقدس اسمك ! ليأت ملكوتك" ! (متى ٦/٩ و ١٠) التى تقرؤها فيأخذك العجب : وهل ملكوت الله عز وجل إلا حاضر فى كل آن ؟ أليس قد قال عليه السلام فى تلك الأناجيل نفسها : " ملكوت الله فيكم " (لوقا ١٧/٢١) يعنى نفسه، أى الرسول والرسالة؟ إذن فما معنى طلبهم فى صلواتهم : " ليأت ملكوتك ! " ؟ أليس الأرجح أن يكون معناها : " ليأت رسولك !" ؟ يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم ، الذى بشر به عيسى عليه السلام مصداقا لما جاء فى القرآن على لسانه : { **ومبشرا برسولٍ يأتى من بعدى اسمُهُ أحمد** } (الصف : ٦) . نعم ، قد استفاد من هذا ـ وغيره كثير ـ بطاركة يونانيو اللسان ذهبوا إلى " مجمع نيقية " عام ٣٢٥م [2] لإقرار ألوهية المسيح ، على نحو ما تعرف من عقيدة التثليث ، أو " الثلاثة فى واحد " ، التى يدين بها المسيحيون إلى

(١) هذا هين إثباته : ما عليك إلا أن تطابق اقتباسات الأناجيل من " العهد القديم " على التوراة التى بين يديك . من ذلك ما تجد فى سفر ملاخى من قوله : " ها أنذا أرسل ملاكى يهيىء الطريق أمامى " (ملاخى ٣/١) المقتبسة فى الأناجيل بعبارة : " ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكى الذى يهيىء طريقك قدامك " (لوقا ٧ / ٢٧) مع تحفظنا على ترجمة ملاخى فى هذا النص إلى ملاكى العربية ، التى يعنى بها المقتبس ، يوحنا (أى يحيى عليه السلام) نفسه ، ويوحنا رسول أو نبى باتفاق لا ملك أو ملاك . على أن الاقتباس ضعيف فى أصله ، لأن ملاخى النبى كان يعنى بها نفسه فى النص التوراتى ، لأن اسمه العبرى هو نفسه نطقا وكتابة " ملاخى" التى تعنى فى العربية " ملاكى " أو " رسولى "، ومثلها " انجلوس " Angelos اليونانية فى الاقتباس الإنجيلى.

(٢) راجع بالعربية تفاصيل وقائع " مجمع نيقية " فى مصنف الإمام محمد أبو زهرة رحمه الله : "محاضرات فى النصرانية " ، دار الفكر العربى .

اليوم ، ولكنه وضع مترجمى الأناجيل إلى مختلف اللغات ، ومنها العربية بالطبع ، ناهيك بالمفسرين ، فى عسر شديد . من ذلك عبارة " وبعدما أُسْلِمَ يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يَكْرِزُ ببشارة ملكوت الله " (مرقس ١٤/١) وأصل عبارة " يكرز ببشارة ملكوت" فى إنجيل مرقس اليونانى Kerusson to euaggelion tou theou ومعناها بنفس ترتيبها اليونانى " مبشرا بإنجيل الله " ، ليس فيها "ملكوت " ، وليس فيها أيضا " بشارة " : *أضاف المترجم " ملكوت " من عنده ليمنع إضافة البشارة إلى* الله ، وترجم euaggelion (وتنطق إيفانجليون) إلى " بشارة" . أما " يَكْرِزُ " فى النص العربى فليست عربية (وبمعنى أدق ليست هى يكرز العربية بمعنى يلجأ ويعتصم) ، وليست هى أيضا عبرية ، بل ليست سامية ، وإنما هى آرامية منحولة عن الفارسية ، التى جاءت منها Kerussein اليونانية بمعنى يعلن ويبشر (قارن herald الانجليزية) ، ولكن المترجم العربى اضطر إلى استعمال تلك اللفظة الآرامية المنحولة كراهية التكرار فى النص العربى ، كأن يقول " يبشر ببشارة" وهو ممجوج .. العبارة إذن فى النص اليونانى ليست " يكرز ببشارة ملكوت الله " وإنما هى ببساطة " يبشر بإنجيل الله " . ولكن إضافة الإنجيل إلى الله تسبب مشاكل لا تخفى ، إذ ما هى تلك البشارة التى هى لله ؟ إنها الإنجيل نفسه ، أى "إيفانجليون " اليونانية ، التى يفسرونها بالخبر السار ، أو البشارة . ومن قال إن <u>(eu)</u> + angelion اليونانية تعنى الخبر السار ؟ أليس " أنجليون " angelion اليونانية معناها الرسالة والرسول مثلها مثل " ملآخوت " الآرامية ـ العبرية ، ومنها " أنجلوس" angelos يعنى المَلَك ، أى الرسول ؟ إلا إذا ظننت أن اليونان يسمون المَلَك " المُخْبِر" ، وهذا غير صحيح بالطبع . ومن قال إن المقطع اليونانى <u>eu</u> يعنى" السار " ؟ ليس له بالسرور أدنى صلة ، وإنما معناها حين تكون بادئة فى الكلمة ، " المرضِىُّ المحمود " ، كما فى <u>(eu)</u> legein اليونانية ، بمعنى حمده وأثنى عليه . ولو ترجمت " إيفانجليون " اليونانية إلى العبرية (وأنت تعلم أن أنجليون تعنى الرسالة) لقلت "ملآخوت حمِدِ"[١] . أفيكون المعنى " رسالة أحمد " ؟ ربما .

---

(١) "حمد" العبرية وصف على المصدر من "حَمَد" ، يوصف به مبنيا على المفرد المذكر كل ما أعجبك وحَسُنَ لديك .

ليس لديك الدليل فى هذه أو فى غيرها : ليس لديك النص الأصلى لأقوال المسيح عليه السلام بلغته ولغة قومه (العبرية ـ الآرامية) . وإنما لديك ترجمة يونانية لعبارات ربما قالها عليه السلام ، ولكنك لا تقطع بصحة الترجمة الا أن تطابقها على الأصل العبرى ـ الآرامى ، وهو غير موجود للأسف . ومهما سلمت بأن رسل الله جميعا قادرون على الحديث بكل لغة يلهمون الحديث بها ، فأنت تحيل على المسيح عليه السلام أن يتحدث مع المرسل إليهم وإلى أهله وعشيرته وحوارييه بلغة يونانية لا يفهمونها ، لا سيما حين يتحدث فى صُلب الرسالة والعقيدة . من ذلك حديثه عليه السلام عن الذى يأتى بعده ، الذى إن لم يذهب ، لا يجىء . أعنى " الفرقليط" (Parakletos فى الأناجيل اليونانية) غير الموجودة أصلا فى لغة اليونان قبل عصر المسيح ، والتى حار فى فهمها تراجمةُ الأناجيل إلى مختلف اللغات ، هلى هى المعزى أم الناصر أم الشفيع أم المحامى . والأصوب أن يقال [١] إنها عبرية آرامية ، تركت فى إنجيل يوحنا اليونانى على أصلها، بعد تهذيبها إلى صورتها اليونانية Parakletos نحوا ونطقا : إنها إذن إسم مزجى مركب " فرق + ليط" (التى تنطق فاؤها البادئة فى العبرية ـ الآرامية باء ثقيلة "P" كما مر بك) فهى " پرقليط " آراميا وعبريا . الشق الأول " فرق " جذر آرامى ـ عبرى بمعنى حط عنه ووضع ، أى حط عنه الذنب أو الخطيئة (قارن "فرك" العربى بمعنى حكه ليزيل عنه وَسَخاً علق به). والشق الثانى من الجذر العبرى الآرامى "لاط / يلوط" بمعنى ستره وحجبه وغطاه (قارن " لاط/يلوط" ، لطّ/يلُط" العربيتين بمعنى ستره وأخفاه) ، أو هى بمعنى لزق به وعلق (وهى " لط" العربية أيضا) كما يعلَق الذنب وتعلَق الخطيئة . الشق الأول "پرق" ينطق "پارِق" (بإطالة مد كسرة الراء) زنة الفاعل آراميا من "پرق"، فهو الحاط الواضع الكاشف ، والشق الثانى " لاط" ينطق " لايِط" (بإطالة مد كسرة الياء)، زنة الفاعل آراميا أيضا من " لاط " . فهو فى الأصل " پارِق + لايِط ، يعنى "كاشف الحجاب" أى "كاشف الغشاوة" (والكاشف من أسمائه صلى الله عليه وسلم)، أو هو " واضع الذنب والإصر " ، ولكن المزجية أحالت النطق إلى " پرقليط " (مداً

---

(١) هذا جديد نفيس ، فتأمله ، عسى أن تكون به الإصابةُ والهداية . ولكنك لن تسلمه لى ، لأنه ليس لديك ولا لدى إنجيل عبرى ـ آرامى تطابقه عليه .

بالكسر لا بالياء) . يقوى هذا الفهم بشاهد من أهلها وجود " پرقليط " هذه (مداً بالياء لا بالكسر) فى العبرية المعاصرة بمعنى المحامى الذى يقف إلى جانبك يحاول "إسقاط " التهمة عنك ، والتهمة هى مظنة الخطأ والذنب . "الفرقليط" إذن هو "واضعُ الإصر" أى محمدً صلى الله عليه وسلم : { **الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويُحِلّ لهم الطيبات ويحرّمُ عليهمُ الخبائثَ ويضع عنهم إصْرَهُمْ والأغلالَ التى كانت عليهم** } (الأعراف:١٥٧) والإصر من معانيه "الذنب" كما تقرأ فى تفسير القرطبى رحمه الله.

وتستطيع أن تقول الشىء نفسه فى لفظة " انجيل " . لم لا تكون آرامية — عبرية فى أصلها ؟ أليست اسما عَلَما على الكتاب المنزل على عيسى عليه السلام ؟ أفيحتاج المسيح إلى تسميته باليونانية " إيفانجليون " على معنى البشارة ولديه فى لغته المقابل العبرى " بِسُورا " ؟ وإذا افترضت أن أصحاب الأناجيل اليونانية ترجموا "بِسُورا" العبرية إلى اليونانية " إيفانجليون " التى لم ينطق بها اليونان قبل عصر المسيح ، أما كان أمامهم فى اليونانية لفظ يفيد معنى " البشارة " سوى ذاك اللفظ المركب (eu) + angelion ؟ أليس فى اليونانية الفعل " كِرُوسين " بمعنى يعلن ويبشر (herald الانجليزية) المنقول فى اليونانية الكَنَسِيَّة إلى معنى " يَعِظ" و"يدعو " ، منعاً للخلط بين " الكرازة " والبشارة ، وهما واحد ؟

تستطيع أن تقول هذا أو بعضه ، ولكننا لا نستطرد بك إليه ، وإنما نرجىء الحديث عنه إلى فصل تال فى تفسير القرآن لأعْجَمِيّةِ العَلَم ، ومنه لفظة " إنجيل " .

❑❑❑

انقطعت سلسلةُ السند إذن فى التوراة وفى الإنجيل . ولكن الانقطاع فى الإنجيل أفدح . لأن القائلَ فى الإنجيل رواةٌ يتحدثون غير اللغة . يزيد من فداحة هذا أن الأناجيلَ كثيرة ، قاربت فيما يروى ثلاثمائة إنجيل تتفقُ وتختلف ، اعتمدت منها الكنيسةُ بعد استقرار عقيدة التثليث تلك الأناجيلَ الأربعةَ التى بين يديك لا سبيلَ لكَ اليوم إلى ما كان فى غيرها ، فقد حُرِمَت وطُورِدَت وأعْدِمَت . بل حتى ما ظهر منها بعد ذلك ، كالإنجيل المسمى " برنابا " المكتَشف حوالى القرن الثامن عشر بلغةٍ

إيطالية تُسْكانيَّة ، مهما اتفقتَ كمسلم مع الكاتب فى مضمونه، لا تستطيعُ الارتفاعَ بنسبة ما جاءَ فيه يقينا إلى المسيح عليه السلام ، لا لشىء إلا لكونه مكتوبا - على الترجمَة - بلغةٍ غير لغتهِ عليه السلام ، شأنهُ شأنُ الأناجيلِ الأربعةِ المتداولَة نفسها ، لا أكثر ولا أقل .

وليس كذلك " القرآن " ، المقطوعُ من الخصمِ ومن الصديقِ على السواء بنسبة تلاوته إلى محمد صلى الله عليه وسلم بنصه " العربى" الذى بين يديك الآن ، لا خلاف على حَرْفه ولفظه ، المُكْتَمِلُ نزولُه حوالى سنة ٦٣٢ م ، وتلاه صلى الله عليه وسلم الآيةَ بعد الآية ، والسورةَ بعد السورة ، على الكاتبين من صحابته ، يكتبون ويراجعون عليه ما كتبوا ، والمجموعُ فى المصحف الذى بين يديك مُراجَعا على حُفَّاظِه وكَتَبَته ولما ينقضِ عقدان على وفاته صلى الله عليه وسلم . نعم ، لم يكن " المصحف الأم" ، مصحف عثمان ، مضبوطاً بالشكلِ والنقط ، ولكنه " مقروءٌ " عليه هو نفسه صلى الله عليه وسلم بقراءةٍ أقرَّها ، كلُّ ما عداها مردود . ولم يظل " مصحف عثمان " غيرَ مُقَيَّدٍ بالشكلِ والنقط حوالى ٢٢٠٠ سنة كما وقع لتوراة موسى عليه السلام [١] ، وإنما ضُبِط بالشكل والنقط على عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ولما تنقضِ سبعون سنةً على وفاة النبى صلى الله عليه وسلم . وهو لم يُضبَط بالشكل والنقط علَى عصر اضمحلال الفصحى وتراجعها على الألسنة ، كما وقع لعبرية التوراة منذ القرن الثالث قبل الميلاد بعد حوالى ألف سنة من نزول التوراة ، ولكنه ضبط بالشكل والنقط وعربيةُ القرآن هى لغة الخاصةِ والعامة ، بل وهى مقياسُ عربيةِ العرب .

نعم ، يستطيع المكابرُ المعاند أن يُنْكِرَ الوحىَ على القرآن ، شأن كلِّ كافر بوحى السماء . ولكنه لا يستطيع التسليم بالوحى لما بين يديه من الكتب السابقة وهو ينكر الوحى على القرآن ، لأن إنكارَ الوحى على القرآن إبطالٌ لدعوى الوحىِ كُلِّه : قد ضاعت أدلة الوحى الأول بضياع معجزات الأنبياء السابقين ، وبقى القرآن - المعجزة بذاته - شاهدا أوْحد على معجزات كل من سبقوه .

---

(١) إذا رجحت معى أن " فرعون الخروج " هو رمسيس الثانى الذى كان مَهْلِكُهُ حوالى ١٢٢٥ ق م ، وأضفت سنوات التيه الأربعين ، تَرَجَّحَ لديك اكتمال نزول التوراة حوالى مطلعِ القرن الثانى عشر قبل الميلاد . وقد استغرق ضبطها بالشكل والنقط على أيدى "أهل المأثور" (بَعْلِى ماسورا) ثمانية قرون فى ظل المسيحية ثم فى ظل القرآن ، فلم يكتمل إلا فى القرن العاشر الميلادى ، والفرق اثنان وعشرون قرنا . أما إن ارتفعت بفرعون الخروج إلى تاريخ أسبق ، فقد ازداد البون شُسوعا .

وتستطيع أيضا ـ مُنْصِفاً غيرَ مُتَعَنِّت ـ أن تدفع بانقطاع السند فى التوراة والإنجيل اللذين بين يديك . وتستطيع أيضا ـ مصيبا غيرَ مخطىء ـ أن تدفع بضياع الأصل الآرامى ـ العبرى الذى ترجمت عنه أقوال المسيح عليه السلام فى تلك الأناجيل اليونانية الأربعة ، بل وفى إنجيل برنابا أيضا . ولكنك لا تستطيع أن تفعل هذا أو بعضه مع القرآن إلا وأنت موتورٌ ، مُتَعَنِّتٌ ، غير مصيب : لا مُشَاحَّة فى حرف واحد من حروف القرآن ، الأصلِ ، واللغةِ ، والسَّنَد .

من هنا تفهم قوله عز وجل فى وصف القرآن : { **وأنزلنا إليك الكتاب بالحقِّ مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ، ومهيمناً عليه** } (المائدة : ٤٨) يعنى القرآن يُصَدِّق " ما صَدَقَ " فى التوراة والإنجيل ، أى هو الشاهد لهما بالصواب حين الإصابة ، أما عند الاختلاف فالقرآن هو المُصَوِّب الفَيْصَلُ البات ، قولُه الحق .

وتستطيع أن ترتب على هذا أيضا أن القرآن لا يُحَاجُّ بما فى التوراة والإنجيل ، ولكنهما هما اللذان يحاجان به عند الاختلاف .

ولكن لا تتوقع منى أن أقول لك : قد قالها القرآن " آزر " فهى كما قال ! وعلى الذين يريدون لأبى إبراهيم اسما آخر أن يعودوا إلى معاجمهم يبحثون عن جذر عبرى أو آرامى يشتقون منه "تارح" أو يهتدون إلى وجه فى هجائه ومعناه ، وليتخبطوا كما يتخبطون فى أمثال "موسى" ، هارون ". بل مثل ما يُجَدِّفون فى "إسرائيل" ("يِسْرَئيل " فى عبرية التوراة) التى استنفج بعضهم ففسرها بأنها "مُصَارِعُ الله"، واستخذى بعضُهم فقال بل هى " أميرٌ مع الله " ! وكلتاهما شُهْرَةٌ يَفْرَقُ من انتحالها إبليسُ نفسُه ، فكيف بعبد الله يعقوب ، النبىِّ ابنِ النبىِّ أبى الأنبياء ؟

لا تنتظر منى أن أقولها ، وإلا ما كان هذا الكتاب .

على أنى لا أكتب لهؤلاء ، وإنما أكتب لك أنت ، كى نستبين معا كيف عَلِمَ القرآنُ ما جَهِلوا ، وكيف أخطأ هؤلاءِ وأصاب .

ولكنك لا تهزم ملاكما بأن تطرده من الحلبة ، وإنما تستدعيه إليها لتصرعه على أرضها . ولا تستدنيهِ إليك لتُبَاغِتَهُ بالقاضيةِ على أمِّ رأسِه ، ولكنك تُصاوِلُهُ حتى يُسَلِّمَ لك بالقاضيـة ، " الفنية " .

قال عز وجل : { **ولاتجادِلوا أهلَ الكتاب إلا بالتى هى أحسن ، إلا الذين ظلمُوا منهم** } (العنكبوت : ٤٦) .

وإنى بها ملتزمٌ بعونِ الله فيما بقى من فصولِ هذا الكتاب .

وبعد ، ثِق أننى لا أبتغى بما أكتب وجهَ الجدل ولا يستهوينى النزال . فليست الشحناء من طبعى . بل " حلاوة الإعجاز " هى كُلُّ ما نَبْغى : نُورُ الحقِّ ، ينُبوعُ الجمال .

الفصل الثالث

العَلَمُ الأعجمي في القرآن

(١)

يجىء العَلَمُ الأعجمىُّ فى القرآن على ثلاثةِ أنواع : عَلَمُ الذات ، وعَلَمُ الجنس ، وعَلَمُ المَوْضِعِ .

□□□

أما " عَلَمُ الذات " فهو أسماءُ الأشخاص ، ملائكةً وأنبياءَ وصديقين ، وملوكاً وجبابرةَ وطواغيت . وربما أضَفتَ " إبليسَ " اللعين ـ هامةَ العُصاة ـ إن سَلَّمْتَ بعُجْمة "إبليس" ، وسيأتى .

وأما " عَلَمُ الجنس " فهو أسامى القبائل ، منها بائدٌ كعاد وثمود ، ومنها الذى غَيَّبَهُ الغَيْبُ كيأجوجَ ومأجوج ، وأسامى الشعوب ، وَرَدَ منها فى القرآن "الروم". وربما أضَفْتَ أهل المِلَل على النسب. اليهود، والنصارى، والصابئين ، والمجوس . ولكنك تُضيف حتما تحت "عَلَمِ الجنس" أسامى كُتُبٍ ثلاثة : التوراة والزبور والإنجيل ، على خلافٍ فى عجمة الزبور .

أما " عَلَمُ الموضع " فأسامى الأماكن والبلدان ، أمثالُ مصرَ ومَدْيَن وإرَمَ (ذات العماد) . وربما جازت إضافةُ " فِرْدَوْس " و " عَدْن " استقصاءً لشبهة عجمتهما ، وربما أيضا " جَهَنَّم " (المقولُ بأنها "جِي ـ هِنُّوم " العبرية) . ولكنك لن تجرى وراء كل من هبَّ ودب من أدعياء الاستشراق تبحث عُجْمة ألفاظٍ بَيِّنَةِ العربية من أمثال "عِلِّيين" و " سِجِّين " ، فليس العَبَثُ من مقاصد هذا الكتاب .

□□□

فى باب العَلَمِ على الذات ، تندرج أسامى الملائكة رضوانُ الله عليهم ، وقد سَمَّى القرآنُ منهم خمسة : جبريل ، ميكال ، مالك ، هاروت ، ماروت ، ولا يعلمُ جنودَ ربِّك إلا هو .

وتندرج فى باب العَلَم على الذات أيضا أسامى الأنبياء والصديقين رَضِىَ الله عنهم ورضوا عنه ، بدءا بآدم أبى البشر وانتهاء بعيسى المُبَشِّر بخاتم النبيين، صلوات الله وسلامه على رسله وأنبيائه ، وهم : آدم ، ادريس ، نوح ، هود ، صالح، شعيب ، ابراهيم ، لوط ، اسماعيل ، إسحاق ، يعقوب(وشهرته اسرائيل) ، يوسف ، موسى ، هارون ، داود ، سليمان ، الياس ، اليسع ، ذو الكِفل، يونس ، أيوب ، عزير ، لقمان ، زكريا ، يحيى ، مريم ، عيسى . فهؤلاء سبعةٌ وعشرون شخصا علما ، على خلافٍ فى نبوةِ بعضٍ وصدِّيقيةِ بعض ، وفى عُجمة الاسم وعربيته ، تزداد إلى ثمانية وعشرين بإضافة " اسرائيل "شهرة يعقوب عليه السلام .

أما الملوك والجبابرة، فمن أعجميِّها فى القرآن اثنان: طالوت، ملك بنى اسرائيل، (شاءول فى التوراة)، جالوت، جَبَّارُ الفلسطينيين، (وهو فى التوراة جُلْيات).

وأما المقبوحون فى الدنيا والآخرة ، الكفرةُ البُغاةُ الطغاة ، فقد سمى القرآن منهم أعلاماً أربعة : آزر ، فِرْعَون ، هامان ، قارون . وربما أضفتَ رأسَ الضلالةِ إبليسَ اللعين ، استقصاءً لعجْمته . فيكون مجموعُهم خمسةَ أعلام .

أما أسامى الأصنام فى القرآن ، فنحن نضرب الصَّفْحَ عنها استخفافا ، فلا ذاتَ لها، فضلا عن أن القرآن لا يُفَسِّرُها للعرب، لأنها عربيةُ الأصلِ والاشتقاق[1].

□□□

وأما العلمُ على الجنس فى أعجمى القرآن ، فمن القبائل أربعة : عاد ، ثمود ، مدين ، يأجوج ومأجوج . ومن الشعوب واحد : الروم . ومن الكتب ثلاثة : التوراة، الزبور، الإنجيل (وإن كانت الزبور عربية كما سترى) . وربما أضفتَ على النسب أهل الملل الأربع : اليهود، النصارى، الصابئين ، المجوس . فيكون مجموع هذا الصِنف اثنى عشر علما .

---

(١) وهى تسعةُ أصنام : اللاتُ والعُزَّى ومَناة ، وكانت لعرب الجاهلية ، والبَعْل ، وكان لِضُلالٍ من بنى اسرائيل دعا فيهم الياسُ عليه السلام كما يذكر القرآن ، ثم وَدٌّ وسُواعٌ ويَغُوثُ ويَعوقُ ونَسْرٌ ، وكانت لقوم نوح كما يذكر القرآن ، وعَبَدَ العربُ بعضَها فى الجاهلية . لا يُغْمُض من هذا على عربى إلَا " سُواع" ، وهو من التوسعة والفرج والنصرة ، ومقلوبها فى العبرية الآرامية " شُوَع " . أما اللات فلغة فى الآلهة . وأما مَناة فهى التي يُراق عندها الدم ، ومن هذه " مِنًى " التى يذبح فيها الحجاج . ومَناهُ يعنى أراقه ، ومنه " المَنِىّ " .

ولم نذكر فى علم الجنس " سَبَأ " ، كما لم نذكر فى علم الذات " تُبَّع " ملوك اليمن ، لعربية هذين العلمين بلا خلاف .

❑❑❑

أما علم الموضِع ، أى أسامى الأماكن والمواقع ، والمنازل والقرى والبلدان ، فمن الأماكن والقرى والبلدان أربعة : بابل ، إرَم ، مصر ، سيناء . ومن المواقع واحد: الجُودِيُّ (مُرْسَى نوح) . ومن المنازل ثلاثة : الفِرْدَوس ، عَدْن ، جعلنا الله من أهلهما بمنّه وفضله ، و ... جَهَنَّم ، أعاذَنا اللهُ منها . فيكون مجموعُ هذا الصِّنف ثمانية أعلام .

❑❑❑

ومن هنا ترى أن العلم الأعجمى الذى تتبعناه فى القرآن ، ولا يَستقصى على الله عز وجل أَحَد ، ستون اسما علما ـ أو فى حُكْمِ العَلم كالأعلام على النَّسَب من أهل المِلَل ـ سوف تتناولها بإذن الله مباحث هذا الكتاب . من هذه الأعلام مقطوعٌ بعجمته ، ومنها المَقُولُ بعربيته . ومنها أيضا العربىُّ فى صورته وهو مَحْضُ ترجمةٍ كما سترى .

❑❑❑

ويلاحظ أنه لم يَرِد فى القرآن من أعلام النساء سوى اسمٍ واحد ، هو مريم أم عيسى عليهما السلام (لا أخت موسى وإن تشابه الإسمان) .

ولكن القرآن أشار إلى نساء أخريات على النسب إلى الابن أو الزوج ، وهُنَّ خمس : ثلاثُ فُضْليات ، أم موسى ، امرأة فرعون ، امرأة عمران (جد عيسى ، وليس أبا موسى وإن تشابه الإسمان)، وثِنْتَان من الخائنات، امرأة نوح ، امرأة لوط.

وليس فى المنسوب إليه عَلَمٌ جديد يُضاف الى ما ذكرناه سوى عِمران جَدِّ المسيح صلوات الله عليه وعلى رسل الله أجمعين .

وهذا يرتفعُ بالعَلَم الأعجَمىِّ ، أو المَقُولِ بِعُجْمَةِ أصلِه ، الذى نَعرِضُ له فى هذا الكتاب ، إلى واحدٍ وستينَ اسماً علما .

(٢)

الأعلامُ الأعجمية المذكورة فى القرآن وَرَدَ أغلبُها على أصلِ لفظهِ الأعجمى فى أسفار اليهود والنصارى ، أو ـ اختصارا ـ فى التوراة والإنجيل .

وقد ضَمَّ المسيحيون أسفارَهُم إلى أسفارِ إليهود (على خلافٍ بينهُم فى إنكارِ بعضٍ وإضافة بعض) فى مُجَلَّدٍ واحد من جزأين هما " العهد القديم " (التوراة) و"العهد الجديد " (الانجيل) ، تحت اسم " الكتاب المقدس " [١] ، سَلَّموا لهما جميعا بالوحى من الله ، ليس فقط لأن اللاحق يبنى على السابق فحسب كما مر بك ، وإنما أيضا وبالأخص اتِّباعا لقول المسيح عليه السلام فى الأناجيل: ماجِئْتُ لأهدُمَ الناموس (أى التوراة) ، وإنما جئت لأُكَمِّل (أى بالانجيل) .

أما اليهود فهم بالطبع لا يُسَلِّمون بالوحى لكتابات " العهد الجديد " ، وإلا لما بقوا على يهوديتهم. وهم لا يسلمون بالوحى أيضا لأسفار أضافتها الكنائس المسيحية إلى أسفارهم المعتَبَرةِ عندهم (على خلافٍ فى هذا بين الكنائس المسيحية) [٢] .

وقد توقفت " النبوات " فى بنى إسرائيل قبل قرون من مولد عيسى عليه السلام . ومن هنا يفهم خُلُوُّ أسفار التوراة من النص على أعلام المسيحية الأربعة : زكريا ، يحيى (يوحنا) ، مريم ، عيسى ، عليهم السلام . ولم تَذكُر أيضا عِمران جَدَّ عيسى .

□□□

ويلاحظ أن أسفار " العهد القديم " (أى التوراة) مكتوبة كلها بالعبرية ، ماعدا أجزاء قليلة كتبت بالآرامية رأسا أو متأثرة بها ، منها عبارات فى سفر

---

(١) لذا خص القرآن أهلَ الملتين باسم " أهل الكتاب " لا يَدخُل فيه غيرُهم . وسيأتى .

(٢) ومثاله سِفر " يشوع بن سيراخ " الذى يُنكره اليهود وتعتبره الكنيسة الكاثوليكية ، ولا تعتبره الكنيسة القبطية الأرثوذكسية .

التكوين نفسه، أول أسفار العهد القديم ، ومنها بعض إصحاحات متفرقة فى أسفار ثلاثة هى أسفار ارميا، ودانيال ، وعزرا (عزير فى القرآن) . وإذا علِمت أن عزرا - كاتب " شريعة الله " بعد سبى بابل - كان من أعلام القرن الخامس قبل الميلاد ، فقد علمت مدى طغيان هذه الآرامية على ألسنة الناس ، حتى حلت تماما أو تكاد محل العبرية فى ربوع فلسطين منذ ثلاثمائة سنة على الأقل سبقت مولد المسيح ، فكان بها جُلُّ كلامه عليه السلام .

ولكن أسفار " العهد الجديد " لم تكتب بالآرامية أو العبرية أو بمزيجٍ من هذه وتلك ، وإنما الموجود منها بين يديك الآن مكتوبٌ كله - عدا بضع كلمات آرامية أو عبرية - بلغة " يونانية " متأخرة ، تعرف باليونانية " الكَنَسِيَّة " ، لاصطناعها ألفاظاً وتراكيب لم تُسمع فى اليونانية قبل عصر المسيح . ومهما قيل من أن انجيل " مَتَّى " وبعض رسائل الحواريين والآخذين عنهم قد كان لها أصلٌ عبرانى تُرْجِمَت منه إلى تلك "الأصول" اليونانية التى بين يديك ، فهذا الأصل "العبرانى" مفقود ، لاسبيل لك إليه لتطابِقَها عليه : ليس لديك من " العهد الجديد " سوى هذه الأصول اليونانية التى بين يديك ، وترجماتٌ منها مباشَرَةً إلى مختلف اللغات .

□□□

ولئن كان موضوع " العهد الجديد " هو رسالة عيسى عليه السلام ، آخرِ رُسُلِ الله إلى بنى اسرائيل ، فهو لا يُسَمِّى فقط أعلام المسيحية المذكورين فى القرآن ، ولكنه يتحدث أيضا بالتوراة فيذكر بعضا من أعلامها الذين سماهم القرآن . ولأنَّ "العهد الجديد " يونانى اللسان ، فهو حين يَذْكُر أعلاما من التوراة يُسَمِّيهم بالطبع على اللفظ اليونانى ، لا اللفظ الآرامى - العبرى . ومن هنا اختلافُ نطق العلم "الانجيلى" عن سَمِيِّه فى التوراة .

من ذلك أن اليونان لا ينطقون الشين ، فأبدلوا كل شينات التوراة سينا [(١)] . واليونان أيضا لا يستطيعون الحاء والعين . ويهمسون الهاء، فأهملوها جملة ، إلا أن

---

(١) عربية القرآن أيضا تبدل شينات التوراة سينا ، لا عن ضرورة كما فعل كتبة الأناجيل ، وإنما رجوعا بجذر اللفظ العلم إلى جذره العربى .

تكون الحاء والعين بادئتين ، فَتُبْدَل منهما الهمزة [١] ، وفى اليونانية كذلك علاماتُ " إعراب " ، منها إضافة السين للرفع وإضافة النون للنصب ، فتظهران هذه أو تلك فى نهاية الاسم العلم بحسب موقعه من "الإعراب" فى الجملة ، ويظنها من لا يعرف أصل الاسم جزءا منه : فعلوا هذا فى أعلام التوراة وفى أعلام الإنجيل .

من ذلك " يُونا " (يُونُس فى القرآن) : يونانيّتُها " يُونَاس" Ionas (السين للرفع) وهى نفسها " يونان " التى تقرؤها فى الترجمات العربية للعهد الجديد ، أخذوها بصورة الاسم منصوبا . من ذلك أيضا " يوحنا " (يحيى فى القرآن) : ذَهَبَت حاؤه ، وأضيفت سينُ الرفع فصار Ioannes أى " يُوَنّـس " . ناهيك بالاسم العلَم الأكبر فى المسيحية ، عيسى عليه السلام ، وأَصلُهُ العبرىُّ " يشُوع " فصار "يِسُوس" فى الرفع ، و "يِسُون" فى النصب ، و"يِسُو" فى غير ذلك .

ورغم أن " مسيحيى المشرق " ساميُّون يستطيعون نُطق أعلام الانجيل على أصل لفظها العبرى ـ الآرامى ، فقد التزموا فى حالات كثيرة الاقتراب من رسمها اليونانى فى العهد الجديد ، ضاربين صفحاً عن أصلها العبرى ـ الآرامى ، وإن خالف الرسمُ اليونانىُّ أصلَ الاسمِ فى التوراة . وما كان لك أن تتوقع غير هذا وهم يقرأون فى صلواتهم من إنجيل يونانىّ ، يحتاج فهمهُ وتدارسُهُ إلى عِلمٍ كافٍ بتلك اللغة . وقد كانت اليونانيةُ هى اللغةُ " الرسمية " للكنيسة طوال قرون المسيحية الأولى : بها كُتِبَت مباحثُ اللاهوت ، وبها دارت المناظراتُ واحتدمَ الجدل . أضف إلى هذا ـ بل قل قبلَ هذا ـ الرغبة فى " التَّبَرُّك " الناشىء عن التقديس : المسيحىُ يؤمن بأن "العهد الجديد " كلامٌ مُوحَى به من الله ، أو من الروح القدس ، على كتبة الأناجيل ، وهو يُرتبُ على هذا أن الله هكذا تَكَلَّمَ ، أو هكذا أَوْحَى ، بتلك الاعلام فى لفظها اليونانى وبرسمها المكتوب فى تلك الأناجيل اليونانية ، أو فى أقل القليل أن الانجيلىَّ ، " كاتبَ الوحيِ " ، كَتَبَ ما كتب و " روح القدسِ " عليه ، إنه إذن كلام مقدس لا بمصدره فحسب ، وإنما بأصل لفظه أيضا فى رسمه اليونانى الذى جرى به قلم الكاتب .

---

(١) ربما أبدل اليونان من الحاء العبرية خاء .

ولعلك تعلم أيضا أن أسفار " العهد القديم " ، أى أسفار التوراة ، قد كانت لها قبل عصر المسيح ترجماتٌ إلى اليونانية أشهرُها قاطبةً الترجمة السبعينية [١] ، التى سبقت مولد المسيح بنحو ثلاثة قرون، موجهة إلى يهود الاسكندرية ومُتَهَوِّديها ، وإلى من " تَأَغْرَقَ " منهم فى غيرها ، الذين أُنسُوا عبريةَ التوراة . وقد تضمنت الترجمةُ بالطبع تحويلَ صورة العلم التوراتى عن أصله العبرى ـ الآرامى إلى " صورةٍ " يونانية ، جرَت بالتأكيد على ألسنة " مُتَأَغْرِقى " اليهود لا فى أوربا فقط بل وفى مصر والشام أيضا .

وتستطيع أن تقول ـ مصيبا غير مخطىء ـ أن كتبة الأناجيل اليونانية استفادوا من هذا الرسم اليونانى " الجاهز " فى الترجمة السبعينية فنسجوا على منواله فى "العهد الجديد " . وتستطيع أن تقول أيضا ان كتبة الإنجيل حين اقتبسوا من التوراة نصوصا يستشهدون بها فى العهد الجديد ، لم يرجعوا إلى أصل التوراة العبرانى ، وإنما رجعوا رأسا إلى تلك " السبعينية " ، يستقون منها ترجمتهم اليونانية لما أرادوا اقتباسه من التوراة . وهذا يفسر لك سببا من أسباب عدم تطابق بعض تلك الاقتباسات مع أصلها فى التوراة كما مرّ بك ، لأن فى " السبعينية " أخطاء استُدْرِكَت بعد عصر المسيح بقرون .

ولأنك ـ مسيحيا كنت أو مسلما ـ تُحيلُ على المسيح صلواتُ الله عليه أن يُخطىء فى الاقتباس من التوراة فى عبارات نَسَبَتِ الأناجيلُ اقتباسَها إليه ، فليس أمامك إلا التسليم بأن كتبة الأناجيل اليونانية كتبوا ما كتبوه بوحى من ذاكرة تُسْعِفُ وتَخُون ، أو رجعوا إلى الأصل العبرانى ولكنهم لم يحسنوا الفهم أو الترجمة ، أو تعجلوا فاستخدموا ترجمات يونانية جاهزة شاعت من قبل، أو أنهم كتبوا لجمهورٍ يونانيِّ اللسان ، جادلوه بما يقرأ من ترجمات يونانية للتوراة فى السبعينية أو فى غيرها. وربما اشتطت بك الغُلَوَاءُ فقلت إن كتبة الأناجيل اليونانية الأربعة أو معظمهم، وبالذات لوقا ويوحنا ، ما كانوا يتقنون العبرية شأنهم شأن يهود مصر والشام على عصر المسيح ، وما كانوا بالتالى يقرأون من توراة عبرية ، بل من ترجمات لها . هذا وذاك أبْرَأ لدينك من أن تقول أصاب كتبة الأناجيل وأخطأ المسيح

(١) يُروىَ أنها أعدت لملك مصر ، بطليموس الثانى (٣٠٩ ـ ٢٤٦ ق . م) ، أعَدَّها ٧٢ حَبْرا من يهود فلسطين فى ٧٠ ، أو ٧٢ يوما ، ومن هنا تسميتُها بالسبعينية .

معاذ الله ـ ناهيك بروح القدس جبريل ـ صلوات الله وسلامه على جميع ملائكته وأنبيائه .

□□□

على أننا ـ فى مقاصد هذا الكتاب على الأقل ـ لا يعنينا هذا أو ذاك ـ وإنما الذى أردنا التنبيه إليه هو شيوع الرسم اليونانى والنطق اليونانى قبل نزول القرآن بقرون ، لا لأعلام المسيحية فحسب ، وإنما أيضا لأعلام ذكرت فى التوراة بلفظها العبرى وتَأَغْرَقَت فى الأناجيل ، بين مسيحيى المشرق ومن سمعوا منهم أو اتصلوا بهم من العرب .

هذا يفسر لك لماذا عَرَّبَ القرآن أعلاماً من التوراة على رسمها الذى شاع بين الناس ، أى على رسمها اليونانى لا العبرى . من ذلك " إلياس " المعربة لا عن العبرية " ايليًا " وإنما عن اليونانية " ايليّاس " ، وأيضا " يونس " المعربة لا عن العبرية " يونا " وإنما عن اليونانية " يوناس " ، بإضافة سين الرفع اليونانية فى اللفظين .

نخلص من هذا إلى أن التعريب القرآنى لأعلام المسيحية لا يَنظر إلى "التوراة" التى لم تنص بداهة عليهم، وإنما ينظر إلى رسمها اليونانى الوارد فى "العهد الجديد". أما أعلام التوراة المذكورة فى الأناجيل ، فهو يُعَرِّبُها غير ناظر بالضرورة إلى رسمها العبرى فى التوراة ، إنما يُعَرِّبُها على لفظها الشائع عصرَ نزوله ، أى المتأثر بالرسم اليونانى ، وإن خالف أصلَها فى التوراة .

ولكن القرآن ، وهذا إعجازه ، " يَعْلَمُ " الذى كان ، فيفسر العَلَمَ الأعجمى المطموس معناه فى رسمه اليونانى ، بأصله فى لغة المتسمى به من أعلام التوراة ـ أيا كانت لغته ـ متقدما بقرون وقرون على " تفاسير " لعلماء تلك اللغات بدأت ولم تنته بعد ، أو توقفت دونَ القطعِ بيقين .

(٣)

يُحَدِّثُك سِفرُ التكوين ـ أولُ أسفار التوراة ـ عما كان من شأن آدم عليه السلام وزوجته فى الملأ الأعلى ، وعن الجنة التى " أزلهما الشيطان عنها " فأُهْبِطوا إلى الأرض جميعا . كما يحدثك عما كان من شأن " قَايِن " و " هبِل " (قابيل وهابيل فى المراجع الإسلامية) ابنى آدمَ الأولين ، ويسمى " شِيث " ابنه الثالث وذريته إلى نوح وإبراهيم ، ثم يمضى على عمود النسب حريصا عليه كل الحرص ، لا يترك علما من أعلامه إلا ويصعد به إلى آدم أبى البشر . وقد ورث " العهدُ الجديد" هذا الحرص (راجع الإصحاح الأول من متى والإصحاح الثالث من لوقا) ، تنصيصا على موضع المسيح من عمود النسب الذى يصعد به إلى " آدمَ بن الله " (١) .

والذى يستوقف النظر ـ فى مقاصد هذا الكتاب على الأقل ـ أن الأعلام على عمود النسب من آدم إلى نوح (وهم ليسوا عبرانيين بالقطع) ، ناهيك بالملأ الأعلى ، هى فى التوراة أعلامٌ عبرية ـ آرامية . والتوراةُ لا تقف عند إيراد الاسم عبرانيا آراميا ، وإنما هى أحيانا كثيرة تفسره بالعبرية ، لا على الترجمة ، فالاسم الذى تفسره عبرانى ـ آرامى فى أصله ، وإنما على البيان ، أى أنها تَدُلّك على مناسبة التسمية وسببها . بعضُ هذه التفاسير مقبول ، وبعضُها مُفتعل ، من مثل : "ودعا آدمُ اسم امرأته حواء لأنها أمُّ كل حى" (تكوين ٣ : ٢٠) وحواء كما تعلم ليست " أم كل حى " بإطلاق ، وإنما هى أم كل حى من البشر فحسب ، باستثناء " آدم " بالطبع .

---

(١) هكذا كتب لوقا فى إنجيله : آدم بن الله ! (لوقا ٣:٢٨) وقوفاً بعمود نسب المسيح عند آدم لا يتجاوزه إلى الله عز وجل ، الذى لم يلد آدم بالطبع وإنما صنعه " بيديه " كما تنص التوراة . ومن قبل قال كتبة التوراة " أبناء الله " (تكوين ٦ : ١ و ٤) . وهذا كله لا يُؤْخَذ على أصله وإنما يُؤْخَذ بمجازه المقصود منه فى اللغات السامية ومنها الآرامية والعبرية ، ولم يَفْطِن إليه فى " مجمع نيقية " بطارِكَةٌ يونانيو الفكرِ واللسان : الأبُ مَجازٌ على الأصل والمنشأ ، أى الله المُبدِع الفاطر البارىء ، والابن مَجازٌ على النسب إلى الصانع "البانى" مصداقُ هذا (راجع المعجمَ التحليلى العبرى ـ الآرامى المذكور فى حواشى هذا الكتاب) أن لفظة "بِنْ" العبرية ـ الآرامية منحوتة على المفعولية من جذر الفعل العبرى ـ الآرامى " بَنَا " (وهى بَنَى / يَبْنِى العربية)، ولكنك لا تهدى من أحببت !

والأكثر استيقافا للنظر - لا سيما في آدم والملائكة من مثل جبريل وميكال رضوان الله عليهم - أن القرآن يتابع التوراةَ على تسمياتها هذه لهؤلاء الأعلام الثلاثة ، بل قد أثبت القرآن لآدم اسمه هذا العبرى - الآرامى على النداء من الله عز وجل : { **ويا آدمُ اسْكُنْ أنت وزوجُكَ الجنة** } (الأعراف : ١٩) .

أفكان آدمُ رجلا عبرانيا أو آراميا ؟ كيف ، وهو أبو كل البشر ؟

أفكانت العبرية أو الآرامية هى اللغة التى عُلِّمَ بها آدمُ " الأسماءَ " كلها ؟ أكانت هذه أو تلك هى لغة الملأ الأعلى ؟ أكانت هذه أو تلك هى اللغة الأولى التى هبط بها آدم من الجنة ؟

ليس لك أن تخوض فى لغة الملأ الأعلى . هذا من غَيْبِ الله . ليس لك أن تفترض ضرورةَ وجود " لغة " لفظيةٍ - صوتية ما ، أيا كانت ، أداةً للتلقى والفهم والخطاب فيما بين الملأ الأعلى . ليس لك أن تخوض فيما لم يُعَلِّمْكَ الله .

أما لغةُ آدم التى تكلم بها على الأرض مَهْبِطَهُ من الجنة ، فالراجح عندى - ولا أُلْزِمُك إياه - أنها هى نفسها اللغة التى عُلِّمَ بها آدم الأسماء فى الملأ الأعلى ، لاسيما اسمه هو نفسه الذى خاطبه به الله فى الجنة ، وثَبَتَ له عَلَما فى الأرض بين زوجته وبنيه . والذى أقطع به - ويُلْزِمك المنطقُ الصِّرْفُ إياه - أن ثبوت العَلَمِيّة لأبى البشر فى الجنة وعلى الأرض - وكذلك لجبريل وميكال - بأسماء لا تُفَسَّر إلا بجذورِ ألفاظٍ تستخدمها اللغات السامية إلى الآن ، يعنى أن لغة أبى البشر آدم كانت لغةً ساميةً ما ، بل قد كانت هى أم اللغات السامية جميعا ، أو أن اللغات السامية - دون سائر اللغات - هى الأحْفَظُ لما بَقِىَ من لغة آدمَ بعد ما تفرقت فى لغات البشر . لا أقولُ لك - وإن كنت أرَجِّحُ - أن العربية الأولى ، قبل أن تتطور إلى اللغة التى نزل بها القرآن ، قد كانت هى لغة آدم . يكفى العربية فخرا أنْ قد كان بها خِتامُ كلامِ اللهِ إلى أهل الأرض : يكفى العربيةَ فخرا قرآنُها .

أما لماذا يتابع القرآنُ التوراة فى تسمياتها العبرية - الآرامية ، وإن تعلقت بذوات غيرِ آراميةٍ وغير عبريةٍ البتة ، من مثل الملائكة رضوان الله عليهم ، ومن مثل الأنبياء من آدم إلى نوح ، فيُعَرِّب صورتها الآرامية - العبرية على نحو ما وردت فى الصحف الأولى ، ولا يعربها عن الصورة المجهولة لنا الآن التى كانت عليها فى لغة

أصحابها قبل مولد هاتين اللغتين الآرامية والعبرية ، فهذا هو منطق " العَلَمية " كما مر بك : قد سبق الوحيُ الأول بتلك الأعلام على صورتها فى التوراة فثَبَتت ، أى صارت علما على الذات التاريخية لأصحابها ، إنْ عدَّلْتَها ولو بقصد التصحيح فقد حرّفْتَ وصحَّفْتَ ، بل لما جاز : قد ضَلّلتَ سامعك إذن ، ونكَّرْتَ عليه شَخْصَ الذى تعنى .

ولكن القرآن فى تفسيره الفذ لأعلامه الأعجمية يَعْمد أحيانا إلى التفسير بالتعريب وحده ، كما سترى فى " ميكال " صلوات الله عليه ، فيجمع بين المعنى وبين الصورة التى استقر عليها الاسم العلم ، فى مزيجٍ جَلٍّ من أوحى .

❑❑❑

من خصائص العربية التنوين فى الأسماء ، أى الوقوف بالاسم - فى اللفظ لا فى الرسم - على نونٍ ساكنة تَلِى حركةَ الإعراب . ولعلماءِ العربيةِ وعلماءِ الصوتيات أيضا وجوه فى " تعليل " التنوين ، ليس موضعها هذا الكتاب .

وقد شَذَّت كما تعلم صورٌ وأوزانٌ وأعلام ، مُنِعَ تنوينُها . والاسمُ الذى يقبل حركةَ الإعراب ويمتنعُ تنوينُه ، يسميه النُّحاةُ " الممنوع من الصرف " .

والاسم الممنوعُ من الصرف - الاسم المعنوى والاسمُ العَلَم - لا يمتنعُ تنوينُه فحسب حيث يجب التنوين ، وإنما أيضا يُجَر بالفتح فى موضع الكسر .

ولأن الأصلَ فى " العَلَم الأعجمى " منعُه من الصرف " للعُجمة " ، فما كان أيسر عليك أن تُحصىَ العَلَم الأعجمى فى القرآن استنادا إلى هذه القاعدة وحدها ، فتسلم بعُجمة تلك الأعلام التى امتنع تنوينها حيث يجب التنوين ، أو جرت بالفتح فى موضع الكسر ، ثم ترفض دعوى العجمة فى غيرها .

ولكنك لا تستطيع الاستنادَ إلى هذه القاعدة وحدها فى التسليم بدعوى العُجمة أو رفضها ، فقد " صَرَفَ " العربُ - أى نَوَّنوا وجَرُّوا بالكسر - أعلاما أعجمية لخِفة أوزانِها ، تجد منها فى القرآن " نوحا " ، " لوطا " المقطوع بعُجمتهما ، ومَنعوا من الصرف فى المقابل أعلاما مقطوعاً بعربيتها مثل " أحمد " لمجيئه على وزن "أفعل" الممنوع من الصرف. تجدُ على هذا الوزن فى القرآن "آدم" ، "آزر" الممنوعين من الصرف فى كل القرآن ، فلا تدرى أمُنعا من الصرف للعجمة أم للوزن .

كذلك يمنع من الصرف فى العربية للعلمية والتأنيث ، أى العَلَم المؤنث، مثل "فاطمة" ، "زينب" عربيا كان الاسم العلم أم أعجميا ، ومثاله من الأعجمى المؤنث فى القرآن الاسم "مريم" ، الممنوع من الصرف فى كل القرآن للعلمية والتأنيث قبل العُجمة ، فلا تقطع بعُجمته مستندا إلى منعه من الصرف فحسب ، وإنما تنتظر حتى تؤصل الاسم فى لغة صاحبه .

يمنع من الصرف أيضا للعلمية والتأنيث قبل العجمة أسامى القبائل ، إلا إذا أردت "القبيلة" أى القوم ، ولم ترد " الحى " أى الموضع . من هذا فى القرآن أمثال "ثمود" ، "مدين" ، الممنوعتين من الصرف فى القرآن . ولكن "ثمود" ، "مدين" لا يمنعان من الصرف فى القرآن على الموضع فحسب ، وإنما هما ممنوعان من الصرف فى كل القرآن حتى حين يراد منهما " القبيلة " صراحة ، أى القوم ، بدلالة ورودهما على جمع المذكر صريحا ، فى مثل قوله عز وجل : { **وإلى ثمود أخاهم صالحا** } ، { **وإلى مدين أخاهم شعيبا** } ، فتستدل من هذا على أن "ثمود" ، "مدين" لفظان أعجميان منعا من الصرف للعجمة . " أما "عاد " فصرفت لخفة الوزن فحسب . إلى غير ذلك من موانع الصرف وشواذه مما لا نستطرد بك إليه، لأن مرادنا التمثيل فقط .

على أن كثرة الشواذ فى القاعدة لا تبطل حكمها ، متى راعيت إعمالها بضوابطها . مثال ذلك أن تنعدم فى الاسم كافة موانع الصرف إلا العجمة ، كأن يكون اسما علما مذكرا ، من مقطعين فأكثر ، على زنة لا يجوز فيها إلا الصرف . عندئذ تكون العجمة هى الوجه الوحيد لامتناع صرفه . من هذا اسم النبى " صالح " ، المصروف فى كل القرآن ، فتقطع لهذا السبب وحده بعربية هذا الاسم غير مُنازَع .

ولكن عربية الاسم لا تعنى عربية " صاحبه " بدليل عجمة من أرسل إليهم : ثمود. لأن "ثمود" أو بالأحرى "قرى صالح" ، لم تكن جغرافيا على عصر صالح عليه السلام من منازل العرب الناطقين بالعربية التى نزل بها القرآن . كان صالح النبى آراميا من قوم آراميين، ولكن اسمه الآرامى "صاليح" (والمد فيها بعد اللام مد بالكسر لا مد بالياء) ، تواطأ لفظه ومعناه مع " صالح " العربية فى القرآن ، فصرف لخفة وزنه. وربما كانت "صالح" أبين الأمثلة على أسلوب القرآن فى التفسير بالتعريب، وسيأتى هذا فى موضعه .

❑❑❑

وردت فى التوراة أعلام أنبياء لم يذكرهم القرآن ، مصداقا لقوله عز وجل: {**ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك**} (غافر : ٧٨) .وبالمثل ، سَمَّى القرآنُ أنبياء ثلاثة لم تذكرهم التوراة ، ولم تذكرهم أيضا الأناجيل ، وهم "هود" ، "صالح" ، "شعيب" .

وسَمَّى القرآن أيضا " إبليس" المختَلف فى عُجمته ، ولم ترد فى التوراة إلا "ساطان " (شيطان) ، المترجمة فى الأناجيل اليونانية إلى " ذِيَبُلُس" Diabolos وإن كانت الترجمة اليونانية غير دقيقة ، لأن " ذيَبُلُس " تعنى " الرجيم" ، لا العدو أو المناوىء ـ الذى تعنيه " ساطان " العبرية ـ الآرامية . ويزعُم أدعياءُ الاستشراق [١] ، وتابَعَهُم للأسف علماءُ عرب [٢] ، أن القرآن نَحَتَ " إبليسه " من ذِيَبُلُس اليونانية هذه ، كما عرب من قبل " ساطان " العبرية إلى " شيطان " ، دون أن يدرى أن الأولى ترجمةٌ للثانية ، لا أكثر ولا أقل .

والملاحظ أن " إبليسَ " ممنوعة من الصرف فى كل القرآن ، لا يلْحَقُها قط التنوين ، ولا تجر إلا بالفتح . والمنع من الصرف كما تعلم من دلائل العُجمة ، ولكنه ليس بدليل كاف فى " إبليسَ " بالذات ، لمجيئه على زِنَة " إفعيل " ، وهو وزنٌ نادرٌ فى العربية ، واقترنت الندرةُ بالعلمية فأشبه الأعجمى ، فمنع صرفه .

والرأى فى " إبليسَ " وأمثالِها ، مما أخبر به الله عز وجل فى القرآن على غير سابقة فى التوراة والانجيل ، ومنه من الأنبياء هودٌ وصالحٌ وشعيب ، أو من الملائكة مالكُ وهاروتُ وماروتُ ، صلوات الله وسلامه على ملائكته وأنبيائه ، أنها من أنباء الغيب غيرِ المتَحَدَّثِ به فى التوراة والإنجيل اللذين بين يديك اليوم ، وأن القرآن الذى لا يُحَاجُّ بما فى التوراة والإنجيل ، لا يُحَاجُّ من باب أولى بما ليس فيهما .

على أن لنا فى " إبليس " رأيا آخر ، يأتى فى موضعه .

❑❑❑

---

(١) منهم على سبيل المثال Horovitz Joseph ، المرجع السابق .

(٢) أبرزهم " مجمع اللغة العربية " الذى يَكُفُّك فى " المعجم الوسيط " عن اشتقاق إبليس من "أبلس" فى باب الباء من "بَلَس" ويُحيلك إليه فى موضعه من باب الهمزة بوصفه من الأعجمى المعرب الذى لا اشتقاق له فى العربية .

أما ما جاء من أعلام القرآن على المخالفة الصريحة لنظرائها فى التوراة والإنجيل، فمنها مرسى سفينة نوح عليه السلام،"الجُودِي"، وهى فى التوراة"آراراط"، ومنها اسمُ أبى ابراهيم عليه السلام،"آزر"الذى سمته التوراة "تيرِح"(بإمالة الألف فى"تارح") وحرفته الأناجيل اليونانية إلى"ثارا"Thara (انظر النص اليونانى الأصلى لإنجيل لوقا ٣ : ٣٤). ومنها أيضا"طالوت"المسمى فى التوراة"شاءول". ومنها"يحيى"عليه السلام، المرسوم فى النص اليونانى للأناجيل بالرسم"يُوَنّس" Ioannes على أصل عبرى مظنون هو"يوحنان"، أو آراميُّه "يوحنا"أبدلت حاؤه همزة (سهلت لكونها غير بادئة) ، وختم ـ على خلاف صورته الآرامية ـ بالكسر لا بالفتح، وأضيفت سين الرفع. وأخيرا علم المسيحية الأكبر، عيسى عليه السلام، المرسوم فى الأناجيل اليونانية"يِسُوس"Iesous على الرفع، "يِسُون"على النصب، "يِسُو"فى غير ذلك، وكأنها من يِشُوَعْ العبرانية ذهبت عينها وأبدلت شينها سينا.

هذا الاختلاف البَيِّن فى تلك الأعلام الخمسة بين رسمها فى القرآن ورسمها فى التوراة والإنجيل، ليس كما ترى ناشئا عن مجرد"التعريب"، وإنما هو خلاف فى جذر الاسم نفسه، رغم أن القرآن ينص تنصيصا على أنه يعنى على القطع بأعلامه هذه نفس مسماها فى التوراة والإنجيل، فالجوديُّ هو نفسه مرسى سفينه نوح، وآزَرُ هو أبو ابراهيم وجد اسماعيل واسحاق، وطالوت هو الملك شاءول الذى خرج داود من عسكره لمبارزة جالوت، ويحيى هو نفسه يوحنا بن زكريا المُصَدِّق بالذى هو"كلمةٌ من الله"، وعيسى هو نفسه المولود من عذراء، الذى أبرأ الأكمه والأبرص، وأحيى الميت.

أتظن أن القرآن الذى يقص عليك بدقةٍ مذهلة وعلمٍ محيط، أنباء أولئك وهؤلاء، يَخْفَى عليه أسماء أبطالِ"قَصَصِه"فى رسمها الآخر، وهو شائع ذائع بين معاصريه من أهل الملتين، يهودِ يثرب، ونصارى نجران؟ كيف يدقق فى النبأ ويخطىء فى البطل؟ كيف يذكر لك من أنباء الطوفان ما سكتت التوراة عنه [١]، ثم

---

(١) لم تتحدث التوراة عن امرأة نوح التى خانته ، ولا عن ابنه الذى اعتصم من الماء بجبل ولا عاصم، ولم تتحدث عن جدالِ نوحٍ ربَّه فيه . والملاحظ على التوراة التى بين يديك أنها تجتزىء اجتزاء مخلا بالنسبة لأنباء ما قبل إبراهيم عليه السلام ، لا هَمَّ لها إلا عمودُ النسب من آدم إلى إبراهيم.
ثم هى لا تقص عليك شيئا من نبوة إبراهيم ورسالته إلى قومه وتحطيمه الأصنام وتحريقه فى النار ولا عن جدال إبراهيم أباه ، الذى لم يهجره إبراهيمُ وإنما " هاجرَ معه " كما تقرأ فى سفر التكوين ، وكأنما كل أهمية إبراهيم ليست فى أنه نبى رسول ، وإنما فى أنه " البَطْرِيَرْك " (أبراهام أَبِينو) وصاحب " الموعد " الذى رسم لليهود حدودهم الجغرافية ـ السياسية . أما باقى التوارة فكلُّه حديثٌ عن الذى ورث " الموعد " : يعقوبُ وبنوه . إنها " توراة بنى إسرائيل " .

"يخترع" لمُرْسى السفينة اسما مخالفا لما سَمَّتْهُ التوراة ؟ ألم يقع فى سمع محمد (صلى الله عليه وسلم) من أحبارِ يهودٍ أسلموا أن اسم أبى إبراهيم فى التوراة هو تيرَح، فلماذا يصر على تسميته آزر؟ كيف يُسَمِّى داودَ وجالوت فيصيب، ثم "يفقد الذاكرة" فجأة فى شاءول فيسميه طالوت ؟ ألم يحاوره أساقفة نجران ثلاثَ ليالٍ فى مسجده بيثرب وهو يعرض عليهم الإسلام ، أفجادلوه بيوحنا ويسوع ، أم جادلوه بيحيى وعيسى ؟ أيُتْقِن فى " قرآنه " كل هذا الإتقان ، ثم يُسَفْسِفُ ويخلط فى أعلام خمسة ؟ أما كانت له فى " الناسخ والمنسوخ " مَنْدوحة ، فَيُصَوِّب " أخطاءهُ " فى أعلام التوراة والإنجيل برجال أسلموا من أهلهما أمثال ابن سلام اليهودى وصهيب الرومى ؟ أم هو يتحدى بالخطأِ ويُصِرُّ عليه ؟

لا يَظُن هذا من خصومِ القرآن إلا هازل. ولكنَّ من عُلمائهم وأحبارِهم من فعلوه. كان أحرى بهؤلاءِ وأولئكَ ألا يُطيلوا الوقوف عند أوجه التطابق بين " كتابهم المقدس " وبين القرآن ، مُطنطنين بدعوى النقل والاستنساخ : إن صح لهم الوحى فالموحِي واحد بنص القرآن ، وقد تابع الإنجيل التوراة ، ولم يَعيبوا عليه . بل كان عليهم أن يتوقفوا فيطيلوا الوقوف حقا عند نقاطِ مخالفة القرآن الصريحة عامدا متعمدا لمحفوظٍ ، مأثورٍ ، مسجل فى كتبهم ، ليتبينوا أى الوجهين أصوب وأدق . ولكنهم لم يفعلوا .

بل من خصوم القرآن هؤلاء ملحدون يدَّعون اصطناع المنهج العلمى فى مقارنة "الأديان"، يستوى عندهم ـ فى بطلان دعوى الوحى ـ التوراةُ والإنجيلُ والقرآنُ جميعا، فتندهش كيف استباحوا مجادلة القرآن ـ ثابتِ الأصل والسند باعترافهم هم أنفسهم ـ بتوراة مقطوعة السند عندهم ، قالوا إنها كُتِبت من الذاكرة بعد صاحبها بعدة قرون ، أو بأناجيل أو ترجمات أناجيل يقولون إن أَصلها العبرانى المفترض مفقود ، لا تدرى أين أخطأَ المترجم أو أَصاب ، إلا أن تسلم بالوحى لكتبة الأناجيل اليونانية ـ كما ارتأت الكنيسةُ من قبل ـ والملحد المتعالم ينكر الوحى على كائنٍ مَنْ كان .

ولكنك تعلم أن هؤلاء ليسوا بعلماء ، وإنما هم " خدام سياسة " ، والهوى والغرض كما تعلم داءٌ عُضالٌ لا يرجى منه بُرْء .

أما علماء المِلَّتَيْن ، فما أنصفوا وما سددوا : القرآنُ هو السند الأوحد لرَأْبِ ما انقطع سنده فى التوراة والإنجيل ، وهو سندٌ أىُّ سَنَد !

بل ماذا ينكرون من القرآن وقد جاءهم القرآن بالخَلْق والبعث ، وبالتوحيد "الخالص" غير ملبوسٍ وغيرَ مهموس ؟

ألأنّه جاء "بالنبى" الخاتم من نسل اسماعيل لا من نسل إسحاق؟ أليس كلاهما نسل إبراهيم ؟

ألأنّه وقد ألّه الواحد ، أثْبَتَ لعيسى وجبريل عليهما السلام ، الربانية والملأكة[1] ، ونزههما عن دعوى الربوبيةِ والتأله ؟ وهل يؤمن فى قرارة قلبه حقا بتعدد الآلهة أحد ؟

أليس أبلغ فى تكريم المسيح عليه السلام - وقد شرفه الله برفعه إياه إليه - أن يستجيب الله لابتهالات نبيه [2] ، فيخلصه من كيد الذين كفروا ، ويُجيزُ عنه "الكأس" ، فلا يوقع الصلب عليه ؟

أيُّهما أَبْيَنُ فى الإعجاز ، وأيهما أنبل وأشرف ، أن يُولَد "ابن الانسان" [3] بشرا من عذراء أم أن يتأنّسَ الإلهُ ويتألّهَ الإنسان ؟

ما ضَرَّهُم لو آمنوا بالقرآن مصدقا لما معهم ، محققا ، مصوبا ، مهيمنا ؟

ولكن .. لا أحَدَ يُلزِمُهُ فى عقيدتهِ أحَد . بل يهدى اللهُ لنوره من يشاء .

❑❑❑

(١) أى الملأكةَ لجبريل والربانية لعيسى عليهما السلام . أما " ربّانى " (وهى " ربّى " ، " ربُّونى " العبرية) فليست ياؤها ياءَ الملك (أى ربّى أنا) وإنما هى ياءُ النسب ، أى المنسوب إلى الرب ، الذى يَعْلَمُ ما للرب ويُعَلّمُه ، وهكذا كان اليهودُ يسمون الدارسين الحافظين للتوراة ، الذين يُعَلّمُونها للناس ، وهكذا لَقَّبَ المسيحَ حواريُّوه الذين عَرَفُوهُ بهذه الصفة أوّلَ ما عَرَفُوه ، حتى بعد أنْ آمنوا به رسولا إلى بنى إسرائيل . وقد حذّر القرآنُ من الخلط بين الربوبية والربانية فى قوله عز وجل : { ما كان لبشرٍ أن يؤتيَه الله الكتابَ والحكْمَ والنبوةَ ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تُعلّمون الكتاب وبما كنتم تَدْرُسُون . ولا يأمركُم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا ، أيأمُركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ؟ } {آل عمران : ٧٩ - ٨٠} . لم يقل المسيحُ هذا بالطبع حتى فى الأناجيل التى بين يديك ، وإنما قالته "مجامع" انعقد أولُها بعد رفعهِ بنحوِ ثلاثةِ قرون .

(٢) انظر على سبيل المثال انجيل مرقس (١٤:٣٦) .

(٣) " ابن الانسان " بالعبرية هى " بِنْ أدَام " أى ابن آدم لا ابن الله . وما فتىء المسيح يسمى نفسه فى الأناجيل بابن الإنسان حتى رفع . فتأمل .

أما الوجه الذى خالف به القرآن كلا من التوراة والإنجيل فى تلك الأعلام الخمسة ، فالحديث عنه يأتى بإذن الله فى موضعه ، عندما نتناول بالتحليل أعلام القرآن المعنية فى هذا الكتاب ، علما علما .

لم يبق من هذا الفصل إلا الحديث عن " أساليب القرآن " فى تفسير علمه الأعجمى ، وعن خطة البحث فيما بقى من فصول الكتاب . وهذا هو ما ننتقل اليه الآن بعد تمهيد ليس منه بد .

(٤)

استعرضنا فى الفصل الأول من هذا الكتاب الفوارق الأساسية التى تفصل ما بين العربية وبين أختيها العبرية والآرامية على رغم اتحاد الجذور وتقارب مخارج الأصوات ، وعللنا إسهابنا هناك بأنه يفيد فى استجلاء معنى العلم العبرانى فى التوراة والإنجيل . ونحن نضيف هنا فوارق أخرى بين العربية والعبرية يتعين الإلمام بها قبل المُضِى فى البحث ، كى يسهل على القارىء الذى لا يعرف تلك اللغة متابعةُ المقابلة بين لفظ العلم العبرانى فى التوراة والإنجيل وبين صورته الواردة فى القرآن .

وسنقتصر بالطبع من تلك الفوارق على الضرورى منها لمباحث هذا الكتاب دون أن نُغْفِل فوارق ما بين العبرية والآرامية حالَ ضرورتها لما نتحدث عنه .

١ـ أداة التعريف

أداة التعريف فى العبرية ليست هى الألف واللام (الـ) ، وإنما هى الهاء والألف (هَا) . وعلماءُ العبرية يقولون إن أصلها قد كان الهاء واللام (هَلْ) ، وكأنها هى نفسها (الـ) العربية ، أبْدِلَت ألفُها هاء . والعبرية أيضا تُسْقِطُ الحرف الثانى من أداة التعريف " ها " ، أى ألفَ المد ، وتستعيض عنه بتضعيف أولَ الاسم المعرف. من ذلك ، "هاتُورا " (أى التوراة) ، التى تصبح "هَتُّورا" ، حُذف ألف " ها " وضُعِّفَت التاء . يُستثنى من ذلك أن يبدأ الاسم بأحد أحرف خمسة : أَ ـ هـ ـ حـ ـ عـ ـ ر ، عندئذ تظل " ها " ممدودة على أصلها ولا يُضَعَّف ما بعدها ، كما فى "ها أرِص" (أى الأرض) . وهذا يذكرك بما يسمى " اللام الشمسية ، " اللام القمرية " ، فى العربية .

أما أداة التعريف فى الآرامية فليست (الـ) العربية ، ولا (ها) العبرية، وإنما هى ألف مد ، يُخْتَمُ بها الاسم ولا تَبدَؤُه ، وكأنها كما يقول علماء الآرامية أثارةٌ

من ألف تنوين المنصوب فى العربية سقطت نون تنوينه عند الوقف عليه فى مثل "وبالوالدين إحسانا " ، لايظهر التنوين فى " إحسانا " وإن بقيت علامته فى النطق ألفا ممدودة فى آخر الاسم ، لوقوفك على رأس آية وانتهاء الكلام . من ذلك فى الآرامية " مَلْكا " (أى المَلِك) عُرِّفت بزيادة ألف ممدودة فى آخرها .

وأداة التعريف الآرامية ، وكذلك العبرية ، تصلح أيضا أداة للنداء . من ذلك فى الآرامية قول عيسى عليه السلام للصبية التى حسبت ميتة : " طاليثا قُومى ! " (مرقس ٥/٤١) ، أى " قومى يا طَلْوَة " [١] ، وأصلها "طاليث" زيدت بألف التعريف على النداء فى آخرها . ومنه أيضا فى الآرامية " أبَّا " ، وأصلها " آب " زيدت بألف التعريف الممدودة فى آخرها على النداء ، وضعفت الباء بديلا من تقصير مد الألف البادئة ، فأصبح معناها "أيها الأب !". تجد "أبَّا" هذه على لسان المسيح فى الأصول اليونانية (مرقس ١٤/٣٦) فى عبارة o Abba Pater اليونانية : أضاف مرقس Pater اليونانية على التكرار ليترجم "أبَّا" الآرامية لقارئه اليونانى . وإن لم يَقُلْها المسيح بالطبع ، الذى اكتفى بـ "أبَّا" الآرامية التى لا يفهم غيرَها حواريوه ، لا يحتاجون أن يترجمها لهم المسيح ، ناهيك بأن يترجمها لربِّه الذى يناجيه[٢] . ولكن المترجم العربى لم يُرِدْ أن يسقط حرفا مما قاله مرقس فى إنجيله اليونانى ، فترجم عبارة مرقس اليونانية هكذا : "يا أبا الآبُ ! " ، فأعضلت على القارىء العربى . صحيح أن "أبا" عربيا لغةٌ فى "أب" كما يقول المعجم العربى ، ولكن ما الداعى للمجىء بلفظة " الآب " بعدها ؟ أيترجم عربيا بعربى ؟ ألا يخشى على القارىء المتعجل الذى يفوته الشكلُ والنَّقْط أن يفهمها على المنادى المضاف إلى " الآب " ، وكأن المسيح يناجى بها أباً للآب ؟ إن أراد التبرك بلفظ المسيح "أبا" فاستبقاه على آراميته ، لكان يجمل به أن يقول : "أبَّا ! أيها الآب !" كما فعل مرقس فى إنجيله اليونانى . أو لَقال على الترجمة : أبَّا ! (يعنى أيها الآب !).

---

(١) طَلْوَة العربية يعنى الصغير من كل شىء ، أى قومى ياصبية ! ورغم عدم شيوع طلوة العربية ، فهى مكافىء " طاليث " الآرامية ، اخترتُ الترجمة بها تدليلا على قوة التقارب بين العربية والآرامية ، ناهيك بـ " قومى"! وهى فى اللغتين بنفس النطق والمعنى .

(٢) مر بك أن " آب " العبرية الآرامية تعنى الأب المعروف ، كما تعنى الفاطر المبدع البارىء . كان المسيح يناجى " ربه " كما ترى . ولكن هكذا كان .

٢ ـ ألف التحلية [١]

يحدث فى العبرية إضافة ألف فى أول بعض الأسماء ، لا لمعنى ، ولا لوزن أو اشتقاق ، وإنما للاسمية فقط ، فهى الألف الزائدة للتحلية . يحدث هذا فى الاسم المعنوى ، كما يحدث فى الاسم العلم . من ذلك فى الاسم المعنوى أمثال "أَكْزاب" (وتنطق كافها خاء لتحرك الهمزة قبلها كما مر بك) ، وأصلها "كِزاب" يعنى "كَذُوب" تطلق على الجدول الذى يَغيضُ ماؤُه. ومنها أيضا "أدون" يعنى "سيد"، وأصلها "دُون" تسمية بالمصدر من دان / يدون العبرى (وهو دان / يَدين العربى). ومن ذلك فى الاسم العلم أمثال "أهارون" وهى "هارون" فى القرآن، وسيأتى .

٣ـ المزيد بالنون

يُزاد بالألف والنون فى العربية لمعانٍ منها الصفة، مثل غضبان ، ومنها النسب، مثل انسان (المنسوب إلى الإنس) أو دعامة للنسب مثل ربانى (المنسوب إلى الرب)، ومنها المصدر واسم الفعل مثل غُفران وعِصيان وغَلَيان وطُوفان ، ومنها مجرد الاسم مثل عقربان (ذكر العقرب) ، وثعبان ، وعثمان (فرخ الثعبان أو فرخ " الحُبارَى " الطائر المعروف). وقد تقع الزيادة أيضا فى العربية بالواو والنون وصفا على المبالغة ، كما فى مَيْسون ، وحَيْزَبـُون ، وهو قليل .

والأكثر فى العبرية هو وقوع الزيادة بالواو والنون . وتجىء أيضا لمعان منها إفادة التصغير مثل "إيشون" مُصَغر "إيش" (إيش = إنسان) أى "أُنَيْسان" ، ومنها المبالغة مثل "عِلْيُون" على المبالغة فى العلو ، ومثل "شِمْرُون" (شَمَر = حَفظ) فهو "حفيظ" ، ومنها الصفة على النسب مثل "إشْتُون" (إشت = امرأة) فهو "المتأنِّث" الذى يحاكى النساء ، ومنها الصفة على الفاعلية مثل " حارون " (حرَا = حَمِىَ أو احْتَـرَّ) فهو الحَمِـىُّ أو الحرورُ المحتر ، ومنها كذلك المصدرية واسم الفعل مثل "هِرْيون" (هَرَا = حبلت المَرأة) فهو الحَمْل والحَبَـل .

على أن العبرية لا تخلو أيضا من الزيادة بالألف والنون ، والأمثلة كثيرة ، منها " هاران " اسم أخ لابراهيم (هار = جبل) فهو " الجبَلِىُّ " المنسوب الى الجبال ،

---

(١) التسمية من عندى ، للتوضيح ، ترجمة للإنجليزية Aleph Prosthetic لأن المعجم العبرى الآرامى لألفاظ التوراة ، الذى أحَلْتُك إليه فيما سبق ، معجمٌ موضوعٌ بالانجليزية .

ومنها " زِمْران " (زَمَر = غنى) أى " المغنى " ، ومنها" كُوشان " يعنى الحبشى (نسبة إلى " كوش " بن نوح) ، الخ .

وأحيانا تضع العبرية الميم موضع النون فى هذا وذاك ، فتقول "فِدْيُوم" تريد "فِدْيُون" يعنى " الفِدْيَة " وتقول "مِرْيام" والأصل "مِرْيان" مصدرا من "مَرَا" العبرى بمعنى المِراء والتمرى ، وهو قولُ علماءِ العبرية وعلماء التوراة فى تفسير معنى اسم أخت موسى وهارون " مِرْيام " وسيأتى . وربما قلت إن " عَمْرام " اسم أبى موسى فى التوراة هو نفسه " عِمْرَان " الذى فى القرآن أبدلت نونه ميما .

ويحدث فى العبرية أيضا حذف النون جملةً ، استخفافا ، كما تجد فى " يِثْرُو" اسم حَمِى موسى فى التوراة ، من الثراء والثروة والتنعم ، وأصلها " يِثْرُون " ، وكما تجد فى " شْلُومو" وهو سليمان بن داود عليهما السلام ، وأصلها " شلومون " .

وكما تحذف العبرية النون أحيانا من الوزن " فعلون " ، تحذف أيضا ياءه البادئة استخفافا حين تكون مادة الجذر مبدوءة بالياء ، فى مثل " يَشَر " العبرى بمعنى الاستواء والاستقامة ، فتقول " يَشَرُون " ، ثم تخففها فتقول " شَارون " أى السَّوِىُّ المستقيم . وهذا أحد وجوه تفسير الاسم "هارون" ، تأخذه من " يَهَر " العبرى بمعنى علا ، فتقول أولا " يَهَرون " ثم تخففها إلى " هارون " ثم تضيف ألف التحلية ، فتصبح " أهارون" كما تقرؤها فى التوراة العبرانية . ومن هذا أيضا " قارون" التى فى القرآن كما نرجح نحن : صيغت على حذف الياء من يَقَر العبرى (وهو " وقر " العربى) فقيل " قارون " أى " المُوقر غِنَىً " . وسيأتى .

٤ـ المبادلة بالأحرف والأصوات

تتألف الأبجدية العبرية (وهى نفسها الأبجدية الآرامية) من ٢٢ حرفا يجمعها قولك : أبجد ـ هوز ـ حطى ـ كلمن ـ سعفص ـ قرشت ، ليس فيها المجموعتان (ثخذ ـ ضظغ) اللتان تختص بهما العربية وحدها . وقد أدى افتقادُ العبريةِ والآرامية هذه الأحرفَ الستة الموجودةَ فى العربية (ث ـ خ ـ ذ ـ ض ـ ظ ـ غ) إلى مغايرةٍ بين العربية وبين هاتين اللغتين فى أحرف الجذر المشترك حين يدخل فى أصله العربى واحدٌ من أحرف المجموعتين (ثخذ ـ ضظغ) فَتُبْدِلُ منه العبرية والآرامية حرفاً آخر

قريبا من مخرجه . وقد مر بك من هذا " ضحك " العربية ، " صحق " العبرية بنفس المعنى ، كما مر بك " ظَبْى " العربية التى تقابلها " صَبْى " فى العبرية ، وهلم جرا . من ذلك أيضا " غَدَن " العربية بمعنى استرخى ولان ، ومنه " اغدودن " ، بمعنى طال والتف ، أو كان ناعما متثنيا ، واغدودن النَّبْت أى اخْضَرّ حتى مال إلى السواد من شدة رِيِّه : ليس فى العبرية أو الآرامية " غين " ، فتستعملان " العين " (غير منقوطة) موضع الغين ، فى " غَدَن " العربية ، فتصبح " عدن " ، وهو اسم جنة عدن فى التوراة بمعنى " جنة النعيم " ، فلا تدرى هل عرب القرآن " عِدِن " العبرية إلى "عَدْنٍ " ، أم أن القرآن يريد المعنى الآخر من " عَدَن " العربية بمعنى "أقام" ، وتكون "جناتُ عَدْن" جنات إقامة، وسيأتى . كذلك ليس فى العبرية والآرامية خاء أصلية ، وحين تشتركان مع العربية فى جذر تدخل فيه الخاء ، يتحول توا فى العبرية والآرامية إلى حاء (غير منقوطة) ، فتصبح " خَلَق " العربية مثلا " حَلَق " فى العبرية والآرامية، أما ما كان أصلا فى العربية بالحاء فيظل على أصله العربى ، فلا تدرى هل اسم نوح عليه السلام فى التوراة (وينطق " نُوَح ") من النواح ، أم هو من الإناخة والتَّنَوُّخ ، أى البُقْيَا والتلبث، وقد فصل القرآن فى هذا كما سترى، ولكن المفسرين لم يفطنوا إليه ، وسيأتى . وقِس على ذلك باقى الحروف الستة المشار إليها ، مما يأتى فى موضعه حين الحاجة إليه .

٥ـ التحورات فى الجذر الثلاثى

لا تكتفى العبرية والآرامية بمغايرة العربية لضرورةٍ أملاها افتقارهما إلى تلك الأحرف الستة التى ذكرت لك ، ولكن العبرية (والآرامية أيضا) تغاير العربية بتنويعات فى أحرف الجذر الثلاثى رغم وجود نفس الأحرف فى الأبجدية العبرية ـ الآرامية . وهى تنويعات لا بد أن تتوقعها فى لغات من نفس الفصيلة ، وإلا لما اختلفت . من ذلك أن الفعل العربى " نَصَرَ " بمعنى أَيَّد وأعَان ، لا وجودَ له فى العبرية بهذا المعنى ، رغم امتلاك العبرية لهذه الأحرف الثلاثة ، وإنما " نَصَرْ " العبرى هو بمعنى " نَطَرَ " العربى ، أى حَفِظَ وراقب (ومنه النواطير فى بيت المتنبى " نامت نواطيرُ مصرَ عن ثعالبها " أى الرقباء الحراس الحفاظ ، (أو حراس الكَرْمِ خاصة) ، أما الجذر العبرى " نَطَرْ " فهو ليس نَطَرَ العربى، وإنما معناه احتجز، ومنه "مَطَّارا"

(وأصلها " مَنْطارا ") بمعنى " السِّجن " . هذا وغيره كثير يجعلك تلتزم الحذر فى تفسير العبرى بالعربى عند تطابق الحروف ، بل لابد لك من استشارة المعجم العبرى .

من ذلك أيضا أن السين العربية تنقلب شينا فى العبرية ، ومن ثم تفهم أن "يسوع" أصلها العبرى " يشوع " ، والخاء العبرية أصلها كاف فى العبرية ، فتفهم لماذا أصبحت " ميخائيل " ميكائيل (ميكال فى القرآن) .

كل هذا وما جرى مجراه ، يسمى الإبدال ، أى وضع حرف مكان حرف . سواء تطابق المعنى أو تفاوت . ومن أهم أنواع الإبدال التى تغاير العبرية بها العربية وضع الياء موضع الواو البادئة فى الجذر العربى (وهى قاعدة لا تتخلف فى العبرية والآرامية) ، من ذلك أن " وَسُعَ " العربية تصبح " يَشَعْ " ، ولكنه فى العبرية بمعنى "نجا" أى "أوْسِعَ له وفُرِّج عنه" ، ومنه اسم عيسى عليه السلام كما سترى . أما الفعل العربى المعتل الآخر بالألف (وقد ترسم فى الخط العربى ياء مثل "جرى") فهو فى العبرية ينتهى أيضا فى النطق بالألف الممدودة ، ولكنه يرسم ألفا فى النادر ، ويرسم غالبا بالهاء ، ولكنها هاء خاملة ، لا صوت لها إلا المد . ولكننا سنلتزم فى هذا الكتاب رسمها دوما بالألف منعا للخلط بينها وبين الجذر العربى . من ذلك " ورى " العربية تصبح "يَرَا" ، ومنها اشتقت " هَتُّورا " (أى التوراة)، وسيأتى . والمهم أن تلاحظ أن هذه الياء فى " يَرَا " ، " يَشَعْ " وأمثالهما ليست ياء المضارعة وإنما هى ياء فعل ماض بُدِىءَ جذرُهُ بالياء ، مثل " يَسَرَ " العربية بمعنى سَهُل وأمكن .

ومن الفوارق أيضا فى تصريف الأفعال وصيغ الفعل، أن صيغة "أفْعَل" التى يسميها النحاة (صيغة التعدية بالهمزة) ، تصبح فى العبرية "هفْعيل" بتغيير الهمزة هاء ، وتظهر الهاء فى المصدر (إفْعال فى العربية) أيضا ، مثل "هُوشِيَعْ" أى "إيساع" العربية، من التوسعة، وهى فى العبرية بمعنى الإنجاء والتخليص والنُّصرة (وهُوشِيَعْ اسم نبىٍّ لبنى إسرائيل). ومن ذلك أيضا صيغة "انْفَعَلَ" (المسمى بصيغة المطاوعة من "فَعَلَ") ، وهى فى العبرية "نفْعَل" بحذف الهمزة تماما وإسقاط كسرتها على النون . وتظهر هذه النون فى اسم الفاعل ، فيصبح " نُوشَع " بمعنى "منصور" أو "منتصر" .

ونحن نكتفى بهذا القدر ، على سبيل التمهيد لما سنوضحه بالنسبة لكل عَلَم عبرانى نتناوله بالتحليل فى موضعه .

❒❒❒

فى اللغة العربية ـ كما فى غيرها من اللغات ـ جذورٌ أُميتَت ، أعنى خَرَجت من نطاق الاستعمال كفعل يُشْتَقُّ منه ويُتَصَرَّفُ فيه ، وتَبَقَّى منها فقط فى الاستعمال صِيَغٌ جامدة يَعْكُفُ اللغويون على رَدِّها إلى أصل مفترض ، مستعينين بالسياق الذى تُستخدم فيه ، فيقتربون من الصواب ، ولكنهم لا يَحْسِمُون .

أما اللغويون الأثبات فهم يَلجأون الى أداةٍ أكثر حسما ، وأقمنَ بالإصابة ، فيبحثون عن الجذر المفقود فى لغة من ذات الفصيلة ، وقد يتسعون فيلتمسون الجذر المفقود فى جميع لغات الأسرة اللغوية بكل فصائلها . وهم يستندون فى هذا إلى حقيقةٍ ثابتة : الجذر الـمُمَات فى لغة ما قد يظل حيا فى أخواتها ، وفى بنات عمومتها .

والجذور التى أُميتت فى العبرية والآرامية وبقيت حية نابضة فى لغتنا العربية، كَمٌّ ضخم . أما الذى أميت فى العربية وبقى حياً فى العبرية والآرامية ، فهو نَزْرٌ قليل . والذى يعنينا من هذا النزر القليل فى مقاصد هذا الكتاب لفظتان اثنتان : "لَيْسَ" ، " وَيْب " .

أما النحاة فيقولون لك إن " لَيْسَ " فعل جامد (ناقص) لا ماضى له ولا مصدر ولا اسم فاعل، يُستفادُ منه نَفْيُ المضارعة من الفعل " كان " ، أى أن " ليس " تفيد نفى الكينونة ، نفى الوجود ، نفى الحدوث ، نفى التحقق . ولكن ، مم اشتقت "ليس" ؟ أَصَحُّ ماقيل فى هذا أنها : لفظٌ مَزْجِيٌّ " مُركَّبٌ من شقين (لا + أَيْس) أى هى نفى " أَيْس " .

ولكن ما " أَيْس " هذه ؟ إنها صيغةٌ مُماتةُ الجذرِ أيضا ، يقول لك المعجم العربى إنها ضد " ليس " ، بدليل عبارة وقعت فى كلام العرب : ائتِ به من حيثُ أَيْسَ وليس . أى ائت به على كل حال ، من حيث وجد أم لم يوجد . لم تقع " أَيْس " فى كلام العرب إلا فى هذه العبارة ، على التضاد من " ليس " . وإذا كانت " ليس " موضوعة لنفى الصفة والحال ، ونفى الوجود والتحقق ، فلابد أن تكون "أيس" لإثبات الصفة والحال ، وإثبات الوجود والتحقق . أفتكون " أَيْس " بمعنى الوجود و "ليس" بمعنى العدم ؟

ولكن " أَيْس " أُميتت ، وبقيت " ليس " .

على أن " أَيْس " لم تمت فى الآرامية والعبرية . فهى فى العبرية "يِشْ" بمعنى التحقق والوجود ، ومنها عبارة "يِشْ لى" ، أى يوجد لدى . ومنها أيضا عبارة "بَرا يِش مِئَيْن " أى برأ الوجود من عدم ، تقولها متحدثا عن البارى عز وجل . ولكن "ليس" هى التى أميتت فى العبرية ، وحلت محلها "إِين" (على الإمالة) وهى التى فى "مِئَيْن" فى "بَرا يِش مِئَيْن" ، وأصلها (مِنْ + إِين) . أما فى الآرامية ، فقد عاشت " أَيْس " وعاشت " ليس " كلتاهما ، ولكن بالتاء المنطوقة ثاء ، فهما "إِيث" و"لِيث"، الأولى لإثبات الوجود والصفة، والثانية لنفى الوجود والصفة . وتجىء "ليث" الآرامية أيضا اسما بمعنى البطلان والعدم .

هذا الائتناس بالجذر الحى فى لغة من ذات الفصيلة يُجَلِّى فهمَكَ "أَيْس" بمعنى الوجود والتحقق ، ويُجَلِّى فهمَكَ " ليس " بمعنى الانتفاء والبطلان واللاوجود .

أفتكون " ابليس " من " ليس " ، أى " أَبُو لَيْسَ " بمعنى " أبو الباطل " ، مركبة من (أب + ليس) - وهى فى الآرامية " آب + ليث " - كُنْيَةٌ صارت عليه عَلَما لحظةَ فسقَ اللعينُ عن أمر ربّه ؟ ألأنه أوَّلُ من تأبّى على خالقه واسْتَنَّ به بعده كلُّ العصاة ؟ ألأنه أول من قال " لا" لمولاه ؟ ألأن عصيانه بدأ بقوله حين أمر بالسجود لآدم : لست بساجد ! (وهى بالآرامية " لِيث أنا يِسْجُد ") ؟ إن صح هذا ، كانت " ابليس " اسما مزجيا (أب + ليس) ، صِيغ على زِنَةٍ نادرة فى العربية (إفعيل) .

ولأن الاسم المزجى يُمْنَع من الصرف وجوبا ، مثل " حَضْرَمَوْتَ " و " مَعْدَ يْكَرِبَ " و " تَأَبَّط شرا " ، فربما كانت " ابليس " ممنوعةً من الصرف فى القرآن لهذا السبب وحده ، لا لعجمتها .

هذا ما لم تكن " ابليس " عربية من " الابلاس " كما قال بعض المفسرين . ولنا فى هذا كلامٌ يأتى بإذن الله فى موضعه من هذا الكتاب عند تحليل اسم " ابليس " .

ولا عليك الآن من " وَيْب " بمعنى الويل والضُّرِّ والمكروه ، فقد فَهِمْتَ ما أعنى .

□□□

من أعلام التوراة والإنجيل ما يجيءُ على النبوءة ، وكأن الذى سمّاه يتنبأ له بما سيصير إليه ، فَيَصْدُق . وهذا سائغٌ مقبول إذا كان المسمى هو الله تبارك وتعالى. أى بوحيٍ منه عز وجل . من ذلك قوله تباركت أسماؤه : { **إذْ قالتِ الملائكةُ يا مريمُ إنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بكلمةٍ منْهُ اسمُهُ المسيحُ عيسى بن مريم** } {آل عمران : ٤٥} تنصيصا على تسميته من الله عز وجل باسمه هذا الذى تقرؤه فى الأناجيل اليونانية "يِسُوس" كما تقرؤه فى الترجمات العربية " يَسُوع " ، تأصيلا على جذرٍ عبرى هو "يَشَع/ يِيشَع" أو "شاع / يَشُوع" (مقلوب الجذر العربى " وسع ") من السَّعة والفَرَج، أى الذى يُوسَع له ويُفَرَّجُ عنه ، فيخلص وينجو، فهو الناجى، الذى يُخَلِّصُهُ الله من كيد شانئيه ومبغضيه وطالبى دمه ، فيرفعه إليه ، فكان كما سماه اللهُ عز وجل .

أما أن يجىء الاسمُ العلمُ على النبوءة من غير الله عز وجل ، أى بغير وحى منه تبارك وتعالى ، ثم تَصْدُقُ النبوءةُ بحذافيرها فى المُسَمَّى ، فهذا رَجْمٌ بالغيب لا يصح أن تفترضه فى المسمِّى ، ولا يليق بك أن تظن به القدرة عليه ، وإن صَدَف : قد يُولَدُ لك ابن فتسميه باسم " صادق" فيكون أو لا يكون . أما أن يُولَد لك ابن فتسميه يوم مولده " السَّقا " ، وإذا هو يَشُبُّ فيمتهن " السِّقاية " بالفعل ، فهذا بعيدٌ وغيرُ مقبول . الصحيحُ أن أصحاب تلك الأسماء وأمثالها لم يتسموا بها يوم ولِدوا ، وإنما هم شُهِرُوا بها بعد تحقق الصفة والحال . من ذلك اسم " أيوب " عليه السلام ، حين تشتقه - لا من الأوب والتوب كما فعل المفسرون الذين افترضوا عربيةَ هذا الاسم - وإنما من " الوَيْب " بمعنى الوَيلِ والضُّرِّ والمكروه كما يفعل العبرانيون الذين يشتقونه من جذر عبرى غير مُمَات هو " أَيَب " العبرى بمعنى ضار / يَضِير أو ضرَّ / يَضُر ، فهو " الضرير" المبتَلَى ، أى ذو الضر ، كما تجده فى القرآن مفسرا بهذا المعنى ذاته : { **وأيوب إذ نادى ربَّه أنِّى مَسَّنِىَ الضُّرُّ وأنت أرحمُ الرَّحمين** } {الأنبياء :٨٣} ، فلا تكاد تشك لحظة فى أن أبا أيوب لم يسم ابنه بهذا الاسم يوم مولده " تيمنا " بما سيقع لابنه من صنوف الضر والبلوى ، بل ترجح أن "أيوب " شُهرة شُهِرَ بها إمام المبتلين بعد أن " تَأَيَّب " .

وغير " أيوب " من الأعلام كثير ، حتى لتظن أن من أعلام التوراة والإنجيل من لم يُسَمَّوا حتى أَسَنوا ، ولكنها ألقاب وأسماء شهرة كما مر بك .

على أن الشهرة كالاسم تماما ، عَلَمٌ على صاحبها عُرِف به . وهذا يوضح لك لماذا يفسر القرآن أحيانا العَلَم المقصود بشهرةِ صاحبه ، فيظن الجاهلُ أن القرآنَ أخطأ ولم يُصِب ، كما فى شاءول وطالوت ، ولكن القرآن المعجز لا يترك مثل هذا الجاهل على وهمه ، وإنما هو يُلِمُّ فى ثنايا الآيات بما ظن الجاهل أنه جهله أو غفل عنه ، فيصوره لك بمعناه ، حتى لَيُخَيَّل إليك أنه ينص عليه نصا . بل ربما " شَخَّصَ " لك القرآن العلم المقصود دون أن يتقدم له ذكر فى سياق الآيات ، وكأنه يُكَنِّى عنه ، فتفهم اسم من ذا الذى يعنى .

ولكن هذا بعض أساليب القرآن فى تفسير أعلامه الأعجمية ، تلك الأساليب التى ننتقل إليها الآن .

(٥)

للقرآن فى تفسير عَلَمه الأعجمى طرائقُ شتى ، وقع لى بفضل من الله ونعمة استظهار ستٍ منها وهى :

التفسير ُبالتعريب (ومثاله " ميكال ") ـ **التفسيرُ بالترجمة** (ومثاله "ذو الكفل ") ـ **التفسيرُ بالمرادف** (ومثاله " موسى ") ـ **التفسيرُ بالمُشَاكَلة** (ومثاله "زكريا") ـ **التفسيرُ بالمُقَابَلة** (ومثاله "عاد") ـ **التفسيرُ بالسياق العام** (ومثاله "لوط") .

وقد تجتمع فى تفسير علم واحد أكثر من أداة ، فيُفَسر مرة بالترادف ، ويفسرُ أخرى بالسياق العام ، الخ . ، بنفس المعنى أو بقريب منه .

❐❐❐

أما التفسير بالتعريب فهو تعريب العلم الأعجمى على وزن عربى يفيد بذاته أصل معناه فى لغته .

من ذلك أن القرآن فى "ميكائيل" (وتُنْطَقُ كافُها فى العبرية خاءً لتَقَدُّمِ الياء عليها كما مر بك) لا يعربها على "مِكئال"، ولا على "مِكئيل"، ولا على "مِئكال"، وإنما يعربها على "ميكال"، فيصيب التعريب ويصيب المعنى فى آن واحد، كما سترى.

وشرط إمكان التفسير بالتعريب ، اتحاد الجذر فى اللفظين ، الأعجمى والمعرب . ولا يتسنى هذا إلا فى لغتين من نفس الأسرة اللغوية ، كما هو الحال فى اللغتين العربية والعبرية .

ويتعين التنبيه إلى أن " التفسير بالتعريب " ليس هو التفسير بالترجمة : التعريب كما مر بك هو استبقاء اللفظ الأعجمى فى صورته الأعجمية بعد تهذيبه على مقتضى مخارج أصوات العربية وأوزانها، من مثل "جِيُورْجِيُوس" التى عربت إلى "جرجس"، باستبقاء أحرف الاسم الصحيحة (ج ـ ر ـ ج ـ س) والاستغناء عما عداها،

فاستقام نطقُهُ على وزن عربى، أى أصبح الاسم الأعجمى عربيا بصورته، وإن بقى أعجميا بمعناه، إذ لامعنى للفظ "جرجس" فى العربية، لأن اللغتين اليونانية والعربية ليستا من نفس الأسرة اللغوية، فلا تفهم معنى "جرجس" إلا أن يُقال لك إن أصلها فى اليونانية "جيورجيوس" وأن معنى "جيورجيوس" هذه فى اليونانية "الحارث"، أعنى أنك فى التعريب تبقى محتاجا إلى من "يُتَرْجَم" لك، أما إن ترجمت الاسم العلم إلى معناه فى لغتك، غير عابىء بأصل صورته فى لغته ، كأن تُسَمّى "جيورجيوس" باسم "الحارث" مباشرة فقد أصبت "المعنى" وفاتك "المبنى"، وينتج عن هذا أن من يسمعك تقول "الحارث" لا يدرى إن كنت تقصد رجلا عربيا اسمه الحارث، أم تقصد رجلا يونانيا اسمه "جيورجيوس" ترجمت أنت معناه إلى "الحارث".

من ذلك فى القرآن "ذو الكفْل"، الذى لاخلاف على عربيته مَبْنَىً ومعنىَ ولامجال لاشتقاقه من العبرية أو الآرامية، فتتوقف فيه: هل هو نبى عربى لم تتحدث عنه التوراة ، أم هو عَلَمٌ من أعلام التوراة ، نص القرآن على معناه، ولم ينص على مبناه ، وسيأتى .

أما لماذا يَعْمدُ القرآن أحيانا إلى الترجمة ويُهْملُ التعريب ، فهذا إعجازٌ من ثلاثة أوجه: الوجه الأول "العلم"، أصْلُ كل إعجازٍ فى القرآن ، والوجه الثانى تَحاشِى التعريب حين تفيد الصورة التى يُعرَّبُ عليها الاسم عكسَ معناه فى لغته ، مثل "يِشُوَع" بمعنى "الناجى" فى العبرية (عيسى فى القرآن) المعدولِ عن تعريبها "يَسُوع" (كما فعل المترجم العربى فى الأناجيل اليونانية) لأن "يسوع" معناها فى العربية "الهالك" [1] . وأما الوجه الثالث فهو خِصِّيصَةٌ من خصائص لغة القرآن : تَحاشِى الوحشىّ وتحرى الجمال . ولو عَلِمْت أصل "ذى الكفل" فى التوراة لأدْرَكْتَ ما أعنى ، ولما جَوَّزْتَ فيه إلا الترجمة . وسيأتى .

التفسيرُ بالتعريب والتفسير بالترجمة، هو كما ترى مُتَضَمَّنٌ فى بِنية الاسم ذاته، مُعَرَّباً أو مترجما، لا يحتاج مِنْ ثَمَّ إلى مزيدِ بيان، فلا يُفَسَّرُ بغيرهما من أدوات التفسير السِّت فى القرآن : الترادف، والمُشاكلة ، والمقابلة ، والسياق العام.

❑❑❑

(١) راجع فى معجمك العربى مادة ساع / يسوع ، ساع / يسيع ، وكلتاهما بمعنى ضاع وهلك ، وقد صحت فى العربية التسمية بالفعل المضارع المفرد الغائب ، يقصد بها اسم الفاعل ، كما فى "يزيد" على الفاعلية من زاد / يزيد . فـ " يسوع " بمعنى السائع .

أما التفسيرُ بالمرادفِ ، فهو الإتيان بالعلم الأعجمى على التجاور مع مرادف له فى العربية يفيد معناه فى لغة المتسمى به ، كما رأيت من قبل فى "ملك / رسول" وكما رأيت فى "شيطان / عدو" . ولا يشترط فى المرادف العربى أن يأتى على صيغة إسمية تفسر معنى العلم الأعجمى ، كما فى " موسى " ، ومعناها فى المصرية القديمة "وليد" ، تجدها فى : {**أَلَمْ نُرَبِّـك فِينَا وليدا، ولَبِثْتَ فِينَا مِنْ عمرِكَ سنين ؟**} (الشعراء : ١٨) ، وإنما قد يأتى المرادفُ أيضا على صيغة جملة إسمية أو فعلية، كما فى : {**لا تقتلوهُ عسى أنْ ينفعنا أو نتخذه ولدا**} (القصص : ٩)، والمقصودُ فى الحالتين " موسى " ، المحذوفُ لدلالة السياق عليه . وسيأتى . من ذلك أيضا "إسحاق" فى قوله عز وجل : {**وامرأتُهُ قائمةٌ فَضَحِكَت فبشرناها بإسحاق**} (هود : ٧١) ، وفى ميلاد مريم عليها السلام : { **قالت ربِّ إنى وَضَعْتُها أنثى ـ واللهُ أعلمُ بما وَضَعَت ـ وليس الذكرُ كالأنثى ، وإنّى سَمَّيْتُها مريم** } (آل عمران : ٣٦) ، وكما فى قوله عز وجل : { **يامريمُ اقْنُتِى لِربِّك** } (آل عمران : ٤٣) ، وسيأتى بيان هذا كلّه فى موضعه إن شاء الله .

وليس التفسير بالمرادف كالتفسير بالترجمة كما لعلك حَدَسْت : فى التفسير بالمرادف يظهر العلمُ الأعجمىُّ إلى جوار مرادِفه العربى الدالّ على معناه . أما فى التفسير بالترجمة فالعلم الأعجمى يختفى تماما فى كل القرآن ، ولا يظهر فى القرآنِ إلا باسمه العربى ترجمةً ، كما سترى فى " ذى الكفل " .

أما التفسيرُ بالمشاكلة ، فهو ذلك الجناسُ الـمُعْجِبُ الذى مر بك من قبل فى قوله عز وجل: { **كهيعص . ذِكْرُ رحمةِ ربِّكَ عبدَهُ زكريا** } (مريم :١) بين "زِكر" العبرية ، "ذِكر" العربية ، لا فرقَ بينهما إلا إبدالُ الزاى العبرية ذالا ، مع اتحاد المعنى . إنه فرعٌ من التفسير بالمرادف ، ولكنه ليس هو ، لاتفاق المرادف العربى مع مرادفه العبرى فى اللفظ والمعنى ، لا فى المعنى فقط . والتفسير بالمشاكَلة ليس هو أيضا التفسير بالتعريب، لأن المفَسَّرَ بالتعريب لا يظهر فى القرآن إلا بصورته المُعَرَّبة، كما فى "ميكال" ، أما الـمُفَسَّرُ بالمشاكلة ، مثل " زكريا " فيظهر بصورته الـمُعَرَّبَةِ هذه ، مُفَسَّرا بغيرها .

وأما التفسير بالمقابلة ـ والمقابلة هى " الطِّباق " عند أهل البديع ـ فهى الاتيان بالعلم الأعجمى مُقَابَلاً بعكس معناه ، أى أنها عكس الترادف تماما . من ذلك فى

القرآن "عادٌ" قومُ هود ، وهى فى العبرية ـ الآرامية من "الأبَد" ، "الخُلود" ، و "عُدْنِى" عبرياً بمعنى ما زلت وما أزال . ولكن القرآن يقول : **{وأنه أهْلَكَ عاداً الأولى ، وثمُودَ فما أبقى }** (النجم : ٥٠ ـــ ٥١)، أى أنه سبحانه أزال الباقيةَ الخالدةَ التى لا تزول ، فيفسرها بما آلت اليه . وسيأتى .

أما التفسيرُ بالسياق العام فهو أنك تستخلص من سياق الآيات وصفا لبطل الحَدَثِ المَرْوِىِّ فى القرآن ، يُلابسه ويُلازمه حتى تكادَ تُسَمِّيهِ به ، وإذا هو نَفْسُه معنى اسمه العلم فى التوراة .

من ذلك اسم "لوط" ، ومعناه بالعبرية "مَحجُوب" ، الذى تجده مُفَسَّراً بالمُقابلة فى قوله عز وجل : **{ وجاء أهلُ المدينةِ يَستبشرون . قال إنَّ هؤلاءِ ضَيْفِى فلا تَفضَحُون }** [1] (الحجر : ٦٧ ـــ ٦٨) . ولكنك تجده أيضا مُفَسَّراً بالسياق العام أو الجوِّ العام الذى توحى به إليك الآياتُ التى تُصَوِّر لك لوطاً وهو " يُرَاوَدُ " عن ضيفه ولا يملك ما يدافع به إلا أن يَفتَدِى ببناته فلا يُقْبَل منه ، ويَهُمُّون به ليبطشوا به إلا أن يُخَلِّى بينهم وبين ضيفه هؤلاء ليفعلوا بهم ما أرادوا ، ويَجْزَعُ لوطٌ أشد الجزع وقد غُلِبَ على ضيفه فيتوجع : **{ لو أن لِى بِكُمْ قوةً أو آوِى إلى رُكنٍ شَدِيد ؟ }** (هود : ٨٠) ، ولكن ضيفه يُهَوِّنُونَ عليه : **{ قالوا يالوطُ إنا رُسُلُ ربك ، لن يصلوا إليك }** (هود : ٨١) ، ولكن الملائكة المكْرَمين لا يُحاجزون عن لوط ، ولا يبطشون بالكَفَرَة الفَجَرَة ، فلم تَحِنْ بعدُ ساعتُهم ، بل يضربون بينه وبينهم بحجاب ، فَتَغْشَى الذين ظَلموا الظُّلْمَة : **{ فطمسنا أعينَهم }** (القمر : ٣٧) فيحتجب منهم لوط كما تحتجب الملائكة ، ويَضرب الليلُ بأستاره على القرية المجرمة ، ويمضى لوطٌ فى ساتر الليل مُتَّبعاً ما أمرَ به : **{ فَأسْرِ بأهلكَ بِقِطْعٍ من الليل }** (هود : ٨١) ، لينجو بسَحَر : **{ إلا آل لوطٍ نَجَّيْناهُم بِسَحَر . نِعمةً من عندنا كذلك نجزى مَنْ شَكَر }** (القمر : ٣٤ ـــ ٣٥) ، ولا ينجلى الليلُ عن القرية إلا وقد صَبَّحَهُم عذابٌ مستَقِر :**{ ولقد صَبَّحَهُم بُكْرَةً عذابٌ مُسْتَقِرّ}** (القمر : ٣٨) . وهَلَك الظُّلَمَةُ رَدْماً وعُميانا : **{لَعَمْرُكَ إنَّهُم لَفِى سَكْرَتِهِم يعمهون. فأخَذَتْهُم الصيحةُ مُشْرِقين. فجعلنا عالِيَها سافِلَها وأمْطَرنا عليهِم حِجارةً من سجيل}** (الحجر: ٧٢ ـ ٧٤).

---

(١) "فَضَحَهُ" أصلها بمعنى كَشَفَ ستره وعَرَّاه ، ومنه افتضاح السر الذى لم يعد سرا ، ثم غَلَبَت فى التحدث بالمعايب والمثالب ، وهو غيرُ المقصود فى الآيات .

هذا الحجاب المضروبُ على لوط فى إفلاته من بطش الذين كفروا ، وفى فراره من القريةِ الظالمِ أهلُها ، حجابٌ باطنُهُ من قِبَله الرحمة ، وظاهِرُهُ من ورائه العذاب ، ولذلكَ قيل له : {**فأسْرِ بأهلِكَ بِقِطْعٍ من الليل واتبع أدبارَهم ولا يلتَفِت منكم أحد**} (الحجر : ٦٥) . أى النجاء أمامك ، وكل ما وراءك هالك ، فاجعل القوم وراءك ، ولا تلتفت.

هذا الجوُّ العام ، الذى تُوحِيه الآيات ، سمَةٌ يَتَفَرَّدُ بها القَصَصُ القرآنى من دون كل قصص : الحدَثُ المَرْوِىُّ فى القرآن لا يُسْرَدُ عليك كما يُسرد الخبر ولكنه ـ على خلاف ما تجد فى التوراة والإنجيل ـ يُبْعَثُ لك من غياهب التاريخ حيا نابضا مُشَخَّصا، وإذا أنت فى قَلْبِ الحَدَث ، تسمعُ وتَرى ، وقد طُوِيَت المسافاتُ واستدار الزمن . تجد قريبا من هذا فى قصة نوح مع قومه (الآيات ٢٥ ـ ٤٨ من سورة هود) حين يَبْلُغُ الحدَثُ ذروته ، فتحسب أنك من ركاب السفينة مع نوح وهى تجرى بك فى موج كالجبال ، وربما اشتد بك " الحضور " فَهَمَمْتَ بأن تَمُدَّ يدك إلى قمة جبلٍ حاذاها الماء ، تُريدُ أن تلتقط الابنَ العاقَّ وهو يَغْرق ، ولكن موجةٌ عاتيةٌ تحولُ دونك ، فتسترجع ويسترجع نوح ، فقد نُهِىَ عن ذلك من قَبْلك ، ولا يُفرخ روعك إلا بانتهاء المشهد وقيلِه عز وجل : { **تلك من أنباء الغيب نُوحِيهَا إليك** } (هود : ٤٩) ، فتثوبُ إليك نفسُك .

هذا لونٌ من وجوه الإبداع الفنى المعجز فى القرآن ، ولو كان موضوعُ كتابنا هو هذا الإبداعَ لزدناك ، ولكنك تعلم منه ما أعلم ، ولم أُرِد من هذا إلا التمثيل لأسلوب القرآن فى التفسير بالسياق العام ، أى التفسير بالتصوير .

□□□

والذى يجب التنبيه إليه أن التفسير القرآنى لأعلامه الأعجمية ، أيا كانت أداة التفسير المستخدمة ، تفسيرٌ به خَفَاء ، ليس هو خفاء التطابق بين المُفَسَّرِ والمُفَسِّرِ به ، فالتطابقُ تام ، ولكنه خفاءُ القصد ، لأن النسيج القرآنى نسيجٌ محكم ، بالغُ الإيجاز ، بَرِىءٌ من الحشو والافتعال ، كل لفظٍ فيه موزونٌ بميزان ، معناه مطلوبٌ لذات معنى الآية ، واللفظةُ أو العبارةُ المُفَسِّرَةُ لمعنى الاسم العلم جزءٌ فى هذا البنيان المُتَضَامِّ المتكامل ، أو أداةٌ لتصوير الحدث نفسه ، لا لتفسير الاسم، فلا تَفْطِنُ إن

كنت لا تعرف لغة الاسم العلم لوجه "التناسب" بين المُفَسَّرِ والمُفَسِّرِ به، أو لوجه المشاكلة بين هذا وذاك ، كما تجد فى تفسير اسم "إسحاق" بقوله عز وجل : {**وامرأتهُ قائمةٌ فضحكت فبشرناها بإسحق**} (هود : ٧١) ، فالعبارة هنا تعطيك وقائع الحدث المروى عليك بالكلمة والصورة باختصارٍ بليغ اقتضى من كَتَبَةِ التوراة عدةَ أسطر ، دون أن يُلِمَّ "سفرُ التكوين" (تكوين ١٨/٩ ـ ١٥) بكل ما ألمت به تلك الألفاظُ الخمسة من سورة هود ، فقد سقط منها على سبيل المثال اسمُ المُبَشَّرِ به "إسحاق" فتنتظر إلى الإصحاح ٢١ (٢ ـ ٥) كى تعلم أن إبراهيم هو الذى سمى ابنه "إسحاق"، وأن امرأته سارة قالت فى تفسير الاسم : "قد صنع إلَىَّ اللهُ ضحكا . كلُّ من يسمع يضحك لى". ولكنك أمام تلك الألفاظ الخمسة فى القرآن بِمَحْضَرٍ من مشهدٍ متكامل: ترى سارةَ قائمةً تَخْدُمُ ضَيْفَ إبراهيم ، وتفهم بغير كلام أن الضيف (وهم وفدٌ من الملائكة صلواتُ الله عليهم) قالوا شيئا ما يتعلق بسارة رضى الله عنها ، ضحكت له عَجَبًا وحياء ، فأُعيدَ عليها القول، فتفهم أن الذى قالوه قد كان بشارةً بالمُحالِ وقوعُهُ لعجوزٍ عقيمٍ أيْأَسَتْها السُّنون ، وكأن الملائكةَ قالوا : "ضَحِكْتِ يا أُمَّ ضَحَّاك !"، تسمية من الملائكة للمولود المُبَشَّرِ به ، ولكنك لا تفطن لوجه التناسب بين "ضَحِكَتْ" و "إسحاق" ، لأنك لا تعلم أن "إسحاق" هى "ضَحَّاك"، كما لا تفطن لوجه المشاكلة فى عبارة من مثل: أَحْسَنْتَ يا حَسَنُ ! إن قيلت لك بالانجليزية هكذا : "Well-done, Hassan!" .

ولكن علمك بلغة الاسم العلم لا يكفى وإن كان شرطا أول ، لأن القرآن لا يفسر لك أعلامه الأعجمية بمثل تلك الصورة المباشرة الفجَّة : أَحْسَنْتَ يا حَسَنُ ! فلا يقول لك مثلا : " وامرأته قائمة فضحكت ولذا سمينا "إسحاق" ، حتى يُسْتَثَارَ فضولُك إلى معرفة معنى"إسحاق" فى لغة إبراهيم وسارة ، ولا يَقْصِدُ إلى التفسير قصدا كما فعل كتبةُ التوراة ، فيخطىء الكاتبُ ويصيب ، كما رأيت فى تفسير اسم حواء الذى تصدى الكاتب لتفسيره فقال : " ودعا آدم اسم امرأته حواء لأنها أم كل حى " (تكوين ٣/ ٢٠) ، يريد أن اسمها أخذ من " الحياة " : (وإن كان آدم أول الأحياء من البشر كما تعلم) [١]. القرآن لا يعلل لك تسمية إسحاق بِضَحِكِ سارة ،

---

(١) لا يَنُصُّ القرآنُ على " حواء " ولكننا سنتناوله بإذن الله فى تحليل اسم آدم ، تصحيحا لما ذكره كتبة التوراة من أن " حواء " من الحياة .

فَضَحِكُها واقعٌ وَقَع ، وجزء لا يتجزأ من صُور الحدث المروىِّ عليك ، ملتحمٌ بالمعنى العام للآية ، لا حشوَ ولا افتعال ، ولا خروجَ عن القصد ، بل تأتى العبارةُ سلسلة ، ويجىء "إسحاق" فى موضعه ، غَيْرَ مُقْحَم ، فتظن أنت أن التفسيرَ عارضٌ عَرَض ، بعد علمك بأن "إسحاق" هى "ضَحَّاك" ، لا مدخلَ له البتة فى مقصود الآية ، فلا تلتفت إليه .

ولكن هذا الذى لا تلتفت إليه يتواتر فى كل علمٍ أعجمى مذكورٍ باسمه أو بِكُنْيَته فى القرآن. فتتساءل أمقصودٌ هو أم غَيْرُ مقصود ؟ أم أنه الإعجازُ البيانى الذى يؤلف بين الألفاظ والصور على هذا النسق المتناغم المتجانس لا يُرادُ منه إلا هذا ؟

وأنا لا أقول لك إن المقصودَ هو هذا أو ذاك ، فلا يَملك مخلوّق تقييدَ مقاصدَ الخالق عز وجل ، وإنما الذى أقوله لك هو أن لإعجاز القرآنِ وجوها هذا أحدُها : إنه دليلُ العِلْم ، ودليلُ القدرة .

□□□

ثَـمَّـةَ محاذير فى تفسير معنى العَلَم الأعجمى من القرآن وبالقرآن . وأهم هذه المحاذير ألا تقع فيما وقع فيه بعض قُدامَى المفسرين ، كأن تقول إن "يوسف" من الأسف ، مُعْتَلا بالمشاكلة والتجاور بين اللفظين فى قوله عز وجل على لسان يعقوب : { **يا أسَفَا على يُوسُف** } ﴿يوسف : ٨٤﴾ ، دون أن تُـمَحِّص معنى "يوسف" من العبرية نفسها، وكأن " يوسف أصلُها "يُؤْسِف" لأن يوسف كان سببا فى أسف أبيه . هذه تخريجات لا تفيدك شيئا ، لأن "أسف" العربية ليست بالضرورة جذرا مشتركا بين اللغتين ، بل هى بالأحرى من جذر عربى آخر لحقه القلب والإبدال : إنها فى العبرية من "ضَفَا" العربية بمعنى نما وكَثُر ، وهى أيضا من ضاف / يَضِيف العربية بمعنى أمَالَهُ إليه وضمَّه وأضافَه ، وأيضا آواه واستضافه. وهذا كله لا صلة له بالأسف الذى تعنيه مادة "أسِفَ" العربية .

والذى أقصده من هذا ألا تتلمس معنى العَلَم الأعجمى مُسْتَدِلا عليه بقرينة التجاور وحدها ، فالتجاور ليس هو بالضرورة " الترادف" ، وإلا خبطت خبط عشواء فظننت أن "إسحاق" بمعنى"العِلْم" فى اللسان العبرانى ، مُسْتَدِلا على ذلك بتواتر

وصف "إسحاق" بالعلم فى القرآن مرتين : { **قالوا لا تَوْجَلْ " ، إنا نبشرك بغلامٍ عليم** } ‹الحجر : ٥٣› ، { **فأوْجَسَ منهم خِيفَةً ، قالوا لا تَخَفْ ، وبشّروه بغلامٍ عليم** } ‹الذاريات : ٢٨› - يريدون إسحاق . هذا عبثٌ لا يليق ببحثٍ جاد ، ولَغْوٌ لا يصح فى كتاب الله عز وجل .

وإنما الصحيح أن تَتَوَصّل أولا معنى العَلَم الأعجمى فى لغته ، ثم تتلمس هذا المعنى نفسه فى الآيات من القرآن التى تتحدث عن هذا الإسم ، مُصَرَّحا به ، أو مُكَنّى عنه ، أو محذوفا لدلالة السياق عليه ، وأنا زعيمٌ لك بأنك ستجد هذا المعنى فى كل عَلَم ، مرة واحدة على الأقل ، وهذا كاف . وحبذا لو تواتر هذا الترادف فى أكثر من موضع (١) ، إذن لاستبان لك أن هذا الترادف لم يأت عَرَضا . وحبذا أيضا لو أُتيح لك ترجمة تلك الآية من القرآن إلى لغة ذلك الاسم العَلَم ، كى يتجلى لك كالشمس سطوعا تطابقُ اللفظين فى تلك اللغة : الاسم العلم ومعناه . من ذلك قوله عز وجل : { **ولما دخلوا على يُوسُفَ آوى إليه أخاه** } ‹يوسف : ٦٩› ، وترجمتها الحرفية بالعبرية هى : " ويبُؤُو إل يوسِفْ ويُوسِفْ إلاوْ أحِيو " ، ومرة أخرى فى قوله عز وجل : {**فلما دخلوا على يُوسُفَ آوى إليه أبويه**} {يوسف : ٩٩}، وترجمتها العبرية هى : " ويبُؤُو إل يوسِفْ ويُوسِفْ إلاوْ أبُوتَاوْ " . فى الترجمة العبرية (والترجمة من عندى فلا ذكْر لهذا فى التوراة العبرانية) تجد لفظة " يُوسِفْ " مكررةً على التلاصق - يُوسِفْ ويُوسِفْ (٢) - الأولى هى الاسم العَلَم يُوسُفُ عليه السلام ، أما يُوسِفْ الثانية فهى فعْلُه (ترجمة " آوى " : فلما دخلوا على يُوسُفَ آوىَ إليه) فتستخلص أن القرآن يَدُلُّكَ على معنى اسم " يوسف " عليه السلام بفعلٍ صَدَرَ منه - الإيواء والاستضافة - كان بحقٍ محورَ دوره عليه السلام فى تاريخ بنى إسرائيل ، وكأن الاسم يُلَخِّصُ لك هذا الدور أصدق تلخيص : كان يوسف لبنى اسرائيل فى مصر نِعْمَ " الآوى - المضيف " .

ولكن علماء التوراة - وعلماء العبرية أيضا - يَرَوْن أن " يوسف " مشتق من

---

(١) هذا حادثٌ بالفعل فى القرآن ، ولكننا فى مباحث هذا الكتاب سنقتصر على أبرزها وأوضحها ، قطعا لكل جدل.

(٢) " يُوسِفْ " العبرية يعنى " يُؤْوِى " على المضارعة من " آوَى " ، ولكن العبرية تستعمل فى الحكاية الزمن المضارع تريد به الزمن الماضى .

جذر عبرى آخر هو " يَسَفْ " الذى يُفيد الإضافة بمعنى الزيادة ، ولا يُفيد الإضافة بمعنى " الضيافة " ، فهو عندهم بمعنى " يزيد " ، ربما لأن أمّ يوسف قالت فى سفر التكوين وهى تضعه إنها سمته يوسف و "يزيدها" الله ابنا آخر . نعم ، قد استُجيبَت دعوةُ راحيل فولدت ليعقوب وهى تجود بنفسها ابنا آخر هو " بِنْيامِين " (أى ابن اليُمْنِ والسَّعْد) ، وكأنها وهى تُسَمّى يوسف تريد معنى يزيد . وليس لنا بالطبع - ولا لعلماء التوراة أيضا - ادعاءُ العلمِ بمقصد راحيل رضى الله عنها من تسمية مولودها " يوسف " - إن صح أنها هى التى سَمّتْه ولم يُسَمِّه أبوه [1] - وإنما الذى يعنينا من الاسم مَنْطُوقُه ودلالته : النطقُ على المعنيين (يزيد ، يستضيف) فى العبرية واحد، ولم يَتَسَمَّ باسم يوسف من العبرانيين قبل يوسف بن يعقوب أحد ، ودلالةُ الاسم على مسماه تصح بالمعنى الذى تستخلصه من القرآن (يستضيف) ولا تصح بالمعنى الذى يريده علماء التوراة (يزيد)، لأن " يوسف " لم يكن أكثر الأسباط الاثنى عشر نسلا ، ولكنه كان وحده لبنى اسرائيل جميعا الآوى المضيف ، والتسمية على قصد النبوءة فاشِيَةٌ كما تعلم فى أعلام التوراة (أو فى سفر التكوين على الأقل)، لا يكاد يخلو عَلَم من النص على أن التسمية تَنْظُرُ الى ما سوف يَؤُولُ إليه ، والذى أُفَسِّرُ لك به اسم "يوسف" الآن مُفيدٌ لعلماء التوراة فى هذا الباب ، ولكنهم لم يفطنوا إليه .

والذى يعنينا فى هذا المقام أن نسجل للقرآن هذه الأستاذية السامقة فى فقه اللغة العبرية ، فيستخلص " الإيواء " من يوسف التى تفيد أيضا " يزيد " ، فيصيب المنطوق والمعنى كما يصيب الدلالة التاريخية ليوسف فى بنى إسرائيل، وسبحان العليم الخبير . وسيأتى لهذا مزيد بيان إن شاء الله عند تحليل اسم يوسف فى موضعه .

ويعنينا أيضا فى هذا المقام التنبيه على محذور ثان ، وهو فرط الوثوق بما ورد فى نصوص التوراة من تفاسير تُبَرِّرُ التسمية ، فليست هذه التبريرات جزءا من وحى الله على رسله ، وإنما هى اجتهاداتُ الكاتب الذى يُخطِىء ويُصيب . بعض هذه الاجتهاداتِ متناقضٌ مع نحو اللغة ، فَتُحيلُ على الله عز وجل أن يكون هو المُوحِى ،

---

(١) يستوقفك فى سفر التكوين على الأقل " اختصاص " الأم بتسمية مولودها لحظة ميلاده ، لا سيما فى تسميات أبناء يعقوب الإثنى عشر ، لم يفلت منهم إلا بنيامين ، الذى تعسرت ولادته فأرادت أمه تسميته " بِن - أُونى" أى ابنُ شِقْوَتِى ، ولكن راحيل جادت بنفسها وهى تضعه ، فسوغ يعقوب لنفسه تسميته . {تكوين ٣٥ / ١٩} .

وبعضُهُ حَشْوٌ مُقْحَمٌ يَتَعَالَمُ به الكاتبُ فَيَزِلُّ القلم ، ويفتضحُ الجهل . من ذلك ما تقرؤه فى سفر التكوين (تكوين ١١ /١ ـ ٩) من تفسير الكاتب لاسم مدينة "بابل" فيقول على لسان الله عز وجل : " وقال الرب هو ذا شعبٌ واحد ولسانٌ واحد لجميعهم وهذا ابتداؤهم بالعمل . والآن لا يمتنعُ عليهم كل ما يَنْوُون أن يعملوه . هَلُمَّ ننزل ونُبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض . فبددهم الرب من هناك على وجه كل الأرض . فكفوا عن بنيان المدينة . لذلك دُعِى اسمُها بابل. لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض . ومن هناك بددهم الرب على وجه كل الأرض " . تَصَدَّى الكاتب هنا لما لا يعرف فتردَّى فى أخطاء جسيمة لا تصح من كاتب وحى : أخطأ فى حق التاريخ ، فظن أن أهل بابل كَفُّوا عن بناء المدينة فلم يكتمل بناؤها ، والواقع التاريخى أنها بُنِيَت وحَسُنَ بناؤها ، بل وكانت من أعظم مدائن التاريخ . وأراد تفسير ظاهرة اختلاف لغات البشر ، فوقع فى خطأ عِلمِىٍّ بَيِّن ، لأن الناس لا تتباين ألسنتهم فيتفرقون، وإنما يتفرقون فتتباين الألسنة . ولم يكتفِ بهذا بل افترى على الله عز وجل الغَيْرَةَ من عباده الذين أتقنوا الصنعة ، فبدد شملهم كيلا يُتِمُّوا ما بدأوه ، كما افترى على الله من قبل (تكوين ٣/ ٢٢ ـ ٢٤) الخشية من أن يغافله آدم ، الذى "صار كواحد منا عارفا الخير والشر . والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا (بعد أن أكل من شجرة المعرفة) ويأكل ويحيا الى الأبد . فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعملَ الأرضَ التى أُخِذ منها . فطرد آدم [١] وأقام شرقى جنَّة عدن الكَرُوبِيمَ ولهيبَ سيفٍ مُتَقَلِّبٍ لحراسة طريق شجرة الحياة " . وهذا كله أدخل فى باب الأساطير والقصص الشعبى ، لا يصح فى جنب الله عز وجل ، فتقطع بأن هذا النص من عند غير الله ، لا يُلْزِمُك . أما خطأ الكاتب فى جنب اللغة ، فقد تَوَهَّم أن " بابل " من البلبلة ، فبنى على هذا الوهم كلَّ ما سبق . والصحيح أن " بابل " لفظة أكَّادية (أى بابلية ـ أشورية) أصلها " باب + ايلو " تحورت فى الآرامية إلى " باب + ايل" ، أى "باب الله" ، وظنها الكاتب العبرانى من الجذر العبرى " بَلَلْ " بمعنى خلط واختلط ،

---

(١) تجدها " فَطَرَدَ الإنسان " فى الترجمة العربية ، ولكنها فى الأصل العبرانى " أدام " أى " آدم " . صحيح أنه يسوغ فى العبرية التعبير عن مطلق جنس الإنسان بلفظ " أدام " ، ولكنه لا يصح فى هذا الموضع لأن المطرود من الجنة ليس مطلق جنس الانسان ، بل أبوهم . أما " إنسان" فى العبرية فهى "إنُوش" (من "إنْس" العربية).

ضُعِّفَ كما فى "زَلَّ" ، "زَلْزَلَ" العربية ، فصار " بلبل " ، ولكن كيف تأتى " بابل " من "بلبل" ؟ لا يستقيم هذا بالطبع فى نحو اللغة ، فيضطر علماء العبرية رغما عنهم من بعد هذا الكاتب إلى افتراض ما لا يصح افتراضه ، وهو أن بابل كان أصلها بَلْبِلْ ؛ [(١)] كل هذا ولا يتوقف أحد ليتساءل : ولماذا يستعير البابليون اسما من العبرانية لمدينتهم ؟

عليك أن تكون من هذه التخريجات وأمثالها على حذر ، فليست لها حُجِّـيَّةُ النصوص الموحَى بها . تقطع بهذا آمنا مُطمئنا ، لأن نسبة الخطأ إلى الله عز وجل لا تصح . بل ينبغى لك أن تُؤصِّل معنى العَلَم الأعجمى فى لغة صاحبه غَيْرَ متأثر بتفاسير ساذجة أو مغرضة ، كما رأيت من قبل فى اختراع قصة زِنَى لوطٍ بابنتيه ليكون لهما نَسْلٌ من ماء الأب (مو + آب) فيكون منه الموآبيون ، تشنيعا على قبائل الموآبيين بعد أن قَهَروا بنى إسرائيل ، رغم أن الموآبيين أسبق وجودا على الأرض من لوطٍ وابنتيه . أو بتفاسيرَ أَمْلَتْها العقيدةُ مِنْ بعد ، كما تقرأ فى إنجيل متى (متى ١/٢١ ـ ٢٣) : " فستلد ابنا وتدعو اسمه يسوع . لأنه يُخَلِّصُ شَعْبَهُ من خطاياهم . وهذا كلُّه كان ليتم ما قيل من الرب بالنبى القائل هوذا العذراءُ تحبل وتلد ابنا يدعون اسمه عِمَّانُوئيل الذى تفسيره الله معنا " . فتفهم أن الكاتب يفسر لك هذا الاسم العبرانى " يِشُوَع " بأن معناه "المُخَلِّص" ، بل هذا هو ما تُصِرُّ عليه كل المعاجم المسيحية ، رغم تصادم الترجمة مع منطق اللغة العبرية ، ولكنهم يقولون لك إن أصلها " يِهِى ـ يِهِى شُوَع [(٢)] " اختُزِلَت إلى " يِشُوَع " ، فلا تفهم لماذا وكيف ، ولا تفهم لماذا يَتَفَرَّدُ عيسى عليه السلام بهذا التفسير المفتعل من دون كل " يِشُوَع " قبلَه فى بنى إسرائيل وقد تسمى به كثيرون ، ولا تفهم أيضا لماذا يَسْتَدِلُّ مَتَّى بنبوءة النبى القائل بأن العذراء تحبل وتلد ابنا يدعون اسمه " عِمَّانُوئيل " (الله معنا) وهو ينص فى العبارة السابقة على أن اسم المولود سيكون " يسوع " ، وقد كَذَّبَتِ النبوءةُ بهذا

---

(١) راجع المعجم العبرى الآرامى لألفاظ التوراة المذكور فى حواشى هذا الكتاب ، صفحة ٨٧ .

(٢) المرجع نفسه ، صفحة ٣٥٤ . أما " يِهِى " العبرية فمعناها " يكون " ، أُضِيفَت إليها " شُوَع " بمعنى الخلاص والنُّصرة ، والمعنى أنه سيكونُ خلاصا أو يكون به الخلاص . ولو كان المراد التسمية على الفاعلية من الإنجاء والتخليص لكان الاسم " يُوشَع " أو " يُوشِيَع " دون حاجة إلى كل هذا الافتعال .

المفهوم ، لأن ابن مريم عليهما السلام دُعِى بالفعل يسوع ، ولم يُدْعَ عِمَّانُوئيل . أيريد "مَتَّى" أن يُعَرِّضَ بأن هذا المولود هو "الله" ، صار جسدا وحلَّ " بيننا " كما قال يوحنا فى انجيله (يوحنا ١٤/١)؟ وإذا كان هو الله فكيف "يُخَلِّصُ شعبه" كما قال مَتَّى آنفا؟ أفلله شعبٌ يَخْتَصُّ به من دون البشر ؟ إنْ صح هذا فى عقيدة اليهود (شعب الله المختار) فهو لا يصح البتة فى دين المسيح عليه السلام ، الذى شَدَّد النكيرَ على دعوى اختصاص " أبناء ابراهيم " بالخلاص ، فقال إن الله عز وجل قادرٌ على أن يَخْلُقَ من الحجارة أبناء لإبراهيم ، ولكن " مَتَّى " كما تعلم يهوديٌّ تَنَصَّر . إلى هذا ومثله يُفضى التفسيرُ بالهوى والتفسير بالعقيدة ، أو التفسيرُ بغيرِ علْم ، وسيأتى لهذا مزيدُ بيانٍ إن شاء الله عند تحليل اسم عيسى عليه السلام فى موضعه .

أما المحذور الثالث ، فهو أن تظن أن أعلام التوراة والإنجيل جميعا أعلام عبرانية ، تُفَسَّرُ بالعبرية وحدها ، غير مُلْتَفِتٍ إلى الإطار الجغرافى التاريخى لصاحب الاسم العَلَم . فأنت لا تتصور مثلا أن يلتقط آلُ فرعون موسى من اليم ، ثم يتكلفون تسميته تسميةً عبرانية " مُوشِيه " بمعنى "اللقيط" (أو الـمَمْسُوّ من الماء) وإنما المنطقى أن يتحدث آل فرعون فيما بينهم بالمصرية القديمة ، فيسمون الذى عثروا عليه فى التابوت باسمٍ مُشْتَق من لغتهم هم ، ولا ينتظرون حتى تسميه أختُه "التى قَصَّته" ، أو أمه التى صارت مُرضعا له . ولا تظن أيضا أن أم موسى رضى الله عنها أُلْهِمَت تسميتَه " مُوشِيه " يومَ وضعته أو يوم قذفت به فى اليم ، تفاؤلا بما سيكون من أمر التقاطه من الماء ، لو صَحَّ هذا لما أخطأت التسمية ، ولما قالت " مُوشِيه " على الفاعلية (أى الماسى) ، بل لقالت " مَاشُوىْ " على المفعولية (أى الممسو) ، كى لا يَحارَ من بعدها علماءُ العبرية فى تعليل سبب التسمية على زنة الفاعل ، لا على زنة المفعول . عليك إذن أن تلتمس للفظ " موسى " معناه فى لغة " آل فرعون " ، وستجد أن أصله " مسو" ومعناها " وليد " . وسيأتى .

من ذلك أيضا اسم مَرْيَم أم عيسى عليهما السلام ، تجدها فى أصول الأناجيل اليونانية مرسومة MARIAM بفتح الميم والياء (أى بنفس نطقها فى القرآن) . كما تجدها أيضا فى تلك الأناجيل اليونانية مرسومة أحيانا MARIA " ماريًا " محذوفة الميم فى آخرها ، على غير عِلّةٍ من " الإعراب " فى اللغة اليونانية . ولكنَّ أحدا لم يتوقف ليتساءل لماذا فتح كتبة الأناجيل اليونانية "ميم" مريم ولم يكسروها كما فى

"مريَام " أخت موسى عليه السلام، بل أجمعوا على أن مَرْيَم أم عيسى عليهما السلام سَمِيَّةُ "مِريَام" أخت موسى (مكسورة الميم) التى يفسرونها فى العبرية من "التمَرِّى"، "الامتراء" . بل ذهب أدعياءُ الاستشراق إلى أن القرآن ، بقوله فى سورة مريم :
{فَأَتَتْ به قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قالوا يا مَريمُ لقد جِئْتِ شيئا فَرِيًّا . يا أُخْتَ هَرونَ ما كان أبوكِ امرأَ سَوْءٍ وما كانت أُمُّكِ بَغِيًّا} (مريم : ٢٧ و٢٨)، يخلط بين مَرْيَم أم عيسى ومِريَام أخت موسى وهارون ، بدلالة تقريعهم إياها فى القرآن بعبارة : " ياأخت هارون !"، أى ما كان يليقُ بك هذا وأنتِ من أنت ، أخت هارون ! وسيأتى تفنيدُ هذا فى موضعه إن شاء الله عند تحليل اسم مريم عليها السلام . ولكن أحدا لم يلتفت الى أن " الجليل " ، موطن مريم عليها السلام شمالى فلسطين ، لم يكن عصرَ المسيح وقبلَهُ بثلاثة قرون على الأقل يتكلم العبرية ، بل كانت اللغة الفاشية على ألسنة الناس هى " الآرامية " ، بعد أن توارت عبرية التوراة فى كل فلسطين منذ القرن الخامس قبل الميلاد ، فلا تُسْمَعُ إلا من حَبْرٍ أو " رَبَّانِىّ " (وهى "رِبُّونى" كما تقول الأناجيل) يَقْرَأُ من التوراة فلا يُفْهَمُ منه إلا أن يُفَسِّرَ ما يقرؤه . وقد مرَّ بك أن إصحاحات كاملة من سفر " عزرا " (القرن الخامس قبل الميلاد) كُتِبت بالآرامية مباشرة . كما تقرأ فى سفر "نحميا" (معاصر عزرا) ما يلى : "وقَرَأُوا فى السفر فى شريعة الله ببيانٍ وفَسَّرُوا المعنى وأفهموهم القراءة" (نحميا ٨/٨) . وبهذه الآرامية نفسها كان كلام المسيح عليه السلام مع عشيرته وحوارييه . ولابد أن تَتوقع لهذه الآرامية تأثيرا فى نُطق الأسماء الأعلام ، بل وفى صياغة الأسماء الأعلام ، على الأقل بالنسبة لأعلام المسيحية الواردة فى الأناجيل ، فلا تَستبعد أن "تُبْتَكَر" فى بنى إسرائيل عَصْرَ غَلَبَة الآرامية على ألسنة الناس، أعلامٌ آراميةُ التركيبِ والصياغة يَستشكلُ تفسيرُها بالعبرية ، ولا يُفْهَمُ معناها إلا أن تُرَدَّ الى الآرامية التى اشْتُقَّت منها . من ذلك اسم " مَرْيَم " بفتح الميم البادئة لا يَصِحُّ أن تكون هى "مِريَام" العبرية مكسورةَ الميم البادئة ، ممدودةَ الياء ، إلا إذا خَطَّأتَ كتبة الأناجيل اليونانية فى رسمها مفتوحةَ الميم ، والإنصافُ يقتضى منك ـ وتوجب نزاهة البحث عليك ـ ألا تبادر إلى تخطئة كتبة الأناجيل فى " تهجئة " الأسماء الأعلام خاصةً ، قبل أن تلتمس لهم العِلّةَ ، فقد كانوا ـ ومنهم خُلَصاءُ المسيح وحواريُّوه ـ ينطقون تلك الأعلام على الوجه الذى به كُتِبَت ، لاسيما والخط اليونانى لا يحتاج إلى الشكل والنقط ، بل

تكتب "مَرْيَم" مثلا : ما ـ رى ـ ام MARIAM ، لا شُبْهَة فى فتح ميمها البادئة . فهى إذن غيرُ "مِريَام" MIRIAM العبرية ، أخت موسى وهارون ، من المِرَاء والمِريَة. ولا يجوزُ أيضا افتراض جواز كسر الميم وفتحها فى " مِريَام " العبرية ، لأن هذا غيرُ جائزٍ فى نحو تلك اللغة . ولا يصحُّ افتراض أنهم " لَحَنُوا " فى نُطق " مِريَام" العبرية بتأثيرِ " آرامى " لأن الآرامية لا تفتحُ مكسورا فى العبرية ، وإلا لَفتحوا ياءَ "يِشُوَع" اسم المسيح عليه السلام ، وهو اسمٌ عبرىٌّ خالص ، تَسَمَّى به قبله فى بنى إسرائيل أعدادٌ لا تحصى . وإنما الذى يَصِحُّ منك هو افتراض آرامية اسم مَرْيَم أم عيسى عليهما السلام ، لا شأن لك بِمِريَام أخت موسى وهارون .

ونحن فى هذا البحث نفترض آرامية اسم مَرْيَم أم عيسى عليهما السلام ، مفتوحَ الميم ، لأنه لا يصح لدينا وجهٌ فى تفسير معناه إلا بافتراض آراميته . وهو عندنا اسمٌ مَزْجِى ، مركبٌ من عُنصرَيْن آراميين : " مارى + أَمَا "، سُهِّلَتْ همزتُه ، ثم رُخِّم ، فأصبح " مارِيَ + م " ، أى " مَرْيَم" (قارن " فاطمةُ " العربية التى تُرَخَّمُ "فاطمُ") . أما " مارى " فمعناها بالآرامية " الربُّ " ، أو "رَبِّ !" على النداء والمناجاة والابتهال ، أما "أَمَ " الآرامية فهى نفسها " أَمَة " العربية ، مؤنث العبد ، فهى عليها السلام " أَمَةُ الرب " . والذى يستوقف النظر أنها عليها السلام فسرت اسمها بهذا المعنى نفسه فيما يرويه على لسانها لوقا فى إنجيله ، ولم يفطن إليه من قارئى هذا الإنجيل أحد : " فقالت مريم هو ذا أنا أَمَةُ الرب . ليكن لى كقولك . فمضى من عندها الملاك " (لوقا ١/٣٨) ، ولو تَرْجَمْتَ عبارة " أنا أمة الرب " إلى الآرامية ، لغة مريم وعشيرتها ، لجاز لك أن تقول باللسان الآرامى : أَنَا لـ " مارى" أَمَا [١] ، أى أنا للرب أمة . أما القرآن فيقول : " يامريم اقنتى لربك " ومعنى القنوت فى العربية كما يقول معجمك العربى هو " الإقرارُ بالعبودية لله " ، كما تقرأ فى القرآن فى مناسبة تسمية مريم قوله عز وجل : { **فلما وَضَعَتْها قالت رَبِّ إنى وضعتُها أنثى ـ واللهُ أعلمُ بما وَضَعَت ـ وليس الذكرُ كالأنثى وإنِّى سَمَّيْتُها مَرْيَم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم . فَتَقَبَّلَها**

(١) العبارة الآرامية : (أنا لـ "مارى" أما) تَنْحَلُّ عناصرُها إلى العربية كما يلى : أنا = أنا، لـ = لـ ، مارى = الرب، أما = أمة .

ربُّها بقَبُول حَسَنٍ وأنبتَهَا نباتاً حسناً } (آل عمران : ٣٦ ــ ٣٧) . كانت أم مريم رضى الله عنهما فى الآية ٣٥ من سورة آل عمران قد نَذَرَتْ ما فى بطنها للرب مُحَرَّرا ، أى خالصا لعبادته عز وجل ، أى للخدمة فى المعبد ، عابدا مُتَحَنِّفا ، وكانت ترجوه ذكَراً تَهَبُهُ لله ، وسَأَلَتْهُ عز وجل أن " يتقبل منها " . وتُنَبِّئُكَ الآيتـان ٣٦ و ٣٧ بأن المولود جاء أنثى على خلاف رجائها فَخَشِيَت ألا يَصِحَّ نذرُها بأنثى فقالت " ربِّ إنى وضعتها أنثى " ، وكأنها حين فوجئت قالت : " أَمَةٌ يا ربِّ أمَة !" ، وهى بالآرامية : " مارى ! أمَا ! " ، ولكن العالِمَ بما وَضَعَت " تقبلها بقبول حسن " ، فهو عز وجل هكذا أراد وقَدَّر ، ليُخْرِجَ منها " عِلْمٌ للساعة " [1] ، عيسى عليه السلام ، المولودُ لغيرِ أبٍ ، مولوداً من عذراءَ لا تُزَنُّ بريبةٍ ، كما قال عز وجل: {يامـريمُ إنَّ اللهَ اصْطَفاكِ وطهَّرك ، واصطفاكِ على نساءِ العـالمين} (آل عمران : ٤٢) .

❐❐❐

أظُنُّكَ أيها القارىء العزيز قد تَهَيَّأْتَ الآن لمصاحبتى فيما بَقِيَ من فصول هذا الكتاب، لنحلل معا العَلَمَ الأعجمى فى القرآن ، عَلَما عَلَما : معناهُ فى لغة أصحابه، قولُ مفسرى القرآن فيه (إن وجد) ، تفسيرهُ من القرآن بالقرآن ، وهو المقصد النهائى لهذا الكتاب الذى نكتب .

❐❐❐

أما من حيث ترتيب تناولنا لتلك الأسماء الأعلام عَلَما عَلَما، فقد كانت أمامنا خيارات ثلاثة:

الخيارُ الأول :أن نتناولها بترتيب " ألفْبائى " ، أى بترتيب أوائلها على حروف المعجم العربى ، فنبدأ بإبراهيم وننتهى بيحيى عليهما السلام مُراعين ذات الترتيب فى أحرف الاسم التالية للحرف الأول ، فيجىء بعد إبراهيم "إبليس" وبعد "إبليس" آدم ، وبعد آدم "آزر" ، الخ .

---

(١) أى أنه عليه السلام من أشراط الساعة كما قال الصادقُ المصدوق صلى الله عليه وسلم ، وكما فى القرآن : {وإنَّه لَعِلْمٌ للساعة فلا تَمْتَرُنَّ بها واتبعونِ } (الزخرف : ٦١) .

الخيارُ الثانى : وهو تناولُ الأعلام بترتيب نوعها ، كأن نبدأ بأعلام الذات ، ونُثَنِّى بأعلام الجنس، وننتهى بأعلام الموضع .

الخيارُ الثالث : وهو تناول تلك الأعلام بترتيبها التاريخى ، فنبدأ بالملائكة وآدم ، وننتهى بعيسى بن مريم ، صلوات الله وسلامه على ملائكته ورسله وأنبيائه ، غير مفرقين بين علم الذات وعلم الجنس وعلم الموضع ، بل يجىء كلٌّ فى إطاره ، فتجىء مثلا التوراة ومصر مع موسى ، ويجىء هود مع عاد ، وثمود مع صالح، وشعيب مع مدين والجُودِىُّ مع نوح ، والإنجيلُ مع المسيح بن مريم .

وقد آثرنا فى هذا الكتاب الأخذ بالخيار الثالث الذى يتناول الأسماء الأعلام بترتيبها التاريخى ، لأن الخيار الأول ـ الألفبائى ـ وإن كان يُيَسِّرُ رُجوع القارىء إلى الاسم العلم بترتيبه " المُفَهْرَس " ، يعيبه أن ترتيب الأسماء الأعلام ترتيبا أُصَمَّ على حروف المعجم يقتطعها من إطارها الجغرافى ـ التاريخى ـ اللغوى ، فتجىء توراة موسى العبرانية بعد إنجيلِ عيسى الآرامىِّ اليونانى، ويجىء عيسى آخرُ أنبياء بنى اسرائيل قبلَ نوحٍ خليفة آدم ، بل وقبل أمه مريم رضى الله عنها . أما الخيار الثانى الذى يفصل بين علم الذات وعلم الجنس وعلم الموضع ، فيعيبه أنه يقطع مثلا ما بين الإنجيل وصاحبه ، وبين مدين ورسولهم ، وبين فرعون ومصر .

أما الخيار الثالث ، الذى يحترم وحدة الأرض والتاريخ واللغة ، ويُراعِى التسلسل التاريخى للأسماء الأعلام ، فهو فى رأينا أفضل الخيارات الثلاثة جميعا ، لأنه يضع الاسمَ العَلَم على أرضه ، وبين مُعاصريه ، حَيّاً مُشَخَّصا ، يُفَسِّرُ بعضُهُ بعضا . وهو النهجُ الذى نلتزمه فى أغراض هذا البحث .

أما "الترتيب التاريخى" فنحن نستدلُّ عليه من القرآن حينَ يَنُصُّ القرآنُ عليه، ضاربين صفحا عما سواه ، وإن خالفه وتعارض معه ، ونستدلُّ عليه من "التوراة" حين لا يَنُصُّ عليه القرآن . أما أعلامُ الإنجيلِ الخمسة التى يتناولُها البحث " زكريا ـ يحيى ـ عمران ـ مريم ـ عيسى ، فترتيبهم التاريخى منصوصٌ عليه فى القرآن ، الواحدَ بعد الآخر ، ترتيباً يتفقُ فيه الإنجيل مع القرآن .

ولأن الملائكةَ رضوان الله عليهم الذين يتناولُهم هذا البحث : جبريل وميكال

ومالك وهاروت وماروت ، هم خارجَ الزمانِ والمكان ، وكذلك "الفردوس" ، "عدن" ، "جهنم" ، "إبليس" ، فسوف نفتتح بحثنا بفصلٍ يتناولُ هذه الأعلام التسعة مع "آدم" عليه السلام .

ولأنه ليس فى القرآن ـ مابين آدم إلى نوح ـ أعلام ، باستثناء " ادريس " عليه السلام ، الذى اختلف المفسرون فى ترتيبه التاريخى على عمود الأنبياء ، أهو قبل نوح أم بعده ، وإن كانت الكثرةُ على أنه قبل نوح ، فنحن نُلحِقُهُ أيضا بالفصل الذى يتحدث عن " آدم " ، لا على وجه التسليم لرَأى الجمهور ، وإنما استدلالا عليه باسمه فى التوراة ، لأن " ادريس " فى رأينا ترجمةٌ قرآنية دقيقة للفظة " أخنوخ " ، جَدّ " لامك " أبى نوح ، و " أخنوخ " أصلُها العبرانى " حَنُوك " (التى تنطق كافها خاءً لاعتلال ما قبلها) ، ومعناها " المُحَنَّك " المحنوك ، وسيأتى .

أما باقى الأعلام من نوح إلى عيسى عليهما السلام ، فتجىء مُوزَّعَةً على خمسةِ فصول ، بترتيبها التاريخى .

وكما لعلك حدست ، سيأتى تفسيرُ أعلام الجنس وأعلام الموضع فى سياقها المناسب ، أى فى سياق تفسير أعلام الذوات المتصلة بها .

واللهُ سبحانَـهُ ولِىُّ التوفيق .

الفصل الرابع

آدم في الملأ الأعلى

يتناول هذا الفصل تفسير اثنى عشر اسما علما ، هى : جبريل ـ ميكال ـ مالك ـ هاروت ـ ماروت ـ بابل ـ الفِردَوْس ـ عَدْن ـ جَهَنَّم ـ إبليس ـ آدم ـ إدريس .

□□□

يتقدم الملائكةُ ، والجِنُّ أيضا ، فى الخلق على آدم ، أى كانوا قبل أن يُوجَد . تستدل على هذا بمثل قوله عز وجل : { **إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بَشَراً من طين . فإذا سَوَّيْتُهُ ونفختُ فيهِ من روحى فَقَعُوا له ساجدين . فسجد الملائكةُ كُلُّهُم أجمعون . إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين . قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خَلَقْتُ بيَدِيَّ؟ أستكبرتَ أم كنت من العالين؟ قال أنا خيْرٌ منه : خَلقتنى من نار وخَلقته من طين . قال فاخرجْ منها فإنك رجيم . وإن عليك لعنَتِى إلى يوم الدين . قال رَبِّ فأنظِرْنى إلى يومِ يُبْعَثون . قال فإنك من المُنْظَرِين . إلى يومِ الوقتِ المعلوم . قال فَبِعِزَّتِكَ لأغوِيَنَّهُم أجمعين . إلا عبادَك منهم المخْلَصِين . قال فالحقُّ والحقَّ أقولُ . لأمْلأَنَّ جَهَنَّم مِنكَ وممن تَبِعَكَ منهم أجمعين** } (ص : ٧١ ـ ٨٥) .

تستدلُّ من هذا ، ومثلُهُ فى القرآنِ كثير ، على أن الملائكة رضوان الله عليهم أسبقُ وجودا من آدم ، لأنهم نُبِّئُوا بخلقه من قبلِ أن يُخلَق ، وأُمِرُوا بالسجود لَهُ من قبلِ أن يَشْرَعَ اللهُ عز وجل فى خَلْقِهِ ، وقبل أن يَفْرُغَ عز وجل من تسويته ، ويَنْفُخَ فيهِ من روحه .

وتستدل منه أيضا على أن " إبليس " كان موجودا فى الملأ الأعلى يوم فرغ الله عز وجل من خلق آدم ، بدلالة تَوَجُّهِ الأمر إليه بالسجود لآدم . وإبليس من الجن بمقتضى قوله عز وجل : { **وإذْ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجِن ففسق عن أمر ربِّه** } (الكهف : ٥٠) . بل الجنُّ أسبقُ وجودا من الإنس بنص قاطع فى القرآن : { **ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حَمأٍ مسنون . والجَانَّ خلقنَاهُ من قبلُ من نار السَّمُوم** } (الحجر : ٢٥ ـ ٢٦) ، والجانُّ هم الجنُّ بلا خلاف .

وتستدل من هذا أيضا على أن اسم " جَهَنَّم " ، عَلَماً على النار التى يُعَذَّب بها العصاة والكفرة كان معلوما لإبليس لحظةَ أن " فسق عن أمر ربه " ، لأن الله عز

وجل تَوَعَّدَهُ بها هو ومن اتبعه ، والوعيدُ لا يكون إلا بموجودٍ معلوم ، فَدَلَّ هذا على أن جهنم أسبق وجودا من آدم ، لأن إبليس عَلِمَ أمرها قبل أن يَتَأَبَّى على السجود ، أى قبل النفخِ فى آدم .

بل الجَنَّةُ أيضا ، أعنى "الفردوس" ، "عدن" ، أسبقُ وجوداً من آدم ، لأن الحكم باللعن تضمن طردَ ابليس منها لحظةَ تَأَبِّى على السجود : {**قال فاهبط منها، فما يكون لك أن تتكبر فيها ، فاخرج ! إنك من الصاغرين**} (الأعراف : ١٣)، وقوله عز وجل عَقيبَ هذا مباشرة لآدم : {**ويا آدمُ اسكن أنت وزوجُك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تَقْرَبا هذه الشجرةَ فتكونا من الظالمين**} (الأعراف: ١٩). وهى نفسها الجنة التى أهبطَ منها آدمُ وزوجُه بإتيان ما نُهيَا عنه ، استجابةً لوسوسة إبليس . وهى نفسُها أيضا الجنة التى وُعِدَ بها المتقون يوم تُوَفَّى كل نفسٍ ما كسبت . وما "عَدْنٌ" إلا نعتٌ لتلك الجنة على الإضافة : لا "عَدْنٌ" فى كل القرآن إلا ولفظ الجنة مضافٌ إليها ، منعوتٌ بها . أما "الفِرْدَوْس" التى وردت مرتين فقط فى كل القرآن ، فهى كما قال صلى الله عليه وسلم "أَوْسَطُ الجنة" . وسيأتى بيانُ هذا فى موضعه .

□□□

ومن المفسرين[١] من غلبت عليه اسرائيلياته فظن أن "إبليس" لم يكن من الجن، وإنما كان من الملائكة [٢] ، بل كان رفيع الرتبة فيهم ، فكان قائد جند الملائكة الذين حاربوا الجن حين أفْسَدَ الجنُّ فى الأرض قبل خلق آدم ، فدخله من ذلك خُيَلاء وعُجْبٌ أهلكاهُ حين أُمِرَ بالسجود لمن ظن أنه خيرٌ منه . ومنهم من قال بل كان إبليسُ من الجن الذين حاربهم الملائكة فأسروه صغيرا وَرُبِّيَ فيهم، حتى أَسْجَدَ الله الملائكةَ لآدم فشملَهُ الأمرُ بالسجود. وهى تَعِلاتٌ لتبرير وجود إبليس فى الملأ الأعلى يوم أُمِرَ الملائكةُ بالسجود لآدم ودخوله من ثم فى جملة المأمورين بالسجود لآدم ، أو لتبرير الاستثناء فى قوله عز وجل : { **فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس** ....} (ص : ٧٣ ــ ٧٤) . وهى فى رأينا تعلات افتعلوها لحل إشكالٍ ما كان لهم أن

(١) راجع فى هذا ما حكاه القرطبى فى تفسير الآية ٣٤ من سورة البقرة .

(٢) هذا هو قول أهل الكتاب فى " إبليس " قبل أن يُبْلِس . والقرآنُ على عكسه ، كما سترى . ولم يُؤثَر عن النبى صلى الله عليه وسلم فيه حديث ، فليس فى الحديث الصحيح ما يُعارض القرآن .

يفتعلوه ، فقد نص القرآن على أن إبليس كان من الجن : {**إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه**} (الكهف : ٥٠) . ولم يخبر القرآن ولا الحديث الصحيح بأن صنف الجن كانوا قبل زلة إبليس ممنوعين من دخول الجنة . أما القول بأن إبليس كان من الملائكة المأمورين بالسجود بدليل استثنائه بالحرف "إلا" ، فليس بشيء . لأن "إلا" هاهنا يتعين فهمها بمعنى "لكن" ـ وهذا من فصيح العربية ـ أى سجد الملائكة، لكن إبليس لم يسجد . يتعين هذا لأن النص القرآنى المحكم ، أى الذى لا يحتمل إلا معنى واحدا فقط ، يحكم النص القرآنى الذى يحتمل معنيين فأكثر ، وليس لعبارة "كان من الجن" إلا هذا المعنى القاطع [١] .

أما دخول إبليس فى جملة المأمورين بالسجود لآدم ، رغم اتجاه الأمر بالسجود للملائكة وحدهم وليس إبليس منهم ، فلك أن تفسره على أحد قولين :

الأول ـ الذى نُرَجّحُه ـ أن الأمر للملائكة بالسجود يتجه الى كل من شَهِدَه حتى النَّبْتِ والشجر ، فهو سجود الطاعة والإذعان لله عز وجل ، لا لآدم ، وإن كان مناسبةً لتشريفه ، وإشعاراً بما سيكون من شأنه . فلا يجوزُ لكائنٍ مَنْ كان أن يَحْضُر سجدةً لله عز وجل فى غير الصلاة ولا يَسْجُد . ولا يجوزُ لكائنٍ مَنْ كان أن يَشْهَد الملائكة سُجَّداً ولا يَخِرُّ على جَبْهَته . وما يكونُ لك أن تتخيل الملائكة سُجَّدا خُشَّعاً وإبليسُ منتصبٌ فى مكانه لا يَخْنَع . ومَا كانت هذه لتفوتَ إبليس لولا أنَّ الحقْدَ أطغى قلبه ، وأعمى بصيرتَه . لم تكن هذه السجدةُ امتحانا للملائكة ، فقد عَلِمَ عَزَّ وجل أنهم لا يَعصون له أمرا ، ولكنها كانت امتحانا لإبليس ، فَكَشَفَ اللعينُ عن مكنونةِ نفسه . فَأثِمَ بها فى حق الله ، لا فى حق آدم ، وأصَرَّ عليها فلم يعتذر منها ولم يَتُبْ ، بل استدرك على مولاه : {**قال لم أكن لأسْجُدَ لبشرٍ خلقتَهُ من صلصالٍ من حَمَأٍ مَسنُون**} (الحجر : ٣٣) ، أى ليس لك أن تأمرنى بهذا ، فأنا أرْفَعُ منه ، يُحيلُ على خالقه عز وجَل أن يَحْكُمَ فى مُلكه كيفما شاء ، ويُوَصِّلُ حُجَّتَهُ بما يُفَنِّدُها ، فيقول : {**خلقتنى من نارٍ وخلقته من طين**} (ص : ٧٦) مُقِراً بأن اللهَ خَالقُه ، فكيف يَعصيه ؟

---

(١) من المفسرين (راجع " القرطبى " فى نفس الموضع) من تظارف مُوَفِّقًا بين النصين فقال بل كان إبليس مَلَكاً من طائفةٍ رفيعة القدر من الملائكة تدعى " الجِنَّة " وهو تظارفٌ ممجوج .

أما على القول الثانى فهو أن إبليس أُمِر بالسجود لآدم أمْراً مُباشِراً لحظةَ إسجاد الملائكة لآدم، ولم يَنُصّ القرآنُ عليه اكتفاءً بدلالة ما تلاه من قوله عز وجل : {**قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ؟** } (الأعراف : ١٢) .

كيفما كان الأمر ، فإبليسُ ليس بالقطع من الملائكة رضوان الله عليهم ، فهم {**لا يسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعملون**} (الأنبياء : ٢٧) . ولم يُسَوِّ القرآنُ بين الجن والملائكة ، بل هو يضع الجنَّ والانس فى زُمْرَةٍ واحدة ، هى زُمرة المبتلَيْنَ بالطاعة والمعصية ، من كليهما مؤمنٌ وكافر ، ومنهم الفاسقُ والبارُّ ، فريقٌ فى الجنة وفريقٌ فى السعير ، مصداقُ هذا قوله عز وجل على لسان نَفَرٍ من الجن : { **وأنَّا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسْلَمَ فأولئك تَحَرَّوا رَشَدا . وأما القاسطون فكانوا لجهنمَ حَطبا** } (الجن : ١٤ ــ ١٥) ، ومنه أيضا سورةُ الرحمن التى تُخاطبُ الإنسَ والجنَّ على سواء ، وفيها : { **فيهِنَّ قاصراتُ الطرفِ لم يَطْمِثْهُنَّ إنسٌ قبلهم ولا جانٌّ** } (الرحمن : ٥٦) ، أى أبكارٌ لأصحاب الجَنَّة من الإنس لم يطمثهن إنسٌ فيمن طَمَثُوا من نساء الإنس ، وأبكارٌ لأصحاب الجَنَّةِ من الجِنّ لم يَطْمِثْهُنَّ جانٌّ فيمن طَمَثُوا من نساء الجن [(١)] .

وهذا يفسر لك بأجلى بيان قولَهُ عز وجل : { **إلا إبليسَ كان من الجن ففسق عن أمر ربه** } (الكهف : ٥٠) ، التى تُفْهَمُ على التفسير كما تفهم على الخبر ، أى أنه لو لم يكن من الجن لما فسق عن أمر ربه ، ولكنه كان فى زُمْرَةِ المبْتَلينَ بالطاعة والمعصية ، فَغَلَبَتْهُ شِقْوَتُه ، وأهلكَتْهُ كبرياؤه ، ولا يَظْلِمُ ربُّكَ أحدا .

ولكن إبليس ـ وقد خَرَّب آخرته بيديه ـ استمهل اللهَ عز وجل ألا يَزُجَّ به من فوره فى دار العذاب ريثما ينتقم لنفسه من آدم وبنيه إلى قيام الساعة ، متبجحا على الله عز وجل بأن نسب إليه غوايتَهُ بآدم : { **قال فبما أغويتنى لأقْعُدَنَّ لهم صراطك المستقيم . ثم لآتِيَنَّهُم من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجدُ أكثرهم شاكرين** } (الأعراف ١٦ ــ ١٧) . لم يطلب التوبة والمغفرة ، بل آثر أن يزداد رجسا إلى رجسه . لم يقل فأنظِرنى إلى يومِ يبعثون

---

(١) وليس كما يذهب إليه أهل الخرافة والشعوذة ورواة الأساطير عن إلمام رجال من الجن بنساء من الإنس، أو العكس .

أَنْدَمْ وأتُب ، بل قال فلأضِلَّنَّهم كما ضَلَلتُ ، ولأغوِيَنَّهم كما غَوَيْتُ ، فنكون فى النار سواء : لا أهلك أنا ويَنْجُو آدمُ وبَنوه . ولو تاب إبليس لتاب الله عليه ، ولكنه الحسدُ الأسود ، والحقد المُهلِك .

وليست زلة إبليس بالتى تَعْدِلُ زلة آدم ، لأن إبليس زَيَّن المعصيةَ لآدم ، فكان لإبليس كِفْلٌ منها ، وشِرْكٌ فيها . أما إبليس فَزَلَّ بنفسه ، أَزَلَّتْهُ كبرياؤه ، فقصد المعصية قصدا ، واستكبر بها استكبارا .

كانت زلة آدم زلة الغافل الناسى : { **ولقد عهِدنا إلى آدم من قبلُ فنسى** } (طه:١١٥). وكانت زلة إبليس على عِلْم ، ولا أفدحَ من سقطةِ عالِم .

على أن الدرس المستفاد من الزلتين واحد : إنه درس الطاعة ، أَمَرَكَ مولاك فأطِعْه ، لا تتمحك بطلب العلة ، وكأنك مُفَوَّضٌ فى الطاعة والمعصية ، أو كأن الطاعة والمعصية رَهْنٌ باستحسانك .

❑❑❑

ولا شك أن إبليس كان قبل أن " يُبْلِس " فى عِداد الجن المُؤمن ، يعمل فى طاعة الله عز وجل، بل سَكَن الجنة ، وجَاوَرَ الملائكة رضوانُ الله عليهم ، بدليل طرده منها فور عصيانه : { **قال فاهبط منها ، فما يكون لك أن تتكبر فيها ، فاخرج ! إنك من الصاغرين** } (الأعراف : ١٣) خرج منها الرجيم {**مذءوما مدحورا** } (الأعراف : ١٨) لإصراره على المعصية ، كما خَرَجَ منها أيضا آدمُ وزوجُه حين استجابا لأغواء إبليس . ولكن آدم وزوجَه اعترفا بذنبهما وسألا اللهَ الرحمة والمغفرة : { **قالا ربنا ظلمنا أنفُسَنا وإنْ لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين**} (الأعراف : ٢٣) . طلبا التوبةَ فلقنهما الله عز وجل ما يسألان به التوبة: {**فتلقى آدمُ من ربِّه كلماتٍ فتاب عليه، إنه هو التواب الرحيم**} (البقرة: ٣٧). ولم يسألها إبليس ، لأنه شغل بعداوته لآدم عما سواها ، وإن كان فيها هلاكه هو ذاتَ نفسِه . وهذا هو الضلالُ المبين .

أخرج الله آدم وزوجه من الجنة تَائِبَيْن ، قد أخذ عليهما العهدَ أن يُخلِصا لهُ الدين . وما الدنيا بكل ما عليها إلا تمحيصٌ من الله عز وجل لعباده أيُّهُم باقٍ على

هذا العهد ، مُخلصٌ لهُ الدين. وما كان آدمُ الذى شَهِدَ وعاين بالذى ينخدعُ مرةً أخرى بإبليس ، فَيَعْصى الله فى الأرض بعد زَلّتِه فى الجنة ، ولكن الاختبارَ لبنيه .

ولأن نسل آدم لم يشهد ولم يعاين : لم يشهد إسجادَ اللهِ الملائكةَ لآدم ، ولم يشهد عصيان إبليس ، ولم يشهد زلة آدم ، ولم يسمع إبليس يستعلن له بالعداوة إلى يوم الدين ، فما كان من العدل أن يُتركوا فى جهالتهم ، يَصولُ فيهمُ إبليسُ ويجول . بل شاء الله عز وجل ـ عدلاً منه ورحمة ـ أنْ يُودِع فيهم دينَ الحقِّ فِطرةً ، فأشهدهم قبل الاختبار على أنفسهم : { **وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذُرِّيَّتَهُم وأشهدهم على أنفسهم : ألستُ بربكم ؟ قالوا بلى ! شَهِدْنا ! أنْ تقولوا يومَ القيامة إنَّا كنا عن هذا غافلين** } ﴿الأعراف " ١٧٢﴾ ، ووَصَّى بها آدمَ حين مهبطَهُ من الجنة ، وقد أَهْبَط معه إبليس عَدُوّاً : {**قال اهبطا منها جميعا ، بعضُكم لبعضٍ عدو ، فإما يَأتِيَنَّكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يَضِلُّ ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشةً ضَنْكًا ، ونحشره يوم القيامة أعمى**} ﴿طه : ١٢٣ ــ ١٢٤﴾ ، فكان آدم عليه السلام أوّلَ الرسل والأنبياء، يَقُصُّ ما كان : { **يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة** } ﴿الأعراف : ٢٧﴾ ، وتتابعت الرسل تترى ، كى لا تكون للناس على الله حُجَّةٌ من بعد الرسل ، ومن ضل من بعد فإنما يَضِلُّ عليها ، وما ربك بظلام للعبيد .

❑❑❑

ويرى المفسرون بحق أن إبليس لم يُسَمَّ " إبليس " إلا بعد أن أبْلَس ، لأن هذا الاسم ـ إن اشتققته من العربية ـ فيه مَذَمَّة ، والمذمةُ تكون بعد اجتراح الذنب لا قبله. وهى تكون مساويةً للذنب ، دالّةً عليه ، أو صِفَةً لصاحبه بما آل اليه . ويروى المفسرون أن إبليس قبل أن يُبلِس كان اسمُهُ " عَزازِيل " ثم أبْلَسَ بعد ، ولم يتعرض المفسرون لمعنى "عزازيل" هذه ، لأنهم لا يعرفون العبرية التى يسهل اشتقاق هذا الاسم منها ، فتفهم أن الرواية من أقاصيص أهل الكتاب ، تَصِحُّ أو لا تصح ، فالله عز وجل أعْلَمُ بغيبه. ونحن فى هذا الكتاب لا يعنينا فى المقام الأول اسم إبليس قبل أن يُبْلِس، لأننا لا نتعرض إلا للأعلام المنصوص عليها فى القرآن ، لا المروية فى غيره .

ولكن الطريف أن " عزازيل " هذه اسمٌ عبرانى مُركّب (عَزَاز + إيل) يفسره علماء العبرية بمعنى " الذى أعـزه الله " ، فهو " العزيزُ بالله " . وهو عَلَمٌ وَقَعَت التسميةُ به فى العبرية ، ومثْلُه " عُزَيْئيل " (عُزَى + إيل) ، أى " عزَّةُ الله " وكأن اللعينَ حين أقسَم بعزة الله : { **قال فَبِعِزَّتِك لأُغْوِيَنَّهُم أجمعين** } ﴿ص : ٨٢﴾ ، كان يُورِي باسمه هو ، يُقْسِم بنفسه ، لا بعزة الله عز وجل . والله بغيبه أعلم .

والذى يجب التنصيص عليه فى هذا السياق ، هو النَّعْىُ على أهل التفسير والسِّيَر ، وأيضا على أهل الفن والفكر والأدب ، الذين تناقلوا ما دَسَّه إبليس على أوليائه من أساطير وتهاويل لايخلو منها " أدَبُ الخُرافة " فى كل الشعوب ، تتحدث عن "أمجاد" إبليس قبل أن يُبلس ، تريد تفخيمه وتعظيمه وغرس المهابة منه فى صدور الناس، حتى خَصُّوه بأضْوَأِ كوكبٍ فى السماء الدنيا ، كوكب الصُّبْح! أى كوكب " الزُّهَرَة " ، وجعله بعضهم نِداً لله ، وجعله بعضُهم شَهيدَ البطولة فى محنة السجود لآدم ، وأوَّل من قال "لا!" . ليس التَّنَكُّرُ للخالق عز وجل بطولة ، لا صحيحة ولا زائفة ، وإنما هو وَضَاعة . هذا كلُّهُ فُسوق وصَغار : لا يجوز لمؤمن تجميلُ ما قَبَّحَهُ الله ، ولا يجوز لمؤمن إعلاءُ ما وَضَعَه الله أسْفَلَ سافلين . لا يجوز لمؤمن تمجيدُ ما رَذَّلَهُ الله ، ولا يجوز لمؤمن تعظيمُ من لعنه الله ، ناهيك بموالاة عَدُوِّ الله . بل لا يجوز لعاقل موالاةُ من أقسم لَيَجُرَّنَّهُ وراءَه إلى قاعِ جَهَنَّم .

أيَّما كان الأمرُ ، وأيَّمَا كان حالُ إبليس قبل أن يُبلس ، فقد ضَرَبَ لك اللهُ بإبليس المَثَل: لا يَتَعَظَّمَنَّ أحدٌ على الله ، ولا يستكبرنَّ أحدٌ على طاعة الله ، ولا يَسْتَنْكفنَّ أحدٌ من الخضوع لله . قد هلك بها إبليس أوَّلَ هالك ، فحَذار أن تَزِلَّ بِهِ ، فَتَشْرَكهُ المصيرَ الذى اختار لنفسه .

لا يَتَرَحَّمَنَّ أحدٌ على إبليس ، وقد أقسمَ لا يَرْحَمُك . ولا يَتَبَاكَيَنَّ أحد على إبليس ، فلم تَدْمَعْ لإبليسَ عَيْن : كان إبليس عَدُوَّ نفسه ، قبل أن يكون عَدُوَّك .

❑❑❑

أما الملائكةُ رضوانُ الله عليهم ، ولا يعلمُ جنودَ رَبِّك إلا هو ، فقد سَمَّى القرآن منهم خمسة : جِبريلُ ـ مِيكالُ ـ مالِك ـ هاروتُ ـ ماروت .

والملائكةُ من غَيْبِ الله عزَّ وجَلَّ . وغيبُ الله عز وجل حُضُورٌ غَيْرُ مَشْهُود ، إلا من ارتضى من نَبِيٍّ أو رَسُولٍ . إنهم جند الله عز وجل ، العاملون بأمره ، المتنزلون برسالاته ، الساعون فى قضائه . منهم حَمَلَةُ عرشِ ذى الجلال، ومنهم الحَفَظَةُ الكَتَبَة ، ومنهم السَّفَرَةُ الكِرَامُ البَرَرَة . أثنى الله عليهم فى القرآن الثناءَ الحسن ، ونعتهم بِكُلِّ جميل : امتدحهم بالإخبات والطاعة : { **لا يسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعملون**} (الأنبياء : ٢٧) وضرب بهم المثل فى القَدْرِ والقُدرة : { **قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ، ولا أقول لكم انى مَلَك ، إن أتبع إلا ما يُوحَى إلىَّ** } (الأنعام : ٥٠) وأنْعَمَ عليهم بالقُرب : { **لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون** } (النساء : ١٧٢) ، وخَصَّهُم بالجِوَارِ منه عز وجل : { **إن الذين عند ربك** } (الأعراف : ٢٠٦) ، وشَرَّفَهُم بالمَعِيَّة : { **وجاء ربك والملك صَفا صفا** } (الفجر : ٢٢) وبَسَطَ لهم فى الخَلْق : {**الحمدُ للهِ فاطرِ السموات والأرض ، جاعل الملائكة رُسُلاً أولِى أجنحة مَثْنَى وثُلاثَ ورُبَاعَ، يَزِيدُ فى الخَلقِ ما يشاء** } (فاطر : ١) .

وهم رضى الله عنهم رُتَبٌ ومَراتب ، كما تجد فى قوله عز وجل : { **والمَلَكُ على أرجائها ، ويَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فوقهم يومئذٍ ثمانية** } (الحاقة :١٧) ، أعلاهُم الروحُ الأمين ، وأدناهم إليكَ رفيقُ عُمرِك ، الحافظُ الكاتب : { **إنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عليها حافظ** } (الطارق : ٤) . وهما اثنان : { **ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسُه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد . إذ يتلقى المُتَلَقِّيَان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قولٍ إلا لديه رقيبٌ عتيد** } (ق : ١٦ ــ ١٨) ، لا يَتْرُكانك حتى يُسْلِمَاك الى ما قَدَّمْتَ لنفسك : { **وجاءت كُلُّ نفس معها سائقٌ وشهيد** } (ق : ٢١) . كُلُّهم مِنْ أمرِ الله ، وبأمر الله ، وفى أمر الله ، محمودٌ بالطاعة فيما أُمِر ، سواءٌ ملائكةُ الرحمة وملائكةُ العذاب : {**يا أيها الذين آمنوا قوا أنْفُسَكُم وأهليكم نارا وَقُودها الناسُ والحجارة ، عليها ملائكةٌ غِلاظٌ شِداد ، لايعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون** } (التحريم : ٦) ، يمتدحهم بالغلظة والشدة فى طاعته عز وجل ، صدوعا بأمره ، وتحقيقا لوعيده . ومنهم أيضا رضى الله عنهم الذين يصلون عليك : {**هو الذى**

يُصَلّى عليكم وملائكتُه } (الأحزاب : ٤٣) ، ويستغفرون لكل من آمن : {**الذين يَحْمِلُون العرشَ ومَنْ حَوْلَهُ يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به، ويستغفرون للذين آمنوا : ربنا وَسِعْتَ كُلَّ شيءٍ رَحْمَةً وعِلْما ، فاغفر للذين تابوا واتّبعوا سبيلك ، وقِهِم عذابَ الجحيم . ربنا وأدْخِلْهُم جنات عَدْنٍ التى وعدتهم ومن صَلَحَ من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، إنك أنت العزيز الحكيم . وقِهِمُ السيئات ، ومن تَقِ السيئات يومئذ فقد رحمته ، وذلك هو الفوزُ العظيم** } (غافر : ٧ ــ ٩) . والملائكة الذين يستغفرون للذين آمنوا فى هذه الدنيا ، يَتَلَقَّوْنَهُم فى الجنة بالسلام ، وقد استجاب اللهُ دعاء الملائكةِ فيهم : {**جناتُ عَدْنٍ يدخلونها ومن صَلَحَ من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، والملائكة يدخلون عليهم من كُلِّ باب : سلامٌ عليكم بما صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدار**} (الرعد : ٢٣ ــ ٢٤) . والسلام الذى هو تحيةُ الملائكةِ رضوان الله عليهم لأهل الجنة ، نَشيدٌ فى الجنَّةِ دائم : { **لا يَسمعون فيها لَغْواً ولا تأثيما . إلا قيلاً سلاماً سلاماً** } (الواقعة : ٢٥ ــ ٢٦) .

❑❑❑

ولأن الملائكةَ رضوان الله عليهم أقْرَبُ الخَلْقِ من الله عز وجل ، فهم أعْبَدُ الخلق لله : { **ومَن عِنْدَه لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون . يُسَبِّحُون الليلَ والنهارَ لا يَفْتَرُون** } (الأنبياء : ١٩ ــ ٢٠) ، لا يَمَلُّون ولا يَسأمُون : { **فإن استكبروا فالذين عند ربك يُسَبِّحُون لَهُ بالليلِ والنهارِ وهم لا يسأمون**} (فصلت : ٣٨) . ولأنهم رضى الله عنهم أعْرَفُ الخلق بالله عز وجل، فهم أخشاهُم له : {**ويُسَبِّحُ الرعدُ بحمده ، والملائكةُ من خيفته**} (الرعد : ١٣) ، {**وهم من خشيته مُشفِقون** } (الأنبياء : ٢٨) . وهم على مكانتهم رضى الله عنهم ورضوا عنه لا يتجاوزون أقدارهم، فلا يسبقونه عز وجل بالقول ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى: {**وكم من مَلَكٍ فى السموات لا تُغنى شفاعتُهم شيئا إلا من بعد أن يَأذَنَ الله لمن يشاءُ ويَرْضَى** } (النجم : ٢٦) .

عَصَمَ اللهُ الملائكة من أن يفتتنوا بأنفسهم ، ولكنَّ من الناس من افتتنوا بهم فعبدوهم ، بل اتخذ بعضهم من الملائكة أصناماً إناثاً آلهة ، من مثل العُزّى واللاّتِ

ومَنَاة ، وقد ردَّ الملائكةُ على أولئك الذين ظلموا أنفسهم بعبادتهم : {**ويومَ يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون؟ قالوا سُبْحَانَك أنت وليُّنَا من دونهم . بل كانوا يعبدون الجن ، أكثَرُهُم بهم مؤمنون**} (سبأ : ٤٠ ــ ٤١) .

هذا قولُ الملائكة رضوان الله عليهم فيمن عبدوهم من أهل الجاهلية الأولى، وهو قولهم فيمن يعبدون إلى اليوم "روحَ القُدُس" جبريلَ عليه السلام : {**كلا ، سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا** } (مريم : ٨٢) .

❐❐❐

ومن الملائكة أيضا من جعله الله فتنةً وابتلاء . ذكَر اللهُ من هؤلاء فى القرآن اثنين : هاروتَ وماروت .

وشبيهٌ بفتنة هاروت وماروت فى بابل ، فتنةُ السامرىِّ الذى صَنَع لبنى إسرائيل فى التِّيه "عجْلاً جسداً لَهُ خُوار" . صَنَعَهُ من ذَهَبِ القوم . أوقد عليه ثم ألقى فيه "قبضةً من أَثر الرَسول" أى من جبريلَ الروحِ الأمين ، فصارت به صورةٌ من حياة، هى ذلك الخُوار : {**قال فما خطبك ياسامرى ؟ قال بَصُرْتُ بما لم يَبْصُرُوا به فقبضت قبضةً من أثرِ الرسول فنبذتُها ، وكذلك سَوَّلَت لى نفسى**} (طه : ٩٥ــ ٩٦) . ضَلَّ السامرىُّ بما انكشف له ، فَأَضَلَّ بنى إسرائيل معه على علم : { **فأخرج لهم عجلا جسدا له خُوار ، فقالوا هذا إلهكُم وإلهُ موسى فنسى** } (طه : ٨٨) ، أى ذهب موسى لِمَوْعِدَةِ رَبِّه فى جانب الطور الأيمن، ناسيا أن "العجل" الذى خَلَّفَهُ وراءه هو إلهه !

وشبيهٌ بهذا أيضا محنةُ داود عليه السلام ، حين افتتن بامرأة صاحب جنده ، فَضَمَّها إلى نعاجه ، ولديه من قبلُ تسعٌ وتسعون ، فَتَسَوَّرَ عليه الملائكةُ المحراب ، يَضربُون لهُ المَثل ويُذَكِّرُونه : { **وهل أتاك نبأ الخَصْمِ إذ تَسَوَّرُوا المحراب . إذ دخلوا على داود ففزع منهم ، قالوا لا تخف : خَصمان بغى بعضُنا على بعض فاحْكُم بيننا بالحق ولا تُشْطِطْ ، واهْدنا إلى سَواء الصراط . إن هذا أخى له تسعٌ وتسعون نعجة ولى نعجةٌ واحدة فقال أكْفِلْنيها ، وعَزَّنى فى الخطاب . قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيرا من الخُلطاء**

لِيَبْغِى بعضُهم على بعض ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وقليل ما هم . وظن داودُ أنما فتناهُ ، فاستغفر ربَّه وخرَّ راكعا وأناب . فغفرنا له ذلك ، وإن له عندنا لزُلْفَى وحُسْنَ مآب } (ص : ٢١ ـ ٢٥) . فَهِمَ داودُ عليه السلام أنه مَدْعُوٌّ إلى الحُكم فى قضيته هو نفسه . أفتأخذه العزةُ بالإثم ؟ كلا ، بل تاب وأناب : أدان نفسه قبل أن تدان. وكانت فتنة الملائكة لداود تذكرةً : {**ياداودُ إنا جعلناك خليفةً فى الأرض فاحْكُمْ بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فَيُضِلَّك عن سبيل الله ، إن الذين يَضِلُّون عن سبيل الله لهم عذابٌ شديدٌ بما نَسُوا يومَ الحساب** } (ص : ٢٦) .

والذى يجب التنبيهُ إليه أن الفتنةَ من الله عز وجل هى على أصلِ معناها فى اللغة : تمحيصٌ واختبار . ليست هى الغوايةَ والإضلال ، بل هذان هما عاقبةُ الفتنة حين يَسوءُ المآل . إنها امتحانٌ فُرِضَ عليك ، وموقفٌ زُجَّ بكَ فيه : تخرجُ منه إما إلى الهدى وإما إلى الضلال . وطَوقُ النجاةِ ذِكْرُ الله عز وجل . إن ذكرتَه ذكرك فَنَجَّاك . وإن عَميت فقد اخترتَ لنفسك .

وليست الفتنةُ بالملائكة كغواية إبليس . فتنةُ الملائكة تمكينٌ وتعليم . ثم تنبيهٌ وتحذير ، كما تجد فى قوله عز وجل على لسان هاروت وماروت : {**وما يُعَلِّمَانِ من أحَدٍ حتى يقولا إنَّما نحن فتنة فلا تَكْفُرْ**} (البقرة " ١٠٢) . أما غوايةَ إبليس فإملاءٌ واستدراجٌ إلى الزَّيغِ والضلال . إنه يُعَمِّى عليكَ أمْرَه . لا يقول لك أنا ابليس، جئتُ أضلَّك وأغويك ؛ ولكنه يأتيك فى ثوب الوسواس الخناس ، يُخامِر عَقلَك ، ويُحَدِّثُك بلسانك ، فَتَظُنُّه حديث النفس . وربما ضَبَطتَهُ وهو يُفسدُ قراءتك ويقطعُ عليك صَلاتَك . وهو حين يُحَدِّثُكَ يُجَمِّل لك السيئة ويُحَسِّنُ القبيح ، وربما أطراك فأرداك . وهو يَقْعُدُ بك عن النهوض فى طَاعات الله عز وجل ، ويَهيجُكَ إلى الفحشاء والمنكرِ والبغى . وهو لا يكتفى منك بمعصية الله خالقك ، وإنما لا يَزَال بك حتى يُوئسَك من رحمته ، فَتُمْعِن ولا تبالى ، وتُصرّ على ما أنت فيه ، قد أَخَذَتْك العزةُ بالإثم ، فيَعْمَى البصرُ والبصيرة ، ولا يُفْلِتُكَ حتى تَنْطِقَ بكلمة الكفر ، فَيَهْوِى بك معه فى قاعِ جهنم ، وكأن اللهَ لم يُحَذِّرْكَ ويُنْذِرك .

وقد تتساءل : أوَ لم يكفِ بنى آدم الغوايةُ بإبليس، حتى يفتِنَهم الله بالملائكة؟ لا عليك . هذا من تلبيسِ إبليس : اللهُ عز وجل لا يَفْتِنُك بالملائكة فحسب ، وإنما هو

يفتنك بهذه الدنيا جميعا خيرِها وشرّها : { **ونبلوكم بالشر والخير فتنة** } ﴿الأنبياء : ٣٥﴾ ، لأن هذه الدنيا بكل ما عليها هى دارُ الفتنة ، أى دارُ التمحيص والابتلاء ، على أصل معنى الفتنة فى اللغة كما مَرَّ بك . وإبليس يريد منك أن تنسى هذا ، فَتُضَيِّع فرصتك ، وتسقط فى الامتحان. يريد منك أن تنسى الغاية الوحيدة من وجودك فى هذه الدنيا ، فتجعل الدنيا غايتك ، وتظن أنه ليس بعد هذه الحياة حياة : {**وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين**} ﴿الأنعام : ٢٩﴾ . والله عز وجل لا يفتنُكَ ليُرْدِيَك ، وإنما هو يفتنك ليكشفَ لك عن مَعْدِنك ، ويُشْهِدكَ على نفسك ، وهو بها أعلم : {**لِيَهْلِكَ من هَلَكَ عن بَيِّنَة ، ويَحيى من حَىَّ عن بَيِّنَة**} ﴿الأنفال : ٤٢﴾ . فَكُنْ منه عز وجل على ذكرٍ لا يَغيب ، فلا تَضَلَّ ولا تَنسى . وذِكْرُ الله عز وجل أكبَرُ من العبادات كُلِّها ، وهو أكبر منها لأنه الغايةُ من ورائها جميعا : الصلاةُ تُريك نفسك فى صورة العبد خمسَ مراتٍ فى اليوم والليلة ، فَتُذَكِّرك بمن أنت. والزكاة تَدُلُّك على أنك عاملٌ فى أرض الله بأمر الله ، تُؤَدِّى خَراجَها فى سبيله عزَّ وجل وفق ما أمرك . والصوم يذكرك بأنك طاعم من رزق الله ، إن شاء أطعمك ، وإن شاء حرمك. والحَجُّ لمن استطاع إليه سبيلا يُذَكِّرُك بالمُنتَهى ، فى يومٍ مَجْمُوعٌ لَهُ الناس، وقد تقطعت بِهِمُ الأسبَاب إلاَّ من وجهِهِ عزَّ وجَل ، كُلُّهم ضارعٌ إليه ، يَستغفرُهُ ويَسألُهُ ويستعينه . إن أحسنت الذكر أحسنت العمل . لا سبيل إلى هذا إلا بذاك : العبادات غايتها الذكرُ، والذكرُ غايته العمل ، أى أن تعمل فى هذه الدنيا بما ذكرت به فى كتاب ربك وسنة نبيك ، منهاجاً وتطبيقا . هذه هى غايتك العظمى لا غاية بعدها، لأنها وحدها مَدْخَلُك إلى الجنّة التى أهبط منها أبَواك من قبل بإغواء إبليس وتريد رغم أنفه أن تعودَ إليها .

أكْرَمُ العباد على الله أعبَدُهُم . وأعْبَدُ العَبْدِ أعْمَلُهُ بما أمر : قد أصاب من قال "العملُ عبادة" إنْ أراد هذا المعنى وحده ، لا من أضَلَّهُ إبليسُ فقطع مابين العبادةِ والعمل [1] .

❑❑❑

(١) مثل هذا فى الضلال من يفصلون بين الدين والدنيا ، وما الدنيا لمن أراد الآخرة إلا إعمال هذا الدين فى كل أمر . أو من يفصلون بين الدين والسياسة ، وما الدين فى المجتمع المسلم إلا هذه السياسة بعينها .

ولا يكتمل الحديثُ عن الملائكة رضوان الله عليهم إلا بالحديث عن "الرُّوح" وقد ورد لفظ " الرَوح " بفتح الراء فى القرآن ثلاث مرات ، وورد لفظ " الرُوح" بضم الراء فى القرآن عشرين مرة . وليست هذه كتلك ، وإن اشْتُقَّ اللفظان كلاهما من مادة لغوية واحدة ، تدور معانيها على الحركة والخفة والانتشار .

أما " الرَّوْح " مفتوح الراء ، فمن الراحة والترويح ، أى الفَرَجُ وذهابُ الهم والغم ، وقد وردت فى القرآن مرتين مُضافة إلى الله عز وجل فى قول يعقوبَ لبنيه : {**يا بَنِىَّ اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من رَوْحِ الله ، إنه لا ييأس من رَوْحِ الله إلا القوم الكافرون**} (يوسف : ٨٧) ، وفسرت فى الموضعين بمعنى "فَرَج الله" ، وقيل بل "رحمةُ الله"، وليس للرحمة هنا مكان من أصل معنى اللفظ فى اللغة ، ولكنه تفسيرٌ بمُجْمَلِ المعنى المستفاد من السياق العام للآية ، وقد دَرَجَ على هذا كثير من المفسرين ، فأقحموا على معانى المادة اللغوية فى المعجم العربى "مجازاتٍ" لا داعىَ لها : لا شك أن فَرَجَ الله رحمةٌ منه عز وجل ، ولكنك هنا تُفَسِّرُ الشىءَ لا بماهيته وإنما بالدافع إليه . وهذا لا يصح فى اللغة ، إلا أن يقالَ لك إنه تأويلٌ ارتآه بعضُ المفسرين لا أصلَ له من ذات مادة اللفظ ، أرادوا به تقريبَ المعنى للقارىء ، وغيره كثير . أما المرة الثالثة التى وردت فيها كلمة "الرَّوْح" مفتوحةَ الراء ، فهى فى سورة الواقعة : { **فأما إنْ كان من المقربين . فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وجَنَّةُ نعيم** } (الواقعة : ٨٨ ـ ٨٩) ، وهى على أصلها بمعنى الراحة والاسترواح ، وإنْ تَأَوَّلَها بعضُ المفسرين على معنى النعمة والنعيم .

وليست كذلك "الرُّوح" مضمومة الراء ، وهى التى تعنينا هنا . "الرُّوح" بضم الراء معناها النَّفْس ، أو ما تكون به حياةُ النَّفْس . والنَّفْسُ من النَّفَس . هكذا هى فى كل اللغات (قارن Psyche اليونانية وأيضا Spiritus و Anima اللاتينيتين وما اشتق منهما فى اللغات الأوروبية الحديثة) ، لأن الرُّوح من "الرِّيح" أى الهواء إذا تحرك .

أمَا لماذا جاءت " النَّفْس " من النَّفَس ، واشتُقَّت " الرُّوح " من الريح ، فلأن الناس منذ أن وُجدوا أدركوا أن النَّفَسَ والتنفس هما علامة بدء الحياة فى الحى يوم وُلِد ، وأن انقطاعَهُما علامةُ موته حين يموت . فاستنبطوا من هذا أن الحياة هى تلك النسمة التى بها قوام الجسد ، إن دَخَلَتْه حَيَا ، وإن فارَقَتْهُ عاد كأن لم يكن . ولكنها

خَفِيَت ودقَّت كما تَخْفَى النسمة وتدق، يُحَسُّ أثَرُها، ولا يُرى شخصُها. وهى تدخلُ أنفَ المولود رغم أنفه لحظةَ يُولد ، وتخرج منه رغم أنفه حين يموت ، لا يملك استبقاءها، ولا يملك استرجاعها. فمن أين جاءت، وإلى أين تذهب؟ أما الجسد الذى خَلَّفَتْهُ وراءها فقد عَرَفُوه: رَأَوْهُ يفسد بذهابها، ثم ينحل ترابا وكأنه من التراب جُبِل. أما هى ، فإلى أين صعدت ؟ أمن العلاء جاءت وإلى العلاء تؤوب ؟ فمم هى ؟ بل ما هى ؟ قد كانت فى الجسم هى صاحبة الأمر والفعل ، وفارقته فلا حِسٌّ ثَمَّ ولا كيانَ ولا شأن . أتكون هى عين وجوده ؟ أتكون هى هو ؟ بل هى ذاته ، اتخذته رداء تَلَبَّسَت به زمنا ، ثم انسلت منه .

وللرُّوح فى القرآنِ معنى آخر . فأنت تعلم مثلا أن المَلَكَ المُتَنَزِّل بالقرآن على محمد صلى الله عليه وسلم هو جبريلُ عليه السلام : **{قل من كان عدوا لجبريل فإنه نَزَّله على قلبك بإذن الله}** (البقرة : ٩٧) ، كما تقرأ فى مصحفك قوله تبارك وتعالى : **{قل نزله روح القُدُس من ربك بالحق}** (النحل : ١٠٢)، فتستدل من هذا على أن "رُوح القدس" هو جبريل بلا خلاف. وتقرأ فى مصحفك أيضا قوله عز وجل: **{نزل به الروح الأمين}** (الشعراء : ١٩٣) فتعلم أن جبريل هو "الروح الأمين"، أى أنه روحٌ أو هو الرُّوح . وهو أيضا رسول الله الى مريم : **{فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا}** (مريم : ١٧) ، النافخ فى التى تبتلت لله عز وجل : **{ومريمَ ابْنَتَ عِمران التى أحْصَنَت فَرْجَها فنفخنا فيه من روحنا}** (التحريم : ١٢) . وهو أيضا روح القدس الذى أَيَّدَ اللهُ به عيسى: **{ وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس }** (البقرة : ٢٥٣) . كَرَّمَ اللهُ جبريلَ عليه السلام بالإضافة إليه جَلَّ وعلا ، كما رأيت فى قوله عز وجل **{فأرسلنا إليها رُوحنا}**، وكرمه أيضا بإفراده بالذكر مع الملائكة : **{ تَعْرُجُ الملائكةُ والرُّوحُ اليه}** (المعارج : ٤) ، **{يومَ يقومُ الرُّوحُ والملائكة صفا}** (النبأ : ٣٨) ، **{تَنَزَّلُ الملائكةُ والرُّوحُ فيها}** (القدر : ٤) . ولا يصح أن تقول فى جبريل عليه السلام ـ بَلْهَ فى كائنٍ مَنْ كَان ـ إنه " رُوحُ الله " ، لأن فى هذا شُبْهَةَ الإلحاقِ بالذات ، وذاتُ الله عز وجل أعْظَمُ وأجَلُّ من أن يخوض فيها بالقول ذو عِلْم ، وإنما تقولها كما قال القرآن مُضَافَةً إلى ضميرٍ منه عز وجل ، على التبعية والمِلْك ، أو تقول كما قال القرآن "رُوحٌ من أمره"أو "رُوحٌ منه" .

ليست الرُّوح إذن ـ فى كل القرآن ـ هى تلك الذات المتلبسة بالجسد ، فهو لا يَستَعْمِلُ فى معنى تلك الذات إلا لفظ "النَّفْس" ، كما تجد فى قوله عز وجل : {**ونفسٍ وما سواها**} (الشمس : ٧) ، {**يوم لا تملك نفس لنفس شيئا**} (الانفطار : ١٩) ، { **الله يتوفى الأنْفُسَ حين موتها** } (الزمر : ٤٢) ، {**ولو ترى إذ الظالمون فى غَمَرَاتِ الموت والملائكةُ باسطوا أيديهم: أَخْرِجُوا أنْفُسَكُم!**} (الأنعام : ٩٣) ، { **وإذَا النفوسُ زُوِّجَت** } (التكوير : ٧) ، {**يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعى إلى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى ، وادخلى جنتى**} (الفجر : ٢٧ ــ ٣٠) ، فتقطع بأن النَّفْسَ غيرُ الجسد بدليل خطابها على حِدَةَ بَعْدَ خروجها منه ، وتُوقِنُ أنها باقية بعد فنائه ، لأنها تؤمر بالدخول فيه يوم النُّشُور.

وليست الرُّوح أيضا هى القرآن ، كما فَسَّرَ بعض المفسرين قولَهُ عز وجل : {**وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ، ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا**} (الشورى :٥٢) لأن الرُّوح ها هنا هو جبريل ، وأوحينا إليك يعنى أرسلنا إليك ، تنسيقا على قوله عز وجل فى الآية السابقة مباشرة : { وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء ، إنه علىٌ حكيم . وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ...} ، والرسول هنا هو المَلَكُ بلا خلاف . ولكن هؤلاء المفسرين يتوسعون كما مَرَّ بك ، فيأخذ عنهم أصحابُ المعاجم ، ويُقحِمُون على المعجم العربى أن "الرُّوح" مضموم الراء من معانيه "القرآن" ، كما أقحموا عليه من قبل أن "الرَّوح" مفتوح الراء من بعض معانيه " الرحمة " .

أما قوله عز وجل : { **يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ، ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم ورُوح منه ، فآمنوا بالله ورسله ، ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيرا لكم ! إنما الله إله واحد ، سبحانه أن يكون له ولد ، له ما فى السموات وما فى الأرض ، وكفى بالله وكيلا** } (النساء : ١٧١) فتفهم منه أن عيسى عليه السلام كلمة من الله عز وجل ، أى كان بكلمة منه : قال له كُنْ ! فكان، شأن الخَلْقِ أجمع . وأنه عليه السلام رُوحٌ منه أى نفخةٌ منه عز وجل ، كنفخته فى آدم

أبى البشر ، لا أبَ لآدمَ ولا أم ، والنفخةُ فى اللغة والنَّفْثَةُ والنَّفَسُ أيضا واحد ، ومن هنا جاءت تسمية النَّفْسِ رُوحا ، لأنها كانت به .

أفكان النافخُ جبريلَ عليه السلام بأمر منه عز وجل ؟ قد تستظهر هذا من قوله تبارك وتعالى على لسان جبريل : { **قال إنَّما أنا رسولُ ربِّك لأهبَ لك غُلاما زكيا** } (مريم : ١٩)، وأسندَ فعل "النَّفْخ" إلى الله عز وجل: "فنفخنا فيه من روحنا"، لأنه تبارك وتعالى هو الآمر به ، لا حَوْلَ ولا فِعْلَ إلا بأمره ، أى هى نفخة من المَلَكِ بأمر من مَالك المُلك .

وتستطيع أن تنسق على هذا قولَهُ عز وجل : { **إذ قال ربُّكَ للملائكة إنى خالقٌ بشرا من طين. فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فَقَعُوا له ساجدين**} (ص : ٧١ ـ ٧٢) ، فتفهم أن جبريل روحٌ من الله عز وجل ، وأن النفخة فى آدم كانت به . كما كانت فى عيسى عليه السلام ، شأن الخَلْقِ أجْمَع . وربما قلت إن جبريل عليه السلام هو المَلَكُ المُوكَّلُ بنَفْثِ الحياة فى الأحياء بأمر الله عز وجل، كما قيل إن ميكال عليه السلام هو الملك الموكل بقبضها . هذا يفسر لك فتنة النصارى بجبريل عليه السلام، الذى أيد الله به عيسى حين صنع من الطين كهيئة الطير ونفخ فيه فصار طيرا بإذن الله ، كما أيده فى إبراء الأكمه والأبرص ، وإحياء الميت . ويروى بعض المفسرين أن جبريل عليه السلام ما وطىء ترابا إلا صارت فيه نسمة من حياة . وهذا يفسر لك فتنة "السامرى" بجبريل : بَصُرَ بما كان من أثَرِه ، فقبض قبضة منه ، ونبذها فى مصهر الذهب الذى صنع منه العجل ، صَنَمَاً ليس له من الحياةِ نصيبٌ إلا هذا الخُوار الذى كان فيه من أثر جبريل .

وإذا كان القرآن قد خص جبريل عليه السلام تنصيصا باسم هو "رُوحُ القدس"، "الرُّوح الأمين" ، وبعبارة "رُوحَنَا" فى قوله عز وجل "فأرسلنا إليها رُوحَنا" ، والمَعْنِىُّ بها جبريلُ بلا خلاف فلك أن تقول إن "الرُّوح" مضمومة الراء فى القرآن معناها المَلَك، أو مَلَكٌ رفيعُ الرُّتبَة فى ملائكة الله عز وجل، ولا يعلم جنود ربك إلا هو ، لا تستطيع أن تَخُصَّ بها جبريل وحده ، فالله بغيبه أعلم . وربما جاز لك أن تقول إن "الرُّوح" مضمومة الراء فى القرآن هى تسميةٌ على المصدر من "رَاحَ" بمعنى "ذَهَبَ"، أى الذاهبُ فى أمر الله ، فهى بمعنى الرسول ، تماما كما تعنى لفظة "المَلَك" .

ولكنك لا تخوضُ فى غيب الله ، فأنت مكفوفٌ عن استقصاءِ ماهيَّةِ "الرُّوح" بمقتضى قوله عز وجل : {**ويسألونك عن الرُّوح قل الرُّوح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا**} ﴿الاسراء : ٨٥﴾ . وسواء أكانت الروح المَعْنيَّةُ هنا هى جبريل كما قال بعضُ المفسرين، أو هى النَّفْس المُتَلَبِّسة بالجسد كما قال أكثرُهم ، فأنت مُنْهى عن الخوض فى هذا أو ذاك ، محجوبٌ عنك فى هذه الدنيا حقيقةُ هذا أو ذاك .
ومن إعجاز الله فى خلقه ـ إن كانت "النَّفْس" هى المعنية فى الآية ـ أن السائل يتساءلُ عن نفسه، لا يدرى ماهى ، وهى ذاتُه ، فما بالُكَ بالخائضين فى ذات الله عز وجل؟

نقول لهذا السائل وأمثاله من الخائضين فى "عالم الرُّوح" : لن تعلم النَّفْسُ حقيقةَ ماهيِ ، حتى تُغادرَ هذا الجسد، فى يومٍ جِدِّ قريب ، طال الأَجَلُ أم قَصُر . فسَحَ اللهُ لك فى عُمرِكَ بالخير ، فلا تتعجل .

❑❑❑

وقد جعل اللهُ الايمانَ بالملائكة رضوانُ اللهِ عليهم فرعاً من الايمان به عز وجل: { **ولكن البِرَّ من آمن باللهِ واليومِ الآخر والملائكةِ والكتابِ والنبيين** } ﴿البقرة : ١٧٧﴾ ، وجعلهم شُهُودَه : { **لكن الله يشهد بما أنزل اليك ، أنزله بعلمه ، والملائكة يشهدون** } ﴿النساء : ١٦٦﴾ ، وجعل الكُفْرَ بهم فرعاً من الكفر به عز وجل : { **ومن يَكفُر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلَّ ضلالا بعيدا** } {النساء : ١٣٦} ، وجعل عداوتَهم من عداوته سبحانه : {**من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال ، فإن الله عَدُوٌّ للكافرين**} ﴿البقرة : ٩٨﴾ .

حَسْبُكَ هذا فى الملائكةِ رِضوانُ الله عليهم ، فليس بعدَهُ مزيدٌ يقال .

❑❑❑

كان هذا أيها القارىء العزيز تمهيدا لابد منه للتعرف على أعلام هذا الفصل ، التى نتناول إن شاء الله تفسير معناها من القرآن بالقرآن ، وهى : جبريل ـ ميكال ـ مالك ـ هاروت ـ ماروت ـ الفِرْدَوْس ـ عَدْن ـ جَهَنَّم ـ إبليس ـ آدم ، نضيفُ إليها من عَلَمِ الذات نبيَّ الله " إدريس " على افتراض تَقَدُّمِهِ فى الترتيب التاريخى على نبيِّ

اللهِ نُوحٍ عليه السلام . كما نُضيفُ من عَلَمِ المَوْضِعِ "بابل" ، التي وقعت بها الفتنةُ بهاروت وماروت ، ومجموعُ هذا وذاك اثنا عشر اسما علما .

ولأنَّ الله عز وجل قَدَّمَ جبريل ، فنحن نبدأ به ، متوكلين على الله عز وجل ، نستلهمه الصواب ، ونعوذُ به من الجهل والجهالة ، ونَسألهُ الصفحَ والمغفرة إن نسينا أو أخطأنا .

(١)

جبريل

"جبْريل" عَلَمٌ أعجميٌ بلا خلاف : إنه تعريبُ "جَبْرِيئيـل" العبرية . وهو اسمٌ "مَزْجِي" ، مُرَكَّبٌ من شقيّن عبريين : جَبْرى + إيل .

أما الشق الأول ، جَبْرى ، فأصلها " جبِرْ " زيدَ بياء علامةً على الإضافة الى ما بعده [١] ، وتحولت حركة حَرفَيه الأولين ـ بسبب الإضافة أيضا ـ من كسرتين متتابعتين (جبِر) ، إلى فتح فسكون (جَبْر) [٢] . أما معناها فى العبرية فهى اسم صفة على الفاعلية من الجذر العبرى " جَبَرْ " بمعنى " قَوِىَ " و " اشتد " ، فهو الشديدُ القَوِىُّ. وهذا هو أصل معنى مادة جَبَرَ فى لغتنا العربية : جَمُدَ فى العبرية على أصله، وفَرَّعَت منه العربية معانى تدور ، إن تَمَعَّنْتَ ، على هذا الأصل نفسه ، من مثل "جَبَرَ عظما" ، "جَبَرَ خاطرا" ، "جَبَرَ ناقصا" (وهذا أصلُ معنى عِلْم الجبر) ، ومنها أيضا "أَجْبَرَهُ" أى قهره وغلبه وألزمه ، أى كان عليه مكينا متمكناً ، "تَجَبَّرَ عليه" أى كان عليه "جَبَّارا" . "جبِر" العبرية إذن من الشِّدة والقوة . لهذا تستخدم العبرية الاسم "جبِر" بمعنى "رَجُل" ، والمقصود منه تمام الرجولَة ، أى الفحولة ، فتجىء "جبِر" بمعنى الزوج والبعل ، كما تجىء بمعنى السيد القرْم الشجاع (وهى نفسها "جبَّار" العربية) ، وتجىء أيضا بمعنى الجندى الشديد المراس فى الحرب ، أو البطل . وهذا كله لا يخرج باللفظ عن أصل معناه : القوة والشدة والجبروت (" جبُورا" العبرية) . ويلاحظ أن الآرامية والعبرية فى هذا كله ـ أو معظمه ـ سواء .

أما الشق الثانى من "جبريئيل" العبرية ـ الآرامية فهو "إيل" اسم الله عز وجل.

معنى "جَبْرِيئيل" إذن فى العبرية ـ الآرامية هو "جَبَّارُ الله" أى مَلَك الله الشديدُ القَوِىُّ .

(١) تَفعَلُه العبريةُ أحيانا ولكنها لا تَلتزمُهُ فى كل حال .

(٢) كَدَأب العبرية فى كل ما كان اسما أو صفة على وزن " فِعِل " .

ولا عليك ممن يترجمون " جَبْرِئيل " العبرية إلى الانجليزية God of Man (رَجُلُ الله) ، أو God of Soldier (جُنْدِيُّ الله) ، فهؤلاء لا يتعمقون أصل المادة فى اللغات السامية : الملائكةُ كلهم " رجالُ " الله وجُنْدُه ، والعَلَمية لقبٌ للمنعوت يميزه بصفة فيه . الصحيح أن تترجم " جبرئيل " إلى الانجليزية مثلا هكذا : The God of one mighty أى " جَبَّارُ الله " .

وهذا هو نَعْتُ " جبريل " عليه السلام فى القرآن : شَدِيدُ القُوَى ذو المِرَّة .

❐❐❐

أما مفسرو القرآن، الذين تَصَدَّوْا لتفسير اسم "جبريل"، فمنهم الماوردى [١] ، الذى وَهِمَ أن "جبريل" تعنى عَبْدُ الله ، يَنْسُبُهُ إلى عبد الله بن عباس ، وهذا لا يصح أيا كان القائلُ والناقل ، ناهيك بِحَبْرٍ فى رُتبةِ ابن عباس ، لأن الافتعالَ واضح والخطأ بَيِّن : لا مجال لاشتقاق معنى " العبد" من " جبر " العربية وما كان هذا ليفوت ابن عباس أو غير ابن عباس . أما أن " جبرٍ " العبرية ـ الآرامية معناها " العبد " فلا يقولُ هذا إلا جاهلٌ بهاتين اللغتين ، أو عابثٌ يَخْبِطُ خَبْطَ عَشْواء ، آمنا ألاَّ يَرُدَّ عليه أحد .

إن صَحَّت الروايةُ عن ابن عباس أو غيره من أهل التفسير ، فَرُبَّما دَسَّها عليه قومٌ من يهود لَغَواْ فى القرآن ونَقَلَ عنهم المفسرون دون تَثَبُّت . أو من يهودٍ أَبْغَضُوا جبريل لمجرد تَنَزُّلِه بالقرآن على محمدٍ صلى الله عليه وسلم ، فَوَصَمَهُم القرآن بالكفر (راجع الآيتين ٩٧ و٩٨ من سورة البقرة) : ظَنُّوا أنهم ينالون من جبريلَ عليه السلام حين يُفسِّرون اسمه للمسلمين بمعنى العبد ، ولم يَفْطَنُوا إلى أن العبوديةَ لله عز وجل ليست فحسب شرفا لا يَعْدِلُه شرف ، وإنما هى تقريرٌ لواقع الحال : الخَلْقُ كُلُّهم عَبِيدُ الله ، شَرِيفُهُم ووضيعُهُم ، مؤمنُهم وكافرُهم ، وإن بَطِر وجَحَد .

على أن القرآن لم ينتظر من يفسرون له معنى اسم " جبريل " ، بل سبق فنص على معناه بالمرادف فى أكثر من موضع كما سترى .

❐❐❐

---

(١) راجع تفسير القرطبى للآية ٩٧ من سورة البقرة .

ورد اسم "جبريل" في القرآن ثلاثَ مرات فقط : { **قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله** } (البقرة " ٩٧)، {**من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين** } (البقرة : ٩٨) ، { **وإن تَظَاهَرَا عليه فإن الله هو مولاه وجبريلُ وصالحُ المؤمنين والملائكةُ بعد ذلك ظهير** } (التحريم : ٤) . وليس في أي منها كما ترى تفسيرٌ لمعنى " جبريل " .

ولكن اسم " جبريل " المحذوفَ لدلالة السياق عليه في سورتي "النجم" ، "التكوير" يَظْهَرُ بمرادفه الدالّ على معناه في قوله عز وجل { **والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى . وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَىَ . إن هو إلا وَحْىٌ يُوحى . عَلَّمَه شديدُ القوى . ذو مِرَّةٍ** [1] **فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى** } (النجم : ١ ــ ١٠) ، وأيضا في قوله تبارك وتعالى : { **إنه لقول رسول كريم . ذي قوة عند ذي العرش مَكين . مُطاعٍ ثَمَّ أمين . وما صاحبُكم بمجنون . ولقد رآه بالأفق المبين** } (التكوير : ١٩ ــ ٢٣) . أما " صاحبكم " في السورتين فهو محمدٌ صلى الله عليه وسلم بلا خلاف ، والذى " عَلَّمَهُ " ، أى تَنَزَّلَ عليه بالوحى، هو "جبريلُ" بلا خلاف أيضا : إنه الذى دنا فتدلى ، فأوحى إلى محمد ما أوحى الله لجبريل أن يُوحِيَهُ إلى عبده ورسوله محمدٍ صلى الله عليه وسلم .

وليس أبلغ من تفسير معنى " جبريل " بأنه ذو قوة عند ذى العرش ، فهى نفسها "جبار الله" أى الجبار عند الله بتمكين الله إياه ، المُمَكَّنُ فيما يُكَلَّفُ به من أمر الله ، تستجيبُ له قُوَى الكون بأمر الله ، وتُطيعُه الملائكةُ فى أمر الله ، لأنه الأمينُ على أمرِ الله . ولكنك لا تفطن إلى هذا التفسير لأن السياق يُوجبه ، ولا تلمحُ "مقصودا" آخر من ورائه ، لأن عبارة "ذى قوة عند ذى العرش" ، على متانتها ، سَلِسَة ، والكلامُ فى موضعه ، غيرُ مُقْحَم ، بل هو وصفٌ مطابق لمن هو " شديدُ القُوَى ذو مرة " ، الذى استوى بالأفق الأعلى ، وما أدراك ما الأفق الأعلى [2] ، وهو مع ذلك يدنو ويتدلى ، فيكون من محمد صلى الله عليه وسلم فى مكة قاب

(١) المِرَّة ، بكسر الميم وتشديد الراء يعنى " القوة " .

(٢) الأفق الأعلى يعنى " الحافة العليا " لهذا الكون كله ، أرضِهِ وقمرِهِ وشمسِهِ ونَجْمِهِ ومجرَّاتِهِ ، ما عَلِمنا منه وما لا نعلم ، وما أقلَّ ما نعلم ! فتَأمَّل .

قوسين أو أدنى : إنه جبريلُ الذى رآه الصادقُ المصدوق فى شِعاب مكة يملأُ الأفق بعدما جاءه بالوحى الأول فى صورة إنسان ، ورآه الصادق المصدوق ليلةَ المعراج نَزْلَةً أخرى : { **ولقد رآه نَزْلَةً أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدرة ما يغشى. ما زاغ البصرُ وما طغى**} ﴿النجم : ١٣ ـ ١٧﴾.
هذا التمكينُ من الله عز وجل لجبريل تمكينٌ يهولُك ، ويملأ عليك أقطارَ نفسك ، فَتَذْهَلُ عما سواه ، بل تَهابُ مجرد التفكير فيه ، فتخشعُ النفس ، ويخشعُ العقل ، وتخشع المدارك .

ولإعجاز القرآن وجهٌ آخر فى تعريبه " جبريئيل " العبريةَ على "جبريل" ، حين تنطقها بفتح الجيم ـ جَبْريل ـ وقد صَحَّت بها قراءات : أنت تعلم من معجمك العربى أن "جَبْر" العربية وصف بالمصدر من "جَبَرَ" ، والوصف بالمصدر يُفيد بذاته المبالغَةَ التى في "جَبَّار" ، وتعلم من معجمك العربى أن العرب تكلموا بـ " إيل " العبرية (وتُكْتَبُ أيضا " إل ") عَلَماً على الله عز وجل[١] ، كما تجد فى قول الصديق رضى الله عنه حين أسْمِعَ قولَ مُسَيْلَمَةَ الكذَّاب : هذا كلام لم يَخْرُج من إل ! أى ليس مصدره الله تبارك وتعالى . ومن هنا تدرك أن جبريل (جبر + ايل) تعنى بذاتها ، عربيا ، على المضاف والمضاف إليه ، " جَبْرُ الله " ، أى جبار الله (على ما مر بك من معنى "جبر" العربية كاسم صفة) ، ولكنها مزجت ، أى صارت اسما مزجيا ، اتخذ وزنا نادرا فى العربية هو "فِعليل" (مثل عِتريس) ، فكسرت جيمه .

ومن ثم تكون "جبريل" ممنوعة من الصرف فى كل القرآن للمزجية قبل العجمة ، شأن حَضْرَمَوْتَ وأمثالها[٢] .

---

(١) يُفسر المعجم العربى لفظ الجلالة " الله " بأن أصله " الاله " ، حُذفت همزته ، وأدغمت لاماه . ولى تفسير آخر أطرحه عليك وأرجو أن أكون مصيبا : إنه " أل " (أداة التعريف) دخلت على ضمير المفرد المذكر الغائب "هو" ، أى " الـ + هُوَ " ، أى الذى هُوَ هُوَ ، وقد صَحَّتْ " الـ " عند علماء العربية بمعنى الذى . وهذا على الراجح عندى هو أصل " إل " ، " إيل " العبرية ، وهو نفسه معنى " يِهْوَا " العبرية ، أى الذى هو هو ، أخذت من قوله عز وجل لموسى فى التوراة " إِهْيِه أَشِرْ إِهْيِه " (الهاء فيها خاملة للوقف) ، أى أنا الذى هو أنا ! (قارن قوله عز وجل فى القرآن : {إِنَّنى أنا الله } {طه : ١٤} ، فهو الذى هو ، جل جلاله ، يُكَنِّى بها الخَلْقُ عنهُ مَهابةً وتعظيما . واللهُ باسمه الأعظم أعْلَم .

(٢) حَضْرَمَوْتُ اسمٌ مزجي أصله بالظاء ، والمعنى " حظيرة الموت " أو " ساحة الموت " . وهو فى العبرية بالصاد "حَصَرْمَوِت " بنفس المعنى .

فسر القرآن "جبريل" بالمرادف، كما فسرها بالتعريب. ولم يفطن إلى هذا أو ذاك من تَصَدَّوا لتفسير معنى هذا الاسم من مفسرى القرآن ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يُسْمَع منهُ فيه حديث ، ولو شاء اللهُ لَحَدَّثَ به . ولم يفطن إلى هذا أو ذاك أيضا من لَغَوْا فى "جبريل" من خصوم القرآن أدعياء العربية وأدعياء الاستشراق على عصر النبى وإلى هذا العصر . وها قد رأيت أن القرآن كان أسبق من هؤلاء إلى صحيح معنى "جبريل" ، وأفْقَه بالعبرية من أهلها على عصر النبى وإلى هذا العصر . وكفى بهذا - وغيره كثير كما سترى - ردا على دعوى التلقين ، ودعوى النقل والاقتباس .

سلامُ اللهِ على جبريل الروح الأمين ، وصلواتُ اللهِ وسلامُهُ على جميع ملائكتهِ وَرُسُلِهِ وأنبيائهِ .

(٢)

ميكـــال

ميكال عليه السلام مَلَكٌ مقرب ، رفيعُ الرتبة فى ملائكة الله عز وجل ، أفرده الحق تبارك وتعالى بالذكر على التعظيم قريناً لجبريل عليهما السلام فى قوله عَزَّ مِنْ قائل : { **من كان عدوا لله وملائكته ورسله ، وجبريل وميكال ، فإنَّ الله عدو للكافرين** } (البقرة : ٩٨) . ولم تَرِد " ميكالُ " فى كل القرآن إلا مرة واحدة ، وفى هذه الآية فحسب .

و "ميكال" تعريبُ "ميكائيل" العبرية ، تُكتب بالكاف فى العبرية، وتنطق بالخاء (ميخائيل) لاعتلال ما قبلها، على ما مر بك من قواعد النطق فى تلك اللغة .

أما علماء العبرية ، وعلماء التوراة أيضا ، فهم يفسرون "ميكائيل" بأنها اسمٌ مزجى ، يتكون من ثلاثة أجزاء : مِى ـ كا ـ إيل (أى مَن ـ كَـ ـ الله) ، وليست هى عندهم على التقرير ، بل على الاستفهام ، أو إن شئت، على التعجب: "من كالله !"، لأن "مى" العبرية (والآرامية أيضا) لا تصلح إلا لهذا ، فلا تقع اسما موصولا بمعنى "الذى" كما يحدث فى "من" العربية [١] .

ونحن لا نُحيل على العبرية والآرامية اشتقاق الأسماء الأعلام من صيغ الاستفهام أو التعجب، فقد وقع هذا بالفعل لعبرية التوراة فى تسمية "رِئُوبِن" (رَأوبين فى الترجمات العربية لسفر التكوين) ابن يعقوب البكر من زوجته " لِيئَة " التى صاحت فرحا حين وضعت بكرها ذكرا: رِئُو ! بِنٌ ! (أى انظروا ! ابنٌ " ذكر " !) فسُمِّىَ به رِئُو بِن . فلا يَبْعُد أن يقع هذا فى تسمية ميكال عليه السلام مَنْ كالله ؟! أى "ميكائيل " .

(١) تَستخدمُ العبريةُ فى معنى " الذى " أحد الحرفين : إما " شِ " وإما" أَشِرْ " .

بل قد فعلناه نحن أيضا كما مر بك فى اشتقاقنا اسم " مريم " عليها السلام من قول والدتها حين فوجئت بها أنثى : مارى ! أمَا ! أى " أمَةٌ يارَبِّ أمَة ! " .

وربما قُلْتَ إن " مِى " العبرية كانت قبل عصر التوراة (وميكائيل بالطبع أقدم ظهورا لأنبياء الله ورسله من نزول التوراة على موسى) تصلح لكل ما تصلح له "مَنْ" العربية ، فتجىء على الاستفهام أو التعجب ، كما تجىء على الاسم الموصول بمعنى الذى ، فيكون معنى " ميكائيل " الذى هو كالله ، على التقرير ، أى مُمَثِّلُ الله عز وجل ، المُفَوَّضُ منه تبارك وتعالى . وهذا نفسه غاية ما يُستفاد من قولها على الاستفهام أو التَعجب : مَنْ كالله ؟! .

وتستطيع أن تقول أيضا ـ وأنت هنا الى الصواب أقرب ـ إن الألف فى الخط العبرى ، على خلاف الحال فى الخط العربى ، تكتب دائما غير مهموزة ، وإنما هى تُهْمَزُ نُطقا فحسب إن وَقَعت فى أول الكلمة أو وقعت فى وسطها مَشكولةً بإحدى حركات الفتح والكسر والضم والسكون ، وتُسَهَّلُ فيما عدا ذلك فتنطق ألفاً ليِّنَة ، أى مفتوحة ممدودة غير مهموزة . وتقول أيضا ان الشكل والنَّقْط فى النص العبرانى لأسفار التوراة التى بين يديك ، ليست لهما حُجِّيَة الشىء الموحى به ، وإنما هما كما مر بك من صنع طائفة غَلَبوا على أمرهم من أهل الأثر (بَعَلى ماسورا) ما بين القرن الثانى والقرن العاشر للميلاد فى ظل المسيحية ثم فى ظل القرآن ، عصرَ اضمحلال عبرية التوراة وتراجعها على الألسنة والأقلام ، لم يخل عملهم مع ذلك من نقد ، وأنه لو خُلِّى بينك وبين حروف ميكائيل بالخط العبرى فى التوراة دون شكل أو نقط (م ـ ى ـ ك ـ ا ـ ل) لجاز لك أن تنطقها " ميكال " كما نَطَقَها القرآن ، وتكون " ميكال " لا اسما مزجيا مؤلفا من ثلاثة أجزاء (مَنْ كالله ؟!) ، بل اسمٌ وحيد الجذر ، على زِنة " مفعال " من الجذر العبرى " يَكُلْ " ، وصفا بالمصدر على المبالغة [1] ، وهو جذر عبرى مكافىء لـ " وكَلَ " العربى فى أصل معناه : أوكَلْتُ إليه الأمر ، ووَكلتُهُ

---

(١) صَحَّ استخدام الوزن " مِفْعال " فى العبرية بهذا المعنى : قارن " ميشاع " من " يشع " بمعنى الإيساع والتوسعة والفرج والنجاء والنصرة ، " مِيطَاب " بمعنى الأمْثَل ، من " يَطَب " بمعنى طاب وجاد وحَسُن ، وغَيْرُهُ كثير .

إليه ، فهو مُوكَلٌ ووكيل ، بمعنى فَوَّضتُهُ فيه وخَلَّيْتُ بينه وبينه ، أصلها أمْكَنْتُهُ منه ، وأقدرته عليه ، فأصبح عليه قديرا . هذا هو أصل المعنى الرئيسى للجذر العربى "وَكَلَ" ـ لازما غيرَ متعدٍ ـ بمعنى القُـــدرة، وبه يكون التفسيـــرُ الجيد لقوله عز وجل: { واللهُ على كلِّ شيء وكيل } ﴿هود : ١٢﴾ ، أى قدير مقتدر . لم تَسْتَبْقِ العربيةُ "وكل" ـ لازما غير مُتَعَدٍ ـ بمعنى قَدَرَ وتَمَكَّن ، ولكن هذا وحده هو المعنى الباقى فى الجذر العبرى " يَكُلْ " ـ لازما متعديا باللام ـ بمعنى قَدَرَ عليه وتمكن منه . فيكون معنى " ميكال " ـ عبرياً ـ الوكيل المُوكَلُ المُفَوَّض ، بمعنى القدير المُمَكَّن .

وهذا هو نفسه معنى " ميكال " ـ عربيا ـ وإن لم تُسْمَع من العرب ، إن اشْتَقَقْتَهُ على "مِفْعال" من "وكَلَ" لازما غير مُتَعَدٍّ ، بمعنى الوكيل ، الذى يُفيدُ القادر المقتدر ، أو المُوكَل المُفَوَّض . وهكذا هو ميكالُ صلواتُ الله عليه وعلى من عِنْدَهُ عَزَّ وجل من الملائكة المقربين .

❐❐❐

أما مفسرو القرآن الذين تَصَدَّوْا لتفسير اسم " ميكائيل " ، فأنت تذكر ما رواه الماوردى فى تفسير اسم " جبريل " منسوبا إلى عبد الله بن عباس (راجع تفسير القرطبى للآيتين ٩٧ و ٩٨ من سورة البقرة) ، وقد زاد فيه أن " ميكائيل " معناها فى العبرية ـ الآرامية " عُبَيْد الله " ، كما قال من قبل إن "جبريل" معناها فى هاتين اللغتين " عَبْدُ الله " ، يريد أن " ميكال " هى تصغير " جبر"، أى تصغير " عَبْد " ، فهو " عُبَيْد " ، فلا تدرى كيف استجاز أن تجىء تصغيرا لـ " جبر " وهى من غير مادتها ، بل لا وجود لـ " ميكا " هذه فى العبرية ـ الآرامية أصلا ، ولا تدرى ـ إن صحت الرواية ـ كيف استجاز الراوى لنفسه ـ دون سند من حديثٍ صحيح ـ الخوضَ فى لغات لا يعرف من أمرها شيئا . إن أحسنت الظن بالراوى ـ وأنت بإحسان الظن فى كل الأحوال مأمور ـ فربما تعللت له ـ كما تَعَلَّلْتَ له فى " جبريل " ـ بأنها دُسَّت عليه من أهل كتاب تحسن بهم الظن أيضا فتقول إنهم لا يعلمون الكتاب إلا أمانِيَّ . ولكنك لا تعذر الراوى : كان عليه أن يتثبت قبل أن يُحَمِّلَ وزرها ابن عباس .

❐❐❐

فسر القرآن كما ترى "ميكائيل" بالتعريب وحده، فأصاب المعنى وأصاب التعريب. وقطع أيضا بعجمة هذا الاسم فَجَرَّهُ بالفتح فى موضع الكسر : { من كان

عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكالَ } معطوفاً بالواو على المجرور باللام فى للهِ ، ممنوعا من الصرف غَيْرَ مُنَوَّن ، ولا عِلَّةَ لهذا إلا العُجْمَة .

ومن إعجاز القرآن أنه يُصحِّحُ لأهل العبرية نُطْقَ " ميكائيل " ، ويصحح لهم أيضا اشتقاقه : لا يَجْمُلُ اشتقاقُ " الوكيل " على المماثلة بالله عز وجل فى عبارة "مِى ـ كا ـ ايل " (من هو كالله) لا على الاستفهام ، ولا على التَعَجُّبِ والإكبار ، بل ولا على التقرير . إن جاز هذا لغة ، وهو بعيد، فلا يَصِحُّ البَتَّة فى أدب الحديث عن اللهِ عَزَّ وجل .

(٣)
مالـــك

مالكٌ صلواتُ الله عليه وعلى ملائكته أجمعين ، مَلَكٌ كريم ، شرَّفَهُ اللهُ عز وجل بتسميته فى القرآن ، على غير سابقةٍ فى التوراة والإنجيل : { **إن المجرمين فى عذابِ جهــنم خالدون. لا يُفَتَّرُ عنهم وهم فيه مُبلسون . وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين. ونادَوْا يا مالكُ ليقض علينا ربُّك قال إنكم ماكثون. لقد جئناكم بالحق ولكن أكثَرَكُم للحق كارهون**} (الزخرف: ٧٤ـ ٧٨)، فتستدل من هذا على أن "مالكا" رضى الله عنه وأرضاه هو خازنُ النار ، أى المَلَكُ المُوكَلُ بعذاب من حَقَّ عليه العذاب . وتستدل من قوله رضى الله عنه " لقد جئناكم بالحق " إن أسْنَدتَهُ اليه كما هو السياق ، على أنه يتحدثُ باسم الملائكة جميعا ، فهو مَلَكٌ مقربٌ رفيعُ الرتبةِ فى ملائكة الله عز وجل . وقد مَرَّ بك أن ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فى رضوان الله سواء ، وفى القرب منه عز وجل سواء ، لا فرق بين المُنفذينَ وعدَه والمُنفذينَ وعيدَه .

وربما لَبَّسَ عليك إبليس فأشفقتَ على ملائكة العذاب من جوار أهل النار: ماذا جَنَى مالكٌ وأعوانه المُكرَمُون ، بل وزَبانيةُ النار ، حتى يُخَلَّدُوا مع الأشرار { **فى سَمُوم وحميم . وظِلٍّ من يَحْمُوم لا باردٍ ولا كريم** } (الواقعة :٤٢ ـ ٤٤) ؟ فى حين أن خَزَنَةَ الجنة رضوان الله عليهم مع أصحاب اليمين : {**فى سِدْرٍ مخضود وطَلْحٍ منضود وظِلٍّ ممدود** } (الواقعة : ٢٨ ــ ٣٠) ؟

لا عليك . ليس الملائكة إنسا ولا جنًّا . الملائكةُ لا يَنعمون كالذى تَنعم ، ولا يَألَمون كالذى تألم . لا يُلذُّهم الذى تَلَذُّ له ، ولا يمضُّهم الذى تَمضُّ أنت به أو تَجْوَى . بل نعيمُهم وعذابُهم رضوان الله أو سَخَطُه ، وقد أعاذهم الله من سَخَطِه بأن خَلَقَهم ـ وليس بعدُ إنس ولا جانّ ـ على الطاعة ، لا يَعْصُون لَهُ أمرا ، فهم فى رضوانه عز وجل منذ أن خُلِقُوا ، لأنهم فى شُغلٍ بأمره عز وجل عما سواه . هذا ومن النار برد

وسلام : قد ألقِىَ بإبراهيم فى جَوْفِ نارٍ أكلت كُلَّ ما حَوْلَهُ ، وهو فى جَوْفِهَا كَمَنْ فى روضةٍ من رياض الجنة . كانت هذه تَكرِمَةً لإبراهيمَ خليل الرحمن ، وخَزَنَةُ النارِ - رضوانُ الله عليهم - بهذه التكرمة أولَى .

❑❑❑

ولفظ " مالك " عَلَمٌ عربىٌ مقطوعٌ بعربيته بلا خلاف ، لا مَدْخَلَ فيه لِشُبْهَةِ عُجمة . ومن ثم فهو يقع خارج نطاق مباحث هذا الكتاب .

ولكنك تستنبط من عربية هذا الاسم أمرا خطير الدلالة : العَلَمُ غيرُ المُوحَى به فى التوراة والإنجيل ، ولا ذِكْرَ له فى كتبهم وقَصَصِهم ، يجيء فى القرآن على أصله عربيا ، على خلاف الأعلام التى ثبتت لها العَلَمِيَّة من قبل بغير لغة القرآن ، فيعرِّبها القرآن .

وربما استنبطت من هذا أيضا - مستدلا بقوله عز وجل : { **ونَادَوْا يامالك ! ليَقْضِ علينا ربُّك !** } (الزخرف : ٧٧) - أن ثبوت العَلَمِيَّة على النداء من أهل النار لمالك باسم عربى - وأهل النار أُمَمٌ شتى يتفاوتون لغاتٍ وأجناسا - يعنى أن لسان الخلق أجمع سيرتد فى الآخرة عربيا . وهو نفس ما تستنبطه من قِيلِ الملائكة : { **سلاماً سلاما** } (الواقعة : ٢٦) لأهل الجنة عرباً وغيرَ عرب ، فتفهم أن لسان أهل الجنة عربىٌ ، وقد رُوِى بمعناه عن الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم .

---

(١) انظر Joseph Horovitz ، المرجع المذكور ، ص ٢٠ و ٢١ .

(٤) هاروت (٥) ماروت
(٦) بابل

ليس فى التوراة والإنجيل " هاروت وماروت " ولا ذكر فى قَصَصِ أهل الكتاب لفتنة هاروت وماروت فى بابل على نحو ما يقصه القرآن : { **واتبعوا ما تتلوا الشياطينُ على مُلْكِ سليمان ، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ، يُعَلِّمُون الناس السحر وما أنزل على الملَكَيْنِ ببابل ، هاروت وماروت ، وما يُعَلِّمان من أحد حتى يقولا : إنما نحن فتنةٌ فلا تَكْفُرْ ! فيتعلمون منهما ما يُفَرِّقُون به بين المرءِ وزَوْجِهِ ، وما هم بضارين به من أحد إلا باذن الله ، ويتعلمون ما يَضُرُّهُم ولا ينفعهم ، ولقد عَلِموا لَمن اشتراهُ ما له فى الآخرة من خلاق ، ولبئس ما شَرَوْا به أنفسهم لو كانوا يعلمون** } ﴿البقرة : ١٠٢﴾ .

ولم تأت "هاروت" و "ماروت" و "بابل" فى كل القرآن إلا مرة واحدة فقط ، هى هذه الآية .

❑❑❑

وقد حار المستشرقون المُنْكرون للوحى على القرآن فى تفسير أصل "هاروت" و"ماروت" ، لأنهم يَبْنُونَ مقولاتهم فى أعلام القرآن على فرض بات مسلما عندهم ، لغَوا به حتى حَسِبُوه حقيقة : القرآنُ يَتَوكأ على التوراة والإنجيل ، ولا عِلم له بما وراء أقاصيص أهل الكتاب . وقد خَلَت التوراة والإنجيل من ذكر " هاروت " و"ماروت"، فمن أين أتى القرآن بهما ؟

قالوا : ربما أخذهما القرآن نقلا عن الديانة الزرادشتية من " خُرْدَت " ، "أمُرْدَت " فى الفارسية البهلوية ("هَرْفُوتَت" ، " أَمُورتَت " فى الفارسية الأفستية) ومعناها " الكمال" ، "الخلود" ، جائزة المتقين بعد الموت . ثم استدركوا على أنفسهم فقالوا إن العرب الجاهليين لم يستقوا عقائدهم من الفرس ، فضلا عن أن التسمية بهذين الاسمين الفارسيين تشخيصا لملكين هبطا من السماء إلى الأرض ليعملا عمل هاروت وماروت ، تسمية لا تنطبق ومن ثم لا تصح .

وقالوا أيضا : ربما أخذ القرآن " هاروت " و " ماروت " من كتاب ينسب إلى أخنوخ (إدريس فى القرآن على ما نرجحه نحن) ، ضاع أصله وبقيت منه ترجمة باللغة السلافية القديمة ، وفيه أن ملكين أحدهما " أَرْيُوخ " والآخر " مَرْيُوخ " أمرا بإغلاق الكتاب على نبوءات أخنوخ حتى تمام الدهور . وهى كما ترى ليست مهمَة هاروت وماروت فى بابل على نحو ما وصفها القرآن . ولكنهم وجدوا فى كتاب بالحبشية يُنسب إلى أخنوح أيضا ، أنَّ ثَمَّةَ ملائكة هبطوا يُعَلِّمُون الناس فُنونَ السحرِ والشعوذة وقطع الأرحام ، فربما أخذ القرآن التسمية من أخنوخ السِّلافى ، وأخذ الوظيفة من أخنوخ الحبشى . إلى آخر ما قالوا .

لم يهتد المستشرقون إذن إلى وجه فى " هاروت وماروت " إلا هذا ، وهو ركيكٌ كما ترى ، ولكنه يُريك إلى أى مدى يتخبط أولئك المستشرقون المنكرون الوحى على القرآن : زعموا أن القرآن يتوكأ على معاصريه من أهل الكتاب فكيف علم القرآن ما جهلوه ؟ كيف حَفِظ هو أخبار أخنوخ السلافى وأخنوخ الحبشى ، وأضاع أصحاب التوراة الأصل العبرى لسفر يُنْسَبُ إلى أخنوخ ؟ أكانت أنباءُ أخنوخ أخباراً يتناقلُها الرواة على عصر النبى ، خَفِىَ أمرها على يهود اليمن والحجاز والشام ؟ فكيف خفيت على مفسرى القرآن وقد توقفوا فى هاروت وماروت ؟ ولماذا اختلفت رواية أخنوخ السلافى عن رواية أخنوخ الحبشى ؟ أترجم المترجمان كُلٌ بمعزل عن "أخنوخ" واحدٍ أم عن "أخنوخين" اثنين ؟ فكيف أخذ القرآن نتفة من هنا ونتفة من هناك ؟ كيف تسنى له الجمع بين هاتين الروايتين فى نسيج واحد ؟ أفقدِ اطّلع القرآنُ على الترجمتين معاً فانفرد وحده بعلم السلاف والأحباش وخفى علم هؤلاء على هؤلاء ؟ أو قد فَرَّغَ القرآن

نفسه لجهد استنفد من جمهرة المستشرقين سنين فى تتبع أخبار السلاف والأحباش والجمع بينها كى يصوغ منها فى النهاية خبراً يأتى عرضاً فى آية أو بعض آية ؟ فمابالك بغير "هاروت وماروت" من أخبار القرآن ، ومن علوم القرآن ، وما أدراك ما علوم القرآن ؟ أنّى يتسع لبعض هذا جهد بشر ، أو عقل بشر ، أو عمر بشر ، فرداً أو جماعة ، وإن عكفوا عليه أجيالاً ؟

على أن أحداً من هؤلاء المستشرقين - يهود ومسيحيين، ومنهم المؤمنُ والملحد لم يتوقف لمناقشة "سفر التكوين" فى روايته لفتنة الملائكة ببابل ، على مامر بك من قوله إن " الله" هبط ببابل ليبلبل ألسنة الخلق فيتفرق شملهم ولا يتموا بناء المدينة ، ومقصوده بالطبع أن " الملائكة" هم الذين هبطوا ، لا الله عز وجل [١] : صاغ كاتب سفر التكوين روايته ليؤصل بها فهمه لمعنى " بابل " ، وليفسر رأيه فى سبب اختلاف ألسنة البشر ، ولم يصب الكاتب كما مر بك فى هذا وذاك جميعا ، ناهيك بوهمه أن المدينة لم يتم بناؤها ، وربما شهد فيها أطلالا ظنها أبنية لم تكتمل [٢] .

هبط الملائكةُ إذن فى بابل كما يقول سفر التكوين ، ولكن لِمَهِمّة غيرِ التى ذكرها الكاتب ، لأن الملائكة إذا أُمِرُوا فَعَلُوا ، فَتَحَقق مراد الله عز وجل ، ولكن الملائكة لم يُؤمروا بهذا الذى ذكره سفر التكوين ، فلم يَهْبِطوا من أجله ولم يفعلوه ، بدليل أنه لم يحدث ، وهو لم يحدث - تَقُولُها بيَقين لا شكَّ معه - لأن ألسنة الناس لم

---

(١) هذا كثير فى لغة التوراة : تريد " الملائكة " وتقول " الله " باعتبار الآمر الموحى عز وجل ، وقد ضل بهذا الخلط بين الألوهية والملائكة كثيرون ممن يتكئون على التوراة فى تأصيل عقيدة التثليث ، بل منهم من أخطأ فقه اللغة العبرية فوهم أن " إلوهيم " على الجمع بمعنى " الله " تشير إلى تعدد " الأقانيم " فى ذات الله سبحانه ، وفاته أنها تجىء على الجمع للتعظيم مع إسناد الفعل للمفرد ، واحد أحد سبحانه : ليس فى العبرية " إلوه " على المفرد ، وإنما هى "الوهيم " للتعظيم ، ومثلها " أدوناى " ، أى " ربى !" فى قول النحاة .

(٢) بُنِيَت بابل حوالى ٢٨٠٠ ق م ، وقد خَرِبَت وأعيد بناؤها مرات ، وكُتب سفر التكوين على الراجح عند محققى نصوص التوراة بعد بابل الأولى بنحو ألفى سنة .

تتبلبل فى " بابل " التى بُنيت أول ما بُنيت فى مطلع الألف الثالثة قبل الميلاد ، وإنما هى تبلبلت قبل مولد بابل - ومن ثم قبل نزول أولئك الملائكة المُكرَمين - بقرونٍ لا يعلم عدتَها إلا الله : حَسْبُكَ أن المصريين وُجِدوا فى مصر قبل أن تُوجَد بابل ، وهم كما تعلم يتكلمون لغةً غيرَ اللغة ، بل حَسْبُك أن الشُومريين الذين غَلَبَهُم الساميُّون البابليون على أرض العراق (بابل من بعد) عاشوا على أرض بابل قبل وفود البابليين على تلك الأرض ، ولا صلة مُحَقَّقَة بين اللغتين الشومرية والبابلية . قد تباينت ألسنة الناس إذن وتفارق الخَلْقُ من قبل أن تُولد بابل ، ولا حاجةَ من ثَمَّ بالملائكة إلى إحداث ما هو حادث .

فيم إذن كان نزولُ الملائكة ببابل ؟ أليس أقْربَ إلى المعقول ما ذُكِرَ فى سفر أخنوخ الحبشى من أن ملائكة هبطوا الى الأرض يُعَلِّمُون الناس فنون السحر والشعوذة و"قَطع الأرحام"؟[1] ألا يُذكِّرك "قطعُ الأرحام" بما قاله القرآن فى شأن هاروت وماروت: {**فيتعلمون منهما ما يُفَرِّقُون به بين المرء وزوجِه**} (البقرة : ١٠٢) ؟

كيفما كان الأمر ، فقد كان هاروت وماروت فتنةً للناس . ولكنها لم تكن فتنةً مُعَمَّاة ، وإنما فتنةٌ على بصيرة : { إنما نحن فتنة فلا تكفر ! } ، أى تَعَلَّم منا هذا كيلا تَعْمَله ، إن حدثتك به النفسُ ، أو عَلَّمَكَ إياهُ شيطان .

□□□

وإتيانُ السحر - تعلمه وتعليمه والاستعانة به - إثم مَنهِيٌّ عنه فى القرآن ، بل هو فى القرآن كفرٌ بَواح : "ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر " . وتستدل على هذا أيضا من قوله عز وجل على لسان سحرة فرعون: { **إنَّا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر** } (طه : ٧٣) ، فتفهم أن تعاطى السحر خطيئة يستغفر منها الذى آمن. والساحر أول من يعلم هذا، فقد باع آخرته بدنياه : {ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق} ، ولكنه لا يدرى كم هو فى الصفقة مغبون: {**ولبئس ما شَرَوْا به أنفسهم لو كانوا يعلمون**} (البقرة: ١٠٢).

---

(١) مثل " حلَقْ " العبرى بمعنى حلَقَ وخلَقَ على السواء ، يتمايزان بالسياق .

أما حقيقة السحر ـ وللسحر حقيقة لا يجحدها إلا مكابر ـ فهى كما قال القرآن على لسان نفرٍ من الجن المؤمن : { **وأنَّهُ كان رجالٌ من الإنسِ يعوذونَ برجال من الجن فزادوهم رهقا** } ﴿الجن : ٦﴾ (١) . الإنسُ والجن عالَمَانِ منفصلان ، بينهما حجابٌ حاجز ، لا يَنْخَرقُ إلا لِغَوِيّ فاسق من هؤلاء وهؤلاء ، يَدعُوه فيستجيب . الجنُّ المؤمنُ لا يفعله ، والإنسُ المؤمن لا يطلبه، وإنما يفعله الجن الكافر ، إبليسُ وُقبيله ، إن عُذتَ به أعاذك ، وإن استعنتَهُ أعانك . وهو لا يُعينُك فى خير مهما تَوَهَّمْت ، لأنه مكفوفٌ بكفره عن فعلِ الخير : لا يستطيعُه لك ولا يُريدُه بك ، وإنما هو يُعينك على الشر والضُّرِّ والأذى . يُمهد لك بادىء بدء بما يستهويك ، حتى إذا آنست فى نفسك بهِ قُوَّة ، ركَنْتَ إليه ، فصرت فى قبضته ، تَظُنُّ " الخاتم " فى أصبعك ، وهو فيك الآمر الناهى ، الفعل له والإثم عليك ، فأنت الساحر والمسحور معا ، وإن شَدَهْتَ أبصارَ الناس وثَمِلتَ بهُتافهم ، ولذَّ لكَ انبهارُهم بك ، وتَوَجُّسُهم منك ، وتَحَيُّرُهُم فى أمْرِك .

السحر إذن هو استخدامُ الجن الكافر، أى الشياطين (والشياطين عَلَمٌ على صنف الجن الكافر) ـ وقد علمت أن الشيطان معناها العدو ـ فى الإتيان بخارق يهولك . وهو يهولك لأنك لا تعلم القوى الفاعلة فيه ، ولا علم لك بالوسائل التى يتحقق بها الفعل . أنت مثلا لا تسمى المعجزة سحرا لأنك تعلم يقينا أن الله عز وجل هو الفاعل . ولا تهولك عجائب العلم فى هذا العصر ومخترعاته ، فقد علمت ما وراءها . حتى الصعود إلى القمر ونقل صور صوتية ـ مرئية منه إلى الأرض فى ثوان لم يعد يهولك، لأنك أنت نفسك تستطيعه متى توسلت إليه بوسائله المعروفة لك الآن. وهو بلا شك أعتى وأدهى من إتيان ذلك العفريت من الجن (٢) بعرش " بلقيس " من سبأ فى اليمن إلى "سليمان " فى فلسطين قبل أن يقوم من مقامه ﴿النمل : ٣٩﴾ ، أى فى نحو ساعة أو ساعتين ، وهو ما تستطيعه اليوم طائرة متوسطة الحجم ، غير بالغة

---

(١) أى يَزيدونَهم خبالا : لا ترى ساحرا إلا مُنقلِبَ السحنة ، مُتَقَبِّضَ الأسارير ، زائغ النظرة ، كملبوسٍ أو به مس ، وهو كذلك بالفعل .

(٢) العفريتُ يعنى الداهية الخبيث ، أو هو الشَدِيد القوى ، شاعت فى مُطلق الجن ، وليس كذلك ، وإنما هى الداهية القوى ، جِنّاً وغير جِنّ .

السرعة . ولكن اقتراح هذا العفريت مازال إلى اليوم يهولك ، لأنك لا ترى هذا العفريت ، ولا ترى الوسيلةَ التى يتحقق بها الفعل ، وإنما ترى العرش أمامك . على أن سليمان لم يُشْدَه باقتراح هذا العفريت من الجن الذى سخره الله له ، فقد مَكَّنَه عز وجل فيما هو أعظم : { **قال الذى عنده علمٌ من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك** } ﴿النمل : ٤٠﴾ ، قالها بَشَرٌ من ملأ سليمان عَلَّمَهُ الله ، فهو مستجاب الدعوة ، تُطْوَى له المسافاتُ وينعدمُ الزمن [١] ، ساءه أن يستعلى هذا العفريت فَرَدَّ عليه بما أسكته ، وألزمه مكانه لا يتعداه . الجن مهما عظم ـ شأن هذا العفريت من جن سليمان ـ محدود القدرة ، محكوم بمدى الاستطاعة ، لأن استطاعته من ذاته بقدر طاقته ، تَعُوقه المسافة ، ويَعُوزه الزمن . أما المَلَك فمن أمر الله تبارك وتعالى ، كُلِّى القدرة سبحانه . وكأنَّ تلك الآيات من سورة النمل وهى تَقُصُّ عليك من أنباء سليمان عليه السلام ، تُريد أن تُبَيِّنَ لك الفرق بين فعل الجن محدود القدرة ، وبين فعل المَلَك العامل بأمر الله لا يحد من قدرته حد . وهو نفسه الفرق بين السحر والمعجزة . إنه الفرق بين " عصا موسى " وبين حبال السحرة وعِصِيِّهم : الأولى عاملةٌ بأمر الله عز وجل ، نافذٌ بها أمرُه ، لا يُعْجزها شىء ، والأخرى " كيد ساحر " يستعين الجِنَّ على باطله .

وليس فعلُ الجن ـ أى السحر ـ تخييلا كله ، وإنما هو تخييلٌ فحسب إن تعلق بتغيير الصورة المادية لشىء مادى ما ، كما مر بك فى حبال السحرة وعصيهم : {**فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى** } ﴿طه : ٦٦﴾ ، قد خلت الساحة من الحبال والعصى وامتلأت حَيَّاتٍ وأفاعى . أما ثعبانُ موسى الذى خَلَقَ اللهُ عز وجل من تلك العصا وأعادها مِن بعدُ سيرتَها الأولى ، فقد أكل الحياتِ والأفاعى ، لا على التخييل ، وإنما على الحقيقة . دَليلُكَ فى هذا أَنَّهُ أتى أيضا على الحبال والعصى ، أصْلِ تلك الحياتِ والأفاعى : التقط موسى عصاهُ ، ولم يستطع السحرة استعادةَ حبالهم وعصيهم ، فقد أعدمها الله عز وجل ، بارىء كل صورة ومُفْنِيها . على أنك مهما قلت فى هذا " التخييل " الحادث بفعل السحرة ، فهو واقعٌ

---

(١) الذى نراه أَنَّهُ أستُجِيبَ لَهُ فيهِ بملَك : لا يستطيعُ هذا إلا مَلَكَ .

وَقَع ، ليس تهاويمَ نائم ، مُنَوَّمٍ أو مَخْدُور ، دليلُك فى هذا أن الذى " خُيِّل اليه " فى الآية السابقة هو موسى نفسُه ، البرىء من ذلك .

ومن السحر أيضا فعلٌ محض ، أى باقٍ أثَرُه فى المادة بعد زوال المؤثر ، لا كالتخييل الموقوت بزواله ، بل منه الذى تَلْمَسُهُ بيديك ، وتُسَجِّلُهُ عدساتُ التصوير البريئةُ من التَّخَيُّلِ والوهم ، كالذى تراهُ فى ألعاب السحرة التى يحتشد لها الناس ، ومنها خارق لا تفسيرَ لَهُ بمنطق العقل والعلم ، والحقُّ أنه لا مُحالَ فيه عقلا وعلما ، متى سَلَّمْتَ بوجود الجن ، الذى خلقه اللهُ من " مارج من نار " لا تَعكسُ صورتَهُ الأشعةُ الضوئية التى تَرَى أنت بها ، ولا تَنْقِل صَوْتَهُ ذبذباتُ الصوت التى تسمع أنت فى نطاقها ، وكم فى خلق الله عز وجل من كائناتٍ تَلْمَسُ آثارها ، وإن لم تُدْرِكْ أجسامَها أو تُحِسَّ حسيسَها .

من عَمَلِ الجن إذن أفعالٌ مادية متحققةٌ فى الزمان والمكان ، مدارُها على مدى الاستطاعة ، يستطيعُها المُؤَهَّلُ لها ، أى يستطيعُها الجن ، ولا يستطيعُها الإنس . ولكن الجن محجوبٌ عنك ، غيرُ مرئىٍّ لك ، فتنسبُها إلى الساحر ، الذى " عَلَّمَهُ " الجنُّ كيف ينصب له الأدوات ، ويهيىء له المسرح ، والذى لَقَّنَهُ " التعازيم " التى يستدعيه بها ، وعَلَّمَهُ الإشاراتِ والرموزَ [1] التى " يتراسل " بها معه : يضعُها له فى قاع بئر مُعَطَّلَة ، أو يَدُسُّها فى نواحى خِرْبَة [2] ، أو تحت وسادة المراد تسحيرُه، وربما أضاف إليها شيئا من " أثر " الشخص الذى يُراد الكيدُ له ، حتى إذا مر بها الجن فى تَطوافه فَهِمَ المطلوب ، وقام بالمهمة غيرَ مرئىٍّ ولا محسوس . وقُلْ الشىءَ نفسه فى ألعاب السحرة : الفاعلُ هو الجن ، والظاهر لك هو الساحر . وليس عِلْمُ السحر وتَعَلُّمُهُ وتعليمُه إلا هذا .

أما الهدفُ فهو افتتانُ الإنسِ بالجن ، أى استهواءُ الإنسِ بالجن ، { **كالذى استهوته الشياطينُ فى الأرض حَيْـران** } ﴿الأنعام : ٧١﴾ ، وغرس المهابة فى

(١) أى " العَمَل " فى لغة السحر والشعوذة . ومنه السحر الذى صنعه لبيد بن الأعصم اليهودى للنبى صلى الله عليه وسلم ، فكشف الله خبثَه .

(٢) الخِرْبَة ، بكسرِ فسكون ، يعنى الأرض الخَرِبَة ، وهى " الخَرابَة " بلغة العامة .

صدور الناس من إبليسَ وصنائعه ، قد خُومرَ عقلُك ، وذهب علمُك ، وضاع ايمانُك . ومتى انهزمَ العقلُ والعلم ، فقد انتصر الجهلُ وسادت الخرافةَ ، فزادك خبالا على خبالك ، تَخافُ ظلَّك ، وتُؤرقك أشباحُك ، تأتمرُ بالدجال والعراف والكاهن ، وتَنْحتُ لك من الوهم أصناما وأوثانا ، ومعبودُك فى واقع الأمر هو الشيطان نفسه ، قد أسلستَ له قيادك ، وكفى بهذا إثماً وخُسرانا .

قد كَفَر الشياطينُ إذن الذين عَلَّمُوا الناسَ السحر ، وزَيَّنُوا لهم ما أُنزلَ على الملكين ببابل ، وكَفَر أيضا صنائعُهم الذين تَقَبَّلُوا منهم هذا السحر وعَمِلُوا به ، أى الذين استعاذوا بالشياطين فأعاذوهم ، { **وما كفر سليمان** } (البقرة : ١٠٢) ، لأنه لم يَسْتَعِذْ بالجن ، وإنما سُخِّرَت له الجنُّ تسخيرا: {**ومن الجنّ من يعمل بين يديه بإذن ربه، ومن يَزِغْ منهم عن أمرنا نُذِقْهُ من عذاب السعير. يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجِفَانٍ كالجواب**[١] **وقدورٍ راسيات**} (سبأ: ١٢ ــ ١٣) . سأل سليمان ربَّه مُلْكاً لا ينبغى لأحد من بعده: {**قال رب اغفر لى وَهَبْ لى مُلكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنَّكَ أنتَ الوَهَّابُ. فَسَخَّرنا له الريحَ تجرى بأمره رُخاءً**[٢] **حيثُ أصابَ . والشياطينَ كُلَّ بناءٍ وغواص . وآخرين مُقَرَّنين فى الأصفاد . هذا عطاؤنا، فَامْنُنْ أو أَمْسِكْ بغير حساب**} (ص : ٣٥ ــ ٣٩) . كانت الجنُّ فى هذا كُلِّه مأمورة ، وكان سليمانُ فيها حاكما مُحَكَّمًا بسلطان الله. على أن سليمان عليه السلام لم يستخدم الجن فيما يَفْتِنُ الناس، ولم يستخدمه فيما يُضلُّ عن سبيل الله ، بل فى الهداية إليه سبحانه ، كما تجد فى قصته مع ملكة سبأ : { **قيل لها ادخلى الصَّرْحَ ، فلما رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّة وكشفت عن ساقيها ، قال إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ من قوارير ، قالت ربِّ إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين** } (النمل : ٤٤) .

وتستطيع أن تُنَسِّقَ على هذا أن "هاروت" و " ماروت " المَلَكَيْنِ المُكْرَمَيْنِ لم يَكْفُرا بما عَلَّماهُ الناسَ فى بابل ، لأنهما كانا به مَأمُورَيْنِ فتنةً للمُتَلَقِّينَ منْهُما ، تبصيرا للناس ، وزجرا للناس عن إتيانِ السحر وعن تَعَلُّمِه وتعليمه .

□□□

---

(١) أصلها " كالجوابى " ، جمع جابية ، حذفت ياؤها ترخيما .

(٢) لو لم يقل " رخاء " لأهلكت الريح ما عليها وما تحتها ، فتأمل .

أما قولُ مفسرى القرآن فى "هاروت" و"ماروت" و "بابل" (راجع تفسير القرطبى للآية ١٠٢ من سورة البقرة) ، فقد توقفوا فى تفسير معنى "هاروت" و"ماروت " مُكتفينَ بأنهما عَلمانِ أعجميان مُنِعَا من الصرف للعجمة، وهذا يَدُلُّكَ على أن أهل الكتاب المعاصرين لهؤلاء المفسرين لم يكن لديهم هم أيضا شىءٌ فى تفسير معنى هذين العَلَمَيْن ، فتستنبط من هذا أن أهل الكتاب هؤلاء كانوا إلى ما بعد عصر نزول القرآن لا يعلمون شيئا عن " أريوخ " و " مريوخ " فى أخنوخ السلافى ، ولا عن الملائكة الذين هبطوا إلى الأرض يعلمون الناس فنون السحر والشعوذة وقطع الأرحام فى أخنوخ الحبشى ، لا بأصل هذه الرواية ولا بترجمتها السلافية أو الحبشية اللتين استخرجهما المستشرقون من أوراق الكنيستين البلغارية والحبشية ، وأن القرآن كان أسبق من هؤلاء وهؤلاء الى مُجْمَلِ هاتين الروايتين .

وأما قول مفسرى القرآن فى معنى " بابل " ، فقد تابعوا أهل الكتاب فى تفسير معناها بالبلبلة ، وردَّدوا دونَ تَثَبت رواية سفر التكوين فى المقصود من ذلك وهو التعليل لتفاوت ألسنة الخلق ، ولم يلتفتوا إلى قوله عز وجل : { **ومن آياته خَلْقُ السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم** } (الروم : ٢٢) ، أى أن المخالفة بين ألسنة الناس آية ماضية فى الخَلْقِ منذ بَدْءِ الخَلْقِ بآدم ، شأنُها شأن المخالفة بين ألوانهم ، لا شأنَ لها ببلبلة الملائكة فى بابل : لو صح هذا الذى رواه سفر التكوين لتوقف عدد لغات أهل الأرض عند الذى انتهت إليهِ محنةُ بابل ، ولكن الذى حدث هو أن لغاتِ البشر لا تزالُ إلى اليوم تموتُ وتتوالد .

□□□

على أن "أريوخ" ، "مَريوخ" ، لم يجيئا فى " أخنوخ السلافى " عبثا : إنهما على الراجح عندى الرسم السلافى لهذين العلمين القرآنيين " هاروت " ، "ماروت" . ولكن القرآن لم يعرِّبهما عن السلاف كما ظن أدعياء الاستشراق على ما مر بك ، ولكنه عَرَّبَهُما عن الأصل الذى تكلم به الناس فى بابل ، والذى تَحَرَّفَ على قلم مترجم كتاب "أخنوخ السلافى" .

فانت تعلم أن مَهْبِطَ هذين الملكين قد كان ببابل ، فتقطع بأنهما تَعَرَّفا ـ أى تَسَمَّيا ـ لأهل بابل بلغة أهلها . والبابلية لغةٌ ساميِةٌ بادت ، وما تَجَمَّعَ للغويين من

ألفاظها نَزْرٌ يسير ، على شكٍ فى صحة نطقه ومعناه ، استظهروه من كتاباتٍ بخطٍ مسماريٍ سَبَقَ إليه شومريون ـ غيرُ ساميين ـ فخلا من أصواتٍ تختص بها اللغاتُ السامية ، واستخدمه من بعدهم البابليون على علاَّته ، فلا تدرى أفَسَد لسانُهم باستخدام ذلك الخط أم اعتجم علينا نُطقُ ما كتبوه ، أم كِلا الأمرين معا . ومن ثم لا يُستطاع رَدُّ اشتقاق هذين الاسمين "أريوخ" ، "مَريوخ" إلى أصل بابلى مقطوع بمعناه. على أن فى عبرية التوراة الاسمين العَلَمين "أريوخ" ، "مرِيُوت" ، الأول بمعنى "الأسَدِى" (أى الشبيهُ بالأسد) والثانى بمعنى "المراء" على الجَمْع (أى "مرِاءات") وكلاهما فى عبرية التوراة عَلَم مذكر . واللفظ "آرا" ، "آرى" فى كل من البابلية والعبرانيـة والآراميـة معنـاه "الأسد" (وهى "هُرّ" العربية بضم الهاء وتشديد الراء ومعناها الأسد لا "هِرّ" مكسورة الهاء بمعنى "القط") ، أما الواو والخاء فى "أريوخ" فهى فى البابلية الفارسية كاسِعَة تُفيد النسب على الصفة . وربما قلت إن "مرِيُوت" العبرانية أصلها " مَريُوخ " البابلية الفارسية (مرى + وخ) على النسب إلى "مَرِى" يعنى العجل المُسَمَّن (وهو "المارىُّ" فى العربية) . ومن ثم يكون معنى هذين الاسمين "أريوخ" ، "مَريوخ" ، هو المنسوبُ إلى الأسَد والمنسوب إلى العجلِ "المارىِّ" . وليس على هذا أو ذاك دليلٌ تستريحُ اليه .

أما الذى نقوله نحن ، فهو أن العَلَمين "هاروت" ، "ماروت" لم تَثْبُت لهما العَلَمية فى الكتب السابقة حتى يلتزمَ القرآنُ بالاتيان بهما على ما جاءا به فى التوراة والإنجيل على نحو ما مر بك فى شأن "جبريل" ، "ميكال" . وإنما جاء بهما القرآن على أصلهما فى العربية الأولى . وقد جاء بهما القرآن على زِنَة المبالغة "فَعْلُوت"، كما تجىء "طاغوت" من " طَغَى " ، "جالوت " من " جَلا " ، " طالوت " من "طال" . إنهما على الراجح عندى تعريبٌ على التفسير من الهُراء والمرية ، أو الهَرْءِ والمَأر (أى القَطعُ والإفساد) ، تسميةً لهما بذلك "العلم" الذى عَلَّماهُ الناس فى بابل ، وكانت به "الفتنة" التى تَعَرَّفا بها للناس : { **إنما نحن فتنةٌ فلا تَكْفُر !** } ﴿البقرة : ١٠٢﴾ .

أما " بابل " فى القرآن فهى مُفَسَّرَةٌ بذاتها لا تحتاج إلى تفسير ، وقد عَلمْتَ أنها من البابلية "باب + ايلو" ، أى "باب + إل" ، يعنى "باب الله" ، سُهِلَت همزتُها على المزجية، ورغم أنها جاءت على وزنِ شائع فى العربية وهو "فاعِل" ، فقد مُنعت من الصرف للعلمية والتأنيث قبل المزجية وقبل العجمة .

ولكنك تستشف من القرآن تفسيرا لمعنى بابل بالتصوير ، أى بالسياق العام .
فأنت تعلم أن البابليين كانوا من عبدة الكواكب ، يُديمون النظر فى النجوم ، وأنهم بَنَواْ ذلك "البرج" الذى سميت به المدينة من بعد "باب ايلو" ، والمقصود بالطبع "باب السماء" ، معبدا لإلههم الأكبر "مَرْدوخ" (كوكب المريخ على الراجح) ، كُوَّةٌ نافذة فى السماء يرصدون منها آلهتهم هذه، على نحو ما فعل فرعون : { **فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطّلع إلى إلهِ موسى** } (القصص :٣٨) .
أرادوها كُوَّةً نافذةً فى السماء يرقبون ويتسمعون، فكانَ لهم ما أرادوا : كان "الباب" الذى صنعوا ، باباً نزل عليهم منه هاروتُ وماروت بالفتنة : { **وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت** } (البقرة : ١٠٢) .

(٧) الفردوس (٨) عــــدن

ليس فى التـوراة "فِردَوْس" ـ وهى پَرْديس العبرية (بإمالة الياء). وليس فى التوراة أيضا "عَدْن" ـ وهى عِدِنْ العبرية ـ لا بمعنى "النعيم" (من عَدَنْ العبرى المكافىء فى العربية للجذر "غَدِنَ") ، ولا بمعنى "الإقامة" (من "عَدَنَ" العربى) ، وإنما "عِدِنْ " فى التوراة اسم موضع فى هذه الأرض التى نعيش عليها ، يُطلقه علماء التوراة على إقليم ما فيما بين النهرين (العراق) . أما "الجنة" (جَانْ العبرية) فهى "حديقة" لا أكثر ولا أقل فى إقليم "عِدِن" هذا (جَانْ بِعِدِن، أى جنة فى عدن) "غرسها الرب الإله فى عِدِنْ شرقا"، ووضع آدم هناك كالبستانى "يُفْلِحُها ويَحْفَظُها" [١] . ومن عدن هذه خرج نهر يسقى تلك الحديقة " الجنة " ، ومن هناك ينقسم أربعة رؤوس أنهار ، أصل كل أنهار الأرض (راجع فى هذا كله سفر التكوين ٢/٨ ـ ١٥) . ليست الجنة المعنية فى التوراة هى "الجنة" المعنية فى القرآن ، وإنما هى حديقة صنعها الله لآدم ثم طرده منها لعصيانه ، لا يعودُ إليها من بعد ، لا هو ولا بنوه . ليست هى فى السماء كما تستظهر من قوله عز وجل : { **قال اهبطا منها** } ﴿طه : ١٢٣﴾ ، {**إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تُفَتَّحُ لهم أبوابُ السماء ولا يدخلون الجنة** } ﴿الأعراف : ٤٠﴾، {**ولقد رآه نزلةً أخرى. عند سِدرة المنتهى. عندها جنةُ المأوى**} ﴿النجم ١٣ ـ ١٥﴾ ، { **فهو فى عيشةٍ راضية . فى جنةٍ عالية** } ﴿الحاقة : ٢١ ـ ٢٢﴾، {**وفى السماء رزقُكُم وما تُوعَدُون**} ﴿الذاريات : ٢٢﴾ ، وأكبـر من هــذا كُلِه وأبْيَن قولُهُ عز وجل : { **إنَّ إلى ربِّكَ الرُّجْعَى** } ﴿العلق : ٨﴾ . وليست كذلك الجنة فى التـوراة . " جنة التوراة " هى جنةٌ

(١) العبارة فـى ترجمة التوراة العربيـة " ليَعْمَلَها ويحفظَها " وليس بالجيد فى ترجمة " لعَبِدَاه ولْشَمِراه" العبرية : "عَبَدْ " العبرى هنا بمعنى " الفلاحة " ، ومنه فى العبرية " عَبُودَتْ ـ أَدَما " يعنى الزراعةُ عِلماً وحرفة (أدما العبرى يعنى الأرض ، مأخوذة من الأدمة والأديم فى العربية ، وسيأتى).

آدم ، بقعةٌ فى إقليم من هذه الأرض ، لا " جنةٌ عرضُها السمواتُ والأرض " كما أخبر القرآن : { **وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنةٍ عرضُها السمواتُ والأرض أعدَّت للمتقين** } (آل عمران : ١٣٣) ، لا تسعها "عدن" التى فى العراق ، ولا العراقُ أجمع ، ولا هذا الكوكبُ كُلُّه .

والحق أنك لا تجد فى التوراة ، ولا فى الإنجيل أيضا، حديثا عن الدار الآخرة، لا مستفيضا ولا مجملا ، وكأن " أهلَ الكتاب " أعْرَفُ بتلك الدار من أن تُعَرَّفَ لهم. فقد شُغلَ كتبةُ أسفار التوراة بالأخبار والأنساب والسير ، وشغل كتبةُ الأناجيل بسيرة عيسى عليه السلام وأعمال " الرسل" ، ومجيء المُخَلِّص " عند اكتمال الزمان يضعون عليه أحْمَالَهم . كان على الذين يؤمنون بالله ورسله واليوم الآخر أن ينتظروا نزول القرآن حتى يعلموا علم تلك الدار مبسوطا مفصلا ، مُبَيَّنًا ومُعَرَّفًا : {**ويُدخِلُهم الجنة عرَّفَها لهم** } (محمد : ٦) .

والإنجيل أيضا يتابع التوراة فى قَصرِها "الجَنَّة" على تلك "الحديقة" التى طرد منها آدم وحواء (وهى باليونانية " كِيپوس Kipos) . أما الجنة بمعنى دار النعيم فى الآخرة فالإنجيل يسميها "ملكوت السموات" (فى أحد معانى هذا التعبير الإنجيلى)، و "بنو الملكوت" فى لغة الانجيل هم " أصحاب الجنة " بالمعنى القرآنى ، أما "أصحاب النار" فهم الممنوعون من دخول الملكوت . ولكنك لا تعلم من الإنجيل شيئا فى وصف نعيم "بنى الملكوت" هؤلاء إلا أنهم فى صحبة الملائكة والأنبياء والصديقين الأطهار. من هنا كانت السماء (Heaven) مرادفا لمعنى الجنة عند الأوروبيين المسيحيين. ولئن كان الإنجيل ـ بوضعه الجنة فى السماء ـ قد سَجَّلَ تقدما بالغَ الخطورة على التوراة التى بين يديك ، فقد كان التعبيرُ بلفظ " الملكوت " عن دار النعيم فى الآخرة غَيْرَ دقيق ، لأنك تعلم من القرآن أن هذا الملكوت الذى فى السماء يتجاورُ فيه على سواءٍ أهلُ الجنة وأهل النار: { **وبينهما حجابٌ** } (الأعراف : ٤٦) يَتَنَادَوْن : { **ونادى أصحابُ النار أصحابَ الجنة** } (الأعراف : ٥٠) .

وينفرد الإنجيل من دون التوراة التى بين يديك بالنص فى ترجمته العربية على "الفردَوْس" بالاسم: "فقال له يسوع الحق أقول لك إنك اليوم تكون معى فى الفردَوْس" (لوقا ٢٣/٤٣) ، ترجمة لليونانية "پَرَاذِيسو" Paradeiso التى أخذتها اللاتينية على علاتها Paradisus ، ومنها Paradis الفرنسية و Paradise الانجليزية .

وقد أعضَلت "پَرَاذِيسو" اليونانية هذه على الذين ترجموا من بعد الأناجيل اليونانية الأصل إلى العبرية (لغة المسيح) ، ولكنهم فهموا من السياق وحده أن المسيح يعنى "جنة عدن" ، أى "الجنة التى فى عدن" ، أعنى "جَانْ بِعِدِن" ، فترجموا "اليوم تكون معى فى الفِردَوْس" إلى العبرية هكذا : "تهْيِه هَيُوم عِمَّادى بجان عِدِن" ، وقد مر بك أن "جنة عدن" فى التوراة هى "جنة آدم" ، لا شأن لها بدار النعيم فى الآخرة، فتفهم أنهم لا يعرفون للفردوس مقابلا فى العبرية هو "پَرْدِيس" ، أو بالأحرى أنهم لا يفهمون من "پَرْدِيس" العبرية المعنى الذى أراده المسيح والمفهوم من السياق . وتدرك أيضا أن مترجمى الأناجيل إلى العربية ما كانوا ليضعوا " الفِردَوْس" موضع " پَرَاذِيسو " اليونانية لو لم يتنزل القرآن بتسمية "الفِردَوْس" ، وإلا لقالوا "البستان" أو "الحائط" (بمعنى البستان) ، وهى الترجمة الدقيقة للفظ "پَرَاذِيسو" اليونانية ، كما تدرك لماذا لم يقولوا "الجنة" ، لأنهم يعلمون أن "جَانْ" العبرية هى "جنة آدم" ، لا دار النعيم فى الآخرة . وتدرك أخيرا كم استفادت اليهودية والمسيحية من القرآن فى جلاء الضباب عن كثير من غوامض تلك المعانى العليا .

ولكن المستشرقينَ مَرْضَى الهوى والغرض يقولون لك إن القرآن نحت "فردوسه" من "پَرَاذِيسو" التى فى إنجيل لوقا ، وأخذ "جنات عدن" عن تلك الجنة التى فى عدن ، "جَانْ بِعِدِن" من سفر التكوين .

□□□

أما " پَرَاذِيسو " اليونانية هذه فليست يونانية ، ولا علم لليونان بها قبل عصر المسيح ، وإنما هى منحولة كما يقول اللغويون من الفارسية (پَيْرِى + دَيْزا) Pairi + Daeza (پَيْرِى = حَوْلَ ، دَيْزا = جِدار) فهى السُّور أو الحائط ، أستعير للبستان أو الحديقة ، كما استعارت العربية لفظ " الحائط " أى المَحُوط ، لهذا المعنى نفسه ، باعتبار السور الذى يحوطه ويحفظه ، لا باعتبار محتواه . فلا تدرى لماذا يأخذ كتبةُ الأناجيل من الفارسية القديمة ولديهم فى اليونانية "پِريبولى" Periboli بنفس المعنى ـ أى الحائط بمعنى البستان ـ ولديهم أيضا مطلق الحديقة Kipos ، أما إن أرادوا حديقة الفاكهة خاصة فلديهم "أُپُوروكيپوس" Oporokipos . لا يفعل كتبةُ الأناجيل اليونانية هذا إلا إذا كانوا قد سمعوه من المسيح عليه السلام ملفوظا على نحو قريب من "پَرَاذِيسو" فتأول لها اللغويون هذا الأصل الفارسى القديم كما مر بك ، دون أن

يتساءلوا عن سبب نطق المسيح عليه السلام بهذا اللفظ الفارسى القديم ، ولديه فى لغته "جَانْ" و "جَنَّا" ، إلا إن كان عليه السلام يقصد جنة بعينها ، كما قال الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم ما معناه : "إذا سألتم الله فاسألوه الفِرْدَوْس ، فإنه أَوْسَطُ الجنة " .

وهذا يعود بك مباشرة إلى "پَرْديس" العبرية ، التى تَنَكَّر لها مترجمو "پَراذِيسو" فى الترجمة العبرية للأناجيل اليونانية .

ولكن " پَرْديس " العبرية اسمٌ جامد ، لا اشتقاقَ له فى المعجم العبرى ولا جذر له فى العبرية يُرَدُّ اليه ، فهو إما دخيلٌ على تلك اللغة ، وإما اسم أُمِيتَ جذرُه وبقى الاسمُ بمعناه .

□□□

وردت الفِرْدَوْسُ فى القرآن مرتين فحسب ، الأولى مضافا إليها "الجنات" على النسب : { **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفِرْدَوْس نزلا** } (الكهف : ١٠٧) ، والثانية منفردة : { **أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفِرْدَوْس هم فيها خالدون** } (المؤمنون : ١٠ ــ ١١) . والجمع بين حديثه صلى الله عليه وسلم فى وصف الفِرْدَوْس بأنه أوسط الجنة ، وبين الفِرْدَوْس فى سورتى الكهف والمؤمنون ، يقتضى فهم الفِرْدَوْس بأنها عَلَمٌ على موضع متميز فى قلب الجنة يرثه الأخيار من عباد الله الذين اكتملت فيهم صفة المؤمن على ماتَعْرِف من أشراطها فى أول سورة المؤمنون ، تحيط به جناتٌ تُنْسَبُ إليه - "جنات الفِرْدَوْس" فى سورة الكهف - يرثها المؤمنون الذين يعملون الصالحات بعامة ، أى مطلق المؤمن ، لا خيار المؤمن .

مصداقُ هذا التمييزُ بين "أصحاب اليمين" بعامة ، وبين "السابقين المقربين" ، أى الخِيرة : { **ثلة من الأولين . وقليل من الآخرين** } (الواقعة : ١٣ ــ ١٤) ، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه ، لا بعملنا وهو فى جنب الله عز وجل قليل . ومصداقُه أيضا فى سورة الرحمن ، تمييزا بين الجنتين اللتين لمن خاف مقام ربه : { **ولمن خاف مقام ربه جنتان** } (الرحمن : ٤٦) ، وبين الجنتين اللتين لمن دون هذا فى المنزلة : {**ومن دونهما جنتان**} (الرحمن : ٦٢) ، أى لعموم المؤمن .

□□□

والقائلون بعربية الفِرْدَوْس يشتقونها من " الفردسة " ، أى التوسعة والتعريش ، من فردس الكَرْم أى وسَّعَهُ وعرَّشه ، وفردس قِرْنَهُ يعنى صرعه ، وفردس وعاء التمر ونحوه يعنى حشاه وغلا فى حشوه ، ورجل فُرادِس يعنى ضخم العظام ، والفُرْدَوْس بضم الفاء الزيادة والسعة فى الحنطة ونحوها . وهذا كله يقطع ما بين اشتقاق "الفِرْدَوْس" فى العربية وما بين اشتقاق "پراذيسو" اليونانية و "پَيْرِى + دَيْزا" الفارسية ومعناها السور أو الحائط : العربية من الضخامة والسعة والبسط ، والأعجمية من التسوير والإحاطة .

" فردس" العربية كما ترى جذر رباعى . والمادة الرباعية فى اللغات السامية ليست بالجذر الأصيل : إنها غالبا إما على التضعيف مثل " زل + زل " ، وإما ثلاثى زيد بحرف مثل " خَثْرَ +م" بمعنى غِلَظِ الشَّفة أو طرف أرنبة الأنف (وخثر بمعنى غلظ) ، وإما مزجى يجمع بين معنيين مثل " دح + رج " أى دَفَعَهُ مُتَحَدِّرا ، من الدَّحْى والرجرجة .

أصل " فردس " إذن إما "فرد + س" من فَرَدَ بمعنى نثر وفَرَّقَ وباعد مزيدا بالسين على المبالغة، كما فى "قسط + س"، وإما أن تكون على المزجية "فر + دس" من الفراهة والدِّياسة ، أو من الفُرَّة والدِّيسة . الأولى - "فرد + س" - تطابق معانى "فردس" فى المعجم العربى ، أى البسط والسعة والتعريش ، والثانية "فر + دس" ، التى لم يقل بها أحد ، تطابق تعريفه صلى الله عليه وسلم معنى " الفِرْدَوْس " بأنه أوسط الجنة وأعلى الجنة . أما " الدِّيسة " فمعناها العشب الطرى (وهى " ديشه " العبرية و "ديثه" الآرامية) ، ومعناها أيضا - الذى أعنيه هنا - الغابة الكثيرة الشجر. وقد علمت أنَ " الجنة " فى اللغة معناها الحديقة ذات النخل والشجر ، من " جَنَّه" يعنى ستره ، فالدِّيسة بهذا المعنى تكافىء الجنة . وأما " فَرُهَ " من الفراهة فمعناها جَمُلَ وحَسُن . وأما الفُرُّ والفُرَّة (من الجَذْرِ فـ/ ر/ ر) فهو خيارُ الشىء . فيكون معنى الفِرْدَوْس " خيار الجنة " كما قال الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم .

وقد عرف العرب "الفِرْدَوس " ، " الفراديس " قبل القرآن ، يطلقونها على بساتين الكَرْمِ خاصة ، ومنه " فراديس الشام " ، ومنه أيضا قول أمية بن أبى الصلت فى عجز بيت له : " فيها الفراديس والفومان والبصل " . ولأن " الكروم " هى "أكرم"

البساتين عند العرب ـ وليس مصادفة أن يشتق الكَرْمُ من الكَرَمِ أو العكس ـ فقد شاع "الفِرْدَوْس" على بساتين الكَرْمِ خاصة ، وإن كان المعجم العربى يطلقه على "البستان الجامع لكل ما يكون فى البساتين" ، وهذا عندى مُحدَث ، متأثر فى تأصيله بمعنى "الفِرْدَوْس" فى القرآن والحديث .

"أما" برديس "العبرية ، فالمعجم الحديث لألفاظ التوراة" هَمِلُّون هِحَدَاش لتَنَاخ" [1] يعرفُها دون تأصيل بأنها "جَانْ عِصِى پِرِى (جَدُور)" ، أى " جنة الشجر المثمر (مُسَوَّرَةً) " ، فلا تدرى كيف أقحم " التسوير " على اللفظ إلا إذا كان قد تأثر بلفظ " پراذيسو " اليونانية بمعنى السور أو الحائط ، المنسوبة إلى المسيح عليه السلام فى إنجيل لوقا ، وليس فى " پراذيسو " من الشجر المثمر شىء ، رغم أن " جان " العبرية تفيد بذاتها التسوير والسِّتْر .

إن صحت نسبة " پراذيسو" اليونانية إلى المسيح عليه السلام فى إنجيل لوقا ، فالراجح عندى أنه عليه السلام نطقها على العبرانية " پرديس " ، التى تُرَدُّ آخر الأمر إلى العربية " فردوس " ، لا حاجة به إلى اصطناع " پراذيسو " ، التى جاء بها لوقا فى إنجيله ـ لا على الترجمة كما يُظن ـ وإنما على الرسم " اليونانى" ، شأنها شأن كثير من ألفاظ الإنجيل العبرية ـ الآرامية .

لا يحتاج المسيح إلى " پراذيسو " اليونانية وعنده " پرديس " ، وإنما احتاج إليها لوقا اليونانى . ولا يحتاج القرآن إلى " پراذيسو " اليونانية ، فليس "الفردوس" فى القرآن سورا أو حائطا ، وليس بستانا كأى بستان . ولا يحتاج القرآن من باب أولى إلى " پرديس " العبرية ولديه العربية " فردوس " ، خِيارُ الجنة .

❑❑❑

أما مفسرو القرآن (راجع تفسير القرطبى للآية ١٠٧ من سورة الكهف والآية ١١ من سورة المؤمنون) ، فهم يجمعون على عربية "الفِرْدَوس" من فَرْدَسَهُ " بمعنى وسعه وعرشه . وشذ بعضهم فقال بل هى يونانية (على ما مر بك من معنى "پراذيسو") ، أو هى فارسية (على ما مر بك من إرجاع "پراذيسو" الإنجيلية إلى "پَيْرِى + دَيْزا " الفارسية) . وهذا يدلك على أن " پراذيسو " و " پَيْرِى + دَيْزا "

(١) أنظر ثبت المراجع فى نهاية هذا الكتاب .

وقعتا فى كلام الفرس والروم على السواء عصر تصنيف تفاسير القرآن . ولم يصب هؤلاء فيما قالوه ـ وتوكأ عليه من بعد أدعياء الاستشراق فى العصر الحديث ـ لأن جعل "الفِرْدَوْس" بمعنى الجنة أو البستان يصطدم بقوله عز وجل فى سورة الكهف "جنات الفردوس" التى تَؤول على هذا القول إلى "جنات الجنة" أو "جنات البستان" ، وهو لغو يتنزه عنه القرآن ، لأن إضافة الشىء إلى مرادفه لا تصح إلا بزيادة فى معناه . وهو يصطدم أيضا بتعريفه صلى الله عليه وسلم معنى الفِرْدَوْس بأنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ، أى "خيار الجنة" .

الفردوس إذن عربية لا مُشاحَّة . وسترى الآن توا أن " عدن " كذلك .

□□□

عَدَنَ بالمكان عَدْنًا يعنى أقام. وعَدَنَ البلدَ عَدْنًا يعنى تَوَطَّنَه، لا يريمُ ولا يَبْرَح. فـ "جنات عدن" يعنى "جنات إقامة" . مصداق هذا قوله عز وجل : { **ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا . ماكثين فيه أبدا** } ﴿الكهف : ٣﴾ . ودَفَعَ عز وجل مَظِنَّةَ السأم من هذا التأبيد وإن كان فى الجنة بقوله فى ختام السورة : { **لا يبغون عنها حولا** } ﴿الكهف : ١٠٨﴾ . إنها جنةُ المأوى : {**عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى**} ﴿النجم : ١٤ ــ ١٥﴾ ، {**فلهم جناتُ المأوى نُزُلاً بما كانوا يعملون** } ﴿السجدة : ١٩﴾ ، وهى دار المُقامة : {**الذى أحَلَّنا دار المُقامة من فضله**} ﴿فاطر : ٣٥﴾ ، وجنة الخلد : { **جنة الخلد التى وُعِد المتقون** } ﴿الفرقان : ١٥﴾ ، ودار الخلود : { **أدخلوها بسلام ، ذلك يوم الخلود** } ﴿ق : ٣٤﴾ .

وردت " عَدْنٌ " فى كل القرآن إحدى عشرة مرة . وهى لا تجىء قط فى القرآن منفردة ، وإنما تجىء تسبقها "جنات" على الإضافة التى تُفيد النعت ، أى جنات يُعَدَنُ بها ، لا رَيْمَ ولا بَراح .

ولم تجىء قط فى القرآن "جنة عدن" على إفراد لفظ "الجنة" ، لأن مفرد "الجنة" مُعَرَّفًا بالألف واللام ، عَلَمٌ بذاته على دار النعيم فى الآخرة بكل درجاتها ، فردوسا وغير فردوس : إنه اسم جنس لمجموع " الجنات " التى فى تلك الدار ، يختص فيها كل مؤمن بجنته . ولأن الجنس لا يكون إلا مفردا ، فلم يقل القرآن " جنة عدن " على

الإفراد ، كى لا يُظَنَّ أن "جنة عدن" اسم جنس لِمطلق الجنة ، كما وَهِمَ سفر التكوين ، وكى لا يُظَنَّ أن "جنة عدن" ـ كالحال فى "فردوس" ـ جنةٌ متميزة عما دونهامن الجنات، كما تروى إسرائيليات دُسَّت على تفاسير القرآن ، بل الجناتُ كلها جناتُ عدن على سواء، أى جناتُ إقامة ، فردوسا وغير فردوس : إنها { **دارُ المقامة** } (فاطر ٣٥) ، { **عطاءً غيرَ مجذوذٍ** } (هود : ١٠٨) .

ومن إعجاز القرآن ـ بل ومن دقيق القرآن ـ أنه فى حديثه عن قصة آدم لا يُسَمِّيها قط ـ على خلاف سفر التكوين ـ "جنة عدن" ، لأنها لم تَدُمْ لآدم . وهذا يدلك على أن "عدن" ليست وصفا للجنة بذاتها ، لا على النسب إلى إقليمِ أرضٍ كما وهم سفر التكوين، ولا بمعنى النعمة والتنعم من "عَدَنْ" العبرى المأخوذ من "غَدِنَ" العربى ، كما قال علماء العبرية من بعد ، فقد كانت الجنة لآدم وزوجته نعيما أى نعيم : { **وكلا منها رغدا حيث شئتما** } (البقرة : ٣٥) ، ولكن "عدن" وصف لدوام الحال فى تلك الجنة ، فلا توصف به إقامة آدم فيها قبل إهباطه منها ، وإنما توصف به الإقامة فى تلك الجنة لمن حُقَّت لَهُ الجنة فى الدار الآخرة ، ليطمئنَ القلبُ إلى أنها إقامةٌ خالدةٌ لاتزول ، كما زالت من قبل عن آدم ، وإيناسا لآدم نفسه بعد أن تاب الله عليه كى يَخْرُجَ منها على رجاءِ العودة إليها خالدا فيها لا يخشى الخروجَ منها كَرَّةً أخرى .

إلى هذه الجنة " الدائمة " الخالدة ، دعا آدم أبناء جيله ، وتحَدَثٌ بها من بعده أبناؤه وذراريه أجيالا بعد أجيال ، حَثّاً على طلب الجنة التى لا تزول ، حتى التصق النعت بالمنعوتُ ، فصار فى العبرية الأولى " جَانْ عِدِنْ" ، نقلا عن العربية الأم ـ أعنى عربية آدم وبنيه ـ أى "جنة المقامة" ، علما على مطلق تلك الجنة .

ولكن العبرية على عصر سفر التكوين تخلط بين العين والغين، [١] أى بين "عدن" ، "غدن" ، تكتبهما وتنطقهما سواء بالعين غير منقوطة . وقد سقط من المعجم العبرى "عدن" بمعنى أقام ، وبقيت فيه "عدن" بمعنى "غَدِنَ" العربى، أى خَصُبَ ولانَ ونَعُم ، ففهمها الكاتب بهذا المعنى ، وراح كَدَأْبِهِ يلتمسُ لها التفاسير ، حتى استقام له إسقاطُ تلك الجنة من السماء إلى الأرض ، ينسبُها إلى موضع فى ذلك الإقليم الخصيب فى العراق ، إقليم " عدن" ، وفاته ما كتبه هو نفسه (تكوين ٣/٢٢ـ٢٤)

---

(١) مثل "حَلَقْ" العبرى بمعنى حَلَقَ وخَلَقَ على السواء ، يتمايزان بالسياق .

من أن الله عز وجل خشى أن " يغافله " آدم إلى شجرة الحياة فى " جان عدن" بعد طرده منها ، فأقام على تلك الجنة حَرَساً يمنعونه من دخولها ، فكيف عاد إليها أبناءُ آدم الذين سكنوا إقليم " عدِن " يحرثون ويزرعون ويأكلون ويتناسلون ؟

شرطُ الوحى " الصادق " ألا تُكَذِّبَهُ السنون : لم تَعُد على أرض هذا الكوكب ، لا فى العراق ولا فى غيره ، بقعةُ أرض لم تُزَرْ إنْ لم تُعَمَّر ، ناهيك بأرض تمنعُ الملائكةُ الناسَ أن يطأوها . فهل غَافَلَ الإنسان الملائكةَ من بعد ، أم حُرِّمَت الجنةُ على آدم ، وأبيحت من بعدُ لبنيه ؟

أما علماء العبرية الذين قالوا من بعد أن " جانْ عدِنْ " يعنى "جنة النعيم" ، فليس بشىء ، لأن سفر التكوين يضع الجنة "فى عدن شرقا" ، وينص تنصيصا على "جان بعدِن" ، أى جنة فى عدن (والباء فى العبرية تكافىء " فى " العربية) . ليست "عدن" فى سفر التكوين من أسماء المعانى ، وإنما هى بيقينٍ لا يصحُّ فيه جدل اسمُ موضع ، كيفما اخترتَ له الأرضَ والموقع .

(٩)

جهنم

ليس فى التوراة من أسماء النار " جَهَنَّم " ، وإنما فيها " شِئُول " أى الهاوية ، وهى Hades اليونانية فى الترجمة السبعينية للتوراة . والهاويةُ من أسماء النار فى القرآن . وليس فى المعجم العبرى أصلا " جَهَنُّم " أو " جِهِنَّام " العربيتان بمعنى البئر البعيدة القعر ، وهى نفسها " الهاوية " إن تَمَعَّنْتَ .

وإنما فى العبرية "جِي ـ بِنِي ـ هِنُّوم" ، أى وادى أبناء "هِنُّوم" ، التى اختصرت إلى "جِي ـ هِنُّوم" ، أى "وادى هِنُّوم" ، وموضعه بالحى الجنوبى الشرقى من أورشليم كما يقول علماء التوراة. ضحى فيه "آحاز" ، "منسا" بأبناء لهما قربانا للإله "مولخ" ، وغدا من بعد مَزبلَةً ومحرقة للنفايات ، تحقيرا .

ولعلماء العبرية فى اشتقاق "شِئُول" قولا" : إما أنها من "شَأَلْ" العبرى (وهو "سأل" العربى ومن معانيه " الطلب") فيكون معناها التى تطلب ولاتشبع ، شأن جهنم فى قوله عز وجل : { **يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد** } (ق : ٣٠) ، وإما على القول الثانى ـ وهو غير قوى ـ أنها مُتَحَرِّفَةٌ عن "شِعُول" من "شَعَلْ" العبرى بمعنى خَوَى وتَجَوَّف ، فهى "الهاوية" أيضا .

أما الإنجيل فهو يذكر فى ترجمته العربية "جهنم" بالاسم :"بل أريكم ممن تخافون . خافوا من الذى بعد ما يَقْتُل، له سلطانٌ أن يُلْقِيَ فى جهنم" (لوقا ١٢/٥)، يترجم به " جِهِنَّا " Gehenna فى الأصل اليونانى ، وهى باتفاق ليست يونانية ، وإنما هى عبرية أو آرامية ، فالأصيل فى اليونانية " كولاسى " Kolasi ، ومعناها "دار العقاب" ، جهنم أو الجحيم أو الهاوية أو ما شئت من أسماء النار ، ولكن لوقا كَدَأْبِهِ آثر استبقاء "جِهِنَّا" على أصلها ، أقربَ ما تكون إلى ما نطق به المسيح.

والراجح عندى أن المسيح عليه السلام نطق بها على أصلها العربى "جِهِنَّام" ، حذف لوقا ميمها فى الرسم اليونانى ، على نحو ما فعل فى إنجيله أحيانا من حذف ميم "مريم" التى رسمها فى بعض مواضع Maria ، أو أنه عليه السلام نطقها "جِهِنَّا" بحذف الميم ترخيما على نحو ما كتبها لوقا ، وأن " جِهِنَّا " هذه أو "جِهِنَّام" ، هى المقابل الآرامى - لا العبرى - لجهنم أو جِهِنَّام العربية ، بمعنى البعيدة القعر ، أى الهاوية ، يعنى بها " شِئُول " العبرية لا أكثر ولا أقل .

ولكن "اليونانية الكنسية" التى لم تجد فى المعجم العبرى أصلا تشتق منه "جهنَّا" الإنجيلية هذه أقرب من "جِى - هِنُّوم" ظنتها الصورة الآرامية لـ "جِهِنَّا" أو "جَهِنَّام" ، وفاتها أن المسيح عليه السلام فى السياق المتقدم يُخَوِّفُ السامع بما بعد الموت ، أى يُخَوِّفُهُ بدار العذاب فى الآخرة ، لا بمحرقة للنفايات على أطراف أورشليم، أعنى "جِى - هِنُّوم"، التى لا تُخيف أحدا مات أو قُتِل، فلا يضيرُ الشاةَ سلخُها بعد ذبحِها . وعلى هذا النحو مضى أدعياءُ الاستشراق يطنطنون بأن القرآن أخذ "جهنم" من "جِى - هِنُّوم" كما فعل لوقا من قبل فى إنجيله .

وقد ضَلَّ هؤلاء المستشرقون على علم ، لأنهم أرادوا لأنفسهم هذا الضلال : القرآن لا يسمى " جهنم " اعتباطا ، وإنما هو يصورها أبلغ تصويروأبْيَنَه بمعنى الهاوية البعيدة القعر ، تماما كمعنى جهنم وجهنام فى المعجم العربى : { **ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين** } (التوبة : ٤٩) ، { **أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم** } (التوبة : ١٠٩) ، { **جهنم يصلونها وبئس القرار** } (إبراهيم : ٢٩) ، { **فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيًا** } (مريم : ٦٨) ، { **إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار** } (النساء : ١٤٥) ، { **حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم** } (الأعراف : ٣٨) ، الخ .

أفى "جِى - هِنُّوم" العبرية من هذه المعانى شىء؟ أليست "جِى - هِنُّوم" ، أعنى ذلك الوادى الذى لأبناء هِنُّوم ، اسم موضع معلوم ؟ أليست "جِى" العبرية (وهى من "جواء" العربية) [1] تعنى "الوادى" ، بل الواسع من الأودية ؟ فكيف تجىء جهنم(الهاوية) من "الجِواء" وهى أقربُ إلى الضد منه ؟ أليست الهاوية فى المعجم

---

(١) راجع فى المعجم العربى الجذر جَوِى .

العربى [1] تعنى البعيدة القعر ؟ أليست هى وجهنّام فى المعجم العربى على الترادف والتطابق ؟ أفى معنى "الوادى" و "الجواء" من هذا شىء ؟

والذى يستوقف النظر أن المعاجم العبرية الأحادية اللغة ، أى العبرى - عبرى [2] ، لا تفسر "جى - هِنُّوم" بأنها تَعنى "دار العذاب" فى الآخرة ، وإنما تُدرِجُها فى ثَبَتِ الأعلام على الموضع والمكان ، أى ذلك الوادى فى الجنوب الشرقى من أورشليم . أما المعاجم العبرية الثنائية اللغة ، عبرى - فرنسى على سبيل المثال ، [3] فهى لا تترجم "جِهنَّا" الإنجيلية إلى "جِى - هِنُّوم" العبرية وإنما تترجمها إلى "شئُول" أى الهاوية ، وحين تترجم "جِى - هِنُّوم" العبرية إلى الفرنسية تقول : "وادى هنُّوم" الذى فى أورشليم ، ثم تُثَنِّى فتقول : ومجازاً = " جِهنَّا " . وقد أتى هذا " المجازُ " بالطبع تأثراً بما جاءت به المسيحية من بعد ، فى تصورها أن " جِهنَّا " الإنجيلية مشتقة من "جِى - هِنُّوم" ، وليس بصحيحٍ فى ديانة اليهود .

على أن القرآن لم يَحْتَج إلى " جهنَّا " ولديه فى أصيل العربية "جِهِنَّام" ، ولم يُعَرِّبْ لفظ " جَهَنَم " عن " جِى - هِنُّوم " البعيدةِ كُلَّ البُعد عن معناه .

جَهَنَّمُ فى القرآن عربيةٌ لا مُشَاحَّة ، وإن رَغِمَت أنوف [4] .

أما أن " جهنم " ممنوعة من الصرف فى كل القرآن فليس هذا لعُجْمتها ، وإنما هو فقط للعَلَمية والتأنيث .

---

(١) راجع فى المعجم العربى الجزر هَوى .

(٢) راجع المعجم العبرى لألفاظ التوراة " هَمِلُّون هِحَدَاش لَتَنَاخ " وهو من مراجع هذا الكتاب .

(٣) انظر معجم لاروس " عبرى / فرنسى - فرنسى / عبرى " .

(٤) الذى يجب التذكير به فيما مضى من مباحث هذاالكتاب وفيما سوف يلى ، أن أدعياء الاستشراق هؤلاء - معظمهم إن لم يكن جميعهم - دلفوا إلى المعجم العربى مثقلين بما حَمَلوهُ من عبرية التوراة ، يفسرون العربى بالعبرى على قدر محفوظهم من تلك العبرية التى انقرضت أو غابت أصول جذورها تحت ركام من تفاسير وضعت بعد نحو ألف سنة من عصر موسى عليه السلام ، تخطىء وتصيب . فى وهمهم أن العبرية أقدم وجودا من العربية لمجرد أن التوراة أقدم نزولا من القرآن . وقد لَغَوا بهذا وسكنت إليه نفوسُهم لأنه يفيدهم فى دعوى استنساخ القرآن من التوراة، وهى دعوى لا يقول بها إلا هازل ، جاهلٌ بالقرآن وبالتوراة . وقد تظاهرت الآن علوم اللغات والتاريخ والآثارعلى أن اللغة العربية هى أم الساميات جميعا ، إليها يُرَدُّ علمُ ما باد وانقرض فى تلك اللغات السامية ، ومنها يؤخذ تفسيرُ ما غمض فيها ، أو شَحُبَ معناه ، أو فقد جذْرُه. ومضى عصرٌ كان يُنظر فيه إلى أولئك المستشرقين نظرةَ الهيبةِ والإكبار ، يُؤخذ عنهم ويتتلمذ عليهم دون نقد أو تمحيص ، الغثّ والسمين . نقول هذا دون أن نَقلل من جهدهم الضخم ، وكان أولى بنا أن نقوم به نحن ، فَنَأمنَ الهوى والضلال .

(١٠)
إبليس

ليس فى التوراة "إبليس" ، وإنما فيها "ساطان" بمعنى العدو، وهى نفسها "شيطان" العربية ، كما مر بك .

وفى العبرية أيضا "عَزازيل" اسما عَلَمًا لإبليس ، ومعناها "عزيزُ الله" ، على ما يُرْوَى من شأنه قبل أن يُبلِس فى أقاصيص أهل الكتاب ، وتابَعَهُم فيه لفيفٌ من مفسرى القرآن الذين قالوا بأن إبليس كان من الملائكة ثم " أَبْلَسَ " بعد ، وهذا لا يصحُّ فيه عن الصادق المصدوق حديث، بل يُعارِض صريحَ القرآن :{ **كان من الجن** } (الكهف :٥٠) ، على ما ذكرناه آنفا .وربما جاء الخلط عند أهل الكتاب من افتقار العبرية إلى اسم لصِنْفِ الجن ، بل تُسَوِّى فى الاسم بين الملائكة والجن : كلاهما فيها "روح" ، " مَلآخ" ، أى روح ، مَلَك .

□□□

وليس فى الأناجيل اليونانية أيضا "إبليس"، بل فيها "ساتان" Satan وهى نفسها "ساطان" العبرية على الرسم اليونانى ، وتُرجمت فى الأناجيل العربية بلفظ "شيطان" ، وبلفظ "إبليس" أحيانا ، لا على الترجمة ، وإنما استئناسا باسمه الوارد فى القرآن .

وفى الأناجيل اليونانية اسم آخر للشيطان، وهو "ذِيَبُلُيس" Diabolos (والسين فيه للرفع وتحذف فى غيره) ومن هذه جاءت Diable الفرنسية و Devil الانجليزية ، وأشباهُهُما فى اللغات الأوروبية الحديثة بمعنى "الشيطان" لا أكثر ولا أقل . وقد خالفت تلك اللغات بين أصل وضع اللفظين "ساطان" و"ذِيَبُلُيس"، فهى تجعل "ساطان"، اسما علما للشيطان يناظر " إبليس " فى العربية ، وتأخذ "ذِيَبُلُيس" على أنه " اسم معنى" يقبل التنكير كما يقبل الإفراد والجمع .

أما "ذِيَبُلِيس" اليونانية فليست ترجمة يونانية للفظ "ساطان" العبرى (بمعنى العدو) كما قد يظن ، وإنما هى على الفاعلية من اليونانية " ذِيَابولى " Diaboli وهو "القذف" بالمعنى القانونى أى الرجم بالباطل ، فهو الرجيم بمعنى الراجم ، لا رجيم بمعنى مرجوم كما تجد فى القرآن. وربما تعللتَ لهم فى هذه التسمية بقولهم إن الشيطان افترى على الله الكذب ، يَنْسِبُهُ إلى الظلم لأنه عز وجل فَضَّلَ عليه آدم ، فلما اعترض ـ وكأنه مُحِقٌّ فى هذا الاعتراض ـ سَلَبَهُ اللهُ عز وجل كُلَّ جماله ، وأودع فيه كُلَّ قُبح ، أى مسخ المَلَك الذى كانَه ، على نحو ما تجد فى أقاصيص أهل الكتاب وفى الأساطير التى نُسجَت حول إبليس . وربما أيضا لأنه أبو الباطل ، أى أصلُ كُلِّ تجديف على الواحد الأحد جل جلاله ، من عقائد باطلة وآلهة مصنوعة ، كما تجد فى قوله عز وجل على لسان نفر من الجن المؤمن : { **وأنه تعالى جَدُّ ربِّنا ما اتخذ صاحبةً ولا ولدا . وأنه كان يقول سفيهُنا على الله شَطَطا . وأَنَّا ظَنَنَّا أن لن تقولَ الإنسُ والجنُّ على الله كَذِبا** } (الجن : ٣ ـ ٥) ومن هنا ترى أن "ذِيَبلِيس" اليونانية هذه ليست ترجمة للفظ "ساطان" العبرى بمعنى العدو، وهى شيطان العربية، وإنما هى بالأحرى صفة لإبليس بمعنى القاذف الراجم، أى الذى يفترى الباطل. وربما ظننت أن "ذِيَبلِيس" Diabolos اليونانية هذه ليست أصلا يونانية ، بل عبرية ـ آرامية نطق بها المسيح وتحرفت فى الأناجيل : ربما كانت "دِى ـ هَبَل" ، تحرفت إلى "ذِيَبلِيس" عند من يَهمسون الهاء وينطقون دالهم ذالا ـ اليونانُ كما مر بك - أما "دِى" عبريا فمعناها "ذو" ، وأما "هَبَل" عبريا فمعناها الباطل الذاهبُ هَباء .

□□□

ومن المستشرقين (١) من قال بأن " إبليس" معربة فى القرآن عن "ذِيَبُلِيس" التى فى الأناجيل ، كما أخذ " شيطان " من ساطان " العبرية .

ومن مفسرى القرآن (راجع تفسير القرطبى للآية ٣٤ من سورة البقرة) من قال بعُجمة "إبليس"، وأنها مُنِعَت من الصرف لهذا السبب وحده ، ولكنهم لم يذكروا الأصل الذى عُرِّبَ عنه ، ولم يُسَمُّوا اللغة المشتق منها .

---

(١) J. HOROVITZ ، المرجع المذكور .

ومن اللغويين العرب كذلك [١] من يَرَوْنَ أن " إبليس " من الأعجمى المعرب ، يكتفون بذلك ولا يسمون اللغة المشتق منها .

أما الكثرةُ من مفسرى القرآن (راجع القرطبى فى نفس الموضع) فهم يقولون بعربية " إبليس" يشتقونها من الإبلاس ، ويعللون امتناع الصرف بالعَلَمية وانعدام النظير فى أسماء المعانى ، فَشُبِّه بالأعجمى .

والذى يستوقف النظر ، أن أشهر معاجم اللغة الانجليزية ، [٢] على شَغَفِه بردِّ الألفاظ والأعلام الأعجمية (أعنى غير الانجليزية) إلى جذورها البعيدة فى شتى اللغات الحية والميتة على السواء ، يتوقف فى " إبليس" فيقول : اسمٌ عربى يُطلقه المسلمون على الشيطان ، ولا يذكر أصله من العربية أو غيرها .

هذا وذاك يدُلاَّنِكَ على أن عُجمة " إبليس " ، أو اشتقاقها من " ذِيَبُلُيس " اليونانية بالذات ، مسألة فيها شك عند اللغويين الأثبات لا يقطعون فيها بيقين ، لأن القول بعجمة لفظ فى لغة ما يتطلب ـ أول ما يتطلب ـ التدليل على وجود أصل لهذا اللفظ فى لغة بعينها استعير منها .

والملاحظة الأولى على خطأ القول بأن " إبليس " مُعَرَّبَةٌ عن "ذِيَبُلُيس " بحذف دالها البادئة (المنطوقة فى اليونانية ذالا) وإبدال الهمزة منها ، أَنَّهُ قولٌ لا يصح فى حق القرآن ، الذى يتنزه عن هذه الصورة " البتراء " من صور التعريب ، التى لم يقع مثلُها قط فى " مُعَرَّبات " القرآن . هذا مالم يُسَلِّم أولئك المستشرقون للقرآن بالتضلع من فقه اللغة اليونانية ، فَيُدرِك أن المقطع "ذِيَا " dia من مقاطع الزيادة فى تلك اللغة، يجوز الاستغناء عنه . والفقيهُ باليونانية لا يستعصى عليه أصلا معنى لفظ "ذِيَبُلُيس" فى تلك اللغة ـ وقد مَرَّ بكَ معناه ـ فلا يستعيرهُ ولديه من العربية فى معناه ما هو أبْلَغُ وأبْيَن .

أما الملاحظة الثانية فهى أن العرب لم يعرفوا "ذِيَبُلُيس" اليونانية هذه قبل القرآن أو بعده، لا على أصلها ولا فى صورة محرفة، وإلا لوقعت فى تفاسير المفسرين. وليس من شأن القرآن كما مر بك أن يتعاجم على المُنَزَّلِ اليهم بالأعجمى الأعجم .

---

(١) أبرزهم "مجمع اللغة العربية " ، راجع " المعجم الوسيط " الذى يضع " إبليس " فى باب الهمزة .

(٢) WEBSTER'S NEW WORLD DICTIONARY, Third College Edition, 1988.

إبليسُ عربية . ولكنها من "العربىِّ" المُشْكِل .

ووجود اللفظ المشكل فى القرآن مقصود : إنه يستثيرك إلى تَحَرِّى المعنى ، فتزداد علما ، وتزداد فهما ، وتزداد إيمانا . وقد روى عن الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم ما معناه : ثَوِّرُوا القرآن ! أى ابحثوا وتمعنوا . والمشكل يستوقفك للبحث والنظر ، فتكون ممن قال فيهم الحق سبحانه : { **والذين إذا ذُكِّرُوا بآيات ربهم لم يَخِرُّوا عليها صُمًّا وعُميانا** } ﴿الفرقان : ٧٣﴾ .

❑❑❑

وقد أشكلت " إبليس " على القائلين بعجمتها وعلى القائلين بعربيتها معا .

أما الأولون فهم ذلك الفريق من المفسرين واللغويين الذين إذا استغلق عليهم لفظ فى العربية سارعوا إلى افتراض عجمته ، وتلمسوا له النظير فى غيرها من اللغات . وقد أسرفوا فى هذا أيما إسراف ، بل كانوا التكأة التى توكأ عليها أدعياء الاستشراق الذين بَهروا تلاميذَهم ، وقد ظنوا أنهم أتوا بجديد. من ذلك قولهم (راجع مقدمة تفسير القرطبى) إن " غَسَّاق " يعنى اللحم البارد المُنتِن فى لغة الترك ! فلا تدرى كيف يجتمع الحميم والغساق فى قوله عز وجل: { **لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا . إلا حميما وغساقا** } ﴿النبأ : ٢٤_٢٥﴾ ، وقولهم إن " القسطاس " يعنى الميزان بالرومية ، وليس فى الرومية من هذا شىء ، بل "قَسَطَ" العربىُّ ، " قاشاط " العبرىُّ ، أولَى ، وقد مَرَّ بك القول فى " قسطاس" . ولكن " إبليس " استعصت على هؤلاء المفسرين فلم "يهتدوا" إلى أصل لها فى لغة أعجمية [(١)] ، واهتدى إلى هذا الأصل المستشرقون من بعد فى دعواهم أن "إبليس" من "ذِيَبُلِيُس" الإنجيلية ، وكأن القرآن يخاطب العرب بيونانية يفهمونها ، كما ظنوا أن المسيح عليه السلام يخاطب قومه الآرامِيِّى اللسان بيونانية فَشَت فيهم .

---

(١) مصداقُ هذا أن القرطبى رحمه الله ، الذى جاور الأسبان فى الأندلس وفَهم لسانهم ، يذكر فى تفسير الآية ٩ من سورة يس : { وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون } {يس : ٩} كيف أنجته تلاوة هذه الآية من عِلْجَيْنِ من الأعاجم أرادا الانقضاض عليه فأعماهما الله عنه فلم يرياه فقالا : هذ دِيَبْلُه ! وفَسر القرطبى دِيَبْلُه هذه (وهى Diablo الأسبانية أى " ذِيَبُلِيُس " اليونانية) بأنها تعنى شيطان بلسانهم ، ولم يقل إبليس ، لأنه لم يسمع بتعريب إبليس عن ذِيَبُلِيُس .

أما الفريق الثانى القائل بعربية " إبليس" فلم يكن أمامه إلا اشتقاقُها من الإبلاس . يعنى أنها " إفعيل " من " أبْلَس" ، فهو المُبْلِس على المبالغة . وقد ورد لفظ " الإبلاس " فى القرآن خمس مرات : { **ويوم تقوم الساعة يُبْلِسُ المجرمون** } (الروم : ١٢) ، { **حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون** } (الأنعام :٤٤) ، { **حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون** } (المؤمنون :٧٧) ، { **إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون. لا يُفَتَّرُ عنهم وهم فيه مبلسون** } (الزخرف : ٧٤ ــ٧٥) ، { **فترى الوَدْقَ يخرج من خلاله، فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون . وإن كانوا من قبل أن يُنَزَّلَ عليهم من قبله لمبلسين** } (الروم : ٤٨ ـ ٤٩) . وليس فى هذه الآيات ما يشهد لمعنى الإبلاس إلا الشاهدان الثانى والخامس ، أى وَضْعُ الإبلاس فى مقابلة الفرح والاستبشار ، وربما استنبطت من " إبلاس المجرمين يوم تقوم الساعة " فى الشاهد الأول أن الإبلاس حال من اليأس وانقطاع الرجاء ، ومن الشاهدين الثالث والرابع كذلك .

أما المعجم العربى فيقول لك إن " أبلس " يعنى سكت لحيرة أو انقطاع حجة ، وليس فى العربية إلا أبْلَسَ بالهمزة غيرَ مُتَعَدٍّ ، وكأنها من " بَلَسَهُ فَأبْلَس " إلا أنه لم تُسْمَع "بَلَسَ" . وفى "العبرية" بَلَسْ يعنى قطف ، أى جمع ثمار التين خاصة . والبَلَس فى العربية نوع من التين . هذا وذاك يَدُلأنكَ على أن المعنى الأصلى لمادة "بلس" هو القطع ، وكأنه مُبْدَل من "بَلَتَ" يعنى "قطع" . والانقطاع "يُفسر" الإبلاس" أبين تفسير فى الآيات التى تلوت توا، تطبقه على الشواهد القرآنية الخمسة فيستجيب . وهو يفيد أيضا فى تأصيل معنى "أبلس" فى المعجم العربى ، وهو الإطراق تحيرا والسكوت لانقطاع الحجة . وفى العربية أيضا " بَلْسَمَ " وهى "بلس" مزيدة بالميم ، ومعناها أطرق وعَبَّسَ وجهَه ، وهى من " أبلس" قريب . وكأن معنى "إبليس" المقطوعُ الحجة فى الامتناع عن السجود لآدم ، أو هو ـ كما ذكر القرطبى ـ الآيسُ من رحمة الله وقد فَعَلَ ما فعل .

هذا إن اشتققت " إبليس" من الإبلاس ، وليس عندى بوجيه ، كما سترى .

□□□

مرَّ بك أن العَلَمَ المذكور فى القرآن على غيرِ سابقة فى التوراة والإنجيل يَرِدُ فى القرآن على أصله عربيا ، لأنه لم تَثْبُت له العَلَمية من قبل بلفظٍ مغاير يوجب على القرآن التزامه ، كما ثبتت العلمية لجبريل وميكال ونوح ولوط ، الخ ، على اللفظ الآرامى ـ العبرى فى صحف إبراهيم وموسى . ولم يرد ذكر للفظ إبليس فى التوراة والإنجيل بنصهما المعاصر لنزول القرآن .

وقد ثبتت العلمية لإبليس بهذا الاسم فى الملأ الأعلى على النداء من الله عز وجل :{ **قال يا إبليسُ ما لك ألا تكون مع الساجدين** } (الحجر: ٣٢) ، وهذا قاطعٌ فى أن إبليس سُمِّى بهذا الاسم قبل إهباط آدم من الجنة ، أى على اللفظ العربى قبل أن تتفرق ألْسنة البشر لهجاتٍ فَلُغَات ، شأنُهُ شأنُ آدم ، خلافا لجبريل وميكال اللذين لم يخاطبا فى القرآن على النداء من الله عز وجل لسبق ثبوت العلمية لهما على اللفظ الآرامى ـ العبرى فى التوراة والإنجيل . أما إبليس وآدم فقد خوطبا على النداء من الله عز وجل باسميهما هذين، فَهُمَا كما قال سبحانه، لا يُبدَّلُ القولُ لديه.

والذى يتعين التنبيه إليه ، أن تسمية إبليس بهذا الاسم فى القرآن جاءت مقترنة بعصيانه ، أى بامتناعه عن السجود لآدم ، فَوْرَ هذا الامتناع مباشرة ، قبل صدور الحكم الإلهى بإدانته وانقطاع رجائه : { **قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدىَّ ؟ أَسْتكبرت أم كنت من العالِين ؟ قال أنا خير منه : خلقتنى من نار وخلقته من طين. قال فاخرج منها فإنك رجيم. وأن عليك لعنتى إلى يوم الدين** } (ص: ٧٥ ــ ٧٨) ، والذى يلعنه الله فقد انقطع رجاؤه .

وهذا يعنى أن إبليس سُمِّىَ بهذا الاسم لمجرد امتناعه ، وقبل انقطاع رجائه . فلا يصح أن تكون " إبليس" بمعنى الآيس من رحمة الله ، كما تجد فى " القرطبى" ، لأن إبليس لم يكن قد يئس بعد . ولا يصح أن تكون بمعنى المقطوع الحجة ، فلم يكن قد أدلى بعد بحجته :"خلقتنى من نار وخلقته من طين" . ولا يصح أن تكون بمعنى الذى أطرق تحيرا ، لا يُحير جوابا ، فقد استعلن إبليس بمكنونة نفسه مجترئا على خالقه ، مستدركا على مولاه ، فضلا عن أن " الإطراق تحيرا " قليلٌ فى وصف حال إبليس . وإنما الذى يصح هو أن تكون " إبليس " بمعنى العاصى ، الرافض ، المُتَأَبِّى ، الممتنع . وليس فى " الإبلاس " من هذه المعانى شىء .

الراجحُ عندى، والله عز وجل بغيبه أعلم، أن "إبليس" تعنى "الذى أَبَى"، كُنيةً له بحالِ امتناعه وتَأبيِّه ، جاءت على المزجية من" أبٌ + لَيْسٌ ، أى هو "أبو لَيْسَ" ، وقد مر تفصيل هذا فى موضعه من " الفصل الثالث" من هذا الكتاب ، فى اشتقاق "ليس" ومعناها ، فارجع إليه .

وقد وردت "إبليس" فى القرآن إحدى عشرة مرة ، مُعَقَّبًا على سبع منها بالتأبِّى والامتناع والرفض :{ **إلا إبليس أبَى** } (البقرة : ٣٤) ، {**إلا إبليس لم يكن من الساجدين . قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك؟**} (الأعراف : ١١ـ١٢) ، {**إلا إبليس أبَى**} (الحجر : ٣١) ، { **قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين ؟ قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون** } (الحجر : ٣٢ ـ ٣٣) ، { **إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه** } (الكهف: ٥٠) ـ وفسق عن الأمر يعنى خرج عليه ـ ، {**إلا إبليس أبى**} (طه: ١١٦) ، {**قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدىَّ** } (ص : ٧٥) وجاءت أيضا معقبا عليها بالاستكبار الذى يفيد الامتناع مرتين : { **فسجدوا إلا إبليس قال أأَسْجُدُ لمن خلقتَ طينا !** } (الإسراء ك ٦١) ، { **إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين** } (ص : ٧٤) . أما فى المرتين العاشرة (الشعراء : ٩٥) والحادية عشرة (سبأ : ٢٠) فهما فقط اللتان جاءت فيهما "إبليس" على العَلَمية المجردة غيرَ مُعَقَّبٍ عليها بشىء .

" إبليس" إذن هو " هامة العصاة " ، أى " أبوهم " .

والله عز وجل بغيبه أعلم .

(١١)

آدم

من دلائل قِدَمِ العربية على العبرية ، أن اسم " آدم" أبى البشر (ويُنطق فى العبرية "أدام" بألفٍ ممدودةٍ بعد الدال) ، ليس له جذرٌ فى العبرية يُشتق منه إلا الجذر العبرى "أدَمْ" أى "إحْمَرَّ" بمعنى كان أحمر اللون. و"أدوم " فى العبرية يعنى "الأحمر" ، ومنه كما يقول علماء العبرية لفظ "دام" أى "الدَّمُ" ، فلا تدرى هل اشتق" آدم" من الدم أم اشتق "الدم " من آدم . وفى العبرية أيضا "أدَما" بمعنى الأرض (١) ، أى التُّربة ، ومنه ما جاء فى سفر التكوين :" ويِّصر يهْوَا إلوهيم إت ـ ها أدام عَفَرْ من ها أدَما ويُّپح بأپاوْ نِشْمَت حاييم " وهى فى الترجمة العربية " وجبل الرب الإله آدم ترابا من الأرض ونفخ فى أنفه نسمة حياة " (تكوين ٢/٧) . والأرض هنا يعنى التربة ، أى قشرة الأرض ، يعنى أديمها الظاهر منها ، لا الأرض نفسها وهى فى العبرية "ها آرص" . ولا سبيل لك إلى اشتقاق "أدَما" هذه ـ إن أردتها عبرية ـ إلا من الجذر العبرى " أدَم " ، أى "إحْمَرَّ" ، يعنى كان أحمر اللون ، فهى " الحمراء " ، وكأن "آدم" يعنى "الأحمر" المجبول من "الحمراء" . ولو قابلت هذا بمكافئه العربى لقلت إن "آدم" يعنى "الأغبر" المجبول من "الغبراء" (وهو الاسم الذى يطلقه العرب على أديم الأرض)، وكأن الحمرة هى اللون الغالب على تربة الأرض عند العبرانيين فَسُميِّتَ به. ولا يصح هذا بالطبع ، وإنما الصحيح هو أن العبرية لم تشتق "أدما" من الجذر العبرى "أدَم" ، وإنما نقلتها نقلا عن العربية ("الأدَمة ")، اسما جامدا لا اشتقاق له عندها.

أما "أدَمَ" العربى ، فهو جذر غزير المعانى ، ليس فيه من الحمرة شىء . من معانيه الامتزاج والخَلْط والإيلاف: من ذلك "الائتدام" أى المزاوجة بين أنواع الطعام

---

(١) ومنه فى العبرية إلى الآن " عَبُودَتْ ـ أدَما " (حرفيا عبادةُ الأدَمة) ، بمعنى " الزراعة " ، أى الفلاحة ، وظيفة آدم فى الجنة كما مر بك فى سفر التكوين .

كأكل الأرز باللحم ، والخبز بالخضر . و"الإِدام" هو المضاف من الطعام إلى بعضه ليُسْتَمرأ . و "آدَمَ " بين الزوجين يعنى آلف بينهما وأصلح. و"أَدَمَ الصانع الجلد" يعنى أصلحه بنزع الزائد من "أُدَمَته"، و "الأُدَمَة" هى باطن الجلد تحت البشرة اللصيق باللحم "المخالط" له. و"أَدَمَة الأرض" ما يلى وجهها، أى غلافها، ومنه "الأديم" بمعنى الجلد، وأديم الأرض يعنى " جلدها "، وهو "التربة". و" أدِمَ يَأدَم" ، وأيضا "أَدُمَ يَأْدُم" فهو "آدَم" (نسبة إلى " الأدَمة " أى"التربة ") يعنى من كانت بشرته فى لونها، أى الشديد السُّمْرة. و "آدَمتْهُ الشمس" يعنى لوَّحَت لونه، أى صَيَّرَتْهُ إلى السمرة .

وهكذا ترى أن " أدَما " العبرية بمعنى الأرض والتربة ، ليست بعبرية ، وإنما هى دخيلة على تلك اللغة ، استعارتها رأسا من العربية .

وتستطيع أن تُرتِّبَ على هذا مباشرة أن العبرية وَرِثت أيضا اسم " آدم " عن هذه العربية نفسها ، أعنى العربية الأولى ـ عربية آدم ـ ذلك الاسم الذى سماه الله به فى الجنة ، وهبط به إلى الأرض ، فصار له عَلَما بين زوجه وبنيه وحَفَدَته وذراريه . دليلُك فى هذا أن سفر التكوين ينص تنصيصا على أنه لا يشتق "آدم" من لون بشرته عبريا ، أى الحُمرة ، ولكنه يشتقه من الأرض التى أُخذَ منها وإليها يعود ، أى من "الأدَمة" (وهى عربيةٌ لا عبرية كما مر بك) : "عَادْ شُوبخا إلْ ـ ها أدَما ، كى مِمَّنا لُقَّحْتا ، كى ـ عَفَرْ أتَّ ، وإلْ ـ عَفَرْ تَشُوبْ " أى " حتى تعود إلى الأرض التى أخذت منها لأنك تراب وإلى التراب تعود" (تكوين ١٩/٣) .

آدم من الأدَمة فى التوراة ، ليس من الحُمرة ، وهو كذلك فى العربية ، كما سترى ، بل هو أولَى .

□□□

أما مفسرو القرآن (راجع تفسير القرطبى للآية ٣١ من سورة البقرة) فَهُمْ على أنه مُشْتَقٌ من أدَمَة الأرض وأديمها ، وهو وجهها ، فَسُمِّىَ بما خُلِقَ منه . وقال بعضهم إنه مشتق من الأدْمَة(بضم الهمزة) وهى السُّمرة. وزعم بعضهم أن الأُدْمَة هى البياض، وأن آدم كان أبيض . وليس هذا وذاك بشىء ، لأن الأُدْمَة نفسها مشتقة من الأديم ، أى من لون الأدَمَة ، وهى إلى السُّمرة أقرب ، ثم إنَّهُ لا مدخلَ للونِ آدمَ فى تسميته : ليكن آدمُ أسمرَ أو أبيض أو ما شئتَ من أبشار البشر إن صَحَّ فى لونه عن

الصادقِ المصدوقِ حديث ، ولكنه قبلَ كل شيء منسوبٌ إلى هذه الأدَمة التى جُبِل منها أياً كانَ لونُها وأيا كان لونُه .

وقد عَقَّبَ القرطبيُّ رحمه الله على أقوال المفسرين فى هذا بقوله : والصحيحُ أنه مشتق من أديم الأرض .

وهذا هو " التفسير القرآنى " لمعنى " آدم " ، كما سترى .

❑❑❑

وَرَد آدمُ فى القرآن منفردا ـ أى ليس مضافا إليه بنوه كما فى "بنى آدم" ، "إبْنَىْ آدم" ـ ١٨ مرة ، منها أربعٌ على النداء من الله عز وجل فى الملأ الأعلى ، ومنها واحدة خاطبه بها إبليس يُغريه بالأكل من الشجرة ، والباقى فى الحديث عن قصة آدم فى الملأ الاعلى ، إلا اثنين : { **إن الله اصطفى آدمَ ونوحا وآلَ ابراهيم وآلَ عِمرانَ على العالمين** } (آل عمران : ٣٣) ، { **أولئك الذين أنْعَمَ اللهُ عليهم من النبيين من ذرية آدم** } (مريم ٥٨) . وليس فى هذا كله من تفسير معنى آدم شيء إلا قوله عز وجل : { **إن مَثَلَ عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب** } (آل عمران : ٥٩) . ولكنك تجدُ هذا المعنى فصيحا بَيِّنًا فى مثل قوله عز وجل : { **إنى خالقٌ بشراً من طين** } (ص:٧١) . فى هذه ـ وغيرها من مِثلها فى القرآنِ كثير ـ الكفايةُ كُل الكفاية فى تفسير معنى " آدم" : أما الطين فقد عَلِمْتَه ، وأماَ " البشر" فمن البَشْرَة ، وهى وجهُ " الأديم " ، و"بَشَرَ" الأديمَ يعنى قَشَرَه .

"آدم" عربيةٌ كما ترى، تَخرجُ عن مقاصد هذا الكتـاب الذى نكتـب، ولكـن القـرآن فَصَلَ فى وجه اشـتقاقها : إنها من " الأدَمةِ و " الأديم " ، لا من "البياضِ" و "السمرة " .

ويَخرج عن مقاصد هذا الكتاب أيضا تفسيرُ اسم "حواء" ، زوج " آدم" فى الجنة ، لأنها لم تُذكرَ بالاسم فى القرآن .

ولكنا وعدناك فيما سبق بتفسير هذا الاسم مع "آدم" . وقلنا لك أيضا فيما سبق إن القرآن ـ حين لا ينص على اسم عَلَم ـ يُلـمُّ بمعناه أحيانا فى ثنايا الآيات،

فيصوره لك حتى لتكاد تسميه به، وإذا هو نفسه اسم العلم المَعْنِيُّ فى التوراة .
و "حواء" من هذا كما سترى .

□□□

يشتق علماء العبرية اسم "حواء" من الجذر العبرى "حَوَا" ، ويقولون إنه من "الحياة" ، أى أن " حَوَّاء " يعنى " الحياة " . وهم يَقْسرون الجذر العبرى " حَوَا " على هذا المعنى قسرا ، رغم أن لفظ الحياة فى العبرية هو "حاييم" ، المشتق من جذر عبرى آخر هو " حَيَا " بالياء ، المطابق لنظيره العربى بنفس المعنى . ولكنهم يقولون لك إن "حَواً" (وهو اسم "حواء" فى العبرية غير مهموز) يعنى " الحياة " فى اسم "حواء" فقط ، لا يجوز استخدامه بهذا المعنى فى غيرها ، بل تستخدم "حاييم" على أصلها . وقد "اضطر" علماء العبرية إلى هذا اتباعا لسفر التكوين الذى ينص تنصيصا على أن "حواء" من الحياة . وقد مر بك هذا فى موضعه . ولا تستطيع أن تقول إن كاتب سفر التكوين تورط فى هذا التفسير مدفوعا بتغيير طرأ فى زمنه على معنى الجذر "حَوَا": لو صَحَّ هذا لما جاز لعلماء العبرية حظر استخدام " حَواً " بمعنى الحياة فى غير اسم "حواء" . وإنما تستطيع أن تقول إن كاتب سفر التكوين تورط فى هذا فألزم به من جاءوا بعده ، مثل ما فعل فى تفسير اسم "بابل" بالبلبلة ، فشاعت شرقا وغربا فى كل اللغات . دليلك فى هذا من العبرية المعاصرة التى تستخدم الفعل " حَوَا " بمعنى عاش ، أى عاش حَدَثاً ما أو تجربة ما ، بمعنى " شَهِدَ " ، ولكنها لا تستخدمه قط بمعنى " حَيَا " . على أن "عاش" ، " حَيَا " ليسا سواء : عاش بمعنى شَهِد يسهل اشتقاقه من أصل معنى الجذر العبرى "حَوَا " ، وهو يطابق " حَوَى" العربى .

وقد تابع مفسرو القرآن أهل التوراة فى تفسيرهم اسم "حواء" بالحياة ، لا تجد لهم فى تفسيره قولا يغايره (راجع تفسير القرطبى للآية ٣٥ من سورة البقرة) .

□□□

أما الفعل "حَوَى" فى العربية فأصل معناه التجمع والاستدارة والتقبض ، ومنه "الحيَّة" لأنها " تتحوَّى " أى تستدير على نفسها ، ومنه أيضا " حَوَاهُ " بمعنى استولى عليه وملكه ، وكأنه "استدار عليه" ، ومنه كذلك " الحِوَاء " أى المكان الذى يحوى الشىء ، ويجمع على " أحْوِية "، و " الأحوية " يعنى البيوت التى تحوى الناس ،

والباقى الآن منها فى معناه البيوت من الوبر مجتمعة على ماء . والحَواءَة من الرجال يعنى اللازمُ بيته .

وقد رجع "علماء العبرية" إلى هذه المعانى حين أرادوا تأصيل معنى الجذر العبرى "حَوَا" ـ بعيدا عن اسم "حواء" بالطبع الذى لا يملكون له تعديلا ـ عندما تصدوا للفظ العبرى "حَوُّوت" (على جمع التأنيث العبرى من " حَوَا " بمعنى "القرية" ـ الذى لا يستقيم معناه بالإصرار على أن الفعل "حَوَا" العبرى يعنى "حَيَا") ، فتبينوا أن "حَوُّوت " العبرى يعنى بالضبط "الأحوية" العربى وانتهوا إلى أن "حَوَا" العبرى يَأْخُذُ من "حَوَى" العربى معنى التجمع والاجتماع .

وقال آخرون من علماء العبرية هؤلاء إنه لا داعى لأخذ "حَوَا" العبرى من "حَوَى" العربى ، لأنه إذا كان "حَوَا" العبرى يعنى "حَيَا" كما يريد سفر التكوين، فإن معنى " الحياة " Living يفيد معنى " السكنى" و " الإقامة " أيضا . ومهما قلتَ فى تأثر هذا القائل بلسانه الأوروبى ، فهو فى أعماقه يريد أن يوفق بين ما قاله سفر التكوين فى معنى " حَواء " بأنها من " الحياة " ، وبين تلك "الأحْوِية " (حَوُّوت العبرية) ، أى تلك " القرى" الماثلة أمامه ، ليس فيها من اشتقاقات "الحياة" شىء إلا إن أخذتَ " الحياة " بمعنى " المعيشة " ، وهو بعيد عما أراده سفر التكوين بقوله إن حواء هى واهبة الحياة (أم كل حى) .

أيُّما صحَّ هذا أوذاك ، فأنت لابد مُنْتَهٍ إلى أن " الفعل حَوَا " العبرى أصل معناه من التجمع والانضمام والسكنى والتوطن والإقامة، لا شأن لك بما آل إليه معناه عند كاتب سفر التكوين ، فأم البشر "حواء" ليست فقط أقدم من مولد هذا الكتاب ولكنها أقدمُ بقرونٍ لا يعلم عِدَّتَها إلا الله من مولد تلك اللغة العبرية نفسها .

والذى لا شك عندى فيه أن "حواء" عُرِفَت بهذا الاسم فى الملأ الأعلى ، وأنه قد تكلم به معها آدمُ الذى عُلِّم الأسماء كلها ، وأنها هبطت بهذا الاسم إلى الأرض مع آدم ، فصار لها عَلَما فى أَجيال بنيها ، يتوارثونه جيلا بعد جيل ، حتى آل إلى ما صار إليه فى سفر التكوين ، لا على النحت من العبرية ذاتها ، وإنما على النقل من "العربية الأولى" ، عربية آدم وحواء ، شأنُهُ شأنُ اسم " آدم" سواءً بسواء .

والذى لا شك عندى فيه أيضا ـ ولا خلاف فيه مع سفر التكوين ـ أن دلالة

الاسم على مسماه قد روعيت فى تسمية "حواء" كما روعيت من قبل فى تسمية "آدم" : أما آدم فقد سمى بما خُلِقَ منه وأما حواء فقد سُميت بما خُلِقَت له .

وقد أصاب سفر التكوين فى آدم ، ولم يُصِبْ فى حواء ، التى تَعَلَّلَ فى تسميتها بمعنى الحياة (لأنها أم كل حى): "ودعا آدمُ اسم امرأته حواء لأنها أم كل حى" (تكوين٣/ ٢٠)، أى أنها سُمِّيَت بما خُلِقت له وهو "الإنجاب"، أى ولادة الأحياء.

ولم يُصِبْ الكاتب فى حواء من وجهين : الأول لغوىٌّ بَحْت ، لأنه لا يصح اشتقاق الحياة من الجذر العبرى " حَوَا " إلا بافتعالٍ شديد كما مر بك . والثانى بيولوجى بحت : لا يصح أن يقال إن المرأة هى " واهبة الحياة " ، فبالذكر والأنثى معا يكون النسل ، لا نسلَ إلا باجتماعهما معا . وفى الكونِ كائناتٌ "وحيدةُ الجنس" تتناسل لا حاجةَ بها إلى ذكرٍ وأنثى ، ولو شاء اللهُ لآدم أن يكون من هذه الكائنات لفعل . وسفر التكوين نفسه ينص على سبب إيجاد " حواء " أنثى : " وقال الرب الإله ليس جيدا أن يكون آدم وحده. فأصنع له مُعيناً نظيره " (تكوين ٢/١٨) ، أى أن يكون لآدم زوج . بل وراء جَعْلِ النسل من ذكر وأنثى هدفٌ أَجَلُّ منه ، وهو إلزام شطرى الخلق بالعيش فى جماعة من نوعها. تجد هذا فى الأحياء كافةً حتى الحشرة. وفى إطالة أمد طفولة النوع الإنسانى ـ وهى فى الإنسان من دون كافة الأنواع أطولها أمدا ـ إلزامُ الأبوين بالإيلاف والتَّضَامّ ، و " التَّحَوِّى" عُمْرَهُمَا كُلَّه لرعاية هذا النسل وإعالته وتنشئته ، فتكون " الأسرة ". وفى المخالفة بين نسل الأسرة والأسرة ـ عددا ونوعا ـ إلزامُ الأُسَرِ بالتزاوج فيما بينها، فتنشأ بالنسب والصِّهْر شعوبٌ وقبائل ، يتعارفون على أصول وقيم يتبارون فى السبق إليها . ولا يتحقق هذا إلا بالخلق من ذكر وأنثى . تجد هذا كله فى قوله عز وجل : { **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليمٌ خبير** } (الحجرات :١٣) . و" جعلناكم" فى هذه الآية على التقرير والتفسير معا، أى خلقناكم من ذكر وأنثى لنجعلكم شعوبا وقبائل.

وقد شاءت حكمته عز وجل أن يجعل المرأة للرجل " سَكَنا " ، مُسْتَقَراً له ومقاما . إنها الزوْجُ والإلْفُ والسكن . وهذا هو ما خُلِقَت له "حواء" فسُمِّيَت به ، لا "ولادة الأحياء" كما تجد فى سفر التكوين ، فما كان لآدم وحواء وهما فى الجنة التفكير فى الإنجاب والتناسل .

ليست "ولادة الأحياء" هى العلة من التسمية وإنما العلة هى أنها " الحِوَاءُ " لآدم : السكينة والسكنى .

والقرآن لا ينص على إسم "حواء" ، فلا يسميها بما سماها به آدم ، إن صح ما قاله سفر التكوين من أن آدم هو الذى سمى ، وإنما القرآن يسميها " زوج آدم" ، أى إلفه : { **وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة** } (البقرة : ٣٥) .

ولكن القرآن يفسر اسم "حواء" بما فسرناه به نحن فيصوره أبلغ تصوير فى قوله عز وجل : { **هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها** } (الأعراف : ١٨٩) ، { **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها** } (الروم : ٢١) ، { **وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فَمُسْتَقَرٌ ومُسْتَوْدَع** } (الأنعام : ٩٨) .

(١٢)

إدريس

ليس فى التوراة والإنجيل اسم " إدريس" ، وإنما ذكر إدريس عليه السلام فى القرآن وحده فى زمرة من ذكرهم القرآن من النبيين والصديقين .

وقد وردت " إدريس" فى القرآن مرتين فحسب : { **واذكر فى الكتاب إدريس ، إنه كان صديقا نبيا . ورفعناه مكانا عليا** } (مريم : ٥٦ ــ٥٧) ، {**واسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين** } (الأنبياء :٨٥) .

وقد اختلف مفسرو القرآن فى " إدريس" (راجع تفسير القرطبى للآية ٥٦ من سورة مريم) ، أعجمىٌ اسمه أم عربى ، سبق نوحا أم كان من ذرية نوح . والمشهور عند الرواة أن اسمه فى العبرية " أُخنوخ " ، وأنه أول نبى من ذرية آدم سابق على نوح . ومنهم من أصر على أن " إدريس" لفظ أعجمى لأنه ممنوع من الصرف فى القرآن لغير علة إلا العجمة ، دون أن يذكروا من أى لغة أعجمية هو ، كدأبهم حين يعْضُلُ الاشتقاق عليهم . والكثرة على أنه من " دَرَسَ " العربية فهو "الدارس" من المدارسة والتدارس على المبالغة ، الكثيرُ العلم . وليس فى " إدريس" حديث صحيح يَفْصِلُ فى المسألة ، إلا ما جاء فى صحيح مسلم من حديث الإسراء قوله صلى الله عليه وسلم : " لما عَرَجَ بى أتيت على إدريس فى السماء الرابعة " ، تفسيرا لقوله عز وجل فى شأن إدريس : {**ورفعناه مكانا عليا** } (مريم :٥٧) وهذا لا يَفْصِلُ فى الترتيب التاريخى لإدريس عليه السلام بين الأنبياء صلوات الله عليهم ، ولايقطع أيضا بأن إدريس رُفع إلى السماء الرابعة ومات هناك، كما وقع فى إسرائيليات نُسبَت إلى ابن عباس وكعب الأحبار وغيرهما من الناقلين عنهما ، فقد التقى الصادقُ المصدوقُ فى معراجه بأنبياءَ غيرَ إدريس ماتوا على هذه الأرض ودُفنوا فيها .

على أن منشأ القول بأن إدريس فى القرآن هو " أخنوخ " فى التوراة يُرَدُّ بالقطع إلى يهود من أهل الكتاب عرفوا أن" إدريس" فى العربية تُكافِىء " أخنوخ" فى العبرية ، وربطوا بين ما جاء فى القرآن عن إدريس : { **ورفعناه مكانا عليا** } ﴿مريم : ٥٧﴾ وبين ما جاء فى سفر التكوين فى شأن أخنوخ ، أبى متوشالح ، أبى لامك ، أبى نوح : " وعاش أخنوخ خمسا وستين سنة وولد متوشالح . وسار أخنوخُ مع الله بعد ما وَلَدَ متوشالح ثلاثَ مائة سنة وَوَلَدَ بنينَ وبنات . فكانت كل أيام أخنوخ ثلاث مائة وخمسا وستين سنة . وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن اللهَ أخذَه " (تكوين ٥/ ٢١ـ ٢٤). اللفظ العبرى "أخنوخ" يفيد بذاته الدارس الإدريس، و"سيرته مع الله" تفيد " الصديقية " التى فى قوله عز وجل : {**إنَّه كان صِديقاً نبيا**} ﴿مريم : ٥٦﴾ ، وعبارة "ولم يوجد لأن الله أخذه" تجد صداها فى قوله تبارك وتعالى: { **ورفعْناهُ مكاناً عليا** } ﴿مريم : ٥٧﴾ . ولم يقع هذا فى القرآن فى شأن أى نبىٍّ على ارتفاعِ مكانتِهم إلا فى إدريس ، وهذا يَدُلُّك على أنه ارتفاعُ على الموضع حقيقةً لا مجازاً . لا تستثنى من هذا إلا عيسى عليه السلام فى قوله عز وجل: { **يا عيسى إنى مُتَوفيك ورافِعكَ إلىَّ** } ﴿آل عمران : ٥٥﴾ .

لهذا كله فنحن مع القائلين بأن أخنوخ فى التوارة هو نبىُّ الله إدريس عليه السلام . والله عز وجل بغيبه أعلم .

❑❑❑

أما المستشرقون [(١)] المنكرون الوحى على القرآن فلم يقولوا بهذا ، ولم يلتفتوا إلى وحدة المعنى فى " إدريس " و " أخنوخ " وإنما ذهبوا يتلمسون لاسم " إدريس " نظيرا أعجمياً فى أقاصيص أهل الكتاب ، فلما أعياهم البحث رأى بعضهم أن أقرب الأسماء إليه " أنْدرِياس " اليونانى ، وهذا عبثٌ لا يليقُ بنا الالتفات إليه ، ناهيك عن مناقشته والإفاضة فيه .

❑❑❑

أمَّا أنَّ " أخنوخ " ـ لُغَةً ـ هى " إدريس " فقد عَلِمْتَ أن " الإدريس " هو الدارسُ الفاقهُ الحاذق. وأما "أخنـوخ" فأصلها العبرى "حَنُوك" ، التى تُنْطَقُ كافُها

(١) J. HOROVITZ ، المرجع المذكور .

خاء ، على ما مر بك من قواعد النطق فى العبرية التى تنطق الكافَ خاءً إذا تحرك أو اعتل ما قبلها ، فهى عندهم "حَنُوخ" عرَّبها العربُ إلى "أخنوخ". وأما معنى "حَنُوك" العبرية هذه فهى على المفعولية من الفعل العبرى "حَنَكْ" على معنى "حَنَّكَهُ" العربى ، أى فَقَّهَهُ وثَقَّفَهُ وعَلَّمَه ، فهو المُحَنَّك المحنوك .

وقد جاءت " إدريس " فى القرآن على الترجمة لا غير ، تحاشيا لثقل "أخنوخ" التى شُهِرَ بها هذا الاسم العَلَم قبل القرآن .

وأما لماذا كانت " إدريس " ممنوعةً من الصرف فى القرآن ، فهذا من إعجاز القرآن الذى لم يَفطِن إليه الزمخشرى وغيره (راجع تفسير القرطبى للآيتين ٥٦ و ٥٧ من سورة مريم) الذين لم يستطيعوا الجمع بين عربية هذا الاسم فى لفظه ، وبين عُجمته فى أصله : القرآنُ - بمنعه "إدريس" من الصرف - يَدُلُّك على أصله الأَعجمى ، وكأنه يوصيك بأَن تتلمسه فى " أخنوخ " لا فى نبيٍّ مجهولٍ من بنى اسماعيل عليه السلام (١) .

(١) راجع أيضا قوله عز وجل فى سورة مريم يصف الأنبياءَ المذكورين فى السورة وآخرهُم إدريس : { أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم، وممن حملنا مع نوح ، ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ، وممن هدينا واجتبينا } {مريم : ٥٨} . ولئن كان الخلقُ كلهُم من ذرية آدم ، فالتفصيل فى الآية يفيد أن من النبيين فى السورة من ليس من ذرية إبراهيم ويعقوب (إسرائيل) ، وليس من المحمولين فى الفلك مع نوح ، لا تصح نسبتُهم إليه لأنهم قبلَه ، فهم من ذرية آدم . والأنبياء المذكورون فى سورة مريم كلها هم بترتيب ورودهم فيها : زكريا - يحيى - عيسى - إبراهيم - إسحاق - يعقوب - موسى - هارون - إسماعيل - إدريس ، ليس فيهم من تشك فى نِسبته إلى إبراهيم ، وإبراهيم من ذرية المحمولين مع نوح ، إلا إدريس ، فهو المعْنِىُّ إذن ، على الراجح عندى ، بهذا الإفراد والتنصيص على النبيين من ذرية آدم .

الفصل الخامس

آدم الثاني: من نوح إلى إبراهيم

يتناول هذا الفصل تفسير تسعة أعلام : نُوح ، ومُرْسَاهُ "الجُودِى" ، هود ، عاد ، إرَم ، صالح ، ثَمود ، شُعَيب ، مَدْيَن .

ولايعرف أهل الكتاب من هذه الأسماء التسعة على التقابل سوى ثلاثة أسماء: نوح وثمود ومدين. لا علم لهم البتة بهود وعاد وصالح وشعيب. أما "الجودى"، مرسى نوح ، فهى فى التوراة " أراراط" ، وأما "إرم" فهى فى العبرية الآرامية "آرام" ، وإليها تنتسب اللغة الآرامية كما لعلك حدست .

وعاد فى القرآن هم قوم هود ، وإرم مدينتهم . وثمود هم قوم صالح .ومدين قوم شعيب .

وقد فَصَّلَ القرآن فى الترتيب التاريخى لهؤلاء الأنبياء الأربعة : نوح ، ثم هود ، ثم صالح ، وأخيرا شعيب . وإن كان "لوط" بين صالح وشعيب ، ولكننا نرجىء الحديث عن لوط ليجىء فى سياق الحدث عن نبى الله إبراهيم ، عم لوط .

تَستظهر هذا التتابع من قوله عز وجل على لسان هود : {**واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح** } (الاعراف : ٦٩) فتفهم أن "هودا" أرسل بعد نوح وتفهم أيضا أنه ليس بين هذين نبىٌ مذكور فى القرآن ، لأن هودا لا يُحَذِّر قومه إلا مصير قوم نوح ، لا علم له بما سيئول إليه مصير قوم صالح وقوم لوط وقوم شعيب الذين جاءوا بعد هود . وأما صالح فيقول القرآن على لسانه : { **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد** } (الأعراف : ٧٤) فتفهم أن صالحا جاء بعد هود ليس بينهما نبى لأنه يحذر قومه مصير قوم هود ، لا علم له بما سيكون من شأن قوم لوط وقوم شعيب اللذين جاءا بعده . وأما شعيب فيقول القرآن على لسانه : { **ويا قوم لا يَجْرِمَنَّكم شِقَاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قومَ نوحٍ أو قومَ هودٍ أو قَوم صالحٍ ، وما قوم لوطٍ منكم ببعيد** } (هود : ٨٩) فتفهم أن لوطا بين صالح وشعيب .

وأما أن " إرَم " مدينة قوم هود فتستظهره من قوله عز وجل :{ **ألم تر كيف فعل ربك بعاد .إرَمَ ذاتِ العماد** } (الفجر ٦ــ٧) .

□□□

ولقد شُهِرَ نُوحٌ عليه السلام بأنه آدمُ الثانى ، لأن الخَلْقَ كُلَّهُم بعد الطوفان يُنسبون إليه : قال عز وجل فى نوح { **وجعلنا ذريته هم الباقين** } (الصافات ٧٧) ، وهذا من مجاز المُجْمَل ، والصحيح أنهم ذريتُه وذريةُ من آمنَ معه وَرَكِبَ الفلك : { **ذرية من حملنا مع نوح** } (الإسراء ٣) .

والذى بين آدم ونوح عليهما السلام قرون لا يعلم عِدَّتَها إلا الله ، والذى بين نوح وإبراهيم عليهما السلام كذلك . تستطيع بالحساب التقريبى أن تضع إبراهيم عليه السلام بين أعلام القرن الثامن عشر قبل الميلاد أو التاسع عشر لا تزيد : أَنْجَبَ إبراهيمُ وقد ناهز المائةَ عام ابنَهُ الثانى إسحاق ، وأنجب إسحاقُ بدوره ابنَيْه التوأمين "عِيسو" ، " يعقوب " وهو " اسرائيل " أبو يوسف الذى وطَّأ لبنى إسرائيل فى مصر فمكثوا بها كما تقول التوراة أربعمائة وثلاثين سنة (خروج ١٢/ ٤٠) ، وكان خروجهم على الراجح عندى ـ كما مر بك ـ أواخر عصر " رمسيس الثانى " الذى كان مهلكه حوالى ١٢٢٥ ق م . تستطيع بالتقريب إذن (١٢٢٥ + ٤٣٠ = ١٦٥٥) أن تضع يعقوب بين أعلام القرن السابع عشر قبل الميلاد وأن تضع جَدَّهُ إبراهيمَ عليهما السلام بين أعلام القرن التاسع عشر . ولكن ليس لديك من معالم التاريخ ما تستدل به على عصر نوح ، إلا أن تستظهر من علم الآثار تاريخا تقريبيا لعصر الطوفان ، وليس بين يديك من هذا شىء . ناهيك بأن تحدد تاريخا تقريبيا لمَهْبِطِ آدم وحواء إلى هذه الأرض ، فَتُقَدِّرَ الفترة ما بين آدم ونوح ، والأحافيرُ تنبئك بالعثور على عظام بشرية فى طبقات يَرْجِعُ تاريخُها إلى ما بين مائة ومائتى ألف عام .

ولكن سفر التكوين ـ كَدَأْبِهِ فى النص على المُحَالات ـ يتورط فيحصر الفترة ما بين آدم إلى نوح فى تسعة آباء ، هى على النسب الصاعد : نوح ـ لامك ـ متوشالح ـ أخنوخ ـ يارد ـ مُهْلَلئيل ـ قينان ـ أنوش ـ شيث ـ آدم ، ولايكتفى بهذا بل يحدد لكل منهم تاريخ مولده وتاريخ وفاته ، فتستخلص منه (راجع الإصحاح الخامس من سفر التكوين) ، أن آدم توفى سنة ٩٣٠ ب خ (ب خ = بدء الخليقة) ، وأن نوحا ولد سنة ١٠٥٦ ب خ ، وأن الطوفان ـ الذى حدث ونوحٌ عُمره ستمائة سنة ـ كان سنة ١٦٥٦ ب خ . ولعلك تعلم أن التقويم اليهودى يبدأ ببدء الخليقة ، وأن بدء الخليقة هذا ـ القائم على حسابات سفر التكوين ـ يناهز عام ٣٧٦١ قبل الميلاد ، وهذا يعنى أن المصريين على الأقل ـ الذين كان لهم وجودٌ فى مصر منذ حوالى ٤٢٠٠ قبل

الميلاد كما يقول علماءُ الآثار والحضارات ـ وُلِدُوا قبل بدء الخليقة لا قبل مَهْبِطِ آدم فحسب . ويعنى أيضا أن الطوفان الذى حدث على هذا التقدير عام ٢١٠٥ قبل الميلاد ، حدث بعد بناء بابل (٢٨٠٠ ق . م) بنحو سبعة قرون ويعنى أيضا أن نوحا ـ الذى عاش ثلاثمائة وخمسين عاما بعد الطوفان ـ مات سنة ١٧٥٥ ق م، أى أواسط القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، فكان من معاصرى إبراهيم !

هذا كله يقطعُ الصلةَ ما بين سفر التكوين والعِلم ، وما بين سفر التكوين والوحى الصادق ، فلا تلتفتُ إليه . ولكن هذا الذى تورط فيه سفر التكوين فألزم نفسه ما لا يلزمه ، لم يُسىء إلى أسفار التوراه فحسب ، ولكنه نال من "جِدِّيَةِ الوحى " بعامة ، وزعزع هيبة الدين فى صدور الذين نُشِّئوا على أن التوراة والإنجيل معا " كتابٌ مقدس" ، الذين لا يَرَوْنَ فى غير التوراة والإنجيل وحياً مُنَزَّلاً ، فلم يبحثوا عن الحق فى غيرهما ، والحقُّ منهمُ قريب ، فى القرآنِ المُصَدِّقِ "المُهَيمن " .

على أن موسى عليه السلام ـ صاحب التوراة ـ لم يتورط فيما تورط فيه سفر التكوين ، بل فَوَّضَ العلم بالقرون الأولى إلى الخلاقِ العليم . جَهِلَ فرعونُ ما كان من شأن تلك القرون ـ والمصريون على عصره أوفرُ أهلِ زمانهم عِلماً وحضارة ـ فسأل موسى أن يُنَبِّئَهُ بأنبائهم : { **قال فمن ربكما يا موسى . قال ربنا الذى أعطى كل شىءٍ خَلْقَهُ ثم هدى . قال فما بالُ القرون الأولى ؟ قال عِلْمها عند ربى فى كتاب ، لا يَضِلُّ ربى ولا يَنْسَى** } (طه : ٤٩ ــ ٥٢) .

والقرآنُ يُباعِدُ مابين نوح وإبراهيم : { **وقومَ نوحٍ لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما . وعادا وثمودَ وأصحابَ الرسِّ وقروناً بين ذلك كثيرا** } (الفرقان : ٣٧ ــ ٣٨) .

والقــرآن يُباعِد أيضا ما بين آدم ونوح . تســـتظهر هذا من قــوله عز وجل : { **ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون . فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشرٌ مثلكم يريد أن يَتَفَضَّلَ عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكةً ما سَمِعْنَا بهذا فى آبائنا الأولين** } (المؤمنون : ٢٣ ــ ٢٤) . قَدْ مَضَت القرونُ إذن من بعد آدم إلى

نوح حتى أنسُوا ما نَزَلَ به آدم . ولو صَّح ما قالهُ سفرُ التكوين كما مَرَّ بك لكان ما بين وفاة آدم (٩٣٠ ب خ) ومولد نوح (١٠٥٦ ب خ) مائة وستة وعشرين عاما لا تزيد ، ولكاد آدمُ نفسه يَرُدُّ على هؤلاء المعاندين المكذّبين ، أو لَرَدَّ عليهم «أنوش» ، ابن "شيث" ، بن " آدم" ، الذى ما مات حتى ناهزَ نوحُ الرابعةَ والثمانين ! (١)

لا يُعارض القرآنُ التوراةَ إلا ويصح القرآن . ولا يُعارضُ القرآنُ علومَ " العصر" إلا ويصحُّ القرآن . ولا "يتفق" العلمُ مع القرآنِ إلا وقد سَبق القرآنُ العِلمَ ومَهَّدَ الطريق .

(١) راجع هذه " الحسابات "على الإصحاح الخامس من سفر التكوين .

(١٣)

نـــوح

" نُوحٌ " فى القرآنِ هى تعريب " نوح " فى التوراة ، التى تُنطق فى العبرية لا مداً بالواو وإنما مدا بالضم بَعْدَهُ فَتْح (نُو ـ وَح)، ومن هنا كتابتها بالإنجليزية Noah .

وهى فى العبرية من الفعل العبرى ناح/ يَنُوح ، مشتقةٌ على المصدر أو اسم الفعل ، فهى "نوح" (نُو ـ وَح) .

أما معانى هذا الفعل فى العبرية فهى : البُقْياَ والتَّلبُّث ـ الدَّعَةُ والسكون ـ الكَفُّ والتوقف ـ الراحةُ والاسترواحُ والتنَعُّم [١] . وهو فى العبرية والآرامية سواء .

على أنك تستطيع أن ترد هذه المعانى جميعا إلى معنى الفعل الرئيسى ، وهو البقيا والتلبث . والمعنى الرئيسى للفعل هو أقدم معانيه ، أى أسبقها وجودا .

وقِدَمُ نوح على عبرية التوراة ــ وهو قِدَمٌ جِدُّ بعيد ـ يجعلك تُؤثر أَخْذَ معنى اسمه من المعنى الرئيسى لهذا الفعل " ناحْ / يَنُوح" العبرى ـ الآرامى ، أعنى تأخذه من البُقيا والتَلَبُّث ، غيرَ ملتفتٍ إلى عبارةٍ فى سفر التكوين يُحاولُ بها الكاتب تفسير هذا الاسم بمعنى العزاء والراحة : "ودعا اسمه نوحا . قائلا هذا يُعَزِّينا عن عملنا وتعب أيدينا من قِبَلِ الأرض التى لعنها الرب" (تكوين ٥/ ٢٩) . تأخذه من البقيا والتلبث ، ولا تأخذه من العزاء و الراحة ، لاحُبًّا فى مخالفة كاتب سفر التكوين ، وإنما تفعله انحيازا للتأصيلِ اللغوِى العلمىِّ لمعنى هذا الجَذْرِ العبرى ــ الآرامى " ناحْ / يَنُوح" .

---

(١) من هذه يجىء ـ بتأثير آرامى سريانى ـ استخدام المسيحيين لفظ " المُتَنيِّح" بمعنى "المرحوم " ، وصفاً على الدُّعاء للميت .

فقد مر بك أن ما كان فى العربية أصيلا بالخاء (المنقوطة) يُرَدُّ فى العبرية والآرامية فورا إلى الحاء (غير المنقوطة) . وما كان فى العربية أصيلا بالحاء (غيرالمنقوطة) ، يَظَل فى العبرية والآرامية على أصله بالحاء . مثال ذلك "خَلَقَ" ، العربى يصبح فى العبرية والآرامية " حَلَقْ " بينما "جَلَحَ / يَجْلَح " العربى يظل فى العبرية - الآرامية بالحاء " جَلَحْ / يِجْلَح " .

" ناحْ " العبرى إذن هو إما " نَاحَ " العربى نفسه ، من " النُّواح" ، كما ظن بعض مفسرى القرآن ، ولم يُوفَّقوا فيه ، فليس فى " ناحْ " العبرى من معانى "النُّواحِ " شىء كما مر بك ، وإما هو " نَاخَ " العربى بخاء منقوطة ، من الإناخة والتَّنَوُّخ ، أى التلبثَ والبقيا ، وهو الصحيح ، لأن هذا هو المعنى الرئيسى للفعل العبرى " ناحْ /يَنُوحُ " .

ليس مسموعا فى العربية نَاخَ يَنُوخ ، ولكنك تأخذه من أناخ / يُنيخ بنفس معناه : أناخَ بالمكان ، أقَامَ ، وأناخَ به البلاءُ ، حَلَّ بِهِ ولَزِمَه ، ومنه أناخ الجملَ يعنى أبْرَكَه ، والمُنَاخُ ، محلُّ الإقامة ، والنَّوْخَة مثله .

" نُوحُ " إذن من النَّوْخةِ والإناخة ، فهوى النائخ المتنوخ ، أى اللابث لايَريم . صار له عَلَماً لطول مُكْثه فى قومه (ألفَ سنة إلا خمسين عاما كما فى التوراة وفى القرآن) وطولِ مُلاحاتِهم لَه .

وهذا هو التفسير القرآنى لمعنى " نُوح " ، فَسَّرَهُ بالمُرادف فى مثل قوله عز وجل : { **ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما** } (العنكبوت : ١٤) ، { **واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كَبُر عليكم مقامِى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت** } {يونس : ٧١} ، { **وجعلنا ذريته هم الباقين** } (الصافات :٧٧) .

صَحَّحَ القرآنُ معنى " نوح " لمفسرى القرآن الذين تكلموا فيه ، وصححه أيضا لكاتبِ سفر التكوين كما مَرَّ بك . وسُبحانَ العليم الخبير .

❑❑❑

(١٤)

الجـــودى

الجودى هو اسم مُرسَى سفينة نوح فى القرآن . وردت فى القرآن مرة واحدة فى قوله عز وجل : { **وقيل ياأرضُ ابلعى ماءَك وياسماءُ أقلعى وغيضَ الماءُ وقُضِىَ الأمر واستوت على الجودى وقيل بُعداً للقوم الظالمين** } (هود :٤٤) .

ولم يتعرض مفسرو القرآن (راجع تفسير القرطبى للآية ٤٤ من سورة هود) لتفسير معنى " الجودى " ، مكتفين بأنه اسمُ جبلٍ فى الموصل شمالى العراق ، القريبة من حدودها مع تركيا ، ومن مقاطعة " أرمينية " فى تركيا على حدودها المشتركة مع إيران .

والمعروف عند أهل الكتاب من "سفر التكوين" (تكوين ٨/٤) أن مُرسَى سفينة نوح هو " أراراط : "واستقر الفُلكُ فى الشهر السابع فى اليوم السابع عشر من الشهر على جبال أراراط" .

وإذا عَلِمْتَ أن " أراراط" فى عبرية التوراة يعنى "أرمينية" نفسها [١] ، فقد عَلِمْتَ أن سفر التكوين لم يُسَمِّ جبلاً بعينه لمرسَى نوح ، وإنما قال ببساطة إن السفينة رَسَت على "جبال أرمينية " .

ولكن الناس تناسَوا هذا أو أُنسوهُ ، فوَهِمُوا أن ثَمَّةَ جبلاً بعينه اسمُهُ "أراراط" رست عليه السفينة ، وأن رَحَّالةً عثروا فى قمته على حُطام رَجَّحوا أنه حُطامُ "الفُلْك المشحون"، رغم أن الفلك لم يتحطم على قمة الجَبَل ، بل رست السفينة بسلام: { **قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركاتٍ عليك وعلى أُمَمٍ ممن معك** }

---

(١) راجع " أراراط " فى المعجم العبرى " هَمِّلُون هِحَدَاش لَتَنَاخ " المذكور فى حواشى هذا الكتاب ، ص ٦٦٠ .

(هود : ٤٨) . ولكن التسمية ثَبَتَت وانتهى الأمر ، تَجِدُها فى المعاجم الأوروبية عَلَما على جبلٍ بعينه فى أرمينية شرقى تركيا ، قُرب حدود أرمينية المشتركة مع إيران ، يبلغ ارتفاعُ إحدى قِمَّتَيْه حوالى ٥,١٢٨ مترا .

من هنا طَنْطَنَ مُستشرقون [١] عدوا بغير علم : قال القرآن " الجودى" وقالت التوراةُ "أراراط" . ولكن التوراة لم تقل " أراراط" كما مَرَّ بك ، وإنما قالت (جبلٌ من جبالٍ فى " أراراط") ، أى فى أرمينية ، لم تُسَمِّه ، وسَمَّاهُ القرآن .

أما ذلك " الجوديُّ " الذى فى الموصل على ما ذكره مفسرو القرآن ، فليس هو بالضرورة الجودى المَعنِىّ فى القرآن ، بل الراجحُ عندى أنه جبلٌ تَسَمَّى بهذا الاسم بعد نزول القرآن .

لا خلافَ إذن بين التوراة والقرآن فى تسمية مرسى نوح ، لا لأنهما تَطَابَقا ، وإنما لأن التوراة عَمَّمَت ، وخَصَّصَ القرآن[٢] .

وقد مَرَّ بك أن الأعلام المُوحى بها فى القرآن على غير سابقةٍ فى التوراة والإنجيل تجىءُ فى القرآن " عربيةً " على أصلها . أما معنى " الجودى" فى العربية فلك أن تُفَسِّرَهُ بأنه المنسوبُ إلى الجُود ، أى " ذُو الجُود" وجَادَ المطرُ يعنى كَثُر ، والجَودُ بفتح الجيم يعنى المطر الغزير الذى لا مَطَرَ فوقَه . وأنت تعلم أن الجبال العالية التى تذوب ثلوجُها فى الربيع تفيض منها المياهُ سُيولا وأنهارا ومنها جبال " أرمينية" منابعُ الفرات .

ولكنك إن تَمَعَّنْت فى مراحل بدء الطوفان وانحساره وَرُسُوِّ الفُلْك ، وقارنتَ بين ما ذكره سفرُ التكوين من ذلك وبين ما قالهُ القرآن ، تجد أن سفر التكوين يُنَبِّئكَ أن السفينة رست على جبال " أراراط" فى السابع عشر من الشهر السابع لبدء الطَوفان ، " وكانت المياهُ تنقص نقصا متواليا إلى الشهر العاشر . وفى العاشر فى أول الشهر ظهرت رؤوسُ الجبال " (تكوين ٨/٤ - ٥) . فتفهم أن السفينة رست قبل

---

(١) راجع مادة Ararat فى Webster's Dictionary المرجع المذكور .

(٢) انظر Joseph Horovitz المرجع المذكور ، ص ٣٢ ـ ٣٣ ، وقد خاض الرجل فقال ان القرآن أراد بتسمية الجودى وهو جبل فى بلاد العرب ، نَقْلَ مُرَسى نوح من أرمينية إلى بلاد العرب كى يَخُصَّها بهذا الشرف، وزعم أيضا أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) عرف "الجودى" هذا فى وطنه فَوَهِمَ أنه أعلى الجبال قاطبة . وقد قصصت عليك هذا كى تتبين أن هؤلاء المستشرقين يعبثون ولا يتعمقون .

نحو ٧٣ يوما من ظهور رؤوس الجبال ، فعلى أى الجبال رست إذن إن لم تكن قد رست على أعلاها ، بل وعلى أمعنها ارتفاعا ، الذى يَصِلُ ارتفاعُ إحدى قمتيه كما تقول المعاجم إلى ٥،١٨٢ م؟ وهذا غيرُ منطقى لأنه بالغُ المشقة على نوح والذين معه، شبابا وشيوخا ونساء وأطفالا، الذين سيهبطون إلى السهول من هذا الارتفاع الشامخ . أما القرآن فيقول لك إن الماء " غِيضَ أولا " ، ثم استوت السفينة ، استوت بعد أن غيضَ الماءُ تماما حتى استوت السفينة على "قاعٍ" من الأرض ، هبط إليه نوح والذين معه بسلام (هود: ٤٤) .

كان بسم الله مجراها ومُرساها ، أى كان بسم الله حمْلُها على سفح الماء ، وكان باسمه عز وجل أيضا إهباطها إلى سفحٍ من الأرض ، شاطىءِ نهرٍ أو ناحيةِ جبل .

والعرب يسمون شاطىء النهر وناحية الجبل ، " الجُدُّ " [(١)] ، " الجُدَّة " (ومنه اسم الميناء المعروف "جُدَّة " بالمملكة العربية السعودية) .

أفيكون " الجُودِىُّ " أصله " الجُدِّىُّ" المنسوب إلى " الجُدّ " ، فهو المُرسَى ، استعيض عن تشديد داله بمد حركة جيمه ؟

إن صحَّ ذلك - وهو غيرُ بعيد - [(٢)] كان معنى " استوت على الجودى "، والله بغيبه أعلم ، أن السفينة رست على مُرساها ، لا أكثر ولا أقل ، دون تحديدٍ لموقع .

---

(١) وهى فى العبرية - الآرامية "جاداه" (الهاء خاملة للوقف فقط) بنفس معناها.
(٢) ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " مازالت أكلةُ خَيْبَرَ تُعادُّنى" يريد تُعاودُنى .

(١٥) هـود (١٦) عاد (١٧) إرم

لايعرف أهل الكتاب "هودا " ولا " عادا " ولكنهم يعرفون " إِرم" ، وهى عندهم " آرام " يعنى " العالية " أو " المعَلاَة " ، من الجذر العبرى "رام / يَرُوم" أو "رام / يَرَام " ، أى ارتفع وعلا ، فهو عالٍ وعَلِىٌّ ، ومن هذه " أبرام " ، أى " أبو العلاء " ، اسم إبراهيم عليه السلام فى التوراة ، قبل أن يبتليه الله بكلمات فَيُتِمُّهن ، فيسميه باسمه المعروف " إبراهيم " . وسيأتى . ولاتزال أحرف هذا الجذر باقية فى العربية تجدها فى " رَامَهُ " يعنى طلبه ، وكأنها من استشرفه وتَطَلّعَ إليه ، وتجدها أيضا فى "رَمَى" (لازما غير متعد) بمعنى ربا وزاد ، وتجدها كذلك فى " رَامَ عليه " بمعنى فضل عليه وزاد . ولكن " رَام " بمعنى علا وارتفع ، غيرُ معروف فى العربيَة ، فتستظهر من هذا أن " إرِم" أعجمى غيرُ عربى ، يحتاج إلى تفسيرٍ فى القرآن . وإلا لظننت " إِرَم" عربية من " أَرَمَهُ" يعنى استأصله وأفناه ، أو أنها "الإرَمَ" بمعنى الحجارة أو نحوها تُنصب فى المفازة ليُهْتَدى بها (وتُجمع على آرام وأُروم) أو ظننتها بمعنى الأصل و "الأُرُومة " ، وقد فَصَلَ القرآنُ فى هذا كما سترى .

على أن عُجمة "إرِم" ، وهى مدينةُ عادٍ قومِ هود ، تُوحى إليك بأن عاداً وهُوداً لفظان أعجميان كذلك ، أعنى أنهما من " العربية الأولى " ، التى يحتاج فَهْمُها أحيانا إلى بَحْثٍ فى فصائلَ ساميةٍ عن جذور أُميتت فى العربية وبقيت حَيَّة فى غيرها تقولُ بعجمة " هود " و"عاد " على الإتباع لعجمة " إرِم " جازما قاطعا ، لأن الرسولَ والمُرْسَلَ إليهم واحد .

□□□

أما مفسرو القرآن (راجع تفسير القرطبى للآيات ٦٥ ـ ٦٩ من سورة الأعراف والآيات ٥٠ ـ ٦٠ من سورة هود) فقد اتفقوا على عُجمة "عاد" ، اسمَ رَجُلٍ تَسَمَّت به قبيلتُه ، نَسَبَهُ ابنُ إسحاق إلى نوح فقال : هو عاد بن عوص بن إرم بن شالح ابن أرفخشد بن سام بن نوح (وكأنه يَستقى من أحبارِ يهود ولكنهم لايعلمون الكتاب إلا أمانى كما قال الحق سبحانه فليس هذا هو عمود النسب فى سفر التكوين بل ليس فيه أصلا "عاد ") . ولكنهم تفاوتوا فى عُجمة " هود" (الاسم لا المسمى بالطبع) فقال بعضهم هو عربى تشتقه من الجذر العربى " هاد/ يهود " أى تاب ورجع إلى الحق، وقال الباقون ومنهم ابن إسحاق إن " هودا " أعجمى ، فهو هود بن عبد الله ابن رباح بن الجلود بن عاد بن عوص بن إرم الخ . وهذا أيضا على خلاف عمود النسب فى سفر التكوين ، بل ليس فيه أصلا هود ، ناهيك بعبد الله والجلود . أما قول مفسرى القرآن فى " إرَم" (راجع تفسير القرطبى للآيتين ٦ - ٧ من سوه الفجر) فمنهم من قال جَدُّ عاد ، نُسبَت إليه القبيلة فجاء اللفظ على التأنيث (ذاتِ العماد) ومنهم من قال بل هو اسم مدينتهم ، وشرحوا " ذات العماد " بأنها الأبنية العالية المرتفعة ـ وهو الصحيح فى اللغة ـ وكأنهم يبنون أبنيتهم على العُمُد [(١)] . ومنهم من أشكلت عليه " عاداً الأولى " {النجم : ٥٠} فظن أنهم " عادان " ، أولى وثانية ، "عاد إرم" ، "عاد هود " ، والصحيح ما قاله الآخرون ، فليس إلا " عاداً " واحدة ، أهلَكَها اللهُ أولا ، ثم ثَنَّى بـ " ثمود " ، فالقرآن لا يذكر عادا قوم هود إلا وهو يُتبعها بثمود قومِ صالح .

على أن فى حَضْرَمَوْت نبعا يُدعى "برا ـ هوت" ، اشتهر منذ القدم بأدخنته الكبريتية ، بجواره قبر يدعى قبر " هود" يزوره الناس إلى اليوم ويتبركون به . يصح هذا أو لا يصح فنحن لا نستطرد بك إليه ، ولكن المستشرقين الذين ذكروه[(٢)] يلفتون النظر إلى ما قاله المفسرون من أن "عادا" كانت منازلهم ما بين اليمن وحضرموت ، فهو إذن من أنبياء العرب . ويرى هؤلاء المستشرقون أيضا أن هودا هو نفسه "عابر" الذى يرتفع بنسبه إلى سام بن نوح . وإلى عابر هذا ينتسب " العبرانيون " كما تعلم . وربما شَجَّعَت الجاليةُ اليهودية فى شبه الجزيرة هذه المقولة رغبةً فى إيجاد نسبٍ مُوغِل

---

(١) ربما ذَكَّرك هذا " بالحدائق المعلقة " التى اكتشفت آثارها فى نواحى بابل .

(٢) انظر مثلا Joseph Horovitz ، المرجع المذكور ، ص ٢٨ و ٢٩ .

فى القِدَم بينهم وبين مُضيفيهم ، تأليفاً لقلوب العرب عليهم ، فقالوا إن "يهود" جاءت من "هود" ، فهم إذن بنو ـ هود ، النبى العربى. وليس بشىء إن أردت قرابة النسب ، فاليهود أنفسهم يشتقون "هو " من "يهودا" بن يعقوب (وتنطق داله فى العبرية ذالا لاعتلال ما قبلها كما مر بك) وليس تأصيل الأنساب من مقاصد هذا الكتاب الذى نكتب. ولكن لا بأس بهذا الذى قيل فى أخذ "يهود " "من" هود " إن أردت القرابة اللغوية فى النحت والاشتقاق ، ولو أن اللغات السامية جميعا فى هذا سواء .

□□□

أما " هود " ـ إن أردتها عربية ـ فهى تسمية مشتقة من الجذر العربى هَادَ/ يَهُودُ / هَوْدًا ، فهو " الهائد" ، أى التائب الراجع إلى الحق (وتاب وثاب وآب كُلّهُ واحد) . تجد تأصيل هذا فى القرآن من قوله عز وجل على لسان موسى فى فتنة السامرى : { **إن هى إلا فتنتك تُضِلُّ بها من تشاء وتَهْدِى من تشاء ، أنت وَلِيُّنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين . واكتُب لنا فى هذه الدنيا حسنةً وفى الآخرة ، إنَّا هُدْنا إليك** } {الأعراف : ١٥٥ ـ ١٥٦} ، أى رَجَعْنا وأَنَبْنَا . لا تجدُ لها تأصيلا فى العربية إلا من القرآن ، وفى هذه الآية بالذات . ومنها أيضا يشتق القرآن معنى اسم اليهود (وسيأتى فى موضعه) فيسميهم الذين هادوا فى عشرة مواضع من مثل قوله عز وجل : { **إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين** } {البقره :٦٢} ، ويسميهم أيضا " هود " (جمع " هائد " أى الذى هاد) فى ثلاثة مواضع من مثل قوله عز وجل يحكى مقالتهم : { **وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا** } {البقره : ١٣٥} نافيا أن يكون هذا هو اسمهم قبل أن يقولها موسى : { **أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى !** } {البقرة : ١٤٠} .

وليس معنى القول بعربية اسم "هود"ـ على إيغاله فى القدم كما مر بك ـ أنه بالضرورة من هذه العربية نفسها التى نزل بها القرآن، وإنما المعنى أن اسمه من "العربية الأولى" التى تكلم بها سكان شبه الجزيرة جميعا منذ أزمان سحيقة لا يعلمها إلا الله ، وتفرقت من بعد فى الساميات جميعا ، وإنما نفهم نحن مفرداتها الآن بخاصية فى تلك اللغة الفذة ، هى "جذرها الثلاثى" ، الذى تدور معانيه على أصل حروفه .وقد أصل القرآن معنى "هاد" على التوبة والإنابة ، فهو كما قال، لأن القرآن هو الشاهد لتلك اللغة العربية فى كافة مراحل تطورها، لاحاجة بك معه إلى غيره.

وربما قُلت إن " الهائد " تُفيد " المَهْدِيُّ " ، لا لقرابة ما بين الجذرين " هَدَى " و"هاد" فحسب ، وإنما أيضا لأن " الهائد " هو عكس " الضال" . وفى هذا لفتةٌ بعيدةُ المغزى قد تفوتُ على كثيرين : إنه نَعْتٌ ينطبقُ على كل نبيٍّ بُعث فى قوم ضلوا جميعا سواءَ السبيل ، ليس فيهم إلا هو وَحْدَه الذى انسلخَ من ضلالتهم : هادَ إلى الله وحده ، فَبَعَثَهُ الله إليهم ليهديَهُم به، ولا يَهْدِى غيره إلا الذى هاد من قبل ، فهو الهائدُ المَهْدِى ، وهو الهادى المهتدى .

لم يكن " هود " عليه السلام من أنبياء التوراة ، فجاء اسمه فى القرآن على أصله عربيا ، على ما مر بك من منهجنا فى هذا الكتاب ، لا يحتاج إلى " فك عجمته " بالتفسير ، إلا ما كان من تأصيل معنى الجذر " هاد " فى قوله عز وجل على لسان موسى : " إنا هُدْنَا إليك " .

على أن فى أسفار التوراة (أخبار الأيام الأول ٣٧/٧) الاسم " هُود " (مداً بالضم لا بالواو كما فى" يُوم " العربية العامية أو فى Home الإنجليزية) عَلَماً على رجل من عَامَّةِ سِبْطِ أشير ، ليس بنبى أو رسول . ولكن علماء التوراة لا يشتقون "هُود" الإسرائيلى هذا من التوبة والإنابة ، ولكنه عندهم مَصْدَرٌ أميت جذرُه وبقى المصدرُ فى لغتهم بمعنى الجلال والجمال والسَّناء ، ومنه فى العبرية المعاصرة " هُودْ مَلخُوتو " خِطاباً للملوك بمعنى " صاحب الجلالة " . ولو كان المَعنِيُّ هو "هود" النبى لشاعت التسمية فى بنى إسرائيل ، وهو مالم يحدث .

□□□

أما عادُ ، " إرَم " فلا مجال لاشتقاقهما من العربية التى نزل بها القرآن ، وإنما تشتقهما من العربية الأولى مستعينا بما بقى من جذورها فى الآرامية والعبرية ، ومن ثم كانتا من الأعجمى الذى يُفَسِّرُه القرآن .

" عـاد " فى الآراميـة ـ العبريـة معناها " الأَبَد " و" الخُلود" . ومنها فى العبرية " لَعَاد" ، يعنى " إلى الأبد " . فهى الباقيةُ الخالدة التى لاتزول . وقد جاءت مُفَسَّرَةً فى القرآن مَرَّتَيْن ، الأولى على الترادف فى قوله عز وجل : { **وأما عادٌ فأهلكوا بريحٍ صَرْصَرٍ عاتية . سَخَّرَها عليهم سبعَ ليالٍ وثمانية أيَّام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم**

من **باقية** } ﴿الحاقة : ٦ـ٨﴾ . وفُسِّرَت فى المرة الثانية على التقابل فى قوله عز وجل : { **وأنه أهلك عاداً الأولى . وثمود فما أبْقَى** } ﴿النجم ٤٩ ــ٥٠﴾ ، أى ما عَادَتْ عادٌ ولن تَعُود .

وأما "إرَم" فهى فى الآرامية ـ العبرية مشتقة من العلو والعلاء ، فهى العالية والمُعْلاة ، كما مر بك من معنى الجذر العبرى " رَام ـ يَرُوم " . وقد وردت " إرَم " فى القرآن مرة واحدة فُسِّرَت فيها بهذا المعنى نفسه ، ولم يَفْطِنْ إليهِ مفسرو القرآن رغم علمهم بأن " ذات العماد " تعنى المدينة ذات الأبنية العالية المرتفعة : { **ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد** } ﴿الفجر ٦،٨﴾ ، وهو تفسير على الترادف اللصيق :إرَم = ذات العماد . ودلّ قولُهُ عز وجل " لم يُخْلَقْ مثلها فى البلاد " على أن القرآن يريد إرم المدينة لا عاداً القبيلة كما وَهِمَ بعضُ المفسرين الذين ظنوا أن إرَم فى القرآن هى نفسها عاد ، اسم القبيلة ، نسبة إلى الرجل إرم بن سام بن نوح ، وليس هذا بفصيح فى عربية القرآن الذى إذا أراد القبيلة جاء بضمير الجمع للمذكر : "وأما عادٌ فأُهلِكُوا " ، وإذا أراد المدينة أى الموضع استخدم ضمير المؤنث : " التى لم يُخلَق مِثلُها فى البلاد "

أما " الإرَميُّون " أصحاب إرم ، أعنى الناجين منهم مع هود ، فهم آباء "الآراميين" الذين قُدِّرَ لسلالة منهم فى " الحِجْر " إلى الجنوب الغربى من تيماء بالمملكة العربية السعودية على طريق القوافل إلى الشام أن تسكن فى نواحى "الحجر" ما يعرف إلى اليوم باسم "مدائن صالح " أو " قرى صالح " ، التى نهى صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك عن التلبُّثِ بأطلالها كراهَة المُكْثِ بموضع السخط والنقمة : إنهم " ثمود " أصحاب " الحِجْر " ، قَومُ صالح .

(١٨) صالح (١٩) ثمود

يَرِدُ الاسم " إرم" فى التاريخ المدون ، وفى جغرافية التوراة ، بصورة عبرية آرامية هى "آرام" ليست هى إرَم عاد التى فى القرآن ، وإنما المراد منها هو " سورية " بالمعنى العام ، سميت بهذا الاسم نسبة إلى قوم من العرب وفدوا عليها حوالى القرن الخامس عشر قبل الميلاد : جاءوها بلغتهم هم "الآرامية" ، وخلعوا عليها اسمهم هم "الآراميين " ، فصارت سورية "ارض آرام" أى أرض آرام . وقد مر بك أن "إِرَم" فُسِّرَت فى القرآن بمعنى العالية أو المعلاة (إرَم ذات العماد) ، وهو نفسه معنى لفظ "آرام" فى اللغتين العبرية والآرامية ، فتقطع بأن "الآراميين" هم "الإرَميونَ" أصحابُ إرَم التى فى القرآن ، سلالة من الناجين مع هود تفرقوا فى البلاد فى عصور سابقة على وجود الآراميين فى سورية . دليلُكَ فى هذا من القرآن على لسان صالح عليه السلام يُحَذِّرُ قومَه مصيرَ أسلافهم قوم هود : { **واذكروا إذ جعلكم خُلفاءَ من بعد عادٍ وبوأكُم فِى الأرضِ** } (الأعراف : ٧٤) ، ولم تخلف ثمودُ عادا على نفس الأرض ، فشتان ما بين الحِجْر فى الشمال الغربى من شبه الجزيرة وبين " آرام نَهْرَيم " أى آرام ما بين النهرين ، يعنى " إرَمَ العراق " ، وإنما كان أصحاب الحجر فحسب "سلالة من الناجين مع هود" خرجوا بعد نكبة " إرم ذات العماد " من ناحية ما فى جنوبى بابل إلى حضرموت واليمن يحملون معهم اسم مدينتهم " إرَم " أو "آرام" التى صارت علما عليهم فسموا "الإرَمِيِّين" أو "الآراميين" ، ثم ارتحلت بطونٌ منهم فى زمن لاحق إلى الشمال ، ثم استقرت فصائل منهم فى منطقة الحِجْر على طريق القوافل إلى الشام ، كانوا هم "ثمود" قوم صالح . وتلمح فى قول صالح عليه السلام يعظ قومه : { **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتَنحِتُونَ الجِبالَ بُيوتاً** } (الأعراف : ٧٤) أن ثمود أرادوا محاكاة " إرم ذات العماد " فى العلو تحناناً إلى موطنهم القديم ، ولكنهم لم يذكروا

آلاءَ الله عليهم ، بل ظلموا بها ، فدمَّر اللهُ عليهم [1] "إرم الثانية" - إرم صالح - كما أهلك من قبل " عاداً الأولى" ، إرم هود . ومن هذا قوله عز وجل : { **وأنه أهلك عادا الأولى ، وثمود فما أبقى** } {النجم : ٤٩ ـ ٥٠ } فتفهم أن ثمود هى " عاد الثانية " .

□□□

لم يكن صالح عليه السلام من أنبياء التوراة ، ومن ثم فاسمه كما علمت من منهجنا فى هذا الكتاب ، يجىء على أصله عربيا ، لا يحتاج إلى تفسير . ولا يترتب على عربية هذا الاسم أن صالحا عليه السلام كان عربيا من بنى إسماعيل ، بل هو آرامى من قوم آراميين ، سلالة من الناجين مع هود ، واسمه ـ كاسم هود ـ مشتق من العربية الأولى التى تفرقت جذورها فى الساميات جميعا . دليلك فى هذا أن صالحا سبق إبراهيم ـ أبا إسماعيل وعم لوط ـ بقرون لا يعلم عدتها إلا الله . ودليلك فيه أيضا أن " قرى صالح " أقرب إلى الشام من الحجاز ، ناهيك باليمن .

على أن الجذر العربى " صلح " باق بذات حروفه ولفظه ومعناه فى العبرية والآرامية ، ومنه على زنة الفاعل فى الآرامية بالذات ـ لغة قوم صالح كما مر بك ـ "صاليح" (مدا للام بالكسر لا بالياء كما تنطق فى " ليه " العربية العامية أو فى Late الانجليزية) بمعنى " الذى صلح" . فهو إذن فى العربية والآرامية واحد ، يعرب فقط بتقصير مد " كسرة اللام " ، فيؤول إلى "صالح" العربية بنفس معناها ونطقها فى القرآن .

"صالح" إذن مفسر فى القرآن بالتعريب وحده ، بل هو أبين أمثلة القرآن فى التفسير بالتعريب .

□□□

---

(١) عبارة القرآن : { فدمدم عليهم ربهم } {الشمس :١٤} " ، والدمدمة هى قعقعة الزلزال ، ولم يكن ثم زلزال ، وإنما كانت صيحة من جبريل عليه السلام تَرْجُفُ بها الأرضُ من تحتهم وترتج الجبال ، صرعتهم : { وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين } {هود : ٦٧} .

وقد ذهب مفسرو القرآن (راجع تفسير القرطبى للآيتين رقم ٧٣ من سورة الأعراف ورقم ٨٠ من سورة الحج) إلى أن صالحا وقومه كانوا قوما عربا ، ولكنهم نسبوهم إلى العرب البائدة كعاد وطسم وجديس ، وهذا يطابق ما قلناه نحن إن تمعنت، لأن سكان شبه الجزيرة جميعا عرب بالمعنى العام ، لا يقدح فى هذا تفاوت لهجاتهم ومنطقهم مهما بعدت عن العربية التى نزل بها القرآن . وهذا يدلك أيضا على علم العرب قبل القرآن بثمود ، لا بوصفهم قوم صالح، وإنما بوصفهم قبيلة من قبائل العرب التى بادت ، وهو علم شاركهم فيه أهل الكتاب معاصرو القرآن ، وإن خلت أسفار التوراة من النص على قصة صالح مع قومه . بل قد ذكر مؤرخو اليونان [١] قبل القرآن بقرون " ثمود" و "لحيان" ، وقالوا إن منازلهم كانت من جنوب العقبة [٢] إلى نواحى شمال ينبع بالقرب من المويلح وأنه كانت منهم جموع منتشرة فى داخل البلاد إلى نواحى خيبر وفدك . وليس هؤلاء بالطبع هم " ثمود صالح" ، وإنما هم سلالة من الناجين مع صالح ، خلفوهم وانتسبوا إليهم .

□□□

أما " ثمود " فهى عربية أيضا بالمعنى الذى ذكرناه : ثمد الماء يعنى قل ، وثمده هو يعنى استنفد معظمه ، وثمد الناقة يعنى اشتفها بالحلب ، وثمده يعنى استنفد ما عنده ، والثمد يعنى الماء القليل الذى ليس له مدد ، أو هو المكان يجتمع فيه الماء ، من ثمد المكان يعنى هيأه كالحوض ليجتمع فيه الماء . وعلى هذا تكون "ثمود" على زنة فعول بمعنى فاعل ، أو فعول بمعنى مفعول ، على المعانى الذى ذكرت لك ، فهم أصحاب الماء القليل ، يستنبطونه من الأرض ويُحَوِّضُونَه ، الحريصون عليه، يذودون عنه ويمنعونه ، فهو حجْرٌ عليهم ، حرامٌ على غيرهم . ومن هنا جاءت تسميتهم " أصحابَ الحجر" (الحجر : ٨٠) .

وقد جاءت " ثمود" مُفَسَّرَةً فى القرآن بالتصوير فى فتنة الناقة التى جعلها الله لهم آية { **إنا مُرسلوا الناقةِ فتنةً لهم فارتقبهم واصطبر . ونَبِّئْهُم أن الماءَ قِسْمَةٌ بينهم ، كُلُّ شِرْبٍ مُحتضر** } (القمر : ٢٧ ـــ ٢٨) ، " تَشْتَفُّ " ماءهم كله

(١) اقرأ هذا فى " تاريخ اللغات السامية " ــ ا . ولفنسون ، دار القلم ، بيروت ، ص ١٧١ .
(٢) وفى جنوب العقبة أيضا تقع "مدين" بلدة قوم شعيب ، وسيأتى .

يوما ، وتُفيضُه عليهم فى الغداة لبنا إذ لاماء لهم ، "فَيَشْتَفُّونَها" ، "تَشْمِدُهُم" و"يَشْمِدُونَها" .

وقد وَهِمَ بعض مفسرى القرآن (راجع تفسير القرطبى للآية ٣٨ من سورة الفرقان) أن "أَصحاب الرَّس" هم ثمود قوم صالح [1] ، أصحاب تلك "البئر الحِجْر" لأن " الرَّسّ " فى العربية معناها " البئر" . وقد وردت "الرَّسُّ" فى القرآن مرتين: { **وعاداً وثمود وأصحابَ الرَّس وقرونا بين ذلك كثيرا** } (الفرقان : ٣٨) ، {**كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرَّسِّ وثمود** } (ق : ١٢) . ولا يصح قول المفسرين فى هذا لأن القرآن يعطف بالواو أصحاب الرَّسِّ على ثمود فى الآية الأولى، ويعطف ثمود على أصحاب الرَّس فى الآية الثانية ، لا يجتزىء من الواحدة بالأخرى كما قال " أصحاب الحجر" يعنى قوم صالح ، وكما قال " أصحاب الأيكة " يعنى أهل مدين ، قوم شعيب . أصحابُ الرَّسِّ إذن ليسوا قوم صالح ، وإنما هم قوم آخرون أخبر القرآن بَهْلكِهِم ، ولم يُسَمِّ نَبِيَّهُم ، فى قرونٍ قد خلت بين نوحٍ وإبراهيم . بل وبعد إبراهيم ، كما قال عز وجل : { **فكأيِّن من قريةٍ أهلكناها وهى ظالمة فهى خاويةٌ على عروشها وبئرٍ مُعَطَّلَةٍ وقصرٍ مشيد** } (الحج : ٤٥) ، وإن كان قد وجد من المفسرين (راجع تفسير القرطبى لهذه الآية من سور الحج) ، من جمع بين تلك البئر المُعَطَّلةِ وبين بئرِ ثمود. كُلُّ هذا يُعارض ظاهرَ القرآن، فلا تلتفت إليه.

□□□

وقد بقى فى العبرية والآرامية من "ثَمَدَ" العربية الجذرُ العبرى ـ الآرامى "شَمَد" (بإبدال الثاء شينا) ، بمعنى الاستئصال والإبادة ، وهو من معنى الاستنفاد والاشتفاف فى ثَمَدَ العربية جدُّ قَريب . وتستخدم العبريةُ المعاصرة الفعل " شَمَد " بمعنىً محدد هو "استصفاء" اليهودية ، يعنى تصفيتها سلْما ، بإجبارأهلها كرها على الخروج منها إلى "المسيحية" فى عصور اضطهادهم فى أوروبا ، لا بمعنى إبادة أهلها وإهلاكهم ، على أصل معنى " شَمَد " فى عبرية التوراة . وربما قلت إن " ثمود" فى القرآن جاءت تعريبا لـ " شَمُود " العبرى أو " شِمِيد " الآرامى على المفعولية من الجذر العبرى ـ

---

(١) قالها أيضا مجمع اللغة العربية فى المعجم الوسيط ، مادة ر/ س/ س ، حيث ذكر أن "الرس" بئر كانت لثمود قوم صالح ، أخذها من هؤلاء المفسرين ، ولم يُحقق .

الآرامى " شَمَد " فهو الهالك البائد بمعنى "شَمَد" فى عبرية التوراة . ولا يصح هذا ، فلا أحَد يسمى نفسَه الهالكَ البائد وقد تَسَمَّت به قبيلةٌ من كبرى قبائل العرب خلفوا "ثمود " قوم صالح كما مر بك . وإنما الصحيح أن " ثمود " جاءت من العربية الأولى بمعنى قَلَّ ونَضُبَ واسْتَنْفَدَ واشْتَفَّ ، قبل أن تتحور فى عبرية التوراة إلى باد وهلك .

(٢٠) شعيب (٢١) مدين

مر بك أن القرآن يضع شعيبا فى الترتيب الزمنى بعد لوط . ومر بك أيضا أن لوطا من معاصرى إبراهيم . بل كان إبراهيم عَمَّ لوط كما تنص التوراة . والقرآن ينص على تَعاصُرِ إبراهيم ولوط ، لأن الملائكة الذين بُعثوا لإيقاع العذاب بقوم لوط ، مروا فى طريقهم على إبراهيم يبشرونه بإسحاق . نص القرآن على هذا فى أكثر من آية ، منها قوله عز وجل : { **ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى : قالوا سلاما ! قال سلامٌ. فما لبث أن جاء بعجل حنيذ . فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نَكِرَهُم ، وأوجس منهم خيفة ، قالوا لا تخف ! إنا أُرسلنا إلى قوم لوط** } (هود : ٦٩ - ٧٠) . شُعَيبٌ إذن بعد إبراهيم بلا خلاف ، لمجىء شعيب بعد لوط مُعاصِرِ إبراهيم أو ابنِ أخيه كما تقول التوراة . دليلُكَ فى هذا من القرآن أن لوطا لم يعلم بشأن شعيب مع قومه ، بل حَذَّر لوطٌ قومَهُ مصيرَ قومِ نوحٍ وقوم عادٍ وقوم صالح ، وما كان ليُحَذِّرَهُم مصيرَ قوم شعيب ، وشعيبُ لم يبعث بعد . أما شعيبٌ فهو يُحَذِّرُ قومَهُ مصيرَ قومِ لوط : { **وما قومُ لوطٍ منكم ببعيد** } (هود : ٨٩) .

لم يكن أهلُ مدين ـ الواقعة جنوبى خليج العقبة ـ يسكنون بعيدا عن مدائن لوط ، وقد بقيت منها " صُوعَر" على الشاطىء الجنوبى الشرقى من البحر الميت . ولم يكن " يومُ الظلّة " ـ مَهلكُ الذين ظلموا من قوم شعيب ـ بعيداً كل البعد من فجر يوم وَضَعَ فيه جبريلُ جناحه تحت " القرية التى كانت تعمل الخبائث " فجعل عاليها سافلها ، يومَ أركس اللهُ قومَ لوطٍ بما كسبوا .

ولكن التوراة التى اهتمت فى سفر التكوين بتدوين ما كان من شأن لوط مع قومه ، تَصَمُتُ الصَمْتَ كُلَّه عما كان من شأن شعيب مع أهل "مدين" ، على قرب مدين من مساكنهم . والتوراة تغفل الحديث عن قصة شعيب مع قومه عمدا ، رغم هول العذاب الذى حاق بمن ظلموا من قومه ، ورغم قرب "مدين" من "صُوعَر" ، ورغم أن شعيبا تلا لوطاً وإبراهيم بفارق زمنى "غيرِ بعيد"، ولم يسبقهما ، ورغم أن التوراة

تذكر " مدين " بنحو ما ذكرها القرآن فى قصة لجوء موسى إلى "مدين" فِرارا من بطش فرعون بعد أن قتل موسى ذلك المصرى الذى بَغَى على رجلٍ من قومه .

تتعمد التوراة إغفال شعيب ـ على الراجح عندى ـ لأنه عندها كان نبيا من غير بنى إبراهيم ، ولم يكن أيضا من بنى يعقوب ، أى من بنى إسرائيل ، الذين كُتبت التوراة لتسجيل أخبارهم ونبواتهم . وهو ـ على الراجح عندى أيضا ـ سببُ إغفال التوراة هودا وصالحاً كذلك ، كيلا تضع أنبياء بين نوح وإبراهيم . وإنما حرصت التوراة على ذكر " نوح " كى تربط ما بين إبراهيم وآدم . وقد تعجل كاتب سفر التكون هذا النسب كما مر بك بين آدم ونوح ، وبين نوح وإبراهيم ، حتى لَتَكادَ تستخلصُ من حساباته [١] أن نوحا كان أو يكاد من معاصرى إبراهيم ، فكيف يكونُ بينهما نَبِىٌّ ؟

وربما قلت إن أسفار التوراة لم " تتكتم" أخبار شعيب ، وإنما هى لم تعلم أصلا بمبعث شعيب إلى أهل مدين فى التوراة ما بين لوط إلى موسى ، لغياب بنى إسرائيل آنذاك عن مسرح الأحداث فى فلسطين وما حولها منذ خروج يعقوب وبنيه إلى مصر فى ضيافة يوسف واحتباسهم فيها نحوا من أربعمائة وثلاثين سنة كما تقول التوراة حتى خروجهم منها إلى تيه سيناء مع موسى : اهتمت أسفارُ التوراة بأخبار بنى اسرائيل فى مصر سنوات احتباسهم فيها (وإن كانت فى واقع الأمر تجتزىء اجتزاء مخلا فتنقلك فجأة من وفاة يوسف إلى مولد موسى غير عابئة بأحداث ما كان بين هذين النبيين الكريمين اللذين يفصل ما بين مبعثهما حوالى أربعة قرون) ولم تهتم ، بل قل ولم تَعْلَمْ ، بما وقع خارج مصر خلال تلك القرون الأربعة ، أخبارَ شُعيبٍ أو غير شُعيب . وهذا التعليل ـ على وجاهته ـ مردودٌ بما تَقُصُّه عليك التوراة من لجوء موسى إلى مدين فرارا من بطش فرعون ، وإصهاره إلى "كاهن مدين" ، وبقائه عنده عشر سنين، بل وعودته إلى لقاء صهره فى التيه بعد خروج بنى إسرائل من مصر ، فباركه صهرُهُ وأشار عليه باختيار نقباء يقومون مقام موسى فى قومه. يحدث هذا كله ولا يَقُصُّ عليه " كاهن مدين " شيئا مما كان من أمر شعيب فى أهل مدين ، إن سَلَّمْتَ بأنه قد كان ثَـمَّـةَ " شعيب" بعثه الله إلى أهل مديـن فى الفتـرة ما بين لـوط إلى موسى ،

(١) لا يستقيم قولُ من تعلل لكاتب سفر التكوين بأن السنة عنده تساوى ألف سنة أو نحو ذلك مما نَعُدُّ نحن :إنه تضخيمٌ فحسب لا يغير شيئا من اختلال التناسب . وهو أيضا يناقض العلم لأنه يرتفع بعمر آدم إلى زهاء مليون سنة (٩٣٠ × ١٠٠٠) فيشغل وحده الحِقْبَ الأخيرَ من عمر هذه الأرض، ناهيك بنوح والذين من بعده .

ناهيك بأن تقول كما قال جمهور مفسرى القرآن (راجع تفسير القرطبى للآية ٨٥ وما بعدها من سورة الأعراف) أن صهر موسى هذا هو بعينه شُعَيْبٌ عليه السلام "أخو مدين" .

على أن التوراة لا تعترف لأحدٍ من خارج بنى إبراهيم بالنبوة مهما كان على دين الواحد الأحد ، فلا تُسَمِّيه " النبى" وإنما تسميه " الكاهن " . من ذلك " ملكى - صادق " ملك شاليم (وهى "سَلِيم" العربية) ، الذى باركَ إبراهيمَ وأدَّى لهُ إبراهيمُ "العُشْرَ من كل شىء " ، وتقول عنه التوراة " وكان (أى ملكى - صادق) كاهنا لله العلى " (راجع تكوين ١٤/١٨ - ٢٠) . ومن ذلك أيضا " يِثْرُو " حَمُو موسى ، الذى تسميه التوراة " كاهن مِديان " (خروج ٣/١) أى "كاهن مدين" . ولحمى موسى عند أصحاب التوراة اسم ثان هو " حُباب " [١] (وكأنه " الحُباب " عربياً فليس فى أعلام بنى إسرائيل من تَسَمَّى به) ، وله أيضا اسم ثالث هو "رِعوئيل" ، ومعناها "راعى الله" ، ويفسرونها فى العبرية بمعنى " خليل الله " . على أنك تستنبط من أسفار التوراة نفسها اسما رابعا لحمى موسى هو " دِعوئيل " (بالدال لا بالراء) لأن أسفار التوراة تخلط بينه وبين "رِعوئيل " (بالراء لا بالدال) فى تسمية شخص بعينه ، تسميه " إلياساف بن دعوئيل" (بالدال) فى سفر العدد (١/١٤) ثم تسميه هو نفسه "إلياساف بن رِعوئيل" (بالراء) فى الإصحاح التالى مباشرة من السفر (عدد ٢/١٤). وقد عالج علماءُ العبرية تفسير معنى اسم دِعوئيل هذا (بالدال) فقالوا إنه من الجذرالعربى "دَعا" ، فهو " داعى الله " ، لأنه لا وجود فى العبرية للجذر " دَعَا " ، فتفهم أن " رِعوئيل " عندهم تَحَرَّفَت إلى "دِعوئيل" لاشتباه رسم الدال بالراء فى الخط العبرى كما هما فى الخط العربى ، أو أن " دِعوئيل " العربية هى التى تَحَرَّفَت عليهم فصارت " رِعوئيل " وهو الراجح .

كيفما كان الأمر ، فسفر التكوين ينص على أن أهل مدين ("مِدْيان" فى عبرية التوراة) عربٌ من العرب . تستخلص هذا من رواية سفر التكوين لقصة يوسف حين ائتمر به إخوته فباعوه " للإسماعيليين بعشرين من الفضة . فَأَتَوْا به إلى مصر "

---

(١) قد تفهم من(عدد ١٠/٢٩) أن " حُباب " هذا هو ابن رعوئيل حمى موسى ، وتقرأ لعلماء التوراة بعض يقول بل حباب حموه ، وآخرون يقولون بل رعوئيل هو أبو حمى موسى . وصدق الحق إذ يقول فى وصف القرآن : { ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا} {النساء : ٨٢} .

(تكوين ٢٨/٣٧) ، فتفهم من هذا أن الإسماعيليين هم الذين أتَوْا بيوسف إلى مصر. ولكنك تُفاجأ فى نهاية هذا الإصحاح السابع والثلاثين من سفر التكون بأن الذين أتوا بيوسف إلى مصر وباعوه هناك "مدْيانيم"، أى رجال من أهل مدين : "وأما المديانيُّون فباعوهُ فى مصر لِفُوطِيفَار خَصِيِّ فِرْعَون رئيس الشُّرَط" (تكوين ٣٦/٣٧). وهو تناقضٌ لا سبيلَ إلى حَلِّه إلا بأن تتعلل لسفر التكوين بأنه لا يُفَرِّقُ بين الإسماعيليين والمديانيين : كلا الفريقين عنده عربٌ من العرب [١] .

تَخْلُصُ من هذا إلى أن " أهل مَدين " عند اليهود عربٌ من العرب ، كانوا على طريق القوافل من خليج العقبة فى شمال غربى شبه الجزيرة إلى مصر ، عبر سيناء . وتلك بالفعل كانت مساكنهم فى جغرافية التوراة [٢] .

وإذا كان أهل مَدين عربا من العرب ، فأخوهم شعيبٌ كذلك ، لا معنى للقول بخلافه ، فالرسول والمرسل إليهم واحد كما مَرَّ بك . وليس معنى هذا أن مدين وشعيبا كانوا بالضرورة يتحدثون بتلك العربية التى نزل بها القرآن ، وإنما المعنى أنهم كانوا يتحدثون بتلك اللغة العربية فى مرحلة من مراحل تطورها إلى العربية التى نزل بها القرآن بعد نحو ألفى سنة [٣] من مبعث شعيب عليه السلام رسولا إلى أهل مدين .

□□□

---

(١) لم يَشِعْ إطلاق اسم الإسماعيليين عند اليهود على العرب عامة إلا بعد موسى عليه السلام بقرون ، وما كانوا ليسمونهم كذلك على عصر يعقوب ابن أخى إسماعيل والإسماعيليون أنذاك بنو عمومتهم الأقربون . وهذا يدلك بالنقد اللغوى وحده على أن سفر التكوين ـ أول أسفار التوراة ـ كتب بعد موسى بقرون . ومن دلائل هذا أيضا استخدام سفر التكوين عبارة "يهواه إلوهيم" اسما لله عز وجل . كانت " إل " و " إلوهيم" اسم الله على عصر إبراهيم وما تلاه ، ولم تعرف "يهواه" فى العبرية إلا منذ موسى . أراد الكاتب الجمع بين القديم والحديث تدليلا على قِدم أخبار سفر التكوين . ولكنهاأعضلت على المترجم العربى فقال " الرب الإله " ، وليس بجيد لأنَ "يهواه" يعنى الله فحسب ، ولكنه اضطر إلى ذلك كراهة أن يقول " الله الإله" . والأجود عندى أن يترجم العبارة إلى " الله " الجامعة لكل أوصاف الألوهية ، وفيها الغناء .

(٢) راجع الخرائط الملونة ، الكتاب المقدس ، طبعة العيد المئوى (١٨٨٣ ـ ١٩٨٣) ، دار الكتاب المقدس بمصر .

(٣) أو نحو ١٨٠٠ سنة إن رجحت أن شعيبا هو نفسه حمو موسى ، الذى خرج ببنى إسرائيل من مصر حوالى سنة ١٢٢٥ ق م ، على ما مر بك من تقديراتنا لتاريخ هذا الخروج .

ولأهل مدين في القرآن اسم آخر ، هو " أصحابُ الأيكة " . قال عز وجل : {**وإلى مدين أخاهم شعيبا** } (الأعراف : ٨٥) ، وقال أيضا : { **كذب أصحابُ الأيكة المرسلين . إذ قال لهم شعيبٌ ألا تتقون . إني لكم رسولٌ أمين** } (الشعراء : ١٧٦ ـ ١٧٨) ، فتفهم أن مدين وأصحاب الأيكة واحد ، لا لوحدة الرسول فحسب ولكن لأن شعيبا يأخذ على هؤلاء ما يأخذ على أولئك : يأخذ عليهم خُسرانَهم الكيلَ والميزان ، وبَخْسَهُمُ الناسَ أشياءهم وعُثُوَّهُم في الأرض مفسدين .

وقد ظن بعضُ المفسرين أن "مدين" قومٌ غير " أصحاب الأيكة " ، بُعِثَ شُعَيْبٌ إلى الثانية بعد ما فَرَغَ من الأولى . ظنوا هذا لأن القرآن فيما رَأَوْا فَرّقَ بين عذاب أصحاب مدين ، الذين أُهْلِكوا بالصيحة والرجفة : {**ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمةَ منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين** } (هود : ٩٤) ، { **فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين** } (الأعراف :٩١) وبين عذاب أصحاب الأيكة الذيـن كَذّبُوا شعيبا {**فأخذهم عذابُ يوم الظُّلّة إنه كان عذابَ يوم عظيم** } (الشعراء: ١٨٩) ، والظُّلّة غيرُ الصيحة والرجفة (راجع ما رواه القرطبي في تفسيره للآيات ١٧٦ ــ ١٨٩ من سورة الشعراء) . وليس بين يديك حديث عن الصادق المصدوق يحسم الأمر ، ولكنها أقوال الرواة :رَوَوْا أن الظلة سحابةٌ احتموا بها من الحر الشديد فوجدوا لها بردا ونسيما ، وما اجتمعوا تحتها حتى انقلبت عليهم نارا أحرقتهم ، أو أنهم احتموا بأيكتهم فأضرمها الله عليهم ، كالمحتمي من الرمضاء بالنار . وليس هذا كُلُّهُ بِلازم ، فالصيحة أيضا غير الرجفة ، فبأيهما كان مَهْلَك أهلِ مدين ؟ الصوابُ أن يقال إن الصيحة هي صيحة جبريل عليه السلام ، إيذانٌ بإيقاع العذاب ، وأن الرجفةَ هي أثرُ الصيحة. وتقول أيضا وما يمنع أن يجتمع على أهل مدين عذابُ الرجفة وعذابُ الظُّلّة: ركضوا إلى البرية كما يركض الفار من الزلزال حين أحسوا الرجفة ، يحتمون بأيكتهم، فأضرمها الله عليهم نارا إذ لا عاصم من أمر الله إذا جاء . وتقول أخيرا وما يمنع في اللغة أن تكون " الظُّـلّة " [1] هي فحسب غاشية العـذاب الذي حل بهم فَأَظَلّهم ، لا ملجأ لهم منه ؟ نقولُ هذا ولا نخوض في غيب الله ، فالله عز وجل بغيبه أعلم .

□□□

(١) " أظَـلّهُ " بمعنى غَشِيَهُ ولَزِمَهُ ، من فصيح العربية .

أما الذى ألجأ مفسرى القرآن إلى القول بأن شعيبا أخا مدين هو نفسه " الشيخُ الكبير" الذى حل عليه موسى فى مدين فَزَوَّجَهُ إحدى ابنتيه على أن يَأجُرَهُ ثمانىَ حِجَجٍ أو عشرا (راجع الآيات ٢٢ ــ ٢٨ من سورة القصص) ، أى كاهنُ مدين فى سفر الخروج ، "يِثرو" أو "حُباب" أو "رِعوئيل" (وربما "دعوئيل" أيضا على ما مر بك) ، فلأن شعيبا ما كان ليوجد إلا فى الفترة ما بين لوط إلى موسى بنص القرآن وما كان ليوجد إلا فى مدين هذه التى لجأ إليها موسى ، وما كان يِثْرو هذا ليكون هو نفسُهُ شعيبا إلا إذا كان مَبْعَثُهُ قد سبق نزولَ موسى ضيفا عليه ، أى قبل مبعث موسى .
تجد هذا الترتيب بَيِّنًا فى قوله عز وجل : { **وإن يُكَذِّبوك فقد كَذَّبَت قبلَهُم قومُ نوحٍ وعادٌ وثمود . وقومُ إبراهيم وقومُ لوط . وأصحابُ مدين ، وكُذِّب موسى، فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير** } (الحج : ٤٢ ــ ٤٤).
يِثْرو إذن ـ إن كان هو نَفْسُهُ شعيبا ـ استضاف موسى وقد فَرَّقَ اللهُ بينه وبين الذين ظلموا من قومه بعد مَهْلِكِهم : { **الذين كذّبوا شعيبا كأن لم يَغْنَوْا فيها ، الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين . فَتَولّىَ عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالاتِ رَبّى ونصحت لكم فكيف آسىَ على قوم كافرين** } (الأعراف : ٩٢ــ ٩٣) . ربما قلت ولماذا لا يكون شعيب قبل موسى بقرنين أو ثلاثة، والمسافة بين لوط وموسى أربعة قرون ، وقد نزل موسى فى ضيافة رجل صالح من بقية الناجين مع شعيب ، فما كان لموسى عليه السلام الذى صنعه الله على عينه لِيُصْهِرَ إلى رجل من عَبَدَةِ الأوثانِ فى مدين ؟ لا بأس بهذا بالطبع ، ولا بأس أيضا بعكسه الذى قاله جمهور مفسرى القرآن ، والذى نرجحه نحن أيضا ، وهو أن شعيبا كان هو نفسه صِهْرَ موسى عليهما السلام ، لأن سفر الخروج يحدثك عن رجل ذى منصب فى قومه ، " كاهن مدين " ، والكاهنُ والنبىُّ واحد فى لغة التوراة حين تتحدث عن أنبياء من خارج بنى إبراهيم كما مر بك ، دليلُكَ فى هذا من سفر الخروج نفسه أن الشُّهْرةَ التى شُهِرَ بها حَمو موسى فى التوراة تُوحى بطبيعة هذا المنصب : راعى الله (رعوئيل) وربما داعى الله (دعوئيل) ، وأيضا " يِثْرُو " نفسها ومعناها الثرىُّ ذو الثروة والكثرة والنماء ، المشتقة من الجذر العبرى " يَثَر " وهو مقلوب الجذر العربى ثَرا/ يثرو ، وثَرِىَ / يَثْرَى وكان شعيبٌ ذا غنى ، بُعِثَ فى أحساب قومه ، كما تجد فى القرآن على لسان من كذبوه : { **قالوا يا شعيبُ ما نفقه كثيرا مما**

تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رَهْطُكَ لرجمناك } (الأعراف :٩١) ، خشوا رهط شعيب وإن لم يكونوا على دينه لمكانتهم ، كما وقع لمحمد صلى الله عليه وسلم فى قومه. لقى موسى إذن شعيباً وقد تمادت السنُّ بشعيب فى بقية من قومه: {**وأبونا شيخٌ كبير**} (القصص : ٢٣) . ربما قُلْتَ فما بالُ أولئك "الرِّعاءِ" من قومِ شعيب ، والمفروض على هذا القول أنهم سلالةٌ من الذين آمنوا معه ، وقد استهانوا بابنتيه فلا تَسقيان {**حتى يُصدَر الرِّعاءُ**} (القصص :٢٣)؟ لاعليك. هذا فهمٌ مُتَعَجِّلٌ لمنطوق تلك الآية : ما كان لنبىًّ أن يُسَخِّرَ قومه فى خدمته ، وما كان ليَقْوى وهو شيخٌ كبير على سُقيا غنمه ، فأرسل ابنتيه بغُنَيْماته ، وما كان لابنتيه أن تُزاحِما الِّرعاءَ حياءً ، وإنما يَسْقِى الرجالُ أولا ثم تَسْقِى النساء ، فوَقَفتا تَذودانِ غُنَيْماتِهما عن الماء حتى يُصْدِرَ الرعاءُ فتسقيا ، وجاء موسى رجلا يَسْقِى مع الرجال، فأراحهما من عناء الانتظار.

وربما استظهرت من القرآن تفسيراً لمعنى شُهْرَتَىْ حَمى موسى ، رِعوئيل ودعوئيل، أى "راعى الله" ، " داعى الله " ، الأولى فى قوله عز وجل : { **لا نسقى حتى يُصدِرَ الرعاءُ وأبونا شيخ كبير** } (القصص : ٢٣) ، والثانية فى قوله عز وجل : { **فجاءته إحداهما تمشى على استحياء قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا** } (القصص : ٥٢) ، دون أن يتقدمه ذكر لاسم حمى موسى . وربما لمستَ فى هذه الأخيرة أن حما موسى كان ذا مالٍ يجزى به صنيعَ من أحْسنَ إلى ابنتيه ، وكان كريماً عزيزَ النفس لا يَقْبَلُ خِدْمَةً بغير أجر .

أما لماذا لم تَذكُر التوراة اسمَ " شعيب " فى جملة أسماء حمى موسى وهى أربعة كما مر بك، فلأن العبرية ليس فيها الجذر " شَعب" العربى ، ولا تفقه له معنى، وربما خشى الكاتب اشتباهه بـ " شُئيب " العبرى ومعناها " ناضح البئر " . وربما أيضا لأن شعيبا شُهِرَ فى مُهاجَرِه بِشُهْرَتِه الدالّة على منصبه "راعى الله" (رِعوئيل) ولم يُشْهَر باسمه فى قومه .

وأما لماذا لم ينص القرآن على أن شعيباً هو حمو موسى ، فهذا على الراجح عندى لأن القرآن لايؤصل الأنساب بين الأنبياء المبعوثين كُلٌّ إلى قومه ، كما فَعَلَ فى موسى وهارون المبعوثين كليهما إلى فِرعونَ وملئه ، فقد ذكَر لوطاً ولم ينص على أنه ابن أخى إبراهيم كما تنص التوراة ، وما ذاكَ إلا لأن رسالةَ لوطٍ كانت بمعزل عن رسالة إبراهيم ، كما كانت رسالةُ شعيب غيرَ رسالةِ موسى وهارون .

نقول هذا ولا نقطعُ فيه بيقين ، فليس من مقاصد هذا الكتاب تأصيل الأنساب كما مر بك . وليس فى القرآن والحديث الصحيح ما يقطع بهذا أو ذاك، والله عز وجل بغيبه سبحانَه هو الأعلم .

❐❐❐

أما " شُعيب" ـ وقد جاء الاسم على أصله فى القرآن عربيا لا يحتاج إلى تفسير لخلو التوراة من النص عليه كما مر بك من منهجنا فى هذا الكتاب ـ فهى إما تصغير " أشعب " أى الواسع مابين المنكبين ، وإما تصغير " شِعْب " ومن معانيها فى معجمك العربى : مجرى الماء تحت الأرض ، وليس هذا المعنى الأخير بعيدا عن معانى " شُئِيب " العبرى ، أى " ناضحُ البئر " . " شُعيبٌ " إذن عربية ، تخرج عن مقاصد هذا الكتاب .

وليست "مدين" كذلك لثبوت العلمية لها فى التوراة بلفظ "مِدْيان " ، فجاءت فى القرآن "مَديَن" على التعريب .

❐❐❐

أما علماء التوراة فهم ينسبون " مِدْيان " إلى واحدٍ من أبناء إبراهيم [1] ، كدأب التوراة فى إقطاع بنى إبراهيم أرض فلسطين وسكانها بصكوكِ نسبٍ صحيح أو مُفْتَعل ، وكأنما كانت فلسطين أرضاً فضاء حين وفد إليها إبراهيمُ وبنوه ، فَعَمَرُوها بقبائلَ من نسل إبراهيم ، كما قالوا ان عيسو أخا يعقوبَ شُهِرَ باسم " إِدوم" (أى الأحمر) ، واستنبطوا من هذا أن عيسو هو " أبو الأدوميين " جميعا ، صاحب الأرض وسكانها . وغير هذا كثير فى سفر التكوين ، فلا تلتفتُ إليه . الصحيح أن الأدوميين والمديانيين وغيرهم من قبائل فلسطين وما حولهما أسبق وجودا على الأرض من إبراهيم وبنيه . دليلُكَ فى هذا من أسفار التوراة ذاتها ، بل ومن سفر التكوين بالذات :" واجتاز رجالٌ مديانيون تُجَّار ، فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر وباعوا يوسف للإسماعيليين بعشرين من الفضة فأتوا بيوسف إلى مصر" (تكوين ٨٢/٣٧)،

---

(١) من زوجته ـ أو جاريته ـ قطورة ، فلا زوجات عند أصحاب التوراة لإبراهيم إلا سارة جدة يعقوب صاحب الوعد وغيرها جوارٍ وسَرارٍ.

"أمـا المديانيـون فباعــوه فى مصـر لفوطيفـار خَصِىِّ فرعـونَ رئيـس الشُـرَط" (تكوين ٣٦/٧٣) . إقرأ هذا وتساءل معى : كيف تهيأ لمديان بن إبراهيم هذا ـ وهو عمُّ يعقوبَ أبى يوسف ـ أن يَلِدَ وحدَه ، فى جيلٍ واحد ـ أو إنْ تشددتَ معى ـ فى جيلين اثنين ، قوافلَ مديانيةً من التجار تَغدو وتروح ما بين مصر وفلسطين ؟ لن أقول لك كيف هان عليهم يوسف ، وإسحاقُ عَـمُّهُم جَدُّه ، فقد هان يوسف على إخوته ، ولا أستطردُ إلى الخلطِ بين الإسماعيليين والمديانيين ، فقد سبق لنا القول فيه .

نحن لا نفسر "مديان" البلدة والقبيلة تأصيلا على اسم "مديان" بن إبراهيم هذا الذى يشتقونه من العبرى "دان/ يدين" بمعنى خَاصَمَه وقاضاه ، فهو المخُاصِمُ الجَدِل ، فلا صلة بين مديان بن إبراهيم هذا وبين مديان البلدة والقبيلة كما رأيت .

وإنما نحن نفسره بالعبرية ـ الآرامية " دان/ يدون" ، ومعناه فى عبرية التوراة وإلى الآن فى العبرية المعاصرة : حلَّ ونزل وثَوَى وأقامَ وسَكَن [1] .

من هذه فى العبرية ـ الآرامية " مدِينا " (المدينة فى العربية) ، أى البلدة التى يُثْوَى بها. ويُقام. وهى على وزن الفاعل المؤنث (عبريا وآراميا) من أدِين/ يدِين [2] المشتقة من دان/ يدون العبرى ـ الآرامى ، بمعنى التى تَثْوَى بها وتُثْوِيك .

ومن هذه أيضا ـ الذى يعنينا هنا ـ جاءت " مديان " [3] العبرية ـ الآرامية ، على "مفعال" ، المصدر الميمى واسم المكان ، فهى "المَثوى" و "المُقام" .

وهذا هو نفسه التفسير القرآنى لمعنى " مَدين " فى القرآن تجده فى قوله عز وجل : {**وما كنت ثاوياً فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كُنا مُرسلين**}

---

(١) انظر معنى " دان/ يدون " العبرى فى المعجم العبرى " هَمِـلُّون هِحَدَاش لَتَنَاخ " ، المذكور فى مراجع هذا الكتاب ، وانظر أيضا فى المعجم الثنائى " عبرى ـ فرنسى" ، وهو He-Larousse, breu-Francais ، وفيه أن دان/ يدون العبرى يكافىء Habiter الفرنسى . ليس هو دان/يدين بمعنى juger الفرنسى ومشتقاتها .

(٢) أدِين/ يدِين الآرامى هى صيغة أَفْعَلَ / يُفْعِلُ/ إفْعالا العربية .

(٣) لا يرد على هذا بأن " يدون " بالواو و " مديان " بالياء ، فالعبرية والآرامية يتبادلان أحيانا فى "عين " الفعل بين الواو والياء ، فتخلطان فى الاشتقاق بين دان / يدون وبين دان / يدين ، ولهذا أمثلة عديدة يعرفها المتخصصون ، لا نثقل بها عليك ، وإنما نقوله فقط للمتخصصين الذين يريدون انتقاد المقولات اللغوية لهذا الكتاب .

(القصص : ٤٥) ، على الجناس المعنوى ، "أى ما كنت مادناً فى مدين" ، و " مَدَنَ " العربى يعنى أتَى المدينة .

فَصَلَ القرآنُ فى اشتقاق "مديان" ، فأخذها من دان / يدون العبرى ـ الآرامى ، مخالفا بذلك مفسرى عبرية التوراة الذين يشتقونها من "دان/ يدين" على معنى الخصومة والمُداينةِ والشكَسِ والجَدَل ، رغبةً فى نَحْلها " مديان " بن إبراهيم من جاريته قطورة ، على ما مر بك ، وهو بعيد ، فأخطأوا وأصاب القرآن [(١)] وسبحان العليم الخبير .

---

(١) مثلما أخطأوا فى تفسير عبارة سفر التكون : " لُو ــ يَدُون روحى بأدام لِعُولام" (راجع تكوين ٦/٣) التى ترجموها إلى " لا يدَين روحى فى الإنسان إلى الأبد " من دان / يدين ، وليس لهذا معنى كما ترى ، وإنما الصحيح أنها " لايسكن روحى الإنسان إلى الأبد "من دان/ يدون العبرى بمعنى حل وثوى ونزل وسكن وأقام، أى لا يخلد الإنسان ، بل موتا يموت ، ولا بد يوما ما أن تفارقه الروح التى نفختها فيه . وقد جر هذا الخطأ فى ترجمة هذه العبارة إلى العربية وغيرها (الإنجليزية مثلا) إلى مزالق ومُحالات لا نتعرض لها هنا لأنها ليست من مقاصد هذا الكتاب .

الفصل السادس

أبو العلاء ، إمام الناس

يتناول هذا الفصل تفسيرَ ثمانية أعلام : آزر (أبو إبراهيم) ، إبراهيم ، لوط ، إسماعيل، إسحاق ، يعقوب ، إسرائيل (شُهْرَةَ يعقوب) ، يوسف .

وقد جَمَعْنا هؤلاء الأعلامَ الثمانيةَ فى فصل واحد ، لأن أصحابَها كما ترى ذُرِّيَّةٌ بعضها من بعض ، على النَّسبِ اللصيق . فيوسف هو ابن يعقوب (إسرائيل) ، ويعقوب هو ابن إسحاق، وإسحاق وإسماعيل كلاهما ابنا إبراهيم ، ولوطٌ فى التوراة ابنُ أخٍ لإبراهيم هو هاران ، وإبراهيم (وهاران) ابنا آزر (أوتَارَح كما تقول التوراة) . وترتيبُهم التاريخىُّ على هذا النحو ذاتِه ثابتٌ فى التوراة ثُبوتَهُ فى القرآن .

وكلُّ هذه الأعلام (عدا آزر ، وسيأتى) أعْجَمِىٌ مقطوعٌ بعُجْمَتِه ، يجىءُ فى القرآن منسوقاً على أصلِه فى التوراة دونَ تفاوت ، إلا ما اقتضاهُ التعريب .

وتقول التوراةُ ان "أبرام" كان اسمَ إبراهيمَ الذى سماهُ بِه أبوه . أما "إبراهيم" فهو اسمٌ سماهُ اللهُ به . وتقول أيضا إن " يعقوب " سمى هكذا لأنه يوم مولده خَرَجَ مع تَوأمِه " عيسو " مُمسِكاً بعقب أخيه . أما " إسرائيل " فهى شُهْرَةٌ ليعقوبَ من الله .

وتنص التوراة أيضا على اسم أبى إبراهيم ، فتسمية " تَارَح " (أو " تِيرَح " بإمالة الألف مع فتح الراء فى الحالتين) ، خلافاً للقرآن الذى يُسَمِّيه " آزر" بالنص الصريح فى قوله عز وجل : { **وإذ قال إبراهيمُ لأبيهِ آزَرَ** } (الأنعام:٧٤) .

❑❑❑

وقد حارَ مفسرو القرآن فى " آزر " (انظر تفسير القرطبى للآية ٧٤ من سورة الأنعام) لمخالفتها الصريحة لما هو معلوم عند أهل الكتاب من التوراة . وطَنْطَنَ بها المستشرقون - كما مر بك - الذين وَهِمُوا أن " آزر " من أفدحِ أخطاءِ القرآن فى اقتباسه من التوراة .

ونقول نحن : وما كان أغْنَى القرآنَ عنها ، على علمِه المحيطِ بدقائق المكتوب فى التوراة ! وهل ينتقصُ شيئاً من جلالِ القرآن أن يَسْكُتَ عن اسم أبى إبراهيم فلا يُسَمِّيه ؟ قد تناولَ القرآنُ جِدال إبراهيمَ أباهُ فى أكثر من آية فلم يُسَمِّه ، فلماذا النصُ على اسم أبى إبراهيم فى هذه الآية وحدها من سورة الأنعام ؟

أفقد جَهِلَ القرآنُ اسمَ أبى إبراهيم فى التوراة ؟ فلماذا يَزُجُّ بنفسه فى المزالق فيخترع من عنده اسما لأبى إبراهيم ، غَيْرَ عابىءٍ بما يَسْمَعَهُ من أهل الكتاب فى مكةَ ويثرب وَنَجران ؟

وإذا كان محمدٌ (صلى الله عليه وسلم) يَفْتَرِى القرآنَ من عنده كما يَدَّعُون ، فلماذا لم يستوثق من رجال كورقةَ بن نوفل عمِ زوجه خديجةَ وقد كان كما يقول أصحابُ السِّيَر من حُنَفَاء إحدى الملتين ، يقرأ من الكتاب العبرانى ما شاء له الله أن يقرأ ؟ ولماذا لم يُصَحِّحَهُ له أمثالُ الحَبْرِ اليهودى ابنِ سَلام وقد أسلم فى المدينة لهذا النبى الذى " يخطىء " فى اسم أبى إبراهيم ؟ أَفَلَم يَرَ ابنُ سلام فى هذه وحدها دليلا كافيا على " كَذِبِ " هذا النبى ؟

ولماذا لم " يُسْقِط " المسلمون من بعد النبى " آزر " هذه من القرآن ، تنقية للقرآن من خطأ لا تَجُوزُ المماحكة فيه ؟

تستخلص من هذا أن القرآنَ أعظمُ وأَجَلُّ من أن يُفْتَرَى من دونِ الله عز وجل ، وتستخلص منه أيضا أن القرآنَ عند الذين آمنوا به أعظمُ وأَجَلُّ من أن يُكَذَّبَ بالتوراة، أو أن يُصَحَّحَ بما فى التوراة ، وتستخلص منه كذلك أن القرآنَ فى المصحف الذى بين يديك قد عصمه الله سبحانه من التغيير والتبديل ، ولو بقصد " التصويب" و" الاستدراك " ، فهو إلى قيام الساعة محفوظٌ بحفظِ الله عز وجل على الحَرْفِ الذى به نزل . وتستخلص منه أخيرا أن القرآن ـ وكان أيسر عليه استبقاء " تارح " فى القرآن على أصلها فى التوراة ـ إنما أراد عامدا متعمدا تحدى المُتَقَوِّلِينَ عليه أصحاب دَعوى النقل والاقتباس ، فجَابَهَهُم بما يَنْقُضُ دعواهم . والقرآنُ هاهنا يُريد المخالفةَ لذاتها ، لا يُريد منها تأصيلَ منهجٍ أو إثباتَ عقيدة ، وإنما يأتى بها للدلالةِ على إعجازهِ فَحَسْبُ .

نعم ، "آزرُ" فى القرآن من دلائلِ إعجـازِه، كما سَنَرى بإذن اللهِ على التَّوِّ مَعاً .

(٢٢) آزر

وردت " آزر" مرة واحدة فى القرآن {الأنعام : ٧٤} اسما لأبى إبراهيم ، وهو فى التوراة " تَارَحْ " . وقد توقف فيها مفسرو القرآن كما مر بك لما يعلمونه من مخالفتها الصريحة لاسم أبى إبراهيم فى التوراة ، وعالج بعضُهم التصدى لها مُحاولين التوفيقَ بين " آزر" و" تارح " بإسقاط أَحَد طَرَفَىْ التناقض : منهم من قال ان "آزر" فى القرآن ليس هو أبا إبراهيم ، وإنما هو عَمُّه، والعرب تسمى العمَّ أباً . وليس بشىء ، لأن المَعْنِىَّ فى القرآن هو أبو إبراهيم ، لا عَمُّه . وقال الآخرون إن " تارح " كان له إسمان ، أحدُهُمَا " آزر" . وهو ضعيف ، لأنه لا دليلَ عليه من القرآنِ أو الحديث ، ولا مَقْنَعَ به لأصحاب التوراة الذين لا يَعْلَمون لأبى إبراهيم اسماً آخر ، أو شُهْرَةً شُهِرَ بها . وتَصَدَّى لآزرَ أيضا باحثون كِبار ، كان منهم فى هذا العصر الأستاذ عباس العقاد رحمه الله ، فى كتابه " إبراهيم : أبو الأنبياء " ، الذى قال ما معناه ان " آزر " ليست تعريباً لـ "تارح" وانما هى تصويبٌ قرآنى لنطق "تارح" على أصلها فى لغة صاحب هذا الاسم (وكأنه يقصد البابلية الأشورية) التى لا تَرْسُمُ فى الخط حروفَ الحلق ومنها الهمزة والحاء ، وتُبادِلُ بين التاء والثاء والشين والزاى ، وكأنها كانت تَرْسُمُ " ثَارَة " أو " زَارَة " ونطقها العبرانيون " تارح " ، الخ . وليس هذا بِقَوى ، رغم ضخامة الجهد ونُبْلِ القصد ، وأقربُ ما يُرَدُّ به على هذا أن العبرانيين لم يقرأوا اسم أَبى جدهم إبراهيم فى صحيفةٍ أو نقش ، وإنما سمعوه من إبراهيم شفاهة ، وهم قد سمعوها " تارح" ، ولم يسمعوها " آزر" . ويُرَدُّ عليه أيضا بأن القرآن لم يُصَوِّب للتوراة نُطق عَلَمٍ أقدم من " تارح " وهو " نوح " ، وكان حقه أن يأتى بها على "نوخ" بالخاء المنقوطة كما مر بك ، وإنما القرآن يلتزم العَلَمية التى ثبتت فى الكتب السابقة ، فيأتى بها على ما هى عليه ، عدا ما يقتضيه التعريبُ فحسبُ ، إلا أن يأتى القرآن بالعَلَمِ التوراتى أو الإنجيلى مُتَرْجَمًا ، كما مر بك فى "إدريس" وكما سترى فى " ذى الكفل " .

أفتكون " آزر" فى القرآن ترجمة لـ " تارح " فى التوراة ؟

نعم . ولكن هذا يقتضى أولا تأصيل لفظة " تارح " فى اللسان العبرانى ، معناه واشتقاقه ، أو معناه واشتقاقه فى اللسان الآرامى ، لغة إبراهيم " الآرامى" ، الوافد على فلسطين (إرِض كنعان) من حاران فى شمالى سورية (إرِض آرام) كما يقول سفر التكوين .

□□□

لا يعرف علماء التوراة لاسم أبى إبراهيم "تارح" (أو "تيرح" بإمالة الألف) معنى أو اشتقاقا ، لا من العبرية ولا من الآرامية ، لعدم وجود الجذر السامى " ترح" فى أى منهما ، أو على الأقل عدم وجوده فيما هو معروف لنا اليوم من جذور العبرية والآرامية . وأيضا لأنه لا يستقيم على أوزان هاتين اللغتين افتراض زيادة التاء فى تارح اسم أبى إبراهيم فى التوراة على نحو زيادتها فى "ترواح" العربية بمعنى الرواح، أخذا من الجذر العبرى "أرح" ، مقلوب الجذر العربى راح / يروح بمعنى رحل ، إذن لقالوا " آرح " وهو بالفعل من أعلام التوراة ، ومعناه " الرحّالة " الكثير التجوال . ربما جاز لك أن تقترح على علماء العبرية فى تفسير معنى " تارح " أنه مشتق من "يارَح " العبرى بمعنى " قمر" (ومن هذه "يرَح" العبرى بمعنى شهر قمرى) ، زيدت فيها التاء فأصبحت " تيرح " (على نطق " تارح " اسم أبى إبراهيم ممالة الألف)، على نحو ما زيدت التاء فى " يَمَن" العبرى فقيل " تيمان" بمعنى الجنوب عبريًّا . ويُرَدُّ على هذا بأن العبرانيين حين اشتقوا من القمر اسماً علما قالوا " يَرُوح" وقالوا "يرَح" ولم يقولوا البتة " تارح" أو " تيرح " .

على أنه لم يقل بهذا أو ذاك من علماء العبرية أحد ، بل قد آثروا جميعا السكوت عن تفسير معنى اسم أبى إبراهيم ، على ولوعهم بتفسير الأسماء الأعلام ، بل واختراع المناسبة التى اختير الاسم من أجلها ، توضيحا لمعناه . وهم قد توقفوا فى " تارح " ـ على الراجح عندى ـ خشية مزالق الزلل فيما لم يتضح لهم وجهُ الصوابِ فيه . ونحن نحترم لعلماء التوراة هذا السكوت ، احترامَنا لمفسرى القرآن الذين توقفوا عن تفسير " آزر" . لأننا نصدق القرآن فى " آزر" ، تصديقنا للتوراة فى "تارح" .

فى التوراة أيضا (عدد ٣٣/٢٧ ـ ٢٨) " تارح " أخرى ، هى نفسها رسما ونطقا ، توقف أيضا علماء التوراة عن تفسير معناها . وليست هى فى سفر العدد اسما لأبى إبراهيم ، وإنما هى فيه اسم موضع فى صحراء سيناء نزله موسى مع بنى اسرائيل أيام تطوافهم فى التيه . وليست هذه عبرية بالضرورة ، بل عربية ، لغة القوافل التى كانت تجوب سيناء إلى مصر . لعلها من التَّرواح والراحة على معنى المُسْتَراح يُحَطُّ فيه الرُّحال .وقد فسرها بهذا المعنى نفسه " معجم ويستر" [١] . فقال station ، يعنى " المحَطُّ " ، غيرَ جازم ، لأنه يُعْقِبُها بعلامة استفهام . وهذا يَليقُ باسم موضع ، لا سيما فى تيهٍ كتيهِ سيناء ، ولكنه لا يَليقُ اسما لرجل ، ولو أن المعجمَ المذكور يَخْلِطُ بين الاسمين فى غير ضرورة .

ونحن لا نَقْسِرُ علماءَ التوراة على تفسير لاسم أبى إبراهيم "تارح" من العبرية والآرامية: لو كان فى العبرية أو الآرامية شىءٌ يُعينُ على هذا التفسير لسبقونا اليه .

ولكننا نقول كما يقول سفر التكوين (تكوين ١١/٢٧ ـ ٣٣) إن أبا إبراهيم "تارح" لم يكن رجلا عبرانيا أو آراميا ، ولكنه كان رجلا " بابليا " ، ولد فى بلدة "أور الكلدانيين" على سافلةِ نهر الفرات ، إلى الجنوب الشرقى من بابل فى العراق ، ولم يرتحل منها إلى " حارَان " فى شمالى سورية (إرِضْ آرام) إلا وقد نيَّفَ عمُرهُ على مائة عام . ومن هنا تستطيع أن تقول إن تارح هذا كان ينطق اسمه ، الذى سمعه منه بنوه ، على مُقْتَضَى مخارج ألفاظ اللغة البابلية ، لا العبرية ولا الآرامية .

□□□

يقول علماءُ اللغات السامية [١] إن البابليين ـ وهم بالقطع ساميون من عرب شبه الجزيرة ـ غلبوا الشومريين على أرضهم فى جنوبى العراق حوالى مطلع القرن الثلاثين قبل الميلاد ، فنقلوا عنهم " الخط المسمارى " الذى ابتدعه الشومريون من قبل. ولأن اللغة الشومرية ـ بالقطع أيضا ـ لغة غير سامية ، فقد خلا الخط المسمارى من

---

(١) انظر : Names & Scripture Proper, (Unabridged) WEBSTER'S DICTIONARY page 98 of Wbster's Foreign Words, With their meaning and place in the Bible, Dictionary supplements.

(١) " تاريخ اللغات السامية " ، أ.ولفنسون ، الباب الثانى ، " اللغة البابلية ـ الآشورية ، ص ٣٩ .

حروف لا تحتاج إليها تلك اللغة على أصول مخارج ألفاظها من حروف التضخيم كالطاء والظاء والضاد وبعض حروف الحلق ، وتحتاج إليها اللغات السامية ـ ومنها البابلية ـ كى تفرق مثلا بين "ظهر" و "زهر" ، وبين "عاد" و " آد " ، على نحو ما تراه الآن من فوارق بين الخط اللاتينى والخط العربى . وكان موقف البابليين من هذا أنهم اصطنعوا الخط المسمارى على علاته ، دون أن يضيفوا إلى حروف " الأبجدية المسمارية " ماينقصها من الحروف التى تحتاج إليها اللغة البابلية السامية .

وقد كان لاستخدام البابليين الخط المسمارى فى الكتابة ، إلى جانب اختلاطهم بالشومريين الذين لم يقضوا عليهم تماما ، أثر فادح فى تشويه الطابع السامى النقى لمخارج ألفاظ أولئك الأعراب الذين جاءوا من جنوبى شبه الجزيرة فتوطنوا فى بابل ، ومن هذا المزيج وذاك الامتزاج ولدت اللغة البابلية ، التى وإن بقيت سامية بجذورها ومادتها وتراكيبها فقد ضاعت منها بعض " الأصوات" التى تختص بها اللغات السامية ، وأمها العربية ، فتهملها ، أو تنطقها محرفة .

وإذا علمتَ أن تارح أبا إبراهيم وُلد فى أور الكلدانيين ببابل حوالى مطلع القرن العشرين قبل الميلاد حسبما تستخلص من حسابات سفر التكوين ـ بعد انقضاء حوالى ألف سنة على توطن أسلافه الساميين فى بابل ـ فقد علمتَ يقينا أن لغة تارح هذا وآبائه كانت هى بالقطع تلك اللغة السامية البابلية التى تأثرت بمخارج ألفاظ الشومريين على مدى ألف سنة سبقت ، فهى لا تجد حرجا على سبيل المثال فى وضع "التاء" موضع " الطاء" نطقا وكتابة .

من هنا تقول إن تارح ـ اسم أبى إبراهيم فى التوراة ـ إما هو على أصله بالتاء، فيكون مشتقا من الجذر السامى " ترح" (الذى يفيد فى العربية الهمَّ والحَزَن ، وأيضا قلة الخير) ، وإما أن يكون أصله بطاءٍ تَحَوَّرت فى البابلية إلى تاء ، فيكون مشتقا من الجذر السامى "طرح" (على تفاوت فى معنى " طرح " بين العربية وأخواتها الساميات) : إن صَدَّقْتَ التوراةَ فى " تارح" تصديقَكَ القرآنَ فى " آزر " فلا سبيل أمامك لتفسير معنى " تارح " إلا بأحد هذين الفرضين لا ثالث لهما .

وقد كان الأضبط ـ والأثبت ـ التماس معنى " تارح " البابلية هذه فى المعجم البابلى نفسه ، ولكن المعجم البابلى للأسف معجمٌ أبتر ، يقتصر على مفرداتٍ قلائل

اقتنصها اللغويون بعد لأيٍ من حُطام نقوشٍ بذلك الخط المسمارى الذى حدثتك عنه ، ليس من بينها " تارح" أو " طارح " .

وقد مر بك أن اللغويين يستعينون فى فهم بوائد الساميات بالرجوع إلى معجم اللغة العربية ، أُمُّ السّاميّاتِ جميعا . ومر بك أيضا أن اللغويين حين يريدون تأصيل معنى جذرٍ مُماتٍ فى لغةٍ ساميةٍ ما ، يستعينون بمعنى هذا الجذر فى أخواتها وبنات عمومتها .

ولأن القرآنَ ـ أصْلَ كُلِّ تأصيل للمعجم العربى ـ لم يعتمد " تارح" (لا بالتاء ولا بالطاء) اسماً لأبى إبراهيم ، وإنما أتى به على الترجمة " آزر" ، تفاديا لنقله عن أصل معناه فى لغة صاحبه إن هو أتى به على أصله معربا ـ على ما مر بك من منهجنا فى هذا الكتاب ـ فهذا يعنى أن "تارح" و "طارح" كلتيهما ليستا من "ترح" و "طرح" العربيين ، وإنما هما أو إحداهما من لغة سامية أقرب إلى البابلية تاريخا وحضارة .

والآرامية والعبرية هما الأقرب إلى البابلية تاريخا وحضارة . والآرامية والعبرية كلتاهما تخلوان من الجذر السامى "ترح" : ليس فيهما إلا "طرح" بالطاء ، لا بالتاء .

ومن ثم فلا مفر لك من التماس "تارح" فى"طارح" ، والتماس معنى "طارح" هذه فى العبرية ـ الآرامية ، لا فى لغتنا العربية .

" تارح" إذن ـ أو بالأحرى " طارح " ـ اسم أبى إبراهيم فى التوراة ، هو من العلم الأعجمى الذى فسره القرآن بالترجمة ، فجاء به على " آزر" . فإلى أى مدىً أصابَ القرآنُ ، وَسَفِهَ خُصومُه ؟

جَهِلَ أحبارُ العبريةِ معنى " تارح" اسمِ أبى جدهم إبراهيم كما مر بك ، وحَقَّقَهُ القرآن كما سوف ترى ، فأَىُّ إعجازٍ وأَىُّ عِلْم !

❑❑❑

وَزَرَ، يَزِرُ، وَزْرا فهو وازِر (راجع فى معجمك العربى مادة " وزر") يعنى حَمَلَ ما يُثقِلُ ظهرَه ، ومنه فى القرآن : { **لا تزر وازرةٌ وِزْرَ أخرى** } (الإسراء : ١٥)

أى لا تَحْمِل نفسٌ عن نفس شيئا ، بل كُلُّ نفسٍ بما كسبت رهينة . ومنه " الوِزْر" ، أى الحِمْلُ الثَقيل، كما فى قوله عز وجل : {**حتى تضع الحربُ أوزارها**} (محمد : ٤) أى أثقالَها من سلاح وعَتَاد . واستعمل الوِزرُ مجازاً بمعنى الذنب ، لأنه يُثقِلُ ظهرَ صاحبه يوم القيامة ، كما فى قوله عز وجل :{ **من أعْرَضَ عنهُ فإنه يَحْمِلُ يوم القيامة وِزْرا** } (طه : ١٠٠) .

وقد سقط من المعجم العبرى ـ الآرامى الجذر السامى "وَزَر ". إلا فى لفظ واحد هو " وَزَار " التى وردت اسما علماً فى الأصل العبرانى لأسفار التوراة على مجازها العربى بمعنى "موزور" أى راكب الوِزْر (راجع الترجمة العربيـة لسفر الأمثال ٢١/٨)، لم تَرِدْ فى التوراة إلا فى هذا الموضع، وبقيت فـى العبريـة المعاصرة بمعنى الخاطىء الآثم ، يُفَسِّرُها علماء العبريـة بِرَدِّها إلـى الجذر العربـى " وَزَر " .

أما "الوِزْر" على أصل معناه فى العربية ، أى الحِمْلُ الثقيل، فهو فى العبرية ـ الآرامية "طورَح" ، أخذاً من الجذرالعبرى ـ الآرامى "طَرَحْ" ، أى حَمَلَ ما يُثقِلُ ظهرَه، فهو المقابلُ العبرى ـ الآرامى للجذر العربى " وَزَر" . ولا تستعمل عبرية التوراة من الجذر "طرح " إلا " طُورَح" بمعنى الحِمْل الثقيل ، أى الوِزْر ، وإلا صيغة " هفْعيل " (وهى صيغة " أفْعَلَ " العربية المتعدية بالهمزة) فتقول " هِطْريح " بمعنى " أوْزَرَهُ " ، أى حمَّله ما يثقل ظهره .

"طارح" إذن (أى "تارح" كما مر بك) ، إن اشتققتها من الجذر العبرى ـ الآرامى " طَرَحْ " ، معناها " الوازِر " ، على التطابق ، لا على المجاز بمعنى الموزور راكب الوزر ، وإنما على الأصل بمعنى الحَمول المُحَمَّل .

أما لماذا ترجم القرآن اسم أبى إبراهيم إلى " آزَر" ، ولم يترجمه إلى " وازِر" فهذا من دقيق القرآن كما سترى .

□□□

" الأَزْرُ " عربيا ليس أصل معناها " القوة " كما وَهِمتْ بعض المعاجم [(١)] ، وإنما أصل معناها " الظهر " . والظهر يُكَنَّى به عن القوة ، لا العكس . والإزارُ منه ،

(١) منها " المعجم الوسيط " الذى سكت عن تعريف " الأَزْر" بأنه " الظهر " ، وعَرَّفَ " الأزر " بأنه "القوة " ، مستدلا بالقرآن { اشْدُدْ به أزرى } (طه :٣١) وهى على الضد من قوله . وسيأتى.

لأنه يُشَدُّ به على الظهر، أى على " الأزْر" . وأزَرَ الزرعُ بمعنى التفَّ فقوى بعضُهُ بعضا ، يعنى " تظاهر" ، فكان بعضُهُ لبعض "ظهيرا". وآزَرَهُ مثله. ومنه أيضا "أَزَرَهُ" بمعنى دَعَمَهُ وقَـوَّاه ، أى كان له ظَهْراً ، وآزَرَهُ يعنى كان له ظهيرا مُظاهرا . وأَزَرَهُ أيضا يعنى ألبَسَهُ الإزار ، وأزِرَ هو ، بكسر الزاى ، فهو "آزَر" (بفتح الزاى كاسم أبى إبراهيم فى القرآن) يعنى لَبِس الإزار ، ومنه " حِصانٌ آزَر " يعنى حصانٌ أبيضُ العَجُز ومقاديمُه غير بِيض ، وكأنَّ بياضَ عَجُزِه على خلاف مقاديمه " إزارٌ " ائتزر به .

أما أن " الأزْر " معناه " الظهر " ، لا القوة ، فهذا يتضح لك من قوله عز وجل على لسان موسى : { **واجعل لى وزيرا من أهلى . هرون أخى . اشدُدْ به أزرى** } (طه : ٣٩ ـــ ٣١) والمعنى " أَشْدُد به ظهرى" ، لا "أَشْدُدْ به قوتى" كما وقع فى بعض التفاسير ، وكما وقع فى المعجم الوسيط استشهادا على معنى " الأزر" بأنه القوة . وليس بشىء : القوة تُشَدَّدُ ولا " تُشَد " ، لأن " شَدَّ " الثلاثى المجرد غير المضعف ، حين يتعدى بذاته كما فى الآيات التى تلوت توا . يقع على المادى ولا يقع على المعنوى، ويكون بمعنى الربط والإيثاق والإحكام : تقول شَدَّ الإسارَ، وشَدَّ العقدة، وشَدَّ العَضُد ، وشَدَّ الرِحال ، وشَدَّ المِئزر ، وشَدَّ " الأزْر" ، أى الظهر ، لا معنى للقول بخلافه .

وقد فسر القرطبى رحمه الله " الأزْر " بمعنى " الظهر " فى تفسيره للآية ٣١ من سورة طه ، فارجع إليه .

والوزر من " الأزر " قريب ، لا فى مادته فحسب ، ولكن لأن " الوزْر " بمعنى الحمل الثقيل لا يكون إلا على " الظهر " ، أى على " الأزْر " . تجد هذا فصيحاً بَيِّناً فى قوله عز وجل ، يُسَلِّى بها نَبِيَّه :{ **ووضعنا عنك وزرك . الذى أنقض ظهرك**} (الشرح : ٢ ـ ٣) بل لا يمكن لك تفسير قول العرب "وزر إليه" بمعنى لجأ واعتصم، ومنه " الوَزَر" بفتح الواو والزاى فى قوله عز وجل: { **كلا ، لا وَزَر . إلى ربك يومئذ المستقر** } (القيامة ١١ ـــ ١٢) ، إلا أن تقول إن " الوَزَر " لغة فى "الأزْر" ، بمعنى الظهر يركن إليه ، أبدلت فيه الواو من الهمزة ، وهو كثير الوقوع فى كلام العرب ، من مثل (أزف / وزف) و (أكد / وكد) وغيره كثير . كما تجده فى قوله صلى الله عليه وسلم لبعض تلك النسوة : " ارْجِعْنَ مأزورات غيرَ مأجورات " !

وكأنه يريد "موزورات" فهمز ، أو كأن "وزر" و "أزر" سيانَ ، أو كأن " المأزور " هو "المحمول على أزره" ، أى على ظهره ، كما تقول "مكبود" ، "مبطون" ، "معيون" فيمن اعتلَّ كبده وبطنه وعينه . والقياس من هذا ـ وإن لم يسمع من العرب ـ أن تقول "أزَرَهُ " بمعنى "أوْقَر أزره " (أى ظهره) ، و " أزِرَ " هو ، فهو " آزَر " (اسم أبى إبراهيم فى القرآن) يعنى مُوقَر الظهر مُثقَله : إنها نفسها " الوازر" حامل الوزر، على أصلها لا مجازها ، أى الحَمُول المُحَمَّل. وهو نفس معنى "طارح" العبرية ـ الآرامية .

وقد عدل القرآن عن "وازر " إلى "آزر" دفعا لشبهة فهمها بمعنى الآثم الخاطىء (وهى "وزار" العبرى كما مر بك) ، وليست " طارح " أو " تارح " كذلك . وعدل أيضا عن استبقائها معربة على أصلها العبرى ـ الآرامى " تارح " أو طارح " ، لأن "تارح" تشتبه فى العربية بمعنى " المحزون " التَّرِح ، و" طارح " تشتبه فى العربية بمعنى "الطريح" المنبوذ ، وليست أيضا " تارح " أو "طارح" فى العبرية ـ الآرامية كذلك ، على ما مر بك من منهجنا فى تفسير أسباب عدول القرآن عن تعريب العلم الأعجمى إلى ترجمته .

أما اشتقاق " طارح " (تارح فى التوراة) من الجذر العبرى " طرح " بمعنى " حَمَلَ " ما يوقر ظهره ، فهو عندى على الوزن " فَعَّال " ـ وهو وزن فى العبرية والآرامية يدل على الفاعل يَكْثُرُ منه الفعل ـ فكان حقه أن يكون " طَرَّاح " . ولكن الذى يجب أن تعلمه ، وعَلِمَهُ القرآنُ من قبل ، أن هاتين اللغتين لاتُجيزان تشديد الراء، وتستعيضان عن تشديد الراء بمد حركة ما قبلها ، فتؤول " طَرَّاح " إلى "طَارَح" (تارح فى التوراة) ، كما قالوا فى " حَرَّاش " (أى الحَرَّاث) "حَارَش" ، يعنى الحارِث الذى يمتهن الحراثة .

❑❑❑

لا سبيل أمامك إلى تفسير معنى " تارح " البابلية (اسم أبى إبراهيم فى التوراة) إلا بردها إلى " طارح " العبرية ـ الآرامية ، أبدل البابليون من طائها تاء.

ولا ترجمة إلى العربية لهذا الاسم البابلى أدق من " آزر" التى فى القرآن ، بمعنى " الوازر" ، على أصلها ، لا مجازها .

ولا حرج على القرآن صاحب اللغة ـ على نحو ما رأيت فى "صراط" و"قسطاس" ـ أن يَشْتَقَّ من الجذر العربى الأصيل مادةً لم تُسمع قَبْلَهُ من العرب ، لا سيما فى ترجمة الأسماء الأعلام كما مر بك فى " إدريس " ، بل فى هذا إشارةٌ إلى "عُجْمَة " صاحب الاسم العلم .

قد أصاب القرآن إذن فى " آزر " ، وسَفِهَ خصومه . فهل رَغِمَت أنوف ؟

جَهِلَ خصومُ القرآن معنى اسم أبيهم " تارح " ، ومازالوا يجهلونه ، وعَلِمَهُ القرآن . فَأَىٌّ إعجاز وأىٌّ علم !

كان أولَى بالذين طعنوا على القرآن فى " آزر" أن يتعلَّموا منه ، ولكنهم لم يفعلوا . وصدق الحق سبحانه إذ يقول فى تقريعهم : { **ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم . فلم تُحَاجُّون فيما ليس لكم به علم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون ؟** } (آل عمران : ٦٦) .

(٢٣) إبراهيم

" إبراهيم " فى القرآن هى تعريب " أبراهام " فى التوراة .

ويقول سفر التكوين إن إبراهيم كان اسمه " أبرام " (المشتقة على المزجية من آب + رام بمعنى " أبو العلاء ") وظل اسمه كذلك حتى كان ابن تسع وتسعين سنة فسماه الله " أبراهام " (إبراهيم فى القرآن) .

وعلماءُ التوراةِ يشتقون " أبراهام " هذه على المزجية من (آب + راب + هام)، حُذفَت الباء التى فى " راب " للمزجية استثقالا ، وخُفِّفَ المد الذى فى "آب" للمزجية أيضا ، فأصبحت (أب + را + هام) ، أى " أبراهام " .

أما معنى " أبراهام " هذه عند علماء التوراة فهم يَرَوْن أن " راب " ها هنا يعنى " كثير " وأن "هام" يعنى " جمهور " . ومن ثم فهذا الاسم يعنى عندهم (أب + كثير + جمهور) ، يريدون " أبو جمهورٍ كثير " .

وقد تورط علماء التوراة فى هذا التفسير اتباعا لسفر التكوين (تكوين ١٧/٥) الذى أراد أن يكون معنى " أبراهام " أباً لجمهورٍ من الأمم (آب ـ هامون ـ جُويِيم) ، نبوءة من الله عز وجل لإبراهيم بكثرة النسل . فألزم بها سفرُ التكوين علماءَ التوراةِ من بعده .

ولكنك تستدرك على علماء التوراة هؤلاء مُتَسَلِّحا بنحو اللغة العبرية ذاتها ومُعْجَمِها ، فتقول إن " راب " التى فى آب + راب + هام (أب + كثير + جمهور) لا يصح عبريا أن تُفهم فى هذا الاسم على الصفة بمعنى " كثير " ، لأن المفرد (الأب) لا يوصف بالكثرة ، فلا يجوز لك أن تقول " أبٌ كثيرٌ " . ولا يصح عبريا أيضا أن تكون " كثير " هذه صفة لما بعدها (الجمهور) ، لأن الصفة لا تتقدم الموصوف ، كما فى العربية سواء بسواء . ولا يصح فى عبرية التوراة كذلك ـ وإن صح فى العربية ـ إعمالُ الصفة فيما بعدها ، كأن تقول " أبٌ كثيرُ الجمهور " . أقربُ من هذا إلى

الصواب أن تقول فى " راب " العبرية هذه أنها صفة بمعنى " كبير " (وهو من معانيها فى العبرية) تصف بها "الأب " على التوقير والتمجيد ، فيكون المعنى " أبٌ كبيرٌ لجمهور" . وليس هذا هو الذى يريده سفر التكوين ، فهو يريد الكِبَرَ والكثرة للجمهور لا للأب ، بدلالة تفسيره الاسم بقوله : " أبٌ لجمهورٍ من الأمم" .

أما الشديدُ النُّكرِ ، فهو أن " هام " العبرية هذه لا تعنى البتة "جمهور" كما أراد سفر التكوين وتابعه عليها من بعده علماء التوراة ، وإنما معناها فى العبرية "الناس" (١) ، أخذا من ضمير الجماعة العبرى " هِيم" (بإمالة الألف) وهى " هُمْ " العربية .

من هنا يتضح لك أن المعنى الأقرب إلى الصواب عبريا فى " أبراهام " هو فهمه بمعنى " أبٌ كبيرٌ للناس " .

ولكنك تعلم من العبرية أيضا أن " راب " على الإسمية لا الصفة ، تعنى " الرئيس " ، " السيد " ، " المعلم " ، " الإمام " . ومنها " الربانى" على ما مر بك فى تضاعيف هذا الكتاب . ومنها فى العبرية المعاصرة قولُهم على النداء توقيراً : مُورى وربِّى ! أى معلمى وأستاذى ! إنها إذن الأستاذ الإمام .

عندئذ تقطعُ غيرَ ملتفتٍ إلى تفسير سفر التكوين وعلماء التوراة ، بأن "أبراهام" إنما تعنى فى لغة صاحب هذا الاسم العلم : إمامُ الناس . وهى عبريا "راب + هام" ، لا تحتاج فى أولها إلى " آب " . ولكن بقيت " آب " مضافة إلى الاسم على الراجح عندى ، دلالةً على الانتقال بالاسم من (آب + رام) إلى (آب + راب + هام) على وجه الحشو المُؤكِّد ، لأن فى " آب " من معنى الإمامة بعضَ ما فى " راب " .

وهذا هو نفسه التفسير القرآنى لمعنى إبراهيم بالمرادف فى قوله عز وجل : **{وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّهُ بكلماتٍ فأتمهُن ، قال إنى جاعلك للناس إماما }** (البقرة : ١٢٤) ، ولم يفطن إليه مفسرو القرآن كما سترى .

❑❑❑

---

(١) راجع المعجم العبرى " هَـمِلُّون هِـحَدَاش لَتَنَاخ " ، ص ١٢٠ ، المرجع المذكور .

تكلم مفسرو القرآن (راجع تفسير القرطبى للآية ١٢٤ من سورة البقرة) فى معنى اسم إبراهيم . منهم من أنصف فاكتفى بالقول بعجمته (الماوردى) ، ومنهم من تصدى لتفسيره (ابن عطية) فقال إن معناه من السريانية هو "الأبُ الرحيم" ، مُؤكِّدا أن "رَهيم" فى السريانية معناها "رحيم" فى العربية ، فتندهش كيف تورط فيها الرجل على جلال قدره وعلمه ، وليس فى السريانية بالطبع من هذا شىء ، بل ولا فى الآرامية والعبرية ، ولا تدرى أيضا أىُّ شَقِىٍّ فى نواحى العراق دَسَّها عليه ، إلا أن يكون " هنديا " تسربل فى ثياب السريان ، ينطق حاءهم هاء !

وعلل بعضهم سبب التسمية (السهيلى) بقوله فى مَعْرِض التشابه القوى بين السريانية والعربية : (ألاترى أن " إبراهيم " تفسيره " الأب الرحيم " ؟ لرحمته بالأطفال ، ولذلك جُعِلَ هو وسارة زوجته كافلَيْنِ لأطفال المؤمنين الذين يموتون صغارا إلى يوم القيامة) . وهذا ـ فوق سماجته ـ ضعيف ، تَشُمُّ فيه من قريب رائحةَ النقل عن أهل الكتاب من الملتين ، وعندهم أن "الأبرار" يذهبون إلى حضن إبراهيم وسارة .

والطريف أن القرطبى رحمه الله تَحَمَّسَ لهذا التعليل ، فعززه بقوله : " ومما يدل على هذا ما أخرجه البخارى فى حديث الرؤيا الطويل عن سَمُرَة ، وفيه أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى فى الروضة إبراهيم عليه السلام وحوله أولاد الناس " .

وليس فى هذا الحديث أيضا ـ وإن صح ـ ما يشهد لتفسير اسم إبراهيم بمعنى الأب الرحيم، وإنما هذا هو ما أُسَمِّيه "التفسيرَ بالتخمين"، أو "التفسيرَ بالفراسة" (١): تُسْقِطُ صورةً فى ذهنك على شخص صاحب الاسم العلم، ثم تستخلص من هذه الصورة التفسير الذى تريد، لاتكلف نفسك مؤونة تأصيل مبنى الاسم ومعناه فى لغة صاحبه.

بل ليس البرُّ والرحمة هما أعظمَ مناقب إبراهيم عليه السلام ، حتى يُتَكَلَّفَ اشتقاقُ هذا الاسم منهما . وإنما كانت كبرى مناقبه عليه السلام ، بشهادةِ الله عز وجل، أنه إبراهيم الذى وَفَّى: { **ألم يُنَبَّأْ بما فى صحف موسى . وإبراهيم الذى وَفَّى** } (النجم : ٣٦-٣٧) .

□□□

(١) شبيهٌ بهذا التفسير بالتخمين أو التفسير بالفراسة ، ما تقرؤه فى بعض التفاسير ، وأيضا فى بعض المعاجم ، التى تقول لك إن لفظة " أُمَّة " حين يوصف بها إنسان ، تعنى " الرجل الجامع لخصال الخير " يستشهدون لها بقوله عز وجل :{ إن إبراهيم كان أُمَّة } {النحل : ١٢٠} . وليس هذا من اللغة فى شىء . وإنما الأمة هنا يعنى الإمام . وسيأتى .

شُغِلَ إبراهيمُ عليه السلام ـ وهو بعدُ صغير ـ بالنظر فى النجوم ، يطلب الحقَّ المبين ، فهداه الحقُّ إلى الحق . وانبرى وحدَهُ فى قومهِ يدعو إلى الواحد ، فابتلى بكفر أبيه آزر ، يَنْحتُ الأصنام ويبيعها للناس ، كالساخر بدعوته . لم يكن أبوه ردْءًا له ، وإنما كان حرباً عليه ، يستغل سلطان الأبوة فى إسكات الدعوة : { **قال أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم؟ لئن لم تنته لأرْجُمَنَّك واهْجُرنى مَلِيًّا** } (مريم : ٤٦) ، ولم يَزِدْ هذا إبراهيمَ بأبيه إلا براً : {**قال سلامٌ عليك ، سأستغفر لك ربى، إنه كان بى حَفِيًّا**} (مريم : ٤٧) . وكاد أصنامَهُم فى غفلةٍ منهم ، ليُرِيَهُم على أعين الناس أن الإله الذى لا يدفع الضُّرَّ عن نفسه ، أقمن ألا يدفع الضر عن غيره ، أو يَضُرَّه . ولكنه بفعلته هذه لم يهتك ستر أصنامهم فحسب ، وإنما هتك ستر كهَنَتِها وسَدَنَتِها ، الذين يعلمون من قبل أنها لا تضر ولا تنفع ، ولكنهم يُعَلِّلون بها المستضعفين ويَسُوسُون الدَّهْماء . هنا بَرِحَ الخفاء ولم يعد يصح السكوت ، فكان جزاؤه من أبيه وقومه أن يُحَرِّقوه بالنار ، انتصارا لآلهتهم وكيلا يفتتنَ به الناس . أسْلَمَ إبراهيمُ أمْرَهُ لله ، فقد عَلِمَ هو من قبل أن اللهَ حَسْبُه ، وإذا النار على إبراهيم بردٌ وسلام ، فالنار لا تَحْرِقُ مؤمنا ، ناهيك بخليل الرحمن . ولكن القلوب تَعمى عن الآية الكبرى ، فاعتزلهم وما يعبدون من دون الله ، لم يؤمن له منهم إلا زوجُهُ سارة وابنُ أخيه لوط ، فخرج بهما مهاجرا إلى ربه ، لا شيعة ولا أتباع ، يرجو رحمةَ ربِّه فى نسل صالح يُعينه على أمر الله : { **وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين . رَبِّ هَبْ لى من الصالحين** } (الصافات : ٩٩ ــ ١٠٠) ، ولكن العزيز الرحيم يبتلى إبراهيم فيرجىء الاستجابة إلى وقتها المكتوب عنده ، ويصبر إبراهيم حتى يأتى أمر الله ، لا يُضَارُّ الزوجةَ التى صبرت ووفَت ، حتى جاوز الثمانين ، فيولد له من هاجر بكرُهُ إسماعيل وقد ناهز إبراهيم ستا وثمانين ، كما تقرأ فى سفر التكوين (تكوين ١٦/١٦)، وعززه القرآن بقوله عز وجل على لسان إبراهيم : {**الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحق إن ربى لسميع الدعاء**} (إبراهيم : ٣٩) .

أفهل انتهت " بلاءاتُ " إبراهيم ؟ كيف ، وهو عز وجل يريد لإبراهيم أن يكون المثل الأعلى لاصطبار المؤمن وإذعانه لأمر الله ؟

ما أقر الله عينه بإسماعيل حتى ابتلاه فيه ، فأمره بفراقه فَطيما تحمله أمه ، ليضعه فى وادٍ غير ذى زرع ، لا ماء ثَمَّ ولا طعام . ولكن إبراهيم يمضى لا يلتفت

وراءه تاركا فلذة كبده عن أمر الله ، لا ينفطر ولا يجزع ، فقد علم هو من قبل أن الذي خلق وهَدَى هو الذى يُطعمُ ويَسقى :{ **الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسقين** } (الشعراء : ٧٨ ـ ٧٩) . فأىُّ طاعةٍ ، وأىُّ إيمان !

لم يخلق اللهُ إسماعيل ليؤنس أباه فى شيخوخته ، وإنما خلقه ليكون شجرةَ إيمانٍ أصلها ثابتٌ فى الأرض وفرعُها فى السماء ، أُلقيت بذرتُها فى وادٍ أصَمّ ، يُراد له بعد نحو أربعةٍ وعشرين قرنا حَمْلُ لواء الدعوة الخاتمة والبلاغ المبين .

ويشب الغلام بعيدا عن أبيه، ويمتثل إبراهيم. أفهل انتهت "بلاءات" إبراهيم ؟ كلا . ما أن يبلغ الغلام ثلاث عشرة سنة ، وقد ناهز إبراهيم تسعا وتسعين ، حتى يجىء " البلاء المبين " : يؤمر إبراهيم بذبح ابنه بيـده ، ويا لَهَولِ ما يُؤمَر ! لأهونُ عليه أن يذبح نفسه بيده ولا يَرى ابنَهُ يُشَكُّ بشوكةٍ تُدميه . ولكن اللهَ هو الآمر ، والمأمور هو إبراهيمُ الذى عَلِمت ، ويمتثلُ إبراهيم . أفَيتأبَّى إسماعيلُ على أمر الله ، يُضاعف على أبيه المحنة فيستغيثه الأبوة ويناشده الرحمة ؟ فما علِمْكَ ببِرِّ إسماعيلَ أباه ؟ كلا ، بل يُخَفِّفُ عن أبيه البلاء ، فيستحثه ويستنجزه : { **قال يا أبت افعل ما تؤمر ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين** } (الصافات : ١٠٢) ، لا يصطنع البطولة ، وإنما يقدم المشيئة ، مُسْلِماً وجْهَهُ لله ، فأىُّ أبٍ وأىُّ ابن !

تهيأ الابنُ للذبح ، وتهيأ الأبُ لإجراء السكين ، فقيل له قِفْ ! قد أتْمَمْت ! فلم يُرَ إبراهيمُ فى المنام إلا أنه " يذبح" ابنه ، لا أنه " ذبحه " بالفعل . وهذا هو معنى قوله عز وجل : { **فلما أسْلَمَا ، وتَلَّهُ للجبين . وناديناه أن يا إبراهيم : قد صدَّقْتَ الرُّؤيا ، إنا كذلك نجزى المحسنين** } (الصافات : ١٠٣ ــ ١٠٥) .

وإلى هنا تمَّ بلاءُ إبراهيم :{ **إن هذا لهو البلاءُ المبين** } (الصافات : ١٠٦) بلاءٌ لم يمتحن به قط إيمانُ رجل من قبل ومن بعد .

أما "جزاء المحسنين" ، فقوله عز وجل : {**وتركنا عليه فى الآخرين . سلامٌ على إبراهيم . كذلك نجزى المحسنين** } (الصافات : ١٠٨ ــ ١١٠) ، وأيضا بُشراه بإسحاق يُثَنِّى به إسماعيل : { **وبشرناه بإسحق نبيا من الصالحين** } (الصافات :١١٢) ـ وإسحاق يعنى "الضحوك " كما قد علمت ـ ثوابا من عند الله له ولزوجِهِ ساره رفيقةِ جهاده الطويل ، فلم يُرَ إبراهيمُ بعدها إلا ضاحك السن ، قد

صَفَت له الأيام . وبارك الله على إبراهيم وآله ، فصارت جزءا من "تشهد" المسلم فى كل صلاة .

كان إبراهيمُ المثلَ الأعلى للمسلم الحق ، يُسْلِم أَمْرَهُ كُلَّهُ لله . وكان إبراهيم المثلَ الأعلى للمؤمن الحق ، تَنْهَدُّ الجبالُ ولا يتزعزعُ له إيمان . فكان حقه على الله عز وجل أن يقول فيه : { **إن إبراهيم كان أمَّة** } (النحل : ١٢٠)، يؤتسى به ويُؤْتَم [1]. وكان حقه على الله عز وجل أن يقول فيه : { **ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سَفِهَ نفسه ، ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه أسلم ! قال أسلمت لرب العالمين** } (البقرة : ١٣٠ ـــ ١٣١) ، { **ومن أحْسَنُ دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا** } (النساء : ١٢٥) . وكان حق إبراهيم على الله عز وجل أن يستجيب دعوته فى الملة الآخِرة : { **ربنا واجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك** } (البقرة :١٢٨) ، فيكون إمام المذهب والطريقة ، أى الملة : { **ملة أبيكم إبراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل** } (الحج : ٧٨) .

كان جزاء إبراهيم الذى وَفَّى ـ وقد اجتاز البلاء المبين ـ أن جعله الله عز وجل إماما للناس :

{ **وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّهُ بكلماتٍ فأتَمَّهُن ، قال إنى جاعلك للناس إماما** } (البقرة : ١٢٤) ، وهذا هو المعنى الدقيق لاسم إبراهيم (إمام الناس) الذى لا يصح فى العبرية غيره كما مر بك ، وتلك هى مناسبة الانتقال باسمه من "أبرام" إلى "أبراهام" يومَ التمام ، باجتياز "البلاء المبين".

---

(١) قالت بعض التفاسير ، كما قالت بعض المعاجم ، إن لفظ " الأمَّة " هنا يعنى " الرجل الجامع لخصال الخير " ، وليس هذا من اللغة فى شىء كما مر بك : لا يجوز للغوى الحاذق أن يشتق المعنى بعيدا عن أصل المادة اللغوية ، أى بعيدا عن المعنى الرئيسى للجذر الثلاثى المشتق منه . ولا يجوزُ لغةً التفسير بالحَدْس والفراسة ، إن أصبتَ مرة فقد أخطأت مرات . بل يكون الجذر الثلاثى للمادة اللغوية هو إمامك . ليس فى مادة الجذر العربى أ / م / م شىء يفيد الجمع بين خصال الخير ، وإنما كل ما فى العربية بألف وميم مُضعَّفة أو مكررة يدور حول معنى الأم التى ولدت ، والأم بمعنى المثابة ، يثاب إليها ، والأم يجتمع إليها صغارُها ، والأم يتبعها ولدُها . والأمة فى الآية اسم من هذا ، إنه " القدوة " وزنا ومعنى .

ولكنك لا تقرأ فى سفر التكوين شيئا يُعَلِّلُ لك سبب العدول باسم إبراهيم من "أبرام" إلى "أبراهام" وهو عندئذ ابن تسع وتسعين، دون أسباب أو مقدمات ، إلا إرادة الوعد بكثرة النسل : "ولما كان أبرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لأبرام وقال له أنا الله القدير . سر أمامى وكن كاملا فأجعل عهدى بينى وبينك وأُكثِّرَكَ كثيرا جدا . فسقط أبرام على وجهه . وتكلم الله معه قائلا: أما أنا فهو ذا عهدى معك وتكون أبا لجمهور من الأمم . فلا يدعى اسمك بعد أبرام بل يكون اسمك إبراهيم (أبراهام فى الأصل العبرانى). لأنى أجعلك أبا لجمهور من الأمم . وأثمِّرك كثيرا جدا وأجعلُك أمما . وملوكٌ منك يخرجون " (تكوين ١٧/١ـ ٦) . أما العهد الذى يلتزم به إبراهيم لقاء وعد الله إياه بكثرة النسل فهو (عهد الختان) : " وأما أنت فتحفظ عهدى . أنت ونسلك من بعدك فى أجيالهم . هذا هو عهدى الذى تحفظونه بينى وبينكم وبين نسلك من بعدك . يُختَن منكم كل ذكر . فَتُختنون فى لحم غُرلَتكم . فيكون علامةَ عهد بينى وبينكم " (تكوين ١٧/٩ ـ ١١) " فيكون عهدى فى لحومكم عهدا أبديا . وأما الذكر الأغلف الذى لا يُختن فى لحم غُرلَتِه فتقطعُ تلك النفسُ من شعبها . إنه قد نكث عهدى " (تكوين ١٧/١٣ـ ١٤) .

فى هذا اليوم أيضا ، وفى مناسبة تعديل اسم أبرام إلى أبراهام ، عدل الله كذلك كما يقول سفر التكوين ، اسم زوجته من " ساراى " إلى " سارة " [١] : " وقال الله لإبراهيم ساراى امرأتك لا تدعو اسمها ساراى بل اسمها سارة . وأباركها وأعطيك أيضا منها ابنا وأباركها فتكون أمما ، وملوكُ شعوبٍ منها يكونون " (تكوين ١٧/١٥ - ١٦) . أى فى هذا اليوم أيضا كانت البشرى الأولى لإبراهيم بابنه إسحاق . وهذا يتفق مع القرآن الذى يجعل توقيت البشرى الأولى بإسحاق تعقيبا على اجتياز إبراهيم اختبار " البلاء المبين " ، كما تجد فى قوله عز وجل لحظة فداء اسماعيل : { **وفديناه بذبح عظيم . وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على إبراهيم . إنا كذلك نجزى المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين . وبشرناه بإسحق نبيا من الصالحين** } (الصافات: ١٠٧ ــ ١١٢) .

---

(١) حاول علماء التوراة المغايرة بين معنى " ساراى " ومعنى " سارة " ليبرروا تعديل التسمية ، فقالوا غير جازمين أن الأولى من المساورة والمغالبة والثانية من السراوة والشرف . أما "سارة" فهى عبريا من الجذر "سَرَر" ومكافئه العربى سرا / يسرو/ سرواة ، فهى "سَريَّة" بمعنى "أميرة". وقد بقى من هذا فى عربية المماليك فى مصر المتأثرة برواسب آرامية لفظة "سارعسكر" أى أمير الجند.

ولكن الكاتب يُسقِطُ عمدا من هذا السياق " اختبار الذبح " ، لأنه يريد شرف هذا "البلاء المبين" لإسحاق ، لا لإسماعيل ، وإسحاقُ لم يولد بعد ، فيرُجىءُ الحديث عن هذا إلى أن يولد إسحاق . فيجىء الكلام مقطوعا عن سياقه ، ولا تفهم وجه التناسب بين " عهد الختان" وبين " تكثير النسل " ، ولا بين هذين وبين وجه الضرورة إلى تغيير اسم إبراهيم وهو ابن تسع وتسعين سنة من أبرام إلى أبراهام ، إلا أن يكون معنى " أبراهام " هو المِنجابَ المِنْسال ، ذلك المعنى الذى اضطر إليه الكاتب ، فألزم به علماء التوراة من بعده على خلافٍ مع نحو اللغة العبرية ومعجمها .

□□□

كان اسماعيل يوم تَبَدَّلَ اسم إبراهيم من " أبرامَ " إلى "أبراهام "، ابنَ ثلاث عشرة سنة ، كما يقول سفر التكوين (تكوين ٢٥/١٧) ، يَصحُّ به " القربان " فى اختبار الذبح [١] ، البلاء المبين ، وكان جديرا بكاتب سفر التكوين الذى بين يديك أن يتخذ من اجتياز إبراهيم هذا الاختبار الفذ ، مناسبةً لتعديل اسمه من " أبرام" إلى "أبراهام"، أى من " أبى العلاء " إلى " إمام الناس " فى الإسلام والإيمان ، لحظةَ أثبتَ جدارتَهُ بهذا الوسام .

ولكن كاتب سفر التكوين الذى بين يديك لا يهتم لهذا ولا يريده ، لأنه يُفَوِّتُ على بنى إبراهيم عبر إسحاق هذا الشرف ، وإسحاق لم يولد بعد ، فنقل " بطولةَ " اختبار الذبح من إسماعيل إلى إسحاق ، كما كان يفعل بعضُ فراعنة مصر بنقوش أسلافهم : يرفعون اسم الفرعونِ صاحب النقشِ الذى يُسَجِّلُ أمجادَه ، ويضعون مكانه اسمَ الفرعون البطل " المزيف " ، فيفضحهم علماءُ الآثار حين يكتشفون التدليس . هذا بالضبط هو ما فعله الكاتب . لأنك حين تقرأ له (تكوين ٢/٢٢) عبارة : " خُذ ابنك وحيدك الذى تحبه ..." تتوقع حتما أن تجىء بعدها مباشرة لفظة " اسماعيل"، ولكن الكاتب يضع مكانها بكل ثقة لفظة " إسحاق" ، يكررها فى كل مواضع واقعة اختبار الذبح ، غير عابىء بذاكرة القارىء الذى قَصَّ عليه من قبل أن " إسحاق" لم يكن قط ابنا "وحيدا " لإبراهيم ، وإنما الذى كان ابنا "وحيدا " لإبراهيم ، وظل كذلك حتى مولد

---

(١) هذا يُقارب عبارة القرآن : { فبشرناه بغلام حليم . فلما بلغ معه السعى } {الصافات: ١٠١ـ١٠٢}

"إسحاق" هو بكره "إسماعيل"، فتقطع بأن ثَمَّةَ أحداً "ذا مصلحة" قد عبث بهذا النص "المقدس"، لأن اختبار الذبح بابن "وحيد" لا يمكن عقلا أن يقع وإسحاق يُثَنِّى إسماعيل، بل لايمكن عقلا أن يقع إلا قبل مولد إسحاق ، فلا يكون إلا بإسماعيل صاحب لقب "الابن الوحيد" وحدَه ، فتقطع بأن مكان الحديث عن واقعة اختبار الذبح هو هذا الإصحاح السابع عشر نفسه الذى تَقَرَّر فيه - جزاء لإبراهيم على اجتيازه هذا الاختبار الفذ - تعديلُ اسمه من " أبرام" إلى " أبراهام " ، أرجأه الكاتب إلى الإصحاح الثانى والعشرين ريثما يولد إسحاق ويشب .

ولأن كاتب سفر التكوين يَرى مُحِقًّا أن اجتياز إبراهيم البلاء المبين ، أى اختبار الذبح ، يستحق جزاء يُكافِيء بِرَّ إبراهيم ، فقد عَقَّبَ على واقعة اختبار الذبح (الذى كان بإسحاق كما يقول) بقوله على لسان الله عز وجل : " من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك ، أباركك مباركة وأكثر نسلك كنجوم السماء وكالرمل الذى على شاطيء البحر ، ويرث نسلك باب أعدائه ، ويتبارك فى نسلك جميع أمم الأرض ، من أجل أنك سمعت لقولى " (تكوين ٢٢/١٦ - ١٨) ، يجعل جزاء إبراهيم "كثرة النسل" كما مر بك ، ويطنب فى أمجاد هذا النسل "المبارك" ، وكأنما المكافأة لنسل إبراهيم ، لا لإبراهيم نفسه ، ينزعها الكاتب عن إبراهيم ويخص بها نفسه وشعبه .

أما الذى يستوقف النظر ، الذى فات الكاتب أن يتذكره ، فهو أن إبراهيم عقب اختبار الذبح (الذى كان بإسحاق كما يقول) لم يكن فى حاجة إلى " مكافأة " تكثير النسل ، لأنه حصل على الوعد بها من قبل " مجانا " ، منحها له الكاتب دون مناسبة ، بل دون ابتلاء تطير له النفس شعاعا، حين أراد - وهو يمهد لتفسير اسم إبراهيم - النص على كثرة نسله ، فقال فى الإصحاح الخامس عشر : " فإذا كلام الرب إليه قائلا : لا يرثك هذا . بل الذى يخرج من أحشائك هو يرثك . ثم أخرجه إلى خارج وقال انظر إلى السماء وعُدّ النجوم إن استطعت أن تَعُدَّها . وقال له هكذا يكون نسلك . فآمن بالرب فَحَسِبَهُ لَهُ براً " (تكوين١٥/٤ - ٦) ، أى قالها الرب لإبراهيم جازما قاطعا لا تحتاج إلى مزيد تأكيد ، فما الداعى للمكافأة بها على اجتياز "البلاء المبين" ؟ ثم ينتقل الكاتب إلى الإصحاح السابع عشر ، يوم كان إبراهيم ابن تسع

وتسعين ، يريد توقيت تعديل الاسم من "أبرام" إلى "أبراهام" ـ ولم يولد بعد إسحاق ـ على ما مر بك فيقول إن الرب تراءى لإبراهيم يكرر له العهد (أى العهد بتكثير النسل) فيقول له : " أما أنا فهو ذا عهدى وتكون أبا لجمهور من الأمم . فلا يدعى اسمك بعدُ أبرام ، بل يكون اسمك إبراهيم (أبراهام فى النص العبرانى) ، لأنى أجعلك أبا لجمهور من الأمم . وأثمِّرك كثيرا وأجعلك أمما " (تكوين ١٧/٤ ـ ٦) . أفلم يؤمن من قبل إبراهيم بالوعد الأول الذى فى الإصحاح الخامس عشر ، وحُسِبَ لَهُ ذلك بِراً ، فلم التكرار ولم يحدث من إبراهيم شىء يَنُمُّ عن تشككه فى ذلك الوعد ؟ وما الذى فعله إبراهيم ها هنا حتى يكافأ عليه بالتلويح من جديد بوعد تكثير النسل ، بل ما الذى يبرر علة تغيير الاسم من " أبرام " إلى " أبراهام" فجأة دون مناسبة ودون مقدمات وقد بلغ من الكبر عتيا ؟ أليس ها هنا موضع الحديث عن اختبار الذبح ، فيكون تغيير الاسم مكافأة على اجتياز الاختبار؟ ولكن إسحاق لم يكن قد ولد بعد ، والكاتب يريد أن يخصه هو من دون إسماعيل بهذا الشرف ، فيقتطع اختبار الذبح من الإصحاح السابع عشر ويحشره حشرا فى الإصحاح الثانى والعشرين ، بعد ما ولد إسحاق وشب . ونسى الكاتب أنه فى الإصحاح السابع عشر تنبأ لإبراهيم بأنه سيكون له من سارة زوجته ابن (أى إسحاق) منجابٌ كثيرُ النسل : " وأباركها وأعطيك أيضا منها ابنا . أباركها فتكون أَمَمَاً وملوكُ شُعوبٍ منها يَكُونون " (تكوين ١٧/١٦) فكيف يصدق إبراهيم الرؤيا بذبح إسحاق صبيا يافعا لم يُنجِب بعد ؟

على أن اقتطاع اختبار الذبح من الإصحاح السابع عشر (كيلا يكون بإسماعيل) وردَّهُ إلى الإصحاح الثانى والعشرين (كى يولد إسحاق ويشب) ، يترك الكلام فى الإصحاح السابع عشر قلقا ، إذ لا معنى لأن يقال لإبراهيم وهو فى سن تسع وتسعين : لا يدعى اسمك بعد أبرام .....، أى أن اسم " أبرام " لم يعد يليق بك. فلماذا ؟ ما الذى حدث له أو منه فى هذه السن كى ينبو عنه اسم " أبرام " ؟ إنه بلا شك اجتياز اختبار الذبح ، أى البلاء المبين الذى كان بإسماعيل ولم يكن بإسحاق الذى لم يولد بعد . ولكن الكاتب كما مر بك لا يريد ذلك ، فماذا يفعل ؟ تحايل على سد الثغرة فجعل لتكرمة إبراهيم باسمه الجديد مقابلا يلتزم به فى نفسه وولده ، وهو عهد الختان . ولكن الكاتب يعلم أن الختان من سنن الفطرة ، هُدِىَ إليه إبراهيم كما هدى إليه المصريون من قبل . ويعلم أيضا أنه لا معنى لربط الختان بكثرة النسل ،

فماذا يفعل ؟ افتعل للختان رمزا غليظا ، يخرج به عن أصله كقاعدة من قواعد النظافة الجسدية ، ليصبح كالوسم ، تُوسم به الماشية علامة على الانتماء والملكية : "أما الذكر الأغلف الذى لا يُخْتَنُ فى غُرْلَتِهِ فتقطعُ تلك النفسُ من شعبها . إنه نكث عهدى" (تكوين ١٤/١٧) . وكان " بولس" ـ رسول الحواريين إلى أوربا ـ قد فَطِنَ من بعد إلى أن تعليق الدخول فى حظيرة إبراهيم على هذا الشرط الغليظ ـ شرط الختان ـ قمين بأن يقطع " نسل " إبراهيم لا أن يكثِّرَ نسله كما تقول النبوءة التى فى سفر التكوين ، فقال بعدم وجوبيته . فعدل عنه المسيحيون جميعا ، إلا من ولدوا بأرضٍ ورثت الختانَ فطرةً ، ولم ترثه ديانة (١) .

ولكن المعضلة لا تزال ماثلة أمام الكاتب : ها هو فى الإصحاح الثانى والعشرين يوقع اختبار الذبح على إسحاق كما مر بك ، فماذا بقى فى جعبته من جائزة يكافىء بها برِّ إبراهيم حين اجتاز بنجاح لا نظير له هذا الاختبار الفذ ؟ ليس فى ذهنه إلا جائزة " تكثير النسل " يطنطن بها ، لا يسأم ولا يَمَل ، ناسيا أن إبراهيم يحمل على صدره هذا الوسام من قبل بمقتضى اسمه الجديد ـ الذى فسره بالمنجاب الكثير النسل ـ وبمقتضى عهد الختان . ولكن الكاتب لا يعبأ بذاكرة قارئه كما مر بك ، فَحَسْبُكَ اللهُ ونعم الوكيل .

بل ليس فى كثرة النسل كما تعلم مجدٌ لأحد، حتى يجازى بها الله برِّ إبراهيم . فضلا عن أن هذه النبوءة لم تتحقق إن أردت نسل إبراهيم عبر إسحاق ، كما قالها سفر التكوين بالنص ، خطابا من الله عز وجل لإبراهيم : "بإسحق يُدْعَى لك نسل" (تكوين ١٢/٢١) .

ليست أبوةُ إبراهيم هى أبوةَ " الناسل " ، وإنما هى أبوةُ " الإمامة " .

ولو قد فطن كاتب سفر التكوين ـ وفطن من بعده علماء التوراة ـ إلى هذا المعنى الجليل فى اسم إبراهيم عليه السلام ، لعضُّوا عليه بالنواجذ . ولكن "ألهاهم التكاثر" ، عقدة اليهود فى كل عصر: أراد الكاتب مجده هو ومجد شعبه ـ إن كان فى كثرة النسل مجد ـ ولم يطلب مجد إبراهيم، فأراد الأب المنجاب "الناسل" ، ولم يرد الأب "الإمام" .

---

(١) شأن المصرى المسيحى ، على سبيل المثال .

قال المسيح عليه السلام فى تقريع هؤلاء، ينص على أبوة الامامة: " لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم . ولكنكم الآن تطلبون قتلى ، وأنا انسان قد كلمكم بالحق الذى سمعه من الله [١]. هذا لم يعمله إبراهيم" (يوحنا ٨/٣٩ ـ ٤٠) .

وقالها القرآنُ أيضا فأوْجَزَ وأبْلَغ : { **إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى** } (آل عمران :٦٨) .

وليس بعدَ هذا شرفٌ لإبراهيم عليه السلام ، النبىُّ الإمام ، صلواتُ اللهِ وسلامهُ على جميع رسله وأنبيائه ، وعلى كل من تَبِعَهُم بإحسان .

---

(١) ما فتىء المسيح ، وكأنما يتنبأ بما سيكون من بعده ، ينص على بشريته : إنسان يوحى إليه . ولكنك لا تهدى من أحببت ، بل يهدى الله لنوره من يشاء .

(٢٤) لــوط

" لوط" فى القرآن هى نفسها "لوط" فى التوراة ، لا فرق بينهما فى الكتابة ، ولا فرق أيضا بينهما فى النطق إلا أن لفظة " لوط" العبرية ـ الآرامية ينطق فيها المد لا بالواو ، وإنما بالضم ، مثلها مثل " يُوم " العربية العامية ، أو bought الإنجليزية .

أما " لوط " العبرية فهى من الحجاب والخفاء والستر ، تشتقها من الجذر العبرى " لأَطْ / لُوطْ " ، وقرينه العربى " لَطٌّ " ، وأيضا " لاطَ / يلُوطُ / لَوْطاً " ، بمعنى سَتَرَهُ وأخفاه . " لوط " العبرية إذن مصدر بمعنى الحجب والستر ، وأيضا اسم بمعنى حجاب .

إن نطقت " لوط " العبرية مَداً بالواو ، مثل لوط فى القرآن ، فهى على زنة اسم المفعول فى العبرية، والمعنى محجوبٌ مستور. وإن نطقتها مَداً بالضم (مثل "يُوم" العربية العامية) كما فى التوراة ، فهى على زنة المصدر فى العبرية ، والمعنى سَتْرٌ وحجاب .

من ذلك فى العبرية المعاصرة قولهم عن الشىء غـيَّـبَـهُ الضباب : "لُوط بِعَرافِل" أى "لِيطَ بضباب" ، و "عَرافِل" عبرياً يعنى الضباب .

❑❑❑

فى العبرية أيضا " لُوط" ، بنفس نطق اسم نبى الله لوط فى التوراة ، ومعناها فى العبرية "لاذَن" ، ذلك الصمغ " الراتينجى" الذى يُعْلَكُ أو يُستعمل عطرا أو دواء ، صاغته العبرية على الراجح من معنى اللزوق والعلوق الذى بقى فى " لَطٌّ " و " لأَطَ " العربيين ، وضاع من الجذر العبرى " لاط/ لوط" .

وفى السريانية كذلك "لوط" أخرى معناها "فُسْتُق"، وبعيدٌ أن يكون اسم "لوط" منه ، لأن اللغة السريانية لم تولد إلا بعد لوطٍ بقرونٍ وقرون .

على أن علماء العبرية لا يفسرون اسم "لوط" باللاذَنِ أو الفستق، وإنما يفسرونه بالستر والحجاب ، فهو حجابٌ أو محجوب ، وبهذا المعنى نفسه فسره القرآن .

وغيرُ بعيدٍ أن لوطاً عليه السلام لم يكن هذا اسمه ، وإنما شُهِرَ به عشية البطشة الكبرى بالقرية التى كانت تعمل الخبائث ، رمزاً لآية طَمْسِ أعينهم عنه ، وخروجه من بينهم بِقِطْعٍ من الليل ، فى " ساتر" الله عز وجل .

❑❑❑

أما مفسرو القرآن (راجع تفسير القرطبى للآية ٨٠ من سورة الأعراف) فقد قال الكثرة بعجمة هذا الاسم ، ولم يتصدوا لتفسيره . ولكن كان منهم (الفرّاء) الذى حاول تفسيره من العربية ، إلا أنه أخطأ معنى الستر والخفاء الذى فى "لاط" العربى ، وتعلق بمعنى اللصوق والعلوق (وهو الأشهر فى " لَطٌ " و " لاَطَ " العربيين) فقال إنه من قولك " هذا أَلْيَطُ بقلبى " يعنى ألصق بقلبى ، أى أَحَبُّ إلىَّ . وهو لم يفطن إلى معنى الخفاء والاستتار فى هذا الجذر العربى لأنه بادىء بدء لم يَقِسْهُ على قرينه العبرى ، فأخطأ ولم يُصِبْ .

لم يكن بين يدى مفسرى القرآن وقتئذ ذلك المنهج الذى هدانا الله إليه بفضل منه ونعمه : تفسيرُ العَلَم الأعجمى فى القرآن بالقرآن . فالحمدُ لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

❑❑❑

فسر القرآن اسم " لوط" عليه السلام بأدوات ثلاث : فسره بالتعريب ، وفسره بالمقابلة ، وفسره أيضا بالسياق العام ، أى بالتصوير :

فسره بالتعريب ، لأن " لُوط" نفسها تُفْهَمُ عربياً على أنها اسم فُعْلٌ بمعنى مفعول ، من لاط/ يلوط/ لَوْطا ، كما تقول مثلا "جُعْل" بضم فسكون وتعنى "مجعول" ، من جَعَلَ / يَجْعَلُ/ جَعْلا . فهو المستورُ المحجوب ، أى " الذى لِيط" . وهو تعريبٌ وليس ترجمة ، لأن " لوط" بضم اللام لم تُسمع من العرب . ولكنه تعريبٌ مُفَسِّر ، إن تَمَعَّنْت .

وفسره بالمقابلة ، أى بالضد من معناه كما مر بك ، فى مثل قوله عز وجل على لسان لوط: { **قال إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون** } (الحجر : ٦٨) ، وفَضَحَهُ

يعنى هَتَكَ ستره . وأيضا فى قوله عز وجل على لسان لوط يزجر قومه : { **ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون !** } ﴿النمل : ٥٤﴾ ، أى أتأتون الفاحشة علانيةً لا تستترون ! وكان الكفَرةُ الفجرة يتلاوطون علنا ، لا يستتر بعضهم من بعض ، كما أخبر الله عز وجل على لسان لوط فى خطاب قومه : { **وتأتون فى ناديكم المنكر** } ﴿العنكبوت : ٢٩﴾ .

وفسره أيضا بالتصوير ، أى بالسياق العام ، فى إنجاء اللهِ لوطاً من قومه قُبَيْلَ البطشةِ الكبرى بالقرية التى كانت تعمل الخبائث . وقد فَصَّلنا القولَ فى هذا عندما اتخذنا من اسم " لوط" مثالا للتفسير بالتصوير فى الفصل الثالث (٥) من هذا الكتاب ، فارجع إليه فى موضعه ، كراهة أن نثقل عليك بالتكرار .

(٢٥) إسماعيـل

" اسماعيلُ " فى القرآن هى تعريبُ " يِشْمَعِيل " العبرية فى التوراة .

وهى فى العبرية على المزجية من (يِشْمَعْ + إيل)، ومعناها الحرفى "يَسْمَعُ الله" .

وقد مر بك أن العبرية تستخدم المضارع وتريد اسم الفاعل منه ، فيكون معنى هذا الاسم " اللهُ سميعٌ " ، أو "سميعٌ هو الله " .

وسفر التكوين لا يحدثك بشىء عن مناسبة هذه التسمية ، لأن غاية همه بنو إبراهيم عبر إسحاق، لا يهتم لشىء من أمر إسماعيل، إلا شذرات تجىء عبر السياق.

ولكنك تجد مناسبة هذه التسمية فى القرآن .

فقد مر بك أن إبراهيم عليه السلام ، حين انقطع ما بينه وبين أبيه وقومه ، خرج مهاجرا إلى ربه يدعوه :{ **رب هب لى من الصالحين** } (الصافات :١٠٠) ، فاستجاب له عز وجل بالبشرى : { **فبشرناه بغلام حليم** } (الصافات : ١٠١) ، أى بإسماعيل ، لا يصح أن تقول بإسحاق ، لأن إبراهيم دعا بها لحظة خرج مهاجرا إلى ربه لا يصحبه إلا زوجُهُ سارة وابن أخيه لوط ، دعا بها وهو بعد " فتى يقال له إبراهيم " (راجع الآية ٦٠ من سورة الأنبياء)، عقيمُ الزوجِ لم يُولَد لَهُ بعدُ إسماعيل، بل لم يَلْتَقِ بعدُ بهاجَرَ أَمَه، التى أهداها إليه ملكُ مصر بعد سنواتٍ من التَّطْوافِ والتَّرْحال ، كما تقرأ فى سفر التكوين .

بشَّر اللهُ عز وجل إبراهيمَ بهذا الغلام الحليم ولم يستجب له من فوره ، وإنما أرجأ الاستجابة إلى أجل مُسَمَّىً عِنْدَه ، يَبتلى صبرَ إبراهيم . كان مقدوراً لإسماعيلَ بكرِ إبراهيمَ ألا يجىءَ من زوجه سارة الآرامية ابنة عمه ، وإنما من هاجَرَ المصرية ، لِيَنْبُتَ فى وادٍ أصمَّ غيرِ ذى زرع عند بيتِ اللهِ المُحَرَّم ، كى تقامَ فيه الصلاة : {**ربنا ليقيموا الصلاة**} (إبراهيم : ٣٧) ، ولو كانت سارة أم اسماعيل لما ارتضت فراقَه،

إلا أن تَصْحَبَ ابنَها فى مُهاجَرِه فتفارقَ إبراهيم . ولكنه كان ابنَ ضرَّتها ، فَشَجَّعَت ولم تُمانع ، بل كانت هى التى أَوْحَت وألَحَّت ، فى رواية سفر التكوين .

صَدَقَ اللهُ إبراهيمَ وعدَه ببكره إسماعيل وقد ناهز إبراهيمُ ستاً وثمانين ، لم يَعُد بعدُ " فتىً يُقَال لهُ إبراهيم " ، وإنما وُلِدَ له إسماعيلُ وقد بَلَغَ به الكِبَر ، كما تجد فى قوله الله عز وجل على لسان إبراهيم : { **الحمدُ لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحق ، إن ربى لسميعُ الدعاء** } (إبراهيم ٣٩) .

ويتذكر إبراهيمُ يوم ولد له إسماعيلُ دعوةً منْهُ سبقت ، يومَ خرجَ مهاجرا إلى ربه وحيدا إلا من زوجه وابن أخيه، يسأل ربَّه النسلَ الصالح الذى يُعينُه على أمر الله، ويذكر أيضا بشرى الله إياهُ يومئذٍ " بغلام حليم" ، أرجأها الله إلى أجل مُسَمًّى عنده وقد نَيَّفَ إبراهيمُ على الثمانين ، فيعلم فوقَ علمٍ أن الله عز وجل ـ مهما طال الأجل ـ لا يُخْلِفُ وَعْدَهُ رُسُلَه ، وكأنه قال بالعبرية ، يُمَجِّدُ بها الله : يِشْمَعْ إيل ! أى سميعٌ هو الله ! فَسُمِّيَ بها إسماعيل (يشمع + إيل) .

❑❑❑

أما مفسرو القرآن (راجع تفسير القرطبى للآية ١٢٥ من سورة البقرة) وقد أجمعوا على عُجْمَةِ "إسماعيل" ، فلم يَفُتْهُم معنى "السمع" ومعنى "الله" فى (اسمع + إيل) ولكنهم فهموها بصيغة الطلب على الدعاء ، فقالوا إن معنى هذا الاسم هو "اسمع يا ألله" أو "اللهم فاسمع" .

ولا يصح هذا من وجهين : الأول لمخالفته معنى " يِشْمَع إيل " العبرية ، التى تُفيد حدوثَ السمع لا طلبه . والثانى لأن الذى يستمع اللهُ دعاءه فيستجيب، لا يقول: اللهم فاسمع ! ، وإنما يقول : قد سَمِعْتَ يا ألله !

وهذه هى آفةُ كُلِّ تفسيرٍ لاسم عَلَم بغيرِ لغة صاحبه .

أما إن أردتَ ترجمة "إسماعيل" إلى العربية ترجمة تَصِحُّ بها العَلَمِية، فالأقربُ إلى الصواب أن تقول " سَمِعَ اللهُ " ، على التقرير ، لا على الدعاء ، كما يتسمى الناس الآن بـ "جادَ اللهُ " ، "جادَ الحقُّ " ، وأشباهِهما .

❑❑❑

ولا ينقضى القولُ فى " إسماعيل " قبل حسم ذلك الإشكال الذى افتعله جَمْهَرةُ من المفسرين (راجع تفسير القرطبى للآيات ١٠١ وما بعدها من سورة الصافات) حول الشخص الذى كان به "البلاءُ المبين " فى القرآن : إسماعيل أَمْ إسحاق ؟

تَهَيَّبَ هؤلاء المفسرون تكذيبَ التوراة فى قولها إن " الذبيح " كان إسحاق بالاسم ، لا إسماعيل ، فلم يَرَوْا بأساً من متابعة التوراة على هذا القول ، لا سيما والقرآنُ لا ينص على الذبيح بالاسم ، ووازنوا بين تكذيب التوراة بغير صريح القرآن وبين رَدِّ أحاديثَ من مثل قوله صلى الله عليه وسلم : " أنا ابنُ الذبيحين ! " (إشارةً إلى أبيه عبد الله بن عبد المطلب وجده الأكبر إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام) ، فَرَدُّوا تلك الأحاديث .

والراجحُ عندى أن هؤلاء المفسرين " سَمِعوا " من أحبارِ يهود أن التوراة تنص على إسحاق ولا تنص على إسماعيل ، ولكنهم لم " يقرأوا " تفاصيل ذلك فى سفر التكوين نفسه ، على ما مر بك فى سياق تفسيرنا لاسم إبراهيم عليه السلام ، وإلا لَخلَصُوا كما خَلصنا نحن من تحليل كلام الكاتب نفسه فى الإصحاحات الخامس عشر والسابع عشر والثانى والعشرين إلى أن البلاء المبين ما كان ليصح إلا بإسماعيل ، وحيد إبراهيم قبل عام من مولد إسحاق، ولَجزَموا ـ كما جزمنا نحن ـ بأن " إسحاق " هاهنا مُقْحَمَةٌ على هذا السفر ، مدسوسةٌ من الكاتب أو الناسخ " ذى المصلحة " ، وأن تكذيبَ التوراة فى " إسحاق " ليس تكذيباً لله عز وجل فيما أنزل من التوراة ، وإنما هو تكذيبٌ لهذا الكاتب أو الناسخ .

والذى ينبغى التنبيهُ إليه أن التوراة ـ شأنها شَأْنُ الأناجيل التى بين يديك ـ ليست كُلُّها باعتراف الكتبة أنفسهم كلاماً من الله عز وجل على رسله وأنبيائه ، يتحصَّنُ بحجية الشيء المُوحَى به ، وإنما يتخلَّلُها الكثير ـ بل الأكثر ـ من كلام الكاتب والناسخ ، يصح حين يصح ، كما تصح أحاديثُ الرواة ، لا أكثرَ ولا أقل ، لا يُرَدُّ به حديث عن الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم ، ولا يُتَأَوَّلُ به قرآن .

والذى ينبغى التنبيهُ إليه أيضا أن المسلم ـ المأمور بتصديق التوراة والإنجيل بمقتضى قوله عز وجل فى وصف المتقين : { **والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك** } (البقرة ٤:) ـ إنما هو مأمورٌ بتصديق ما أنزلَ الله فيهما فحسب ، الذى صَدَّقَهُ القرآن والحديثُ الصحيح ، لا ما زاد فيهما الكاتبُ والناسخ.

ويترتب على هذا مباشرة أن مقولات سفر التكوين الذى بين يديك لا تُرَدُّ فحسب بصريح القرآن وصحيح الحديث ، وإنما تُرَدُّ أيضا بالنقد التحليلى المباشر ، على ما مر بك من القول فى صحة " حساباته " أو من وصفه "جنةَ آدم" التى بعدن "شرقا"، أو تفسيره معنى "بابل" بالبلبلة، الخ. لو التزمتَ تصديق هذا الكاتب فى كلِّ مقولاته، فأوجبتَ على نفسك تصديقَه فى أن " البلاءَ المبين " كان بإسحاق لا بإسماعيل ، لَوَجَب عليك أيضا تصديقُه فى شناعاتٍ لا تصح فى " نصٍ مقدس " ، من مثل زِنَى ابنتى لوط بأبيهما على ما مر بك ، أو من مثل انخلاع حُقِّ فخذ يعقوب (تكوين ٢٦/٣٢) وهو " يُصارِع " الله عز وجل ، فى محاولةٍ بائسة لتفسير معنى شُهْرَةِ "إسرائيل"، وتعليل تحريم بنى إسرائيل أكل " عرق النسا " الذى على حُق الفخذ .

أما أن القرآن لم ينص صراحة على أن " البلاء المبين " كان بإسماعيل ، لا بإسحاق ، فهذه زلّة لا يصح أن يقع فيها مفسرٌ للقرآن جديرٌ بهذا الاسم : يكفيك أن تتلو الآيات من ٩٩ إلى ١١٢ من سورة الصافات ، كى تعلم أن إبراهيم عليه السلام بُشِّر غداة خروجه مهاجرا إلى ربه بغلام حليم ، وأن هذا الغلام نفسه بلغ معه السعى ، فكان به " البلاء المبين " ، وأن الله عز وجل عقَّب على اجتياز إبراهيم هذا الاختبار الفذ بأن بَشَّرَ إبراهيم بغلام آخر يُولَدُ له ، هو إسحاق : { **وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين** } ﴿الصافات : ١١٢﴾ [١] ، فكان إسحاقُ بعضَ " جزاء المحسنين " الذى جازى به الله برَّ إبراهيم ، ولم يكن هو بداهة الذى كان به البلاءُ المبين ، وإنما كان البلاءُ المبينُ بإسماعيل .

وهذا وحدَه يُصَحِّحُ الأحاديث المروية عن أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق ، أيّاً ما قلت فى إسناد تلك الأحاديث .

وقد نَبَّهَ على هذا كُلِه أو معظمه أجِلاَّءُ المفسرين الذين قطعوا بأن الذبيح هو إسماعيل .

---

(١) ربما أحرجت هذه الآية المفسرين الذين قالوا إن الذبيح هو إسحاق ، فتمحَّك بعضهم بتأويلها على أنها بشرى بالنبوة لإسحاق الذبيح . ولا يصح هذا من لغوى حاذق ، لأن البشرى فى الآية تتعدى بالباء ، فهى واقعة بإسحاق لا بالنبوة . وإنما النبوة والصلاح فى الآية وصفان للإبن المبشر به .

ونحن نُضيف إلى هذا دليلا آخر من القرآن : وردت " غلام حليم " مرة واحدة فى القرآن {الصافات: ١٠١} وصف بها الله عز وجل الغلام الذى كان به البلاءُ المبين، لم يخص بها غيره من أبناء إبراهيم . ووردت " غلام عليم " فى القرآن مرتين ، يَخُصُّ بها إسحاق بالنص : { **قالوا لا تَوْجَلْ ؛ إنا نبشرك بغلام عليم** } (الحجر : ٥٣)، {**فأوجس منهم خيفة ، قالوا لا تخف! وبشروه بغلام عليم**} (الذاريات: ٢٨)، والمَعْنِىُّ فى الآيتين هو إسحاقُ بلا خلاف . أفلا تدلك هذه المغايرة بين "عليم" و"حليم" على أن البلاء المبين لم يكن بالغلام "العليم" (إسحاق)، وإنما كان بالآخر، الغلام "الحليم" الذى فى سورة الصافات ، فهو إذن " إسماعيل " ؟

كذلك وردت "صادق الوعد" مرة واحدة فى القرآن ، خص بها الله عز وجل إسماعيل وحده دون غيره من النبيين والمرسلين : { **واذكر فى الكتاب إسماعيل ، إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا** } (مريم :٥٤} . ألا تجد فى هذا إشارةً بليغة إلى صِدق إسماعيلَ وعده أباهُ بالصبر على الذبح إذعاناً لأمر الله حين شاوره إبراهيم فى رؤياه :{ **قال يا أبت افعل ما تؤمر ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين** } (الصافات :١٠٢) ، حتى " تَلَّهُ للجبين " ، فَأىُّ صبرٍ كان !

كان الذبيحَ إسماعيل ، لا مَحِلَّ للقول بخلافه ، ولا مجالَ للتردد فيه متابعةً لقول أهل الكتاب .

وإذا كان الذبيحُ هو إسماعيل - إحقاقا للحق لا غير - فليس معنى هذا أن إسحاق أدنى منزلةً فى سُلَّمِ الأنبياء من إسماعيل ، صلواتُ الله وسلامُه على جميع رسله وأنبيائه ، بل الكُلُّ فى كرامة الأنبياء عند الله سواء ، وهو أعلم ببلاء أنبيائه . حَسْبُكَ قوله عز وجل فى الأنبياء من ذرية إبراهيم، وفيهم إسماعيلُ وإسحاق : {**أولئك الذين هَدَى الله ، فَبِهُداهم اقْتَدِهْ** } (الأنعام : ٩٠) .

□□□

أما التفسيرُ القرآنى لاسم " إسماعيل " ، وهو " يِشْمَعيل " عبرياً ، ومعناه كما علمت "سمع الله " أو "سَميعٌ هو الله " ، فأنت تجد هذا التفسير فى قوله عز وجل على لسان إبراهيم : { **الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحٰق ، إن ربى لسميع الدعاء** } (إبراهيم : ٣٩) .

وتجده فى قوله عز وجل على لسان ابراهيم أيضا : { **وإذ يرفعُ إبراهيمُ القواعدَ من البيت وإسماعيل ، ربنا تَقَبَّلْ منا ، إنك أنت السميع العليم** } (البقرة :١٢٧) .

(٢٦) إسحاق

إسحاق (وترسم اسحق فى المصحف) هو الابنُ الثانى لنبى الله إبراهيم عليهما السلام ، رُزِقَ به من زوجِهِ سارَةَ وقد ناهزت التسعين ، عجوزا عقيماً قد أيأستها السنون، وإبراهيم يومئذ قد بلغ المائة ، فكان إنجابُهما إسحاق فى تلك السن آيةً من آيات رحمة الله بإبراهيم وأهلِ بيت إبراهيم : { **قالت ياويلتا ! أألد وأنا عجوزٌ وهذا بَعْلى شيخا ؟ إن هذا لشىءٌ عجيب . قالوا أتَعْجَبين من أمْر الله ؟ رحمةُ الله وبركاتُه عليكم أهْلَ البيت! إنه حميدٌ مَجيد**} (هود : ٧٢ ـــ ٧٣).

وإسحاق عليه السلام سَمَّتْهُ الملائكة ، لم تُسَمِّه أمُّه ولم يُسَمِّه أبوه كما يقول سفر التكوين . بل سَمَّتِ الملائكةُ أيضا "يعقوب" بن إسحاق ، ولم يولد بعد إسحاق . تجد هذا فى قوله عز وجل : { **وامرأته قائمةٌ فضحكت ، فبشرناها بإسحق ، ومن وراءِ إسحقَ يعقوب** } (هود : ٧١) .

□□□

وقد قالت الكثرة من مفسرى القرآن (راجع تفسير القرطبى للآية ١٣٣ وما بعدها من سورة البقرة) بعجمة " إسحاق " ، ولم يتصدوا لتفسيره . إلا من شَذَّ فحسبَهُ من العربية ، يشتقه من الجذر العربى "سحق" بمعنى بَعُدَ أشَدَّ البُعد . وليس هذا بشىء ، لأنهُ يُفَسِّرُ الاسم بغير لغة صاحبه ، فلا تلتفت اليه .

□□□

"إسحاق" فى القرآن هى تعريب " يِصحاق " فى التوراة . وهى صيغة المضارعة فى المفرد الغائب من الجذر العبرى " صَحَقْ " ، وقرينه فى العربية الجذر العربى "ضَحِكَ " . "يِصحاق " العبرى إذن يعنى " يَضْحَك " ، لا يُراد منه الفعل ، وإنما يراد منه الفاعل ، ومن ثم فإن معنى " اسحاق" ، وهو " يِصْحاق " عبريا ، الضاحك أو الضَّحُوك . وقد سَمَّى العربُ بمعناه على المبالغة فقالوا "الضَّحَّاك ".

والتسمية بالفعل المضارع يُراد منه اسم الفاعل ، شديدةُ الشيوع فى العبرية كما مر بك فى موضعه : رأيتَ هذا فى " يِشْمَعِيل " (إسماعيل) ، وتراه الآن فى "يِصْحاق " ، أى إسحاق . وستجده كثيرا فيما يلى من أعلام التوراة .

على أن لهذا نظائرَ بَقِيَت فى العربية كما مر بك ، تجدها فى أمثال "يزيد " وغيرها من أعلام الأشخاص والمواضع .

والأصلُ فى هذا كما مر بك أن الفعل المضارع يُفيد الحال كما يفيد الاستقبال ، أى " يَضْحَك" وسيظل ، فهو " ضاحكٌ " و " ضحوك " .

❑❑❑

أما التفسير القرآنى لهذا الاسم العلم ، فأنت تجده فى قوله عز وجل : {**وامرأته قائمةٌ فَضَحِكَت ، فبشرناها بإسحق** } (هود :٧١) ، أى ضَحِكَت سارَةُ وهى قائمة تخدم ضيف إبراهيم من الملائكة عجبا وحياء وهى تسمع من الملائكةِ بُشرى لإبراهيم بمولودٍ يُولَدُ منها ، وهى فى تلك السن عجوزٌ عقيم . وكأن ضَحِكَها كان مناسبةً يُصاغُ منها اسمُ المولود المُبَشَّر فقيل لها أَضَحِكْتِ ؟ بُشراكِ إذن " بالذى يَضْحَك " ، وهى " يصحاق " ، اسم نبى الله إسحاق عليه السلام .

❑❑❑

وربما قلت فلماذا جاءت " إسحاق " فى القرآن بالسين ، ولم تجىء على أصلها بالصاد " إصحاق " ؟

قال هذا بالفعل بعضُ المستشرقين ، مماحكةً ، كدأبهم فى معارضة القرآن .

ولكنك تندهش إذ تعلم أن "يصحاق " هذه تجىء فى عبرية التوراة بالسين كما تجىء بالصاد ، والصادُ أغلب، وأن "سَحَقْ" و"صَحَقْ" فى المعجم العبرىِّ صنوان. وفى اللغة العربية تتعاقب السين والصاد مثل «السراط» و «الصراط» وقد قرىء بهما.

ولعلك تدرك معى أن تتابع الصاد والحاء والقاف فى " يصحاق " قعقعةٌ تَنْبُو عنها موسيقى القرآن ، لذا فقد عرب القرآنُ " إسحاق " عن " يِسْحاق " ولم يعربها عن " يِصْحاق " عالماً أنه لم يُبْعِد ، لوجود كلا الرسمين فى عبرية التوراة .

لا يُشَادُّ القرآنَ أحَدٌ إلا غَلَبَه القرآن ، وسبحان العليم الخبير .

(٢٧) يعقـوب

يَعْقُوبُ هو حفيد إبراهيم من ابنه إسحاق عليهم جميعا أزكى الصلاة وأتم التسليم .

وهى فى التـوراة " يَعَقُوب " بفتح الياء والعين ، والمد بالضم لا بالواو بعد القاف ، كما فى " يُوم " العربية العاميـة . عَرَّبها القرآن بخَبْنِ فتحة العين ، وإشباع المد بالواو ، فـهى على وزن " يَعْسوب" ، عظيمِ النحل ، [(١)] فى العربية .

أما " يَعَقُوب" العبرية فهى ـ كما لعلك حدست ـ صيغةُ المضارعة للمفرد الغائب من الجذر العبرى " عَقَب " ، وهو نفسه الجذر العربى " عقب" ، مَبْنًى ومعنى ، مضارعٌ يُرادُ منه اسم الفاعل كما مر بك . فمعنى "يعقوب " عبريا " العاقب " .

ومن دقيق التعريب فى القرآن، إتيانه بـ " يعقوب " العبرية على زنة "يَفْعُول" وهى بِنْيَةٌ تنفردُ بها العربية من دون أخواتها الساميات ، تُفيد المبالغة وتعظيم الشأن ، كما ترى فى "يَعْسُوب" عظيم النحل ، وكما ترى فى " يَعْبُوب" ، أى النهرُ عظيمُ العُبابِ ، شديدُ الجِريَة ، وغيرُهُما فى العربية كثير .

□□□

كان يعقـوب عليـه السـلام خيرَ عقبٍ لخيرِ سَلَف . شابَهَ أباهُ إسـحاقَ عليـه السـلام فى العلم، وشابَهَ جَدَّهُ إبراهيمَ عليه السلام فى الصبر على البلوى إيمانـا واحتسـابا . وصفَ القرآنُ إسحاق بالعـلم ، كما مَرَّ بك مـن قـوله عز وجل : {**قالوا لا تخف ، وبشروه بغلام عليم** } ﴿الذاريات : ٢٨﴾ ، وقال عز وجل فى يعقوب : {**وإنه لذو علمٍ لما علَّمناه ، ولكن أكثرَ الناس لا يعلمون** } ﴿يوسف : ٦٨﴾ .
وقال إمامُ المتوكلين إبراهيمُ عليه السلام يَفْرِقُ بين الضلال والايمان ، يَرُدُّ على الملائكة

---

(١) اليعسوب يعنى "ملكة النحل"، ظنها العرب ذكرا لضخامتها وسط دقاق النحل فى الخلية. واليعسوب لغة يعنى الكثير "العَسْب"، والعَسْب هو "ماء الفحل"، ويُكنى به أيضا عن النسل والولد.

أنْ ظنوا به القُنوط : { **قال ومَنْ يَقْنَطُ من رحمة ربه إلا الضالون ؟** } (الحجر : ٥٦) وقال مثلَها يعقوبُ عليه السلام : { **قال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله، وأعلمُ من الله مالاتعلمون . يا بَنِىَّ اذهبوا فتحسسوا من يوسُفَ وأخيه ولا تيأسوا من رَوْحِ الله إنه لا ييأس من رَوْحِ الله إلا القومُ الكافرون** } (يوسف : ٨٦ ـــ ٨٧) .

□□□

ابتلى اللهُ صبر يعقوب ، كما ابتلى من قبل صبر جدِّه ابراهيم . ابتلاهُ بخاله لابان (تكوين ٢٩/١٥ ـ ٢٩) الذى استأجره فى أرضه وغنمه سبعَ سنين ليزوِّجَهُ من ابنته الصغرى راحيل ، أثيرة يعقوب . وإذا هو لَيْلَةَ الزِّفَافِ يَغُشُّه فيدفع إليه بابنته الكبرى ليئة (واسمها مشتق من " اللأواء"!) فيضطره إلى خدمته سبع سنين أخرى ليزوجه عليها أثيرتَهُ راحيل . ويصبر يعقوب ، حتى يجمع بين الأختين [١] : ليئة وراحيل . فكان له من راحيل أحبُّ بنيه : يُوسُفُ وبنيامين . ولكن هناءةَ يعقوبَ لاتدوم ، لأن راحيل تجود بنفسها وهى تضع بنيامين ، فيحتسبُها يعقوب . ولكنه مُبْتَلَى فى بنيه ، مُبْتَلَى ببنيه : ينتزع منه أبناءُ ".ليئة " أحب بنيه ، يوسف ، بِكْرَ فقيدته راحيل ، يُلقون به فى غيابة جُبِّ ، ويغدون على أبيهم يستعذبون عذابه وهم يقصون عليه أن ما خشيه على يوسف منهم قد وقع : أتى الذئب على يوسف لحما وعظما فلم يُبقِ إلا القميص . ويالَهَوْلِ ما يَسْمَع !

ولكن العزيز الرحيم الذى سَلَّى يوسف فى غيابة الجب بقوله : { **وأوحينا إليه لَتُنَبِّئَنَّهُم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون** } (يوسف :١٥) ـ يعنى ستعيش يا يوسف حتى تُنَبِّىءَ إخوتَكَ هؤلاء بخسيس ما فعلوه ـ يُسَلِّى بها أيضا يعقوب ، فيقول : { **بل سَوَّلت لكم أنفسُكم أمرا فصبرٌ جميل ، والله المستعانُ على ما تصفون** } (يوسف :١٨) ، يستعينُ اللهَ الصبرَ على فراق يوسف ، ويصابرُ بها النفس أيضا على خيالاتِ ما يصفون من افتراس الذئب إياه .

كان فَقْدُ يوسف ذُروةَ مصائب يعقوب ، لا يُصاب من بعده بمصيبة إلا

---

(١) هذا يذكرك بالاستثناء من تحريم الجمع بين الأختين فى قوله عز وجل : { إلا ما قد سلف } (النساء :٢٣} ، يدخل فيه ما كان من جمع يعقوب بين ليئة وراحيل .

وتَنْكَأ وجيعتَهُ فى يوسف ، فيقول : يا أسفا على يوسف ! يتسلّى بالمصاب الأكبر عن المصاب الأصغر . قالها يعقوب وهو يسمع من بنيه هؤلاء فجيعتَهُ فى حِبِّهِ الثانى بنيامين ، وقد احتبسه ذلك "العزيز" فى مصر ، يَسْتَرِقُّهُ عبداً فى سَرِقة صواع الملك . ذهب الذئبُ بيوسف ، بل كان الذئبَ إخوتُه . وضاع بنيامين . أضاعه هؤلاء أيضا الذين راودوا عنه أباه ، ليفرِّطوا فيه مثلما فرَّطوا من قبل فى يوسف ! فمن له بيوسفَ وأخيه ! ويتمتم الشيخُ الذى أبْلَته الأحزانُ والسنون وما بَلِىَ له صبر : { **فصَبْرٌ جمِيلٌ ، عسى اللهُ أن يأتِينى بهم جميعا ، إنه هو العليمُ الحكيم** } (يوسف : ٨٣) .

أفكان يعقوبُ يعلم ـ يقيناً ـ أن الذئبَ ما أكَلَ يوسف ، وإنما وُورِىَ عنه فى غيابة مجهولٍ لا يعلمه ؟ لو أن الموتَ اختطف يوسف أمام عينيه ، فاحتسبه عند الله كما احتسب أمه راحيل من قبل ! إذن لشفاه اليأسُ من لواعج الأمل ، ومن هواجس الليل والنهار . وبنوه هؤلاء ، الذين فجعوه بيوسف ليخلو لهم وجه أبيهم ، هاهم أولاء يغدون ويروحون أمامه، تنضح أعينهم بما فعلوه ، فلا يخلو لهم منه إلا وجهٌ كسيف ، ولسانٌ لا يفتأ يذكر يوسف : تُرى أين أنت الآن يا يوسف ؟ أطعِمْت ؟ أدَفِئْت ؟ أىُّ ذئبٍ آخر يترصدُك ؟

وتمضى السنونَ بيعقوبَ تزيدُ فى أحزانه ، ولكنها لا تنتقصُ من أمله فى لقاء يوسف . وكأنما كانت فجيعتُه فى بنيامين علامةً من الله على قُرب انتهاء عذابه ، فيقول : { عسَى اللهُ أن يأتينى بهِمْ جميعاً } ! قد صُرِفَ بصرهُ عما حَولَه ، لا يَرى من بعد إلا يوسفَ وأخاه ، إلى أن يأتيه البشيرُ فيرتد بصيرا ، ويقول لمن أنكروا عليه : { **ألَمْ أقلْ لكم إنِّى أعلمُ مِنَ اللهِ ما لا تعلمون** } (يوسف : ٩٦) .

نعم .. كان يعقوبُ طوال تلك السنين " يَعْلَمُ " . وهذا هو بلاؤه الأعظم .

□□□

مر بك أن الملائكة هى التى سَمّت يعقوب ، يوم سمّت من قبل أباه إسحاق . ولكن سفر التكوين يقص عليك أن يعقوب وُلِدَ مع توأم له ، هو " عيسو " ، فخرج "عيسو" أولا ، ثم خرج يعقوب ويده قابضة بعقب عيسو ، فدعى اسمه يعقوب (تكوين ١٢/٢٥ ـ ٢٦) ، يريد تفسير معنى يعقوب ، لا بأنه " العاقب " على أصل

اللفظ فى اللغة ، وإنما بأنه " القابض على عقب أخيه" ليرتب على هذا نبوءته بافتراق بنى إسحاق شعبين، شعبٌ يَقْوى على شعب ، وكبيرٌ يُستَعْبَدُ لصغير ، كى تكون لأبناء يعقوب (أى بنى اسرائيل) السيادةُ على كل من عداهم من أبناء إبراهيم المنحدرين من صلب ابنه إسحاق ، ولا يكون لغيرِهم البَتَّة فى " مواعيد " إبراهيم نصيب ، تلك المواعيد التى فهموها على أنها عهدٌ بتكثير نسل إبراهيم وإقطاعه " أرض غربته " ـ كل أرض كنعان ـ يعنى كل فلسطين ، ميراثا له ولنسله .

ولكن الكاتب يفطن إلى أن تكثير نسل إبراهيم قمينٌ "بتفتيت التركة" وتَوَزُّعِها بين "جماهير أمم" فبدأ بإخراج إسماعيل ونسله من هذا " الوعد " ليحصره فى إسحاق أبيهم .

وإذا إسحاق يُنْجِب توأمين يتصارعان "الميراث" : عيسو ويعقوب . ويعقوبُ أبوهم ، فلا مفر إذن من إخراج " عيسو" بدوره من " التركة " ، كى تخلص "الأرض" ليعقوب وبنيه . هنا يقص عليك الكاتب أن الله تراءى ليعقوب ، كما تراءى من قبل لوالدته " رفقة " وهى حامل بتوأميها عيسو ويعقوب ، ليحصر " مواعيد إبراهيم" فى يعقوب (وهو إسرائيل) دون غيره من نسل إبراهيم ، ولكن إشكالا يثور أمام الكاتب: ها هو عيسو يخرج من بطن أمه الأول ، يليه يعقوب . فعيسو إذن هو الأكبر ، أى بكر إسحاق ، والبكر عنده هو الوارث (فلا تدرى كيف فاته أن إسماعيل هو بكر ابراهيم بلا منازع فلماذا أخرجه من التركة ونَحَلَها إسحاق !) . يتذكر هذا فينص على أن الله هو الذى حرم إسماعيل بقوله لإبراهيم : بإسحاق يُدْعَى لك نسل ! أى لا نسل لك يُعْتَدُّ به يجىء من إسماعيل ، وإنما نسلُك المَعْنِيُّ هو نسلُك عبر إسحاق . فماذا يقول فى عيسو ويعقوب ابنى إسحاق ؟ افتعل قصة خروج يعقوب قابضا بيده على عقب توأمه عيسو ، رمزا لسيادة يعقوب على عيسو ، واشتق من هذا معنى اسم يعقوب ، وعزز هذا المعنى بتلك الرؤى التى تراءى فيها الله ليعقوب ووالدته رفقة ، ومنها قوله : "وكبيرٌ يُسْتَعْبَدُ لصغير"، أى أن عيسو البكر سَيُسْتَعْبَد لأخيه "الأصغر" يعقوب . وكأنما كان إسحاق النبى بمعزل عن تلك الرؤى ، أو تلك الصفقة التى تمت من وراء ظهره بين يعقوب ووالدته رفقة على حساب عيسو ، فإذا هو وقد قرب موته يستدعى إليه بكره عيسو ليعلن له انحصار التركة فيه ويمنحه بركته . وتعلم رفقة بذلك ، وكأنها ليست أم عيسو ويعقوب كليهما ، فتتحايل هى وابنُها يعقوب على

خداع أبيه إسحاق الذى كُفَّ بصرُه وضَعُفَت حواسُّه لتُنَكَّرَ له يعقوب فى ثياب عيسو . وينخدع نبى الله إسحاق فيجوز عليه هذا الغش (يكتبها الكاتب غيرَ مُتَوَرِّع ولا مُتَأثِّم) فينحل " التركة " يعقوب ظانا أنه عيسو ، ويمنح يعقوب بركته . وينسى الكاتب أن كل هذا الذى افتعله لا يغير من الأمر شيئا ، لأن إسحاق ما منح التركة والبركة إلا لبكره عيسو ، ولم يمنحهما يعقوب وإن تنكر فى ثياب أخيه ، وينسى أن "الوصية" ليعقوب باطلة بطلانا مطلقا لدخول الغش والتدليس . وينسى أخيرا أن نسبة الغش والخديعة لأنبياء الله كفرٌ بَواح يُكَبْكِبُ صاحبَه فى سواءِ جهنم ، فما بالك بكاتب وحيٍ تَظن به العصمة والقداسةَ والتنزيه ؟

أما نسبةُ الخطيئة والغش لنبى الله يعقوب ، ونسبةُ الغفلة لنبى الله إسحاق ، فهذا أمر لا يهتز له ضميرُ الكاتب ، فقد مَرَنَ عليه قَلَمُه يومَ سجل فى سفره أن نَبِىَّ الله لوطاً زنت به ابنتاه وأنجبتا منه ، وأما الجرأة على الله عز وجل فأنت لا تستعظم عليه شيئا بعد قوله إن الله عز وجل هبط يصارع يعقوب ليلة كاملة حتى الفجر ، ولم يقدر الله على يعقوب فضرب حُقَّ فخذه كى يطلقه يعقوب ، ولكن يعقوب الذى انخلع حُقُّ فخذه يتأبى على الله فيقول : لا أطلقك حتى تباركنى ! فباركه الله . إلى آخر تلك المُقَذّعات التى تَأنَفُ من قراءتها فى أساطير آلهة الأولمب ، فما بالك بقراءتها فى أسفارِ توراة يقال قد أوْحَى بها الله ؟

ولكن الكاتب لا يفوتُ ذكاءه أن مشروعية تلك الوصية تحتاج إلى تصحيح يرفع عنها عيب الغش والتدليس ، أى تحتاج إلى إقرار " لاحق" من إسحاق بأن التركة والبركة ليعقوب عينه ، الذى غشه وخدعه ، قد حَرِمَهُما عيسو . فيقص عليك أن عيسو وقد علم أن أخاه سلبه التركة والبركة " صرخ صرخة عظيمة ومُرَّةً جدا ، وقال لأبيه باركنى أنا أيضا يا أبى . فقال قد جاء أخوك بمكرٍ وأخذ بركتك " . قال عيسو لأبيه "أما بقيت لى بركة ؟ فأجاب إسحاق وقال لعيسو إنى قد جعلته سيدا لك ودفعت إليه جميع إخوته عبيدا وعضدتُه بحنطة وخمر . فماذا أصنع لك يا بُنَى ؟" ، قال عيسو لأبيه " ألك بركة واحدة فقط ياأبى ؟ باركنى أنا أيضا يا أبى . ورفع عيسو صوته وبكى . فأجاب إسحاق أبوه وقال له هو ذا بلا دَسَمِ الأرض يكون مسكنُك ، وبلا ندى السماء من فوق . وبسيفك تعيش . ولأخيك تُستَعْبَد " . [1] وكأنما هى

(١) راجع اقتباساتنا فى هذا الموضع على سفر التكوين (الإصحاح ٢٧) .

لعنة من إسحاق لا بركة ، صحح بها الكاتب الوصية ليعقوب ، فقد أصر عليها إسحاق ، واستسلم لها عيسو ، وأخذها يعقوب بمكر كما يقول الكاتب .

فعل الكاتب كل هذا ليحصر " مواعيد ابراهيم" فى يعقوب دون غيره من نسل إبراهيم . ولكنك تعلم أن هذه " المواعيد " لو كانت من عند الله لصدقت ، وهى لم تصدق بالمفهوم الذى ظنه كاتب سفر التكوين ، لأن الذى ورث الأرض عن أبيه إسحاق كان عيسو " المطرود " من التركة ، لا يعقوب الذى ارتحل ببنيه إلى مصر دون أن ينال نصيبا من فلسطين مع عيسو ، بل احْتُبِسَ هو وبنوه فى " ضيافة " ملوك مصر نحوا من أربعمائة وثلاثين سنة ، كما يقول سفر الخروج ، يُضافُ إليها أربعون سنة فى تيه سيناء . وعاد بنو إسرائيل (أى بنو يعقوب) إلى فلسطين بقيادة " فتى موسى" يشوع بن نون ، يجاهدون أهلها (ومنهم " الأدوميون " الذين يعزونهم إلى عيسو بن إسحاق) فى الحصول لأنفسهم عل رقعة من تلك الأرض ، قُدِّرَ لها على طول تاريخهم ، حتى فى أزهى عصور ملكهم ، عصر داود وسليمان ، أن تشمل "بعض" فلسطين ، لا " كل " فلسطين . وهم لم يحصلوا على تلك الرقعة بمقتضى صك " مواعيد " يعقوب ، وإنما حصلوا عليها حربا ، يُنصرون ويُخذلون : إن نصروا الله نصرهم ، وإن أفسدوا دمر الله عليهم وبدد شملهم ، كما قال عز وجل : { **إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وإن أسأتم فلها** } (الإسراء : ٧) ، حتى أجلوا عن فلسطين مرتين ، دامت أخراهما نحوا من ألفى سنة . فأين كانت " مواعيد " إبراهيم التى فى سفر التكوين : " وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك ، كل أرض كنعان ، مِلكاً أبديا " (تكوين ٨/١٧) ؟ فأى ملك هذا الذى كان ؟

لم يتحقق هذا الوعد كما ترى لا لإبراهيم نفسه ، أول موعود به ، ولا لنسله من حفيده يعقوب كما أراد الكاتب ، بل قل كما تمنى الكاتب ، الذى كتب هذا السفر لا على عصر موسى أو عصر ابراهيم ، وإنما كتبه فى أعقاب عصر داود وسليمان .

ولأن الله عز وجل إذا وعد أوفى ، لا يُخلِفُ وعدَهُ رُسُلَه . ولأن هذا الوعد لم يتحقق ، لامنقوصا ولا كاملا : لا على كل فلسطين (كل أرض كنعان) ، ولا على طول الدهر (ملكا أبديا) كما تنبأ الكاتب .

أما والأمرُ كذلك ، فلا مناصَ لك من أن تقطع جازما ـ آمناً مطمئنا ـ بأن هذا الوعد ليس من الله عز وجل ، وإنما هو من " أمانيِّ " الكاتب ، دسَّهُ على وحى

الله المنزل فى صحف إبراهيم وموسى : { **فويلٌ للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون** } (البقرة ٧٩) .

ركِبَ الكاتبُ الشديدَ الوَعْر ، وأجهدَ نفسَهُ كماترى فى حَصْرِ التَّركَة وتعيين الوارث . ولم يصحَّ لهُ هذا ولا ذاك ، وإنما وَرِثَ إبراهيمَ " الذين اتبعوا مِلَّةَ ابراهيمَ حنيفا " : وَرِثُوا الملة وورثوا الأرضَ جميعا .

كان ميراثُ إبراهيمَ عليه السلام هو المِلّةَ والإمامة ، أما الأرضُ فهى لله عز وجل ، يُورِثُها من يشاءُ من عباده .

على أن مواعيد الله عز وجل مشروطةٌ بشرائطها ، من نَكَثَ فإنما يَنْكُثُ على نفسه ، ولايظلم ربُّك أحدا .

قالها عز وجل لإبراهيم وهو يُنَصِّبُهُ إماماً للناس :{ **وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّهُ بكلماتٍ فأتمهُن قال إنى جاعلُك للناس إماما قال ومِنْ ذريتى؟ قال لا ينالُ عهدى الظالمين**} (البقرة : ١٢٤) . تَمَنَّى إبراهيمُ على ربِّه أن يجعلَ أيضا من ذريته خُلَفاءَ أئمّة ، فأقَرَّ الله عينَهُ بها واستثنى الذين ظلموا منهم .

وأسْوَأَ الظالمى أنفسهم الذين ينكُثون عهدَ الله وميثاقَه : أولئك ليس لهم عند الله عهد .

أراد سفرُ التكوين أن يكون معنى "يعقوب" هو الذى يَتَعَقَّب أخاه التوأم "عيسو" ، فيسلبه التركه والبركة ، وأراد الله عز وجل بيعقوب ـ الذى سمته الملائكة كما مر بك ـ أن يكون العاقب من جده إبراهيم ، صلواتُ الله وسلامُه على إبراهيمَ وآلِه .

❑❑❑

أما مفسرو القرآن (راجع تفسير القرطبى للآية ١٣٣ من سورة البقرة) فقد أجمعوا على عُجْمَتِه ، ولم يفسروه ، إلا من نقل عن أهل الكتاب رواية خروج يعقوب آخذا بعَقِب أخيه عيسو ، ففسروه بما فسره به سفر التكوين على معنى " الاعتقاب " ، لا "العقبى". ورد على هذا آخرون فقالوا إنه لا يصح لأن "يعقوب" أعجمى والاعتقاب والتعقب عربيان ، ولم يفطنوا إلى أن " عَقَب " العبرى يكافىء "عَقَب" العربى مبنى

ومعنى . ولم يَفُت هؤلاء المفسرون أن " اليعقوب " عربياً هى صِفَةُ الذَّكَرِ من طَيْرِ الحَجَل ، وقالوا أيضا إن هذا لا يصح لأن " يعقوب" أعجمى غير مصروف فى كل القرآن ، ولو كان عربيا على صِفَةِ هذا الطائر لصرف .

ولم يُنقَل عن هؤلاء المفسرين قولُهم - كما نقول نحن - إن " يعقوب " سمته الملائكة يوم سمت أباه إسحاق فى قوله عز وجل : { **وامرأته قائمةٌ فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراءِ إسحقَ يعقوب** } (هود : ٧١) .

□□□

أما التفسير القرآنى - مقصدنا الأول من هذا الكتاب الذى نكتب - فقد فسر القرآن معنى يعقوب بأداتين :

فسره بالتعريب ، لأن " يعقوب" عربياً تعنى " العاقب " على المبالغة وتعظيم الشأن كما مر بك . ولم يصرفها القرآن ، كما لم يصرف ميكال وإدريس رغم مجيئها على وزن عربى لا يحتمل إلا الصرف ، نصاً من القرآن على أصلها الأعجمى .

وفسره أيضا بالمرادف القريب من معناه فى قوله عز وجل : { **فبشرناها بإسحق ، ومن وراء إسحق يعقوب** } (هود : ٧١) ، والوراءُ من العاقب قريب . والوراء أيضا كما يقول معجمك العربى " وَلَدُ الوَلَد " ، نصاً على ميلادِ يعقوب من إسحاق " حفيداً " مباشرا لجده إبراهيم .

(٢٨) إسـرائيل

" إسرائيل " فى القرآن هى تعريب "يسْرائيل" فى التوراة . وهى شُهْرَةٌ شُهِرَ بها يعقوب عليه السلام . وقد تَلَقَّبَ بها من بَعْدُ بَنُو يعقوب ، فقيل "بنو إسرائيل".

ومن زَلاَّت سفر التكوين الذى بين يديك ـ وتابَعَهُ عليها كُلُّ علماء التوراة من بعد ـ تفسيره اسم " إسرائيل " بأنه "مُصارِعُ الله " : ظهر له اللهُ فى صورة رجل تَصَارَع معه الليلَ بطوله حتى مطلع الفجر ، ولم يقدِر على يعقوب ، ولما رأى أنه لا يقدر عليه (بصورته الإنْسِيَّة) استعان بسطوة أُلوهيته فلمس حُقَّ فخذ يعقوب، فينخلع حُقُّ فخذه ، ويقول له أطلقنى فقد طلع الفجر . ولكن يعقوب لا يطلقه ، بل يظل آخذا بتلابيبه ويقول له : لا أطلقك حتى تباركنى . فيقول له ما اسمك ؟ فيقول يعقوب . ويقول الرجل " الإله" : لا يُدْعَى اسمك بعد يعقوب ، بل " إسرائيل " ، ثم يفسر له معنى هذا الاسم (يِسْرا + إيل) بقوله : لأنك صارعت الله والناس وقدرت . ويفهم يعقوب أن الذى صارعه هو الله ، فيسمى هذا المكان " فِنوئيل " (يعنى " وجه الله ") قائلا: لأنى رأيتُ اللهَ وجهاً لوجه ونَجيَتْ نفسى . (راجع تكوين ٣٢/٢٤ ـ ٣٠) . أى أن يعقوب لم يكلمه اللهُ فحسب كما كلَّمَ موسى، ولم يَرَ الله وجها لوجه فحسب ، تلك التى طلبها موسى فأدَّبَهُ الله ، ولكن يعقوب لاحَمَ الله ملاحمةً ، وصارعه حتى كاد يصرعه ، لولا أن لمس الله حق فخذ يعقوب فانخلع . وهو لا يتركك تظن أن الذى ظهر ليعقوب فصارعه مَلَكٌ من ملائكة الله ، على عادة كتبة التوراة فى التعبير عن الملائكة بلفظ الآلهة كما مر بك ، فَضَلَّ بها كثيرون ، ولكنه ينص نصا لا إبهام فيه على أن الذى صارع يعقوب وكاد يصرعه يعقوب ، هو اللهُ نفسه ، فيقول على لسان يعقوب: رأيتُ اللهَ وجها لوجه ونَجيَت نفسى . ناهيك بتفسير علماء التوراة هذا الاسم بأنه على المزجية من (يسرا + إيل) وتعنى كما تقول معاجمهم "الذى يصارع الله".

تُرَى هل بَقِيَ فى نفسك شيءٌ من توقير هذا الكاتب الذى لا يرجو لله وَقَارا ، الذى لو سَمِعَهُ جَدُّهُ يعقوب لَرَجَمه وبَرِىءَ منه ، ولو صُوِّرَ لك لَلَطَمْتَ وجهه ونزعت منه

هذا القلم الذى يَلِغُ به فى عرض رسل الله وأنبيائه ، ثم يتجاسر على مقام الله عز وجل فيُهْبِطُهُ إلى الأرض يُعافِرُ [١] يعقوب ويواثبه ، فلا يقدر عليه إلا أن يستعلنَ ليعقوب بألوهيته فينخذِلَ يعقوبُ بعد أن خُلِعَ حُقُّ فخذه ؟

ما ظَنُّكَ بدين هذا الكاتب الذى يظن بالله ظنَ اليونان بآلهة الأولمب ؟

بل ما ظَنُّكَ بهذا السفر الذى يتصدر أسفار " الكتاب المقدس" وتُنْسَبُ مادتُه إلى كليمِ اللهِ موسى عليه السلام ؟

أكُلُّ هذا العبثِ واللغوِ والولوغِ ليفَسِّر لك معنى " يسْرائيل " الذى اشتبه عليه فَظَنَّهُ الذى " يُساوِرَ " اللهَ أو الذى " ساوَرَهُ " الله ؟ [٢]

أما كان أكرَم لَهُ أن يتوقف عن تفسير" يسرائيل " كما توقف من قبل عن تفسير" تارح " ؟

عليك أن تَنْزِعَ هذه الفقرات وأمثالها فى أسفار التوراة ، ثم تُغَيِّبُها حيث لا يَقَعُ عليها بَصَرُ أحد ، وإلا فأنت مسئولٌ عن ضلال من ضلوا بها ، مسئولٌ عن كُفران من نَزَّه اللهَ عنها فأنكر الوحىَ على التوراة جملةً وتفصيلا ، ما صَحَّ منها وما لم يَصِحّ.

ولكن هذا " الكلام " عند المؤمنين به من أهل الملتين " كلامٌ مُقَدَّس " بِحَرْفِه قبل معناه ، يُفوّضون العلمَ بحقيقته لله عز وجل ، فيمرُّون عليه سراعا ، قبل أَنْ يَسْتَزِلَّهُم الشيطانُ فيدركوا مأتاهُ ومعناه . وربما خُيِّلَ إليك أن غُلاة المؤمنين يظنون أن الله عز وجل يمتحنهم بهذا الكلام ليقولوا حين يُتْلَى عليهم: حاشا لله ! سُبْحَانَ الله!

هذا النَّمَطُ من الإيمان جديرٌ باحترامك . ولكنك لا تحترمُ إصرار من أصروا على أن الله جل جلاله هبط إلى الأرض يُعافِرُ يعقوب بالفعل ويواثبه ، أو الذين يفسرون " يسرائيل" بأنها تعنى "مساور الله" أى الذى يساور الله أو ساوره الله .

□□□

---

(١) عَافَرَهُ / يُعافِرُهُ العربى يعنى صارعه محاولا إلقاءه فى " العَفَر" ، وهى نفسها صيغة الفعل العبرى نِئبق ، وهى من " أَبَق " العبرى بمعنى الغبار . استخدم الكاتب فى الأصل العبرانى مادة "نِئبَق" هذه فى وصف عراك الله يعقوب ومعاركة يعقوب إياه ، وكان يجمُل بالمترجِم العربى ردُّها إلى مكافئها العربى " عافره " بدلا من " صارعه" .

(٢) سار عليه ، يسور ، سَوْراً ، يعنى وثب عليه ، وساوره يعنى واثبه وغالبه ، وهى مقلوب سرا / يِسرا العبرى الداخل مضارعها فى تركيب " يسرائيل " على ما تقول معاجم تلك اللغة .

وقد تأثم من هذا بالفعل مترجمو سفر التكوين من أصله العبرانى إلى غير العبرية من اللغات فحاولوا قدر الاستطاعة ـ وفى نطاق محدود ـ تخفيف وقع الصدمة على قارىء هذه الفقرات من سفر التكوين بالتصرف فى الترجمة وإخراجها فى صورة مقبولة بعض الشىء ولو خالفت النص المكتوب فى الأصل العبرانى .

والذى ينبغى التنبيه إليه أن ترجمات " الكتاب المقدس " ليست حلاً مستباحا لكل من هَبَّ ودَبَّ ، ولو كان من فطاحل التراجمة ، وإنما هى ترجماتٌ لا تَصْدُرُ إلا معتمدةً من رؤساء الملّتين ، ممهورةً بخاتَم السلطة الدينية العليا فيهما ، نصاً يتساوى فى الحجِّية مع الأصل العبرانى المنقولِ عنه ، تُقْرَأُ به الصلواتُ فى المعابد والكنائس، ويُتَعَبَّدُ بقراءته أتباعُ الملة . فهو نصٌ مقدس ، مُلْزِمٌ للسلطة الدينية التى اعتمدته ، ملزمٌ لأتباعها .

والذى أقصده من هذا أن رؤساء الملتين أنفسهم لم يتحرجوا من الاستدراك على هذا الكاتب، بل حاولوا ـ عن طريق الترجمة إلى اللغة التى لا يَقرأ أتباعُ الملةِ إلا بها ـ تلوين النص الذى يروى فى سفر التكوين مصارعة الله يعقوب تلوينا يُهَوِّنُ على القارىء بتلك اللغة من فظاعة هذا الذى خَطَّهُ الكاتبُ بيده ، تاركين للقارىء فى التوراة بالعبرية مباشرة استخلاصَ المعنى الذى يهديه إليه إيمانه . وهى محاولةٌ تَحْمَدُها لهم بلا شك ، وإن كنت تتمنى ـ كما تمنيت ـ لو مَضَوا فى الشوط إلى نهايته ولم يكتفوا بالتخفيف ، بل قطعوا بأن هذا النص الذى فى سفر التكوين ، وأشباهه ، نَصٌ دخيل ، تَبْرَأُ منه توراةُ موسى عليه السلام ، على نحو ما فعلت الكنيسةُ المسيحية الأولى بأسفارٍ وصَمَتْها بأنها "منحولة " .

ولكن هذه المحاولات اقتصرت على ترجمة عبارة " كِى سَرِيتَ عِمْ إلوهيم وعم أناشيم وتُخال " (تكوين ٣٢/٢٨) (١) ، وهى العبارة التى تعنينا فى مقاصد هذا الكتاب الذى نكتب ، لأنها هى التى تفسر (على لسان الله عز وجل فى سفر التكوين) معنى " يسرائيل "عند علماء التوراة .

من هذه المحاولات ثلاث :

---

(١) معنى العبارة على أصلها العبرى هو : " لأنك ساورت الله والناس وقدرت " .

(١) ترجمة انجليزية ، تجدها فى : The British & Foreign Bible Society, OLD TESTAMENT, HEBREW & ENGLISH ، تترجم عن العبرية عبارة " كِي سَرِيتَ عِمْ إلوهيم وعم أناشيم وتُخال" إلى الإنجليزية هكذا .. for, as a prince hast thou power with God and with men, and hast prevailed (Ge. 32,28) ومعناها بالعربية : "لأنَّكَ مِثْلَ أمـــيرٍ ، ذو قُوَّةٍ مـــع الله والناس وسُدتَّ " . وهى ترجمة تأخذ " سَرا" العبرى من السراوة والشرف، لا من المساورة والمغالبة كما يقول المعجم العبرى ، وكأنَّهُ الجذر العبرى سَرَرْ " ، مكافىء " سرا / يسرو " العربى . ولا يصح هذا عبريا : لو صح لكان الاسم "يَسُورايل" أو " يِسْرُر إيل ". وعلى فرض جوازه ، فهل يصح عن الله عز وجل أن يسمى عبدا من عباده بأنه "الذى يسرو مع الله" أو " الذى هو سَرِىٌ مع الله " ؟ لو قيل "سَرِىٌ عند الله " فربما جاز وفيه بُعْد . إنها محاولةٌ على كل حال . ولكن الحرف " مع " يَمْنَعُك.

(٢) ترجمة عربية ، تجدها فى ترجمة الفاتيكان ، المطبعة الكاثوليكية (بيروت ، فبراير ١٩٥١) ، تقول فى ترجمة تلك العبارة نفسها : " لأنك إذ رَؤُسْتَ عند الله فعلى الناس أيضا تستظهر "، تأخذ أيضا فى "سَرا " العبرى بمعنى السراوة والشرف ، فتجعل " يسرائيل " رئيسا عند الله ، وترتب على رئاسته عند الله استظهاره على الناس . وهذه هى " أبرع " المحاولات الثلاث فى قلب النص العبرى رأسا على عقب ، ترفع الحرف " مع" وتضع فى موضعه " عند" ، فيستقيم الكلام ، لأنك لا تقبل رئيسا " مع " الله ، وتستجيز رئيسا " عند " الله . وهى أيضا تُغَيِّرُ فى تركيب العبارة ، فتجعل رئاسة يعقوب على الناس مترتبةً على " رئاسته عند الله " . وهذا وإن خالف النص العبرانى فى مَبْناهُ ومعناه ، مقبولٌ سائغ عند القارىء العربى الذى لا يرجع إلى التوراة فى نصها العبرى .

(٣) ترجمة عربية أيضا ، هى ترجمة الكنيسة الأرثوذكسية المصرية (دار الكتاب المقدس بمصر ، طبعة العيد المئوى ١٨٨٣ ـ١٩٨٣) ، وهى تترجم العبارة " كِي سَرِيتَ عِمْ إلوهيم وعم أناشيم وتُخال " (تكوين ٢٨/٣٢) كما يلى : " لأنك

جاهدت مع الله والناس وقدَرْتَ "، وهى ترجمة جميلة ، يرتاح لها القارىء العربى الذى لا يقرأ فى التوراة بالعبرية مباشرة . وهى على جمالها مطابقةٌ لتركيب العبارة فى نصها العبرى ،أمينةٌ على النص الأصلى بكل حروفه. ولكنها تخالف المعجم العبرى بتفسيرها الجذر " سرا / يسرا " بمعنى " جاهد " (وليس هو كذلك فى المعجم العبرى " هَمِّلُّون هحَداش لَتَناخ " مرجعنا فى هذا الكتاب وإنما معناه فى ذلك المعجم هو " نِتْبَق" أى " عافَرَهُ " وصارَعَهُ لا غير) ليكون معنى " يسرائيل " شُهْرَةَ يعقوب هو " المجاهد مع الله " ولا يصح هذا عبريا : لو صح لكان الاسم (يِسرا ـ عِمْ ـ إيل) أى (يَسْرُو ـ مع ـ الله) ، لأن إسقاط الحرف " عِمْ " (أى مع) يجعل معنى هذا الاسم " الذى يجاهدُ الله " ، ولا يصح لمخلوق أن " يجاهد الله " ، ولأن " جاهَدَهُ " و" صارعه" و"ساوَرَهُ" واحد ولكنها محاولةٌ تُحْمَدُ للمترجم ، يُعَزِّزُها اعتمادُ السلطةِ الدينيةِ المختصة ، تُصَحِّحُ بها فكر كاتب سفر التكوين فيما ينبو عنه أدبُ الحديث عن الله عز وجل .

ولا عيبَ فى هذه المحاولات إلا الإبقاءُ على فقرات مصارعة الله يعقوب التى تُمَهِّدُ لاسم " يسرائيل " وتُرَتِّبُ التسمية عليها . وربما اقترحتَ على شُراحِ التوراة تفسير هذه المصارعة لا على الحقيقة ولا على المجاز ، بل تفسيرها بأنها حُلْمٌ تراءى ليعقوب . ولكن هذا مردودٌ عليه بأن أنبياء الله الممنوعين من رؤيته عز وجل جَهْرَةً فى هذه الدنيا ، ممنوعون أيضا من رؤيته عز وجل فى "أضغاثِ أحلام" . لا خلافَ على هذا فى التوراةِ والإنجيلِ والقرآن [١] .

ولم يَدُر بخَلَد أحد ممن فسروا " سرا / يسرا " بمعنى السراوة والشرف ، أن يجعل اسم الله (إيل العبرى) هو الفاعل فى هذا التركيب المزجى يسرا + ايل" (كما هو فى يشمع + إيل) ، فيكون المعنى " سَرِىٌّ هو الله " أو " تَعَالَى الله " ، يصيحُ بها يعقوب وقد انخلع حُقُّ فَخِذِهِ فى مصارعة الله إياه ، فَيُشْهَرُ بها .

□□□

(١) تقرأ فى التوراة : حقا إنك إله محجوب ! وتقرأ فى الإنجيل : الآب لم يَرَهُ أحد ! وتقرأ فى القرآن: لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار . سبحانه جل وعلا !

والذى يعنينا من هذا هو تفاوت فهم علماء التوراة لمعنى الجذر العبرى سرا / يسرا ، هل هو من سرا / يسرو أم من سار / يسور العربيين ؟ إن قلت بالأول فقد خالفت المعجم العبرى ، وإن قلت بالثانى فقد وقعت فى المحظور : قد واثبَ اللهُ يعقوب وساوَرَه ! وهو نفس المعنى الذى أراده كاتب سفرالتكوين بترتيبه التسمية على المصارعة ، واستخدامه فى وصف معاركة الله يعقوب مادة الفعل العبرى " نِئْبَق " أى عافره وصارعه ، ولم تختلف فيها الترجمات فقالت كلها :" وصارعه .. " ثم فسر التسمية بقوله " كِى سَرِيتَ .." يعنى بها " كِى نِئْبَقْتَ ...".

ولأننا لا نصدِّق الكاتب فى " مصارعة الله يعقوب" ، فنحن من بابِ أولَى نرفض كل تفسير ـ سواء للكاتب أو لغيره ـ يفسر اسم " يسرائيل " ترتيبا عليها .

□□□

تُرسَم " يِسْرَائيل " فى الخط العبرى بغير ألف ، أى تُرْسَمُ " يِسْرَئيل " .

ومن أعلام التوراة (١) ـ غير يعقوب عليه السلام ـ أعلامٌ تشبه هذا الرسم ، هى " أَسَرْئيل " (أخبار الأيام الأول ٤/١٦) و" أَسْرِيئيل " (عدد ٢٦/٣١) . وأيضا "يِسَرَئيلَه" (أخبارالأيام ٢٥/١٤) وترسم أيضا " يِشْرَئيله " . (٢) والهاء فى هذين الأخيرين هاء خاملة للوقف فقط على لام مفتوحة. فـ "إيل" و "إيلَه" واحدٌ فى المعنى.

أما المقطع الأول فى هذه الأعلام الثلاثة (أسَر ، يِسَر) فعلماء التوراة (٣) يأخذونه من الجذر العبرى " أَسَر" (ويكتب أصلا فى الخط العبرى بالحرف "سامخ" وهى السين الأصلية فى الخط العبرى التى لا تنقلب إلى شين فى العربيـة) وإن كان فى هذه الأعلام الثلاثة ـ كما فى كُنية يعقوب ـ مرسوما بالسين المنقلبة عن الشين . ولهذا نظائر فى العبرية يعرفها المتخصصون ، لا نُثْقِلُ بها عليك .

أما "أَسَر" العبرى فمعناه من " أَسَرَ " العربى جدُّ قريب ، وهو أيضا يُكافىء "أَصَرَ" العربى ، ومنه "الإصر" أى العهد والميثاق ، وأَصَرَهُ يعنى عَقَدَهُ وشَدَّه ، وأيضا لواه وعطفه ، وحبسه . فمعنى " يِسَرائيله " وأمثالِها هو "إسارُ الله" أو "إصْرُ الله" ،

(١) راجع المعجم العبرى الآرامى لألفاظ التوراة ، وهو من مراجع هذا الكتاب .
(٢) راجع " يسرئيله " و " يشرئيله " فى هَمَلّون هِداش لتناخ "، ص ٦٧٦ .
(٣) المعجم العبرى الآرامى لألفاظ التوراة ، المرجع المذكور .

و" إسار" عبريا يفيد النذر بالامتناع ، فيقولون : أَسَرْ ـ إسار ـ عَلْ نَفْشُو ، يعنون : نَذَرَ على نفسه ..، أو آلى على نفسه .. ، فالمعنى هو : نذر على نفسه نذرا فَقَيَّدَهُ الله به . أى الذى أوجب على نفسه فأوجب الله عليه .

أفتكون " يِسَرئيله " هى نفسها شهرة يعقوب " يِسْرَئيل " ، خالفوا بينهما فى النطق توقيرا لأبيهم يعقوب ؟ والمعنى واحد : إصر الله !

قد علمت من سفر التكوين (تكوين ٣٢/٣١) أن يعقوب خرج من مصارعة الله يخمع على فخذه " لذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرْقَ النَّسا الذى على حق الفخذ إلى اليوم لأنه (أى الله) ضرب حق فخذ يعقوب على عِرْقِ النَّسا " . لم لا تكون هذه هى مناسبة التسمية : حرَّم يعقوب على نفسه "عِرْقَ النَّسا" فقيده الله بما حرم على نفسه؟

احتاج الكاتبُ إلى تعليل تحريم يعقوب أكل عِرق النَّسا ، فهداهُ خيالُه إلى أن الله عز وجل ضرب يعقوب على " عِرق النَّسا " . ولكنها أُعضلت عليه : أأدَبَّهُ بها الله ؟ ولمَ ؟ كان عليه أن يخترع ليعقوب ذنبا يعاقبه به الله ، ويعقوب عنده مُنَزَّهٌ عن ذلك . هنا تفتق خيالُه عن مصارعة بين الله وبين يعقوب ، وتمادى به الخيال فظن أن الله لم يقدر على يعقوب ، فضربه على حق فخذه كى يطلقه . ولم ينس أن يسجل بها مجدا ليعقوب ، ومناسبةً للتسمية ، ففسر بها " يِسْرَئيل " ، وتابَعَهُ على هذا وذاك دون تمحيص علماءُ التوراة .

تُرى لماذا حَرَّمَ إسرائيلُ على نفسه أَكْلَ عِرْقِ النَّسا ؟

أكان الدَّمُ الكَذِب الذى جاء به أبناءُ ليئة على قميصِ يُوسُف ـ أو كان المَزْقُ الذى افتعلوه فى القميص ـ على موضع الحُقِّ من الفخذ ، فعافت نفسُ يعقوب أكلَ ما نَهَشَ الذئبُ من يُوسُف ؟

الله عز وجل بغيبه أعْلَم .

□□□

أما مفسرو القرآن (راجع تفسير القرطبى للآية ٣٩ من سورة البقرة) فقد قال بعضهم نقلا عن عبد الله بن عباس أن معنى إسرائيل هو "عبد الله" لأن "إسر" بالعبرية يعنى "عَبْد"، وليس هذا بصحيح فى العبرية، وإنما هو التفسيرُ بالتخمين كما مر بك . وقال السهيلى " سُمِّيَ إسرائيل لأنه أسْرَى ذاتَ ليلة حين هاجر إلى الله تعالى فسمى

إسرائيل أى أسْرَى إلى الله ونحو هذا " ، وليس هذا أيضا بصحيح لأنه تفسيرٌ لِشقِّ الاسم بغير لغة صاحبه ، فضلا عن أنه لم يُؤْثَر عن يعقوب أنه هاجر ذات ليلة إلى الله تعالى . وقال آخرون " إسْر" يعنى صفوة ، فهو صفوة الله ، وليس لهذا أصل لا فى العبرية ولا فى العربية . وقال المَهْدَوِى أيضا إن "إسْر " من الشدِّ والتوثيق ، أى أن إسرائيل تعنى الذى شَدَّدَهُ الله وأتقن خَلقه . وليس هذا كُلُّهُ بِشَىءٍ فلا تلتفت إليه .

□□□

قال عز وجل فى كتابه المُصَدِّق المُهَيْمِن : ﴿**كُلُّ الطعام كان حِلاً لبنى إسرائيل ، إلا ما حَرَّمَ إسرائيلُ على نفسه من قبل أن تُنَزَّلَ التوراة**﴾ (آل عمران : ٩٣) .

وهذا من دقيق التفسير فى القرآن: "حَرَّمَ إسرائيلُ على نفسه" تُفَسِّرُ الشَّقَّ الأول من الاسم فحسب (وهى بالعبرية " أَسَر ـ إسار ـ عَلْ ـ نَفْشو ") ولاتفسر الشق الثانى من هذا الاسم المزجى (يسرا + ايل) . ولكن القرآن لا يتركك تظن أن " إسرائيل" معناها "الذى حَرَّمَ على نفسه"، بل يريدك أن تفهم أن " الله " حَرَّمَ عليه الذى حَرَّمَهُ هو على نفسه ، فيقول " كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه" ، التى تفهم منها مباشرة أن الله (إيل العبرى) حَرَّمَ على بنى إسرائيل الذى حَرَّمَ إسرائيلُ على نفسه . بهذه الآية كان التفسيرُ القرآنى لاسم " إسرائيل " بمعنى "إصْرُ الله" ، وبها اهتدينا نحن إلى تفسير معناه ، فالحمد لله الذى هدانا إلى هذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

إسرائيل (يسرائيل) يعنى "إصرُ الله"، يفسرها القرآن بقوله عز وجل: ﴿**كُلُّ الطعام كان حلاً لبنى إسرائيل ، إلا ما حَرَّمَ إسرائيلُ على نفسه من قبل أن تُنَزَّلَ التوراة**﴾ (آل عمران : ٩٣) .

ودَعْ عنك أمثال " مُصارِعُ الله " ، أو " أميرٌ مع الله " : هذا تجديفٌ فى حقِّ اللهِ عز وجل ، وَوُلُوغٌ فى عِرْضِ أنبيائه صلواتُ الله وسلامُه عليهم أجمعين .

(٢٩) يوســف

" يوسف " في القرآن هى تعريب " يوسِف " فى التوراة ، لا فرقَ بينهما إلا فى حركة السين: تُضَمُّ فى القرآن ، وتُكسَرُ فى التوراة .

ومن دقيق التعريب فى القرآن ، إتيانه بالسين فى " يوسُف" ، مثلُها مثلُ النون فى " يونُس"، على الضَّمّ ـ وهى أعلى القراءات ـ كى لا يشتبها بالإيساف والمؤاسفة (فى يوسُف) ، أو بالإيناس والمؤانسة (فى يونُس) ، إن هو أتى بهما على وزن المضارعة المبنى للمعلوم (يُفْعِل) الذى تُقرأ به "يوسِف" فى التوراة ، أو على وزن المضارعة المبنى للمجهول (يُفْعَل) الذى تقرأ به" يونَس " فى الأناجيل اليونانية . ولم يفطن إلى هذا المفسرون .

□□□

وردت " يوسُف " فى القـرآن سـبعا وعشـرين مـرة : واحدةٌ فى الأنعام ﴿الأنعام :٨٤﴾ ، وأخرى فى غافر ﴿غافر : ٣٤﴾ ، والخمسُ والعشرون الباقيات فى سورة كاملة سميت باسمه عليه السلام تَقُصُّ قصته ، أُفرِدَت لهُ وحدَه ، لا تتحدثُ إلا عنه ، صَدَّرَ لها القرآنُ بقـوله عز وجـل : { **نحن نقص عليك أحسن القصص** } ﴿يوسف : ٣﴾ ، فهى كما قال عز وجل .

□□□

والذى يقرأُ قصةَ يوسُفَ فى القرآن ، ثم يقرؤها من بعد فى سفر التكوين ، أول أسفار التوراة ، يندهش : أهذه هى تلك ؟

وأنا لا أقصد هنا سحرَ البيانِ وقُوةَ السَّرْد ، فليس للقرآنِ فى هذين ندّ . وإنما الذى أعنيه هو أن القرآن عَلِمَ من قصة يوسُف ما لم تعلمْهُ التوراةُ التى بين يديك ، وأن الذى أثبته القرآن وأغفَلَهُ سفرُ التكوين " مَحاورُ " فى قصة يوسف لا يصحُّ تسلسـلُ الأحـداث إلا بهـا ، وأن الذى أفـاض فيه كتبةُ التوراة ـ حين أفاضوا ـ حشوٌ

لا غَنَاءَ فيه ، يُفسد عليك جو القصة ، ويقطع عليك تتابع الأحداث ، إنْ أسْقَطْتَهُ فأنت الكاسب .

□□□

بدأ كاتب سفر التكوين الحديثَ عن يوسف فى الإصحاح السابع والثلاثين ، واسترسل فيه إلى أن أتم الإصحاح الخمسين ، يَختتم به السفر . ولكنه ـ فجأة ـ وفى ذُروة المأساة ، وقد التقط السَّيارة يوسُف وباعوه فى مصر إلى " فوطيفار خَصِيِّ فرعونَ رئيسِ الشُّرط " ، يُنهى الإصحاح السابع والثلاثين ليخصص الإصحاح الثامن والثلاثين بأكمله لحديث يتنزه عنهُ أدبُ الوحى ، يقص عليك فيه ما كان من أمر أخى يوسف ، يهوذا ، الذى تزوج بعد إلقاء يوسف فى الجب فأنجب ، وشب أبناؤه فزوجهم أيضا ، وكيف أن ابنه الأكبر " عِير" مات قبل أن ينجب من " ثامار" فزوجها من ابنه الثانى "أونان" كى يقيم نسلا لأخيه ، وأن "أونان" هذا لم يُرِد أن "يقيم نسلا لأخيه" فكان إذا دخل على امرأته ثامار أفسد على الأرض [١] ، فأماتَه الرب أيضا . ثم يسترسل فيقص عليك أن يهوذا ترصَّدَتْهُ على الطريق " ثامار" أرملةُ ابنيه هذين ، تنكرت ليزنى بها حموها كَبَغِىّ ، فيزنى بها يهوذا ويعطيها أجرتها وهو لا يعلم أنها "ثامار" (وكأنها لو لم تكن أرملة ابنيه لجاز !) فحملت منه ثامار وولدت له توأمين . ثم ينبئك بأن أحد هذين التوأمين أخرج يده أولا ، فوضعت عليها القابلة قرمزاً ، علامة على أنه البكر ، ولكنه سحب يده ليخرج التوأم الثانى أولا [٢] ، كى يستنبط الكاتبُ من هذا معنى اسميهما : " فَارَص" (يعنى " المقتحم ") لأنه "اقتحم" على أخيه ليخرج أولا ، و" زَارَح " (يعنى " الوضىء) الذى عليه القِرْمِز ، يختتم بها الإصحاح المُقْحَم ليبدأ الاصحاح التاسع والثلاثين وكأنما تنبه إلى أنه يقص قصة يوسف ، لا قصة يهوذا مع أرملة ابنيه ثامار ، فيقول وكأنه يصل ما انقطع : "وأما يوسف .." .

---

(١) وهو " العَزْل " . ومن إفساد "أونان" على الأرض نحت الأوربيون لفظة "Onanism" ، فارجع إليها فى معاجمهم .

(٢) الذى تعلمه، ويعلمه طب النساء والولادة، بل وتعلمه هذه القابلة المفترى عليها، أن المولود ينزل برأسه أولا فإذا خرجت يداه فقد خرج معظمه. أما إن ولد معكوسا ونزل برجليه فلا تخرج يداه حتى يخرج كله. فكيف يسحب يده إلى بطن أمه كى ينزل الثانى أولا؟ لا عليك. إنها أفانين الكاتب.

ما هذا الحشو؟ بل ما هذا الدَّنَسُ الذى يقصه عليك ؟ وما علاقته بقصة يوسف وبتسلسل الأحداث فى قصة يوسف ؟ أيترك يوسفَ فى بيت " خَصِىٍّ فرعون رئيسِ الشُّرَط " ويقبع هو عند يهوذا بن يعقوب ما يزيد على ربع قرن فى أرض كنعان ينتظر ولادة " فارص " و " زارح " من زنى أمهما بحميها يهوذا ، ليحملهما يعقوب فيمن حمل من أبنائه وحفدته إلى يوسف فى مصر ؟ بل ويحمل معه ابنى " فارص" الذى شب وتزوج هو الآخر فى أرض كنعان فأنجب "حَصرون" و"حامول" (تكوين ٤٦/١٢)؟ وكيف اتسع الوقت ليهوذا فى أرض كنعان بعد إلقاء يوسف فى الجب كى يُنجِبَ يهوذا ابنيه عِير وأونان ، ليموتا ، فيستولد من أرملتها "ثامار" ابنيه فارص وزارح ، بل ويشب فارص فينجب من بعد حصرون وحامول ، أجيالا ثلاثة فيما لا يزيد على سبع وعشرين سنة [١] ، على ما تستخلص من كلام الكاتب ؟ ولكن الكاتب ضعيفُ الذاكرة، ضعيف فى علم الحساب، أو يَظُنُّ بك الضَّعْفَ فى هذا وذاك على ما مر بك . ثم ما بالُ هذا الزانى بأرملة ابنيه حتى يقطعَ من أجله الحديث عن يوسف كى يشهد الكاتبُ زناه ؟ أتُراهُ يظنُّها مَحْمَدَةً ليهوذا ؟ ربما . فهو يقول فيه قرب ختام السفر على لسان يعقوب : " يهوذا ! إياك يَحْمَدُ إخوتُك . يدك على قفا أعدائك يَسْجُدُ لك بنو أبيك ، الخ . " (تكوين ٤٩/٨) ، والذى سَجَدَ له بنو أبيه هو يوسفُ لايهوذا كما تعلم وكما خط الكاتب بيده . ولكن الكاتب يكتب على عصر داود وسليمان ، وداود من سبط يهوذا وهو لا يَعنى بهذه المحامدِ شخصَ يهوذا ، وإنما يَخُصُّ بها سِبطَه ، الذى منه بيتُ داودَ الملك .

يُطنب الكاتبُ أيضا فى تفصيل الحُظوة التى كانت ليوسف عند "فِرعون" ، [٢] حتى لتظن أن الملك نزل ليوسف عن مُلكِه ولم يستبقَ إلا الكُرسِىَّ (تكوين ٤١/ ٤٠). ولا ينسى أن يسجل ليوسف أنه استذلَّ لفرعون شعبَ مصر ، فاستولى بمخزونه من

(١) هى المدة من إلقاء يوسف فى الجب إلى ارتحال يعقوب ببنيه إلى مصر : قال إن يوسف كان ابن ١٧ سنة حين أُلقِىَ به فى الجب وكان ابن ٣٠ سنه يوم " استخلصه الملك لنفسه " ، وأضف أنت السبع السنوات الخضر ، والسبع العجاف .

(٢) يقول علماءُ المصريَّاتِ إن اسمَ " فرعون " لم يصبح دالا بذاته على شخص الملك إلا على عصر الأسرة التاسعة عشرة ، بحيث تستطيع أن تقول " جاء فرعون " و" ذهب فرعون " وتعنى شخص الملك ، وهذا يقارب عصر رمسيس الثانى " فرعون موسى" على ما نرجح نحن . والقرآن ـ على خلاف سفر التكوين ـ يخص بها فرعون موسى وحده . فأى إعجاز وأى علم !

القمح على كل فِضَّتِهم ومواشيهم وأرضهم ، حتى تَمَنَّوا عليه لقاء الميرة أن يصيروا عبيدا لفرعون (تكوين ٤٧/ ٣٥) ، بينما هو يغدق بغيرِ حساب على أبيه وإخوته : الفضَّة والمواشى والأرض . وليس هذا من الصدق التاريخيِّ فى شىء، لا لأنك شَهِدت وعَايَنْت ، وإنما لأنه من المُحال العقلى : لو صح هذا لثار المصريون بهذا "العفريت" الذى خرج من القمقم فزجُّوا به من جديد فى غَيَابَة جُبّ ، ولذَبَحُوا الأنفس السبعين الذين دخل بهم مصر يعقوب وبنوه ، قبل أن يُذَبِّحَ " فرعونُ موسى" أبناءهم بعد نحو أربعمائة سنة . بل هو افتراء على يوسف الصديق صلوات الله عليه ، الذى أهانه إخوتُه فأكرمه الله على أيدى مَلِك مصر وشعب مصر . يوسف الذى وعد فأوفى : {**وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى، فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكينٌ أمين . قال اجعلنى على خزائن الأرض ، إنى حفيظٌ عليم . وكذلك مَكَّنا ليوسُفَ فى الأرض ، يتبوأ منها حيث يشاء نُصيبُ برحمتنا من نشاء ، ولا نُضيع أجرَ المحسنين** } (يوسف : ٥٤ ـــ ٥٦) . قد أحسنَ يوسُف ولم يُسىء .

وليس هذا أيضا من القَصَصِ الفنىِّ فى شىء، لأن هذا الانقلاب فى "شخصية" البطل يَفْجَؤُك ، لا تتوقعه منه ، ولا تُمهِّد لهُ الأحداث . بل هى أمانِىُّ يهودىٍّ فى مُلك مصر لو مَلَّكَهُ الله . أبْعَدَهُ الله . إنه سليلُ أولئك الذين سلبوا ذهب المصريين عشية خروجهم من مصر ، سَرِقَةً واحتيالا : " طلبوا من المصريين أمتعةَ فِضَّةٍ وأمتعةَ ذَهب وثيابا . وأعطى الربُّ نعمة للشعب فى عيون المصريين فأعاروهم . فسلبوا المصريين " (خروج ١٢/٣٥ـ ٣٦) ، حسبوا هذا " نعمةً من الرب " ، رزقاً ساقَهُ اللهُ إليهم ، ولكنه عز وجل لا يأمر بالسرقة والاحتيال ، فحاسَبهم بها القرآن فى قوله المُعجز على لسانهم فى فتنة السامرى : { **قالوا ما أخلفنا مَوعِدَكَ بِمَلْكنا ، ولكنا حُمِّلْنَا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها ، فكذلك ألقى السامرى** } (طه : ٨٧) .

أما التمكينُ الذى مَكَّنَ الله ليوسف فى مصر ، فهو قولُهُ عز وجل : {**وكذلك مَكَّنا ليوسُف فى الأرض يَتَبَوَّأُ منها حيث يشاء** } (يوسف : ٥٦) وهى عبارةٌ جامعة تغنى عن كل قول : " زُوِيَتِ الأرضُ ليوسف ، حبيسِ الجُبِّ نزيلِ السِّجن ، فصارت له مصرُ كُلُّها مَغْدَاهُ ومَراحَه يتبوأ منها حيث يشاء .

والذى يجب أن تعلمه أن " الأرض " فى هذه الآية وفى غيرها من مثلها فى سورة يوسف ، على ما يأتى إن شاء الله فى موضعه ، هى ترجمة من القرآن المُعجِز لمعنى اسم "مصر" ، لا عند العبرانيين (مِصْرايم) ، وإنما عند أهلها المصريين بلغتهم هم " تاوى " : تمادى بالمصريين العُجْبُ والفخر فظنوا أن لا أرضَ غيرُها من بعدها .
ولم يَعرِف هذا أحد ، إلا بعد قرابة ثلاثة عشر قرنا من نزول القرآن ، ليس قبلَ أواسط القرن التاسع عشر الميلادى ، يوم افتُكَّت طلاسمُ اللغة المصرية القديمة ، فباحت بأسرارها .

فأىُّ إعجازٍ ، وأىُّ علِم !

□□□

هذا الكاتب الذى أطنب فيما لا غِناء فيه ، أغفل " مَحاوِر " فى قصة يوسف لا تصح القصةُ فنيا إلا بها . يتضح لك هذا من مراجعة قصة يوسف التى فى سفر التكوين على قصة يوسف فى القرآن .

قال القرآن إن "رؤيا " يوسف كانت سراً بينه وبين أبيه ، وإن يعقوب فَهِمَ الرؤيا على وجهها فقال ليوسف : { **وكذلك يجتبيك ربك ويُعَلِّمُكَ من تأويلِ الأحاديث ويُتِمُّ نعمتَهُ عليك وعلى آل يعقوب كما أتَمَّهَا على أبويك من قَبْلُ إبراهيمَ وإسحق ، إن ربَّكَ عليمٌ حكيم** } (يوسف: ٦) . فَهِم يعقوب أن النعمة التى أعَدَّ اللهُ ليوسف سَتَجُرُّ نعمةً على آل يعقوب ، وقد كان .

وهذا يُفَسِّرُ لك يقينَ يعقوب طوال القصة بأن الذئب ما أكل يوسف ، بل سيعيش يوسف حتى يُتم الله على يديه تلك النعمة . وهذا شأنُ النبى الواثق بمواعيد الله . قال يعقوب لما أتوا على قميص يوسف بدم كَذِب: { **بل سَوَّلت لكم أنفسكم أمرا ، فصبر جميل ، والله المستعانُ على ما تصفون** } (يوسف :١٨) .

أما يعقوب الذى فى سفر التكوين فقد انتهر يوسفَ لما أسْمَعَهُ رؤياه ، واستنكر أن يسجد ليوسف أخوتُهُ وأمُّهُ وأبوه ، فتفهم قولَ الكاتب إن يعقوبَ لم يشك ولو للحظة فى افتراسِ الذئبِ يوسف : " وقالوا وجدنا هذا . حَقِّق أقميصُ ابنك هو أم لا . فتحققه وقال قميصُ ابنى . وحشٌ ردىءٌ أكَلَه . أفتُرِسَ يوسفُ افتراسا " (تكوين ٣٧/٣٢ ـ ٣٣) . وتفهم أيضا قول الكاتب إن يعقوب حين جاء بنوه

يبشرونه بيوسف حيا ، جَمَدَ قلبُه لأنه لم يصدقهم ، فرددوا عليه كلام يوسف الذى كلمهم به ، وأبصر العجلات التى أرسلها يوسف لتحمله ، فقال : " يوسفُ ابنى حيٌّ بعد ؟ أذهبُ وأراهُ قبل أن أموت " (تكوين ٤٥/٢٨) . وهذا على الضد من قول يعقوب لما أن جاءه البشير فارتد بصيرا : { **قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله ما لا تعلمون ؟** } (يوسف : ٩٦) .

بهذا خَلَت قصةُ يوسف فى سفر التكوين من محنة يعقوب بيوسف ، وهى لُبُّ البلاء فى المأساة . بلاءُ الانتظار ، وبلاءُ الإنكار : انتظارُ " العائد " الذى تمضى السنونَ ولا يعود ، وإنكار المنكرين عليه طولَ صبره وطولَ عذابه : { **قالوا تالله تفتأ تذكرُ يوسف حتى تكونَ حَرَضاً أو تكون من الهالكين** } (يوسف : ٨٥) .

أما المأساة فى شقّها الاخر ، أعنى " بلاءات " يوسف نفسه : كَيْدُ إخوتهِ ، وكَيْدُ امرأةِ العزيز ، فالسَّرْدُ فى سفر التكوين مُختلف .

لا يقولُ الكاتب (إصحاح ٣٧) إن يعقوبَ كان يخشى على يوسُفَ من إخوته ، ويخشى على إخوةِ يوسُف أن يَنزغَ الشيطانُ بينَهُمْ وبينَه فيكيدوا لهُ كيدا : { **قال يا بنى لا تَقْصُصْ رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطانَ للإنسانِ عدوٌ مبين** } (يوسف : ٥) . ولايقولُ الكاتب إن إخوة يوسف دبروا لمكيدتهم على الوجه الذى تمت به ، ثم راوَدُوا عنه أباه ، فتوجس منهم يعقوب ، فأوحَت لهم هواجسُه باختراع أكل الذئب المظلوم إياه : { **قالوا يا أبانا مالَك لا تأمَنّا على يوسف وإنّا له لناصحون . أرسله معنا غدا يَرْتَع ويلعب وإنا له لحافظون . قال إنى ليَحزُنُنى أن تذهبوا به ، وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون** } (يوسف : ١١ـــ ١٣) . وإنما الذى يقصه الكاتب أن يعقوب هو الذى أرسل يوسف وراء إخوته الذين يَرْعون غنم أبيهم عند شكيم لِيَنظر سلامتهم وسلامة الغنم ويأتيه بأخبارهم . فلما رَأَوْهُ مقبلا عليهم تذكروا "أَحلامَهُ " فنبتت لديهم فكرة التخلص منه ، بنتَ اللحظة ، دونَ سابقِ تفكيرٍ وتدبير . وهو هنا يُريد أن يخفف عنهم جريمة الفتك بيوسف " مع سبق الإصرار والترصد " : يقتلونه أولا ثم يطرحون جثته فى إحدى الآبار ويقولون وحشٌ رديءٌ أكَلَه . والكاتب يذهب بعيدا فى محاولة التخفيف من إثم إخوة يوسف ، فيقول إن كبيرهم " رأوبين " احتال عليهم كى لا يقتلوه ، فاقترح فكرة طرحه

فى الجُبِّ حيا ، كى يغافلَهُم من بعد فيستنقذَه من الجُبِّ ويذهب به إلى أبيه . ولكنهم ـ ولا يقولُ لك الكاتب أين كان "رأوبين " ـ فكروا فى إخراجه من الجُبِّ ليحققوا "ربحاً " من وراء صفقة التخلص منه : رَأَوْا قافلةً من الاسماعيليين مقبلة فأخرجوا هُم يوسُف من الجب وباعوه للإسماعيليين بعشرينَ من الفضة . ويرجع رأوبين ـ ولا تدرى أين كان ـ فلا يجد يوسُف فى الجُبِّ فيمزِّق ثيابه ، ويجلسون معا يتشاورون كيف يجيئون على قميصِ يوسُف بدم كذب. *تُرى ماذا بَقِىَ من إثم إخوة يوسُف عند الكاتب؟* لم يقتلوه ولم يتركوه ليموت فى غيابة جُب ، جوعاً أو رُعبا ، وإنما باعوه "فقط" إلى إسماعيليين يَتَّجرون فيه عبدا . عالمينَ أن القافلة متجهة إلى مصر (تكوين ٢٥/٣٧)، لا يخالجهم شكٌّ فى أن يوسُفَ حَىٌّ لم يَمُت ، بل ويعلمون أن مصرَ مكانَه الذى اقْتِيدَ إليه . وهذا هو السَّرْدُ المتهافت الذى يَهدِم بعضه بعضا ، لأنك تعلم من الكاتب أن إخوة يوسف حين جاءوا مصر يمتارون لأهليهم لم يفكروا فى البحث عن أخيهم الذى باعوه ، بل لم يفكروا فى الاستعانة بسلطان " العزيز" ـ يوسف الذى لم يعرفوه ـ فى البحث عن يوسف فى مصر ، وقد بالغ هذا " العزيز" فى إكرامهم كما يقول الكاتب فآكَلَهُم وشَارَبَهم وأغدق عليهم ولو كانوا صادقين فى ندمهم كما يقول الكاتب ـ رأوبين على الأقل ـ لفعلوه . بل تفهم من الكاتب أن إخوة يوسف سَلَّمُوا بينهم وبين أنفسهم بأن يوسُفَ قد مات ، وأنَّهمُ مُطالَبون بدمه . قالوها حين اشترط عليهم " العزيز" ليميرهم مرةً أخرى أن يأتوه بأخٍ من أبيهم : " وقال بعضهم لبعض حقا إننا مذنبون إلى أخينا (يوسف) الذى رأينا ضِيقةَ نفسه لما استرحمنا ولم نسمع . لذلك جاءت علينا هذه الضِّيقة . فأجابهم رأوبين قائلا ألم أكلمكم قائلا لا تَأْثَمُوا بالولد وأنتم لم تسمعوا. فهو ذا دَمُهُ يُطْلَب " (تكوين٤٣/٢١ ـ ٢٢). ولا يصح هذا إلا إذا كانوا تعمدوا إلقاء يوسُف فى الجُبِّ، ولم يُخرجوه ليبيعوه إلى الإسماعيليين ، لا يَعلمون ما كان من أمْرِه : أَهَلَكَ فى الجُبِّ ، أم التقطَهُ بعض السيارة (وهى رواية القرآن) [١] ، بل استقرَّ لديهم أن يوسُفَ هَلَكَ على أيدى إخوته ، كما قال رأوبين : هو ذا دمه يطلب .

---

(١) الذى فى القرآن {يوسف : ١٦ ـ ٢٠} أن إخوة يوسف تركوه فى غيابة الجب وجاءوا أباهُم عِشاءً يبكون ، يقصون أن الذئب أكل يوسف ، لم ينتظروا مجىء السيارة ، بل جاء السيارة بعد رحيلهم، فكانوا هم الذين التقطوه غنيمة ، لم يدفعوا فيه فلسا لأحد ، لأنه لم يكن ثمة أحد .

أما محنةُ يوسف بمراودة امرأة العزيز إياه ، فهى باهتةٌ شاحبة على قلم الكاتب، وهى محنةُ يوسفُ الكبرى ، ضَرَب بها يوسُفَ المثلَ بأحدِ السبعة الذين يُظِلُّهُمُ اللهُ عز وجل بظله يومَ لا ظل إلا ظله ، كما قال الصادقُ المصدوقُ صلى الله عليه وسلم : "ورجلٌ تدعوهُ إلى نفسها امرأةٌ ذاتُ حَسَبٍ وجمال ، فيقولُ إنى أخاف الله" .

قال الكاتب (تكوين ٣٩/١١ ـ ٢٠) إن امرأة العزيز " لم تُغلّق الأبواب " ، بل دخل يوسُف البيتَ ذاتَ مرة ولم يكن أحدٌ بالبيت ، فأمسكَتْهُ بثوبه قائلة " اضْجِعْ معى" ، فترك ثَوبَهُ فى يدها وهرب إلى الخارج . فنادت أهلَ بيتها (لا تَدرى أين كانوا حين فاجأها يوسُف) وروت لهم أنه أرادها على نفسها فصرخت ، ولما صرخت تَرَكَ ثوبَهُ بجانبها وهرب. وجاء سيّدُهُ فردّدَت عليه ما رَوت لأهل بيتها وقالت : " دخل إلىَّ العبدُ العبرانىُّ الذى جئْتَ به إلينا ليداعبنى ، فلما رفعتُ صوتى تَرَكَ ثوبَهُ بجانبى وهرب إلى الخارج " . فصدقها الزوج المخدوع ، وحَمِىَ غضبُهُ على يوسف فزج به فى السجن ، لأن الزوجَ كما تعلم كان " خَصِىٌّ فرعونَ رئيسَ الشُّرَط " . ويمضى الكاتب فيقول (تكوين ٣٩/٢١ ـ ٢٣) «إن الرب كان مع يوسف فجعل له نعمةً فى عينى رئيس بيت السجن فدَفَعَ إلى يد يُوسُف جميع الأسْرَى الذين فى بيت السجن ، وكأنه جعلَ منه نائبَه ، لا ينظُر شيئا البتةَ مما فى يد يوسف ، لأن الرب كان معه ، ومهما صنع كان الربُّ يُنجحه» .

هذا هو كُلُّ ما عنى به الكاتب من فتنة امرأة العزيز ، مَرَّ عليه سريعا ولم يَعُد إليه قَطْ فيما بقى من قصة يوسف فى أحد عَشَر إصحاحا بقيت لديه من قصة يوسف (الإصحاحات الأربعين إلى الخمسين) . كان كُلَّ ما يعنيه أن يجد ليوسف علَةً يُدخلُ بها يوسف السجن ليلتقى فيه برئيس خبازى فرعون ورئيس سُقاته، يُعَبِّر لهما رؤياهما، فيذكره رئيس السقاة عند الملك حين أعضلت على الملكِ رؤياه ، فيستدعى إليه يوسُف ، وتكونُ بها " الحُظوةُ " له والنعمة لآل يعقوب .

هذا الكاتب لا يعرف قيمةَ " المادة " التى بين يديه ، ولا تَعنيه براءةُ يوسُف ، ولا يعنيه أيضا أن يُقنعك : كيف صَدَّقَ العزيز امرأتَه ولم يُحقِّق التهمة وهو " رئيسُ الشُّرَط" ؟ ما قيمةُ دلَيلِ ثوب يوسف فى يد امرأة العزيز ، ويوسُف قد هرب إلى الخارج؟ كيف سَمِعَ أهلُ البيت نداءها ولم يكن أحدٌ بالبيت؟ وكيف سَمِعُوا نداءها ولم يسمعوا صُراخها ؟ ولماذا لم يدافع يوسُف عن نفسه ؟ أتراه كان مُدنفا فى حبها فأراد

أن يبوء هو بذنبها فلا يثلم شرفَ المرأة التى أحب ؟ فما الذى عَصَمَهُ من الاستجابة لمراودتها إياه ؟ وكيف يكتفى العزيزُ رئيسُ الشرط وهو فى حَمْوِ غضبه بسجن يوسف ولم يقتل هذا العبدَ العبرانى الذى أكرم مثواه فثلم هو عرضه ؟ وكيف سكت رئيسُ الشُّرَط على رئيس بيت السجن الذى أكرم يوسف فجعل كل ما فى السجن فى يد يوسف ؟ أسئلة لاتجدُ لها جوابا إلا فى القرآن .

بل غَلَّقت امرأةُ العزيز الأبواب وقالت للذى هو فى بيتها هَيْتَ لَك ! قال معاذَ الله ! فألَحَّت عليه حتى هَمَّت به وَهَم بها ، لولا أن رأى برهان ربّه . فاستبقا الباب ، وكانت هى وراءه ، فَقَدَّت قميصَه من دُبُر ، وإذا زوجُها رئيس الشُّرَط بالباب ، وشَهِدَ شاهد من أهلها. فلما رأى زوجُها على مرأى من أهلها أن قميصَ يوسف قُدَّ من دُبُرٍ ، تَيَقَّنُوا جميعا من براءة يوسف وكَذِبِ المرأة . فماذا يفعلُ الزوج رئيس الشُّرَط بهذا الرجل الأمين الذى حفظ عرضه فى غيبته ، وما كان أيسر عليه أن يغتنم افتتانَ امرأتِه به ويَنتهزَ غفلته ، بل ما كان أحراه أن يفعل وضراوةُ الشباب تُساوره ، وسِحْرُ الخُلوَةِ يُديرُ رأسه ، والداعيةُ سيدتُه ، ذات الشبابِ والجمال ، وتغليقُها الأبوابَ وقولُها هَلُمَّ إلىَّ ، هَيْتَ لك ؟ علامَ يُعاقِبُ يوسف، بل قُلْ بماذا يكافئُه ؟ قال : يُوسُفُ! أعرِض عن هذا ، لا ذَنْبَ لك. وأنتِ استغفرى لذنبك ، أنتِ هىَ الخاطئة . ولكن الفضيحةَ تشيع ، والمرأة لا تَرْعَوِى ، قد شَغَفَها فتاها حُباً لا تملك أن تدفعه . وتغدو القصةُ حديث النسوة فى المدينة ، فتدعوهن إليها لتُشْهِدْهُنَّ يوسُف كى يَعْذُرْنَها فى حُبّه . فلما رأيْنَهُ أكبَرْنَهُ وقُلنَ حاشا لله ! ما هذا بشرا ! إن هذا إلا ملك كريم [(١)] . وتَثْمَلُ امرأة العزيز بما سَمِعَت ، فتستعلنُ بحبها ، وتعترفُ بما كان ، وتُصِرُّ على ما تُريدُ من يوسف :« فَذَلِكُنَّ الذى لمتُنَّنى فيه ، ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ، ولئن لم يفعل ما آمره لَيُسْجَنَنَّ وليكونَنْ من الصاغرين ". ويستفيضُ الأمر حتى يَصُكُّ آذانَ رئيسِ الشُّرَط . ويسمعهُ أيضا يوسُف ، ويالمِحنَةِ يوسُف بهذه الفتنة الطاغيةِ الآثمة ،

(١) تُنصب " بشرا " هنا على نزع الخافض ، وهو الباء المؤكِّدةُ للنفى ، فالأصلُ " ما هذا ببشر» ! باتة قاطعة ، والقاعدة فى المجرور بحرف أنك إن نزعت حرف الجر منه نصب . وهذا يغنيك عن تعللات علماء النحو فى هذه الآية ، ومنهم أئمة ، الذين أجهدوا أنفسهم وأجهدوا تلاميذهم ، فى جمع الشواهد على أن من العرب من يجعل لـ " ما " حكم ليس .

التى تُحاصرُ خُطاهُ فى بيتها . أتُراه كان يخشى أن يَضْعُف ، مثلما كاد يَضْعُف يوم غَلَّقَت الأبوابَ وقالت هَيْتَ لك ، فكاد يَهمُّ بها لولا أن رأى برهان ربه ؟ نعم . " قال ربِّ السجنُ أحَبُّ إلىَّ مما يدعوننى إليه ، وإلا تَصْرِفْ عنى كَيْدَهُن أصْبُ إليهن وأكُن من الجاهلين " . واستجاب له ربه فربط على قلبه : "فاستجاب له ربُّهُ فصرف عنه كيدَهُن إنه هو السميع العليم " . ولكن المرأةَ لاتَكُفُّ ، وحديثُ النسوةِ فى المدينة لاينقطع . هنا ، وهنا فقط ، لايرى رئيس الشُّرَط بدا من سَجْنِ يُوسُف ، ليحولَ بين زوجته وبينه ، عَلَّها تنقطعُ ألسنةُ النسوة ، وينقطعُ أملُ زوجَته فى يُوسُف . ولكنه يعلم كما يعلم الكُلُّ براءةَ يوسف فلا يتجاوزُ بسجنه حدَّ "العَزل" أو السِّجْنِ الوقائى، فَيُوصِى رئيسَ بيتِ السجن بإحسانِ معاملته ، وكأنَّه قال له كما قال لامرأته هذه يومَ دَخل عليها بيوسُف غلاماً فى يده : «أكرمى مثواهُ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا» . (راجع فى هذا كله الآيات ٢١ ـــ ٣٥ من سورة يوسف) .

ولكن يوسفُ لا يرضى إلا بالبراءة الكاملة ، حاسمةً قاطعة ، يومَ قَرَّرَ الملكُ أن يُخرجه من السجن ليستخلصه لنفسه ، فَيُصرُّ يوسفُ على ألا يبرح السجن حتى يسمع الملكُ شهادةَ النسوة اللاتى قَطَّعْنَ أيديهن ، اللاتى سَمِعْنَ من امرأة العزيز اعترافَها على نفسها بما صَنَعَت، فَيَضْطَرُّها إلى الاعتراف ، قالت : «الآن حصحصَ الحق ، أنا راودتُهُ عن نفسه وإنه لمن الصادقين " . أراد يوسفُ البراءةَ القاطعة من فَمِ التى ادَّعَت عليه ، تستعلنُ بها على الملأ فى مجلس الملك الذى يُريد أن يجعَلَهُ على خزائنِ الأرض، فيتسلم الأمانةَ طاهرَ الذيل عفيفَ الإزار ، وهو الحفيظُ الأمين . وأرادها أيضا لنفسه ، تَكْرِمَةً لطول مجاهدته النفس الاصطبارَ على الفتنة ، وقد عَلِمَ أن ألسنةَ الناس يَلَذُّ لها الولوغُ فى الأعراض بالشُّبهة ، ويُمضُّها التعففُ والسكوت تفويضاً لعلاّم الغيوب . وأرادها أخيرا ، بل قُلْ أرادها أولا ، إكراماً لهذا الشيخ رئيس الشُّرَط الذى أكرمَ مثواه فَربَّاهُ وكان له كأبٍ ، أن تتمزقَ نفسه بين الشكِّ واليقين ـ والشكُّ على النفس أغْلَب ـ فيقولُ يوسف : "ذلك ليعلمَ أنّى لم أخُنْهُ بالغيب، وأن الله لا يهدى كيد الخائنين " . ولا ينسى يوسفُ أن يُؤدِّبَ بها نفسه على الملأ ، سائلا الله عز وجل المغفرةَ مما حاكَ فى الصدر يومَ هَمَّت بِه وهَمَّ بها ،

فيقـول : "وما أُبَرِّئُ نفسى ، إن النفس لأمَّارَةٌ بالسوء ، إلا ما رَحِمَ ربى ، إن ربى غفورٌ رحيم . " [١] (راجع فى هذا كله الآيات ٥٠ ــ٥٣ من سورة يوسف) .

هذا هو يوسفُ الصديق صلوات الله عليه ، سليلُ ابراهيمَ وإسحاقَ ويعقوب . إن طلبتَ دليلا فوق هذا على نبوته فما أنصفت .

فماذا تجد من هذا فى سفر التكوين ؟ هذا مما لا يَعلَمُه الكاتب ، ولو عَلِمَهُ لما اهتم له . وكيف تعنيه براءةُ يوسف ، وهو يقطع الحديث عنه إصحاحا كاملا ليُسَجِّلَ على أخيه يهوذا زناهُ بثامار أرملة ابنيه " عير" و" أونان " ؟ لا يُدركُ الكاتب أهميةَ براءة يوسُف لأنه لا يُدرِكُ أهميةَ هذه النقطة المحورية فى قصة يوسف ، التى يُرَتِّبُ القرآن عليها ، لا على تفسير الحلم ، قولَ الملك :{ **ائتونى به أستخلصه لنفسى فلما كَلَّمَهُ قال إنك اليوم لدينا مكين أمين** } (يوسف : ٥٤) .

كان كُلُّ همِّ الكاتب أن يَطير بيوسفَ من السجن فيضَعه أمام الملك ، يُفَسِّرُ لهُ الحلم ويقبِضُ الجائزة : " فأرسل فرعون ودعا يوسف . فأسرعوا به من السجن . فحلق وأبدل ثيابه ودخل على فرعون " (تكوين ١٤/٤١) . وما كانت جائزةُ الذى يُفَسِّرُ الأحلامَ عند الملوك إلا أن ينفحوهُ نفحات من الذهب أو الفضة ، ويَمضى المفسِّر من حيثُ أتى ، لا يجعلونه على خزائنِ الأرض ، ولا يكون لديهم المكين الأمين ، ولا يضعون خاتَمَ فرعونَ فى يده كما يقولُ الكاتب (تكوين ٤٢/٤١) .

❑❑❑

للقرآنِ أيضا فى قصة يوسف ، لمحاتٌ هى قمة فى الفن ، يُدرِكُها المتخصصُ الذَّوَّاقة ، لانُعارض بها ما كتبه الكاتب ، فهذا مما يَقْصُرُ عنه باعُ البشر ، وإن ظَنَنْتَ أنهم كتَبَةُ وحى .

من ذلك ، ولا أُطيلُ عليك فقد أطَلْتُ بالفعل ـ وعذرى أننى أستمتعُ بما أكتب وأرجو أيضا أن يُمْتِعَك ـ لمحتان :

---

(١) لا عليك من تفاسير ترى أن القائل فى الآيتين : " ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب " ، " وما أبرىء نفسى إن النفس لأمّارة بالسوء " ، هو امرأة العزيز ، قد خانت زوجها بمراودتها يوسف ، ولم يَخُنْه فيها يوسف . هذا ضعيف ، يتعلق بعصمة الأنبياء من وساوس النفس، وليس بلازم، لقوله صلى الله عليه وسلم فى قرين السوء يلازم النفس وقد سئل : حتى أنت يا رسول الله ؟ قال نعم . حتى أنا . ولكن الله أعاننى عليه . وهى نفسها مقالة يوسف .

الأولى دَوْرُ قميص يوسف فى قصة يوسف : القميصُ الذى جاءوا عليه بدم كَذب يريدون إيهام يعقوب بأن الذئبَ أكَلَ يوسف ، فيستدل منه يعقوبُ على براءة الذئبِ من دَمِ يوسف . والقميصُ الذى قَدَّتْهُ امرأة العزيز من دُبُرٍ ، فيستدل منه زوجُها على كَذِبِ المرأة وبراءة يوسف . والقميص الذى ألقاهُ البشيرُ على وجه يعقوب فيرتَدُّ بصيرا ، وَجَدَ فيه يعقوبُ ريحَ يوسف منذ أن فَصَلت العير من مصر : { **ولما فصلت العير قال أبوهم إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تُفَنِّدُون . قالوا تالله إنَّكَ لفى ضلالكَ القديم . فلما أن جاء البشيرُ ألقاهُ على وجهه فارتد بصيرا، قال ألم أقل لكم إنِّى أعلم من الله مالا تعلمون . قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا ، إنا كنا خاطئين. قال سوف أستغفرُ لكم ربى ، إنه هو الغفور الرحيم** } (يوسف : ٩٤ـــ٩٨) . فكم من غُمةٍ ارتفعت بهذا القميصِ الناطق بالحق ؟

اللمحةُ الثانية هى دورُ الرؤيا فيما صار إليه يوسف . وهى أيضا ثلاثُ رؤًى : رؤيا يوسف التى بدأت بها القصة فى القرآن ففسرها له أبوه، وقد علم أن الله يجتبيه بها ، فيعلِّمَهُ من تأويل الأحاديث . ويزدادُ حرص يعقوبَ على يوسف ، فيكون من أمر إخوته مَعَه الذى تعلم ، ورؤيا صاحِبَىِ السجن التى فسرها يوسف فمهدت له عند الملك ، ورؤيا الملك التى أعضلت عليه وفسرها يوسف ، فخرج بها من ضيق السجن إلى سَعَةِ الملك . كان " تأويلُ الأحاديث " هو السبيلَ إلى النعمة التى أعدها الله لهذا النبى الكريم ليُمَكِّنَ له فى الأرض وليقيمَهُ على خزائنِ الأرض (والأرضُ هنا يعنى "مصر" كما قد علمت) . قالها القرآن من قبل ، ويوسف بعدُ غلام فى بيتِ مولاه رئيس الشرط : { **وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ، وكذلك مَكَّنا ليوسف فى الأرض ولنُعَلِّمَه من تأويل الأحاديث، والله غالبٌ على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون** } (يوسف : ٢١) ، وفيه تقديم وتأخير ، أى نُعَلِّمُهُ من تأويل الأحاديث لنمَكِّنَ له فى الأرض . وقالها أيضا يوسف يختتم بها القرآنُ قصتَه : { **ربِّ قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث . فاطرَ السموات والأرض ! أنت وليِّى فى الدنيا والآخرة ! تَوَفَّنِى مسلماً وألحقنى بالصالحين** } (يوسف : ١٠١) تجدُ نفسَ التقديم والتأخير ، أى قد علمتنى من تأويل الأحاديث ، فآتيتنى من الملك .

أما العبرةُ كلها من قصة يوسف ، التى فاتت الكاتب ، وأنّى لهُ وهو يبحثُ عن الفضّة والمواشى والأرض ، فقد صاغها القرآن فى عبارة واحدة على لسان يوسف حين استَعلنَ لهم : { **قالوا أئنك لأنت يوسف ! قال أنا يوسف ، وهذا أخى . قد مَنَّ اللهُ علينا . إنه مَن يَتَّقِ ويصبرْ فإن اللهَ لا يُضِيعُ أجرَ المحسنين** } (يوسف :٩١) .

وأما دور هذا " الطَّريد " فى تاريخِ بنى إسرائيل ، الذى نَبَذَه إخوته فأطعمهم وآواهم ، فهو " الجامع " بنى أبيه فى مصر ، لولاه ما كانت رسالةُ موسى وهارون.

تُرى ماذا كان من دور يوسفَ النَبىِّ فى مصر ، تلك الدعوةُ التى بدأها بين جدران السجن : { **يا صاحِبَىِ السجن أأرباب متفرقون خيرٌ ، أم الله الواحدُ القهار ؟ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إنِ الحُكم إلا لله ، أمَر ألاّ تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدينُ القَيِّم ، ولكن أكثرَ الناس لا يعلمون** } (يوسف :٣٩ ــ ٤٠) ؟ أيدعو بها يوسف بين جدرانِ السجن ، ولا يدعو بها فى بلاط الملك وقد أعزَّهُ الله ؟ لا تقرأ من هذا شيئا فى سفر التكوين ، ولكنك تقرؤه فى القرآن، يصيحُ بها "مؤمنُ آل فرعون" تقريعاً لِمن كذَّبوا موسى وهارون : { **ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ، فما زلتم فى شكٍ مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا ، كذلك يضلُّ الله من هو مُسرِفٌ مُرتاب** } (غافر : ٣٤) . هذا نصٌ على أن يوسف دعا بدعوته هذه المَلكُ وملأه ، وأن الدعوةَ نفذت إلى قلوبهم ، فما كان المَلِكُ ليَجعلَهُ على خزائن الأرض لِمجرد أنه مفسر يجيد تأويل الأحاديث ، ولكن الدَعوةَ لم تصمد لنفوذ الكهنة ، فبقيت حبيسةً صدر من آمن ، وماتت بموت يوسف ، إلا ظِلالٌ فى الذاكرة يختلط فيها الشكُّ باليقين عاشت إلى عصرِ موسى وهارون .

ولكن الذى يعنينا فى هذا الكتاب الذى نكتب ، هو الدورُ التاريخىُّ ليوسف عليه السلام فى بنى إسرائيل ، الذى مَهَّدَ لبنى يعقوب فى مصر فدخلوها آمنين : {**فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين** } (يوسف : ٩٩) : إنه " الذى آوى " . وبها فَسَّرَ القرآن هذا الاسم العَلَمَ كما سترى .

□□□

يشتقُّ علماء التوراة اسمَ " يوسف " من الجذر العبرى " يَسَفْ " على المضارعة التى يراد منها اسم الفاعل . والمعنى هو " يَزيد " ، لأن " يَسَفْ " العبرى ، المتحور عن " ضَفَا " العربى ، يجىء بمعنى زادَ ونَما .

وهم كما مر بك يُرَتِّبون هذا التفسير على قول والدته حين وضعته :" وَدَعَتْ اسمه يوسف قائلة : «يَزيدُنى الربُّ ابنا آخر " (تكوين ٣٠/٢٤)

والذى يجب أن تعلمه ، أن اسم "يوسف " يجىء بين أعلام التوراة غيرَ مسبوق ، لم يَتَسَمَّ بهِ أحدٌ قبلَه ، وإن ذاع من بعدُ وانتشر . فهو إذن اسم موضوع لشخصه هو ، على النبوءة والتفاؤل ، تَمَنَّت بها راحيلُ على الله أن "يزيدها" بـ "يزيد" ابنا آخر ، وقد استجاب الله دعاءها فأنجبت من بعد يوسف مولودها الثانى الذى ماتت وهى تضعه ، " بنيامين " ، المَعْنِىُّ بقوله عز وجل : { **ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه ، قال إنى أنا أخوك ، فلا تبتئس بما كانوا يعملون**} (يوسف : ٦٩) .

أراد كاتب سفر التكوين هذا المعنى فأورده على لسان راحيل ، وتَابَعَهُ من بعدُ علماء العبرية وعلماء التوراة . والذى لم يلتفت إليه هؤلاء وأولئك ، والتفت إليه القرآن ، هو دلالة اسم "يوسف " على دور " يوسف " فى تاريخ بنى إسرائيل : إنه "يوسف" الذى آوى ، يوسف "الآوى المضيف" أَلْهِمَتْهُ راحيل وهى تضع يوسف ، وتصدَّى الكاتب كدأبه لتفسيره فى سفر التكوين ، فاشتبه عليه، كما اشتبه عليه من قبلُ " بابل" و " إسرائيل " .

□□□

فى العبريةِ أيضا الجذرُ " أَسَفْ " ، يجىء فى المضارعة على " يُوسِفْ " غيرَ مهموز [١] ، بنفس نطق اسم " يوسِف " فى التوراة . وفى كتابته أيضا وجوه ، أحدُها الذى يُرْسَمُ فى الخط العبرى بنفس أحرف كتابة اسم " يوسِف " فى التوراة .

---

(١) " آسَفْ " العبرى هو أحد أفعال خمسة فى العبرية فصيحُها تسهيلُ الهمزة فى المضارع ، منها على سبيل المثال ، وهو أشهرها ، الفعل " أمَرْ " العبرى يعنى " قال " ، ومضارعه " يُومِر " غيرَ مهموزٍ وجوبا .

ويجىء الجذرُ "أَسَفْ" في العبرية بمعنى الجمع واللَّمّ والضَّمّ والإيواء والضيافة. ومنه فى العبرية المعاصرة " أسِيفا كْلالِيت " ، يعنى " الجمعية العامة " . ويصلُح هذا الجذر أيضا لمعنى " نَزَعَ " ، لأنك حين تَنْزِعُ شيئاً ما فأنت " تسحبه " وكأنك تضمه إليك .

إن اشتققت اسم " يوسف " من هذا الجذر العبرى " أسَفْ " ، فالمعنى أنه "الجامع" بنى يعقوب فى مصر ، الذى استضاف وآوى .

والذى يستوقف النظر فى عبارة سفر التكوين على لسان راحيل التى تُصَدِّرُ بها لتسمية "يوسف " ، استخدامُ راحيل هذا الجذر العبرى " أسَفْ " نفسَه فى قولها حين مَنَّ الله عليها بيوسف بعد إذ امتنع عليها الوَلَدُ من قبل وسبقتها أختُها وضَرَّتُها "ليئة" : " أسَفْ إلوهيم إتْ حرپّتى ! وتقْرا إت شْمُو يوسِف " (تكوين ٣٠/٢٤) التى تجدها فى الترجمة العربيةَ هكذا : "قد نزع الله عارى ! ودعت اسمه يوسف" . أى بيوسف نزع الله خَرْبَةَ العقم عنى ! (والخَرْبَة التى تحوَّرت عنها " حرْپا " العبرية يعنى العيب والفضيحة) .

وتستدل أنت من هذا على أن راحيل نفسها وهى تُصَدِّرُ للتسمية ، لا تشتق "يوسف " من " يَسَفْ " العبرى بمعنى " يزيد " ، وإنما تشتقه من " أسَفْ " العبرى بمعنى جمع وضم ، أى " لَمْلَمَ " ، وهو المعنى الرئيسى لهذا الجذر العبرى " أسَفْ " . ولكن الترجمة العربية " نزع" ، تُعَمِّى عليك ـ دون قصد بالطبع ـ هذا المعنى .

ولأن " الآوى المضيف " هو التفسيرُ القرآنى لمعنى اسم يوسف عليه السلام ، فنحن لا نحيدُ عنهُ إلى غيره مع الاعتذار الواجب لعلماء التوراة الذين لو اطَّلعوا على ما نقوله الآن ـ من حيث دلالة الاسم على المسمَّى ـ لما ارتضوا بهذا التفسير بديلا .

□□□

أما مفسرو القرآن (راجع تفسير القرطبى للآية ٤ من سورة يوسف) فالكثرة منهم على عُجْمَةِ اسم يوسف ، إلا من شذَّ فاشتقه من العربية فقال إن الأسف فى اللغة (يعنى العربية) هو الحزن ، والأسيف يعنى العبد ، وقد اجتمعا فى يوسف . وليس هذا بشىء كما مر بك ، لأنه يفسر الاسم بغير لغة صاحبه ، فلا تلتفت إليه .

على أن "يوسف" لم يُسَمِّه الذى اشتراهُ من مصر ، حتى يقول "العبد" بالعربية أو العبرية أو المصرية ، كما أن أحدًا لا يُسَمِّى ابنَه يومَ مولده " المحزونَ الأسيف " .

هذا هو التفسير بالتخمين ، فلا شأنَ لك به أيًا كانَ القائلُ والناقل .

□□□

قال عز وجل فى كتابه المصدق المهيمن ، يُفَسِّرُ به اسمَ يوسف : { **فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين** } (يوسف : ٩٩) . وقال عز وجل من قبل : { **ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه** } (يوسف :٦٩) .

يوسف فى هاتين الآيتين يعنى الذى استضاف وآوى ، فهو "الآوى المضيف" وهو عَلَمٌ يلخص أبلغَ تلخيص دورَ يوسف عليه السلام فى تاريخ بنى إسرائيل .

وسبحان العليم الخبير .

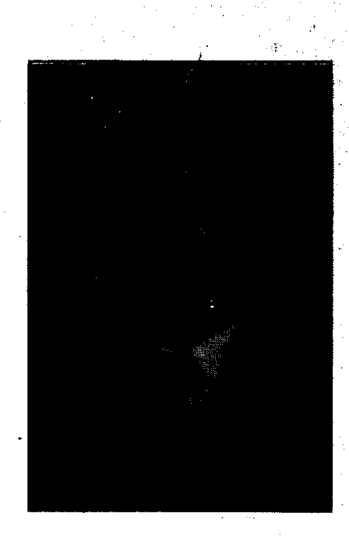
كان يوسفُ عليه السلام ـ كما كان من قبلُ أبواه يعقوب وإسحاق ـ من أنبياء القدوة ، لا من أنبياء الدعوة .

وإنما كانت الدعوة بموسى وهارون .

محتويات الكتاب

الموضـــــــوع | صفحة

صفحة



محمود رءوف عبد الحميد أبو سعدة

- هذا أول كتاب ينشر للمؤلف وقد أربى على الستين ولكنه فى مباحث إعجاز القرآن ، كما رأيت ، رائعةٌ من روائع هذا القرن العشرين .
- ولد المؤلف بالاسكندرية فى ١٩٢٨/١٢/٥ وتخرج فى جامعتها بدرجة الليسانس فى الفلسفة وبدأ حياته العملية باحدى كبريات شركات التأمين ثم تركها فى يونيو ١٩٧٨ وهو بدرجة مدير عام ليعمل بالأمم المتحدة بجنيف مترجما ومراجعا حتى تقاعده فى ديسمبر ١٩٨٨ .
- على هامش الموضوع الرئيسى لهذا الكتاب وهو تلك المعجزة القرآنية الكبرى التى يُكْشَفُ عنها لأول مرة منذ نزول القرآن ، يتناول المؤلف - بقلمه الرصين ، وأسلوبه الأخاذ المتدفق ، وحِجاجه العقلى الذى لا يتركك حتى تُسَلِّمَ له بكل ما يقول - قضايا بالغة العمق ، فى علم التفسير ، وقصص الأنبياء ، وفى السياسة والاجتماع ، ومقارنة الأديان ، وغايات الانسان .
- ينضح هذا الكتاب ، إلى جانب مباحثه اللغوية المتخصصة ، بعلم موسوعيٍّ غزير صاغه المؤلف بأسلوبٍ نابض بالغ التأثير ، ليفيد منه القارىء المتخصص والقارىء العام ، ولا تخلو صفحة من صفحات الكتاب من نظراتٍ كاشفة نَفَّاذة ، ومن نبضات روحانية مُشعَّة تُدْفِىءُ القلبَ والعقل ، إلى جانب البيان الساحر الذي يجعل من هذا الكتاب قطعةً من الأدب الرفيع .
- انه ، دون مبالغة ، كتابُ القرْن ، تتمنى مخلصا ألا يخلو منه بيتُ مسلم ، كما تتمنى لو بادر المؤلف بنشر ترجمة له أو ملخص بالانجليزية ليفيد منه غير العرب ، مسلمين وغير مسلمين ، فى شتى بقاع الأرض . وقد وعد المؤلف بذلك ، وعسى أن يكون قريبا .

الثمن ٧٠٠ قرش



رؤوف أبو سعدة

العلم الأعجمى فى
القرآن مفسرا بالقرآن

من إعجاز القرآن

فى أعجمى القرآن

(الجزء الثانى)

وجه فى إعجاز القرآن جديد

دار الهلال

من إعجاز القرآن

العلم الاعجمى فى القرآن

مفسراً بالقرآن

فى أعجمى القرآن

وجه فى إعجاز القرآن جديد

بقلم

رؤوف أبو سعدة

●

دار الهلال

(الجزء الثانى)

الغــلاف للفنـــان :

محمد العيسوى

مقدمة الجزء الثانى

بقلم : المؤلف

فى ١٨ يناير سنة ١٩٩٤ أصدرت «دار الهلال» الجزء الأول من كتابى «من إعجاز القرآن فى أعجمى القرآن» ، وها هى اليوم تصدر الجزء الثانى المتمم لهذا الكتاب .

ورغم الجهد الضخم الذى بذلته «دار الهلال» فى إخراج هذا الكتاب فى الثوب اللائق بموضوعه، فقد وقعت فى طباعة الجزء الأول هنات لايخلو من مثلها اليوم كتاب. وترد فى نهاية هذا الجزء الثانى قائمة بأهم تلك الأخطاء مع تصويباتها .

ولا يفوتنى التنويه بأننى كنت قد فرغت من كتابة هذا البحث منذ نحو ثلاث سنوات ، وبالتحديد فى ١٢ أبريل سنة ١٩٩١ ، على أساس أن يصدر كله فى مجلد واحد ، ولكن كبر حجم الكتاب الذى تجاوز سبعمائة صفحة ، وموضوعه المتخصص ، كانا وراء تأخرى فى نشره بسبب تخوف الناشرين الذين عرضته عليهم من نشر كتاب كهذا لمؤلف غير معروف . ولكن «دار الهلال» ، الرائدة فى هذا المجال ، قبلت مشكورة بركوب المخاطرة عندما عرضت عليها مسودة الكتاب فى ديسمبر سنة ١٩٩٣، إلا أنها اشترطت إصداره فى جزأين تيسيرا على القارىء .

وقد ترتب على قسمة الكتاب جزأين أن فات قراء الجزء الأول الاطلاع على قائمة المراجع فى ذيل الكتاب ، كما فاتهم أيضا الاطلاع على الفصل الأخير «فى ختام البحث» الذى يشرح قصة هذا البحث ، وكيفية إعداده ، ونتائجه ، كما يشرح الأساس الذى استندت إليه فى انتقاء مراجعه . ولو أتيح الكتاب كله دفعة واحدة للقارىء لرد جزؤه الثانى - الذى بين يديك - على كثير من النقدات التى تفضل بها الدكتور الطناحى فى تقديمه للجزء الأول ، وشاطره إياها الدكتور محمد رجب البيومى فى مقاله بعدد المصور ٣٦١٨ بتاريخ ١١ فبراير سنة ١٩٩٤ .

والذى ينبغى التنبيه إليه أن موضوع هذا الكتاب هو تفسير العلم الأعجمى فى القرآن بالقرآن نفسه ، ومن ثم فهو يدور على محورين اثنين فقط : (١) تأصيل معنى العلم الأعجمى فى لغة صاحبه ، وهذا يحتاج فحسب إلى مباحث لغوية متخصصة فى مصادرها «الأعجمية» ، لا شأن لها بالمصادر العربية القديمة والحديثة التى تناولت تفسير هذا الاسم الأعجمى أو ذاك ولم توفق لسبب بسيط هو عدم معرفة أصحابها بتلك اللغات الأعجمية التى أشتق منها العلمى الأعجمى فى القرآن ، ومن ثم فلا فائدة من استئناس المؤلف بها . (٢) استخلاص اللفظ القرآنى أو العبارة القرآنية المُفَسِّرَيْنَ لمعنى الاسم الأعجمى العلم على منهج المؤلف فى هذا الكتاب ، لا حاجة بالمؤلف إلى كتب التفسير وكتب الحديث ، وإنما كان استصحاب المؤلف لتفسير «القرطبى» على سبيل التمثيل فحسب لما قاله علماء التفسير فى معانى الأعلام الأعجمية فى القرآن وكلها حين تتصدى لتفسير الأسماء الأعجمية تفسر الأعجمى بالعربى . وتفسير القرطبى أكثر من كاف لأغراض هذا التمثيل .

قال الدكتور الطناحى أيضا أننى لم أستأنس بالمؤرخين العرب الذين كتبوا فى الترتيب التاريخى للأنبياء والمدد التى بينهم . والواقع أن هؤلاء المؤرخين حين كتبوا فيما لم ينص عليه القرآن والحديث الصحيح انما كانوا يستمدون رأساً من مرويات أهل الكتاب ، لا مصدر لهم غيرهم . والذى فعله المؤلف أوثق وأحصف ، لأنه فيما لم ينص عليه القرآن والحديث الصحيح يرجع رأساً إلى «العهد القديم» ، مصدر كل مرويات أهل الكتاب ، لا إلى مستنسخات من أقاصيص أهل الكتاب ، ومنهم الذين وصفهم الحق سبحانه بأنهم «لايعلمون الكتاب إلا أمانى» . على أن المؤلف لم يأخذ كل نصوص العهد القديم بالتسليم بل رد كثيرا منها من مثل المدة التى بين آدم ونوح عليهما السلام ، والتى بين نوح وإبراهيم عليهما السلام ، على نحو ما أورده فى التقديم لمبحث نوح .

أما أن المؤلف عم القول بأن «المصادر الأولى» - أى العربية - تهيبت تكذيب التوراة فيما نصت عليه من أن الذبيح هو اسحق لا اسماعيل ، وأن الحافظ بن كثير على سبيل المثال انتصر للرأى القائل بأن الذبيح هو اسماعيل لا اسحق ، فليس هذا بصحيح ، لأن المؤلف قال بالنص (صفحة ٢٨٦ سطر ١ من الجزء الأول) : «ان جمهرة

من المفسرين قالوا أن الذبيح هو اسحق .. ولم يقل كل المفسرين . وبعد أن ذكر المؤلف أسانيده فى تأييد القول بأن الذبيح هو اسماعيل لا اسحق ، عقب فى آخر الصفحة ٢٨٧ من الجزء الأول بقوله : وقد نبه على هذا كله أو معظمه اجلاء المفسرين الذين قطعوا بأن الذبيح هو اسماعيل . أما استشهاد ابن قيم الجوزية بنص القرآن على اجتماع يعقوب فى البشارة باسحق تنبيها على استحالة تصديق إبراهيم الرؤيا بذبح اسحق صبيا لم يولد له بعد يعقوب ، فهذا يصلح فى جدال خصومه من المفسرين القائلين بأن الذبيح هو اسحق ، ولا يصلح فى مواجهة أصحاب التوراة . أما المؤلف فقد استشهد من التوراة على التوراة التى جاء فيها أن الله بشر إبراهيم قبل سنة من مولد اسحق بابن يولد له منجاب كثير النسل ، اثباتا لتناقض الكاتب مع نفسه . حيث لا ذكر فى التوراة لاجتماع يعقوب مع اسحق فى البشرى باسحق .

أما القول فى استدلالى بحديث الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم من قوله للنسوة اللاتى تبعن الجنازة : ارجعن مأزورات غير مأزورات ، لأن «مأزورات» فى هذه العبارة جاءت على الازدواج الصوتى فحسب ، وليست من المطرد المنقاس ، ومن ثم فهو لا يصلح للتنظير بأن «ازر» و«وزر» سيان فى مبحث «آزر» ، فالحق أننى لم أستدل بهذا الحديث ولم أُنَظِّر به ، وإنما أوردته على سبيل الاستئناس فحسب . أما الذى استدللت به فهو أن «الأزر» من معانيه «الظهر» ، وأن «الآزر» - اسم أبى إبراهيم - يصلح بمعنى المأزور المحمول على أزره أى على ظهره ، وقلت بالنص «وإن لم يسمع من العرب» .

قال الدكتور الطناحى أيضا أن المؤلف يعمم القول بخطأ المفسرين واللغويين فى فهم عبارة القرآن «إن إبراهيم كان أمة» (النحل : ١٢٠) بمعنى الرجل الجامع لخصال الخير «لا بمعنى القدوة أو الإمام كما فسرها المؤلف». والحق أننى بعضت ولم أعمم ، بل قلت بالنص فى حاشية الصفحة ٢٧٤ : قالت بعض التفاسير كما قالت بعض المعاجم. إلخ .

أما أنى خالفت قواعد النحو بقولى أن الاسم العلم لايوصف إلا على البدل أو الخبر ولا يوصف على النعت لأن النعت يخصص والاسم العلم متخصص بذات علميته ، فهذا بالفعل جديد لم يقل من قبل ، وكان حقه أن يقال : الفيصل الحاسم بين البدل والنعت أنك فى البدل تستطيع تقديم البدل على المبدل منه فى مثل «زيد التاجر»

و«التاجر زيد» دون إخلال بالمعنى من أى وجه ، ولكنك لا تستطيع تقديم النعت على المنعوت فى مثل «النجار الأمين» و «الأمين النجار» ، وإنما يصح ذلك فقط فى الاسم العلم .

وأما استيحاش الدكتور الطناحى لعبارة «موسيقى القرآن» التى استخدمها المؤلف ضمن «أوشاب» أى «شوائب» شابت أسلوبه «العذب المصفى» فعزائى هو قول الدكتور الطناحى أن هذه الأوشاب باتت كالعدوى المهلكة التى تتسلل إلى «الأساليب الشريفة» . مصداق ذلك أن الدكتور البيومى الذى أيد الدكتور الطناحى فى «نقداته الصائبة» استخدم هو نفسه عبارة «موسيقى القرآن» فى مقاله عن الكتاب بمجلة المصور غير مبال ، على أن الموسيقى التى أعنيها ليست هى الطبل والزمر والضرب بالدف وعزف القيان ، وإنما هى النغم والجرس والنظم والاتساق جميعا ، لا يصلح فى موضعها «النظم والاتساق» فقط كما اقترح الدكتور الطناحى : موسيقى القرآن تتحرى الحرف قبل اللفظ ، تلفظ الحوشى وتتحرى الجمال ، وما ذكره المؤلف فى الفصل الأول من الكتاب عن خصائص لغة القرآن كاف فى تبيان معنى «الموسيقى» الذى أراده المؤلف ، ففى الموسيقى ما يقرع السمع عنيفا ، وفيها أيضا الدمث اللين ، وما بين بين، ولكل مقام فى القرآن مقال . وأما أن الموسيقى لفظ أعجمى ، فقد أفاض المؤلف فى كتابه فى قواعد الاستعارة من اللغات الأعجمية وأنها مقبولة مشكورة حين الحاجة إليها وتعذر الاتيان بلفظ من العربية مساو تماما للفظ الأعجمى المستعار فى معناه ، بل لم يتحرج القرآن نفسه من هذه الاستعارة على نحو ما ضربناه من أمثلة من القرآن .

أما الدكتور البيومى فى مقاله بمجلة المصور ، فقد زاد من عنده ثلاث «نقدات» أولها أننى حين عرضت فى الجزء الأول لفتنة داود بامرأة ضابطه كنت أنقل عن إسرائيليات فندها الزمخشرى فى تفسيره ، وأننى لو اطلعت على هذا التفسير لنزهت داود عليه السلام عن ذلك . والواقع أننى اطلعت على ما قاله الزمخشرى ، ولا أوافق عليه لأنه مفتعل مصنوع لا سند له ، وإنما تعلق الزمخشرى بمقولة عصمة الأنبياء فأجهد نفسه فى تأويل الآيات ٢١ — ٢٦ من سورة ص على نحو يتصادم مع منطوق الآيات ، فقال إنما عوتب داود لأنه انشغل بالعبادة عن مجلس القضاء لا من أجل

افتتانه بامرأة ، وهذا يدفعه قول الحق سبحانه : « **وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب** » (ص : ٢٤) . ولست من القائلين بأن عصمة الأنبياء مطلقة ، وإنما هي فحسب في البلاغ عن الله عز وجل . ولم يستمد المؤلف مقولته من اسرائيليات دون تمحيص كما قال الدكتور البيومي في مقاله ، وإنما يستمد من النص القرآني ذاته . ولو صبر الدكتور البيومي لقرأ في الجزء الثاني في مبحث «سليمان» ما يثلج صدره في هذه القضية ، التي محصناها تمحيصا .

تابع الدكتور بيومي أيضا الدكتور الطناحي في قوله أنني لم أستفد من المصادر العربية ، فقال على سبيل المثال أنني لم أستفد من «مفردات» الراغب الأصفهاني ، لأنه في حديثه عن الأعلام الأعجمية يصلح أن يكون عمادا للمؤلف في كثير من اتجاهاته ولو رجع إليه لوجد فيه العضد والمعين . وقد سبق أن ذكرت أن تلك المصادر جميعا لا فائدة منها في تأصيل مباحث هذا الكتاب القائم ابتداء على تأصيل معاني الأعلام الأعجمية في القرآن استنادا إلى لغة صاحب الاسم العلم ، لا إلى أقوال المفسرين وعلماء العربية الذين لا يملكون أدوات هذا التأصيل لعدم معرفتهم بتلك اللغات الأعجمية . أما ما قاله الراغب الأصفهاني بشأن الاسم «آدم» - وهو اسم عربي يخرج عن مقاصد الكتاب كما ذكرت - فلا فائدة فيما زاده على ما جاء في القرطبي ، أعني تفسيره الاسم على معنى الخلق من عناصر وقوى متفرقة ، أو لما طُيِّب به من الروح المنفوخ فيه ، لأن الاسم «آدم» مفسر في القرآن في منهجنا في هذا الكتاب بأنه من التراب والأديم ، على نحو ما ذكره القرطبي وغيره ، وهذا كاف .

قال الدكتور البيومي في ثالثة «نقداته» أنه لا يتفق مع المؤلف في قوله أن أهل مدين أهم صحاب الأيكة ورتب الدكتور البيومي اعتراضه في الاحتجاج لمن قالوا أن مدين غير أصحاب الأيكة على أن القرآن قال (**وإلى مدين أخاهم شعيبا**) بينما قال في أصحاب الأيكة (**كذب أصحاب الأيكة المرسلين . إذ قال لهم شعيب ألا تتقون**) ولم يقل (**أخوهم شعيب**) ، فهو إذن ليس أخاهم ، وإنما غريب عنهم . وليس بلازم . ليس بالدليل المرجع إن لم يكن ملزما كما قال الدكتور البيومي . على أن المؤلف لم يبن مقولته في التوحيد بين مدين وأصحاب الأيكة إلا على نقطتين اثنتين : وحدة الرسول ، أي شعيب ، وثانيا وهو الأهم ، أن شعيبا يأخذ على هؤلاء ما يأخذ على أولئك ،

خسرانهم الكيل والميزان وبخسهم الناس أشياءهم وعثوهم فى الأرض مفسدين (الآيات ١٧٧ ــ ١٨٩ من سورة الشعراء) . ومع وضوح حجة المؤلف فقد قال بالنص فى ختام كلامه : نقول هذا ولا نخوض فى غيب الله ، فالله عز وجل بغيبه أعلم (الصفحة ٢٥١ من الجزء الأول) .

على أننى مهما قلت لا أستطيع أن أفى الأستاذين الدكتور الطناحى والدكتور البيومى حقهما من الشكر على اشادتهما الكريمة بالكتاب وكاتبه ، فلا يسعنى إلا أن أقول : الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

وكل أملى أن يقابل الجزء الثانى من الكتاب - وهو بين يديك - بما قوبل به الجزء الأول من حفاوة وتكريم .

والحمد لله رب العالمين .

المؤلف

محمود رؤوف عبدالحميد أبو سعدة

الفصل السابع

موسى وهرون

يتناول هذا الفصل تفسير عشرة أعلام : موسى، هرون، فرعون، هامان، قارون، مصر، سيناء، التوراة، يأجوج ومأجوج، اليهود .

والأعلامُ الخمسةُ الأُولى (موسى ـ هرون ـ فرعون ـ هامان ـ قارون) أصحابُها متعاصرون، فقدَّمنا أولياءَ اللهِ على أعدائه ورتَّبنا أعداءَ الله على حسب أهميتهم . أما (مصر)، (سيناء)، فهما مسرحُ الأحداث . وفى سيناءَ نُودِىَ موسى وأُنزِلت (التوراة) . وجاءت بعدَ التوراة (يأجوج ومأجوج)، التى ارتبطت فى القرآن بقصة "ذى القرنَيْنِ"، لأننا نُرَجح، كما رَجَّحَ مفسرون ـ والله عز وجل بغيبه أعلم ـ أن "ذا القرنين" هو نفسه الذى فى سورة الكهف، العبدُ الصالح الذى صاحَبَهُ موسى فخرقَ السفينةَ وقتلَ الغُلام، وَرمَّ الجِدارَ الذى كان يريدُ أن ينقضَّ فأقامه . وجاءت (اليهود) بأُخْرَةٍ ، لأنهم عَصَوا اللهَ عز وجل ثم هادوا ، ثم عَصَوا من بعد. والتسميةُ الآن (وهى على المدح كما سترى) . لا تنطبقُ عليهم . عسى ربُّهُم أن يرحَمَهُم، أو يتوبَ عليهم ليتوبوا .

(٣٠) موسى

" موسى" فى القرآن ليست هى، كما يظن كثيرون، تعريبَ "موشيه" التى فى التوراة، اسم نبى الله موسى الكليم صلوات الله عليه، عند اليهود . وإنما "موسى" فى القرآن هى تعريبٌ قرآنىٌّ مباشر لهذا الاسم فى لغة " آل فرعون " الذين التقطوا موسى من اليم مجهولا غيرَ ذى إسم، فكانوا أصحابَ الحقِ فى تسميته بلغتهم هم، أى بالمصرية القديمة .

والمصرية القديمة كما تعلم لغةٌ منقرضة ظلّت قرونا حبيسةَ البَرديات والنقوشِ والمعابد ، فلم تَبُح بأسرارها إلا ابتداءً من أواسط القرن الميلادىِّ التاسع عشر، بعد نحو ثلاثة عشر قرناً من نزول القرآن .

ولكنك تعلم أيضا أن القائلَ فى القرآن هو الله عز وجل، القائلُ بكل اللغات، الذى علَّمَ آدمَ الأسماءَ كُلَّها ، الذى اختلافُ ألسنةِ الناسِ من آياته، الذى أنطق بها خلقه : إنه واضعُها ومُلهِمُها .

نعم . يسَلِّمُ اللغويون الآن بأن اسم "موسى" عليه السلام من المصرية القديمة، لا من العبرية، لغة أُمِّه وأبيه . ولكن متى قالوها ؟ قالوها بعد أن قالها القرآن بنحو ثلاثة عشر قرنا ، ولم يفطن إليها أحد .

فى تفسير القرآن اسم "موسى" بلغة " آل فرعون "، آيةٌ أىُّ آية .

□□□

أما علماءُ التوراة فقد ألزمتهم عبارةٌ فى " سفر الخروج " بتفسير " موسى" على اللفظ العبرانى، التى ينطقونها "موشيه" كدأب العبرية فى " تَشْيِين " السينات وإمالة الألف، فقالوا إن "موسى" عبرانية، على زنة الفاعل من الجذر العبرى "مَشَا" (ومكافئهُ

العربى مَسا / يمسُو بمعنى سَلّهُ أو أخرجه بلطف ومنه مسا الناقة أى أُخرجَ الولدَ منها ميتا)، فهو " موشيه" أى " الماسى"، ويفسرونها بأنها تعنى " نَشيلُ الماء "، أى الذى التقطه آلُ فرعونَ من اليم، لقول كاتب سفر الخروج : " ودَعَت اسمَهُ موسى (موشيه فى الأصل العبرانى) وقالت إنى انتشلتُهُ من الماء" (خروج ٢/ ١٠) .

ولا يصحّ هذا عبريا، لأن موشيه على زنة الفاعل تعنى أن موسى كان الماسى لا المَمْسُوُّ، أى كان هو الناشل لا المنشول، فلا يجوز فى العبرية استعمال زنة الفاعل على قصد المفعول، وإن جاز هذا فى العربية . ولكن علماءَ التوراة ـ لا علماء العبرية ـ افترضوا جوازَه ليستقيم لهم المعنى . وفاتهم أن من أعلام التوراة " نِمْشِى" من نفس الجذر " مَشا " ومعناه المَمْسُوُّ على المفعولية ، ولو أُريدت تسمية موسى على هذا المعنى لكان الاسم " نِمْشِى"، ولما كان "موشيه" . أو لكان " ماشُوىْ " على المفعولية المباشرة من " مشا " العبرى . ومنهم من قال أيضا بأن "موشيه " على الفاعلية من "مشا " تفيد معنى " المُخَلِّص"، أى الذى انتشل بنى إسرائيل من مصر، تسميةً على النبوءة كدأبهم . فلا تدرى كيف يطرأ هذا المعنى على ذهن التى انتشلته من الماء (ابنةُ فرعون فى التوراة): يُخَلِّصُ مَنْ، وكيف، ومتى ؟

أما الذى لا يصحُّ البتة فهو افتراضُ عبرانية اسم "موسى"، وعلى لسان من ؟ على لسان "ابنة فرعون" فى قصر فرعون، تلتقطه من اليم فتفهم أنه من " أولاد العبرانيين " كما يقول الكاتب، فتتعمد تسميته تسميةً عبرانية، وهى لا تفهمُ حرفا من تلك اللغة، لغةِ عبيدِ فرعون كما تقرأ فى التوراة، والأصح أن يتعلّمَ العبيدُ لغةَ السادة لا العكس. وإنما المنطقى المتوقع من "ابنة فرعون" أن تسمى الذى انتشلتْهُ من الماء بلغتها هى، أى بالمصرية القديمة، فتقول مثلا حال التقاطها إياه : هذا ابنٌ لى ! أنا التى انتشلتُهُ من الماء ! أو شيئا قريبا من هذا . والذى قالهُ كاتبُ سفر الخروج على لسانها يتفق مع هذا ولا يتعارض معه " ودَعَت اسمه موسى وقالت إنى انتشلتُهُ من الماء " . لأن " انتشلتُهُ من الماء " ليست بالضرورة ترجمةً للاسم الذى اختارته، فهى عبارة تفيد الاختصاص، أىَ لأنى أنا التى انتشلته من الماء فهو لى، يصلح فى موضعها " فهو ابنٌ لى "، أتّخذُهُ ولدا (وهو معنى اسم موسى بالمصرية القديمة كما سترى)، فلا تَدرى لماذا أَلزَم علماءُ التوراة أنفسَهُم بما لا يَلزَم من عبارة الكاتب. فأصروا ـ ولا يزالون يصرون رغم ما تكشف من أسرار اللغة المصرية القديمة منذ أواسط القرن

الماضى ـ على أن "موسى" (أى موشيه) اسم عبرانى وإن تصادمَ الاشتقاقُ مع نحوِ تلك اللغة .

والذى يجب أن تَعْلَمَه هو أن العبرانيين ـ الذين آواهم المصريون منذ عصر يوسف إلى عصر موسى وهرون ـ كانوا بحكم وجودهم بين ظهرانَى المصريين نحو أربعمائة وثلاثين سنة كما تقول التوراة، يُجيدون اللغة المصرية القديمة، فيحسنون فهمَها كما يحسنون الحديثَ بها، وأنهم ما كان ليفوتَهم أو يفوتَ موسى نفسَه معنى "الابن " الذى فى اسم "موسى" بهذه اللغة المصرية القديمة، بل تَجدُ هذا واضحا على قلم الكاتب وإن لم يفطِن هو إليه ولم يفطِن قارئوه :" فأخذت المرأةُ الولد وأرضعته . ولما كبر الولد جاءت به إلى ابنة فرعون، فصار لها ابنا" (خروج ٢/٩ ـ ١٠) أى صار موسى ابنا لابنة فرعون، يعنى صار يُدعى كذلك . ولو كانت أسفار التوراة الخمسة الأولى قد كُتبت على عصر موسى وهرون، أو قريباً منه، لما أُعضلَ معنى "موسى" فى المصرية القديمة على كتبة التوراة، فالتمسوا تفسيرَهُ من العبرانية . وهذا دليلٌ لُغَوىٌّ لا يُنقَض على كتابة أسفار التوراة الخمسة الأولى بعدَ قرونٍ من وفاة موسى، أى من الذاكرة، لا من الوحى : كان العبرانيون على عصر داود وسليمان قد أُنْسُوا تماماً هذه اللغة المصرية القديمة التى كانوا يتكلمونها على عصر موسى وهرون مع سادتهم المصريين . دليلُكَ فى هذا ـ لا من خَطَئِهم فى فهم معنى "موسى" من المصرية القديمة فحسب ـ وإنما أيضا من خطئهم فى فهم معنى" فِرعون "، وهو من المصرية القديمة بلا خلاف، فقالوا ان " پَرْعُو" (أى فرعون) تعنى عند المصريين " الملك "، وليس بشىء، لأن علماء اللغة المصرية القديمة يقولون لك أن "پر + عـا" تعنى "البيت + الكبير"، أو البيت العظيم، على نَسَقِ " الباب العالى " عند الخلفاء العثمانيين، يُكَنَّى بها عن شخص الملك مهابةً وتفخيما .

هذا " التفسير بالتخمين "، أعنى تفسير علماء التوراة اسم " موسى" من العبرية تَمَحُّلاً واعتسافا، لا لسبب إلا لأن المصرية القديمة أعضلت عليهم، تفسيرُ لا يُعْتَدُّ به، لأنه تفسيرٌ لاسم من المصرية القديمة بغيرِ لغةِ الذى سمَّى، شأنُهُ شأنُ تفسيرِ من تَوَرَّطَ من مفسرى القرآن فَفَسَّرَ العبرىَّ بالعربى، فلا تلتفتُ إليه .

□□□

على أن من مفسرى القرآن (راجع تفسير القرطبى للآية ٥١ من سورة البقرة) من فَطَنَ إلى ما لمْ يَفطِن إليه علماءُ التوراة، فافترضَ على ما يقتضيه المنطقُ الصِّرف أن اسم "موسى" اسمٌ بلغة " آل فرعون " وراح يلتمسُ معناه عند معاصريه من القِبْط (وهم مصريو زمانه) يَظُنُّ لغتَهم هى نفسَ اللغة، ولكنها كانت قد تَحَوَّرَت وشاهت منذ قرونٍ سبقت مولد المسيح، بل امَّحَت على الألسنة تلك القبطيةُ نفسُها منذ أواخر القرن الثالث الهجرى حتى اضُّطرت الكنيسةُ القبطية إلى ترجمة كُتُبِ الصلوات إلى العربية التى غَلَبت على ألسنة القبط أنفسهم، لا يفهمون غيرَها، فلا تنتظرُ منهم إلا تفسيرا "بالتخمين" لأسماء من مثل "موسى" و" فرعون"، : قالوا لَهُ إن "مو" بالقبطية يعنى "ماء"، وإن "شا " (أو "سا" بالسين) يعنى " شجر" ورتَّب الرواةُ على هذا أن آل فرعون عثروا على التابوت الذى فيه موسى بين ماءٍ وشجر، فَسُمِّى باسم المكان الذى وجد فيه وليس هذا بشىءٍ كما ترى، فلا تَعْتَدُّ بِهِ ولا تلتفتُ إليه .

ولكنك تُسَجِّلُ لهؤلاء الجهابذةِ الأعلام جُهدَ المحاولةِ وفَضْلَ السَّبْق إلى تَحَرِّى تفسير معنى "موسى" فى لغة " آل فرعون" لا فى لغة " بنى إسرائيل "، فما كان للإبن الذى التقطه آل فرعون فتبنَّوهُ أن يَتسمَّى بغير لغة أبيه بالتبنى . ليس العيبُ فيهم أن أَخْطَؤوا معنى "موسى" فى لغة آل فرعون، بل يكفيهم شرفا أن حاولوا، يومَ كانت لغةُ آل فرعون طلاسمَ مُطلسَمة فلم يجدوا الذى يستوثقون منه : كان العيبُ فى الذى استفْتَوهُ، فأفتاهم عَدْواً بغير علم .

□□□

آفة اللغات البائدة عند دارسيها وعلمائها أنها لغات تُقرأ ولا تُسمَع . أعنى أنك لا تجد من يحدثُكَ بها فَيُلْزِمُك بتقويم لسانك . كل ما لديك كتاباتٌ ونقوش، رُسمت بخطٍ مهما وَفِّقْتَ فى حلِّ رموزه، فلن تستطيع الجزم آمنا مطمئنا بأنك تنطقُ أَحْرُفَهَا على نحو ما كان ينطق أهلُها . أما إن كان الخط ـ كالشأن فى الخط المصرى ـ خَطّاً لا يعبأ بحركات المد فالآفةُ عندئذ أفدحُ وأعتى، لا سبيلَ لك إلى تداركها مهما بذلت من جهد .

أدى هذا بعلماء اللغة المصرية القديمة ـ الأثباتِ منهم على وجه التحديد ـ إلى التحرُّز من إثبات حركة المد الواجبة بين ساكنين لإمكان الانتقال من أحدهما الى الآخر،

كما تجد مثلا فى لفظة "دحرج" العربية : لاتستطيع الانتقال من الدال إلى الحاء، أو من الراء إلى الجيم، إلا بحركة مد (وهى الفتح فى " دَحْرَج " العربية) . ومن هذا فى المصرية القديمة لفظة " پر" (ومعناها " بَيْت ") : لا تستبين من الخط المصرى حركة مد بين الباء والراء، أو بعد الراء على الأقل، فلا تستطيع نطق هذه اللفظة المصرية القديمة إلا بحركة مد تفترضها افتراضا، فتختارها حسبما يتفق لك من بين حركات المد الثلاث (الكسر والفتح والضم)، لا تدرى أيها الصحيح، فلا تملك القطع بيقين . هنا اصطلح بعض علماء تلك اللغة ـ أعنى الأثباتَ منهم [١] ـ على الاكتفاء برسم الحروف الثابتة فى الخط المصرى، وافتراض المد، حين يتعذر النطق، مدا بالكسر (وهو أخف الحركات)، يصطلحون على هذا ولا يجزمون بصحته .

على أنه قُدِّرَ لهذه اللغة المصرية القديمة ـ دونَ غيرها من اللغات البائدة ـ أن تحظى على مدى قرنٍ ونصفِ قرن بجهدٍ جماعىٍ دءوبٍ جَبَّار، بذله ومازال يبذله علماءُ أفذاذ، اقتربوا فى استجلاء غوامضها من حد الكمال . ساعد على هذا وفرة " المادة " التى تتحدث عن نفسها بلسان تلك الحضارةِ العظمى فيما خَلَّفَتْهُ من آثار ونقوش لا نظيرَ لها قط فى الحضارات السابقة واللاحقة . وساعد عليه أيضا ما بقى من تلك اللغة القبطية التى ورثت عن أمها المصرية القديمة الكثيرَ من مفرداتها، وإن كنت لا تجزم ـ بل أنت إلى الشك أقرب ـ بتطابق النطق القبطى مع النطق المصرى القديم، ناهيك بمطابقة اللفظ للمعنى، على نحو ما تقطع الآن بالتفاوت فى هذا وذاك بين عربية القرآن وبين العربية الدارجة الى يَلْغُو بها العربُ اليوم فى أقطارهم .

والذى يعنينا هنا ـ ونحن لا نخوض فى المباحث اللغوية إلا بالقدر اللازم لأغراض هذا الكتاب ـ أن القرآن المعجز أتى بلفظ " موسى" أقرب ما يكون إلى نطقه فى لغة آل فرعون على ما استقر عليه علماء تلك اللغة فى نطق الأسماء الأعلام المختومة بالشق " مس" كما تجد فى " تحُوت + مُس" (تْحُتْمُس) التى انتهوا إلى أن أصلها " ضْحُوتى + مُوسِى " تُنطق موسى فيها على الإمالة، تماما كما تسمعها فى بعض " قراءات " القرآن ، والمعنى هو " وِلْد تحوت " أو " وليد تحوت "، لا " ابن تحوت " وإن تقارب المعنى، لأن " ابن " فى المصرية القديمة هى " سا " لا " موسى" .

(1) A. Gardiner, EGYPTIAN GRAMMAR, Oxford University Press, London, Third Edition (Revised), 1966, pp. 26 - 28.

"موسى" لفظة فى المصرية القديمة منحوتة من جذر فى تلك اللغة، هو (م/ س/ ى)، فعل بمعنى ولد/ يلد/ ولادة . ولفظة " مُوسِى" اسمٌ على المفعولية من هذا، فهى "ولد" أو "وليد " وبهما فسر القرآن هذا الاسم على الترادف كما سترى .

لم تفعل العبرية فى "موسى" إلا أن " شَيَّنْت " السينَ كدأبها، فقالت "موشيه" على الإمالة . وربما اختلط الأمر على كاتب سفر الخروج الذى تصدى لتفسيره فظنه من "مشا" العبرى (وهو "مسا" العربى) بمعنى سَلَّهُ واستخرجه، وتابعه علماءُ التوراة على هذا فقالوا :" نشيل الماء " . ولو بقيت لدى الكاتب أثارةٌ من علم بتلك اللغة المصرية القديمة التى تكلم بها مع فرعون موسى وهرون لما وقع فى هذا الخلط . بل قل لو كان الكاتب هو موسى عليه السلام الذى ينسبون إليه هذا السفر لما أخطأ فهم معنى اسمه ("ولد" أو "وليد ") الذى سماه به آل فرعون .

وربما قلت إن الجذر (م/ س/ ى) فى المصرية القديمة، الذى يعنى ولد/ يلد/ ولادة، قريبُ فى معناه من " مسا " العربى، أو " مشا " العبرى، بمعنى سَلَّةُ واستخرجه، لأن فى الولادة شيئاً من هذا . ولكن علماء المصرية القديمة لا يقطعون برأى حاسم فى مدى العلاقة اللغوية بين المصرية القديمة وجاراتها الساميَّات، وإن رجحوا - ونرجح معهم - أصلها السامى . ولكننا لا نخوض فى هذا، لا لشيء إلا لأنه يخرج عن مقاصد هذا الكتاب الذى نكتب .

❑❑❑

قال العليم الخبير، فى كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يُفَسِّرُ بها اسم "موسى" بلغة آل فرعون، لا بلغة أمه وأبيه : { **وقالت امرأة فرعون قُرَّةُ عينٍ لى ولك، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا** } (القصص : ٩) فَسُمِّيَ بها موسى المحذوف لدلالة السياق عليه . وقال أيضا على لسان فرعون الذى أنكر على موسى أن يكون شفيعا لديه فى بنى إسرائيل وقد استلّه فرعون من بينهم فاحتضنه ورباه : { **قال ألم نُرَبِّكَ فينا وليدا، ولَبِثت فينا من عمرك سنين**} (الشعراء : ١٨)، يُدِلُ على موسى بدالَّةِ الإباوة والرِّباية ويفطِنُ موسى إلى أن فرعون يستميلُهُ إليه ليقطعَ ما بينه وبين قومه، فيستدرك على فرعون بما يفحمه : {**وتلك نعمةٌ تَمُنُّها علىَّ أن عَّبدت بنى إسرائيل**} (الشعراء :٢٢) :

أكرمتني وأهنت قومي، وهل أنا إلا بعضُ قومي؟ وهل صِرْتُ إليك فتبنيتنى إلاَّ لأنك استعبدت بنى إسرائيل وأذلَلْتهم، تُذَبِّحُ أبناءهم وتستحيى نساءهم، حتى نبذتنى فى اليمِّ أمِّي؟

□□□

هذه الصدِّيقةُ التى قذفت برضيعها فى اليم عن أمر الله، اسمُها فى التوراة العبرانية " يُوكِبِد" بكسر الكاف والباء (وتنطق عبرانيا " يُوخِفِذ " على ما مر بك من قواعد نطق الكاف والباء والدال إذا تحرك أو اعتل ما قبلها)، ولكن القرآن لم يُسَمِّ أم موسى، وإنما كَنَّاها بأحب كُنْيَةٍ تَمَنَّت أن تستعلن بها : أم موسى . ويروى سفر الخروج أنها عمة عمران أبى موسى، يعنى تزوج عمران عمته يوكبد فاستولدها هرون وموسى ومريام (راجع سفر الخروج ٦/٢) . وأيا ما قلت فى صحة الزواج من العمة فى دين إبراهيم، فالذى نُعْنَى به فى مقاصد هذا الكتاب هو معنى هذا الاسم " يُوكَبَد " عند علماء التوراة : قالوا إنه اسم مزجى مركب من شقين (يُو + كِبِد)، الأول " يُو " مختصر يهوا، اسم الله فى العبرية منذ موسى عليه السلام (يهوا كما مر بك يعنى "الذى هو هو")، والثانى " كِبِد " اسم من مادة الجذر العبرانى " كبد " بمعنى ثَقُلَ ، وأيضا بمعنى تَمَجَّدَ وشَرُفَ وعَظُم ، ومنه أيضا " كِبُود" التى تعنى المجد والشرف، وتعنى أيضا فى مجازها، اللب والفؤاد . وقد اختار علماء التوراة هؤلاء أن يكون معنى " كِبِد " التى فى " يوكبد " هو المجد والشرف، واختاروا أيضا أن تكون بنية هذا الاسم المزجى على المبتدأ والخبر ، فقالوا ان معناه هو " اللهُ مجدٌ "، مُراداً منه " اللهُ مَجْدُها" (١) .

ولا يصح هذا عبريا ، مع الاعتذار الواجب للذين قالوه ، لأن معنى المجد والشرف فى مادة " كبد " العبرانية يجىء على " كِبُود" بالواو كما مر بك، ولايجىء قط فى بنيته الإسمية على " كِبِد" بكسر الكاف والباء كما يُنْطَقُ اسم أم موسى فى التوراة .

أما الذى يصح عبريا فهو أن يُفْهَم الشقُّ الثانى من هذا الاسم " كِبِد " على أنه

(١) المعجم التحليلى العبرى الآرامى لألفاظ التوراة ، المرجع المذكور ، مادة يهوا ص١٧٢ ، ومادة كبد ص ٣٦٨ .

فعلٌ ماضٍ مُسَنَدٌ إلى المفرد الغائب (الذى هو "يو" اسم الله فى العبرية) جاء على زنة "فعِّلْ" العبرية (التى هى " فَعَّل " فى العربية) فيكون أصل الاسم " يُوكبِّد" بتشديد الباء المكسورة، ثم خُفِّفَ تشديدُ الباء للمزجية، فآلت إلى نطقها الذى فى التوراة، أعنى " يُوكبِد " . ولأن " كبد" العبرية كما مر بك تفيد معنيين هما (١) الوقر والثِّقَل، و (٢) المجد والشرف، فلك أن تختار فى تفسير هذا الاسم أما " الله مَجَّدَ" بتشديد الجيم المفتوحة، يعنى "التى مَجَّدَها الله"، وأما " اللهُ وقَّر" بتشديد القاف المفتوحة، أى " التىَ وقَّرَها الله " ، يعنى رَزَّنَها وثَبَّتَها وسَكَّنَها، أو كما قال القرآن على منهجنا فى تفسير أعلام القرآن بالقرآن، " لولا أن رَبَطْنا على قلبها "، فهى " التى رَبَطَ اللهُ على قلبها " .

والذى يصح بلا مُشاحَّة هو تفسير القرآن، لا تفسير علماء التوراة، لأن "يهوا" (التى اختصرت إلى "يو" فى الاسم "يوكبد ") لم تَصِر عند بنى إسرائيل عَلَما على الله عز وجل إلا فى ديانة موسى عليه السلام كما تستظهر من التوراة : " ثم كلم الله موسى وقال له أنا الرب . وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحق ويعقوب بأنى الإله القادر على كل شىء . وأما باسمى يهوا فلم أُعْرَف عندهم" (خروج ١/٦ ـ٣)، فلا يصح دخولُه فى اسم أم موسى يوم وُلِدَت . وإنما الصحيح أن يقال انها كنية كَنَّاها بها بنو إسرائيل من بعد مبعث موسى عليه السلام بعد تحقق الصفة والحال، كما سترى فى الاسم "أيوب"، فهى كنية تشير إلى منقبة فى أم موسى . وقد أراد علماء التوراة الذين فسروا هذا الاسم على معنى " الله مَجْدُها " ـ أى التى مجَّدَها الله ـ تعظيمَ موسى بالتفخيم فى معنى اسم والدته. ولكن الكنية على هذا المعنى الذى أراده علماء التوراة هؤلاء لا تصدق فى وصف منقبة أم موسى التى انفردت بها من دون نساء العالمين : تنبذ ابنها فى اليم رضيعا قد ربط الله على قلبها، ويُردُونَهُ إليها لا لتكون له أماً، بل لتكون له مُرْضعا ، جاءوها به وقد أَسْمَوْهُ بلغتهم " الوَلَد" (موسى المصرية الهيروغليفية) لا أمٌّ له، وهى أمُّه، لا تَمْلكُ أن تستعلنَ بها، فَيُكَنِّيها القرآنُ بأحب اسم تَمَنت أن تسمعه : أم موسى . ويَمْرأ فيه لَبَنُها، ويدنو يومُ فِطامه، فَتَشْقَى بما تسعد به كُلُ أم، لولا رباطُ الله على قلبها : إنه اليوم فى حجرها " ابنؤم" [1] ،

(١) ابنؤم أصلها " ابن أم" ، بنى شطراها على الفتح على غرار الأعداد المركبة من ثلاثة عشر إلى تسعة عشر ، وقد وردت بكلا الرسمين فى المصحف . قالها هارون فى فتنة العجل يرفق بها قلب أخيه : { **قال يا ابنؤم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى** } [طه :٩٤] ، وكأنه يناجيه بما كانت تناجيه به أمه أيام كان موسى فى حجرها.

تُهَدْهِدُهُ بها لا بـ "موسى"، وهو غدا "ابن فرعون" تُسْلِمُهُ لهم ، فيا لفؤادِ أمِ موسى مما حُمِّلَ، لولا رباطُ الله على قلبها . هذه هي منقبة أمِ موسى الوحيدة التي يصح أن تَكَنَّى بها . والرباط على القلب يعني تقسيته كي يحتمل ، وهذا هو نفسه معنى "كَبّد" العبرى كما تنص عليه معاجمهم . فلا تستطيعُ هذا وحدَها أمُ . ولكنْ علماء التوراة لم يفطنوا إليه ، إذ لا نص فى التوراة على بلاءات أم موسى بل يقال لك انها ألقته فى اليم فحسب ثم قالت لأخته قصّيّه ، وإلى هنا ينتهى ذِكْرُ أم موسى فى التوراة . فاكتفوا فى تفسير اسمها بالمجد الذى نالته بإنجابها موسى . وليس بشىءٍ كما ترى .

قال عز وجل فى تفسير اسم تلك الصّديقة [1] التى ربط الله على قلبها : {**وأصبح فؤاد أم موسى فارغا، إنْ كادت لَتُبْدِى به، لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين** } ﴿القصص : ١٠﴾ .وقد مر بك فى تضاعيف هذا الكتاب أن القرآن حين لا ينص على اسم بطل الحَدَث، يُلمُّ بمعناه أحيانا فى ثنايا الآيات فيصوره بما تكاد تسميه به . واسم " أم موسى" من هذا كما رأيت، ولكنك لا تفطن إليه فى سياق هذه الصياغة المعجزة لوصف حال أم موسى وقد ألقت برضيعها فى اليم عن أمر الله : فرغ فؤاد أم موسى يعنى صار فؤادها هواء جَزَعاً على موسى فى تابوتٍ تتقاذفه أمواجُ اليم، لا تدرى أيَغرقُ أم يطفو، بل كادت تستغيثُ من ينتشله لها (إن كادت لتبدى به) فيعيده إليها، وليكن ما يكون . ولكن الله ربط على قلبها، وثبت فؤادها، كى تظل على إيمانها بصدق وعده إياها :{ **وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه، فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم، ولا تخافى ولا تحزنى، إنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين** } ﴿القصص : ٧﴾ . إعجازٌ فوقَ إعجاز .

ولعلك التفت أيضا إلى عبارة القرآن " فؤاد أم موسى" فى ﴿الآية ١٠ من سورة القصص﴾ التى تلوتَ تَوا ، التى تُشير إلى إلمام القرآن بمعنى الفؤاد الذى فى شطر

(١) الصديق فى القرآن هو كل من خاطبه الله على ملائكته فصدق وأذعن ، نبيا وغير نبى . وقد ورد اللفظ فى القرآن كله ست مرات ، ثلاث على المفرد المذكر وصفا ليوسف {يوسف : ٤٦} وإبراهيم {مريم:٤١} وإدريس {مريم :٥٦} عليهم السلام ، ومرة رابعة وصفت بها مريم أم عيسى على المفرد المؤنث {المائدة:٧٥} ، والخامسة والسادسة على جمع المذكر ، إحداهما {النساء:٦٩} تضع الصديق بين النبى والشهيد ، والأخرى {الحديد : ٢٩} تُقَدِّم الصديق على الشهيد فى الترتيب .

اسم أم موسى "يُوكبِد"، وهو " كِبُود " كما مر بك: لو قلت " فؤاد أم موسى " عبرياً ، لقلت " كِبود يوكبِد" !

فيم إذن دعاوى النقل والاقتباس، والقرآن كما رأيت أعلم بالعبرية من أهلها ؟

□□□

لموسى عليه السلام أخ أسَنُّ منه (هرون)، وَزِرَ لموسى وشَرِكَهُ النبوة . سأل موسى ربه أن يعينه بهرون لسبب محدد . كان موسى يضيق صدره ولا ينطلق لسانه: { **ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فأرسل إلى هرون** } (الشعراء : ١٣) . وكان هرون فصيحا لسنا : { **وأخى هرون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى رِدْءاً يُصدِّقُنى، إنى أخافُ أن يكذبون** } (القصص : ٣٤) . فاستجاب له عز وجل وامتن بها عليه : { **قال قد أوتيت سؤلك يا موسى . ولقد مَنَنَّا عليك مرةً أخرى** } (طه ٣٦:٣٧) . وسيأتى تفسير اسم هرون إن شاء الله فى موضعه .

ولموسى عليه السلام أيضا أخت تكبره، هى أخته التى قَصَّتْه : { **وقالت لأخته قُصِّيه، فَبَصُرَت به عن جُنُب وهم لا يشعرون** } (القصص: ١١)، ولم يُسَمِّها القرآن . أما اسمها فى التوراة التى بين يديك ـ أعنى فى ترجمتها العربية المتأثرة فى رسم أعلامها العبرانية برسمها المعرب من قبل فى القرآن ـ فهو "مريَم" (مفتوحة الميم ساكنة الراء كاسم مريم أم عيسى فى القرآن)، خلافا لأصلها العبرانى المرسوم فى التوراة "مِرْيام " (بكسر الميم وإشباع المد بالألف بعد الياء) وهو خطأ بَيِّن وقع فيه المترجمُ العربى يُتابع فيه أدعياء الاستشراق الذين اتهموا القرآن بالخلط بين "مريام" أخت موسى وهرون وبين "مَرْيَم" أم عيسى ولا صلةَ بين الاسمين كما سترى.

ففى الإصحاح الثانى عشر من سفر العدد يقص عليك الكاتب قصةً ملخصها أن موسى اتخذ امرأة كوشية (أى حبشية)، فلم تَحْمَد له هذا أختُهُ مريام، ولم يَحْمَدْهُ أيضا أخوه هرون، فتمردا عليه، أو " تَمَرْيا " عليه، فحَمِى غضبُ الرب عليهما كما يقول الكاتب . وإذا مريام برصاء كالثلج (فَتَعْجَبُ لماذا أَفْلَتَ الربُ هرون) . واسترحم هرون أخاه موسى أن يدعو لها، فصرخ موسى إلى الرب قائلا : اللهم اشفها ! فقال الرب لموسى : لو بصق أبوها فى وجهها أما كانت تخجل سبعة أيام ؟ فاعتزلت مريام سبعة أيام حتى شفيت .

يلتقط علماء التوراة هذه الأقصوصة ليفسروا بها الاسم "مريام" وكأنه كُنْيةٌ تكنَّت بها، فقالوا إن معناه هو "المراء"، "التمرّى"، من الجذر العبرى "مرا"، فهو "فعلان"، أى "مْريان" ، أبدلت نونُه ميماً على ما مر بك فصار إلى "مِرْيام" . وهو اسم على الذم كما ترى، فتعجب كيف استجازوا أن تتسمى به من بعد مريم أم عيسى عليهما السلام . نقول هذا ولا نتوقف عنده : كل ما أردناه هو أن ندلك على معنى "مريام" عند علماء التوراة: المراء والتمرى والعصيان، كيلا تخلط أنت بينها وبين "مريم" أم عيسى عليهما السلام، لاختلاف الاسمين لُغَةً، الأول عبرانى والثانى آرامى، واختلافهما مَبْنَى ومعنى . وسيأتى .

وأما ما عرجنا عليه من ذكر " هرون "، الذى يأتى فى موضعه، فلم يكن تمهيدا لتفسيره بقدر ما كان عروجا على لفظة " إِبْنَؤُمّ " (ابن + أم) التى ناجىَ بها هرونُ أخاه مرتين فى القرآن يوم أخذ موسى برأس أخيه يجره إليه فى فتنة العجل : { **قال ابنَ أمَّ ! إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى، فلا تُشمِت بى الأعداء، ولا تَجعلنى مع القوم الظالمين !**} (الأعراف : ١٥٠) . وجاءت بصورة أخرى فى سورة " طه "، تُبَرىءُ هرونَ عليه السلام من اصطناع العجل : {**ولقد قال لهم هرونُ من قبل، يا قومِ إنما فُتِنْتُم به، وإنَّ ربَّكُم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى . قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى . قال يا هرون ! ما منعك إذ رأيتهم ضَلُّوا. ألا تتبعن أفعصيت أمرى. قال يا ابْنَؤُمَّ لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى إنى خشيتُ أن تقول فَرَّقْتَ بين بنى إسرائيل ولم تَرقُبْ قَولى !** } (طه : ٩٠ــ ٩٤) .

لعلك لاحظت أن معنى : " الابن " الذى فى " ابنؤم " موجودٌ أيضا فى "موسى" المصرية القديمة ومعناها "وَلَدٌ"، "وليدٌ"، وكأن القرآن فى هذين الموضعين يفسر هذه بتلك، وسبحانَ العليمِ الخبير .

□□□

كان هذا هو التفسير القرآنى من المصرية القديمة لمعنى اسم "موسى" عليه السلام : فسره بلغة آ ل فرعون، ولم يفسره بلغة بنى إسرائيل . فهو "وَلَدٌ" أو "وليد" . والمعنى فيهما واحد . ونحن نُؤْثِر " وليد " فى ترجمة اسم " موسى "، لأن " الوليد " من أعلام العرب، فَتَسْهل المقابلةُ بيَن "وليد" العربية، وبين " موسى" المصرية القديمة .

وسبحان الذى علَّمَ بالقلم ، عَلَّمَ الإنسانَ ما لم يَعْلَم !

(٢١) هـــرون

"هارون" فى القرآن (التى شاع رسمُها على غِرار المصحف بغير ألف)، هى تعريب " أهارون " فى التوراة، اسم أخى موسى عليهما السلام .

والألفُ البادئة فى "أهارون" العبرية ـ كما مر بك فى تضاعيف هذا الكتاب ـ هى " ألفُ التحلية " Prosthetic Aleph والأصل " هارون " كما عَرَّبها القرآن .

وقد تجنب علماء التوراة (راجع "المعجم العبرى الآرامى لألفاظ التوراة") تفسير اسم "أهارون" : ربما لم يَسْتَبِنْ لهم وجهُ الصواب فى معناه، وربما أيضا لأن الكاتب فى سفر الخروج خالف " مألوفَه "، فلم يتصدَّ لتفسيره .

ولم يُؤْثَر أيضا عن مفسرى القرآن تفسير لاسم "هرون" : أجمعوا على عُجْمَته، ولم يتصدوا لتفسيره . وربما التمسوه عند بعضِ أحبارِ يهودَ ولم يظفروا بشىء . وهذا يُرجَح لديك، كما تَرَجَّحَ لَدَىَّ، أن هؤلاء الأحبار لم يكن لديهم مأثورٌ يستندون إليه فى تفسير اسم "هرون" ويرْأبُون به الثُغرة التى تركها كتبةُ التوراة بسكوتهم عن تفسيره. وربما تعلَّلتَ لكتبة التوراة فى ذلك بأن شخصية البطل ـ موسى عليه السلام ـ شخصيةٌ طاغية تملأ مسرح الأحداث، أذهلت الكاتب عن تقديم الشخصيات " الثانوية " للقارىء، وكأنه لا يفطِنُ لها، فلا يسميها، رغم ولوعه كغيره من كتبة التوراة بتحليل الأنساب وتفسير التسميات، بإيراد مناسبة التسميةِ وسببِها .

□□□

يبدأ الكاتب سفر الخروج بإصحاحٍ مقتضَب، يُمَهِّد لظهور موسى على المسرح، تقرأ فيه أن ملكا جديدا اعتلى عرش مصر، لا هم له إلا استئصال شأفة العبرانيين باستصفاء نسلهم، فيأمر قابلتَىْ العبرانيات " شِفْرة "، " فُوعة "، بأن تنظرا المولود : إن كان ذكرا قَتَلتاه، وإن كان بنتا فتحيا . ولكن القابلتين خافتا الله كما يقول الكاتب فاحتالتا على فرعون بأن النساء العبرانيات لَسْنَ كالمصريات، فَهُنَ قويّات يلدْنَ قبل أن

تأتيهُنَ القابلة . عندئذ أمر فرعون جميع شعبه بأن كل ابن يولد للعبرانيين يطرحونه في النهر، وكل بنت يستحيونها . وكأنما ألقت أم موسى ابنها في اليم عن أمر فرعون، لا عن أمر الله كما تقرأ في القرآن .

ثم ينتقل الكاتب سريعا إلى الإصحاح الثاني، يتعجل تعليل إفلات موسى من هذا المصير، لا يعنيه ما كان من أمر إخوةٍ سبقوه، بل لا يعنيه شخصُ أمه وأبيه اللذين منهما وُلد، فيذهب بك مباشرة إلى " النهر " حيث ألقى موسى فتستحييه "ابنةُ " فرعون [1]، ويبدأ الإصحاح هكذا : " وذهب رجلٌ من بيت لاوى وأخذ بنت لاوى . فحبلت المرأة وولدت ابنا . ولما رأت أنه حسن خبأته ثلاثة أشهر . ولما لم يمكنها أن تخبئه بعد، أخذت له سَفَطًا من البردى وطلته بالحُمَر والزفت ووضعت الولد فيه، ووضعته بين الحَلْفاء على حافة النهر [2] . ووقفت أخته من بعيد لتعرف ماذا يُفْعَلُ به" (خروج ٢/٤ ـ ٤) .

هذا الكاتب الذى لم يَفُتْهُ وصفُ " التابوت " بأنه سَفَطٌ من البَرديّ مَطِليٌّ بالحُمَرِ والزفت، لا علم له بما كان من وحى الله على أم موسى . وهو أيضا ـ كأخيه الذى فى سفر التكوين ـ لا يعرف قيمة "المادة" التى بين يديه، فلا يهتم لبلاءات أم موسى وهى تُلقى بفلذة كبدها فى اليم عن أمر الله . ولكنه فى سرده المتعجل ينزلق إلى التهافت المخل : إنه يضع "التابوت" عند مُغْتَسَل ابنة فرعون (ومغتسل الملوك كما تعلم يكون قُبالةَ قصرهم)، كما يوضع اللقطاءُ عند أبواب الأديرة والمساجد . وهو لا يترك التابوت هائما بين الأمواج، وإنما يثبته بين الحلفاء التى على حافة النهر قبالة قصر آل فرعون كما مر بك، وكأنه يقتحم به عليهم، كى لايفوت ابنة فرعون العثور عليه، أو يطوح به التيار بعيدا عن أعين جواريها . إنه يدس التابوت فى أيديهم دسا، لا يترك مجالا للصدفة أن يلتقطه غيرهم . وكان أيسر عليه أن يحمل موسى إليهم حملا، يذبحونه

---

(١) قالت التوراة " ابنة فرعون " وقال القرآن " امرأة فرعون " ولم يُعْنَ بحل هذا الخلاف أحد . وسيأتى بيان هذا إن شاء الله فى سياق تفسير معنى " فرعون " .

(٢) الحُمَر هو القار بلغة أهل الشام ، ورثته عن العبرية ــ الآرامية ، وفق المترجم العربى إلى اختيارها مقابلا لذات أصلها العبرى ـ ولكنه لم يوفق فى " سفط" لأنها فى الأصل العبرى "تبت" (أى تابوت) كما فى القرآن ، بنفس المعنى ، وكأنه أراد مخالفة القرآن ليس إلا . وترجم "سوف" العبرية إلى " الحلفاء " يريد " البوص" ، ولا بأس به .

أو يستحيونه، كمن يمشى إلى طالبى دَمِه يَحْمِلُ على يديه كَفَنَه . وليس فى هذا كرامة. ولكن الذى تَعْجَبُ له عند الكاتب، ولم يلتفت هو إليه، أن "مَغْتَسَل" ابنةِ فرعون كان على مقتضى روايته "حِمَىً" مستباحا، تغتسل فيه ابنة فرعون مع جواريها على أعين الناس، لا يستترن إلا بتلك الحلفاء التى على حافة النهر، لا حَرَسَ موضوعاً عليه ليلَ نهار، ولا رُقباءَ يذودون تطفلَ المارة . وإلا فكيف تفسر نفاذ من تسلل بالتابوت إلى تلك الحلفاء نفسها، وهو يقول لك إن أخت موسى ما كان لها أن تقترب، وإنما وقفت تنظر من بعيد لتعرف ماذا يفعل به ؟ كان على الكاتب أن يرجع إلى القرآن ليعلم منه حقيقةَ الذى كان، ولكن القرآن لم يكن قد نزل بعد : ألقت أم موسى بالتابوت فى اليم أقربَ ما يكون إلى بيتها، وتكفلت أمواجُ اليم بالباقى، عن وحى الله وأمره : { **إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى . أن اقذفيه فى التابوت، فاقذفيه فى اليم، فليلقه اليمُّ بالساحل، يأخذْهُ عدوٌ لى وعدوٌ له، وألقيت عليك محبةً منى، ولتِصْنَعَ على عينى . إذ تمشى أختُكَ فتقول هل أدلكم على من يَكْفُلُه ؟ فَرَجَعْناك إلى أمك كى تَقَرَّ عينُها ولا تحزن** } (طه : ٣٨ ــ ٤٠) . فانظر إلى هذا الإيجاز المعجز الذى لا يَندُ عنه تفصيل فلا تملك أن تُعَقِّبَ عليه بشىء، وتأمل ! هل يستطيعه إلا علام الغيوب ؟

والذى يعنينا فى هذا السياق أن الكاتب شَغَلَه موسى عن هرون فلم يذكر ما كان من أمره : لم يحضر ولادته، ولم يُسَمِّه، فلا يُفَسِّرَه . وهو لا يُعنَى أيضا بأن يفسر لك كيف أفلت هرونُ من الذبح وقد ولد قبل موسى بنحو ثلاث سنوات وبضعة أشهر، على ما تستخلصه من سفر العدد الذى يقول لك أن هرون مات وهو ابن مائة وثلاث وعشرين سنة، فى السنة الأربعين لخروج بنى إسرائيل من مصر (عدد٣٣/٣٨ ـ ٣٩)، ومات موسى بعده فى نفس السنة وعمره مائة وعشرون سنة (تثنية ٣٤/٧). ولا شك أن تذبيحَ الذكور واستحياءَ الإناثِ بدأ قبل موسى بسنوات، بل وقبل زواج عمران من أم موسى ، كما تستظهر من الإصحاح الأول من سفر الخروج . فكيف أفلت من الذَّبْحِ هرون ؟

لم يُعْنَ بهذا كاتبُ سفر الخروج . ولكن كان من مفسرى القرآن من توقف عنده . ومن طريف ما يُروى فى هذا ـ نقلا عن أقاصيصَ لأهل الكتاب بالطبع ـ أن فرعون

حين أراد استئصال شأفة العبرانيين فى مصر باستصفاء نسلهم، بدأ بتذبيح أبنائهم سنة واستحيائهم سنة، وأن هرون الذى يكبُرُ موسى كان حقُهُ أن يولد سنةَ الذبح، ولكن اللهَ أطال حَمْلَ أمّه به كى تضعَه سنة الاستحياء فينجو . وإذا علمت أن الجذر العبرى "هرا" معناه حَبلت (المرأة)، فربما قُلْتَ ـ ولم أقرأ هذا لأحد ـ أن اسم هرون مشتق من "هَرا " العبرية هذه، وكأنه "حَبلان " من " الحَبَل " الذى طال به .

❑❑❑

أدّى أيضا طغيانُ شخصية البطل ـ موسى عليه السلام ـ إلى شُحوب شخصية هرون وتضاؤلِ دوره فى رسالة موسى عند كتبة التوراة، الذين أُعْضَلَ عليهم إيجادُ دورٍ لهرون إلى جوار موسى، فنحلوا هرون دَوْرَ " الصَبّى" : صبى " النبى" ، أو صبى " الحاوى" . تجد دورَ "صبى النبى " فى قول الكاتب على لسان الله عز وجل مخاطبا موسى : " أنا جعلتك إلها لفرعون، وهرونُ أخوكِ يكونُ نبيك" (خروج٧/١) . وتجد "صبى الحاوى" فى قول الكاتب على لسان الله عز وجل أيضا ، يأمر موسى بما يفعله حين تُطلَبُ منه الآية على صدق دعواه : "تقول لهرون خذ عصاك واطرحها أمام فرعون فتصير ثعبانا" (خروج٧/٩)، فلا تندهش ـ إن كنت مسلما ـ حين تقرأ فى السفر أيضا أن " عصا هرون " ـ لا " عصا مَوسى" ـ هى التى لقفت حبالَ السحرةِ وعِصيَّهمُ (خروج ٧/١٢) . كل هذا بالوساطة عن موسى بالطبع ، فلا دور على الحقيقة عند الكاتب لهرون .

ولكن الكاتب ـ وكأنه يثأر لهرون ـ يقول لك ان هرون " كَهَنَ " لموسى، فألبسه موسى عن أمر الله رداء الكهنوت الأعظم : لا كهانة إلا بهرون وأبناء هرون دون غيرهم من أسباط بنى إسرائيل فريضةً أبدية (خروج ٢٨)، فاحتاز هرون وبنوه من بعده سلطانا فى بنى إسرائيل أعظم من سلطان موسى : سلطان الرأى والفكر والفُتيا بالشريعة . وهذا كله دخيلٌ على التوراة التى أنزل الله على موسى، فلا كهنوتَ ولا كهانة فى دين الواحد الأحد، ولا وساطةَ بين العبد وربه . ونحن لا نشك لحظة فى أن اليهود صنعوا هذا الكهنوت من بعد موسى ليحاكوا به كهنوتا سحَر ألبابَهم سلطانُهُ

العاتى فى ديانة " آمون " : حُرَّاسُ العقيدةِ وَسَدَنَةُ المعبد . ولا يَفْسَد الدينُ، وتَفْسَدُ العقيدة، إلا على أيدى هؤلاء الحُرَّاسِ والسَدَنَة . وقد حارب المسيحُ عليه السلام هذا الكهنوت من قبل، ففضحه وَعَرَّاه . ولكن الكهنوتَ انتصر من بعد، فاصطنعت المسيحيةُ لنفسها فى أوربا كهنوتاً مثله، وربَّما أعتى . وهَبَّت رياحُ الإصلاح تُريدُ اقتلاعَ هذا الكهنوت من جذوره، فلم تُفَرِّقْ بين الديانةِ والكهانة، وكان ما كان .

والذى نتوقف عنده هنا فى أغراض هذا الكتاب الذى نكتب ، أن كهنوت هرون وبنيه أَوْرَثَ اللغةَ العبرية بعد عصر موسى وهرون، مصطلحا جديدا : كان موسى وهرون كما تعلم من سبط لاوى بن يعقوب، أى كان هرون وبنوه لاويِّين، فأصبحت لفظة " لاوى" (وتُنْطَقُ " ليفى" فى العبرية المعاصرة شائعةً فى أعلامها) علَما على الكاهن خادمِ المعبد، وأيضا " أهارونى"، أى المنسوب إلى "هرون" رأسِ هذا الكهنوت . ولا تدرى كيف فات هذا المعنى (اللاوى أو الهارونى = الكاهن خادمَ المعبد) على أدعياء الاستشراق وأذنابهم ممن تسقطوا للقرآن قولَهُ فى مريم أم عيسى عليهما السلام : { **يا أُخْتَ هرون** ! } (مريم : ٢٨) فتهكموا رعونةً وجهلا بأن القرآن يخلط بين "مريم" أم عيسى وبين "مريام" أخت موسى وهرون ، وقد خَلَت الأنبياءُ والرسل بين موسى وعيسى عليهما السلام ، ونص القرآن على أن عيسى هو آخرُ رسل الله إلى بنى إسرائيل : { **وَقَفَّيْنا على آثارهم بعيسى بن مريم** } (المائدة : ٤٦)، فكيف تكون أُمُّهُ أختا لموسى وهرون ؟

لم يُدرك هؤلاءِ الأدعياءُ وأذنابُهم ـ وأنَّى لهم وقد أعماهم الحقدُ وأصَمَّهُم ـ أن القرآن ينضَحُ هاهنا بعلمه النافذ إلى صميم ديانة اليهود ومصطلحاتِ كهنوتهم : " أخت هرون" يعنى" خادمَ المعبد " الذى كانَتْهُ أَمَةُ الرب مريمُ البتولُ عليها السلام : { **ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا** } (التحريم : ١٢). إنها "هارونية" (أخت هرون)، راهبةٌ خادمٌ معبد ، يُستعظَمُ منها أن تفعل فى وهمهم الذى فَعَلَتْ : { **فأتت به قومها تحمله، قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فريًا. يا أخت هرون ! ما كان أبوك امرأ سوءٍ، وما كانت أمك بغيا** } (مريم : ٣٧ ــ ٣٨)، فَأَىُّ علمٍ هنا وأىُّ جهلٍ هناك . لم يفطن إلى هذا مفسرو القرآن،

وعذرهم واضح، إذ لا علم لهم ببطائن كهنوت بنى إسرائيل [١]، ولكن ماعذر أولئك الأدعياء المتعالمين على القرآن وفيهم اليهودى القُح، وربما كان منهم الهارونى الحَبْر، "أخو هرون" ؟

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . وسيأتى لهذا مزيد بيان إن شاء الله عند تحليل الاسم "مريم" فى موضعه من هذا الكتاب .

□□□

ولا ينقضى الكلام فى هرون قبل الحديث عن دوره فى فتنة العجل الذى صنعه "السامرى" لبنى إسرائيل فى التيه : { **فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا إلهُكُم وإلهُ موسى فَنَسِىَ** } (طه :٨٨)، لأن التوراة كماتعلم تنسب صناعة العجل إلى هرون، لا إلى ذلك السامرى الذى هو من أفانين القرآن كما يرى أدعياء الاستشراق [٢]، فتعجب لهم ـ وهم يهود أو نصارى آخر الأمر ـ كيف لا يخجلون من نسبة هذا الكفر إلى نبى من أنبياء التوراة الكبار، ويأخذون على القرآن تنزيه هرون عنه، فيصدقون كاتب سفر الخروج على هزله ويكذبون القرآن، قول الحق الذى فيه يمترون . قال كاتب سفر الخروج : " وقال موسى لهرون ماذا صنع بك هذا الشعب حتى جلبت عليه خطية عظيمة . فقال هرون لا يَحْمَ غضب سيدى . أنت تعرف هذا الشعب أنه فى شر . فقالوا لى اصنع لنا آلهةً تسير أمامنا لأن هذا موسى الرجل الذى أصعدنا من مصر لا نعلم ماذا أصابه . فقلت لهم من له ذهب فلينزعه ويعطنى . فطرحته فى النار فخرج هذا العجل" (خروج٣٣ / ٢١ـ٢٤). الذى صنع العجل لبنى اسرائيل فعبدوه فى التيه هو إذن هرون فى قول التوراة، لا السامرى الذى اخترعه القرآن، فما كان لسامرى من السامرة أن يندس فى جماعة بنى إسرائيل فيصنع لهم العجل، والسامرة

---

(١) قال مفسرو القرآن الأوائل فى أخت هرون : يعنى صنوه فى الصلاح، وليس بشىء ، لأن هرون ـ على صلاحه ـ ليس وحده مضرب المثل فى الصلاح . ومازلتَ إلى اليوم تسمع نفس هذا التفسير الساذج فى الإذاعة والتلفزة من أعلام المفسرين فى هذا العصر الذين يتابعون ما قاله القدماء وإن كان اجتهادا لا سند له من قرآن أو حديث ، يكتفون بهذا دون تمحيص ، ولا يأتون بجديد . كان عليهم التماس معنى " أخت هرون" فى مصطلح الذين قالوها لمريم عليها السلام : الهارونية ، خادم المعبد .

(٢) Joseph Horovitz, op. cit., p. 33.

بعد فى أرض فلسطين لم يدخلها بنو إسرائيل إلا من بعد وفاة موسى وهرون .
واستكثر هؤلاء الأدعياء على القرآن أن يستأثر بعلم الذى جهله آباء كتبة التوراة أو أنسوه أو تكتموه، فقالوا لم يُسْمع فى تاريخ بنى إسرائيل وأساطيرهم شيء عن هذا الذى كُتبَ عليه أن يقول " لامِساس " ! أبْدَ الدهر : { **قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مِساس، وإن لك موعدا لن تُخْلَفَه، وانظر إلى إلهك الذى ظَلْت عليه عاكفا، لَنُحَرِّقَنَّه، ثم لَنَنْسِفَنَّهُ فى اليم نسفا** } (طه:٩٧)، وزعموا أن قصة السامرى الذى فى القرآن كانت هى الأساس الذى بنى عليه أهل الكتاب من بعد أسطورة "اليهودى التائه"، إلى آخر ما قالوه، ولم يتوقفوا ليتساءلوا: ولم لا تكون أسطورة اليهودى التائه من أهابيش ذاكرة أهل الكتاب التى سقطت من أسفار التوراة أو تكتمتها أسفار التوراة ؟ ولماذا يهتم القرآن ـ وهو من عند غير الله بزعمهم ـ لمخالفة أساتذته من أحبار أهل الكتاب لمجرد تنزيه هرون عن ضلالة صنع العجل لبنى إسرائيل فى قول التوراة، مثلما اهتم من بعد لتبرئة مريم عليها السلام "أخت هرون!" من البهتان الذى قُذِفَت به فى عيسى عليه السلام يوم جاءت به قومَها تَحمِلُه ؟ ما للقرآن لهذا أو ذاك وهو يختصم أهلَ الملتين معا ؟ أليس لأنه وحده هو العليم بكل ما كان ؟ الحريصُ على الصدق فى كل ما قال ؟

هؤلاء الأدعياء يهرفون بما لا يعرفون، فيقطعون ولا يتثبتون، بل ربما دَلَّسُوا عليك آمنين ألا تكشف زيفهم، ظانّين أنك لستَ أهلا لتجشم مؤونة الرجوع الى مصادرهم : ليست "السامرى" فى القرآن صفة على النسب إلى السامرة التى فى فلسطين (وهى " شُمْرون" عبريا بضم الشين والنسبة إليها " شُمْرُونى " أى "السامرى" الذى من السامرة)، وإنما هى صفةٌ على النسب إلى "شِمْرُون" بكسر الشين، وهو شِمْرُون بن يِسَّاكَر بن يعقوب ، الذى ينسب إليه " الشِّمْرُونِيُّون "، عشيرة شِمْرُون، من سبط يساكر بن يعقوب، أحد أسباط بنى إسرائيل الإثنى عشر . وكلا اللفظين (شُمْرُون بضم الشين يعنى السامرة وشِمْرُون بكسر الشين ابن يساكر بن يعقوب رأس عشيرة الشِّمْرونيين والنسبة إليها شِمْرُونى بكسر الشين يعنى واحد الشِمْرُونيين أى "السامريين" كالذى فى القرآن) مشتق من الجذر العبرى " شَمَرْ "، الأولى "شُمْرُون" بضم الشين على اسم المكان، أى السامرة، والثانية بكسر الشين على اسم الفاعل من "شَمْر"،

ومعناه حَفِظَ وصانَ وحَرَزَ، و" شَمَرْ مِنْ " يعنى احترزَ منه وتحاماه وتَوَقاه (راجع الترجمة العربية على الأصل العبرانى لسفر يشوع ١٨/٦) . وعلى هذا يكون معنى السامرة عبريا هو الحرز أى الحصن المنيع، ويكون معنى اسم شِمْرُون بن يساكر بن يعقوب المنسوب إليه ذلك"الشِّمرونى" (أى السامرى الذى فى القرآن)، هو الحارز المُحْتَرِز .

السامرى الذى فى القرآن هو من صميم أسباط بنى إسرائيل فى التيه، لا شأن له بالسامريين الساكنين السامرة فى فلسطين . لم يُسَمِّهِ القرآن بالاسم وإنما نَسَبَهُ إلى بنى أبيه . ولم يفطن إلى هذا المفسرون .

ولكن القرآن المعجز الذى لم يَسَمٍّ هذا الرجل بالاسم، لا يفوتُهُ على منهجنا فى هذا الكتاب أن يفسر لك معنى " شِمْرُونى " (أى السامرى) فى أصلها العبرى بتلك العبارة المعجزة " لامساس ! " التى سيقولها السامرى ليتَجَنَّبُه الناس، أى تَوَقونى وتَحامُونى، فأنا شِمْرُونى ! وتندهش إذ تعلم أن صيغة أمر الجماعة من الجذر العبرى "شَمَرْ" ـ إن أضفتَ إليها ضمير المفعول للمتكلم فى العبرية "نِى" (كما فى العربية تماما) ـ تصبح " شِمْرُونى !" أى تَوَقونى وتَحامُونى ! (لا مساس التى فى القرآنِ) بنفس الرسم والنطق الذى فى " شِمْرُونى" على النسب، أى السامرى الذى فى القرآن . ألا فَسَبِّحْ معى العليمَ الخبير، القائلَ بكل اللغات، ودَعْكَ من بُغاثِ الطير الذين يريدون التحليق إلى قِمةٍ ليس إليها من سبيل .

❑❑❑

أما تفسير الاسم "هارون" ـ مقصدنا الأول فى هذا المبحث ـ فقد مر بك أنه فى العبرانية "أهارون" بزيادة الألف فى أوله، وأن هذه الألف البادئة هى "ألف التحلية" Prosthetic Aleph، التى تَزيد فى المبنى ولا تَزيد فى المعنى، فالأصل "هارون" بنفس صورته المعربة فى القرآن . ومر بك أيضا أن علماء التوراة وكتبة أسفارها لم يتصدوا لتفسير معنى هذا الاسم فى العبرية، شأنهم شأن مفسرى القرآن الذين اكتفوا بالنص على عجمة هذا الاسم ولم يتصدَّوْا لتفسيره . إلا أنه قد كان من أصحاب المعاجم، مثل معجم وبستر وغيره، من تصدَّوْا لتفسير معنى "هارون"، استنادا إلى علماء العبرية بالطبع، فتفاوتت تفسيراتهم على ثلاثة أقوال :

١- إنه الخفيف النَّزق nimble or light، وهم هنا يشتقونه من الجذر العبرى "أرَنْ" بفتح الراء مكافىء " أرِنَ " العربى بكسرها، أى خَفَّ ونَشط ومَرِحَ وبَطِر، فهو "أرُون" عربيا . وعلى هذا القول تكون الألف الزائدة البادئة فى " أهارون" أصلية، والزائدة هى الهاء . ولا يصح هذا فى نحو اللغة العبرية، فضلا عن أنه من أعلام العبرانيين على معنى الخفة والنَّزَق " أورين"، "أرنان" بضم الهمزة وفتحها، على الاشتقاق الصريح من الجذر العبرى " أرَن"، دون حاجة إلى إقحام الهاء بعد الألف البادئة فى " هارون " .

٢- إنه الفكِّير المكير thoughtful , deviser، يشتقونه من "هرا" العبرى الذى معناه - إن أسندته إلى فاعل مؤنث - حَبِلَت (المرأةُ)، وإن أسندته إلى فاعل مذكر كان معناه : فَكَّرَ وقَدَّر devise، to conceive وهذا يصح فى العبرية من حيث الاشتقاق، ولكن المعجم العبرى لألفاظ التوراة " هَمِّلُون هِحَداش لَتَناخ" عبرى/ عبرى، وهو من مراجع هذا الكتاب، يقول لك إن " هَرَا " العبرى المسند إلى الفاعل المذكر ليس من التفكير والتقدير وإنما هو يجىء على الذم بمعنى أضْمَرَ لَهُ سوءا، أو كادَ لَهُ أمرا . ولا تصح التسمية بهذا فى هارون من قبل أبيه وهارونُ بِكْرُه . ولا تصح به الكنيةُ أيضا من قِبل بنى إسرائيل وهارونُ أَحَبُ إليهم من موسى، حتى إنهم حين مات هرون اتهموا موسى بقتله غيرةً منه .

٣- إنه عَلِيٌ أو مُتعال exulted، elated (وربما ذَكَّرَكَ هذا بقوله صلى الله عليه وسلم لعلى بن أبى طالب : " أنت منى بمنزلة هرون من موسى، إلا أنه لا نَبِّى بعدى ! " الذى اغتنمه أصحابُ الأهواء فَحَمَلُوه فوقَ ما يحتمل) . والاشتقاقُ هنا يجىء من " يَهَرْ " وهو جذر ممات فى عبرية التوراة لم يَبْقَ منه إلا "يهَير" بمعنى الصليف ذى الصَلَف ، فيفترضون أن "يَهَر" بمعنى "علا" . وعلى هذا القول تجىء "أهارون" من "يهَر" مزيدا بالواو والنون على الفاعلية، كما جاءت "يَشرون": (أى "شَارون" من " يَشَر " وقد مَر بك) فتصبح " يَهَرُون " ثم تؤول بحذف الياء البادئة إلى " هارون "، ثم تضاف ألف التحلية فيؤول إلى " أهارون " يرسمها فى التوراة. ولا غبار على هذا التفسير من حيث الاشتقاق فى العبرية، ولكن الذى يُضعف منه هو انعدام الجذر " يَهَرْ " فى عبرية التوراة .

ولئن كان أَرْجَحُ التفسيرات الثلاثة هو التفسير الأخير (عَلى أو مُتعالٍ)، فثلاثتها جميعا موضع اختلاف بين علماء العبرية كما رأيت، أى ليس على أى منها إجماع . وهذا يدلك على أن علماء العبرية ليس لديهم مأثورٌ يفسرون به هذا الاسم، وإنما هى اجتهاداتٌ لغويةٌ ليس إلا .

ولكن القرآن لا يفسر على منهجنا فى هذا الكتاب الاسم "هارون" بأيٍّ من هذه المعانى الثلاثة : الخِفَّة أو المكيدة أو العُلُو . وإنما هو يجانسه على معنى القوة والشدة فى مثل قوله عز وجل على لسان موسى : {**واجعل لى وزيرا من أهلى. هرون أخى. اشْدُدْ به أزرى**} (طه:٢٩ــ٣١)، { **وأخى هرون هو أفصحُ منى لسانا فأرسله معى ردْءاً يُصَدِّقُنى إنى أخاف أن يكذِّبون . قال سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بأخيك ونجعل لكما سلطانا، فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون** } (القصص :٣٤ ــ ٣٥)، { **ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هرون وزيرا** } (الفرقان :٣٥) . هذه المجانسات القرآنية على الاسم "هارون"، والتى تُحَدِّدُ علة استنصار موسى بأخيه ، لا تخرج عن معنيين : الفصاحة واللَّسَن، وأيضا القوة والشدة. فَشَدٌّ أزره وشدٌ عَضُدَه، يعنى قَواه، والرِّدْءُ من معانيه فى العربية القوة والعماد ، والوزَارة أيضا من هذا ، فالوزير يعنى حامل الثِّقَل، والوَزَرَ عربيا بفتحتين يعنى الجبل المنيع يعتصم به .

أما تفسير "هارون" على معنى الفصاحة واللَّسَن، فهو مردودٌ بامتناع تأصيله على أحرف "هارون" فى العبرية . وأما تفسيره على معانى القوة والشدة والوزَر، فهو سَلْسٌ قريب . لا يحتاج إلى افتعال ذلك الجهد الذى بذله علماء العبرية فى تفسيراتهم للاسم " هارون"، ولو فطنوا لما سنقوله الآن لما ارتَضَوْا به بديلا : إنه من "هار" العبرية بمعنى "جَبَل"، زيدَ بالواو والنون، إما على الصفة المُشَبَّهَة (كما قالت العبرية "إشْتُون" من "إِشت" أى شبيهُ المرأة، وقد مَرَّ بك)، وإما على التصغير تَوَدُداً وتَحُّببا، فهو "جُبَيْل". وأما الألف الملصقة بهذا الرسم فى العبرية "أهارون" فهى زائدة : إما هى ألف التحلية كالتى فى "أدُون" يعنى "سيد" (وأصلها "دُون")، وإما هى أداة التعريف العربية "أل" حُذِفَت لامُهَا، ولهذا نظائر فى العبرية يعرفُها المتخصصون، لا نُثْقِلُ بها عليك .

والذى ينبغى التنبيه إليه أن " هار" العبرية بمعنى "جَبَل"، يُكَنَّى بها عبريا عن القوة والثبات والصمود، تماما كما يفعل أهل العربية فى لفظة " جَبَل"، بل لا تخلو أعلام العرب من "جبل"، "جبيل"، "جبلة ". بل من مجاز العبرية أن تُكَنى عن رؤساء الشعب " بلفظة " هاريم " (جمع جَبَل) وهو مجازٌ يفسره المعجمُ العبرى بعبارة "جِدُولى هاعام " أى " أكابر الشعب"، وبلفظة " مَعَصَاموت" أى القوة، ومنها فى العبرية المعاصرة " مَعَصَامُوت جِدُولُوت" يعنى" القوى الكبرى" [1] .

"هارون" إذن يعنى "الجبل" أو "جُبَيْل" ، وقد فسره القرآن كما رأيت على معنى الوَزَر والقُوَة، وفسره أيضا بالتقابل فى قول هرون يعتذر لأخيه فى فتنة العجل: {**قال ابنَ أمَّ إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تُشمِت بى الأعداء**} (الأعراف :١٥٠) . وسبحان العليم الخبير .

---

(١) راجع مادة "هار" فى " هَمَلُون هِحَداش لَتَناخ " ، المرجع المذكور ، ص ١٢٣ .

(٣٢) فرعـــون

" فرعون" في القرآن هي تعريب " پِرْعا " المصرية القديمة، تصطَلحُ على نطقها مكسورةَ الپاء ساكنةَ الراء، اتباعا لمنهج علماء تلك اللغة الذين يفترضون " الكسر" حين يمتنع القطع بحركة المد الواجبة بين ساكنين، في خط لا يعبأ بإثبات حركات المد. وهي في التوراة " پَرْعُو " بفتح الپاء وسكون الراء، وتَحَوُّلِ الألف إلى الواو .

أما " پرعا " المصرية القديمة هذه فهي اسم مزجي مركب من شقين " پر+ عا "، الشق الأول "پر" يعني البيت أو الدار، والشق الثاني " عا " صفة بمعنى الكِبَرِ أو العِظَم، فهو "البيت الكبير" أو " البيت العظيم " . وتدخل "پر" في تراكيب مزجية عديدة، من مثل " پر+ عَنْخ " أي بيت الحياة أو بيت الروح، يعنون " دار الكتبة "، " پر+ حِضْ" أي البيت الأبيض، يعنون " دار الخزانة " أو " بيت المال "، " پر + نِسُو " أي بيت الملك، يعنون " القصر" . وحين تأتي " پرعا " المصرية القديمة على المزجية فهي تفقد معناها الأصلي كبيت كبير أو بيت عظيم، وتصبح كُنْيَةً يُكَنَّى بها عن شخص الملك مهَابةً وتفخيما، كما قال العثمانيون في خليفتهم " الباب العالي" ، وقالوا في رئيس وزرائه "الصدر الأعظم" .

والثابت لدى علماء المصريات أن " پرعا " لم تصبح اسما دَالاً بذاته على شخص الملك بحيث تستطيع أن تقول جاء " پرعا " وذهب " پرعا " وقال " پرعا "، إلا منذ عصر الأسرة التاسعة عشرة، عصر الرعامسة الذين كان منهم " فرعون موسى" على ما نرجح نحن ويرجح معنا اليوم كثيرون .

ومن إعجاز القرآن أنه ـ مطلع القرن السابع للميلاد ـ يوم كانت اللغة المصرية القديمة، وكان التاريخ المصري القديم، طلاسمَ مُطَلْسَمة عند العالم أجمع، بل وعند المصريين أنفسهم، لم يعلم فقط معنى "پرعا" في اللغة المصرية القديمة، وإنما علم أيضا منذ متى بدأ إطلاق هذه الكنية على ملوك مصر، فخص بها فرعون موسى وحده . أما

حين يذكر ملوك مصر الذين سبقوا " فرعون موسى" - كما ترى فى حديثه عن الملك الذى استخلص يوسف لنفسه وجعله على خزائن الأرض - فهو يقول "الملك"، لا يخطىء مرة واحدة فيقول " فرعون " .

أما كتبة التوراة - شأنُهم شأن الخلق جميعا عصرَ نزول القرآن وحتى أواسط القرن الماضى وأوائل هذا القرن العشرين - فقد جهلوا هذا وذاك : فَسَّروا "پرعا" (وهى عندهم "پَرعُوُ" كما مر بك) على التخمين بأنها لفظة فى المصرية القديمة تعنى " الملك"، وأطلقوها بلا قيد فى سفرى التكوين والخروج، لا فرق بين " فرعون موسى"، و" فرعون يوسف "، و"فرعون إبراهيم" . وهذا يدلك بالنقد اللغوى وحده - كما مر بك - على أن أسفار التوراة المنسوبة إلى موسى عليه السلام لم تكتب على عصر موسى وهرون - أو قريبا منه - يوم كان العبرانيون يحسنون فهم تلك اللغة المصرية القديمة بحكم وجودهم بين ظهرانَى المصريين نحو أربعة قرون تفصل بين عصر يوسف وعصر موسى وهرون، وإنما هى كُتبت من الذاكرة - لا من الوحى المباشر - بعد خروجهم من مصر بقرون أنستهم ما كانوا يحفظون من تلك اللغة .

وأول ما يَدُلُّكَ على علم القرآن القاطع بمعنى البيت الذى فى " پرعا " هو تلك المُفاضَلةُ المُعجزة بين " بيتٍ " عند اللهِ فى الجنة وبين " فرعون " البيت الكبير ، على لسان امرأة فرعون إذ قالت : { **رَبِّ ابنِ لى عندك بيتا فى الجنة ونَجِّنى من فرعونَ وعمله** } (التحريم : ١١) . أما الترجمةُ الدقيقة فى لغتك العربية لمعنى "پرعا" هذه (البيت الكبير) ، فهى " الصرْح " ، وبهذه الترجمة الدقيقة فَسَّرَ القرآنُ كما سترى معنى " فرعون" - أى "پرعا" - من المصرية القديمة التى كان يجهلها الخلقُ جميعا عصرَ نزول القرآن فى مطلع القرن السابع الميلادى وحتى أواسط القرن الماضى وأوائل هذا القرن العشرين ، وسبحان العليم الخبير .

فى تفسير القرآن أعلامَهُ المصرية القديمة من مثل موسى وفرعون ومصر بلغة أهلها مطلع القرن السابع للميلاد إعجازٌ يخشعُ لَهُ العقلُ والقلبُ . فهل آن للمطنطنين بدعوى النقل والاستنساخ أن يخسَؤُوا ؟ بل ما أحراهم وقد افتضح الجهل أن يَجْلِسوا إلى هذا القرآن مجلسَ التلميذِ من الأستاذ ، يتعلمونَ منهُ ولا يتعالمونَ عليه .

وردت لفظة " الصَّرْح " فى كل القرآن أربع مرات ، مرتين فى (الآيـة ٤٤ من سورة النمل) وصفا لذلك القصر البلَّوْرى الذى بَنَتْـهُ الجِنُّ لسليمـانَ عليه السلام ودخلته ملكةُ سبأ فحسبَت وهى تَطَؤُه - لملاسته وصفائه وشفافيته - إنها تخوض فى ماءٍ رَقْراق : { **قيل لها ادخلى الصرح ، فلما رأته حسبته لُجَّة وكشفت عن ساقيها ، قال إنه صَرْحٌ مُمَرَّدٌ من قوارير** } (النمل : ٤٤) . وأما المرتان الأُخْرَيان فكانتا فى تفسير معنى فرعون من المصرية القديمة بأنه " الصرح " .

قال عز وجل : {**وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطَّلع إلى إله موسى وإنى لأظُنُّهُ من الكاذبين**} (القصص : ٣٨). وقال عز وجل أيضا: {**وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب** } (غافر : ٣٦).

وهو فى المرتين يفسر معنى "فرعون" ("پرعا " المصرية القديمة) على الترادف الصريح ، لا كناية ولا تصوير : پرعا = الصرح . إن أَرْجَعْتَ " فرعون " إلى أصلها المصرى القديم " پرعا " لقلت فى مثل الآية ٣٦ من سورة غافر : " وقال پرعا ياهامان إبن لى پرعا "!

ألا فسبح معى العليم الخبير ، القائل بكل اللغات ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم .

□□□

أما علماء المصريات - يهودَ ومسيحيين - فقد أعياهم العثور على أثر أو نحت أو نَقْش يُصَدِّقُ التوراة فيما ترويه من أخبار فرعون مع موسى وهرون ، بَلْهَ على أثرٍ أو نحتٍ أو نقش يُسْتَدَلُّ منه على مجرد وجودٍ قد كان لبنى إسرائيل فى مصر ، ناهيك بذلك الحَدَثِ الجَلَل الذى أغرق فرعونَ فى اليمّ وهو يُطارِدُ بنى إسرائيل الذين جاوزوا البحر إلى سيناء .

قال الملحدون من أهل الملتين : وماذا فى ذلك ؟ القَصَصُ الدينىُ كُلُه حديثُ خُرافة ، لا حقيقةَ له خارج الذهن ، لا نحوتَ ولا نقوشَ إلا فى أَدْمِغَةِ الذين آمنوا .

أما العلماءُ الأثبات ـ لا شأنَ لك بإيمانهم أو إلحادهم ـ فقد استدركوا على هؤلاء: وهل تتوقع من فراعنة مصر غير ذلك إن صَحَّت تاريخيا قصةُ التوراة ؟ ليست النُّصُبُ والنُحوت والنقوش فى مصر القديمة صُنْعَ أفرقةٍ من المؤرخين أو الهواة ، وإنما هى تُصَنعُ وتقام بأمر الدولة وبتمويل من السلطة الحاكمة ، ملوكا أو كهنة ، لاسيما النُّصُبُ والنحوت والنقوش التى تُسَجِّلُ أخبارالملوك . والملوكُ يسجلون انتصاراتهم وأمجادهم ، ويطمسون ما كان من هزائمهم ومخازيهم ، بل ربما صوروا الهزيمة نصرا ، والفضيحةَ مجدا . وكذلك يفعلون .

والذى يعنينا من هذا أن فقدان التاريخ دليلَهُ العلمى الذى يُوَثِّقُ به أحداث ما كان من أمر فرعون مع موسى وهرون، أدى أيضا إلى انعدام الدليل العلمى الذى يحدد بيقينٍ لا شك فيه شخصَ هذا الملك واسمه بين الفراعنة الذين حكموا مصر .

ولكن للغويين كَلِمَتهم فى هذا : قد مَرَّ بك أن لقب "فرعون" ـ حين يدل بذاته على شخص الملك ـ بحيث تستطيع أن تقول ذهب فرعون وجاء فرعون وقال فرعون تعنى بها الملك بالإسم ، كُنْيَةً يتكنَّى بها ، لم تُسمع فى مصر القديمة على هذا الوجه الصريح قبل عصر الأسرة التاسعة عشرة [١] . أى دولة الرعامسة (الأولى) التى حكمت مصر أواخر القرن الرابع عشر قبل الميلاد ودام حكمها حوالى مائة سنة. وقد كان نصيب رمسيس الثانى من مدة حكم هذه الدولة سبعا وستين سنة .

ولأن القرآن يخص بلفظ " فرعون " ملكا بعينه من ملوك مصر، اسماً علماً، مُغايرا بين "الملك" الذى جعل يوسف على خزائن الأرض، وبين الطاغية الذى علا فى الأرض أى فى مصر (على مامر بك من أن "مصر" بلغة أهلها يومئذ تسمى الأرض) وجعل أهلها شيعا ، لا يريد به أى "فرعون" سبقه أوتلاه، فهو يعنى بالتأكيد "أول" فرعون تَلَقبَ به لا يُنادى بغيره ، أى أول فرعون استقر له هذا اللقب فَعُرِفَ به . فهو أول الرعامسة إن شئت ، أو أشهرهم بهذا اللقب . لا شأن لك بمن اصطنعوا اللقب من بعده ، " أشباحَ فراعين " ليس لهم من الاسم إلا رسمه .

ولكنك تستبعد رمسيس الأول مؤسس الأسرة التاسعة عشرة ، لأن حكمه لم يدم إلا سنة واحدة أو سنة وبعض سنة ، وتستبعد أيضا خليفته سيتى الأول الذى دام

(١) انظر : A. Gardiner , EGYPTIAN GRAMMAR ، المرجع السابق ، ص ٧٥ .

حكمه ثلاث عشرة سنة . تستبعد هذين لأن مُدّتَى حكمهما (نحو ١٤ سنة) لا يستوعب أيّهما أحداث ما كان بين فرعون وموسى . ولكنك تتوقف عند رمسيس الثانى خليفة سيتى الأول لا تعدوه إلى غيره ، لا لطول مدة حكمه التى دامت سبعا وستين سنة فقط ، وإنما أيضا وبالأخص لأنه أحق فراعين مصر بهذا اللقب ، بل هو على الراجح أول من تَلَقَبَ به .

وأنت تستبعد بالطبع " مِرنْپتاح " (منفتاح) خليفة رمسيس الثانى ، وإن حلا لمؤرخين التوقفُ عنده. تستبعد هذا بالدليل التاريخى : "لوحة إسرائيل" (الأثر المصرى الوحيد الذى جاء فيه ذكر " إسرائيل " بالاسم) وفيها يقول ذلك الملك إنه فى السنة الثالثة أو الخامسة من حكمه حارب فى آسيا فصال وجال : "ينْعِمْ أصبحت كأن لم تكن، وإسرائيل أبيدت ولن يكون لها بذرة ، وأصبحت حورو (أى فلسطين وما حولها) أرملةً لمصر " . (١)

والذى حارب إسرائيل فى فلسطين فانتصر عليهم وأباد بذرتهم ، ثم عاد إلى مصر سليما معافى يكتب هذا النقش ، لا يمكن بداهة أن يكون هو نفسه "فرعون" الذى هلك فى اليم غريقا وهو يطارد بنى إسرائيل فى عبورهم البحر إلى سيناء ، كما تقول التوراة وكما يقول القرآن . بل فى هذه اللوحة ـ "لوحة بنى إسرائيل" ـ مهما قلت فى طنطنة هذا الملك ـ الدليل التاريخى الكافى على وجودٍ قد كان لبنى إسرائيل على عصر مرنپتاح فى فلسطين أو فى الطريق إلى فلسطين ـ أعنى فى تيه سيناء . وهذا يدلك على أن بنى إسرائيل خرجوا من مصر إلى فلسطين قبل أن يَخْلُفَ مرنپتاحُ أباهُ رمسيسَ الثانى على عرش مصر، أى كان خروجهم إلى تيه سيناء قبل مرنپتاح ، لا فى عهده ولا فى عهد من جاءوا بعده رعامسة وغيرَ رعامسة. فلم يكن لإسرائيل كيانٌ فى فلسطين قبل خروجهم من مصر ، لأن إسرائيل الذى يُنْسَبون إليه رجلٌ فرد ، دخل مصر قبل أن يتحقق لبنيه هذا الكيان لا فى فلسطين ولا فى غيرها . إذن فقول مرنپتاح ـ مهما تشككت فى طنطنته ـ إنه حارب إسرائيل فى فلسطين يُفيدُ ثبوتَ علْمِه بوجودِ شعبٍ أو قبيلة بهذا الاسم خارج مصر ، وهذا العلمُ وحده قاطعُ الدلالة على خروجهم من مصر قبل مرنپتاح لا بعده . فتعجب كيف يتورط مؤرخون فى توقيت

(١) ما بين علامتى الاقتباس منقول عن : أحمد فخرى ، " مصر الفرعونية " ، مكتبة الأنجلو المصرية ، طبعة ١٩٨٩ ، صفحة ٣٧٦ ، الحاشية (١) .

خروج بنى إسرائيل من مصر بعهد مرنپتاح وفى أيديهم وتحت بصرهم هذا الشاهدُ التاريخى القاطع ؟ عليك إذن ـ شأنَ المؤرخِ الجديرِ بهذا الاسم ـ التماسَ فرعون موسى فى رمسيس الثانى ومن سبقوه ، لاشأن لك قط بمن خلفوه .

على أنك تكتفى من "لوحة إسرائيل" بهذا الدليل التاريخى القاطع على ارتحال بنى إسرائيل من مصر قبل عهد مرنپتاح ، لا تعدوه إلى طنطنة هذا الملك بانتصاراته فى آسيا فالراجح أن هذا الملك ـ طوال حكمه الذى دام إحدى عشرة سنة ـ لم تطأ قدماه أرض سيناء ، ناهيك بأرض فلسطين ، لانشغاله عن بوابة مصر الشرقية بحروبه مع ليبيين شَنُّوا على مصر من الغرب حملاتٍ استيطانية كان لهذا الملك ـ وهذا هو الإنجاز الوحيد الذى يسجله التاريخ لمرنپتاح ـ فضلُ حمايةِ مصر منها .

هذا وحده هو الذى يفسر لك ـ إن سَلَّمت بأن فرعون موسى نفسه هو رمسيس الثانى والد مرنپتاح ـ سببَ سكوتِ مصرَ عن ثاراتها لدى بنى إسرائيل أربعينَ سنة فى تيه سيناء ، وتطوافَهم بين جبالها ووهدانها وكأنه لا وجودَ لمصر عسكرياً فى سيناء ، ولم يُعْنَ بالتساؤل عن سر هذا السكوت والاغضاء أحد : لا تنامُ مصرُ عن سيناء إلا فى عصور الفوضى . كان هذا هو دَيْدَنَ مصر منذ فجر التاريخ وإلى اليوم. نامت مصرُ عن ثاراتها لدى بنى إسرائيل فى سيناء لانشغالها بمصيبتها فى داخلها: سقوطُ الدولة. لم يَمُت فرعونُ موسى على سَريره حَتْفَ أنفه ، وإنما هَلَك فى كارثةٍ كبرى ، أوْدَت بين ليلةٍ وضُحاها لا بملك مصرَ وحده ، بل وبالملأ من وزرائه وأمرائه وقادة جنده . وكان على مرنپتاح الذى آل إليه العرش وهو فى الستين من عمره أن يواجه هذا كله ، بالإضافة إلى أطماع من تَحَيَّنُوا الفرصة للوثوب على مصر واستيطانها ، كما ترى فى تلك الحملات الليبية التى تصدى لها هذا الملك وانشغلَ بها عما عداها. على أن الاضطرابات والقلاقل داخلَ مصر بدأت مع أواخر عصر رمسيس الثانى، وهى اضطراباتٌ وقلاقل لا تفسرها فقط بشيخوخته كما يقول المؤرخون ، وإنما تفسرها أيضا بكوارث طبيعية ، وقلاقل سياسية ، الأولى تأديبٌ من الله عز وجل : { **ولقد أخذنا آل فرعون بالسنينَ ونقصٍ من الثمرات لعلهم يذكرون**} (الأعراف : ١٣٠)، وجاءت الثانيةُ نتيجةَ افتضاح فرعونَ وسقوطِ هيبته عند شعبه وعند الملأ من بلاطه بتوالى هزائمه أمام موسى وهرون .

ويقول المؤرخون [1] ان أحوال مصر ازدادت سوءا وخطورة على عهد مرنپتاح ، وتفاقمت بالصراع على السلطة فى بلاط من خَلَفوه ، فتمزقت البلادُ شَرَّ مُمَزَّق ، وأعلن كثيرون من كبار حكام الأقاليم استقلالهم ، و غُزِيت مصرُ من الخارج ، وظل الناسُ سنوات دونَ حاكمٍ عليهم ، حتى كان الرجل يذبحُ جاره، واستطاع رجلٌ من أصلٍ سورى تنصيبَ نفسه ملكا على مصر ، يَنهَبُ ممتلكاتِ الناس ويُهملُ المعابد ، فَخُتِمَت به شَرَّ ختام الأسرةُ التاسعة عشرة بعد نحو ربع قرنٍ من مَهلِك رمسيس الثانى .

أفتجد فى تاريخ مصر أنسبَ من هذا المُناخ لسكوت مصرَ عن ثاراتها فى سيناء؟

أما طنطنة هذا الملك بخروجه إلى سيناء وحربه مع بنى إسرائيل يستأصل شأفتهم ويبيد بذرتهم ، فهى أمانىُّ العاجزَ عن الثأر لمهلك أبيه ، يُعَلّلُ بها النفس ، كالذى تقرؤه فى ديوان امرىء القيس من شعرٍ حماسى يُدَبِّجُهُ فى مَصارِعِ الذين قتلوا حِجْراً أباه .

❑❑❑

على أن من المؤرخين من يرتفع بتاريخ خروج بنى إسرائيل من مصر أربعة قرون سبقت عصر مرنپتاح ، فيرد هذا الخروج إلى عصر الملوك الرعاة ـ الهكسوس ـ الذين حكموا مصر نحو قرنين من حوالى منتصف القرن الثامن عشر إلى منتصف القرن السادس عشر قبل الميلاد . وربما نزل بعضهم بتاريخ هذا الخروج إلى عصر الأسرة الثامنة عشرة ، وتَدَرَّجَ به من تحوتمس الثالث إلى أمنحوتب الثانى فأمنحوتب الثالث ، ثم إلى أمنحوتب الرابع ، أى اخناتون ، فى محاولة للربط بين خروج بنى إسرائيل من مصر وبين ما يسمونه " ثورة اخناتون " الدينية [2]، تمسحا بهذا الملك فى تأصيل زعمهم بأن اخناتون هذا هو أولُ قائلٍ بعقيدة التوحيد ، وأن التوراة نقلت عنه فكرة عبادة الواحد الأحد ، كما استنسخ داودُ مزموره (١٠٤) من نشيد اخناتون الإلهى، متناسين أن بنى إسرائيل هم الذين جاءوا إلى مصر بهذه العقيدة مع يوسف ويعقوب

---

(١) أحمد فخرى ـ " مصر الفرعونية " ـ المرجع المذكور ، الصفحتين ٣٧٨ . ٣٨٧ (ما بين الصفحتين لوحات مصورة) .

(٢) المرجع نفسه ، صفحة ٣٧٧ .

عن جدهما إبراهيم صلوات الله عليهم أجمعين . والحق أن عقائد المصريين جميعا ، ومنها العقيدة التى جاء بها اخناتون ، ليست إلا تنويعات على لحن واحد ، وإنما هم يتبدلون أسماء بأسماء . وليس "أتون" (يعنى شعاع الخلق والحياة المنبثق عن قرص الشمس) بأفضل من " آمون" إن أردت التجريد ، لأن "آمون" فى اللغة المصرية القديمة معناها "الخفى المحتجب" ، أى الذى هو وراء كُلِّ معبودٍ مشهود ، أما "آمون ـ رع" فهو الإلهُ الأكبر الذى وراءَ قرصِ الشمس الإله . والذى فعله إخناتون كان فى حقيقته صراعا على السلطة مع كهنة " آمون " . وما كان إقصاؤه الآلهة الأخرى فلا يُعْبَدُ مع "آتون" غيره ، إلا إقصاءً لسَدَنَتِها وكهنتها ، كى ينفرد إخناتونُ وحده بالكهانة : لا تَوَسُّلَ إلى " آتون" إلا به ، ولا وساطة بين "أتون" وبين الناس إلا من خلاله . وما هكذا يكون التوحيد أيما نَصَّبْتَ مِنْ إله .

على أن التوحيد ـ فطرةَ اللهِ التى فَطَرَ الناسَ عليها ـ بَدَأَ بآدم ، ثم ضَلَّ من ضل فانتهى إلى الشرك . ولا يخلو شركٌ من أصلٍ للتوحيدِ يُرَدُّ إليه : { **ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى** } (الزمر : ٣) ، أى أن الشرك هو اصطناعُ الوسائطِ بين الخَلْقِ والخالق ، فهو " الكهانة" . وليس الإلحادُ ثورةً على التوحيد، وإنما هو فى أصله إن تمعنت ثورةٌ على الشرك ، أى ثورةٌ على الكهنة الذين يُعَدِّدُون الأربابَ والوسائط تكثيرا للأرزاقِ والجِراية ، ثم يقفون على أبواب المعابد يقبضون منكَ الصَّدَقَةَ أتاوة ، كالمتسولِ ، الجَبَّارِ ذى العاهة ، يُريكَ من عُكازهِ هِراوةً غليظة يَدُق بها عُنُقَكَ إن تَأَبَّيْتَ عليه .

متى رمزتَ إلى الله عز وجل برمزٍ ، فقد فَسَد الدين ، وانصرفَ الناسُ عن الأصلِ إلى الرمز ، حتى عبدوا الحجرَ والشجر . والكُهَّانُ ـ وإخناتونُ منهم ـ هم الذين يبتدعونَ لك هذه الرموز ليحكموك بها .

على أن إخناتون لم يعرف اللهَ عز وجل حقَ معرفَته ، لأنه يُوَحِّدُ "أتون" ليستأثر به لنفسه . ونشيدُهُ الإلهى تهاويمُ شاعر ، أكثرُهُ مسبوقٌ مأثور، تَقرؤه فى تسابيح المصريين من قبله لآمون وغيره. وإنما طنطن الملحدون من أهل الملتين بإخناتون تدليلاً على أن وحى الله عز وجل على رسله مسبوقٌ بما قاله هذا الشاعرُ الملكُ المُتَحَنث، بل الملك النبى فى قول البعض . وما كان لنبىٍ يدعو الناس إلى الواحد الأحد أن يَدَّعى ـ كما قال إخناتونُ فى نشيده ـ أنه وُلِدَ من صُلبِ إلههِ .

وقد انزلق إلى هذا الوهم أيضا مؤرخون معاصرون مصريون مسلمون ، فرحوا بإخناتون الملكِ النبيِّ الذى سبق موسى وهرون ! قد أصابهم الزهوُ العرْقىُّ المميت ، فَعَمَوا عن الحق ، ربما تعلَّلتَ لهم بأنهم لا يقرءون القرآن ـ وهذا أقبحُ الذنب ـ ولكنك لا تُعفيهم من إثم إشاعة هذاالضلال " العلميِّ " بين الناس ، وأهلِ الأدبِ بوجه خاص .

أما المقارنة التى يعقدونها بين نشيد إخناتون وبين مزمور داود (١٠٤) فلك أن توازن بين النصين [١] ، ولن تجد فى القليل الذى اتفقا فيه إلا أفكارا شائعة لا تحتاج إلى أخذ اللاحق عن السابق . على أن المزمور (١٠٤) ليس محقق النسبة إلى داود عليه السلام ، دليلك فى هذا من " الكتاب المقدس " نفسه ، الذى سكت عن نسبة مزامير بعينها ، منها هذا المزمور ، لداود : قال فى بعضها " المزمور (..) لداود" ، وسكت عن الباقى .

❑❑❑

دام حكم رمسيس الثانى سبعا وستين سنة ، فهو أطولُ ملوكِ مصرَ القديمة حكماً بإطلاق ، لا الرعامسةِ فحسب ، فلا تجدُ بين ملوكِ مصرَ القديمة فرعونَ غيرَه يستوعب حُكْمُهُ أحداثَ ما كان منذ التقاط آل فرعون موسى من اليم وتنشئته فى قصر فرعون حتى يبلغ مبلغَ الرجال ، ويقتلُ موسى ذلك المصرىَّ فَيَفِرُّ من آل فرعون إلى مَدين حيث يُصهِرُ إلى كاهنها "يِثرو" ويمكث عنده عشر سنوات ، يعود بعدها إلى فرعون هذا نفسه ، ويحاوره فرعونُ ويداوره ، وتمضى بهما السنون حتى يخرج موسى ببنى إسرائيل إلى تيه سيناء وقد ناهز موسى الثمانين كما تقول التوراة أو حسابات التوراة ، فقد امتد الأجلُ بموسى فى تيه سيناء أربعين سنة ومات فى التيه وعمره مائة وعشرون سنة ، كما مر بك من قول الكاتب فى سفر الخروج . ومهما عجبت لمبالغات التوراة فى أعمار أبطالها ، فلا شك أن الحوار بين موسى وفرعون قد طال سنوات ، لقوله عز وجل: { **ولقد أخذنا آل فرعون بالسنينَ ونقصٍ من الثمرات لعلهم يَذَّكرون** } (الأعراف : ١٣٠) . وأنت تعلم أن الرسل باستثناء عيسى عليه السلام يُبعثون فى تمام الأربعين . فَرَّ موسى إذن إلى مدين وقد ناهز الثلاثين ، وعاد إلى مصر بعد عشر

(١) اقرأ المزمور (١٠٤) فى موضعه من مزامير داود بالكتاب المقدس . واقرأ نشيد إخناتون فى : أحمد فخرى ، مصر الفرعونية ، المرجع المذكور ، الصفحات ٣٢٣ ـ ٣٢٨ .

سنوات حيث نودى من جانب الطور الأيمن فى سيناء ، ثم ناجز فرعونَ سنين ، ليخرج بنى إسرائيل إلى تيه سيناء وقد ناهز العقد السادس من عمره ، إن لم يزد .

لا يتسع لهذه العقود الخمسة أو الستة حكمُ أى ملكٍ من ملوك مصر القديمة منذ "نعرمر" مُوَحِّد القطرين إلى رمسيس الثانى . وقد مر بك القول فى الشاهد التاريخى ـ لوحة إسرائيل ـ المانع من أن يكون " مرنپتاح " ـ ابن رمسيس الثانى ـ هو فرعون موسى ـ لا مرنپتاح ولا جميع من خلفوه . لا يتسع لهذا إلا حكم رمسيس الثانى وحده (٦٧ سنة) إذا كان الفرعونان واحدا : الذى احتضن وربّى ، ثم جحد وعصى . والقرآن على هذا لأنه يخص بلفظة " فرعون" مَلِكاً بعينه ، اسما عَلَما ، لا يعدوهُ إلى غيره .

ولكن التوراةَ تقول لك فى سفر الخروج ان فرعون الذى التقط موسى من اليم فاحتضنه ورباه ، وفر منه موسى إلى مدين بعد قتله ذلك المصرى ، ليس هو نفسه فرعون الذى هلك فى اليم غريقا . بل مات وموسى لايزال بعد فى مدين (خروج٢/٢٣) ، فلم يعد موسى إلى مصر إلا بعد أن "مات جميع الذين يطلبونه" (خروج٤/١٩) ليقتلوه بذلك الرجل المصرى . فهما إذن فرعونان : فرعونُ الذى ربّى، وفرعونُ الذى بُعِثَ موسى عليه السلام إليه رسولا. وقد رَتَّب بعض المؤرخين على هذا أن "فرعون الخروج" هو مرنپتاح ، خليفة رمسيس الثانى. وهذا مردود بما مر بك من الشاهد التاريخى على امتناع دورِ "فرعون الخروج" على مرنپتاح وكل من خلفوه. وهو مردودٌ ثانيا بأن موت ملك مصر لا يُسقطُ الجرم الذى اجترحه موسى بقتله ذلك المصرى، كما وَهِمَ كاتبُ سفر الخروج ، الذى أراد تعليل إقدام موسى على العودة إلى مصر وهو فيها مُهْدَرُ الدَّم. وليس بلازم ، لأن الله عز وجل يعصم أنبياءه، بل قد تَوجس منها موسى: { **ولهم علىَّ ذنبٌ فأخاف أن يقتلون. قال كلا، فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون** } (الشعراء : ١٤ ــ١٥) : الذى خرج من مصر فِرارا من بطشِ فرعون قد عاد إلى فرعونَ هذا نفسه بسلطان الله { .... **ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما** } (القصص : ٣٥) .

على أنك لا تأخذ كل مايُسَطِرُهُ هذا الكاتب مَأْخَذَ الجِدِّ ، فهو لا يَنِى يُتْحِفُكَ بِمُحالاته . من ذلك قولُهُ فى نفس الإصحاح (خروج ٤/٣٤ ـ ٣٦) وقد فرغ من

تسجيل نزول الرسالة على موسى : "وحدث فى الطريق إلى المنزل أن الرب التقاه ليقتله (يعنى أراد الله أن يقتل موسى) فأخذت صِفُّورة (زوجُ موسى) - وأصلها العبرانى «صِپُّورة» يعنى «عصفورة» - صَوَّانة وقطعت غُرلَة ابنها ومَسَّت رجليه وقالت إنك عريسُ دمٍ لى ، فانفَكَّ عنه (أى انصرف الربُ عن موسى وعَدَلَ عن قتله) حين قالت عريسُ دمٍ ، من أجلِ الختان" . وقد أحرج هذا النصُ شُرَّاحَ التوراة : بأى ذنبٍ يقتلُ اللهُ موسى وقد اصطفاه نبيا رسولا ؟ قالوا إن موسى أهمل ختانَ ابنه فكاد أن يهلكَهُ بهذا الذنب، لولا قَطْعُ صِفّورة غُرلَةَ ابنها (يعنى خَتَنَتْه) فعفا الربُ عن موسى، فلا تدرى كيف علمت صفُّورة بغضب الله على موسى واعتزامه قتله وموسى فى الطريق إلى المنزل . أما قولُها إنك "عريس دمٍ" لى (وهى بالعبرية "حَتَنْ دَمِيم") فهم يفسرونها بأن الزوجية انقطعت بينهما بغضب الله على موسى لإهماله ختانَ ابنه ، وعاد لها موسى عريساً بمقتضى دَمِ الختان الذى مسَّت به رجليه (١) . هُراء يُفَسَّر بهُراءٍ مثله . لم يتوقف الكاتب لحظة ليسائل نفسه : كيف يقتل الله النبى الذى اصطفاه برسالاته وبكلامه ؟ ولِمَ ؟ ألأنه أهملَ ختانَ ابنه كما قال الشراح من بعد هذا الكاتب؟ أفكان موسى يتوقف لحظة عن ختان ابنه لو ذكَّرَهُ اللهُ به قبل أن يقرر قتله؟ أم أراد الله أن يُبَيِّتَ لَهُ كى يأخذَهُ على غرة؟ وَهَبْهُ أراد قتلَه ، فهل يمشى اللهُ إليه ليقتله أم يبعثُ إليه بَملَكٍ يقبضُ روحَه ؟ وَهَبْهُ مشى إليه ليقتله ، فهل تَحولُ دونَهُ حيلةُ صِفُّورة ؟

لا عليك . هذا الكاتبُ كأخيه الذى فى سفر التكوين يَهزِلُ أحيانا . ومُحالاتُهُ حَشْوٌ لا يلزمك ، فليس هذا من التوراة التى أنزلَ اللهُ على موسى .

□□□

على أن فى التوراة دليلين " جادَّيْن " يُشيران إلى أن "فرعون الخروج" هو نفسه رمسيس الثانى ، ولم يحظيا من المؤرخين بالعناية الواجبة والتدقيقِ الكافى .

الدليلُ الأول تجده فى سفر الملوك الأول : "وفى السنة الخامسة للملك رَحَبْعام صعد شِيشَق ملك مصر (يريد " شِيشَنْق") إلى أورشليم وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن

(١) راجع هذا تحت مادة " حتن " فى المعجم العبرى الآرامى لألفاظ التوراة ، وهو من مراجع هذا الكتاب .

بيت الملك .." (ملوك أول ١٤/٢٥ ـ ٢٦). ورحبعام هذا هو ابن سليمان بن داود. وتقرأ فيه أيضا أن سليمان الذى حكم أربعين سنة بدأ حكمه فى السنة الأربعمائة وستٍ وسبعين لخروج بنى إسرائيل من مصر (ملوك أول ٦/١) . إن أضَفْتَ هذا إلى ذاك كان صعودُ " شيشق " هذا إلى أورشليم فى السنة الخمسمائة وعشرين لخروج بنى إسرائيل من مصر. ما عليك إذن إلا أن تُعَيِّنَ مدةَ حكم "شيشق" على مصر، وتُضيف إلى بدايتها ـ أو نهايتها إن شئت ـ ٥٢١ سنة حتى تصل بالتقريب إلى عصر "فرعون الخروج" . ولكن تاريخ الأسر الحاكمة فى مصر يُسمى خمسةَ ملوكٍ باسم "شيشنق" ، شيشنق الأول إلى شيشنق الخامس ، وليس لدينا ، ولا لدى المؤرخين أيضا ، الدليلُ الحاسم على أى الملوكِ الخمسةِ هؤلاء كان شيشنقُ المَعنى . ولكن الذى نتوقف عنده هو أنك إن اخترت شيشنق الخامس (منتصف القرن الثامن) وأضفت خمسة قرون منذ خروج بنى إسرائيل من مصر إلى عصر رَحَبْعام ، لوجدت نفسك فى قلب القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، قرن رمسيس الثانى ! أما إن أصررت على شيشنق الأول (منتصف القرن العاشر) كما يُصِرُّ المؤرخون بلا دليلٍ لديهم ، ثم أضفت القرون الخمسة ، فقد وصلت إلى منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، أى عصر تحوتمس الثالث ، الذى يرشحه بعض المؤرخين كما مَرَّ بك لدور "فرعون الخروج". ولا يَصلُح تحوتمسُ الثالثُ بالذات لهذا الدور بدليل لا يَصحُ فيه جدل غَفَلَ عنه أولئك المؤرخون: خَلَفَ تحوتمسَ الثالثَ ابنهُ أمنحوتب الثانى الذى حارب بضراوة فى آسيا ، ماراً بسيناء بالطبع. أفلم تقع عيناه على شراذم بنى إسرائيل فى التيه فيمزقهم شَرَّ مُمَزَّق انتقاما لمهلكِ أبيه على أيديهم ؟ كيف سَلِمَ بنو إسرائيل من ثارات مصر أربعين سنة ؟ لم يُعْنَ ببحث هذه النقطة من المؤرخين أحد . وقد تقدم .

أما الدليلُ الثانى من التوراة على أن فرعون موسى هو رمسيس الثانى بالذات، وهو دليلٌ حاسم هذه المرة ، فأنت تعلم من التاريخ أن هذا الملك ابتنى لنفسه عاصمة فى شمال شرقى الدلتا أسماها باسمه : "پرـ رعمسيس" ، يعنى "بيت رمسيس" . وتعلم من التوراة (خروج١/١١) أن فرعون موسى سَخَّر بنى إسرائيل فى بناء مدينتين : مخازن فَيثوم ، ثم رعمسيس. ولا يمكن أن تكون " رعمسيس" التى يعنيها الكاتب سوى " پر ـ رعمسيس " التى ابتناها رمسيس الثانى ، فليس فى مصر القديمة شمالى شرق الدلتا قُرْبَ منازل بنى إسرائيل فى مصر مدينةٌ بهذا الإسم غيرُها . والذى

يبنى لرمسيس الثانى مدينته هذه لا يمكن أن يكون خروجُهُ من مصر سابقاً على عصر هذا الملك . ربما قلت إن هذه من أفانين الكاتب ، يَنْحِلُ قومَه شرفَ بناء مدينةٍ لفرعون ، ولكن الكاتب لا يقولها فى مَعْرِض التفاخر ، وإنما يقولها للتدليل على التسخير والذلّة والمهَانة . لو أراد المفاخَرة لما أعضَلَ عليه انتحالُ أثرِ مصرىٍ أعظمَ وأخلد ، كما ادعى متبجحون من يهودِ هذا العصر أنهم المهندسُ الذى كان وراء بناء الأهرام . قد عاصر بنو إسرائيل إذن رمسيسَ الثانى فى مصر ، لم يخرجوا منها قبلَه . وهم كما مر بك لم يخرجوا على عصر خليفته مرنپتاح ومن جاءوا بعده . فلم يبقَ إلا أن يكونَ رمسيسَ الثانى هذا نفسهُ هو " فرعون الخروج " .

□□□

ومن المؤرخين من يشفقُ من هذا ، لا يريدُ أن يكون رمسيسُ الثانى ، ذلك الفرعونُ العظيم ، سَيِّدُ العالمِ فى زمنه ، هو نفسه " الفرعونَ الملعونَ " فى القرآن ، بينما القرائنُ كلها تشير إليه ، وينعدم الدليلُ العلمى على من يحلُ محلّه من ملوكِ مصر فى البَوْءِ بإثمه . والسبب أنهم مبهورون بشخصية هذا الملك ، أشهرِ فراعنةِ مصر وأعظمِهم على الإطلاق ، متى قِستَ العظمة بالعلو والاستعلاء ، والزهوِ والفخرِ والتجبر ، والبناءِ والنحتِ والنقش، وإن كَذَبَ وزَيَّفَ ، كما ترى من نقشه الذى يُحَولُ هزيمته فى قادش إلى بطولةٍ ونصرٍ مُزَوَّر، وكما ترى من سرِقَتِه آثار غيرِه ينسبُها لنفسه، مثلَ بَهْوَيْ الأعمدة فى الأقصُرِ والكرنك . كلُ هذا عند هؤلاء المؤرخين "هناتٌ" لا تقلل من عظمةِ هذا الملك ، الذى يشُفقون من مهلكه ذليلا خاسئا بعصا موسى على أيدى شِرْذِمَةٍ من بنى إسرائيل .

ولو أن هؤلاء المؤرخين آمنوا واتقوا ، وقرءوا طويلا فى هذا القرآن ، لأدركوا أن الله عز وجل إنما يرسل الرُّسُلَ إلى هذا الصِّنف بالذات من الملوك الجبابرة الطُّغاة : {**وإن فرعونَ لعالٍ فى الأرض ، وإنه لمن المسرفين**} (يونس : ٨٣) ، الذين آتاهم الله من كل شىء فجحدوا واستكبروا ، وتألهُوا : {**فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى . فأخذه الله نكال الآخرة والأولى . إن فى ذلك لعبرةً لمن يَخشى**} (النازعات : ٢٣ ـــ ٢٦) . وما كانت العبرةُ لتحدث لو كان فرعون هذا مَلِكا

هَمْلا . على أنه لم يقل أحد بأن بنى إسرائيل ناجزوا فرعون فغلبوه، وإنما هم فَرُّوا منهُ بليلٍ ، يتوجَسون . بل كان مَهلكُ فرعونَ بآيةٍ كونيةٍ كبرى ، تُناسب "جبروتَ" هذا الملك ، الذى علا واستكبر ، فَقَصَمهُ جبَّارُ السمواتِ والأرض، لا كبيرَ غيرهُ .

يؤيد هذا أن مهلك رمسيس الثانى كان آخر عهد مصر بالعظمة ، فلم تقم لها من بعدُ قائمة ، إلا هبَّاتٌ هنا وهناك ، وجذوةٌ تحت الرماد تريد أن تتوهج وسرعان ما تنطفىء . وكأنما حلَّت بمصرَ اللعنة (وهى لعنةُ الفراعنة إن تمعَّنت) . وإنما كانت سقطةُ مصر الفرعونية إلى أبد الدهر تأديباً لها على سكوتها عن هذا الطاغية ، ولو كان فرعونُ موسى أسبقَ من رمسيس الثانى ، لما كان لعصرِ رمسيسَ الثانى فى تاريخِ مصرَ محلٌ . تلك هى عاقبةُ السكوت على كل طاغيةٍ مُتألِّه : { **يا أيها الملأ ما علِمْتُ لكم من إلهٍ غيرى** } (القصص : ٣٨) ، { **فاستخف قومه فأطاعوه ، إنهم كانوا قوماً فاسقين** } (الزخرف : ٥٤) ، { **فلمَّا آسفونا انتقمنا منهم، فأغرقناهم أجمعين** } (الزخرف : ٥٥) ، { **وأتبِعُوا فى هذهِ لعنةً ويومَ القيامة**} (هود : ٩٩)، { **كم تركوا من جناتٍ وعيون. وزروعٍ ومَقامٍ كريم. ونَعمةٍ كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوماً آخرين . فما بَكَتْ عليهمُ السماءُ والأرضُ وما كانوا مُنظَرين** } (الدخان : ٢٥ ـــ ٢٩) .

لو أن رمسيسَ الثانى آمن لموسى لتغير وجهُ التاريخ البشرىّ كُله ، وتاريخُ مصر بوجهٍ خاص . ولكن لا مجالَ فى التاريخ لكلمة " لو" التى تَفتحُ عملَ الشيطان كما قال الصادقُ المصدوقُ صلى الله عليه وسلم : إنه قضاءُ اللهِ عز وجل لا رادَّ لحكمهِ ، يهدى من يشاء ويُضِلُّ من يشاء ، وهو أعلَمُ بالمهتدين .

□□□

وقد كان من آل فرعون من آمن لموسى وهرون . تجد هذا فى القرآن ولا تجده فى التوراة ، ولكنهم كتموا إيمانهم خشية بطش هذا الطاغية . من هؤلاء ذلك الرجل من آل فرعون فى سورة غافر الذى لم يطق صبرا فاستعلن لهم بإيمانه : { **فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب** } (غافر : ٤٥) . بل من هؤلاء أيضا امرأة فرعون نفسه : { **وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت**

رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين } (التحريم: ١١) .

أفقد كانت هذه هى أم موسى بالتبنى، التى التقطته من اليم فاتخذته ولدا ؟ التى قالت لزوجها ترقق قلبه: {**قرة عين لى ولك، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً**} (القصص : ٩) ؟ القرآن على هذا ، فلم تَرِد "امرأة فرعون" فى كل القرآن إلا فى هذين الموضعين فحسب (القصص : ٩ ــ التحريم: ١١) ، اسماً علما على تلك التى كانت سببا فى استحياء موسى فكان جزاؤها من الله عز وجل أن تُؤمِنَ به ليكون لها حسُنُ ثوابِ الآخرة .

فما بالُ التوراةِ تقول ان التى التقطت موسى من اليم فتبنَّته هى "ابنةُ فرعون" ، ليست هى "إمرأة فرعون" ؟ أفتكونُ الابنةُ والزوجة شخصاً واحدا ؟ أفقد تزوج رمسيسُ الثانى ابنتَه ؟

نعم . فقد كان من مخازى هذا الفرعون "العظيم" أنه تزوج ثلاثاً من بناته![(١)]

ربما استفظعتَ هذا . لا عليك . فقد سبقَهُ بها الملك "القديس" إخناتون ، الذى تزوج ابنته " عنخس إنْ پا أتون " وهى فى الثانية عشرة من عمرها بعد أن فارقتْهُ أمُّها "نفرتيتى" فاستولد ابنتهُ " حفيدتَهُ " منها " عنخس إن پا أتون " (الصغرى) ولما رأى أن ابنته لم تنجب له وريثا للعرش وقد حُرِمَ من ذريته الذكور ، زَوَّجَها من أميرٍ صغيرٍ فى التاسعة من عمره استخلفه على العرش ، وهو " توت عنخ آمون " ! [(٢)]

هذا قد يفسر لك قولَ التوراة " ابنة فرعون " على معنى " امرأة فرعون " الذى فى القرآن ، أى" الإبنة ـ الزوجة " التى كانت لرمسيس الثانى .

□□□

---

(١) انظر : أحمد فخرى ، مصر الفرعونية ، المرجع المذكور ، صفحة ٣٧٤ .

(٢) المرجع نفسه ، صفحة ٣٣٣ . وأنت تعلم من التاريخ أن زواج المحارم ، وبالذات من الأخت ، كاد يكون سنة متبعة فى فراعنة مصر ، حفاظا على الدم الملكى ، أو استعلاء على الرعية أن يطأ السوقة بنات الملوك ، وكأنهم جيل من بقايا جيل آدم الأول ، لا تجد المرأة من ينكحها إلا أخاها ، فيخالف آدم وحواء بينهم بالبطون : يتزوج بنات البطن الواحد من ذكور بطن سبق . ولكنك لا تسمع بمن ينكح ابنته إلا فاسقٌ أو متألهٌ مجنون . لم يكتف رمسيس الثانى بزوجاته ومحظياته وإمائه وقد أسرف فيهن (المرجع نفسه ، صفحة ٣٧٤) بل احتجن ثلاثا من بناته .

قال فرعون بعد ما عاين الآية الكبرى وهو يغرق ، يومَ لا ينفعُ نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبلُ أو كَسبَت فى إيمانها خيراً : [1] { قال آمنتُ أنَّهُ لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل ! } ، فقال عز وجل : { **ألآن ! وقد عَصَيْتَ قبلُ وكنتَ من المفسدين. فاليوم نُنجِّيكَ ببدنك ، لتكون لمن خَلْفَكَ آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون** } (يونس : ٩١ــ٩٢) .

وهاتان الآيتان من إعجاز القرآن إن تَمَعَّنْت : لم يترك اللهُ جثمانَ رمسيس الثانى فى قاع اليم طعاماً لوحوش البحر ، بل أصعده إلى نجْوَةٍ منه ، ليتحقق من مهلكه الذين تَألَّهَ لهم . ورغم ظروف مهلكه التى تُرَجِّحُ معها أنه ما حُنِّطَ حتى رَمَّ ، فقد حُفِظَ جثمانُه على أحسنِ ما يكونُ تحنيطُ المصريين مومياءاتِ ملوكِهم . ويكادُ الفُطْرُ يتسلل إلى مومياته فى المُتحَف المصرى فتَفْسَد وتتحلل ، ولكن اللهَ يُقيِّضُ لها خبراءَ أجانب يَعْكُفون على تطبيبها فتَصح . وكم ذُعِرُوا يومَ فكُّوا لفائفها وذراعُ رمسيسَ الثانى تنتفضُ مُشْرَعَةً إلى أعلى ، وكأنها تيبَّست على حالها يومَ هلك ، يستغيثُ ولا مُغيث ، أو يُوَحِّدُ بها الواحدَ الأحد . ويَظَلُّ تمثالٌ لَهُ مُجَندلاً فى صعيد مصر قرونا ، يمر عليه الرائحُ والغادى ، حتى جاءوا به ليَنصِبُوهُ فى ميدان بوسط القاهرة ، فيعبث به الصبية : يتخذون من نافورةٍ فى قاعدةِ التِّمثال " مَبالة " ! وتختنق القاهرةُ بسكانها ، فتقام الكبارى والمعابرُ على أعناق ميادينها ، ويَغرقُ التمثالُ فى طوفان البشر ، ويُطاطىء الرأسَ التى عَلَتْهَا أقدامُ المارة ، يُطِلُّون عليه ـ إن أطَلُّوا ـ من عَلٍ ! أهذا هو فرعونُ موسى ؟ ربما .

□□□

ولكن القرآنَ المعجز لا يتركك هائما بين الشك واليقين ، تبحثُ عن " فرعون موسى" بين فراعنة مصر ، ولكنه يسمِّيه لك بالإسم : إنه ليس " أىَّ " فرعون ، يتجادلُ الباحثون فيه ، أىُّ الفراعينِ كان ، ولكنه " فرعونُ ذو الأوتاد " .

قال عز وجل ، يسمى فرعون المَعْنِى : { **كَذَّبَت قبلَهم قومُ نوح وعادٌ وفرعونُ ذو الأوتاد** } (ص : ١٢) . وقال فيه أيضا : { **وثمودَ الذين جابوا**

---

(١) يعنى إذا جاء مَلَكُ الموت فقد رُفِعت الأقلامُ وجَفَّت الصُّحُف (راجع الآية ١٥٨ من سورة الأنعام) .

الصخر بالواد . وفرعونَ ذى الأوتاد . الذين طَغَوْا فى البلاد . فأكثروا فيها الفساد . فَصَبَّ عليهم رَبُّك سَوْطَ عذاب . إن ربَّكَ لبالمرصاد } (الفجر: ٩ ــ ١٤) .

أما مفسرو القرآن (راجع تفسير القرطبى لهذه الآيات من سورتى ص والفجر) فقد فسروا هذه الأوتاد على معنى الوزراء والأنصار والأعوان . وليس بشىء ، فلكل مَلِكٍ ـ وإن ذَلَّ ـ وزراءٌ وأنصارٌ وأعوان ، وما كان لفرعونِ موسى أن يَخُصَّهُ اللهُ بلقبٍ شائعٍ فى الملوك جميعا .

وأما أنت ـ وقد عَلَّمكَ الله من هذه اللغة المصريةِ القديمة ومن تاريخ الفراعنة وآثارِهم ما لم تكن تعلم ـ فقد عَلِمتَ أن رمسيس الثانى انتحل لنفسه بناء بهو "الأعمدة" الذى فى معبد الكرنك ، وهو أعظمُ آثارِه المنسوبةِ إليه ، وإن كان التاريخ يَرُدُّ الشروعَ فى بنائه إلى جَدِّه رمسيسَ الأول ، ويقول إن أبا رمسيسَ الثانى ، "سيتى الأول" ، ربما أَتَمَّ بناءه أو كاد ، وجاء رمسيسُ الثانى يضع " اللمسات الأخيرة " فملأ أعمدة هذا البهو بنقوشٍ تحمل اسمه ، غلبت على كل ما كان باسم جده وأبيه ، ينتحل كعادته هذا الأثرَ المعمارىَّ الفنىَّ العظيمَ لنفسه ، فَنَسبَ إليه ، لا يُعْرَفُ به غيرُه .

ربما قلت وما شأن " ذى الأوتاد " بصاحب هذه " الأعمدة " ؟

الجدير بالذكر أن علماء المصريات العرب لا يستحدثون الأسماء للأثر الفرعونى المُكْتَشَف ، ولا يترجمون اسمه من المصرية القديمة إلى العربية ، وإنما هم يترجمون اللفظة الإنجليزية الموضوعة له وفق المصطلح الذى يضعه علماء المصريات الأجانب . قال هؤلاء فى ترجمة " يونيت " المصرية القديمة Hall of Columns فقال علماء المصريات العرب " بهو الأعمدة " . ولكن هذه " الأعمدة " ليست للزينة والزخرفة ، وإنما هى دعائم وأوتاد جبارة ، يرتكز عليها ـ أو كان يرتكز ـ سقفٌ هائل . إنها أشبه شىءٍ بكتلٍ خرسانيةٍ ضخمة تحمل فوق رأسها منشآتٍ جبارة تَزِنُ مئاتِ الأطنان . " الأوتاد " هنا إن تمعَّنْت ، بعد مشاهدة هذا الأثر بالطبع ، ترجمةٌ أَدَقُّ وأولى .

وسبحانَ علامِ الغيوب .

(٣٣) هـامـان

لم يُرسَل موسى عليه السلام إلى فرعونَ وحده ، وإنما كانت رسالةُ موسى أيضا إلى " هامانَ " و " قارون" . تستظهر هذا من قوله عز وجل : { **ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعونَ وهامانَ وقارون فقالوا ساحرٌ كذاب**} (غافر : ٢٣ ــ ٢٤) . ثلاثتُهم مُخاطَبٌ بالآيات التى أنزل اللهُ على موسى ، وثلاثتُهم ظَلَموا بها : { **فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين . فَكُلاً أخذنا بذنبه** } (العنكبوت : ٣٩ ــ ٤٠) .

❑❑❑

ورد اسمُ " هامان " فى القرآن سِتَّ مراتٍ ، وورد اسمُ " قارون" أربعَ مراتٍ فحسب ، بينما ورد اسمُ " فرعون" فى سياق قصة موسى عليه السلام فى كل القرآن أربعا وسبعين مرة ، فتفهم أن فرعونَ هو الرأس ، والذَّنَبُ قارونُ وهامان .

ولايجىء " هامان " فى القرآن إلا مجموعا إلى فرعون، على التبعية والإلحاق، لا يتقدمه قط . وتفهم من سياق الآيات التى تجمع بين فرعون وهامان ، أن "هامان" رجلٌ ذو شأن فى بلاط فرعون ، ولكنه يعمل بين يديه ويأتمر بأمره ، وكأنه وزيره أو قائد جنده .

أما " قارون " ـ حين يُجْمَعُ فى القرآن إلى " فرعونَ وهامان " ـ فهو لا يتوسطهما البتة ، وإنما يجىء قارونُ بعدَ " هامان " . كما رأيت فى قوله عز وجل : {**إلى فرعونَ وهامانَ وقارون** } (غافر : ٢٤)، أو يجىء "قارون" قبلَ "فرعونَ وهامان " ، كما ترى فى قوله عز وجل: { **وقارونَ وفرعونَ وهامان، وقد جاءهم موسى بالبينات**} (العنكبوت :٣٨} ، فتفهم أن ثمَّةَ فارقاً يحولُ دونَ إدماج " قارون" فى " فرعونَ وهامان " .

وقد نص القرآنُ على هذا الفارق بقوله عز وجل : { **إن قارونَ كان من قوم موسى فبغى عليهم** } (القصص : ٧٦) ، أى كان قارونُ رجلا من بنى إسرائيل ، وكان هامانُ مصريا من قوم فرعون .

والذى يستوقف النظر ـ ولم يلتفت إليه أحد ـ أن القرآن لا يخص هذين الرجلين هامانَ وقارون بالذكر إلى جوار فرعونَ فحسب ، وإنما هو أيضا يجمعهما مع فرعون فى تَوَجُّهِ رسالة موسى إلى ثلاثتهم كلٌّ على حدة كما رأيت من قبل فى تلك الآيات من سورتى غافر والعنكبوت ، وكأنه قد كانت فى مصر على عصر موسى قُوى سياسيةٌ ثلاث ، يتعينُ إفرادُها بالرسالةِ والخطاب ، وإلا لأغنْتَ الرسالة إلى الرأس ، أى إلى فرعون ، عن الرسالةِ إلى الأذناب .

□□□

والأكثر استيقافا للنظر ـ ولم يتساءل عنه أحد ـ هو توجه موسى بالرسالة إلى رجل من قومه هو قارون ، وكأنه قد كان من بنى إسرائيل فى مصر من بعد عصر يوسف عليه السلام من ضلوا السبيل ، فانخلعوا من دين أبيهم إبراهيم ، وانغمسوا فى عبادات سادتهم المصريين . ربما فعلوه أول الأمر اجتلاباً للحُظوةِ والمنفعة، ثم رِينَ على قلوبهم بذنبهم، فارتدوا عن عبادة الواحد الأحد إلى شِرْكِ المصريين . وهو ما كان يخشاهُ عليهم فى مصر أبوهم يعقوب : { **أم كنتم شهداءَ إذ حضرَ يعقوبَ الموتُ ، إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهَك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق ، إلها واحدا ، ونحن له مسلمون** } (البقرة : ١٣٣) .

هذا يفسر لك عدل الله عز وجل فى بنى إسرائيل حين استحبوا الضلالة على الهدى وقضاءه فيهم بفتنة فرعون ، يُذَبِّحُ أبناءهم ويستحيى نساءهم ، يستذلهم فى الأرض ويُسَخِّرُهم تسخيرا ، مستعينا عليهم ببعض قومهم من مثل " قارون " ، كم تجد فى قوله عز وجل : { **إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إِنَّ مفاتحَهُ لتنوءُ بالعصبة أولى القوة** } (القصص : ٧٦) .

وإنما بَغَى قارونُ على قومه لا بسلطانه ، وإنما بسلطان فرعون ، لأنه كان عميلا

لفرعون عليهم ، فلم يستنكف أن يكون رئيسَ سُخْرَتِهم ، يرتشى من فرعون بيُمناه ، ويعتصر عَرَق بنى إسرائيل بيُسراه .

وهذا يفسر لك أيضا كثرة اعتلال بنى إسرائيل على موسى سواء فى مصر أو بعد خروجهم إلى تيه سيناء ، حتى إذا مروا على أصنام قوم فى التيه طلبوا من موسى أن يجعل لهم فى التيه أصناما آلهة ، بل ما ذهب موسى لموعدة ربه يتلقى ألواح التوراة ، حتى صنعوا لأنفسهم ذلك العجل من ذهب ، يتعبدونه ، تَحْنانا إلى ما كانوا عليه فى مصر ، فكان قضاءُ الله فيمن عبدوا العجل منهم أن يقتل بعضُهم بعضا بحد السيف ، تكفيرا وتطهيرا ، عسى أن يغفر لهم ربهم .

كان موسى إذن رسولا إلى فرعون وهامان ، كما كان رسولا أيضا إلى من طَغَوا وبَغَوا من بنى إسرائيل ، الذين انحرفوا فزاغت قلوبهم . لم يستجب لموسى من قوم فرعون إلا ذلك الرجل المؤمن الذى فى سورة غافر ، وإلا امرأة فرعون التى سألت الله عز وجل أن ينقذها من فرعون (البيت الكبير!) ويجعل لها بدلا منه "بيتا" فى الجنة : {**وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين**} (التحريم :١١) . أما بنو إسرائيل فلم تؤمن كثرتُهم بموسى نبيا رسولا ، وإنما آمنت كثرتهم به على الراجح زعيما وقائدا يستخلصهم من براثن فرعون، يصفقون لموسى حين يُجرى الله على يديه الآيات التى تُعجزُ فرعون ، وينقمون على موسى حين تشتد قبضةُ فرعونَ عليهم : { **قالوا أُوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعدِ ما جئتَنا** } (الأعراف : ١٢٩) .

كان هذا حالَ الملأ من قوم موسى ، أى أشياخِ بنى إسرائيل ، حَجَر عثرةٍ فى طريق من آمن لموسى من قومه ، وما آمن لموسى من قومه إلا قليل : { **فما آمن لموسى إلا ذُرِّيَّةٌ من قومه ، على خوفٍ من فرعون ومَلَئهم أن يفتنهم ، وإن فرعونَ لعالٍ فى الأرض وإنه لمن المسرفين** } (يونس : ٨٣) ، أى آمن لموسى شبيبةٌ من قومه ، على خوفٍ لا من فرعونَ فحسبِ ، بل ومن أشياخ بنى إسرائيل ، المعنيين فى الآية السابقة بقوله عز وجل " ومَلَئِهم " أى الملأُ من بنى إسرائيل أنفسهم ، أن يفتنهم فرعون بسلطانه ، أو يفتنهم بمن سلطهم عليهم من بنى قومهم ،

وكان شيخُ هؤلاء الأشياخ قارون ، الذى توجهت إليه الرسالة كما توجهت إلى فرعون وهامان . كان قارونُ أحدَ جَناحى السلطة الغاشمة فى مصر على عصر موسى ورمزا من رموزها. إنه زعيمُ حزب الخَونة العُملاء ، الذين مَرَقوا من دين الواحد الأحد ، وخانوا قومهم ونافقوا السلطة ، وجمعوا من هذا أكداسا من المال الحرام يكتنزونه ، حتى إذا قيل له اتق الله ، وابتغ فيما آتاك اللهُ الدارَ الآخرة ، وأحْسِنْ كما أحْسَنَ اللهُ إليك، تبجح بقوله : { **إنما أوتيته على علم عندى** ! } (راجع الآيات ٧٦ ـــ ٧٨ من سورة القصص) .

على هذا الوجه يُفْهَمُ تَوَجهُ موسى بالرسالة إلى قارون . فما بالُ هامان ؟

□□□

لا يصح تَوَجُهُ موسى بالرسالة إلى " هامان " بالإسم إلى جوار فرعون ، إلا إذا كان "هامان" يمثل قوة ً سياسيةً ما فى نظام الحكم ، أعنى زعيمَ حزبٍ مستقل عن سلطان فرعون ، لا يملك له فرعونُ من أمره شيئا : إنه السلطة الدينية التى اتكأ عليها ملوك مصر الأقدمين فى تأصيل نظرية " التفويض الإلهى " ، أى استمداد السلطة الزمنية الحاكمة سلطانَها من الآلهة رأسا ، إما بإرجاع نسب الملك إلى تلك الآلهة نفسها ، وإما بوحيٍ " هَبَطَ " على الكهنة ينص على اختيار هذا الشخص أو ذاك ملكا على مصر عَيَّنته الآلهةُ بالإسم . يتضح لك هذا من تلك الألقاب التى تسمى بها أولئك الملوك ، من مثل "مرى آمون" (لقب رمسيس الثانى) يعنى "حبيب آمون" ، أو "مى آمون" (لقب رمسيس الثانى أيضا) يعنى " الذى هو كآمون " . بل "رعمسس" نفسها أى رمسيس ، ومعناها كما علمت " ولدُ رعْ " أو " المولود من رع " ، أى المولود من الإله رع ، الشمس ـ الإله . وليس عملُ الكهنوت فى هذا النظام الملكى إفساداً سياسياً فحسب ، بل هو قبلَ كل شىء تأصيلُ أخرق لعبادة آلهة من دون الله عز وجل ، منها ما يمشى على الأرض مثل تلك الملوك ، ومنها الكسيحُ حبيسُ الصخرِ والحجر . والرُسُلُ لا تُبعَثُ فى الأساس إلا لتصحيح عقيدة الناس فى الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، المتفَرِّدِ بالخَلْقِ والأمر ، فتَصِحُّ العقيدة ، ومن ثم يصحُّ العمل .

ما كانت رسالة موسى لتتجه إلى " هامان " بجوار فرعون لو كان " هامان " فحسب وزيرا لفرعون ، أو كبيرا فى بلاطه ، أو قائد جنده ، يعمل بين يديه ويأتمر

بأمره، فما كانت الرسالاتُ لتتخطى الرأس إلى الذَّنَب . وإنما اتجهت الرسالة إلى "هامان" لأنه أحد قطبى السلطة فى هذا النظام الملكى : إنه قضيب الكهانة ، فى مقابلة صولجان الملك .

لا يصح توجه موسى بالرسالة إلى "هامان" بالاسم إلى جوار فرعون، إلا إذا كان "هامان" على عصر موسى هو نفسه "كبير كهنة آمون" .

❑❑❑

كان عصر "إخناتون" كما رأيت من قبل انقلابا على " كهنة آمون " ، فجمع هذا المَلِكُ بين يديه لأول مرة فى تاريخ مصر القديمة ، السلطتين الزمنية والدينية معا ، أى بينَ المُلك والكهانة . كاهنا أوحد لآتونَ إلهِ الكون .

لم يكن هذا المَلِكُ الكاهن مُفَجِّرَ ثورةٍ شعبية أطاحت بنفوذ الكهنة ، وإنما كان سندُهُ الأوحد فى الانتقاض على آمون هو الجيش ، الذى يدين فى مصرَ أبدَ الدهر بالولاء والطاعة للجالس فى دِسْتِ الحكم ، ابنَ إلهٍ نَصَّبَتْهُ الآلهة من قبل ، وربما رفيقَ سلاحٍ أو سليلَ رُفقاء سلاح ، فما كان الملوكُ فى العالم القديم ، و فى مصر بالذات ، إلا قوادَ جيوش ، لا حين يغتصبون السلطةَ فقط ، بل وبعد ما يتوطد المُلكُ لهم ، ويستقرُّ فى سلالتهم . بل كثيرا ما كان المَلِكُ على رأسِ جيشه فى الحَملاتِ الكبرى والمعاركِ الفاصلة ، مثلما رأيتَ فى خروج فرعونَ على رأس جيشه يتعقَّبُ بنى إسرائيلَ فى فِرارِهم من مصر .

ولكن إخناتون كان يُحسِنُ الكهانةَ ولا يُحسِنُ المُلك : اكتفى بمعبوده آتون عما سواه ، وأدار ظهره لشؤون الدولة وشؤون الجيش ، فانفكت قبضةُ الدولة ، وتشرذَمَ الجيش . وفى هذا المُناخ التعس أطَلّت الفتنةُ برؤوسها : فُلولُ كهنةِ آمون ! لا يتربصون بإخناتون الدوائر فحسب، بل ويحيكون المؤامرات والدسائس للقضاء عليه وعلى فتنته، كى يستردوا سلطان الكهانة ـ وذهبَها أيضا ـ الذى سلبهم إياه إخناتون . ويموتُ إخناتون على الراجح صريعَ تلك المؤامرات والدسائس .

كان المنتصر فى هذا الصراع على السلطة هم "آمون" وكهنة آمون . فلاتعجب أن أعقبت " فتنة " إخناتون ومعبوده "آتون" ، رِدةٌ عاتية إلى " آمو ن" وكهنة آمون،

الذين اتعظوا بهذا الدرس كما اتعظ به الملوك من بعد إخناتون . فقد أدرك طرفا المعادلة ـ القصر والكهنوت ـ أنه لا بقاء لأحدهما إلا بالآخر : ما كاد "توت عنخ آتون" وريثُ إخناتون المباشر، يعتلى العرش ، حتى بَدَّلَ اسمه إلى "توت عنخ آمون" ، (١) معلنا ولاءه لآمون وانخلاعه من آتون . وصنع لآمون تمثالا فخما من الذهب الجيد ، يسترضى كهنة آمون ويعيدهم فى مناصبهم ، وضوعفت ثروات المعابد ـ أى جرايات الكهنوت ـ إلى ثلاثة أو أربعة أمثال ما كان لهم من فضة وذهب ولازورد وفيروز ، وعاد الملوك رغم أنوفهم إلى حظيرة آمون ، وانتصر الكهنة انتصارا كاملا ، "وكان يوم تسليم توت عنخ آمون للكهنة بجميع مطالبهم هو بدء تسلط الكهنة على الدولة ، ولم يسترجع الفراعنة سلطانهم القديم بعد ذلك اليوم" (٢) . لم يفلت من هذا " الشرك فى السلطة " حور محب الذى خلف توت عنخ آمون على العرش وكان همزة الوصل بين الأسرة الثامنة عشرة والأسرة التاسعة عشرة ، أسرة الرعامسة الأولى التى يعنينا منها فرعون موسى (رمسيس الثانى كما نقول نحن) . وما كان فرعون موسى بِدْعاً فى هذا رغم عظيم سلطانه .

كان الكهنوت فى مصر سلطةً فاعلةً داعمة ، يزيد من قوتها وخطرها أنها سلطةٌ غيرُ مباشرة تستتر وراء فرعون ، استند إليها هذا الطاغية فى قولته : أنا ربكم الأعلى ! . وربما وَزَرَ هذا الكهنوت لفرعون فشاركه السلطة خفية بالرأى والكيد والمشورة . بل قد كان لهذا الكهنوت جند وحرس . وكان لَهُ الإشراف على بناء النصب والمعابد ، وعلى نحت النحوت ورسم النقوش ، بل كان منهم المهندسون والكتبة . وكانت المعابدُ معاهدَ للعلومُ مغلقةً على أصحابها ، يستأثرون بأسرارها وأصولها ودقائقها . فكانوا هم العُلَماءَ والسَّحَرة. كان الكهنوتُ مؤسسةً كاملة تصنع عقلَ الأمة ، وخرافاتها أيضا .

هذا " الشِّرك فى السلطة " يفسر لك قوله عز وجل : { **ونريد أن نَمُنَّ على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلَهم أئمة ونجعلَهم الوارثين . ونُمكِّنَ لهم فى الأرض ، ونُرىَ فرعونَ وهامانَ وجنودَهُما منهم ما كانوا**

(١) فى المصرية الهيروغليفية : توت = صورة أو مثال ، عنخ = روح ، فمعنى الاسم "توت عنخ آمون" أنه " مثالُ روح آمون" ، كما كان من قبل "مثال روح آتون" .

(٢) راجع هذه الفقرةَ وما قبلها على : أحمد فخرى ، مصر الفرعونية ، ص ٣٤٠ .

يَحْذَرُون } (القصص : ٥ ـــ ٦) ، حين جَمَعَ القرآنُ بين فرعونَ وهامانَ وأعوانَهُما وجنودَهُما فى الحَذَرِ من موسى وقومه : خَشِىَ فرعونُ على صولجان المُلك ، وخَشِىَ هامانُ على سُلطان الشِّرْكِ وذَهَبِه .

وهو يفسر لك أيضا قوله عز وجل : { **فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا** } (القصص : ٣٨) ، فما كان بناءُ " الصرْحِ " لِيَصِحَّ إلا بأمر تلك الكهنة وصُنع أيديهم .

وقد جمع القرآن حلف الشيطان ، الكهنوت وفرعون ، فى سلة واحدة ، تحت اسم آل فرعون ، كما تجد فى قوله عز وجل : {**فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحَزَنا ، إن فرعونَ وهامانَ وجنودَهُما كانوا خاطئين** } (القصص : ٨) .

❑❑❑

لا تجد فى التاريخ المصرى القديم ، ولا فى أعلام هؤلاء المصريين أيضا ، شخصا باسم " هامانَ " استُوزِرَ لفراعنةِ مصر ، أو كان قائدَ جُندهم ، أو كبيرا فى بلاطهم ، أو عظيما من عظماء كهنوتهم : ليس البَتَّةَ فيما عُرِفَ من التاريخ المصرىِّ القديم " هامان " .

ولا تجد بالمثل فيما تقصه عليك أسفار التوراة التى بين يديك من حديث موسى وفرعون ذكرا لشخص " هامان" لا بالاسم ولا بالمنصب : كل ما فى تلك التوراة هو فرعون فحسب فى مواجهة موسى وهرون .

ولكنك تكتشف فى سفر " استير" الذى يقص عليك ما كان من أمر اليهود فى القرن الخامس قبل الميلاد ، عصر السبى تحت حكم الملك "إحْشَوْرَوش" Xerxes ملك فارس (٤٨٦ ـ ٤٦٥ ق . م) ، أى بعد عصر موسى وهرون بسبعة قرون على الأقل، عَلَما يشبه " هامان" ، يُرسَمُ فى النص العبرانى " هِيمان " (مداً بالكسر بعد الهاء) ويُرسَمُ فى الترجمة العربية لهذا السفر "هامان" تماما كهامان الذى فى القرآن، خلطا بينه وبين " هامان" قرين فرعون فى القرآن ، على مامر بك من خلطهم بين رسم "مريم" أم عيسى عليهما السلام فى القرآن وبين "مريام" أخت موسى وهرون . وقد حار علماء التوراة فى "هيمان" الذى فى بلاط فارس ، إذ لا يصح له اشتقاق فى العبرية، فخمنوا

أن أصلها "مهيمان" حذفت الميم فى أولها ، لا تدرى لماذا ، واشتقوها من الجذر العبرى "أَمَنْ" على معنى الصدق والأمانة الذى فى قرينه العربى "أمن" . وليس بشىء . وإنما الصواب أن يقال ان "هامان" المصرى خرج شبحا من ضباب ذاكرة كتبة التوراة ، فخلعوا اسمه على قرين له فى بلاط فارس ، لاتحاد الشخصين فى الكيد لبنى إسرائيل ، على ما يقول هذا السفر من أن " هيمان " الذى فى بلاط فارس كاد لليهود عند "احشوروش" ملك الفرس ، يريد مَهْلَكَهُم واستئصال شأفتهم ، ولكن مُرْدخاى العبرانى كان قد دفع من قبل بابنة أخيه " استير " إلى أحضان الملك ، فَحَظِيَت عنده ، واستنقذت بنى قومها ، فصارت إلى اليوم قديسة عند اليهود ، وبطلةً من أبطال تاريخهم، يُضْرَبُ بها المثل . وليس لهذا كله بالطبع علاقة بـ " هامان " قرين فرعون فى القرآن ، لبعد ما بين فارس ومصر ، وما بين " احشوروش" ملك فارس وبين فرعون موسى وهرون .

قد انفرد القرآن إذن بذكر " هامان" قرينا لفرعون على غير سابقةٍ فى التوراة ، ودون سندٍ فى التاريخ المصرى القديم ، أو بالأحرى فيما تكشَّف من تاريخ مصر القديم منذ أواسط القرن الماضى وحتى أواخر هذا القرن العشرين .

وهذا فى ذاته من إعجاز القرآن ، لأن انفراده بذكر "هامان" قرينا لفرعون دون سابقة فى التوراة وأقاصيص أهل الكتاب، ودون نظير فيما عُرِفَ من تاريخ مصر القديم ، يَدُلُّك على انفراد القرآن بالعلم المحيط ، ويدلك على سفاهة القائلين بدعوى النقل والاستنساخ والتلقين ، لأنه عَلِمَ ما لم يعلمه الخلقُ أجمع عصرَ نزوله وإلى هذا العصر .

ربما قال الجاحدُ المكابر : ولم لا تكون "هامان" من أفانين القرآن اخترعه اختراعا ، أو التقط "هيمان" الذى فى بلاط فارس عصر السبى وَرَدَّهُ إلى عصر موسى فى مصر قرينا لفرعون ، على بَوْنِ ما بينهما فى الزمان والمكان [١] ؟

ولكنك تقول لهذا الجاحد المكابر وأمثاله من أدعياء الاستشراق المنكرين الوحىَ على القرآن ـ متسلحا بما هدانا الله إليه فى هذا الكتاب الذى نكتب ـ إن الذى انفرد وحده بعلم معنى "موسى" ، " فرعون" ، "مصر" ، بلغة أهلها على عصر موسى

---

(١) انظر على سبيل المثال : J. HOROVITZ ، المرجع المذكور ، ص ٨ .

وهرون ، مطلعَ القرن السابع لميلاد المسيح ، وعَلِمَ من دقائق التاريخ السياسى فى مصر القديمة ما يتيح له معرفة دور الكهنوت المصرى فى السلطة ، فيتجه برسالة موسى إلى كبير هذا الكهنوت قريناً لفرعون - الذى عَلِمَ هذا كُلَّه وقت أن كانت اللغةُ المصريةُ القديمة - وكان التاريخُ المصريُّ القديم - طلاسمَ مُطَلْسَمة ، لا تستكثرُ عليه أن يسمى كبيرَ هذا الكهنوت بالاسم ، بل هذا هو الذى تتوقعه منه ، فلا تملك إلا أن تُؤَمِّنَ عليه : كان القرآن شاهدا ، وكانوا هم الغائبين : { **فَلَنَقُصَّنَّ عليهم بعلم وما كنا غائبين** } (الأعراف : ٧) .

ولعله يتكشف من تاريخ مصر القديم فى مُقبلِ الأيام ما يُثبت وجودَ "هامان" كبيرِ كهنة آمون قريناً لفرعون موسى. نرجو هذا لا لأنفسنا ولا للقرآن - فقد كفى القرآنَ ما فيه من دلائلِ إعجازه فى تفسير أعلامه المصرية القديمة التى يتناولها هذا الكتاب الذى نكتب - ولكننا نرجوه لهؤلاء الأدعياء المنكرين الوحى على القرآن .

❑❑❑

ليس شرطا أن تكون " هامان " من أعلام الأشخاص فى المصرية القديمة ، بل قد تكون "هامان" لقبا دالاً على المنصب ، كما تلقَّبَ كبيرُ كهنة "أُون" (هليوبوليس) باسم "ورَ - مَاءُو" يعنى "الرائى الأعظم" .

وقد تَفكَّه بعضُ المستشرقين فقال إنه ليس بمستبعد أن يكون اسم "آمون" معبود المصريين قد وقع فى سمع محمد (صلى الله عليه وسلم) وتحرَّفَ عليه إلى "هامان"، وظنه اسم رجل، فنحت منه اسما علما على شخص فى بلاط فرعون . تفكهَ الرجل وهو لايدرى أنه بمقولته هذه يخدم القرآن فى وجهٍ من وجوه تفسير اسم "هامان" .

ذلك أن اسم هذا الإله "آمون" الذى يُنطَق بالواو بعد الميم فى اصطلاحنا اليوم ليس هو كذلك فى المصرية القديمة ، التى يُرسَمُ فيها بأحرف هيروغليفية ثلاثة هى الهمزة والميم والنون ، على ما مر بك من أن الخط الهيروغليفى لا يعبأ بإثبات حركات المد . وإنما اصطلح علماء تلك اللغة أول الأمر على نطقه "آمون" بالواو لا بالألف بعد الميم استئناسا برسمه اليونانى والقبطى المطابق لرسمه فى التوراة "آمون".وهذا دليل آخر على أن أسفار موسى الخمسة لم تكتب على عصر موسى وهرون ، وإنما كتبت بعد

عصر داود وسليمان ، بعدَ قرون من عصر موسى وهرون ، فتأثرت عبرية التوراة التى بين يديك، كما تأثر الرسم اليونانى، بالنطق القبطى عصر كتابة التوراة [(١)]. والقبطية كما مر بك ليست حجة على صحة النطق المصرى القديم فى كل الأحوال ، وإنما الحجة على صحة النطق المصرى القديم هم معاصرو "فرعون موسى" فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، الذين خَلّفوا لنا فى النص البابلى لمعاهدة أبرمت حوالى عام ١٢٨٠ ق . م. بين خاتوسيلاس ملك خاتى (الحيثيين) وبين رمسيس الثانى ملك مصر [(٢)] ، النطق الصحيح للفظة آمون التى فى لقب رمسيس الثانى "مى ـ آمون" (أى الذى هو كآمون) فلم يكتبوها "مى ـ آمون" وإنما كتبوها "مى ـ آمان" مدا بالألف ، لا بالواو، على ما سمعوه بآذانهم من سفراء رمسيس الثانى إلى بلاط خاتى، فقالوا فى "رمسيس مى ـ آمون" (أى رمسيس الذى هو كآمون): رعمشيشا مى آمانا (شَيَّنوا كدأبهم السين التى فى رعمسيس وختموا الاسمين بالألف أداة التعريف الآرامية كما مر بك).

وهذا دليل لغوى لا ينقض على أن صحة النطق المصرى القديم لاسم هذا الإله "آمون" على عصر رمسيس الثانى هى "آمان" تماما كما فى "هامان" المبدوءة بالهاء فى القرآن . فكيف " تَحَرَّفَت" آمون على القرآن الذى مدها على أصلها الهيروغليفى بالألف لا بالواو ، فأصاب هو ، وأخطأ كتبة التوراة ، وعلماء المصريات الذين نطقوها مدا بالواو ؟

لماذا لم يقل "آمون" فيجانس بالواو بين القرناء الثلاثة: فرعون وهامان وقارون؟

---

(١) نظير هذا فى عبرية التوراة " پرعو" (أى فرعون) وأصلها فى الحرف الهيروغليفى" پرعا " بالألف لا بالواو ، التى تحرفت فى النطق القبطى إلى برعو وأخذ عن القبط اليونان وكتبةُ التوراة . وربما وددنا فى هذا الكتاب استبقاء الرسم القبطى ـ العبرى ـ اليونانى ، لأنه الذى شاع ، تدليلا على منهج القرآن فى التعريب على النطق الشائع عصر نزوله ، ويلاحظ أن السريان يرسمون هذا الاسم " پرعون " بإضافة النون التى فى التعريب القرآنى ، مرسومة فى الخط بالفاء البادئة التى تنطق پاء ثقيلة كما مر بك . وقد حرص اليونان على رسم كل پاءات الخط العبرى ـ الآرامى " فاء " لتردد الخط العبرى ـ الآرامى فى نطق هذا الحرف بين هذا وذاك، كما حرصوا على كتابة كل تاءات الخط العبرى ـ الآرامى " ثاء " لنفس السبب ، كما تجد فى Thara " ثارا " أى "تارا" يعنى "تارح" أبى إبراهيم ، وكما تجد فى "ثامار" كِنة يهوذا التى فَجَرَ بها ، وأصلها " تامار" ، الخ .

(٢) انظر تفاصيل هذه المعاهدة على سبيل المثال فى : د. نبيلة محمد عبد الحليم ، "معالم التاريخ الحضارى والسياسى فى مصر الفرعونية " ، ص ٦٩ ـ ٨٧ .

وما حاجته إلى إضافة الهاء فى أول الاسم وقد سمعه كما يقولون مهموزا ؟

أليس الأقرب إلى الصواب أن تكون " هامان " التى فى القرآن اسما مزجيا من المصرية القديمة، يدل على منصب كبير كهنة آمون : " ها + آمان " ؟

أما " آمان " فهى " آمون " الذى عَلِمْت ، منطوقةً على الوجه الصحيح فى المصرية القديمة على عصر رمسيس الثانى كما وضح لك من نطقها فى النص البابلى لتلك المعاهدة المبرمة بينه وبين ملك الحيثيين حوالى ١٢٨٠ ق . م . ، وأما " ها " التى ترسم فى الخط الهيروغليفى (وهى الهاء) مزيدة بمَميزٍ معنوىْ غير منطوق هو (١) (رمز البيت أو الدار "پر") فقد توقف علماء المصريات فى معناها ، لا يجزمون، وإن كانوا يفترضون أن معناها " الحجرة " room ، (٢) ربما استنادا إلى شكل الحرف الذى يمثلها : (الهاء الهيروغليفية كما مر بك) . وليس بقوى ، أولا لأن " الحجرة" فى الهيروغليفية لها لفظها الأصيل وهو " عت " ، لا " ها " ، وثانيا لأن الأقرب فى الاستنباط من رسم الهاء الهيروغليفية أن تَستنبط منه لا معنى الحجرة ، وإنما معنى المَدْخَلِ والمَدْلَف ، أى الباب ، وهو " عا " فى الهيروغليفية ، والمبادلة بين العين والهاء فى الساميات جميعا ـ وليست الهيروغليفية عن هذا ببعيد ـ أمرٌ مُسلَّمٌ به بين اللغويين ، وثالثا لأن الهاء فى الساميات جميعا ـ وليست المصرية القديمة عن هذا ببعيد ـ أصلُها رسما ونطقا ومعنى " الكَوَّة " . أى الفتحة النافذة فى الجدار يدخل منها الهواء والضوء ، وقد بقى منها فى العربية " الهَوُّ " ، " الهَوَّة " ، بنفس المعنى .

على هذا يكون معنى " ها + آمان " المصرية القديمة (هامان فى القرآن) هو : النافِذُ إلى آمون ، أو المَدْلَفُ إلى آمون ، أو كَوَّةُ آمون " هَوُّ ـ آمون " .

وليس أليقُ من هذا لقباً يتسمى به " كبيرُ الكهنة " .

❑❑❑

---

(١) فى الخط الهيروغليفى ، حين يتحد لفظان فى النطق ويختلفان فى المعنى ، يضاف إلى أحدهما ، فى الرسم لا فى النطق ، رمز يميزه يدل على المعنى الآخر المراد منه . وإضافة رمز البيت إلى "ها" المعنية هنا ، يعنى "ها" التى فى البيت ، لا " ها " الأخرى التى هى ـ فى المصرية القديمة وفى الساميات جميعا ، أداة تنبيه وتلبية ونداء (كما فى ها أنذا العربية) .

(٢) انظر A. GARDINER ، المرجع المذكور ، تحت حرف الهاء فى مسرده بآخر الكتاب .

أما الوجه الآخر فى تفسير " هامان" ، فهو أن تكون " هامان " فى القرآن عربية . وردت على الترجمة لقبا لكبير كهنة آمون ، قرين فرعون فى القرآن .

وقد شاعت " هَيْمَنَ " على عصرنا بمعنى القهر والغلبة والسيطرة، وليس بشىء، لأن هذه اللفظة لا تجد تأصيلها فى العربية إلا من القرآن ، بصيغة الفاعل فقط ، وفى موضعين فحسب ، الأولى اسما لله عز وجل: { **الملك القدوس السلام المُؤمِنُ المهيمن** } (الحشر : ٢٣) ، والثانية وصفا للقرآن : { **وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه** } (المائدة : ٤٨) . وقد استنبط البعض من هذا ـ على التخمين ـ أن " المهيمن " معناها " العالى المرتفع "، بينما قال آخرون إن معناها " الشاهد" . وليس لهذا أصل فى اللغة ، وإنما الصحيح ما ذكره " الجوهرى " وهو أن " هيْمَنَ " ليست من الرباعى المجرد ، وإنما هى من الجذر الثلاثى " أمن" مزيدا بهمزة التعدية ، فيكون أصلها " أأْمَنَ " بهمزتين ، انقلبت الثانية ياء " أيْمَنَ" ، وأبدلت الأولى هاء " هَيْمَنَ " ، كما قالوا " هَرَاقَ الماء " بمعنى أراقه . فالمهيمن أصلها " المُؤَأْمِن" ، فهو الأمينُ الحافظُ المُؤتَمَن . وهذا كما ترى يطابق تماما المعنى المقصود من " هيمنة " القرآن على الكتب السابقة ، فهو الحفيظُ عليها ، الأمينُ المُؤْتَمَنُ على ما صَحَّ فيها . وهو أيضا يُناسب ورودَ وصفِ الله عز وجل باسم "المهيمن" فى سورة الحشر بعد وصفه عز وجل باسمى " السلام" و" المُؤمِن " تباركت أسماؤه، فهو " السلام " ، وهو " المُؤمِنُ" الذى يُؤْمِنُ الخلقَ من الخوف ، وهو " المهيمن" الذى "يَأمَنُهُ" الخلقُ لأنه تبارك وتعالى الحفيظُ الأمينُ المُؤْتَمَن .

هذا هو المعنى الصحيح للفظة " هيمن" العربية ، استطردنا بك إليه إرادةَ جلاءِ اللبس فى خطأٍ شائع لا يكاد يَبْرَأُ منه فى هذا العصر قَلَم ، ولا يَصِحُّ هذا فى لغة القرآن ، وفى الفهم الصحيحِ لمعانى القرآن ، ودقائقِ القرآن .

□□□

على أنك لا تستطيع اشتقاق اسم " هامان" قرين فرعون فى القرآن من "هَيْمَنَ " إن كانت "هامان" عربية ، لامتناعِ اشتقاقِ " فَعْلال " من " أفْعَلَ " (زنةِ " هَيْمَنَ " التى أصلُها أأْمَنَ كما مر بك) : الجائز من " هيمن " هو " المهيمن " لا غير .

أما الذى يصح ، فهو أن تشتق " هامان " من " الهامة " ، أى " الرأس" ، على زنة " فَعْلان " من فَعْلَة ، كما قال العرب " كاذان " ، يعنى " عظيمُ الكاذة " ، " والكاذةُ هى اللحمُ الذى على الفخذ. فيكون معنى " هامان " عربياً هو " عظيمُ الهامة " .

ولا يقدح فى هذا الذى نقوله أن : " هامان " على معنى " عظيم الهامة " لم تُسْمَع من العرب، وإنما المسموعُ من العرب على معنى عظيم الهامة هو " الأهْوَم " فقط ذلك أن القرآن على ما مر بك من منهجنا فى هذا الكتاب هو " صاحبُ اللغة " ، يَنْحتُ من جذورها على أوزانها المسموعةِ ما شاء ، كيفما شاء . بل فى هذا كما مر بك إشارةٌ إلى عُجمة صاحب الاسم العلم .

" عظيمُ الهامة " هى الوجهُ الوحيدُ الجائز فى معنى " هامان" ، إن كانت عربية ، على الترجمة من المصرية القديمة .

أما معنى "عظيم الهامة " فى المصرية القديمة فهو "ورْ ـ تِب" (" ورْ " يعنى كبير ، " تِبْ " يعنى الرأس) ، أو "ورْ ـ ضاضا " (" ضاضا " مرادف " تب ") [(١)] .

وقد مر بك أن كبيرَ كهنة " أون" (هليوبوليس) تَلَقَّبَ باسم " ورْ ـ ماءُ و " ، يعنى " عظيم الرائين " أو " الرائى الأعظم " . ولا يبعد أن يكون لقبُ كبير كهنة آمون على عصر فرعون موسى هو " ورْ ـ تب " أو " ور ـ ضاضا " ، بمعنى " عظيم الهامة " أو " الرأس الأعظم " ، جاء بها القرآن على " هامان" ، أى " عظيم الهامة " ، تفسيرا بالترجمة لا بالتعريب .

❑❑❑

أما مفسرو القرآن (راجع تفسير القرطبى للآيتين ٦ ، ٨ من سورة القصص) ، فلم يتصدُّوا لاسم " هامان" ، وما كان لهم أن يتكئوا فى " هامان " المصرى على أهل

---

(١) " تب " و " ضاضا " كلاهما مترادفان بمعنى " الرأس ". وقد بقيت " ضاضا " فى المصرية المتأخرة ونَدُرَت "تب" . وقد أثبتنا " ضاضا " بالضاد العربية ، وهى الدال القاسية ، ولو أن علماء المصرية القديمة لا يعترفون للحرف المصرى بهذا الصوت ، وإنما يترددون فى نطقه بين الصاد العبرية وبين الجيم الفصحى فى لغة القرآن (دج) ، تأثرا فى هذه الأخيرة بما آل إليه النطق القبطى . والأصوب عندى أن هذا الحرف كان ينطق فى الهيروغليفية " ضادا " عربية ، بدليل أن هذا الحرف حين تَحَوَّر فى الطور الأوسط من المصرية القديمة تحور نطقا وكتابة إلى الدال ، ولم يتحور إلى السين ، أو إلى الجيم المصرية القديمة وهى نفسها الجيم " القاهرية " على عصرنا المبدلة من الجيم العربية الفصحى (دج)، فتأمل .

الكتاب وقد سكتت عنه التوراة . ولكنهم قالوا إن " هامان " كان وزيرا لفرعون من القِبْط ، أى المصريين ، على ما فهموه من دوره فى بلاط فرعون . ولم يتساءلوا عن وجه اتجاه موسى بالرسالة إلى هامان بجوار " سيده " فرعون . وقالوا أيضا إن "هامان" كان حازيا لفرعون ، والحازى يعنى " المُنَجِّم " . وهذا قريبٌ من عمل الكاهن "الرائى" الذى كَانَهُ " هامانُ " لفرعون على ما نقول نحن . ولم يتصدَّ المفسرون أيضا لعُجمة "هامان " . وإنما مروا على اسمه مَرَّ الكِرام ، رغم أنه ممنوعٌ من الصرف من كل القرآن ، غَيْرُ مُنَوَّن . والوجهُ فى هذا أن "هامان" تُمنع من الصرف فى كل الأحوال ، عربيةً أو أعجمية : إن كانت أعجميةً فللعُجْمَة ، وإن كانت عربيةً فلأنها مختومةٌ بالألف والنون، على زنة " فَعلان" الممنوع من الصَّرْفِ وجُوبا .

❐❐❐

لـ "هامان" كما رأيت فى التفسير وجهان : التعريبُ أو الترجمة ، معنيانِ كِلاهُما يُغايرُ الآخر .

إمّا أنها جاءت فى القرآن على الترجمة من المصرية القديمة بمعنى "عظيم الهامة" أو " الرأس الأعظم" ، استيحاشا لاستبقائها على أصلها "وِرْـ تِب" أو "وِرْـ ضاضا" ، والتفسير فى القرآن بالترجمة يغنى عن كل تفسير .

وإمّا أنها جاءت فى القرآن على التعريب من المصرية القديمة "ها + آمان" وهى بمعنى "النافذ إلى آمون" ، أو "هَوُّ ـ آمون" ، لقبا من المصرية القديمة دالاً على مَنْصِبٍ كبيرٍ كهنةِ آمون . ولكن القرآنَ لا يفسرُها فى سياق الآيات التى تحدثت عن "هامان" خلافاً لمنهجنا فى هذا الكتاب .

ليس لدينا الدليلُ فى هذا أو ذاك ، لانعدام " النظير" الذى تُطابقه عليه لدى علماء المصريات أعنى المدونَ من التاريخ المصرى القديم ، أو بالأحرى ما تكشّفَ من التاريخ المصرى القديم . ليس لديك فيما عُرِفُ من الأسماء والألقاب فى المصرية القديمة "ها + آمان" أو "وِرْـ تِب" أو "وِرْ ـ ضاضا" ، ناهيك بتحديد شخص حامل هذا الاسم أو اللقب قريناً لفرعون موسى الذى فى القرآن وفى التوراة ، وناهيك بِمَنْ هو "فرعونُ موسى" فى التاريخ المصرى القديم ، " فرعونُ ذو الأوتاد " فى القرآن ـ رمسيسُ

الثانى كما نقول نحن ـ صاحبُ " الأعمدة " فى معبد الكرنك ، "نِبْ ـ يُونيت" فى المصرية القديمة .

وحين ينعدمُ النظيرُ المُتَّفَقُ عليه بإجماعٍ فى المصرية القديمة من علماءِ المصريات ، يمتنعُ أيضا القطعُ بمعنى "هامان" التى فى القرآن ، إلى أن ينكشِفَ من أسرار التاريخ المصرى القديم ما يَدُلُّ عليه .

ولكن القرآن الذى انفرد وحده بذكر " هامان " قرينا لفرعون موسى ، على غيرِ سابقةٍ فى التوراة ، ودونَ سندٍ من التاريخ المصرى القديم ، وما كان أغناهُ عنها ، يتحدَّى بـ " هامانَ " هذا الأولين والآخرين : الأولين الذين جَهِلوا وجودَ قرينٍ البَتَّةَ لفرعونِ موسى ، والآخرين ـ علماءِ المصرية القديمة والتاريخ المصرى القديم ـ الذين لا يعلمون حتى الآن مَنْ قد كان " فرعونُ ذو الأوتاد " المَعْنِيُّ فى القرآن ومكانَهُ فى سلسلة فراعين مصر ، ولا يعلمون مِن ثَمَّ مَنْ قد كان " كبيرُ الكهنة " على عصرِ فرعونَ المعَنِيّ.

لو أن القرآن لا يَعْلَمُ ما يقول ، أو يقول مالايَعْلَم ، فكيف يُجازفُ فى غيرِ ضرورةٍ البَتَّةَ بذكر قرينٍ لفرعونِ موسى بالاسم ، آمنا ألا تكشف الأيام زَيْفَه بثبوت انعدامِ القرين ، واختلافِ المسمى ؟ كيف ضَمِنَ فى مطلع القرن السابع للميلاد وإلى هذا القرن العشرين أن يَقِفَ علماءُ المصريات حَيَارى أمامَ هذا التحدى ؟

ليس الإعجازُ فقط أن يَتَنَبَّأ مُتَنَبِّىءٌ فيصيب . ربُمَّا قُلتَ صدَف . الحادثُ فى المستقبل لا يَصِحُّ حتى يَقَع . ولكن الإعجازَ الحقُّ أن تتحدى سامِعَكَ بما كان ، فلايَمْلِكَ لك سامِعُك نفيا أو إثباتا .

لا يفعلُ هذا إلا شاهدٌ حافظ ، انفرد بعلمِ كُلِّ الذى كان .

وكفى بهذا إعجازا تَنْقَطِعُ دُونَهُ الرِّقاب .

(٣٤) قارون

عَرَجْنا فى تحليل اسم "هامان" على ذِكر ما كان من شأنِ " قارونَ " الذى تَوَجَّهَ موسى إليه بالرسالة قريناً لفرعونَ وهامان .

كان قارونُ كما مر بك ، وكما نَصَّ عليه القرآن ، رجلاً عبرانياً مِن بنى إسرائيل فى مصرَ على عصرِ موسى ، اتجه إليه موسى بالرسالة لأنه مَرَقَ من دين الواحد الأحد، شأنَ الملأ من بنى إسرائيل من بعد يوسف ويعقوب الذين طلبوا الحُظْوَةَ عند سادتهم المصريين ، ثم رِينَ على قلوبهم بذنبهم ، فكانوا آباءَ الذين عبدوا العجل فى التيه . ولكن قارونَ كَذَّبَ موسى شأنَ سيدِهِ فرعونَ وكبير كَهَنته " هامان" .

والقرآن يقص عليك بإيجازٍ بليغٍ مُسْتَوْفٍ فى سبع آياتٍ من سورة القصص (٧٦ ــ ٨٢) كل ما كان من شأن قارون ومآله ، فيقول : { **إنَّ قارون كان منْ قوم موسى فبغَى عليهم ، وآتيناه من الكنوز ما إنَّ مفاتِحَهُ لتنوءُ بالعصبة أولى القوة ، إذ قال له قومُهُ لا تفرح ! إن الله لا يُحِبُّ الفَرِحين . وابتغ فيما آتاك اللهُ الدارَ الآخرة ولا تنسَ نصيبَك من الدنيا وأحْسِنْ كما أحْسَنَ اللهُ إليكِ ولا تبغِ الفسادَ فى الأرض إن الله لا يُحبُّ المُفسدين . قال إنما أوتيتُهُ على علمٍ عندى ! أوَ لم يعلم أن اللهَ قد أهلك من قبله من القرون من هو أشدُّ قوةً وأكثرُ جمعا ، ولا يُسألُ عن ذنوبهم المجرمون . فخرج على قومه فى زينته ، قال الذين يُريدون الحياةَ الدنيا ياليتَ لنا مثل ما أوتىَ قارون إنه لذو حَظٍ عظيم . وقال الذين أوتوا العلمَ وَيْلَكُمْ ثوابُ الله خَيْرٌ لِمَنْ آمنَ وعَمِلَ صالحا ولا يُلَقَّاها إلا الصابرون . فَخَسَفْنا به وبداره الأرض فما كان له من فئةٍ ينصرونه وما كان من المنتصرين . وأصبح الذين تَمَنَّوا مكانه بالأمس يقولون وَيْكَأنَّ اللهَ يبسط الرزق لمن يشاء من عباده**

ويَقْدِر، لولا أنْ مَنَّ اللهُ علينا لخسف بنا، ويْكأنَّهُ لا يُفلح الكافرون !} (القصص : ٧٦ ــ ٨٢) .

أثبتنا الآياتِ السبعَ برمتها هنا ولم نُحِلْكَ إليها فى مصحفك لأنها تُغنى عن كل قول : أخذ اللهُ على قارون الكفر ، وبَطَر النعمة ، والاستكبار ، والإفسادَ فى الأرض ، والاستعلاءَ على قومه بما آتاه اللهُ من الكنوز، كما أخذ على قارونَ "بَغْيَهُ على قومه"، وكانت القاصمةَ تَبَجُّحُهُ بقوله : إنما أوتيته على علم عندى ! وشاءت رحمةُ الله عز وجل ألا يفتتنَ بقارونَ الذين يريدون " الحياة الدنيا " فخسفِ الله بهِ وبدارهِ الأرض. أى خسف اللهُ به وبما جَمَع .

وأنت بالطبع لاتتصور أن قارونَ الذى يُحَدِّثُك القرآنُ عنه قد كان مَهْلكُهُ بتيه سيناء بعد إنجاءِ اللهِ بنى إسرائيل من قبضةِ فرعون . ولا تتصور أن يكون بَغْيُ قارونَ على قومه فى تيه سيناء وقد عَرِيَ قارونُ من سلطان فرعون الذى يبطش قارونُ بيده . ولا تتصور أن يبغى قارون على قوم موسى وموسى فى تيه سيناء بين ظهرانيهم حاكماً مُحَكَّما . ولا تتصور أن يجمع قارونُ كنوزه فى صحراءَ جرداءَ كتيه سيناء ، أو أن يخرج على قومه فى زينته فى صحراءَ كصحراءِ سيناء ، ولا تتصور أيَّ معنى لأن يخسف اللهُ الأرضَ بدارٍ لقارونَ فى التيه ، وما كانت دُورُ بنى إسرائيل فى التيه إلا أخبيةً من الوَبَر على أحسنِ الفروض ، لا يستقرُّ بهم المُقامُ إلا ليحملوا عصا الترحال . ولا تتصور أيضا وبالأخص أن يُنْجِيَ اللهُ قارونَ مع موسى عَبْرَ البحرِ إلى سيناء ، ولا يهْلكَهُ مع فرعونَ وهامان، كما لا تتصور أن تكونَ لقارونَ فى مصرَ كنوزٌ تنوء بمفاتحها العُصبةُ أولو القوة ، ثم يعبر بها قارونُ البحرَ مع موسى إلى سيناء فى فرارِ بنى إسرائيل من مصر .

قال عز وجل فى مَهْلك قارون : { **وعاداً وثمودَ وقد تَبَيَّنَ لكم من مساكنهم ، وزَيَّنَ لهم الشيطانُ أعمالهم فصدَّهم عن السبيلِ وكانوا مستبصرين . وقارونَ وفرعونَ وهامان ، ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين . فكلا أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذَتْهُ الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسَهم يَظلمون** } (العنكبوت ٣٨: ــ ٤٠) . تجد فى هذه الايات النصَّ

بالترتيب الزمنى على مَهْلِك عادٍ وثمودَ وقارونَ وفرعونَ وهامان : كان بالحاصب مهلك عاد ، وبالصيحة مهلكُ ثمود ، وبالخسف مهلكُ قارون ، ثم بالإغراق مهلكُ فرعونَ وهامان . فتستخلص من هذا جازماً قاطعا أن مَهْلِكَ قارونَ بالخسفِ قد كان فى مصر ، سابقا على مَهْلِك فرعونَ وهامان فى اليم غرقا . وهذا شأنُ حكمته عز وجل : يَقْطَعُ المنافقَ الذَّنَب ، لِتتعظَ بهِ الرأس . ولكن فرعونَ وهامان لم يتعظا بقارون، فَحَقَ عليهما القول .

قارونٌ الذى يحدثك عنه القرآن قد كان فى مصر بَغْيُهُ ومآلُهُ ، لا فى تيهِ سيناء. ولم يلتفت إلى هذا المفسرون .

❑❑❑

تُحَدِّثُكَ التوراةُ (الفصل ١٦ من سفر العدد) عن ثُلَّةٍ قوامُها ٢٥٠ رجلا يتزعمهم رجلٌ يدعى " قُورَح " ، قاوموا موسى عليه السلام فى التيه ، أى تمردوا على رئاسته فنازعوه الانفرادَ بالتلقى من الله عز وجل واختصاصَهُ نفسَهُ وهرونَ بالكهانة . كما مر بك فى ذلك السفر نفسه (عدد١٢) من منازعة هرون ومريام أخاهما موسى . عندئذ سَخطَ الرَّبُّ على " قورح " وجماعته : " ففتحت الأرض فاها فابتلعتهم هم وبيوتهم وكُلُّ إنسانٍ لقورح وجميعَ المال " (عدد ٣٢/١٦) . كان هذا فى تيه سيناء كما يتضح لك من مجادلتهم موسى : " أقليلٌ أنَّكَ أخرجتنا من أرضٍ تُدرُ لبناً وعسلا لتقتلنا فى البَرِّيَّة حتى تَتَرَأسَ علينا تَرَؤساً أيضا ! " (عدد ١٣/١٦) . لم يكن الخسف بقورح الذى فى التوراة فى مصر بل فى تيه سيناء . ولم يكن الخسف بقورح الذى فى التوراة لأنه بَغَى على قومه ، وإنما لأنه بَغَى على موسى فنازعَهُ الرئاسةَ المستمدةَ من النبوة . ولم تكن لقورح الذى فى التوراة كنوزٌ يختالُ بها على قومه ، ولم تكن له ولجماعته دُورٌ مبنية يُخْسَفُ بها . وإنما كانت لهم بيوتٌ أخبية من الوَبَر : " فتباعدوا من حوالى مَسكَنِ قورح وداثان وأبيرام وخرجَ داثانُ وأبيرام ووقفا على أبواب خيامهما هما ونساؤهما وعيالُهُما " (عدد ١٦ / ٢٧) . لا مجالَ للمقارنةِ بين قورح الذى فى التوراة وبين قارونَ فى القرآن .

ولكن مفسرى القرآن (راجع تفسير القرطبى للآيات ٧٦ وما بعدها من سورة القصص) تأثروا بهذا الذى قصصته عليك من سفر العدد ، فقالوا إن قورح هذا الذى

فى التوراة هو نفسه الذى فى القرآن، استئناسا بالتشابه بين لفظى "قورح" ، " قارون"، وأيضا ـ وبالأخص ـ بالتماثل فى المآل ، أى الخسفُ بقارون الذى فى القرآن : {فخسفنا به وبداره الأرض} (القصص : ٨١) . وتلك واحدةٌ من الإسرائيليات فى تفاسير القرآن.

بل قد اتكأ على هذه التفاسير أدعياءُ الاستشراق المنكرون الوحى على القرآن ، كدأبهم على الاستفادة من تلك التفاسير فى النعى على القرآن ، فقالوا إن محمدا (صلى الله عليه وسلم) سمعها "قورح" فعربها على " قارو ن" على المجانسة مع "هارون" ، (١) ثم نسج حوله تلك القصة عن ثراء قارون وكنوزه التى تنوء بمفاتحها العصبة أولو القوة ، واستكباره على قومه ، لا على موسى نفسه ، ولكنه استبقى لقارون فى القرآن المآل الذى لقيه قورح فى التوراة : خَسْفُ الأرضِ به وبدارهِ .

عليك إن كنت مسلما فى هذا العصر الذى نعيشه ، وقد أُتيحت أسفارُ التوراة بالعربية للقارىء بتلك اللغة مسلما وغيرَ مسلم ، أن تتوقف عند كل تفسير للقرآن يتأصَّلُ على شىء مما تقصه هذه التوراة التى بين يديك ، تُراجِعُ النص التوراتى على النص القرآنى ، فَتُنَقِّى هذه التفاسير ـ أيا كان قدرُ أصحابها ـ مما علق بها من شوائب تلك الإسرائيليات ، لأن القرآن هو المهيمن على التوراة ، لا العكس ، والقرآنُ الذى يُصَدِّقُ ما صَدَقَ فى التوراة ، لا يُكَذِّبُ كُلَّ ما فى التوراة ، ولكنه يُكَذِّبُ فقط المكذوبَ على الله عز وجل وعلى التاريخ الصحيح مما دُسَّ على التوراة التى بين يديك ، ويعفو عن كثير .

ونحن لا نقصد من هذا إلى أن الخسف بقورح الذى فى التوراة محضُ خيال ولكننا نقول إنها أهابيشُ اهتبشها الكاتبُ أو الناسخ من ضباب الذاكرة ، كما اهتبش من قبل " هامان" المصرى فجاء به بعد قرونٍ من عصر موسى إلى بلاط فارس يكيد لبنى إسرائيل . لا يصح للجاحد المكابر أن يقول العكس ، أعنى لا يصح أن القرآن هو الذى اهتبش " هيمان " الذى فى بلاط فارس فجاء به إلى بلاط فرعون ، أو أنه هو الذى اهتبش من سفر العدد " قورح " الذى ناوأ موسى فى تيه سيناء فأعاده إلى مصر يناصر فرعون على موسى . لا يصح لأن القرآن فى اعتقاد هذا المكابر لا ذاكرة له

---

(١) انظر على سبيل المثال Joseph HOROVITZ ، المرجع المذكور ، ص ٢١ .

يهتبش منها ويغترف كما يفعل كتبة التوراة ونُساخُها : كل ما لدى القرآن فى اعتقاد هذا الجاحد هو أسفار التوراة وأقاصيص أهل الكتاب ، بُسِطت أمامَه ، وأُفْرِغَت فى أذنيه ، لا عِلْمَ له بشيء خارجها ، فهو ينتقى منها ويختار. والذى ينتقى ويختار لا يقع فى مثل هذا الخطأ المادى الفادح الذى ليس له فيه سند . إلا أن تقول إن القرآن يخترع قَصَصَهُ اختراعا ، ويُؤلِّفُ بينه تأليفا . والذى يخترع القصص يخترع أيضا أبطال أحداثه ، ولا يلتقط نظائر لها فى التوراة على خلاف فى الزمان والمكان والأحداث ، بل يبعد بنفسه عن هذا كل البعد ، ويحترز منه أشدَّ الاحتراز . وإلا فهو - على غيرِ ضرورةٍ البتّة - يَزُجُّ بنفسه فى المزالق .

لم يخترع القرآن قصة مَهلك قارون بالخسف فى مصر، ولكن كتبة التوراة الذين أَنْسُوا الذى كان - وهُمْ يكتبون أسفارهم فى أعقاب عصر داود وسليمان - أسقطوا مصير قارون فى مصر على نظير له فى تيه سيناء ، تغليظاً لمصير أولئك الذين تَجَرّءُوا على موسى فنازعوه الكهنوتَ فى التيه . وفات الكاتب وهو فى سَوْرَةِ غضبه من قورح وجماعته أن الله عز وجل لا يخسف بالمتطاولين على أنبيائه - إن صح قوله فى قصة "قورح" - فيهلك معهم الحرث والنسل دون ذنب جَنَوْه ، بل ويهلك أيضا جماعة بنى إسرائيل كلهم عدا موسى وهرون ، حين تذمر بنو إسرائيل على موسى بسبب مهلك قورح وجماعته ، فيفنيهم جميعا فى لحظة ، لولا أن هرون قدم البَخُور وكَفَّرَ عن الشعب ، ووقف موسى بين الموتى والأحياء فكفت الضربة وكانت قد بدأت بالفعل ، فكان عدد الذين ماتوا بالضربة أربعة عشر ألفا وسبعمائة خلا من مات بسبب قورح (راجع سفر العدد / ٤١ - ٥٠) .

قارن ذنب قورح الذى فى التوراة بذنب قارون الذى فى القرآن . وقارن بين مَهلك قورح وهذا العدد الضخم من بنى إسرائيل بسبب قورح ، وبين قارون الذى لم ينازع موسى الكهنوت شأن قورح الذى فى التوراة ، وإنما كفر بموسى أصلا وبمن أرسله ، وكفر بأنعم الله عليه متبجحا بقولته : إنما أوتيته على علم عندى ! واستذل قومه فى مصر وكان سوط عذاب لفرعون عليهم ، فلم يخسف الله الأرض إلا به وحده وبداره : {**فخسفنا به وبداره الأرض**} ﴿القصص : ٨١﴾ ، ورَحِمَ الذين كانوا يَتَمنونَ مكانه بالأمس ، فقالوا : { **لولا أن مَنَّ اللهُ علينا لخسف بنا ، وَيْكَأَنَّهُ لا يفلح الكافرون** } ﴿القصص : ٨٢﴾ .

قـارن أنت بين هذين السـردين ، الذى فى التـوراة والذى فى القـرآن ، وتَأمَّلْ أىَّ السَرْدَيْنِ أَحَقُّ بالتصديقِ والاتباع .

❑❑❑

والذى يجب أن تندهش له أن كتبة التوراة (خروج ١) الذين لم يفتهم أن يسموا بالاسم تلكما القابلتين العبرانيتين " شفرة وفوعة " اللتين أمرهما فرعون بقتل مواليد بنى إسرائيل الذكور واستحيا ء مواليدهم الإناث ، فخافتا الله كما يقول الكاتب ، لم يُسَمُّوا أحدا من " مُدَبَّرى بنى إسرائيل ومُسَخِّريهم " الذين سلطهم فرعون عليهم من أنفسهم (خروج ٥) فلم يتحدثوا قط عن "قارون" وأشباه قارون ، وكأنما ذاكرتهم "الحديدية" التى لم يفتها تسمية من خرجوا مع موسى من مصر ، انطمست فجأة ، فلم تستذكر أحداً من أولئك الخونة ، عملاء فرعون عليهم ، ناهيك برأس الكفر والبغى "قارون" .

والوجه فى هذا ، أن القابلتين "شفرة وفوعة" خافتا الله ، فسجل لهما الكاتب هذا الشرف فى أجيال نسلهما . أما أولئك "المُدبِّرون المُسَخِّرون" فهم عارٌ وشَنار . بل ربما قد كان منهم من تاب من بعد وأناب فَشَرُفَ بصحبة موسى فى عبور البحر إلى سيناء ، فتكتم الكاتبُ عنه عارَ ما قد سلف . بل قد كان منهم على وجه القطع والبقين من هلك فى مصر على كفره مثل "قارون" وأشباه قارون ، فحرص الكاتب أن يُعَمِّىَ أَمْرَه ـ خشيةَ أن يكون فى أشراف بنى إسرائيل عصرَ كتابة الكاتب ما كتب من ينتسبون إليه ـ فأسقط من سجله أسماء هؤلاء المُدبرين المُسَخِّرين جميعا ، لا يُسَمى بعضاً دون بعض فيقع فى المحظور دون أن يدرى .

❑❑❑

تكتمت التوراة إذن ما قد كان من شأن " قارون" فى مصر ولم تسمه ، وانفرد به القرآن. والقرآن ينص على أن " قارون" هذا كان رجلا عبرانيا : {**إن قارون كان من قوم موسى**} (القصص : ٧٦) ومن ثم تقطع بأن هذا الاسم "قارون" اسم عبرانى. ولكنك لا تقع قط فى أعلام العبرانيين منذ وجدوا وإلى يومنا هذا على شخص واحد

تسمى بالاسم " قارون" ، وكأنهم يتحاشون التسمية به. ولكن اللغة العبرية لا تخلو من اللفظ " قارون" على الصفة ، زنة المفعول عبريا من الجذر العبراني " قَرَنْ " بمعنى أنار وأضاءَ وأشَعَّ ، فهو الأنْوَر المُنَوَّر ، ومن طريف ما يذكره القرطبي في تفسيره الآيات ٧٦ وما بعدها من سورة القصص أن " قارون " كانت كُنْيَته في قومه " المُنَوَّر" لِوَضاءته وجماله ، دون أن يفطَنَ بالطبع إلى أن " المُنَوَّر" هذه هي نفسها " قارون" عبريا. والذى نقطع به نحن أن القرطبي نقل هذا عن بعض رواة أهل الكتاب من اليهود، الذين ترجموا "قارون" التي في القرآن إلى معناها العبري " المُنَوَّر" ، يفتعلون العِلم المُسَبَّق بما ذكره القرآن ولم تذكره التوراة ، أو "يجاملون" بها مفسري القرآن، تبريراً لمجيء القرآن بالاسم " قُورَح" الذى في التوراة على لفظٍ مغاير ، هو "قارون" .

والذى لاتستطيع أن تُعْفِيَ مفسري القرآن منه ، هو انسياقُهم إلى القول بأن "قارون" التي في القرآن هي تعريب للاسم " قُورَح" الذى في التوراة . فلا يصح هذا عربيا بوجه ، لإبدال النون من الحاء : لو أراد القرآن تعريب " قُورَح " لنطقها "قَوْرَح" بفتح القاف زِنَةَ " هَوْدَج" ، أو لقال " قُرَحْ " زِنَةَ "عُمَر" ، أو لقال " قَارُوح" زِنَةَ "قاموس" ، ولما قال البتة " قارون " بالنون . وإنما انساق المفسرون إلى هذا ، لانزلاقهم بتأثير رواتهم من أهل الكتاب إلى القول بأن " قارون " المخسوف به في مصر هو نفسه " قورح" المخسوف به في التيه ـ ولا يصح هذا البتة كما مر بك ـ لأنهم لم يفطنوا إلى وَجْهِ العِلة في تَوَجُّه موسى بالرسالة إلى فرعون وهامان وقارون جميعا ، وقد مَرَّ بك .

ولا يصح أيضا القول بأن قارون التي في القرآن هي ترجمة عربية للاسم العبري قورح الذى في التوراة. فالاسم العبراني معناه الأقْرَع ، أصْلَع الرأس، ولا صلة البتة بين قارون ـ إن أردتها عربية ـ وبين معنى القَرَع والصَّلَع الذى في قورح العبري . ولا يصح كذلك القول بأن " قارون" كُنْيَةٌ عربية كَنَّى بها القرآنُ عن " قورح" ، لا يترجم بها اسمه وإنما وصفاً له بما شُهِرَ به وتحدَّثَ به القرآن وهو "جَمْعُه" الأموال والكنوز ، أعني " فاعول " على المبالغة من "قَرَى" العربي بمعنى "جَمَع" ، فلا يصحَ البتة اشتقاق قارون من قَرَى، وإنما الذى يصح من قَرَى على المبالغة هو " قَارُوء" بالهمزة لا "قارون" بالنون ، وإن لم تسمع " قاروء" من العرب. أما " قارون " على " فاعول" من " قَرَنَ " ـ وإن لم تسمع من العرب أيضا ـ فمعناها القارنُ بين الشيئين ، لا مُطلق الجمع .

ولأن كتبة التوراة جَهلوا ما كان من أمر قارون فى مصر أو أنْسُوه أو تَكَتّمُوه ، بل وجَهِلوا أو تكتموا وجود علم عبرانيٍّ البتة بلفظ " قارون" ، فأنت تُنَحِّى علماء العبرية وعلماء التوراة عن تفسير معنى هذا الاسم " قارون " ، وتلتمس تفسيره من القرآن على منهجنا فى هذا الكتاب ، لأن القرآن هو صاحبُ هذا الاسم ، الذى أتى به على غيرِ مثالٍ فى العبرية أو نظير فى أعلام بنى إسرائيل ، وهو أيضا الراوى قِصَّتَه وما كان من شأنِه وما آل إليه .

قال عز وجل يفسر الاسم العبرانى قارون بالتصوير : { **إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إِنَّ مفاتِحَهُ لَتَنُوءُ بالعصبة أولى القوة** } (القصص : ٧٦) . هذه الصورة البليغة المعجزة تدلك على أن " قارون " هو المُوقَرُ المُثْقَلُ غنىً .

وفى المعجم العبرى (١) أن "يقر" (وهو من " وَقَرَ " العربى) يُفيد معانى الثِّقَل والعظمة والمال (وهذا قريب من معانى " وَقَرَ " العربى ، فالوِقر يعنى الحِمْل الثقيل ، والوَقار من معانيه العظَمَة ، والقِرةُ من معانيها المال ، كما تقرأ فى معجمك العربى) وقد جمع هذا كله " قارون" الذى فى القرآن.

أما كيف تجىء " قارون " التى فى القرآن من " يَقَر " العبرى ، فهى تجىء فى العبرية على المزيد بالواو والنون ، فتصبح " يَقَرُون " ، كما جاءت "يَشَرُون" العبرية من "يَشَر" أى السواء والاستقامة ، فهو السَّوِىُّ المستقيم ، ثم تُحْذَفُ الياءُ البادئةُ من "يقَرُون" استخفافا ، فتؤول إلى " قارون " الواقِر المُوقَر ، كما آلت من قبل فى العبرية "يَشَرُون" إلى "شَارُون" .

تُرى أكان القرآن ـ وهو يخترع " قارون" بزعمهم ـ يستطيع أن ينحت من العبرية هذا الاسم " قارون" من "يَقَر" العبرى إن لم يكن القرآنُ أفْقَهُ بالعبريةِ من أهلها ومعاصريه من أهل الكتاب الذين اعتجمت عليهم فظنوها " الأنْوَرُ المُنَورُ " كما يروى القرطبى على التفسير السهل المباشر من " قَرَنْ " العبرى بمعنى أضَاءَ وأشَعَّ ؟

ألا فَسَبِّح معى العليمَ الخبير ، الذى علَّمَ بالقلمِ علَّمَ الإنسانَ ما لم يعلم .

---

(١) راجع مادة "يَقَر" فى " هَمْلونْ " هِحَداش لَتَناخ " ، المرجع المذكور ، ص ٢١٦ .

ومن طريف ما يذكر فى هذا السياق أن أهل الكتاب ـ الذين لم يعلموا بقارون إلا من القرآن وحده ـ يتخذون من قارون هذا مثلا على الغنى المفرط ، فيقولون بالعبرية " عَشِير كِقُورَح "يعنى" غَنِيٌّ" مثل قورح" ، يُنَسِّقُون على قول الأوروبيين بالفرنسية مثلا riche comme Cresus يريدون ملك ليديا فى آسيا الصغرى فى القرن السادس قبل الميلاد الذى اشتهر بفرط غناه . ولم تصف التوراة قورح الذى فى التيه بالغنى والثراء ، وإنما وصفته بالعصيان والمروق ، وما كان لاسرائيلى فى التيه مهما بلغ غناه أن يُقَارَنَ بغِنَى كرِسُوس ملك ليديا ، بل ما كان ذهب الاسرائيليين جميعا ليتجاوز وزن ذلك العجل من ذهب الذى حَرَّقَه موسى ونَسَفَهُ فى اليم نسفا . ولا يصل هذا إلى عُشرِ معشار ما كان لِملِك ليديا فيما تَروى الأساطير . وإنما نَسَقت العبرية فى هذا على قارون الذى فى القرآن ، الذى أوتى من الكنوز ما إنَّ مفاتِحُه لَتَنُوءُ بالعصبة أولى القوة . وهم هنا أيضا يُوَحِّدُون ما بين " قورح " ، " قارون " ، يجعلون منهما نفس الشخص على اختلاف الزمان والمكان . وقد أدى هذا أيضا ببعض الأدعياء إلى القول بأن القرآن يُعَرِّب " كرِسُوس" اليونانى على قارون ، وينقله من ليديا إلى مصر ، على بعد ما بين آسيا الصغرى ومصر ، وما بين القرن السادس قبل الميلاد الذى عاشه "كرِسُوس" اليونانى والقرن الثالث عشر قبل الميلاد الذى عاشه فرعون موسى . ولكن كيف تَجِيءُ " قارون" من " كرسُوس" ؟ كان أولَى بالقرآن أن يقول " قاروس" ، لأن السين الأولى التى فى " كرِسُوس" اليونانية سين أصلية لا يجوز حذفها ، أما السين الثانية فهى حركة " إعراب " للرفع فى اليونانية تحل محلها النون فى النصب فتقول "كرِسُون" . هذا وذاك يدلك على الخلط والتخبط ، وهو أمرٌ بئيس لا يُلْتَفَتُ إليه ، ولكننا دَلَلْناكَ عليه كى تأمَنَ الوقوعَ فيه .

(٣٥) مصر

"مصرُ" ، هذا الاسمُ الجغرافىُّ العَلَم ، اسمٌ عربىٌ ليست فيه شبهةُ عُجْمَة . ولا يَقْدُح فى هذا أنه اسمٌ ممنوعٌ من الصرف غير منون ، لأن "مصر " عَلَمٌ مؤنث ، والعَلَميةُ مع التأنيث تَمنَعُ من الصرف وجوبا ، عربياً كان الاسمُ أم غيرَ عربى .

وفى معجمك العربى " مصرٌ " أخرى تقبل الألف واللام ، كما تقبل التنكير والإضافة ، وتقبل الإفراد والتثنية والجمع، أعنى " المصر" بمعنى البلد أو القطر ، وتجمع على أمصار ، وليست هذه كتلك ، لأن المصرَ اسمٌ معنوىٌ مذكر ، ليس بعَلَم .

أما " مصرُ " الاسم الجغرافى العلم ، أعنى هذه الأرض التى نعيش عليها أنا وأنت ، فليس معناها عربيا البلد أو القطر ، وإنما معناها " الحائل " ، أى الحاجز بين الشيئين ، أو بين الأرضين ، يمنعك من اختراقه أو النفاذ منه ، ولفظُهُ فى العربية "ماصِر" على الفاعلية ، وأيضا " مِصْر" ، وفى العبرية " مَصُور" وأيضا "مِصِر" بكسرتين (راجع فى معجمك العربى الجذر " مَصَر " المشترك على هذا المعنى بين العربية والعبرية) .

ولكن "مصر" تجىء أيضا فى العبرية بصيغة المثنى "مِصْرَيم" ، وليس هذا على إرادة التثنية ، إنما هو للتعظيم ، كما يعرف حُذَّاقُ اللغةِ العبرية التى تقول "إلوهيم " جمع " إله " على التعظيم تريد الواحدَ الأحد . وربما أيضا على المجانسة مع "تَاوى" اسم مصر بلغة أهلها المصرية القديمة " الهيروغليفية " ، يعنى "الأرضان" على التعظيم لا التثنية .

كانت هيبةُ مصرَ فى صدور جيرانها منذ فجر التاريخ تُصَوِّرُها لهم سَداً منيعا ، تَعَلَّمُوا بالتجربة أنهم ما انتطحوه إلا وتحطمت عليه قرونُهم ، فلم يجدوا لمصر أليقَ من هذا الاسم "مصر" يُسَمُّونَها به .

ولكن مصرَ سفهَت من بعد فَتَرَفَّهت ولانت ، وتهاونَت فهانت . ومع ذلك فقد بقى لها حَقُّها فى هذا الاسم بالتقادم : ذهبت الهيبةُ وبقيت مصر ، لايَعْرِفُ أهلُها اليومَ لاسمها هذا مبنىً أو معنى ، لا من العربية ولا من العبرية ، ولا من المصرية القديمة أيضا .

لا يُغَيِّرُ اللهُ ما بقومٍ حتى يُغَيروا ما بأنفسهم ، وسبحانَ مُقَلِّب القلوب والأحوال والأزمان . فاللهمَّ بجاهكَ وجاه نبيكَ ارْدُدْ علينا ما فَرَّطنا فى جَنْبِ أَنفسنا : ارْدُدْ علينا إسلامَنا ، وارْدُدْ علينا قُرآنَنا ، وتُبْ علينا ، إنا هُدْنا إليك .

❑❑❑

أما Egypt (إيجيبت) اسم مصر الشائع الآن فى كل اللغات تقريبا عدا العربية والعبرية ، فهو مأخوذ من "إغيبتوس" Aigyptos اليونانية (السين الخاتمة للرفع) ، اسم مصر عند اليونان . وقد تخبط الباحثون فى تفسيره فقيل إنه متحور عن Gbtiw (جبتيو) المصرية القديمة يعنى "قفط" (مدينة فى صعيد مصر) . وليس بشىء ، فلا معنى لأن يتخذ اليونان من مدينة قفط عَلَما على مصر كلها ، ولا معنى أيضا لأن يَتَأَنَّوا فى تسمية مصرَ وقد جاءوها من شماليها حتى ينتهى بهم التجوال إلى صعيد مصر . والراجح عندى ولم يقل به بعدُ أحد ـ فهو من الجديدِ الذى مَنَّ اللهُ علينا به ـ أن اليونان نحتوا Aigyptos هذه من لفظة agapytos وهو اسم المفعول فى اليونانية من agapo يعنى "أَحَبَّ" على الترجمة من المصرية القديمة "تا ـ مِرِى" يعنى أرض المحبوب ، أو أرض الأحبة ، أو الأرض التى تُحَبُّ ، وهو واحدٌ من أسماء "مصر" بلغة أهلها كما سترى .

كيفما كان الأمر ، فقد تحولت " إغيبتوس " اليونانية هذه فى اللغة القبطية إلى "جِپتُو" ، وعن "جِپتُو" القبطية هذه قال العرب : " القبط " ، يعنون المصريين أجمع ، لا نصارى مصر فحسب كما شاعت الآن ، وكما يظن الذين لا يعلمون . وهو خطأ لغوىٌ بَيِّن ، لأن " القبط" على هذه الأرض التى نعيش عليها أنا وأنت أسبقُ تاريخا من مبعث المسيح عليه السلام ، ناهيك باعتناق " القبط" المسيحية يومَ اعتنقوها . وهم أيضا أسبقُ وجودا على هذه الأرض من مجىءِ الإسلام ودخولِ أكثريتهم الكاثرة فى دين الله أفواجا .

❑❑❑

لم يسم المصريون بلدهم باسم "مصر" العربى العبرانى على معنى الحائل أو الحاجز كما أسماها بلغاتهم جيران مصر فى الشرق ، هيبةً ويأساً وتعظيما ، فقد مَنَّ اللهُ على هؤلاء المصريين فى غابر الدهر بالطمأنينة فى بلادهم ، لا يَهابون أحداً من وراء هذا الحائل أو الحاجز ، بل قل لا يهتمون لشيءٍ من أمر الذين هم من وراء هذا الحائل أو الحاجز . كان لديهم قَدْرٌ من " الاكتفاءِ بالذات " تَغْبِطهم عليه كُلُّ شعوب العالم القديم ، فانكَفَوْا على أنفسهم يحرثون ويزرعون ، ويغزلون وينسجون ، ثم يجدون من بعد هذا كُلِه وَفْرَةً من الوقت يصنعون فيه أصول الحضارة والفن لكل البشر .

هذا الاكتفاء بالذات ، والانكفاء على النفس ، أوْرثا المصريين من قديم أَنَفَةً واعتزازا ، وربما أيضا عُجْباً وخُيَلاءَ ، والتصاقاً بالأرض ، حتى مُلِئَت صدورُهم ببلدهم هذا عِشْقا ، فَقَرُّوا فى "أرضهم" لا يبغونَ عنها حِوَلا ، وغيرُهمُ الذاهبُ الجائى [1] .

كانت حياتهم الأرضَ والنهر ، فكانت مصرُ عندهم فى لغتهم هى "الأرض" (تا)" ، لا أرضَ غيرُها من بعدِها ، وكان اسمُ النيل عندهم بلغتهم هو " النهر" (إِترو) ، لا نهرَ فى الأرض من دُونِه .

ومن الأرض والنهر اشتق المصريون الأقدمون اسم "مصر" بلغتهم هم فقالوا: (١) "إِدْبوى" مثنى "إِدْب" يعنى " الضِّفّة " فهى الضِفّتان ، يعنون على الراجح جانبى الوادى . (٢) " تاوى" مثنى "تا" يعنى الأرض ، فهى "الأرضان" ، ومنه " نبْ ـ تاوى" أى سَيِّدُ الأرضَيْن" يعنى " ملك مصر " ، فى مقابلة " نبْ ـ ضار" أى ربُّ الكون . والراجح أن التثنية فى " الأرضَيْن " هى على التعظيم ، وليست على الجمع بين الوجهين البحرى والقبلى . (٣) " تا ـ مرِى " ، يعنى " أرضُ المحبوب " أو " أرضُ الأحِبَّة " أو " الأرض التى تُحَبُّ " [2] (٤) " تا ـ كمْت " ، أو "كمْت" فقط اختصارا ، وأصل " تا ـ كمت " هو " الأرض السوداء " ، والسواد هنا على معنى الخضرة الضاربة إلى السواد ، يعنى الزروع ، فى مقابل " تا ـ دشرْت " (الأرض الحمراء) يعنى الصحراء ، ومصر كما تعلم جزيرة وسط رمالٍ يَضْرَبُ لونُها إلى الحُمرة ، كما قال

---

(١) اللفظ الدال على صفة " الأجنبى" فى المصرية القديمة هو "شماو" ، "وشاسو " ، الأول من الجذر "شم" والثانى من الجذر " شس " وكلاهما بمعنى ذهب ورحل .

(٢) يحدث فى الهيروغليفية أحيانا أن يرسم اسم المفعول غفلا من التفرقة بين المفرد والجمع . كما يُستفاد أيضا من اسم المفعول هذه الصيغة " الذى يُحَبُّ " ، " التى تُحَبُّ " .

العرب "سواد العراق " ، في مقابل باديته . وقد شاع من هذه الأسماء " تاوى " ، " تا ـ مرى " ، " تا ـ كِمْت " أو " كِمْت " اختصارا .

"مصرُ " عند أهلها كما رأيت بلغتهم هم هى الأرض، وإن تعددت النعوت . وقد "عَلِمَ " القرآنُ هذا قبلَ أن يَعْلَمَهُ أحد من الخلق أجمعين عصرَ نزوله وإلى هذا العصر ، فجاءت "مصرُ " في عدة مواضعَ من القرآن باسم الأرض كما سترى ، وسبحان علام الغيوب .

وهذا من أَبْيَنِ إعجازات القرآن التى تتناولها مباحثُ هذا الكتاب الذى نكتب .

❑❑❑

وردت " مصرُ " في كل القرآن خمسَ مرات ، جاء الاسمُ في أربعٍ منها ممنوعاً من الصـــــرف ، غَيْرَ مُنَوَّن : { **وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصرَ بيوتا** } ﴿يونس : ٨٧﴾ ، { **وقال الذى اشتراه من مصرَ لامرأته أكرمى مثواه** } ﴿يوسف : ٢١﴾ ، { **وقال ادخلوا مصرَ إن شاء اللهُ آمنين** } ﴿يوسف : ٩٩﴾ ، { **ونادى فرعونُ في قومه قال يا قومِ أليس لى مُلْكُ مصرَ وهذه الأنهارُ تجرى من تحتى؟** } ﴿الزخرف : ٥١﴾ . أما المرة الخامسة فقد ورد فيها الاسم مصروفاً ، مُنوناً بالألف نصبا ، وهى : { **وإذ قلتم يا موسى لن نصبِرَ على طعامٍ واحد فادْعُ لنا ربَّك يُخرجْ لنا مما تُنبِتُ الأرضُ من بَقْلها وقِثّائها وفُومها وعَدَسِها وبَصَلها ، قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟ اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم !** } ﴿البقرة : ٦١﴾ على خلافٍ بين مفسرى القرآن في أن "مصراً " في هذه الآية من سورة البقرة ليست هى مصر البلد المعروف ، وإنما هى بمعنى " المصر " مفرد أمصار ، أى اهبطوا من تيه سيناء إلى بلدٍ من تلك البلدان التى تُنْبِتُ أرضُها من الزروع ما اشتهيتموه ، فيكون لكم فيه ما سألتم ، لا مصرَ بالذات على وجه التحديد ، إذ كيف يُؤْمَرون بالعودة إلى مصر وقد أنجاهم اللهُ منها ؟ استند القائلُ بهذا إلى أن "مصراً " هذه التى جاءت مصروفةً في هذه المرة الخامسة ، مُنَوَّنَةً بالألف نصبا ، على خلاف المرات الأخرى ، ليست هى مصرَ العَلَمَ المؤنثَ الممنوعَ من الصرف وجوبا ، وإنما اسمٌ معنويٌ مشترك ينطبق على "أى" بلد أو

قطر . وفات هذا المفسرَ وأضرابه أن هذا ليس بدليل لأن ما كان من العلم المؤنث على زنة " هنْد " أو" مصر" يجوز فيه الصرفُ لخفته ، وقد جاء بها القرآنُ على الوجهين . وإن كانَ الأشهرُ في "مصر" هو المنعُ من الصرف . وفاته أيضا أن المصر والأمصار ليست من ألفاظ القرآن ، وإنما نُحتَت في العربية بعد نزوله ، عصرَ الفتوح وتقطيع "الأمصار" أو " تمصير" الأمصار، أي تخطيط المدن الجديدة في البلدان المفتوحة. وفاته أخيرا - بل قل فاته أولا - أن عبارة "فإن لكم ما سألتم" ليست من الله عز وجل على الاستجابة، فلم يَهبِطْ موسى ببني إسرائيل من التيه لا إلى مصر من الأمصار ولا إلى"مصرَ" نفسها التي خرجوا منها فراراً بأنفسهم ، بل قد مات هؤلاء العصاةُ في التيه ، لم يخرجوا إلى غيره ، بل ومات فيه موسى أيضا . وإنما العبارة هي من الله عز وجل على التقريع ، أي : أتطلبون الدَّنيَّة وقد أكرمكم اللهُ بإنجائكم من فرعون ، وأنزل عليكم المَنَّ والسلوى ، وفَجَّرَ لكم الماءَ من الصخرِ عيونا ، تريدون البَقْلَ والقثَّاءَ والفوم والعَدَسَ والبَصَل مما كنتم تأكلون في مصر؟ عودوا إلى مصر وفرعون إذن! أي عودوا إلى ما كنتم فيه صاغرين أذِلَّة، قد أذَلَّتْكُم بطونُكم ، وليتشفَّ منكم المصريونَ اشتفاءَ.

وردت " مصر " إذن بهذا اللفظ خمسَ مرات في كل القرآن . وليس في أي منها كما رأيت تفسيرٌ لمعنى لفظة "مصر" على منهجنا في هذا الكتاب .

ولكن القرآن المُعْجزَ يفسِّرُ اسم مصر على الترجمة من المصرية القديمة في أكثر من موضع ، أي بلفظة " الأرض" التي في "تاوي" ، "تا - مِري" ، "تا - كِمْت" ، على الإبدال من " مصر " العربية العبرانية . يفعل القرآن هذا عامدا متعمدا ، إدلالا بعلمه وإعجازه ، ما أن تَعْلَمَ أن " مصر " بلغة أهلها اسمُها " الأرض" ، وتضعَ "مصر" موضعَ " الأرض" في الآيات التي سأنتقيها لك توا ، حتى يستقيمَ لك معنى الآية على الوجه الصحيح ، الذي لا تملك أن تَعْدِلَ به غيرَه . وسبحان العليمِ الخبير ، الذي علَّم بالقلم، عَلَّمَ الإنسانَ ما لم يعلم .

□□□

وردت مادة " الأرض" في كل القرآن ٣٥٩ مرة ، تَلْمَحُ في بعضها اسم "مصر" وراء لفظة " الأرض" التي في الآية ، أتْرُكُ لك استقصاءَها في مصحفك ،

ولكنى سأدُلُّكَ على أحد عشر موضعا فى القرآن - غَيْرَ مُسْتَقصٍ - فيها الدليلُ القاطع على أن " الأرض " التى فى الآية إنما يُقْصَدُ بها اسم "مصر" صريحا ، وهى :

اولا : ثلاثةُ مواضع فى قصة "يوسف" :

- { **فلما استيأسوا منه خَلَصوا نَجيًا ، قال كبيرُهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبلُ ما فرطتم فى يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين**} (يوسف : ٨٠) ، قالها رأوبين بِكْرَ يعقوب حين استيأسوا من يوسف أن يرد إليهم أخاهم بنيامين الذى احتبسه يوسفُ معه فى مصر بتهمة سرقة صواع الملك ، أو يأخذ أحدَهم مكانه . وكان يعقوب حين أذنَ لهم فى اصطحاب بنيامين فى سَفْرَتهم الثانية إلى مصر يمتارون لأهليهم قد خَشِىَ على بنيامين من إخوته أن يفرطوا فيه مثلما فرطوا من قبل فى يوسف ، فأخذ عليهم موثقا من الله لَيَأْتُنَّهُ به إلا أن يحاط بهم {راجع يوسف : ٦٦} ، وتحدثك التوراة (تكوين : ٣٧ - ٣٨) بأن رأوبين تعهد لأبيه بسلامة بنيامين وقال له : أَقْتُلْ ابنى إن لم أَرُدَّهُ إليك . خشى أن يعود إلى أبيه فى فلسطين بغير بنيامين ، فأقسم ألا يغادر " مصر " حتى يأذن له أبوه ، أو يحكم الله له . ترى هل تستطيع إلا أن تضع "مصر" موضع " الأرض " فى عبارة رأوبين : " لن أبرح الأرض " ؟

- { **وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى ، فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين . قال اجعلنى على خزائن الأرض ، إنى حفيظٌ عليم** } (يوسف : ٥٤ ــ ٥٥} ، وأنت تعلم بالطبع أنْ ليسَ للأرضِ خزائن ، وإنما الخزائن التى أقام المَلِكُ عليها يوسف هى خزائنُ مصر . "الأرض" فى هذه الآية يعنى " مصر " ، لا مجال للقول بغيره متى عَلِمْتَ أن مصرَ بلغة أهلها اسمُها "الأرض" .

- { **وكذلك مَكَّنَّا ليوسف فى الأرض يَتَبَوَّأ منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ، ولا نضيع أجر المحسنين** } (يوسف : ٥٦) . لا تستطيع أن تقول ان الله عز وجل مَكَّن ليوسف فى مطلق الأرض ، بل مَكَّنَ له فى مصر ، يَتَبوأ من مصرَ حيث يشاء . " الأرض" فى هذه الآية هى "مصر" بلا جدال.

ثانيا : ثمانيةُ مواضع فى قصة " موسى " :

- { **وقال الملأ من قوم فرعون أتَذَرُ موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويَذَرَكَ وآلِهَتَك قال سَنُقَتِّلُ أبناءهم ونستحيى نساءهم وإنَّا فوقَهُم قاهرون** } ‹الأعراف : ١٢٧› ، والفساد فى هذه الآية بمعنى الخلل والاضطراب ، وجاء بيان هذا الخلل والاضطراب فى قولهم "ويذرك وآلهتك " ، أى أن المخشى من موسى وقومه هو أن يفسدوا الرعية على فرعون وكهنة فرعون بإثارة الشك فى عباداتهم. وليس الفساد المقصود هو " العتو " فما كان بنو إسرائيل ليستطيعوه فى مصر ، بدلالة قول " فرعون " : " إنا فوقهم قاهرون " أى هم أذلُّ من أن يستطيعوا له شيئا . " الفساد " هنا هو " إفساد " مصر على فرعونها وعلى آلهته " الأرض" هنا يعنى "مصر" .

- { **قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياءُ فى الأرض وما نحن لكما بمؤمنين** } ‹يونس : ٧٨› ، لم يستنكر آلُ فرعون أن تكون لموسى وهرون الكبرياءُ فى مُطْلَقِ الأرض بالطبع ، وإنما خشوا على الكبرياء التى لآلِ فرعونَ أن تؤولَ إلى موسى وهرون . الأرضُ فى هذه الآية يعنى مِصْر ، لا يصح القولُ بغيره .

- { **فأراد أن يستفزهم من الأرض ، فأغرقناه ومن معه جميعا** } ‹الإسراء :١٠٣› ، أى أراد فرعون أن يستفز بنى إسرائيل من مصر ، لا من مطلق الأرض . الأرضُ هنا يعنى مصر .

- { **إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلَها شِيَعًا** } ‹القصص : ٤› ، الأرضُ هنا تعنى مصر بالاسم ، لا يصح لك القول بغيره . بل فى هذه الآية الدليل الحاسم على أن القرآن يعلم يقينا أن " الأرض " اسم من أسماء مصر بلغة أهلها ، وعلى أنه يستخدم " الأرض " فى موضع " مصر " ، وإلا لألزَمَك فقهُ اللغة العربية أن تَفْهَمَ عبارة " وجعل أهلها شيعا " بأنها تعنى " وجعل أهل الأرض شيعا " لعودة الضمير الذى فى " أهلها " على لفظة " الأرض " التى قبلها . وليس هو مقصود الآية ، وإنما مقصودُها "إن فرعون علا فى مصر وجعل أهل مصر شيعا " . الأرض فى هذه الآية اسمٌ لمصرَ بلا جدال .

- { **ونريد أن نَمُنَّ على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلَهم أئمة ونجعلَهم الوارثين** } (القصص :٥) ، أى أن نَمُنَّ على بنى إســرائيل الذين استضعفوا فى "مصر" لا فى مطلق الأرض . الأرض هنا اسمٌ لمصر .

- { **ونُمكِّنَ لهم فى الأرض ، ونُرِىَ فرعونَ وهامانَ وجنودَهُما منهم ما كانوا يَحْذَرون** } (القصص: ٦) ، أى نمكن لبنى إسرائيل فى مصر ، لا فى مطلق الأرض ، بدليل قوله آنفا : "ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون" ، كل هذا فى مصر نفسها . الأرضُ هنا أيضا اسمٌ لمصر .

- { **وقال فرعونُ ذَرونى أقْتُل موسى وليَدْعُ ربَّه ، إنى أخاف أن يُبَدِّلَ دينكم أو أن يُظْهِرَ فى الأرض الفساد** } (غافر :٢٦) ، شاور فرعون ملأه فى قتل موسى ، خشيةَ الفتنة فى الدين الذى يسوسون به الدَّهْماء ، فيختل نظامُ المُلك ، وهو معنى قولِه " أو يُظْهِرَ فى الأرض الفساد " ، أى يُشيِعَ فى مصرَ الخللَ والاضطراب . الأرض هنا اسمٌ لمصر .

- { **يا قوم لكم المُلكُ اليومَ ظاهرين فى الأرض ، فمن يَنْصُرُنا من بأسِ اللهِ إن جاءنا ؟ قال فرعونُ ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيلَ الرشاد** } (غافر: ٢٩) ، استمر الحوارُ بين فرعونَ وملئه ، وانبرى لجدالِ فرعون ومقالتِه ذلك الرجلُ المؤمن من آل فرعون الذى شُهِرَ بين المفسرين باسم "مؤمن غافر" ، أى المؤمن الذى فى سورة غافر ، فَخَوَّفَهُم بسوء المآل وضياع المُلك، وحذَّرهم الافتتان بما هم فيه : لكم المُلكُ اليومَ ظاهرين فى الأرض ، أى فى مصر ، فلم "يَظْهُروا" فى غيرها. الأرضُ هنا أيضا اسمٌ لمصر "تا ـ مرى"، لا يَصِحُّ القولُ بغيرِه.

ليس فيما مرَّ بك مصادفاتٌ كما ترى ، بل هو قَصْدٌ مقصود . على أن القرآنَ المُعْجِز لا يَدَعَكَ تمضى دون أن يَنُصَّ تنصيصا فى الآية ٦١ من سورة البقرة على أن "الأرض" = "مصر" فى سياق الحديث عن الذين لم يصْبِروا فى التيه على طعامٍ واحد، فَطَلَبوا من موسى أن يدعو لهم ربَّه : { **فادعُ لنا ربَّك يُخرجْ لنا مما تُنبتُ الأرض** } ، فاستدرك عليهم موسى : { **أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم** } (البقرة : ٦١) . الأرض فى أول الآية اسم مصر بلغة أهلها (" تاوى " أو " تا ـ مرى" أو "تا ـ كِمْت ") مُتَرْجما ، ثم

مُعَقِّباً عليه فى آخر الآية باسمها العربى الصريح : اهبطوا مصرا ، أى إن أردتم ما تُنْبِتُ مصرُ فاهبطوا مصراً ، لا يَصِحُّ أن يُقال ان " الأرض " فى الآية هى على أصلها بمعنى " التُّربة " ، فلم يُردْ بنو إسرائيل أى بقل وقثَّاء وفُوم وعَدَس وبَصَل ، وإنما أرادوا ما تُنْبِتُ "مصرُ " من هذا الذى أكلوه فى مصر واعتادوه ، وإلا لكانت عبارةُ " مما تنبت الأرض " حشواً يغنيكَ عنه قولُك : فادعُ لنا ربك يُخرجْ لنا البَقْلَ والقثَّاء والفُومَ والعَدَسَ والبَصَل .

لفظة " الأرض" حين يُراد منها "مصر" ، هى ترجمةٌ من القرآن المعجز لمعنى اسم مصر بلغة أهلها على عصر موسى : " الأرْضَان" (تاوى) ، أو " أرضُ الأحِبَّة " أو "الأرض التى تُحَبُّ " (تا ـ مرِى)، أو "الأرضُ السَّوادُ " التى تُنْبِتُ الزرعَ (تا ـ كِمت). وسبحان العليم الخبير .

(٣٦) سيناء

سيناء فى القرآن بُقْعَةٌ شَرُفَت من دونِ بقاعِ الأرض جميعا بأنها الأرضُ التى كَلَّمَ اللهُ عليها موسى تكليما ، كما شَرُفَ ترابُها من دونِ ترابِ الأرض جميعا بتجَلَّى الله عز وجل بنوره على جبلٍ ما فى نواحيها فجَعَله دكًا : إنها وادٍ مُقَدَسٌ بنص القرآن ، يكفيك فى قداسته هذا الكلامُ ، وهذا التَّجَلِّى .

ومن المصريين اليوم من يَغْفَلُ عن هذا ، بل منهم من يفوتُه أنه قد كان فى مصر مَوْلِدُ موسى عليه السلام ، وعلى صَفْحَةِ نيلها تَهادىَ به التابوتُ رضيعا ، وكان على أرضها مَبْعَثُهُ من سَيْناء ، وفى بحرها انشقَّ له البحر ، وكان فى التيهِ مَحْياهُ ومَماتُه ، فَدُفِنَ فى ترابِ سَيْناءَ لا يُعْرَفُ لهُ قبر .

صلواتُ اللهِ وسلامُه على جميعِ رُسلِهِ وأنبيائه، وعلى كُلٍّ من تَبِعَهُم بإحسان.

□□□

قال عز وجل : { **وأنزلنا من السماءِ ماءً بقَدَرٍ فأسكنَّاهُ فى الأرض ، وإنا على ذَهاب بِهِ لقادرون. فأنشأنا لكم به جناتٍ من نخيلٍ وأعناب، لكم فيها فواكه كثيرة ، ومنها تأكلون . وشجرةً تَخْرُجُ من طور سيناء تَنْبُتُ بالدُهْن وصِبْغٍ للآكلين** } (المؤمنون : ١٨ ــ ٢٠) .

وقال عز وجل أيضا: {**والتين والزيتون . وطور سينين**} (التين١ ــ ٢).

هذان فحسب هما الموضعان اللذان ذكَرَ القرآنُ فيهما اسم "سَيْناء" : ورد فى الأول على ما شاعت به (سَيْناء)، وجاء فى الثانى بلفظ"سِينِينَ" التى انفردَ بها القرآن . على أن "سيناء " لم ترد فى الموضعين مُنفَرِدَة ، وإنما وردت فى كلا الموضعين مضافاً إليها "الطور" وهو " الجبل " فى العربية وفى الآرامية أيضا .

ليس المقصودُ فى القرآن إذن هو " سَيْناء " بالذات ، وإنما المقصودُ فى القرآن هو ذلك " الطور" الذى فى سيناء ، أو المنسوب إلى سيناء .

والذى ينبغى التذكير به أن الجغرافيين العرب حتى الثُلُث الأول من هذا القرن العشرين لم يقولوا قط " سيناء " منفردة فى تسمية ما هو معروف الآن باسم "شبه جزيرة سيناء" ، وإنما قالوا دائما فى تسميتها "طور سيناء" أو "طور سينين"، على ما وردت فى القرآن، تعميما لاسم هذا الطور المبارك على كُلُ شبْه الجزيرة، ولكننا فى هذا القرن نَتَعالم ، فَنُسْقط فصيحَ العربية لنستبدلَ به رطانةَ الأجنبى Sinai المنقولةَ حُذْوُ النَّعْلِ بالنعل عن العبرية "سيناى" ، أى " سَيْنَاء " ، كما قال بعضُ متعالى الأساتيذ على ما مر بك من " تَفاصُحِهم" إن صحيحَ " قيصر" هى "سيزار" .

□□□

أما لفظةُ "طُور" العربية ـ الآرامية ("هار" العبرية) ، فهى عربيا تعنى مُطْلَقَ الجبل ، أو هى الجبلُ المُنْبِتُ للشجر خاصةً . وعلى هذا الوجهُ يُفْهَمُ قولُ الله عز وجل : {**وشجرةً تَخرجُ من طُور سيناء تَنْبُتُ بالدُّهْنِ وصِبْغٍ للآكلين** } (المؤمنون : ٢٠) فى وصف هذه الشجرة بأنها شجرةٌ تَنْبُتُ فى سُفوحِ هذا الطور المبارك. وتفهم أيضا أنها شجرةُ " الزيتون" بالذات ، لأنك لا تَعْلَمُ فى النُّبْت شجرةً تُنْبتُ الدُّهْنَ وتُنْبتُ "الصِّبْغَ" معا (وهو الإدام يُؤْتَدَمُ به) إلا ثمرةَ الزيتون التى تُؤْكَلُ إداماً وتُعْصَرُ زَيْتاً ، لا خلافَ على هذا بين مفسرى القرآن . وتستذكر أيضا قول الله عز وجل يَضْرِبُ المثلَ لنوره : { **الله نورُ السموات والأرض ، مَثَلُ نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباحُ فى زجاجة ، الزجاجةُ كأنها كوكب دُرِّى ، يُوقَدُ من شجرة مباركةٍ زَيْتُونة لا شرقيةٍ ولا غربية ، يكادُ زَيْتُها يُضىءُ ولو لَمْ تَمْسَسْهُ نار ، نورٌ على نور** } (النور : ٣٥) (١) .

وقد وردت لفظةُ " الطور" فى كل القرآن عشرَ مرات ، ستٌّ منها فى هذا الطور المعنى بالنص، طور سيناء أو طور سينين : (مريم : ٥٢ ، طه : ٨٠ ، المؤمنون : ٢٠،

(١) انظر تفسير القرطبى لهذه الآية وما قاله المفسرون فى وصف هذه الزيتونة المباركة بأنها " لا شرقية ولا غربية " وقولهم ـ وهو جيد ـ انها شجرةٌ فى صحراء ومُنْكَشف من الأرض ، لا يستُرُها عن الشمس ساترٌ من جهة الشرق أو من جهة الغرب، لا إلى هذا ولاَ إلى ذاك ، وهو أجودُ لزيتها .

القصص : ٢٩ و ٤٦ ، التين : ٢) ، وثلاثٌ تُرَجِّحُ أنها فيه أيضا ، أعنى ذلك الجبل الذى " نَتَقَهُ " اللهُ فوق بنى إسرائيل (البقرة : ٦٣ و ٩٣ ، والنساء : ١٥٤) ، والعاشرة لا تشك أنها فيه أيضا ، الذى أقسم الله به : { **والطور . وكتاب مسطور** } (الطور : ١ ــ ٢) .

ووردت " الطور" بلفظ " الجبل " ، أى نفس الطور المعنى ، ثلاثَ مرات { **ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك ، قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا** } (الأعراف : ١٤٣) ، { **وإذ نتقنا الجبلَ فوقهم كأنه ظُلة** } (الأعراف : ١٧١) .

ومن عجائب القرآن أنه يضع لفظة الغَرْبى موضع الطّور ، مُرادِفاً مطابقاً له ، فى قوله عز وجل : { **وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر** } (القصص: ٤٤) يعنى إذ قضينا إلى موسى الرسالة ، ثم يكرر الغربى بلفظ الطور لا يَفْصِلُ بين القولين إلا آية : { **وما كنت بجانب الطورِ إذ نادينا** } (القصص : ٤٦) ، وكأن الغربىَّ بذاتها وبمحضِ لفظها ، اسمٌ موضوعٌ لهذا الطور المبارك .

وقد ظن بعض المفسرين (راجع تفسير القرطبى لهاتين الآيتين) أن " الغَرْبىَّ " خلاف " الطور" ، فقالوا إن الطور هو موضع المُناداة الأولى (ليلةَ آنَسَ موسى من جانب الطور ناراً فأراد أن يقتبس) ، أما " الغربىُّ " فهو موضعُ إنزال التوراة وتلقى الألواح فى مُواعَدَةِ موسى ثلاثينَ ليلةً أَتَمَّهُنَّ بعشر . ولا يصح هذا الذى قاله المفسرون ، لقول الله عز وجل فى تعيين موضع المُواعدة : { **يا بنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدّوِكم وواعدناكم جانبَ الطورِ الأيمنَ** } (طه : ٨٠) ، فجانب الطور الأيمنُ إذن وجانبُ الغربى سواء ، والغربىُّ والطورُ واحد . وقد حار أيضا مفسرو القرآن فى وصف هذا الجانب من الطور بأنه " الأيمن " التى جاءت فى كل القرآن ثلاثَ مراتٍ فقط ، كُلُها فى وصف جانب هذا الطور أو شاطئه ، والجانب والشاطىء واحد ، ثم وَصْفِهِ بأنه "الغربُى" ، التى وردت فى كل القرآن مرةً واحدة فقط ، هى فى اسم هذا الطور المبارك أو جانبه ، فقالوا إن الجبال لا يَمينَ لها ولا يَسار، ولا غَرْبَ ولا شَرْق ، وإنما هو الذى على يمينِ موسى ، وإلى الغربِ من موسى .

والذى لم يعلمه هؤلاء المفسرون ، وما كان لهم بالطبع هم والخلق أُجْمَع أن يعلموه قبلَ أواسط القرن الماضى وأوائل هذا القرن العشرين ، وعَلِمَهُ الذى هو بكل شيءٍ عليم ، أن القرآن ها هنا يُرادفُ بين الأيمن والغربى إدلالاً بإعجازه ، وتدليلا على بالغِ فقهه بِاللغة المصرية القديمة ، لغة " شبه جزيرة سيناء " على عصر موسى ، لأن اليمين عند المصريين القدماء هو " الغرب" ، يعبرون عنهما بلفظٍ واحد : أُمنت (قارن فى المصرية القديمة "وِنمى" يعنى اليد اليمنى) ، واليسار عندهم هو " الشرق " يعبرون عنهما بلفظٍ واحد : يَابت (قارن فى المصرية القديمة "يابى" يعنى اليد اليسرى) ، على خلاف ما نفعل نحن الآن فى تعيين الجهات الأصلية الأربع : نستقبلُ الشمال ونستدبرُ الجنوب فيكون الشرق على اليمين والغرب على اليسار ، وكأنهم كانوا يستقبلون الجنوب [1] ويستدبرون الشمال ، فيكون الغرب على اليمين والشرق على اليسار .
والغروب كما تعلم هو أفول الشمس واحتجابها وراء الأفق ، فاشتق المصريون معنى "الغرب " من الجذر المصرى أمن وهو فى لغتهم بمعنى الاختفاء والاحتجاب ، ومن هذا المعنى أيضا اشتق المصريون اسم معبودهم " آمون " (أو بالأحرى " آمان" كما نطقها البابليون على ما مر بك) الذى معناه المُحْتَجِب أو " الغربى" صيغةُ المذكر من أمنت يعنى الغرب أو الغربى ، أو هو " الغارب " ، فِعْلَ الشمس التى تَأفل فى الأفق الغربى فتختفى وتحتجب : إنه الظاهر والباطن ، الذى يُشرِق ويَغْرُبَ ، ومع ذلك فهو دائم الوجود ، دائمُ الفَيض ، عميمُ النعم . ومن هنا تَلْمَس فى " شركِ المصريين " أصلاً قديماً من التوحيد ، ولكن الكهنوت يَرْمُزُ فيَطْمِس . ثم يُعَدِّدُ فيُفسِدُ ويُضِلُ . مثلما استولد " رَع " أى الشمس ، من الإله الخَفِىِّ المحتجب " آمون " ، وليس " آتون " أى قرص الشمس ، عن هذا ببعيد .

وربما قلت إن هذا الجبل " الغربى " الذى فى سيناء كان عند المصريين القدماء أيضا جبلا مقدسا ، ينسبونه إلى آمون "الغَرب" أو "الغربِّى" على ما مر بك . ولكن ليس لديكَ دليلٌ على هذا من المصرية القديمة ، أو مما عُرِفَ من المصرية القديمة .

---

(١) نظير هذا قولك فى مصر " الجهة القبلية " تُريد الجنوب ، حيث بيتُ الله الحرام فى مكة ، "قبلة " المسلمين أجمع ، وهى فى مصر إلى الجنوب من المُصلى . وربما استدبر المصريون القدماء الشمال واستقبلوا الجنوب ، حيث توجد "طيبة " مركزُ عبادَةِ " آمون " .

على أن فى القرآن إشارةً إلى هذا فى قول الله عز وجل يخاطب موسى : { **إنّى أنا ربُّك فاخْلَعْ نعْلَيْكَ ، إنك بالوادى المقدس طُوًى** } (طه : ١٢) ، وكأنَّ هذا الوادى المبارك تَقَدَّسَ من قبلِ أن يَطَأَهُ موسى ، أعنى تَقَدَّسَ فى ماضٍ بعيدٍ فى القرون الأولى ، يومَ كانت مصرُ قبل شِركِها بلداً مُوَحِّدا يَعْبُدُ الواحدَ الأحد . ربما كانت "طُوَى " هذه اسما من المصرية القديمة لهذا الجبل ، وربما كانت " طُوىً " على ما قال المفسرون لهذه الآية (راجع القرطبى) عربيةً من الجذر " طَوىَ " بمعنى " مَرَّتَيْنِ " ، فيكون المعنى : الذى تَقَدَّسَ الآن ، وتَقَدَسَ من قبل .

والذى يجب أن تعلمه أن من أسماء الجبل الذى فى سَفْحِه زَرْعٌ فى اللغة المصرية القديمة ، لفظةً تُرْسَمُ فى الهيروغليفية "ضو" ، وتُنْطَقُ فى القبطية " تُوُو " Toou وربما كان الأصل البعيد فى المصرية القديمة هو " ضُوَا " أو " طُوَا " .

وسبحان علام الغيوب .

□□□

لا يعرف علماءُ المصرية على التدقيق اسماً فى تلك اللغة موضوعاً على التخصيص لشبه جزيرة سيناء بحدودها المعروفة الآن ، وإنما الذى يعرفونه من اللغة المصريةِ القديمة هو لفظة " شَاسُو" ، عَلَماً على هذه الصحراء التى تَرْبِطُ مصرَ بجيرانها فى الشرق ، أى بالشام . والراجح أن المصريين ما كانوا يُفَرِّقُونَ بين الصحراءِ " شَرْقىِّ السويس " ، وبين الصحراء " غَرْبِىِّ السويس " ، فلم تكن ثَمَّة قناةٌ تفصلُ ضفتاها بين الصحراوين ، بل كانتا معا صحراءَ واحدةً ممتدة ، تذهب فيها وتجىء جماعاتٌ من البَدْوِ الرُّحَّل ، أَسْمَوْهُم بنفس هذا الاسم أيضا " شاسو " من الجذر المصرى " شِس" بمعنى ذهب ورحل ، وهم الذين نسميهم نحن الآن " بَدَو سيناء " .

ولا يعرفُ علماء اللغة المصرية القديمة أسماءَ بتلك اللغة لمواقعَ داخلَ شبه الجزيرةَ يَتَقارَبُ نطقُها مع " سيناء " العربية أو "سيناى " العبرية ، يمكن أن يُنْسَبَ إليها الطُّورُ المبارك ، بل إن " جبل موسى " ـ " حُوريب " فى التوراة ـ ليس مقطوعاً على وجه اليقين بأنه هو بالذات الجبلُ المعنى .

والذى يعنينا بالدرجة الأولى فى هذا الكتاب هو تفسيرُ لفظةِ "سيناء" ، لا تعيينُ موقعِ ذلك " الطور " الذى فى سيناء ، أو المنسوب إلى سيناء .

□□□

فى قراءة "سيناء" وجهان : الأول بفتح السين سَيناء، على قراءة الكوفيين ومنها قراءة "حَفْص" التى يَقرأ بها المصريون فى مصاحفهم ، والثانى بكسر السين ، سِيناء ، فى قراءة غيرهم . وهو يُقارِبُ النُّطْقَ الدارجَ فى العامية : سِينا ، بالقصر بدلَ المد ، وبكسر السين لا بفتحها . وهذا يذكِّرُكَ بلقب الفيلسوف العربى العَلَم : "ابن سينا" .

ومن المصريين من يتفاصح فيلزِمُكَ بفتح السين فى " سَيْناء " ، مُخَطِئاً إياك فى كسرها ، وإنما هو انحيازٌ لإحدى القراءتين فحسب . والراجح عندى أن كسر السين فى سِيناء أصوبُ وأفْصَح ، لقوله عز وجل على الإبدال من "سيناء" : سِينين ، فى الآية ٢ من سورة التين " والتينِ والزيتون . وطورِ سِينين " ، وكأنَّ أصلَ الاسم سِين ، جاء بصورة جَمْعِ السالمِ المذكر مجروراً بإضافة الطُور إليه : سِينين . أو هو مُفْرَدٌ على أصلِه جُرٌّ بالكسر منونًا ، أى سِينٍ مع إشباع الكسرة قبل التنوين فتؤول الكسرة إلى الياء : سِينين ، على المُجانَسة مع رؤوس الآيات فى سورة " التين " ، كما قال عز وجل : {**سلام على إلْ ياسِين**} (الصافات : ١٣٠) ، والأصل إلياس .

وقد جاءت " سين " هذه فى التوراة عَلَما على بَرِّيةٍ فى صحراءِ سيناء : " مِدْبار سين " (النص العبرانى : خروج ١٨٦) ـ و " مِدْبار" عبريا يعنى البَرِّيةَّ ـ يُطْلِقُهُ شُرَّاحُ التوراة على صحراءَ غربيَّ جبلِ سيناء باتجاه الساحل الشرقى لخليج السويس الذى عَبَرَهُ بنو إسرائيل وغَرِقَ فيهِ فرعون وجنوده ، ومن شُرَّاحِ التوراة من يقول إن " سيناى " أى جبل سيناء ، هى صفةٌ على النسب إلى "سين " ، فهو الجبل السِّينى ، أو جبلُ سِين، يعنى الجبلُ الذى فى بَرِيَّـةِ " سين " . والعبرانيون لا يقولون " هارسِيناى " أى جبلُ سِيناى ، يعنى الجبل السِّينى، وإنما يقولون اختصارا "سِيناى" أى "السِّينى" ، يعنون الجبلَ نفسَه لا المكانَ المنسوبَ إليه . أما "سيناى " فى العبرية المعاصرة فهى عَلَمٌ الآن على شِبه الجزيرة كمها ، مأخوذٌ من اسم هذا الجبل المقدس، لا من بَرِّيَّـةِ "سين".

أفتكون "سين " هذه عبرية ؟ علماءُ التوراة على هذا كدأبهم فى " الاختصاص" بتسمية المواقع والأعلام بلغتهم هم وإن لم يكن لهم بها عهد ، أو انتحالِ التسميات من لغتهم هم مهما كانت ظاهرةَ الافتعال. دليلُكَ فى هذا أنهم لا يجدون فى لغتهم ما يشتقون منه "سين" هذه، فيقولون إنها من الآرامية ، ومعناها " الطين " ، فيكون معنى "سيناى" هو الجبل الطينى، أو جبل الصلصال . فتندهش كيف جاء الآراميون إلى هذا المكان فأسْمَوْهُ بلغتهم فى غفلةٍ من المصريين أصحاب الأرض؟ على أن فى اللغة المصرية القديمة أيضا "سين " بنفس المعنى ، الطين أو الصلصال ، فتفهم أن العبرانيين أخذوا " سين " بمعنى الطين والصلصال من المصرية القديمة رأسا ولم يأخذوها من الآراميين .

بل من اللغويين أيضا من قال بأن "سين " هذه بابلية ، اسما من البابلية لمعبودهم "سين " الإله القمر ، وأنَّ سيناء كانت موضعا لعبادة القمر . وهذا بعيد .

وربما شجع هذه المقولة أن " السَّنا " عربيا يعنى ضوء القمر ، أخذوها من مِفسرى القرآن الذين حاولوا تفسير "سيناء " بالسَّنَا والوَضَاءة ، فالتقطها كدأبِهمُ المستشرقون .

ومن علماء التوراة من يَظُنُّ أيضا أن "سِين " هذه منسوبة إلى "سِنِى " العبرية (بكسر السين والنون ، والياءُ خاملة ، وظيفتُها إشباعُ كسرةِ النون ، أعنى أن الياء فيها تُنطقُ ألفاً مُمالة ، كما لو نَطَقْتَ بالفرنسية Séné) ، وهو فى التوراة اسمُ الشجرة التى نُودى منها فى البقعة المباركة بشاطىء الوادى الأيمن : { **فلما أتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة** } (القصص : ٣٠) ، تَنُصُّ الآيةُ على " الشجرة " ، ولا تُبَيِّنُ ما هى . ولم يهتدِ علماءُ التوراة إلى أصلٍ عبرىٍ فى اشتقاق" سنيِ" هذه يُجمِعُونَ عليه . قالوا ربما إنها من الجذر العبرى "سَنَنْ " ـ مكافىء "سَنَّ " العربى ـ بمعنى شَاكَ وأَحَدَّ وسَنَّن، فهو نَبْتٌ شوكىٌّ ذو أشواك، وانتهى المترجمُ العربى للتوراة إلى أنها شجرةُ العُلَّيْق . والعُلَّيْقُ كما تعلم أنواع ، منها "تُوت العُلَّيْق" ، وهو الفرامبواز ، Framboise فى اللغة الفرنسية ، و Raspberry فى اللغة الانجليزية . وعلماءُ النباتِ العرب يقولون لك إن هذا الفرامبواز ليس أصيلا فى بلادنا ، ناهيك بأن يكون أصيلا فى سيناء ، وإنما هو مستورد ، النَّبْتُ واسمُه ،

لايَصحُّ أن يكون على عصر موسى عليه السلام . ولكن المعجم العبرى الحديث لألفاظ التـوراة " هَمّلُون هِحَداش لَتَناخ " (وهو من مـراجع هذا الـكتـاب) يَنُصُّ فى تفسـيـر "سِنِى" على أنه الفرامبواز ، فـيقول فى تفسيره : سِيح پِطِل قَدُوش ، يعنى شجيرة الفرامبواز المقدسة ، ونسيجُ العبارة العبرية ذاتُه يُوحى لك بالتكلف والافتعال، لأن "پطِل" العـبرية هذه بمعنى " فـرمبـواز " ليست عبرية ، أعنى أنها ليست من عبرية التوراة ، وإنما هى من العبرية المستحدثة ، استحدثوها بعدما رأوا الفرمبواز فى أرض الشّتات وأكلوه . وإضافةُ صفة " المقدسة " إلى تلك الشجيرة ، " قَدُوش" ، يَدُلُّكَ على أن هذا النَّبْتَ المقدس المسمى فى التوراة ، نَبْتٌ يُوجَدُ فى الذهن والتصور ، ولا يوجد فى الطبيعة ، فلا يأكل منه الناس ، وهذا هو الواقع ، فلا وجودَ لنَبْتٍ فى العبرية باسم "سِنِى" إلا فى التوراة . لهذا تَحَرَّزَ المعجمُ الثنائى عبرى ـ فرنسى " لاروس" من تفسير "سِنِى" بلفظ الفرمبواز على التعيين ، وإنما قال : Buisson d'epines أى شُجَيْرَةُ أشواك ، لا يحدد ما هى . كذلك تحرز المترجم الانجليزى للتوراة ، بل كان أشدَّ تَحَرُّزا ، فى ترجمته "سِنِى" ، فاكتفى بقوله Bush أى " شجيرة " ، لا يزيد . والقرآن على هذا كما مر بك : إنها الشجرة لا يسميها ولا يحدد ما هى . وهذا من إعجاز القرآن كما سترى ، الذى لم يلتفت إليه المفسرون الذين خاضوا فى تعيين اسم الشجرة (راجع تفسير القرطبى للآية ٣٠ من سورة القصص) ، فقالوا " سَمُرة " " عُنَّاب" ، "عَوْسَج" ، " غرقَد " ، بل قالوا " شجرة العُلَّيْق" بالنص ، متابعةً لعلماء أهل الكتاب ، ثم استراحوا لتفسيرها بالغرقد ، استئناسا بحديث النبى صلى الله عليه وسلم الذى خَرَّجَهُ مسلم فى صحيحه وجاء فيه أن الغرقد من شجر اليهود : " فإذا نزل عيسى وقتل اليهود الذين مع الدجال فلا يختفى أحَدٌ منهم خلفَ شجرةٍ إلا نطَقَت وقالت يا مُسلِمُ هذا يهودىٌ ورائى ، تعالَ فاقْتُلْه ،إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود ، فلا يَنْطِق" . وليس هذا الحديثُ على صحته بحُجةٍ للغرقد كما ترى ، إذ ليس لشجرةٍ بُورِكَتْ من الله عز وجل : { **فلما جاءها نودى أن بُورِكَ مَنْ فى النار ومَنْ حولها** } (النمل : ٨) أن يَخْرُجَ من بِذرتها ظَهِيرٌ للذين ظلموا .

هذا مُجْمَلُ ما قيل فى "سيناء " شرقاً وغربا .وهو كما رأيت لا يَصْمُدُ للنقد ، ولكنك تعود فتقول إن اسم بَرِيَّةِ سِينِ الذى فى سفر الخروج لم يأتِ من فراغ : إنه اسم

البقعة التى يوجد بها الطورُ المبارك ، وإليها يُنْسَب . ولكنه كما كانَ عليكَ أن تَفْتَرِضَ من قبل ، عَلَمٌ على أرضٍ بلغة أصحاب الأرض .

❑❑❑

ليست "سِنِى" العبرية هذه بعبرية ، وليست هى أيضاً عربية ، وإنما هى مصريةٌ هيروغليفية . ليست هى العُلَّيْق أو القَرامبواز ، وليست هى أيضا بالعُنَّاب أو السَّمُر أو العَوْسَجِ أو الغرْقَد كما تكلَّمَ فيها مفسرو القرآن ، وليست أيضا من السَّنا والوَضاءة على النسبة إلى القمر كما قال مستشرقون يتكئون على أهل التفسير الأوائل . ولكن "سِنِى" هى كما قال القرآن ، مُطْلَقُ الشَّجَرة .

ومطلق الشجرة فى المصرية القديمة هو " شِنْ " يصطلح علماءُ تلك اللغة كما مر بك على نطقها مكسورةَ الشين ساكنةَ النون ، لا يَجزمون .

والعبريةُ كما مر بك تُخالفُ بين الشين والسين : ما كان بلغة غيرهم شيئاً قَلَبُوهُ إلى السين ، والعكس ، فلا تَستبعدُ أن ينطقوا " شِنْ " المصرية القديمة هذه "سِنْ" وتجىء منها فى التوراة "سِين " اسمُ تلك البَرِيَّة ، " سِينِى" اسمُ ذلك النَّبْت .

وتَحَرَّفَ هذا وذاك على شُرَّاح التوراة ، فظنُّوا "سِنِى" من "سنَا " العبرية بمعنى الشوكة ، وأخذوا "سِين" اسم تلك البرِّية ، من "سِين" الآرامية بمعنى الطين .

وأنت لا تتصور بالطبع أن تكون شبهُ جزيرةِ سيناء على عصر موسى مَفَازَةً بلا أعلام ، وإنما أنت تقطع بأنه قد كان فى شبهِ الجزيرة قبلَ عصرِ موسى بقرونٍ لا يعلمُها إلا الله مواقعُ ومنازل سَمَّاها أصحابُ شبهِ الجزيرةِ بلغتهم هُم ، لا ينتظرون عُبُورَ بنى إسرائيل إليها من "بحر القُلْزُم" (خليج السويس) ليُسمُّوها بلغتهم العبرية ، شأنَ الرَّحالة الأوروبيين فى عصرِ الكُشوف الجغرافية . بل قد كانت للمصريين فى سيناء محاجرُ ومناجم ، وكانت لهم فى سيناء مخافرُ وشرَطُ حُدود ، وكانت لهم عَبْرَ سيناء حملاتٌ وغزَوات ، ولا يحدثُ هذا كُلُّه على مدارِ التاريخ دون أن تكونَ فى سيناء مواقعُ ومنازل أسماها المصريون أنفسُهُم قبلَ مجىء بنى إسرائيل إلى مصر فى ضيافة يوسف بإذنٍ من ذلك الملك الذى جَعَلَهُ على خزائن الأرض .

وأنت لا تتصور بالمثل أن تكون سيناء كُلُّها صحراء لا نَبْتَ فيها ولا زَرْع ، وإلا لَخَلَت على مدى التاريخ من بدوٍ يَغدون فيها ويروحون فى طَلَبِ الكلأ والمَرْعَى .

ولكنك تعلم اليوم ـ بل وتَرى رَأْىَ العين ـ أن المطرَ ربما هَطَل على مواقعَ فى شبه الجزيرة سُيولا ، هى المَدَدُ لتلك المياه الجوفية التى يَسْلُكُها البارى عز وجل ينابيعَ فى الأرض ، ثم تَتَفَجَّرُ منها حيث يشاءُ سبحانَه العيونُ والآبار ، ومنها ـ وهو الذى يعنينا هنا ـ " عيونُ موسى " فى جنوبى شبه الجزيرة قُبالةَ خليج السويس ، حيث عَبَرَ بنو إسرائيل . لا تَخْلُو سيناءُ إذن من واحاتٍ مُخْضَرَّة ، ولا تَخْلُو بالأخص من نخيلٍ وزيتون .

ولكن سفر الخروج (الفصل ١٦) يقول لك إن بنى إسرائيل عبروا البحرَ فبلغوا "برِّية سين " بعد خمسة عشر يوما من عبورهم بحر القُلْزُم (خليج السويس) ، فأعوزَهُم فى تلك البرية الماءُ والطعام ، وتذمَّروا على موسى وهرون : " ليتنا متنا بيد الرب فى أرض مصر ، إذ كنا جالسين عند قدور اللحم ، نأكلُ خبزا للشِّبَع ، فإنكما أخرجتمانا إلى هذا القفر لكى تميتا كل هذا الجمهور بالجوع " (خروج ١٦/٤) .

فكيف يجوز تسميةُ القفر باسم "سين" على معنى " الطين " آراميةً أو مصرية ؟ بل كيف يجوز تسميةُ هذا القفر باسم "سين " المتحوِّرة عن " شِنْ " الهيروغليفية ـ كما نقول نحن ـ على معنى " الشجرة " ؟ أفى القفر ثَمَّ طينٌ أو شجر ؟

الذى أقول به أنا هو أن "سين " هذه ليست منسوبةً إلى طينتها أو شجرها ، وإنما هى بالأحرى منسوبةٌ إلى هذا الجبل المبارك ، الذى تنتهى عنده تلك البرية فى وادٍ مقدس ، فى سفحِ "طور" يُنْبِتُ الشجر .

والصفةُ على النِّسَب تجىء فى الهيروغليفية ـ مثلما تجىءُ فى العبرية والعربية ـ بإضافة الياء فى آخر الاسم المنسوب إليه ـ غير مُشَدَّدة ـ فتقول بالهيروغليفية شِنى (من شِنْ) تُريدُ الأشْجَر ، ذو الشجر . وليست " شِنِى " الهيروغليفية هذه عن "سِنِى" العبرية ببعيد .

ومن هنا تُفْهَمُ عبارةُ سفر الخروج فى النص العبرانى : "مِتُوخْ هَسِّنى " (خـ ٣/٤) لا على أنها " من وَسَط العُلَّيْقَة " كما قال المترجم العربى ، ولكن على أنها "من وَسَط الشجرة " كما قال القرآن : { **فلما أتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة** } (القصص : ٣٠) ، أى نودى من الشجرة التى فى شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة ، أى الوادى المقدس "طُوَى" . وشاطىءُ الوادى الأيمن يعنى شاطىء الوادى من جهة الغرب ، أى الشاطىء الغربىّ كما

مر بك ، لا حاجة بك إلى القول كما قال المفسرون الأوائل بأنه الذى على يمين موسى أو إلى الغرب من موسى : إنه الشاطىءُ المواجهُ لبرِيَّةِ "سين" الواقعة بين غربيِّ الطور المبارك وبين شرقيّ خليجِ السويس .

على هذا يكون معنى " طُور سيناء " هو : طور الشجْرَاء ذاتِ الشَّجَر ، أو هو "طُورُ الشَّجَرَة " المَعْنِيَّة ، لا أكثرَ ولا أقل .

والقرآنُ ـ على منهجه فى التعريب ـ يأتى بـ " سيناى " العبرية على العَلَمِيَّة التى ثَبَتَت لها فى التوراة ، فيقول "سيناء " ، ولكنه يَعْلَمُ ما لم يَعْلَمْهُ شُرَّاحُ التوراة ، وهو أن سيناء بلغة أصحابِ الأرض أصْلُها من "الشَّجَر" فَيُرادف بين الشجرة وبين "سيناء" فى قوله عز وجل : { **وشجرةً تَخرجُ من طُور سيناء** } (المؤمنون : ٢٠). وسبحانَ العليم الخبير .

وقد مرَّ بك ما قلناه فى تفسير عدول القرآن عن "سيناء " إلى "سِينِين " فى الآية ٢ من سورة التين ، فلا نَعودُ إليه .

❑❑❑

أما ما هى تلك الشجرة ـ والله عز وجل بغيبه أعْلَم ـ فنحن نُرَجِّحُ أنها شجرةُ الزيتونِ بالذات ، استدلالا بوصفه عز وجل تلك الشجرة "التى تَخْرُجُ من طور سيناء" بأنها "شجرة تُنْبِتُ بالدُّهْنِ وصِبْغٍ للآكلين" ، ولا يَصحُّ الجمعُ فى الإنبات بين هذا وذاك إلا فى ثمرة الزيتون ، واستئناسا أيضا بالترادف بين " الزيتون " وبين " سينين " فى قوله عز وجل : { **والتين والزيتون وطور سينين** } (التين : ١ ـ٢) ، وجمعا بين قوله عز وجل فى إحلال البركة على تلك الشجرة التى فى سيناء : { **فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها** } (النمل : ٨) ، وبين قوله عز وجل فى ضرب المثل لنوره : { **المصباحُ فى زجاجة ، الزجاجةُ كأنها كوكبٌ دُرِّىٌ ، يُوقَدُ من شجرةٍ مباركةٍ زيتونة** } (النور : ٣٥) .

وقد مر بك أن سيناء لا تخلو من نخيلٍ وزيتون ، ولكنها بالقطع ـ عصرَ نزولِ التوراة على الأقل ـ كانت تخلو البَتَّة من تُوتِ العلَّيْق أو الفَرامبواز ، على خلافِ ما ذَهَب إليه أهلُ الكتاب ، أصحابُ التوراة .

وسبحان علام الغيوب ، لا يَعْزُبُ عن عِلْمِه مِثقالُ ذَرَّةٍ فى السمواتِ والأرض .

(٣٧) التوراة

" التَّوراة " ، فى القرآن ، تعريبٌ مُفَسَّرٌ للفظة " تُورا " العبرية ، اسم الكتاب الذى أنزل اللهُ على موسى .

وتُنطَقُ " تورا " العبرية مَداًّ بالألف بعد الراء، حين تَنفَرِد ، وتُزادُ فيها التاء حين تُضاف إلى مضافٍ إليه ، فتقولُ بالعبرية " تُوراتْ موشِيه " ، وتعنى " تَوراةُ موسى" . أما إن أَضَفتَ إلى " تورا" أداةَ التعريف العبرية " ها " ، فأنت تَنْطِقُها " هَتّورا " ، تُريد " التوراة " مُعَرَّفَة بالألف واللام .

❑❑❑

وقع فى وَهْمِ الذين لا يعرفون العبرية من المتعالمين فى المجتمع المسلم ـ الذين يأنَفُون أو يَفْرَقُون من إعمال المسلمين القرآنَ دستورا لهم فى مجتمعاتهم ـ أعنى هؤلاء العلمانيين المُتَأوْرِبين فى المجتمع المسلم الذين يَكِدُّون الذِّهْنَ فى تأصيلِ مقولة المُباعَدَةِ بين القرآن والسياسة وتسويدِ الصحائف فى إفلاس " الإسلام السياسى " ـ وقع فى وَهْمِ هؤلاء أن " تُورا " العبرية ، أى التوراة ، معناها بمحض لفظها العبرى " الشريعة " ، أما القرآن فهو كتابُ هُدَى ورحمة ، لا يَصحُّ أن تَتخَّذَ منهُ دستورا . يُريد هذا الكاتب إفتاء المسلمين بألا حرجَ عليهم فى المُباعَدَةِ بين القرآن والسياسة فى مجتمعهم لأن القرآنَ كتابُ هدايةٍ وإرشادٍ فحسب ، ليس بشريعةٍ كالتوراة . وربما تَفَكَّهْتَ معه فأوْجَبْتَ عليه بحكم منطقه هذا أن يتصدى لإفتاء يهودِ هذا العصر بأن يُعْمِلوا التوراةَ فى السياسة لا يحيدون عنها إلى غيرها ، لأن التوراة هى الشريعة .

وليس هذا بشيءٍ كما سترى ، وإنما بَنَى الكاتبُ مقولَتهُ على ما وَجَدَه فى بعض معاجمه الفرنسية أو الانجليزية التى تُفَسِّرُ لفظة " تُورا " بلفظة Loi الفرنسية ولفظة

Law الانجليزية . وهو تفسيرٌ يأخذ لفظةَ " تُورا " لا بأصلِ معناها فى العبرية ، وإنما بما آلت إليه عند بنى إسرائيل الذين اتخذوا من توراتهم شريعةً لهم ، شأنُها شأنُ القرآنِ نفسه مع هؤلاء المسلمينَ أنْفُسهم منذُ نزوله وحتى انهيار الخلافة العثمانية فى أوائل هذا القرن العشرين ، أساءوا التطبيقَ أم أحسنوا . يكفى أنْ قد كان لهمُ القرآنُ إماما ، ويكفى أنك تُحاسبُهم بهذا القرآنِ نَفْسه حينَ أساءوا : تعيبُ التطبيقَ ولا تعيبُ الأصْل ، تَتهمُ المُؤتَمَّ ولا تَتّهمُ الإمام ، فتنتقدُ نفسَك ولا تنتقدُ قُرآنَك ، أنَ أسأتَ الفَهْمَ عنه أو عَبَثت بكَ أهواؤك ، أو خُومِرْتَ فى عقلك فأردت التحلُّلَ منه ، تَلتمسُ الهُدى عند من أضَلُّوكَ عنه ، الذين فُتِنْتَ بهم منذُ اقتحموا عليك أرْضَك ، فأفسدوا عليك عَقْلَك ، وأفسدوا عليك إسلامَك .

ليس لمسلمٍ خيارٌ إلا اتباعُ قرآنه ، إن أراد أن يَظَلَ مُسلماً بفكره ، مسلما بقلبه، مسلما بيده ، مسلما بلسانه ، لا مُسْلماً ببطاقة هُوِيَّته فحسب ، فما ذَلَّ المسلمونَ فى بلادهمُ اليوم وبالأمس ، إلا لأنَّهُمُ ارْتَضَوْا الدَّنيةَ فى دِينهم ، وتخاذلوا فسكتوا عَمَّنْ لَغا فى هذا القرآن من ذواتِ أنفسهم ، حتى نَبَحَتِ الإسلامَ كلابُه .

وقد أخطأ الإسلاميون فى هذا القرن ، وأخطأ معهم أمثالُ هذا الكاتب العَلْمانى[1] ، الذين خلطوا بين التشريع والشريعة : أراد الإسلاميون من القرآن ، واشترط العلمانيون على القرآن ، يتوهَّمون تعجيزَه ، فى صدورهم كِبْرٌ ما هم ببالغيه، أن يكون القرآن بذاته مجموعةً جاهزةً من الأحكام القانونية . وإنما القرآن "شريعة" ، والشريعةُ "دستور" ، والدستورُ "ضوابطُ" تحكم مسيرةَ المجتمع كله ، كما تَحْكُمُ الاشتراعِ والتشريع ، إنه الحاكمُ الضابطُ الموجّهُ لما يَصْدُر فى المجتمع المسلم من قوانينَ وتشريعات، يَحْكُمُ مُنْطَلَقاتها وأهدافَها ، شأنُهُ شأنُ أيّ دستورٍ آخر، تَسَفَّلُ أو تَسامَى.

فهل آن للمسلمين اليوم أن يثوبوا إلى مقالة نبيِّهم صلى الله عليه وسلم : "أيها الناس ! إن لكم معالم ، فانتهوا إلى معالمكم !" ؟ وهل "معالمُ " المسلمين فى كل عصرٍ وكُلِّ زمن إلا هذا القرآن ؟ ألم يَحِنْ للمسلمينَ اليومَ أن يتخذوا من قرآنهم دستورا ؟

---

(١) " العَلْمانيُّ " نسبةٌ إلى " العَلْم " مفتوحَ العَيْن ساكنَ اللام ، أى هذا العالَمُ الذى نعيشه ، أى هذه الدنيا ، فهو " الدنيوى " ، تَرجمة عن اللاتينية secularis وهى لفظة كنسية دخيلة على المجتمع المسلم ، تفرقُ فى المجتمعات المسيحية بين ما هو كَهنوتٌ وغير كهنوت ، وهى اليوم اصطلاحٌ يَرْمُز إلى الذين يفصلون بين الدين والسياسة . ليست هى من " العِلْم " مكسور العين كما توهَّم الذين لا يعلمون ، أو كما يُوهِمُكَ المُضَلّلون كى تَحْسَب أن الفَصْل بين الدين والسياسة مقولة " عِلمية " .

أمّا أنّ القرآنَ كتابُ هدايةٍ وإرشاد ، فنعم . ولكن ، هدايةٌ وإرشادٌ إلى ماذا ، وإلى أين ؟ هذا هو الذى فات الكاتب . غَفَرَ اللهُ لنا وله ، وهدانا وإياهُ جميعا إلى صراطه المستقيم: {**وأنّ هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه، ولاتتبعوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بكم عن سبيله، ذلكم وصّاكم به لعلكم تتقون**} (الأنعام : ١٥٣).

وأمّا الذى تَعْجَبُ لَهُ وتندهش ، فهو أنّ " تورا " العبرية هذه لا تعنى بذات لفظها العبرى الشّرْعَةَ أو القانون ، وإنما هى تعنى بذات لفظها العبرى الهُدى والهداية ، وهو ما " نعاه " الكاتبُ على القرآن ، كما تعنى بذات لفظها الإراءةَ والتبصير ، وتعنى التعليمَ والإرشاد ، كما تعنى بذات لفظها العِلْم . ولا تزالُ العبريةُ المعاصرة تَنْحتُ من "تُورا " العبرية هذه لفظة مُورى ، يعنى المُعَلِّم . وتقول العبريةُ المعاصرة على سبيل المثال: تُورات هَنِّفش ، يعنون علم النفس، لا شريعة النفس ، وتقول : تُورات هاحِبْرا ، يعنون علم الاجتماع، لا شرعة الاجتماع ، وتقول : تُورات هَاهِجِّيُون ، يعنون علم المنطق، لا شرعة المنطق، كما لو فهمت "تُورات" فى هذا وذاك بمعنى الشرعة والشريعة ، كما يفهمها الذين يَستَمِدُّون ـ دُونَ تأصيل ـ من معاجمهم الفرنسية أو الانجليزية .

❑❑❑

تَشْتَقُ العبريةُ لفظةَ " تُورا " من الجذر العبرى " يَرَا " ، وهى لا تشتق "تُورا" من ثُلاثيّه المُجَرَّد " يرَا " ، وإنما تشتقه من ثُلاثيّه المَزيد فى أوّله بِهاء التعدية فى العبرية ، أى " هُورا " . وهاءُ التعدية فى العبريةُ تُكافىء همزة التعدية فى العربية ، أى صيغة أَفْعَلَ يُفْعِلُ إفعالا . ولفظة "تُورا" مَصْدَرٌ من هذا ، فهى " إِفعالٌ " من "أَفْعَلَ " ، أو هى " تَفْعِلَةٌ " من " فَعَّلَ " . وهى أيضا " تَفْعَال " مثل تبيان وتَرحال وتَجْوال ، على المبالغة .

والجذرُ العبريُّ " يَرَا " ، يَدُورُ هو ومشتقاته على معانىَ مُسْتَمَدَّة من أصولٍ عربيةٍ أربعة ، هى: (١) الجذر العربى أرَى ، وأَرَاهُ يعنى ثَبَّتَهُ ومكّنَه ، ومنه "يرُوشاليم" عاصمة فلسطين كما يقول علماءُ التوراة يعنى "ركيزة السلام" ، لا "مدينة السلام" كما يقول غيرهم أخذا من " أور" الآرامية يعنى المدينة ، وهو خطأ شائع ، لأن اسمَ القدس فى العبرية والآرامية معا مبدوءٌ بالياء لا بالهمزة . (٢) الجذر العربى وأر،

وأوْأرَهُ يعنـى أعْلَمَهُ. (٣) الجـذر العـربى وَرَأ ، وأورأهُ يعنى أعْلَمَهُ . (٤) الجـذر العـربى وَرَى ، ومنه الوَرَى ، أى الخَلْق ، كـان فى سـابقِ علم الله مكنوناً فظهـر ، واستوراهُ فَوَرّى لَهُ يعنى استعلمه فأعلَمَهُ ، واستهداه فهداه ، أى أرشدَه ، لا يخرج عن هذا "وَرّى عن الشيء" أى أرادُه وأظهرَ غيرَه ، أى أخفاه ، ومنه التَّوْرية ، لأنها معدولةٌ عن "الإعلام" إلى نقيضه بالحرف "عن" ، كما تقول " رَغِبْتُ فيهِ " و"رَغبْتُ عنه " ، وكما تقول ، عَدَلْتُ إليه " و" عَدَلْتُ عنه " .

معنى "تُورا" ، أى " التوراة " ، هو إذن عند علماء العبرية وعلماء التوراة : (١) العِلْم والإعلام ، تجىء بها فى العربية على " تَوْراء " ، زِنَةَ "تَفْعال" من الجذر "وَرَأ" . وقد استُجيزَت " تَوْراء" على معنى "توراة" فى الشعر خاصة ، لا تَصِحُّ القراءةُ بها فى القرآن لمخالفتها خَطَّ المُصْحَف . (٢) الإظهار والإبانة ، من الجذر "وَرَى ". (٣) الهُدَى والهداية والإرشاد ، من الجذر " وَرَى " أيضا . (٤) الإراءة والتَّبْصِرة ، من استوراهُ فَوَرَّى له ، تأخذ هذا من الجذر " وَرَى " كذلك .

وقد ألَمَّ القرآنُ المُعجِز فى تفسيره لفظةَ " توراة " بهذه المعانى الأربعة جميعا : العِلْم ، الإبانة، الهُدى ، التبصرة ، فى غير موضع ، تَكفيك منها الأمثلةُ التى نتلوها عليك تَواً .

□□□

وكثيرا ما تَرِدُ فى القرآن لفظةُ " الكتاب " والمقصودُ بها " التوراة " على وجه التحديد ، من مثل قوله عز وجل : { **قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تُبدونها وتُخفون كثيرا** } (الأنعام : ٩١) . نعم، قد جاء لفظ "الكتاب" كثيرا والمراد منه "القرآن" بالقطع ، فى مثل قوله عز وجل : { **آلم. ذلك الكتاب لا ريب فيه** } (البقرة ١: ــ٢) ، أى أن القرآن وحده ، دون الكتب من قبله ، هو الكتاب الذى لا ريب فيه ، لا تشك أن كل حرفٍ فيه من قول الله ، وغيرُهُ من الكتب تسمعُها فلا تَأْمَنُ التصحيف والتبديل . وكثيرا أيضا ما يجىء القرآن بلفظة "الكتاب" ومراده منها مُجْمَلُ وحى الله على رسله ، وما "أم الكتاب" عن هذا ببعيد، أعنى اللوح المحفوظ

الذى تتنزل منه الملائكة بوحى الله على رسله ، قرآنا وغير قرآن ، ولكن ربما لا يلتفت كثيرون إلى أن " التوراة " بالذات - أعنى ما صدق فى التوراة التى بين يديك فَصَدَّقَهُ القرآن - هى وحدها فيما نعلم من قول الله عز وجل ، الكتابُ الوحيد الذى أنزله الله مكتوبا فى ألواح ، فهى الكتاب المكتوب ، كما تستظهر من قوله عز وجل : **{ وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظةً وتفصيلا لكل شىء، فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها، سأوريكم دار الفاسقين }** (الأعراف : ١٤٥) ، أى إن لم تفعلوا كان مصيركم دار الفاسقين . ولكن بنى إسرائيل لم يفعلوا ، وتعللوا بأن الألواح التى جاء بها موسى من عند الله ألقاها موسى فتحطمت منه فى فتنة العجل ، بل تقول لك هذه التوراة التى بين يديك ان الألواح لم تكن إلا لوحين اثنين ، كسرهما موسى بيديه فى حُمُوّ غضبه (خروج ٣٢/٢٩) فلم تعد ثمة ألواح ، ولكنه نحت لنفسه بأمر الله لوحين من حجر مثل الأولين كتب الله له عليهما نفس الكلمات التى كانت على اللوحين اللذين كسرهما موسى فى حُمُوّ غضبه (خروج ٣٤/١) . ولكن القرآن يجىء بالألواح على صيغة الجمع كما مر بك ويقول لك أيضا ان الألواح لم تتحطم ولم يكسرها موسى بيديه - حاشاهُ أن يفعل مهما كان حُمُوّ غضبه - ولكنه التقط الألواح لم يمسسها سوء ولم تُمْحَ منها كلمةٌ مما كتب الله له فيها : **{ ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يَرْهَبُون }** (الأعراف : ١٥٤) . بل ما كانت تلك الألواح لِتَنْحَطِم أو تنكسر لحظة ألقاها موسى ، فلم تكن من حجرٍ : كما وَهِمَ الكاتب ، وإنما كانت رقائقَ من الجلد، كما تستظهر من قوله عز وجل يُقسِمُ بالطورِ وبالتوراة، والكتابِ المسطور : **{ والطور . وكتابٍ مسطور . فى رَقٍّ منشور }** (الطور : ١ - ٣).
أيا ما كان الأمر ، فأنت تعلم بالطبع أن بنى إسرائيل من بعد موسى أضاعوا هذه الألواح المقدسة فلم يبق منها إلا ما بقى فى ذاكرة كتبة التوراة : فيها من قول الله ، الذى صدقه القرآن والحديث الصحيح ، وفيها الذى هو إلى التواريخ والسير أقرب ، وهو أكثرها .

والذى يعنينا فى هذا السياق هو تأصيل المقصود من عبارة " أهل الكتابُ " فى

القرآن : أهم اليهود فقط أم اليهود والنصارى فحسب ، أم هم كل أمةٍ ذاتِ كتاب ، سواء أخْبَرَ اللهُ عز وجل عنهم فى القرآن أم لم يُخْبِر [1] ؟

أمَّا أن اليهود يندرجون تحت وصف أهل الكتاب فهذا مقطوعٌ به ولا خلاف عليه، تستظهره فى مثل قوله عز وجل: { **وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب،فريقا تقتلون وتأسرون فريقا** } (الأحزاب : ٢٦) ، والذين أنْزلَهُم الله من صَياصيهم ، أى من حصونهم ، وقَذَفَ فى قلوبهم الرُّعب ، وقَتَل منهمُ المسلمون وأسروا ، هم "بنو قُرَيْظَة" ، أى بعضُ يهودِ يَثْرِب .

وأما أن النصارى مُخاطَبُون هم أيضا فى القرآن باسم " أهل الكتاب " ، فهذا مقطوعٌ بهِ كذلك ولا خلافَ عليه ، تَستظهره فى مثل قوله عز وجل : { **يا أهل الكتاب لا تَغْلُوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيحُ عيسى بنُ مريمَ رسولُ اللهِ وكلمتُهُ ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، فآمنوا بالله ورُسُلِه ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيراً لكم ، إنما اللهُ إلهٌ واحدٌ سبحانَهُ أنْ يكون لَهُ ولد ، لَهُ ما فى السموات وما فى الأرض ، وكفى بالله وكيلا** } (النساء : ١٧١) ، والذين " قالوا ثلاثة " ليسوا اليهودَ كما تعلم ، وإنما هم النَّصَارى .

وأما أن اليهودَ والنصارى هم وحدهم " أهلُ الكتاب " لا يَنْدَرِجُ تحت هذا الاسم غيرُهم من الملل، فهذا هو صريحُ القرآن ، لا يَصحُّ غيرُه ، وشواهدُهُ القاطعةُ من القرآنِ عديدة ، ومنها هذا الشاهدُ الحاسم الذى يَقْطَعُ كُلَّ جدل : { **قل يا أهل الكتاب لستم على شىء ، حتى تُقيموا التوراة والإنجيلَ وما أُنزلَ إليكم من ربّكم ، وليَزيدَنَّ كثيراً منهم ما أُنزلَ إليك من ربك طُغيانا وكفرا ، فلا تأسَ على القوم الكافرين** } (المائدة : ٦٨) ، أى هم أهلُ التوراةِ والإنجيل ، فليستقيموا عليهما ، وعلى ما أنزل إليهم من ربهم ، أى القرآن ، الذى جاء به محمدٌ صلى الله عليه وسلم ودَعاهُم إليه ، بدليلِ قوله عقب هذا مباشرة ولَيَزيدَنَّ كثيرا منهم

---

(١) لهذا التأصيل أهميةٌ بالغة فى صياغة " الدستور المسلم " يوم يَمُنُّ اللهُ علينا بتأليف القلوب على ارتضاء كتاب الله دستورا ، لأن القرآن يَخُصُّ أهل الكتاب بأحكام لا يجوز أن تنصرف إلى غيرهم . وفى هذا تأصيلٌ لعلاقة المسلم بغير المسلم فى مجتمعه وفى خارجه .

ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا .... (الآية) ، فما أُنزِلَ إليهم من ربهم بخلاف التوراة والإنجيل هو هذا القرآن الذى دُعُوا إليه . لا يصحُّ أن يُؤْمَرَ بإقامة التوراة والإنجيل ، إلا أهلُهما ، كما جاء فى قوله عز وجل : { **ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفَّرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أُنزِلَ إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، منهم أمةٌ مقتصدة ، وكثيرٌ منهم ساءَ ما يعملون** } (المائدة : ٦٥ ـ ٦٦) .

والراجحُ عندى لا يَصِحُّ غيرُه ، أنهم سُمُّوا " أهلَ الكتاب" بمعنى "أهل التوراة" ، فالتوراةُ ، لا الإنجيل ، هى الكتابُ المَعْنِى . وهى مشتركةٌ بين الطائفتين :يدين اليهود بالتوراة كما تعلم ، ويكفرون بالإنجيل ، ويدين النصارى بالتوراة وبالإنجيل . وقد قال المسيح عليه السلام : ما جئت لأهدم الناموس (أى التوراة) وإنما جئت لأُكمِّل ، أى بالإنجيل ، فالمسيح عليه السلام يُكَمِّلُ التوراة ولا يَنتَقِصُ منها . وقد ظَلَّ المسيحيون الأوائل يُعَدُّونَ فِرقةً من فِرقِ اليهود لا أكثر ولا أقل. ولم تُكتَبْ الأناجيلُ التى بين يديك إلا بعد زمانٍ من رفع المسيح، وهى قد كُتِبَتْ إنشاءً لا استنساخاً من أصلٍ يُرَدُّ إليه . ولا تزالُ المسيحيةُ إلى اليوم تَتَعَبَّدُ فى كنائسها بتلاوة فَقَراتٍ من هذه التوراة ، توراةِ اليهود . بل إن "الكتابَ المقدس" ، كتابَ المسيحيين كما مر بك ، مُجَلَّدٌ يَضُمُّ " التوراة والإنجيل " معا : إنه هو " الكتاب " The Bible (La Bible بالفرنسية) ، وأصلها Biblion اليونانية ـ لغة الكنيسة الأولى ـ وأصلُ معنى Biblion هذه "الكتاب" لا أكثر ولا أقل . وقد أصبحت Bible هذه عَلَماً على التوراة والإنجيلِ معا ، لا يجوزُ إطلاقُها إلا والمُرادُ منها " التوراةُ والإنجيل " ، لا مُجَرَّدُ أىِّ كتاب .

ومن إعجاز القرآن أن يَفطِنَ وحده ـ مَطْلَعَ القرنِ السابع للميلاد ـ إلى هذا ، فيجمع بين الطائفتين تحت مُسَمَّىً واحد: أهل الكتاب، على معنى أهل التوراة والإنجيل يعنى (بالإنجليزية مثلا) People of the Bible، لا People of the Book كما تُخْطِئُ فيها بعضُ ترجمات القرآن الإنجليزية . بل إن القرآنَ المُعْجز يأبى على أى من الطائفتين أن تُنكِرَ إحداهما على الأخرى وكتابُهم واحد ، أى التوراة : { **وقالت اليهود ليست النصارى على شىء ، وقالت النصارى ليست اليهودُ**

على شىء ، وهم يتلون الكتاب } (البقرة : ١١٣) يريد كيف يسوغ لهم إنكارُ بعضهم على بعض وهم جميعا يَتَعَبَّدُون بهذه التوراة نفسها ، وإن اختلف الكَنيس؟ [(١)] والقرآنُ بهذا الإنكار يَسْبِقُ بقرون المعاجمَ الأوربية التى استحدثت لفظة Judeo - christianism عَلَما على الثقافة " اليهودية ـ المسيحية" ، أعنى هذا الفكر المشترك الذى يَنْهَلُ من نبْعٍ واحد هو " التوراة " . هذا الفكرُ المشترك النابعُ من نَبْعٍ واحد ، هو الأصلُ الذى تُرَدُّ إليه تلك " الموالاة " بين الطائفتين ، حين تتحدان فى مواجهة الإسلام : لا تتحزب مع الإسلام قَطْ طائفةٌ ضدَّ أُخْتِها . وهذا هو معنى قوله عز وجل : { **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض**} (المائدة :٥١) ، أى لأنَّهُم أولياءُ بعض تُخْشَى منهمُ المُواطأةُ عليك . وهذا من إعجاز القرآن أيضا ، دليلُكَ فيه ما يحدث فى هذا العصر بالذات من مُمَالأةِ إسرائيل عليك . ولكنك لا تلوم فى هذه إلا نفسَك ، فهم لم يخدعوك أو يغرروا بك ، وإنما أنت الذى عَميتَ عن كتابِ ربِّكَ وسُنة نَبِيِّك ، حتى هانت عليك نفسُك ، فَهُنتَ على الناس .

أما أن يقال لك ان أهلَ الكتاب معناها فى القرآن كُلُّ أمةٍ ذات كتاب ، فهو قَوْلٌ هُراء ، لا لما أسلفناه من القرآنِ فحسب ، وليس لمسلمٍ حُجَّةٌ بعدَ القرآن ، وإنما أيضا لأن القرآن لم يَقُل قط " أهل كتاب " على التنكير الذى يُفيدُ التعميم ، وإنما قالها "أهل الكتاب" مُعَرَّفَاً بالألف واللام ، يُريدُ الكتابَ المَعْنى، أى التوراةَ بالذات على ما مر بك. ولأن القرآن يُريدُ الكتبَ " المُنَزلة " ولا يعبأ بالكتبِ "الموضوعة" ، ولا عِلْم لك بكُتُبٍ أنزلت قبل القرآن إلا التوراة والإنجيل ، ناهيك بكتبٍ يصطنعها الذين كفروا بختامِ الرسالات والنبوات .إن عَمَّمْتَ ولم تُفَرِّق ، اعْتَلَّ عليك كُل ذى كتابٍ بكتابه ، وإن جاء بصريحِ الكفر . وإن عممت ولم تفرق ، فقد استدركتَ على القرآن الذى لم يُسَمِّ لك كُتُبَ زُرادشْت وكونفوشيوس وكُتُبَ البوذيين والهندُوس ، وقد دانت بها الملايينُ على

(١) الكنيسُ والكنيسة واحد ، وإن خَصَّ العُرْفُ وحدَه اليهودَ بالكنيس وخَصَّ النصارى بالكنيسة . وهو فى العربية من الجذر كنس الذى يُفيد الاكتنان والاستتار ، ومنه كناس الظبى يَقيلُ فيه. وهى فى العبرية من الجذر كنس أيضا الذى يفيد التجمع والاجتماع ، ومنه " الكنيست". والكنيسة ترجمة Ekklesia اليونانية بمعنى الجامعة ، وليس من هذا المسجدُ " الجامع " وإنما هو المسجد " الكبير " فى المصر الواحد ، أو هو المسجد الذى تصلح إقامة صلاةِ " يوم الجُمْعَةِ " فيه ، لا أىُّ مسجد .

عصر نزول القرآن، ولا تزال تَدين. وأخيرا ، إن عَمَّمْتَ ولم تُفَرِّق ، فقد أدخلتَ المسلمين أنفسهم في زُمرة أهل الكتاب ، لأنهم أهلُ القرآن ، والقرآنُ كتاب ، بل هُوَ الكتاب .
ولا يَعْتَلَّنَّ عليك أحدٌ بفعلِ عُمَرَ رضى الله عنه ـ إن صَحَّت الرواية ـ أَنَّهُ استجازَ إلحاقَ المجوس بأهل التوراة والإنجيل : قد قاس عمَرُ إذن ، والقائس يجتهدُ فَيُخْطِىءُ أو يصيب . ولو كان في المسألةِ نصٌّ صريح عن الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم يُقَرِّرُ أن المجوسَ بعضٌ من أهلِ الكتاب لما جاز لعمر أصلا أن يقيس [١] ، وما كان لمجوسى أن يستعلن بمجوسيته في دار الإسلام على عصر عمر رضى الله عنه كما يستعلن اليهود والنصارى ، وإلا لقبل عمر الجزيةَ من الهُرْمُزان وما قال له : الإسلامَ أو السيف ! ولم تكن في دار الإسلام على عصر عمر "معابد نيران" يَؤُمُّها المجوسُ مثلما كانت لليهود والنصارى في دار الإسلام ولا تزال صلواتٌ وبِيَعٌ وأديرةٌ وكنائس . ودَعْكَ مما يقال لك ـ وإن صح ـ من أنه قد بَقِيَ في الدولةِ العباسية مجوسٌ يَؤُمونَ معابدَ لهم، فلا تنس أن " العباسى" ليس صحابيا تَسْتَنُّ به ، ولا تنس أيضا أن الدولة العباسية قامت على أكتاف الفرس ، والعِرْقُ دسَّاس .

في المجتمع المسلم ـ حينَ يَصحُّ إسلامُه ـ لا مُواطَنَةَ إلا لمسلمٍ أو كتابى ، ولا كتابِيَّ إلا اليهوديُّ والنصراني، وغيرُهما عابرٌ مُسالمٍ أو مُعاهَدٌ مُستَأمِن ، ومِثلٌ بِمِثْل.

□□□

مر بك أن التوراة هي الكتاب الذى أنزل الله على موسى . ولكن التوراة كما تعلم ، شأنُها شأنُ الإنجيل ، تُطلق أيضا ويُرادُ منها مُجْمَلْ أسفار "العهد القديم" ، فتشمل أسفار اليهود كلها ، التى يجمعها اليهود تحت اسم "تُورا نَبِيئيم وكْتُوبيم" (وتلفظ عبرانيا " تُورا نَفيئيم وخْتُوڤيم " وتختصر إلى "تَنَاخ" بالأحرف الأولى) يعنى "التوراة ـ الأنبياء ـ الكتب" ، أى " أسفار التوراة "، "أسفار الأنبياء" ، "أسفار

(١) لا يجوز لمسلم التشريب على الصحابة رضوان الله عليهم ، ففضل الصحابة عليك كبير . ولا يصح من مسلم أن ينتقد عمل الصحابى مهما كان قدره ـ ناهيك بعمر رضى الله عنه ـ فربما كانت له فيه حجة لم يُبدها لك . ولكن عمل الصحابى لا يُلزمك إلا أن يتأصل أو يقاس على محكم الكتاب والسنة ، فهما وحدهما إمامُك ، ولا حجةَ لمسلم فيما يخالفهما . هذا أصلٌ نفيس . ولو قد تمسك به الفقهاء لخلص الفقه الإسلامى من شوائب الاحتجاج للمُؤَوَّلِ والمظنونِ والضعيف .

الكتبة" ـ وسنقولها نحن اختصارا "توراةُ الأنبياءِ والكَتَبة" ـ لأن من أصحاب تلك الأسفار من ليسوا بأنبياء ، بل كتبة ، مثل سفر " عِزْرا " ، كاتب شريعة الله بعد سبى بابل . والكتبة فى ديانة اليهود هم حُفَّاظُ التوراة ، يستنسخونها بأيديهم ، لم يَهْبِط عليهم وحى ، وإنما جاءتهم القداسة بإضافة ما صنفوه إلى الكتاب . وما نزل القرآن إلا وقد اكتمل المجلد ، فهو تلك " التوراة " أو " العهد القديم" الذى بين يديك . وقد ضاع من قبل بعض تلك الأسفار وبقى البعض ، دليلُكَ فى هذا من التوراة التى بين يديك ، التى تُحيلُك فى بعض مواضع إلى أسفارٍ تُسَمِّيها بالاسم ثم تفتش عنها فى هذا المجلد فلا تَجِدُ لها أثرا بين دفَّتَيْه. وسواءٌ نُسِبَ السفرُ إلى نبىٍ أو كاتب، فَسِيانِ هذا أو ذاك، إذ ليس فى التوراة التى بين يديك سفرٌ واحد خَطَّه نبىٌ بيده ، أو أملاه وروجع عليه ، وإنما هى كُلُّها صُنْعُ " الكتبة " على التراخى ، حَفِظَ الكتبة أم ضَيَّعوا . وما جاء القرآنُ فى بعض مقاصده إلا لهذا ، مُصَدِّقاً لما بين يديه ومُهَيْمناً عليه .

وتُنسَبُ الأسفارُ الخمسة الأولى من " توراة الأنبياء والكتبة " ، وهى سفر التكوين، وسفر الخروج ، وسفر العدد ، وسفر اللاويين ، وسفر التثنية (تثنية الاشتراع) ـ أو بالأصح تنسب مادة هذه الأسفار الخمسة ـ إلى موسى عليه السلام ، فهى وحدها "توراة موسى" ، تليها أسفارُ غيره، أنبياءَ وكتبة، ومن بين أسفار الأنبياء، سفر " المزامير " ، أى مزامير داود عليه السلام ، أى الزَّبُّور ، المَعَنىُّ بقوله عز وجل : {**ولقد فَضَّلْنا بعضَ النبيين على بعض وآتينا داودَ زبورا**} (الإسراء: ٥٥). وسيأتى الحديثُ عن " الزبور" فى موضعه .

هذه "التوراة" إذن ، أعنى"توراةُ الأنبياءِ والكتبة" كما يسميها اليهود ، أو "العهد القديم" كما يُسمِّيها النصارى ، تتضمن فيما تتضمن ، كُلاً من "توراة موسى"، "زَبُورِ داود" .

ولو قد آمن اليهودُ لعيسى ، لكان الإنجيلُ نفسُه بعضَ "توراةِ الأنبياء والكتبة"، خاتمةً لهذا " الكتاب " المنسوب إليه "أهلُ الكتاب" ، المُوسَوِىُّ منهم والمسيحىُّ سواء ، ولَحَفِظهُ الأحبارُ مثلما حَفِظُوا توراةَ موسى وزَبُورَ داود ، على الأصلِ الذى نطق به عيسى بلغته العبرية أو الآرامية ، ولَسَمِعْتَ كلماتهِ من فيهِ المُباركِ تَنْطِقُ بالحق الذى ضَلْ عنه كثيرون .

ولكن اللهَ عز وجل هكذا شاءَ وقَدَّر ، فحَسْبُكَ القرآنُ المُصَدِّق المُهَيْمِن ، وفيه الكفاية .

صلواتُ اللهِ وسلامهُ على جميعِ رُسُلِه وأنبيائه وعلى كُلِّ مَنْ تَبِعَهُم بإحسان .

□□□

أما " توراة موسى" ، أعنى تلك الأسفار الخمسة الأولى التى تتصدر "توراة الأنبياء والكتبة" ، فهى التُّراثُ الموروث لما سُمِعَ من الأنبياء منذ إبراهيمَ إلى موسى عليهم جميعاً أزكى الصلاةِ وأتَمّ التسليم ، بالقدر الذى حَفِظَتْهُ ذاكرةُ الكَتَبة الذين خَطّوا هذه الأسفارَ الخمسةَ بأيديهم ، أعنى " ما صدقَ " فيها .

تستظهر هذا من قوله عز وجل فى ختام سورة الأعلى : {**قد أفلح من تَزَكّى وذكر اسم ربه فَصَلّى. بل تُؤثِرون الحياةَ الدنيا. والآخرةُ خيرٌ وأبقى، إنَّ هذا لَفِي الصُّحفِ الأولى. صُحُفِ إبراهيمَ وموسى**} (الأعلى: ١٤-١٩).

أما " صُحُفُ موسى " فهى أسفارٌ أربعة من تلك الأسفار الخمسة : خروج ـ عدد ـ لاويون ـ تثنية ، التى تقص قصة موسى عليه السلام منذ مولده فى عاصمة مصر حتى وفاته فى تيه سيناء لا يُعرَفُ لَهُ قبر . وأما " صُحُفُ إبراهيم " فتجدها فى السفر الأول من الأسفار الخمسة ، أعنى سفر " التكوين " ، الذى يقص قصة الخَلْقِ منذ بَدْءِ الخلقِ بآدم ، وينتهى بوفاة يوسفَ فى مصر . والذى تستطيع أن تُسَمّيه " صُحُفَ إبراهيم " من هذا السفر هو الإصحاحات الأربعةُ والعشرون الأُولى من سفر التكوين ، وبداية الإصحاح الخامس والعشرين حتى يقول الكاتب : " وأسْلَمَ إبراهيمُ روحَه ومات بشَيْبَةٍ صالحة شَيْخَاً وشبعانَ أياماً وانضم إلى قومه " (تكوين ٢٥/٨) . ثم يأتى بعد ذلك حديثُ إصحاحات السفر عما كان من شأن أبناء إبراهيم وحفدته وفيهم من الأنبياء إسماعيلُ وإسحقُ ويعقوبُ ويوسُفُ الذى ينتهى السفر بوفاته .

وكما لا تستطيع أن تقول ان الأسفار الأربعة التى تتحدث عن موسى هى بذاتِ حروفِها " وحيُ اللهِ على موسى" ، أو " صُحُفُ موسى" كما يسميها القرآن ، لأنك لا تتصور أن يتضمن وحيُ اللهِ " على موسى" ، أخبارَ مولدِه وأخبارَ وفاته كما يَقُصُّها عليك الكاتب فى سفرى الخروج وتثنية الاشتراع ، لا تستطيع أيضا أن تقول

ان أول أسفار "توراة الأنبياء والكتبة " ، أعنى "سفر التكوين" وفيه ما فيه على ما مر بك، هو بذات الحرف والعبارة التى فى إصحاحاته الأربعة والعشرين الأولى "وحىُ الله على إبراهيم" ، أو "صُحُفِ إبراهيم" كما يسميها القرآن ، ولكنك تقول جازماً آمناً مطمئنا ان كتبة هذه الأسفار حَفظُوا وضَيَّعُوا وبَدَّلُوا ، ودَلَّسَ بعضُهم تدليسا ، بل وأَفْحَشُوا إفحاشا ، يَقْبسون من أَساطير اليونان وآلهةِ الأُولمْب ، من مثل خَلْقِ اللهِ آدم على صورةِ الله ومثاله [(١)] ، فَقَدَّمُوا " للإنسان ـ الإلَه " ومَهَّدُوا لَهُ تمهيدا ، ومن مثل مصارعة الله يعقوبَ فجاهَدَهُ يعقوبُ حتى جَهَدَه ، وتطاولوا على مقام أنبياء الله ورسله ، من مثل إِسكار نوحٍ حتى تنكشفَ عورتُهُ على أبنائه فيتضاحكوا منه ، ومن مثل زِنَى ابنتى لوطٍ بأبيهما ليكونَ لهُما منهُ نَسلٌ يُعَيّرونَ به خصومَهم الموآبيين على ما مر بك ، ومن مثل صُنْعِ هرونَ العجلَ لمن طلبوا العجلَ فى التيه ، إلى آخر ما تعلم . وقد تلتمسُ العُذْرَ لأولئكَ الكتبة فيما ضَيَّعُوه من هذه التوراة لأنهم أَنْسوُه ، فذاكرةُ البشرِ تُسْعِفُ وتَخُون . ولكنك لا تعذرُهُم قط فيما بَدَّلُوا ودَلَّسُوا.

أما أنهم "حَفظُوا" فنعم: حَفظُوا حَظّاً مما ذُكِّروا به ، وهو الذى يُصَدّقُهُ القرآنُ ويهيمنُ عليه . ونسوا حَظّاً مما ذُكروا به فالقرآنُ يَدُلُّهُم عليه . وتَبَدَّلُوا من قولِ الله قولَ البشر ، يَنقلُونَ الكَلِمَ عن بعضِ مَواضعه ، والقرآنُ يَرُدُّ عليهم مقالتَهم ويُبَيِّنُ لهم . ولكن القرآن "يعفو" تَنَزُّهاً عن تكذيب ما أفحَشوا فيه ، المُحالِ فى جَنْبِ اللهِ عز وجل ، المُحالِ على كرامةِ أنبيائه ، لأنه ظاهرُ البطلانِ بذاته .

يكفيك كى تُؤْمِنَ بهذا القرآن ـ إن كُنتَ من غيرِ أهله ـ أن تُراجعَ هذه التوراةَ عليه ، عسى أن تكون ممن شاء اللهُ أن يَهْدِيهَم ، لا هدايةَ إلا بِهِ سبحانه .

والذى يعنينا فى هذا السياق أن القرآن المُعْجز ، وقد عَلِمَ أن أهلَ الكتابِ يَنْسِبُون إلى موسى عليه السلام هذه الأسفارَ الخمسة من " توراة الأنبياء والكتبة " ، أو مَادةَ هذه الأسفار الخمسة كما مر بك ، يُصَحِّحُ لأهل الكتاب مقولتَهم فينسب بعضَ مادةِ هذه الأسفار ـ أعنى بعضَ ما فى النصف الأول من سفر التكوين ـ إلى إبراهيمَ

(١) ليس من هذا حديثه صلى الله عليه عليه وسلم فى أدب " التأديب" وقد رأى رجلا يضرب غلاما له على وجهه : تجنبوا الوجه ، فإن الله خلق آدم على صورته ، يعنى كرموا وجه البشر بكرامة الله عز وجل الذى خلق بيديه وجه آدم على صورة هذا الوجه ، أى وجه هذا الغلام .

عليه السلام : إنها ليست كُلُّها " توراةَ موسى " وحدَه ، وإنما هى معاً " صُحُفُ إبراهيمَ وموسى " !

□□□

أما التفسيرُ القرآنى ـ المَقْصدُ الأول فى مقاصد هذا الكتاب الذى نكتب ـ للفظة "توراة" (أعنى" تُورا" العبرية) بلغةِ أهلِها، وقد مر بك وجوه اشتقاقها من العبرية على معانى أربعة هى العلم والإبانة والهِداية والتبصرة ، فقد فسر القرآنُ " التوراة " بمعنى العلم فى مثل قوله عز وجل : { **ومنهم من يستمع إليك، حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا** } (محمد : ١٦) ، يعنى الذين أوتوا التوراة ، وفى مثل قوله عز وجل : { **إن الدين عند الله الإسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلمُ بغيا بينهم** } (آل عمران : ١٩) ، يعنى لم يختلف أهل الكتاب أصحاب التوراة إلا من بعد ما جاءتهم التوراة ، وهذا من إعجاز القرآن ، لأن اليهود لم يختلفوا فرقا إلا من بعد ما أنزلت التوراة ، فالعلم هنا بمعنى التوراة ، لا يصح أن تفسره بمعنى "عيسى" كما قال مفسرون ، فقد نزل فيهم عيسى وَهُم فِرِق ، ولا يصح أيضا أن تفسره بمعنى القرآن كما قال آخرون ، لأن أهل الكتاب كانوا مختلفين قبل نزولِ القرآن ومبعثِ خاتَمِ الرسل . وغير هذا فى القرآن كثير ، تكفيك منه هاتان الآيتان . وفُسِّرَت التوراةُ أيضا فى القرآن على معنى البيان والإبانة فى مثل قوله عز وجل : { **أو لم تأتهم بَيِّنَةُ ما فى الصحف الأولى** } (طه : ١٣٣) ، والصحف الأولى كنايةٌ عن التوراة كما تعلم ، وفى قوله عز وجل : { **وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة** } (البينة : ٤) أى ما اختلفوا إلا من بعد ما جاءتهم التوراة كما مر بك ، وفى قوله عز وجل : { **ولقد مَنَنَّا على موسى وهرون. ونجيناهما وقومَهُما من الكرب العظيم. ونصرناهم فكانوا هم الغالبين. وآتيناهما الكتابَ المُستبين** } (الصافات : ١١٤ ـ ١١٧)، يعنى بالكتاب المستبين " التوراة " . وفسر القرآنُ التوراة على معنى الهدى والهداية فى مثل قوله عز وجل : { **وآتينا موسى الكتابَ وجعلناهُ هُدًى لبنى إسرائيل** } (الإسراء : ٢) وغيرُهُ فى

معناهُ كثير ، تكفيك منه هذه الآية . وأخيرا فَسَّرَ القرآنُ التوراةَ على معنى البصيرة والتبصرة فى قوله عز وجل : { **ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائرَ للناس** } (القصص : ٤٣) .

وكما فَسَّرَ القرآنُ معنى التوراة بالمرادفِ المطابق والمرادفِ القريب ، فَسَّرَها أيضا بالتعريب ، فهى معدولةٌ عن " التوراء " كما مر بك ، تَفْعالٌ من الجذر " وَرَأَ " ، فهى بمعنى " الإيراء" أى الإعلام . وهى أيضا معدولةٌ عن " التَّوْرَية " ، تَفْعلَةٌ من الجذر "وَرَى" أى من " أَوْراهُ " ، " وَرَى " لَهُ ، أى أظهرَ لَهُ وأبان . وهذا من التعريب الفنىِّ فى القرآن لأنه يُجانِسُ " تورية" على " تورا " ، فيقول " تَوْراة " ، كما قال العربُ فى "قارية" يعنى الحاضرةُ الجامعة : " قاراة " ، وكما سُمِعَ من العرب فى " جارية " ـ الأمةُ أو الفتاة ـ " جاراة " . وسبحانَ العليمِ الخبير .

□□□

والذى ينبغى التنبيه إليه أن التوراة فى القرآن هى فحسب التى كَتَبَ اللهُ لموسى فى الألواح ، تلتمس ما بقى منها فى الأسفار الأربعة ـ " الخروج " إلى "تثنية الاشتراع" ـ لا شأن لك بما قبلها وما بعدها فى " توراة الأنبياء والكتبة " . وسفر التكوين ليس من توراة موسى قطعا ، وما بقى فى هذا السفر من "صحف إبراهيم" ليس من التوراة بالقطع ، دليلك فى هذا وذاك قوله عز وجل : { **يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده** } (آل عمران : ٦٥) وقوله تعالى : { **إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة** } (آل عمران : ٩٣) ثم تحداهم بقوله :{ **قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين** } (آل عمران :٩٣) ، فكان الأمرُ كما قال : كَذَبَ المُكَذِّبون وصَدَقَ العَلِيُّ الكبير .

(٣٨) يأجوج ومأجوج

"يأجوجُ ومأجوجُ" غيبٌ من غيبِ الله عز وجل الذى أَخْبَرَ به القرآنُ ، لا تجدُ له فى التوراة والإنجيل اللذين بين يديك ، وفى أقاصيص أهل الكتاب ، إلا أهابيشَ من ضبابِ رُؤَىَ وخيالاتٍ تَبْعُدُ بك كُلَّ البعد عن حديثِ يأجوجَ ومأجوجَ الذى فى القرآن.

ففى "توراة الأنبياء والكتبة" يحدِّثك سفرُ حِزِقيال ـ وهو من أعلام القرن السادس قبل الميلاد ـ لا عن " يأجوجَ ومأجوجَ " الذين رَدَم عليهم " ذو القرنين " فلا يَخرجون حتى قبيل قيامِ الساعة ـ وإنما يحدثك عن " جُوج " أميرِ " ماجوجَ " الذى يجىء من أقاصىِّ الشمال [١] ومعه شعوب كثيرة فيجتاح إسرائيل ، ولكن الله يرد لبنى إسرائيل الكرة عليهم فيستأصلونهم ويُقْبَرُون فى وادٍ يُسَمُّونَهُ وادىَ جُمهورِ جُوج (راجع الإصحاحين ٣٨ و ٣٩ من سفر حزقيال) . وحزقيال عند اليهود نَبِىٌّ راءٍ ، يَرَى الرُّؤَى فَيُخبِر بها وكأنها وحىٌ من الله عليه ، والرؤى كما تعلم أضغاثٌ ورمُوز ، إن صَدَقْتَ الرائى فلا تَأْمنُ سُوءَ الفهمِ عنه ، وإن استأمنت الناسخَ والناقل فلا تَأْمَنَ الخَلْطَ والتخليط .

وأما فى أسفار " العهد الجديد " ، فأنت تجد فى آخر أسفار الأناجيل، سفر " رُؤْيَا يوحَنَّا اللاهوتى،" أن "جوُجَ وماجوجَ " هم الأممُ الذين فى أربع زوايا الأرض (راجع الإصحاح ٢٠ من سفر الرؤيا) . وعند يوحنا اللاهوتى أن هناك قيامتين : القيامة الأولى بعد القضاء على فتنة الدجال ، والناجون من هذه الفتنة يكونون كهنة لله والمسيح ويملكون معه ألف سنة : " ثم متى تمت الألف السنة يُحَلُّ الشيطانُ من سجنه ويَخْرُجُ لِيُضلَّ الأممَ الذين فى أربعِ زوايا الأرض جوج وماجوج ليجمعهم للحرب الذين عَدَدُهم مثلُ رملِ البحر . فصعدوا على عرض الأرض وأحاطوا بمعسكر القديسين وبالمدينة المحبوبة فنزلت نارٌ من عند الله من السماء وأكلتهم . وإبليس الذى كان

(١) فى سفر التكوين (تكوين ٢/١٠) تجد "ماجوج" ابنا ليافث بن نُوح ، وُلِدَ لَهُ بعدَ الطوفان . وإلى يافثَ هذا يُنسَبُ الأوربيون كما يقول شُرَّاحُ هذا السفر .

يُضلُّهم طُرح في بحيرة النار والكبريت حيث الوحشُ والنبيُّ الكذَّاب وسيعذبون نهارا وليلا إلى أبد الآبدين " (رؤيا ٢٠/٧ ـ ١٠) . ولا شك أن يوحنا اللاهوتي يستمد من حزقيال اسمى جُوج وماجُوج ، ولكنه لا يجعل ماجوج أرضاً لجوج ، وإنما يجعل جوج وماجوج معا أمما عددهم مثل رمل البحر يجمعهم الشيطان لحرب المدينة المحبوبة (أورشليم) مملكة المسيح في مجيئه الثاني قرب قيام الساعة ، فيتفق مع حزقيال في تعيين أورشليم موقع مهلك جوج أمير ماجوج ، ويختلف معه في موعد خروجهم ومهلكهم : تَعَجَّلَهُ حزقيال فربطه بخراب أورشليم على أيدى مملكة بابل ، وأَجَّلَهُ يوحنا اللاهوتي ألف سنة تعقب عودة المسيح إلى الأرض في مجيئه الثاني . ورؤيا يوحنا اللاهوتي تَقتبس بلا شك من سفر حزقيال ، ولكنها تقتبس بتصرف ، وتقتبس أحيانا دون تَرَيُّث ، فقد تنبأ حزقيال في القرن السادس قبل الميلاد بخراب بابل، وخَرِبَت بابلُ بالفعل في قرنه ، ولكن يوحنا اللاهوتي يعودُ فيتنبأُ لبابلَ بالخراب : "وسيبكي وينوحُ عليها ملوكُ الأرض الذين زَنوا معها وتنعَّموا معها حينما ينظرون دُخانَ حريقها ، واقفين من بعيدٍ لأجل خوف عذابها قائلين وَيْلٌ وَيْلٌ . المدينةُ العظيمةُ بابلُ المدينةُ القويةُ" ، " وَرفعَ ملاكٌ واحدٌ قويٌ حجراً كَرَحَىً عظيمة ورماهُ في البحر قائلا بِدَفْعٍ سَتُرْمَى بابلُ المدينةُ العظيمة ولن توجدَ في ما بعد" (راجع الإصحاح ١٨ من سفر الرؤيا) ، لا يدرى أن بابلَ المدينةَ العظيمة قد خَرِبَتْ بالفعل قَبْلَ ستةِ قرونٍ على الأقل من مَوْلِد هذا الكاتب . ولكنك لن تَعدَمَ منْ شُراحِ هذا السفر من يقولُ لك إن بابلَ هذه ليست بابل ، ولكنها عَلَمٌ على كُلِّ مُلْكٍ جَبَّارٍ فاسق . وهكذا أنت في الأحلام والرُّؤَى، تُفَسِّرُ ما شئتَ بما تَشاء ، أو يُفَسِّرُ لكَ بما يُشاءُ لك .

وأما في أقاصيص أهل الكتاب التي لا تجدها بين دفتي "الكتاب المقدس" ، ولا حجةَ بها من ثَمَّ على أهل الكتاب ، فمنها المَرْويةُ عن السُّريان في أساطير الاسكندر [١] ، مؤسس الامبراطورية اليونانية في الشرق الأدنى القديم، وقد وهم أدعياءُ الاستشراق [٢] أنها الأصل المباشر لقصة يأجوج ومأجوج في القرآن ، وفي الأسطورة السريانية أن الاسكندر أغلق على جوجَ وماجوجَ ، فلا يخرجون إلا في نهاية العالم . وتُرْسَمُ "جوج" في السريانية "أجوج" قريبةً من "يأجوج" التي في القرآن .

(١) انظر Noeldeke, Beitrage zur Geschichte des Alexanderromans

(٢) J. Horovitz المرجع السابق ، ص ١٩ .

تَخْلُصُ من هذا إلى أن أهل الكتاب ، في الكتاب المقدس بشطريه وخارجه ، كانوا على علم قديمٍ بيأجوج ومأجوج ، ولكنهم خَلَطُوا فيه ، وتفاوتت الروايةُ عن هذا وذاك ، فجاءوا محمداً صلى الله عليه وسلم يسألونه عن حقيقة الذى كان ، فأجابهم القرآنُ بقوله : { **ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا** } (الكهف : ٨٣) وسَرَدَ عليهم ما كان من شأن ذى القرنين مع يأجوج ومأجوج .

ففى بعض كتب التفسير أن بعضاً من أهل الكتاب أرادوا امتحانَ مَبْلَغ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم من العِلْم : سألوه عن فتيةٍ ذَهبوا فى الزمان الأول (أصحاب الكهف) فأجابهم القرآن : { **نحن نَقُصُّ عليك نبأَهُم بالحق** } (الكهف : ١٣) وسَرَدَ ما كان من شأنهم . وسألوه عن الروح ما هو (أو ما هى) فكَفَّهُمُ القرآنُ عنها : { **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** } (الإسراء : ٨٥) . وسألوه عن طوافة رحالة (ذى القرنين) فأجابهم القرآن : { **ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا . إنَّا مَكَّنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىءٍ سببا** } (الكهف : ٨٣ ـــ ٨٤) ، ثم قص ما كان من شأن ذى القرنين مع يأجوج ومأجوج ، وكيف أُرْتِجَ عليهم مَحْبِسَهم ، لا يستطيعون الخروجَ منه أو نَقْبَهُ حتى يقترب الوعدُ الحق : { **فإذا جاء وعدُ ربى جعله دكاء وكان وعدُ ربى حقا . وتركنا بعضَهُم يومئذٍ يموجُ فى بعضٍ ونُفِخَ فى الصُّور فجمعناهم جَمْعًا** } (الكهف : ٩٨ ـ ٩٩) .

وقد جاءت " يأجوج ومأجوج " فى القرآن مرتين اثنتين فقط ، الأولى فى حديث ذى القرنين : { **قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خَرْجَاً على أن تجعل بيننا وبينهم سَدا** } (الكهف : ٩٤) ، والثانية فى النص على أن الفتح ليأجوج ومأجوج من علامات الساعة كما أَخْبَرَ الصادقُ المصدوقُ صلى الله عليه وسلم: قال عز وجل: { **وحرامٌ على قريةٍ أهلكناها أنَّهمْ لا يرجعون. حتى إذا فُتِحَت يأجوجُ ومأجوجُ وهم من كل حَدَبٍ يَنسِلُون. واقترب الوعدُ الحق فإذا هى شاخصةٌ أبصارُ الذين كفروا، ياوَيْلَنا! قد كنا فى غفلة عن هذا، بل كنا ظالمين** } (الأنبياء : ٩٥ ـــ ٩٧)، أى عندما يقتربُ الوعدُ الحقُ تُفَتَحُ يأجوجُ ومأجوج، فيتذكر الذين كفروا أنهم قد نُبِّئُوا

بهذا فى القرآن من قبل ، فَتَشْخَصُ أبصارُهم هَلَعا ، ثم يتندمون كيف غفلوا عن هذا ، ولكنهم يستدركون على أنفسهم بأنهم كانوا ظالمين ، لا غافلين فحسب ، نَسوا اللهَ فأنساهم مواعيدَه. بل قد كان منهم العابثُ الساخر ، المُتَفَكِّهُ بغيبِ الله عز وجل، فَسُحْقاً سُحْقا .

والوجهُ فى غيبِ الله عز وجل أنه علمُ الله الكُلِّىُّ المُطْلَق ، يَعْلَمُ ما كانَ وَيكُون، على الوجهِ الذى به كانَ ويكون. وهذا العِلْمُ الكُلِّىُّ المُطلق مُتَرَتِّبُ على أنه عز وجل خالقُ كلُّ شىء وخالقُ كلِّ فعْل . وهو عز وجل ليس عالِمَ الغيبِ فقط ـ والغيبُ هو كُلُّ ما غاب عنك علْمُه ـ ولكنه عز وجل أيضا عالِمُ " الشهادة " ، أى أنه جَلَّ وعلا يَعْلَمُ أيضا مَشهُودكَ ومَعْلُومَك ، لا كما تَعْلَمُهُ أنت ، ولكن على ما هو عليه : { **ألا يَعْلَمُ مَنْ خَلَق وهو اللطيفُ الخبير** } (المُلْك : ١٤) .

وقد خاض مفسرون (راجع تفسير القرطبى للآيات ٩٢ ـــ ٩٩ من سورة الكهف) فى يأجوجَ ومأجوج فَأسَفُّوا وأبْعَدوا : لم يهتبشوا من أهابيش أهلِ الكتاب فحسب ، بل وأضافوا إليها من عندهم تَهاويلَ خيالٍ سقيم ، فتجاوزوا نَصَّ القرآنِ والحديثَ الصحيح عن الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم ، وزُيِّفَت فى يأجوجَ ومأجوج أحاديثُ لا يَصِحُّ لها سَنَد ، حتى عُمِّيَتْ عليك حقيقةُ يأجوجَ ومأجوج .

ولم يَعْلَم أولئك المفسرون أن أدعياءَ الاستشراقِ سَيَتَّكِئون عليهم ، لأن أدعياءَ الاستشراق لا يَسْتَقُون من القرآنِ ومن الحديث الصحيح ، وإنما يَسْتَقُونَ من كُتُبِ التفسيرِ هذه ، كما رأيت من قبل فى "قسطاس" ، "فردوسَ" ، "إبليسَ" ، وأمثالها. ولأن أولئك المفسرين تحذلَقُوا فتابعوا أساطيرَ السُّريانِ فى قولتهم ان " الاسكندر " هو صاحبُ " جُوجَ وماجُوج " ، فلم يجد أدعياءُ الاستشراقِ حَرَجاً فى القول بأن القرآنَ فى يأجوجَ ومأجوج يَسْتَقى من هؤلاءِ السُّريانِ رأسا : القِصَّةَ والبَطَل .

❑❑❑

زعم بعضُ المفسرين (راجع تفسير القرطبى للآية ٨٢ من سورة الكهف) ، مُتَابَعَةً لما دُسَّ عليهم من أقاصيصِ أهل الكتاب ، أن " ذا القرنين " هو "الاسكندر" ، مُؤَسِّسُ الامبراطورية اليونانية فى الشرق الأدنى القديم ، وتَرَسَّخَ هذا فى أذهان الناس حتى شاع لقبُ " الاسكندر ذى القرنين " على هذا الملك الوثنى ، لا يَتَحرَّجُ مسلمونَ

اليـومَ من ذلك ، عـامَّتُهم وخـاصَّتُهم . وهذا يَدُلُّكَ على مَدَى الخِفَّة التى صـار إليـهـا المسلمـون فى هذا العصـر . فَشَتَّان مـا بين عُبَّادِ آلهـةٍ فى جبـالِ الأولمب ومـا بين عُبَّادِ الواحدِ الأحد جَلَّ جلالُه الذين لم يكن ذو القـرنين من عـامَّتِهم فـحسب ، بل كـانَ من صَفْوَتِهم ، الذى قال اللهُ فيه : { **إنا مَكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شيءٍ سَبَبا** } (الكهف : ٨٤) ، والذى حَكَّمـهُ اللهُ فى قـومٍ عند عَيْنٍ حَمِئَةٍ لَقِيَهمُ ذو القـرنين وقد آذنت الشمسُ بالمغيب : { **حتى إذا بلغ مَغْرِبَ الشمس وجدها تَغْرُبُ فى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ووجدَ عندَها قوما ، قلنا يا ذا القرنين إما أن تُعَذِّبَ وإما أن تتخذ فيـهم حُسْنا . قال أمَّا من ظَلَمَ فسوف نُعَذِّبُهُ ثم يُرَدُّ إلى رَبِّه فيـعـذِّبُهُ عذابا نُكْرا . وأما من آمن وعَمِلَ صـالحا فَلَهُ جَزاءً الحُسْنَى وسنقـولُ لَهُ من أمرنا يُسْرا** } (الكـهـف : ٨٦ ـــ ٨٨) ، والاسكـنـدر ، وملوكُ الأرضِ جميعا ، أذَلُّ من ذلك .

الذى يُحَكِّمُهُ اللهُ عز وجل فيمن كفر أو آمن ، يُحْسِنُ فى طائفةٍ ويُعَذِّبُ طائفة، فـيجعلُ العذابَ على الذين ظلموا ويجعلُ جَزاءَ الحُسْنى لمن آمن وعَمِلَ صالحا ، الذى يفعلُ ذلك بتحكيمِ اللهِ عز وجل ، لا يصحُّ أن تَنْسِبَهُ إلى عَبَدَةِ الأوثان ، بل لا يَصِحُّ أن تَنْسِبَهُ إلى عامةِ المؤمنين الصالحين ، وإنما تَسْلُكُهُ فى صَفْوَتِهم ، الذين اجتباهم اللهُ وأيَّدَهم بروحٍ منه ، نَبِيّاً أو فى مقام نبى . ولـكنك لا تقولُ مـا قـالُ بعضُ المفسـرين إنه "مَلَكٌ " من ملائكة الله عز وجل ، لأسبابٍ ثلاثة : أوَّلُها أن الملائكةَ رضوانُ الله عليهم خَلْقٌ مـأمُور ، لا تُخَيَّرُ كمـا خُيِّرَ ذو القـرنين فى القـوم الذين لَقِيَهُم عـند العَيْنِ الحَمِئَة، وثانيـها لأن الملائكة رضوان الله عليهم لا يستعينون البشَر كما استعان ذو القرنين الذين سألوهُ أن يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سَدّاً ، يُناولونَهُ زُبَرَ الحديد وينفخون فيه نارا حتى تلتحم الزُّبر ، ثم يجيئونه بقطْرٍ يُفرغُه عليه ، وثالثا لأن الملائكةَ رضوانُ الله عليهم لا يمشون فى الأرض مطمئنين يُكَلِّمون الناس، ويستعملُهُمُ الناس : { **قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوجَ مفسدون فى الأرض فهل نجعلُ لك خَرْجاً على أن تجعلَ بيننا وبينهم سَدّاً. قال ما مَكَّنِّى فيه رَبِّى خَيرٌ فأعينونى بقوةٍ أجعلْ بينكم وبينهم ردماً. آتونى زُبَرَ الحديد، حتى إذا سَاوىَ بين الصَّدَفَيْنِ قال انفخوا، حتى إذا جعلَهُ ناراً قال آتونى أفْرِغْ عليهِ قِطراً. فما اسْطاعوا أن يَظْهَرُوهُ وما استطاعوا له نَقْباً. قال**

هذا رحمةٌ من ربى، فإذا جاء وعدُ ربى جعلهُ دكاء، وكان وعدُ ربى حقا. وتركنا بعضَهُم يومئذٍ يَمُوجُ فى بعض، ونُفِخَ فى الصُّورِ فجمعناهم جَمْعا. وعرضنا جهنَّمَ يومئذٍ للكافرين عرضا. الذين كانت أعْيُنُهم فى غِطاءٍ عن ذِكْرى وكانوا لا يستطيعون سمعا } (الكهف : ٩٤ــ١٠١) .

على أن ذا القرنين الذى يُحدِّثُكَ عنه القرآن لم يكن مَلكاً يمشى فى جيشه كالذى كانَهُ الاسكندر ، وإنما كان رَجُلاً فَرْدًا ، وإلا لَما احتاجَ إلى من يناولونهُ زُبَرَ الحديد، ثم ينفخونه ناراً حتى تلتحم الزُبَر ، ويأتونه بِقِطْرٍ يُفْرِغُهُ على هذا السدِّ من حديد .

❑❑❑

وكما جَانَبَ المفسرينَ الأوائلَ الصوابُ فى تعيين ذى القرنين بأنَهُ الاسكندرُ مُؤَسّسُ الامبراطوريةِ اليونانيةِ فى الشرقِ الأدْنَى القديم ، وُجدَ أيضا من الباحثين الإسلاميين فى القرنِ العشرين من وَهمُوا أن ذا القرنين هو "كُورَشُ" مَلكُ الفُرسِ الذى انتصر لليهودِ من بنى إسرائيل أيامَ سَبْيِهم فى بابل ، الذى رَدَّهُم إلى "أورشليم" وأغْدَقَ عليهم ، فَعَدَّهُ اليهودُ من بعد "ملكاً قدّيسا" . وقد أَصَّلَ الباحثُ مقولتَهُ بالعثور على تِمْثال لهذا الملك الفارسى وعلى رأسه تاجٌ مُقَرَّنٌ من خَلْفٍ ومن قُدَّام ، فهو "ذو القرنين" على هذا المعنى . وليس بشىء ، فقد خَلَفَ كُورَشَ مُلوكٌ حَملت مثلَ هذا التاج ، كان منهم الاسكندرُ المقدونىُّ نفسُه بعدَ اندحار الفرس أمامه . وليس بالضرورة أن يجىء لقبُ ذى القرنين المَعْنىِّ من وجودِ قرنين على رأسه ، تاجاً أو غيرَ تاج . وخاض الباحثُ أيضا فى تعيين مَوْقعِ " السدِّ " مما لا نستطردُ بكَ إليه ، فقد خاض فى تعيينه الأوائل على ما تَقرأ فى تفسيرِ القرطبى واصْطُنعَت لهُ أحاديث ، وليس بشىء ، لأَن موضع " السد" ، بل موضع " السدَّيْن" اللذين رَدَمَ ما بينهما ذو القرنين ليَحولَ دونَ نفاذِ يأجوجَ ومأجوجَ إلى القوم الذين لا يكادون يفقهون قولا: { **ثم أَتْبَعَ سببا. حتى إذا بلغ بين السَّدَّيْنِ وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهونَ قولا . قالوا ياذا القرنين إن يأجوجَ ومأجوجَ مُفْسدُونَ فى الأرض فهل نجعلُ لك خَرْجاً على أن تجعلَ بيننا وبينهم سدا** } (الكهف :٩٢ ــ ٩٤)، كُلُّ هذا من المُغَيَّباتِ التى سَكَتَ عنها القرآنُ والحديثُ الصحيح . وقد سَكَتَ عنها القرآنُ

والحديثُ الصحيح لأنك لاتتصور أن يكون خروجُ يأجوجَ ومأجوج من علامات الساعة ثم يُعَيِّنُ لك القرآنُ والحديثُ الصحيح مكان مَحْبِسهم على هذا الكوكب الذى نعيشُ عليه ، تَغْدُو عليهمُ الناسُ وتَروح ، كما لم يُعَيِّنْ لكَ القرآنُ موضعَ تلك العَيْنَ الحَمِئَة والقومَ الذين لقِيَهُم عندَها ذو القرنين فى مَغْرِبِ الشمسِ وَحُكّمَ فيهم ، يُعَذِّبُ منهم أو يتخذَ فيهم حُسْنًا ، ولم يُعَيِّنْ لكَ أيضا القومَ الذين لَقِيهُم ذو القرنين فى مَطْلِعِ الشمس لم يجعلْ اللهُ لهُم من دونها سِتْرا ، بل قد تكتم القرآنُ أمْرَهُم ولم يُحَدِّثْكَ بما كان من شأنِ ذى القرنين معهم فقال عز وجل : { **كذلك وقد أحطْنا بما لديه خُبْرا** } ⟨الكهف : ٩١⟩ ، أى قد عَلِمنا نحن ما قد كان من أمرِه مَعَهُم ولن نُحَدِّثَكَ به ، فالقرآنُ لا يُحَدِّثُكَ بكلِّ أخبارِ ذى القرنين ، وإنما بطائفةٍ من أَخباره فقط ، لقوله : { **سأتلو عليكم منه ذكرا** } ⟨الكهف : ٨٣⟩ أى بعضاً من ذِكْرِه فحسب ، أى خَبَرَهُ مع يأجوجَ ومأجوج ، وهو المسئولُ عنه ، وما سَبَقَهُ تمهيد لهذا الحديث عن يأجوجَ ومأجوجَ ، حتى تعلمِ مكانَ ذى القرنين عند الله عز وجل ، فلا يذهبَ بك الوهمُ إلى أنه مهندسٌ يُجيدُ بناءَ السدود ، أو أنه مَلِكٌ من تلك الملوكِ ذواتِ التاجِ المُقَرَّنِ من خَلَفٍ ومن قُدَّام ، الاسكندرُ أو كُورَش .

يأجوجُ ومأجوج ، مَحْبِسَهُم ومَخْرَجَهم ، كأصحاب الكهف ، من آياتِ الله عز وجل ، مَرْقَدَهم ومَبْعَثَهُم ، ولكنه تبارك وتعالى جَعَلَ خروجَ يأجوجَ ومأجوج علامةً على اقترابِ الوعد الحقِّ الذى به تُؤْمِن ، كما آمن ذو القرنين : { **وكان وعدُ ربى حقا** } ⟨الكهف : ٩٨⟩ ، وهذا حَسْبُك .

□□□

على أن نبوءَة حزقيال ـ وهو من أعلام القرن السادس قبل الميلاد ـ بمَقدم جوجَ أميرِ ماجوجَ وشعوبٍ كثيرةٍ معه إلى فلسطين وخرابِ أورشليمَ على يديه ، تَجْعَلُ الرَّدْمَ على يأجوجَ ومأجوج سابقاً على عصر حزقيال ، وبالتالى سابقا على كُورَشَ والاسكندر اللذين مَلَكَا فى فارس بعدَ حزقيال ، فلا يَصِحُّ أن يكونَ أحدُهما هو الذى رَدَم عليهم .

بل إن عصر الرَّدْمِ على يأجوجَ ومأجوج أَسْبَقُ بقرونٍ لا يعلمُها إلا اللهُ من مَوْلِدِ موسى ومَولدِ عبريةِ التوراة .

ذلك أن علماء العبرية وعلماء التوراة لا يستطيعون لجُوجَ وماجوج اشتقاقا من جذور اللغتين العبرية أو الآرامية ، وإنما يقولون لك إن " جوج " هو أميرُ "ماجُوج" ، وأن "ماجُوج" هى أرضُ " جُوج " ، لا يزيدون ، فليس فى العبرية ، ولا فى الآرامية ، جذر مُسْتَعْمَل يُعِينُ على هذا الاشتقاق . فهما إذن اسمانِ وَقَعَا فى سَمْعِ حزقيال عَبْرَ أساطيرَ سَبَقَت مَولِدَ العبرانيين أنفسِهم .

على أن فى المعجم العبرى الآرامى لألفاظ التوراة (وهو من مراجع هذا الكتاب) الاسم "أَجَاج"، عَلَماً على ملوكِ العماليق المَعْنِيِّين بقوله عز وجل على لسان بعض بنى إسرائيل فى التيه : { **قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنَّا لن نَدْخُلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون** } (المائدة : ٢٢) . ولم يستطع علماءُ العبرية وعلماءُ التوراة تفسيرَ الاسم "أَجَاج" ، فَرَدوهُ إلى الجذر العربى " أَجَج " .

وفى العبرية أيضا اللفظ "جَاج " ومعناهُ سقفُ البيت ونَحْوُه ، لا يُعْرَفُ لَهُ كذلك أصلٌ أو اشتقاق ، فهو من "جوامد" تلك اللغة . وربما ظننتَ أن " جُوج " من هذا ، بمعنى المسقوفِ عليهم ، أى المَرْدُومِ عليهم . ولكن علماءَ العبرية وعلماءَ التوراة لم يتصدوا لهذا .

□□□

أما " يأجوج " و " مأجوج " اللذان فى القرآن ، فهما إسمان عربيان أصيلان ، تشتقهما من الجذر العربى " أَجَج " : " يأجوج " على زِنة " يَفْعُول " من أَجَّ / يَؤجُّ / أَجّاً ، وأجيجاً وأَجَّةً أيضا ، ومن معانيه فى العربية إلى الآن الإهاجة والاشتداد والاستثارة ، والأُجَاجُ يعنى اللاذعُ المُمِضُّ مرارةً أو مُلُوحة ، ومن معانى الأجيج أيضا الاضطرابُ والاختلاط . أما "مأجوج " فهى على زنة "مَفْعُول" من " أَجَّ " هذه نَفْسِها ، وكَأَنَّ " أَجَّ " يَصْلُحُ أيضا مُتَعدِّياً بنفسه ، وكأن معنى "يأجوج ومأجوج" هو الذين يَؤُجُّ بعضُهم بعضا .

نعم . يأجوج ومأجوج من العربية الأولى ، عربيةِ آدم ، لا تَستطيعُ أن تحدد زمان الإرتاج عليهم ، كما لا تستطيعُ تحديد موقعِهِ من هذه الأرض التى نعيش

عليها ، ولا تستطيعُ التنبؤَ بزمنِ خُروجهم ، لاستئثارهِ عز وجل بعلم الساعة ، لا يُجلّيها لوقتها إلا هو .

الذى تستطيعه هو فحسب تفسيرُ " يأجوج ومأجوج " من القرآن بالقرآن ، مَقْصِدُنا الأول من الحديثِ عن يأجوج ومأجوج فى هذا الكتاب الذى نكتب :

فُسِّرَت " يأجوجُ ومأجوج " فى القرآن بالتعريب : الذين يَؤُجُّ بعضُهم بعضا ، ويَسْتَفِزُّ بعضُهم بعضا ، ويَمُوج بعضُهم فى بعض ، كما قال عز وجل فيهم :{ **وتركنا بعضَهم يومئذٍ يموج فى بعض** } ﴿الكهف : ٩٩﴾ والمَوْجُ على المصدرية من ماجَ / يَمُوجُ /مَوْجًا ، هو من الاختلاط والاضطراب ، فهو تفسيرٌ بالتصوير ، كما قال فى موضع آخر : { **وَهُمْ من كُلِّ حدبٍ يَنْسِلون** } ﴿الأنبياء : ٩٦﴾ كنايةً عن مَدَى الاختلاط والاضطراب . وفى الاختلاط والاضطراب فسادٌ وإفساد ، ومن هذا قول الذين استعانوا ذا القرنين عليهم : { **إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض** } ﴿الكهف : ٩٤﴾ .

□□□

ونحن لا نخوضُ فى مَنْ كان "يأجوج ومأجوج" ، وكيف هُمْ الآن فى مَحْبِسِهم ، ولا نخوضُ كما خاض مفسرون فى وصف خِلقَتِهم وهَيئَتِهم . هذا من غيبِ الله عز وجل الذى لم يشأ أن يطلعنا عليه فنحن نتوقَّفُ فيه . والله عز وجل بغيبه أعْلَم .

ونحن أيضا لا نخوض فى مَنْ كان ذو القرنين المَعْنِيُّ فى القرآن ، وإن كنا نُرَجِّح ـ كما رَجَّحَ مفسرون دونَ دليل ـ أنه هو نفسه العبدُ الصالح الذى صَاحَبَهُ موسى فى سورة الكهف ليُعَلِّمَهُ مما علمه الله ، فلم يستطع موسى مَعَهُ صبرا . وليس لدينا نحنُ أيضا دليلٌ على هذا نقترحُهُ عليك ، إلا شاهدين: الأول عجائبُ هذا العبد الصالح مع موسى بدءاً بالحُوتِ المَيّتِ الحى الذى اتخذ سبيلَهُ فى البحر عَجَبا ، وانتهاءً بَرمِّهِ الجدارَ الذى كان لغلامين يتيمين فى المدينة حتى يَبلُغَا أَشُدَّهُما ويستخرجا كنزهما ، فأشْبَهَ "السد" . والشاهدُ الثانى ـ وهو أكثرُ دلالة ـ أن سورةَ الكهف تَضُمُّ أخباراً أربعة:
(١) نَبَأَ الفتيةِ أصحابِ الكهف. (٢) مَثَلَ الرجلين ، صاحبِ الجَنَّتَيْنَ والذى حَاوَرَهُ.
(٣) قِصَّةَ موسى مع العبدِ الصالح . (٤) أخبار ذى القرنين . وقد فَصَلت سورةُ

الكهف بفـواصلَ تطولُ أو تَقْصُر مـا بين هـذه الأربعـة (راجـع هـذا فى سـورة الكهف)، إلا ما بيـن أخبارِ ذى القرنين وبين قـصَّةِ موسى مع العبدِ الصالح ، فقد أتت بـ "ذِكْرِ" ذى القرنين مباشرةً بعد قصة موسى مع العبد الصالح لا يَفْصِلُ بينَهما فاصل :
{ **ومـا فَعلْتُهُ عـن أمـرى ، ذلك تأويلُ مـا لـم تسطع عليـه صبـرا . ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا . إنا مَكَّنَّا له فى الأرض وآتيناهُ من كل شىءٍ سببا** } (الكهف : ٨٢ ــ ٨٤) ، وكأنها إشارةٌ إلى أن المَحْكِىَّ عنه فى النَبَأيْنِ واحد ، وكأنِ مـاتَقَدَّمَ ذكرُه من قـصـة موسى مع الذى صَاحَبَهُ من أخبارِ ذى القرنين . والله عز وجل بغيبه أعْلَم .

وأما معنى اسمه " ذو القرنين " فـقـد تَعَدَّدَتِ الأقوالُ فـيـه ، على مـا تَجِدُ فى تفسير القرطبى للآية ٨٣ من سورة الكهف ، ولا دليلَ عليها من قرآن أو سُنة ، وإنما هى اجتـهـاداتٌ لأصحـابهـا ، أقْرَبُهَا إلى القبـولِ أقْرَبُهـا إلى المنطق ، وأبْعَدُها أسْمَجُهـا بالطبع ، المنسوبُ إلى الإمـام عَلِىٍّ رضَى اللهُ عنه والإمامُ عَلِىٌّ مـن هذا السُخْف بَرَاء : قـيل كـان رجُلا دعا قـومَه إلى الله عز وجل فـشجُّوهُ على قَرْنِه ، ثم دعـاهم إلى الله عز وجل كَرَّةً أخرى فـشـجُّوهُ على قـرنِه الآخـر ! والذى نقطع به نحن أن أهل الكتـاب لم يسألوا عن : "ذى القرنين " بهذا الاسم ، فليس فى أخبار أهل الكتـاب شىء اسمه "دى قَرْنَيْم" (وهى " ذو القـرنين " بالعـبرية) ، وإنما سألوا عن الطَّوافَةِ الرحَّالة الذى كَانَهُ "ذو القـرنين" . "ذو القـرنـين " إذن لَقَبٌ تَلَقبَ بِهِ فى القـرآن . إن صَحَّ هذا فـالراجحُ عندى استـئنـاسا بقـصـتـه فى القـرآن ـ ولا أقـولُهَـا جازمـا فـالله عـز وجـل بـغـيـبـه أعلم ـ أن "القرنين" هما قَرْنَا الشمس كنايةً عن مَغْرِبِها ومَطْلعِها (والقَرْنُ هو أولُ ما يَبْزُغُ من قرص الشمس عند مَطْلعِها وآخرُ ما يَأفُلُ منها عند مَغْرِبِهَا) ، وكأنه الطَّوافُ بين قَرْنَى الشمس من مـغربهـا إلى مطلعـهـا ، كـمـا فى القـرآن : { **حتى إذا بلغ مَغْرِبَ الشمس** } (الكهف : ٨٦) ، { **حتى إذا بلغ مَطْلِعَ الشمس** } (الكهف : ٩١) . ربُّمـا كـان هذا هو سببَ التسمية . والله عز وجل بغيبه أعلم .

كـيـفمـا كـان الأمر ، فليس "ذو القرنين" من العَلَم الأعْجَمىِّ الذى تتناولُه مباحثُ هذا الكتاب ، وإنما عَرَجْنا عليه إيناساً للقارىء ، واستكمالا لمَبْحَث "يأجوجَ ومأجوج". مثلمـا عَرَجْنا من قـبلُ على لفظةِ " طُوَى" فـى تحليـلِ "سيـنـاء " ، وكـمـا عَرَجْنـا مـن قبلُ على " ذى الأوتـاد " فـى تحليلِ اسمِ "فِرْعَوْن" .

(٣٩) اليهــود

يزعم اليـــهــود (وهى "يِهُودِيم" ، يِهُودِيِّيم" فى العـبــرية و "يِهُودَائِين " فى الآرامية) ، وتُنطق دالُها فى العبرية والآرامية ذالا ، أنَّهم سُمُّوا هكذا نسبةً إلى "يَهُوذا" ابن يعقوب . ولا يصحُّ هذا وإن قَالَهُ العبرانيون أنفسُهم وتابَعَهُم عليه الخَلْقُ أجْمَع .

لا يصحُّ هذا لأنك لا تتـصـور أن يتـسـمى اليـهـودُ باسم ابن لأبيـهم يعـقـوب ، وأبوهم حَىٌّ بعد ، لم يذهب ببنيه وحَفَدَته إلى مصر فى ضيافة يوسف ، وقد كانوا فى مصـرَ " بنى إسرائيل " فـحسب ، وإسرائيلُ كُنْيَةُ يعـقـوبَ أبِى يهوذا وأبيـهم . وإذا اسْتَجَزْتَ النسـبـةَ إلى ابنٍ لأبيـهم ، فلمـاذا "يـهوذا" بالذات وليس هو بِكْرَ أبيـهم ، وإنما بِكْرُهُ "رأوبين " على مـا مَرَّ بك ، ولماذا حَظِىَ "يهوذا " بهـذا الشرف من دونهم وفيـهم "يوسُف" صاحبُ الفضلِ وَوَلِيّ النعمـة ؟ وإذا لم يتـسـموا نسبـة إلى "يهـوذا" فى مصر ، فكيف ينتسبون إليه وحده فى التيه وهم إثنا عشر سبطا أحدهم فحسب سبط يهوذا ؟ ولماذا لم ينتـسـبـوا فـى التـيـه ـ إن أرادوا بـركة النسـب ـ إلى سبـط لاوى ، سبـط موسى وهرون ، لا سيـمـا و "لاوى" هو الثـالث فـى ترتيب أبناء يعـقـوبٍ و "يهـوذا" الرابـع ؟ وكيف ينتسبون فـى التيـه إلى "يهـوذا " وموسى بين ظَهرانيـهم وموسى "لاوِىٌّ " لا "يَهُوذِىٌّ " ؟ أفقـد انْسَلَّ من بينهم موسى ؟ فـمـا اليـهـودُ أجْمَع إن لم يكن منْهُمْ مـوسى ؟ أفـهل تَسَمَّوْا بهذا الاسم بعد موت مـوسى ودخولهم فى بعض نواحى فلسطين بقيـادة يَشوعَ فَتَى موسى ؟ فكيـف يصحُّ هذا وقد تَفَرَّقوا فيما بينهم أسباطا كُلُّ سِبْطٍ فى مسـاكنهم ؟ وكيف يصحُّ إطلاقُ هذا الاسم عليـهم جميـعـا بعد افـتـراقـهم مملكتين : مملكة يهوذا فى الجنوب ومملكة إسرائيل فى الشمـال ، تَضمُّ الأولى سبْطَىْ يهوذا وبنيامين ، وتَضَمُّ الأخرى العشرةَ الأسباطَ الباقية من بنى إسرائيل؟ بل كيف جاز للآراميين أن يُسَمُّوهم جميعا "يِهودَائِين " ؟

تُرَى ، ما سِرُّ تلك الحظوة التى كانت ليهوذا بن يعقوب فى تاريخ اليهود ؟

السرُّ كُلُّه هو أن كَتَبَة " التوراة" يكتبون أسفارَهم فى ظلٍّ بيتِ داودَ المَلِكَ ، وداودُ وسليمانُ من سبط يهوذا .

تَقرأ هذا فى الترجمة العربية للإصحاح التاسع والأربعين من سفر التكوين ، حيث يضعُ الكاتب على لسان يعقوب تفضيلَ يهوذا على كل إخوته وإن كان فيهم يوسف ، فيبدأ بتنحية الأسَنِّ منه ، رأوبين وشمعون ولاوى : رأوبين لأنه دَنَّسَ مضجع أبيه (يريد أنه نَكَح ما نكح أبوه من قبل وينسى ما سَجَّلَهُ على يهوذا الذى زَنا بأرملة ابنه ثامار فاستولدها من هذا الزنا ابنَهُ "فَارِص" ، ينسى هذا عمدا لأن فارص هذا من آباء داود الملك على عمود النسب المباشر إلى يهوذا) . أما شمعون ولاوى فلأنَّهُما فى غضبهما قتلا إنسانا وفى رضاهما عرقبا ثورا . فيعقوب لهذا يُفَرِّقُهما فى إسرائيل . ويجىء دَوْرُ "يهوذا " فيعطيه يعقوبُ كُلَّ شىء :"إياك يَحْمَدُ إخوتُك . يَدُكَ على قفا أعدائك . يَسْجُدُ لَكَ بنو أبيك" ، "لا يزول قضيبٌ من يهوذا ومُشْتَرِعٌ من بين رجليه (يعنى لا يزال من نسله المَلِكُ والمُشْتَرِع) حتى يأتى شِيلو ويكون له خُضوعُ شعوب". وقد كَذَبَت النبوءة أوَّلَ ما كَذَبت ، فى أوَّلِ مَلِكٍ مَلَكَ على بنى إسرائيل ، وهو المَلِكُ شاؤول (طالوت فى القرآن) ، وشاؤول من سبط بنيامين لا من سبط يهوذا ، ولكن داود الذى من سبط يهوذا وَرِثَ شاؤول ، وهذا هو سِرُّ اجتماع سبطى يهوذا وبنيامين فى مملكة يهوذا من بعد داود وسليمان ولم يستقر الملك لبيت داود كما تنبأ الكاتب على لسان يعقوب ، فلم يملك رَحُبْعام بن سليمان بن داود حتى انشقت عليه الأسباط العشرة وانفصلوا وحدهم بمملكة إسرائيل ، لم يتركوا له إلا سبطى يهوذا وبنيامين . بل إن هذا المُلك المحدود لم يستقر لبيت داود كما تنبأ الكاتب ، بل تَرَاوَحَ على بيت داود ملوكٌ من أصحاب مملكة إسرائيل ، مَلَكُوا على يهوذا وإسرائيلَ كلتيهما . أما " شِيلو " المُتَنَبَّأُ له بخلافة سبط يهوذا فى المُلك والاشتراع (أى المُلك والنبوة) والذى يكونُ لَهُ خضوعُ شعوب ، فقد طال انتظارُه ، حتى جاء البابليون فَقَضَوْا على هذا وذاك ، ولم يبقَ من بيتِ داودَ إلا ذكرياتٌ وأشجان .

أيّاً ما كان الأمر ، فقد تأثر أحبارُ اليهود من بعدِ هذا الكاتب بنبوءة استقرار المُلك والاشتراع (أى المُلك والنبوة) فى بيتِ داود الذى من سبط يهوذا كما تنبأ الكاتب

على لسان يعقوب ، فاشترطوا أن يكون المسيح المنتظر من نسل داود الملك ، لأنهم أرادوا ، أو تَمَنَّوا ، أن يكونَ المسيحُ مَلِكاً نبياً على مثال داود وسليمان ، يستردون به العِزَّةَ الضائعة بعد سبى بابل ، وكيلا يزولَ المُلك والاشتراعُ عن سبط يهوذا كما قالت النبوءة ، لا يَعْبَئون بـ " شِيلو" هذا مَنْ يكون .

وكما تأثر أحبارُ اليهود بهذه النبوءة ، فقد تأثر بها أيضا " مَتَّى" و " لوقا " فى إنجيليهما ، بحرصهما على تأكيد أن المسيح عيسى بن مريم هو نفسه المسيح الذى ينتظره اليهود ، أى أنه المسيحُ بن داود ، ينسبان كلاهما المسيحَ عليه السلام إلى داود ـ لا عَبْرَ والدته مريمَ عليها السلام فهى من سبط لاوى ، سبط موسى وهرون ، السبط الذى نبذه الكاتب على لسان يعقوب فأعَزَّهُ اللهُ بموسى وهرون ومريمَ أمِّ عيسى عليهم جميعا صلواتُ الله وسلامه ـ وإنما عَبْرَ يوسف النَّجَّار خطيبها الذى هو من سبط يهوذا ، فى محاولةٍ لإقناع اليهود بأنه هُوَ هُوَ المكتوبُ عنهُ فى "توراةِ الأنبياء والكتبة" وإنْ شَوَّشا بهذا على عُذْرِيةِ مَوْلده صلواتُ الله عليه ، فَنَصَّا كلاهما على عمود نسب "يوسف النجار" إلى يهوذا عَبْرَ داود ، وأيضا " فارص " ، المولودِ كما يَدَّعِى سفرُ التكوين من زنا يهوذا بأرملةِ ابنه ثامار .

وقد رَذَّلَ المسيحُ عليه السلام هذه المقولةَ كما تعلم ، مُسْتَنْكِراً أن يكون هو ابناً لداود ، فهو يَعْلَمُ كما تَعْلَم ، وكما يَعْلَمُ مَتَّى ولوقا والمسيحيون جميعا ، وكما شَهِدَ اللهُ عز وجل فى قرآنه المُصَدِّقِ المهيمن، أن المسيحَ عليه السلام مَثَلُهُ مَثَل آدم ، مخلوقٌ بكلمة "كُنْ" ، ألقاها عز وجل إلى عذراءَ لا تُزَنُّ بِريبةٍ ، فهو مولودٌ بِغَيْرِ أبٍ.

وقد كان لِمَتَّى ولوقا غُنْيَةٌ عن هذا لو قالا إن المسيحَ هو "شِيلو" الذى ينتقل إليه المُلكُ والنبوة بعيدا عن سبط يهوذا . وقد قال بهذا فعلا علماءُ المسيحية من بعد ، فأسقطوا نبوءة "شيلو" على المسيح ، دون التفاتٍ إلى أن مضمون النبوءة يُوجِبُ أن يكون " شيلو" من غير سبط يهوذا ، فلا يحتاج النسَّابون إلى الارتفاع بنسب المسيح إلى داود . وقد فسروا اسم " شيلو " هذا من الجذر العبرى " شلاً " (المأخوذ من "سلا" العربى على معنى كشف الهمّ والغَم أى السَّلْوىَ والسلوان) فهو المسيحُ "صانعُ السلام" والمرادُ أنه عليه السلام الذى يكون بِهِ السلام : سلامُ المرءِ مع نفسه، وسلامُهُ مع الناس. وهذا كلامٌ جميل ، يَصْدُقُ فى حَقِّ النبيين جميعا دون استثناء ، فبهذا جاءت كُلُّ

رسالات السماء . وفى " شيلو" قراءةٌ أخرى يُرَجّحُها علماءُ التوراة : إنه " شلُو"، يعنى "الذى لَهُ" فى العبرية ، أى " الذى يئول الأمرُ إليه " ، فيزدادُ الغموضُ غموضا ، شأنَ كُلُّ نبوءاتِ التوراة ،إلا أن تُفسِّرَ " أيلولة الأمر" بمعنى "أيلولة المُلك والاشتراع" التى تنبأ بها الكاتب لـ " شيلو " .

ولكن المسيح صلوات الله عليه قال : ما جئت لألقى على الأرض سلاما ، بل سَيْفا! وما أصدقَ قَوْلَهُ عليه السلام ، فمازال الحقُّ الذى جاءَ بِهِ فتنةً لمُحبّيهِ وشانئيهِ على السَّواء غَالَى فيه فريقٌ وأَوْضَعَ فيهِ فريق ، وهو صلواتُ الله عليه من هذين بَراء .

أيضا لم يَمْلك المسيحُ كما مَلَكَ داود ، بل قد رُفِعَ المسيحُ قبل أن يكونَ لَهُ - كما تنبأ الكاتب لـ " شِيلو" - خُضوعُ شعوب .

ليس المسيحَ عليه السلام هو " شيلو " ، وليس هو أيضا ابنَ داود .

أما نحن فنقول ان نُبوَّة النبيين صلواتُ الله عليهم أجمعين ، تَثْبُتُ بذاتها ، أى بما جاءوا به وبما قالوهُ أو صَنَعُوه ، لا تَحتاجُ إلى كَدِّ الذهنِ فى تَصَيُّدِ النبوءات من الكتبِ السابقة ، صَدَقَ الكتبةُ أو زَيَّفُوا . ونُبُوَّةُ المسيحِ عليه السلامُ من هذا : دليلُها من ذاتِها لا من خارجِها ، شَأْنُها شأنُ النبوات من إبراهيمَ إلى خاتَمِ النبيين . وهذا حَسْبُك .

❑❑❑

وقبل أن نتناول بالتفسير معنى اسم "يِهوُذا " بن يعقوب، ومعنى لفظة "يِهُودِى" (وتُنْطَقُ دالُها فى عبرية التوراةِ ذالا كما مر بك) المقولِ بأنها صفةٌ على النسب إلى "يِهوُذا" بن يعقوب ، يَحْسُنُ أن نرجعِ بك إلى معاجمِ العبرانيين أنفسِهِم لنستدلَّ منها على وجوهِ إطلاقِ لفظة "يِهُودِى " على ما نسميهم نحن الآن باسم " اليهود".

ففى المُعْجَم الحديث لألفاظ توراة الأنبياء والكتبة (هَمِلُّون هحَداش لَتَناخ) عبرى /عبرى ، وهو من مراجع هذا الكتاب المتخصصة، يقول لك المُعْجَمُ المذكور (ص ١٩٩) إن لفظة "يِهُودِى" تُطْلَقُ على وجوهٍ ستَّة هى :(١) الساكنُ مملكة يهوذا ، (٢) الذى هو من جلاء يهوذا ، أى ممن أجلاهم البابليون عنها ، (٣) الذى هو من أصلاءِ يهوذا الذين بقوا بالأرض ولم يَجْلوا ، (٤) سَبْىُ صِهْيَون الذين ليسوا بكهنةٍ أو لاويين ،

يعنى العامة من بنى إسرائيل فى هذا السَّبْىِ خلافَ الكَهَنة واللاويين "يسرائيليم هدْيُوطيم" ، (٥) لَقَبٌ اصطلاحى يُطْلَقُ على من سكنوا "يهوذا" ، المقاطعة الفارسية، (٦) أبناءُ سِبْطِ "يهوذا" ، فهو " اليَهوذِىُّ " كما تقول " اللاوِىُّ " ، " الشَمْعُونِّىِ" إلى غيرِهما من المنتسبين إلى أسباطِ يعقوبَ الإثنى عشر .

يتضح لك من هذا الكلام أن "اليهودى" فى عبرية التوراة ليس هو "الإسرائيلى" بإطلاق ، أى أن بنى إسرائيل ليسوا كلهم "يهُوديم" ، وإنما بعضُهم فقط : الذى هُوَ من سلالة "يهوذا " بن يعقوب ، أى المنتسب إلى أَبيه "يهوذا " ، وهذا لا خلافَ فيه ولا غبارَ عليه ، أما الآخر فهو المنسوب إلى أرض سُمِّيتَ "يهوذا " ، كان من سِبطِ "يهوذا" أو لم يكن وسواءٌ بَقِىَ على تلك الأرض أو نَزَحَ منها .

ويترتب على هذا مباشرة أن يَخرُجَ من عِداد اليهود - سوى سبطِ يهوذا - كُلُّ أسباط بنى إسرائيل الأحد عشر الأخرى الذين لم يسبق لهم سُكْنَى "يهوذا " ، بل ويخرج من عدادهم أيضا موسى وهرون لأنهما أولا من سبط لاوى ، وثانيا لأنهما لم يَريَا فى حياتِهما أرضَ يهوذا ، بل أرضَ فلسطين جميعا ، فقد وُلِدَا فى مصرَ وماتا فى تيه سَيْنائِها .

ويترتب على قول هذا المعجم المتخصص - والقولُ ما قالَهُ لا ما نقولُهُ نحن - أن " اليهودى" على النسب إلى شخص "يهوذا" بن يعقوب ، وجُدَت على النسب إليه منذ أن وُجِدَ ليهوذا سبطٌ يُنْسَبُ إليه ، أما التسمية على النِّسَب إلى الأرض التى مَلَكَ فيها سبطاَ يهوذا وبنيامين فلا تصحُّ إلا بعد انفصال مملكة "إسرائيل" بأسباطها العشرة عن مملكة "يهوذا " فى أولَى سِنِى حُكْم "رَحُبْعام " بن سليمان بن داود بعد حوالى خمسةِ قرون من خروجهم من مصر ، على ما تَقرأ فى "توراة الأنبياء والكتبة" .

النسبةُ إذن عند صاحب هذا المعجم كما رأيت ليست إلى شخص يهوذا ولا تَمُتُّ إلى يهوذا هذا بصلة ، عدا انطباقها - حين تنطبق - على سبط يهوذا ، أى أبناء يهوذا. وإنما اسم " اليهودى " عنده نسبةٌ إلى أرضِ يهوذا ، واليهودُ عنده هم مواطنو مملكة يهوذا أو من كانوا يوما ما من مواطنى مملكة يهوذا منذ عصر ما بعد داود وسليمان لا شأنَ لهم بغيرهم من بنى إسرائيل .

على أن هذا الاسم - شاء صاحبُ المعجم أم لم يَشَأ - انطبق على بنى إسرائيل جميعا فى أرض الشَّتات ، لا يُعرفون بغيره ، فقد اختلطت الأسباطُ من بعدُ وتمازجت

الأنساب ، لا تتوقف فى تسمية جارك اليهودى أهو من سبط يهوذا أم لا ، أكان من مواطنى مملكة يهوذا أم لم يكن ، يكفيك أنه ينتسبُ إلى موسى بن عمران .

وقد أصبحت " اليهودية " عند أهلها وعند غير أهلها ، هى اسمَ الدِّينِ الذى جاء به موسى ، لا إسمَ له إلا هذا .

ولكن نسبةَ هذا الدِّين إلى"يهوذا " بن يعقوب لا تصح ، وقد مات يهوذا قبل موسى بنحو خمسة قرون . ولا تصحُّ أيضا نسبةُ اليهود كُلِّهِمْ إلى "يهوذا " بن يعقوب، وأكثرُهُم من غير سبطه . وإنما الشرفُ فى هذا وذاك وَقَعَ ليهوذا بن يعقوب مَحْضَ مصادفةٍ ، أنْ كان من سبطه داودُ وسليمان اللذان راحا ـ على قِصَرِ مُلكهما ـ بكلٍّ ما كان لليهود فى غابر الدهر من مجدٍ سياسى على تلك البقعةِ المحدودة من أرضِ فلسطين .

والذى نتوقف عنده فى هذا السياق أن القرآنَ المعجز الذى عَلِمَ هذا كُلَّهُ قبل أن يعلمَهُ غيرُه ، لا يجىءُ قط بلفظة "اليهود" وقد وَقَعت فى كل القرآن ثمانى مرات ـ ولا بلفظ "اليهودى" وقد وقعت فى كل القرآن مرةً واحدة ـ إلا مُقْتَرِنَيْنِ بلفظَى "النَّصْرانِيّ"، " النصارى" ، يعنى أصحاب الملة على ما آل إليه اسمُهم فى عصره . أما إن أراد القبيلةَ أو الشعب فى عصورٍ سبقت ـ حتى الذين عبدوا العجل فى التيه ـ فلا يقولُ إلا " قومَ موسى" أو "بنى إسرائيل" ، وسبحانَ العليمِ الخبيرِ .

على أن القرآنَ يقول أيضا " الذين هادوا " ، وليست هذه كتلك ، كما سترى .

❑❑❑

يستخدم القرآن فى تفسير معنى لفظة " اليهود " أسلوبَ الترجمة على منهجنا فى هذا الكتاب ، فيقول : " الذين هادوا " من الجذر العربى هاد/ يَهُودُ/ هَوْدًا ، يَأخذُها من قول موسى فى استغفاره لقومه فى فتنة العجل : { **قال ربِّ لو شئت أهْلَكْتَهم من قبلُ وإياى ، أتُهلكُنا بما فعل السفهاءُ منَّا ! إنْ هى إلا فتنتُكَ تُضِلُّ بها من تشاءُ وتهدِى من تشاء ، أنت وَلِيُّنا ، فاغفر لنا وارحمنا ، وأنت خيرُ الغافرين . واكْتُبْ لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة ، إنا هُدْنا إليك** } (الأعراف : ١٥٥ ــ ١٥٦) ، أى تُبْنَا وأَنَبْنا .

وقد تقول ـ كما أقول ـ ان القرآن يستخدمُ عبارةَ " الذين هادوا " أخذاً لبنى إسرائيل بقولِ موسى على لسانهم : "إنا هُدْنا إليك" ، أى يستخدمُها على مَحْمِل تبكيت الذين هادوا ثم لم يَهُودوا ، بل عَصَواْ ثم هادوا ثم عَصَواْ من بعد . وهذا جيد . ولكن الذى تندهش له ، أن " الذين هادوا " هذه هى أحد وجوه ترجمة اسم "يهوذا" عبْرِيّاً ـ الشخصِ أو الأرض ـ لا عِبْرَةَ بهذا أو ذاك ، إن لم يكن أَصوبَ هذه الوجوه .

□□□

من معانى اليد فى لغتنا العربية الصنيعُ والإحسانُ والمعروف ، تقول : لَهُ عَلَىَّ يَدُ ، تُريدُ له عندى صنيعٌ أنا لَهُ عارِف ، ممتنٌ شكور . ويجىء على هذا المعنى الجذر العربى " يَدَى" ، مجرداً أو مزيدا فى أَوله بهمزة التعدية " أَيْدَى " .

وعلى هذا المعنى أيضا يجىءُ فى العبرية الجذر العبرى " يَداَ " (وأصلُهُ بالواو " وَدَا " الذى تستخدم العبريةُ المعاصرة مُضَعَّفَهُ " ودّاَ " بمعنى الاعتراف والإقرار) ، والمُعَدَّى منه فى العبرية بالهاء (كالمُعَدَّى فى العربية بالهمزة على ما مر بك) هو " هُودا " يعنى أقرَّ بالصنيع أو شَكَر (ومنه فى العبرية المعاصرة " هُودا " على المصدرية بمعنى عرفان الجميل أو الامتنان وأيضا : " تُودا " يعنى : شُكْراً) . على أن "هُودا" تعنى أيضا الاعتراف والإقرار على أصلِها ، ومنها " هُودا بِأَشْمَه" يعنى أقر بذنبه أو إثمه (والإثمُ فى العبرية بالشين) . وعلى هذا الوجه تستطيع أن تترجم إلى العبرية عبارة موسى عليه السلام فى القرآن : "إنا هُدنا إليك !" (الأعراف : ١٥٦) بقولك عبرياً :" كِي هُودينو لِخَا !" ، من "هُودا" العبرية هذه ، أى قد أقررنا لك ! على معنى التوبة والإنابة .

وعلماءُ التوراة يشتقون اسم يهوذا من " هُودا " أيضا على زنة فعل المضارع المفرد الغائب المبنى للمجهول يُرادُ منه اسم المفعول ، يشتقونه على معنى الشكر والعرفان فهو يُشْكَر ، بمعنى مشكور ، استنباطا من قول سفر التكوين على لسان والدته حين وضعته : "هَپعَّام أوده إت يَهْوَا ، علْ كِنْ قارْءا شْمُو يهُوذا ، وتَعْمُدْ ملِّيدت" (تكوين ٢٩ / ٣٥) التى تجدها فى الترجمة العربية هكذا : "هذه المرة أَحْمَدُ الرب . لذلك دَعَتِ اسْمَهُ يهوذا . ثم توقفت عن الولادة " (تكوين ٢٩/ ٣٥ ـ النص العربى).

هنا تلمح على سن قلم الكاتب أنه يفسر جازما معنى "يهوذا" بمعنى الحمد الذى فى عبارة والدته "هذه المرة أَحْمَدُ الرب" على ما ترجمها المترجم العربى لسفر التكوين. والصواب أن تترجم هذه العبارة بقولك : "هذه المرة أَشْكُرُ الرب" لا "أَحْمَدُ الرب" لأن "هودا" العبرية بمعنى "شَكَر " لا بمعنى "حَمِد" . والتفرقة بين الحمد والشكر من دقائق اللغة العربية ، لا يَفْطِنُ إليها كثيرون ، ناهيك بغير الساميين الذين هم عن فَهْمِ هذه التفرقة أبْعَد ، فهم يخلطون بين الحمد والمدح والشكر ، كما تجد على سبيل المثال فى الترجمة الانجليزية لمعنى اسم " يهوذا " ، فيقولون Praised يعنى "ممدوح" . ولو كانت "هودا " بمعنى الحمد لما جاز للعبرية المعاصرة أن تشتق منها " تُودا !" يعنى "شُكْراً !" الصحيحُ على قول سفر التكوين فى هذا الموضع أن يهوذا معناها يُشْكَر على البناء للمجهول ، أى الذى هو موضع شكر والدته على إنجابها إياه ، ذكَراً رابعا ، ولم تُنْجِب بعد أختُها وضَرَّتُها راحيل . وقد سَمَّى العربُ قريبا من " يُشْكَر " هذه ، فكان من أعلامهم مثل " اليَشْكُرِىّ " .

على هذا يكون معنى " اليهود " ، أى " اليهوذيين " المنتسبين إلى "يهوذا " ، أى إلى "يشكَر" هو " اليُشْكَرِيُّون " .

وقد تقول إن " ليئة " والدة يهوذا لم تقل هذا الذى قاله على لسانها كاتب سفر التكوين ، بدليل أنه يضع فى كلامها لفظة "يِهْوَا " بمعنى " الرب " فى النص العبرانى، ولم تعرف "يِهْوا " هذه فى العبرية إلا فى رسالة موسى (خروج ٦/٣) ، ولم يولد موسى إلا بعد هذا بخمسةِ قرونٍ على الأقل . وإنما قال هذا كاتبٌ يكتبُ على زمنه عصرَ داودَ وسليمان يُريدُ توثيقَ المعنى الذى يُفَسِّرُ به الاسم من أجلِ مجدِ بيتِ داودَ الذى من سبط يهوذا ، استكمالا لتفضيله يهوذا على جميعِ أبناءِ يعقوب على ما مر بك فى موضعه من وصايا يعقوب أو بَرَكَاتهِ لبنيه .

وقد تكرر من الكاتب تأصيلُ معنى "يهوذا" على الفعل "هودا" العبرى ، لا على لسان والدته هذه المرة وإنما على لسان أبيه ، أعنى فى "بَرَكَاتِ " يعقوبَ لبنيه ، بقوله فى الإصحاح التاسع والأربعين من سفر التكوين (النص العبرانى) : "يِهُوذَا أَتَّا يُوذُوخا أَحِيخا" التى قالها المترجم العربى : " يهوذا إياك يَحْمَدُ إخوتُك " (تكوين

٨/٤٩) يترجم هذه المرة أيضا " يُوذُوخا " (وهى " هُودا " فى صيغة مضارع جمع الغائب) بمعنى الحمد ، ربما متابعةً للمترجم الانجليزى الذى يستخدم فيها هنا أيضا الفعل To Praise .

ولكن المعجم العبرى المتخصص الذى أحَلْتُكَ إليه (ص ١٩٧) يُخالفُ هنا المترجمَ العربىَّ والمترجمَ الانجليزىَّ على السواء ، إذ يتخذ من عبارة يعقوب هذه نفسها "أتّا يُوذُوخا أحِيخا" (إياك يَحْمَدُ إخوتُك) مثالا لتفسير أحد معانى الفعل "هُودا" العبرى ، فيقول ـ والقول ما قاله بالطبع فهو صاحب اللغة ـ : أتّا يُوذُوخا أحِيخا يِتّانُو لخا هُودْ مَلخُوت ، كُلْ هَشْبَطِيم يكَيرو بعِرْكخا ، أى لا "إياك يحمد إخوتك" وإنما : يعْطونَكَ مَجْدَ المُلك ، كُلُّ الأسباطِ يُقِرُّون بفضلك . أعنى أن هذا المعجم العبرى المتخصص لا يفسر الفعل العبرى "هُودا" لا بمعنى "حَمِدَ " ولا بمعنى "مَدَحَ " أو "شَكَرَ" ، وإنما يفسره بمعنى الإقرار والاعتراف .

ليس هذا فقط ، بل إن هذا المعجم العبرى المتخصص يقول لك فى نفس الموضع بالنص وهو يسرد عليك مختلف معانى الفعل العبرى " هُودا " إن " هُودا " من معانيها عبرياً ، "هِتْحرِطْ" ، يعنى : "تابَ ونَدِمَ" ، فهى التَّوْبَةُ والَمثابة (" تِشُوبا " العبرية).

متى صَحَ لك هذا ـ وهو صحيحٌ بقولِ شاهدٍ من أهْلِها ـ جاز لك أن تُفَسِّرَ اسمَ "يهوذا" على معنى "الهائد" التائب المُنيب .

وكَأَنَّ "يهوذا " أثَارةٌ من اسم النبى "هود" عليه السلام ، مَأْخُوذاً من العربيةِ الأولى على ما مر بك فى موضعه .

❑❑❑

وليس لنا بالطبع فى هذا الكتاب أن نُطالبَ المترجمَ العربىَّ لسفرِ التكوين بتصحيح ترجمة عبارة "يهوذا إياك يَحْمَدُ إخوتُك" إلى : "يهوذا إليكَ يَثُوبُ إخوتك" ، وإنما الذى يعنينا فى مقاصد هذا الكتاب الذى نكتب هو أن القرآن المُعجزَ عَلِمَ من قبل أن من معانى "يهوذا" الهائد المُنيب ، فَجَانَسَ عليه فى وصفِ " اليهود" المنتسبين إليه، فقال "الذين هادوا" ، وكأنه يُذكِّرَهُم بقول موسى يستغفرُ لهم ربَّه فى فتنة العجل : {إِنا

هُدْنا إليك} (الأعراف : ٥٦) التى تقولها عبرياً: "كِى هُودينولِخا" على ما مر بك ، يفسر لهم بها ما تَسَمَّوْا به . وسبحانَ العليمِ الخبير .

❑❑❑

وكما جاءت "الذين هادوا " عَشْرَ مرات فى القرآن على الإبدالِ من "اليهود" ، جاءت فيهم أيضا ثلاثَ مرات لفظةُ " هُود" (وقد وردت فى المراتِ الثلاث مزيدةً بألفِ تَنْوِين المنصوب "هُودا") .

وقد قيل (راجع تفسير القرطبى للآية ١١١ من سورة البقرة) لن " هود " هذه هى إما على التخفيف من "يهود " بحذف الياء البادئة ، وإما هى "الذين هادوا" نفسها جاءت بصورة جَمْعِ الفاعل من " الذى هَادَ " ، وهو الهائد ، يُجْمَعُ على هُود . وهناك وجهُ أقترحُهُ عليك ، وهو أن " هُود " هذه جاءت تسميةً باسم الفعل من هادَ يَهُودُ هَوْداً فهو " هُود " . هذا الوجه هو الراجحُ عندى ، وهو أيضا الذى إرتأيناه فى تحليلِ اسم النبى "هُودٍ" عليه السلام، والتسميةُ بالمصدر واسم الفعل يستوى فيها المفردُ والجَمْع . وكان هذا أيضا مَذْهَبَنا فى تفسير اسم النبى " لوطٍ " عليه السلام من لاطَ يَلُوطُ لَوْطاً فهو " لُوط" .

أما "يهود" فلم تقع فى القرآن قط مجردةَ من الألف واللام ، وإنما جاءت حيثما وردت ، وقد وردت فى كل القرآن ثمانى مرات ، مُعَرَّفَةً بالألف واللام "اليهود" ، والتعريفُ بالألف واللام كما تعلم يَمْنَعُ من الصرفِ وُجُوبا . ومن هنا لا يَستبينُ لك مَنْهَجُ القرآنِ فى جوازِ تنوين "يهود" . والفصيح هو عدم جواز تنوين "يهود" لسببين : إن اعتبرتَها أعجمية ، فَلِلْعُجمة ، وإن اعتبرتها عربية ، من هَادَ يَهُود ، فلأنَّها مبدوءةٌ بياءِ المُضَارَعَة كيَشْرِبَ ويَنْبُعَ ويَزِيد ، وهذا يَمْنَعُ من الصرفِ وُجُوبا .

والذى أقولُ به أنا هو أن "يهود" بالذات ليست عربية ، وإنما هى من الأعجمى الذى نطق به العربُ قبل القرآن ، وأنها قيلت بذاتها على معنى الجَمْعِ اسماً لشعبٍ أو قبيلة: تقول " ثلاثةُ رجالٍ مِنْ يَهود" ، ولا تقول" ثلاثةُ رجالِ يَهَاوِيد أو ثلاثةُ رجالٍ يَهُودِين" أما إن أردت التنصيص على المُفْرِدِ أو المُثَنَّى فأنت تقول على النسب "يَهُودِىٌّ" أو " يَهُودِيَّان " .

وقد وقعت الصفة على النسب إلى "يهود " مرةً واحدةً فقط فى كل القرآن ، فى قوله عز وجل { **ما كان إبراهيمُ يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفاً مسلماً** } (آل عمران : ٦٧) .

وجاء فى فصيحِ العربية ، بل وفى الصحيحِ من حديث سَيِّد الفُصَحاء صلى الله عليه وسلم ، لفظةُ "يهود" مُعَرَّفةً بِمَحْضِ عَلَميَّتها لا تحتاجُ إلى الألِفَ واللام ، يُرادُ منها فى الغالب ذلك الحَىُّ من يَهودِ يثرب ، كما تقول " عادٌ " ، " ثَمُود ".

ولكن القرآن المعجز ـ وقد أتى بلفظةِ " اليهود" ثمانى مرات ـ لا يأتى بها إلا مُعرَّفَةً بالألفِ واللام ، يَقْطَعُ شُبْهَةَ تأويلِ مقولتِه فيهم فى تلك المواضع الثمانية بأنها تَنْصرفُ إلى بعض من يهود دونَ بعض ، من مثل قوله عز وجل : { **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء** } (المائدة : ٥١)، { **لَتَجِدَنَّ أشَدَّ الناسِ عداوةً للذين آمنوا اليهودَ والذين أشركوا** } (المائدة : ٨٢) : إنهم يهودُ كلّ مكانٍ وكلِّ عَصْر ، سُنَّةً ماضيةً فيهم إلى يوم القيامة ، فَخُذوا حِذْرَكُم أيُّها المؤمنون الذين أسْلَمُوا .

□□□

وقد مر بك فى تقديمنا لهذا الفصل أن " اليهود " تسميةٌ على المَدْح . ولو فَهِمَها أصحابُها على أصْلِها فَعَمِلوا بها لكانَ خَيْراً لهم ، ولكن اليهودَ هادوا ثم عَصَواْ ، ثم هادوا ، ثم عَصَواْ من بعد .

ومن معانى الهَوْدِ فى اللغة، الهَوادَةُ والمُهَاوِدَة، أى الانصياعُ وَتَرْكُ التَأبِّى. والهَوْدُ إلى اللهِ عز وجل هو هذا بالذات : تَجِيئُهُ مُذْعِناً قد سَكَنَ منكَ القلبُ والجوارح . إنه "إسلامُ الوجهِ لله" .

من هذا قوله عز وجل فى تفسير الذين هادوا : {**إنا أنزلنا التوراةَ فيها هُدَىً ونور يَحْكُمُ بها النبيون الذين أسْلَموا للذين هادوا**} (المائدة : ٤٤).

ومنهُ أيضا قولُ القرآنِ على لسانِ سليمان : { **وأوتينا العِلْمَ من قَبْلِها وكُنَّا مُسلِمين** } (النمل : ٤٢) ، أى أوتينا التوراةَ من قبلُ وكنا هوداً هائدين .

بل منه أيضا تلك الآية الجامعة لا قَولَ بعدَها لقائل : { **إن الدين عند الله الإسلام ، وما اختلف الذين أُوتوا الكتاب إلا من بعدِ ما جاءهُمُ العِلْمُ بَغْياً بينهم** } (آل عمران : ١٩) يعنى إلا من بعد ما جاءتهم التوراة كما مر بك ، فما جاءتِ التوراة إلا بهذا الإسلامِ نَفْسِه .

وأخيرا قال الحق سبحانه : { **فإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وجهى لله ومن اتَّبَعَن وقُل للذين أوتوا الكتابَ والأميين أأسْلمتم فإن أسْلَمُوا فقد اهتدوا** } (آل عمران : ٢٠) .

هذا هو الدِّينُ القَيِّم ، لا يُدانُ للهِ بغيره ، ولكن أكثرَ الناس لا يَعْلَمُون .

فهل آن للذين هادوا أن "يَهُودوا " ؟

عسى ربُّهم أن يَرْحَمَهُم ، أو يتوبَ عليهم لِيهُودوا .

الفصل الثامن

داود ذو الأيد :

أنبياء وملوك

يتناول هذا الفصل تفسير اثنى عشر اسماً علماً ، هى : طالوت ـ جالوت ـ داود ـ الزَّبور ـ سليمان ـ إلياس ـ اليَسَع ـ ذو الكِفل ـ يُونُس ـ أيُّوب ـ عُزَيْر ـ لُقمان .

□□□

والترتيبُ التاريخىُّ للأعلام الخمسة الأولى : طالوت ـ جالوت ـ داود ـ الزبور ـ سليمان ، ترتيبٌ تتفق فيه التوراةُ مع القرآن . فطالوتُ هو شاؤول ، أوّلُ مُلوكِ بنى إسرائيل، سألوا نبيا لهم [1] أن يَبْعَثَ اللهُ عليهم ملكاً فبعث الله عليهم طالوتَ ملَكا ، وهو شاؤول كما مر بك ، ومعنى " شاؤول " عبريا هو السُّؤْلُ والطِّلْبَة كما سترى . وجالوت من جبابرة الفلسطينيين الذين كانت بينهم وبين إسرائيل حروبٌ على عَصْرِ شاؤول . وداود كان يمشى فى عَسْكَرِ شاؤول ، فخرج إلى مبارزة جالوت ، وقَتلَ داودُ جالوت {البقرة : ٢٤٦ ـ ٢٥٢} . والزَّبور وهو " المزامير " فى أسفار العهد القديم ، وَحْىُ الله على داود كما تعلم . أما سُليمَان فهو ابن داود عليهما السلام ، خَلفَ أباهُ فى بنى إسرائيل فَوَرِثَ العرش كما وَرِثَ النُبُوَّة .

أما الأعلامُ السبعةُ الأخرى : إلياس ـ اليسع ـ ذو الكفل ـ يونس ـ أيوب ـ عزير ـ لقمان ، فلا يستبين لها ترتيب مقطوع به فى القرآن . ولكنك تجد فى التوراة إلياس فى أعقاب سليمان ، وتجد اليَسَع تلميذا لإلياس ، ويجىءُ ذو الكفل من خلفاء اليَسَع . أما يُونُس وأيُّوبُ فلا ترتيبَ لهما تَطْمَئِنُّ إليه فى التوراة ، فجئنا بهما الواحدَ بعد الآخر ، قبل عُزَيْر . وأما لُقمانُ فقد انفرد به القرآنُ ولم تُسَمِّه التوراة .

---

(١) هو " صموئيل " ، وأصلها العبرى " شمُوئيل " بالشين . وقد تردد علماء التوراة فى تفسير النصف الأول من هذا الاسم المزجى " شمَو" : قال بعضهم انها من " شم " العبرية يعنى " اسم " فهو " اسم الله " أو " اسمُهُ الله " عَلى تمجيد الله عز وجل يوم وُلِد ، وقال آخرون بل هى مخففة من " شَمُوع " العبرية فهى سَمِيع بمعنى مَسموع ، فهو " مسموعٌ من الله " على معنى " مستجابُ الدعوة " . ولم يُذكر صموئيل بالاسم فى القرآن ، وإن أُثبتَ لهُ النبوة .

وليس المرادُ من عنوان هذا الفصل ـ " أنبياء وملوك " ـ أن رجاله جميعا إمّا أنبياءُ وإمّا ملوك ، أو أنهم ملوكٌ أنبياء . نعم ، قد كان منهم الملكُ النبى مثل داود وسليمان، وكان منهم الملك فحسب مثل شاؤول (طالوت) الذى كان ملكا ولم يكن نبيا ، وكان منهم إلياس واليسع وذو الكفل ويونس وأيوب ، أنبياء ليسوا بملوك . ولكن منهم أيضا من ليس هذا ولا ذاك : جالوت ، جبّار فِلَسْطِينىٌ عابدُ وَثَن ، لا تُثبت له التوراة صفة الملك على الفلسطينيين ، ولا يُثبتها له القرآن ، وإنما يثبت له صفة قائد جُندهم أو أمير جُموعهم كما تجد فى قوله عز وجل : {**فلما برزوا لجالوت وجنوده**} (البقرة : ٢٥٠) ، بينما هو فى التوراة شُجاعٌ عملاق من أبطال جند الفلسطينيين فحسب . وثَمَّ أيضا عُزَيْر ، لا نبىٌّ ولا مَلِك . وثَمَّ أيضا لُقمان الذى انفرد به القرآن ولا تَتَجاوز بِه رُتبة الصدِّيق ، فلم تَثْبت لَهُ النبوةُ فى القرآنِ أو فى حديث صحيح .

وإنما الإشارة بهذا العنوان ـ " أنبياءُ وملوك " ـ هى إلى داودَ وسليمان ، أبْرَزِ أعلامِ هذا الفصل ، اللذين انفردا بالملك والنُّبُوةِ جميعا ، صلوات الله وسلامه على جميع رُسُلِه وأنبيائه .

(٤٠) طالوت

مر بك فى تضاعيف هذا الكتاب أن القرآن يخالف التوراة فى تسمية أوّل ملوك بنى إسرائيل: قالت التوراة " شاؤول " ، وقال القرآنُ " طالوت ".

وقد زعم بعضُ المستشرقين المنْكرين الوحيَ على القرآن [١] ، أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) أخطأ خطأً بيّنا فى تسمية شاؤول : قيلَت له شاؤول فوقَعَت فى سمعه طالوت ، ولم يَتثَبت . وأنصفَ بعضهم - أو تحرى بعض الإنصاف ولم يستوف - فقال ان محمداً (صلى الله عليه وسلم) عَلِمَ من وَصْفِ هيئة شاؤول فى التوراة إفراطَ شاؤول فى الطُّول ، فَلَقَّبَه بكُنية يُستفادُ منها المبالغةَ فى الطول ، فقال " طالوت " على الإبدال من اسمه الأصْلى فى التوراة " شاؤول " عالماً أو غيرَ عالِم بهذا الاسم الذى لطالوتَ فى التوراة .

ولم يتصدَّ هؤلاء - كما لم يَتَصَدَّ القرطبىُّ رحمهُ الله فى تفسيرِه الآية ٢٤٧ من سورة البقرة - لسببِ عُدول القرآن عن " شاؤول " إلى طالوت ، ولو عَلِمهُ المستشرقون لما مَلكوا إلاّ أن يَشهدوا لهذا القرآن بإعجازٍ فوق إعجاز ، كما سترى . ولكن الهُدى هُدى الله ، والله عز وجل لا يَهدى إليه إلا من أناب .

□□□

رَسَمْنا " شاؤول " بالألف بعد الشين على ما شاعت به فى "الكتاب المقدس" (وتُرْسَم فيه أيضا بواو غيرِ مهموزة " شَاوُل ") ، وصحيحُها فى العبرية "شَؤُول" ، على زِنَة " فَعُول" ، زنة اسم المفعول فى تلك اللغة . و "شاؤول" مفعول من "شَأَل" العبرى ، مُكافىء "سَأَل" العربى بكل معانيه ، وأخَصُّها المَعْنىُّ هنا الطلب ، تقول سألتُ الله عز وجل ، يعنى طلبتُ منه وتمَنَّيتُ عليه : { **يَسألُهُ مَنْ فى السموات والأرض،**

---

(١) انظر Joseph Horovitz ، المرجع المذكور ، ص ١٩ .

كُلَّ يوم هو فى شأن } (الرحمن : ٢٩) أى أنه جل وعلا الساعى فى حوائج الخَلْقِ أجْمَع ، كُلَّ يوم هو فى شأنِ هذا وذاك وتلك ، المُستَخْفى بالليل والسارب بالنهار ، لا يَغفَل عن النملة فى أديم الأرض ، ولا يَسْهُو عن النَّبْتَةِ فى صميم الجبل . وهذا من دقيقِ القرآن ، لو تَأمَّلتَه لسَاخَت نفسُك ، ولَخَشَعَ العقلُ وانفَطَرَ القلب .

" شاؤول " إذن معناها عبريا " مَسؤول " بمعنى مَوضِع السؤال والطَّلَب ، فهو "طِلْبَةٌ " أو "سُؤْل" أو هو " المِنَّة " و " الفضل " ، كما قال عز وجل يستجيبُ لموسى : { **قال قد أُوتيتَ سُؤلك يا موسى . ولقد مَنَنَّا عليك مرةً أخرى** } (طه : ٣٦ ــ ٣٧) ، يعنى قد طُلْنَا عليك بما سألت ، أى طُلْنَا عليك بسُؤلك الذى سألت ، وهذا شبيه بما سأله صموئيل لقومه : سألوا الله على لسان هذا النبى أن يبعث عليهم الله مَلِكا ، فطالَ الله عليهم به ، وكان لهم سُؤْلُهم الذى سألوا .

والقرآنُ المُعجِز ، الذى لم يَفُتْهُ معنى " السُّؤال " الذى فى شاؤول العبرية كما ظن المتطفلون على المباحث اللغوية من أدعياء الاستشراق المُنْكِرين الوَحىَ عليه ، يجىء بشاؤول على " طالوت " العربية التى تَجْمَع بين مَعْنَيين كما سترى : الذى طالَ الله به على قومه ، والطُّوَالُ الذى فَاقَ بطُولِه كلَّ أقرانه . فأىُّ إعجازٍ وأىُّ عِلم ! .

❑❑❑

كان شاؤول رَجَلا طُوَالا ، يعنى مُفرِطاً فى الطُّول ، لا يتجاوزُ كَتِفَيْه أحَدٌ من قومه : " فوقف بين الشعب فكان أطول من كل الشعب من كَتِفه فما فوق " (صموئيل الأول ١٠/٢٣) [١] فكان طول قامته من دواعى تَقَبُّلهم له واجتماعهم عليه : " فقال صموئيل لجميع الشعب أرأيتم الذى اختاره الربُّ أنَّهُ ليس مثله فى جميع الشعب ؟ فهتف له كل الشعب وقالوا ليَحْيَى الملك " (صموئيل الأول ١٠/٢٤) .

والقرآنُ يعبر عن فَرْط طُول قامة شاؤول بالبَسْطَة فى الجسم . ولكن القرآنَ يَزيدُ قارئَه بيانا : { **وقال لهم نبيُّهم إن الله قد بعث لكم طالوت مَلِكا ، قالوا أنَّى يكونُ لَهُ المُلكُ علينا ونحن أحَقُّ بالمُلك منه ولم يُؤتَ سَعَةً من المال ؟ قال إنَّ الله اصطفاهُ عليكم وَزَادهُ بَسْطَةً فى العِلْم والجسم،**

(١) لصموئيل النبى فى العهد القديم سفران : سفر صموئيل الأول وسفر صموئيل الثانى ، فهما سفران لا صموئيلان ، أعنى أن الأَوَّل هنا صفة للسِّفر لا لصموئيل .

والله يُؤتِى مُلْكَهُ من يشاء ، والله واسعٌ عليم } (البقرة : ٢٤٧) ، يُذكِّرُهُم بأنهم هم الذين استخاروا الله فيمن يملكون عليهم ، وقد اصطفاه الله من دونهم ، فلا قول بعد هذا لقائل . ولكنه عز وجل يتلطف ، فيبين لهم أسباب الاصطفاء لهذا المنصب: لا عبرة بسعة المال ، وإنما العِبْرَة بالبَسْطَة فى العلم اللازم لإدارة شؤون الملك ، وبالهيئة التى تَحْفَظُ الهَيْبَة ، وقد اجتمعا فى " طالوت " طويلِ القامة الذى طَالَ اللهُ عليهم به .

❑❑❑

طَالَ يَطُولُ طُولا (مضمومَ الطَّاءِ فى المصدر) يعنى طالت قامَتُه فهو طويل .

أما طَالَ يَطُول طَوْلا (بفتح الطَّاءِ فى المصدر) فمعناه طالت قامَتُهُ حتى فَاقَ أقرانَه فهو طُوَال . ومعناه أيضا أفْضَلَ وَمَنَّ وأنْعَم : طاله بكذا ، وطال عليه به ، يعنى جاد عليه بالفضل والمنة . والاسم من هذا ، أى المَطُولُ به ، هو الطَّيل ، والطَّال والطَّالَة أيضا .

وقد وصف الله عز وجل ذاتَه العَلِيَّة بذى " الطَّوْلِ " (غافر:٣) يعنى المُنْعِمُ المِفْضَال المُتَفَضِّل .

و " طالوت " مصدر صناعىٌ من " الطَّال " على هذين المعنيين كليهما ، الطُّوَال والطَّال ، كما قيل " نَاسوت " من " النَّاس " ، جاءَ بها القرآنُ ولم تُسْمَع من العرب ، إدْلالاً بعلمه واعجازه ، فيجىء بشاؤول المعنى لا يسميه باسمه مُتَرجماً فحسب ولكنه يصوره لك أيضا بصفته : لا تقرأ " طالوت " أو تسمعها إلا وتراه أمامك ، الطُّوَال العِمْلاق . وسبحان العليم الخبير .

❑❑❑

وقد فَطَنَ مفسرو القرآن (راجع تفسير القرطبى للآية ٢٤٧ من سورة البقرة) إلى معنى " الطُّوَال " الذى فى " طالوت " . ولكنهم ، وقد علموا من أحاديث أهل الكتاب أن طالوت اسمه فى التوراة " شاؤول " ، لم يَفْطِنُوا إلى ما فى "طالوت" من معنى الطَّيل والطَّال والطَّالة ، أى الامتنان على السائل بما سأل ، أى السُّؤل ، معنى

اسم " شاؤول" عبريا . وهم لم يفطِنوا إلى هذا لأنهم لم يعلموا أن شاؤول عبريا معناها "السُّؤل " عربيا ، وما كان لهم أن يعلموا هذا لأنهم لا يقرءون التوراةَ مباشرة فى نصِّها العبرى ، ولأنهم أيضا ، وهذا أهم ، لم يتوفروا على دراسة عبرية التوراة بالقدر اللازم لتأصيل معانى أعلامها .

□□□

أما لماذا عدل القرآن عن "شاؤول" إلى "طالوت" التى لا وجود لها بذاتها أو بوجهٍ قريب منها فى أسفار التوراة التى بين يديك ، فهذا كما مر بك هو منهجُ القرآن فى التعريب : يَعْدِلُ عن التعريب إلى الترجمة حين يُسىء التعريبُ إلى المعنى :

إن قال فى " شاؤول " شَؤول على أصلها العبرى ، اختلط معناها بمعانى الجذر العربى "شَالَ" بالشين غير مهموز ، فعْلَ العقرب ، تَشُول عليك بذنبها ، وهذا بعيدٌ تماما عن معنى الجذر " شَأَل " العبرى المهموز المكافىء لـ " سَأَلَ " العربى بالسين .

وإن قال فى تعريب " شاؤول " " سَؤُول " ، أى شَؤُول العبرية مَعدولاً عن شينها إلى السين ، شأنَ القرآنِ فى الأعلام العبرية ذوات الشين ، مثل " شِلُومُون " المعربة على " سُلَيْمان " ، أخذها القارىء بمعنى " سَؤول " العربية يعنى الكثير السؤال ، أى السائل المُلحِف فى السؤال ، أى أخذها بعكس معناها فى العبرية : السُّؤْل ، موضع السؤال .

وقد كان فى متناول القرآن بالطبع أن يترجم " شاؤول " بمكافئها العربى الدقيق ، أعنى " سُؤْل" أو سُول " (غير مهموزة ، قد سُمعَت من العرب بمعنى " سُؤْل " المهموز) ، أو يترجمها بفعل آخر بنفس معناها ، وهو الطَّلَب ، فيقول " طِلْبَةٌ " (كما نسمى نحن فى أعلامنا الآن فنقول " طُلبة " بضم الطاء على معنى " البُغية ") .

ولم يفعل القرآن هذا لأن " سُول " غير المهموزة تختلط عند القارىء العربى بمعنى " التسويل" وهذا من معنى " شاؤول " العبرى بعيد . ولأن " سُوْل " و " طِلْبَة " ليس لهما من الجرسِ القرآنى الذى عَهِدَت نصيب .

أما " طالوت " التى جاء بها القرآن ـ وهى من مستحدَثاتِ القرآن ـ يُصيبُ بها الاسمَ والصورةَ معا ، فهى شَأْوٌ فى الترجمةِ بعيد ، دُونَه قطع الرقاب .



فسر القرآنُ إذن العَلَمَ العبراني " شاؤول " بالترجمة ، فقال " طالوت " ، والتفسير في القرآن بالترجمة يُغني عن كل تفسير . ولكن القرآن يفسر أيضا معنى هذا الاسم الأعجمي وهو الطِلْبَة والبُغْيَة والسُّؤْل ، بالتصوير ، في قوله عز وجل : {**ألم تَرَ الى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبيٍّ لهم ابعثْ لنا مَلِكاً نقاتِلْ في سبيل الله** } (البقرة : ٢٤٦} ، أي سألوا الله على لسان هذا النبي مَلِكًا يقاتلون معه في سبيل اللهُ ، فاستجاب الله سُؤلَهُم بشاؤول مَلِكًا .

ولعلك تلاحظ هنا أن " شاؤول " ، شَأْنُها شَأْنُ كثير من أعلام التوراة ، تُشْبِهُ أن تكون كُنْيَةً يَتَكَنَّى بها العَلَمُ المقصودُ بعد تَحَقُّقِ الصفة والحال ، أي ما كان شاؤول "سُؤلاً " يوم وُلِد ، وإنما يوم مَلَّكَهُ الله عليهم بسؤالهم إياه .

وطالوت العربية من هذا أيضا بلا جدال ، فلا أحدَ يتسمى يوم مولده بالطُّوَال العملاق ، إلا أن يُرادَ منها المعنى الآخر ، الفضل والمِنَّة ، الذي تأخذه من الطال والطالة، فلا تَدري أيُّ الإسمين كُنْيَة ، ولا تَدري أيضا أي الكُنْيَتَيْن أسبق من الأخرى في تسمية هذا الملك .

أما لماذا جاءت " طالوت " في القرآن ـ وهي عربية ـ اسماً ممنوعاً من الصرف غَيْرَ مُنَوَّن ، فالوجه عندي أن أخص سبب لهذا هو الإشارة إلى عجمة صاحب الاسم العَلَم .

(٤١) جالــوت

تُرسَمُ " جالوتُ " فى التوراة " جُلْيات " ، وتُنْطَقُ تاؤها فى عبرية التوراة ثاءً لاعتلال ما قبلها بالألف اللينة (أى غير المهموزة) على ما مر بك من قواعد النطق فى تلك اللغة .

وضم الجيم فى " جُلْيات " العبرية اصطلاحى بحت ، لأن جيمها فى الخط العبرى مشكولة بالفتحة المفخَّمَة الممدودة ، ولكن سُكونَ اللام بعد الجيم فى المقطع الأول ونَبرَ الألف اللينة فى المقطع الثانى (جل ـ يات) يوجبان فى اصطلاح علماء العبرية خطف المقطع الأول ، أى تقصير زمن نطقه ، فتنطق الفتحة المُفَخَّمَةُ فيه " ضمة " خلافا للرسم، أى أنها ترسم بالفتحة " جَلْيات " وتنطق بالضمة "جُلْيات" . وهذا يدلك على أن الأصل فيه قد كان الفتحة ، كما فى جيم " جالوت " التى فى القرآن .

هذا إلى أن ضوابط النطق من نَقْطٍ وشكل فى التوراة التى بين يديك على مقتضى الرسم الذى ابتدعته جماعة " بَعَلِى ماسُورا " أى (أهل الأثر) على مدى ثمانية قرون من القرن الثانى إلى القرن العاشر الميلاديين فى ظل المسيحية ثم فى ظل القرآن ، ليست لها حُجِّيَةُ الشىء الموحى به ، كما مر بك فى تضاعيف هذا الكتاب . هذا فضلا عن أن صاحب هذا الاسم كما تقول التوراة كان رجلا فلسطينيا ليس بعبرى من بنى إسرائيل ، وأنه رغم وحدة الجذور بين اللهجات العبرية والآرامية والكنعانية كان يَنْطقُ اسمه بلهجة آبائه وأجداده ، غَيْرَ مُجْبَرٍ على اتباع النقط والشكل اللذين ابتدعهما أهلُ الأثر وانتَهَوا منه فى القرن العاشر الميلادى بعد نحو ثمانية عشر قرناً من مَهلك "جالوت " .

❏❏❏

وقد زَلَّ أدعياءُ الاستشراق زَلَّةً فاحشة فى "جالوت" التى فى القرآن [١] ، كما زَلُّوا من قبل ومن بعد فى غيرها : قالوا إن محمدا (صلى الله عليه وسلم) ربما سَمِع

(١) راجع : Joseph Horovitz ، المرجع المذكور ، ص ١٨ و ١٩ .

من يهود يثرب لفظة "جالوت" العبرية (ومعناها عربيا الجلاء) تتردد على أفواههم - يعنى جلاء بابل أو سبى بابل على أيدى بُخْتَنُصَّر - فنَحَتَ منها اسمَ ذلك الجبَّار الفِلَسْطِينى " جُلْيَات " الذى قتله فى التوراةِ وفى القرآن داود .

والذى أرجوك إياه هو أن لا تَسْخَر من هذا العَبَث الذى قالهُ أدعياء الاستشراق هؤلاء ، وإنما تَرْثِى معى لقائِله الذى أعماه الهوى عن الحق ، يَبْنِى على مَقولةِ النَّقْلِ والتلقين ولا يتوقف بينه وبين نفسه ليتساءل :

أين وكيف ومتى استطاع محمدٌ (صلى الله عليه وسلم) التَّسَمُّعَ على يهودِ يثرب فى خُلْوَتِهم وهم يتطارحون بالعبرية أشجانَ ذكرياتِ سَبْيِهم فى بابل فلا تَعِي أذناه من غمغمتهم بمراثيهم سوى لفظة " الجلاء " أى " جَالوت " العبرية هذه ؟

أَوَ قد كان يهودُ يثرب يتطّارحون أشجانَ بابل فى يثرب بالعبرية فيما بينهم أم كانوا يُحَدِّثُون بها النبىَّ وأصحابَه ؟

فكيف استعصى عليهم الإتيانُ بلفظة " الجلاء " العربية التى تكافىء " جالوت" العبرية وقد كان من يهود يثرب من يُتقنون العربية كالفُصَحَاءِ والشُّعَراءِ من أهلها ؟

بل كيف يتشدقون أمام العرب بأيام نَحْسهم ومَذَلَّتهم فى بابل ، وهم الهازئون بالعرب ، المتُعَاظِمُون عليهم ؟

وَهَبْ أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) وقعت فى أُذُنَيْه لفظة " جالوت " العبرية هذه من يهودِ يثرب فى نَدْبِهمُ " الجلاء " ولا يَفْقَه لها معنى ، فكيف فَطَنَ إلى أنها تصلح اسماً لذلك الجبَّار الفلسطينى الذى سَمَّاه القرآن "جالوت" ولا تصلح اسما للملك " شاؤول " الذى سَمّاه القرآنُ " طالوت " ؟

أفقد سَمع أيضا من يهود يثرب أخبار ما كان بين "جُلْيَات " وداود ؟ فكيف يخلط ، وهو اللَّقِن الفَطِن ، بين اللفظتين العبريتين " جَالوت " ، " جُلْيَات" ؟

وهَبْه قد عَلِم أن " جالوت " العبرية معناها الجلاء ، فكيف يجىء بها اسما لرجل على الإبدال من " جُلْيَات " التى انْبَهمت عليه ؟

ولماذا يعدل أصلا عن " جليات " إلى " جالوت " ؟

أفقد علم أيضا أن "جليات" و"جالوت" العبريتين لفظتان بنفس المعنى عِبْرِيًا ، أم عَلِمَ ما لم يَعْلَمه علماءُ العبرية وعلماء التوراة فأراد أن يُصَحِّح لهم "جُلْيَات" إلى "جالوت" ؟

إنما قال أدعياءُ الاستشراق هؤلاء ما قالوه لأنهم إما يجهلون معنى "جُلْيَات" ، وإما أنهم يَعْلَمونه ولكنهم يفترضون فيك الجهل به ، فهم يُعَمُّون عليك ويُخلطون ، آمنين ألا يَنْكشف لك باطل دعواهم .

ولأنَّ الهوى والغرض داءٌ مميت ، فقد ماتَ هؤلاء الأدعياء بِدائِهم .

أما القرآنُ الخالد الباقى ، قولُ الحقِّ الذى فيه يَمْتَرون ، فهو الذى قد علِمْت : أفقَهُ بالعبرية من أهلها ، وسبحان الذى عَلَّم بالقلم ، علَّم الإنسان ما لم يعلم .

❑❑❑

يشتقُ علماء التوراة اسم " جُليات " من الجذر العبرىّ " جَلا " ، وهو جَذْر بنفس المعنى فى اللغات الثلاث : العبرية والآرامية والعربية .

تقول منه جَلا عن وطنه ، ومن وطنه ، يَجْلو ، جلاءً ، وجَلْواً أيضا ، يعنى نزح عنه ، خشية خوفٍ أو جَدْب ، يلتمس الأمْنَ أو الرزقَ فى غيره ، فهو " الجَالى " ، والجَالِيَة ، شأن تلك " الجاليات " الأجنبية التى لا يَخْلو منها بَلد يُوفر الأمنَ والرِّزْقَ لتلك الجاليات فى مَهْجَرِها .

وتقول أيضا : أجْلاهُ عن وطنه إجلاءً (وجَلاهُ أيضا جَلاءً وجَلواً) يعنى قهرهُ على الجلاء ، أى أخرجه منه كرها ، فعْلَ الغاصب الغازى ، فالفاعل ـ أى هذا الغاصب ـ مُجْلٍ ، وجَالٍ أيضا ، والمفعول ـ أى الذى أخرجه الغاصب من أرضه ـ مَجْلُوٌ ، ومُجْلَى أيضا ، والاسم الإجلاء ، والجَلاء أيضا . وتصلح " الجلاء " تسمية بالمصدر يستوى فيها المذكر والمؤنث ، والمفرد والجمع . تقول : هؤلاء القومُ هم جَلاءُ بابل ، أى الذين أجْلاهُم بُخْتَنَصَّر عن مملكة يهوذا ، وعن "أورشليم" بالذات التى جعل أهلها أثلاثا : ثُلث فى القَتلى ، وثُلث فى السَّبى، وثُلثٌ استحياهُ فتركَه يهيمُ فى خرائبها

وينوحُ على أطلالهـا ، وتلك هى النـازلةُ التى يُشيـر إليـهـا القـرآنُ فى "مـواعيـد بنى اسرائيل" بقول الحقّ سبحانه : { **فإذا جاء وَعْدُ أولاهُما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأسٍ شديدٍ فجاسوا خلالَ الديار وكان وعداً مفعولا** } ﴿الإسراء : ٥﴾ . وهذا الجلاء أو السبى [١] كَتَبَهُ الله من قبلُ على الظالمين من بنى إسرائيل ، لا يخرجون من جلاء حتى يقعوا بظلمهم فى جلاء غيره ، لقوله عز وجل : { **ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعَذَّبَهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار** } ﴿الحشر : ٣﴾ ، سُنَّة ماضية فيهم إلى يوم القيامة : { **ضُرِبَت عليهم الذلة أين ما ثُقِفُوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس** } ﴿آل عمران : ١١٢﴾ ، والحَبْلُ هنا بمعنى الإمهال والمد : يَمُدُّ لهم الله حينا ويَمُدُّ لهم الناسُ أحيانا . والذى " يَمُد لهم " لا يَلْبَثُ هو نفسه حتى ينقلب عليهم ، بظُلْمِهم حِينا ، وبغُلَوائهم وبَطَرِهِم أكثَر الأحيان .

" الجلاءُ " إذن كلمةٌ غليظة فى سمع بنى إسرائيل ، لا تَهِيجُ فيهم ذكرياتِ مأساتهم على أيدى البابليين فى القرن السادس قبل الميلاد فحسب ، ثم على أيدى الرومان حوالى الربع الأخير من القرن الأول الميلادى فى أعقاب رفع المسيح ، ثم إجلاؤهم عن شبه الجزيرة أواخرَ عهد عمر رضى الله عنه فى أواسط القرن السابع للميلاد ، ولكنها تُذكّرهم أيضا وبالأخص بخطر الجلاءِ الآتى ، والجلاء الذى يليه ، إلى دَوْرٍ قَدَوْر : إنه العقابُ الغليظ الذى خَصَّهم اللهُ به فى هذه الدنيا كلما ظَلَمُوا ، يُذيقُهم الله إياه ما بين كلّ نوبةٍ من نَوبات " إرخاءِ الحَبْل " ، يَعِظُهم بواحدةٍ ويبتليهم بأخرى ، فما ارْعَوى الموعوظ ولا المُبْتَلَى .

ولكن "جلاء بابل" ، الذى كان أول جلاء أذاقَهُ الله بنى إسرائيل بِظُلْمِهم ، حَدَثَ بعد "طالوت وجالوت" بقرون ، فكيف يجىءُ من " الجلاء" جُليات ؟

□□□

---

(١) ليس السبى كالأسر ، وإن كان منه غير بعيد : الأسير لا يكون " سَبِيًا " حتى يقتلعه آسره من أرضه ويحمله معه ، يَسْتَرِقُّه فى أرض الغازى لا على أرض المَغْزُوّ . ومن هذا ، "السِّبَاء" ، أى العُود يحمله السيل من بلدٍ الى بلد . والجلاءُ بالمعنى الذى نقصده هنا هو السبى نفسه ، فهما مترادفان متطابقان : تقول جلاء بابل ، كما تقول سَبْيُ بابل .

من أعلام التوراة عَلَمان مشتقان من مادة الجذر "جلا" هما : " يُجْلى" ، "جُلْيات" . الأول ـ وهو " يُجْلى" ـ وَرَدَ فى إسمِ الرئيس " بُقِّى بن يُجْلى" اسمَ رجل كان فى التيه مع موسى (سفر العدد ٢٢/٣٤) وهو كما يقول لك السفر رجل عبرى قُحٌ من سبط بنى دان . أما الثانى "جُلْيات" فهو رَجلٌ فلسطينىٌ (سفر صموئيل الأول ٢٣/١٧) بأرَزَهُ فَتىً يقالُ له داود ، خَرَجَ إليه من عَسْكَرِ شاؤول الملك ، فقتل داودُ جالوتَ كما فى القرآن .

وأنت بالطبع لا تتصور أن يتسمَّى إسرائيلىٌ فى مصر ، وهو " يُجْلى" أبو "بُقِّى" الذى كان من رؤساء بنى إسرائيل فى التيه ، باسمٍ مشتق من "الجلاء" على معنى الأسير المَسْبىٌ ولم يكن بعد ثَمَّ "جلاء" ، حتى إن اعتبرت خروجَهُم إلى التيه جلاءً وليس نَجَاء .

ولكن علماء التوراة (راجع المعجم العبرى الآرامى لألفاظ التوراة الوارد فى قائمة مراجع هذا الكتاب تحت مادة " جلا ") يقولون لك بالنص إن معنى اسم " يُجْلِى" هذا هو من مادة " الجلاء "على معنى الأسير المُسْبِىٌ .

وأنت أيضا لا تتصور أن يتسمَّى " جُلْيات" الفلسطينى باسم مشتَقٍ من مادة "الجلاء" على معنى السَّبْى ، ولم يكن قد حدث لبنى إسرائيل جلاء بعد ، فضلا عن أن الرجل كما قالوا فلسطينى ، لا شأن له بجلاءات بنى إسرائيل، ناهيك بأن الرجل من جبابرة قومه ، فلا يَصِحُ لهم وله أن يُدْعَى بهذا المعنى اسماً أو كُنْيَة .

ولكن علماء التوراة (راجع المعجم المذكور تحت نفس المادة) يقولون لك بالنص أن "جُلْيات" ، اسم هذا الفلسطينى ، مشْتَقَّة من مادة " الجلاء " مصدرا أو مفعولا ، فهو " السِبَاء" أو " السَّبِى " .

أما نحن فنقول ان " الجلاء " فى العبرية والآرامية والعربية جميعا ، له معنى آخر ، هو الأصل فى استعمال " الجلاء " فى معنى الإخراج من الوطن أو الخروج منه ، أى الخَلاء والإخْلاء (بالخاء المنقوطة من فوق فيهما) : إنه الإبانة والبيان والبينونة والبَيْن . تقول بَانَ اللحمُ عن العظم ، أى زال فانكشف العظم من تحته ، وتقول جلا الصدأ عن السيف ، أى أزالَ ما يحول دون لَمَعانه ، وجَلا بَصَره ، يعنى أسقط عنه الغشاوة ، وتقول جَلا الأمر فأصبح جَليًا بيِّنا ، وتقول " ابن جَلا " (غير مهموز) تعنى

الرجل الشريف فى قومه يُعْرَفُ مكانُه ، وجلا عمامته يعنى وضعها فكشف رأسه ، وجلا الشعر يعنى انحسر عن مقدمة الرأس ، إلى آخر ما تعلم .

لهذا فنحن نخالف علماء التوراة فى تفسير هذين الاسمين " يُجْلِى" ، "جُليات" ونقول جازمين أن معنى " يُجلى" العبرانى هذا (وقد جاء بصيغة المضارع المبنى للمجهول مُرادا مِنهُ اسمُ المفعول كما مر بك) هو "المَجْلُو " الجَلىُّ البيِّن الواضح .

وعلى هذا المعنى نفسه نُفسر أيضا اسم "جُلْيَات" أو "جَالُوت" ـ لا شأن لك بما كان يَنطِقُ هذا الرجل اسمَه على عصرِ طالوت وداود فليس للغويين اليومَ إلى هذا من سبيل ـ فنقول إنه " الجَلا" (غير مهموز) على معنى الرجل الشريف فى قومه ، يُعرف مكانُه ، كالذى تتوقعه من فارسٍ قِرْمٍ شُجاع ، يخرج لمبارزة أقرانه ، ويأنف من مبارزة مَن كان دُونَه ، على ما يقوله لك السفر من أن " جُلْيَات " أنِفَ من مبارزة ذلك الفتى المغمور الذى كَانَهُ داود ، ومثلما تَقرأ فى كتب السيرة عن فارس حلف قُرَيْش فى غزوة الخندق ، عَمرو بن وُدّ ، الذى هابَ الخروجَ إليه فرسان المسلمين ، وأراد أن يخرج إليه علىٌّ بن أبى طالب ، والنبىُّ يُنَهْنِه من حماس علىّ ، ويقول له : اجلس ، إنه عمرو ! يقولها ثلاثا حتى يقول علىٌّ فى الثالثة : يا رسول الله ، وإن كان عَمْرًا ! فيأذَنُ له صلى الله عليه وسلم ويدعو له ، ويَقتلُ علىٌّ عمرو بن وُدّ ، كما قتل داود جالوت .

ربما قُلْتَ معى إن علماء التوراة أرادوا بتفسيرهم " جُلْيات " على معنى السَّباء المَسْبىّ ، النَّيلَ من هذا الجبار الفلسطينى الذى صَالَ عَلى بنى إسرائيل . ولا يَصِحُّ هذا من علماء يأخذُ عَنْهُمُ الناس .

الصحيحُ فى " جُلْيات " أنه " ابنُ جَلا [1] ، لا العبدُ السَّبىُّ .

❑❑❑

وقد فسر القرآن هذا الاسم على معنى " الجَلا " الجَلىُّ الواضح ، بالتعريب فجاء به على المبالغة " جَالُوت " ، كما قيل من " طغى " طاغوت " ، وأمثالها .

---

(١) تجد مثله يروى على لسان الحجاج بن يوسف الثقفى فى تعاظمه على أهل العراق : أنا ابن جَلا وطلاَّع الثنايا ـ متى أضع العمامة تعرفونى. وطلاَّع الثنايا كناية عن الساعى لمعالى الأمور.

وفَسَّرَه القرآن أيضا بالمرادِف الملاصق القريب من معناه ، فى قوله عز وجل : {**فلما برزوا لجالوت وجنوده** } (البقرة " ٢٥١) ، و " بَرَزَ " فى معجمك العْربى يعنى ظَهَرَ بَعد خفاء ، وأبرزه يعنى أظهره وبيَّنه فهو " مُبَرَّز " ، يعنى جَلِيٌّ واضحٌ ظاهر ، والبَرَزَة المرأة التى تُجَالِس الرجال . أما موانع " جالوت" من الصرف فهى نفس ما قلناه فى " طالوت " .

وسبحان العليم الخبير .

(٤٢) داود

تُرْسَم " داود " فى التوراة بأحرفٍ ثلاثة فقط هى " دود " بغير ألف بعد الدال ، ولكن جماعة " بَعَلِى ماسُورا " تضبطه فى التوراة التى بين يديك بحيث يُنطَق "داوِيد" (التى آلت فى العبرية من بعد إلى دافيد David بعد أن تَحَوَّرَت الواو على ألسنة اليهود إلى الفاء فى مواضع أَخَصُّها حين تكون بادِئَةً فى الكلمة أو المقطع ، ومنها : (دا ـ ويد) .

وعلماء العبرية وعلماء التوراة يفسرون " داويد " هذه على " فاعيل" بمعنى "مفعول" من جذرٍ يفترضونه فى العبرية ، وهو الجَذر "دُود" ، مقلوب الجذر العربى "وَدّ" فهو وَدِيد ، يعنون الحِبَّ المحبوب . وليس هذا على شُهرته بشىء كما سترى .

أما مفسرو القرآن (راجع تفسير القرطبى للآية ٨٤ من سورة الأنعام) فقد توقفوا فى "داود"، قالوا أنه اسم أعجمىٌّ فحسب ، ولم يُفَسِّروه .

ويرى المستشرقون [(١)] أن الاسم " داود " كان معروفا فى شبه الجزيرة قبل نزول القرآن بنطقه الوارد فى القرآن ، مُتَحَوِّراً عن أصله العبرى " داوِيد " ، فأتى به القرآن على ما كان العرب ينطقونه . وهو قد تَحوَّر على ألسنة العرب من " داويد " إلى " داود " التى تُرسم اصطلاحا بواو واحدة وأصلها بواوين (داوود) لأن الواو الوسطى حين تُمَدُّ ، يَمُدُّها العرب بالواو على وزن " فاعول " ولا يَمُدُّونَها قط بالياء "فاعيل" . والذى لم يلتفت إليه هذا المستشرق وأضرابُه أنه ليس فى العبرية كلها ـ عبرية التوراة والعبرية المعاصرة ـ لفظ عبرىٌّ واحد مشتق من فعل واوى أجوف (على مثال الجذر المفترض " دود ") على زنة " فاعيل " ، إلا " داويد " التى ارتأت جماعة "بَعَلِى ماسُورا " (أهل الأثر) ضَبْطَها على هذا النحو فى تسمية داود الملك ، الحِبِّ المحبوب .

---

(١) انظر على سبيل المثال : Joseph Horovitz ، المرجع المذكور ، ص ٢٢ و ٢٣ .

ولو أُريدَ تسميةُ داودَ على معنى الحِبِّ المحبوب ، لَقِيلَ فى العبرية "دُود" على أصل حروفه الثلاثة " دُود " فى الخط العبرى ، أو لَقيل فى العبرية " يَديد" على "فَعيل" من الجذر العبرى المستعمل ـ لا الممات ـ " يَدَدْ " المكافىء العبرى المباشر للفعل العربى " وَدَّ " ، ولما كانت لعلماء العبرية وعلماء التوراة من حاجة إلى افتراض جذر مُمَات فى العبرية اسمُه " دُود " .

وأما الذى جَهله هؤلاء وهؤلاء فهو أن القرآن المعجز يُخالف علماء العبرية وعلماء التوراة فى تفسيرهم اسم داود على معنى الحِبِّ المحبوب ، وإنما يقول ان " داود" معناها " ذُو الأيْدِ " : { **واذكر عبدَنا داود ذا الأيد إنه أواب** } (ص : ١٧) يُفَسِّر داود بذى الأيْدِ على الترادف المُطابِق اللصيق .

وهذا من فرائدِ إعجازات القرآن التى تتناولها مباحثُ هذا الكتاب الذى نكتب .

فالحمدُ للهِ الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدىَ لولا أن هدانا الله .

□□□

كان شاؤول كما تعلم هو أوّلَ مَلكٍ مَلّكه بنو إسرائيل على أنفسهم ، اختاره الله لهم على ما تَعْلم من التوراة ومن القرآن . والذى تتوقعه من شخص يصطفيه الله عز وجل على علِم للحُكم والملك أن يكون صَفْوَةَ بنى إسرائيل جميعا . ولكن بنى إسرائيل كدأبهم فى بَطَر النعمة ما لَبثُوا أن كرهوه لحزمه وصرامته ، فأكثروا عليه الأقاويلَ فى أسفار العهد القديم ، وادَّعواْ أنه سقط فى عين الرب لخروجه على نصائح صَموئيل النبى الذى جاءهم به ، وآثروا على شاؤول دَاود ، ذلك الفتى الرقيقَ الجميل ، البَطَلَ الذى قتل بحجرٍ من مقلاعه عملاقا فلسطينيا اسمه " جُليات " . أما شاؤول الملك فقد عَرفَ قَدْر داود فأكرمه وأحبه، وقَرّبه منه، حتى زَوَّجه من ابنته وربما آثره على كلِّ بنيه، بل وفكر فى استخلافه من بعده . ولكن دسائس البلاط تُفَرِّق بينهما ، حتى يخشى شاؤول على نفسه من غدر داود ، وحتى يَفِرُّ داودُ بنفسه من شاؤول الذى طلب قتله . أحب شاؤول داودَ أشَدَّ الحب ،وأبْغَضَهُ أيضا فأمعن فى بُغضه ، وكأنه كان يغار منه . ويموتُ شاؤول على حَالَى الحب والبُغض لداود ، ولكنه لا يموت بيد داود ، وإنما بيد

الفلسطينيين الذين بَدأ حُكمهُ بحربهم وانتهى أيضا على أيديهم فى جولة انكسر فيها شاؤول وجيشُه ، ويُصابُ شاؤول بِجُرح شديد من سهم قاتل ، وتنزفُ منه الدماء فَيُجهزُ على نفسه بسيفه قبل أن يُمَثل به أعداؤه ، فَيُمَلّك بنو إسرائيل داود مكانه (راجع أخبار شاؤول وداود فى سفر صموئيل الأول وفيه تهاويل كثيرة لا نستطرد بك إليها).

والذى يعنينا هنا أن بنى إسرائيل أَصْفَوْا داود الوُدَّ ، وأحبوه الحُبَّ كُلَّه . لم يُحبُّوا فيه داودَ النبى ـ بل قل لم يكن داود عندهم بنبى [(١)] ـ وإنما أحبوا داود الملك ، لا يَعْدِلون به ملكا غيره فى كل تاريخهم على قِصَرِ عهدِهم بالمُلك .

لهذا استقام لعلماء العبرية وعلماء التوراة تفسيرُ اسم داود (أى "داويد ") بمعنى الحبيب المحبوب ، وإن لم يَسْتَقِم هذا التفسير على أصول العبرية كما سترى .

□□□

ليس فى العبرية كما مر بك جذر اسمه " دُود " ، وإنما الذى فى العبرية من هذه المادة أسماء جوامد لا اشتقاقَ لها ، وهى ستة :

- " دُود " بضم الدال البادئة ، يعنى عم أو خال .
- " دُود " بضم الدال البادئة ، صفة بمعنى الحِبُّ الصديق .
- " دُود " بضم الدال البادئة أيضا ، لا تستخدم إلا بصيغة الجمع " دُودِيم " بمعنى الملاطفة والتحبب .
- " دُود " (بنفس نطق " دُود " العربية) بمعنى سَلّة .
- " دُود " (بنفس نطق " دُود " العربية) بمعنى قِدْر أو مِرْجَل . وهذه مشتقة من جذر سريانى " دُود " بمعنى هاج واضطرب .
- " دُود " (بنفس نطق " دُود " العربية) ثمرة نوع من النبات اسمه " يُبْرُوح " أو " لُفَّاح " وهو بالإنجليزية mandagora و mandrake .

---

(١) تَقْرَأ فى سفر صموئيل الثانى وسفر الملوك الأول أنه كانت على عهد داود أنبياء منهم ناثان وجاد ، لا يعظون داود فحسب ، وإنما ينقلون إليه توجيهات الرب ، يُوحى الله إليهم فيبلغون داود . ومن كانت هذه حاله فليس بنبى ، ونحن كمسلمين ننزه داود عن ذلك ، وإنما الذى يعنينا هنا هو مفهوم الكاتب لمنصب داود عليه السلام ، وبالتالى مفهوم اليهود .

هذا بالإضافة الى أعلام توراتية أخرى هي: "دُودو" يعني حبُّه أي "حبُّ الله "، "دُودَوَهُو" بنفس المعنى ، "دُودَيْ" أي "حِبِّي" ، وبالإضافة بالطبع إلى "داود" التى ترسم "دُود". وهذه الأعلام كلها ، بما فيها داود ، تُردُّ جميعا إلى " دُود " بضم الدال ، فلا تدرى لماذا خَرجت عن هذا النَّسَق " داويد " .

وهنا يثور سؤال : كيف يُفْتَرَضُ جذر واحد ممات اسمه " دُود " لتفسير هذه المعانى الست : العَمُّ ـ الحبُّ ـ التَّحَبُّبُ ـ السَّلَّةُ ـ المرجلُ ـ ثَمَرةُ اللُّفَّاح ؟ إن جازت الصلة بين الحِبِّ والتَّحُبب ، فما الصلة بين العَمِّ والسَّلَّة ، وبين هذين وبين المِرجَل وثمرة اللُّفَّاح ؟

وإذا كان اسم داود (داويد العبرية) مشتقا من الجذر المفترض "دُود" ، فلماذا الإصرار على أنه من " دُود " بمعنى الحِبِّ ، وليس من "دود" بمعنى العَم ، وكلا "الدُودين" يُكتب ويُنطق سواءَ ؟

وإذا كان اسم داود (داويد العبرية) بمعنى "الحِبِّ" هو نفسه "دود" الحِبُّ ـ كتابة ومعنى ـ فلماذا انفردت " دود " التى هى اسمُ داود بالنُّطق "داويد" على خلاف الرسم؟

ولماذا تخصصت " داويد " (المرسومة " دُود ") بمعنى " الحِبِّ " اسما علما لداود الملك ، وامتنع استخدامها صفة بمعنى " الحِبِّ " ، لا يُستعمل فى موضعها كصفة إلا "دُود" التى تُنْطَقُ " دُود " دون خشية اختلاطها بمعنى العَمِّ أو السَّلة أو المِرجل أو ثمرة اللُّفَّاح ؟

ولماذا الإصرار على جذر ممات اسمه " دود " بمعنى المودة والحب ولدى العبرية جذر آخر بنفس المعنى هو " يَدَدْ " مكافىء " وَدٌّ " العربى ـ مُبدلا من واوه ياءً شأن العبرية والآرامية فى كل جذر عربى مبدوء بالواو كما مر بك ـ لا تزال تستخدم العبرية المعاصرة منه صيغة " هتْيَدَّدَ " بمعنى "تَوَدَّدَ" العربى ولا تستخدم قط صيغة فعلية من الجذر المفترض الذى اسمه " دُود " ؟ بل والأصل فى العبرية " يَدِيد" من هذا الجذر "يَدَدْ" لا من " دُود" ، تَلَقَّبَ بها سليمان بن داود عليهما السلام فقيل " يَديديْا " أى حِبُّ الله، ولم يقُل "داويديا" من اسم " داويد " (داود) أبيه ؟

الصوابُ أن يقال ان " دُود " بمعنى الحِبِّ أصلها " يدُود " من " يَدَدْ " حذفت ياؤه البادئة تخفيفا (ولهذا نظائر فى العبرية يعرفها المتخصصون) ، لا حاجةَ لعلماء العبرية وعلماء التوراة بافتراض جذر مُمات اسمهُ " دُود ".

وإنما اضطروا إلى افتراض هذا من أجل تفسير "دَاوِيد" بمعنى الحبِّ لا أكثر ولا أقل ، ولم يعبئوا بتفسير سبب كتابتها فى الخط "دُود" تماما كـ "دُود" الأخرى بمعنى الحِبِّ .

ولست أقول ان جماعة "بعلى ماسورا" (أهل الأثر) افتعلوا "داويد" نُطقا لـ "دُود" التى فى الرسم ، وإنما هم ضبطوها على ما كان يُنْطَقُ به هذا الاسم فى عصرهم "دَاوِيد" التى تجدها بهذا النطق نفسه فى رسمها اليونانى بأصول الأناجيل ، دون أن يتساءلوا عن سبب رسمها فى مخطوطات العهد القديم بأحرفٍ ثلاثة : الدال والواو والدال "دُود" .

وقد مر بك أن جماعة أهل الأثر هؤلاء بدأت عَمَلَها فى القرن الثانى الميلادى ، ولا شك أنها ضبطت أعلامَ العهد القديم على ما كانت تُنْطَقُ به فى عصرها ، وما كان يجوزُ لها غير ذلك فى الأسماء الأعلام بالذات .

ومر بك أيضا أن الحاجة إلى ضبط نصوص العهد القديم بالشكل والنقط نَشأت عن وقوعِ اللَّحْنِ فى قراءة هذه النصوص فى خطٍ لا يعبأ كثيرا بإثبات حركات المد بعد مُضِيِّ نحو عشرة قرون على عصر داود عليه السلام . أما كيف كان داود ومعاصروه ينطقون اسمَهُ المرسوم فى أسفار التوراة " دود " (١) ، فليس لك اليوم إلى هذا من سبيل . ليس لديك إلا هذه الأحرف الثلاثة (واو بين دالين) تنطقها كما تشاء . وقد شاءت جماعة " بعلى ماسورا " فى القرن الثانى بعد الميلاد أن تنطقها كما كان اليهود ينطقونها فى عصرهم " داويد " .

ولأنه كما مر بك ـ لا وجود فى عبرية التوراة والعبرية المعاصرة للفظ عبرى واحد على زنة " فاعيل " بمعنى "مفعول" مشتقٍ من جذر واوى أجْوَف على مثال ذلك الجذر المفترض " دُود " ، فلا مناصَ من أن تقول ان " داويد " هذه ليست إلا نُطْقًا تحرَّف على ألسنةِ اليهود عن الصورة الصحيحة التى كان عليها نطق هذا الاسم العَلَم على لسان معاصرى داود .

(١) ربما قيل لك ان " داويد " ربما رُسِمَت مرةً أو مرتينِ " داويد " بإثبات الياء فى الخط وليس بدليل. هذا من النادر الذى فى حَكم المعدوم لا يُعْتَدُّ به . وهو إن وُجد ، استدراكٌ من الناسخ على الأصل الذى بين يديه أو المتلوِّ عليه . دليلك فى هذا أن اسم داود فى العبرية لا يزال يُرسَم بواو بين دالين " دُود " .

ولأن الفرق فى الرسم بين " دُود " ، " داويد " كبير ، فلابد لك أن تلتمس نطقا أقرب الى الرسم " دُود " . ولا أقرب إلى هذا من أن تنطق دالها البادئة بحركة بين الكسر والفتح (شوا العبرية) التى ترسم نُقطتين رأسيتين (:) تحت الحرف المَعْنِيّ مع تثقيل ضم الواو ، فتقول : دِوُود (بواوين) أقرب ما تكون إلى " داود " التى نطق بها العرب ونزل بها القرآن .

أما من أين تجيء فى العبرية " دِوُود " هذه التى أقترحها عليك ، فهى تجيء سهلة سلسة من " دى ـ أود " : أما " أود " العبرية فهى الأَيْدُ عربيا ، وأما "دى" العبرية الآرامية فهى " ذو " : إنه " ذو الأيدِ " كما فسرها القرآن المعجز . وسبحانَ العليم الخبير .

هذا يُفَسِّرُ لك لماذا قال العرب قبل القرآن " داود " ولم يقولوا " داويد" التى قالها يهودُ يثرب فى قراءتهم أسفار "توراة الأنبياء والكتبة" . عَرِفَ العربُ بداود الملك على عصره ، فنطقوها كما كان ينطقها داودُ ومعاصروه ، ولم تَتَحَرَّفْ عليهم " داويد " إلى "داود" ، كما يظن المتطفلون على مباحث اللغة أدعياءُ الاستشراق .

□□□

ورد لفظ " الأَيْد " فى كل القرآن مرتين فحسب ، إحداهما قولُهُ عز وجل : {**والسماء بنيناها بأَيْدٍ وإنا لموسعون**} (الذاريات : ٤٧) ، والأخرى قوله عز وجل : { **واذكر عبدنا داود ذا الأَيْدِ إنه أواب** } (ص : ١٧) وصفا لداود بأنه "ذُو الأَيْد" . ولم تَرِدْ " ذو الأيد " فى كل القرآن إلا فى هذا الموضع فحسب ، تفسيراً لمعنى الاسم العلم " داود " بالمرادف المطابق اللصيق " ذو الأيد " .

إن أردتَ دليلا على أن القرآن أَفْقَهُ بالعبرية من أهلها ، كَفَاكَ هذا الدليل . فَدَعْ عنك دعوى الاستنساخ والتلقين وسَبِّح معى القائل بِكُلِّ اللغات ، الذى عَلَّمَ بالقلم، عَلَّمَ الإنسانَ مالم يعلم . والحمدُ للهِ ربِّ العالمين .

(٤٣) الزبــور

قال عز وجل فى نبيه داود عليه السلام: {**واذكر عبدَنا داود ذا الأيْدِ إنَّهُ أوَّاب. إنا سَخَّرْنا الجبال معه يُسَبِّحْنَ بالعشى والإشراق. والطَيرَ محشورة، كُلٌّ لهُ أوَّاب. وشَدَدْنا مُلْكَهُ، وآتيناهُ الحِكمَة وفَصْلَ الخطاب**} (ص : ١٧ ـــ ٢٠) . وقال فيه أيضا: {**ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبالُ أوِّبى معهُ والطيرَ وألَنَّا لهُ الحديد**} (سبأ : ١٠) وقال عز مِنْ قائل : {**ولقد فَضَّلنَا بعض النبيين على بعض، وآتينا داود زبورا**} (الإسراء : ٥٥) .

كان هذا الفضلُ من الله ، وكان نبىُّ الله داود عبداً شكوراً .

□□□

أنعم الله عز وجل على عبده داود بالصوت النَّدى ، وحَلاَّهُ باللحن الشَّجى الرقراق : يُسبح ويُرَنِّم ويُطرِبُ حتى الجماد ، ويَصْدَحُ ويَشْدُو فتشدو على نغماته الطير، وتُسبِّح معه الجبال . وقد عَرِف داود حق هذه النعمة فوضعها حيث يجب أن تكون : تسبيحا وتمجيدا ، وتهليلا وتكبيرا، واستغفارا ودعاء ، يدعو ربه فيسألُهُ ويستعينهُ، يُهلِّلُ للمنَّة ، ويستنصر فى الشِّدة ، ويتوجَّع فى المِحْنة ، ويُفْتَنُ فَيَنْدَمُ ويتوب . كان داودُ بحق إمامَ المغَنِّين .

وهل أرْوَعُ وأبدع من هذا الجمال وذاك الجلال ، نشيداً من فَمِ داود على مزمار داود ، تَرَنَّمَت به مع داودَ الجبالُ والطير يوماً فى جَنَبات أورشَليم ؟ بل كيف أنت وقد أسلمتَ أذنيك لأنغامِ تلك التسابيح ، تَشْدُو بها مع داود الطيرُ ، وتَصدَحُ الجبال ؟

لا غَرْوَ قد صار بها مزمارُ داودَ مثلا ، حتى قيل على المبالغة فى الصوت يَعْذُبُ وَيَرِقُّ : مزاميرُ داود !

□□□

أما هذه " المزامير " فهى ذلك الجزء من " توراة الأنبياء والكتبة" المنسوب إجمالا إلى داود عليه السلام ، والمُعَنْون فى ترجمات العهد القديم باسم " سفر المزامير" ، وهو يضم مائة وخمسين مزمورا ، يُنسَبُ بعضها فقط إلى داود ، وينسب بَعضُها لابنه سليمان ، كما ينسب بَعضُها لآساف ، كبير المغنين فى بلاط داود ، وبعضها الآخر مسكوتٌ عنه غيرُ منسوب .

ولكن القائلين تلك المزاميرَ من غير داود يَأتَمُّونَ بطريقته ، وينسجُون على منواله ، فلا تدرى على التحقيق أىُّ المزامير قالها داود ، وأيُّها الذى لم يَقُلْهُ من بين كل المزاميرِ المنسوبة إليه بالاسم فى ذلك السفر من أسفار العهد القديم .

لهذا حَرَصت ترجماتُ أهل الكتاب لأسفار العهد القديم على تسمية هذا السفر "سفر المزامير" على التعميم ، لا يقولون "مزامير داود" لأنها ليست كُلُّها لداود ، وإنما هى "مزامير داود وسليمان وآساف وآخرين" . ولئن جازت القداسةُ لمزامير قالها داود وسليمان عليهما السلام ، فلا تجوز القداسة بوجه لمزامير ترنَّم بها آسافُ كبيرُ المغنين فى بلاط داود ، أو قالها من هو دون آساف فى هذا البلاط ، فلا قداسةَ إلا لنبىٍّ يُوحَى اليه . وهذا يَدُلُّك على أن المجموعَ بين دفتى هذا العهد القديم ليس كُلُّه من وَحْى الله عز وجل على رُسُله وأنبيائه ، بل منه هذا وذاك . وهو يَدُلُّك أيضا على أن مَعْنَى الوحى عند أهل الكِتاب ليس هو نفس معناه عند أهل القرآن . ولكن هذا مبحثُ آخر يَخْرُجُ بنا عن مقاصد هذا الكتاب الذى نكتب ، فلا نستطردُ بك إليه .

الذى يعنينا فى هذا السياق هو أن مجموع تلك المزامير التى صحَّت نسبتُها إلى داود عليه السلام فى ذلك السفر ، أعنى أيُّها فى عِلم الله عز وجل صَدَق ، هو فحسب المَعْنِىُّ فى القرآن باسم " الزَّبور" ، فى مثل قوله عز وجل : { **إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان ، وآتينا داود زَبُورا** } (النساء : ١٦٣) .

□□□

على أن العهد القديم فى نصه العبرانى لا يسمى هذا السفر "سفر المزامير" كما تسميه ترجمات العهد القديم ، وإنما اسمه فى النص العبرانى " سِفْرْ تِهِلّيم " أى سفر

التسابيح ، من " هَلَلْ " العبرى المأخوذ من " هَلَل " العربى لا بمعنى صاح وصَوَّت ، ولكن بمعنى " سَبَّح " ، ومنه لفظة " هَلِلُويا " الشهيرة فى أناشيد أهل الكتاب ، وأصلها العبرى " هَلِلُو ـ يَهْ " ، أى هَلِّلُوا له ، أى سَبِّحُوه ! يعنى سَبِّحُوا الله ، على التمجيد . فالترجمة العربية الدقيقة لاسم هذا السفر بالعبرانية هى "سفر التسابيح" أو "سفر التهاليل" ، لا "سفر المزامير" .

ولكن النص العبرانى أيضا لهذا السفر يضع " مِزْمُور" العبرية عنواناً لكل فصل من فصوله المسماة " مزامير" ، تسبق رقم هذا " المزمور " أو ترتيبه بين " المزامير" ، فيقول "مِزْمور ريشون" ، أى المزمور الأول ، "مِزْمُور شِينى" ، أى المزمور الثانى ، الى آخر المزامير المائة والخمسين .

ومن هذا اللفظ ـ " مِزْمُور" العبرى ـ ترخصت الترجمة السبعينية اليونانية لأسفار العهد القديم فأسمته بمجموع ما فيه ، أى بصيغة الجمع من "مزمور" فقالت "المزامير" . وقد ترجمت اليونانية الكنسية لفظ " مِزْمُور " العبرية بلفظة Psalmos اليونانية ، من الفعل اليونانى Psallein، يعنى " نَتَشَ " ، إشارةً إلى فعل العازف بأصابعه على ذوات الأوتار ، وأخَصُّها " الهَارْب " Harp ، فمعنى Psalmos اليونانية الكَنَسية فى ترجمة " مِزْمُور " العبرية هو المعزوفة على ذوات الأوتار ، لا زَمْرَ ثَمَّ ولا طَبْل ، ولا غابَ ولا قَصَبَ ولا ناى ، كما قد يظن الذين يخلطون بين العبرى والعربى . أما الذين ترجموا " مِزْمُور" العبرية إلى Psalmos اليونانية ، أى "المعزوفة" أو "الأنشودة " فقد تأثروا بما فى بعض المزامير من إشارة فى أعلاها إلى آلة العزف المصاحبة لها، وأيضا بلفظة " سِلاه " العبرية " التى تَرِدُ فى بعض مقاطعها ، وتُفيد فى رأى البعض علامةً موسيقية يَرْفَعُ عندَها المُنْشدُ صوته بمصاحبة الآلة ، وفى رأى البعض الآخر علامة موسيقية على الوقف، فأخذوا "مِزْمُور" العبرية بمعنى الأغنية والأنشودة ، وهو بالفعل من بين معانيها ، بل لا تزال العبرية المعاصرة تستخدم لفظة "زَمَّار" بمعنى "المُغَنِّى" . أما المترجم العربى للعهد القديم فقد تأثر ـ كما تأثر مفسرو القرآن الأوائل جميعا ـ بالتقارب اللفظى الشديد بين "مِزْمُور" العبرية وبين " مَزْمُور " العربية لا فرقَ بينهما إلا تثقيلُ الضَّمِّ بالواو فى اللفظة العربية وإبدال الكسرة العبرية فتحة فى الميم ، فأخذوها بمعنى النفخ فى المزمار ، ربما لأن المزمور فى العربية هو "المِزْمار" نفسه

لا فعل " الزَّمْر" ، وقد شُهِرَ داود بإجادة النفخ فى الناى . ولو درسوا العبرية لعلموا أن المِزْمار فيها هو "حَلِيل"، أو "نِحِيلا" أى المثقوبة الجَوْفَاء ، من "خَلَل" العربى بالخاء.

وليس هذا هو المعنى الذى يعنيه القرآن بقوله عز وجل : "وآتينا داود زبورا"، كما سترى .

❑❑❑

يجئ " زَمَرَ " العربى بمعان منها بالطبع زَمَّرَ بالمزمار ، ومنها أيضا معنى القِلّة ، يُقال عطيةٌ زَمِرَة، أى قليلة ، ورجلٌ زَمِرُ المرُوءة، يعنى قليلُها ، والزُّمير يعنى القصير، ومنها أيضا معنى الحُسْن، والزُّمُور يعنى الغُلامُ الجميل، وزَمَرَهُ أيضا بمعنى مَلأه ، يُقال زَمَر الوعاء ونحوه يعنى ملأه، وزمر الكلبَ وغيرَه يعنى وَضَع فى عنقه السَّاجور أى الغُلُّ وهى القلادة التى توضع فى عنق الكلب وتنتهى بالسلسلة يُمْسَكُ بها أو يُثَبَّت . ومنها أخيرا " الزُّمْرة " أى الجماعة أو الفوج من الناس .

أما "زَمَرْ" العبرى فيجىء بمعان ليس بينها قط الزَّمْر بالمزمار: المعنى الأول والأساسى هو قَطَّعَ وقَسَّمَ وشَذَّب ، ومنه " زِمُورا " العبرية بمعنى الغُصْن والفَنَن . وهو هنا يشترك مع " زَمَر " العربى حين تقول بالعربية " زَمُور " بمعنى الغلام الجميل ، تريد "قَسِيم الوجه" . والمعنى الثانى ، وهو مشتق من الأول ، يستخدم فيه "زَمَرْ" العبرى مضعفا، والمراد منه تقطيع القصيد ، يعنى نَظْمُه ، فهو الكلام المُقَطَّعُ المنظوم . والمعنى الثالث ، وهو المترتب على الثانى ، معنى الإنشاد أو الغناء ، ومنه "زِمْرا" العبرية يعنى الأنشودة أو الأغنية (ولا يقال للأغنية "زِمْرا" إلا إذا كانت قصيدةً مُغَنَّاة) ، والمعنى الرابع ، وهو المترتب على المعنى الثالث ، معنى "اللحن" الموسيقى ، أو العزف على آلة موسيقية ما . من هنا تجد أن " زَمَرَ " العربى لا يشترك مع "زَمَرْ" العبرى إلا فى معنى " زَمُور " أى الغلام القسيم الوجه المتناسق الأعضاء . وربما أيضا فى " زُمْرَة " العربية إن اعتبرت الزُّمرة " قِطْعَة " من الناس ، وهو الراجح .

ليست " مزْمُور " العبرية إذن من الزَّمْر بالمزمار ، وإنما هى بمعان ثلاثة هى : الأنشودة ـ المَعْزوفة ـ الكلام المقَطَّعُ المنظوم أى " المقطوعة " .

وقد نَظَر القرآنُ إلى هذا المعنى الأخير : المقطوعة والمُقَطَّعات ، فقال "الزَّبُور"، خلافاً لقول علماء اللغة العربية وكل مفسرى القرآن الذين قالوا "الزَّبُور" يعنى

المكتوب، فهو فَعُول بمعنى مَفْعول من زَبَرَهُ يَزْبُرُه زَبْرا ، يعنى كَتَبَه ، أو جوَّدَ كتابته (انظر تفسير القرطبى للآية ١٦٣ من سورة النساء) ، فهو الكتاب المزبور ، بمعنى الكتاب المكتوب . وقد حَمَلَهُم على اختيار هذا المعنى وحدَه من بين مختلف معانى مادة " زَبَر " العربية وُرُودُ هذه المادة فى مثل قوله عز وجل : { **وإنه لَفِى زُبُرِ الأولين** } (الشعراء : ١٩٦) ، يعنى القرآن فى كُتُبِ السابقين ، وقوله عز وجل : {**وكُلُّ شَىْءٍ فَعَلوهُ فى الزُّبُر**} (القمر : ٥٢) أى قد سَجَّلنا عليهم أعمالَهم فى الكتب . وكان هذا كافيا لصدهم عن التماس المعنى الآخر فى "زَبَر" العربى ، الذى فى قوله عز وجل : { **فَتَقَطَّعُوا أمرهُم بينهم زُبُرا ، كل حِزْبٍ بما لديهم فَرِحُون** } (المؤمنون : ٥٣) ، لا تستطيع أن تقول : فتقطعوا أمرهم بينهم كُتُبا ، أو الذى فى قوله عز وجل على لسان ذى القرنين فى سورة الكهف : { **آتونى زُبَرَ الحديد** } (الكهف : ٩٦) أى آتونى " قِطَعَ الحديد " ، بلا خلافٍ بين المفسرين .

أما مادة " زَبَر" فى معجمك العربى فتجىء بمعان: زَبَرَهُ بالحجارة يعنى رماه بها، وزبر البناء يعنى وضع بعضه فوق بعض ، أى رَصَّه رَصَّاً ، وزبره عن الأمر يعنى منعه ونهاه ، والأصل فيها قَطَعَه عنه ، فزَبَر بمعنى قَطَعَ ، وزبر الكتاب يعنى كتبه ، والأصل فيه أتقن كتابته مُبَيَّناً مُفَصَّلاً "مُقَطَّعا" ، وهذا هو المعنى الرئيسى فى مادة "زَبَر" الذى يُفَسِّرُ مختلف استخداماتها ، ومنها الزُبْرَة بمعنى القطْعَة أو الكُتْلَة ، والزُّبْرَة أيضا بمعنى السِّندان من هذا : الكُتْلَةُ من الحديد يَطْرُقُ الحَّدادُ عليها حَدائدَه .

□□□

والذى نقول به نحن إن الأصوب فى فهم " مِزْمُور" العبرية بكسر الميم ، أن تُفْهَم عبريا على أصل معناها : المُقطَّعَة ، يعنى القصيدُ المنظوم ، فهى المقَطَّعات لا المزامير، ولا تُفْهَم بمعنى الأغنية أو المعزوفة الوترية كما فهمتها ترجماتُ العهد القديم بَدْءا بالترجمة السبعينية اليونانية ، فالله عز وجل إنما يُنَزِّلُ على أنبيائه كلاما ، ولا يُنَزِّلُ عليهم موسيقى وألحانا ، إلا أن تقول كما يقولُ أهلُ الكتاب ان هذه المزامير ـ لَفْظَها وألحَانَها ـ من صُنع من أنشدوها ولَحَّنُوها ، داودَ أو غيره ، رُبما بإلهام من الله عز وجل أو بتوفيق منه ، وعندَهم أن الإلهامَ من معانى الوحى، على خلاف أهل القرآن فى معنى وَحْىِ الله على أنبيائه ، لا يكون إلا بمَلَك . بل نحنُ نذهبُ إلَى أبعد من هذا فنقول إن " زَمَرْ" العبرى معدولٌ عن زَبَرَ العربى ، أبْدِلَت باؤه فى العبرية ميما .

بل قد قال هذا ـ معكوسا ـ أدعياءُ الاستشراق المنكرون الوحى على القرآن[1]، الذين زعموا أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) سمع " مزمُور" العبرية فتحوَّرت عليه إلى الباء ، ظنها من " الزبْر" فقال "زبُور " . وهذا تافهٌ لا يُعْتدُ به ، لوجود كلتا المادتين فى العربية " زمَر" ، " زبَر " خلافا للعبرية التى ليس فيها إلا " زمَرْ" وحده بالميم ، بل قد فَهِمَ القرآن المرُادَ من " زمَرْ " العبرى على أصله "تقطيعُ القصيد" فجاء به على "زبُور" ولو فهم منه المعنى الغنائى لقال "زمُور" بالميم ، وسبحان العليم الحكيم.

أما " الزبور" العربية القرآنية فى وصف وحى الله عز وجل على نبيه داود عليه السلام ، فليس بجيد فَهْمُها بمعنى مُطْلَق الكتاب ، وإلا لما تَميَّزَ وحيُ الله على داود باسم عَلَمٍ يختصُّ به من دونِ كتب الله على رسله ، كما اختصَّ باسمه العَلَمِ كُلٌّ من التوراة والإنجيل والقرآن ، وانما أريد له معْنىً مضافٌ يُمَيِّزُهُ عن غيره من الكتاب المكتوب ، فقيل له " زبُور " بمعنى " مَزْبُور " ، منظورا فى ذلك إلى مادته وصيغته : إنه كتابُ " تسابيح" مُقَطَّعَات .

كان " الزبور" كما رأيت تسابيحَ وتهاليل ، ليس فيه شىء من التعاليم أو التكاليف كالذى تجد فى توراةِ موسى وإنجيل عيسى وقرآن خاتَم النبيين ، دليلُكَ فى هذا ما بَقى من وحى الله على داود فى تلك المزامير التى فى العهد القديم ، ودليلُكَ فى هذا ، بل قبلَ هذا ، من القرآن نفسه ، الذى لا يذكر الزبور بالاسم كلما جَمَعَ بين القرآنِ وبين توراة موسى وإنجيل عيسى ، كما تجد فى قوله عز وجل : { **إن الله اشترى من المؤمنين أنفُسَهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فَيَقْتُلُون ويُقْتَلون، وعداً عليه حقاً فى التوراةِ والإنجيلِ والقرآنِ**} ⟨التوبة : ١١١⟩ ، بل لايجمع بين التوراة والإنجيل وبين الزبور فى سِلْكٍ واحد حين ذكَرَ ما عَلَّمَهُ اللهُ عبدَهُ ورسولَهُ عيسى بنَ مريم : {**ويُعلِّمُهُ الكتَابَ والحكمةَ والتوراةَ والإنجيل** } ⟨آل عمران : ٤٨⟩ ، وماذاك إلا لأن التسابيح ليست عِلْماً يُعلَّم ، فهى ليست من ذاتِ جنس "كُتُبِ" الله على أنبيائه ، وإن كانت وحياً منه تبارك وتعالى على نبيه داود ، صلواتُ اللهِ وسلامُه على جميع رُسُلِهِ وأنبيائه . بل قد كانت خِصِّيصَةً لداود

---

(١) راجع : Joseph Horovitz ، المرجع المذكور ، ص ٦١ .

عليه السلام، فَضْلا آثَرَهُ بهِ عز وجل من دون أنبيائه ، لقوله عز وجل: {**ولقد فَضَّلْنَا بعضَ الأنبياءِ على بعض وآتينا داود زبورا**} (الإسراء :55) .

وسبحانَ العليمِ الخبير .

□□□

" الزبور " إذن عربية ، ليس فيها شبهة عجمة ، ومن ثم فهى لا تدخل فى مقاصد هذا الكتاب ، لأنها ليست من العَلَم الأعجمى الذى يُفَسِّرهُ القرآنُ للعرب وفْقَ منهجنا فى هذا الكتاب الذى نكتب، ولكننا تَصَدَّينا لها لجلاءِ شُبْهات فَهْمها عربياً بغير معناها المقصود فى القرآن ، ودَفْعًا لمقولةِ أدعياءِ الاستشراق إنّها من الأعجميّ الذى عَرَّبَهُ القرآن فأبدلَ من الميم التى فى "مِزْمُور" العبرية باء. على أن القرآن قد فَسَّرَ المُرَاد من "زَبُورِ داود" بالتصوير وبالمرادف القريب: لا تَجِدُ أبلغ مِن قوله عز وجل: { **إنا سَخَّرْنَا الجبالَ مَعَه يُسَبِّحنَ بالعَشِيِّ والإشراق . والطَيْرَ محشورةً كُلٌّ لَهُ أوَّاب**} (ص : ١٨ ــ ١٩) وقوله عز وجل: { **يا جبالُ أوِّبِى مَعَهُ والطير**} (سبأ : ١٠) ، والتأويب يعنى ترجيع الصوت. كان داود عليه السلام كثيرَ التسبيح، يَتَغَنَّى بِه، فأعطاه الله ما يُسَبِّحُ به كلاماً منه عز وجل تُرَجِّعه الطير والجبال ، وسبحانَ العزيزِ الوهاب .

(٤٤) سليمـان

مر بك فى تضاعيف هذا الكتاب أن " فَعْلان " العربية على الصفة ، مثل ظَمآن وأمثالها ، تجىء فى العبرية على "فِعْلُون" ، مثل يِشْرُون وشِمْعُون وجِدْعُون وأمثالها. ومر بك أيضا أن النون فى "فِعْلُون" العبرية يجوزُ حذفُها استخفافا كما قيل فى "يِشْرُون" " يِشْرو " .

وعلى " فعلون " جاء " شِلُومُو " (بغير نون) اسم نبى الله سليمان بن داود عليهما السلام فى النص العبرانى لتوراة الأنبياء والكتبة، أى فى أسفار العهد القديم: "شِلومو" أصلها " شِلُومون" عبريا ، حُذفت نونها استخفافا ، كما حُذفت النون استخفافا من "يِشْرُون" حَمى موسى فقيل " يِشْرُو". دليلك فى هذا بقاء نون "شِلُومُو" فى السريانية "شِلمُون"، وبقاؤها أيضا فى النص اليونانى للأناجيل Solomon "سُولُومون"، على إبدال السين من الشين كدأب اليونان ، وعن اليونانية أخذت اللغات الأوروبية جميعا هذا الرسم اليونانى .

❑❑❑

رغم هذا ، ورغم استقرار علماء العبرية ونُحاتها على أن " فِعلُو" العبرية أصلها " فِعْلُون" حذفت نونها استخفافا ، إلا أن أدعياء الاستشراق المنكرين الوحى على القرآن [(١)] عَجِبُوا من مجىء القرآن بهذا الاسم " شِلُومُو" مزيدا بالنون فى "سليمان" ، رغم اعترافهم بأن سَلْمان وسُليمان كليهما اسمان عَرَفَهُما العرب قبل نزول القرآن ، بل وقعوا فى حَيْصَ بَيْصَ من هذه النون التى زادها القرآن فى اسم " سليمان " : قالوا ربما انتقلت إلى العرب من السريان الذين قالوها " شِلمُون " كما مر بك ، أو العكس ، أى أن العرب هم الذين أخذوا " شِلُومو" العبرية من اليهود فتحرفت عليهم إلى "سليمان" ،

(١) انظر : Joseph Horovitz ، المرجع المذكور ، ص ٢٣ .

وانتقلت بصورتها هذه إلى السريان فقالوا " شلمُون " . وفات هؤلاء الأدعياء أن "فَعْلان" ، ومُصَغَّره " فُعَيْلان " ، لا يَتَّزنان على موازين العربية إلا بالنون فى النعت على المذكر ، لا تُحذَفُ نونه إلا فى المؤنث منه ، " فُعَيْلى " ، كما تجد فى "سَلْمَى" ، "سَلْمَان" ، وكما تجد فى مُصَغَّرِهما " سُلَيْمى " ، سُلَيْمَان " . وفات هؤلاء الأدعياء أيضا قبل هذا أن " شِلُومو" العبرية أصلها بالنون " شِلُومُون " ، فلا معنى لكل ما قالوه ، ولكنهم فى تحرِّيهم إثبات نقل القرآن عن أهل الكتاب يذهبون بعيدا ، فيحاولون إثبات أن العرب وُجِدُوا بعد أن وُجِدَ أهْلُ الكتاب ، وأن اللغة العربية نشأت فى حِضْنِ العبرية والآرامية ، فهى ناقلة عن الواحدة أو الأخرى ، حتى فى نحت الأسماء الأعلام ، وكأنَّ العربَ فى شبه جزيرتهم كانوا قوماً بُكْماً ، لا يَنْبِسون ببنت شَفَة حتى يتسمعوا على اليهود أو السريان ، وكأنَّ العربية ليست هى أم السَاميَّات جميعا حيثما كان للساميين فى هذه الأرض مكان ، لا يقولُ اليومَ بغير هذا إلا جاهل كما مر بك فى تضاعيف هذا الكتاب . أما دعوى النقل والتلقين التى تَصايح بها المُنكرون الوَحْىَ على القرآن ، فقد مات بها أصحابُها كَمَدا ، لأن " التِّلْميذ" الناقل يُعلِّمُ " أستاذَه" مالم يكن يَعْلَم ، ويُصوِّبُ له ما أخطأ فيه ، ويُصَحِّح له ما تَحرَّف عليه ، ويُذَكِّرُهُ بما أُنْسِيه ، ويَرُد عليه مقالته ، بل ويَعْنُفُ عليه ، حين تَزِلُّ بأستاذه القَدَم ، أو يَشتَط به الهوى فيفترى على الله عز وجل ، أو يتطاول على مقام رسل الله وأنبيائه ، غَالَى بهم أو أَوْضَع فيهم . ولا يَصِحُّ هذا من " تَلْميذِ " ناقل ، وإنما يصح فحسب من المُصَدِّقِ المُهَيْمِن .

❑❑❑

أما " شِلُومو " العبرية هذه فهى من الجذر العبرى " شَلَمْ " (مكافىء " سَلِمَ " العربى بكل معانيه) . والمصدر منه " شَلُوم " يعنى عربيا السِّلْم والسِّلم والسلام ، كلها بمعنى السلام . وتجىء السَّلم بفتح السين على الصفة أيضا فى العربية ، فيقال "رَجُلٌ سَلْمٌ لرجل" يعنى هُوَ له مسالم ، فالسَّلْم على الصفة عربيا يعنى " المسالم " . والسَّلْمُ العربية هذه على الصفة هى نفسها " شَلوم" العبرية على الصفة أيضا ، أى السَّلْم بمعنى المسالم . ولكن " شَلُوم " على مقتضى النحو العبرى ـ حين يُضافُ إليها مَقْطعُ الزيادة بالواو والنون الذى فى " شِلُومُون " ـ تُخطَف فتحتُها البادئة على الشين فتتحول إلى صوت بين الفتح والكسر (حركة " شوا " العبرية) لا يكادُ يُحس ، وربما

هى إلى السكون أقرب ، فتقول بدلا من شَلُومُون : شِلُومُون أو شْلُومُون ، ثم تحذف النون ، فتقول " شْلُومُو" اسم نبى الله سليمان عليه السلام ، من السِّلْم بمعنى المُسالم.

ورغم أن "سليمان" عربية قُح ، لا تحتاجُ من القرآن أن يفسرها للعرب على منهجنا فى هذا الكتاب ، فإن القرآن فى قصة سليمان مع ملكة سبأ يجىء عَقِبَ "سليمان" بالمرادف القريب الذى يُجَلِّى لك المعنى المخصوص الذى يفهمه القرآنُ من هذا الاسم العَلَم من بين مختلف معانى الجذر"سَلِمَ" ، فيقول : {**قالت ياأيها الملأ إنى أُلقِىَ إلىَّ كتابٌ كريم. إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم. ألاَّ تَعْلُوا عَلَىَّ وأْتونى مسلمين** } (النمل : ٢٩ ــ ٣١) ، يعنى جيئونى سَلْماً مُسالِمين .

أما لماذا جاءت "سليمان" العربية فى القرآن ممنوعةً من الصرف لا تقبل التنوين، فهذا فى العربية هو شأن كلِّ مذكرٍ مَزيدٍ بالنون يَتَأَنَّثُ بفقد النون : فَعْلَى وفَعْلان ، وأيضا مُصَغَّرهما فُعَيْلَى وفُعَيْلان ، كما تقول سَلْمى وسَلْمان ، وسُلَيْمَى وسُلَيْمان .

□□□

وقد يظنُّ الجاهلُ بفقه اللغة العبرية ، كما ظَنَّ أدعياءُ الاستشراق ، أن القرآن أخطأ فى تصغير " سَلْمان " التى جاء بها على " سُلَيْمان " ، لأن "شْلُومُو" العبرية تقابل " سَلْمان" العربية ولا تقابل "سليمان" على التصغير .

ولكن علماءَ العبريةِ يقولون إن الزيادة فى "فعلون" بالواو والنون ، كما تجىء على الصفة واسم الفعل ، تجىء أيضا لإفادة التصغير ، ومثاله " إيشُون" العبرية المزيدة بالواو والنون من " إيش" العبرية يعنى " إنسان " ، فيقولون أنَّ "إيشُون" هى مُصَغَّرُ "إيش" فهى "أُنَيْسان" على التصغير من "إنسان" ، ويقال من "إيشُون" العبرية هذه "إيشُون بِيتْ عَيْن" يريدون ذلك "الأُنَيْسان" الذى تراهُ فى عينِ مُحدِّثِكَ حين تُحَدِّقُ فيه ، فهو "إنسانُ العين" ، أى " بُؤْبُؤُها". وليس المراد من بنية التصغير فى كل الأحوال ـ على ما يعرف اللغويون جميعا ـ هو صِغَرُ الحجم أو صِغَرُ القَدْر ـ فمن العرب من سُمُّوا " كُلَيْباً " وهم ملوك ـ وتقول لابنك وقد شِبْتَ وشَابَ معك : يا بُنَىَّ ! كنايةً عن الحُبِّ والوَدَادَةِ والإعزاز .

وقد عَلِمَ القرآنُ مرادَ داودَ من تسمية ابنه يوم وُلِدَ فأسماهُ "شْلُومو" ("شْلُومُون")، على التصغير من "شَلُوم" العبرى الصفة لا المصدر ، لا يَصِحُّ فى تفسير "شْلُومو" ، عبرياً ، إلا هذا : لو كانت " شْلومو" (شْلُومُون) مَحْضَ الصِّفة لا مُصغَّرها لقيل " شِلْمون" على زنة " فعْلُون" ، كما قال العرب فى الصفة "سَلْمان" على "فَعْلان" من سَلِمَ ، ولكن نبى الله سليمان عليه السلام اسمه "شْلُومو" (شْلُومون) لا "شِلْمُون" فهو مُصَغَّرُ "شَلُوم" يعنى السِّلْم أو سَلْمان على الصفة ، إنْ صَغَّرْتَ "شَلُوم" قلت "شْلُومُون " ، وإن صَغَّرْتَ " سَلْمان " قلت سُلَيْمان .

جاء القرآن باسم نبيِّ الله "شْلُومو" (شْلُومون) على "سليمان" فأصاب المعنى وأصاب البنية ، أى بناء الاسم على التصغير . وسبحان العليم الخبير .

□□□

وقد خاض كتبة العهد القديم فى سفر صموئيل الثانى (راجع صموئيل الثانى ١١ ـ ١٢) بفُحشٍ لا مثيلَ له فى قصة داود عليه السلام مع " بِتْشبِع " امرأة ضابطه "أوريَّا الحِثِّى" ، فقالوا إن داود اطَّلَعَ عليها من سطح بيته وهى تستحم فى بيتها ، وكانت رائعة الجمال ، فسأل عمن تكون ، فقيل له هى بِتْشبِع بنت إليعام امرأة أوريَّا ، فلم يتورع ، وزوجُها فى صفوف القتال ، أن يُرسِلَ إليها من يأخذُها إلى بيتِ "داود" فدخلت إليه فاضَّجَعَ معها وهى مُطهَّرة من طَمْثِها ثم رَجَعت إلى بيتها " (صموئيل الثانى ١١ / ٤) . زنا بها داود إذن فى غيبة زوجها على مرأىً ومَسْمعٍ من حاشيته ، لم يتأثَّمْ ولم يتأثَّمُوا من جُرم عقوبتُهُ فى توراة موسى الرَّجم للزانى والزانية ، وإن حَرَصَ وحَرَصوا على أن تكون " طاهراً غيرَ طامث " ! ويعودُ الضابط المثلومُ العرضُ ليُفاجأ بالفضيحة فيمتنعَ عن الدخول على امرأته وينامَ على بابِ قصر داود ، ويُخْبَرُ داودُ فيستفسر منه عن السبب ويقول له لماذا لم تنزل إلى بيتك وقد جئتَ من السفر ؟ ويَرُدُّ صاحبُ العرضِ الجريح وكأنَّه يعظُ داود : " إن التابوتَ وإسرائيلَ ويهوذا ساكنون فى الخيام ، وسيدى يُوابُ وعبيدُ سيدى (يعنى يُوابُ وجنودُه ويُوآب هو القائدُ الأعلى للجيش) نازلون على وجه الصحراء ، وأنا آتى لآكلَ وأشْرَب وأضَّجعَ مع امرأتى ؟ وحياتكَ وحياةِ نَفْسك لا أفْعَلُ هذا الأمر . " (صموئيل الثانى ١١/١١) . ولا تختلجُ عَضَلَةٌ فى وجهِ داودَ الملك الذى يَكْتُبُ الكاتبُ سيرتَه ، ولكنه وقد شاعت الفضيحة

يَعْتَزُّ بإثمه فَيُولمُ لهذا الضابط يَأكُلُ معهُ ويشربُ ويَسْكَر ، ثم يبلغَ من عُتُوّه أن يُحَمِّلَ أوريِّا من غدِه رسالةً مطوية فيها الأمرُ ليُوْاب قائد الجيش تَقول : اجعلوا أوريًّا فى وجه الحـرب الشـديدة ، وارجـعُوا مـن ورائه فَيُضْرَبَ ويَمُوت (صـمـوئيل الثـانى ١١/١٥) ويُقتل أوريًّا بالفعل فى المعركة صريعَ جمال امرأته وغدر داود . أما المرأة فَنَدَبت بَعْلَها ، وأما داود فلم يَتَلَبَّث أن مضت "المناحةُ" حتى أرسَلَ إليها فَضَمَّها إلى بيته وصارت لهُ امـرأة . وتضع المرأة ابنا لداود مِنْ زناهُ بهـا . ويُرسِلُ الربُّ ناثانَ النبى إلى داود يَضرِبُ لَهُ مثل الرجلين ، صاحب النعجة الوحيدة التى اقتناها وربَّاها وكَبِرتْ معـه ومع بَنيه جميـعـا ، تأكلُ من لقمتـه وتشربُ من كـأسِه وتنامُ فى حِضْنِه وكـانت له كـابنة ، يُريدُ بتْشبع امـرأةَ أوريًّا ، والرجل الآخر ذى الوفـرة من الغنـم والبـقـر الذى نزل عليـه ضـيفٌ فاستكثر أن يُولِمَ له من غنمه بل بلغ من عُتُوِّه أن يأخذ نعجةَ الرجل الفقير يُولِمُ بها لضيفه ولم يَأبَهْ ، فِعْلَ داود مع أوريًّا . ويَحْمَى غَضبُ داودَ على هذا الظالم ويقضى عليه بقوله : يُقتَلُ هذا الظالم وتُردُّ النعجةُ إلى صاحبها أربعةَ أضعاف ! فيقول له ناثان النبى : بل أنت هذا الرجل ! قتلتَ الرجل وأخذتَ امرأتَه لكَ امرأة ، ولم تَذكُر آلاء الله عليك . فَعَلْتَ فى السِّر واللهُ يفعـلُ بك فى العَلَن : يأخذُ الربُّ نسـاءك أمام عـينيك ، ويُعطيهن لِمَنْ يَضْجعُ معهُنَّ فى عَيْن هذه الشمس . يُفْعَلُ بِهِنَّ هذا قُدَّامَ جميعِ إسرائيلَ وقُدَّامَ الشمس . قال داودُ لناثان قد أخطأتُ إلى الرب . فأجابَهُ ناثانُ قائلا الرَّبُّ أيضا قَد نَقَل عنك خطيئتك . لا تموتُ (أى لا يُعاقِبُك بالقتل جزاءَ فِعْلَتِك) ولكن الابنَ المولودَ لك منها يموت . (ربما أراد الكاتب أن يمهد لما حدث من بعد لداود فيما يحكيه هذا السفر من أحداث حرب لداودَ مع الفلسطينيين كانت لهم فيها سبايا من نساء داود وأهل بيته وكأنها عقوبةٌ لداود على فعلته مع أوريًّا) . ويمرض المولود ويموت . ولكن داود يُعزى بِتْشبِع عن ابنهما ويدخل إليها ويَضْجعُ معها فتحملُ وتلد له ابنا يدعوه سليمان : "فولدت له ابنا فدعا اسمه سليمان (شلومو) والربُّ أحَبَّه . وأرْسَلَ بيدِ ناثان النبى ودعـا اسـمـه يَديديًا من أجل الرب" (صـمـوئيل الثـانى ١٢/٢٣ ـ ٢٥) أى لأن الرب أحب سليمـان كناه أبوه " يَديديًا " يعنى "حِبُّ الله " كمـا مَرَّ بك . وكأنما قد كان مولدُ سليمان لداود علامةً على السِّلْم والسلام مع اللهِ عز وجل الذى غفر له ما فعل.

هذا هو معنى تسمية سليمان " شْلُومو" ومناسبتها ، فلا غرو أن يجىء بها داود على التصغير من " شَلُوم" ، تَوَدُدًا وتَحَبُبا .

❑❑❑

وقد قَصَصْتُ عليك فَأطلت ، كى تعلم إلى أى مدى يَلغُ الكتبةُ فى أعراض أنبياء الله ورسله، لا يتأثمون من شىء مهما عَظُم : نبىٌّ يغتصبُ امرأةَ صاحب جُنده فى غيبته ، يجىء بها إليه عُصْبَةٌ من رجاله ليزنى بها عَلنا فى بيته ، ويعودُ زوجها فيطلب إليه داود الدخول إليها كى يختلط الماءان فلا يُعْرف من كان الأب ، ويمتنع الزوج الذى اكتشف الفضيحة ، ولكنه لا يجرؤ أن ينبس ببنت شفة ، ويُولِمُ له داود "العشاء الأخير" قبل أن يبعث به من غده إلى ساحة الموت يَحْمِلُ أمْرَ إعدامه بيده إلى قائد الجيش "يُوَاب" فَيُنَفِّذُه غيرَ مُبالٍ ، ثم يُبْلِغُ داود بأنَّه قَد تمَّ ! ولا يَزيدُ داود على أن يقول : "لا يسوء فى عينيك هذا الأمرُ (يُعَزِّيه فى ثَلْمِ شرف الجندية !) لأن السيف يأكلُ هذا وذاك !" (صموئيل الثانى ١٢/٢٥) . ألا ما أَقْذَعَ هذا وما أَبْشَعَه !

قارن هذا بما قاله القرآن العظيم فى هذه النازلة التى ابْتُلِىَ بها داود (الآيات من ٢١ الى ٢٥ من سورة ص) : لم يَزْنِ داود بالمرأة ولم يَقْتُل زوجها ، ولكن اْستَزَلَّهُ هواهُ فَفُتِنَ بها ، ولم يستعصم ، فاستدعى إليه زوجَها وَعَزَمَ عليه فى طلاقها كى يتزوجَها هو : { **فقال أكْفِلنيهَا وَعزَّنى فى الخطاب** } (ص : ٢٣) أى شَدَّدَ عَلَىَّ بسلطانه ، ويُذْعِنُ الرجلُ وَيضْعف تحت وطأة هذا السلطان ، ويعودُ إلى موقعه على الجبهة وقد أُجْبِرَ على فراق زوجته بسلطانِ الهَيْبَة وسلطان المُلك ، ربما هانت عليه نفسُه فاسترخصَ الموت ، ولم يُعنِّهُ عليه يُوَاب قائدُ الجيش بأمر من داود ، فلا يَصِحُّ بهذا مُلك، ولا يَصْبِرُ على هذا جيش. ولكنك لا تعتذر لداود عما فعل ، فمجرد رغبته فى تطليق امرأة من زوجها ليتزوجها هو ضِمْنَ حريم يكاد يَبْلُغُ المائة ، ظُلمٌ صَراح ، وبَغْىٌ لا يَصِحُ من أفراد الناس ، فما بالك بمَلك ، ناهيك بنبى ! قد قالها داودُ بنفسه : { **لقد ظَلَمكَ بسؤال نعجتكَ إلى نِعاجه وإن كثيرا من الخُلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هُم** } (ص : ٢٤) ، وينتبه داود إلى أنه بفعلته مع أُوريًا لم يَعُد من القليل الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلا يَبْغونَ على خُلَطَائهم (ولعل أورِيًا كان ضابطا مقرَّبا إليه) ، فهالتْهُ المصيبة التى لا

تَعْدلُها عند المؤمن مصيبة ، بل قد أيقن أنه فُتِن : {**وظن داود أنما فتناه ، فاستغفر ربه ، وخرّ راكعا وأناب** } (ص : ٢٤) . وقد غفر الله لداود هذه الزَّلة لأن داود كانت له عند الله قُربَى بسالف العمل ، موعودُ بحُسْنِ المآل : { **فغفرنا له ذلك ، وإن له عندنا لزُلْفَى وحُسْنَ مآب** } (ص : ٢٥) . ولكن الله عز وجل يَعظُ بها داود في نفسه وَعْظاً بليغا ، لو سَمِعَهُ ملوك الأرض لَتَفَطَّرَت قلوبُهم هَلَعاً من يوم الحساب : { **يا داودُ إنَّا جعلناك خليفة في الأرض فاحْكُمْ بين الناس بالحق ولا تَتَّبع الهوى فَيُضِلَّكَ عن سبيل الله ! إن الذين يَضِلُّون عن سبيل الله لهم عذابٌ شديدٌ بما نَسَوا يَوْمَ الحساب** } (ص : ٢٦) ، أي ليس لمن مَلَّكَهُ اللهُ على الناس أن يَتَّبِع هواه ، وخَيْرٌ لمن يَتَّبِعُ هواه أن يَنْأى بنفسه عن المهالك فَيَنْأى بنفسه عن المُلْكِ ويَعْتَزِلَ الناس ، وإلا فمَصيرُهُ إلى النارِ وبئس القرار .

ذكر القرآنُ حقائقَ ما كان : الفتنةُ والتَّوبة ، والإنابةُ والاستغفارُ والمغفرة ، وثَنى بَعْدَ الموعظة بالوعيد . أما ذلك الكاتبُ في العهد القديم فقد لَغَطَ قَلَمُهُ بما لَغَت به ألسنةُ الوالغينَ في أعراض الناس بالباطل ، يَبغونَ لَهْوَ الحديث ، فما أُفلِتَ منهم نَبيٌّ ولا صدِّيق . ولعلك لاحظت أيضا أن الكاتب في العهد القديم لم يكن لديه علمٌ بتلك الملائكة الذين تَسَوَّرُوا على داودَ في محرابه يَعِظُونَه ، ويَضْرِبُون له المَثَلَ ويُذكِّرونَه ، حتى يسترجع داود وتَتَفَلَّتُ منه العَبَرات ، ويغفر اللهُ له فيبشرونه بالتوبة والمغفرة مشروطتين بالاستقامة على عهد الله عز وجل ، لا يتَّبع من بعد الهوى المُضِّلَ . لم يعلم الكاتب بهذا ، فماذا يفعل ؟ يلجأ لنبيٍ اسمه ناثان يَرْأَبُ به الثُّغرة ، فينقل ناثان وحي الله إلى داود ، يَضربُ نفس المثل الذي في القرآن أو يكاد ، ولا يزيد داود على أن يقول : قد أخطأتُ إلى الرَّب ! ويقول له ناثان : والرَّبُّ أيضا قد نَقَل عنك خطيئتك! (لا يَقتُلُه بها وإنما يَقْتُل مولودَه من الزنا) . ويَمْثُل ناثان هذا أمامك مُعَلِّما لداود ونبيا فوق نبي ، وما هكذا تكونُ الأنبياء .

قارن بين الروايتين واحكم بنفسك : أي الروايتين كَلامٌ من الله نَزَل ؟ القرآن الذي ينطق بالحق ويُميط الأذى عن أنبياء الله ورسله ، أم كلام ذلك الكاتب الذي يَضَعُ نَبيَّ الله داود في صفوف الزُّناةِ والقتلة ؟

على أنك "تَحْمَدُ " للكاتب شيئا واحدا ، وهو تَعَفُّفَه عن الغمزِ فى مَوْلد سليمان عليه السلام ، فلم يجعله ابنا لداود من الزنا ، وإنما ابتدع " المولودَ الأول" لداود من بِتْشبِع ، ثم أماته ، ليجىء سليمان من بعدُ " ابن رَشْدَةٍ " ، أى بعد موت أوريا وزواج داود فى الحل من أرملة أوريًا . ولكنك تجزم معى بأن هذا المولود الأول المُفترى به على داود وبتْشبِع لم يكن له قط وجود ، بل هو من بنات أفكار الكاتب ، يُحْكِم به نَسيج قصته .

(٤٥) إلياس

" إلياسُ " فى القرآن هو اسم نَبِىُّ الله " إيليًا " المذكور فى سفرى الملوك الأول والثانى بالعهد القديم ، نبياً من أنبياء بنى اسرائيل على عهد الملك آخاب الذى مَلَك على مملكةِ اسرائيل فى السامرة بعدَ إحدى وأربعين سنة من موت رَحُبْعَام بن سليمان . ويقول لك كتبة هذين السفرين ان " آخاب عبد البَعْلَ وسجد له . وأقام مذبحا للبعل فى بيت البعل الذى بناه فى السامرة . وعَمِلَ آخابُ سوارِيَ وزاد آخاب فى العمل لإغاظةِ الرَّبِّ إله إسرائيل أكْثَر من جميع ملوك إسرائيل الذين كانوا قبله (الملوك الأول ١٦/ ٣١ ـ٣٣) . وإلى هذا المَلِك وقومه الذين انحرفوا عن الواحد الأحد واتخذوا البعل والصنم من دون الله عز وجل ، أُرسلَ إلياسُ عليه السلام : { **وإن الياس لمن المرسلين . إذ قال لقومه ألا تتقون . أتدعون بَعْلاً وتذَرون أحْسَنَ الخالقين** } (الصافات : ١٢٣ ــ ١٢٥) ، والذين " دَعَواْ " بعلاً (اسم صَنَمهم الأكبر) هم ذلك الملكَ آخاب وقومُه من بنى إسرائيل ، فَتَقْطَعُ من القرآن بأن إلياس عليه السلام هو نَبِىُّ الله " إيليا " المذكور بهذا اللفظ فى العهد القديم .

وقد عَرَّبَ القرآن " إيليّا " العبرية على "إلياس" ناظراً إلى لفظها اليونانى الشائع عَصْرَ نزوله Elias أى بصورة المرفوعِ فى تلك اللغة وعلامتها فى المُذكر إضافةُ السين ، على ما مَرّ بك فى تضاعيف هذا الكتاب .

□□□

أما هذا الاسمُ العبرانى إيليا ، المختصر من إليّاهو، فأصْلُهُ إيل + ى + ياهو، أى "إيلى يهوا" ، والمعنى هو اللهُ إلهى أى " اللهُ رَبِّى" .

وقد ورد اسم "إلياس" عليه السلام فى القرآن ثلاثَ مراتٍ فحسب : {**وزكريا ويحيى وعيسى وإلياسَ كُلٌ من الصالحين**} (الأنعام : ٨٥)، {**وإن إلياسَ لمن المرسلين** } (الصافات : ١٢٣) ، وفى هاتين المرتين ورد الاسمُ " إلياس" ممنوعاً

من الصرف للعجمة غَيْرَ مُنَون ، أما فى المرة الثالثة : {**وتركنا عليه فى الآخرين. سلامٌ على إلياسين**} (الصافات : ١٢٩ ـــ ١٣٠) فقد ورد كما ترى لا مصروفاً مجرورا بالكسر فحسب مُنَوناً ، بل ومع إشباع الكسرة قبل نون التنوين حتى تَؤولَ الكسرةُ فى الرسم إلى الياء : إلياس + ى + ن . والعلة فى هذا كما قال المفسرون (راجع تفسير القرطبى لهاتين الآيتين من سورة الصافات) هى مراعاةُ رؤوس الآيات قبَله كما رأيت من قبل فى الإبدال من سينَاءَ "سِينين" .

والذى يستوقفُ النظر هو رَسْمُ المصحف لهذا الاسم فى صورته الثالثة المزيدة بالياء والنون ، فقد وقعت فى الرسم مقطعة : إلْ ياسين ، لا مجموعة : إلياسِين ، والرأىُ عندى أن هذا التقطيع مرادٌ من الكاتب بتوقيف من النبى صلى الله عليه وسلم، إشارةً إلى أن الألف واللام البادئتين فى هذا الاسم ليستا هما أداةُ التعريف العربية ، وإنما هما اسمُ الله عز وجل " إلْ " العبرانية ـ والتى نطق بها العربُ أيضا على ما مر بك ـ كى لا يُتَوهَّمَ أن اسم "الياس" من " اليأس" سهلت همزته ، أو نحو ذلك . وهذا يدُلكَ على علْمِ النبوة بفقه تركيب هذا الاسم العبرانى الذى لم يَفُت الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم . أما "ياسين" المَقطعُ الثانى فى هذا الاسم الذى رُسم مَقَطَعاً فى "الياسين" ، فالرأى عندى أيضا أنه الياءُ والسين تُنطقان كما تنطق الحروف المقطعة فى بوادىء السور، ومنها يس فى السورة المسماة بهذا الاسم وتنطق يا + سين.

□□□

هذا عندى هو الوجُه الأمثل فى تفسير مجىء إلياس على الياسين فى الآية ١٣٠ من سورة الصافات : قد روُعيت رؤوس الآيات بلا جدال ، ولكن ليس ثمَ إضافة ولا تنْوَين .

□□□

وقد فَسّرَ القرآن على منهجنا فى هذا الكتاب الاسم " الياس" بالمرادف ، كما تستظهر من قوله عز وجل : {**وإن إلياس لمن المرسلين. إذ قال لقومه ألا تتقون. أتدعون بعلاً وتذَرونَ أحْسَنَ الخالقين. الله ربَّكمُ وربُّ آبائكم**

الأولين . فكذَّبوه ، فإنهمُ لمحضرُون. إلا عباد الله المخلَصين. وتركنا عليه فى الآخرين. سلامٌ على إلْ ياسين {الصافات : ١٢٣ ــ ١٣٠}.

ألاَ تجَدُ فى هذا الجناس البديع بين "إليـاس" (الله ربِّى) وبين "اللهَ ربَكُم" ما يفسَرُ الاسم إليـاس (اللهُ ربّى أو اللهُ إلهّى) أبْيَنَ تفسير ؟ نَعَمْ . وسُبحانَ العليم الخبير .

(٤٦) اليسع

" الْيَسَع " عليه السلام هو نَبِيُّ الله المرسومُ " إِليشَعْ " فى أسفارِ العهد القديم إلى جوار إيليًّا (إلياس) ، تلميذُ إيليًّا وخَلَفُهُ فى النبوة .

وأصل "إليشَعْ" العبرية هو إِلْ + يِشَعْ، و المعنى : اللهُ يسَعَ، وهى نفسُها إِل + يَسَع ، التى فى القرآن " الْيَسَع " . فهو اسمُ أعْجَمِىُّ مُفَسَّرٌ بالتعريبِ وحده ، بل هو من أبْيَنِ تفاسيرِ القرآن عَلَمَهُ الأعجمىُّ بالتعريب ، ولم يَفْطِن إليهِ أحَد .

❑❑❑

يجىء " الوُسْع " ، " السَّعَة " ، فى العربية بمعان تدورُ كُلُّها على معنى واحدٍ هو " الرَّحابة " ضد " الضّيق " ، ومنه الطريق الواسع أى العريض ، والرِّزْقُ الواسع أى الذى لا يضيقُ عن النفقة ، ورجلٌ مُوَسَّعُ عليه ، يعنى غَيْرُ مُضَيَّق ، وذو السَّعَة يعنى ذو الوفرة و الغنى ، ولا يَسَعُنِى هذا الأمر ، يعنى يَضيقُ عنه جَهدِى وقُدرَتى ، فالسَّعَة أيضا يعنى الطاقة والقوة. إلى آخر ما تعرف من معانى هذه المادة ومجازاتها.

وقد بقى فى العبرية من هذه المعانى معنيان اثنان : الغِنَى، والفَرَج بمعنى النُّصْرَة ، أى التوسعة للمُضَيَّقِ عليه ، و التفريج عن المكروب .

وللمادة العبرية من "وسع" العربى صورتان " شاع / يِشُوع / شُوع " ، وهو مقلوب "وَسِعَ " العربى ، والصورة الثانية هى " يَشعْ " على إبدال الواو من "وسع" العربى ياءً كدأب العبرية والآرامية فى كل الجذور العربية ذوات الواو .

ولكن عبرية التوراة لا تستخدم الجذر شاع / يشوع فى صيغةٍ فعلية ، وإنما تقول منه على الصفة " شوع " يعنى الغَنِىُّ ذو الوفرة أو السخىّ الكريم ، وتقول منه على الإسمية " شوع " (بتثقيل الضم فى الواو) يعنى الغِنَى والثروة (أى السَّعة) ، وتقول منه على الإسمية أيضا " تْشُوعا " (أى التوسعة) بمعنى الفَرَجِ و النَّجاء .

أما الجذر العبرى الآخر "يَشَع" فلا تستخدمه العبرية فى صيغة الثلاثى المجرد، وإنما تستخدمه فى صيغة " هِفْعِيل " المُعَدَّى بالهاء (وهى صيغة " أَفْعَلَ " العربى المُعَدَّى بالهمزة كما مر بك) بمعنى أَوْسَعَ لَهُ و فَرَّجَ عنه . وأيضا فى صيغة "نِفْعِيل" (وهى صيغة المطاوعة فى " انفَعَلَ " العربى) على المفعولية من " يَشَع " ، والمعنى أُوسِعَ له وفُرِّجَ عنه على البناء للمجهول . وهذا يَدُلُّك على أن " يَشَعْ " العبرى غيرَ المستعمل كان فى أصله فعلا متعدياً بذاته ، وإلا لما جاز منه "انفعل" ، تماما كوَسِعَ العربى المُتَعَدَّى بذاته ، كما فى قول الحق تبارك وتعالى متحدثا عن نفسه : { **وَسِعَ كرسِيُّهُ السموات والأرْضَ** } (البقرة : ٢٥٥) ، ولكنْ لأن " يَشَع " العبرى أُميتَ فى ثُلاثيه المجرد، فقد استُخْدِمَ فى موضعه " هُوشِيع" أى " هِفْعِيل " المعدَّى بالهاء، فتظن أن " يَشَع" أصلُهُ لازمٌ غيرُ مُتَعَدٍ (أى اتَّسَعَ) و الأصوبُ هو العكس .أعنى الصحيح هو أن الجذر الثلاثى العبرى (الممات فى ثلاثية المجرد) كان قبل مواته فعلا متعدياً بذاته ، فيكون معنى إِل ـ يِشَع ، الله يَسَعُ ، يُرادُ من هذا كما مر بك اسمُ الفاعل ، بمعنى " اللهُ ناصر " ، " اللهُ مُوسِع " ، " اللهُ مُفَرِّج" ، " اللهُ مُعِين " .

أما تركيبُ هذا الاسم المزجى ، فهو فيما نقول نحن ، إِل ـ يِيشَع ، " إل" إسمُ الله فى العبرية ، "يِيشَع " قياسُ المضارعة من الجذر الثلاثى المُمات "يَشَع" ، وهو "وسِعَ " العربى .

ولكن علماء التوراة يقولون ان التركيب المزجى لاسم "إِلِيشَع" هو "إِلِي ـ يِشَاع"، حيث "إِلِي" = "إِلَهِى" ، "يشَاع " = سَعَةٌ ، مصدراً من الجذر المُمات "يَشَع" ، ويكون المعنى إِلهى نُصْرَة ، إِلهى فَرَج ، إِلهى عَوْن ، ولا فرقَ فى المعنى بين هذا وبين الذى قلناه ، بل يؤكد أن "يشَعَ " أَصْلُهُ مُتَعَدٍ لا لازم ، لأن المصدر منه ، الباقى فى العبرية إلى الآن (النصْرَة ، السَعَة ، الفَرَج ، العَوْن) يفيدُ التعدى قطعاً ولا يفيدُ اللزوم .

ولئن كان النطق والمعنى على القولين واحدا ، فإن ما نقوله نحن أَصْوَبُ وأَوْجَه، لأن قولَ علماء التوراة مفتعل ، فلا أحد يصف اللهَ عز وجل بصفةٍ فيه ويقول "إِلهَى" كذا وكذا ، مثل إلهى رحيم ، إلهى رحمان ، إلهى واسع ، وكأن " إِلهَهُ " ليس"إله" كلِّ الناس ، وإنما يقول اللهُ رحيم ، اللهُ رحمان ، الله واسع . لا يصح أن يقال "إِلهَى" إلاَّ على الخطاب من العبد لربه فى الدعاء والمناجاة .

أما الذى صَدَّ علماءَ التوراة عن القول الذى به نقول ، فهو أن الجذر "يشع" ممات فى ثلاثيه المجرد كما مر بك ، فلا يصح أن يُستخدم المضارعُ منه : إِل ـ يِيشَع . وليس هذا بحجةٍ فى الأسماء الأعلام بالذات ، التى تستحيى المُماتَ فى اللغة غيرَ ناظرةٍ إلى تَوَقُّف جَرَيانه على ألسنة الناس ، فكم من اسمٍ عَلَم استبقى تراكيبَ أُميتت فى الاستعمال . من ذلك فى العبرية نفسها الاسم العلم "عُمْرِى" (اسم ملك من ملوك إسرائيل)[١] والجذر منه " عَمَر" مُمات فى ثُلاثيِّه مثل "يشَعَ" سواءُ بسواء .

وقد تَلَبَّثْتُ معك قليلا عند معانى هذا الجذر العبرى "يشَع" ـ وربما أثقلتُ عليك بعضَ الشيء بمُواضَعات النُّحاة ـ رغم أنهما علمانِ اثنان فقط يَدْخُلُ فى تركيبهما هذا الجذرُ " يَشَع" ، من بين واحدٍ وستين اسماً تتناولُها مباحثُ هذا الكتاب ، وما ذاك إلا لأن العَلم الثانى ـ غيرَ "إلِيشَع" ـ هو علمُ المسيحيةِ الأكبر عيسى عليه السلام الذى لنا فى تفسيره مذهبٌ نُخالف به علماء المسيحية الذين فَسَّروه من قديم بمعنى "المُخَلِّص" على الفاعلية من "خَلَّص" ونفسره نحن على ما يأتى إن شاء الله فى موضعه باسم المفعول ، فهو " المُخَلَّصُ " الناجى .

□□□

أما أدعياءُ الاستشراق الذين قد عَلِمْت ، فقد عابوا على القرآن قراءة "اليسع" فى المصحف بهمزةٍ مفتوحة مُخْتَلَسَة على الألف البادئة ـ عكس ما فَعَلَ فى "إلياس" الذى راعى فيه إثبات الهمزة المكسورة تحت الألف البادئة لا يجوز اختلاسها فى الوصل فتقول " إنَّ إلْياس " ، ولا تنطقها قط " إنَّلْياس" ـ على ما مر بك من الحكمة فى رسمها مرة " إلْ ياسين " مقطعة . فقد وَهِمَ القرآنُ فى زعمهم[٢] أن الألف واللام فى "اليسع" هما أداة التعريف وليستا "إلْ" اسم الله عز وجل فى العبرية .

---

(١) مختصر " عُمْريًا " أى "خادمَهُ" يعنى "خادمُ الله " ، من " عَمَرْ " العبرى المماتُ ثلاثيه بمعنى كان له خادما أو "سادنا" والباقى منه فى عبرية التوراة صيغة استفعل أى " هتْعمر" أى عامله معاملة الخادم ، يعنى امتهنه أو تَخَدَّمَه . والرأى عندى أن "عُمَر" ، "عَمْروَ" فى العربية من هذا لا من طول البقاء ، ومنه قوله عز وجل فيما أرى : {**واستعمركم فيها**} [هود : ٦١] أى أنشاكم من الأرض واستخدمكم فيها .

(٢) انظر : Joseph Horovitz ، المرجع المذكور ، ص ١٣ .

وتبتسم معى إشفاقا : أفقد سَلَّمْتُم للقرآن بالفقه فى اللغة العبرية حتى استطاع أن يحلل اسم "إِلياس" إلى عنصريه ، فَيُفْرِدَ " إِلْ " بالرسم مقطّعة منعاً لظنها أداة التعريف مُضافةً إلى "ياس" فى اسم "إِلياس" ؟ فكيف يفطن إلى "إِل" فى إلياس وتَنْبَهِمُ عليهِ فى " اليسع" ؟ ألعل الذين لقَّنُوه " إلياس " فَسَّرُوه له ، ولم يُفَسَّروا له "اليسع" حين أَسْمَعُوهُ إياه ؟ أم أن تركيب هذا الاسم "إليشع" انْبهَمَ أيضا على من لَقَّنُوهُ إياه ؟

لا هذا ولا ذاك بالطبع ، ولكن القرآن الأَفْقَهَ بالعبرية من أهلها يَعْلَمُ من دقائق العربية ما يَخْفَى على هؤلاءِ المتطفلين الأدعياء : الاسمُ المزجى "إل + ياس" يُشَكِّلُ بذاته جملةً إسميةً تامة بشطريها ، المبتدأ والخَبَر ، فى أصل تركيبها العبرى ، بينهما ضميرُ المِلك للمتكلم المفرد : إل + ى + ياهو ، يعنى : إلهى هو ، أى : هو إلهى . والمبتدأ فى هذه الجملة الإسمية التامة ، مضافٌ إلى مضاف إليه : إل مضافٌ إلى ضمير المِلك للمتكلم المفرد وهو الياء (فى العربية والعبرية سواء) ولا تجوزُ قط أداةُ التعريف فى ضمائر الوصل (الياء والكاف وما جرى مجراهما) ولا ضمائر الفصل (أنا وأنت وما جرى مجراهما) . أيضا الاسم المزجى إل + يسع (إل + يبِشع) العبرى يُشَكِّلُ بذاته جملةً إسميةً تامة : اللهُ يَسَع ، ليس بينهما ضميرُ مِلك ، والانفصالُ بينهما واقعٌ ظاهر ، يُجَلِّيه نُطْقُكَ " إل " وكأنها أداة تعريف، يليها فعلٌ عبرىٌ مضارع يُراد منه اسمُ الفاعل، أى الواسعُ المُوسِع (والواسعُ من أسماء الله الحسنى) ودلَّ القرآنُ بهذا النُّطق على أن الشَّطر الفِعْلِىَّ من الاسم المزجى " اليسع" ، يُراد منه الاسم لا الفعل . على أن إضافة أداة التعريف إلى صيغة الفعل المضارع صحيحٌ فى العربية : تقول منه "اليُؤْكَل" على سبيل المثال تريد " الذى يؤكل " أى الصالح للأكل (edible الانجليزية وكل مختوم بأحد المقطعين able ــ و ible ـ فى اللغات الأوربية الحديثة) ، لأن " الـ " هنا بمعنى الذى عند علماء العربية . وقد مر بك فى بعض حواشى هذا الكتاب ترجيحُنا تفسير اسم الجلالة "الله" بأنه من " الـ + هو " أى الذى هو ، وأنَّهُ فى ترجيحنا الأصلُ الذى جاءت منه " إِلْ " ، " يهوا " اسمين لله عز وجل فى التوراة . فلا يبعد أن يكون مراداً من الألف واللام كأداةِ تعريفٍ فى اسم " اليسع " المُعَرَّبِ عن " اليشع " العبرى ، هو اسمُ اللهُ عز وجل .

على أننا لا نتوقف عند هذا، وإنما نُذكِّرُ هؤلاء الأدعياء بأن "اليسع" ، شأنُهُ شأنُ "إلياس" إنما جاءا في العربية التي نزل بها القرآن ، لا على أصلِهما ، وإنما مُعَرَّبَيْن على أوزان العربية ، شأنَ التعريب الجيد لا الببغائي ، ولا يصح تعريبٌ في " اليسع " إلا بنطق الألف واللام فيه كما تنطق أداة التعريف العربية . إن فَعَلْتَ غيرَ هذا ـ وأرجو منك أن تحاول ـ كَسَرْتَ الوزن .

وردت " اليسع" ـ تعريباً لاسم نبي الله "إليشع" عليه السلام ـ مرتين اثنتينِ فقط في القرآن ، الأولى التي في سورة الأنعام في جُملة لفيفٍ من أنبياءِ اللهِ ورُسُله : { **وإسماعيلَ واليسعَ ويُونُسَ ولوُطا ، وكُلاً فضلنا على العالمين** } (الأنعام : ٨٦) ، والثانية في قوله عز وجل : { **واذكر عبادنا إبراهيمَ وإسحقَ ويعقوبَ أولى الأيْدى والأبصار . إنَّا أخْلَصْناهم بخالصةٍ ذِكْرىَ الدار. وإنهم عندنا لمن المُصْطَفَيْنَ الأخيار . واذكر إسماعيلَ واليسعَ وذا الكفل ، وكُلٌ من الأخيار** } (ص : ٤٥ ــ ٤٨) . وليس في أيٍ من المرتينِ كما ترى تفسيرٌ لمعنى هذا الاسم العَلَم العبراني " اليسع" .

" اليسع " إذن مُفَسَّرَةٌ في القرآن بالتعريب وحده . إنه "إِلْ + يَسَع" ، يعني "إِيل يَسَع" ، أي "اللهُ يَسَع" ، واسعٌ عليمٌ سبحانه .

(٤٧) ذو الكفـل

"ذو الكِفْل" عليه السلام نبيٌّ من أنبياءِ اللهِ عز وجل المُسَمَّيْنَ فى القرآنِ بالاسم. ورد اسمه فى القرآن مرتين فحسب ، أولاهما التى فى سورة الأنبياء مجموعاً إلى إسماعيلَ وإدريسَ عليهما السلام : { **وإسماعيلَ وإدريسَ وذا الكفل ، كل من الصابرين** } ﴿الأنبياء : ٨٥﴾ ، والثانية التى فى سورة ص ، مجموعا إلى إسماعيل واليسع عليهما السلام : { **واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل ، وكل من الأخيار**} ﴿ص : ٤٨﴾ .

ولفظ "ذى الكفل" كماترى عربىٌّ قُحٌّ ، ليس فيه شُبْهَةُ عُجْمَة .

على أن " ذا الكفل" لم يكن رجلا عربيا يتكلم العربية التى نزل بها القرآن . ولم يكن "ذو الكفل" بهذا اللفظ العربى هو الاسم الذى سماه به أبوه . وإنما "ذوالكفل" اسم "جاءَ به القرآنُ على الترجمة ، بديلاً من اسمه العبرانى فى" توراة الأنبياء والكتبة" ، أى فى العهد القديم ، شأنَ القرآنِ المُعْجز فى العدول عن التعريب إلى الترجمة حين يُسىءُ التعريبُ إلى المعنى أو يُفْسِدُ الجَرْس . وقد اجتمعت هاتان العلتان فى اسم "ذى الكفل" على أصْلِه العبرى ، فوجبت الترجمة ، كما سترى .

❑❑❑

تكلم المفسرون فى "ذى الكفل" (تفسير القرطبى للآية ٨٥ من سورة الأنبياء) فلم يتوقفوا عند تفسير معناه لأنه اسمٌ عربىٌ ظاهرُ العربية ، لا يحتاجُ إلى تفسير . ولكن لفيفاً منهم أنكر نبوةَ ذى الكفل : قالوا هو رجلٌ صالح من بنى إسرائيل . وساقوا فى هذا أحاديث ، حَمَلُوها على " ذى الكفل " المُسَمَّى فى القرآن . وهى تدورُ على رَجُلٍ لم يكن يتورع عن ذنب ، جاء امرأةٌ أعطاها ستين دينارا على أن تُمَكِّنَهُ من نفسها فَقَبِلَت ، فلما هَمَّ بها بكت . قال : هل أكْرَهتُكِ ؟ قالت : لا ، إلا أننى واللهِ ما

فعلت هذا من قبل ولكنها الحاجة ، ألْجَأتْنى . قال أنا بهذا أوْلَى . فَعَفَّ عنها وتَرَكَ لها المال . فأماتَهُ اللهُ مِنْ ليلته . وأصبح الناس ، فوجدوا مكتوباً على بابه : قد غُفِرَ لذى الكفل .

وهذه الأحاديثُ وأمثالُها ـ وإن صحت ـ لا يَصحُّ حَمْلُها على "ذى الكفل" المُسمَّى فى القرآن، لأن الرجلَ المجعولَ له هذا الحديث ـ إن صح ـ الذى عاش حياته لا يتورع عن ذنب ، ثم كَفَّ نفسَهُ عن الزِّنا بامرأةٍ سَعَى إليها بماله وعَفَّ عنها أرْيَحِيَّةً وسخاءَ نفس ، لم تُعفَّهُ تقوى اللهِ عز وجل ، فأماتَهُ اللهُ على صَالحته مغفورَ الذنب ، مثلُ هذا الرجل مهما أطنبتَ فى حسن صنيعه لا يصح أن يُذكَرَ فى القرآن بالاسم ، ناهيك بأن يُذكَرَ فى القرآن مجموعاً إلى لفيفٍ من النبيين صلوات الله عليهم، فالقرآنُ لا يَخْلِطُ الأنبياءَ بغيرهم ، لا مَلكٌ ولا وَلِيٌّ ولا صدِّيق، فما بالُك بداخل فى عفو الله عز وجل ، أُمِيتَ على صَالِحته ؟

أما أن "ذا الكفل" ورد فى القرآن مجموعاً إلى أنبياء لا تَشُكُّ قط فى نبوتهم، فيكفيك أنه جاء مجموعاً إلى إسماعيل واليسع فى الآية ٤٨ من سورة ص التى تَلَوْتَ تَوّاً . وقد جاء ذكر إسماعيل واليسع فى طائفةٍ من الأنبياء خَتَمَ اللهُ الحديثَ عنهم بقوله عز وجل فيهم : { **أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحُكْمَ والنُّبُوَّة ، فإن يَكْفُرْ بها هؤلاء فقد وكَّلْنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين . أولئك الذين هَدَى الله ، فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ ، قل لا أسألكم عليه أجرا ، إن هو إلا ذِكرَى للعالمين** } (الأنعام : ٨٩ ـــ ٩٠) .

"ذو الكفل " عليه السلام نَبِيٌّ بصريحِ القرآن إن تَمَعَّنْت . ولا يصح مع صريحِ القرآن تفسيرٌ ـ أياً كان قائلهُ ـ يخُالفُ صريحَ القرآن . ولا يصحُّ لمسلمٍ فى الأخبار عن النبى صلى الله عليه وسلم قَبُولُ حديثٍ ـ أياً كان رُواتُه ـ يُخالفُ صريحَ القرآن لا مجالَ لصرفه عن معناه . هذا أصلٌ نفيس ، لو عَضَّ المفسرونَ عليهِ بالنواجذ لَخَلُصَ عملُهم الجليلُ من شائبةٍ دكناء كالهَنَةِ فى الثَّوْبِ الأبيض .

أما المستشرقون المنكرون الوحى على القرآن [١] فقد توقفوا فى "ذى الكفل" لا يدرون عمن يتحدث محمدٌ (صلى الله عليه وسلم) وكَأَنَّ ليس لَهُ عندَهم سَمِيٌّ فى

(١) راجع : Joseph Horovitz ، المرجع المذكور ، ص ٣٣ ـ ٣٤ .

"توراة الأنبياء والكتبة "، فقالوا إن لفظ " ذى الكفل" العربى يحتملُ عدة معانٍ لا يُستطاعُ القطعُ بأيِّها المَعْنِى .

وكان هذا أيضا هو موقف الأحبار من أهل الكتاب الذين يتكئُ عليهم المفسرون وأصحابُ السِّيَرَ ، فقد تكتموا عِلْم ما عَلَّمَهُمُ الله ، لا يُرْوىَ عنهم قولٌ فى "ذى الكفل" الذى سماه القرآن ، مَنْ يكونُ فى أنبياءِ بنى إسرائيل وصُلَحائهم .

وأما لماذا يتعين أن يكون "ذو الكفل" من بنى إسرائيل لا من غيرهم ، فقد عَلِمْتَ من القرآن فى قوله عز وجل : { **ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مُهْتَدٍ ، وكثيرٌ منهم فاسقون** } ﴿الحديد : ٢٦﴾ إن النبوة من بعد إبراهيم [(١)] محصورةٌ فى نسله لا تخرج عنهم إلى غيرهم حتى خاتم النبيين صلوات الله عليهم أجمعين . ولو كان " ذو الكفل " من بنى إسماعيل شأنُهُ شأن محمدٍ صلى الله عليه وسلم لا من بنى إسحق ويعقوب لَتَوَقَّعْتَ من القرآنِ أن يُشير إليه ، ولكن القرآنَ ينص على عكسه ، لاختصاصه محمداً صلى الله عليه وسلم بلقب النبى الأمىِّ فى مثل قوله عز وجل : { **الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل** } ﴿الأعراف : ١٥٧﴾ ، يَصِفُ النبىَّ الذى يتعين على أهل الكتاب الإيمانُ به حين يُهِلُّ زمانُه بأنه " أمِى" والأمىُّ عند اليهود ليس هو كما تظن ، الذى يجهل القراءة والكتابة، وإنما هو "الذى مِن الأممْ " ، أى ليس منهم وإنما من الأمَمِ الذين من حولهم ، فهو كُلُّ أجنبىْ عنهم. واللفظة العبرية هى " جُوِى" ، مفرد "جويم" ، وأيضا " أمِّى"، "أُمِيِّيم"، أى هو النبى الذى من غير اليهود . وقد كان الخطاب بهذه الآية لموسى فى أعقاب فتنة العجل : { **قال عذابى أصيبُ بِهِ من أشاء ورحمتى وَسِعَتْ كُلَّ شىء ، فسأكتُبُها للذين يتقون ويُؤتُون الزكاةَ والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يَتَّبِعُون الرسولَ النبىَّ الأمىَّ الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراةِ والإنجيل يَأمُرُهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويُحلُّ لهم الطيباتِ ويُحَرِّمُ عليهمُ الخبائث ويضعُ عنهم إِصْرَهُم والأغلالَ التى**

---

(١) الأنبياء المُسَمَّونَ فى القرآن من ذريةِ نوح لا من ذرية إبراهيم هم : إبراهيم نفسه ولوط ابن أخيه ، وقبلهما صالح وهود . أما شعيب فهو بعد إبراهيم ولوط بنص القرآن كما مر بك .

كانت عليهم فالذين آمنوا به وعَزَّرُوه ونصروه واتبعوا النورَ الذى أنزِلَ معه أولئك هم المفلحون } (الأعراف : ١٥٦ ــ ١٥٧) . وقد وصَّى بها موسى قومَهُ فى التوراة التى بين يديك : يُقيمُ لك الربُّ إلهُك نبياً من وَسَطِكَ من إخوتك مثلى، له تَسْمَعُون ! " (تثنية ١٨/ ١٥) . والمخاطَبُ بقوله : " يُقيمُ لك الربُّ إلهُك " على المفرد المذكر ، إسرائيل ، مراداً منه "بنو إسرائيل" ، والترجمة العربية "من وَسَطِك" مُضَلِّلة ، لأنها فى الأصل العبرانى : "مِقِّرْبِخا " يعنى لا "من وَسطِك" وإنما من "صَميمتك"، والذى من صَميمةِ إسرائيل من إخوته هم بنو إسماعيل لا بنى إسرائيل بالطبع ، وقد خَفِيَت هذه على المسلمين الذين جادلوا أهلَ الكتاب بها . ووصَّى بها عيسى أيضا أهل الإنجيل فى الأناجيل التى بين يديك :" إن لى أموراً كثيرة لأقولَها لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن . وأما متى جاء ذاك روحُ الحقِّ فهو يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمورٍ آتية " (يوحنا ١٦/١٢ ــ١٣). وروح الحق بالعبرية التى تكلم بها المسيح هى "روُح إمتْ" فى الترجمة العبرية لهذه الأناجيل ، و "إِمتْ" عبرياً مصدرٌ من الجذر العبرى "أَمَنْ" ، فهو الأمانة على معنى قول الحق ، والأَمينُ لَقَبهُ صلى الله عليه وسلم فى الجاهلية ، لا يقولُ إلا حقا . أما علماء النصارى فقد قالوا من بعد إن المعْنِىَّ بروح الحق هو "الروح القُدُس" ، يعنون جبريل صلواتُ الله عليه ، وليس بشىء ، لأن جبريلَ عندَهم إِله ، ثالثُ الثلاثة فى مُثَلَّث التثليث ، فلا يصح ولا يليق أن يقال فيه "لا يتكلم من نفسه بل كل ما يَسْمَعُ يتكلمُ به" شأنَ النبِيِّ يُوحَى إليه ، موسى وعيسى ومحمدٌ صلوات الله عليهم فى هذا سواء ، ولكنك لا تَهْدى من أَحْبَبْت .

والذى يجب أن تَعْلَمَه هو أن " الأُمِىَّ ، " الأُمِيِّن " ، من مُستحدَثات القرآن ، لا عِلْم بهما للعرب قبل القرآن ، ولا شاهدَ لهما فى كلام العرب من دونه . وهو نسبةٌ إلى الأُمَّة لا إلى الأُمِّ . وقيل "أُمِىٌّ" ولم يُقَلْ "أُمَمِىٌّ" لأن العربية ـ أعنى عربية القرآن ـ لا تَنْسِب ، أى لا تضيف ياءَ النسب إلى اللفظ فى صورة الجمع وإن كان المرادُ هو النسبة إلى الجمع ، وإنما تُعيدُ اللفظ الجمع إلى صورته فى المفرد ثم تنسب إليه ، كما نقول نحن الآن " دَوْلِى" ولا نقول "دوَلِىٌّ" على الجمع من "دوْلة " ، وإن كان مقصودُ النَّسَب هو النِّسْبَةَ الى مجموع الدول لا إلى " الدولة " . ولكن مفسرى القرآن ، وتابَعَهُم علماءُ العربية ، فسَّروا الأمى والأميين فى القرآن بأنه نسبة إلى "الأم" لا إلى "الأُمَّة"،

يُريدون الذين هم على حال "أمَمِهم" فى جَهالة الفطرة . واستنبطوا من هذا أن "الأمى" هو العَيِيُّ الجافى ، الجاهل ، الذى لا يقرأ ولايكتب . فَسَّرُوها بهذا على التخمين ، لا على التأصيل ، فليس لهذا التفسير أَصْلٌ فى العربية يُرَدُّ إليه ، والنسبةُ إلى الأمِّ لا تقتضى هذا الذى قالوه ، والذى لم يُسْمَع من العرب قبل القرآن .

أما أن العرب عند اليهود "أُمِّيون" فهذا لا خلاف عليه، لا لأن العرب أُمةٌ أُميةَ، لا يقرءون ولا يكتبون، وإنما لأنهم "جُوِيم" ، "أُميِيم"، أى من الأُمَم، لا من بنى إسرائيل . وقد ورد فى توراة الأنبياء والكتبة ـ وهذا جديدٌ لم تقرأْهُ من قبل ـ فى التنديد ببنى إسرائيل على ألسنة أنبيائهم ، ما يلى : " لأن الرب قد سكب عليكم روح سُبات وأغمض عيونَكُم . الأنبياء والرؤساء الناظرون غَطَّاهُم . وصارت لكم رؤيا الكُلِّ مثلَ كلامِ السفر المختوم الذى يدفعونه لعارف الكتابة قائلين اقرأ هذا فيقول لا أستطيع لأنه مختوم . أو يُدْفَع الكتابُ لمن لا يعرف الكتابة ويقال له اقرأ هذا فيقول لا أعرف الكتابة " (إشَعْيَاء : ٢٩ / ٩ ـ ١٣) . ربما تجد فى هذا ـ وأنت مُحقٌّ بالطبع ـ إشارةً إلى المَعْنِيٍّ بها ليلةَ القدْر فى غار حِراء ، جبريلَ ومُحَمَّدٍ صلواتُ الله وسلامُه على ملائكته وأنبيائه ، يقول له اقرأ ، فيقول ما أنا بقارىء . ولكن الذى يعنينا فى هذا السياق هو أن العبرية لا تعرف لفظة " الأمّى" بمعنى الذى يجهلُ القراءةَ والكتابة ، وإنما تقول : " أشِير لُو يُديعَ هَسِّفِر" أى الذى لا يَعْرِفُ السفر ، يعنى لا يَعْرف الكتابة . أما العبرية المعاصرة التى تستعير أحيانا من العربية فلم تَسْتَعِرْ منها لفظة " الأُمّى" بمعنى الذى لا يعرف القراءة والكتابة ، وإنما قالت فى الذى لا يقرأ ولا يكتب " بُور" يعنى "الجاهل " ، من " البوار" عربياً أى الأرض التى تُخَلَّى فتَبور . وهى لم تَسْتَعِرِ " الأمِى " من العربيةِ خَشْيَةَ اختلاطِها فى العبرية بمعنى الأجنبى الغريب الذى ليس من اليهود .

وأما لماذا "خَمَّن" المفسرون ـ وتابعهم عليها علماءُ العربية من بعد ـ أن "الأمّى" يعنى الذى لا يعرف القراءة والكتابة ، فهو عِلْمُهم القاطع الذى لا خلافَ عليه أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن قبل نزول القرآن عليه يعرف القراءة والكتابة ، لا بدلالة قوله فى غار حراء لجبريل : ما أنا بقارىء! ، ليس لهذا فحسب ، وإنما لقوله عز وجل مُخاطِباً نبيه : { **وما كنتَ تتلو من قبله من كتابٍ ولا تَخُطُّهُ بيمينك ، إذن لارتابَ المُبْطِلون** } (العنكبوت : ٤٨) ، وكانت هذه من آيات نبوته صلى الله

عليه وسلم وحُجَّةً لَهُ على من ادَّعَوْا عليه القراءةَ في الكتب السابقة والاستنساخَ منها . ولكن ليس فيها دليلُ على أن وصفه صلى الله عليه وسلم بالنبي " الأُمّي" من هذا ، أي لعدم معرفته القراءة والكتابة . أما الحديثُ المَرْوِيُّ عنه صلى الله عليه وسلم : نحن أُمةُ أُميَة ، لا نقرأ ولا نَحْسِب ! ففيه نظر ، لا من جهة رُواته بالذات ، وإنما من جهة المَتْن ، أي من جهة دَلالَته ومعناه ، لأنه يُخالفُ الواقع .

لا يصح أن يقال إن " العرب " سُمُّوا أُميّين : { **هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم** } (الجمعة : ٢) لأنهم على حالِ أُمَمِهم من جَهالة الفطرة لا يقرءون ولا يكتبون ، فقد قرأ العربُ وكتبوا ، دليلُكَ في هذا تلك الصحيفة التي علَّقَها كفارُ قريش حين قَطَعُوا ما بينهم وبين بني هاشم ، ودليلُكَ فيه أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم أمْلَى هذا القرآنَ إمْلاءَ على نَفَرٍ من الكتبة العرب فكتبوه بالخط العربي لا بالخط العبراني ، بل ودليلُكَ فيه كذلك من القرآن نفسه ، أعني من تلك الآية في سورة العنكبوت : { **وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذن لارتاب المبطلون** } (العنكبوت : ٤٨) التي تفيد أن في العرب قارئين كاتبين لستَ منهم .

ولا يصح أن يقال أيضا ان العرب سُمُّوا "أميين" على معنى الجهل بالقراءة والكتابة ، تسمية بالمُجمَّل ، لأن معرفة القراءة والكتابة لم تكن فاشية فيهم فُشُوَّها في الشعوب من حولهم : الواقع أن " فُشُوَّ " العلم بالقراءة والكتابة لم يكن من سِمات العالم القديم عصرَ نزول القرآن ، بل إن شُيوع " الأمية " في أهل البوادي والنجوع قد كان ـ ولا يزال إلى حدٍ كبير في أيامنا هذه ـ هو القاعدة ، آفةٌ لا يَسْلَمُ منها بدرجةٍ أو بأخرى إلا أهلُ المدن ، ولم تكن مكةُ ، ولا يثرب ، باديةً أو نَجْعاً ، حتى يُقالَ في أهلها " أميون " بهذا المعنى ، أو حتى تلتصق هذه الصفة بالعرب فتكونَ عَلَما عليهم من دونِ شعوب الأرض ، تُطْلَقُ فلا يُفْهَمُ منها غيرُهم .

الصحيحُ أن اليهود هم الذين أَسْمَوْا العرب ـ كما أَسْمَوا غيرَهم ممن ليسوا من أنفسهم ـ أميين ، أي الذين من " الأمَم " على معنى الأجنبي ، لا على معنى الذي يجهل القراءة والكتابة. والذي ينبغي أن تتوقف عنده أن القرآن لا يستخدم لفظة "الأميين" ، وقد وردت في القرآن أربعَ مراتٍ فحسب ، إلا في سياق حديثٍ مع أهل

الكتاب أو عن أهل الكتاب ، على المغايرة منهم (راجع الآيات : البقرة ٧٨ ، آل عمران ٢٠ و ٧٥ ، الجمعة ٢) ، وهو أيضا لا يستخدم لفظة " الأمي" ، وقد وردت في كل القرآن مرتين فحسب في آيتين متتابعتين من سورة الأعراف (١٥٧ و ١٥٨) نعتاً للنبي صلى الله عليه وسلم في خطاب لأهل الكتاب يُرادُ منه النبيُّ الذي ليس منكم ، أي ليس من بني إسرائيل ، إلا في هذا المعنى وحده .

على أنك لا تحتاجُ مع القرآنِ إلى قولٍ لقائل . فقد حَدَّدَ القرآنُ بأجلى بيان مقصودَهُ من لفظ " الأميين " في قوله عز وجل : { **ومِنْ أهل الكتاب مَنْ إنْ تَأْمَنْهُ بقنطارٍ يُؤَدِّهِ إليك ، ومنهم من إنْ تَأْمَنْهُ بدينار لا يُؤَدِّهِ إليك إلا ما دُمْتَ عليهِ قائما ، ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل** } (آل عمران : ٧٥) ، أي نستبيحُ في غيرنا ما هو مُحَرَّمٌ علينا . وليس المعنى بالطبع " نستغفلهم لأنهم لا يعرفون القراءة والكتابة " وإنما المعنى لا حَرَجَ علينا في أكْلِ أموالِهم بالباطل لأنهم من " الأمَم" ، ليسوا منا . وهذا من عقائدِ اليهود الثابتةِ في التوراة التي بين يديك : لا حُرْمَةَ لأجنبيٍ عنهم .

ها قد عَلِمْتَ أن " الأمي" في ألفاظ القرآن هو الذي ليس من بني إسرائيل ، لا الذي يَجْهَل ، أو العَيِيُّ الجافي ، أو من لا يعرف القراءة والكتابة. هذا شائن ، لا يَصِحُّ في حقِّ أفصحِ الناس وأرَقِّهِم حاشيةً بإطلاق ، الذي عَلَمَهُ اللهُ فهو أعْلَمُ الناس .

ولكن لا بأس بهذا الخطأ الشائع ، الذي أكْسَبَ اللغةَ العربيةَ لفظاً جديداً يُغني بذاته عن جملةٍ طويلة (الأمي = الذي يجهل القراءة والكتابة) . فقط عليك أن تحترز من أن تفهم من هذا اللفظ المُحْدَث ما فَهِمَهُ المفسرون الأوائل في نَعْتِ الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم : { **قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السموات والأرض ، لا إله إلا هو يحيي ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون** } (الأعراف : ١٥٨) .

□□□

ولأن محمدا صلى الله عليه وسلم هو النبى الوحيد المنحدر من صلب إسماعيل ابن إبراهيم عليه السلام ، ولأن الأنبياء جميعا من بعد إبراهيم كلهم من نسل إبراهيم ، فلم يبق لك فى نسب نبى الله ذى الكفل إلا أن تأخذ بأحد خيارات ثلاثة :

١- إما أن ذا الكفل نبىٌ سابقٌ على إبراهيمَ نفسه ، عاش ما بين آدم إلى نوح شأن إدريس عليه السلام ، أو ما بين نوح وإبراهيم شأن هودٍ وصالحٍ على ما مر بك فى تضاعيف هذا الكتاب .

٢- وإما أنه نبىٌ من بنى إبراهيم خِلافَ إسماعيلَ من غيرِ بنى إسرائيل ، شأنه شأن شعيب عليه السلام (حمى موسى على ما يُرَجِّحُ المفسرون ونحن معهم) .

٣- وإما أنه نبىٌ من بنى يعقوب ، أى من بنى إسرائيل .

والذى نرجحه نحن من هذه الخيارات الثلاثة ونأخذ به ، هو الخيار الثالث ، أى أن " ذا الكفل " نبىٌ من أنبياء بنى إسرائيل ، لا لوروده فى القرآن بعدَ اليسعَ خَلَفِ إلياس ، فى إحدى الآيتين المذكورِ اسمُهُ فيهما : { **واذكر إسماعيلَ واليسعَ وذا الكفل** } (ص : ٤٨) ، فقد ورد فى الآية الأخرى بعد إدريس : { **وإسماعيل وإدريسَ وذا الكفل** } (الأنبياء : ٨٥) ، بل لا يُراعى القرآنُ دائما الترتيبَ الزمنى فى سردِهِ أسماءَ الأنبياء ، ولا بدلالةِ دُخوله فى زمرة " الأخيار" إبراهيم وإسحق ويعقوب فى قوله عز وجل عنهم : { **وإنهم عندنا لمن المُصْطَفَيْنَ الأخيار. واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكُلٌّ من الأخيار** } (ص : ٤٧ ــ ٤٨) التى يفهم منها للوهلة الأولى إلحاقُ هؤلاء الأخيار بأولئك ، فقد تَرَىَ أنت أن هذا دليلٌ على أن نبى الله ذا الكفل من بنى إبراهيم فحسب لا عبر يعقوب (إسرائيل) بالضرورة . ولكن الدليل عندى على أن " ذا الكفل " من أنبياء بنى إسرائيل هو اسمه هذا الذى سُمِّىَ به فى القرآن على الترجمة : ذو الكفل ، ومعناه بالعبرية هو " حِلْقِيًّا " ، وهو عَلَمٌ جارٍ فى أعلام العهد القديم ، أشهرُ من تسموا به إثنان : والد إرميا النبى ، واسمه إرْميا بن حِلْقِّيا ، والثانى هو " حِلْقِيًّا " الكاهن على عصر يُوشِيًّا ملك يهوذا ، الذى عثر أثناء ترميم الهيكل فى عهد ذلك الملك على سفر شريعة الرب (أى توراة موسى) بخط موسى نفسه (راجع فى هذا الإصحاح ٢٢ من سفر الملوك الثانى ، والإصحاح ٣٤ من سفر أخبار الأيام الثانى) والملقب فى العهد القديم بلقب "الكاهن العظيم".

والذى أرجحه أنا ـ والله أعلم بغيبه ـ أن ذا الكفل المعنى فى القرآن هو هذا "الكاهن العظيم" حِلْقِيا ، لا يقدح فى هذا قولُهم كاهنٌ لا نبى، فالعهدُ القديم يخلط بين النبى والكاهن والرائى، دليلُكَ فى هذا من العهد القديم نفسه : "كلامُ إرْميا بن حلْقِيا من الكهنة الذين فى عناثُوث فى أرض بنيامين" (إرميا ١/١) الذى تَفْهَمُ منه أن إرْميا كاهنٌ من الكهنة ، بينما إرْميا عند اليهود نَبِىٌّ بإجماع .

أما لماذا لم يفطِن المفسرون إلى"حِلْقِيا" هذا سَمِىِّ ذى الكفل العبرانى ، فهذا بادىءَ بدءٍ لأن رُواتَهم من أهل الكتاب تَكَتَّموه عليهم ، وثانيا ـ وهو الأهم ـ لأن المفسرين الأوائل حتى وإن عَلِمُوا بوجود "حِلْقِيا " فى العهد القديم ما كان لهم أن يعلموا معناه فى لغته ليطابقوه على "ذى الكفل" سَمِيِّه فى القرآن ، فما كانوا يعلمون من عبرية التوراة القدر الكافى لتحليل معانى أعلامها .

□□□

أما "حِلْقِيا " ، ذلك الاسم العبرانى ، فهو اسم مزجى : حِلْقِى + يَا ، من الجذر العبرى "حَلَقْ " بالحاء غير المنقوطة ، مكافىء "خَلَق" العربى بالخاء المنقوطة من فوق ، ومن معانيه فى العبرية والعربية معا ، "الخلاق" بتخفيف اللام، أى الكِفْلُ والحَظُّ والنصيب والقِسْم بمعنى القسمة، كما تجد فى قوله عز وجل : { **إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خَلاقَ لهم فى الآخرة**} (آل عمران: ٧٧) أى لا نصيبَ لهم ولا حَظٌّ فى نعيم الآخرة . أى لا كِفْلَ لهم من هذا النعيم ولا " يُقْسَمُ " لهم منهُ شىء . وأصل هذا الاسم "حِلْقِياهُو" ، ثم اختصر إلى "حِلْقِيا" ، كما اختُصِرَ "إلِيَّاهُو" إلى "إيليًّا" ، ومعنى "حِلْقِياهُو " على أصلها المزجى هو "خَلاقُه " أى خَلاقُ الله ، يعنى قِسْمُهُ الذى قَسَم ، فهو خَلاقٌ منه عز وجل ، أى كِفْلٌ مَنّ به ، والمُسَمَّى بِهِ " ذُو كِفْلٍ " أى المُعْطَى كِفْلا .

هذه هى ترجمة القرآن المعجز للاسم العبرانى "حِلقِيا" : لا أَجْمَلَ ولا أَدَقَّ ولا أبْيَن. أما لماذا عَدَلَ القرآنُ عن تعريب هذا الاسم إلى ترجمته ، فلأنه إن تركه على أصله العبرى بالحاء غير المنقوطة التبس معناه عند القارىء العربى بمعانى الجذر العربى "حَلَق" غيرِ المرادةِ من التسمية ، ولو عَدَلَ به عن الحاء إلى الخاء على جهة التعريبِ

المُفَسِّر للمعنى ، لانبهم على القارىء العربى المُرادُ منه ، أهو "الخَلْق" أم "الخُلُق" ، أم "الخَلاق" ، وأبعدُها عن الذهن هو هذا الأخير رغم أنه وحدَهُ المُراد .

ولكنَّ للقرآنِ سبباً آخر أوْجَبَ العدولَ عن تعريب " حلْقيّا " إلى ترجمته ، هو عندى السبب الأوْجَهُ والأقْوَىَ ، وهو الجَرْسُ القرآنى . قارن أنت واحكم بنفسك : أىُّ اللفظينِ ألْيَقُ بجَرْسِ القرآن ، " حلْقيًّا " أم " ذو الكفل " ؟

وسبحانَ العليمِ الخبير .

(٤٨) يونــــس

"يُونُس" فى القرآن ، اسم نبى الله يُونُس بن مَتَّى عليه السلام ، هى تعريبُ "يُونَا" العبرية فى العهد القديم، التى شُهِرَت بيونانيتها فى أصول الأناجيل "Ionas" "يُوناس" (مضافاً إليها سينُ الرفع اليونانية) وجاءت فى ترجمات الأناجيل العربية "يُونَان" (بإضافة نون المنصوب فى اليونانية أيضا) ، ولكنها شُهِرت عند العرب بصورتها السُّريانية المأخوذة عن اليونانية " يُونِس" بكسر النون ، فَعَرَّبَها القرآنُ على ما شُهِرَت به عند العرب ، ولكن بضم النون ، منعاً لشبهة فهمها من الأُنس والإيناس ، إن تركها على وزن "يُفْعَل" اليونانى ، أو على وزن "يُفْعِل" السُّريانى. وقد مر بك هذا فى تحليلنا اسم نبى الله يوسف عليه السلام ، فارجع إليه .

وقصة يونُس عليه السلام تَرِدُ فى "العهد القديم" ، أى "توراة الأنبياء والكتبة" فى سفر مستقل مُعَنْوَنٍ باسمه . ولأنك لا تجد ترجمةً عربيةً لهذا العهد القديم فى مُجَلَّدٍ قائم برأسه أَشْرَفَ عليها اليهودُ أنفسُهم ، وإنما تجدُ الترجمةَ العربيةَ للعهد القديم مجموعةً فى مُجَلَّدٍ واحد مع "العهد الجديد" فى ترجمةٍ عربيةٍ أَشْرَفَ عليها المسيحيون العرب ، فستجد سفر يونس هذا فى ترجمته العربية المنقولة عن العبرية مُعَنْوَناً ـ كما يجبُ أن تتوقع ـ لا باسم سفر يونس كما هو لفظه العربى، ولا باسم سفر يُونا على أصلِه العبرى ، وإنما تجده معنونا باسم "سفر يونان" على ما شاع به اسم هذا النبى عند المسيحيين العرب : " يُونان" . وبهذا الاسم "يونان " ستجىءُ الإشارةُ إلى مُقْتَبَساتنا من هذا السفر عند الضرورة .

والذى ينبغى التنبيهُ إليه فى هذا السياق ، هو فضلُ المسيحيةِ الضَّخْم على ديانة اليهود : لولا إيمانُ المسيحيين بهذا " الوحى" الذى فى توراة الأنبياء والكتبة ، واعتبارُهم المسيحَ عليه السلامُ مُكَمِّلا ومُتَمِّما لهذا "الناموس" الذى يُمَثِّلُهُ العهدُ القديم، ولولا حاجتُهم إلى استقصاءِ ما فى العهد القديم من " بِشارات " بِمَقْدِمِ المسيح

وأوصافه وصفاته وإعجاز مولده إعْمالا لوصيته فى الأناجيل : (فَتّشُوا الكتب وهى تَشْهَدُ لِى) ، بل قُلْ اختصارا لولا اتكاءُ العهد الجديد على العهد القديم ، لما قامت المسيحيةُ بهذا الجُهْد الضخم فى دراسة أسفار توراة الأنبياء والكتبة ، وترجمتها ، ونشرها فى بقاع الأرض بكل اللغات ، ولو تُرِكَ الامرُ لليهود أنفسهم لما ضربوا فيه بسهم ، لا لكَسَلٍ فيهم ، وإنما لأنهم "يَضِنُّون بالخير على غير أهله " فى وَهْمِهم ، أى على العالَم كُلِّه من دونِهم ، لأنهم وحدَهم "شعبُ الله " لا حاجة بهِ إلى غيرِهم ، تعالى اللهُ عن ذلك عُلُواً كبيراً .

وأنت بالطبع تَحْمَدُ للمسيحية فضلَها فى خدْمَة أسفار اليهود ، بحثاً وترجمةً ونشرا ، إذ لولا المسيحيةُ لبقيت تلك الأسفارُ حبيسةَ خزائنهم . ولكنك تَحْتَرِزُ وأنت تقرأ أسفارَ اليهود فى غير أصلِها العبرانى من شُبهةِ تطويع الأصلِ لهوى المُتَرْجِم فى كلِّ نص يُرادُ منه الاستشهادُ للمسيح أو لعقيدةِ التثليث ، مثلما تَحْتَرِزُ كُلَّ الاحتراز من شبهة " التَّشَيُّع " فى تفاسير القرآن والحديث . تحترز من المغالاةِ هنا وهناك ، لأن المغالاةَ إسفاف ، والإسفافُ مُنزَلَقٌ إلى الإثمِ الكبير .

❑❑❑

قال صلى الله عليه وسلم : " لا تفضلونى على يونس بن متى" . وهذا من تواضعه صلى الله عليه وسلم ، فقد قال عز وجل : { **تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض** } (البقرة : ٢٥٣) ، أى فضلنا كُلاً بِمَأْثُرةٍ . وقال فى خاتم النبيين : {**وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما** } {النساء : ١١٣} ، وقال فيه عز وجل أيضا : { **إن فضله كان عليك كبيرا** } (الإسراء : ٨٧) . حَسْبُكَ أنه خاتَمُ النبيين صلى الله عليه وسلم، الذى خُتِمَت به النبوةُ والرسالة ، والذى يُخْتَمُ به هو الأعلى لا الأدنى . ولكنك تفهم أيضا منَ هذا الحديث ـ فوق دلالته على تواضعه صلوات الله عليه ـ أن الأنبياءَ جميعا سواءُ فى " فضل النبوة " لوَحْدَةِ الرسالة والقصد ، ووَحْدَةِ المُرسِلِ جَلَّ وعلا . وتلمحُ فى هذا الحديث أيضا صَدَى قَولِه عز وجل : { **آمن الرسولُ بما أُنزِلَ إليه من ربه والمؤمنون ، كُلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورُسُله ، لا نُفَرِّقُ بين أحدٍ من رسله ، وقالوا سَمِعناَ وأطعنا ، غُفرانَك ربَّنا وإليك المصير** } (البقرة : ٢٨٥) .

ولكن الله عز وجل يقول لخاتم النبيين : { **فاصبرْ لحُكم ربِّك ، ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم . لولا أن تَدَارَكَهُ نعمةٌ من ربه لَنُبِذَ بالعراء وهو مذموم . فاجتباه ربه فجعله من الصالحين** } (القلم : ٤٨ ــ ٥٠) ، أي لا تكن أنت كصاحب الحوت ذي النون ـ والنون في العربية يعني الحوت ـ يُونس بن متى عليه السلام الذي لم يصبر لحكم ربه فالتقمه الحوت وهو مُليم ـ والمُليم هو الذي أتَى ما يُلامُ عليه ـ حين ذهب مُغاضِبا ، أي هَجَر وتَبَاعَد : { **وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك ،إني كنت من الظالمين** } (الأنبياء : ٨٧) . وهو أيضا يُونس في قوله عز وجل لموسى وقد ولَّى مُدبِراً ولم يُعَقِّب حين ألقى عصاهُ عن أمر الله فرآها تهتز كأنها جانٌ : { **فلما رآها تهتز كأنها جانٌ ولَّى مُدبرا ولم يعَقِّب ، يا موسى لا تَخَفْ ، إني لا يخافُ لديَّ المرسَلون . إلا من ظلم ثم بَدَّل حُسناً من بعد سوء فإني غفور رحيم** } (النمل : ١٠ ـ ١١) ، أي يا موسى أنت معي آمن ، فلا يخافُ في حضرتي أنبيائي . ولكنه عز وجل عَلِمَ أنه سيكون من يونُسَ ما كان ، أي سَيَفِرُّ يونس من وجهه عز وجل لا إليه سبحانه ، فكان يونُسُ بهذه " المغاضَبة " ظالماً ، مُليماً أتَى ما يُلامُ عليه ، ومن معاني الظلم في العربية أن تكون غَيْرَ مُحِق ، تضَعُ الشيءَ في غير موضعه ، فلا يَفرُّ من وجه الله إلا ظالم ، فما بالُك بنبيٍ وضع اللهُ عز وجل عليه كَنفَه ، أفَيفرُّ من كَنَف الله أحد ؟ استثنى اللهُ عز وجل من أنبيائه الذين لا يخافون في حضرته يونُسَ الذي ظَلَم : ذكر ملامته ، وذكر توبته ، وعقَّب بمغفرته ورحمته ، ولم يُولَد بعدُ يونس . فسبحان الذي ما فرَّطَ في الكتاب من شيء ، الذي أحْكَمَ في القرآنِ كُلَّ قَوْلٍ قَالَه .

ولكن مفسري القرآن (راجع تفسير القرطبي للآية ١١ من سورة النمل) تهيَّبوا القول بأن يكون في رُسُلِ الله من ظَلم ، فقال بعضُهم إن الاستثناء بالذي ظَلم استثناءٌ منقطع ، يعني إلا الذين ظلموا من عباده غير الأنبياء . وهذا ضعيفٌ لا يَتَعَمَّقُ معنى الآية ، لأن خشية الله عز وجل وِقْرٌ واقِر في قلبِ كل مؤمن ، نبيٍ وغيرِ نبيٍ ، والنبي بهذا أقمَنُ وأجْدَر ، فلا يخشى الله حقَ خشيته إلا عَالِم ، ولا عَالِمَ كنبي ، وليس هذا هو الذي لامَ اللهُ عليه موسى ، ولكنه لِيمَ لأنه وهو في كَنَف الله عز وجل خَشِيَ على نفسه من ثُعبانٍ فولَّى مُدْبِراً ولم يُعَقِّب ، ونَسِيَ أنه في حضرته عز

وجل آمنٌ مُؤَمَّن ، فَذَكَّرَهُ اللهُ بها ، فالمستثنَى منهُ إذن في الآية هُم الأنبياء حالَ كونهم في حضرته عز وجل، لا في عموم شأنِهم وأحوالهم ، والمستثنَى هو يونس لأنه "غَاضبَ" فَفَرّ من وجه الله عز وجل ولم يَفِرّ إليه سبحانه . أما الآخرون فقالوا إن الاستثناء لا شكّ متصل ، أي أن من الأنبياء من ظَلَم ، ولكنهم لم يَخُصُّوا بها يونُس ، وإنما عَمَّمُوها في هَفَوات الأنبياء صلواتُ الله عليهم ، من مثل غَفْلَةِ آدم الذي نَسَى فأكل مما نُهِيَ عنه ، وفتنةِ داودَ حين وقعت في قلبه امرأةُ صاحب جُنده فأرادَهُ على تطليقها ليتزوجَ هو منها ، وأيضا يونس الذي أتى ما يُلامُ عليه حين ذهب مُغاضِبا ، والصغيرةُ من النبي في حكمِ الكبيرةِ من غيره . وليس هذا أيضا هو معنى هاتين الآيتين من سورة النمل ، لأن مقصودَهما كما مَرّ بك هو اللَّوْمُ على خَوْفِ النبي في حضرةِ الله عز وجل حيث الأَمْنُ الذي ليس فَوْقَهُ أَمْن ، لا خوف النبي من ذَنْبٍ أتاه ، وهذا لم يفعلْهُ يونس، فلم يَفرِ من وجه الله عز وجل لذنبٍ أتاه ، وإنما كان الذَّنْبُ الذي ظَلَم به هو هذا الفرارَ نفسَه . وقال بعضُ المفسرين أيضا إن " الذي ظَلَم" في الآية لا يَبْعُدُ أن يكون هو موسى نفسه ، يُذكرُهُ الله بذنبه حين وكَز ذلك الرجلَ المصريَّ فقضى عليه ، وهذا ضعيفٌ مُمْعِنٌ في الضَّعْف ، لأنه يتأدَّى بك الى معكوسِ الاستثناء في قوله عز وجل "إلا من ظَلَم" ، فيكون المعنى أنت وحدك يا موسى الذي تخافُ في حضرتي غيرُ آمن، لفعلتك التي فعَلْت ، فلماذا لامَهُ اللهُ إذن على فِرارِهِ مُدْبِراً لم يُعَقِّب ؟ على أنك لا تَعُدُّ موسى قاتلاً مُرتَكِبَ كبيرة ، فلم يُرِد قتلَ هذا المصري ، وإنما قتله عفواً بوكزةٍ من يده في مُدافَعَتِه عن رجلٍ من قومه كاد المصري في اقتتالهما أن يَبْطِشَ بالذي "من شيعته" ، ولكن موسى عَدَّ هذا القتل غيرَ العَمْدِ إثما بَليغا : { **قال هذا من عمل الشيطان ، إنه عَدُوٌّ مضلٌ مُبين** } ، { **قال ربِّ إني ظلمتُ نفسي فاغفر لي فغفرَ له إنه هو الغفورُ الرحيم** } وعاهدَ موسى ربَّه وقد تاب عليه ألا يكون من بعدُ ظهيراً لمجرم ولو كان من شيعته : { **قال ربِّ بما أنْعَمْتَ عَلَيَّ فلن أكونَ ظهيراً للمجرمين** } (راجع الآيتين ١٥ و ١٦ من سورة القصص)، فقد تاب اللهُ عز وجل على موسى ومَحَا عنه إِثْمَ هذه الفَعْلَة وَتأثُّمَهُ منها الذي حاك في صدره : { **وقتلتَ نفساً فنجَّيناكَ من الغمِّ**} (طه : ٤٠) ، قبل أن يُبْعَثَ موسى إلى فرعون بعشرِ سنين قضاها موسى في مَدْيَن . وتستطيع أن تقول أيضا إن الفِرارَ من ثعبانٍ مُبين كالذي صارت إليه عصا موسى أمرٌ طبيعي في حقِّ البشر وإن كانوا

أنبيـاء، وليس هذا هو الذى ليمَ عليه موسى ، وإنما ليمَ موسى لأنه "وَلَّى مُدْبِراً ولم يُعقِّبْ" يعنى أدْبَرَ موسى فِراراً من هذا الثعبان لِمَا وَقَعَ فى قلبِه من الخوفِ منه ، وهذا طبيعىٌّ فى حَقّ البشر ، ولكنه " لم يُعقِّبْ " ، أى لم يقفل راجعاً إلى ربه يلتمسُ الأمْنَ من هذا الخَوفِ عند السَّلامِ المؤمنِ المُهيمنِ جَلَّ وعلا .

على أن يونس عليه السلام أقَرَّ بظلمه فى قول الله عز وجل على لسانه : { **لا إله إلا أنت سبحانك ، إنى كنت من الظالمين** } (الأنبياء : ٨٧) ، وليس بعدَ هذا قَولٌ لقائل .

قد " ظَلَمَ " إذن يونُس صلواتُ اللهِ عليه . فكيف ظَلَم يونس ؟

❑❑❑

كانت نَيْنَوىَ ـ وتَقَعُ أطلالُها اليومَ قُبالة مدينة الموصل شَمالِىَّ العراق ـ لا عاصمةَ الآشوريين وإنما عاصمة الشرق الأدنى القديم كله ما بين القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد . كانت آشورُ تَحْكُمُ بابل ، فهى عاصمةُ آشورَ وبابل ، ولم يكن قد بَزَغَ بعد نجمُ الفرس الذين كان عليهم أن ينتظروا حتى الرُّبْعِ الأخير من القرن السادس قبل الميلاد . أما مصر فلم تَعُد لها اليدُ الطُّولَى فى أحداث الشرق الأدنى القديم منذ مَهْلِكِ فرعون (رمسيس الثانى كما عَلِمْتَ) فى خليج السويس أواخرَ القرن الثالث عشر قبلَ الميلاد ، بل استطاع " أسرحدُّون " الأشورى اقتحامَ مصر على عهد "طهرقا" (٦٨٩ـ٦٦٣ ق . م) وطاردَهُ حتى جنوبيِّها ، ولَقَّبَ نفسَه ملك آشور وبابل ومصر ، فأصبحت نينوى عاصمةَ العالم القديم كله دون مُنازِعٍ . ولكن هذه العَظَمَة لم تَدُم طويلاً لنَيْنَوىَ ، لأن بابلَ هَبَّت من كبوتها فأسقطت آشور وفتحت عاصمتها نينوى حوالى سنة ٦٠٧ ق.م ، فكان هذا هو آخر عهد نَيْنَوىَ بالعظمة ، بل بالوجود كمدينة، فلم يُبقِ البابليون منها إلا خرائبَ وأطلالا .

وإلى نَيْنَوى هذه أرسلَ يونُسُ عليه السلام كما تقرأُ فى العهد القديم : " وصار قول الرب إلى يونان بن أمَتَّاى قائلا : قم اذهب إلى نينوى المدينة العظيمة وناد عليها لأنه قد صَعَدَ شَرُّهم أمامى " (يونان ١/١ـ٢) . ولكن يونان ـ أى يونس ـ شَقَّ عليه الأمر ، وكأنما خَشِىَ على نفسه من مُصاولة هذه المدينة العظيمة وفيها مَلِكٌ جائر (كما فَرَقَ موسى من قبلُ من مواجهة فرعون فى مصر فقال هو وأخوه هرون : { **قالا ربنا**

إننا نخاف أن يَفْرُطَ علينا أو أن يطغى } (طه : ٤٥) ، على نحو ما تقرأ فى العهد القديم : "فقام يونان ليهرب إلى تَرْشيش من وجه الرب فنزل إلى يافا ووجد سفينةً ذاهبة إلى ترشيش فدفع أجرتها ونزل فيها ليذهب معهم إلى ترشيش من وجه الرب" (يونان ٣/١) ، فكان من أمره مع أصحاب السفينة ما تعلم : عصفت بهم الريح وهاج البحر هياجا لم يَعْهدُوا مثله ، فظنوا أنه من رُكابِّها ظالمٌ آبِق ، واقترعوا على ركاب السفينة أيهم الظالمُ الآبِق ، فكان يونس ، فألْقوهُ فى البحر ، فهدأت الريحُ وسَكَن البحر ، واستقامت لهم السفينةُ بعد خلاصِهم منه . أما يونس فقد التقمهُ حوتٌ كأنما كان ينتظرهُ . ولكن اللهَ أمرَ الحوتَ ألا يَمَس منه شَعْرة . ومكث يونس فى بطن الحوت ثلاثةَ أيام وثلاثَ ليال ، وهو قائمٌ يستغفرُ ويسَبِّح . حتى أمر اللهُ الحوت أن يَلفظَهُ إلى البَرّ سليماً مُعافَى : " ثم صار قول الرب إلى يونان ثانية قائلا : قم اذهب إلى نينوى المدينة العظيمة وناد لها المناداة التى أنا مُكَلِّمُكَ بها " (يونان ٣/١ ـ ٢) ، فذهب يونانُ من فوره إلى نينوى وقال لأهلها : "بعد أربعين يوما تنقلب نينوى" (يونان ٣/٤) . ولكن أهل نينوى ، على غير دأْبِ الذين تُبْعَثُ فيهم الرُّسُل ، آمنوا بيونس ، وصدَّقوا وعيدَ الله على يديه ، المَلكُ والرعية ، فَرَجَعُوا عما هُم فيه من ضلالتهم : " ونادَوْا بِصَوْم ولبسُوا مُسوحاً من كبيرهم إلى صغيرهم " (يونان ٣/٥) ، وقالوا :" لعل الله يعودُ ويندَمُ ويرجعُ عن حُمُو غضبه فلا نَهْلك (يونان ٣/٩) . " فلما رأى اللهُ أعمالَهم أنهم رجَعَوا عن طريقهم الرديئة نَدِم اللهُ على الشر الذى تَكَلَّمَ أن يصنَعَهُ بهم فلم يصنعه " (يونان ٣/١٠) . أما يونان فقد اغتم لهذا غما شديدا ، وكأنه قال فى نفسه فيمَ إذن كان هذا العناء ، وفيم كانت بَعْثَتى إلى هؤلاء واللهُ يرقُّ ويَرْحَم : " فَغَمَّ ذلك يونانَ غَمّاً شديدا فاغتاظ وصَلَّى إلى الرب قائلا آهِ يا ربُّ ، أليس هذا كلامى إذ كنتُ بعد فى أرضى . لذلك بادرت إلى الهرب إلى ترشيش لأنى عَلِمْتُ أنك إلهُ رؤوفٌ رحيمٌ وبطىءُ الغَضَبِ وكثيرُ الرحمة ونادمٌ على الشر ، فالآن يا رب خذ نفسى منى لأن موتى خيرٌ من حياتى " (يونان ٤/١ـ٣) . تُرىَ هل كان يونانُ يتمنى إيقاعَ الوعيد بأهل نينوى رغم توبتهم كيلا يُقالَ أَوْعَدَ يونانُ فأَخْلَفَ اللهُ وعده؟ هذا هو ما يقوله لك السِّفْر : "وخرج يونانُ من المدينة وجلس شرقى المدينة وصنع لنفسه هناك مَظَلَّة وجلس تحتها فى الظل حتى يرى ماذا يحدث فى المدينة" (يونان ٤/٥) . ثم تفهم من السفر أن الله عز وجل أراد أن يُبَرِّرَ ليونان سببَ تجاوزه عن

إيقاع العذاب بأهل نينوى : إنه الرحمة والشفقة منه تبارك وتعالى لا التوبة من جانبهم "فأعد الرب الإله يقطينةً فارتفعت فوق يونان لتكون ظلا على رأسه لكى يُخَلصَهُ من غَمَه [١] . فَفَرِحَ يونانُ من أجل اليقطينة . ثم أَعَدَّ اللهُ دُودةً عند طلوع الفجر فى الغد فَضَرَبَت اليقطينةَ فَيَبسَت . وحدث عند طلوع الشمس أن الله أَعَد ريحاً شرقية فضربت الشمس على رأس يونان فَذَبُل ، فطلب لنفسه الموتَ وقال موتى خيرٌ من حياتى . فقال الله ليونان هل اغتظت بالصواب من أَجَل اليقطينة ؟ فقال اغتظتُ بالصواب حتى الموت . فقال الربُّ أنت شَفَقْتَ على اليقطينة التى لم تتعب فيها ولا ربَّيتَها ، التى بِنْتَ ليلةٍ كانت وبنتَ ليلةٍ هَلَكَت . أفلا أَشْفِقُ أنا على نينوى المدينة العظيمة التى يوجد فيها أكثرُ من اثنتى عشرة رِبْوَةً [٢] من الناس الذين لا يعرفون يَمينَهم من شِمالِهم وبهائمُ كثيرة ؟" (يونان ٦/٤ ـ ١١) .

بهذا التبرير لتجاوز الله عن إيقاع العذاب بأهل نينوى بعدَ توبتهم ، ينتهى سفرُ يونان فى العهد القديم . وبغض النظر عن بعض العبارات التى تنبو عن أدب الحديث فى جَنْبِ الله عز وجل ، من مثل " الله يَنْدَمُ " (فى الأصل العبرانى "وَينَّحمُ ها إِلوهيم" من الجذر العبرى " نَحَمْ ") التى تَفْرَقُ منها أُذُنُ المُسلم وإن أَلِفَتْها أسماعُ أهل التوراة ، وبغض النظر أيضا عن سِماتٍ فى أسلوب هذا السفر تُذَكرك بأساليب كاتب سفر التكوين حتى تكاد تظن الكاتبَ فى السفرين واحدا ، وتَهْبِطُ بكتابة سفر التكوين إلى عصرٍ متأخر عن أحداثه ، كما مر بك فى تضاعيف هذا الكتاب . بغض النظر عن هذا وذاك ، فإن وقائع سفر يونان تتقاربُ كُلَ التقاربُ مع قصة يونس فى القرآن ، ولكن ترتيبَ هذه الوقائع فى السَّرْدِ القرآنى مختلف .

وهو اختلافُ بالغُ الخطورة ، لأنه هو الذى يُحَدِّدُ لك كيف " ظَلَمَ " يونس ، وفِيمَ كانت ملامتُه .

□□□

---

(١) تُرَى ما حاجته إلى ظلِّ اليقطينة والكاتبُ يقول إن يونان أَعَدَّ لنفسه مَظَلَّةً جلس تحتها ؟ الكاتبُ هنا يَخْلِطُ فى ترتيب الأحداث . وإنما كانت اليقطينة عقب أن نَبَذَهُ الحوتُ بالعراءِ وهو سقيم ، لا بعد خروجه مُغاضبا من نينوى كما سترى .

(٢) الرِبْوَة فى مصطلح اليهود عشَرةُ آلاف ، فهم مائةٌ وعشرون ألفاً فى نِينَوىَ .

يقول لك سفر يونان إن ملامةَ يونس التى استحق بها عقابَ الحبس فى بطن الحوت ثلاثةَ أيامٍ وثلاث ليال، كانت هى نُكولَهُ عن حَمْلِ أعباء الرسالة إلى أهل نينوى، أشْفَقَ منها وفَرَّ هاربا من وجه الله عز وجل. ولا يفعلُ هذا نَبِيٌّ اختارَهُ اللهُ على علم.

ويقول لك القرآن ان ملامة يونس التى قذفت به إلى بطن الحوت هى أنه ذهب مغاضبا: {**وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه**} (الأنبياء: ٨٧} ، أى أنه عليه السلام غَضِبَ فغاضب ، وبديهى أنه لم يَغْضَبْ من الله عز وجل لإنزاله الرسالةَ عليه فهجر اللهَ وتباعد عنه ، وهذا معنى المغاضبة فى اللغة ، وإنما المعنى أنه عليه السلام لم يَصْبِر لحكم الله عز وجل فى أهل نينوى ، أى إمهالِهم حتى يتوبوا ثم يَرفَعَ العذابَ عنهم ، ليكونوا مَضرِبَ المثل فى قوله عز وجل : { **إن الذين حَقَّت عليهم كلمةُ ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كُلُّ آيةٍ حتى يَرَوُا العذابَ الأليم . فلولا كانت قريةٌ آمنت فنفعها إيمانُها إلا قَوْمَ يُونُسَ لما آمنوا كشفنا عنهم عذابَ الخزْىِ فى الحياةِ الدنيا ومَتَّعْنَاهُم إلى حين**} (يونس : ٩٦ ــ ٩٨) ، ولكن يونُسَ غَضِبَ من هذا ، وكأنما ساءَهُ عفْوُ الله بمحضِ التسبيح والتوبة عن قومٍ أُرْسِلَ لهدايتهم لا لإيقاع العذابِ بهم، فخرج من المدينة مُغاضِبا ، أى هَجَر وتباعد ، فكان من أمره فى السفينة وفى بطن الحوت ما تعلم ، كى يُعَلِّمَه الله عز وجل أن التوبة والتسبيح هما وحدهما السبيلُ إلى الرحمةِ والعفو : حبسه فى بطن الحوت لا ملجأ له من الله إلا إليه ، يُقِرُّ بذنبه ، فَيُسَبِّحُ ويستغفر ، مثلما فعل قومُه حين سَمِعُوا وعيدَ الله على يديه ، لم يُصِرُّوا على ما فعلوا ، وأيضا لم يَقْنَطوا . بهذا نفسه نُجِّيَ يُونُس : { **فلولا أنه كان من المُسَبِّحين .للَبِثَ فى بطنه إلى يومِ يُبعثون . فنبذناه بالعراء وهو سقيم . وأنبتنا عليه شجرةً من يقطين . وأرسلناه إلى مائةِ ألفٍ أو يزيدون . فآمنوا فَمَتَّعْنَاهم إلى حين** } (الصافات : ١٤٣ ــ ١٤٨) . كان مجىء يونس إلى قومه قبل التقامِ الحوتِ إياه ، لا بَعْدَهُ كما تجد فى سفر يونان . وكان إنباتُ اليقطينةِ عليه عُقَيْبَ أن لَفَظَهُ الحوتُ إلى البر مباشرةً لحاجته إلى ظِلِّها فى العراء وهو سقيم ، لا لينام مُسْتَرْوِحاً فى ظِلِها ينتظر إيقاعَ العذابِ بأهل نينوى لِيَتَشَفَّى فيهم كما يقص عليك الكاتب فى العهد القديم ، فقد صنع لنفسه من قبل مَظَلَّةً يتظَلَّلُ تحتها كما يروى

الكاتب . وإنما احتاج الكاتبُ إلى هذا بعد أن خَلَطَ فى أحداث القصة ، وفاته درسُ الحوت الذى استنفده فى عقاب يونس على رفضه الرسالةَ إلى نينوى ـ وهو مُحالٌ فى جَنْبِ رُسل الله كما مر بك ـ فافتعل من عنده " درس اليقطينة " التى فَرِحَ بها يونانُ فَرَحاً شديدا لا تدرى لماذا ، ثم أماتها فى ليلةٍ فَحزِنَ لموتها يونانُ أيضا حُزنا شديدا ، بل واغتاظ لموتها حتى طَلَبَ لنفسه الموت، وأنت الذى تَغيظُكَ هذه المبالغاتُ والتهاويل، كى يقول له اللهُ فى النهاية مُسكتا غيظَه على اليقطينة التى أَحَبَّها حتى الموت إنه أَقْمَنُ بالشفقة على عباده ، مائةٍ وعشرينَ ألفِ خَلْقٍ من خَلْقه صَنَعَهُم بيديه ، عدا بهائمَ كثيرة فى المدينة ، وكأنه عز وجل ـ تعالى اللهُ عن ذلك علوا كبيرا ـ يَعْتَذِرُ لنبيه عن إشفاقه على أهل نينوى ، الذين رَحِمهُم لكثرتهم لا لتوبتهم . فأين درسُ اليقطينة فى هذا السفر من درسِ الحوت فى القرآن ؟ بل ما الحكمةُ من إرسال الرسل إذا كان اللهُ يَرْحَمُ العُصاةَ فى هذه الدنيا من أجل كثرتهم فلا يُهلِكُهم بذنوبهم ؟ بل هذا هو ما قاله يونان لله فى ذلك السفر يبرر بها نكوله عن تلقى الرسالة إلى نينوى حين نكل ، وكأنما يعاتبُ اللهَ بها ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا : " آه يارب ! أليس هذا كلامى إذ كُنتُ بَعْدُ فى أرضى ؟ لذلك بادرتُ إلى الهرب إلى ترشيش ، لأنى عَلِمْتُ أنك إلهٌ رؤوفٌ ورحيمٌ وبطىءُ الغضب وكثير الرحمة ونادمٌ على الشر . فالآن يارب خُذ نفسى منى لأن موتى خيرٌ من حياتى " (يونان ٤/٢ـ٣) يعنى أن يونان لم يُخطىء فى فراره من تلك الرسالة لأنها عَبَثٌ فى عَبث ، فسيرحمُ اللهُ فى النهاية ، كما كان عبثاً فى عبث حَبْسُهُ فى الحوت . ولكنك لا تتوقف لتناقشُ يونانُ فى هذا القول الذى قاله ، فلا يقول نَبِىٌّ هذا الكلام ، والذى فى السفر من هذا وأمثاله لا يَدْخُلُ فى وحى الله على رسله ، وإنما هو عَبَثٌ انساقَ إليه قَلَمُ الكاتب .

أما قصةُ يونس فى القرآن ، فتجد مُجْمَلَها فى قوله عز وجل : { **وإن يونس لمن المرسلين . إذ أبقَ إلى الفلك المشحون . فساهم فكان من المُدْحَضين . فالتقمهُ الحوتُ وهو مُليم . فلولا أنه كان من المسبحين. للبث فى بطنه إلى يومِ يُبعَثُون. فنبذناهُ بالعراء وهو سقيم. وأنبتنا عليه شجرةً من يَقْطين . وأرسلناه إلى مائةِ ألفٍ أو يزيدون. فآمنوا فَمَتَّعْنَاهُم إلى حين** } (الصافات : ١٣٩ ـــ ١٤٨). والإمتاع فى اللغة هو الاستبقاء، أى آمنوا فأبقينا عليهم ولم نُهلِكْهُم ، فالإيمانُ يَجُبُّ ما قبله كما قال الصادقُ المصدوقُ

صلى الله عليه وسلم لمن شَرَطَ عليه العفوَ عما سلف من ذنوبه قَبْلَ إسلامه فقال له : الإسلامُ يَجبُّ ما قبله ، أي يُسقطُهُ ، ولكن غَلَب "التمتع" في التنعم ، وكلاهما "مُراد" في الآية . أما "فمتعناهم إلى حين" فهي من إعجاز القرآن ، لأن نينوى ضَلَّت وأفسدت من بعد ، فأرسلَ اللهُ عليها البابليين فاستأصلوا شأفتها ، مثلما بَعَثَهُم اللهُ على بني إسرائيل بَعْدَ هذا ببضع سنين فدمروا أورشليم على أهلها .

وربما قِيلَ لك : فماذا تقول في هذا السَرْدِ الذي في سورة الصافات الذي يُفْهَمُ منه أن مجيء يونس إلى " مائةِ ألفٍ أو يزيدون " ـ أي إلى أهل نينوى ـ قد كان بنص القرآن بعد انتباذ الحوت إياه " بالعراء وهو سقيم " : { **فالتقمه الحوتُ وهو مُليم. فلولا أنه من المسبحين . للَبِثَ في بطنه إلى يومِ يُبعَثُون . فنبذناه بالعراءِ وهو سقيم . وأنْبتنا عليه شجرةً من يَقْطِين . وأرسلناهُ إلى مائةِ ألفٍ أو يزيدون** } (الصافات : ١٤٢ ـــ ١٤٧) ، قد التقمه الحوت إذن قبل أن يَصْدَعَ بأمر الله فيذهب إلى نينوى مُنذراً مُتَوِّعدا ، تماما كما في سفر يونان ، فماذا تقول في هذا ؟ الرَّدُ بسيط . هذا المُعترِضُ يُغْفِلُ مُفْتَتَح الآياتِ الإحدى عشرةَ من سورة الصافات التي تقص بَعْثَةَ يونس ، وهي : "وإن يونس لمن المرسلين" ، ثم يستطرد النسق القرآني المعجز إلى ما كان من أمر يونس حين " أَبَقَ " ، ليعودَ فيقص عليك ما كان من شأن القوم الذي كان يونس رسولا إليهم قبل إباقه : كانوا مائَةَ ألفٍ أو يزيدون، وكأنه يُرُدُّ على تساؤلك : إذا كان يونس من المرسلين ، فإلى من أُرْسِلَ يونس؟ إلى مائةِ ألفٍ أو يزيدون! ثم ينتهي السردُ المعجز لينبئك بمصير المُرْسَلِ إليهم:آمنوا بيونس فمتعهم الله إلى حين : كي تظل هذه الحكمة واقرة في أذنك ، لأنها الحكمة المقصودة من قصة يونس ، كي تُقارِنَ مصيرَ من كَفَرَ من الأمم بمصير من آمن . أما درس الحوت فهو موعظة للأنبياء من بعد يونس ، لا لك أنت ، فليس لك في هذا نصيب . وقد كان خاتمُ النبيين في قومه أرفق النبيين ، لا يستعجل لهم قط العذاب ، وقد لقي منهم أشد ما لقي نبي من قومه ، فلا يزيد على أن يقول : " اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون" . رغم هذا فقد وعظ خاتم النبيين بموعظة يونس : { **فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت** } (القلم : ٤٨) .

كانت هذه بالضبط ملامَة يونس : لم يصبر لحكم ربه ، أي شَقَّ عليه قضاء الله في قومه برفع العذاب عنهم ، فذهب مغاضبا وأبق إلى الفلك المشحون ، وقلما يقال

"أبق" فى العربية إلا فى العبد الآبق من مولاه ، وكان يونس هو هذا العبد الآبق من عفو الله عن قومه فضيق اللهُ عليه فى ظلمات البحر والحوت ، حتى فهم الدرس ، ثم أعاده إلى قومه هاديا مرشدا ، يرجو لهم الرحمة ولا يطلب لهم الضيقة ، فقد ضيق الله عليه من قبل فى بطن الحوت : { **إذ نادى وهو مكظوم** } ﴿القلم : ٤٨﴾ .

والذى يجب أن تعلمه هو أن " يونا " اسم نبى الله يونس عليه السلام فى العبرية يعنى بذات لفظه العبرى أيضا " الذى ظلم ولم يعدل " (إى صدقْ " عبريا) التى جانس عليها القرآن قول يونس : { **لا إله إلا أنت سبحانك ، إنى كنت من الظالمين** } ﴿الأنبياء : ٨٧﴾ ، أى ما أنصف يونس فى إباقه من رحمة ربه ، يفسر بها أحد مَعْنَيى هذا الاسم العبرانى " يُونا " ، كما سترى ، وسبحان العليم الخبير .

❑❑❑

لفظة "يونا " فى المعجم العبرى معناها "الحمامة" الطائر المعروف . وعلماء التوراة على أن الاسم العبرانى العلم " يُونا " (يعنى يونس) من هذا : يونس = حمامة .

والذى يجب أن تعلمه أن هذا الاسم العلم " يُونا " اسم لم يتسم به قبل يونس أحد قط من أعلام التوراة ، فهو اسم غير مسبوق ، وكأنه موضوع له بالذات فشا من بعد فى بنى قومه نسبة إليه ، كما رأيت من قبل فى يوسف وموسى وهرون .

أما الذى لا نعلمه أنا وأنت وعلماء العبرية وعلماء التوراة ، فهو المعنى الذى قصده متى أبو يونس (وأصل "متى " هو " أمتاى " يعنى عبريا " الأمين " قائل الصدق من " إمت " العبرية بمعنى الأمانة والحق والحقيقة) من تسمية ابنه "يونا" : هل أراد معنى "الحمامة" أم أراد معنى آخر من هذا اللفظ "يونا" ، يتطابق رسما ونطقا فى الخط العبرانى مع لفظ " يونا " بمعنى "حمامة " ؟

لستُ فى هذا جادا بالطبع ، ولكنى أقرِّبُ لك المعنى الذى أريد أن أصل بك إليه : الوزن "يونا" وأمثاله فى العبرية (المختوم بهاءٍ خاملة لا عَمَل لها إلا إشباع المد بالفتح قبلها) هو زِنَةُ الفاعل على التأنيث، ولئن جاز فى العَلَم المذكر التسمية بالمؤنث، فهو المؤنث اللفظى لا المعنوى ، فتسمى ابنك مثلا " حمامة " أو نخلة " أو "شمس" ، لا تنعته بمؤنث ، وإنما تنظر إلى صفات الحمامة أو النخلة أو الشمس ، على التشبيه ،

ولكن لا يجوز لك قط تسمية المذكر بنعت مؤنث ، فتسمى ابنك مثلا "جميل" ، ولا تسميه قط "جميلة" . و ليس فى العبرية قط نعت يطابق "يونا" فى الرسم والنطق ويغايره فى المعنى، إلا النعت المؤنث "يونا" يعنى "ظالمة" ، ومنه "عِير يُونا" ، يعنى "قرية ظالمة" كالتى بعث فيها يونس ، وبعث فى مثلها الأنبياء من قبله .

لا يصح إذن فى معنى العلم العبرانى المذكر "يونا" إلا معنى واحد هو"حمامة".

ولكن القرآن المعجز ، الأفْقَه بالعبرية من أهلها ، ينظر إلى المعنى الآخر الذى فى النعت المؤنث " يُونا " ، اسم الفاعل المؤنث من الجذر العبرى " ينا " ، أى "الظالمة" حين جَانَس على اسم "يونس" ، "الحمامة التى ظلمت" ، مشيرا إلى إباق يونس حين أبق: { **إلا من ظلم ، ثم بدل حُسْنًا من بعد سوء فإنى غفور رحيم** } ﴿النمل : ١١﴾ ، وأيضا فى قول يونس وقد أقَرَّ بظلمه فى بطن الحوت : { **لا إله إلا أنت سبحانك ، إنى كنت من الظالمين** } ﴿الأنبياء : ٨٧﴾ ، التى تترجمها إلى العبرانية هكذا : كِي مِي يُونِيم أنِي ![١] .

كفاك بهذا إعجازاً فى فقه العبرية دونه كل إعجاز ، وسبحان الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم .

---

(١) كِي = إنَّ ، مِي = مِنْ ، يُونيم = ظالمين ، أنِي = أنَا (ضمير المتكلم) ، وقد رَسَمْتُ (مِي يونيم ، أى مِن الظالمين) مُقَطَّعَةً للتوضيح ، وهى فى أصلها العبرى موصولة : مِيونيم .

(٤٩) أيــوب

ليس " أيوب" عند بنى إسرائيل بِنَبِىٍّ ، بل هو عندَهم من الرؤساء الصديقين . تَجدُ هذا فى مفتتح "سفر أيوب " بالعهد القديم " كان رجلٌ فى أرض عَوْصَ اسمُهُ أيُّوب. وكان هذا الرجل كاملا ومستقيما ، يتقى اللهَ ويَحيدُ عن الشر . وَوُلِدَ له سبعةُ بنينَ وثلاثُ بنات . وكانت مواشيه سبعةَ آلاف من الغنم وثلاثة آلاف جَمَل وخمس مائة فدان بقر وخمسَ أتانٍ وخَدَمُهُ كثيرين جدا . فكان هذا الرجل أعْظَم كُلِّ بنى المشرق" (أيوب ١/١ ـ٣) ثم يُطنبُ الكاتب فى غِنَى أيوب وتقواه ، ثم ينزلق به القلم كما انزلق من قبل بأخيه الذى فى سفر التكوين ، فيصطنع أساليب قُصَّاصِ اليونان فى خُرافات آلهة الأولمب ، ويقول :"وكان ذاتَ يومٍ أنَّهُ جاء بنو الله (١) لِيَمْثُلُوا أمام الرب، وجاء الشيطانُ أيضا فى وسطهم ، فقال الرب للشيطان من أين جئت ؟ فأجاب الشيطان الرَّب وقال : من الجَوَلان فى الأرض والتَّمَشى فيها ، فقال الرب للشيطان هل جعلتَ قلبك على عبدى أيوب ؟ لأنه ليس مِثْلُهُ فى الأرض ، رَجُلٌ كاملٌ ومستقيمٌ يتَّقِى اللهَ ويَحيدُ عن الشر" (أيوب ١/ ٦ ـ ٩) ، وكأنَّ اللهَ يُفاخِرُ الشيطانَ بعبده أيوب . ويَرُدُّ الشيطانُ بأن استقامة أيوبَ وتقواه ليستا من ذاتِ نفسه ، فقد أغْنَاهُ اللهُ وحَفِظَهُ وبَارَكَ عَمَلَ يديه ، ولو شَدَّدَ الله عليه ، وأزال نعمتَه وامتحنَهُ فى أهله ، لَسَخِطَ على خالقه ، ويُصابُ أيوبُ فى ماله وولده جميعا ، ولكن أيوبَ يصبِر ويحتسب : " عُرياناً خرجت من بطن أمى وعُرياناً ثَمَّ أعود . الرَّبُ أعطى والرَّبُ أخذ .

---

(١) يعنى الملائكة فى لغة هذا الكتاب وإخوته من قبل ومن بعد . وهو مجازٌ سقيم ضَلَّ به كثيرون. حتى قال اليهود " عُزَيْرٌ بنُ الله " ربما على مجاز القُرْب والنعمة ، لا يدرون مَغَبَّةَ هذا القول لدى من جاء بعدهم ، الذين أبدلوا من المجازِ حقيقة . وتندهش كيف يُجْمِعُ أهلُ الملتين من قارئى هذا السفر على أن بُنُوَّةَ الملائكة لله مجاز ، وتُصِرُّ إحدى الملتين على تحققها فى المسيح: [**وخَرَقُوا له بنينَ وبناتٍ بغيرِ علم ، سبحانه وتعالى عما يَصِفُون**] (الأنعام: ١٠٠) .

تَبَارَكَ اسمُ الرب ! " (أيوب ١/ ٢١) . ويعود اللهُ فيفاخرُ الشيطانَ بعبده أيوب الذى امتُحِنَ بكُلِّ هذا فصمد للامتحان ولم يَكْفُر . ولكن الشيطان لا يَيْأس ، بل يستأذنُ الربَّ فى إيقاعِ الأذَى بأيوب فى جسده : " ولكن أبْسِط الآن يَدك ومَسَّ عَظْمَهُ ولَحْمَه فإنَّه فى وجهك يُجَدِّفُ عليك. فقال الرب للشيطان ها هو فى يدك. ولكن احفظ نفسه. فخرج الشيطان من عند الرب وضرب أيوب بِقُرْحٍ ردىء من باطنِ قدمه إلى هامته ، فأخذ لنفسه شَقْفَةً ليحتكَّ بها وهو جالس فى وسط الرماد . فقالت له امرأته أنت مُتَمَسِّكٌ بَعْدُ بكمالك ؟ بَارِكِ اللهَ ومُتْ ! فقال لها تتكلمين كلاما كإحدى الجاهلات ؟ أنقبل الخيرَ من عند الله ولا نقبل الشر" (أيوب ٢ / ٥ ـ ١٠) . ويسمع ببلاءات أيوب أصحابُه فيجيئون لزيارته ويَهُولُهم ما هو فيه ، كما يَهُولُهم أيضا صَبْرُهُ واحتسابُه، ولكن أيوبَ فى تَصابُرِه يَبْدُو لهم وكأنه يفاخرُ اللهَ بصبره ، ويُذَكِّر اللهَ بأنه لا إثم فيه ولا ذنب حتى يُنْزِلَ به كُلَّ هذا العذاب ، فيذكّرونه بأن اللهَ يفعل ما يشاء ، ويحاورهم ويحاورونه بحوارٍ يُطنب فيه الكاتب ، يَتفاوَتُ متانةً وعُمْقاً وجزالة ، وترتفع المأساة إلى الذروة حين يُطِلُّ اللهُ على أيوب من السحاب ، يُعَلِّمُهُ الحكمة . وأخيراً يرفعُ اللهُ البلاءَ عن عبده أيوب ، ويَرُدُّ عليه ما أخِذَ منه ومِثْلَهُ معه .

❑❑❑

وقد ذهب بعضُ المفسرين ، وذهب معهم أيضا باحثون وكتاب ، إلى أن أيوب رجلٌ عربى . استدلوا على هذا بأن اسمه " أيُّوب " مشتقٌ من الأوْبِ والتَّوْب ، فهو التائبُ الآيبُ على المبالغة .

والصحيحُ أنه ليس نَبِيٌّ عَرَبِيٌّ من نسل إبراهيم إلا خاتمُ النبيين صلى الله عليه وسلم كما مر بك . والعربية التى نعنيها هنا هى عربيةُ اللسان ، أعنى عربية القرآن ، فاسماعيل نفسه بهذا المعيار ليس بعربى، دليلُكَ فى هذا اسمه : يِشْمَعْ إيل ، العبرانى، أى "سَمِعِ الله" أو "سميعٌ هو الله" على ما مرَّ بك فى موضعه . بل أيوب عليه السلام من بنى إسرائيل ، شأنُهُ شأن يونس وشأن الأنبياء من بعد داود وسليمان ، أعنى من الأسباط أبناءِ يعقوب ، بدليل حرص اليهود على إدراج سفر أيوب ضمن أسفار توراة الأنبياء والكتبة (يضعونه فى النص العبرانى بين أسفارَ الكتبة لا الأنبياء) . أما دليلكَ من القرآن على أن أيوب من ذرية الأسباط بنى يعقوب أى بنى إسرائيل ، فهو

النص فى القرآن على أنه من ذريتهم، {**وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان وآتينا داود زبورا . ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما** } (النساء : ١٦٣ ـ ١٦٤) ، ولا مبرر لاستبعاد أيوب وحده من زمرة أنبياء من نسل الأسباط بلا خلاف ذكروا معا فى نفس الآية .

أمَّا أنَّ أيوب عليه السلام نبيٌّ بنص القرآن ، على خلاف قولِ أهلِ الكتاب فيه ، فلوُرود اسمِهِ فى لفيفٍ من الأنبياء خُتِمَ الحديثُ عنهم بقوله عز وجل : { **أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحُكْمَ والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكَّلْنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين . أولئك الذين هَدَى الله ، فبهداهم اقْتَدِه** " (الأنعام : ٨٩ ـ ٩٠) (١) .

على أن " أيوب " ليست اسما عربيا من الأوْبِ والتَّوْب كما ظنَّ مفسرون وباحثون وكتاب . فهو ممنوعٌ من الصرف فى كل القرآن لا لعلَّةٍ إلاَّ العُجْمة ، ولو كانت "أيوب" عربية من الإياب والأوْب ، على مثالِ " قَيُّومٍ " وأمثالِها ، لَصُرِفَت .

وقد أماتت العبرية الجذر العربى "آب / يؤوب" ، واستعاضت عنه بمقلوبه العربى "باء/يبوء" . فليست "أيوب" عبرانيا بهذا المعنى الذى ظنه المفسرون والباحثون . وإنما معنى " أيوب " ـ وتنطق فى العبرية " إيُّوب " مكسورة الهمزة البادئة مشددة الياء مع إشباع المد بالضم لا بالواو ـ معنى آخر، بعيدٌ كُلَّ البُعْد عن الإياب والأوب . وقد علم القرآن هذا المعنى الآخر ففسر به اسم " أيوب " كما سترى . وسبحان العليم الخبير .

□□□

فى العبرانية الجذر "أَيَبْ / يِئْيَبْ " ، وهو ليس "آب / يؤوب" العربى ، ولكنه مُبْدَلٌ من مادة " وَيْب" العربية التى أُميتَ فِعْلُها فى العربية وبقى منه إسمُ الفعل فقط، أى "الوَيْب" بمعنى "الوَيْل" ، يعنى حلول البلاء والشر . تقول منه فى العربية : وَيْبٌ لَهُ! تريد : وَيْلٌ لَهُ ! لا فرق بينهما ، ولكنها نادرة الآن ، لا تَعْثُرُ عليها إلا فى المعاجم.

---

(١) " اقتده " أصلُها " اقْتَد " من الفعل اقْتَدَى ، جُزِمَ للأمر فَحُذِفَت ياؤه . والهاءُ فيه للوقف ، وظيفتها تقصير المد بالكسر فى الدال الخاتمة ، ومَنْع الوقوف عليها بدالٍ ساكنة .

أما الفعل "أَيَبْ" العبرى فهو حَيٌّ فى العبرية إلى الآن، ومعناه "شَنَأَهُ"، "كَرِهَهُ"، "أَبْغَضَهُ" ، وأيضا "ضَادَّهُ" يعنى كان له "ضداً" ، أى عَدُواً مُناوئا ، واسم الفاعل من هذا الفعل العبرانى "أَيِ " (بمد الكسر فى الياء) يعنى الشانىء المناوىء العدو ، واسم المفعول منه : "أَيُوب" (بتخفيف الياء لا بتشديدها) يعنى المكروه البغيض .

ومن المعاجم الانجليزية من فَطَن إلى هذا المعنى ، فقال فى ترجمة "أيوب" Loath يعنى البغيض المَقيت .

وعلماء التوراة ، وأيضا علماءُ العبرية ، يرون أن الاسم العبرانى "إِيُّوب" (بكسر الهمزة وتشديد الياء ممدودةً بالضم لا بالواو كما لو نطقت "جيُّوم" Guillaume الفرنسية) مأخوذ من هذه المادة العبرية " أَيَبْ " ، على المضعف المشدد (فعّلْ العبرى وهو فَعَّلَ العربى) ، فهو عندهم على زِنَة " فِعُّول" العبرى (الذى يكافىء "فعّيل" العربى) والأصل فيه الدلالة على الفاعل ، ولكنه فى اسم "أيوب" جاء على النُّدرة بمعنى المفعول المُشَدَّد من "أَيَبْ" العبرى ، فهو البغيض الكريه المكْروه ، المشنوء المُنَاوأ. أما إن استحْيَيْتَ مادة " الوَيْب " العربية بمعنى الويل فهو ـ كما نقول نحن ـ الذى شُدِّدَ الوَيْبُ عليه .

أما المعجم العبرى الآرامى لألفاظ التوراة (وهو من مراجع هذا الكتاب) وهو موضوع بالانجليزية كما مر بك ، الذى يمثل وجهة نظر علماء التوراة ، فهو يترجم "إِيُّوب" العبرية إلى الإنجليزية بلفظة Persecuted يعنى المَضْهُود المُضْطَهَد . وقد جاءهم هذا الفهمُ من تغليبهم معنى العداوة على معنى الكراهة اللذين فى "أَيَبْ" العبرى، ففهموا "إِيُّوب" بمعنى الذى ضايقه عدوه وشدَّد عليه ، ربما لأنهم يقرءون فى سفر أيوب أن الشيطان (ساطان العبرى) ومعناها " العدو" كما مر بك ، هو الذى أَنْزَلَ بأيوبَ عذاباته ، فهو المَضْهُود من عدوه ، أى من الشيطان . ولا بأس بهذا بالطبع ، ولكنه يحوم حول المعنى ولا يصيبه فى صميمه . فأنت تعلم أن لفظة To Persecute الانجليزية تُفيد فى أصل معناها "الملاحقة" بالتشديد والتضييق والضَّرّ والأذَى . ولكن المنظورَ إليه فى "أَيَبْ" العبرى ليس هو "الملاحقة" بالذات ، وإنما هذا الضُّرُّ والأذى .

صحيح أن العداوة من الكراهة قريب ، لأن العدو شانىءٌ مُبْغض . ولكن التأصيل اللغوى لا يصحُّ على التقريب ، وإنما يصحُّ بالمرادف الدقيق . والذى يَدُلُّك

---

(١) " اقتده " أصلُها " اقْتَد " من الفعل اقْتَدَى ، جُزِمَ للأمر فَحُذِفَت ياؤه . والهاءُ فيه للوقف ، وظيفتها تقصير المد بالكسر فى الدال الخاتمة ، ومَنع الوقوف عليها بدالٍ ساكنة .

على أن " أيَبْ " العبري أصله من "وَيْب" العربي بمعنى الويل والضُرّ والمكروه ، أن المعجم العبرى / عبرى " هَمِّلون هِحَداش لَتَناخ" ، يعنى "المعجم الحديث لألفاظ توراة الأنبياء والكتبة" ، وهو من مراجعنا المتخصصة فى هذا الكتاب الذى نكتب ، يشرح مادة "صَرَرْ" (بمعنى الضُرّ والضَّرَر ، أبْدَلَت العبريةُ من ضادها صاداً لانعدام الضاد فى العبرية) فيقول إن "صَار" (ضارُ العربية) اسم الفاعل من "صَرَرْ" العبرى هى "أُويِب" فاعل "أيَبْ" العبرى ، وهذا يدلك بشهادةِ شاهدٍ من أهلها على أن "أيَبْ" العبرى يجىء بمعنى الضُرّ والأذى وإيقاعِ الشرّ أى " المكروه " ، فهو الضَرِيرُ المُتَأذِّى . وهذا هو أصلُ معنى مادة " وَيْب " العربية .

من هنا تقول آمنا جازما مطمئنا أن "إيُّوب" العبرية ، اسمُ نبىٍّ اللهِ أيوبَ عليه السلام معناها الضرير المضرور الذى "وُيِّب" ، أى شُدِّدَ "الوَيْبُ" عليه .

أما القرآن المعجز فقد عَلِمَ هذا كُلَّه قبل أن يَعْلَمَهُ غيرُه، ففسر اسم "أيوب" بالمرادف الدقيق فى قوله عز وجل: {**وأيوبَ إذ نادى ربَّهُ أنّى مَسَّنِىَ الضُرُّ**[1] **وأنت أرحمُ الراحمين . فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضُرٍّ ، وآتيناه أهلَهُ ومثلهُم معهم رحمةً من عندنا وذكرى للعابدين** } (الأنبياء : ٨٣ ـ ٨٤) . ولا يفوتُ القرآنَ وهو يفسر معنى هذا الاسم تقريظُ "صبر أيوب" إمامِ المبتلين ، فيعقب فى الآية التالية مباشرة بقوله عز وجل : { **وإسماعيلَ وإدريسَ وذا الكِفْلِ كُلٌّ من الصابرين** } (الأنبياء : ٨٥) ، يَجْعَلُ لأيوبَ كِفْلاً من الصبر مع هؤلاء الذين صبروا مثله ولم يجزعوا ، وحَسْبُك صبر اسماعيل فى البلاءِ المبين . وسبحان العليم الحكيم .

ولا يفوتنا نحن فى سياق تفسير هذا العلم الأعجمى أيوب ، التنبيه مرة أخرى إلى خطورة التعجل فى تفسير هذه الأعلام من القرآن بالقرآن ـ على منهجنا فى هذا الكتاب الذى نكتب ــ بقرينتى التشابه والتجاور فقط ، فتقول مثلا ان "أيوب" من "الأوب" ، تقتنصُها دون تَحَرُّز من قوله عز وجل فى أيوب : {**نِعْمَ العبدُ إنَّهُ أوَّاب**} (ص : ٤٤) ، فتظن متعجلا دون تَثَبُّت أن المُراد هنا هو تفسير اسم أيوب بأنه "أوَّاب"،

---

(١) عبارة "أنى مسنى الضر" يصلح تماما فى موضعها بالعبرية : " إيُّوب أنى " يعنى أنا أيوب متأيب ، فأى إعجاز وأى علم !

وتعتقد أن اسم " أيوب " مُفَسَّرٌ فى القرآن بالتعريب ، لأن الأيُّوب والأوَّاب فى العربية واحد ، زنَتَا مبالغةٍ من " آب / يؤوب " . ولا يصحُّ هذا ، لأن سليمان أيضا وُصفَ فى نفس السورة بذات العبارة : { **ووهبنا لداودَ سليمانَ نِعْمَ العبدُ إنَّهُ أوّاب** } (ص : ٣٠) ، وليست "سليمانُ " هى "أيوب" بالطبع . شَرْطُ التصدِّى للتفسير بالقرآن من القرآن فى العَلَمِ الأعجمى هو أولا استقصاءُ معنى الاسم الأعجمى فى لغة صاحب الاسم العلم ، ثم تمضى مُستعينا بهداية الله وتوفيقه فى تَلَمُّسِ اللفظ أو العبارة اللذين يُفَسِّرُ بهما القرآن معنى هذا الاسم ، فلا يَصِحُّ فى القرآنِ لمسلمٍ أن يكون هَجَّاما .

اللهم ارْزُقْنا الصوابَ واجْنُبْنا الزَّلل ، وباعدْ بيننا وبين اللغو فى كتابك الكريم . فالحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . اللهم قد أحْسَنْتَ فيما مَضَى ، فأحْسِنْ لى فيما بَقِيِ ، لك وحدَكَ الفضلُ والمَنَ ، ومنكَ وبكَ التوفيق .

(٥٠) عزيــر

ورد الاسمُ " عُزَيْر " مرة واحدة فى القرآن فى قوله عز وجل : { **وقالت اليهود عُزَيْرٌ ابنُ الله وقالت النصارى المسيحُ ابنُ الله ، ذلك قولُهُم بأفواهِهم، يُضاهِئُون قولَ الذين كفروا من قبل ، قَاتَلَهُم اللهُ ، أنَّى يُؤفَكون** } (التوبة : ٣٠) . وتُقرأ " عُزَيْر" بالتنوين فى قراءة عاصم ، التى نقرأ بها فى مصر ، وتُقرأ أيضا ممنوعةً من الصرف فى غيرها لا لعلة العُجْمة فحسب وإنما أيضا إرادةَ اختلاسِ الهمزة فى " ابن " فتنطقُها : عُزَيْرُبْنُ ، كما تَنْطقُ : عُمَرُ بْنُ الخطاب على سبيل المثال ، تُدغمُ هذا فى ذاك ، فَيُسْمَعُ منك : عُمَرُبْنُلْخَطَّاب . والرأىُ عندى - لا تَعَصُّباً فالتعصُّبُ ممقوت - أن قراءةَ عاصم التى نقرأ بها فى مصر أفصحُ وأبْيَن ، لأنها تجعل عبارتى "عزيزٌ ابن" ، "المسيحُ ابن" على المبتدأ والخبر فى قَوْلَىْ اليهود والنصارى ، لا على البَدَل ، والخبرُ يصدُقُ ويَكذِب ، أما البَدَلُ فهو إثباتٌ مَحْض ، كما تقول عُمَرَ بْنُ الخطاب ، تنبىء سامعك بأن عمر ، الذى هو ابن الخطاب ، قال كذا وكذا أو فعل كذا وكذا ، عالماً أن سامعَك يتفق معك فى أن عمر هو ابن الخطاب . والقرآنُ بالطبع لا يتفقُ مع هذا القائل ، وإنما يستنكرُ مقولتَه ويُنَدِّدُ بها ، فيقول { قَاتَلَهُم اللهُ ، أنَّى يُؤْفَكون } ، أى ما لَهُم يَلْبَسُ عليهم هذا الإفك ، أى هذا الكَذِب . وقراءةُ عاصم كما ترى أَقْمَنُ باستبعادِ هذه الشبهة . على أن تنوين الأعجمى الذى يَخِفُ وزنُه ، مثل "عُزَيْر" ، مسموعٌ فى العَربية غيرُ منكور .

وهذه الآيةُ كما ترى من إعجاز القرآن . فهو يُنْبِئُك بأن مقولةَ النصارى فى بُنُوَّةِ المسيحِ لله ليست بِدْعاً ابتدعوه ، وليست أيضا " كَشْفاً " كُشِفَ لهم عنه فى الأناجيل التى بين يديك كما قالوا من بعد فى تبرير الانتقاض على توراةِ موسى عليه السلام المُتَشَدِّدَة فى توحيدِ الواحد الأحد ، وإنما هم فى هذه المقولة مسبوقون ، سبقهم بها كتبةُ العهد القَديم ، الذين تَبَذَّلوا وتَرَخَّصُوا فقالوا كما مر بك إن الملائكة أبناءُ الله ، وإن آدمَ ابنُ الله (التى نَقَلَها عنهم لوقا فى إنجيله) ، حتى رَخُصَ القولُ وابْتُذِل ، فلم

يستنكف بعضُ اليهود أن يخلعوا على عُزَيْرٍ المُسَمَّى فى القرآن لقب "ابن الله" فيما يَحْكِى القرآنُ عنهم . ربما قالوها تعظيماً وتبجيلا لا يدرون مَغَبَّتَها فيمن جاء بعدَهم ، ولكنهما التعظيمُ والتبجيل المؤْذِنانِ بالسقوط فى هاوية الكُفْرِ والهَلَكة .

بل يُنبئُك القرآنُ المعجز بأن اليهود والنصارى أيضا ، أى كلتا المِلَّتَيْنِ معا ، مسبوقتان بمقولتيهما هاتين ، فهما تُضاهئانِ مقولةَ قومٍ قد كفروا من قبل ، ولا يقولُ القرآنُ المعجز هذا إلا وهو يَعْلَمُ ما يقول . وقد ظن مفسرو القرآن الأوائل (راجع تفسير القرطبى للآية ٣٠ من سورة التوبة) أن المَعْنِىَّ بالذين "كفروا من قبل" هم كُفَّارُ قريش فى قولهم ان الملائكة بناتُ الله ، وان اللاتَ والعُزَّى ومَنَاةَ بناتُ الله ، ولا يصح هذا لأن اليهود والنصارى لا يُضاهئون مشركى قريش ، وإنما يضاهئون بالذات (اليهودُ أولا والنصارى من بعد) شركَ المصريين ، الذين أضاعوا عقيدةَ التوحيد الخالص قبل عصر التاريخ المدون واستبدلوا بها خُرافاتِ الكهنة، وخيالاتِ الفلاسفة الذين كان آخرَهُم "أفلوطين" المصرىُّ الأسيوطىُّ (وهو من أَعلامِ القرن الثالث الميلادى) صاحبُ نظرية الفَيْضِ والانبثاق عن الذات الإلهية ، وأيضا تهاويلِ الأساطير ، يكفيك منها أسطورةُ إيزيس وأوزوريس ، التى تَلْمَحُ الكثيرَ من ظلالها فى عقيدة التثليث . ويكفيك أيضا أن أوَّلَ من أصَّلَ هذه البُنُوَّةَ على مبادىء فلسفة "أفلوطين" المصرىِّ الأسيوطىِّ، مصرىٌ آخر من الاسكندرية ، هو أسْقُفُها "أثناسيوس" ، قال بها وناضَلَ عنها حتى استصدر بها فى مجمع نيقية عام ٣٢٥ م مرسوماً من القيصر البيزنطى "قُسطنطين" ، يؤَلِّهُ المسيحَ على البنوة لله بعد ثلاثة قرونٍ من رفع المسيح . نَعَمْ ، قد كان مَولدُ المسيحِ عليه السلام بغيرِ أَبٍ معجزةً كبرى ، ولكنها معجزةٌ لله عز وجل لا للمسيح ، شأنُها شأنُ خَلْقِ آدمَ من تراب ، لا أبَ لآدمَ ولا أمْ .بل هما معا دون خَلْقِ السموات والأرض : { **لَخَلْقُ السموات والأرضِ أكبرُ من خَلْق الناس** } (غافر : ٥٧) . وأنت تعلمُ بيقين أن الله عز وجل هو صانعُ هذا الميلاد الإعجازى ، فَتُعَظِّمُ الفاعلَ ولا تُعَظِّمُ المفعول . إنه آيةٌ من آيات الله عز وجل يَضْرِبُها للناس ليعرفوهُ بها ويعظموه ، لا ليعظموا غيرَهُ وصُنْعَ يده : { **وتلك الأمثالُ نَضْرِبُها للناس وما يَعْقِلُها إلا العالمون** } (العنكبوت : ٤٣). وكأنما كان عليه السلام يَتَنبَّأُ بما سيُقال من بعده فقال فى الأناجيل التى بين يديك ، يُناجى ربَّه وقد دَنَت ساعةُ رحيلهِ عن هذا العالم : " وهذه هى الحياةُ الأبدية ، أن يعرفوك ، أنْتَ الإله الحقيقى

وحدك ، ويسوعَ المسيح الذى أرْسَلْتَه " (يوحنا : ٣/١٧) ، يُريدُ بالحياة الأبدية الحياةَ الآخرة ، لا نصيبَ فيها لأحدٍ ممن أُرْسِلَ إليهم إلا من آمن بالإله الواحد ، الإلَهِ الحقيقى وَحْدَه ، وبيسوع المسيح رسولاً منه لا ابن . ولا تظن أن المسيح فى الكتاب المقدس هو وحده المرفوع إلى السماء حيا ، فقد سبقه بها " إيليا " أى إلياس (الملوك الثانى ١١/٢ ـ١٢) ، ولا تحسَبُ أيضا أن المسيحَ فى الكتاب المقدس هو وحَدهُ الذى أحْيا الميّت ، فقد سبقه بها " اليشع " أى اليسع (الملوك الثانى ٤/١٧ـ٣٧) ، ولكن اليهودَ لم يُؤَلِّهُوا إيليا ولم يُؤَلِّهُوا اليشع .

ولاتَحْسَبُ أيضا أن المصريين انفردوا بأساطير البنوة لله ، فهذا قديمٌ فى خُرافات من أشرك ، قالت به عقائدُ الهند ، وتَغَنَّت به أساطيرُ الأولمب ، وغيرُ هذين فى شِرْكِ الأقدمين كثير . ولا يقال لك ان القِدَمَ أصالة ، فالوسواسُ الخنَّاسُ أيضا قديم . وإنما تَأصَّلَ هذا القول عند من ابتدعه على تلك المُناكَحَة بين السماء والأرض لاستيلادِ الخَلْق، على مثال المَطر والزرع ، وهو قولُ شعراءَ يَتَّبِعُهم الغاوون، فالماءُ من صميمِ مادةِ هذه الأرض [١] ، من الأرضِ يَخْرُجُ وإلى الأرض يعود . إن قُلْتَ كما يقولُ البعض إن قِدَمَ التثليث والبنوة لله وشيوعهما فى عقائد الأقدمين إرهاصٌ بالتثليث المسيحى ودليلٌ على صحته ، فقد قُلْتَ شططاً كمسيحى ، لأنك تُعَدِّدُ أبناءَ الله ، فلكل عقيدةٍ من تلك العقائد ابن ، فلا يعودُ المسيحُ ابنَ الله الوحيد فى قولِ من قال .

هؤلاءِ وأولئك ـ آباءُ هذه المقولة فى أمَمٍ قد خَلَت من قبل ـ هم الذين يعنيهم القرآنُ بقوله : { **يُضاهِئُون قولَ الذين كفروا من قبل** } (التوبة : ٣٠) . وسبحانَ العليمِ الخبير ، فما عَرَفَ الناسُ هذا إلا فى هذا العصر ، بعد تأسيس عِلمِ مُقارَنَةِ الأديان .

□□□

أما " عُزَيْرٌ " المسمى فى القرآن فليس فى العهد القديم الذى بين يديك "عُزَيْرٌ" ادَّعَى عليه اليهودُ تلك البنوة لله ، أو لقَّبوه بها على مجرد التعظيم والتبجيل . وإنما

---

(١) سبق القرآن إلى هذه الحقيقة العلمية بقوله المعجز: { **والأرضَ بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها** } (النازعات : ٣٠ ـ٣١) أى استخرج منها ماءها استخراجا .

الصحيحُ الذى نُرَجّحُه أن القرآن يحكى هاهنا مقولةَ يهود غيرِ مسطورةٍ فى أسفار العهد القديم الذى بين يديك ، تناقلها اليهودُ بعد عودتهم من سبى بابل ، وربما لَهَجَ بها يهودُ فى مكةَ أو يَثْرب ، بدليلِ أنهم لم يُنكروا على القرآنِ قولَهُ هذا فى قومهم ، بل تَوارَوْا من هذه المقولة خجلا ، فموسى بلاشك عندهم بهذه المقولةِ أوْلَى من هذا العُزَيْرِ المُسَمَّى فى القرآن . أما وَفْدُ نصارى نجران فقد جاهروا بمقولتهم فى المسيح وجادلوا بها خاتم النبيين فى مسجده صلى الله عليه وسلم ، لأن مقولتهم هذه هى صُلْبُ عقيدتهم ، لو تراجعوا فيها قَيْدَ أَنْمُلَةٍ لما بَقِىَ لهم عذر فى البقاء على مسيحيتهم ، ولَدَخلوا فى دينِ الله أفواجا ، شأنَ الكثرة الكاثرة من أقباطِ مصر ، والجَمّ الغفيرِ من نصارى الشام . أما نجرانُ وتَغْلِبُ وأضرابُهما من العرب فقد قَصَرت بهم قَبَلِيَّتُهم .

ولكن الذى نُعْنَى به فى مقاصد هذا الكتاب الذى نكتب هو " عُزَيْرٌ " نَفْسُه ، لا مقولةُ بعض اليهود فيه . الذى نُعْنَى به هو مَعْنَى اسمه ، ومَنْ يكونُ فى أعلام بنى إسرائيل .

□□□

" عُزَيْرٌ " من بنى إسرائيل بلا شك ، لقوله عز وجل : { **وقالت اليهودُ عُزَيْرٌ ابنُ الله** } ، فهو منهم . وهذا الاسمُ حين تَرُدُّهُ إلى أصلِه العبرى ، يجىء من الجذر العبرى "عَزَرْ" المشترك فى العبرية والآرامية والعربية على معنى العون والتأييد والنصرة . والقرآنُ لا يستخدم " عَزَرَ " إلا فى هذا المعنى وحده . أما "عَزَرَهُ " بمعنى "لامَهُ " ، ومنه يجىء التعزيرُ بمعنى التأديب أو العقاب بما دون الحَدّ فى اصطلاح الفقهاء ، فليس فى الجذر " عَزَرْ " العبرى من هذا شىء ، وإنما هو فقط بمعنى نَصَرَهُ وأَيَّدَهُ وأعانَه ، تماما كما فى صِنْوِهِ العربى المُضَعَّف "عَزَّر" الذى تجده فى قوله عز وجل: { **إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا. لتؤمنوا بالله ورسوله وتُعَزِّرُوهُ وتُوَقِّرُوهُ وتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وأصيلا** } (الفتح : ٨ ــ ٩) .

واسم الفعل فى العبرية من هذه المادة ، يعنى العَوْنُ والتأييدُ والنَّصْرُ والنُّصْرَة ، له صورتان : "عِزِرْ" (بكسرتين متتابعتين) ، "عِزْرَا" (بكسرٍ فسكونٍ فراءٍ ممدودةٍ بالألف). أما اسم الفاعل منه ، أى العازرُ الناصِرُ المُؤَيِّدُ المُعين ، فهو "عُزِير" التى تُشبهُ

"عُزَيْر" التى فى القرآن، ولكنها لا تُنطق مثلها على زنة التصغير العربية "فُعَيْل" مثل "عُمَيْر" مَصغَّر عَمْرو، "عُبَيْد" مُصغَّر عَبْد ، وإنما تنطق ياؤها على الإمالة مكسورةَ الزاى قبلَها ، كما لو نطقت "زيد" العامية تُريدُ "زَيْد" الفصحى ، الاسمُ العَلَم .

وليس فى أعلام العهد القديم من تَسَمَّى باسم الفاعل من "عَزَرْ" العبرى ، أى باسم "عُزير" هذه المُمالةُ الياءِ مكسورةُ الزاى. فلا يقال ان القرآن عَرَّبَ "عُزير" هذه على "عُزَيْر" مفتوحةِ الزاى ساكنةِ الياء ، زنَةِ العربية " فُعَيْل" مثل عُمَيْر وعُبَيْد ، كما وَهِمَ المستشرقون المنكرون على القرآن ، الذين تفكَّهوا فى هذا المَقام سُخْرِيةً من "عُزَيْر" الذى فى القرآن لمجيئه على زنة التصغير العربية ، التى أُولِعَ بها العربُ حتى قالوا فى تصغير فِرْعَوْن : فُرَيُّ ! [1] وإنما الذى فى أعلام العهد القديم من مادة "عَزَرْ" العبرى الثلاثى المجرد هو "عِزِرْ" ، "عِزْرَا" تسميةً بالمصدر واسم الفعل من "عَزَرْ" ، أى "العَزْر" بمعنى النَّصْرِ والنُّصْرَة .

ولكنك لا تحتاجُ إلى تَقَصّى كافة من تَسَمَّوْا فى العهد القديم بهذين الاسمين "عِزِرْ عِزْرا " ، كى تقع على أيّهم" عُزَيْر" المَعْنِىُّ فى القرآن ، فليس فيهم جميعا نابهُ الذكرِ غَيْرُ خامل ، إلا عَلَمٌ واحد ، هو " عِزْرا " صاحبُ السفر المُعَنْوَن باسمه فى العهد القديم ، من أعلام القرن الخامس قبل الميلاد ، كاتبُ شريعة الله ، الذى قاد مسيرةَ اليهودِ فى عودتهم إلى أورشَليم من سَبْى بابل . والمَرْوِىُّ عنه فى مأثورات اليهود التى نَقَلَها عنهم مفسرو القرآن الأوائل (راجع تفسير القرطبى للآية ٣٠ من سورة التوبة) أنه كان أَحْفَظَ الناسِ لتوراة موسى ، يتلُوها عن ظهر قلب أيام سَبْيِهم فى بابل ، ويستنسخُها من الذاكرة ، فلما عاد بهم إلى أورشليم وطابقوا كتابتَهُ على نسخةٍ عثروا عليها تحتَ أطلال هيكل سليمان الذى خَرَّبَهُ البابليون من قبل ، وَجَدُوا كتابتَهُ مطابِقةً لتلك النسخة حرفاً بحرف ، فقيل " عُزَيْر ابن الله " .

ولئن كان الأصلُ فى معنى الاسم العلم "عِزْرا " أنه تسميةٌ بالمصدر لا باسم الفاعل ، أعنى أنه بمعنى " نَصْر" لا بمعنى " ناصِر" ، فإن علماء التوراة يقولون لك إن المُرادَ من التسمية ليس المصدر وإنما اسمُ الفاعل ، فهو " عَزْر" بمعنى "عازِرٍ" ، أى أنه عبرياً "عِزْرا" بمعنى " عُزِيرْ" (المعربة على " عُزَيْرٍ" فى القرآن) [2] .

---

(١) انظر : Joseph HOROVITZ ، المرجع المذكور ، ص ٢٥ .

(٢) المعجم العبرى الآرامى لألفاظ التوراة ، المرجع المذكور ، ص ٣٩٥ ، مادة " عَزَرْ " .

وقد مر بك من قبل أن القرن الخامس قبل الميلاد (قرن " عزرا " الكاتب) شهد غَلَبَة الآرامية فى رُبوع فلسطين على عبرية التوراة ، حتى كان جزءٌ لا يُستهانُ به من سفر عزرا هذا نفسه مكتوباً بهذه الآرامية التى بات يتكلمها الناس ، وحتى انبهمت توراة موسى على المتعبِّدين بها فى نصها العبرانى فلا يفهمون ما يُتْلَى عليهم حتى يُفَسِّرَهُ لهم اللاويون والكتبة . وقد كان هذا بتأثير السبى فى بابل حيثُ الآراميةُ لغةُ الحديثِ والكتابة ، يعنى لُغة السادة . وما عاد سَبْىُ بابل إلى أورشليم بقيادة عزرا الكاتب إلا وقد رانت على ألسنتهم جميعا رطانةٌ آرامية، ولم يأتِ القرنُ الثالث قبل الميلاد حتى بات عامةُ إسرائيل آراميى اللسان ، فتقطع جازما آمنا مطمئنا بأن هذه الآرامية قد كانت هى لُغَةَ المسيح ولُغَةَ انجيله ولُغَةَ حوارييه وليس عبرية التوراة . وهذا يفسر لك فسادَ تلاوة الناس من أسفار هذه التوراة غير المضبوطة بالشكل والنقط، حتى جاء أمثالُ جماعة أهل الأثر (بَعَلى ماسورا) منذ القرن الثانى لميلاد المسيح يحاولون ضبطها بالشكل والنقط بعد أن فسدت ألسنة الناس . وهو يفسر لك أيضا استغراقَ هذه المحاولة ثمانيةَ قرونٍ كاملة حتى تَمَّت فى القرن العاشر الميلادى ، لا لسبب بالطبع إلا اختلافُ الناس عليهم ، يعنى لم يكن على " قراءتهم " إجماع ، حتى كُتِبَ لهم النصرُ أخيرا على منتقديهم فصارت لقراءتهم السيادةُ على ما عداها .

والذى يعنينا هنا من هذا كله هو أن اسم " عزرا " هذا العائدِ من سبى بابل ، تَأثَّر بدوره بهذه الآرامية التى فَشَت على ألسنة الناس وأقلامهم ، فهو مختومٌ فى الرسم بألف مد ، لا بتلك الهاء الخاملة " العبرانية " التى خُتِمَ بها "عزرا" آخر ، صِنْوُهُ فى المعنى ، أى على المصدرية من الجذر العبرى : عَزَرْ " . هذه الصورة "الآرامية " المرسومُ بها اسم "عزرا " الكاتب المعنى ، ربما تُوحِى لك بآرامية العَلَم التوراتى الذى عاش مع سبى اليهود فى بابل يتلو عليهم من توراةِ موسى ويُفَسِّرُ لهم باللسان الآرامى ما يَغْمُضُ عليهم ، أعنى أن اسمه اتخذ فى السبى صورةً آرامية .

وقد مَرَّ بك أن أداةَ التعريف فى الآرامية هى " ألف مد " يُختَمُ بها الاسم ولا تَبْدَؤه وكأنها ألفُ المنصوب فى العربية . فتقول الآرامية "مَلْكَا" تعنى "المَلك" ، وتقول "كَاتبا" تريد "الكاتب" ، وتقول أيضا "عَازرا" (دونِ تنوينِ بالطبع فى هذا كله) تعنى "العازِر" اسم الفاعل فى الآرامية من "عَزَر" ، فهو عربياً العازِرُ الناصر ، لا العَزْرُ والنَّصر . والذى يجب أن تعلمه هو أن الرسم " عزرا " لا يفهم آراميا إلا على معنى

اسم الفاعل مزيدا بأداة التعريف الآرامية (أى بألف المد فى آخره) ، ولا يفهم آراميا على المصدرية من " عَزَرْ " الآرامية ، لأن مصادر الثلاثى المجرد فى الآرامية تجىء على زنة "مِفْعال " .

وقد مر بك أن جماعة " بعلى ماسورا " فى ضبطهم نطق أسفار التوراة (أعنى العهد القديم) بالشكل والنقط ، ما كان لهم من سلطان على " أحرف" هذا النص المقدس ، فما كان لهم بالطبع تغيير ألف المد فى اسم " عزرا " الكاتب إلى الهاء الخاملة العبرانية ، لأن عملهم كما تعلم اقتصر على "التشكيلُ" فقط . ولم يكن التشكيلُ عشوائيا بالطبع ، بل هو متأثرٌ بأستاذيتهم فى عبرية التوراة ، يُنَقُّونها مما عَلَق بها من شوائب تلك الآرامية التى لحَنَ بها الناس فى قراءتهم النصَّ المقدس . ومن هنا لا تُحيل عليهم أن يُجانسوا ضبط اسم "عزرا" الكاتب المختوم بألف المد الآرامية على صِنْوِه ، "عزرا " الآخر المختوم بالهاء الخاملة العبرانية ، فيئول نُطق "عَازِرا" (ويُرْسَمُ فى الخطِ العبرى ـ الآرامى بغير ألف بعد العين أى " عَزِرا ") إلى نفس نُطقِ سَمِيِّه "عزْرا" الآخر المختوم بالهاء الخاملة العبرانية ، فَيَظُنُّ أنهما واحدٌ فى المعنى . وهذا يفسر لك لماذا استجاز علماءُ التوراة فَهْمَ معنى اسم "عِزْرَا" هذا وسَمِيِّهِ الآخر ، على معنى اسم الفاعل من "عَزَرْ" ، لا على المصدرية منه .

❑❑❑

أيُّما صَحَّ هذا أو ذاك ـ أعنى آرامية اسم " عزرا " الكاتب أو عبرانيته ـ فالراجح عندى أن القرآن لم يأتِ بهذا الاسم "عُزَيْر" من فراغ ، وإنما جاء به على نحو ما نَطَقَ به هذا الاسمَ يهودُ يثرب ، الذين فَهِمُوا من هذا الاسم معنى اسم الفاعل من "عَزَرْ" العبرى، فجاءوا به على الأصل العبرى لزنة اسم الفاعل فى العبرية "عُزِير" مضمومةِ العين مكسورةِ الزاى بعدها ياءٌ مُمالة .

ولكن العربية الفصحى ، وأمُّها عربيةُ القرآن ، لا تَعرِفُ هذا الوزن (أعنى "عُزِير" المُمالة الياء) وإنما تَعْرِفُهُ فقط العربية العامية فى نُطقِها أمثالَ "حسِين"، "عبيد".

هذا الوزنُ العبرىُّ "عُزِير" الممالةُ الياء لا يَتَّزِنُ على أوزان العربية إلا إذا جئتَ به على أقرب الأوزانِ العربيةِ إليه ، وهو الوزن "فُعَيْل" ، فتئول "عزُير" المُمالةُ الياء إلى "عُزَيْر" التى فى القرآن .

جاءت إذن "عُزَيْر" فى القرآن على التعريب لا على التصغير كما وَهِمَ أدعياءُ الاستشراق . وهو أيضا تعريبٌ مُفَسِّر لا يحتاجُ من القرآنُ إلى تفسير آخر لمعنى هذا العَلَم الأعجمى لوحدة المادةِ اللغوية المنحوتِ منها لفظُ "عزْرا " العبرى ـ الآرامى ولفظ "عُزَيْر" الذى فى القرآن : غايةُ ما تفهمه من "عُزَيْر" إن حاولتَ فَهْمَهُ عربياً أنه "العَزْرُ" مُصَغَّرا فهو "عُزَيْر" جاء نُطقاً ومعنىً على مثال "نَصْر" و " نُصَيْر" الفاشيَيْنِ فى أعلام العرب . وقد صاغت العربيةُ أسماءً نادرةً على فُعَيْل" لا تريدُ منه التصغير ، أشْهَرُها " لُجَيْن " التى تَفْهَمُ منها معنى " الفِضَّة " لا " الفُضَيْضَة . والاسمُ " عُزَيْر" فى القرآن بهذا أشْبَه .

□□□

ومن إعجاز القرآن الذى لم يلتفت إليه أحد ، أنه يُحَدِّدُ لك شَخْصَ " عُزَيْر" المَعْنِى بأنه "عزْرا" الكاتبُ لا غيره . تستظهر هذا من قوله عز وجل مُعَقّبا على "دَعْوَى البنوة" التى أَسبغَت على عُزَيْرٍ وعلى المسيح : { **وقالت اليهودُ عُزَيْرٌ ابن الله وقالت النصارى المسيحُ ابنُ الله ، ذلك قَوْلُهُم بأفواههم ، يُضاهِئون قَوْلَ الذين كفروا من قبل ، قَاتَلَهُم الله ، أنى يؤْفَكُون . اتخذوا أحبارَهُم ورُهْبَانَهم أرباباً من دونِ الله ، والمسيحَ ابنَ مريم ، وما أمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا إلهَاً واحداً ، لا إلهَ إلا هو سُبحانَهُ عما يُشرِكون**} (التوبة : ٣٠ ــ ٣١) ، يعنى كانت البنوةُ المُدعاةُ لصنفين : عُزَيْرٌ "الحَبْر" ، والمسيحُ عبدُ الله ورسولُه . وليست " الحَبْرُ" هى العَالِمُ بإطلاق على ما شُهِرَت به ، وإنما هى أيضا "الكَاتب" يُحَبِّرُ كتابتَه ، شأنَ كتبة التوراة ، وأحبارُ اليهودِ هم حُفَّاظُ التوراةِ وكُتَّابُها . وقد كان عُزَيْرٌ (أعنى عِزْرا الكاتب) عند اليهود هو هذا الكَاتبُ الحَبْر . ولم يكن عِزرا عند اليهود كاتباً فحسب ، ولكنه أيضا كاهنٌ كاتب " كُوهِين سُوفير" (راجع فى هذا النصين العربى والعبرانى : نَحَمْيا ٨/٩) . بل هو الأستاذُ المُعَلِّم : "وفى اليوم الثانى اجتمع رؤساءُ آباءِ جميعِ الشعب والكهنة واللاويين إلى عزرا الكَاتب ليفهمهم كلام الشريعة" (نحميا ٨/١٣)، مَهيباً جليلا: "ووقف عزرا الكاتب على منبر الخشب الذى عملوه له لهذا الأمر ، ووقف بجانبه مَتِّثْيا وشَمَع وعَنايا وأوريًا وحِلْقيًا ومَعْسيا عن يمينه ، وعن يساره فَدَايا وميشائيل ومَلْكِيا وحَشُوم وحَشْبَدَّانة وزكريا ومَشُلام. وفتح عزرا السفر أمام كل الشعب، لأنه كان فوق كل الشعب" (نحميا ٨/٤ ـ ٥).

أما قائل هذا الكلام ، نَحَميا صاحبُ هذا السفر المعنون باسمه ضمنَ أسفارِ العهد القديم ، فليس نبيا ولا كاهنا ، وإنما هو والِى فارسَ على إقليم " اليهودية " فى فلسطين الذى آلت إليه " مملكةُ يهوذا " بعد الاحتلال البابلى وَوَرِثتْهُ فارسُ فيما وَرِثَت عن بابل . ورغم سلطان نَحمْيا فى أورشليم المستمد من سلطان فارس ، تراه وهو يهودىٌ مثل عزرا يقول عن عزرا إنه " فوق كل الشعب " يسمع لهُ نَحَمِّيا ويطيع . وما ذاك إلا لأن ملك فارس ، أرتحشتا ملك الملوك ، سَمِعَ لعزرا واستجاب لكل سُؤْلِه حتى لتكاد تَظُنُّ أنه انخلعَ من دينه ودخل فى دين عزرا : " عزرا هذا صعد من بابل وهو كاتبٌ ماهر فى شريعة موسى التى أعطاها الربُ إلَهُ إسرائيل ، وأعطاه الملِك حَسْبَ يدِ الربِّ إلهِه عليه ، كُلَّ سُؤْلَه (عزرا ٧/٦) ، بل أعطاه تفويضا على بياض : "من أرتحشنا ملك الملوك إلى عزرا الكاهن كاتبِ شريعةِ إله السماء الكامل ، الخ ." (عزرا ١٢/٧) ، يقول فيه : "ومنى أنا أرتحشتا الملك ، صدر أمْرٌ إلى كل الخَزَنَة الذين فى عبر النهر إنَّ كُلَّ ما يطلبه منكم عزرا الكاهن كاتب شريعة إله السماء فَلْيُعْمَلْ بسرعة إلى مائةِ وَزْنَةٍ من الفضة ، ومائة كُرٍ من الحنطة ، ومائة بَثٍ من الخمر ،ومائةِ بَثٍ من الزيت والملح من دون تقييد" (عزرا ٧/ ٢١ـ٢٢) . ومن كانت هذه حُظْوتُه عند ملك الملوك : " قد صدر منى أمر أنَّ كل من أراد فى مُلْكى من شعب إسرائيل وكهنته واللاويين ، أن يرجع إلى أورشليم معك ، فليرجع . من أجل أنك مُرْسَلٌ من قِبَلِ الملك ومُشيريه السبعة لأجل السؤال عن يهوذا وأورشليم حَسْبَ شريعةِ إلهك التى بيدك، ولِحَمْل فضةٍ وذهب تَبَرَّعَ به الملك ومشيروه لإلهِ إسرائيل الذى فى أورشليم مَسْكَنُه . وكل الفضة التى تجد فى كل بلاد بابل من تبرعات الشعب والكهنة المتبرعين لبيت إلهِهِم الذى فى أورشليم . لكى تشترى عاجلا بهذه الفضة ثيرانا وكباشا وخرافا وتَقْدِماتِها وسكائبَها وتُقرِّبَها على المذبح الذى فى بيت إلهِكُم فى أورشليم. ومهما حَسُنَ عندك وعند إخوتك أن تعملوه بباقى الفضة والذهب فحَسْبَ إرادة إلهكم تعملونه . والآنيةُ التى تُعْطَى لك لأجل خدمة بيتِ إلهك فَسَلِّمْها أمامَ إله أورشليم . وباقى احتياج بيت إلهك الذى يتفق لك أن تعطيه فأعطه من بيت خزائن الملكُ " (عزرا : ٧/ ١٣ ـ ٢٠) ، أقول من كانت هذه حُظْوَتُه عند الملك ، بل من كانت الشريعةُ بيُمناه والمال بيُسراه وسلطانُ الملك من ورائه ، فلا تستكثر عليه أن يَلْهَجَ الناسُ بحمده وتعظيمه حتى الإغراق، والمُغَالاةُ كما مر بك إسفافٌ لا تَؤْمَنُ مَغَبَّتُه . وقد حَدَث .

شحَّ العِلْمُ والعلماءُ في زمنِ عِزْرا الكاتب، فانفردَ وحدَهُ بالكلمةِ في بني إسرائيل . لم يكن نبيـاً ، نَعَم . ولكنه كـان أخطرَ من نبي . فإلى عـزرا هذا وحدَه يُعْزَى النصُّ المقدس الذى استنسخه من ذاكرته لتوراةِ موسى التى بين يديك الآن ، والذي لا تَبْعُدُ به أبْعَدَ من قـرن عِزْرا الكاتب ، القرنِ الخامس قبل الميلاد ، بعد وفاةِ موسى عليه السلام بنحو سبعةِ قرون .

تُرى إلى أي مـدى صَدَقَت ذاكـرةُ عِزْرا ، وكم حَفِظَت أو ضَيَّعَت ؟ عِلْمُ هذا لله وحدَه . ألا ليت عِزْرا الكاهنَ الكاتب كان نبياً تأتَمِنُهُ على وحى الله ، معصوما بعصمة أنبيائه فى البلاغِ والتبليغِ عن الحقِّ تبارك وتعالى . إذن لجاءتْكَ توراةُ موسى عليه السـلام بنفس نصِّها المسطورِ فى الألواحِ ! لا عليك . حَسْبُكَ القرآنُ المصدِّقُ المهيمن وفيه الكفاية ، الذى تَعَهَّدَ اللهُ بحفظه كاملاً غيرَ منقوصٍ إلى قيام الساعة ، لا يَتَحَرَّفُ أو يَتَبَدَّلُ فى الصُّدورِ ، ولا يَتَصَحَّفُ على يَدِ النُّسَّاخ .

❑❑❑

ولا ينقضى القولُ فى عزرا أو عُزَيْر قبل الإشارة (راجع تفسير القرطبى للآية ٢٥٩ من سورة البقرة) إلى ما قيل من أن عُزَيْراً هذا هو ذاك الذى أماتَهُ اللهُ مائَةَ عامٍ ثم بَعَثَه : { **أو كالذى مَرَّ على قريةٍ وهى خاويةٌ على عروشها قال أنَّى يُحيى هذه اللهُ بعدَ موتها، فأماتَهُ اللهُ مائةَ عامٍ ثم بَعَثَه، قال كم لَبِثْتَ ، قال لَبِثْتُ يوماً أو بعضَ يوم ، قال بل لَبِثْتَ مائةَ عامٍ فانظر إلى طعامِكَ وشرابِكَ لم يَتَسَنَّهْ ، وانظر إلى حمارِك ، ولنَجْعَلَكَ آيةً للناس ، وانظر إلى العظام كيف نُنْشِزُها ثم نكسوها لحما ، فلما تَبَيَّنَ له قال أعْلَمُ أن اللهَ على كلِّ شىءٍ قدير** } (البقرة : ٢٥٩) . جاء القرآنُ بهذه المعجزة الكبرى فى الإماتة والإحياء ، يُمَهِّدُ بها للآية التالية مباشرة (البقرة: ٢٦٠) فى سؤال إبراهيمَ رَبَّهُ أن يُرِيَهُ كيف يُحيى اللهُ الموتى ، فأمرَ بذبح أربعةٍ من الطير ثم يجعل لحمَها أخلاطا يُفرِّقُها فى قِمَمِ أربعةِ جبال ثم يَدْعُوهُنَّ فيأتينَهُ سعيا ، قد جَمَعَ الله كُلَّ جزءٍ إلى جزئه، ثم نَفَخَ فيهنَّ الحياة . كانت كلتا المعجزتين أكبرَ من أختها ، ولكن المعجزة التى أراها اللهُ إبراهيمَ كان شاهدُها إبراهيمَ وحدَه ، أما الأخرى فكانت "آيةً للناس" ، لأن الذى أماتَهُ اللهُ مائةَ عامٍ ثم بَعَثه عاد إلى قومه

يُحَدِّثُ بها ، لم تَنَلْ المائةُ السنونَ من نضارته شيئا ، فلا يستطيعُ تكذيبَه من بَلَغَ به الكِبَرُ من قومه ، الذين عرفوا فيه ذلك الفتى يَوْمَ خرج من قريتهم على حماره هذا نفسه يَحْمِلُ طعامَهُ وشرابهَ فافتقدوه مائةَ عام . ومن الناس من تكون آياتُ اللهِ عليه عَمَىً ، المُكَذِّبُ والمُسِفُّ سواء ، فقيل " ابن الله " كما يحكى مفسرو القرآن .

ولا يصح أن يقال إن عزرا الكاتب هو هذا الرجل - إن قلت إن عزرا الكاتب هو نفسه عُزَيْر المُسَمَّى فى القرآن - فتكون قريتُهُ هى تلك القريةُ الخاويةَ على عروشها التى خَرَّبَتْها بابل ، أى أورشليم ، إذن لكانت ميْتَتُه فى أورشليم نفسها ، ولما صَعِدَ منها فى سَبْيِ بابل وعاد إليها بقومه يومَ عادوا إلى أورشليم من هذا السَّبى ، أو لعادَ قومُهُ إلى أورشليم وما زال عِزْرا فى المَيْتَةِ التى أُميتَها مائة عام ، لم يَشْهَد معهم إعادة بناءِ الهيكل الذى جاءوا من بابل لإعادة بنائه فَوْرَ عودتهم ، وعِزْرا الكاتبُ لم يشهد فقط إعادة بناء هذا الهيكل ، وإنما شارك فى إعادة بنائه مشاركةَ القائدِ الرئيس ، بل المُمَوِّل عن أمْر ملك فارس . ولو كانت تلك الآيةُ الكبرى فى عزرا الكاتب لما فاتت على اللاهجين بمآثِرِهِ فى سِفْرَىْ عزرا ونَحَمْيا على ما مر بك . بل ليس فى العهد القديم كله، أو فى الكتاب المقدس بشطريه ، إشارةٌ إلى شخص أُماتَهُ اللهُ مائةَ عامٍ ثم بَعَثَه .

وقد مر بك أن القرآن فى "عُزَيْر" يكادُ ينص بالاسم على عِزْرا الكاتب الحَبْر، فى تعقيبه على دعوى البنوة لله : { **اتَّخَذُوا أَحبارَهُم ورُهْبانَهم أرباباً من دون الله** } (التوبة : ٣١) ، فلا يترجَّحُ لديك قولٌ بغيره .

ليس ما يمنع من أن يكون الذى أُماتَهُ الله مائة عامٍ ثم بَعَثَه رَجُلاً من غير بنى إسرائيل لم يُحيطوا به خُبْرا ، ولكنهم عَلِمُوه من القرآن فاصطنعوه كدأبهم لأنفسهم ثم حَدَّثُوا بقصته (المليئة بالتهاويل فى تفاسير القرآن) مفسرى القرآن الآخذين عنهم ، الذين وَجَدُوا فيها المُبرِّرَ لانزلاق اليهود إلى دعوى البنوة على عُزَيْر ، ابنِ اللهِ فى قَوْلِ من قال .

الصحيحُ أن الذى أُماتَهُ اللهُ مائةَ عام ثم بَعَثَه فكان من آياتِ الله كالفتْيَةِ أصحابِ الكهف ، رَجُلٌ لم يُسَمِّه القرآن ، كما لم يُسَمِّ أصحابَ الكهف . وكلُّ خَبَرٍ فى القرآنِ واقعٌ لا مَحَالَةَ قَدْ وَقَع . ولكن القرآن سردَ الخبرَ وتَكَتَّمَ الاسم ، فهو من غَيْبِ اللهِ لا يُخاضُ فيه ، واللهُ عز وجل بغيبه هو وحدَهُ العالِمُ الأَعْلَم .

(٥١) لقمـــان

ورد اسم " لُقمـان " فى القرآن مرتين اثنتين فى سورةٍ سُمّيَت باسمه . وليس له سَمِىٌ أو نظير فى أعلام الكتاب المقدس بشطريه ، وإنما انفردَ القرآنُ بذكره على غيرِ سابقةٍ فى التوراةِ والإنجيل .

ولقمان حكيمٌ من الحكماء ، ليس بنبىّ ، بل صدّيقٌ أو ولىّ ، قال فيه عز وجل : { **ولقد آتينا لقمان الحكمة أنِ اشكرْ لله ومن يشكرْ فإنما يشكرُ لنفسه ومن كفر فإن اللهَ غنىٌّ حميد** } (لقمان : ١٢) . وقد شَرُفَ لقمان أىَّ شرف بذكر اسمه فى القرآن فى سورةٍ سمّيَت باسمه ، ولم ينَلْ هذا الشرف من دون الأنبياء إلا مريمُ أمُّ عيسى . بل قد شَرُفَ لقمانُ الشرفَ كُلَّه بالنص على وصاياهُ لابنه وهو يَعظُه فى قرآنٍ مَتْلُو يتعبَّدُ الناس بتلاوته إلى يوم القيامة . ربما لم تأتِ فى القرآن بذاتِ اللفظ الذى نطق به لقمان ، ولكن يكفيه أن الله عز وجل أجراها على لسانه نابضةً بلُبابِ الحكمة : { **يابنى لا تشرك بالله ، إن الشرك لظلم عظيم** } (لقمان : ١٣) ، ظُلمٌ للفطرة ، وظلمٌ للنفس ، وظلمٌ للعقل ، وظلمٌ للحواس . وقوله : { **يا بنى إنها إنْ تَكُ مثقال حبّةٍ من خَرْدَلٍ فتكن فى صخرةٍ أو فى السمواتِ أو فى الأرض يأتِ بها الله إن الله لطيفٌ خبير** } (لقمان : ١٦) ، لا ملجأ منه إلا إليه سبحانه . وقوله : { **يا بنى أقِمِ الصلاةَ وأمُر بالمعروفِ وانْهَ عن المنكرِ واصبر على ما أصابَك إن ذلك من عَزْمِ الأمور. ولا تُصَعِّرْ خدَّكَ للناس ولا تَمشِ فى الأرض مَرَحا، إن اللهَ لا يُحبُّ كُلَّ مختالٍ فخور. واقْصدْ فى مَشيك واغْضُض من صَوتك ، إن أنكرَ الأصواتِ لصوتُ الحمير**} (لقمان : ١٧، ١٩) . هذه الوصايا القصارُ الثقال ليست هى لُبابَ الحكمة فقط ، وإنما هى جُمَّاعُ الإيمانِ والعملِ الصالح ، أثْقَلُها فى جنب الله عز وجل قولُ لا إلهَ إلا الله وحده لا شريك له ، وأثْقَلُها فى حقّ العبادِ وفى حقّك أنت أن تأمُرَ فى مجتمعك بالمعروفِ وتَنْهى عن المنكر ، وهذا هو جُمَّاعُ القولِ فى سياسة الدولة والمجتمع : تستقيم على ما أُمِرتَ به

فى كتاب ربك وسنة نبيك لا تَحيدُ عنهما إلى غيرهما ، فتكون كما أرادك اللهُ أن تكون فى قوله عز وجل للملائكة: {**إنى جاعلٌ فى الأرضِ خليفة**} (البقرة : ٣٠). أىْ جُنديًّاً للهِ فى أرضه ، يَطْعَمُ من رزقه ، ويَعْمَلُ فى طاعته ، ويأْتَمرُ بأمره ، واللهُ من فوقك رقيبٌ حسيب لا يَعْزُبُ عن علْمه مثقالُ ذرة ، فإما رضوانُ الله أو سَخَطُه ، نَعوذُ بالله من سَخَطه. بهذه الوصايا القصَارِ الثّقال ، أثْبَتَ القرآنُ للقمان لُبابَ الحكمة، وسبحانَ العزيز الحكيم : { **يُؤْتِى الحكمةَ من يشاء ومن يُؤْتَ الحكمةَ فقد أوتِىَ خيراً كثيرا** } (البقرة : ٢٦٩) .

وقد مَرَّ بك من قبل من قولِ اللهِ عز وجل انحصارُ النُّبُوَّةِ والكتاب فى ذرية إبراهيم من بعد نوح { **ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب** } (الحديد : ٢٦) ، فليس نَبِىٌّ من بعد إبراهيم ، ولا كتاب، إلا فى نَسْلِ إبراهيم ، لتَمَنّيه على اللهِ عز وجل حينَ عَقَدَ لَهُ لواءَ الإمامةِ يومَ البلاءِ المبين ، أن يَجْعَلَ إمامةَ الناس فى ذريته من بعده ، فاستجابَ له عز وجل ، واستثنى الظالمين : {**وإذ ابْتَلَى إبراهيمَ ربُّهُ بكلماتٍ فأتمهُنَّ قال إنى جاعلُكَ للناسِ إماما ، قال ومن ذريتى ؟ قال لا يَنالُ عهدى الظالمين**} (البقرة : ١٢٤) ، أى هذا لك علىَّ عهدٌ لا يَدْخُلُ فيه من ظَلَمَ وأفسد ، لا ينالُهم ولا يَصَلُ إليهم . وقد نال هذا الشرفَ أنبياءُ أئمةٌ : إسماعيلُ وإسحقُ ويعقوبُ والأسباط وجملةُ أنبياءِ بنى إسرائيل ، وخُتِمَت الإمامةُ بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم خاتَمِ النبيين صلواتُ اللهِ عليهم أجمعين . وليس نَبِىٌّ قَصَّ القرآنُ عليك نَبَأه إلا هؤلاءِ فيمن جاء بعد إبراهيم . أما شُعَيْبُ الذى جاء بعدَ إبراهيم بنص القرآن ، وليس من أنبياءِ بنى إسرائيل بالقطع ، على مامَرَّ بك فى موضعه ، الذى نُرَجِّحُ أنه حمو موسى كما يقولُ جمهورُ المفسرين، فالراجحُ أنه من بنى إسحق غير يعقوب ، أو من نسلِ بنى إبراهيم غير إسماعيل وإسحق ، فليس نَبىٌّ من بنى إسماعيل إلا خاتَمُ النبيين .

ولكن القرآن لم يَعُدَّ لقمانَ فى عدادِ من تحدَّثَ عنهم من الأنبياء من ذرية إبراهيم ، فتقول ربما كان نبياً ما بينَ نوحٍ وإبراهيم ، أو ما بينَ آدمَ ونوح شأنُهُ شأنُ إدريس ـ وقد قال بتَقَدُّمِ لقمانَ على عصر إبراهيم مفسرون ـ أو تقول كما نقول ويقول الجمهور إنَّ لقمانَ حكيمٌ ليس بنَبىٍّ ، فليس هو بالضرورة من بنى إبراهيمَ أو بنى إسرائيل ، بل تقولُ مُصيباً غيرَ مخطىء انه لو كان من أهل الكتاب لما سَكَتَ عنهُ أهلُ الكتاب ، وقد خَلا الكتابُ المقدسُ بشطريه من ذِكْرِ لقمان .

ولعلك تتفق معى أن اقتصارَ القرآنِ فى الحديث عن لقمان على موعظة لُقمانَ لابنه دليلٌ على أن لقمان لم يكن نبياً فى قومه ، وإنما كان رجلاً فاضلاً فى أهله وذَويه، آتاهُ اللهُ الحكمة ولم يُؤْته النبوة ، بلغ من حكمته أن يُسَجلَها لَهُ اللهُ عز وجل فى قرآن يُتْلَى ، فهو حكيمُ الحكماء . وليس كُلُّ حكيم بنبى ، وإن كانت الحكمةُ من أشراط النبوة ، فليس نبىٌّ إلا حكيم . وإذا كان عز وجل قد حَصَر النبوة والكتاب من بعد إبراهيم فى ذرية إبراهيم ، فالحكمةُ من فضل الله عز وجل يؤتيها من يشاء ، ليست قَصراً على ذرية إبراهيم. من هنا يَتَّسِعُ لك بابُ البحثِ عمن كان لقمان ، لا تَحْصُرُهُ فى أمّةٍ بعينها ، ولا تشترط أن يكونَ اسمهُ على أصلِه عبرياً كالعبرانيين .

ولكنك تُثبت للقمان ما أَثْبَتَهُ لَهُ القرآن ، أعنى رُتْبَةَ الصدِّيق على ما تَقَدَمَ ذكرهُ فى حواشى هذا الكتاب : قد خُوطِبَ لقمانُ على ملائكة الله عز وجل بقوله : { **ولقد آتينا لقمانَ الحكمة أن اشكر لله !** } (لقمان : ١٢) على الأمر منه عز وجل ، والمخاطَبُ على ملائكة الله عز وجل صَدّيقٌ وإن لم يُنَبّأ ، على القولِ الذى به نقول ، شأنَ امرأةِ فرعونَ وامرأةِ عِمْران ، وأمّ موسى وأمِّ عيسى ، رضى اللهُ عنهم جميعاً ورضوا عنه .

ها قد اتسع أمامك بابُ البحث عَمَّنْ كان لقمان . ولكن ماذا قالوا فى لقمان ؟

❐❐❐

أما المستشرقون المنكرون على القرآن [١] ، فقد أَسَفُّوا أَيّما إسفافٍ فى لقمان، لأنهم كما مر بك لا يتصورون أن يكون فى القرآن شيءٌ لم يَتَسَقّطْهُ من أهل الكتاب أو أقاصيص أهل الكتاب . قالوا إن الاسم لقمان يجىء فى العربية من الجذر "لَقَم" يعنى "بَلَع" ، فهو سَمِىٌّ ملك أدوم فى سفر التكوين "بالَع بن بعُور" (تكوين ٣٦/٣٢) ـ وأصله فى العبرانية " بِلِع " على المصدرية واسم الفعل من الجذر العبرى "بلَعْ " بمعنى ابتلعه أو أتَى عليه وأفناه ـ فجاء به القرآنُ على "لقمان" أو هو "بِلعام بن بعُور" ـ على زنة "فِعْلام" من نفس الجذر العبرى "بَلَعْ" ـ نبىٌ من غير بنى إسرائيل عاصَرَ موسى عليه السلام (عدد ٢٢/٥) . وقد تظن أن هذا جُهْدٌ عِلْمِىٌ يليق

(١) راجع : Joseph Horovitz ، المرجع المذكور ، ص ٢٩ ـ ٣١ .

بمستشرقين علماء ، والواقع أنهم اتكأوا فيه كدأبهم على أصحاب التفاسير والسِّيَر الذين ائتمنوا الرواةَ من أهل الكتاب ، فقد قال ابن إسحق ان لقمان ، هو بَالَع بن بَعُوراء (انظر تفسير القرطبى للآية ١٢ من سورة لقمان) وما كان لابن إسحق أن يعلم عِلْمَ بالع هذا إلا من رواته من أهل الكتاب الذين فَطَنوا إلى هذا الجِناس المعنوى بين بَالع ولُقمان . أما بَالَعُ ملك أدوم فلا تحدثُكَ التوراةُ عنه بشيء ، حكيماً استطارت حكمتُهُ أو غيرَ حكيم . وأما بِلْعام بن بِعُور الذى عاصر موسى عليه السلام فقد كان عند اليهود " نَبيا لَعَّاناً " استأجره بالاق بن صفُور ملك مُوآب ليَلعن له بنى إسرائيل حتى ينكسروا أمامه فى حربه معهم ، ولكن الله كان يُحَوِّلُ لعناتِ بلعام فترتد على جيش المؤابيين وحلفائهم (راجع الإصحاح ٢٢ من سفر العدد) ، ولو كان مفسرو القرآن وأصحاب السير يقرءون فى أسفار هذه التوراة فَعَلِموا حقيقة "بلعام" لأحجموا عن مساواته بلقمان الذى فى القرآن .

قال هؤلاء المستشرقون أيضا ، إن موعظة لقمان لابنه شبيهةٌ بما فى أساطير السريان عن "أحيقار" (وهى " أخو الوَقار" بمعنى ذى الوَقار) الذى يَعظُ ابنه بما معناه : يا بنى طأطىء رأسَك وألنْ قولك وغُضَّ بصرَك ، فلو كان بيتٌ يُبنَى بجَهارة الصَّوْت لَبَنى الحمارُ بيتين فى يوم [٢] وهذا ضعيفٌ كما ترى ، يَدلُّكَ على مدى هزل هؤلاء المستشرقين ، يأخذون وجه الشبه من نهيق الحمار فى الموعظتين أما مُطاطَأةُ الرأسِ وإلانَةُ القولِ وغَضُّ البصر ، فهذا من الشائع المأثور الذى لا تخلو منه موعظةُ مُرَبٍ ، وليس هذا هو لُبُّ مواعظ لقمان ، وإنما أدناها . على أن لقمان يأخذ على الحمار نُكْرَ الصوت ، أما "أحيقار" السريانى فيقول إن جَهارةَ الصوت شأنُ صوتِ الحمار، لغوٌ لا طائلَ من ورائه .

على أن سوء التشبيه بين " أحيقار " السريانى ولقمان الذى فى القرآن يكفى بذاته للمباعدة بينه وبين مقولة هذا القائل فَتَستَبْعدُ " أحيقار " السريانى كما استَبْعَدْتَ من قبل " بلِع " ، "بِلْعام " . وقد استبعدهم أيضاً Joseph Horovitz الذى نَنْقلُ عنهُ هذا الكلام .

(٢) ترجمة من عندنا لعبارة Joseph Horovitz الانجليزية ، وهى :
"My son, Lower thy head, speak softly and look down. For if a house could be built by means of a loud voice, the ass would be able to build two houses in one day."

قالوا أيضا فيما يرويه عنهم هذا المستشرق إنَّ الاسمَ اليونانيَّ " الكميون" ، وشِبْهُه " الكمان ("Alkmaion', "Alkman") فيه شيءٌ من " لقمان" الذى فى القرآن، مشيرين إلى تردد هذا الاسم اليونانى "فى دوائر واسعة بالمشرق" . وليس على هذا دليلٌ كما عَقَّبَ هذا المستشرقُ نفسه فقال إنه إنْ كان لابد من يونانية " لقمان" فهو يُؤْثِرُ الاسمَ اليونانيَّ " لقيان " "Lucian" المحفوظةَ أقوالٌ لَهُ فى مُدَوناتٍ سُريانية ، مشيرا إلى يُسْرِ تصحيف " لُقيان" بالياء إلى "لُقمان" بالميم فى رسم المصحف ، وهى فِرْيَةٌ مُضحكة مُبكيَة لا يخجلُ من اصطناعها أدعياءُ الاستشراق الذين لا يُحيلون التصحيفَ على المصحف الإِمام يَسُدُّون بها الثغرة فى تهافُت حجاجِهم مع القرآن ، وكأنهم يَقيسون المصحف الإِمامَ على " توراة الأنبياء والكتبة " التى تراوحَت عليها أقلامُ النُّسَاخ ، فيفتضحون بجهلهم القديم بتاريخ القرآن ، وجَمْعِ القرآن ، وتدوين القرآن . ولكن هذا المستشرق يعودُ أيضا فيستدرك على نفسه وقد أعياهُ البحثُ عن "لقمان" عند أهلِ الكتابِ وعندَ السريانِ وعندَ اليونان ، فيقول إنه ليس على هذا كُلِّه دليل ، والراجحُ عنده فى النهاية أن لُقمان اسمٌ عربيٌ أصيل عَرَفَهُ العربُ قبل القرآن ، فقد ذَكَرَهُ من شُعرائهم أمثالُ طَرَفة والأعشى وزُهير وامرىء القَيْس والمُخَبَّلِ وأُفنون ، وغيرِهم ، فضلا عن أساطيرِ العرب فى " لُقمان بن عاد " [1] .

□□□

أما مفسرو القرآن (راجع تفسير القرطبى للآية ١٢ من سورة لقمان) فقد تفاوتت أقوالُهم فى لقمان . وقد مَرَّ بك ما حكاهُ القرطبى عن ابن إسحق فى "بالَع" ، "بَلْعام" ، ولكن ابن إسحق رحَمهُ الله تَكتَّم مصادرهُ فلم ينصَّ على "بِلَع" ، "بلعام" ، وإنما قال فى المرتين " لُقمان بن باعوراء" ، وباعوراء ـ التى هى "بعُور" فى التوراة ـ تكشف مصادر ابن إسحق بجلاء . وقال السُهَيْلِيُّ كان لقمان نوبياً من أهل إيلة (وماأبعدَ البونَ مابين أرض النوبة وأرض فلسطين!)، وقيل أيضا عن سعيد بن المُسيَّب إن لقمان أسود من سُودانِ مصرَ ذو مشافرَ (يعنى عظيم الشفتين) وعظَمُ الشفتين فى هذه الرواية وأمثالها محاولةٌ لتفسير معنى "لقمان" بأنه عظيم اللُّقْمَة ، تَلْقامَةٌ تلْقام (وهو فَهْم غيرُ دقيقٍ لأصل معنى الجذر العربى " لَقَمَ " كما سوف ترى) . وقال وَهَبُ ومقاتلُ والزَّمَخْشَرِيُّ كان لقمانُ ابنَ أختِ أيوب أو ابن خالته (وهى محاولة لتأصيل

---

(١) راجع هذا على : J. HOROVITZ ، المرجع المذكور ، ص ٣١ .

عُروبة لقمان على عروبة أيوب فى قول بعض المفسرين وهذا غيرُ صحيح بناء على ما قلناه فى تحليل اسم "أيوب" وإنه من بنى إسرائيل على الصحيح) وقيل كان لقمان من أولاد آزر أبى إبراهيم، عُمِّر ألف سنة فأدرك داود . وروى عن ابن عباس أن لقمان كان رجلا حكيما بحكمة الله تعالى قاضيا فى بنى إسرائيل أسودَ مُشَقق الرِّجْلين ذا مشافر يعنى عظيم الشفتين كما مر بك . فَتَعْجَبُ كيف يكون قاضياً فى بنى إسرائيل نُوبِيٌّ أو من سودان مصر .

ربما تجد فى هذا الإصرار على سواد بشرة لقمان دليلا على أنه ليس من بنى إسرائيل . ولكن سواد بشرته ليس مانعا من أن يكون لقمان عربيا من العرب ، وعربية لقمان أليق بعربية اسمه. أما القول بأنه مصرى أو من سودان مصر، أو من أهل النوبة، فليس ما يمنع من هذا بالطبع ، فقد سكت القرآنُ والحديثُ الصحيح عن نَسَبِ لُقمان فى أمَّة بعينها. ولكن القول مُرسَلٌ ليس عليه دليل. ولا يصح أن يكون الاسم "لقمان" عَلَماً أعجميا من المصرية القديمة بالذات، لأن المصرية القديمة تفتقد حرفَ " اللام" ـ الحرف البادىء فى " لقمان" ـ وتضع فى موضعه حرف " النون" ، وأحيانا قليلة حرف "الراء"[1] ومن أمثلة ذلك فى جذور المصرية القديمة المشتركة مع الساميات: اللامُ النافية ولامُ المِلْك ولامُ الاتجاه ، المُعَبِر عنها فى المصرية القديمة بالحرف " نـ " ولفظه "لُبّ" العربية العبرية الآرامية بمعنى القلب والفؤاد المُعَبَّرُ عنها فى المصرية القديمة باللفظ "رِب" وغيُرهُ كثير.

وإذا كان " لقمان " قد أعيا المستشرقين والمفسرين البحثُ عَمَّنْ يكون ، وليس فى القرآن والحديث الصحيح ما يَدُلُّ عليه ، فليس شخص لقمان هو الذى يعنينا بالدرجة الأولى فى مباحث هذا الكتاب الذى نكتب ، وإنما الذى نهتم له فحسب هو معنى هذا الاسم " لقمان" وتفسيره من القرآن بالقرآن ، مَقصدُنا الأول فى هذا الكتاب. والقرآنُ كما سوف ترى يُفَسِّرُ هذا الاسم على أصلٍ عربىّ ، فتقطعُ بعربيةِ الاسم والشخص ، وسُبحانَ العليمِ الخبير .

□□□

(١) انظر فى افتقاد المصرية القديمة حرف اللام وإبداله نونا أو راء : A. Gardiner, p 27 EGYPTIAN GRAMMAR أما اللام النافية فهى فى مثل قولك : لا أفعله ، وأما لام الملك ففى قولك : لله المشرق والمغرب وأما لام الاتجاه فهى المبدلة من الحرف " الى" .

ليس معنى الجذر العربى " لَقَمَ " هو " البَلْعَ " كما يبدو لك للوهلة الأولى ، وكما استشعر المفسرون الذين وصفوه بعظَمِ الشفتين مُجانَسَةً على ما فهموه من معنى "لقمان" . وقد ظنوه كما ترى زِنةَ مبالغةٍ من "لَقَمَ " فهو صنوُ "تَلْقام" ، "تَلْقامة" يعنى "عظيم اللُّقْمَة" ، وهذا يحتاج إلى سَعَةِ الفم وغلَظِ الشفتين . وقد جَرَّهُم هذا الفَهْمُ على ما أرجّحُهُ أنا إلى التورط دون دليل فى القول بسوادِهِ ونُوبِيَّته أو سُودانِيَّته ، يعنون "زِنْجِيَّتِه" ، لشيوع غِلَظِ الشفتين فيهم .

ولكن معنى " لَقَمَ " الرئيسى على أصله ليس كذلك ، وإنما هو بمعنى سَدَّه فأحْكَمَ سِدادَه حتى غَصَّ بِهِ . تقول من هذا : لَقَمَ الطريق ، يعنى سَدَّ فَمَ الطريقِ على من يُريدُ الخروجَ منه . وأيضا : ألْقَمَهُ حجرا ، يعنى أسكته وأفحمه ، والحَجَرُ هنا للتقوية ، لأن " ألْقَمَهُ " بذاتها كافية . وليست " لَقِمَ " بذاتها يعنى " بَلَعَ " كما ظن ذلك المستشرق وأضرابه ، وانما اللَّقمُ هو الأخذ بِجُمْعِ الفَمِ ، أعنى مِلءَ الفَمِ ، ويجىءُ البلعُ بعد ذلك . واللُّقْمَة هى ما يسَدُّ الفَمَ سَداً ، أى التى تَمْلَؤُه . ولا تزالُ "اللقمة" لقمة ما بَقِيَت بالفَمِ لا تُجاوِزُهُ إلى "البلعوم" . والتقم الطفلُ ثَدْىَ أُمِّه ، من هذا ، فهو لا يبتلعه ، ولكنه يأخذه بِجُمَّاعِ فِيه . ومن هذا أيضا قولُهُ عز وجل فى يونس : {**فالتقمه الحوتُ وهو مُليم** } ﴿الصافات : ١٤٢﴾ ، ليس معناها ابتلعه ، كما تجد فى بعض المعاجم ومنها " المعجم الوسيط " الصادر عن مجمع اللغة العربية بمصر ، وإنما معناها أن الحوت أخذ يُونُسَ بملءِ فيه ، أى كان يونسُ للحوت لُقْمَةً امتلأ منها فُوه ، ثم جاء الابتلاعُ بعد ذلك فصار فى بطن الحوت ، فهو مكظوم : { **ولا تكن كصاحب الحوت ، إذ نادى وهو مكظوم** } ﴿القلم : ٤٨﴾ ، أى مُضَيَّقٌ عليه مكتوم . حدث هذا فى بضع ثوان ، ريثما استجمع الحوتُ عضلات بُلعومه لابتلاع يونس بعد التقامه ، فلا ابتلاعَ إلا بعد التقام . ولكنه التصويرُ الفَنِيُّ المُعجِز الذى عَهِدتَهُ فى القرآن ، لا يريدُ أن تفوتَك اللحظةُ الهائلة : لحظةُ التقامِ الحوتِ يُونُس .

والعاميةُ المصرية تُبدلُ من قاف " لقم " فى معنى الكظّة والاكتظاظ ، كافاً ، تقولُ منه بالعامية المصرية "اتْلَكَمْت" ، "مَلْكوم" وأصلها الفصيح "مَلقُوم" والمعنى "كُظِظْت" فأنا "مكظوظ" ، لا "ابتلعت" ولا "مبلوع" . كما تجد نظير هذا فى تلك الحَلَواء الشامية ، " اللكوم" (" المَلَبَّن" فى مصر) ، وأصلها الفصيح "اللقوم" من اللقم ، فهى " اللاقِمة " ، سِدادُ الفَم ، وربما سِدادُ النَّفْس أيضا من شِدَّةِ حلُوها .

أما العبرية والآرامية فقد أُميت فيهما الجذرُ العربيُّ " لَقَم " وإن بقيت أثارةٌ منه بالمعنى الذى ذكرناه ، السدُّ والانسداد ، فى عبرية التوراة ، وهى لفظة " لَقُّوم" (سفر يشوع ٣٣/١٩) اسمُ موضع لسبط نَفْتالى ، يفسر علماء التوراة [١]معناها من الجذر العربى " لقم " بمعنى سِدادُ الطريق ، فيقولون ان لَقُّوم = الحِصْن ، الحائلُ المانع .

❑❑❑

أما "الحكيم" فى العربية فهى بمعنيين: الذى يَحْكُمُ هَوَى نفسه أى الذى يَعْقِلُ نفسهُ عن الهوى، والآخرُ هو الحكيمُ قائلُ الحكمة، يُحْكِمُ قولَهُ فَيَسُدُّ علَى سامعه منافذَ القولَ، لامقولةَ بعدَهُ لقائل، الذى أَسْكَتَ خَصْمَهُ وأَرْتَجَ عليه، يعنى سَدَّ فَمَه، أى أَلْقَمه. ويقول العربُ كَظَّ فلانٌ خَصْمَه يعنى ألجْمه حتى لا يَجِدَ مَخرَجا، وكَظَّهُ بمعنى أَلْقَمه .

وأصلُ معنى الجذر العربى :"حَكَمَ" هو المَنْعُ والصَّرْف ، ومنه "الحَكَمَة" بفتحتين، تلك الحديدة فى فم الفرس التى تُلْجمـهُ بها فَتَحْكُمُه عن السير على هواه ، وأَحَكَمَ الفرسَ يعنى جعل للجامه حَكَمة . وأصل الحُكم والحِكْمة من هذا . وكُلُّ معانى الحُكْم والحِكْمَةُ متفرعةٌ على هذا الأصل ، مجازاً وتوسُّعا ، فتجىء الحِكْمَةُ بمعنى العلم والفقه، لأن العلم شرطٌ فى الحِكْمَة ، لا حكيمَ إلا عالِم قد أَحْكَمَهُ العلَمُ عن اللغو ، ويقال من الصمت حكْمَة ، والمرادُ صَمْتُ العالم ، لا صَمْتُ الجاهل ، ويقالُ أَحْكَمَهُ بمعنى أَتْقَنه ، والأصلُ ضَبَطَه ، وهكذا .

والاسم " لقمان " فى القرآن من هذا : إنه الحكيم قائلُ الحكمة ، اللاقمُ سامعَه ، أُوتى الحِكْمة، يعنى فَصْلَ الخطاب ، لا يَمْلِكُ سامعُهُ على قولِه تعقيبا، فقد "أَلْقَمه".

وليست " لقُمان" ـ وهى عربيةٌ كما ترى ـ ممنوعةً من الصرف فى القرآن للعُجْمة وإنما مُنعَت من الصرف للعلمية المزيدةِ بالألفِ والنون ، شأنُها شأنُ "عُثمان" التى لا يختلفُ على منعها من الصَّرْفِ أحد .

وإذا كانت العربُ عصرَ تصنيف تفاسير القرآن لم تَعْرِف فى " لُقمان" معنى الحكيم قائلِ الحِكْمَة ، فهذا كما تعلم من أساطير العرب فى " لقمان بن عاد " لأن لقمانَ عند العرب قديم ـ بل مُتَطاوِلُ القِدَم ـ فهو من العربية الأولى ، عربيةِ عادٍ قومِ هود .

❑❑❑

(١) انظر المعجم العبرى الآرامى لألفاظ التوراة ، المرجع المذكور ، ص ٤٤٩ .

قال عز وجل يفسر "لقمان" بالمرادف المطابق اللصيق : { **ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد** } (لقمان : ١٢) .

فَسَّر القرآنُ إذن "لقمان" بمعنى الحكيم قائلِ الحِكْمَة . وقد غَلَب لفظُ الحكيمِ على لقمان، حتى ليكادَ يُغْنِى ذكرُ أحدِهما عن الآخر، فهو عَلَمٌ عليها وهى عَلَمٌ عليه .

وأصلُ معنى الشكر فى اللغة الامتلاءُ من رِىّ أو سِمَن ، ثم استُعير للامتلاءِ من النعمة . ثم استُعيرَ من بعد لظهورها ، وأيضا إظهارِها بعرفانِها والثناءِ عليها . وهذا المعنى الأخيرُ هو وحده المشهورُ المعروفُ المستعمل فى العربيةِ المعاصرة .

والشَّكُور من الإنسانِ والحيوانِ والنَّبْت ، هو الذى تبدو عليه آثارُ النعمة لا يَكْتُمُها، وإنما يُبديها ويُحَدّثُ بها . وفى الآية التى تلوتُ تَواً جِناسٌ معنوىٌ خَفِىٌ بديع: أى لُقِّمْتَ يا لقمانُ الحكمةَ حتى مُلِئْتَ منها ، فَعِظْ بها. فكانت عظاتُ لقمانُ لابنه فى القرآن لُبابَ الحكمة . وسبحان العزيز الوهاب ، يؤتى الحكمةَ من يشاء ، الذى عَلَّمَ بالقلم ، عَلَّمَ الإنسانَ ما لم يعلم .

والحمدُ لله ربِّ العالمين .

الفصل التاسع

المصدق والبشير

يتناول هذا الفصل فى ختام مباحث هذا الكتاب تفسيرَ ما بقى أمامنا من العلم الأعجمى فى القرآن ، وهى عشرةُ أعلام : زكريا ـ يحيى ـ عمران ـ مريم ـ عيسى ـ الإنجيل ـ النصارى ـ الصابئون ـ المجوس ـ الروم .

والأعلامُ السبعة الأولى (زكريا ، يحيى ، عمران ، مريم ، عيسى ، الإنجيل ، النصارى) هى أعلام المسيحية . فزكريا أبو يحيى ، ويحيى ابن خالة مريم ، ومريم ابنة عِمْران هى أم عيسى ، رضى الله عنهم جميعا ورضوا عنه ، أنبياءَ وصدّيقين ، أما الإنجيل فهو وحى الله على عيسى ، وأما النصارى فهم المسيحيون أتباع المسيح .

أما الأعلامُ الثلاثة الأخرى (الصابئون ، المجوس ، الروم) فهم من أعلام المسيحيةِ قَرِيب . فقد قيل فى الصابئين إنّهم بقيةٌ من أتباع يحيى بن زكريا عليهما السلام ، وقيل غيرُ ذلك . وأما المجوس فهى عَلَمٌ على أتباع ديانة فارس أو الزُرادِشْتيين أتباع زُرادشْت ، ولعلك قرأت فى الإنجيل أن مجوساً رأوْا فى السماء نجم المسيح فجاءوا من بلادهم يحضرون مولده عليه السلام ويقدمون له "هدايا ذهباً ولباناً ومُراً" (متى ٢/١١) . وأما الرومْ فالمَعْنِىُ بها فى القرآن هم البيزنطيون وقَيْصَرُهم هِرَقْل عصرَ نزول القرآن ، وقد تسمَّى بها البيزنطيون فى آسيا الصغرى والبَلْقان لأن ملوكَهُم كانوا سلالةً من قياصرة روما قبل انهيار الامبراطورية الرومانية على أيدى القُوط ، بل قد كان من البيزنطيين من خلع اسم "روما" (عاصمة إيطاليا اليوم) على بيزنطة (وهى استامبول اليوم فى تركيا) ، تَحناناً إلى ذكرى روما الأولى (روما يوليوس قيصر وأوكتافيوس أوْجُسْتُس ومَرْكُس أنطنيوس) أيامَ مجدِها القديم .

ولم نجد أنسب من هذا الفصل موضعاً للحديث عن الصابئين والمجوس و الروم فى سياق تحليلنا معانى أعلام المسيحية وتفسيرها من القرآن بالقرآن ، فقد جاء "النصارى" مَجْمُوعِين إلى الصابئين والمجوس فى قوله عز وجل : { **إن الذين آمنوا ، والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشْركوا ، إنّ الله يفصلُ بينهم يوم**

القيامة ، إنَّ اللهَ على كل شيءٍ شهيد } (الحج : ١٧) . أما الروم فلأنهم الذين آل إليهم منذ القرن الرابع لميلاد المسيح صَوْلجانُ المسيحيةِ وسُلطانُها .

□□□

وليس من مقاصدنا المباشرة فى هذا الكتاب الذى نكتب نَقْدُ المسيحية فى صورتها التى نَقَضَها القرآنُ من قبل ، أعنى عقيدة التثليث والخلاص بالمسيح ، فَادِى البشرِ بدمهِ المسفوحِ على الصليب ، فقد تَكَّفلَ القرآنُ بالنقد والنقض معا ، وليس بعدَ القرآنِ مزيدٌ لُمستزيد ، الذى جاء بها ناصعةً بَيّنَة فى جواب المسيحِ ربَّه يوم يَجْمَعُ اللهُ الرُّسْلَ فيقولُ ماذا أُجبْتُم قالوا لا علِمَ لنا ، إنك أنت علام الغيوب : { **وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلتَ للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك ! ما يكون لى أن أقولَ ما ليس لى بحق ! إن كنتُ قلتُهُ فقد عَلِمْتَه ، تَعْلَمُ ما فى نفسى ولا أعلمُ ما فى نفسك ، إنك أنت علام الغيوب. ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا اللهَ ربّى وربَّكم ، وكنتُ عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم ، فلما توفيتنى كنتَ أنتَ الرقيب عليهم ، وأنت على كُلِّ شيءٍ شهيد** } (المائدة : ١١٦ ــ ١١٧)، وقوله عز وجل ، المتفرِّدِ بالالوهية والمُلْك: { **لن يستنكفَ المسيحُ أن يكون عبداً لله ولا الملائكةُ المقربون ، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرُهُم إليهِ جميعا** } (النساء : ١٧٢) ، ويَدْخُلُ فى الملائكةِ المقربين جبريلُ روحُ القُدُس صلواتُ الله عليه، ثالثُ الثلاثة فى عقيدة التثليث. من هنا تستظهر أن المسيحية يومَ رُفِعَ المسيحُ ليست هى تلك المسيحيةَ التى جادل بها أساقفةُ نَجْران خاتَمَ النبيين ، التى صِيغَت أصولُها فى المجامع ، بدءا بمجمع نيقية عام ٣٢٥م، بعد رفع المسيحِ بنحو ثلاثة قرون، الذى ألهَ المسيحَ على البنوة لله، ثم أعقبه بنحو خمسين سنة مجمعٌ آخر فَصَّلَ القولَ فى ألوهية روحِ القُدُسِ جبريل، فاكتمل الثالوثُ الأقدس : الآبُ والابنُ والروحُ القدس ، ثلاثةٌ فى واحد .

ولكن مقولةَ المسيحيين فى المسيح هى التى تَفْرِضُ نفسَها على كُلِّ بحثٍ لُغَوىٍّ صِرْف يريد تحليلَ معنى عَلَمِ المسيحية الأكبر ، عيسى بن مريم صلواتُ الله عليه ، كما سترى ، وأيضا لفظة "إنجيل" ، لأن مقولة المسيحيين فى المسيح هى التى صَنَعت التفسيرَ اللُغَوِىَّ الشائعَ لهاتين اللفظتين : "عيسى" (" يِشُوع " عبرياً) ، "إنجيل" المقول بيونانيتها ترتيباً على يونانية الإناجيل .

والذى ينبغى التنبيهُ إليه فيما مضى من مباحث الكتاب وفيما سوف يلى ، أننا حين يُلجئنا موضوعُ البحث إلى النقد ، فهو النقدُ الرصين ، نريدُ به وجهَ الحقّ تبارك وتعالى ، فنختصم المقولةَ ولا نَشْجُبُ القائل ، فالهُدى هُدَى الله عز وجل ، ولو شاء لهدى الناسَ أجمعين ، ولله وحدَهُ الفضلُ والمنْ: { **قل لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إسلامكم بل اللهُ يَمُنُّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين** } (الحجرات : ١٧) . ومن فَضْل الله على المُسلم أنه معصومٌ بعصمة الله عز وجل عن الخوضِ فى مَقام أنبيائه : { **لا نُفَرقُ بين أحدٍ من رُسُلِه** } (البقرة : ٢٨٥) ولا تستقيمُ لغيرِ المسلمِ مع المسلمِ حُجَّةٌ إلا بالخوضِ فى نُبُوةِ خاتَمِ النبيين .

ومن فرائد إعجازات القرآن فى غُيوب القرآن قولُهُ عز وجل فى الآية التى تَلَوْت تَواً : { **إن الذين آمنوا ، والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ، إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ، إن الله على كل شيء شهيد** } (الحج : ١٧) ، أى سيظل من هؤلاء وهؤلاء فِرَقٌ يفصلُ بينهمُ اللهُ يومَ القيامة ، يومَ يجيءُ كُلُّ أناسٍ بإمامهم .

أما أنبياءُ اللهِ ورسُله ، لا نُفَرّقُ بين أحدٍ من رُسُله ، فسلامٌ على المُرْسَلين ، والحمدُ للهِ رب العالمين .

(٥٢) زكريا

"زكريا" عليه السلام نبيٌّ بنص القرآن لمجيئه على نحو ما مر بك من قبل فى لفيفٍ من ذرية يعقوبَ مُعَقّبٍ عليهم بقولِهِ عز وجل : { **أولئك الذين آتاهم اللهُ الكتابَ والحُكْمَ والنُّبُوَّة** } (الأنعام :٨٩) ، وإن كان فى الأناجيل التى بين يديك مجَرَّدَ كاهن : "كان فى أيام هيرودس ملك اليهودية كاهن اسمه زكريا من فرقة أَبِيًّا وامرأته من بنات هرون واسمها اليصابات . وكانا كلاهما بارَّينِ أمام الله سالِكَين فى جميع وصايا الرب وأحكامه بلا لَوْم . ولم يكن لهما ولد إذ كانت اليصابات عاقرا ، وكانا كلاهما متقدّمَيْنِ فى أيامهما" : (لوقا ٥/١ ـــ ٧) ، ثم يمضى الكاتب فى قصة ولادة يحيى بن زكريا عليهما السلام (المرسوم فى أصول الأناجيل اليونانية وترجماتها جميعا "يوحنا" على ما سيجىء فى موضعه). وإلى صلاحِ آل زكريا عليه السلام يشير القرآن بقوله عز وجل : { **وزكريا إذ نادى ربه رب لا تَذَرْنى فردا وأنت خيرُ الوارثين . فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه ، إنهم كانوا يُسارعون فى الخيرات ويَدعُونَنا رَغَبا ورَهَبا وكانوا لنا خاشعين** } (الأنبياء : ٨٩ ـــ ٩٠). وقد كان إعجازُ ميلادِ يَحْيَىِ لزكريا وقد بلغ بِهِ الكِبَرُ عِتِيًّا شبيهاً كُلَّ الشبه بمولد إسحق لإبراهيم وسارة : كلتا المرأتين عجوزٌ عاقر ، وكلا الرجلين شيخٌ كبير ، ولكن الفاطرَ المُبْدِعَ البارى الذى لا يُعْجِزُهُ شىء يقضى ما يشاء ويفعلُ ما يريد . ولو شاء اللهُ خَلْقَ يحيى على مثال آدم بغير أبٍ أو أُمٍ لفعل ، ولكنه أراد النسبةَ إلى زكريا ، كما أراد من بعد فى خلق عيسى النسبةَ إلى مريم ، وأراد قبل هذا وذاك النسبةَ إلى آدم أبى البشر جميعا ، كيلا يضل أحدُ فى دعوى البُنُوة لله عز وجل ، ولم يغفل عنها لحظة عيسى عليه السلام فى نفس هذه الأناجيل التى بين يديك، لا يَسْأَمُ من تكرارها على سامعيه حتى باتت عَلَماً عليه : إنه ابن الإنسان (وهى فى العبرية " بِنْ أدام ") يعنى آدَمِيٌّ من بنى آدم . والقرآنُ لا يجىء

بذكر مولد يحيى إلا ويعقبه بذكر مولد عيسى (ولوقا يفعل نفس الشىء فى إنجيله) ، يُمَهِّدُ لإعجاز بإعجاز ، فكلتا الولادتين آيةٌ تنقطعُ دونَها رقابُ البشر : إخصابُ بُوَيْضَةِ الأنثى بغيرِ مُخْصِب ، أو خَلْقُ هذه البُوَيْضَة مُخْصَبَةً ابتداء ، أو إخصابُها بكلمةٍ منه عز وجل نفخاً من روحِ القدس جبريل كالذى تَجدُ فى القرآن وفى الإنجيل ، والأُخرى شأنُها شأنُ الاستحياءِ من عَدَم ، فى زَوْجِ زكريا ، كما تجد فى قوله عز وجل الذى تتلوناه توا : (وأصلحنا له زوجه) ، يعنى استحيينا فيها ، وهى العجوزُ العاقر ، آلةَ الحَمْلِ والولادة ، وسبحانَ الخلاَّق العليم . فلما عَجِبَ زكريا من هذا ، قيل له :[**قال كذلك قال ربك هو على هَيِّنٌ وقد خلقتُكَ من قبلُ ولم تَكُ شيئا**] (مريم : ٩) ، يُذَكِّرُهُ بخلقه وبالخَلْقِ الأول ، وعن هذا يَضِلُ كثيرون ، يُعَظِّمُون المفعول ولا يُعَظِّمون الفاعل . ولم يكن هذا موقفَ لوقا فى إنجيله ، بل هو يُعَقِّبُ على مولد يحيى وعيسى عليهما السلام بتسابيحَ لله العلىِّ القادرِ .

على أن أخبار زكريا فى القرآن لا تقتصر على أبُوتِه ليحيى ، وإنما هو أيضا كَافِلُ مريم عليها السلام على ما تقرأ فى القرآن ، وليس فى الأناجيل التى بين يديك من هذا شىء ، وهى أيضا لا تَقُصُّ عليك شيئاً من أنباء خدمتها فى الهيكل ، وقال عزوجل: [**ذلك من أنباء الغيب نُوحيه إليك ، وما كنتَ لديهم إذ يُلْقُون أقلامَهُم أيُّهم يَكْفُلُ مريم ، وما كنتَ لديهم إذ يختصمون**] (آل عمران : ٤٤) ، وسبحان علام الغيوب .

❑❑❑

أما الاسم "زكريا" فيجىء فى العبرانية من جزأين : زكر + يا (وينطق عبريا "زِخَرْيَا" على ما مر بك من تحوُّل النطق فى العبرية بعد مُتَحَرِّكٍ أو معتل من الكاف إلى الخاء) .

أما المقطع الأول " زكَر" ، فهو الجذر العبرى " زكَرْ " المكافىء فى كل معانيه للجذر العربى "ذكَرَ" ، أبْدلَت ذالُهُ زايا. وأما المقطع الثانى"يا" فهو مختصر من "يِهْوَا"، اسم الله عز وجل فى العبرية .

على هذا يكون معنى " زكريا " هو " ذَكَرَ اللهُ " بالضم فى لفظة " الله " على الفاعلية للفعل العبرى "زكر" ، أو هو "ذَكَرَ اللهَ" بالفتح فى لفظة "الله" على المفعولية

من " زكر" ، لأن العبرية ليس فيها إعراب فلا تستطيع القطع بأيِّهما المراد . وقد اختار علماء أهل الكتاب ـ بغير موجبٍ من نحو اللغة العبرية ـ الوجه الأول "ذَكَرَ الله" على معنى "الذى يَذكُرُهُ الله" . وهم فى هذا ـ أعنى علماء المسيحية ـ ينظرون لا إلى أصل التسمية فقد تَسَمَّى بالاسم " زكريا " من قبل فى العهد القديم كثيرون أشهرهم بالطبع "زكَرِيَّا بن بَرَخِيًّا" صاحب السفر المعنون باسمه فى توراة الأنبياء والكتبة ، وإنما هم ينظرون إلى دلالة الاسم على المسمى المَعْنِيِّ فى العهد الجديد ، الذى تَمَنَّى على الله الولد وقد بلغ من الكِبَرِ عتيًّا فَذكَرَهُ الله فى وَحْدَته وضعفه وشيخوخته فاستجاب دعاءه. وهذا جيد لا غُبار عليه فى حقِّ زكريا المعنى فى الإنجيل وفى القرآن . ولكنه تَحَيُّزٌ بغير موجب من نحو اللغة العبرية كما مر بك لأحد الوجهين دون الآخر . بل الوجهُ الثانى ، أعنى " ذَكَرَ اللهَ " بالفتح فى لفظة " الله " على المفعولية لهذا الذاكر ، فيكون المعنى " ذاكرُ اللهِ " ، أوجهُ وأَبْيَن فى منطق اللغة العبرية ـ وأيضا غيرُ متعارضٍ مع نحوها ـ لأنك فى الوجه الأول تحتاج إلى تفسير " ذَكَرَ " من الله عز وجل على معنى " استجاب " ، أما فى الوجه الثانى فالفعل " ذَكَرَ " من هذا الذاكر يَظَلُّ على أصلِ معناه ، والتفسيرُ بالأصلِ أَوْلَى من التفسير بالمُؤَوَّل . على أن الوجه الثانى أيضا ، "ذاكرُ اللهِ " لا يَبْعُدُ بك عن دلالة التسمية على المسمَّى فى حق "زكريا" المعْنيِّ فى الإنجيلِ والقرآن ، العَبْدُ الذاكرُ الخاشع لقوله عز وجل : { **فاذكُرونى أذكُرْكُم**} (البقرة:١٥٢) يعنى يجىءُ الذكرُ من العبد أولا ، يَذكُرُ اللهَ فيذكُرُهُ الله ، لا يَصِحُ العكس فى جنب الله عز وجل . وهذا بالضبط الذى حَدَثَ لزكريا . "ذاكرُ الله" : ذَكَرَ اللهَ فَذَكَرَهُ الله ، كما تجد فى هذا الجناس المعجز : { **كهيعص . ذِكْرُ رحمةِ ربِّكَ عبدَهُ زكريا . إذ نادى ربَّهُ نداءً خفيًّا** } (مريم : ١ ـ ٣) .

"زكريا" إذن على القول الذى به نقول ، يعنى " ذاكرُ الله " .

وقد عَرَّبَ القرآنُ " زكريا " طبق الأصل من صورتها الشائعة فى الأناجيل اليونانية ، وهى Zacharia " زَخَرِيًّا " (الذى تُضاف فى آخره سينُ الرفع اليونانية حالَ وقوعه مرفوعاً كما مر بك) : خالفوا العبرية بفتح الزاى البادئة بدلا من كسرها وشَدَّدُوا الياءَ بدلا من تخفيفها . وهو نفسُ النطق العربى لهذا الاسم فى القرآن ، لولا إرجاعُ الخاء العبرية كافاً على أصلها . فقد عَلِمَ العربُ من قبل أن خاءاتِ العبرية كافٌ كُلُّها فلا تكاد تَجِدُ لمُعَرَّباتِهم من تلك اللغة لفظاً لم تبدَّلْ خاؤهُ كافا.

ولكن العرب ـ أعنى مفسرى القرآن كما تجد فى تفسير القرطبى للآية ٣٧ من سورة آل عمران ـ لم يَفْطِنُوا إلى أن " زكريا " من الذكر ، فقالوا بعُجْمَته ولم يتصدَّوا لتفسيره ، أعنى لم يفطِنوا إلى أن الزاى البادئة فيه مُبْدَلَةٌ من الذال ، وتَكَتَّمَ عليهم معنى الاسمِ رُواتُهم من أهل الكتاب ، وما كان لديهم من عبريةِ التوراة القدرُ الكافى لتحليل معانى أعلامِ التوراةِ والإنجيل . ورغم أن القرآن ـ على منهجنا فى هذا الكتاب ـ فَسَّرَ الاسمَ زكريا بأجلى بيانٍ فى موضعين اثنين كما سترى ، فما كان لديهم هذا المنهجُ الذى هدانا اللهُ إليهِ بفضلٍ منهُ ونعمة ، لهُ وحدَهُ الفضل والمَنُّ سبحانَه .

❑❑❑

فُسِّر الاسمُ "زكريا " فى القرآن مرتين : التفسير بالمُشاكَلة ـ وقد مَرَّ بك فى مقدمة هذا الكتاب ـ تجده فى قوله عز وجل : { **كهيعص . ذِكْرُ رحمةِ ربِّكَ عبدَهُ زكريا** } (مريم : ١ ـ ٢) ، وكأنها : ذكَرَت رحمةُ رَبِّكَ عبدهُ ذاكرَ الله ، لا تجد جناساً أَبْيَنَ من هذا ولا أدقَّ ولا أجْمَل . ولكن روعةَ النغمِ المصاحبِ لجلالِ المعنى المنظومِ فى الآيةِ يَأْخُذُ بمجامعك ، فتلتفتُ إلى الجناس اللفظىِّ فقط بين " ذِكْر " ، " زكَرِيًّا " ، وتفوتُكَ المُجانسَةُ المعنوية بين اللفظين التى استبانت لَكَ الآن : زكريا = ذاكِرُ الله . وسبحانَ العليم الخبير ، القائل بِكُلِّ اللغات .

أما فى المرة الثانية فقد جاء الاسم " زكريا " مُفَسَّراً بالمرادِف الدقيق فى قولِهِ عز وجل : { **هنالك دعا زكريا ربَّه قال ربِّ هَبْ لى من لدُنْكَ ذريةً طيبةً إنك سميعُ الدعاء . فنادته الملائكةُ وهو قائمٌ يُصَلى فى المحراب أنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بيحيى مُصَدِّقاً بكلمةٍ من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين . قال رَبِّ أنَّى يكونُ لى غلامٌ وقد بَلَغَنِيَ الكِبرُ وامرأتى عاقر ؟ قال كذلك اللهُ يَفْعَلُ ما يشاء . قال رَبِّ اجعل لى آية ، قال آيتُكَ ألا تُكَلِّمَ الناسَ ثلاثةَ أيامٍ إلا رَمْزا ، واذْكُرْ رَبَّكَ كثيراً وسبِّحْ بالعَشِيِّ والإبكار** } (آل عمران : ٣٨ ـ ٤١) . وكأنه عز وجل يقول : اُذكُرْ رَبَّكَ يا ذاكرَ الله . والتفسيرُ هاهنا بالمرادف كالشمسِ وضُوحا ، وسبحانَ الذى عَلَّمَ بالقلم ، عَلَّمَ الإنسانَ ما لم يَعْلَم .

والذى يجب التنبيهُ إليه فى ختامِ الحديث عن نبى الله زكريا عليه السلام أن الصوم عن الكلام ثلاثةَ أيام سَوِيًّا (وسَوِيًّا يعنى سليماً معافًى لم يفقد القدرةُ على الكلام بمرضٍ أو آفة) أصاب زكريا فَوْرَ بُشْراهُ بيحيى : { **فخرج على قومه من المحراب فأَوْحَى إليهم أن سَبِّحوا بُكْرَةً وعَشِيا** } (مريم :١١) وأن هذا العجز المؤقت عن الكلام استمر معه ثلاثةَ أيامٍ فقط كما تقرأ فى القرآن . وكان زكريا قد سأل ربه آيةً يَعْلَمُ بها تَحَقُّقَ البُشرى ، أى تَحَقُّقَ حَمْلِ زوجته بالغلام المُبشَّرِ به ، والقارىءُ المتعجل يظن أن الآية هى إمساكُ زكريا عن الكلام . والصحيحُ أن الآية هى انفكاكُ لسانِه فى ختام الأيامِ الثلاثة ، يعنى لما حَدَثَ الحَمْلُ انْفَكَّ لسانُه . لا يَصِحُّ القولُ الأولُ، لأن زكريا كان لا يزال قائما فى المحراب لحظةَ أصابَهُ العجزُ عن الكلام ، لم يخرج بعد إلى زوجهِ كى تَحْمِلَ منْه . وإنما حَمَلَت منهُ أثناء هذه الأيامِ الثلاثة الموقوتةِ لَهُ من اللهِ عز وجل . وإلا لَقُلْتَ إن الحَمْلَ حَدَث قبل أن يَدْعُوَ رَبَّه ، وإن اللهَ بَشَّرَهُ بشىءٍ حَدَث لا بشىءٍ سيحدُث . وهذا يُضْعِفُ المعجزة فلا يعودُ لها معنى . مُنِيَ زكريا إذن بالعجزِ عن الكلام ثلاثةَ أيامٍ فحسب ، أُوتِيَ خلالَها ـ وخلالها فحسب أيضا ـ القدرةَ على الإنجاب ، فقد عاد زكريا من بعدها مباشرةً نفْسَ الشيخِ الذى كانَه ، الواهنِ العَظْم ، البالغِ من الكِبَرِ عِتِيًا ، لا يُنجِبُ من بعدَ ، شاهداً على إعجاز الله فيه وفى زوجه . هذا أَوجهُ وأَبْيَن ، ولكنك لاتقرأ مثله فى التفاسير التى بين يديك ، فهو من الجديد الذى مَنَّ اللهُ علينا به [1] .

والذى فى إنجيل لوقا بشأن هذا الصوم عن الكلام أن زكريا طلب علامةً على تحقق البشرى فاختار له المَلَكُ آيةَ العجزِ عن الكلام على وجهِ التأديب ، لأنه لم يُصَدق البُشرى التى زُفَّت إليه . ويقول أيضا ان هذا العجز عن الكلام استمر مع زكريا منذ أن خرج على قومه من المحراب وطوال حمل زوجته بيحيى حتى وضَعَتْه ، أى تسعةَ أشهرٍ لا ثلاثَ ليالٍ ، فلم يَنْفَكَّ لسانُ زكريا إلا يومَ خِتان يحيى، أى اليومَ الثامنَ من مولده: "وفى اليوم الثامن جاءوا ليختنوا الصبى وسموه باسم أبيه زكريا. فأجابت أمه وقالت لا بل يسمى يوحنا . فقالوا لها ليس أحدٌ فى عشيرتك تَسَمَّى بهذا الاسم . ثم أومأوا إلى

---

(١) شاهدُك على هذا من القرآن قَولُه عز وجل : { **ثلاثَ ليالٍ سويا** } [مريم :١٠] يعنى لا تُكَلِّمُ فيهن الناسَ عجزاً عن الكلام ، وإن كنت فيهن أيضا " السَّوِى " بغير آفة ، حتى آفة الكِبَر .

أبيه ماذا يُريُد أن يُسَمّى . فطلب لوحاً وكتب قائلاً اسمُهُ يوحنا . فتعجَّب الجميع . وفي الحال انفتح فَمُه ولسانهُ وتكلمَ وبارَكَ الله" (لوقا ١/٥٩ ـــ ٦٣) . ولا يصح هذا لأن تَحقُّقُ البشرى يكفي فيه حدوثُ الحمل ، فلا معنى لإسكات زكريا من بعد حتى يُولَدَ يحيى ، إلا إذا قُلْتَ كما قال لوقا إن هذا الصمتَ الجَبْرِيَّ كان من الله عز وجل على وجه التأديب ، لا على وجه التبشير ، أو قلت مُجانباً الصواب ان زكريا ما كان ليؤمنَ بتحقق البشرى إلا أن تَضَعَ زوجتُهُ حملَها بالفعل ، غلاماً يَخْتِنُهُ ويُسَمِّيه .

ولكنك تستبقى من قول لوقا فى هذا الموضع من إنجيله جملةً على جانبٍ كبيرٍ من الخطورة وهى: "فقالوا لها ليس أحدٌ فى عشيرتك تسمى بهذا الاسم" ، يعنى "يوحنا" ومصداقه من القرآن : { **يازكريا إنا نبشرك بغلامٍ اسمُهُ يحيَى لم نجعل له من قبل سميا** } (مريم :٧) ، فتفهم ـ مسيحياً كنت أو مسلما ـ أن هذا الاسم المعطى لهذا المولود (يوحنا فى الإنجيل أو يحيى فى القرآن) اسمٌ قد جاء على غير سابقةٍ فى أعلام العبرانيين .

وإذا عَلمتَ أن الاسم "يوحنا" ـ وأصلُهُ العبرانيُّ " يوحَنان " ـ اسمٌ فَشَا فى أعلام اليهود قبل مولد يحيى عليه السلام بقرون ، عَجِبْتَ كيف يَعْجَبُ قومُ زكريا من هذا الاسم "يوحنا" وهو فاشٍ فى أعلامهم ، وقُلتَ جازماً مُصيباً غيرَ مُخطىء إن زكريا وزوجَهُ اليصابات لم يقولا فى تسمية ابنهما هذا الاسم "يوحنا" الذى عَجِبَ له سامعوه ، وما كان لهم أن يَعْجَبُوا ، وإنما قال زكريا واليصابات اسماً آخر أُمِرَ به زكريا فى المحراب لحظةَ البُشرى بيحيى واتَّفقَ عليه الزوجُ وزوجه منذ تحقق البشرى بحدوث الحمل وقبلَ مولد يحيى ، وأصَرّاً عليه فى مواجهة إنكارِ السامعينَ عليهما .

هذا يُفَسِّرُ لك لماذا قال القرآنُ "يحيى" التى يَعْجَبُ لها علماءُ المسيحية ، ولم يقل "يوحنا" ، رغم علمه القاطع بأن المسيحيين يقولون "يوحنا" ولا يقولون "يحيى" ، بدلالة نَصِّهِ على معنى "يوحنا " الذى لم يفْطِن إليه المفسرون .

(٥٣) يحيى

اخترنا عنوانا لهذا الفصل كما رأيت : " المصدِّقُ والبَشير " ، وهما أبرزُ أعلامِ هذا الفصل ، وأيضا أبرزُ أعلام المسيحيةِ أجمَع الذين نَختَتِمُ بهم هذا الكتاب .

أما " المصَدِّقُ " فهو يحيى عليه السلام ، المُصَدِّقُ بعيسى الذى هو كَلمَةٌ من الله ، لقوله عز وجل فى يحيى : { **فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أنَّ اللهَ يُبَشِّركَ بيحيى مُصَدِّقاً بكلمةٍ من اللهِ وسَيِّداً وحصوراً ونبياً من الصالحين** } (آل عمران ٣٩) .

وأما " البشيرُ " فهو المسيحُ بنُ مريم ، عيسى صلواتُ اللهِ عليه ، المبشِّرُ بخاتم النبيين ، لقوله عز وجل : { **وإذ قال عيسى بن مريم يابنى إسرائيل إنى رسولُ اللهِ إليكم مُصَدِّقاً لما بين يَدَىَّ من التوراة ومُبشِّراً برسولٍ يأتى من بعدى اسمُهُ أحمد ، فلما جاءهم بالبيناتِ قالوا هذا سِحْرٌ مبين** } (الصف : ٦) .

وفى الأناجيل التى بين يديك أن مريم عليها السلام حَمَلت بعيسى عُقَيْبَ حَمْل خالتها المعُجِز بيحيى ، فكان يحيى وعيسى ابْنَىْ خُؤولةٍ متعاصِرَيْن ، بُعثَ يحيى أولاً ثم أعْقَبَهُ عيسى ، فَشَهدَ كُلٌّ منهما للآخر بالنبوة ، يعنى كان يحيى مُصَدِّقاً بعيسى على نحو ما تقرأ فى القرآن . ولكنك لا تقرأ فى الأناجيل التى بين يديك بشارةً من المسيح باسم خاتم النبيين صريحا ، مُحَمَّداً أو أحمد ، وإنما تقرأ فى الأصول اليونانية لتلك الأناجيل أن المسيح بَشَّر بإنجيل الله (مرقس ١ / ١٤) Kerusson to euaggelion tou theou (لا بملكوت الله كما تقول الترجمة العربية فى نفس الموضع كما مر بك) . وأنت تعلم بالطبع أن euaggelion اليونانية (المُحَلاَّة فى النص اليونانى بالبادئة -eu ومعناها الخَيِرة) تُفيد معنى " الرسول " ، فتفهم كمسلم ـ على ما يأتى فى موضعه ـ أن " إنجيل الله " الذى بَشَّرَ به عيسى فى هذا

النص اليونانى euaggelion tou theou هو "رسولُ الله " الخِيرةَ ، أى صفوةُ الرسل وإمامُهم ، محمدُ بنُ عبد الله ، الذى خُتِمَت به النُّبُوَّة والرسالة ، صلوات الله وسلامُه على جميع رُسُلِه و أنبيائه ، وعلى كل من تَبِعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين .

ولكن الذى نتوقف عنده فى هذا السياق هو إعجازُ النبوءة التى تضمنتها البشرى بيحيى عليه السلام ولم يُولَد بعدُ عيسى ولم يُحْملْ به : إنها بشارةٌ صريحة لزكريا بمولد عيسى عليه السلام ، أسبق من بُشرى جبريلَ لمريم بمولده ، وأيضا إنباءٌ بأن محور رسالة يحيى هو التصديقُ بعيسى ، كالذى كان ، وسبحانَ علام الغيوب . ولا تفوتُك تلك الصياغةُ المُعْجزة التى فى قوله عز وجل " مُصَدِّقا بكلمةٍ من الله " ، فهو كَلمَةٌ منه سبحانه ، لا كَلمَةُ الله ، ولا " الكَلمة " على التعريف الذى يفيد الحصر ، كما يُخَطِىءُ فيها كثيرون ، مسلمون وغيرُ مسلمين ، عرب وغير عرب ، والفَرْقُ كما ترى بين المعنين جِدُّ كبير .

❑❑❑

تَجِيءُ "يَحْيَى" عربياً على مضارع المفرد المذكر الغائب من الجذر العربى "حَيَا" ، فمعنى الاسمِ " يحيى " الذى فى القرآن هو إذن ـ عربياً ـ " الذى يَحْيَى" .

وللجذر"حَيَا " العربى (ويُرْسَمُ أيضا "حَيَى / يَحْيَى" كما يرسم "حَيَا / يَحْيَا") معنيان : المعنى الأول من الحياة نقيض الموت ، تقول : لن أنسى لك هذا الصنيعَ ما حييت ! يعنى ما دُمتُ حياً لم أمت . والمعنى الثانى للجذر العربى "حيا" من الحياء بالهمزة ، أى الاحتشام . تقول بهذا المعنى الثانى : حييت منه، تريد استَحَيْتُ وخَجِلت. وأصلُهُ ـ أى الحياء ـ من الانقباض والانزواء ، ومنه قيل للأفعى حَيَّة ، لأنها تنقبض حين تستدير على نفسها كهيئة القرص .

والراجحُ عندى أن حَيَا حياءً لا حياة ، مُبْدَلٌ من الجذر العربى الآخر "حَوَى" بالواو ، الذى يقال منه : تحَوَّت الحيَّة ، أى تجمعت واستدارت ، فهى فى الأصل "حَوِيَّة" أبدلت "حَيَّة "

والذى يعنينا الآن هو : إذا كان الاسم "يحيى" فى القرآن من الجذر "حَيَا" فبأىٍّ المعنيين هو ، أبمعنى الحياءِ أم بمعنى الحياة ؟



نص القرآن على أن الاسم "يحيى" من الحياء، لا من الحياة ، بقوله عز وجل {**إنَّ الله يبشرك بيحيى مصدِّقا بكلمةٍ من الله وسيدا وحصوراً** } (آل عمران : ٣٩)، فهو عليه السلام الحَيِيُّ بمعنى الحصور، أى الحَيِيُّ الذى يحيا حياءً .

ولفظة الحصور فى اللغة لها وجهان : الذى يَكُفُّ نفسهُ عن شهوة النساء مع وجود القدرة ، والثانى هو المكفوفُ عن النساء بآفةٍ تقطعُ فيه هذه الشهوة . ويحيى بالمعنى الأول ، لا بالمعنى الثانى، لأنه الذى يَحْيَا ، والذى يحيا إنما يَحْيَا حياءً لا عجزا، والعَنينُ المجبوبُ لا يجدُ الشهوةَ أصلاً حتى يحيا ويَعفَّ . وما كان لنبىٍ أن تكون به آفة ، فما بالُكَ بآفةٍ يسميه اللهُ بها فضلاً وتشريفا، على ما مر بك من أن الله عز وجل هو الذى سَمَّى، على غيرِ سابقةٍ سُمِعَت فى أعلامِ العبرانيين: {**يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا** } (مريم : ٧) . بل قد تَقَدَّمَت على صفة "الحصور" فى يحيى صفةُ "السيد" ، فى قوله عز وجل {**وسيداً وحصورا** } (آل عمران : ٣٩} ، وما كانت الناسُ لتُسَوِّدَ عنيناً أو مجبوبا ، حاشا لأنبياء الله أن تكون . والذى قلناهُ الآن بمنطق اللغة فحسب ، أى أن الذى يَحْيَا إنما يَحْيَى حياءً ، كافٍ بذاته لقطع دابر إسفاف الرواة ـ الذى حكاهُ [١] عنهم القرطبى رحمه الله فى تفسيره الآية ٣٩ من سورة آل عمران ـ ولا عليك من إسفاف الرواة .

بل كان يحيى صِنْوَ عيسى عليهما السلام : كلاهما بُعِثَ فى رَيْعانِ الشباب وَرَيِّهِ وحُسَيْناه . ولم يلبثا فى قومهما إلا قليلا حتى قبضهما الله إليه ، لا زوجَ ولا أبناء ، فقد شُغلا بقصر الرسالة عن هذا وذاك . وربما قلتَ ان الله شاء برحمته ألا تكون لأيهما ذُرِّيةٌ يفتتنُ بها الناس ، أو كى لا يقال إن اللاهوت فى المسيح على قولِ من قال يَمْنَعُ من إتيان النساء ، فيقال له قد كان يحيى أيضا على هذا المثال ، أى كان يحيى وعيسى كلاهما حصورا ، لا يحيى وحده ، وهذا مقطوعٌ به عند المسيحيين جميعا بلا خلاف ، ودَعْك من تَخَرُّصِ المُجَّانِ بأقاصيصِ يحيى وسالومى ، وخوضهم فى المسيحِ والمجْدَلِيَّة ، فهذا من عورات هذه الحضارة ، التى تطاولت فاستباحت باسم "حرية القول" الاجتراء على مقام النبوة والنبيين .

---

(١) قالوا كان " إحليلُهُ " كالقَذاة ـ والإحليلُ مجرى البول يُكَنَّى به عن الفَرْجِ للرجل والمرأة ـ قاسوه على الناقة الحصور لا يَقْرَبُها الفحل لضيقِ إحليلها خِلقة . فأى خِفةٍ وأى إسفاف .

هذا هو اسم " يحيى " عليه السلام فى القرآن ، عربى ليس فيه شُبْهَةُ عُجْمة ، جاء بصورة مضارع المفرد الغائب المُرادِ منهُ اسمُ الفاعل كما جاءت يَثْرِب ويزيد ، فهو الحَيِيُّ حياءَ . وقد عجب علماء المسيحية لمجيء القرآن بهذا الاسم ، وهو عندهم "يوحنا" كما مر بك . ولكن " يُوحَنَّا " هذه نفسها أيضا مُنْكَرَةٌ عند آل زكريا أبى يحيى ، الذين راجعوه فى تسميته بالاسم يوحنا لأنه عندهم اسمٌ لم يَتَسَمَّ به من قبل أحد فى عشيرتهم كما يَروى لوقا فى إنجيله ، وقد مر بك . وقد عَجِبْتَ أنت أيضا لإنكارهم هذا الاسم " يُوحنا " ، رغم فُشُوِّه فى أعلام العبرانيين بصورة أخرى هى "يُوحَنَان" . وعلماء المسيحية يقولون لك ان " يُوحَنَّا " هى نفسها " يُوحَنان " ، دليلُك فى هذا أنهم فى ترجماتهم الأناجيل إلى العبرية لا يقولون قط " يُوحَنَّا " ، وإنما يقولونها على أصلها العبرى " يُوحَنَان " . وهم أيضا يفسرون معنى "يوحنا " بنفس معنى "يوحنان" ، البادئة المشتركة فيهما "يو" مختصر "يهوا" اسم الله فى العبرية ، أما "حنان" و "حَنَّا " فهما كلتاهما مصدرٌ من الجذر العبرى ـ الآرامى " حَنَنْ " (نفس الجذر العربى " حَنَّ ") والمعنى أنه " حَنانٌ من الله " ، تماما كالعلم العبرى الآخر "حَنَانيا" ، أى هو يُو + حَنَان ، قُدِّمَ فيه اسم الله عز وجل على التعظيم .

تُرَى أكان عَجَبُ آل زكريا لهذا الاسم " يُوحَنَّا " لأنهم لم يدركوا أن "حَنَّا" معناها "حنان" ؟ كيف ، وعندهم " حَنَّا " بمعنى " حَنَان " (وتُرْسَمُ أيضا فى الترجمات العربية "حَنَّة") اسم خالة يحيى أم مريم عليها السلام ؟

لا منطق فى هذا القول بالطبع . وإنما كان عَجَبُ آلِ زكريا من هذا الاسم "يوحَنَّا" حين أَمْلَتْهُ عليهم اليصابات أُمُّ يحيى ، أنهم سَمِعُوهُ منها بنُطق مُغاير لم يَطْرُق آذانهم من قبل : سَمِعُوهُ "يُوحَنَّى" بالكسر فى الياء على الإمالة ، لا بالفتح ، تماما كما أثبتها بالكسر فى الياء كَتَبَةُ الأناجيل فى الأصل اليونانى Ioannes يُوَنِّس ، لا Ioannas يُوَنَّس (السين فى الحالتين هى سين الرفع اليونانية) . ولا يصح لك العدول عن هذا النطق الإنجيلى الأصلى فى لغته الأصلية ، فهو العُمْدَةُ فى هذا الباب ـ أعنى الأسماء الأعلام بالذات ، فهم رُواةُ المسيحية الأوائل ، سَمِعُوا أو عايَنُوا ، بل قد كان منهم ـ لا سيما مَتَّى الحَوارِى ومرقس تلميذُ بطرس رئيس الحواريين ـ من عاصَرُوا يحيى عليه السلام وسَمِعُوا منه ونادَوْه . نعم ، قد ذَهَبت حاءُ " يُوحَنَّى " فى الرسم اليونانى ، لأن اليونان لا يستطيعون الحاء ، ولكن ما العلة فى عُدولهم عن المد بالألف إلى الإمالة

بالكسر ، وقد قالوا فى يونس Ionas ولم يقولوا Iones ؟ لا عِلةَ بالطبع إلا أنهم سَمِعُوهُ هكذا : يُوحَنِّى لا يُوحَنَّا .

أما الذى نتوقف عنده لنُسَبِّحَ معاً العليمَ الخبير القائل بكل اللغات ، فهو أن "يُوحَنِّى" هذه (التى تستطيع أن ترسمها أيضا " يُحَنِّى ") بالكسر على الإمالة فى آخره لا بالفتح ، تُفيد فى العبرية ـ الآرامية معنى " اللهُ أَحْصَرَ " فهو الحصورُ التى فى القرآن !

□□□

فى عبرية التوراة ، وفى العبرية المعاصرة ، وفى الآرامية أيضا ، الجذر "حَنَا" غيرُ مُشَدَّدِ النون ، تقول منه عبريا وآراميا على سبيل المثال : "حَنَا عَلْ عير" ("عير" يعنى المدينة)، أى ضَرَبَ عليها الحصار . فهو بمعنى حَصَرَهُ وصَرَّاهُ وضَيَّقَ عليه [(١)].

والمُشَدَّدُ من هذا (أى زِنَةَ فَعَّلَ العربى) هو" حَنِيٌّ " بكسر الحاء فى العبرية وبفتحها فى اللهجة الآرامية [(٢)] التى غَلَبت على ألسنة الناس فى ربوع فلسطين منذ ما قبل عصر المسيح بثلاثة قرون على الأقل . والمعْنَى هو " شَدَّدَ الحصر عليه " .

على هذا يكون معنى "يوُ + حَنِّى" (بإضافة "يو" مُختصر اسم الله عز وجل فى العبرية) هو" اللهُ أَحْصَرَ " بمعنى " الذى أَحْصَرَهُ الله " ، فهو الحَصُور التى فى القرآن .

والذى يَدُلكَ على أن " يوحنا " لا تصح عبريا بمعنى "يوحنان" الاسم العَلَم الفاشى فى أعلام العبرانيين ، أن علماء العبرية المسيحيين لم يستجيزوا "يُوحَنَّا" فى موضع "يوحنان" عندما ترجموا الأناجيل اليونانية الأصل إلى العبرية ، بل رفعوا "يُوحَنَّا" ووضعوا فى موضعه "يوحنان " . أعنى أنهم فهموا " يوحنا " بمعنى "يوحنان" فترجموا "يُوحَنَّا" إلى "يوحنان" عبرياً بعبرى ، فهم قد قَرَءوها فى النص اليونانى "يُوحَنِّى" ، فاستشكلَ عليهمُ المَعْنَى كما استشكل من قبل على آل زكريا يوم أَمْلَتْهُ عليهم اليصابات على الحرف الذى سَمِعَهُ زكريا من الملائكة فى المحراب ، فَقَرَّبُوه إلى

(١) راجع هذا على المعجم " هَمِلُّون هِحَداش لَتَناخ " عبرى/ عبرى ، مادة " حَنَا " .

(٢) راجع هذا الوجه فى المعجم العبرى الآرامى لألفاظ التوراة ، المرجع المذكور ، شروح على تصاريف الأفعال ، فى صدر الكتاب ، ص ٢١ .

"يوُحَنَّا" وترجموا "يوُحَنَّا" إلى يوحنان ، العَلَمِ العبرانِّى المألوفِ لهم ، تماما كما فعل السريان فى أناجيلهم التى ترجموها كما تعلم عن اليونانية مباشرة ، ولكن المنطق السريانى يستسيغ " يُوحَنَّا " لختامها بألف المد ، التى تبدو كأنها أداةُ التعريف الآرامية كما مر بك ، فأخذوها على أنها تَرخيم "يوُ + حَنانَ + ا" ، تؤول إلى "يُوحَنَنَا" فإلى "يُوحَنَّا" .

ولعلك تجد معنى الحصور الذى أحصره الله فى قول المسيح عليه السلام : "فقال لهم ليس الجميع يقبلون هذا الكلام بل الذين أُعْطِىَ لهم . لأنه يوجد خِصيانٌ وُلِدوا هكذا من بطون أمهاتهم . ويوجد خصيانٌ خَصاهم الناس . ويوجد خِصيانٌ خَصَوْا أنفسَهُم لأجل ملكوت السموات. من استطاع أن يَقْبَلَ فلْيَقْبلَ" (متى ١٩/١١ ـ١٢) وهذا من معنى "يُوحَنِّى" أى يحيى عليه السلام جِدْ قريب ، ولكن لم يلتفت إليه فى تفسيرِ مَعْنَى هذا الاسم أحد .

□□□

ولكن القرآن المعجز الذى عَلِمَ هذا كُلَّه من قبل ، جاء بالاسم "يَحْيَى" على الترجمة لمعنى الحصور الذى فى "يوُحَنِّى" التى فى الأناجيل اليونانية . ولم يَفُتْهُ أيضا معنى الاسم الشائع عند معاصريه : يوُحَنا = يُوحَنان = حَنَانٌ من الله . فقال عز وجل : { **يا يَحيى خُذِ الكتابَ بقوة ، وآتيناهُ الحُكْمَ صبيا . وحنانا من لدُنا وزكاةً ، وكان تَقِيا** } (مريم : ١٢ ـــ١٣) وقد فاتت على مفسرى القرآن "حنانًا من لدنا" هذه التى هى طبق الأصل من "يوحنان" المبدلة من "يوُحَنا" ، فقد رَوَى القرطبى فى تفسيره للآية ١٣ من سورة مريم عن ابن عباس رضى الله عنه قوله : "لا أدرى ما الحنان" ، يعنى لا يدرى موْضِعَها ووجهَ دُخولها فى الآية ، أما أنت فلا أحسب أنها تفوتك الآن ، بل ولا أظنّها تفوتك أيضا عبارةُ " وكان تقيا " فى الآية ، وهى من معنى يَحْيَى الحَيِىِّ الحَصُورِ قريب . وسبحان العليم الحكيم .

(٥٤) عمــران

"عمرانُ " المَعْنِيُّ فى القرآن هو والدُ مريم أم عيسى ، يعنى جَدُّ المسيحِ صلواتُ الله عليه . ولكن الأناجيل التى بين يديك لاتَنُصُّ على اسم أبى مريم . والمشهور أنه مات قبل مولدها عليها السلام ، فلم يشهد ولادتها ولم يُسَمِّها ، بل سَمَّتْها والدتُها كما تقرأ فى القرآن ، ولكن الله عز وجل { **كَفَّلَها زكريا** } (آل عمران : ٣٦ ـــ ٣٧) ، وزكريا هو أبو يحيى ، زوج اليصابات ، خالة مريم .

ولأن الأناجيل لم تحفظ لك اسم أبى مريم ، لا تقول عمران ، ولا تقول أيضا باسم له غير عمران ، فقد عَجِبَ أدعياءُ الاستشراق المنكرون الوحى على القرآن لقوله : { **ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدَّقت بكلمات ربِّها وكُتُبه وكانت من القانتين** } (التحريم : ١٢) . فمن أين جاء القرآنُ باسم أبى مريم ولم تُسَمِّه الأناجيل ؟ لابُد قد شُبِّهَ لَهُ ولُبِّسَ عليه ! لأن القرآن عند هؤلاء الأدعياء ليس متهماً بالنقل عن أهل الكتاب فحسب ولكنه أيضا ـ كَبُرَت كلمةً تخرج من أفواههم ـ مُتَّهَمٌ على الأخص بالخلطِ والتخليط : قد عَلِمَ محمدٌ (صلى الله عليه وسلم) باسم عِمران أبى موسى وهرون فى التوراة (واسمه عَمْرام فى النص العبرانى) فأسقط اسم عمران أبى موسى على أبى مريم ، التى خَلَط من قبلُ بينها وبين " مِرْيام " ابنة عمران ، أخت موسى وهرون ، فقال على لسان قوم مريم أم عيسى عليهما السلام : { **يا أخت هرون !** } (مريم : ٢٨) يَحْسَبُها أختاً لموسى وهرون ابنَىْ عِمْران (عَمْرام فى النص العبرانى) وبين موسى وعيسى ثلاثة عشر قرناً على الأقل. ولا يليقُ هذا بمستشرقين " عُلماء " يُظَنُّ بهمُ العلمُ وتفترَضُ فيهم نزاهةُ البحث فيتتلمذُ عليهم الناس ، ناهيك بمن اتخذوهم أئمة مطلعَ القرن العشرين فى مصر بالذات .

فقد مر بك من قول لوقا فى إنجيله ، يَصِفُ اليصابات زوجَ زكريا أبى يحيى : "وامرأته من بنات هرون واسمها اليصابات" (لوقا ١/٥) ، ولم يَقُلْ أحدٌ بالطبع أن اليصابات زوجُ زكريا أبى يحيى ـ التى يفصل بين حملها بيحيى وبين حمل مريم

بعيسى ستة أشهر فقط كما سطَّرَ لوقا فى إنجيله (لوقا ١/٢٦ ـ ٣٦) ـ كانت ابنةً لهرونَ أخى موسى ابنَىْ عمران ، لقول لوقا إن اليصابات كانت من" بنات هارون" ، وإنما فَهِمَ أهلُ الإنجيل على الفور من عبارة لوقا " بنات هرون " هذا الذى استغلظ على أدعياء العلم فَهْمُه من عبارة القرآن " أخت هرون" : فهم يقرءون فى سفر الخروج بالعهد القديم أن الكهانة جُعِلَت ميراثا فى سِبْط هرون أخى موسى ، حتى صارت الهارونية عَلَماً على السالكين فى سِلْكِ هرون أصحاب الكهانةِ والسِّدانة .

ولا تستطيع أن تقول ان أدعياء الاستشراق المنكرين على القرآن قوله "أخت هرون" جهلوا هذا ، فهم إما يهودٌ وإما نصارى وإما مُلحدونَ وُلِدُوا فى إحدى هاتين الملتين ، وإنما تقولُ جازماً مصيباً غيرَ مخطىء ، أنهم دَلَّسوا عليك ، فَدَلَّسُوا على أنفسهم . وتلك من العالِمِ بالذات زَلَّة لا تُغتفر ، لأنها تَمْنَعُكَ من التتلمذِ عليه وأخذِ العلمِ عنه .

وقد كان أدعياءُ الاستشراق هؤلاء كُلُّهم هذا العالِمَ المُدَلِّس، كلما خاضوا فى القرآن بقول أو أرادوا سوءاً بأهله . وكانوا يظنون أن عبثهم هذا بمنجاةٍ أن يُفْتَضح ، فقد جمعوا بين ضِغنهم القديم على القرآن وبين الاستهانة بأهله ، لا يَرَوْنَهم أهلا لحجاجهم أو تحقيق مقولتهم ، ولكن الله عز وجل يُقَيِّضُ لهذا القرآن إلى يوم القيامة من أهلِهِ فى كُلِّ قرنٍ من يَذُبُّ عنه ، له الفضلُ والمنُ ، والحمدُ للهِ وحدَه .

وقد كان عُذر التلاميذ الذين افتتنوا بهؤلاء " الأساتذة " مطلعَ هذا القرن هو ضخامةَ الجُهد الذى بذلهُ هؤلاء المستشرقون فى أبحاثهم ، إنْ أنكرتَ بعضَه فلا تَمْلُك إلا أن تُجِلَّ بعضَه ، فأصابت التلاميذَ الفُسولة ، وقَعَدت بهم هِمَّتُهم عن تتبع مقولة المستشرقين فى مصادرهم . فلما شَبَّ التلاميذ عن الطوْق ، واستقلوا بأبحاثهم ، كان الوقتُ قد فات ، فقد ترسخت مقولةُ الاستشراق وتَحَصَّنت بما يُشبهُ القداسة . وربما عَزَّ على الأشياخ فى مجتمعكَ من بعد أن يراجعوا أنفسهم فيما نقلوه من قبل عن هؤلاء المستشرقين وكتبوه ، بل وطنطنوا بهِ فى صدر الشباب وزَهْوِهِ ، وشِرَّته . بل لا تزال فى مجتمعك بذرةٌ من هؤلاء التلاميذ ، ورثوا تعظيمَ الاستشراق ، يحاجُون عنه فى الغث والسمين ويلتمسون لأهله العلة ، ويدفعون عنهم ظنَّ السوءِ والتُّهْمة . وربما عَز على هؤلاء ما نقولُهُ الآن ، وأبَوا عليك اتهامَ المستشرقين المنكرين على القرآن قولهُ فى مريم

أم عيسى " أختَ هرون " [1] ، بالتدليس . ولكنك ما أن تُعْفى من تُهمة التدليس هذا المستشرق وأضرابَه الذى أنكروا على مريم أم عيسى " أُخُوةَ هرون " ، حتى تُضطر اضطراراً إلى اتهامه هو وإخوته بالجهل الفاضح ، لأنه لم يفهم معنى "أُخُوَّةِ هرون" عند أهل التوراة الذين ينقل القرآنُ مقولتهم لمريم عليها السلام أم المسيح صلواتُ الله عليه. والجهلُ أهونُ من تعمد التدليسِ ، ولكن الجهلَ من عالمٍ أو مُدَّعى علمٍ يَصْرِفُكَ عن التتلمذ عليه ، أو الاعتداد بمقولته ، إلا أن تُراجعَهُ فيها ، فَتَرُدَّهُ إلى جادَّةِ الصواب إنْ أخطأ وتَقْبَلَ منه إن أصاب . ولكنك لا تأخذ من هذا العالِم أو مُدَّعِى العلم شيئاً قط يقولُهُ فى القرآن ، الذى يُحاجُّ القرآن بالتوراةِ والإنجيل ، ولا يَعْلَمُ عِلْمَ ما فى التوراة والإنجيل .

بل لا يَعْلَمُ هذا المُدَّعِى العِلْم عِلْمَ ما فى القرآن الذى تَصَدَّى لحجاجه ، وإنما هم يأخذون منه نتَفَاً من هنا أو هناك كيفما اتفق ، ولو قرءوا القرآنَ كما تَجِبُ قراءةُ القرآنِ لخجلوا من أنفسهم كيف ادَّعَوْا عليه الجهلَ ببُعْدِ ما بين موسى وعيسى عليهما السلام حتى يَخْلطَ ما بين مريمَ ابنةِ عمرانَ أم عيسى وبين "مرْيام" ابنه عمران أختِ موسى وهرون، وهو يَعْلَمُ أنَّ رسولَ المسيحية جاء بالإنجيل بعد ما جاء موسى بالتوراة، فكيف يتعاصران. بل كيف يتعاصران وبينهما جَمٌّ غفيرٌ من الرسل: {**ولقد آتينا موسى الكتاب وقَفَّيْنا من بعده بالرسل ، وآتينا عيسى بن مريم البيناتِ وأيدناهُ بروح القدس أفكلما جاءكم رسولٌ بما لاتَهْوَى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذَّبتم وفريقا تقتلون**} (البقرة : ٨٧) وقولُهُ عز وجل فى عيسى آخرِ رسلِ اللهِ إلى بنى إسرائيل: {**ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوةَ والكتاب فمنهم مهتدٍ وكثيرٌ منهم فاسقون. ثم قَفَّيْنا على آثارهم برسلنا، وقَفَّينا بعيسى بن مريم**} (الحديد : ٢٦ ـــ ٢٧) أى قَفَّينا بعيسى بن مريم ختاماً لجميع أنبياءِ بنى إسرائيل، فكيف يكون موسى هو خالَه؟

الذى يبلغ من فقهه بديانة اليهود أن يَعْلَمَ معنى "أخت هرون" ومدلولها فى مصطلحات اليهود ومُواضَعاتِهم، لا تستكثر على واسعِ علمه أن يُعَلِّمَكَ من قد كان أبو مريم أم عيسى عليهما السلام ، عمرانُ غيرُ المذكورِ بالاسمِ فى الأناجيل. قد قالها القرآنُ " عمران " ولم يَقُلْها غيرُه ، عالمُ الغيبِ والشهادة ، أَبْصِرْ بِهِ وأَسْمِع .

---

(١) راجع قولَ المُنكرين أُخوةَ هرونَ وأُبُوَّةَ عمران على سبيل المثال فى J. Horovitz المرجع المذكور، ص ١٠، ١٥.

ليس أمام المنكرينَ أُبُوَّةَ عمران لمريم عليها السلام أمْ المسيح صلواتُ اللهِ عليه ، إلا أن يأخذوا من القرآن اسم أبى مريم ، فلا مَصْدَرَ أمامَهُم فى هذا غيرُ القرآن ، والقرآنُ لو عَلموا مَصْدَر أىُّ مَصْدَر . أو يأتوا لعمران جد عيسى عليه السلام باسم آخر، مُحَرَّراً مُوثَّقا . وإلا فليصمتوا هم والمنكرون أخُوَّة هرون على مريم بعد نشر هذا الكتاب ، صمتاً طويلا .

❑❑❑

من بين ما يستوقفُكَ فى القرآن ـ والذى يستوقفُكَ فى القرآنِ كثير ـ أنَّهُ لايجيءُ قط باسم نبيٍ من الأنبياء على النسبِ لأبيه ، كأن يقول مثلا : موسى بن عمران ، وإنما يقول موسى فقط ، أو هوداً فحسب ، لا يَنْسِبُ هذا أو ذاك ، لأن النبىَّ أشهرُ من أن يُعْرَفَ بأبيه ، ولأن القرآن لا يهتمُّ أصلاً للنسب ، خلافا لما تقرأ فى العهد القديم ، إلا أن تعلم من القرآن اسم الأب فى سياق حديثٍ الابنُ فيه نَبِىٌّ صِنْو أبيه ، كما فى داود و سليمان ، وكما فى إبراهيم وبنيه ، إلا أن يريدَ القرآنُ الإدلال بعلمه وإعجازه ، فيسمى لك " آزر " أبا إبراهيم : {**وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر**} (الأنعام: ٧٤) ، وما كان أغناهُ عن " آزرَ " هذه ، ولو أسقطَها من سياق الآية لجاز ، ولما اختلَّ وزنٌ أو نَظْم ، ولكنه أراد منها إعلامَ أهل الكتاب ما لم يَعْلَمُوْه ، أو يُفَسِّرُ لهم بها معنى " تارح " اسم أبى إبراهيم فى سفر التكوين . ومن هذا أيضا قوله : {**ومريمُ ابنة عمران** } (التحريم : ١٢) ، لا يريد منها إلا الإدلال بعلمه وإعجازه ، يُسَمِّى لهم بها أبا مريم ـ جَدَّ عيسى عليه السلام ـ غيرَ المذكور بالاسم فى الأناجيل .
أما المسيحُ عليه السلام فهو استثناءٌ وحيدٌ من كل هذا الذى قلناه : قلما يجيء به القرآن إلا منسوباً إلى والدته "أمة الرب" مريمَ الصديقة "أخت هرون" ، الهارونية ، أى السالكةِ فى سِبْطِ هرون ، الكهنة سَدَنة هيكلِ الرب ، فلا يَنْفَكُّ القرآن يقول : عيسى ابن مريم ، حتى فى خطابِ اللهِ عز وجل إياه : { **وإذ قال اللهُ يا عيسى بنَ مريم** } (المائدة : ١١٦) . وما ذاك إلاّ على التشريفِ لمريمَ عليها السلام ، التى صدَّقت بكلماتِ ربِّها يومَ نفخ فيها جبريل ، وإذكاراً بإعجازِ مولدِ عيسى : أنه ابنُ مريمَ فحسب ، لا أبَ لَهُ سِواها ولا أم .

والذى أريد أن أصل بك إليه هو أن القرآن لا يَدُلُّكَ على اسم أبى موسى وهرون، المدعُوِّ "عَمْرام" فى النص العبرانى لأسفار التوراة ، فلا تقطع من القرآن بلفظ هذا الاسم لو عَرَّبَهُ القرآن ، أيجىء على أصلهِ العبرى فى التوراة "عَمْرام" ، أم يصير إلى "عمْران" فيكون سَمِيًّا لجد عيسى عليه السلام فى القرآن؟ لاسبيلَ إلى هذا بالطبع من القرآن لأنه لم يُسَمِّ أبا موسى وهرون .

ولكنك لا تتلبثُ طويلا عند هذا ، فقد قرأتَ من حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم تسميةَ أبى موسى وهرون : "وأيْمُ اللهِ لو سَمِعَ بى موسى بنُ عمران لما وَسِعَهُ إلا اتباعى !" فتوقن أن الإسمين واحد ، عِمران التى فى هذا الحديث ، وعمرام التى فى التوراة .

وإذا كان الأمرُ كذلك ، وهو كذلك بالفعل ، فهل جاءت "عِمْران" على ألسنة العرب تعريباً للاسم العبرانى "عَمْرام" ، أعنى أن "عَمْرام" هى الأصل الذى جاءت منه عِمْران، أم العكس ، أى أن "عِمران" هى الأصل الذى تَحَوَّرَ على ألسنة العبرانيين إلى عَمْرام ؟

إذا كانت عمْران هى الأصل فهذا يعنى أن عِمْران التى فى القرآن عربية ، تُفَسَّرُ بالعربية وحدها . أما إذا كانت عَمْرام اسم أبى موسى فى التوراة هى الأصل فهذا يعنى أَحَدَ أمرين : إما أن عمْران التى فى القرآن عربيةُ أيضا يُتَرْجِمُ بها القرآنُ عَمْرام التى فى التوراة ومن ثم تُفَسَّرُ أيضا بالعربية وحدها ، وإما أن عِمْران التى فى القرآن ليست عربية وإنما هى تعريبُ لفظىٌّ لصِنْوِها فى التوراة " عَمْرام " فلا يتسنى تفسيرُ عمْران التى فى القرآن إلا بفهم صِنْوِها العبرى "عَمْرام" .

ولأن عمران جدُّ عيسى عليه السلام فى القرآن رَجُلٌ من بنى إسرائيل ، بل هو من سبط لاوى بالذات ، سبط موسى وهرون ابنَىْ عَمْرام الذى فى التوراة ، فأنت تقطعُ بأن اسمه كان يُلْفَظُ بين أهلهِ وعشيرته عَمْرام ، لا عمران التى جاءت فى القرآن إما على الترجمة وإما على التعريب . لهذا يتعين استقصاءُ وجوهِ معنى عمران العربية قبل الانتقال إلى فهمِ معنى عَمْرام ، اسم أبى موسى وهرون ، عند علماءِ العبريةِ وعلماءِ التوراة .

□□□

وردت "عمران" فى القرآن ثلاثَ مرات فحسب ، كُلُها فى جَدٍّ عيسى عليه السلام ، لا فى أبى موسى وهرون . وهى فى المرات الثلاث لم تَأت قط منفردة وإنما على الإضافة فحسب : "آل عمـران" ، "امرأة عمران" ، "ابنة عمران" . تجد هذا فى قوله عز وجل : { **إن الله اصطفى آدمَ ونوحاً وآل إبـراهيم وآل عِمْران على العالمين . ذُرِّيـةً بعضُهـا من بعض واللهُ سميعٌ عليـم** } (آل عمران : ٣٣ ـ ٣٤)، سميعٌ لدعوة إبراهيم فى إمامة الناسِ من بعده ، عليمٌ بالصالحِ من ذرية إبراهيم لهذه الإمامة . وقوله عز وجل : { **إذ قالت امرأةُ عِمْران رب إنِّى نذرتُ لك ما فى بطنى مُحَرَّراً فتقبل منى إنك أنت السميعُ العليم** } (آل عمران : ٣٥) ، أى نَذَرْتُ ما فى بطنى لخدمة الرب ، خالصاً لهذه العبادة ، فتقبل منى النَّذْرَ الذى تَعْلَمُ إخلاصى فيه ، فأنت السميعُ لما أعْلَنْتُ ، العليم بما أسرَرْت . وقولُه عز وجل يُزكِّى مريمَ عليها السلام مع امرأة فرعونَ مثلاً للذين آمنوا: { **ومريمَ ابنةَ عِمْران التى أحصنَت فرْجَها فنفخنا فيه من روُحِنا وصَدَّقت بكلمات ربِّها وكُتُبِه وكانت من القانتين** } (التحريم : ١٢) .

ولقد قال مفسرو القرآن (راجع تفسير القرطبى للآيه ٣٣ من سورة آل عمران) ، إن "عِمْران" عربية ، مُنِعَت من الصرف فقط لزيادتها بالألف والنون ، فهى من الجذر العربى "عَمَرَ" الذى تعددت أعلامُ العرب منه : عَمْرو (وأصلها "عَمْر" زيدت بالواو فى الرسم لا فى اللفظ فارِقاً بينها وبين "عُمَر") ، عُمَر (وهى زِنَةُ مبالغةٍ من "عامر") ، عامر ، عمارة ، عمير ، وأيضا " عِمْران " هذه نفسها التى سُمِعَت فى أعلام العرب قبل القرآن . وفى العربية أيضا الاسم العلم "عَـمَّار" (ومنهَ عَمَّار بن ياسر رضى الله عنه وعن الصحابة أجمعين) .

ولكن مفسرى القرآن ـ ترتيباً على عربية "عمران" ـ لا يفسرون لك معنى هذا الاسم العَلَم فى العربية ، شَأنَهم فى كل علمٍ عربىٍ ورَدَ فى القرآن ، لأنهم يفترضون فيك العلمَ بمعناه ، تستخلصُهُ من كافة معانى مادة ع / م / ر العربية ، تنتقى منها الوجهَ الذى تَشاءُ فى تفسيرِ الاسم "عِمْران" جد عيسى صلوات الله عليه. ربما قلتُ إنه من " العُمْر" بمعنى مدة الحياة ، وربما قلت إنه من العُمران ضد الخراب ، أو من المأهولِ نقيض القَفْر ، إلى آخر ما تعلم من وجوه معانى هذه المادة العربية "عَمَر" . ولكنك ـ وقد عَلِمْتَ أن عِمْران التى فى القرآن هى كُفءُ عَمْرام التى فى التوراة ـ لا تستطيع أن

تأخذ من "عَمَرَ" العربية فى تفسير عمران التى فى القرآن إلا بمعنى واحدٍ فقط ، هو المعنى الذى يشترك فيه هذا الجذرُ العربى مع صِنْوِهِ من نفس مادته فى العبرية أى الجذر العبرانى "عَمَرْ" ، وإلا امتنعَ عليك مقابلةُ عِمْرَان بعَمْرَام .

□□□

هذا المعنى الوحيدُ الذى يلتقى فيه " عَمَرَ " العربى بصنوه العبرانى "عَمَرْ" هو معنىً واحد، لسببٍ بسيط وهو أن "عَمَرْ" العبرانى ليس له إلا معنىً واحد ، وهو "السدانة" والسادِن هو خادِمُكَ الذى يُلازِمُك، استعُيرَت لخدمة المسجد أو المعبد خاصة.

أما أن "عَمَرَ" العربية تجىء بهذا المعنى، فحسبُكَ قولُ الله عز وجل فى نَعْيِه على مشركى قريش اعتدادهم ـ على كُفْرِهم ـ بسقاية الحاجِّ وعمارة المسجد الحرام : {**أجعلتم سِقاية الحاجِّ وعمارة المسجد الحرام كمن آمن باللةِ واليومِ الآخر وجاهدَ فى سبيلِ الله ؟ لايستوون عند الله ، واللهُ لا يهدى القومَ الظالمين** } (التوبة : ١٩) ، بعد أن مَهَّدَ لها بقوله عز وجل : { **ما كان للمشركين أن يَعْمُروا مساجدَ اللهِ شاهِدِينَ على أنفسهم بالكفر ، أولئك حَبِطَت أعمالُهم وفى النار هم خالدون . إنما يعْمُرُ مساجدَ الله من آمن باللهَ واليومِ الآخر وأقام الصلاةَ وآتى الزكاةَ ولم يَخْش إلا الله ، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين** } (التوبة :١٧ ـــ ١٨) . أى لا تَصِحُّ عِمارةُ المسجد إلا لمؤمن بالله واليومِ الآخر ، مُتَعَبِّدٍ فيه بما تَعَبَّدَهُ به الله ، لا يخشى غيرَه ، لا لمشركٍ مُكَذِّبٍ باليوم الآخر ، يشهدُ على نفسه بالكفر إذ يَتَعَبَّدُ فى الكعبةِ وما حولَها لغيرِ اللهِ عز وجل وهو يَدَّعى سدانةَ بيته . وقد تَفاوتَ قولُ المفسرين الذى حكاه القرطبى رحمه الله فى تفسيره لهذه الآيات الثلاث حول معنى عمارة المسجد : اقتربوا ولم يَسْتَوْفُوا . لم يفتخر كفار قريشٍ بأنهم يَؤُمُّون المسجد الحرامَ للعبادة فيه كما تَفْهَمُ أنت اليوم من " عُمَّارِ المساجد" الملازمين الصلاةَ فيها . وليست العمارةُ هى إعمارُ المسجد أى كونهُ عامراً بهم . وليست هى فحسب مُعاهَدَةَ المسجد والقيامَ بمصالحه ، أو تَعَهُّدَهُ بالتنظيف والإصلاح والصيانة . هذا كلامٌ مُطَوَّلٌ يجمعُهُ قولُك : " السِّدانة " ، وهى بالذات التى تَبَاهَى بها كفارُ قريش . والسادِنُ كما مر بك هو

فى الأصل خَادمُكَ الذى يُلازمُك ، أو هو حاجبُكَ الآذن كما فى معجمك العربى . والمعنى الباقى فى "عَمَرْ" العبرانى هو هذا نفسُه : "عُمير" العبرى (بالإمالة فى الياء) يعنى "الخادَم" ، جاءت منه عبريةُ التوراة بالاسم العلم " عُمْرى" ، مَلكٌ من ملوك بنى إسرائيل ، وأصله "عُمْرِيًّا" يعنى "خادمُ الله" ، أى خادمُ بيته ، فهو السادن . وعُمير العبرى هى اسمُ الفاعل عبرياً من "عَمَرْ" العبرى ، فهى مكافىء "عامر" العربى . ولئن كانت عبريةُ التوراة (والعبريةُ المعاصرةُ أيضا) قد أماتتا " عَمَرْ " العبرى فى ثُلاثيِّه المجرد ، فقد استَبْقَتاهُ كلتاهما فى صيغة " هتْفَعِّل " (نظيرة تَفَعلَّهُ واستفعلهُ العربية) فتقولان " هتْعَمِّر" تعنيان تَعَبَّدَهُ وتَخَدَّمَهُ وتَمَهَّنَهُ ، فتقطع بأن "عَمَرْ" العبرى كان معناهُ فى ثُلاثِيِّه المُمات : خَدَمَ و عَبَدَ ، وأن الاسم منه هو الخادِمُ العابد . لا معنى له غيرُ هذا من مختلف معانى " عَمَرَ " العربى .

" عَمْرام " العبرية ، اسم أبى موسى وهرون فى التوراة من هذا لا من غيره - مع الاعتذار الواجب لعلماء العبرية وعلماء التوراة الذين ليسوا على هذا الرأى .

عَمْرام العبرية على القول الذى به نقول هى نفسُها عِمران العربية جذراً ومعنى: السَّادِن ، خَادَمُ المسجدِ أو المعبد .

□□□

وربما قلتَ : فكيف يجىءُ معنى السَدانة والخدامة من الجذر العربى "عَمَر" وهو فى أصل معناه البقاء والحياة ؟ وأقول لك إن العكس هو الصحيح : الأصلُ البعيد وراء كل معانى الجذر العربى "عَمَر" هو المُلازمة ، التى تفسر كُلَّ ما تَفَرع عنهُ من معان : المُكث الذى جاء منه العُمر بمعنى مدة الحياة ، والسُّكنىَ التى تجىءُ منها عمارة المكان ، والتَّعَهُّدُ الذى تجىء منه عِمارة المال وتعميره ، والقُبوع الذى يجىء منه اسم لِباس الرأس مثل " العمارة " بمعنى " العمامة " ، إلى آخر ما تعلم .

أما الذى قد لا تعلمه لِنُدْرَته فهو أنَّهُ من مادة "عَمَر" العربية هذه تجىء فى العربية لفظة "العَمْر" بمعنى الدِّين والمِلَّة ، ومن هذه يجىء الاسم " عَمَّار " بمعنى الكثير الصلاة والصوم ، يعنى المُلازِم العبادة ، فيكون العامر بمعنى العابد .

ومن هذه المُلاَزَمَة استبقت العبريةُ " عُومِر " العبرانية [1] بمعنى الحُزمة والربطة كما استبقت أيضا الفعل المضعَّف العبرى " عِمِّر " بمعنى حَزَم .

❑❑❑

أما علماءُ العبرية وعلماء التوراة فهم يقولون أن " عَمْرام " ليست لفظةً وحيدةِ الجذر، لا من "عَمَرْ" ولا من غيره ، وإنما هى اسمُ مزجى مركب من شقَّينْ : عَمْ + رام ، "عَمْ" بمعنى الشعب أو الأُمَة ، " رام " بمعنى علا أو تَعَالىَ (فعلٌ ماضٍ) أو هى اسم الفاعل منه أى عَلِىٌّ أو مُتعالٍ .

من هنا فهم فريقٌ منهم هذا الاسم على معنى الفاعل وفِعْلِه ، فقالوا إن معناه هو "الشعبُ عَلاَ" أو "تعالى الشعْب" [2] .

أما الفريقُ الآخر فقد فَهِمَ الاسم على معنى المضاف والمضاف إليه فقال بل هو "شعبُ العلِىِّ " ، يرُيدُ "شعبُ الله" [3] .

وكلا الوجهين كما ترى مُفْتَعَل . لأنهما كليهما لايصلحانِ اسماً لرجل ، إذ ما معنى أن تُسَمِّىَ ابناً ولدَ لك " شعبُ الله " أو " تعالى الشعبُ " ؟

أهى النبوءة بأنه سيخرجُ من صلب عَمْرام الرجلُ الذى سيتعالى به الشعب ، موسى الذى سيقودُ خروجَ بنى إسرائيل من مصر ويصنعُ منهم " شعب الله " ، أو هى محاولةُ تعظيم موُسى عن طريق التفخيمِ فى اسم أبيه ؟

الملاحظة الأولى على هذا أن الاسم العَلَم عَمْرام لم يقع فى أعلام العبرانيين قبل أبى موسى ، وإن فشا من بعده فى أعلام إسرائيل نسبةً إليه . وقد تزوج عمرامُ أبو موسى من " أم موسى" أيامَ محنةِ بنى إسرائيل فى مصر . وحتى إن سَلَّمت بأن مولد عمرام وتسميته كانا سابقين على هذه المحنة ، أى سَبَقا بسنواتٍ انقلابَ فرعون مصر عليهم ، فلا يَذْهَبَنَّ بك الظن إلى أن قوم موسى كانوا قبل هذا الانقلاب مباشرة ـ وهم

---

(١) وأيضا " عَمِير" العبرانية بنفس معنى الحزمة . وربما جاءت من هذه " عَمَّار " العربية بمعنى الريحان ، أى الحزمة منه . ولا عليك مما تقوله المعاجم من أنهم كانوا يُحَيُّونَ به الملوك قائلين : عَمَّرَكَ الله ، أى حَيَّاك وأبقاك .

(٢) انظر المعجم العبرى الآرامى لألفاظ التوراة ، المرجع المذكور ، ص ٦٠٤ .

(٣) انظر : WEBSTER'S DICTIONARY, (Unabridged), op. cit., Suppl., Scripture Proper Names and Froeign Words, p. 87.

ضيوفُ إن لم تقل دُخَلاءُ على أهل مصر ـ يستطيعون مباهاة المصريين بقولهم " تعَالَى الشعب" أو " الشعبُ عَلا " فى وصف أنفسهم ، فضلا عن أن يتسموا بها فى أبنائهم ، آمنين ألا يُنْكِرَ المصريونَ عليهم ، أو فى أقل القليل أن يتخذَ المصريون من اسم هذا المولود الذى سيتعالى الشعب به مزْحَةً يتندَّرون بها ، فلم تكن العبرانيةُ بعد قرونٍ من مُقام بنى إسرائيل فى مصر طلاسمَ مطلسَمَة فى آذان المصريين ، وحتى إن بَقيتَ طلاسمَ مُطَلْسَمَةً فى آذانهم ، فما كانوا ليعدموا من يُفسِّر لهم معنى هذا الاسم من بين خُلَطائهم العبرانيين المتَقَربين إليهم بالمودة على حساب بنى قومهم .

والملاحظة الثانية هى أن فكرة " شعب الله " لم تنبت فى أدمغة بنى إسرائيل إلاَّ من بعد موسى ، فكيف يُنْحَتُ منها اسمُ أبيه ؟

والملاحظة الثالثة هى أن اختلاف علماء العبرية وعلماء التوراة حول معنى هذا الاسم عَمْرام ، وانقسامَهُم فى تفسيره بين " تعَالَى الشعبُ " ، " شعبُ الله " يَدُلاَّنكَ على أنه ليس له أى تفسير معروف فىَ مأثورات بنى إسرائيل ، على نحو مامر بك من شَغَفِ كَتَبة التوراة بتفسير الأسماء الأعلام أو مناسبة التسمية ، مثلما فسروا اسم موسى بن عمران ، ولو كان للاسم عَمرام تفسيرٌ مأثور، معلوم ، مُسْتَقَرٌ عليه ، لما انقسم فى تفسيره علماء العبرية وعلماء التوراة ، ولكنها اجتهاداتٌ لهم ، كُلٌّ يُدلِى بِدَلْوِهِ ، لا تُلزمُك .

ولم لا يُقال إن " عمْ + رام " (مكسور العين فى " عِمْ " يعنى " مَع ") يُرادُ بها "مع" العلِىّ"، أى "مع الله" لا " شعبُ الله" ، يعنى السالك مع الله (هُوليخ عِمْ رام عبرياً) اختصرت إلى " عِم + رام " ، كما قالوا " عِمَّانُوئيل " أى اللهُ معنا ، ثم تَحوَّرت كسرةُ العين إلى الفتح ؟

تستطيع أن تقولَ هذا وأمثاله فلا تنتهى ، ولكنك تتوقفُ عند عَمْرام بمعنى عِمْران ، الملازِم العبادة ، أو السادِن خادم المعبد ، تستخلص معناه مباشرةً من الجذر "عَمَر" دون حاجةٍ إلى افتراض "مَزْجيَّاتٍ" لا داعى لها . وقد مر بك من قبل أنه حين يستعصى فهم لفظٍ فى الساميَّات فلابد من التماسه فى أمِّها ، أى فى العربية ، وقد عَرَفَ العربُ "عِمْران" قبل الإسلام بقرون وتسموا به ، لم ينقلوه عن العبرية المُخْتَلَف فيها على معناه . دليلُكَ فى هذا أن يهود مكةَ ويثرب قالوا فى اسم أبى موسى وهرون

"عِمْران" يعنون "عَمْرام" الذى فى التوراة ، عالمينَ أن اللفظين واحد . ودليلُكَ فيه أيضا وُرودُ هذا الاسم بالنون لا بالميم فى كتابات Lucian وهو من أعلام القرن الثانى للميلاد ، وروده بالنون أيضا فى نقش حورانى باليونانية Emranes "عمْرانس" (السين للرفع) ، فتقطع بعربية "عِمران" كما قطع بها المستشرق الذى ننقل عنهُ هذا الكلام (١) .

ولكن هذا المستشرق لا يُريد الإقرار بأن " عمران " العربية هى الأصل وراء عمرام التى فى التوراة ، وأن بنى إسرائيل فى مصر استعاروا " عِمْران " من جيرانهم الساميين فآلت على لسانهم إلى " عَمْرام " مع وحدة الجذر والمعنى . وإنما هو يقول ما تَفْهَمُ منه أن القرآن شَاكَلَ عِمْران العربى على عَمْرام العبرى يظنُّهما واحداً ، لأن هذا المستشرق وأضرابه لا يحققون معانى الأسماء الأعلام ، وإنما يهتمون فحسب للتقارب اللفظى ، يظنون أن القرآن كَدَأْبهم هُم يأخذُ نتَفاً من هنا ونتفا من هناك دون تَثَبُّت ، وفاتَهُم كما مر بك أن اليهود فى مكة ويثرب قالوا هم أنفسهم "موسى بن عمران" ولم يقولوا "موسى بن عَمْرام" .

على أن هذا المستشرق وإخوته يقعون رغم أنفهم ، أو قل بتعسفهم النَّعْى على القرآن ، فيما ينقض دعواهم : إذا كانت عمران عندهم عربيةَ الأصل من الجذر "عمى " (ولا يصح اشتقاقٌ فى عمران إلا من عَمَر) فليس هى إذن "عَمْ + رام" العبريةَ المُفْتَرَضَ معناها "تعالَى الشعبُ" ، أو "شعبُ الله" ، ومن ثم فليس الإسمانِ واحداً ، ولا وجهَ بالتالى للقول بأن القرآن يَخْلِطُ بين عِمران جَدٍّ عيسى وبين عَمْرام أبى موسى وهرون .

□□□

ولئن كانت " عِمران " عربية ، لا تدخل فى مقاصد هذا الكتاب الذى نكتب ، فقد أدخلناها فى مباحث الكتاب للرد على المستشرقين المنكرين الوحى على القرآن ، من جهة ، ومن جهة أخرى لأن القرآن الذى فَسَّر الاسمَ عمران على المشاكلة مع عمرام الذى فى التوراة لم يكتف بذلك ، وإنما فسر معنى هذا الاسم أبين تفسير بالمرادف ، بل

---

(١) Joseph HOROVITZ , OP. CIT. , P. 15

قد جَانَسَ عليه فى تفسير معنى الاسم " مَريم " ، فهو العامر العابد ، وهى أَمَةُ الرب ، وسبحان العليم الخبير القائل بكل اللغات .

قال عز وجل : { **إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم** } (آل عمران : ٣٥) ، والمنذورُ للهِ عز وجل محررا ، هى نفسُها "عِمران" ، الملازم العبادة ، الملازم بيت الرب ، وكأنها رضى اللهُ عنها أرادت عِمْران آخر سمياً لزوجها عمران ، وكأنها لو وضعتْهُ ذكراً لأسمتهُ عمران على اسم أبيه . ولكنها رُزِقَت بالأنثى ، مريمَ عليها السلام ، فأسمْتها بالمؤنَّثِ منه : مَرْيَم ، يعنى أَمَةُ الرب .

وقال عز وجل أيضا : { **ومريمَ ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين** } (التحريم : ١٢) ، يعنى كانت ابنةُ عمران صِنوَ أبيها ، اسماً على مُسمًّى ، وهل القانتُ إلا العامِر العابد عِمران ، وهل أَمَةُ الربِّ من هذا ببعيد ؟

وربما قلت : وما وجهُ الإعجاز والقرآنُ عربىٌّ وعِمْران عربية ، فهو يُفَسِّرُ عِمْران على أصلِ معناها فى لغته ؟ وهذا صحيح .

ولكن الإعجاز الذى أُريد أن أَدُلَّكَ عليه هو أن القرآنَ الذى عَلِمَ معنى "عِمْران" من العربية ، يجُانِس عمران العربية هذه على " مَرْيَم " ، أَمَةِ الرب ، ومَريَم اسمُ آرامىٌ بَحْتٌ كما سوف ترى . فأىُّ إعجازٍ وأىُّ عِلم !

(٥٥) مريـــم

" مَرْيم " أم عيسى عليهما السلام ، اسمْ آراميٌ مَزْجيٌ مُرَخَّم ، أصلُهُ : مَارِى + أمَا ، المقطع الأول يعنى بالآرامية " الرَّبُّ " ، والمقطع الثانى " أما " يعنى بالآرامية أيضا نفس ما تعنيه " الأَمَةُ " عربياً ، فاسمُها عليها السلام يعنى "أَمَةُ الرْبِّ" ، قُدِّم فيه المضافُ إليه على المُضاف، تعظيماً لاسمِ الرَّبِّ تَبارك وتعالى ، مثلما رأيت فى "يُو + حَنَان" المُبْدَلَةِ من يُوحَنَّا وهو يحْيَى بنُ زكريا عليهما السلام . وكان حَقُّهُ أن يُنطَق : مَاريأمَا ، كاملا ، ولكن المزجيةَ سَهَّلت الهمزة ، فأصبح : مَارِيَما ، ثم رُخِّم بحذفِ ألف المد الخاتمة ، فأصبح "مَرْيَم" طبقَ الأصلِ من نطقه اليونانى Mariam فى الأناجيل اليونانية ، وهو نفْسُ نُطقِهِ فى القرآن .

أما "مارى" الآرامية بمعنى "الرب" فهى تجىء من اللفظة العربية "إِمْرُؤ" (تُنْصَبُ على "إمْرأ" وتُجَرُّ على "إمْرِىء") ، وأيضا "مَرْءُ" ، ومن هذين يجىء المؤنث "امرأة" وأيضا " مَرْأة " . وأصلُ معنى " إِمْرُؤ " العربية ليس هو مطلق الرجولة أو الذكورة ، وإنما أصلُهُ من "السيادة " ، ومنه جاءت " المُروءة " يعنى خُلُق السادة ، أى الشَّهامة ، فالمرأة يعنى فى الأصل "السيدة" مؤنث "مرء" بمعنى السيد ، ولكن المرْءَ والمرأة أميتتا بهذا المعنى فى العربية ، ولم تبق منهما إلا هذه الدَّلالةُ المُبَهَمَةُ على آحاد الناس : المَرْءُ مفردُ الناس ، والمرأةُ مفردُ النِّسْوَة ، لا يَدُلُّكَ على أصلِ ما كانا عليه إلا هذا المصدرُ منهما : المُروءة .

وأما لماذا أماتت الآرامية لفظة "راب" بمعنى السيد الرب ، واستعاضت عنها بلفظة "مارى" (وأيضا " مار " بدون ياء) بمعنى الرب والسيد ، فلأنها - أى الآرامية - أماتت "راب" بمعنى الرب ، واستبقت منها معنى " الرُّبُوُّ " أى الكِبَر والزيادة ، فآلت "راب" فى الآرامية إلى معنى كبير أو عظيم ، ومنها : "رَبْرَبَان" الآرامية بمعنى الكُبراء الأكابر ، ومن هنا لم تعد "راب" الآرامية صالحةً للاستعمال بمعنى السيد الرب ، لا فى

حق البشر ، ولا فى حق الله عز وجل من باب أولى . وقد خَصّصت الآرامية لفظة "مارى" (المختومة بالياء) لله عز وجل بمعنى " الرب " لا تُقالُ فى غيره ، وأفْرَدَت "مار" بدون الياء للسادة من البشر ، ومن هذا : مَارْ مَرْقُس ، يعنى السيد مرقس ، والمؤنث منه "مرت" بتاء التأنيث الآرامية ، إن أضَفْتَ فى آخره ألف المد التى هى أداة التعريف الآرامية كما مر بك ، أصبحت Martha مرتا ، وهى بضم الميم أفصحُ آرامياً) العَلَمَ الشائعَ فى نساءِ المسيحيات ، ومعناه الحرفى من الآرامية هو "السيدة" . وربما ظن من لا يعرفون معنى الاسم "مريم" أنه من هذا ، فيفهم من "السيدة مريم" أن "السيدة" هنا ترجمةٌ لاسمها عليها السلام ، والصحيح أنه أضيف إلى اسمها على التوقير والتبجيل لِمقام تلك التى قال فيها عز وجل : { **يا مريمُ إن الله اصطفاكِ وطَهَّركِ ، واصطفاك على نساءِ العالمين** } (آل عمران : ٤٢) .

على أن الآرامية ـ شأنها شأنُ العبرية ـ تستعمل لفظة "آب" (الأب المعروف) فى الإشارة إلى الله عز وجل ـ تلك التى ضَلَّ بها كثيرون ممن لا يفقهون مجازَ اللغات السامية ـ ولكن الآرامية ـ لغةَ المسيح عليه السلام مع عشيرته وحوارييه ـ تَخْتُمُ اللفظ بألف المد على التعريف ، فتؤول إلى " أبًّا " ، أى الأب بمعنى الرب لا بمعنى الوالد الذى وَلَد ، وتجوز أيضا على النداء والمناجاة : رَبِّى ! لا يا أبى .

أما أن " الآب " ، " الأب " ، معناها " الرب " فى الآرامية والعبرية ، فدليلُكَ الدامغُ فيهِ باختصار ـ وقطعاً للطريق على من قد يتعجَّلون فيتورطون فى نقد مقولاتنا اللغويةِ فى هذا الكتاب ـ هو ذلك العَلَمُ العبرانىُّ " أبِيَّاهُو " بن رِحُبْعام بن سليمان بن داود ، الذى سبق مولدُهُ مولدَ المسيحِ بسبعة قرونٍ على الأقل ، وهو اسمٌ مركَّبٌ من شقَّيْن " أبِى + يهْوَا " (يهْوَا هو اسمُ اللهِ فى العبرية من بعدِ موسى كما مر بك) ، لا يَصِحُّ أن تتصوَّرَ ولو للحظة أن معنى الاسم الذى سماه به رِحُبْعام بن سليمان ابن داودَ هو " اللهُ أبِى " أعنى أبِى الذى وَلَدنى ، إذن لَذَبحه اليهودُ فورَ هذه التسمية على مَرْأىً من أبيه ، إن لم يذبحوا أباهُ معه ، وإنما فهم اليهود وأرادَ رِحُبْعام الأبَّ بمعنى الربِّ فى مُصْطَلَحهم ، فالمعنى هو " اللهُ رَبِّى " ، لا " اللهُ والدى " كما يفهمها علماءُ أهل الكتاب الذين لا يفقهون مجاز الساميات [١] .

---

(١) انظر المعجم العبرى الآرامى لألفاظ التوراة ، المرجع المذكور ، ص ١ .

أما الدليل الثانى فهو قولُ المسيح عليه السلام فى الأناجيل التى بين يديك : "إنى أُصْعَدُ إلى أبى وأبيكم وإلهى و إلهكم" (يوحنا ٢٠/ ١٧) يُرادفُ الأولى بالثانية، أى أن أبى وأباكم هو إلهى وإلهكم ، لا يريدُ بالطبع إنى أصعدُ إلى والدى ووالدكم الذى هو إلهى وإلهكم ، وإنما أراد إنى أصعدُ إلى ربِّى وربِّكم الذى هو إلهى وإلهكم ، كلانا مَرْبوبٌ للهِ عز وجل ، والمأبُوُّ آرامياً وعبرياً يعنى المَرْبوبُ عربياً . لا تصَحَ " الأب " عربياً بمعنى " الرب " ، وإنما اضطرت الآراميةُ و العبريةُ إلى هذا المجاز لاستنفادهما لفظة "راب" فى معانى أخرى ليس منها " الرب " الإله ، وهى معنى الكبير ، الرئيس ، الإمام ، المُعَلم المُربِّى . أما العربية فهى لا تحتاجُ إلى هذا المجاز المُؤْذِنِ بالخَلْطِ والتخليط ، وإنما تقول ربِّى ، حين تريدُ "إلهى" ، وتقول أبِى ، تعنى "والدى الذى ولدنى" . وقد فهم القرآنُ المعجز مُرادَ المسيح من قوله بالآرامية " أبِى وأبوهم " فلم يقُلْ على لسان المسيح "أبى وأبوكم" على الترجمة الببغائية ، وإنما قال عز وجل على لسان عبده ورسوله عيسى بن مريم فى خطاب قومه : { **وأنَّ اللهَ ربىَّ وربُكم فاعْبُدوه ، هذا صراطٌ مستقيم** } (مريم : ٣٦) ، أى أن مَرْبوبيَّةَ المسيح والبشر جميعا لله عز وجل الواحدِ الأحد هى الصراطُ المستقيم، لا صراطَ غيره. عليك إذن كلما قرأت فى الأناجيل لفظة " آب " ، " أب " ، حين تُعَرَّفُ بالألف واللام ، أو حين تُضافُ إلى المسيح : " أبى " ـ وأنت تعلم مسيحياً كُنْتَ أو مسلماً أن المسيحَ غير ذى أبٍ ـ أن المُرادَ منها هو " الرَّبُّ " ، " رَبى " ، فتفهم منها ما أرادَه المسيحُ على وجه القطع واليقين ، لا ما فَهِمَهُ الذين أَلَّهُوا المسيحَ على البُنُوَّة لله عز وجل فى مجمع نِيقيه عام ٣٢٥ م فَبَنَوا صَرْحَ مقولتهم فى المسيح على خطأ ٍ لُغَوِيٍ بيِّن ، لا يَصِحُ من عالمٍ فقيه .

كان عُذْرُ الحواريين الذين كتبوا هذه الأناجيل أو كُتِبَت عنهم باليونانية ، هو ظَنَهُم أن " الأب " تَصِحُ بمعنى " الرب " فى كل اللغات ، لا فى الآرامية والعبرية وحدَهما ، ووحدَهما فقط ، فكتبوها باليونانية Pater (نظير Father الانجليزية بمعنى الوالد الذى ولد) ، وعن هذه الأناجيل نقلت كل الترجمات . ولكن يشاءُ ربُّك لهذه الكلمة اليونانية الأصل Pater (يعنى الأب) ونظائرها فى كُلِّ اللغات أن تكتسب بمحض الاستعمال على لسان المسيحى فى بقاع الأرض ـ أياً كانت لغتُه ـ كُلَّ معانى القداسة الواجبة لله عز وجل وَحْدَه تَقْرَؤُها فى وجه هذا المسيحى وهو يقرأ فى صلاته :

"أبانا الذى فى السموات" ، فتقطع بأنه لا يريد بها "أبانا الذى وَلَدَنا" ولا "أبا المسيح الذى فى السموات"، وإنما هو يَمثُلُ أمامكَ فى صلاته رجلاً آرامياً ـ عبرانياً يريد بها ما كان يريده الرجلُ الآرامىُّ ـ العبرانى فى زمن المسيح : الأبُ = الرّب ، لا إلهَ غيره .

وإذا كانت "الأب" تعنى فى حق الله عز وجل آرامياً وعبرياً ـ لسانَ المسيح عليه السلام ولسانَ قومه ـ الربُّ الإلَه فقط لا غير ، لا الأبُ الوالد ، فكيف جاز فهمُها فى المسيح وحده على معنى" أُبُوَّة " الله إياه ؟ كيف يجىء المسيحُ بلفظة الأب فيما ترويه الأناجيل من قوله : " وأما أنت فمتى صُمْتَ فادهن رأسَك واغسل وجهك ، لكى لا تظهر للناس صائما بل لأبيك الذى فى الخَفاء ، فأبوك الذى يرى فى الخفاء يُجازيك علانية " (متى ٦ / ١٧ ـ ١٨) فلا يفهم السامع "المَأْبُوُّ " [١] من لفظة "أبيك" فى هذا الكلام إلا معنى " الرب " ، أما إن سمعها من المسيح يناجى بها ربه : "أيها الآب ، نَجِّنى من هذه الساعة !" (يوحنا ١٢ / ٧) فهذا السامع يفهم منها فى حق المسيح وحده لا الرب ، وإنما الأب الوالد ؟ لم يكن هذا بالطبع هو موقف كتبة الأناجيل اليونانية التى بين يديك ترجماتُها ، وإلاّ لأوقعْتَ كَتَبتَها فى التناقض ، ولكنه كان موقفَ الذين استعانوا بهذه الأناجيل اليونانية فى تأليه المسيح على " البنوة " لله عز وجل فى مجمع نيقية عام ٣٢٥ م ، بعد رفع المسيح بنحو ثلاثة قرون .

نعم ، قد أجرى اللهُ على يدِ المسيح معجزاتٍ تنقطعُ دونَها رقابُ البشر ، كان أبرزَها إحياءُ الميت . ولكن " اليشع " الذى فى العهد القديم سبقه بمثلها ، ولم يؤلّه اليهودُ اليشع لأنهم علموا أن "الفاعل" فى هذا الإحياء هو اللهُ عز وجل لا نبيُّهُ اليشع . ورفع الله المسيح إليه جسداً حياً لم يَمُت ، ولكن " إيليا " الذى فى العهد القديم سبق المسيحَ بمثلها ، ولم يُؤَله اليهودُ إيليا لأنهم يُؤَلِّهون "الرافع" لا المرفوع . ولو قد اقتصرت معجزاتُ المسيح على أمثالٍ لها فى العهد القديم لما كانت ثَمَّةَ حُجَّةٌ البتة فى شُبهة ألوهيته .

ولكن المسيحَ عليه السلام انفردَ من دون الخلق جميعا بمعجزةٍ غير مسبوقة ، هى ولادتُهُ لأمٍ بغير أبٍ ، فَشُبِّهَ لمن شُبِّهَ له أنها البُنُوَّةُ لله ، وجاءت دعوى

(١) أباهُ يأبوهُ إباوةً يعنى صار له أباً ، والمفعولُ منه " مَأبُو " . ومن هذا جاءت " الآب " لغةً فى " الأبَ " : إنه " الآبى" الذى يأبو ، رُخِّمت ياؤه .

الألوهية ترتيباً على هذه البنوة المُدَّعاة ، ولم يفطنوا إلى أن الله عز وجل الذى يخلقُ ما يشاءُ ويختار ، أى يخلقُ ما يشاء على الوجه الذى أراد ، إنما أرادها آيةً للناس ، وهو على أمثالها قادرٌ فى كل حين . وقد عجبت مريمُ عليها السلام حين جاءها جبريلُ بالنبأ ، فذكَّرها جبريلُ بإعجاز الله فى حمل خالتها بيحيى من قبل وقال : " لأنه ليس شىءٌ غيرَ ممكنٍ لدى الله " (لوقا ١ / ٣٧) . فَهِمَت مريم أن الله هو خالقُ هذا الجنين الذى فى بطنها ، فلم تُؤَلِّه المولودَ الذى ولدته . إنها معجزةٌ من الله عز وجل يضربُها آيةً للناس الذين يَمُرُّون على آياتِ الله عُميانا ، فما الخلقُ من الأبِ والأمِّ معاً بأهون فى إعجاز الخلق من ولادة عيسى بغير أبٍ ، ولكنه خَرْقُ العادةِ والإِلْف ، كى يلتفتَ الناسُ إلى إعجازِ العادةِ والإلف . ولا فضلَ فى هذه المعجزةِ لجبريلَ أو المسيح ، حتى تتأصَّلَ عليها أُلوهِيَّةُ المسيحِ وجبريل ، أو حتى يتميزَ أى منهما بميزةٍ ترفعه عن أصل طبيعته وكينونته : جبريلُ مَلَكٌ من ملائكة الله ، والمسيحُ بَشَرٌ ممن خَلَق .

والذى لا يلتفت إليه كثيرون أن هذه المعجزة، قبل أن تكون معجزةً فى المسيح، هى معجزةٌ فى مريمَ نفسها الوالدة العذراءِ لم يَمْسَسْها بَشَر ، اجتمع فيها للمسيحِ الأبُ والأمُّ معا ، فهى صنْوُ المسيحِ فى الآيةِ والمعجزة : { **وجعلنا ابنَ مريمَ وأُمَّهُ آيةً وآويناهما إلى ربوةٍ ذاتِ قرارٍ ومعين** } (المؤمنون : ٥٠) .

قال عز وجل فى خطاب مريمَ على لسانِ جبريل يُسَكِّنُ من روعها ويقطعُ عليها عَجَبها لقضاءِ قضاهُ الله : { **قال كذلك قال ربُّكِ هو على هَيِّن ، ولنجعله آيةً للناسِ ورحمةً منا ، وكان أمراً مقضيا** } (مريم : ٢١) .

وقالت مريم لجبريل : "هو ذا أنا أَمَةُ الرب ، ليكن لى كقولك" (لوقا ١ / ٣٨) . كانت مريمُ عليها السلام اسماً على مُسَمَّى ، المصدِّقَةَ بكلماتِ ربِّها ، المذعنَة لقضائه فيها : إنها مريم ، أَمَةُ الرب ، مَارِى + أَمَا .

□□□

وقد عَلِمَ مفسرو القرآن (راجع تفسير القرطبى للآية ٣٦ من سورة آل عمران) معنى هذا الاسم "مريم" ، فقالوا إن معناه "خادم الرب" بلغةِ قومها ، وخادم الرب هى نفسُها أَمَةُ الرب . وهم لم يعلموا هذا من حديثٍ أو سُنَّة ، فليس فى صحيحِ

الحديثِ من هذا شيء ، وإنما عَلِمُوه من رُواتِهم من أهل الكتاب ، النصارى لا اليهود ، السُريان لا العبرانيين ، لأن هذا الاسم " مريم " لا يصح تفسيرُه من العبرية بمعنى خادم الرب أو أمة الرب ، لأن "ماري" بمعنى الرب ليست عبرانية ، وإنما هى آرامية بحت (والآرامية هى السريانية لغة هؤلاء النصارى السريان) ، والعبرانيون لايفسرون بها اسم "مِرْيام" أخت موسى وهرون ، وإنما يقولون كما مر بك ان "مريام" أخت موسى وهرون من المراء والمرية ، فتقطع بأن هذين الاسمين ليسا واحدا ، وأن القرآن لا يخلط من ثم بين "مريم" أم عيسى وبين "مريام" أخت موسى وهرون كما وهم أدعياء الاستشراق المتطفلون على مباحث اللغة .

والذى تأخذه على الترجمة العربية لأسفار العهد القديم التى بين يديك هو أنها تَرْسُمُ الاسمَ "مِرْيام" أخْتَ موسى وهرون بالرسم " مَرْيم " فيظن القارىء ، كما ظنَّ أدعياءُ الاستشراق من قبل ، أنها سَمِيَّةُ " مريم " أم عيسى ، وهو خطأ مَحْض لا تَقَعُ فيه الترجماتُ الانجليزية مثلا التى تَرْسُمُ اسم أختِ موسى وهرون Miriam أى "مِرْيام"، بينما يُرْسَمُ بالانجليزية اسمُ والدة عيسى عليهما السلام Mary "مارى"، لا شُبْهَةَ خَلْطٍ بينهما .

وأما لماذا لم يلتفت أدعياءُ الاستشراق إلى معنى اسم "مريم" أم عيسى عليهما السلام الذى قاله مفسرو القرآن نقلا عن رواتهم السريان ـ وهو قاطعٌ فى آرامية الاسم مانعٌ من عبرانيته ـ فيتعلموا من هذه التفاسير عِلْمَ ما جهلوه أو خَلَطوا فيه من مثل خَلْطِهم بين "مريم" ، "مريام" ، فذلك لأن آراميةَ الاسم "مَرْيَم" وعبرانيةَ الاسمِ "مِرْيام" وبُعْدَ ما بين معنييهما من ثم ، دليلٌ على فساد مقولتهم فى خلط القرآن بين مريم أم عيسى وبين مريام أخت موسى وهرون ، ولأن صاحب الهوى الأحمق يُبْصِرُ الحقَّ ولا يراه ، بل يشاءُ له نحسُه ألا يَتَصَيَّدَ من تلك التفاسير إلا أخطاءَ وقع فيها المفسرون أو دُلِّسَت عليهم ، من مثل قولهم بُعجمة فردوس وعدن وجهنم وإبليس والصراط وقسطاس ـ وقد مر بك ـ يتصَيَّدُها من تلك التفاسير وينسبُها لنفسه فرحا فخورا ثم يختال بها على قرائه وتلاميذه المبهورين بعلمه ، الذين ائتمنوه أن قد حَقَّقَ وَتَثَبَّت ، فينقلون عنه أمثالَ أن القرآن نحت " قسطاس" من "جستيس" Justice لا من" قسط" العربية ، فتعذرهم بجهلهم أن هذه اللفظة اللاتينية المُدَّعاة Iustas تنطق "يُوسْتَس" بالياء لا بالجيم ، وأن الياء اللاتينية فى هذه وأمثالها لم تتحور إلى الجيم فى

الانجليزية والفرنسية والإيطالية (دون غيرها من اللغات الأوروبية) إلا بعد نزول القرآن بقرون ، وأن لفظة "قِسط" أقدمُ فى الساميّات من مولد اللاتينية نفسها .

أما النَّحْسُ الأكبر الذى وقع فيه هؤلاء المستشرقون ـ لم يتصيَّدُوه من تفاسير القرآن وإنما استأثروا بشرف الوقوع عليه ـ فهو قولُهم إن القرآن سَمَّى مريم أم عيسى أختاً لموسى وهرون ، بقوله على لسان قومها : ياأختَ هرون ، فأخطأ القرآنُ وخَلَّط ! فتقطع بأنهم وهم أهل كتاب لم يقرءوا فى (إنجيل لوقا ١/ ٥) قوله إن اليصابات أم يحيى خالة مريم أم عيسى كانت "من بنات هرون" ، لا يعنى بالطبع أن اليصابات كانت ابنة أخي موسى وبينهما ثلاثة عشر قرناً كما وَهِموا أن القرآن قد فعل ، وإنما يعنى أن اليصابات خالة مريم كانت " هارونية " من سبط هرون أصحاب الكهانة والسدانة فى بنى إسرائيل من بعد موسى ، يعنى " لاوية " خادم معبد ، كالذى كانتهُ مريمُ أم عيسى عليه السلام . أو تقطع بأن هؤلاء المستشرقين الذين ولدوا فى اليهودية أو النصرانية لا يعلمون شيئا من اللغة العبرية التى يتصدون للكلام فى أعلامها ، أو لا يعلمون شيئاً من مواضعات اليهود ومصطلحاتهم كالذى عَلَمَهُ القرآنُ بقوله فى مريم: يا أخت هرون ! أو تقطع أخيراً بأنهم علموا هذا وذاك ولكنهم تعمدوا التدليس عليك ، حسداً من عند أنفسهم . صحيح أن مفسرى القرآن لم يصيبوا فى فهم مدلول " أخت هرون" لأنهم لم يعلموا مدلولها فى مواضعات اليهود ومصطلحاتهم ، وجَهِلَهُ أيضا رواتُهم من أهل الكتاب أو تَكتَّمُوهُ عليهم ، ولكن مفسرى القرآن لم يخوضوا فى علم ما لم يعلموه ، واكتفوا بأنها " صِنْو هرونَ فى الصلاح" ، ولكن ما عذر أولئك المستشرقين الأدعياء المتطفلين على مباحث اللغة وهم يهودُ أو نصارى ؟

الراجحُ عندى ـ إن كان هؤلاء المستشرقين أبرياءَ بجهلهم ـ أن الذى جَرَّهُم إلى هذا هو اشتباهُ "مريم" عليهم بمريام ، ولم يتثبتوا [1] ، واشتباهُ "عِمْران" عليهم ـ التى فى القرآن ـ بعَمْرام أبى موسى ومريام فى التوراة ، فَتَأَدَّوْا من هذين إلى خطأ ثالث هو أن القرآن بقوله : أختَ هرون ، يَخْلِطُ بين "مِرْيامَيْنِ" ، لا بين " مَرْيَم " ، "مرْيام".

---

(١) وقع فى هذا الخطأ أيضا ، الذى نعيناه من قبل على المترجم العربى للكتاب المقدس ، المترجم العبرانى للأناجيل اليونانية ، الذى يرسم بالخط العبرانى فى ترجمته اسم مريم أم عيسى عليه السلام بنفس رسم " مريام " أخت موسى وهرون ، فيئول معنى الاسم عند قارئه العبرانى إلى معنى المراء والمرية كالذى يفسر به علماء التوراة الاسم " مريام " . ولا يصح عندك ـ مسيحيا كنت أو مسلما ـ أن تتسمى على هذا المعنى والدة المسيح .

ولو قد كانت لدى هؤلاء المستشرقين وتلاميذهم ذَرَةٌ من تُؤدَة العالِم وأناته ، أو قل لو كانت لديهم مسحةٌ من إنصافِ العالِمِ المُدقِّق الذى يَدَّعُونَه، لسجلوا للقرآن بقوله: يا أخت هرون ، إعجازاً فوق إعجاز .

لم يعلم القرآنُ فقط مدلولَ " أخت هرون" فى مُواضَعات اليهود ومصطلحاتهم ، أى " الهارونية " اللاوية ، "خادم الهيكل" الذى كانَتْهُ أَمَةُ الرب ، مريمُ ابنةُ عِمران ، أم عيسى صلوات الله عليه ، وهذا بذاته إعجاز ، ولكن القرآنَ المعجزَ بواسعِ عِلمِهِ يُجانسُ بأختِ هرون هذه على "مريم" ، أَمَةِ الرب آرامياً ، فَيُفسِّرُ بها هذا العلم الأعجميَّ بالمرادف القريب من معناه فى قوله عز وجل : { **قالوا يا مريم لقد جئتِ شيئاً فَرِيًّا . يا أختَ هرون ما كان أبوكِ امرأ سَوْءٍ وما كانت أُمُّكِ بَغِيًّا** } (مريم : ٢٧ ـ ٢٨) ، أى يا من اسْمُك أمةَ الربِّ ، يا من أنت أختُ هرونَ ساكنةُ المِحراب ، يا ابنةَ عمران وامرأة عمران العامر العابد ، كيف فَعَلْتِ ما فعلت ؟ انظر معى إلى تصاعد التقريع فى هذا النسق القرآنى المعجز الذى لا يستطيعه إلا قائله عز وجل ، واعجَبْ معى للمُتَطاولين على هذا العِلْمِ المُحيط .

□□□

فسر القرآنُ على منهجنا فى هذا الكتاب الاسم الآرامى "مريم" ـ يعنى أَمَةُ الرب ـ تفسيرا مباشرا بالمرادف اللصيق فى قوله عز وجل : { **يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين**} (آل عمران : ٤٣) ، وقوله أيضا فى مريم : {**ومريم ابنة عمران التى أحْصَنت فَرْجَها فنفخنا فيه من روُحنا وصدَّقت بكلماتِ ربِّها وكُتُبه وكانت من القانتين** } (التحريم : ١٢) ، ومعنى "قَنَتَ" فى اللغة العربية هو "ذَلَّ له وخضعَ وانقاد" فهو العبد : قال عز وجل متحدثا عن ذاته {**وله من فى السموات والأرض كل له قانتون** } (الروم : ٢٦) أى كُلٌّ له منقادٌ ذَلول وإن جَحَدَ وبَطَر . وقال عز وجل فى خطاب أمهات المؤمنين : { **ومن يَقنُت منكن لله ورسوله وتعملْ صالحا نُؤْتها أجْرَها مرتين** } (الأحزاب :٣١) أى من تخضع لأمر الله ورسوله مهما شَقَّ وعظُم . ووَصَفَ بها إبراهيم فى البلاء المبين ، يفعلُ ما يُؤمَر وإن كان ذَبْحَ إسماعيل : { **إن إبراهيم كان أُمَّةً قانتاً لله** } (النحل : ١٢٠) ، وليس بعد هذا عَبْدٌ قانت . وإنما استعير القُنُوتُ فى التعبد لأن

الإقرار بالعبودية هو لُبُّ العباداتِ جميعا . وليس فى الأمثلة التى سُقْتُها لك من القرآن مَثَلٌ واحد يُفْهَمُ فيهِ القُنُوتُ بمعنى " القنوت فى الصلاة " أى العبادة ، وإنما هو العبوديةُ على معنى الطاعة والخضوعِ والانقياد .

وهل كانت مريمُ " أَمَةَ الرب " إلا هذا يوم بشِّرت بالمسيح فَحَملت به ؟ رَضِيت بالتهمة والظنة وهى أطهرُ عذراء لأن المولى هكذا شاء وقَدر. قد عَلِمَت أنها أَمَةُ الرب، لا تملك من أمر نفسها شيئا . قالت لجبريل أنا أَمَةُ الرب ، ليكن لى كقولك . فلما أجاءها المخاض إلى جذع النخلة توجعت كما يتوجع النساء ، بل أكثرَ مما يَتَوجعُ النساء، وهى تَلِدُ ابنها وحيدةً مُنْزَوِيةً عن أهلها تتكتمُ أمرها خشية ألسنة الناس ، عالمةً أنها ما أن تنتهى أوجاعُ الولادة وتضعَ حملها حتى تنفجرَ التُّهمةُ الظالمة فتقتحمَها أعينُ الناس وتَقرَعَها ألسنةُ السوء، أو يرجموها بناموس التوراة ، وإن كانت هى وابنها آيةً للناس : { **فأجاءها المخاضُ إلى جذع النخلة قالت يا ليتنى مِتُّ قبل هذا وكنت نسياً منسيا . فناداها منْ تحتِها ألاَّ تحزنى ، قد جعلَ ربكِ تَحْتَكِ سَرِيا . وهزى إليك بجذع النخلة تُساقطْ عليكْ رُطباً جَنِيا . فَكُلى واشربى وقَرِّى عَيْنا ، فإما ترينَّ من البشر أحداً فقولى إنى نذرتُ للرحمنِ صوماً فلن أكلِّمَ اليومَ إنسيا** } (مريم : ٢٣ ــ ٢٦) . هنا قَرَّت عينُ مريم : ها هو جدولٌ رَقراقٌ يجرى ماؤه تحت قدميها ولم يَكُ ثَمَّةَ جدول . وهذا الجذع الأجوف الذى ألجأها المخاضُ إليه ، ها هو يهتز ويربو وقد حَيَت النخلة ، ما أن تَضُمَّهُ إليها حتى يتَساقط جَناه . قد عَلِمَت مريمُ من قبل أن الله يأتيها برزقها فى كل حين : { **كلما دخل عليها زكريا المحرابَ وجد عندها رزقا ، قال يا مريمُ أنَّى لكِ هذا، قالت هو من عند الله ، إن اللهَ يرزقُ من يشاء بغير حساب**} (آل عمران : ٣٧) . ولكن هل تُدْرِكُ أنت كَمْ هى فرحةُ أم بمولودٍ لها تَضَعُهُ فيكلِّمها فى قِماطه ؟ لا يناغيها وتناغيه فَيُسَرِّى عنها ، ولا يناجيها فَيذهبَ هَمَّها ، ولا يبكى كما يبكى الرضيع ، ولكنه ينطق ليطمئنها أنه هو الذى سيحمل عنها عبءَ مواجهة الناس يومَ تأتى بِهِ قومَها تحمله : { **فأشارت إليه ، قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبياً . قال إنى عبدُ الله ، آتانى الكتابَ وجعلنى نبيا . وجعلنى مباركاً أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادُمْتُ حيا وبَراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقيا . والسلامُ علىَّ يوم وُلِدت ويومَ أموتُ ويومَ**

أبْعَثُ حيا } (مريم : ٣٠ ـ ٣٣) ، بدأ بأنه عبدُ الله ، يَعظُ بها من سَيُغالون فى تعظيمه ، وقال بَراً بوالدتى ، ولم يقل بَراً بوالدَىَّ كما قيل عن يحيى فى نفس السورة قبله، يُخْرِسُ بها من سيفترون عليها البهتان . هنا خَرِسَت ألسنةُ السوء أمامَ المعجزةِ الكبرى .

هذه الآياتُ من سورة مريم إعجازٌ فى أنْباءِ القرآن لا يَعْدلُهُ إعجاز، ولكنها فاتت على كتبة الأناجيل فلم يسجلوها ، لأنهم اكتفوا بشهادة المَجوس الذين جاءوا ليسجدوا للمسيح فى المِذْوَد ، ويُقدّموا له ولأمه هدايا ذهباً ولباناً ومُراً ، بين جُوق من الملائكة يُسَبّحُ ويهلل ، وترانيمَ يصدحَ بها رعاةُ تصادفَ وجودُهم ، لا تدرى من أين جاءوا ، ولا مَنْ أوحى لهم بأن المولودَ مسيحُ من الله . كل هذا لا يفسر لك لماذا سَكَت قومُ مريم على مريم يوم أتتهم برضيعها تحمله ، ولماذا لم يَنْبسوا فى مواجهةِ هذه الفضيحة ببِنْتِ شَفَة ؟ نعم ، قد قال لوقا فى إنجيله (لوقا ٢/٨ ـ ١٩) إن مَلَكاً ظهر للرعاة ، كما قال متى فى إنجيله (متى ٢/١ـ٢) إن نجماً ظهر للمجوس ، ولكن من سَيصدّقُ الرعاةَ أو يُصَدّقُ المجوس؟ وقالت الأناجيل أيضا (متى ١/١٨ـ٢٤) إنه لما بدت أعراضُ الحمل على مريم فَكّر خطيبُها يوسف النجار فى تَخْليتها سراً ، لولا أن تراءى له مَلَكُ الرب فى حُلمٍ فَبَرّأ مريم ، وصَدّقَ يوسفُ بالرؤيا وضَمَّ مريمَ إلى كنفه ، ولكن من سَيُصدّقُ يوسف ؟ الأحرى أن يتهموه . بل هذا هو الذى يقصه عليك لوقا بالنص : "ولما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة وهو على ما يُظَنُّ ابن يوسف بن هالى .... الخ" (لوقا : ٣/٢٢) ، يَدعَمُ بها نسَبَ المسيح إلى داودَ عَبرَ يوسف النجار الذى من نسل داود ، هذا النسب الذى أنكره المسيحُ من بعد ، وما كانت به إلى هذا النسب من حاجة، فلا أبَ للمسيح إلا أمهُ مريمُ ابنةُ عمران ، ليس هو من نسل داود وليس من سبط يهوذا ، بل هو من سبط والدته ، وجدّه عمران ، سبط لاوى ، وكَذَبت نُبوءَةُ كاتب سفر التكوين على لسان يعقوب فى اختصاص سبط يهوذا بالنبوة والمُلك ، فكان أولَ ملوك بنى إسرائيل شاؤولُ (طالوت) الذى من سبط بنيامين ، وكَذَبت نُبوءَتُهُ أيضا فى تَرذيل سبط لاوى ، فكَرّمَ اللهُ هذا السبطَ الذى جاء منه موسى وهرون ، وخُتِمَ خَيْرَ ختامٍ بالمسيحِ بن مريم ، صلواتُ الله وسلامُه على جميعِ رُسُله وأنبيائه . تَورطَ إذن مَتى ولوقا فى استمساكهما بتأصيل نسب المسيح إلى داود استناداً إلى هذا الخَيْطِ الواهى عَبْرَ يوسفَ النجار خطيب مَريَم . وليس فى عبارة لوقا : "وهو ـ أى المسيح ـ فيما

يُظَنُّ ابنُ يوسف ابن هالى .. الخ " إلا تفنيدُ هذا النسب فى واقع الأمر ، فما بالك بتكذيبه على لسانِ المسيح نفسه فى الأناجيل ؟ هذا التعلق بالنسب إلى داود يشوشُ على عُذْرِيَّة مولد المسيح صلواتُ الله عليه - وإن يكن من مَتَّى ولوقا بالطبع غيرَ مقصود . ولكنه يُسجلُ لك ظَنَّ الناسِ ظَنَّ السوء بمريم وابنها عليهما السلام منذ مولده وقبل مبعثه صلواتُ الله عليه ، فلماذا سكتوا على مريم ويوسف ؟ الراجحُ عندى لا يصح غيره أن خِطبة مريم ليوسف ما كانت لتحدث قبل حَمْلها الإعجازى بالمسيح ، لقول القرآن فيها : { **ومريمَ ابنة عمران التى أحصنت فَرْجَها فنفخنا فيه من رُوحنا** } (التحريم : ١٢) وإحصانُ الفرج هنا كنايةٌ عن التَّبَتُّلِ والانقطاع لعبادة الله لا زوجَ ولا ولَد ، وما كان لِبَتُول أن تَقْبَل خِطبةَ الرجال ، لا يوسفَ النجارِ ولا غيره . وإنما خَطَبَها يوسف - خلافًا لقول الأناجيل - بعد حَمْلها ، وربما بعد ولادَتها . مُصَدِّقاً مؤمناً بالآيةِ والمعجزة ، لتكون مريمُ وابنُها فى كَنَفه ورعايته لا غير ، فهو أبٌ بالتبنى فحسب إن جاز التعبير .

أما لماذا خَرِسَت ألسنُة السوء عن مريم وابنها يوم أتت به قومها تحمله ، فلم تُزَنَّ بريبةٍ ، ولم يتعرض لهما الكتبةُ والفَرِيسيُّونَ بسوء ، منذ مولد المسيح وحتى مبعثه ، فلا مبررَ لهذا من العقل والمنطق وأخلاقِ اليهود وناموسهم ، إلا هذه المعجزةُ الكبرى التى سَجَّلَها القرآنُ العظيم وفاتت على كتبة الأناجيل فلم يُعْنُوا بتسجيلها ، أعنى كلامَ المسيح فى المهد ، ينطقُ وهو الرضيعُ بالبراءة القاطعة لوالدته عليها السلام ، فتنقلبُ التهمةُ إلى شَرَفٍ أيِّ شرف ، إعجازِ الله فيها وفيه ، وينقلبُ الغمز واللمز والتجريح إلى تسبيحٍ وتهليل ، وتتناقلُ الألسنةُ حديث الطفل المعجز مَنْ سيكون . ولكن الذى نَطَقت الملائكةُ بلسانه وهو فى المهد فصيحاً بليغا ، يَصْمُتُ من بعد حتى تأتى سنه لينطقَ كما ينطقُ الطفل . وتمضى به الأيامُ ويُنْسَى ما كان كما يُنسى كُلُّ شىءٍ بعدَ حين ، إلا منهُ هو نفسه ومن خاصته وأهلِ بيته ، وإلا من والدته عليها السلام التى أُنبِئَت يومَ حملها به أن الله جاعِلُهُ آيَةً لبنى إسرائيل .

والذى ينبغى التنبيه إليه أن القرآن العظيم لا يَنْعى على اليهود قولَهُم البهتانَ فى مريم عليها السلام ، وإنما هو يُكَفِّرُهم بهذا القول : { **فبما نَقْضِهم ميثاقَهم وكُفرِهم بآياتِ الله وقتلِهم الأنبياءَ بغير حَقٍ وقولِهم قلوبُنا غُلْفٌ بل طَبَعَ اللهُ عليها بكفرِهم فلا يؤمنون إلا قليلا . وبكفرِهم وقولِهم على**

مريمَ بهتانا عظيما } (النساء : ١٥٥ ـ ١٥٦) . وإنما قال اليهودُ هذا البهتانَ على مريم بعد مَبْعَثِ المسيح لا قبله ، قالَهُ منهمُ مكَذِّبوه وشانئوه وطالِبُو دَمِه ، يطعنون فى نَسَبِه طعناً فى نبوته ، لُعِنُوا بما قالوا .

ولكن الله عز وجل ما كان لِيكَفِّر قائلى هذا البهتان على مريم ـ وهو لا يتجاوزُ القذف ـ لمجرد قولهم هذا ، وإنما كَفَّرَهُم اللهُ عز وجل لأنهم شَهِدوا الآيةَ المعجزة ، ثم كَفَرُوا بما شهدوا وعاينوا .

لم يكن مولد المسيح الإعجازى سِراً بين مريم وابنها ، أو بين مريم ويوسف ، أو بين مريم وخاصَّةِ بيتها ، أو بين مريم وبين نبى الله زكريا أبى يحيى كافلِها وراعيها ، الشاهدِ لها بالرزق يأتيها به الملائكةُ فى المحراب ، وإنما استعلن اللهُ بهذه الآية لبنى قومها جميعا { **ولنَجْعَلَهُ آيةً للناس** } على لسان هذا المتكلم فى المهد الذى نطق بنسبه الصحيح : "وبَرّاً بوالدتى" ، ليس له والدٌ غيرها .

سَمِعَ الناسُ منه هذا وشهدوا وعاينوا ، وما كان لهم بعد هذه الآية إلا أن يؤمنوا بما شَهدوا وعاينوا . ولكنهم كَفَرُوا بها .

ومن يَكْفُر بآيات الله فقد كفر بالله عز وجل .

هذا القرآنُ ينطقُ بالحق ويهدى للتى هى أقْوَمَ ، فما ضَرَّهم لو آمنوا به مُصَدِّقا لما معهم ، حفيظا عليه ، مُحَقِّقا مهيمنا ؟ ولكن ليس عليك هُداهم ، بل يهدى اللهُ لنورِه من يشاء ، حين يشاء ، وهو أعْلَمَ بالمهتدين .

أما أنتِ أيتها الصدِّيقةُ مريم ، أَمَةُ الرب ، فعليكِ صلواتُ اللهِ وسلامه مع النبيين والصديقين والشهداء ، وحَسُنَ أولئكَ رفيقا .

(٥٦) عيسى

" عيسى" هو الاسم المسَمَّى به المسيح عليه السلام فى القرآن ، بينما هو فى أصول الأناجيل اليونانية يجىء على Iesou (يِسُو) تضاف إليه السين فى حالة الرفع وتضاف إليه النون فى حالة النصب فيصبح Iesous أو Iesoun (يِسُوس أو يسُون). والمجمعُ عليه أنه من العبرية "يِشُوع" . ذهبت عينُها الخاتمة عند اليونان وانقلبت شينُها سينا . ومن "يِشُوع" العبرية هذه جاء الرسم " يَسُوع " بالسين الذى تقرؤه اسما للمسيح فى الترجمات العربية للأناجيل اليونانية الأصل ، استئناسا بأن الشين تنقلب إلى سين فى العربية ، غالبا ، وهذا صحيح بالنسبة إلى الاسم العبرى "يِشُوع" بالذات لأنه من المادة العبرية " يَشَعْ " التى تكافىء " وسع " العربية .

والمحقق الثابت أن العرب لم يسمعوا من نصرانييهم هذا الاسم عيسى الذى جاء به القرآن ، وإنما سمعوها منهم "يسوع" بالسين على اللفظ الذى ينطقُ به نصارى السريان تحولا عن الشين التى فى "يِشُوع" العبرانية إلى السين التى فى Iesous اليونانية فى أصول الأناجيل .

أما لماذا قال القرآن "عيسى" ولم يقل " يسوع " التى عرفها العرب اسما للمسيح ، فهذا من فرائد إعجاز القرآن فى أعلامه الأعجمية : لو قالها "يَسُوع" على ماشاعت به، لفهمها العربُ من العربية على معنى " الذى ساع" من ساع يَسُوعُ سوعاً ، يعنى ضاع وهلك، ولم يَهْلك المسيحُ على الصليب كما يؤمن الذين شُبِّه لهم ، فما قتلوه وما صلبوه ، بل تَوَفَّاهُ اللهُ رافعاً إياهُ إليه ، أى تَوَفَّاهُ بأن رَفَعَهُ إليه ، سليماً مُعافى لم تَهْلك منهُ شعرة ، ولم يُخْدَش منهُ ظفْر ، جسداً حياً ولم يَزَل ، لا يموتُ إلا والساعةُ قريب ، فهو من أعلام الساعة وأشراطها ، يَنْزِلُ فى الناس بالحق الذى جاء به القرآنُ فيه ويُصَحِّحُ مقولةَ الذين شُبه لهم ، ثم يموتُ على دين خاتم النبيين كما مات الرُّسُلُ من قبله لِيُبْعَثَ معهم يومَ يقومُ الأشهاد : { **وإن من أهل الكتاب إلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ به قبل موته ، ويومَ القيامةِ يكونُ عليهم شهيدا** } (النساء : ١٥٩) .

وليس أصل معنى "التَّوَفِّى" فى اللغة هو الإماتة ، كما يُخطىءُ مفسرون ، وإنما "التَوَفِّى" فى أصل معناه ، بل وفى معناهُ القرآنيِّ بالذات ، هو " الاستيفاء" ، أى "الاستخلاص" كاملاً غيرَ منقوص ، تقول منه : وَفَّيْتُهُ حَقَّه ، وتوفَّى هو حَقَه ، يعنى أخذهُ كاملا ، ومن هذهُ قولُهُ عز وجل : { **وإنما تُوَفَّوْنَ أجوركم يومَ القيامة** } (آل عمران : ١٨٥) . ومنه أيضا : { **الله يَتَوَفَّى الأنفسَ حين موتها ، والتى لم تمت فى منامها** } (الزمر : ٤٢) . وإنما جاز "التَّوَفِّى" بمعنى الإماتة لأن الموتَ مترتبٌ عليه، أعنى الذى مات إنما مات لأن اللهَ " تَوَفَّى" نفسَه أى قبضها إليه، أى استخلصها من هذا الجسد. والذى فى المسيح ليس من هذا ، وإنما هو فى المسيح على أصل معناه : التَّوَفِّى بمعنى الاستخلاص كاملاً غيرَ منقوص ، دليُلك فى هذا قوله عز وجل: {**إذ قال الله ياعيسى إنى مُتَوَفِّيك ورافعُك إلىَّ**} (آل عمران :٥٥)، لو فهمتَها بمعنى " إنى مميتُك ورافعك إلىَّ " لما كان لكلامك معنى ، فالله لا يَرْفَعُ إليه جسداً مَيْتا ، وهو أيضاً لا يرفعُ إليه نَفْساً أُميتَ جسدُها بالتَّوَفِّى ، أى بَتَوَفِّى النفس، وإنما هو يقبِضُ الأَنْفُسَ ولا يَرْفَعُها. وحتى إن سَوَّغَت لك نفسُك هذا الفَهم السقيم فقلت أن "الرفع" هاهنا بمعنى "القبض" ، فقد أماتَ اللهُ إذن المسيح على هذه الأرض وقبض نفسه كما يَقْبِضُ اللهُ الأَنْفس ، فماذا يبقى لديك من معنى الآية ، وقد تَقدَّمها مباشرةً قول الله عز وجل : { **ومَكَرُوا ومَكَر الله ، والله خير الماكرين**} (آل عمران : ٥٤) أى أرادوا صَلْبَهُ وأرادَ اللهُ بالمسيحِ شيئاً آخر؟أفَيَصحُّ أن يكون هذا الشىءُ الآخر هو أن يُميتَ اللهُ عيسى كيلا ينالوه حيا ، وكأن المعنى لم يقتلوهُ ولم يصلبوهُ وإنما أَمَتْنَاهُ نحن بأيدينا لا بأيديهم؟ فما الإعجازُ فى هذا ؟ أفى هذا إنجاءٌ وتخليص؟ وما قيمةُ هذا فى جنْبِ مَكْرِ الله عز وجل وتدبيره وهو "خيرُ الماكرين" ' هذا هُراءٌ بالطبع لا يَصِحُّ أن تَقعَ فيه إن وَقَعَتَ على مثله . وخلاصةُ قولِ المفسرين فى هذا (راجع تفسير القرطبى للآية ٥٥ من سورة آل عمران) أن المسيحَ عليه السلامُ رُفِعَ بجسده ونفسه معا ، أى رُفِعَ جسداً حيا ، وأنه لم يزل كذلك ، إلى أن يُهْبِطَهُ اللهُ إلى الأرض ليموتَ عليها كما مات الأنبياءُ وكما يموتُ البشرُ وكُلُّ ذى نَفْس ، لأن كُلُّ نَفْسٍ ذائقةُ الموت كما أخبرَ القرآن . أما قَوْلُهم فى التَّوَفِّى ففريقٌ على أنه بمعنى القبض ، أى إنى قابضُك إلىَّ ورافعك إلىَّ ، وكأن الرفعَ هو التَوَفِّى . وهذا من الحشو الذى لا يُضيف جديدا ، فأنا وأنتَ نُنَزِّه القرآنَ عنه . أما الفريقُ الآخر الذى يُصرُّ على أن التوفى بمعنى الإماتة ، فهو يقول ان فى الآية تقديماً وتأخيراً ، أى إنى رافعُك إلىَّ

ومُطَهِّرُكَ من الذين كفروا ، ومتوفيك بعد ذلك ، أى حين يُعيدُهُ إلى الأرض مرةً أخرى ليشهدَ على الذين خاضوا فى عبدِهِ ورسوله . وليس هذا أيضا ـ أى التقديمُ والتأخير ـ بمقبول، لأنه يعكس ترتيبَ الأحداث منذ الرفع إلى التوفى وبينهما فَجْوَةٌ اتسعت حتى يومنا هذا لحواليِّ عشرين قرناً من الزمان والله أعْلَمُ متى تلتئمُ الفجوة ، ولا يصح فى هذا تقديمٌ وتأخير ، وإنما هو خَلطٌ وتخليط نُنَزِّهُ أنا وأنت القرآنَ عنهما : لاحيلةَ لمن أراد التَوفِّى فى الآية بمعنى الإماتة إلا أن يُسَلِّمَ بخطئه ، إن وقع التَوفِّى بمعنى الموت أولا على الترتيب الذى جاء به القرآن ، فقد امتنع الرفعُ والتطهير ، وإن افترض فيه تقديماً يُرادُ به التأخير ، أى أراد معكوسَ الترتيب الذى فى القرآن ، فلا يصح له هذا إلا بافتعالٍ لا يليقُ بجلالِ القرآن .

على أن هناك من قال كما نقول نحن ان التَّوَفِّى فى الآية هو بمعنى الاستيفاء على أصل معناه ، ولكنه لم يُوَفَّق إلى استجلاء مُرادِ القرآن من هذا الاستيفاء : قال ان الله عز وجل وقد رَفَعَ عيسى إليه حياً لم يَمُت ، إنما استوفى عُمْرَهُ فى الدنيا ، أى استكملَهُ له ، أى استوفى حياتَهُ على الأرض بين الناس . ولايصح هذا من وجهين ، الأول أن المسيح المرفوع لم يستكمل حياتَهُ على الأرض ، بل سيعودُ إليها ليستوفى ما بَقِيَ لَهُ من عُمْرِهِ . والوجهُ الثانى أن هذا القول لا يصح فى اللغة ، لأن المفعول فى "متوفيك" هو المسيحُ نفسُه ، لا عُمْرَ المسيح ولا حياتُه ، فالمستوفَى (بفتح الفاء) الذى استوفاه اللهُ هو المسيحُ لا عُمْرُ المسيح ، واستيفاءُ المسيحِ يعنى استخلاصه مما أرادوهُ به، أى القتلِ والصلب ، فهو الإنجاءُ والتخليص ، الذى فَسَّرَهُ القرآنُ المعجز بقوله عُقَيْبَ هذا مباشرة : { ومُطَهِّرُكَ من الذين كفروا } أى أسُلُّكَ منهم كما يُسَلُّ الحقُّ من الباطل ، وكما يُنْفَضُ الوَسَخُ عن الثوب . وقد ظن المفسرون ـ ولم يوفقوا ـ أن التطهير فى الآية يعنى إبراؤه من ذنب ما قالوه فيه ، إلَه أو ابن إله ، ولا يصح هذا أيضا لأن قَالَةَ هذه المقالة ما كانوا قد وُلدُوا بعد ، بل حتى إن سلمت كما يؤمن النصارى بأنهم قالوها وهو بين ظهرانيهم فما كانوا هُمُ الذين طلبوا قَتْلَهُ على الصليب.

أما الذى لم يعلَمْهُ المفسرونَ جميعا فهو أن القرآن المعجز يُفَسِّرُ بالتَّوَفِّى ، أى الاستنقاذ والتخليص ، هذا الاسمَ العَلَم "عيسى" ("يِشُوع" عبريا) كما سترى ، وسبحان العليم الخبير .

□□□

يَنُصُّ القرآن على أن الله هو الذى سَمَّى المسيحَ بن مريم ، لا والدتُهُ وذووه : {**إذ قالت الملائكةُ يا مريمُ إنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بكلمةٍ منه اسمُهُ المسيحُ عيسى بْن مريم وجيهاً فى الدنيا والآخرة ومن المقربين**} (آل عمران ٥٤)، كما سَمَّى اللهُ يحيى من قبلُ لأبيه. والذى تُلاحظهُ من هذه الآية فى سورة آل عمران أن القرآنَ لا يُسَمِّيه بالاسم عيسى فحسب ، وإنما يُلَقِّبُهُ أيضا بهذا اللقب الذى غَلَب عليه من بعد : " المسيح" . وهو لا يسميه ويلقبه فحسب ، وإنما هو أيضا يَنْسبُه : "ابنُ مريم" ، إن أردت أن تدعوه بأبيه فلا أبَ له غيرُها .

أما اللقب ، " المسيح " (مَشِيح عبرياً) ، فمعناهُ فى مصطلح اليهود الممسوحُ ، يريدون الذى مُسِحَ بدُهن البركة (زيت الزيتون) ، أى الذى صُبَّ الدُّهنُ على رأسه ، مَلكاً كان أو كاهنا أو نبيا ، فيصير بهذه المَسْحة " قديسا " ، يعنى صدِّيقا فى لغة أهل القرآن وإن لَغَط بعضُ أهله فى هذا العصر بالقديس والقديسين مُتَابَعةً لأهل الكتاب الذين يقرءون لهم ولا قداسةَ ثَمّ ، وإنما هى الصِّدِّيقيةُ لا غير . وقد كانت هذه المسحَة طقسا من طقوس اليهود فى كهنوتهم ، يرْسُمُ بها الكاهنُ كاهنا مثله ، أو يرسم بها نبيا " اعتمد" الكهنوت نبوتَه ، أو يرسم بها الكاهن أو النبى مَلكاً نَصَّبُوهُ على بنى إسرائيل، أو يرسم النبى نبيا يخلفه فى النبوة ، فهى الرِّسامَة ، أى التَّنْصِيبُ فى الكهانة أو المُلك أو النبوة. وقد آل اللفظ فى مجاز العبرية إلى معنى "الصديق" وإن لم يرسمه كاهنٌ أو نبى ، فهو المبارك . ومُسحاء الرب، يعنى أولياؤه ومُباركوه . "المسيح" إذن عربيةٌ بلفظها فقط ، ولكنها أعجميةٌ بمعناها ، رغم التقارب اللفظى الشديد بين "مَسيح" العربية وبين "مَشيح" العبرية ـ الآرامية ، لغة المسيح ولغة أهله وعشيرته وحوارييه ، لتخصيص معنى " المَسح " بما ليس فيه عند أهل الكتاب ، فَيَنْبَهِمُ عليك المعنى المراد من هذا الوصف ، إلا إن كنتَ متضلعا من مصطلحات اليهود العبرانيين ، ناهيك بأن تكون لغتُك غيرَ ساميَّة ، فلا تدرى ما المراد من Messiah أو Messie ، والانبهام يؤدى إلى التوهم والتضخيم فتذهب بك التَّوَهُّماتُ كُلَّ مذهب فى مدلول لقب "المسيح" دون أن تدرى أن قد خَلَت من قبلِه المسحاءُ فى بنى إسرائيل بالألوف: إنه فحسب المُبارَك أو الصدِّيق .

وقد فسر القرآن لفظ " المسيح " على معنى " المبارَك " على لسان عيسى يوم أنطقه الله فى المهد ليستعلن بنسبه ويتحدث بآلاء الله عليه : { **قال إنى عبد الله**

آتانى الكتاب وجعلنى نبيا. وجعلنى مُباركا أين ما كنت ، وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دُمْتُ حيا. وبَرّاً بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا. والسلام علىَّ يوم ولدت ويوم أموتُ ويوم أبعثُ حيا} (مريم : ٣٠ ــ ٣٣).

وتسميةُ القرآن عيسى بن مريم بالمسيح يوم البُشْرَى بِهِ لمريم ، تُفيد أنه مسيح من الله ، أى مباركُ منه جل وعلا ، وإن لم يرسمه كاهن أو نبى ، بل وُلِد "مسيحا" ، تلك التى غلبت عليه ، تَعْرِفُهُ بها وحدها دون أن يُسمَّى لك بالاسم "عيسى" أو عيسى ابن مريم، فهو المسيح بإطلاق. وهى فى المسيح عيسى عليه السلام لا تجىء إلا مُعَرَّفَةً بالألف واللام ، دالةً على عَلَمِيَّتِها فيهِ وحده ، فهى اللقبُ الذى اختُصَّ به .

والذى يدلُّكَ على اختصاص عيسى بن مريم صلوات الله عليه بلقب "المسيح" ، اجتزاءُ القرآن فى ثمانية مواضع اجتزاءً مطلقا عن الاسم "عيسى" بلقبه ، " المسيح" ، وهى : { **لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله** } (النساء : ١٧٢) ، {**لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شىء قدير** } (المائدة : ١٧) ، { **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار** } (المائدة : ٧٢) ، { **ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرُّسُل وأمُّهُ صدِّيقة كانا يأكلان الطعام ، انظر كيف نُبيِّنُ لهمُ الآياتِ ثم انظر أنَّى يؤفكون** } (المائدة : ٧٥) ، { **وقالت اليهودُ عزيرٌ ابنُ الله وقالت النصارى المسيحُ ابن الله، ذلك قولُهم بأفواههم ، يضاهئون قولَ الذين كفروا من قبل، قاتَلَهُم الله أنَّى يؤفكون. اتخذوا أحبارَهُم ورهبانهم أربابا من دونِ الله ، والمسيحَ ابنَ مريم ، وما أُمِرُوا إلا ليعبدوا إلها واحداً ، لا إله إلا هو ، سبحانَهُ عما يشركون}** (التوبة : ٣٠ ــ ٣١) .

والذى يستوقفك هنا أن هذه المواضع الثمانية بالذات هى الآياتُ التى شَدَّدَت النكيرَ على من قالوا إن المسيح إلهٌ على البنوة لله ، وقد تَعَمَّد القرآن المعجز الاجتزاءَ فيها عن اسم عيسى بلقبه الملازِم له ، "المسيحُ" ، لينبِّه من لم ينتبه إلى أن "الممسوح" يقتضى "ماسحاً" يمسحُه ، وأن "المبارك" يقتضى من "يباركه" وأن الذى هو من جوهر الله على قول من قال ، لايحتاجُ إلى هذه "المَسْحَة" أو هذه البركة من الله بالذات ، ناهيك بأن يحتاجَ إليها من غيره ، أو أن يسعى إليها عند يحيى بن زكريا ليُعَمِّدَهُ[1] فى ماء نهر الأردن شأن الساعين إلى هذا العماد على يد يحيى ، فلما التقى النبيان امتنع عليه يحيى بتواضع الأنبياء قائلا له : " أنا محتاجٌ أن أعتمد منك وأنت تأتى إلىَّ؟ فأجاب يسوع وقال له اسمح الآن ، لأنه هكذا يليقُ بنا أن نُكَمِّلَ كُلَّ بِرٍّ" (متى٣/١٤ ـ ١٥).

وقد اعتل تلاميذُ يحيى من بعد على تلاميذ المسيح باعتماد عيسى منه ، ولم يعتمد يحيى من المسيح، فيحيى إذاً أرفعُ رتبةً من عيسى وإلا لما احتاج إليه المسيح. ولكن الأناجيل ترد على هذا بأن عيسى لم يباشر مهام نبوته ولم يستعلن بها للناس إلا بعد مقتل يحيى : "وبعد ما أُسْلِمَ يوحنا جاء يسوعُ إلى الجليل يَكرِزُ ببشارة ملكوت الله ويقول قد كمل الزمان واقترب ملكوتُ الله فتوبوا وآمنوا بالإنجيل" (مرقس ١/١٤ ـ ١٥) ، وهذا منطقىٌّ تماما ، فلا يصح لمن يدعوانِ بنفس الدعوة أن يُشَوِّشَ أحدهما على الآخر بنفس المقولة : " وفى تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز فى برية اليهود قائلا توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات" (متى٣/١ ـ٢) . ولكن التاريخ لم يحفظ لك ما كتب تلاميذُ يحيى فى سيرة معلمهم مثلما حفظ لك فى تلك الأناجيل ما كتبه تلاميذُ عيسى فى سيرة يحيى والمسيح معا . وقد حرص كاتبو الأناجيل ـ وكأنهم يردون على تلاميذ يحيى الذين ضاعت كتابتهم ـ حرصاً شديدا على إثبات ما يُعْلى رتبة المسيح على ابن زكريا ، وبالغوا فى هذا إلى حَدِّ الإغراق ، من مثل قولهم

---

(١) لا يشتبهن عليك العمادُ والاعتمادُ هنا بمعانى الإقرار والإجازة ، فالجذر " عَمَد " المَعْنى هنا ليس عربيا ، وإنما هو من العبرية ـ الآرامية بمعنى " وقف منتصبا " شأن المعتمد من يحيى الذى يغطسه فى ماء نهر الأردن قائما . وقد أَحْسَنَ نصارى مصر بقولهم الغطاس بدلا من العماد ، لأن " الغطاس" أدق فى ترجمة Baptizein اليونانية . وقد قيل يحيى المغتسل بدلا من يحيى المعمدان ، وليس بشىء ، والصحيح يحيى المغطاس .

على لسان يحيى إنه ليس أهلا لحمل حذاء عيسى (متى ٣/ ١١) ولايجمل هذا بالأنبياء حتى فى تواضعهم ، بل هو اتِّضاعٌ مَقيت لا يليقُ البتة بمن اعتمد منه المسيحُ وشَهد له بالنبوة ووصفه فى تلك الأناجيل بأنه لم يَقُمْ فى المولودين من النساء من هو أعظمُ من يوحنا (متى ١١/ ٩ ـ١٢) ، ولكنه يستدرك فيقول فى نفس الموضع "ولكن الأصْغَرَ فى ملكوت السموات أعظمُ منه " ، يعنى نفسه فى قول شراح المسيحية ، وحتى إن سَلَّمْتَ هذا فلا يصح أن ترتب عليه أن يحيى ليس أهلا لحمل حذاء عيسى ، لأنه تَصاغُرٌ يسلبُ يحيى نُبُوَتَه ، ولأنه لا يصح الاتضاعُ ويكْرُمُ إلا لله عز وجل ، فلا يصحّ اتضاعُ الأنبياءِ لغيره جَلَّ وعلا ، ولا يصح أيضا تفاخرُهُم على الناس أنبياء وغيرَ أنبياء . وقد كان عيسى عليه السلام غايةً فى التواضع ، يَأبَى على أتباعه أن يُعَظّموه : " وفيما هو خارجٌ إلى الطريق ركَضَ واحدٌ وجَثَا له وسألهُ أيُهَا المُعَلّمُ الصالح ماذا أعملُ لأرثَ الحياةَ الأبدية . فقال له يسوع لماذا تدعونى صالحاً . ليس أحدٌ صالحاً إلا واحدٌ وهو الله " (مرقس ١٠/ ١٧ ـ١٨) . الذى يقول هذا لا تنتظر منه أن يُعَظّم نفسه .

غالت الأناجيلُ إذن فى تعظيم المسيح حتى أشْرَفت على المُنْزَلق الخطر . ومن هذا حذر النبيُ الخاتم (١) : " لا تُفضِّلونى على يُونُس بن متى ! " فالنبوةُ من الله عز وجل ، يرفعُ درجاتٍ من يشاء ، والمُوحِي واحد ، الفضلُ له والمَنّ ، فلا فاضِلَ ولا مفضول .

وقد جَرَّت هذه المُغالاةُ فى المسيح كما تعلم إلى شَرٍ كبير .

□□□

أما الاسم "عيسى" فقد جاء فى القرآن على الإبدال من "يِشوع" العبرية التى نطقها نصارى السريان للعرب على اللفظ " يَسُوع " تَبَرُكا بسين "يِشوع" التى فى الرسم اليونانى فى أصول الأناجيل ، واحتفظت بها الترجماتُ العربية فقالت هى أيضاً "يَسُوع" .

وأنت لا تَظُن بالطبع أن الملائكة يومَ بُشِّرتَ مريمُ بالمسيح كانوا يخاطبونها بهذا اللفظ العربى الذى فى القرآن : " اسمه المسيح عيسى بن مريم " وإنما خاطب الملائكةُ

---

(١) وهو " الأصغر فى ملكوت السموات " كما قال المسيح ، أى الأخيرُ بَعْثَةً . فتأمل .

مريمَ بلسان مريم ، أى بالعبرية ـ الآرامية ، فيقولون لها بالعبرية مثلا : " ويقرا شْمُو هَمْشِيَح يِشُوع بِنْ ـ مَرْيَم" ، أو يقولون لها بالآرامية : " شْمِيهْ مشِيحا يِشُوعا بار ـ مَرْيَم" ، لم ينطقوها عيسى بالقطع ، وإنما قالوها "يِشوع" .

قد علم القرآن هذا ، كما علم أيضا أن نصارى العرب يقولونها "يَسُوع" . فلماذا تَحَوَّلَ بها إلى "عيسى" ؟

مر بك فى تضاعيف هذا الكتاب أن القرآن يرفض التعريبَ حين يسىءُ التعريبُ إلى المعنى ، أى حين تلتبسُ صورةُ الاسم فى لفظه المعرب بلفظٍ عربّىٍ يُغاير معناهُ معنى الاسم الأعجمى فى لغة صاحبه ، فما بالُكَ بتعريبٍ يُفيدُ الضدَّ من معناه ؟

لم يرتضِ القرآنُ إذن هذا التعريب الذى وجده جاهزا عند نصارى العرب ونصارى السريان : يِشُوع = يَسُوع . لأن "يسوع" هذه تعنى فى العربية " السائع الهالك " وما كان الله لِيُسَمِّى المسيحَ بهذا المعنى المذموم يوم البُشْرَى به ، فلا يصح هذا فى نبىٍ مُرْسَلٍ من الله ، بل لايصح من آحاد الناس فى مواليد الناس ، وإلا لانقلبت البُشرى إلى فاجعة . بل لا يصح هذا التعريب الببغائىُ أصلا ، لأن الله سماهُ بالعبرانية "يِشوع" المراد منها العكسُ الصريح لمعنى السائع الهالك الذى فى صِنْوِها اللفظىِّ "يَسُوع" عربياً .

ومر بك أيضا أن القرآنَ حين يَعْدِلُ عن التعريب فهو يَعْدِلُ عنه إلى الترجمة .

أفتكون " عيسى" هى الترجمة العربية لمعنى الاسم العبرانى " يِشُوع " ؟ فما معنى عيسى عربياً وهى لم تقع قط فى كلام العرب ؟

لا يصح اشتقاق عيسى عربياً إلا من فعلٍ ثلاثى أجوف مُعْتَلِّ الوَسَط بالواو أو بالياء ، عاس/ يعوس أو عاس/ يعيس . أما عاس/ يعوس بالواو فمعناه طاف بالليل ، وعاس على عياله يعنى كدَّ وكدح عليهم ، وعاس مَالَهُ يعنى أحسن القيام عليه ، وعَوِسَ يَعْوَسُ عَوَساً فهو أعْوَس ، يعنى دخل شدقاه عند الضحك . وأما عاس/ يعيس بالياء فالمستعمل منه " أعْيَسَ " (الزرعُ) أى لم يكن فيه رَطْبٌ ، "تَعَيَّست" (الإبل) يعنى صار لونُها أبيض تُخالطُهُ شُقرَة ، فهى عِيس . وليس فى أى من هذه المعانى جميعا ـ كما سترى ـ شىءٌ يُقاربُ ، ناهيك بأن يُطابق ، معنى الاسم العبرانى " يِشُوع " ، وأصله " يِهُوشُوع " ، أى يِهْوا خلاصٌ ، أى خَلاصُ الله .

قال بعض الصوفية أيضا أن " عيسى" تجيء من " عَسَى" ، ذلك الفعل الناقص الذى يفيد الرجاء ، فهو المرجوُّ الذى فيه الرجاء . وفى هذا القول جَمالٌ كما ترى ، ولكنه خطأ محض من حيث اللغة ، فلا تصح عيسى التى بالياء بعد العين إلا من فعل أجوف معتل الوسط بالواو أو الياء كما مر بك ، ولا تجيء قط من فعل معتل الآخر فحسب كالفعل " عسى" . هذا الصوفى إن تمعنت ، يُنَسِّقُ مقولَته على تفسير النصارى لمعنى الاسم " يشوع " ، التى يقولون إن معناها " المُخَلِّص" الذى يكونُ به الخلاص . وهذا أيضا ـ على الجانب المسيحى ـ تفسيرٌ صوفى يُفَسِّر الاسم ، لا بمعناه فى اللغة ، وإنما بما يُراد له أن يكون .

لم تجيء " عيسى" إذن فى القرآن على الترجمة من "يشوع" ، ولم تجيء أيضا على التعريب لبعد ما بين الصورتين " عيسى" ، "يشوع" (" يسوُع " فى الأناجيل العربية التى نَطَق بها نصارى العرب قبل القرآن) . فَمِمَّ جاءت " عيسى" ؟

الصحيح أن القرآن لم "يعتمد" هذه الصورة المعربة "يَسُوع" التى نطق بها نصارى العرب ، التى وجدها جاهزةً عند نزوله ، لأنها ـ إن حُسِبَت عربية ـ تجيء من ساع / يسوع يعنى ضاع وهلك ، فهو السائعُ الهالك ، على الضد من معنى "يشوع" العبرانية ، خلاصُ الله أى الذى يُخَلِّصُهُ الله وينَجِّيه ، فجاء القرآنُ بالاسم "عيسى" على غير مثالٍ فى العربية ، مقلوباً لاسم "يسوع" لإفادة عكس معناه : ليس هو السائعَ الهالك وإنما هو المُخَلَّصُ الناجى . وأصل المقلوب التام لاسم "يسوع" نطقا هو "عُوسَىْ " (بفتح السين وسكون الياء) وليس من أوزان العربية ، فعدل به القرآن إلى "عيسى" ، زنة "سِيما" ، اكتفاءً فى القلب بدلالة نقل عين " يسو " الخاتمة من آخر الاسم إلى أوله . وبقيت " عيسى" أعجمية غير عربية ، تماما كأصلها العبرى "يشوع" ، يفسرها القرآن بالمرادف : " يا عيسى إنى متوفيك " أى مستخلصك .

لم يَتَسمَّ المسيح عليه السلام بالاسم "يشوع" على غير سابقة فى أعلام العبرانيين وإنما تقدمه أكثر من يشوع ، أول وأبرز من تسمى به قبله عَلَمٌ سبق مولد المسيح بنحو ثلاثة عشر قرنا ، هو "يشوع بن نون " فتى موسى فى سورة الكهف ، الذى خَلَفَ موسى على رأس بنى إسرائيل . كان اسم يشوع بن نون فى الأصل (عدد ١٣/٨) " هُوشِيع " ، ولكن موسى عليه السلام لم يرتضه له فأبدله منه (عدد

١٦/١٣) الاسم "يِهُوشوع"، ثم تَخَفَّفَ "يهوشوع" فصار إلى "يِشُوْع" اختصارا[١]، وهذه الصورة الأخيرة " يِشُوع " هي المعتمدة في الترجمة العربية للعهد القديم (سفر يشوْع) لاسم فتى موسى يشوع بن نون .

هذه الصور الثلاث : هُوشِيَع ـ يِهُوشُوَع ـ يِشُوع ، منحوتة كلُها من الجذر العبرى "يَشَعْ" (المُبْدَل من "وسع" العربى) ، ومعناهُ من الإيساع والسَّعة ، مقصوراً فى العبرية بالذات على معنى واحد ، وهو الخروجُ من الضيق إلى السَّعَة ، يعنى الخلاصُ والتخليص ، وبهذه المادة العربية (الخلاص والتخليص) يُتَرجِمُ المترجمُ العربى للعهد القديم كل مشتقات مادة " يَشَعْ " العبرية فى توراة الأنبياء والكتبة .

أما الصورة الأولى "هُوشِيَع" (التى لم يرتَضِها موسى اسماً لفتاه فأبدلَهُ منها يِهُوشُوع) فهى ـ أى "هوشيع" ـ تسميةٌ بالمصدر من "يَشَعْ" بعد تعديته عبرياً بالهاء (وهى التعدية بالهمزة فى العربية) فيكون المعنى "إيساع" أى التخليص والإنجاء، فهو خلاصٌ ونجاء .

وأما الصورة الثانية " يهُوشُوعَ " فقد نحتها موسى عليه السلام من مقطعين عبريين هما : يِهُو + شُوع ، الأول مختصر يهوآ ، اسم الله عز وجل فى العبرية منذ موسى عليه السلام كما مر بك ، والمقطع الثانى " شُوَع " مصدرٌ بمعنى السَّعَة ، أى الخلاصُ والنجاء ، فيكون معنى هذا التركيب المزجى هو " اللهُ خلاصٌ ونَجاء " . أراد موسى عليه السلام بهذا التعديل الذى أدخله على اسم فتاه يشوع بن نون التنبيه إلى أن الله عز وجل هو " الفاعل" فى هذا الخلاص وهذا النجاء ، أى لستَ يا "هوشِيعَ" خلاصاً ونجاء ، وإنما بِالله عز وجل الخلاصُ والنَّجاء ، فالله هو مُخَلِّصُكَ ومُنجّيك .

ولأن الصورة الثالثة لاسم فتى موسى (أعنى صورته بالرسم "يشوع") هى نفسها الاسم "يِهوشُوَع" مختصراً كما يقول علماءُ العبرية وعلماءُ التوراة ، فهى لا تحتاج إلى مزيد بيان : إنها نفسها "يهُوشُوَع" التى نَحَتَها موسى عليه السلام ، "الله خلاصٌ ونجاء" يعنى الله مُخَلِّصُهُ ومنجِّيه .

هذا هو معنى "يشوع" عبريا ، اسم المسيح عيسى عليه السلام : " اللهُ مُخَلِّصُهُ ومنجِّيه " . وهى من الله عز وجل تسميةٌ على النبوءة ، لأنه هكذا كان : { **إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا** } ﴿آل عمران : ٥٥﴾ . وقد تقدم .

---

(١) راجع مادة "يشع" فى المعجم العبرى الآرامى لألفاظ التوراة ، المعجم المذكور .

ورغم أن علماءَ المسيحية يعلمون كما تعلم أنت الآن أن "يشوع" المسيح عليه السلام سَمِيٌّ لفتى موسى يشوع بن نون ، وأن معنى يِهُوشُوع قبل اختصاره إلى يشوع هو " الله خلاصٌ ونجاء" أى أن الله مُخلِّصُهُ ومُنَجِّيه ، فقد نَحَوا مَنْحَىً آخر فى تفسير اسم يشوع المسيح من دون كل "يشوع" : قالوا إنه ليس من "يَهْوا + شُوَع" ، ولكنه " يِهى - يِهىِ + شُوَع " [1] يعنى " هو - يكون - خلاصاً " أى هو المُخَلِّصُ الذى يكون به الخلاص ، وهو تفسيرُ مفْتَعَل ، لأن هذا بالذات هو الذى نَعَاهُ موسى على اسم فتاه "هُوشِيَع" كما مر بك . ولو أُريدَ للمسيح أن يكون بذات اسمه "يشوع" هو الخلاص والنجاء ، تسمية بالمصدر ، فهو المُخَلِّصُ المُنَجِّى" ، لَسُمِّيَ "هوشيع" على ما كان عليه اسمُ فتى موسى " هُوشِيع بن نون" قبل تعديله إلى "يِهُوشُوع" التى آلت إلى "يِشُوع" كما يقول علماءُ العبرية وعلماءُ التوراة ، دون الحاجةِ إلى افتعال إضمار "يِهىِ - يِهىِ" (أى " هُو يَكُون") قبل المقطع " شُوع " .

ثم لماذا ينفردُ "يشوع المسيح" بهذا الإضمار المخصوص "يِهى - يِهى" من دون كل "يشوع" سبقه أو تلاه ؟ بل وما الدليلُ على هذا من التسمية ؟ ألأنَّ "مَلَكَ الرب" الذى ظهر ليوسف النجار فى الحلم قال له : "فستلد ابناً وتُدعو اسمه يسوع . لأنه يُخَلِّصُ شعبه من خطاياهم" (متى١/٢١) ؟ فلماذا لم يُسَمِّه جبريلُ لمريم على أصل هذا المعنى "هُوشِيع" أى الخلاص ، أو يُسَمِّه " المُخَلِّص" مباشرةً أى "مُوشِيع" زِنَةَ الفاعل؟ ولكن لم يلتفت أحد لقول المَلَك ليوسف النجار عُقَيْبَ هذا مباشرةٍ : "وهذا كُلُّهُ كان لكى يتم ما قيل من الرب بالنبى القائل هُوَذَا العذراءُ تَحْبَلُ وتلدُ ابناً ويدعون اسمهُ عِمَّانُوئيل الذى تفسيره الله معنا " (متى١/٢٢ -٢٣) . أفليست "عمانُوئيل" هذه تعنى " اللهُ معنا " كما قال مَتَّى ؟ فما معنى الله معنا ؟ أليس معناها اللهُ ناصرُنا ومُؤَيِّدُنا ؟ ألا يقترب هذا كل الاقتراب من معنى "يشُوع" التى أصلُها "يهوشوع" أى اللهُ خلاصُهُ ونجاؤه ؟ ولكن اللاهوتَ المسيحى لا يَرَى هذا وإنما يرى أن هذا الطفلَ المُبشَّرَ به هو نفسه " الله" ، يُولَدُ من العذراء ويعيشُ معنا زمناً فهو نفسه "اللهُ معنا" . وهذا هو التفسيرُ بالعقيدة لا التفسيرُ بمحضِ اللغة . على أن النُبوءةَ لم تقل إن الله سيعيش معنا ، وإنما قالت تَحملُ العذراءُ وتلد مولودا " يسَمُّونهُ " اللهُ معنا

---

(١) راجع هذا التخريج فى نفس المرجع ، ص ٣٥٤ مادة " يشوع " .

فحسب ، لا أن الله سيجىء إلينا ليكون معنا . إذا قُلتُ لك : اللهُ معك ! فلا يَصِحُّ أن تفهمَ عنى أن الله معك بذاته ، أو أنك أنت من ذات الله ، وإنما الذى تفهمُهُ ببساطةٍ أنّى أدعُو لك اللهَ أن تَصْحَبَكَ عنايتُه ، لا أكثر ولا أقل ، ولكن هكذا كان .

والذى يعنينا هنا فى مقاصد هذا المَبْحَث هو أن نَعْرِف لماذا لم يُرِدْ علماءُ المسيحية ـ خلافاً لعلماءِ العبرية ـ أن يكون معنى الاسمِ "يشوع" فى المسيح وحده هو نفس معناه فى غيره ، ناهيك بأول من تسمى به : يشوع بن نون ، الذى سماه موسى عليه السلام بالاسم "يِهُوشوع" المختصر من بعد إلى "يشوع" ، التى فَشَت فى أعلام العبرانيين من بعده ، حتى سُمِّى بها المسيحُ عيسى بنُ مريم عليهما السلام .

أراد علماءُ المسيحية من المسيح أن يكون بذاته هو الخلاص "هُوشيع" الذى يكون به الخلاص ، فهو فادى البشر بدمهِ المسفوحِ على الصليب ، لم يُخَلِّصُه الله من الصلب كما فى القرآن ، فلا يَصِحُّ أن يكون اسمُهُ بمعنى الذى يُخَلِّصُهُ اللهُ ويُنجّيه "يِهُوشُوع" .

أسقط علماءُ المسيحية إذن اسم الله " يهوا " المُضْمَر فى "يشوع" (التى أصلُها "يهوشوع" أى "يهوا + شوع" كما مر بك) ، فبقيت " شوع " فأضمروا قبلها ـ لا يهوا اسم الله فى العبرية ـ وإنما "يِهِى ـ يِهِى" (أى " هُوَ يَكُون ") فأصبح معناه عندهم "هُوَ يَكُونُ الخلاص" ، يريدون هو " المُخَلِّصُ المنجِّى" ، لا " المُخَلَّصُ الناجِى" كما فَسَّر القرآنُ هذا الاسم فى قوله عز وجل : { **إذ قال اللهُ يا عيسى إنى مُتَوَفِّيكَ ورافعُك إلىَّ ومُطَهِّرُك من الذين كفروا** } (آل عمران : ٥٥) يعنى الله مُستخلِصُكَ (وهى نفسُها ـ عبرانياً ـ يِهُوشُوع " التى جاء منها "يِشُوع" اسم عيسى فى الآية) أى مُسْتَوفِيكَ كاملاً غيرَ منقرص .

لم يَرَ علماءُ المسيحية ضَيْراً فى هذا "الإبدال"، لأن "الابن" عندَهم من جوهر "الآب"، وإذن فَهْوَ هُوَ . بل إن الكلمة" (أى المسيح) كما قال يوحنا فى إنجيله "كان عند الله، وكان الكلمةُ اللهَ"(يوحنا ١ /١). وقد كَفَّرَ القرآنُ قائلَ هذه المقولة كما تعلم، وتَبَرّأ منها المسيحُ عليه السلام فى القرآن: {**ما قُلتُ لهم إلا ما أمرتنى به، أن اعبدوا الله ربى وربكم، وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم فلما تَوَفَّيْتنى**

كُنْتَ أنتَ الرقيبَ عليهم ، وأنت على كل شيء شهيد } (المائدة : ١١٧) ، لم يَدْعُ إليها هو ، ولم تُقَلْ لَهُ وهو بين ظهرانيهم ، ولكنها قِيلَت بَعْدَه .

فلماذا وكيف ، تَبَدّلَ الناس قولاً غيرَ الذى قِيلَ لَهُم ؟

❑❑❑

بُعِثَ عيسى عليه السلام ابنَ ثلاثين سنة[1] رسولاً إلى بنى إسرائيل حوالىَّ سنةِ ستٍ وعشرين ميلادية ، وفلسطينُ يومئذٍ ولايةٌ رومانية تَحْكُمُها روما مباشرة ، وروما يومئذٍ والعالمُ القديمُ كُلُّه ، وثنيٌّ مُشْرِك ، إلا بنى إسرائيل ، الشعبَ الذى يعبدُ الواحدَ الأحد منذُ إبراهيم . وقد تَنْدَهِشُ كيف يَبْعَثُ اللهُ الرسلَ إلى شعبٍ مُوَحد ، بل وكيف يَخُصُّهُ بجَمٍ غفيرٍ من رسله وأنبيائه ، فلا يكاد يخلو منهم جيلٌ إلا وقد كان معهُ طبيبٌ يُطَبِّبُهُ ويُداويه . ولكنك تستدرك على نفسك فتقول أن داءَ العارِفِ الجاحد أعتى من ضلالةِ حائر يلتمسُ مَنْ يهديه .

كانت رسالةُ المسيح إذن ـ شأنهُ شأنُ مَنْ سبقه ـ قاصرةً على هذا الجيل الضالِّ من "بنى الأنبياء" الذين حَارَ فيهم طِبُّ النبوة ، لا تَعْدُوهم إلى غيرهم من أهل الأرض وثنيين ومشركين . نَصُّ المسيح على هذا فى الأناجيل بعبارةٍ قاطعة لا تحتملُ التأويل : " لم أُرْسَلْ إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالّة" (متى ١٥/٢٤) .

لهذا ، لم تكن رسالةُ المسيح إلى قومه رسالةً إلى التوحيد ، لأن دعوةَ التوحيدِ نداء واقِر فى سمعِ هذا الشعبِ من قديم ، لا يحتاجون إلى من يَدُلُّهم عليه . وإنما كانت دعوتُهُ عليه السلام فى قومه دعوةً إلى توحيدٍ من نوعٍ آخر دَأَبُوا على مخالفته والخروجِ عليه : التوحيدِ بين الظاهر والباطن، بين القلبِ والقول ، بين الفكرِ والجوارح ، بين الإيمانِ وبين العمل على مُقْتَضَى هذا الإيمان .

كان عليه السلامُ فى دعوته ـ كما تَنْطِق بهذا أقوالُهُ فى الأناجيل ـ يَبْنى على ما جاءَ به الذين تَقَدَّمُوه ، موسى وإبراهيم ، وما كان لك أن تنتظر غير هذا ممن قال ما جِئْتُ لأَهْدُمَ الناموسَ والأنبياء ، وإنما جِئْتُ لأُكَمِّل ، ناهيك بأن تنتظرَ منه مقولةً غيرَ مسبوقة فى توحيد الله عز وجل تُضِيفُ إليه عيسى وجبريل ، كالتى صِيغَت من

---

(١) وُلِدَ عليه السلام على الراجح سنةَ ـ ٤ م ، ورُفِعَ سنة ٢٩ م .

بعده مرحلة بعدَ مرحلة فى المجامع ، مَجْمَعاً بعدَ مجمع ، تَثْلُمُ هذا التوحيدَ الخالص الذىَ جاء بِهِ موسى وإبراهيم ، فَتُبَعِّضُ ذات الواحد إلى آبٍ وابنٍ وَملَك .

والذى ينبغى التنبيه إليه ، أيا كان الدين الذى به تدين ، أن كلمة الرسول فى لب العقيدة وجوهرها لا تؤخذ من فم الشراح ، تلاميذ وغير تلاميذ ، كهنوتا وغير كهنوت ، وإنما تؤخذ من فم صاحب الرسالة نفسه ، يقولها جلية بينة فيفهم عنه سامعوه مباشرة ، دون وسيط ، عالمهم وجاهلهم سواء ، ثم يتناقلونها من بعده خَلَفاً عن سَلَف ، اللفظةَ باللفظة ، والحرف بالحرف ، لأن النبى لم يَقُل لهم هذا الكلام من عنده وإنما من عند الذى أرسله ، أى من الله عز وجل ، لا يجوزُ فيه التبديل ، ولا تجوزُ فيه الإضافة ولو بقصد التفسير والتوضيح : النبى الذى يحتاج فهم مقولته إلى تفاسير شُراحٍ يجيئون بعده بقرون ، يتفقون ويختلفون ، ويتجادلون ويتناظرون ، ثم يقترعون بأغلبية الأصوات فى المجامع أيهم المخطىء وأيُّهم المصيب ، ليس بنبى ، لأنه لم يُحسِن تبليغ الرسالة كما أنزلت إليه .

لم يكن هذا بالطبع حالُ المسيح عليه السلام ، حاشاهُ أن يكون . الذى أبلغ فأدَّى . يكفيك من محكم قوله فى تأصيل عقيدة التوحيد الخالص "لا اله إلا الله" قولُهُ المحفوظُ فى الأناجيل التى بين يديك حين سُئِل عن أعظم الوصايا فى توراة موسى فأجاب : " إن أول كل الوصايا هى : اسمع يا إسرائيل ، الربُّ إلهُنا ربٌّ واحد ، وتُحبُّ الربَّ إلهَك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك . هذه هى الوصيةُ الأولى . وثانية مثلها هى : " تحب قريبك كنفسك [١] . ليس وصية أخرى أعظم من هاتين" ، فقال السائل : "جيدا يا معلم ، بالحق قلت ، لأنه الله واحد وليس آخر سواه " . علم المسيح أنْ قد اطمأن قلب السائل فقال له : " لستَ بعيدا عن ملكوت الله" ، ولم يجسر أحد بعد ذلك القول الفصل أن يسأله (راجع مرقس ١٢/٢٨ ـ ٣٤) فقد جاء المسيح على دين موسى .

استحسن السائل قول المسيح ، واستحسن المسيح تعقيب السائل فَبَشَّرَهُ بأنه من الجَنَّةِ قريب وكأنه يزكيه لقومه ، من كان له مثلُ إيمان هذا السائل فَعَمِلَ به ، فَدَخَل

---

(١) " القريب " ترجمةٌ سقيمة للفظة Plesion اليونانية ، صحيحها " الجار" . من ذلك الوصية التى تقول : لا تشتهِ امرأة قريبك ، لا يصح أن يفهم منها سريان الحظر على نساء ذوى قرباك فقط ، بل هى لا تشتهِ امرأة جارك . وقد أحسنت الترجمة الانجليزية فقالت Neighbour وحبذا لو تفعل الترجمات العربية .

الجَنَّة : توحيدُ اللهِ عز وجل والاحسانُ إلى الجار ، ولو أحْسَنَ كُلُّ جارٍ إلى جاره لكانت الحُسنى فى الخلق جميعا .

بالتوحيد المطلق " لا إله إلا الله " قال المسيحُ كما رأيت من نص كلامه فى هذه الأناجيل ، وبالتثليث قال منتسبون إليه فى المجامع ، فَأىُّ الفريقين أولَى بالاتباع ؟

ولكنك لا تَعْدَمُ من يقولُ لك ان التثليث أيضا توحيد ، لأن الآب والابنَ والروح القُدس ثلاثة فى واحد . إنهم ثلاثةُ أوجه للذات الإلهية أو ثلاثةُ أقانيم ، تتمايز لنا نحن البشر ، وتجتمع فى الله الواحد . وليس هذا من وحى الله فى شىء ، وإنما هو من تهافت متفلسفة اللاهوت ، يُرَقِّعُون قولاً بقول ، جَرَّهُم إليه القول بآبٍ وابنٍ ومَلَك . وما كان بهم إلى هذا من حاجة لولا أنهم حَكَّمُوا المتشابه فى المُحْكَم ولم يُقَيِّدُوهُ به ، ولولا إساءتهم فهم لفظتى الآب والابن العبرانيتين ـ الآراميتين كما سوف ترى .

وهل أحَكَمُ من قوله عليه السلام يُرَدِّدُ قول موسى فى التوراة: اسمع ياإسرائيل، الربُّ إلهنا ربٌّ واحد ؟ أفيقول هذا لمن سأله عن الوصية الأولى والعظمى ، وهو يُضْمِرُ فى نفسه أنه وجبريلُ إلهَان إلى جوار الله عز وجل ؟ أليس قد وَعَدَ المسيحُ هذا السائل بالجنة إن مات على توحيد الله عز وجل؟ فماذا لو قيل لهذا السائل من بعدِ المسيح إنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثة؟ أفيصدقهم هم ويكذب المسيح ؟ فمن يضمن له الجنة بقولهم؟ أفالضمانُ عليهم؟ فكيف يَتركُ ضمانَ المسيح إلى ضمانهم هم ؟ بل من يضمن لهؤلاء القائلين الجنة وقد خالفوا الوصيةَ الأولى والعظمى التى لَقَّنها المسيحُ هذا السائل؟

بل علامَ اتكأ القائلون هذه المقولة؟ أفى الأناجيل الأربعةِ التى بين يديك قولٌ واحد قاله المسيحُ يَنُصُ على أن اللهَ ثالث ثلاثة ، أو يَنُصُّ على أن الثلاثةَ فى واحد؟

وإذا كان الثلاثةُ واحداً ، فلماذا يُقالُ أصلاً ثلاثة وهم فى النهايةِ واحد ؟

وإذا كان اللهُ اثنينِ فقط فى مقولة أصحاب مجمع نيقية عام ٣٢٥ م ، فلماذا ، تَثَلَّثَ بإضافةِ جبريل بعدَ مجمع نيقية بخمسين سنة ؟ وما شأنُ من قال باثنينيةِ الآبِ والابن وناضلَ عنها وجادلَ بها وماتَ عليها قبل أن يَتَألَّهَ جبريلُ أيضا ؟

بل ما شأن مُوسى والنبيين من قبلُ ومن بعد الذين تَقَدموا المسيحَ وقد دَعَوْا إلى التوحيد الخالص وماتوا عليه؟ أليسوا مع المسيح فى الجنة؟ فلماذا تكتم اللهُ

التثليثَ عليهم وعلى من بُعِثوا فيهم فاستجابوا لهم وماتوا على ما دُعُوا إليه فدخلوا الجنة ؟

أفقد ارتضى اللهُ التوحيدَ الخالص من الخَلْقِ أجمع قبلَ عيسى ، ثم أُغلَظَ على الخلقِ من بعده فاشترط عليهم التثليثَ لدخول الجنة ؟

وإذا كان القولُ بالتثليث هو وحدَه المدخلُ إلى الجنة كما يقولُ علماءُ المسيحية ، فلماذا تَكَتَّمَهُ المسيحُ على الناس ؟ أفقد جاء لِيُضِلَّهم عنه أم لِيَهديهم إليه ؟

أفقد تَكَتَّمها على هذا السائل عن الوصية الأولى والعظمى ، وأسرَّها في آذان بعض تلاميذه ليستعلنوا بها للناس من بعده ؟ أَفَهُوَ النبيُّ أم هُمُ الأنبياء ؟

وَهَبْ أَنَّهُ أسرَّها لتلاميذه وحوارييه ليعلنوها للناس من بعده ، فكيف لم يُسَجِّلوها هم أو الآخذون عنهم في هذه الأناجيل وقد كُتِبَت كُلُّها بعدَ رحيله، أو يَحْذِفُوا منها جوابَ المسيح على هذا السائل عن الوصية الأولى والعظمى : " اسمع يا إسرائيل! الربُّ إلهُنا رَبٌّ واحد" وتعقيب السائل وقد اطمأن قلبُهُ بهذا الجواب : " بالحقِّ قُلتَ ، لأنه اللهُ واحد ، وليس آخرُ سواه !" ؟ أليست هذه هي نفسها شهادةُ المسلم: "لا إله إلا الله"؟ فكيف خَفِيت على مجمع نيقية وعلى المجامع من بعد نيقية ؟ بل كيف خَفِيت على أساقفةِ نجران في حوارِهم ثلاثَ ليالٍ مع خاتمِ النبيين في يَثْرِب ؟

هذا الذي أَنْكَرَ أن يقالَ لَهُ " أيها المعلمُ الصالح " فقال " ليس صالحاً إلا واحد وهو الله" ، الذي أَبَى أن يكون صالحاً مع الله ، كيف يُظَنُّ به أَنَهُ اللهُ أو إلَهٌ مع الله ؟

الذي قال : "أيها الآب ! كُلُّ شيءٍ مستطاع لك ، فَأَجِزْ عني هذه الكأس [1]! ولكن ليكن لا ما أُريدُ أنا، بل ما تُريدُ أنت" (مرقس ١٤/٣٦)، الذي سَجَّلت الأناجيلُ له هذا الكلام ، الذي يبتهل إلى "الآب" (وهو الرب كما قد عَلمت) ويسأله ويدعوه ويستغيثه ، ثم يُفَوِّضُ الأمر إليه ويُذعِنُ للمشيئة ، كيف يقالَ إنَّهُ " ابن الآب" وإنَّهُ والآب واحد ، إلَهٌ في الله ، أو إلَهٌ مع الله ؟

هب أن المسيح صُلِبَ بالفعل وقُبِر ثم قام من قبره في اليوم الثالث كما يؤمن المسيحيون جميعا ، فَلِمَنْ معجزةُ القيامة من بين الأموات ؟ أللمقبور في قبره ، الذي قال على الصليب : "يا أبتاه (يعني ياربَاه كما قد عَلمت) في يديك أستودعُ روحي" (لوقا ٢٣/٤٦)، ولا فِعْلَ لِميِّت، أم المعجزة للهِ الذي لا اله إلا هو الحيُّ الذي لا يموت؟

(١) الكأس هنا كنايةٌ عن الموتِ على الصليب .

ولماذا يُؤلَّهُ المسيحُ وحدَه بهذه المعجزة ؟ أليس سيقوم الخَلْقُ جميعا ، بَرُّهُم وفاجرُهم ، يوم القيامةِ للهِ الواحدِ القهَّار ؟

ولماذا لم يُؤَلَّه " لعازرُ " الذى أحياهُ عيسى بإذن الله فانشق عَنْهُ القبر وخرج يَدبُّ على قدميه مُدْرَجَاً فى أكفانه ؟ ولماذا لم يُؤلَّه أيضا عيسى يومَ " أحيا " لعازر ؟

ولماذا أيضا لم يُؤَلَّه نبيُّ الله اليشع (اليسع) والصبيُّ الذى "أحياه" كما تقرأ فى العهد القديم (الملوك الثانى ٤/١٧ ـ٣٧) ؟

ألأنَّ المسيحَ ارتفع جسداً حيا أمام أعينهم إلى السماء ؟ فلماذا لم يُؤله أحدٌ نبيَّ الله إيليا (إلياس) الذى تقرأ فى العهد القديم (الملوك الثانى ٢/١١ ـ ١٢) ، أنه ارتفع إلى السماء جسداً حيا تحتَ سَمْعِ وبَصَرِ تلميذهِ نبيُ الله اليشع (اليسع) ؟

نعم ، ثَـمَّةَ فَرْقٌ بين رَفْع إيليا ورفع المسيح : " أَخَذَ " اللهُ إيليا قبل أن يأخذه أعداؤه ، لم يَمَسُّوُه بسوء ، أما المسيح فى رواية الأناجيل فقد مَكَّنَ اللهُ منه أعداءه الذين رفعوه على الصليب حتى الموت ، ثم دُفِن ، ليبعثَهُ الله من بعد يُطَمْئنُ تلاميذه، ثم يأخذه اللهُ إليه . ولكن أيُهما أليقُ وأكرمَ ؟ أفى صلبِ الأنبياء كرامة ؟ ناهيك بأن يُقال إن المسيح إلهٌ أو ابن الهٍ ، فكيف يُصلبُ "الإلَهُ" أو يَتْرُكُ "ابنه" للصلب على أيدى بشرٍ ممن خَلَق ؟

لابد لهذا من علَّة ، هكذا قال مؤلهو المسيح على البنوة لله : شاءت محبةُ الله الفائقةُ للبشر الذين عَصْوهُ ويَعْصُونَه منذ أبيهم آدم ، أن يُكَفِّر عنهم بقربان يَعْدلُ جسامةَ هذا العصيان ، فلم يجد قربانا أكرمَ من المسيح يبذله فداءً للبشر ، فَضَحَّى بابنه الوحيد فداءً للخلق . وتستطيع أن تَرُدَّ على هذا بقولك : فلماذا خَلَق اللهُ جهنمَ للعصاة وهو ينتوى افتداءَهم بالمسيح ؟ وإذا كان المسيح قرباناً من ذات الله لله ، فمن المُضَحِّى وهو نَفسُهُ الأضْحيَة ؟ وهل يُكَفِّرُ اللهُ المعاصى بالقرابين شأنَ آلهة الأساطير أم يُكَفِّرُها بالتوبة والطاعة ؟ وهل كان الذين صَلَبوا المسيح يُقدِّمون لله قربانا ، أم أن اللهَ هو الذابحُ والذَبيح ؟ وإذا كان المسيحُ لم يَضُرَّهُ هذا الصلب ، ولم يَفْسَد له جسد بل انبعث بجسده من قبره لم يَمْسَسْهُ سوء فبمَ كان الفداء ؟ أليس قد شَبَّه اللهُ عليهم؟ وهل يليقُ بجلال الله عز وجل الذى وسع كرسيه السموات والأرض أن يتحيز فى جسدِ بشر ، أو تكونَ له أمٌ تحنو عليه وتُرضعه وتَفطمُه وتَغْذُوه ؟ ربما قيل لك انَّ الله عز وجل إذا ارتضى أمراً فعله، لا يَحُدُّ من قدرته شيء ، وما جاز لَمَرَدة سليمان فى

قماقمهم أهونُ على الله عز وجل، الذى اتخذ من مريم العذراء جسداً تَلَبسَّ به زمنا على الأرض ، لا يُعجزُه تصريفُ مُلكه من مَحبسه وتدبيرُ ملكوته ، لأنه سبحانه كُلِّىُ القدرة ، يتعاظمُ فلا تدركه الأبصار ، ويتضاءل إن شاء فيتلبّسُ بالنملة والهَباءَة . هذا من تلبيس إبليس ، يزينُهُ لأوليائه . أما أن قدرتَهُ عز وجل لا تُحَدّ ، ما شاءَ فَعَل ، فهذا مُسَلَّمٌ مقطوع به فى جَنْب الله عز وجل بمقتضى ذات ألوهيته. ولكنك تُحيلُ على الله المُحال ، لأن المُحَالَ عدم ، والعدمُ غيرُ مقدور ، يعنى لا تتعلقُ به قدرةٌ أو عجز . والمُحَالُ فى حقّه جل وعلا أن يكون إلهاً وغير إله ، الخالقَ والمخلوق ، أن يَحُدَّهُ الزمانُ والمكان وهو خالقُ الزمان والمكان ، أن يُجْلَدَ ويُصْلَبَ مُريداً بذاته العَلِيَّة الذِّلّة والمَهانة وهو العزيزُ الجبار ، أن يموتَ ولو للحظة الحىُّ الذى لا يموت ، أو يَتَّضِعَ لخلقه الكبيرُ المُتعال . ولماذا المُحال؟ لأن مَحَبَّتَهُ " الفائقة " للبشر قد غَلَبَتْه ؟ ألاَ لو ظَنَّ هذا البشرُ فَسُحْقاً للبشر أجمع .

ثم من قال ان الله " شاء" افتداءَ البشر من معاصيهم بقربانٍ من ذاته يُقَدِّمُهُ إليهم لا بقربانٍ منهم يقدّمونهُ إليه ثم يقال إن الله ما شاء فَعَل ؟ من قال إن الله "شاء" هذا ؟ لا يصح الخبرُ بمشيئة الله إلا لنبى، ولا يجوز التَزَيُّد على الأنبياء ، فما بالُكَ بخائضين فى ذات الله يتركون مُحْكَمَ القول إلى مُتشابهه ؟ قد قال المسيحُ فى هذه الأناجيل انه يأتى بعده أنبياءُ كذبة كثيرون تعرفونهم من ثمارهم ، أى بما يدعون الناسَ إليه ، بل وقال بالنص : " ليس كل من يقول لى يا رب يا رب يدخل ملكوت السموات ، بل الذى يفعل إرادة أبى الذى فى السموات . كثيرون سيقولون لى فى ذلك اليوم يارب ، أليس باسمك تنبأنا ، وباسمك أخرجنا شياطين ، وباسمك صَنَعْنا قُوّات كثيرة [(١)] ؟ فحينئذ أصَرِّحُ لهم أنىِّ لم أعرفكم قط . اذهبوا عنى يا فاعلى الإثم" (متى ٧/ ٢١ ـ٢٣). ليس من يُرَبِّبُ المسيحَ بداخلٍ ملكوت السموات ، وإنما يدخله "الذى يعمل إرادة أبى الذى فى السموات " ، يعنى الذى يعمل مشيئة الله ، الذى يأتمر بأمره ويُنفذُ وصاياه ، فكيف يُنْفذُ وصايا الله الذى يُخالفُ أولى وصاياه : اسمع يا إسرائيل : الربُّ إلهنا ربٌ واحد ، أى اللهُ واحدٌ وليس آخرُ سواه ، كما قال ذلك السائلُ المسيحَ عن الوصية الأولى والعظمى وأخذها من فم المسيح نفسه ، لا يَسألُ عنها أحداً بعده ، فمات عليها ، فَدَخل الجنة .

---

(١) " القوات " فى مصطلح الأناجيل يعنى الخوارق والمعجزات ، وإخراجُ الشياطين يعنى إبراء المجنون أو المصروع .

كان هذا كُلُّهُ بالطبع مَثَار جدلٍ عنيف بين المسيحيين من بعد المسيح ، مؤلّهين وغيرَ مؤلهين . وليس لديك شاهدٌ على ما قاله غيرُ المؤلهين بلسانهم ، فلم يحفظ لك التاريخ إلا مقولة المؤلهة وحدهم ، الذين استقرت مقولتهم بعد قرون من رفع المسيح ، واتُّهِمَ مخالفوهم بالهرْطَقَة [1] ، أن قالوا ليس الابنُ من ذات جوهر الآب ، وطُورِدَ قائلو هذه الهرْطَقةَ وحرقَت أناجيلُهم فلم يعُد لديك دليلٌ مقطوعٌ به من كتابتهم ، كالشأن فى تلاميذِ يحيى بن زكريا عليهما السلام . ولكن الدليلَ على مقالتهم المخالفةِ لمقولة مجمع نيقية المنعقد سنة ٣٢٥ م للفصل فى الخلاف حول طبيعة المسيح بين المسيحيين أنفسهم هو مجمعُ نيقية نفسه ، ولو لم يكن على طبيعة المسيح خلافٌ بين أتباعه لما كانت هناك حاجةٌ أصلاً إلى انعقاد هذا المجمع وما تلاه من مَجامع .

هذا يدُلك على حكمة الله عز وجل من فتنة الناس بالمسيح: أغْزَرَ على يديه الآيات منذ أنطقهُ فى المهد مولوداً بغير أبٍ ، وتتابعت على يديه المعجزاتُ حتى إحياء الميت، ثم شُبِّه لهم قتْلُهُ على الصليب حتى لم تبق لأحد شُبهة فى أنه الذى مات ، ليتراءى لهم من بعدُ جسداً حياً يكلّمهم ويؤاكلُهم ثم يرتفعُ أمامَ أعينهم إلى السماء جسداً حيًّا .

وقد مر بك فى تضاعيف هذا الكتاب أن الله عز وجل يفتنُ الناس فى هذه الدنيا بما شاء ، وكيفما شاء ، بل ويفتنُهم بالملائكة رضوانُ الله عليهم كما رأيت من قبل فى الفتنة بهاروتَ وماروت ، ومر بك أيضا أن الفتنةَ من الله عز وجل هى على أصلِ معناها فى اللغة ، اختبارٌ وتمحيص ، لِيهْلِكَ من هَلَكَ عن بَيِّنة ، ويحيى من حَيَّ عن بينة .

ولأن المسيحَ عليه السلام هو آخرُ رسل اللهِ إلى بنى إسرائيل ، فقد شاءت حكمتُهُ عز وجل أن تكون الفتنةُ بالمسيح فى شعب التوحيد منذ إبراهيم فتنةً فى هذا التوحيد نفسه الذى تعَالوا بهِ على جيرانهم من قديم ، ولو كانت بَعْثَةُ المسيحِ فى شعب وثنىّ يُعَدِّدُ آلهته لما كان لفتنهم بالمسيح من معنى أنْ أضافوا ابنا جديداً لكبير آلهةِ الأولمب وذراريه . بل أراد اللهُ عز وجل التمحيصَ الأخيرَ لصدقِ إيمان الذين استتاب

---

(٢) " الهرطقة " hairesis اليونانية من hairein أى اتخذَ أو تخَيَّر ، صارت فى مصطلح الكنيسة إلى معنى ابتدع أو قال فى الدين كفرا .

موسى آباءهم من عبادة العجلِ فى التيه . الذين قال لهم موسى : " اسمع يا إسرائيل، الربُ الهُنا ربٌ واحد" (تثنية ٦/٤) فأجاب بها المسيحُ ذلك السائلَ عن الوصيةِ الأولى فى الناموس .

لا يستقيم هذا مع قولِ من قالوا الآبُ والابنُ واحد ، ثم أضافوا إليهما من بعدُ جبريل ، ثلاثة أوجهٍ فى ذاتِ الواحد أو ثلاثة أقانيم . تُرى ماذا يبقى من المسيح الذى عرفوه وقد فَنِىَ فى ذات اللهِ وفَنِىَ جبريل ؟ ليس بعد هذا التشبيه تشبيه .

ليس هذا من قول المسيح فى الأناجيل التى بين يديك ، ومن ثم فهو لا يُلْزِمك. فلا أحدَ يأخذُ دينَهُ من أفواه الفلاسفةِ أو الشعراء ، وإنما يأخذهُ من فم صاحبِ الرسالةِ نفسه ، المُبَلِّغ عن ربه ، الذى قال فى هذه الأناجيل يُناجى رَبَه : " أنت الآله الحقيقى وحدَك " (يوحنا ١٧/٣) . هذا هو الأصلُ المُحْكَم الذى تقيسُ عليهِ كُلَّ أقوالِ المسيح فى هذه الأناجيل التى بين يديك وإن شُبِّهَ لكَ بعضها أو اشْتَبَهَ عليك .

تُرَى ما يقولُ المسيحُ فى "مجيئه الثانى" لهؤلاء الذين شُبِّه لهم ؟ أيُنْكِرُ عليهم أن قالوا فيه مالم يُقل ، أم يأخذُهم بما استحفظَهُم إياهُ فنسوه ؟

أما أمثالُ هذا السائلِ المسيحَ عن الوصيةِ الأولى والعظمى : اللهُ واحدٌ وليس آخَرُ سواه ، فعَضوا عليها بالنواجذ ، أولئك الذين استمسكوا بالعروة الوُثْقَى لا انفصامَ لها ، فَطُوبَى لهم وحُسْنَ مآب .

❑❑❑

كان مُوتُ المسيح على الصليب فتنة كبرى لمن شُبِّهَ لهم وقوعُ الصلب على ذات المسيح ، أعنى جميع الذين شَهدوا هذا الصلب : شانئو المسيحِ ومبغضوه وطالبو دَمِه ، وأيضا أنصارُهُ ومُحِبُّوهُ الذين لو خُيِّرُوا لافْتدَوهُ بأنفسهم وأبنائهم .

فأما شانئو المسيح ومُبغِضُوه وطالبو دمه فقد أخذتهم العزَّةُ بالإثم أنْ قتلوا بأيديهم المسيحَ عيسى بن مريم رسولَ الله ، وتباهَواْ بها مستهزئين : {**إنا قتلنا المسيحَ عيسى بنَ مريمَ رسولَ الله**} (النساء ، ١٥٧) . وكم قَتَل اليهودُ من أنبياء العهدِ القديم ، ثم خَتَموا بيحيى عليه السلام فيما تَروِى الأناجيل ، فما قامت الدنيا وما قعدت ، ولم يَقُلْ أحدٌ فى نَبِىٍّ قُتِل إنَّهُ أراد هذا القتلَ وسعى إليه وكان

محْوَرَ رسالتِه ، يُكَفِّر به عن خطايا البشر أو يفتديهم بدمه ، كما قيل في المسيح ، وإنما قال أتباعُ النبي المقتول إنهُ مات شهيدا ، دَمُهُ على قاتليه .

وأما أنصارُ المسيح ومُحبُّوه فقد كان موتُهُ على الصليب محنَةً لهم أي محنة ، بل كان فاجعةً كبرى لا تَعْدِلها مصيبة : أفقد مات الذي قال لهم إن الله أرجأه إلى قُرب انقضاء الدهر ؟ هاهم يَرَوْنَهُ بأعينهم يساقُ إلى الصلب مُهانا ، ثم يُرْفَعُ على الصليب مثقوبَ اليدين والقدمين ، ويُسلمُ الرُوحَ مطعون الجَنْب ، ليدفنوه بأيديهم . أفقد مات الذي أحيا الميت؟ فلماذا لم يُنْقذْ هو نفسه من القتل على الصليب ؟ نعم ، قد قطعوا رأس يحيى قبلَه ولكن ابن زكريا ما أحيا مَيْتاً ولا أبْرأَ أكْمهَ أو أبْرَص ، ولم يقُل لتلاميذه انه لا يموتُ إلى قُرب انقضاء الدهر كما سمعوا هم المسيحَ يقول . فلماذا تركهُ اللهُ يموت ؟ لمَ لمْ يَقْبل اللهُ ضراعتَه : "أيها الآب ، نَجِّني من هذه الساعة" (يوحنا ١٢/٧) فَلَمْ يُنَجِّهْ ؟ لماذا يتركهُ يموتُ وهو يناديه : "إلهي ، إلهي ، لماذا تركتني؟" (متى ٢٧/٤٦) ، أفقد مات المسيحُ لا يدري بأي ذنب يُقْتَل ؟ أو يموت يتساءل لماذا تَركَهُ اللهُ يموت ؟

كُلُّهم شَكَّ فيه ، كما قال لهم ليلةَ القبض عليه كُلُّكمْ تَشكّونَ في الليلة (مرقس ١٤/٢٧) . تُرى لماذا شَكَّ التلاميذُ في المسيح ، وفيم كانت شكوكُهم ؟ أفي نُبُوَّته وقد علموا أن الأنبياء تُقْتَلُ وتموت ، وما رأسُ يَحيى على طَبَقٍ من الفضَّة ببعيد ؟ أم شَكُّوا في " ألوهيته" وقد علِمُوا أن الآلهة خالدةٌ لا تموت ، فَفِيمَ الفاجعةُ إذن في "شُبْهَة" إلهٍ يموت ؟

أما الذي لم يَشُكّ فيه أحد ، تلاميذُ وغيرُ تلاميذ ، فهو أن الذي مات على الصليب هو نفسه المسيح . لم يَرْتَبْ أحدٌ ولو لِلَحْظة في أن المرفوعَ على الصليب ليس هو ، وإنما هو يَهُوذا الذي أسْلَمَه ، شُبِّه لهم .

كان التشبيهُ غايةً في الإتقان ، لا يستطيعهُ إلا خيرُ الماكرين :{ **وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ ، واللهُ خيرُ الماكرين** } (آل عمران : ٥٤) .

□□□

هذا المائتُ على الصليب ليس هو المسيح ، يكفيك في هذا قولُ القرآن وليس بعده قول لِقائل { وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّهَ لهم ، وإن الذين

اختلفوا فيه لفى شَكٍ منه ، ما لهم بـه مـن علم إلا اتباع الظـن ، ومـا قـتلوه يقـينا. بل رفـعـه اللهُ إليـه وكـان الله عـزيـزا حكيـمـا} (النسـاء : ١٥٧ ــ ١٥٨) . أمـا إن أردتَ الدليلَ من هذه الأناجـيل التى بين يديك ، فـهـاك الدليلَ من قـولِ المائتِ على الصليب : "إلهى ، إلهى ، لماذا تركـتنى!" (متى ٤٦/٢٧) ، وقـد حـرص متى على إثبـات هذه العـبـارة فى إنجيله بنصـهـا الأصلى : "إيلى، إيلى ، لَمَا شَبَقْتَنَى" كأنه يُؤكِّدُ للقارىء اليونانيّ أنها هكذا قيلت. وحرص أيضا مرقس فى إنجيله على إثبات نفس العبارة "إلهى إلهى لماذا تركتنى" بنصِّهْا الأصلى واليـونانى (مـرقس ٣٤/١٥) وإن تحـول مـرقس بلفظة " إيلى" (أى إلهى) العـبـرية ـ الآرامية إلى نظيرتها العبرية القُحّ " إلُوهِى" (بمد الكسرِ فى الهاء وسكون الياء بعدها) ولكن قلمه اليونانى لم يستطع الهاء فحذفها ، فصارت "إلُوى" التى مازلت تقرؤها فى الترجمات العربية محذوفة الهاء تَبرُكاً بالأصل اليونانى [1]. وحرص الكاتبان كلاهما ألا يشـتبهَ عليك مقـصودُ المائت على الصليب فتظن أنه أراد "ايليا" (إليـاس عليه السلام) ولم يُرِدْ "إيلى" أو "إلُوهِى" (أى إلهى) فقال كلاهما ان قوما من الحاضرين لما سَمعُوا العـبارة ظنوا أنه ينادى إيليـا (المرفـوع حيـاً قبله فى العـهـد القـديم) كى يأتى ويُخَلِّصَه ، وكـأنهـمـا يقـولان لك لا تخطىء الفَهْمَ كـمـا أخطأ هؤلاء ، بل كـان المصلوبُ ينادى " إلهه" !

فَطِن لوقـا ويوحنا ـ اللذان كتبا إنجيليهما بعد مَتّى ومرقس ـ إلى خطورة هذا الذى أثبتهُ متى ومرقس فى إنجيليهمـا على دَعْوى أُلوهيـة المصلوب :كيف يستغيثُ إلهَه ؟ أفلِلإله إله ، بل كيف يستغيثُ من الصَّلب وهو يَعْلَمُ أنه لهذا جاء ويُعلِمُه ؟

أما لوقـا فقد حذف هذه العبارة من إنجيله وأثبت فى موضعها : "يا أبتاه ، فى يديك أستـودع روحى" (لوقـا ٤٦/٢٣) ، وأمـا يوحنا فـقـد أسقط العـبـارةَ جُمْلَةً ولم يُثبت فى موضعها شيئا .

أمـا أنت فَتَفْطَنُ إلى أخطرِ مما خَشيَه لوقـا ويوحنا : هذا المائت على الصليب ، الذى يستغيثُ اللهَ ولاَ مُغيث ، ليس بنبى . ولا عليك أن يُقالَ إلهٌ أو ابن إله .

□□□

---

(١) ليس فى اليـونانيـة حرف مخصوص للهاء، وإنما هى عـلامة "نَقْط" ترسم فوق حرف علة يبدأ الكلمة ، ومن هنا لا تُسمع الهاء من اليونان إلا هاء بادئة للكلمة، كما فى "هرطقة" وأمثالها.

على أن المقبوضَ عليه عَشاءَ فِصْحِ اليهود فَحُوكِمَ وأُدين ، ليس هو أيضا المسيح . دليلُك فى هذا من الأناجيل عبارةٌ نَدَّت عنه وهو يُحاكَم ، أثبتها متى فى إنجيله وهو لا يدرى مدى خطورتها فى تحديد هُوِيَةِ الذى حُوكِمَ فأُدين : "وأيضا أقولُ لكم من الآن تُبصرون ابن الإنسان (يعنى المسيح) جالساً عن يمين القوة وآتياً على سحاب السماء" (٢٦/٦٤) فكيف يكون الماثلُ أمامَهم هو نَفسُهُ فى عين الوقت الجالسَ عن يمينِ القوة الآتى فى سحاب السماء؟ أليس قد أفلت الله المسيحُ قبل أن يُحاكم أو يُصْلَب ؟ أفهل تفوتُكَ عبارةُ "من الآن" ؟ تجد مثل هذا فى لوقا أيضا أكثر وضوحا : "إن كنت أنت المسيح فقل لنا . فقال لهم إن قلت لكم لا تصدقون . وإن سألتُ لا تجيبوننى ولا تطلقوننى . منذ الآن يكون ابن الإنسان جالسا عن يمين قوة الله . فقال الجميع أفأنت ابن الله . فقال أنتم تقولون إنىٍّ أنا هو"، (لوقا ٢٢/٦٧ ـ ٧٠). مرقس وحده فَطَن إلى خطورة ما يَخُطُّهُ قلمهُ ، فأسقط "منذ الآن" ، وزيادة فى الحيطة غَيَّرَ ما قيل فى متى ولوقا فى جواب الذى حُوكِمَ حين سئل هل هو المسيح . قال متى " قال له يسوع أنت قلت" (متى ٢٦/٦٤) وقال لوقا "أنتم تقولون" (لوقا ٢٢/٧٠) ، وقال مرقس "فسأله رئيس الكهنة أيضا وقال له أأنت المسيح ابن المبارك . فقال يسوع أنا هو" (مرقس ١٤/٦١ ـ ٦٢) . أما يوحنا فقد أسقط هذا وذاك .

ترىَ هل رُفِعَ المسيحُ لحظةَ جاءوا يقبضون عليه وشُبِّهَ لهم يهوذا الاسخريوطى [(١)] فأخذوه مكانه ؟ هذا هو ما يقوله لك إنجيلُ برنابا الذى يُنْكِرُهُ المسيحيون ، ولكنك تجدُ مثله فى إنجيل مرقس ولم يُمَحِّصْهُ أحد : "وللوقت وفيما هو يتكلم أقبل يهوذا ـ واحدٌ من الإثنى عشر ـ ومعه جمعٌ كثير بسيوف وعصيٍ من عند رؤساء الكهنة والكتبة والشيوخ . وكان مُسْلِمُهُ قد أعطاهم علامة قائلا الذى أقَبِّلُهُ هو هو . أمْسكُوه وامضُوا به بحرص . فجاء للوقت وتقدم إليه قائلا ياسيدى ياسيدى . وقَبَّلَه . فألْقوا أيديهم عليه وأمْسَكُوه . فاستلَّ واحدٌ من الحاضرين السيف وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه. فأجاب يسوع وقال لهم كأنه على لصٍ خرجتم بسيوفٍ وعصِى لتأخذونى . كُلَّ يوم كنتُ معكم فى الهيكل أُعَلِّم ولم تُمسكونى . ولكن لكى تَكْمُلَ

---

(١) الاسخريوطى أصلها العبرى "إيش قِريوت" يعنى الرجل الذى من " قريُوت" اسم بلدة فى اليهودية أو فى أرض موآب ، فهو المنسوب إلى هذه البلدة ومعنى اسمها عبريا " قُرى" جمع قرية ، فهو يهوذا القروى. وقد تحرفت ايش قريوت على قلم الأناجيل اليونانية إلى اسخريوط.

الكُتُب . فتركه الجميعُ وهربوا . وتبعه شابٌ لابساً إزارا على عُرْيه فأمسكه الشبان . فترك الأزارَ وهرب منهم عُريانا" (مرقس ١٤/٤٣ ـ ٥٢) . والذى يتعين التنبيه إليه فى خصوص هذا النص الإنجيلى المعتمد عند المسيحيين كافة ، هو أن التلاميذ هربوا جميعا لحظةَ القبض على المسيح ، فلا تصح لهم شهادةٌ على ما قاله المقبوضُ عليه للجند لحظة القبض عليه ولا على ما قيل له منذ لحظة القبض عليه ، وما جرى له وما جرى منه أثناء المحاكمة التى جرَت بين جدران مُغلَقة ولم تجْرِ علنا ، وكذلك ما قاله وقيل له عند هيرودس مَلكِ اليهودية من قِبَلِ الرومان أو عند والى روما بيلاطُس البُنطى كالذى تقرأ فى الأناجيل الأربعة المعتمدة ـ وهو ما يُفسِّرُ لك اختلافَ الكتبة الأربعة لهذه الأناجيل اختلافاً كبيراً فيما بينهم حَولَ ما قيل أو حَدَث . لا تَقْبَلُ شهادَتَهُم لا لأنك تُجَرِّحُهُم ، وإنما لأنهم كانوا عن هذا غائبين، والغائبُ لا يُعْتَدُّ بشهادته. ربما قلت انهم أو بعضهم على الأقل شَهِدَ الجلد والصلب اللذين وقعا علنا ، فتكتفى منهم بما سَمِعوا أو عاينوا منذ الجلد إلى الموت على الصليب . ولكنهم لم يسمعوا كُلَّ الذى قيل ، دليلكَ فى هذا تضاربُهم فيما رووه ، فتقطع بأنهم أكملوا ما لم يسمعوا ، وكانت لكل منهم مصادره ، وتفاوتَ قول الرواة ، فتفاوتت أقوالهم . بل هناك ما تقطعُ بأنه لم يَحْدُث، وإنما هو من قول الرواة ، من هذا ومثله الحوارُ الهامس بين المائت على الصليب وبين زميليه، الذى انفرد به لوقا فى إنجيله (لوقا ٢٣/٣٩ ـ ٤٢)، المختوم بقول المائتُ على الصليب للص التائب: الحقَّ أقولُ لك إنك اليوم تكون معى فى الفردوس ! أكان الثلاثةُ يتصارخون بهذا الحوار ليسمعه جمهورُ الحاضرين فى الساحة مثلما صرَخَ المائتُ على الصليب لحظةَ أَسْلَمَ الروح "يا أبتاه ، فى يديك أستودعُ روحى"، التى وقعت فى سَمْعِ مَتّى ومرقس بلفظ: "إلهى إلهى لماذا تركتنى"؟ تَصَوَّرْ أنت المسافةَ بين المرفوعين على الصليب وبين الجُند، ثم بين الجُند وبين الجمهور، واحْكُمْ بنفسك .

ولكن الذى نتوقف عنده هو هذا الشاب الذى رآه مرقس يتبع المقبوَض عليه عُريانا إلا من إزار ائتزر به ، فأرادوا إمساكه ، ولكنه ترك إزارهُ فى أيديهم لِيَفِرَّ عريانا . تُرى من كان هذا الشاب الواقف مباشرةً خَلْفَ المقبوض عليه ؟ أكان من التلاميذ؟ كيف وقد هربوا جميعا كما يروى لك مرقس [1] ؟ أفكان من الجند ؟ فكيف

(١) مرقس صاحب هذا الانجيل هو تلميذ لبطرس الحوارى ، فهو ينقل عنه .

أرادوا إمساكه ؟ أكان هو يهوذا ، فكيف يهرب منهم وهو الذى جاء بهم ؟ أكان عابرَ سبيل دفعهُ الفضولُ إلى السَّيْر فى موكبِ الجند والمقبوض عليه مثلما يسيرُ الناس فى موكبِ الشرطَةِ والجُناة ، فما خَشْيتُهُ من الجندِ وما خَشْيةُ الجندِ منه ؟ أفقد أمسكوا بالمتجمهرين جميعا ؟ فلماذا يحاولون الإمساك بِهِ وحده ؟ أليس لأنه استفز شكوكَهم التصاقهُ بالمقبوضِ عليه وهيئتُهُ بزىِّ اللابسِ إزاراً على عُرْيه ؟ أفقد لمسوا إزاره فسقط عنه أم جَبَذُوه به فَتَفَلَّت منه ؟ وكيف يخرج من إزاره فيستفزهم عُرْيهُ ولا يَلْحَقُون به ؟ كيف انسل من أيديهم ولم يُلاحقوه ؟ أليس هو المسيحَ نفسَه الذى حَاجَزَت عنه الملائكةُ بعد أن أَلقىَ شَبَهُهُ على يهوذا المقبوضِ عليه لحظة " القُبْلة " لا تدرى من قَبَّلَ من ؟ ألم يأخذ الملائكةُ لباسَ عيسى فوضعوه على يهوذا ، لم يُبقوا له إلا إزاراً يأتزرُ به، ثم يتركه فى أيديهم ليَتلَبَّس رِداءً من نور لا يُبصِرُهُ إلا ملائكةُ من نور، محجوبون عن أعينِ الناس؟ هكذا غاب الشابُ عن أعينِ طالبيه الذين قَبضوا على يهوذا مكانه.

ربما قيل لك إن من مأثور المسيحيين غير المسطور فى الأناجيل أن هذا الشاب اللابسَ إزارا على عُريه كان "يوحنا " التلميذ الذى كان المسيحُ يُحبه. وليس بشىء لأن المكتوبَ فى الأناجيل هو أن التلاميذ كُلّهم هربوا ، لم يتبعه أحد منهم أو فَكَّرَ فى اتباعه لم يتبعه أحدٌ بعد هربهم ومُضىِّ الجُند إلا بطرس الذى تبعهم من بعيد كما يقول لك متى ومرقس ولوقا . ولكن يوحنا يقول فى إنجيله (وهو ليس يوحنا التلميذَ المَعنىّ) إن بطرس لم يكن وحده ، وإنما كان معه التلميذُ الآخر (يُريد يوحنا) الذى كان معروفاً عند رئيس الكهنة فدخل مع يسوع إلى دار رئيس الكهنة (يوحنا ١٨/ ١٥) ، ولايصح أن يكون هذا والذى فَرَّ عُريانا هو نفس الشخص ، إذ كيف يدخل عُرياناً على رئيس الكهنة ؟ وكيف يستعيدُ ثيابه ويَلْحَقُ الموكب ؟

هذه المعجزةُ الكبرى ، معجزة تشبيه عيسى لطالبى دمه وقُضاته ومحاوريه وللجمهور الذى شَهِد الصلب، لم يشاهدها من دون المسيح والملائكة أحدٌ قطَ إلا واحد ، هو يهوذا المُشبَّه به . وكيف تُعَمّى عليه والجُند الذين جاء هو بهم وسار معهم وكَلَّمَهُم وكَلَّمُوه ، يقبضون عليه لا يشكون لحظة أنه هو نفسه عيسى الذى دَلَّهُم عليه : خرج من صفوفهم ليُقَبِّل المسيح فتركوا المسيحَ وقبضوا عليه هو ؟ أليس قد أَحَسَّ يهوذا أنه لم يزل هو يهوذا ولكن الجند يَرَوْنَهُ هو المُراد القبضُ عليه ؟ الذى أصبح صوتُه كصوته وهيئتُهُ كهيئته ويتكلمُ بمثل كلامه ، فيظن الجميعُ أنه هُوَ هُو ، حتى التلاميذ

الذين هربوا ظناً منهم أن قد أُخِذَ مُعَلمُهم ؟ ولكنه لا يزال هو يهوذا لا شُبْهَة عنده فى ذلك ، فما بالُ الناسِ قد سُحِرُوا ؟

هنا يُدرك يهوذا المقبوض عليه عُمقَ الفاجعة : أغواهُ الشيطانُ فَشَكَّ فى نُبُوةِ مُعَلِّمه ، وزَيَّنَ لهُ الشيطانُ أن يمتحن صدقَ المسيح فى دعواهُ النبوة فَدَلَّ عليه خصومَه وطالبى دمه . قال فى نفسه إن كان نبياً فلن يُمكِّنَهمُ الله منه ويُخَلِّصَه ، وإن كان دَعياً مُحتالاً فبئس جزاءُ المُحتالِ الدَّعِى ، وقد احتاط هو - يهوذا - لنفسه وحَظِىَ عند الكهنة . ويُفجَعُ يهوذا بالذى كان : أهكذا يخلص الله المسيح ؟ أيُخَلِّصه ويوقعُهُ هو فى نفس المصير الذى أراده بمعلمه؟ أفقد أوقعَهُ فى الحفرة التى نَصَبَها له ؟ فَمَنْ ليهوذا بالذى يُخَلِّصُه هو الآن وهو صفرُ اليدين مما أُوتى عيسى، صاحبُ العجائبِ المعجزات؟ أفيقول لهم انه ليس هو ؟ فمن ذا يُصَدِّقهُ وهوَ هُوَ عند كُلٍّ من يراه أو يسْمَعُه ؟ ليس أمامَهُ إلا أن يستسلم للمصير الذى أراده لمعلمه عساه يُكَفِّرُ بها عن عبث الشيطان به، ويَرُدُّ سَهْمَهُ فى نَحْرِه . عساهُ بصمته يُضيف تمويهاً إلى تمويه ، فينجو المسيحُ بنفسه ويكتفوا هم به . عساهُ بافتدائه المسيحَ بنفسه أن تُكْتَبَ لَهُ بها حسنةٌ قد يمحو بها الله عنه إثْمِ ما قد فعل . كانت لسانَ حاله عبارةٌ حَفِظَها لوقا فى إنجيله حينَ سُئل : إن كنت أنت المسيحَ فقل لنا ! قال إن قلت لكم لا تصدقون ، وإن سألتُ لا تجيبوننى ، ولا تطلقوننى . ويمضون به ويمضى معهم، وفى أذنيه فقرةٌ من مزمور لداود : "عَتَّا يَدُعتى كِى هُوشِيع يِهْوَا مشِيحو ! (الآن عَرَفْتُ أن اللهَ مُخَلِّصُ مَسيحه !) (مزمور ٢٠/٧).

كيف خَفيت هذه الفقرةُ السابعة من مزمور داود العشرين : "الله مخَلِّصُ مسيحه" ، على كَتَبَة أناجيل جَعلُوا من مزامير داودَ نُبوءاتٍ تُحَدِّث بسيرةِ المسيح ومصيرِه ؟ أليس فى هذه العبارة التى تَرَنَّمَ بها داودُ فى المزمور "اللهُ مخَلِّصُ مسيحه" ، التى هى بالعبرية "هُوشِيع يِهْوَا مْشِيحو" ، تحديدٌ لاسم هذا المسيح الذى يُخَلِّصُهُ الله؟ أليست هُوشِيع يهوا هى مقلوبَ "يِهُوشُوع" اسم المسيح "يشُوع" ؟ فلماذا لم يَفْطِنوا إليها ، بل قل لماذا أسقطوها ؟ أليس لأنها على الضدِّ مما يريدون الاستشهادَ بِهِ على خُذلانِ الله مسيحَه ؟ بل قل كيف خَفِى عليهم معنى الفقرات من مزمور داود الحادى والتسعينَ التى أثْبَتَها لوقا فى إنجيله على لسانِ إبليس يُغوِى بها المسيح : "ثم جاء به إلى أورشليم وأقامه على جناح الهيكل وقال له إن كنت ابن الله فاطرح نفسك من هنا إلى أسفل ، لأنه مكتوبٌ أنه يُوصى بك ملائكته لكى يحفظوك ، وأنهم على أياديهم

يَحْمِلُونك لكى لا تَصدِمَ بحجر رجلك" (لوقا ٤/٩ ـ ١١)؟ أليس إبليس يستشهدُ هنا للمسيح بفقراتٍ من هذا المزمور؟ أليس فى هذا دليلٌ على أن لوقا يعتبر هذا المزمورَ فى المسيح ، فلماذا لم يلتفت لوقا إلى بقية ما قيل : "لأنك قُلتَ أنتَ ياربُّ مَلْجَئى ، جَعَلْتَ العَلِىَّ مسكَنَك . لا يلاقيك شرٌ ولا تَدنو ضربةٌ من خَيْمَتك . لأنه يوصى ملائكته بك لكى يحفظوك فى كُلِّ طُرُقك . على الأيدى يحملونك لئلا تَصْدِمَ بحجرِ رجْلك. على الأسدِ والصِّلِّ تطأ . الشِّبلَ والثعبانَ تَدوس . لأنه تعلّقَ بى أُنَجِّيه [1] أرَفّعُه لأنه عرَفَ اسمى . يدعونى فأستجيبُ له . معَه أنا فى الضّيق . أُنْقذهُ وأُمَجّدُه . من طول الأيام أشْبعه وأريه خلاصى. (مزمور ٩١/٩ ـ ١٦) ؟ أليس قد رَفَعَ اللهُ المسيحَ قبل أن يُصْلَب؟ أليس هكذا كان خلاصُ اللهِ مسيحَه ؟ أكانت هذه فى المائت على الصليب أم فى الذى رُفِع ؟

يهوذا وحدَه هو الذى عَلِمَ وعاين . ولكن يهوذا لم يَقُل لأحدٍ ممن شُبه لهم .

كان يرجو بصمته أن يكتفى اللهُ من عقابه بالإهانة والجلد ، فمضى يحمل على كَتفه صليبَه وهو يُرَدّد : "اغفرْ لهم يا أبتاه ، فإنهم لا يعلمون" . نعم ، لا يعلمون عِلْمَ الذى يعلم ، ولو عَلِمُوه لشابت رؤوسُهم ، أو لخزِيُوا وذَلوا أو لانْفضّوا من حوله وذهبوا يلتمسون المسيح الذى أفلتَ من أيديهم بآيةٍ من آياتِ الله . فليصطبرَ عليها . لا يئنُّ وهم يثقبون بالمسامير يديه وقدميه ، ولا يشكو وقد رفعوه على الصليب ، ودماؤه تنزف ، ونَزْعُ الموتِ يقترب . كانت ما تزالُ به نُضاضَةٌ من أمل فى عفوِ الله وقد احتملَ ما احتمل . ولكن الأمل ينطفىء بمجىء مَلَكِ الموت يتراءى ليهوذا على الصليب فَيَصْرُخُ يأساً هو أفظعُ الألَم : "إلهى ، إلهى ! لماذا تركتنى !" .

أفقد غفر اللهُ ليهوذا فعلتَه ؟ أفقد شاء برحمتهِ أن يَحْتَسِبَها لَهُ شَهادة ؟

اللهُ عز وجل وجل بغيبهِ أعْلم .

ولكنك تعلمُ الآن ، وإن كُنْتَ غيرَ مُسْلم لا يُصَدِّقُ بخبر القرآن ولا يَعْتَدُّ بأنباء القرآن، أن "يهوشوع" قد كانت فى المسيح "يشُوع" اسما على مُسَمَّى ، فقد خَلَّصَ اللهُ مسيحَهُ ونَجَّاه: إنهُ "المُخَلَّصُ الناجى"، لا الخلاصُ أو الذى يكونُ بِهِ الخلاص كما يُفَسِّرُهُ علماءُ أهل الكتاب .

---

(١) فمم أنجاه ؟ ناهيك أن تعلم أصلَ اللفظة فى الأصل العبرانى " أفَلْطِهُو" يعنى "أفْلِتُه" . فمم أفلت المسيح ؟

وسبحانَ العليمِ الخبير ، الذى عَلَّمَ بالقلم ، عَلَّمَ الإنسانَ ما لم يَعْلَم .

□□□

أما جثمانُ يهوذا الذى قُبِر ، ففى إنجيل متّى ما يُفَسِّرُ لك مصيرَه :

" وفيما هما ذاهبتان إذا قومٌ من الحراس جاءوا إلى المدينة وأخبروا رؤساء الكهنة بكل ما كان (يعنى أن المائت على الصليب قد قام من قبره الذى وجدوه خاليا من جثمانه) . فاجتمعوا مع الشيوخ وتشاوروا وأَعْطَوْا العسكر فضةً كثيرة قائلين قولوا إن تلاميذه أَتَوْا ليلا وسرقوه ونحن نيام . وإذا سُمِعَ ذلك عند الوالى (أى إذا افْتُضِحَ كَذِبُكم أو حاسَبَكمُ على غفلتكم عنه) فنحن نستعطفُهُ ونَجْعَلُكم مطمئنين . فأخذوا الفضة وفعلوا كما عَلَّمُوهم . فشاع هذا القولُ عند اليهودِ إلى هذا اليوم" (متى ٢٨/١١ ـ ١٥) .

ما يدريك أن هذا بالضبط هو الذى حَدَث ؟ ما دُمتَ قد سَلَّمْت بأن المقبور هو يهوذا وليس المسيح ؟ ولكن " السارقين" من اليهود يكتشفون المهزلة ، فقد بَطَلَ التشبيهُ وعاد الجسدُ يهوذا الذى كان ، فماذا يفعلون به ، أفيعتلنون بفضيحتهم للناس أم يُغَيِّبُون الجثمانَ بعيداً عن القبر ؟ أَلْقَوا به من عَلٍ ، لِيُظَنَّ أنه نَدم فخنقَ نفسَه كما قال مَتّى ، أو دَفَعَ بنفسه من حالق كما قال بطرس " وإذ سقط على وجه انشقَّ من الوَسَط ، فانسكبت أحشاؤه كُلُّها " (أعمال الرسل ١/١٨) .

□□□

ونحن لا نجادلُ الأناجيلُ فى كيفية الصلب الذى كان ، فالصلبُ واقعٌ وَقع لقول القرآن : " ولكن شُبِّه لهم" ، أى حدث القتل وحدث الصلب ، ولكنهما كانا فى المصلوب الذى شُبِّهَ لهم ، لا فى عيسى الذى رُفِع . ولا نجادل الأناجيل أيضا فى استشهادهم من المزامير على كيفية الصلب وما قاله المصلوب من مثل " ثقبوا يدى ورجلى" ، "على ثيابى اقترعوا" ، هذا كُلُّه فى المصلوب ، لا فى شخصه . ولا يصح قَصرُ " نبوءات المزامير" على المسيح وحده ، بل منها ما هو فى نجاته ، ومنها فى إيقاعِ الصلب على المُشَبَّه به ، الذى أوقَع به عند طالبى دمه فوقع إثمهُ على نفسه : " كراً جُبّا ، حَفَرَه ، فسقطَ فى الهُوَّةِ التى صَنَع . يرْجِعُ تَعَبُهُ على رأسه وعلى هامته يَهْبطُ ظُلْمُه" (مزمور ٧/١٥/١٦) .

ونحن أيضا لا نجادل الأناجيل فى أن المسيح تراءى لتلاميذه بعد الصلب، أعنى بعد نجاته من الصلب، بل هذا هو الأقربُ إلى الصواب ، الأشْبَهُ بما فى القرآن : " إنى متوفيك ورافعك إلىّ". وقد مر بك أن التوفى فى الآية من "الاستيفاء" بمعنى الاستخلاص كاملا غير منقوص ، وقع الاستخلاصُ أولا ممن جاءوا للقبض عليه والمحاجَزَةُ بينه وبينهم على نحو ما قص عليك مرقس فى إنجيله من حديث الشاب المؤْتَزِر بإزار على عُرْيه ، الذى اختفى عن أعين طالبى الإمساك به فانسل من ردائه ولم يَرَوْهُ بعد . وما كان اللهُ عز وجل ليرفع المسيحَ إليه إلا على أعين الحواريين ، ليكونوا على رَفْعِه شُهودا ، كما سبق أن استشهد اللهُ الحواريين على إنزال المائدة إليهم ليحاسبهم إنْ كفروا من بعد ، حاشا الحواريين أن يكفروا بما استشهدَهم اللهُ عليه . وفى إنجيل متى أنه واعدَ الحواريين قبل محاولة القبض عليه فى أورشليم ، أى قبل القبض والصلب ، أن يلتقى بهم فى الجليل ، وأن الأحدَ عشر (أى خلا يهوذا بالطبع) ذهبوا إليه فى الجليل ، ذهبوا وبعضُهم شاك حتى بعد أن رأوْه ، مما يدلُّك على أن معجزةَ التشبيه شُبِّهَت عليهم أيضا (متى ١٦/٢٨ ـ١٧) أى كانوا ممن قال القرآنُ فيهم : { **وإن الذين اختلفوا فيه لفى شَكٍ منه ما لهم به من عِلْمٍ إلا اتباع الظن** } (النساء : ١٥٧) ، وكان لابُد للمسيح أن يرتفع إلى السماءِ أمامهم بعد أن كَلَّمَهم (مرقس ١٦/١٩) ليكونوا شُهداءَه على إعجاز اللهِ فى تخليصِ مسيحه .

أما ما قاله المسيح لهم قبل أن يرْفَعَهُ اللهُ إليه ، فهو فى الأناجيل التى بين يديك مقولةُ الذين شُبِّه لهم شَخْصُ المصلوب ، وهو أيضا يتفاوتُ بتفاوت ما أراد الكاتبُ إثباته على لسان المسيح احتجاجا لرأى الذى كَتَب ، إن صَدَّقت بإنجيلٍ فقد كَذَّبت بإنجيل ، على ما ترى من قولهم على لسان المسيح فى آية "يونان النبى" (يعنى يونس عليه السلام) حين طلب منه الكتبة والفريسيون أن يروا منه آية فقال لهم جيلٌ شريرٌ وفاسق يَطلُبُ آيهً ولا تعطى له إلا آيةُ يونان النبى، ثم يمضى متّى فيقول : " لأنه كما كان يونانُ فى بطن الحوت ثلاثةَ أيام وثلاثَ ليالٍ هكذا يكون ابن الانسان (يعنى المسيح) فى قلب الأرض ثلاثةَ أيام وثلاثَ ليالٍ" (متى ١٢/ ٤٠) . لا مفر لك إلا أن تقول إن متّى أراد هنا الاحتجاجَ لصلب المسيح ودفنه فى الأرض ثلاثة أيام وثلاثَ ليال يبعثُ بعدها حيا . ولا يصح هذا لأن الذى صُلِبَ بإجماع الأناجيل الأربعة حتى متّى نفسهِ ، إنما مكثَ فى قبرهِ ليلتين فقط (الجمعة والسبت) وخرج منه فَجْرَ الأحد . ولا

يصح أن يقال هذا أيضا على التشبيه بما كان عليه يونس فى بطن الحوت، لأن يونس لم يَمت فى بطن الحـوت ولم يَلتَقمـهُ الحوت جسداً ميتاً كحال المصلوب . ولو تَمهل متّى والمستشهدون بقوله فى "آية يونان" لما قالوها ولما نَسَبُوها إلى نبىّ يُوحَى إليـه لا يقولُ إلا حقا . هذا ومثلُه كثيرٌ لا نَتَصَدَّى له ، لأنه يَخْرُجُ عن مقاصدِ هذا الكتاب .

□□□

على أننا نتصدَّى كما وعدناك لبعض تلك الشُّبَه اللغوية الألصقِ بمباحثِ هذا الكاتب ، والتى جَرَّت فى رأينا إلى ما جَرّت إليه ، ولم يتوقف عندَها أحد .

أَوّلَ هذه الشُّبَه ، شُبْهَةٌ " نَحْوِيَّة " ، وهى أن الإضافـة دليلٌ على "المغـايرة" ، يعنى أن المضافَ ليس هو المضاف إليه ، بل هو غيره . إن قلتَ مثلا "ملاكُ الرب" فهذا يعنى أن الرب ليس هو الملاك ، والعكس بالعكس . فلا يتربّبُ الملاكُ لأنه مضافٌ إلى الرب ، كما ربَّبُوا "ملاكَ الربِّ" جبريل . كذلك إن قلتَ " ابن الله " فهذا دليلٌ على أن "الابن" ليس هو " الله " ، وأن " الله " ليس هو " الابن " . وإن قلت مثلا فى إبراهيم انه "خليلُ الله" فليس معنى هذا أن إبراهيمَ هو الله ، أنْ انتمى إليه بالخُلّة ، بل يظل الله هو الله ويظل إبراهيم هو إبراهيم . وإذا قلت " نبى الله " فلا يصح أن تفهم أن للنبى شِركاً فى الألوهية يستمده ممن أرسله . الإضافةُ دليلٌ على المُغايرة ، إلا أن تكون الإضافةُ لغواً ، كأن تضيف الشىء إلى نفسه فتقول مثلا " نهرُ النيل" وقد عَلِمْتَ من قبل أن النيلَ نهرٌ اسمهُ النيل. وما أيسر أن تكتشف اللغو فى هذه الإضافة، حينَ تَقْلِبُ المضاف والمضاف إليه إلى مبتدإٍ وخبر فتقول : النيلُ نهرٌ . إن صح لك هذا ، وهو صحيح فى " نهر النيل" ، اكتشفت أن المضاف هو نفسه المضاف إليه ، وأنهما معا عبارةٌ عن ذاتٍ واحدة . ولكن لايصح لك هذا فى مثل "الربُّ ملاك" ، "اللهُ ابنٌ" ، "اللهُ خليلٌ" ، " الله نَبِى" ، لأن اللفظين متغايران ، ليس الواحدُ هو الآخر .

على أساسٍ من هذه الشبهة النحوية قال أصحاب مجمع نيقية ، الذين أخطأوا من قبل فهم عبارة " بار ـ أَبَّا " بمعنى " ابنُ ـ الأب " ، إن المسيحَ ابنٌ لأبٍ هو الله ، وأسموهُ من بعد "ابن الله" ، ورتّبوا على هذا أن الابنَ من ذاتِ جوهر الآب ، وأنه والآبُ واحد ، وهذا مرفوضٌ بمنطق " النحو" وحَده : من كان ابنا لله فليس هو الله ، ناهيك بأن تَلِدَ الآلهةُ أو تُولَد.

وكما ألّهَ مجمعُ نيقية المسيحَ على البنوة لله ، وقع فى نفس الشبهة النحوية المجمع التالى الذى ألّه جبريلَ على " الملائكية " لله ، أنْ كان جبريلُ "ملاكَ الرب" النافثَ فى مريم كما قال لوقا فى إنجيله . وقد جَانَبَ هذا المجمعَ التوفيقُ جملةً فى تأليه جبريلَ على أساس من الأناجيل التى بين يديك ، فليس فيها قط أيَّما شُبْهة فى تأليهه كما وقعت الشبهةُ فى المسيح بإساءة فهم عبارة " بار ـ أبًا " كما سترى لأنه إن جاز لمجمع نيقية القول بأن المسيح هو " ابن الله الوحيد" ليُخْرِجَ من البنوة لله "آدم" المسَمَّى ابناً لله فى إنجيل لوقا هو الآخر ، فليس بمستطاع القولُ بأن جبريل هو "ملاك الرب الوحيد" لأن ملائكة الربِّ أكثر من أن تُحْصَى ، ولا يعلم جنودَ ربِّك إلا هو ، فلماذا يتخصص من دونهم جبريل بالتَّأْلُه ؟ وقد مر بك أن لفظة "الملاك" (وهى "مَلآخ" العبرية ـ الآرامية) معناها الرسول المُرْسَل على المفعولية من الجذر العبرى ـ الآرامى "لأخ" ، يعنى أرْسَلَهُ برسالة ، فكيف يكون المفعولُ هو الفاعل ، أو يكون المخدومُ هو الخادم ، أو يكون العبدُ هو السيد ، أو يكون الرسولُ هو نفسه الذى أرْسَله ؟ وقد قال المسيح فى هذه الأناجيل بالنص : ليس عبدٌ (يعنى نفسه) بأعظمَ من سيده ، وليس رسولٌ بأعظمَ من الذى أرْسَله . وقال أيضا : الآب أعظمُ من الابن . فكيف يقال إنه هو ، المسيحُ أو جبريل . ولماذا اختير جبريلُ وحده من دون الملائكة ليكون هو من ذات جوهر الله ؟ ألأن معنى اسمه كما مر بك هو "جبار الله" أو "رجل الله" ؟ فماذا فى "ميكائيل" الذى يقولون ان معنى اسمه " الذى هو كالله " ؟ أليس ميكائيل بها أوْلَى ؟ ولكن ميكائيل لم يكن هو النافثَ فى مريم . وقد ظَنُّوا ـ وقد ألَّهُوا " المنفوث" من قبل على البنوة لله ـ أن المنطق لا يستجيز أن يستعلى المنفوث على النافث ، ولكن هل ألْزَمك أحدٌ بتأليهِ المنفوث حتى تُضْطَرَّ إلى تَأليه النافث ؟

فى مثل هذه الشبهة أيضا وقع القائلون بتأليه مريم على المضاف والمضاف إليه ، فهى " أمُ الله " ـ وإن سمعتها منهم " أمُّ الإله " وكأنهم يُخَفِّفون عليك من وقعها فى أذنيك وكأن ألالهَ غيرُ الله ـ ولكنك لا تستطيع أن تقول "اللهُ أم" أو "الالهُ أم" فيمتنع التظنِّنُ فى أن مريم هى الله أو الإله بمقتضى النحو وحده ، ناهيك بامتناع الأمومة والبنوة فى حق الله .

وقد كان بالفعل أُناس أَلَّهُوا مريم لمجرد أنها " أُمُ عيسى" وقد أَلَّهُوه ، فلا يصح أن تكون الوالدةُ أدنَى من المولود . وقد أشار القرآن إلى هذا فى نعيه على ما قيل فى المسيح : { **وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك** } (المائدة : ١١٦) ، ولكن " عبادة مريم" لم تستقر طويلا بعد نزول القرآن ، بل نُبِذَت واستُبْقِيَت لمريم كرامةُ الأمومةِ لله (mere de Dieu) .

ولو أنصَفُوا لفعلوا نفسَ الشيء فى باقى أفراد الثالوث الأقدس ، فاستبقوا لعيسى كرامةَ النبوة والرسالة ، واستبقوا لجبريل كرامةَ المَلكِ المُقَرَّب ، وأفردوا الواحد الصمد لا إله غيره بالربوبية لهذين وللبشر أجمع .

ولكنك لا تهدى من أحببت . إن قارعتَهُم بالمنطق قالوا لك وهل يُؤخَذُ الدينُ من أفواه المناطقة ؟ هذا هو الوحىُ الذى توارثْنَاهُ كابراً عن كابر .

لا يُؤْخَذُ الدينُ من أفواهِ المناطقة . هذا صحيح . ولكن لايصحُ فى مُقابِلِهِ أن يُقال ليس فى الدينِ منطق . لأن الدينَ هو المنطق . وهل تَعَبَّدَ اللهُ البشر من دونِ الخلق إلا به ؟

والدينُ وحىُ اللهِ على رسله ، نعم . فهَلّا استمسكوا بما قال موسى وعيسى والنبيون من قبلُ ومن بعد ، اللهُ واحدٌ ، وليس آخَرُ سِواه ؟

□□□

أما الشبهة الثانية ، فهى شبهةٌ لغوية : ظنوا بلغتهم اليونانية (وقد عَلِمْتَ يونانيةَ هذه الأناجيل) أن " آب" ، " أَبًا " ، " أبى" لا تعنى فى لغة المسيح إلا أَبِى الذى ولدنى ، وهى فى لغةِ المسيح تعنى " الربُّ " حين يُقْصَدُ بها اللهُ عز وجل .

لن أُثْقِلَ عليك بالرجوع إلى معاجم اللغتين العبرية والآرامية لتستوثق مما أَقُولُهُ لك أى لتقرأ فيها أن "الأب" فى هاتين اللغتين تعنى أيضا الفاطر المبدع البارى ، ولن أُحيلك إلى قولِ المسيح فى هذه الأناجيل اليونانيهُ يُكَنِّى فيها عن الربِّ بالأبِّ وقد مَر بك ، ولن أستشهدَ لك بتسمية حفيد سليمان بن داود " أبيًا هُو" أى "اللهُ أبى" على معنى اللهُ ربِّى التى تَسَمَّى بها أيضا ابنٌ لهرون أخى موسى عليهما السلام، وليس لك

أن تتصور قبولَ موسى هذا الاسم لابن أخيه ، على معنى اللهُ أبى ، وهرونُ هو أبوه . وإنما هى " الله رَبى" لايَصحُ غيرُها فى اسمٍ لابن أخى موسى .

ولكنى سأدُلُّكَ على الشاهدِ اليقين الذى لا تَصحُ فيه مماحكةٌ من قولِ موسى عليه السلام نفسه فى هذه التوراة التى بين يديك تَرْجَمَتُها العربية التى أشْرَفَ على ترجمتها مسيحيون لا تَشُكُّ فى مسيحيتهم :

قال موسى فى هذه التوراة التى بين يديك بلغته العبرية : هَا ليهْوَا تِجْمِلُو ـ زُوت عام نَبال ولوحاخام ؟ هَا لو ـ هُو أبيخا ، قانيخا ، هُو عاسخَا ويخُونينخا ؟ "وترجمته العربية المعتمدة" : "ألربُّ تكافئون بهذا يا شعباً غبياً وغيرَ حكيم ؟ أليس هو أباك ومُقْتنِيَك ، هو عَمِلَكَ وأنشأك ؟ " (تثنية ٦/٣٢) .

ليس بعد هذا دليل ، وموسى نفسه يُجانس الأبُّ على الربِّ .

هذه هى الشبهة اللغوية الأولى . أما الشبهة اللغوية الثانية فهى ظنهم أن "بار" العبرية ـ الآرامية تعنى الابنُ المولودُ لأب ، وهى تعنى أيضا بذات لفظها وَرَسْمها فى الخط العبرى ـ الآرامى كما تقرأ فى معاجم هاتين اللغتين : البارُّ المَبرور على معنى الصفى المختار. لا يُفهَمُ أيُهما المقصود (البار أو الابن) إلا من السِّياقِ وحدَه . ومتى قد انتفَت الأبُ بمعنى الوالد فى حق الله عز وجل ، وإنما هو " الرب " ، فلا يصح لك أن تفهم من "بار ـ الرب" أنه ابن الرب وإنما تقول انه "مُختار الرب" حين تَسْمَعُ بالآرامية "بار ـ أبًا" ، لأن " بار" العبرية ـ الآرامية هى من الجذر العبرى ـ الآرامى "بَرَرْ" يعنى اصطفى وتَخَيَّر ، فهو الصَّفِيُّ المُختار .

ومن طريفِ ما تقرؤه فى الأناجيل عبارة مرقس : " ولما رأى قائد المئة الواقف مقابله أنه (أى المَسيح الذى على الصليب) صرخ هكذا وأسلم الروح قال حقا كان هذا الإنسان ابنَ الله " (مرقس ٣٩/١٥) ، التى تَجِدُها هى نفسها فى لوقا : " فلما رأى قائد المئة ما كان ، مَجَّدَ اللهَ قائلا بالحقيقة كان هذا الإنسانُ باراً " (لوقا ٤٧/٢٣) . هذه المقابلة بين النصين فى مرقس ولوقا تَدُلُّكَ بوضوح ـ والقائلُ هو القائلُ فيهما ـ على أن "بار" فى مرقس فُهمت بمعنى الابن ، وفُهِمَت على أصلها فى لوقا بمعنى "البار" .

عليك إذن أن تنحو نحو لوقا فى هذا الفهم كلما قرأت " الابن" أو "ابن الله" فى الأناجيل التى بين يديك حتى لا يستشكل عليك مراد المسيح عليه السلام منهما إن

قالها أو خوطِبَ بها أو قيلت فيه من بعده ، فلن يستشكلَ عليك أن يكون المسيحُ عليه السلام صَفِيَ الله أو مُختارَ الله، وهل أنبياءُ اللهِ ورسُلُه إلا أصفياؤه ومختاروه ؟ فالحمدُ لله ، وسلامٌ على عبادِهِ الذين اصطفى .

والأطرفُ من هذا في الدلالة على أن "بار" المَعْنِية ليست هي الابن ، وإنما هي "البار" على معنى الصَّفِيِّ المختار ، هو اسم ذلك الشقيِّ "باراباس" الذى أبى اليهودُ طالبو دم المسيح افتداء المسيح به حين عَرَضَ عليهم بيلاطس البُنْطى أن يُطْلِقَ لهم المسيحَ ويَصْلُبَ "باراباس" مكانه . والذى قد لا تعلمه أن أصل هذا الاسم "باراباس" ـ لا تندهش ـ هو "ابنُ الله" على قولِ من قال إن " بار" يعني ابن ، "أبًّا" يعني الرب : "باراباس" في أصلها الآرامي هي "بار ـ أبًّا" . وأنت بالطبع مسيحياً كنت أو مسلما لا تستجيز أن يكون معنى اسم هذا الشقيِّ باراباس هو " ابن الرب " أو "ابنُ الآب" أو "ابنُ الله" . عليك إذن أن تَفْهَمَ معنى الاسم "باراباس" على أنه "مخْتارُ الرب" ، أسماهُ به أبوه يومَ ولد تَيَمُّناً وتفاؤلا ، ثم خابَ فيهِ فَألُه .

□□□

قال المسيح عليه السلام في القرآن يتشفعُ عند اللهِ عز وجل للذين بَدَّلوا بعده :

{ إن تعذِّبْهُم فإنهم عِبادُك ، وإن تغفِرْ لهم فإنك أنت العزيزُ الحكيم } (المائدة : ١١٨) .

لن تستطيع ـ مهما حاولت ـ أن تقول أبلغ من هذا القول الذى قاله المسيح في القرآن : لم يقل إنهم "عبيدك" ، فأنت وما شئت فيمن خَلَقت ، ولكنه قال "عبادُك" ، وكأنه يومىء إلى أنهم وإن خاضوا في جلالِ ذاتك فإنهم يُريدون وجهك . افتتنوا بي حتى سَفِهُوا ، فارتفعوا بي عن ذليلِ مَقامي منك إلى عزيزِ مقامِك . وأنت القاهرُ فوقَ عبادِك ، إن تغفر لهم فأنت عليها قادر .

فماذا كان جوابُ العزيز الحكيم ؟

قال يمتدح صدقَ المسيح في الذى قاله، ويَتَكَتَّمُ على الخلقِ أجمع بماذا هو مُجيبُه:

{ قال الله هذا يومُ ينفعُ الصادقين صدقُهم ، لهم جناتٌ تجرى من تحتها الأنهارُ خالدين فيها أبدا ، رَضِيَ اللهُ عنهم ورَضُوا عنه ، ذلك الفوزُ العظيم } (المائدة : ١١٩) ، أى هذا لك يا عيسى ولمن صَدَّقَ بك على الأصلِ

الذى قُلْتَ لهم . وذَرِ القضاءَ لصاحبِ المُلك : { **لله مُلكُ السموات والأرض وما فيهن ، وهو على كُلِّ شيءٍ قدير** } (المائدة : ١٢٠) .

ألا هل بعد هذا بلاغ ؟

فسبحان من بيده ملكوتُ كل شيء لَهُ الحمدُ ولَهُ المُلك ، غافرِ الذنبِ وقابلِ التَّوْب شديد العقابِ ذى الطَّوْل ، لا الهَ إلا هو إليه المصير .

(٥٧) الإنجيـــل

يضم " العهدُ الجديد " الذى يتعبَّدُ به المسيحيـون قُبَيْـلَ نزولِ القرآن وإلى اليوم سبعةً وعشريـن سِفَرا ، وهى إنجيـلُ متـى وإنجيلُ مرقـس وإنجيلُ لوقا وإنجيلُ يوحنا ، وهى تحكى سيرةَ المسيح وأقوالهُ وأفعالهُ ووصاياه منذ أن ولد حتى رُفِع ، فهى أشْبَهُ بالسيـرةِ النبوية عند المسلمين . بالإضافة إلى ثلاثةٍ وعشـريـن سِفْرا أخـرَى أولُها "أعمال الرسل" أى أعمال الحواريين ومن دخلوا فى عدادهم بعد رفع المسيح ، ويُنْسَبُ هذا السفر إلى لوقا أيضا ، صاحب الإنجيل الثالث المُسَمَّى باسمه. تجىءُ بعد ذلك أربع عشرة رسالة تُنسَب إلى بولس (وهو من غير الحواريين بل لم يشهد المسيح ولم يسمع منه) ، ثم رسالة تُنسبُ إلى يعقوب الحوارى ، واثنتان منسوبتان إلى بطرس رئيس الحواريين ، وثلاثٌ منسوبةٌ إلى يوحنا الحوارى ، التلميذ الذى كان المسيح يحبه ، وهو أصغر الحواريين سنا ، وليس هو صاحب الإنجيل الرابع المسمى بهذا الاسم ، بل هو سَمِيٌّ له. ثم رسالة منسوبة إلى يهوذا الحوارى (وهو غير يهوذا المتهم بخيانة المسيح). وأخيراً "رؤيا يوحنا اللاهوتى" ، وليس هو يوحنا الحوارى على التحقيق . والأسفار الأربعة الأولى ، أعنى الأناجيل الأربعة ، هى المَعْنِيَّة بلفظة الإنجيل على الإجمال ، يكمل بعضُها بعضا وينقلْ بعضها عن بعض ، متساويةٌ فى الحجية عند المسيحيين. فلم تحفظ لك الكنيسةُ إنجيلا آخر للمسيح غيرَ هذه الأربعة .

ويقول مؤرخو المسيحية إن الأناجيل لم تكن فى الصدر الأول أربعةً فقط ، وإنما كانت بالمئات ، نحو ثلاثمائة إنجيل ، يَروى كُلٌّ ما شَهِد أو سَمِع ، أو ينقل عمن شهد أو سمع ، أو يقص ما يَحْتَجُّ به لمقولته فى المسيح . ولكن الكنيسة ـ بعد استقرار عقيدة التثليث فى القرن الرابع ـ استبقت من هذه الأناجيل أربعةً فقط ، هى تلك التى بين يديك الآن ، وحَظَرَت ما عداها ، الذى طُورِدَ وأُعْدِم ، لمخالفته بلا شك لمقولة الكنيسة فى المسيح .

والمشهور أن مكتبة الفاتيكان احتفظت فى خزائنها ببعض هذه الأناجيل المُنْكَرة، المحظور تداولها بين الناس ، وليس هذا بشىء وإن صَحَ ، لأنه ليس لك حِجاجُ الكنيسة بالذى أنكرته من تلك الأناجيل . من هذه الأناجيل المنكَرةِ عند الكنيسة الأنجيلُ المنسوب إلى بَرْنابا الحوارى كما يروى مكتشف هذا الإنجيل ، الذى أنكرته الكنيسة غَداة ظهوره فى القرن الثامن عشر ، ورمته بالزيف والانتحال ، مكيدةٌ كادَها للكنيسة بعضُ خصومها وشانئيها . وليس لك أن تأخذ على الكنيسة إنكارَها إنجيلَ "برنابا" ، فهو يقول بمقالةِ القرآن فى المسيح : أنه فحسب عبدُ اللهِ ورسولُه ، ليس إلهاً أو ابن إله ، بشَّرَ صريحاً بخاتم النبيين ، وأرادوا قتله على الصليب فَشُبِّهَ لهم ، ورفعه اللهُ إليه جسداً حيا لا يموت حتى قُرْبِ قيامِ الساعة ، فينزل فى الناس ليقطع شُبْهَةَ الناسِ فيه .

ولسنا من القائلين بحجية إنجيل برنابا فى مواجهة الكنيسة ، إذ ليس لك حِجاجُ الكنيسة بما تُنكره ، بل كُلاً يُوَلِّى الله ما تَوَلَّى . فحسبك هذه الأناجيل الأربعة التى بين يديك ، وفيها رغم كل شىء الكفايةُ كُلُّ الكفاية .

وبعد ، فليس برنابا الحوارى إلا راويةً بين رُواة ، كُلُّهم كَتَب بغير لغة المسيح ، لا تدرى عن أى أصل نَقَل ، ولا تدرى هل أَخْطأ فى الترجمةِ أم أصاب .

❐❐❐

والذى ينبغى التنبيه إليه أنه ليس فى هذه الأناجيل الأربعة إنجيلٌ منسوبٌ إلى حوارىٍ شَهد وعاين ، إلا إنجيلَ مَتَّى وحده ، الأول فى ترتيب أسفار العهد الجديد ، إن قُلتَ إنه "متى العشار" (واسمه فى الأصل " لاوى") المعدودُ بين الاثنى عشر على ما تجد فى إنجيله (متى ١٠/٣) . أما كاتب الإنجيل الثانى ، مرقس ، فهو من تلاميذ بطرس الحوارى ، سَمِعَ منه ولم يشهد أو يعاين ، شأن التابع والصحابى عند أهل الإسلام ، وأما الإنجيل الثالث ، لوقا ، فهو يُفْصِحُ لك فى مفتتح إنجيله عن أنه لم يشهد ولم يعاين : " إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصَّة فى الأمور المتيقنة عندنا كما سَلَّمها إلينا الذين كانوا فى البدء معاينين وخُدَّاماً للكلمة ، رأيت أنا أيضا إذ قد تتبعت كل شىء من الأول بتدقيق ، أن أكتب إليك على التوالى أيها العزيزُ ثاوفيلس لتعرف صحةَ الكلام الذى عُلِّمتَ به" (لوقا ١/١ ـ٤) ، فهو يونانى يكتب

إلى يونانى ، والمشهور أنه سمع من بولس الذى تَعَلَّمَ بشهادته هو أنه لم يسمع ولم يعاين ، فلوقا إذن ناقلٌ عن ناقل . وأما الإنجيل الرابع ، يوحنا ، فقد قالت الكنيسة إنه يوحنا الحوارى (التلميذُ الذى كان المسيح يحبُّه) ، كَتَبَه وقد أسَنَّ قُرب ختام المائة الأولى لميلاد المسيح ، سألوه فى كتابته لِيَرُدَّ على "بِدَع ظهرت" تَجْحدُ لاهوتَ المسيح ، أو تُنْكِر أن قد كان للمسيح وجودٌ قبل مريم أمّه ، أو تلاميذُ ليحيى بن زكريا يُغالون به تلاميذَ المسيح ، فاستجاب لهم وكتب هذا الإنجيل إثباتاً للاهوت المسيح خاصة [١].

وهذا يعنى أنّ قد كان قبل كتابة هذا الإنجيل مسيحيون ماتوا مؤمنين بالمسيح رسولاً نبيا ليس إلهاً أو ابنَ إله . وقد أصَرَّت الكنيسة على نسبة هذا الإنجيل إلى يوحنا الحوارى دَعْما لشهادته التى تَجْهَرُ بتأليه المسيح . وليس هذا بصحيح ، لا لأنك شهِدَت الكاتب الذى كتب هذا الإنجيل ، وإنما ببساطة لأن الكاتب يُنْهى إنجيله بما تفهم منه صريحاً أنه ليس هو يوحنا الحوارى ، وإنما هو ناقلٌ عن يوحنا : "هذا هو التلميذ (أى يوحنا) الذى يشهد بهذا وكتب هذا ، ونَعْلَمُ أن شهادتَه حق . وأشياء أُخْرى كثيرة صنعها يسوع إن كُتِبَتْ واحدة واحدة فلستُ أظنُّ أن العالمَ نفسَه يَسَعُ الكُتُبَ المكتوبة" (يوحنا ٢١/٢٤ ـ ٢٥) ، إنَّهُ يُؤمِّن على أستاذه لا أكثر ولا أقل ، لأن الضميرَ فى "نَعْلَم"، "لستُ أظن" ، قاطعُ الدلالة على المُغايَرة بين هذا المتكلم الشاهدِ ليوحنا وبين يوحنا المشهودِ لَه .

والذى ينبغى التنبيهُ إليه أيضا أن هذه الأناجيل الأربعة لم يُكتب أيٌّ منها بلغة المسيح العبرية ـ الآرامية ، وإنما كُتِبَت كُلُّها ابتداء بلغةٍ يونانيةٍ متأخرة عُرِفَت باليونانية الكنسية لاحتوائها ألفاظاً وتراكيب لم تُسْمَع من اليونان قبل عصر المسيح، من مثل : إيڤنجليون euaggelion يعنى " الإنجيل" ، فارقليط parakletos التى تترجم فى الأناجيل العربية بلفظة " المُعَزِّى " ، وليس كذلك ، وإنما هى " أَحْمد " أو " مُحَمد " كما سوف ترى . ولا يصح ما قيل من أنه قد كان لهذه الأناجيل اليونانية كُلِّها أو بعضِها أصلٌ عبرانى نُقلَت عنه، وبالذات إنجيل مَتّى الذى كتبه كما يقال لليهود فى فلسطين ، ولكن هذا الأصل فُقِدَ . لا يصح هذا القول ليس فقط لأنه لا عِبرةَ بأصل مظنونٍ قد

---

(١) راجع هذا فى : الكتاب المقدس ، طبعة الفاتيكان العربية ـ بيروت ـ سنة ١٩٥١ ، حواشٍ على مجلد العهد الجديد ، ص ٤٦٩ ـ ٤٩٧ .

فَقد، وإنما أولا وبالأخص لأن مَتّى بالذات ، بل ومرقس أيضا الناقلَ عن بطرس ، ذكرا في إنجيليهما كما تَعلّم عبارات بلغة المسيح العبرية ـ الآرامية حَرَصا كلاهما على ترجمتها إلى اليونانية ، ولو كانا يكتبان أصلاً بلغةِ المسيح لقارىء بلغةِ المسيح لما احتاجا إلى هذه الترجمة لأن قارئَهما لايحتاجُ إليها .

في هذه الأناجيل الأربعة إذن عناصرُ ثلاثة تَحتَرزُ منها كُلَّ الاحتراز كي لا تُسيءَ فهم ما نَطَق به المسيح الذي خاطَبَ ربَّهُ في القرآن بقوله : { **ما قلتُ لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربّى وربَّكم** } (المائدة : ١١٧) ، وهذه العناصرُ الثلاثة هي :

١ـ عنصر الرواية ، أعني صِدْق الراوي فيما رَوَى ، فلا تأخذُ إلا بما أجمعَ عليه الرواةُ الأربعة ، أو بما لا يتناقض مع ما أجْمَعَ عليه الرُواة الأربعة .

٢ـ عنصر الترجمة ، أعني صِحّة الترجمة من لغةِ المسيح إلى لغة الأناجيل اليونانية ، فتفهم " الآب" بمعنى " الرب " كما قالها موسى عليه السلام ، وتفهم " الابن " بمعنى البار المبرور المُتبَرِّر أي "مختار الرب" لا ابن الرب ، كما رأيتَ في تحليلنا لاسم ذلك اللص الذي رفض اليهودُ افتداءَ المسيحِ به ، أعني " باراباس" ، التي أصْلُها العبرانيُّ الآرامي "بار ـ أبًا" يعني "مُختارُ الرب" لا ابنُ الرب ولا ابنُ الأب .

٣ـ عنصر الرأي ، أي القول الذي زاده الكاتبُ من عنده يُفَسِّرُ برأيه شيئاً من قول المسيح أو فِعْلِه ، أو يَستشهدُ من العهد القديم بفقراتٍ ينتقيها لإثباتِ مقولته هو في المسيح ، مثلما مر بك في إنجيل متّى من استشهادٍ في غير موضعه بيونُسَ في بطنِ الحوت ، أو يُدَبِّجُ بقلمه ديباجةً يستعلنُ فيها برأيه هو في لاهوت المسيح كالذي تقرأ في مُفْتتَحِ إنجيل يوحنا . ليس هذا من وحى الله على رسله ، وإنما هو قَولُ الكاتب ، لا يُلزِمُك .

تفعلُ هذا كمسلم يقرأ في هذه الأناجيل . أما الكنيسة فقد احتاطت لحُجِّيَّةِ المكتوب في هذه الأناجيل بالكلمةِ والحرف ، فقالت بأنه وَحْى اللهِ على كاتبيه بذات اللغة التي كتبوا بها ، تَنزَّلَ عليهم به الروحُ القدس ثالثُ الثلاثة في عقيدة التثليث ، يعنى جبريلُ صلواتُ الله عليه . وقالت أيضا ان ما اختلفوا فيه يُكَمِّلُ بعضُه بعضا ،

كُلُّ إنجيل يقص ما وَعىَ مما سَمِع . أما حين يَصْعبُ التوفيقُ بين النقيض ونقيضه من مثل "ابن الإنسان" ، "ابن الله" ، وهما"بار ـ أُنَشا" ، "بار ـ أَبًّا" الآراميتين ، فعندئذ يقالُ لك : فى المسيح ناسوتُ ولاهوت ، أو " الكلمةُ صار جسداً وحَلَّ بيننا " ، أو يقال لك أخيرا "عظيمُ هو سرُّ التقوى" ، يعنى أن هذا فوقَ العقل ، تُؤْمنُ به كما عُلِّمْت . وتؤمن أيضا بأن آباء الكنيسة الذين صاغوا لك " قانون الإيمان" القائل بأن اللهَ ثالثُ ثلاثة ، وبأن الثلاثةَ واحدٌ أحد ، إنما قالوا ما قالوه هم أيضا بوحيٍ من الروح القدس بعد رفع المسيح ، فهم معصومون بعصمةِ الله عز وجل من الوقوع فى الخطأ .

هنا يَمتنعُ الجَدَلُ ويمتنع الحِوار .

ولكنك تقول ما قاله اللهُ عز وجل فى القرآن : { **من يَهْدِ اللهُ فهو المُهْتَد ، ومن يُضلِلْ فلن تجد لهُ وليّاً مرشدا** } (الكهف : ١٧) ، أو تقول بقول القرآن : { **قل اللّهم فاطرَ السموات والأرض ، عالمَ الغيبِ والشّهادة ، أنت تَحْكُمُ بين عبادِك فيما كانوا فيه يختلفون** } (الزمر : ٤٦) .

❑❑❑

وقد قال نُقادُ أناجيل مسلمون ان "الإنجيل" المَعْنىُّ فى القرآن ليس هو تلك الأناجيل الأربعة المعتمدة وحدها عند المسيحيين يومَ نزول القرآن ، بل ثَمَّةَ "إنجيلٌ" آخر كتبه المسيحُ أو أملاه ، ولكنّ أتباعَ المسيحِ أضاعوه .

وليس على هذا القول دليل ، بل لديك من القرآن الدليلُ على عكسه ، أعنى أن القرآن يَنْظُرُ إلى هذه الأناجيل الأربعةِ نفسها ، التى فيها من وحى الله وفيها من قول الرواة ، وأن الذى فيها من وحى الله على عيسى هو وحدَهُ المَعْنىُّ بلفظة "الإنجيل" فى القرآن ، وما عداه ليس بإنجيل ، لقوله عز وجل فى هذا القرآن : {**وليحكم أهلُ الإنجيل بما أنزل اللهُ فيه** } (المائدة : ٤٧) ، وما كان اللهُ ليُعَمِّىَ عليهم إنجيلاً غيرَ الذى بين أيديهم ، ولكنه طَلَب إليهم أن يَتَحَرَّوْا ما أنزل اللهُ فيه ، وينبذوا ما زادَ الرواة .

فكيف تُمَيِّزُ أنت كمسلم بين ما قاله الله عز وجل فى هذه الأناجيل الأربعة وبين ما زاد فيها الرواة ؟ قد عَلِمْتَ أن الله عز وجل يخاطب الخلقَ على لسان أنبيائه ، لا على لسان صحابةٍ أو تابعينَ ، ولا على لسان حوارِيِّين أو رُواةٍ لحواريين . فالذى قاله الله عز وجل فى الأناجيل هو الذى نطق به المسيحُ نفسُه مُبَلِّغاً عن ربه .

حيثما وقعتَ فى الأناجيل على قولٍ مَحْكيٍّ عن المسيح أنَّهُ قاله ، عليك أن تضعه بين قوسين، أو تَخُطُّ تحته سطرا ، ودَعْكَ من الباقى ، فليس هو من المسيح نفسه ضَرْبَةَ لازب، وإنما هو من قول الكاتب ، يحْتَجُّ به لمقولته فى المسيح ، لايُلزِمُك، لأنه ليس من وحى الله على رسله .

خذ مثلا تلك الديباجة الفخمة المُفَخَّمة التى افتتح بها يوحنا إنجيلَه ، المكتوب بعد رفع المسيح بما لا يقل عن ستين سنة فى أقرب التقديرات ، يَحْتَجُّ به لعقيدته فى لاهوت المسيح : " فى البدء كان الكلمة . كان عند الله ، وكان الكلمةُ اللهَ . هذا كان عند الله . كل شىء به كان ، وبغيره لم يكن شىء مما كان . فيه كانت الحياة ، والحياة كانت نور الناس . والنور يضىء فى الظلمة ، والظلمة لم تدركه " (يوحنا ١/١ ـ٥) ، ويمضى فيقول : " كان النور الحقيقى الذى ينير كل إنسان آتيا إلى العالَم . كان فى العالَم ، وكُوِّنَ العالَمُ به ولم يعرفه العالَم . إلى خاصَّته جاء ، وخاصَّتُهُ لم تقبله . وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطانا أن يصيروا أولادَ الله ، أى المؤمنون باسمه . الذين لا من دمٍ ولا من مشيئة جَسَدٍ ولا من مشيئة رَجُلٍ ولكن من الله وُلِدُوا " [١] (يوحنا ٩/١١ ـ ١٣). هذا الكلامُ العويص [٢] المُبْهَمُ المُفَخَّم الذى قاله يوحنا فى مفتتح إنجيله ـ أيًا كان رأيُكَ فيه ـ ليس من وحى الله على رسله ، لأن قائله ليس المسيح ، وإنما القائل هاهنا هو يوحنا الكاتب ، يستعلن بعقيدته فى ألوهية المسيح ، وأن اللهَ والمسيحَ واحد (وكان الكلمةُ اللهَ) ، ناسيا أنه سيقول بعد ذلك على لسان المسيح يُناجِى ربه : " أنت الإله الحقيقى وحدك " (يوحنا ٣/١٧) [٣] ، أفتأخذ بقول يوحنا وتترك قول المسيح ؟

---

(١) هذا مَثَلٌ من كثير على أسلوب تلك الأناجيل فى فهم البنوة لله (أى المؤمنون باسمه) : ليست هى البنوة بمعناها المعروف ، فضلا عن عمومها فى " جماعة المؤمنين " ، لا يختص بها المسيح وحده . فتأمَّل ! .

(٢) لايعتاص هذا الكلام إلا على بسطاءَ مكفوفين ـ كما يقالُ لهم ـ بُعُلُوِّه على مداركهم ، وهو كما يعلم دارسو الفلسفة ، مُرَقعاتٌ من فلسفات الاسكندرية وبالذات أفلوطين . وهذا يدُلك على أن الكاتب ليس حوارياً ، فقد مات الحواريون وتابعوهم قبل مولد أفلوطين .

(٣) هذا من نقائض يوحنا الكاتب . وقد قيل ان " لاهوت المسيح " الذى فى إنجيل يوحنا منحول ، نَحَلَهُ إياهُ نيقياويون يحتجون به لعقيدتهم . وهذا إن صح يفسر لك نقائضه .

أما وقد استَصْفَيْتَ أقوالَ المسيح فى هذه الأناجيل فَخُذْ بأحسنها ، كالذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، معيارُك فى ذلك ألا تترك مُحْكَمَ القول إلى متشابهه ، بل تُحَكِّمُ المُحكَمَ فى المتشابه فَتُقَيِّدُهُ به ، لا تُحَكِّمُ المتشابهَ فى المُحْكم وتفسِّرُ المُحْكَمَ بالمتشابه الذى يضطرك إلى قول المحالِ على الله عز وجل ، كالذى قيل فى مجمع نيقية وما تلاه من مجامع .

وليس عليك بعد ذلك حرجٌ أن كُنْتَ مسلماً يقرأ فى هذه الأناجيل ، فقد وَضَحَ لك الطريق ، واستبانَ المنهج .

□□□

والذى يعنينا بالدرجة الأولى فى مقاصد هذا الكتاب الذى نكتب ، هو معنى لفظة "إنجيل" . وقد قال علماء المسيحية انها لفظة يونانية هى "إيڤَنْجليُون" euaggelion معناها الحرفى هو الخبر السار أو البشارة . ولكن بشارة بمن أو بماذا ؟ أهى بشارة بشىءٍ حَدَث أم بشىء سيحدث ؟ إن كانت بشارة بشىء حَدَث فهى المسيحُ نفسه الذى " تَنبأت الكتبُ " بمجيئه ، فهو البشرى التى تحققت . ولكن علماءَ المسيحية لا يقولون بهذا ، وإنما يقولون ان البشرى هى بشىء سيحدث ، وان رسالة المسيح هى البشارة بهذا الذى سيحدث . فما الذى جاء المسيحُ يُبَشِّرُ به ؟ أعنى ما هو الخبرُ السار الذى جاء يعلنه للناس ، فَسُمِّيَت به الأناجيلُ " إنجيلا " ؟

قال علماءُ المسيحية ان الذى جاء المسيح يبشر به فى هذه الأناجيل هو قرب "ملكوت السموات" : "من ذلك الزمان ابتدأ يسوعَ يكْرِزُ ويقول تُوبوا ! لأنه قد اقترب ملكوت السموات" (متى ٤/١٧) . هذه العبارة ، ملكوت السموات ، وتجىء أيضا بلفظ ملكوت الله ، من العبارات الهائمة المُبْهَمة فى مصطلحات الأناجيل ، استعصى فهمُها حتى على الحواريين أنفسهم فما فَتئوا يُسائلون عنها المسيح وما فَتىء هو يَضْرِبُ لهم المثل تلْوَ المثل فى شرحها ، حتى فهموا أخيراً أنه يعنى بها الحياة الآخرة ، فريقٌ فى الجنة وفريقٌ فى السعير . إنها البشارة بقرب قيام الساعة . ولكن لماذا تَسَمَّى الساعةُ ملكوتا ، فيقولون فى صلواتهم : "أبانا الذى فى السموات ، ليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتُك ، لتكن مشيئتُك، كما فى السماء فكذلك على الأرض" (متى ٦/٩ـ١٠) ؟ الذى يُقربُ لك المعنى إن كنت من أهل القرآن هو قوله عز وجل يوم يرث الأرض ومن عليها { **لمن المُلْكُ اليوم ؟ للهِ الواحدِ القَهَّار**} (غافر: ١٦) . وربما

كَنى المسيحُ بلفظ "الملكوت" عن الجنة ، فقال "أبناء الملكوت" ، يعنى الأبرار الداخلين فى عفو الله ورحمته، المُنَعَّمين فى رِضوانه، أولئك "هم الوارثون" كما تجد فى القرآن.

ولكن ، كيف تَصِحُّ البشارةُ بقرب قيام الساعة ؟ قد كان يُظَنُّ عصرَ كتابةِ مَتّى إنجيله أن الساعةَ على الأبواب ، لقوله فى مرقس : "متى رأيتم هذه الأشياء صائرةً فاعلموا أنه قريبٌ على الأبواب . الحقَّ أقولُ لكم لا يمضى هذا الجيل حتى يكون هذا كله" (مرقس ١٣/٢٩ ـ ٣٠) ، لا يلبث المسيح أن يرفعه الله إليه حتى يعود فى مجيئه الثانى فتقوم الساعة. ولكن مضت القرون ولم تأت الساعة . وقد قال لهم المسيح فى نفس الموضع : " وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا الملائكة الذين فى السماء ، ولا الابن ، إلا الآب " (مرقس ١٣/٣٢) ، وكفى بهذا إقرارا من المسيح بأنه لا يَعْلَمُ إلا ما عَلَّمَهُ الله ، أما الساعة فعلمُها عند ربى، لا يُجَلّيها لوقتها إلا هو، كالذى تقرأُ فى القرآن . فكيف يُبَشِّرُ المسيحُ بشىء لا يَعْلَمُ مَوعِدَه . لم يُبَشِّرِ المسيحُ باقتراب ملكوت السموات إذن ، فقد مضت إلى اليوم قرونٌ وقرون ولم تَقُم الساعة . بل لا يصح لمؤمن يُؤمنُ باللهِ واليوم الآخر أن يبشر بقيام الساعة . الأحرَى أن يُنذرَ بها ولا يُبَشِّر ، فليست هى بالخبر السار إلا لمن ضَمنَ الجنة ، ولا يَضْمَنُ أحَدٌ الجنة بعمله إلا أن يتغمده الله برحمته ، وإنما هو يرجو عفوَ الله ومغفرته ، فكل عملٍ فى جَنْبِ الله قليل لم يَقُل المسيح : تهللوا ! فالساعةُ قريب . وإنما قال : تُوبوا ! فقد اقترب ملكوت السموات . إنه هنا نذيرٌ لا بَشير .

لم يُبَشِّرِ المسيحُ إذن بملكوت السموات ، إن فَهِمْتَ ملكوت السموات بمعنى قُرب قيام الساعة ، وإنما تستطيع أن تقول انه أنذر بها . وقد قالها يوحنا قبله بنفس عبارته: "توبوا ! لأنه قد اقترب ملكوت السموات" (متى ٣/٢) . ومن ثم لا يصح اختصاصُ المسيح وحده بهذه البشارة ، أعنى النّذارة ، حتى يُسَمَّى بها وحيُ الله عليه "الإنجيل" ، فلم يغفل عن قولها من قبلُ ومن بعد نَبِىٌّ .

قيل أيضا ان بشارة المسيح هى البشارة بمغفرة الخطايا ، يعنى أنه جاء خلاصاً للبشر من خطاياهم . وليس بشىء ، لقوله فى مرقس : "اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا [١] بالإنجيل للخليقة كلها . من آمن واعتمد خَلَص ، ومن لم يؤمن يُدَنْ"

---

(١) ليست هى " كَرَزَ " العربية يعنى لجَأ واعتصم ، وإنما هى منحولة من الآرامية بمعنى صاح وصوت ، فهو" كاروز" يعنى " نذير " أى herald الإنجليزية . وقد اختارتها الترجمات العربية فى مقابل kerussein اليونانية بمعنى أعلن وبشر to proclaim .

(مرقس ١٦ / ١٥ ـ ١٦) ، فليس هو إذن خلاصاً للبشر أجمع ، و إنما الخلاص لمن آمن . وهذا صحيحٌ فيه وفى سائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين . فليست هى إذن بشارةً تتخصص به . وقد دعا بها يوحنا قبله : "كان يوحنا يُعَمِّدُ فى البرية ويكرز بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا" (مرقس ٤/١). فلا مغفرةَ إلا بالإيمان والتوبة، أتباع يحيى وأتباع المسيح فى هذا سواء . وما العِمادُ على يد يحيى أو عيسى إلا عَهْدٌ على إخلاصِ التوبة .

ها قد استبان لك بالتحليل النقديِّ وحده أن محور رسالة المسيح عليه السلام ليس هو البشارة بقيام الساعة ـ إن فَهِمْتَ ملكوت السموات بمعنى يوم الحساب ـ فلا أحد يبشر بقيام الساعة ولا يطلبها فى صلواته . وليس هو أيضا "النِّذارة" بها ، فهذا عامٌ فى كل نبى لا يختص به المسيح وحده . بل حتى إن فهمت ملكوت السموات بمعنى الحياة الآخرة "المُلْكُ يومئذ لله" ، فريق فى الجنة وفريق فى السعير ، أو فَهِمْتَ ملكوت السموات بمعنى الجنة فقط ، فلا يستقيم لك هذا أو ذاك ، لأن التبشير بالجنة والتنفير من النار هو قول الأنبياء جميعا لم يغفل عن قوله نبى ، ولا يختص به نبى دون نبى ، لا يصح أن تنفرد به رسالةُ المسيح فيتسمى به "إنجيله" . ولا يصح أيضا أن تكون رسالةُ المسيح هى "البشارة" بمغفرة الخطايا ، فهذه هى بُشرى جميع الأنبياء من قديم لكل مؤمن تاب وأناب فأسلم وجههُ لله مُخلِصاً له الدين .

ولا يصح بالذات ما قاله اللاهوتيون من بعد فى تأصيل نظرية البشارة بمغفرة الخطايا : قالوا بل من الخطايا مُكْتَسَب وأصلى . فأما المكتسب فهو الذى يجترحه البشر فى هذه الدنيا ويصح تكفيره بالاستغفار والتوبة . وأما الخطيئة الأصلية فهى خطيئة يُولَدُون فيها ولا حيلة لهم فى دفعها لأنهم وَرِثُوها ولم يجترحوها . إنها خطيئة أبيهم آدم يوم نَسِيَ فأكل من الشجرة المنهيِّ عنها ، فَباءَ بإثمها البشرُ جميعا ، الذين يولدون فى دنس هذه الخطيئة منذ أن طُرِدَ أبوهم من الجنة حتى مجىء المسيح "ببشارة" افتدائه البشر منها بدمه المسفوح على الصليب ، لأن "الآب" لا يقبل قربانا يعدل معصية آدم إلا دما زكيا لم يولد فى دنس هذه الخطيئة ، وهو المسيح ، ابن الله الوحيد الذى ولد لخلاص العالم . ولا يصح هذا ، ليس فقط لأن الله تاب على آدم وزوجه قبل إهباطهم إلى الأرض كما قال القرآن : { **فتلقى آدم من ربه كلمات ، فتاب**

عليه ، إنه هو التواب الرحيم } (البقرة : ٣٧) ، ليس لهذا فحسب ، وإنما أولا وبالذات لأن الخطيئة لا تُورَث ، بل كل امرىء مُحاسَبٌ فحسب بما قدمت يداه ، لا يسأل بما فعل آباؤه ، ولا يؤخذ بفعل ذراريه . وثانيا لأن معنى هذه المقولة هوأن الأبرار قبل المسيح - وفيهم أنبياءُ الله ورسله وصديقوه - ماتوا كلهم فى خطيئة آدم ، لا حَظ لهم فى الآخرة . ولا يصح هذا أخيرا وبالذات لأن المسيح لم يَقُلْهُ فى هذا الإنجيل الذى بين يديك ، ولا يجوز التزيد على أنبياء الله ورسله ، ولاسيما فى أمر هو عمود الدين عند أصحاب هذا اللاهوت .

وقد جُودِلَ أصحابُ هذه المقولة بمعظم هذا الذى قُلناه ، فَأُحيطَ بهم . ولكنهم استدركوا على أنفسهم فقالوا إن الأبرار قبل المسيح - وفيهم أنبياء الله ورسله وصدِّيقوه ومنهم مريم عليها السلام - يُعفيهم الله بسبقِ الاصطفاء من وِزْر الخطيئة الأصلية فلا يُولدُون فى دنسِ خطيئة آدم ، وإنما تَحْمِلُ بهم أمهاتهم حملا بريئا من هذا الدنس ، يرقِّعُون كما ترى قولا بقول ، فما صَحَّ لهم هذا ولا ذاك ، لأنه متى فسدت المُقدِّماتُ فقد فسدت النتائج .

❑❑❑

إذا كان المسيح لم يبشر بالساعة ، ولم يبشر بمغفرة الخطايا مجانا ، ولم يبشر بنسخ الولادة فى دنس خطيئة آدم ، فبماذا بَشَّرَ المسيحُ إذن فى إنجيله إذا كانت "الإنجيل" تعنى يونانياً البِشارة أو الخبر السار ؟

يقول أهل القرآن ان بشارة المسيح إنما كانت بختام النبوات على يدى الذى يأتى بعده ، لقول المسيح فى القرآن ينص على هذه البشارة : { **وإذ قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ، فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين** } (الصف : ٦) .

لا تقرأ هذا أو قريبا منه فى أناجيل متى ومرقس ولوقا ، وإنما انفرد به "يوحنا" الذى جمع بين النقائض : **ألَّه** المسيح جَهْرَةً فى مُفْتَتَحِ إنجيله ، وختمه بالنص على أن المسيح رُفِع ولم يَقُل بعد كل الذى يجب أن يقال ، كما يتبين لك من قول يوحنا على

لسان المسيح : "إن لى أمورا كثيرة أيضا لأقولَ لكم ، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن . وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه لايتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية" (يوحنا/١٦ ١٢ ـ ١٣). لم يُرشِد المسيح أتباعه إذن إلى "جميع الحق" ، بل عليهم أن ينتظروا " الآخر" ، متمم النبوات جميعا ، الذى يرشدهم إلى "جميع" الحق ، فلا يبقى بعده من رسالات السماء شىء يقال .

هذه فى الأناجيل هى شهادة عيسى للقرآن ولمحمد صلى الله عليه وسلم قبل ختام النبوات به بَعْدَ ستةِ قرونٍ من رَفْع المسيح ، وهى بشارته بقائل جميع الحق . وهى كافية فى ثُبوتِ بشارةِ عيسى بخاتم النبيين ، ولو قد تَلَبَّثَ عندها علماء المسلمين لَكَفَتْهُم ، ولكنهم أصروا على التماس اسم خاتم النبيين فى الأناجيل صريحا على لسان المسيح ، وسيأتى .

على أن علماء المسيحية لم يُسَلِّمُوا لعلماء المسلمين بالذى قالوا، وهذا بديهى ، وإلا لدخلوا ودخل معهم الخلق جميعا فى دين الله أفواجا . وإنما يقول شراح المسيحية وعلماؤها ولاهوتيُّوها ان هذا الآخر الذى يأتى بعد رفع المسيح ليرشد الناس إلى جميع الحق ، أى ليقولَ لهم ما لم يقُلْهُ المسيح ، لأنهم لا يستطيعون احتماله ، الذى نَعَتَهُ المسيح بروح الحق ، ليس هو بشرا من أنبياء الله ورسله ، وإنما هو "الروح القدس" ، ثالث الثلاثة فى عقيدة التثليث ، يعنون ملك الله جبريل صلوات الله عليه . وهذا القول ـ إن تَمَعَّنْتَ ـ مردودٌ بما فى إنجيل يوحنا نفسه الذى تجد فيه بالنص من كلام المسيح لتلاميذه قبل القبض عليه : "وأما الآن فأنا ماض إلى الذى أرسلنى وليس أحدٌ منكم يسألنى أين تمضى . لكن لأنى قلت لكم هذا قد ملأ الحزنُ قلوبكم . ولكنى أقول لكم الحق إنه خيرٌ لكم أن أَنْطلق . لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المُعَزِّى (وهى الفارقليط Parakletos اليونانية) . ولكن إن ذهبت أُرسِلهُ إليكمْ (يوحنا/١٦ ٥ ـ ٧) ، وهذا صريحٌ فى أن المسيح وهذا الآتى من بعده لا يتعاصران على هذه الأرض. لابدُ من رفع المسيح أولا قبل مجىء هذا الآتى. بينما تقرأ فى يوحنا أن هذا الروح القدس كان معهم قبل رفع المسيح ، بل إن المسيح نَفَخَ فيهم هذا الروح القدس قبل ارتفاع المسيح : "ولما قال هذا نفخ وقال لهم اقبلوا الروح القدس" (يوحنا ٢٠/ ٢٢). وهو مردودٌ أيضا بأن

"الروح القدس" عندهم إله (ولم يكن يوحنا يعلم بالطبع يوم كتب إنجيله أن جبريل سيتأله في الربع الأخير من القرن الرابع) ، ولا يليق بإله ألا يتكلم من نفسه ، بل ينتظر سماع ما يقال له ثم يقوله للناس ، وإنما يَصِحُّ هذا في أنبياء الله ورسله ، يُلْقَى إليهم وحيه فيتكلمون به ، شأن محمد صلى الله عليه وسلم وهذا القرآن . بل لا يصح في جبريل بالذات وإن لم يَتَأَلَّه جبريل ، لقول المسيح في يوحنا : "ومتى جاء المُعَزِّي (وهي الفارقليط Parakletos اليونانية) الذي سأرسِلُهُ أنا اليكم من الآب ، روح الحق الذي من عند الآب ينبثق، فهو يَشْهَدُ لي" (يوحنا ١٥/٣٦) لأن جبريل عليه السلام، مَلَكَ الله إلى أنبيائه ورسله قد سبق " انبثاقُه " ، لا ينتظر المسيح حتى يرسله من عند "الآب" ، بل قد سبق انبثاقه مَوْلِدَ عيسى نفسه ، لأنه النافخُ في مريم ، المُؤَيِّدُ للمسيح في المعجزات التي أجراها الله على يديه . ولو كان عيسى إلها بذاته لما احتاج إلى جبريل . ولو كان جبريل إلهاً بذاته لما احتاج إلى " السماع " من الآب ليتكلم بما يقوله له "آبٍ" من ذات جوهره . ولو بَقِيَ جبريلُ مَلَكا على أَصْلِه لما جاز أن يكون هو المبشر به ، لأن الملائكة لا تتنزل على تلاميذ ، وإنما تَتَنَزَّلُ على أَنَبياء ، كالشأن في جبريل ومحمد ، صلوات الله وسلامه على ملائكته و أنبيائه . وأخيرا ـ وهو الفاصِلُ الحاسم ـ فإن هذا الذي تنزل على التلاميذ يوم الخمسين (أي بعد خمسين يوما من رفع المسيح كما تَقْرَأُ في سفر أعمال الرسل) لم يقل لهم شيئا ، لا من نفسه ولا سماعا من الآب ، كما قال المسيح في الآتي بعده ، وإنما كان دَوْرُهُ هو تأييدهم ونُصْرَتَهُم وإجراء العجائب على أيديهم كالذي تَقْرَؤُهُ في سِفْر أعمال الرسل . ليس هذا إذن هو الآتي بعد المسيح ، الذي "شَهِد له" ، وإنما الشاهِدُ للمسيح هو هذا القرآن .

أما لفظة "الفارقليط" Parakletos التي سمى بها المسيح هذا الآتي بعده ، فهي من اليونانية الكَنَسِيَّة التي لم تُسْمَع قط من اليونان قبل عصر المسيح ، يعني أنها منحوتة نحتا لتسمية هذا الآتي . وقد قال علماء المسيحية انها يسهل اشتقاقها على المفعولية من الفعل اليوناني Parakalein بمعنى استغاثه واستنَصرهُ واستعانه فهو إذن المُسْتغاث ، المُسْتَنصر، المُسْتَعان: أخذوا kalein اليونانية بمعنى ناداه واستدعاه، وأخذوا المقطع اليوناني Para بمعنى إِلَيَّ ، حوالَيَّ ، وكأنك تقول "هَلُمَّ إِلَيَّ !". ولاتزال Parakalo ! في اليونانية المعاصرة تفيد معنى الطلب والرجاء (أَرجوك !) هذا التفسير المسيحي للفظة الفارقليط Parakletos بمعنى النصير الشفيع ، تفسيرٌ متأثرٌ

بالدور الذى اضطلع به "روح القدس" من بعد رفع المسيح من نُصْرَةِ التلاميذ وتأييدهم بالعجائب التى أجراها على أيديهم على نحو ما تقرؤه فى سفر "أعمال الرسل" ، وإن لم يَقُلْ لهم شيئا مما قال المسيح إنه سيرشدهم إليه ، الذى يقول لهم "جميع" الحق . ومن ثم لا يتفق هذا التفسير مع دور هذا "الآتى" من بعد المسيح ، لأنه ليس المَعْنِىَّ بها .

ولاشك أن يوحنا الكاتب لهذا الإنجيل حين نَصَّ على أن الفارقليط هو نفسه روح القدس جبريل : "وأما الفارقليط [١] الروح القدس الذى سيرسله الآب باسمى فهو يُعَلِّمُكم كل شىء ويذكركم بكل ما قلته لكم" (يوحنا ١٤/٢٦) ، كان متأثراً بهذا الذى كان ، فخلط قلمه بين "روح الحق" ، " روح القدس" التى سمى بها الفارقليط مرةً واحدة فقط فى هذا الموضع وهى فى كل المواضع الأخرى "روح الحق" ، وليست روحُ الحق هى روح القدس كما ظن يوحنا المتأثر بالذى كان .

والذى ينبغى التنبيه إليه أن ترجمات الإنجيل بكل اللغات استبقت لفظة فارقليط على أصلها ، تحاشياً من التورط فى ترجمة معناها إلى اللغة المُتَرْجَمِ اليها ، فقالت الترجمة العربية حتى أوائل هذا القرن " فارقليط " ، وقالت الترجمة العبرانية "پرَقْلِيط" ، وقالت الفرنسية le Paraclet ، الخ . ولكن من اللغات الأوروبية من تَصَدَّت لهذه الترجمة فقالت الألمانية "المُدافع" أو "الشفيع" المُتَشَفَّع به Fürsprecher وتابعتها الانجليزية على هذا المعنى فقالت "الناصح المشير" Counsellor وكأنها المُحامِى ، وقالت الانجليزية أيضا "المُعَزِّى" المُواسِى Comforter وأخذتها عنها الترجمة العربية المعاصرة فقالت "المُعَزِّى" ، لا تجدُ اليوم غيرَها فى ترجماتِ الإنجيل العربية . وليس هذا كُلُّه بصحيح من حيث اللغة ، لا سيما "المُعَزِّى"، وإنما هو التفسير بالعقيدة، لا التفسير باللغة، فليس فى Parakalein اليونانية شىء من معانى العَزَاء و المواساة، وليس فيها أيضا شىء من معانى الشفاعة والمُدافَعَة والمشورة ، وإنما هى ـ إن اشتققتها من Parakalein كما يقول علماء المسيحية ـ تعنى فقط المستغاث المُسْتَنْصَر المستعان ، أو الذى تَتَوجَّهُ إليه بالرجاء ، على معناها الباقى فى اليونانية المعاصرة .

---

(١) تجد " الفارقليط " هذه بلفظ " المعزى " فى الترجمات العربية المعاصرة على ما يأتى .

أما علماء المسلمين فقد دلهم بعض السريان من قديم على أن " فارقليط " هذه تعنى فى اليونانية " أحمد " التى فى القرآن اسما لخاتم النبيين الذى بَشَّرَ بَه عيسى قَوْمَهُ فى القرآن . فذهب بعض المفسرين إلى أن " الفارقليط " من أسمائه صلى الله عليه وسلم . وقد جادل بها المسلمون أهل الكتاب إلى هذا العصر . وانتبه علماء المسيحية إلى خطورة هذا حين يقرؤه المسيحيون العرب الذين يعرفون على التحقيق معنى الاسم " أحمد " أو "محمد" فى لغتهم العربية ، ولا علم لهم بتلك اللغة اليونانية التى كُتِبَت بها أصولُ الأناجيل وصيغت بها لفظة Parakletos هذه التى اسْتُبْقِيَت على أصلها "فارقليط" فى الترجمات العربية حتى أوائل هذا القرن العشرين ، فلا يستطيعون لمقولة علماء المسلمين هؤلاء دفعا . قال علماء المسيحية [١] إذن ان Parakletos اليونانية لا تعنى قط "أحمد" وإنما تعنى " المُعَزِّى " فحسب ، مُعقّبين بأنها فى الأصل اليونانى Parakletos ، وليست Periklitos ، "فليس فى المتن شئٌ من معانى الحمد" . وتوقفت ترجمات الإنجيل العربية عن استخدام لفظة الفارقليط ، ووضعت فى موضعها لفظة " المُعَزِّى " قطعاً للجدل حول شبهة معنى "الحمد" فى الاسم، على مثال ما فعلت الترجمة الانجليزية Comforter .

هذا الدَّفعُ " اللغوى " بأن الفارقليط لا تعنى أحمد ، دَفْعٌ مُتأخِر بطبيعة الحال ، لم يُعْرَف قبل مَبْعَث خاتم النبيين المسمى "محمدا " ، أو قل إنه لم يعرف قبل اطلاع الغربيين على معنى اسمه صلى الله عليه وسلم ، فَهَبُّوا لمنع اشتباه اسمه باسم ذلك الآتى بعد المسيح ، الذى إن لم ينطلق هو لا يجيء . ولكن هذا الدفع لم يطفئ الشبهة ، بل زادها اشتعالا : ها قد علم المسلمون أن فى اليونانية "فرِيقْليط" Periklitos بمعنى "أحمد" شبيهةٌ كل الشَّبْه بـ " فارقليط Parakletos المثبتة فى الأصل اليونانى ، فلم لا تكون هذه هى تلك ، تَحَرَّفَت على قلم يوحنا الكاتب فى إنجيله ؟

على أن علماء المسيحية أصحاب هذا الدفع اللغوى لم يُوَفَّقُوا ، فليس معنى فارقليط Parakletos اليونانية هو" المعزى" كما مر بك وكما يعلم دارسو اللغة اليونانية، ولا معنى للإصرار على أن الفارقليط يعنى المُعَزِّى . وليس بصحيح أيضا

---

(١) راجع الكتاب المقدس ، طبعة الفاتيكان العربية ، المرجع المذكور ، حواشٍ على مجلد العهد الجديد ، ص ٥٠٠ .

أن Parakletos لا تعنى " أحمد " ، وأنها لو كانت أحمد لقيلت بلفظ Periklitos ، بل Parakletos بذاتها ودون افتراض تحريف أو تحوير ، تعنى أحمد أيضا ، إن اشتقاقها لا من Parakalein وإنما من Parakleiein ، المقطع الأول Para بمعنى المبالغة وتجاوز الحد ، والمقطع الثانى kleiein فعْلٌ بمعنى مَجَّدَهُ وحَمَّدَه فهو المحمودُ أكْثَرَ من غيره ، شأن " أحمد" التى جاءت فى القرآن ، وفى هذا تعليلٌ لمجيئها على "أحمد" لا "محمد" ، لأن القرآن ينظر إلى المكتوب فى الأناجيل اليونانية لا إلى ما نطق به المسيح بلغته ، وليس فى اليونانية صيغة "مُفَعَّل" التى فى العربية والعبرية ، وإنما فيها المقطع para الذى يفيد المبالغة وتجاوز الحد . والمحقق الذى لا يصح فيه جدل أن المسيح لم يَقُلْ فارقليط أو فريقليط، فهو لا يتكلم اليونانية، ولا يُحَدِّثُ تلاميذه بها ، وإنما هى ترجمة من يوحنا الكاتب، لا تدرى عما نَقَل، فلا تدرى هل أخطأ أو أصاب.

هذا إن قلت أن " فارقليط " يونانية . ولكنك تستطيع أن تقول أيضا ـ وهذا هو الذى أرَجِّحُهُ أنا ـ إن "فارقليط" ليست يونانية ، وإنما هى عبرية ـ آرامية "پرَقْ + ليط" على ما نطق به المسيح بلغته ونقلها على حالها يوحنا الكاتب حسبما استقام له نُطْقُهَا بلسانه اليونانى . الذى يَدُلُّكَ على هذا أن العبرية المعاصرة تستخدم " پِرَقْلِيط" هذه بمعنى المحامى، لا إسم عندها للمحامى غيره . وقد تقدم القول فى تضاعيف هذا الكتاب أنَّ لفظة "پِرَق + لِيط" العبرية ـ الآرامية معناها كاشف الغشاوة أو واضع الإصر ، وهو نعته صلى الله عليه وسلم فى القرآن : { **الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويُحلُّ لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم** } (الأعراف :١٥٧) . والإنجيل المَعْنِيُّ فى هذه الآية هو بلا شك هذا الإنجيل اليونانى الذى بين أيديهم ، فما كان الله ليُعَمِّيَ عليهم إنجيلا آخر ، وما كان القرآن ليقول إلا حقا ، لأنه هاهنا يتحدى أهل الكتاب بهذا الحق : إنه عندكم مكتوب فى إنجيلكم فَتَلَمَّسُوُه فيه ، باسمه أو بنعته ، لقوله عز وجل مباشرةً بعد ذكْرِ بشرى المسيح قومَه بمحمد فى الآية ٦ من سورة الصف : { **ومن أظلَمُ ممن افترى على اللهِ الكَذِبَ وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدى القوم الظالمين. يُريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون** } (الصف : ٧ ـــ ٨) .

هذا قاطعٌ فى بشارةِ الإنجيل بخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ، سواءٌ قُلْتَ إنه "الفارقليط" المتنازَعُ عليها ، أو قلت انه قائلُ جميعِ الحق الذى لا يَبْقَى بَعْدَهُ شىءٌ يقال كما وصفه المسيح صريحاً فى هذا الإنجيل الذى بين يديك .

هذه هى "البشارة" إن قُلْتَ إن "الإنجيل" يونانياً معناها البشارة .

على أننا لا نَتَلَبَّث طويلا عند هذا ، فقد مَرَّ بك فى تضاعيف هذا الكتاب أن رسالات الله عز وجل - من آدم إلى محمد صلوات الله وسلامه على جميع رسله وأنبيائه - إنما تستمد الدليلَ على صدْقِها من ذاتِها لا من خارجها ، لاتحتاجُ إلى نبوءاتٍ وبشارات فى الكتب السابقة كالذى أَلَحَّ عليه كَتَبَةُ الأناجيل الأربعة . القرآنُ غَنِىٌّ عن ذلك ، فلم يُبْقِ قولا لقائل من بعده . ولو كان بعد خاتم النبيين نبىٌّ - وهذا من إعجازِ القرآن فى أنباء القرآن - لما عَدِمَ الناسُ نَبِيا جديداً يقطعُ هذه الفترةَ المتطاولة - أربعة عشر قرنا حتى الآن - التى لا سابقةَ لطولها فى تاريخِ الأديان بين نَبِىٍّ ونَبِىٍّ، لا شأنَ لك بالطبع بمن تَطَفَّلَ واقْتَحَم فجاء بنفسه لم يُرْسِلْهُ أحد ، من أمثالِ تلك البهائيات والقاديانيات التى لم تأتِ بجديدٍ إلا محاولةَ "المُصالَحةِ" بين اليهوديةِ والنصرانيةِ والإسلام ، فَضَيعَت على نفسها هذا وذاك .

على أن " الإنجيل" لا تعنى يونانياً البشارة أو الخبر السار كما سوف ترى : هذا على شهرتِهِ غَيْرُ صحيح .

❑❑❑

المتفق عليه بين علماء المسيحية جميعا هو أن "الإنجيل" تعريب "إڤنجليون" اليونانية euaggelion [١] مركبة من مقطعين : eu + aggelion الأول هو البادئة eu التى تُفيد التقريظ والتحميد ، والثانى aggelion قالوا أنه بمعنى "الخبر" ، فهو "الخبر السار" . وقد حرصت جميع الترجمات على استبقاء euaggelion على أصلها ، فقالت الإيطالية Evangelo وقالت الفرنسية Evangile وقالت الألمانية Evangelium، الخ . ، وقالت العربية "إنجيل" كما تعلم ، وقال السريان "أنجليون" (التى حكاها عنهم

(١) لا تنطق اليونانية حرف الجيم مشددا ، وإنما تحيل الأول فى النطق نونا . ومن هنا ينطقون gg التى فى euaggelion لا gg بل ng (gg = ng) .

القرطبى فى تفسيره فرسمها بالكاف "أنكلْيُون" لأن الجيم السريانية هى الجيم القاهرية، لا يصح عنده رسمها بجيم عربية القرآن) . أما الانجليزية فتصدت لترجمتها على ما شاعت به ، فقالت Gospel (التى أصلُهـا good + spell) بمعنى القـول الطيب ، تُرِيدُ "البشارة". وأما الترجمة العبرانية للأناجيل اليونانية فقالت "بِسُورا" تعنى البشارة حرفيا . وهذا يدلك على أن ترجمات الأناجيل جميعا ومنها العربية والسريانية استبقت اللفظ اليونانى على أصله ، فيما عدا الانجليزية والعبرانيـة اللتين تَصَدَّتَا لترجمته ، فأخْطَأتا كلتاهما كما سترى .

هذا الخطأ الشائع الذى وقع فيه المترجمان الانجليزى والعبرانى منشؤه أنهما ترجما "المفهوم" الذى شاع ، لا " الأصل" اليونانى فى لغته اليونانية . لأن المقطع الثانى فى هذه اللفظة (إن حَسِبْتَهـا يونانيـة) هو "أنَجليُون" aggelion وهو مأخوذ من "أنجلْيُو" aggelio يعنى "الرسالة" ، اشتقاقا من "أنَجلوُس" aggelos يعنى الرسول المُرْسَل (ويُطلِقُها اليونان أيضا على المَلَك واحد الملائكة ومنها angel الإنجليزية ، مثلما تفعل العبرية والآرامية فى "مَلآخ" التى تُستَخدَمُ بمعنى الملك واحد الملائكة وبمعنى الرسول واحد الرُّسُل) . "أنجلْيُون" إذن معناها الرسالة لا الخَبَر . أما المقطع الأول eu فهو بادئة يُحَلَّى بها ما بعدَها (" أنجليون ") فَتُفيد التقريظَ والتحميد كما فى eu - genis يعنى حَسَنُ التربية فهو المهذَّب ، وكما فى eu - geustos يعنى حَسَنُ المذاق ، فهو السائغ الشهى ، أو تفيد الخَير كما فى eu - logia أى قول الخير ، يعنى المُباركَة والتبريك ، أو تُفيد المبالغة فى تحَقُّقِ الصفة فى الموصوف كما فى eu - pathis يعنى الشديد الحساسية ، فهو الهَشُ الرقيق . من هنا تَتيَقَّنُ أن هذا اللفظ اليونانى المركب "إِفْنْجلْيُون" eu - aggelion ليس معناه الخَبَرُ السار أو الخَبَرُ الحُلو أو الخَبَرُ الطيب ، أو الخَبَرُ نِعْمَ الخبَر ، وإنما هو مَحْضُ "الرسالة" ، حلاَّها كتبة الأناجيل بهذه البادئة eu التى تفيد التقريظ والتحميد ، أو ما شِئْتَ من معانى هذه البادئة اليونانية على ما أوردناه آنفا .

وربما قيل لك ان "الرسالة" من معنى "الخَبَر" قريب، وما يُدرِيك أن كتبة الأناجيل أرادوا معنى "الخَبَر" فقالوا فى موضعه "رسالة" ؟ ولا يَصحُّ هذا ، أولا وقبل كل شىء لأنك تأخذُ القائل بما قاله لا بما أبْطَنه ، وثانيا لأن الذى لا يُفرِّق بين معنى الخَبَر ومعنى

الرسالة ، لا يَفقَهُ من أمر لغته شيئا ، فلا تَأتَمنَهُ على شيء مما كتب فى هذه الأناجيل، وثالثا لأنهم لو أرادوا الخبر الطيب أو الخبر السار لقالوا ببساطة kalo neo (مفرد kala nea اليونانية مكافئة good news الانجليزية)، ولما تَمَحَّلُوا هذه الصيغة المخصوصة euaggelion التى لم تُسْمَع قط من اليونان قبل المسيح ، ورابعا ، وهو الفاصل الحاسم ، لأن " إِڤَنْجِلْيُون " euaggelion هذه لو كانت تعنى يونانياً البشارة أيَّةَ بِشارة ، أو الخَبَرَ السَّارَّ أى خبر سَارٌ ، لَصَلَحت فى اليونانية بهذا المعنى فى غير اسم "إنجيل المسيح" ، ولكنها جَمَدت فى الاستعمال عَلَماً على ما جاء به عيسى ، لا تصح فى غيره كما يعرف علماءُ تلك اللغة .

لن تحتاج بالطبع إلى أن أدُلَّكَ على الفرق بين معنى الرسالة ومعنى الخبر : الرسالة تقتضى "مُرْسِلاً" ، "رسولاً" ، "مُرْسَلاً إليه" ، والخبر لا يحتاج إلى أى عنصر من هذه العناصر الثلاثة ، فقد ينتقل الخبرُ بذاته ، وقد ينتقل ممن يَحْرِصُ على إخفائه فيذهب لمن لا يعنيه الخبرُ ولا يَأبَهُ به . والرسالةُ لا تتضمن خبراً بالضرورة ، بل بالأحْرَى طلباً أو تكليفاً ، وهى فى الغالبِ الأعم تشترطُ رداً ، ولكنها فى أقل القليل تنتظر "استجابة" . وليس الخَبَرُ أو النبأ من هذا كُلِّه فى شىء .

وقد استشعر المترجمُ العربى حَرَجاً من إضافة "الإنجيل" إلى الله فى مثل قول مرقس: "وبعد ما أُسْلِمَ يوحنا جاء يسوعُ إلى الجليل يَكْرِزُ بإنجيل الله" (مرقس ١٤/١) ، فقالت ترجمة الفاتيكان العربية " يَكْرِزُ بإنجيلِ مَلَكُوتِ الله " ، أضافت من عندها لفظة " ملكوت " فاصلاً بين الإنجيل والله . أما ترجمة الكنيسة الأرثوذوكسية المصرية فقالت "يكرز ببشارة ملكوت الله" ، رفعت " إنجيل " ووضعت فى موضعها "بشارة" وأضافت هى أيضا لفظة " ملكوت " فاصلا بين "البشارة " (التى هى الإنجيل) وبين " الله " . أما حين جاءت لفظة "الإنجيل" منفردة فى الفقرة التالية مباشرة : "ويقول قد كَمَلَ الزمان واقترب ملكوت الله، فتوبوا وآمنوا بالإنجيل" (مرقس١/ ١٥)، عندئذ تركت لفظة "الإنجيل" على أصلها فى الترجمتين . هذا التحَرُّج من إضافة "الإنجيل" إلى الله ناشىء عن فهمهم الإنجيل بمعنى الخبر السار أو البشارة ، ولا يصح أن تكون لله بشارة ، لأن عيسى هو "المُبَشِّر" لا الله ، أو هو "الكاروز" أى البَشير النذير آراميا . ولو قد فهموا "إنجيل" بمعنى "الرسالة" على أصلِها اليونانى ، لاستقام الفهم واستقامت العبارة "يكرز برسالة الله" .

ولولا أننى لا أقول بيونانية لفظة " إنجيل " على ما سيأتى بيانه ، لقلت لك ان المعنى فى عبارة مرقس " يكرز بإنجيل الله " يعنى " يبشر بإنجيل الله " ، هو البشارة التى فى الأناجيل بمقدم محمد صلى الله عليه وسلم ، فتفهم من عبارة مرقس لا "يبشر بإنجيل الله" وإنما "يبشر برسول الله" .

ولكننى لا أحتاج إلى هذا ، لأننى أقول بأن المعنى بعبارة " ملكوت الله " التى فى مرقس وأمثالها : " قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله " (مرقس ١ / ١٥) هو "رسولُ الله " تسمية بالمصدر على المبالغة والتفخيم ، لأن " ملكوت " عبريا وآراميا كما يعرف علماء هاتين اللغتين (مع إبدال كافها خاءً فى النطق لا فى الرسم) تعنى "الرسالة" لا " المُلك " ، فلا يَبْعُد أن تشتبه على كتبة الأناجيل بلفظة "مَلكُوت" المكسورة اللام بدلا من فتحها ، والتى تعنى المُلك والمملكة ، فترجموها باليونانية حيثما وردت بلفظة " Basileia " يعنى "المملكة" التى حَسَّنَتْها الترجماتُ العربية فقالت "مَلكُوت " . فقد أراد المسيحُ إذن أنَ الزمان كَمَل واقترب مجىء الرسول الخاتم . تجد مثل هذا فى قولهم فى صلواتهم : " أبانا الذى فى السموات ، ليتقدس اسمُك ، ليأتِ ملكوتك " أى فليأت رسولك ، قائل جميع الحق ، خاتم النُّبُوَّات . عليك كلما قرأتَ فى هذه الأناجيل لفظة " المَلكُوت " منسوبة إلى الله عز وجل أن تفهم منها مباشرة رسول الله محمداً صلى الله عليه وسلم : إنها " أنجلوس " اليونانية فى هذا الموضع بالذات Aggelos لا المملكة والملكوت Basileia . عندئذ يستقيم الفهم وتستقيم العبارة . لن يقبل هذا بالطبع علماء المسيحية ، وإلا لآمنوا من قبل بالقرآن وبمحمدٍ صلى الله عليه وسلم . ولكننى أقوله لك أنت كمسلم يقرأ فى هذه الأناجيل ويريد أنْ يقع فيها على حقيقة وحى الله على عيسى ، أقرب ما يكون إلى ما نطق به المُبَشِّرُ بخاتمِ النبيين .

عليك فقط أن تفهم الأب بمعنى الرب ، والابن بمعنى البارِّ أو الصفى المختار ، وأن الملائكة التى فى الأناجيل تجىء أحيانا بمعنى الرُّسُل ، وأن الملكوت حين يُبَشَّرُ بمجيئه واقترابِ زمانه إنما هو " رسولُ الله " محمدٌ صلى الله عليه وسلم ، وأن تفهم لفظة euaggelion " الإنجيل " إن حَسِبْتَها يونانية لا بمعنى البشارة أو الخبر السار ، وإنما بمعنى " الرسالة " أو" الرسول " ، لاسيما أن زيادة النون فى " أَنجْلِيُو" التى أصبحت " أَنَجْلِيُون" تَنْسَخُ الإسمية على المصدر وتَرُدُّها إلى الإسميةِ على الفاعل ، فهى أقربُ إلى الرسولِ منها إلى الرسالة .

أما وقد وضح لك أن " إِڤَنْجِلْيُون " euaggelion لا تعنى البشارة ، وإنما تعنى يونانياً "الرسالة " ، وهو المعنى الذى يَقْلِبُ مفهومَ " البشارة بمغفرة الخطايا " عند علماء المسيحية رأسا على عقب ، فليس أمامنا وأمامهم إلا القول بأن " الإنجيل " ليست فى الأناجيل على الترجمة للفظٍ قاله المسيح بلغته ، وإنما هى على أصلها العبرى ـ الآرامى الذى نطق به المسيح ، جاء فى صورةٍ يونانية .

نعم . هذا هو القول الذى به نقول : ليست " إنجيل " يونانية ، وإنما هى عبرانية، كما سترى .

❑❑❑

كان عيسى يُتْقِنُ عبريةَ التوراة كما كان يَنْطِقُها موسى وهرون ، صلوات الله عليهم أجمعين . وهذا من تعليم الله عَزَّ وجل إياه : { **وإذ علّمْتُك الكتابَ والحكمةَ والتوراةَ والإنجيل** } (المائدة : ١١٠) ، فكان يجادل بالتوراة فى الهيكل علماء التوراة وهو بعد حدثٌ يافع . وهذا من آيات الله فيه ، فقد فسدت عبرية التوراة على ألسنة الناس فى فلسطين وآلت إلى رطانة آرامية على ما مر بك فى تضاعيف هذا الكتاب . وهو أيضا الذى نعنيه بأن لغة المسيح ، ولغة " إنجيله " أيضا ، عبرية ـ آرامية ، يختلط فيها هذا بذاك .

وقد وضح لديك الآن أن لفظ " البشارة " (وهى " بِسُورا " عبرياً) لا يصح اسما لوحى الله على عيسى ، ولا يَصِحُّ أيضا لفظ " الرسالة " (وهى " ملآخُوت " عبرياً وآرامياً) ، لأن الرسالة هى مَنْصِبُهُ عليه السلام ، لا وحى الله عليه ، وإلا لَتَساوى فى الاسم التوراةُ والإنجيل والقرآن ، التى هى أعلامٌ على وحى الله على موسى وعيسى ومحمد كل على حدة صلوات الله وسلامه عليهم جميعا . ومن ثم لا تَصِحُ "أَنْجِلْيُون" aggelion اليونانية ، سواء أخذتَها كما يقولون بمعنى البشارة أو كما نقول نحن بمعنى الرسالة، ولا معنى وراء هذين للفظة "أنجليون" اليونانية، اسما لوحى الله على عيسى. هنا تقطع بأن "أنَجلْيُون" اليونانية ليست يونانية ، إن كانت هى اسم وحى الله على عيسى كما سَمَّاهُ الله أو سَمَّاهُ المسيح .

لا يَبْقَى لديك إذن إلا أنَّ " أنجليون " هذه لفظةٌ بلغة المسيح ، اسمٌ لوحى الله على عيسى ، نقلها كتبة الأناجيل على أصلها بالخط اليونانى كما سُمِعَت من المسيح

نفسه ، أخذوها على العَلَمية المجردة فلم يحتاجوا إلى تمحيص معناها فى لغة المسيح ، ولم يفسروها للقارىء مثلما فسروا " طاليثا قُومى " (قومى يا صبية) ، " إيلى إيلى لما شبقتنى" (إلهى إلهى لماذا تركتنى) وغيرهما ، فبقيت لفظة " إنجيل " ـ كما بقيت التوراة وبقى القرآن ـ على أصلها فى كل اللغات .

إن صح هذا ـ وهو الصحيح الذى لا يصح غيره بعد كل الذى قلناه ولأنك لا تتصور أن يَتَسَمَّى وحى الله على عيسى اسماً عَلَماً بغير لغة المسيح ـ فما هى تلك اللفظة العبرانية التى نطق بها المسيح فى تسمية " إنجيله " فآلت عند كتبة الأناجيل اليونانية إلى " أنجليون " اليونانية ؟

قد عَلمْتَ أن اليونان يَهمِسُون الهاء فلا تكاد تَبِين ، وأنهم أيضا لا يستطيعون تشديد الجيم ، فيستبدلون من الجيم الأولى نونا ، يكتبون gg وينطقون ng .

ومر بك أيضا فى تضاعيف هذا الكتاب أن أداة التعريف فى العبرية هى "ها" ، تُحْذَفُ ألفُها عند الوصل ويُشَدَّدُ ما بعدها بديلاً من حذف الألف ، كما تحذف أنت فى العربية اللام من أداة التعريف "أل" وتُشَدِّدُ ما بعدها فى مثل "أَلْشَمس" فتقول "أَشَّمْس" . مثال ذلك فى العبرية "تُورا" : لا يقال عند التعريف "هاتُورا" بل "هَتُّورا".

هكذا يفعل العبرانيون فى مثل لفظة " جِلْيُون " حين تُزادُ فيها أداة التعريف : لا يقال "ها جِلْيُون" ، وإنما يقال "هَجِّلْيُون" .

فكيف تنطق أنت " هَجِّلْيُون " العبرانية هذه إن كنت يونانياً يهمس الهاء ، ولا يشدِّد الجيم ؟ تسقط الهاء ، وتضع موضع الجيم المشددة الحرفين نج ، ومن ثم تؤول عندك "هَجِّلْيُون" العبرانية أولا إلى "أَجِّلْيُون" بإسقاط الهاء ، ثم إلى "أَنجِلْيُون" بتغيير الجيم المشددة (جِّ) إلى (نج) ، فتكتب aggelion وتنطق angelion .

هذا هو بالضبط ما فعله كتبة الأناجيل اليونانية حين أرادوا نطق "هَجِّلْيُون" العبرانية التى سمعت من المسيح فى تسمية "إنجيله" ، فقالوا "أَنجِلْيُون" aggelion.

أما البادئة (إڤـ) eu التى ألصَقُوها بـ "أنجليون" فأصبحت "إِڤنجليون " وهى euaggelion التى تقرؤها فى الأناجيل اليونانية ، فهى على التقريظ والتحميد لوحى الله على عيسى ، كما يقولُ المسلم على التمجيد فى القرآن : "القرآنُ الكريم" ، "القرآنُ العظيم" ، ونحو ذلك . دليلك فى هذا أن السُّريان حين أخذوا عن اليونان اسم

الإنجيل لم يقولوا " إڤـ + أنْجليُون " ، وإنما أسقطوا هذه البادئة تماما ، وقالوها مباشرة على ما حكاه الثعلبى " أنَجْليُون " .

أما " جِلْيُون " العبرية هذه فهى زنة " فِعْلُون " العبرانية من الجذر العبرى "جلاً" على معنى التجلية والجلاءِ والتبيين ، كما قالوا من " يَثَر " يِثْرُون (حمو موسى) وكما يقولون من "علا" العبرانية "عِلْيون" على المبالغة فى العُلوّ والتسامى .

وفى العبرية المعاصرة "جِلْيُون" أخرى هى هى رسماً ونطقا ، معناها "الصحيفة" ، ومنها "جِلْيُون أشوم" ، أى صحيفة الاتهام ، يعنى " بيان " التُّهَم المُسْنَدَة .

وفى عبرية التوراة أيضا "جِلْيُون" مثلها (وقعت فى سفر أشْعيَا بصورةِ الجمع ، أى "هَجِّلْيُونيم ") [1] ، معناها " المِرآة " ، لأنها الجالية المَجْلُوَّة .

ومن طريف ما ذكره " إنجيل برنابا " الذى أنكرته الكنيسة ، قول المسيح لتلاميذه يصف إنجيله وكأنه يفسر التسمية : "حينئذ قال التلاميذ حقا إن الله تكلم على لسانك ، لأنه لم يتكلم إنسان قط كما تتكلم . أجاب يسوع : صدقونى إنه لما اختارنى الله ليرسلنى إلى بيت إسرائيل أعطانى كتابا يشبه مرآةً نقية نزلت إلى قلبى حتى إن كل ما أقول يصدر عن ذلك الكتاب . ومتى انتهى صدور ذلك الكتاب من فمى أصعد عن العالم . أجاب بطرس : يا معلم هل ما تتكلم الآن به مكتوب فى ذلك الكتاب ؟ أجاب يسوع : إن كل ما أقوله لمعرفة الله ولخدمة الله ولمعرفة الإنسان ولخلاص الجنس البشرى إنما هو جميعه صادر من ذلك الكتاب الذى هو إنجيلى " (برنابا ١٦٨/١ - ٥) [2].

ليس بعد هذا بيان فى تفسير معنى " إنجيل " عبرياً على لسان صاحب الإنجيل : إنه " الكتاب ـ المِرآةُ " ، " هَجّلْيُون " المِرآةُ الجالية المَجْلُوَّة . ولا يقدح فى استشهادنا بإنجيل برنابا أنه إنجيل أنكرتْهُ الكنيسة ، فلا مدخل هاهنا لإقرار الكنيسة أو إنكارها ، لأن خصوم إنجيل برنابا أنفسهم يعترفون لكاتب هذا الإنجيل ـ أياً كان كاتبُه ـ بأنه فقيهٌ من فقهاء العبرية ، ضليعٌ مُتَضَلِّعٌ من عبرية التوراة خاصة ، حتى اتهموه بأنه يهوديٌ أسلم [3] .

---

(١) راجع العهد القديم فى نصه العبرانى ، أشْعيَا ٣ / ٢٣ . وأيضا النص العربى ، حيث تجد مرآة مجموعة على "مرائى" لا " مرايا " ، وكلاهما جمع تكسيرٍ صحيح .

(٢) إنجيل برنابا ، مطبعة محمد على صبيح وأولاده بالأزهر ، ١٩٥٨ ، ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨ .

(٣) إنجيل برنابا ، المرجع المذكور ، مقدمة المترجم : " الدكتور خليل سعادة " ، ص (٢٢) .

الإنجيل إذن هى " هَجّلْيُون " العبرية من الجلاء والتبيين ، آلت على قلم كتبة الأناجيل اليونانية إلى " أنَجْلِيْوُن " .

وعلى معنى الجلاء والتبيين ، فُسِّرَت لفظَة " إنجيل " فى القرآن كما سترى .

فسبحانَ العليمِ الخبير ، القائل بكلٍّ اللغات ، الذى عَلَّم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يَعْلم .

□□□

وردت لفظة " الإنجيل " فى القرآن اثنتى عشرة مرة ، هى : { **وأنزل التوراة والإنجيل** } (آل عمران : ٣) ، { **ويُعَلِّمُهُ الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل** } (آل عمران : ٤٨) ، { **وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده** } (آل عمران : ٦٥) ، { **وآتيناه الإنجيل فيه هدىً ونُور** } (المائدة : ٤٦) ، { **ولْيَحْكُم أهلُ الإنجيل بما أنْزَلَ الله فيه** } (المائدة : ٤٧) ، { **ولو أنهم أقاموا التوراةَ والإنجيل** } (المائدة : ٦٦) ، { **قل يا أهل الكتاب لستم على شىءٍ حتى تُقيموا التوراة والإنجيل** } (المائدة : ٦٨) ، { **وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل** } (المائدة : ١١٠) ، { **الذينَ يَتَّبِعُون الرسول النبىَّ الأمىَّ الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل** } (الأعراف : ١٥٧) ، { **وَعْداً عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن** } (التوبة : ١١١) ، { **ذلك مَثَلُهُم فى التوراة ، ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار** } (الفتح : ٢٩) ، { **وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل** } (الحديد : ٢٧) .

وأول ما تستظهره من هذه الآيات أن " الإنجيل " كتابٌ مُنَزَّل ، شأنه شأن التوراة والقرآن ، ليس مجرد بشارة أو رسالة ، لا تصح فيه معانى " أنجليون " اليونانية إن حسبتها يونانية ، وقد مر بك نقضنا ليونانية " إنجيل " ، وإنما هو مُجْمَلُ وحى الله على عيسى ، فيما بقى لك منه مما حَفِظَتْهُ الأناجيل وصَدَقَت فيه ، أعنى الذى صَدَّقَهُ القرآن والحديثُ الصحيح ، ولا عليك مما ضاع منه ، فحسبك القرآن المُصَدِّقُ المهيمن وفيه الكفاية . وليس معنى " الكُتُب المُنَزَّلة " أنها أُنزلت " مكتوبةً " فى قراطيس ،

وإنما المَعْنَى أنهـا مكتـوبـة عند ربك فى اللوح المحفـوظ ، يتنزل بهـا مـلائكة الله على عباده الذين اصْطَفى .

وثانى مـا تسـتظهـره من هذه الآيات أن " الإنجيـل " نُزِّلَ على ذات القـوم الذين أُنزِلَت فيـهم التـوراة من قـبـل ، قلمـا يجىءُ إلا عـلى الإلصـاق بالتـوراة قَبْلَه أو على التجـاور مع هذه التـوراة التى أنزل الله على موسى مقـصوداً بهـا بنو إسرائيل ، فـهو "مُلْحَقٌ" على الأصل ، تكملة لوحى الله على بنى إسرائيل . وقد قـالها المسيح بالنص فى هذه الأناجيل : " ما جئت لأهدمَ الناموس والأنبياء ، وإنما جئتُ لأكمل " ، فلا يصح أن يقـال ان الإنجيل ناسخٌ للتـوراة ، وإنما هو وهى واحد ، وإنما الإنجيلُ جلاء وتبيين . على أن المسيحَ عليـه السـلام جاء رحـمةً لليـهـود ، يُخَفِّفُ عنهم بعضَ الذى شَدَّدَ الله عليهم ، ريثما يجىءُ الرسول الخاتم ، الرحمةُ المهداة للخلقِ أجمعين . فهو من هذا الوجه مُوَطِّىءٌ لخاتَمِ النبيين .

وثالثُ مـا تسـتظهـره من هذه الآيات أن " الإنجيـل " الذى فـيه هُدَىً ونور ، فـيه أيضـا شـريعـةُ أحكام ، لقـوله عـز وجل : { **وليحكم أهلُ الإنجيل بما أنْزَلَ الله فيه** } ، وفى هذا لفتةٌ بليغة إلى حَظْرِ الاعتداد بغيـر مـا فى الأناجيل من وحيه عز وجل ، فلا عِبْرَةَ بقولٍ يقال من بعد رفع المسيح ، كالذى قـيل بإسقاط الخِتان واستحلال الخنزير [(١)] ، فلا وحى يَتَنَزَّلُ على تلاميذ .

أما معنى لفظة " إنجيـل " التى فى القرآن ، فقد قـال المفسرون (راجع تفسير القرطبى للآية ٣ من سورة آل عمران) إنهـا عـربيـة من " النَّجْل " بمعنى الأصْل ، فـالإنجـيـل على هذا القــول أصْلٌ لعلوم وأحكام ، وقــيـل هو من نَجَلْتُ الشىء إذا استخرجته ، فالإنجيل مُسْتَخْرَجٌ بِهِ علومٌ وحِكَم ، فقد استـخرج الله به دارساً من الحقِّ عافيا ، وقيل من التناجُل بمعنى التنازع ، لتنازع الناسِ فيـه . وليس هذا كُلُّهُ بشىء لما مر بك من عـبرانيـة " إنجيـل " . وحكى الثـعلبىُّ فـأصاب أنه فـى السريانيـة "إنكليون" (يُريد " أنجليون " بالجيم القاهرية) . ولكن المفسرين لم يَقَعُوا على معنى "أنجليون" السريانية هذه ، فلم يتصدوا لتفسيرها ، لم يقولوا بشارة ، ولم يقولوا أيضا

---

(١) قـالهـا بُولُس ، وأيَّدَهُ فـيـهـا بطرس ، لرؤيا رَأياها كمـا تَقْرأ فى سفـر أعـمـال الرسل بعـد رفع المسيح، واستفظعها برنابا الحوارى كما تقرأ فى مُفْتَتَحِ إنجيله المُنكَرِ من الكنيسة .

رسالة . وهذا يَدلُّكَ على أن مُعاصريهم من نصارى السريان ، وفيهم من بَرَع فى الترجمة إلى العربية من اليونانية عبر السريانية عصر تفاسير القرآن ، لم يُحَقّقوا أصل لفظة " أنجليون " هذه لا يونانيا ولا سريانيا ، والا لذكره " الثعلبى" الذى حكى عنه القرطبى قوله بسريانية هذه اللفظة "أنكليون" . وهو يدلك أيضا على أن التفسير الذى نقوله نحن بِرَدّ لفظة " إنجيل " إلى العبرانية " هَجّلْيُون " على معنى الجلاء والتبيين ، الكتاب ـ المرآة ، الجالية المَجْلوّة ، تفسيرٌ جديد غيرُ مسبوق ، هدانا اللهُ إليه بفضلٍ منْهُ ونعمة ، لهُ الفضل وله المَنُّ وحده .

والذى ينبغى التنبيه إليه أن القرآن لم يُعَرِّب " إنجيل " على الأصل العبرانى الذى نقول به : " هَجّلْيُون " ، وإنما عَرّبَه ناظرا إلى صورته اليونانية الشائعة على ألسنة الخلق جميعا عصر نزول القرآن : " أنْجلْيُون " ، فقال " الانجيل " ، وبقيت "الإنجيل" أعجميةً تحتاج من القرآن إلى تفسيرٍ على منهجنا فى هذا الكتاب .

فبماذا فَسَّرَ القرآنُ " إنجيل " ؟ فَسَّرَهُ بأدق مُرادفٍ وأبْيَنه : إنه "البَيِّنات" ، أى "الجَلّياتُ الواضحات" ، وليس أقربَ من هذا إلى العبرانية "جِلْيُون" الجَلىِّ المَجْلوِّ . جاء بها القرآن بلفظ الجمع لإفادة إنزال الإنجيل على المسيح تباعا ، شأن القرآن ، لا شأن التوراة المُنزّلة على موسى دَفْعَةً واحدةً فى الألواح .

لم يُفَسِّر الإنجيلُ فى القرآن بالترادف على التجاور ، وإنما رَفَع القرآنُ لفظةَ "إنجيل" من الآية ووضع فى موضِعِها "البينات" ، وكأن "البينات" من أسمائِه ، وهذا أبْلَغُ التفسيرِ فى القرآن بالمرادفِ .

قال عز وجل فى سورة المائدة : { **وقَفَيْنا على آثارِهم بعيسى ابن مريم مُصَدّقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور** } (المائدة : ٤٦) .

وقال عز وجل يُجانس البينات على إنجيل : { **وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيّدْناه بروح القدس** } (البقرة : ٨٧) ، ومثلها بذات نَصّها فى نفس السورة (البقرة : ٢٥٣) . وأما الحاسمة القاطعة فى أن "الإنجيل" هو المَعْنِىُّ بلفظ "البينات" فقوله عز وجل : { **ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون** } (الزخرف : ٦٣) ، يصف فيها عيسى "البينات" التى جاء بها بأنها الحكمة وبيان الذى

اختلفوا فيه ، لا يصح فهم البينات فى هذه الآية بالذات بمعنى المُعْجِزات التى أجراها الله على يديه بتأييدٍ من روح القدس ، وإنما هى وحى الله على عيسى الذى فى الإنجيل ، إذ لا يصح وصف المعجزات بأنها "الحكمة" أو بأنها "بيان الذى اختلفوا فيه" . وقد أوتى عيسى أمرين : البينات ، أى الإنجيل ، ثم المعجزات التى "أيده فيها الله بروح القدس" ، لا يصح الخلط بين هذا وذاك . وقد فسر القرطبى فى تفسيره الآية ٨٧ من سورة البقرة لفظ البينات بأنه الحجج والدلائل ، وهذا جيد ، فليس وحىُ الله على رسله إلا هذا ، ولكنه لم يَعْلَم معنى "الإنجيل" فى أصلِهِ الأعجمى "هَجّلِيُون" الجَلِىُ المَجْلُوُّ ، ولو عَلِمَه لما تَرَدَد فى تفسير البينات بالإنجيل نفسه ، كتابِ اللهِ على عيسى.

ولكن، كيف تطلب من أهل التفسير على عهد القرطبى رحمه الله فى القرن السابع الهجرى أن يعلموا علِمَ ما لم يَعْلَمْهُ أهلُ الإنجيل أنفسهم حتى كتابة هذا الكتاب الذى نكتب: معنى لفظة "إنجيل" فى أصلها العبرانى الذى نطق به المسيح عليه السلام ؟

هذا الفضلُ من الله ، يَعْلَمُ ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمين .

(٥٨) النصارى

" النصارى " فى القرآن (ومُفَردُها " نصرانى") ، هم أتباعُ المسيح عليه السلام، نِسْبَةً إليه، لنَعْته فى الأناجيل بأنه "يسوعُ الناصرى" ، أى الذى من "الناصرة"، وهى بلدة فى الجليل شَمالىَّ فلسطين نَشَأ فيها المسيح ، فَيُقالُ "الجَليلى" ، "الناصرىُّ" . وقد كانت تُقال فيه من خصومه على التحقير والاستهانة ، لأنه "لا يَأتِى من الجليلِ شىءٌ صالحٌ" . ولكن يَشاءُ ربُّك بهذا الجليلىِّ المُبارَك أن يَستطيرَ ذِكْرُ الجليلِ والناصرة خَفَّاقا فى العالم ، ولولاه لما كان للناصرة فى العالم ذكر .

كان الأوروبيون قبل شيوع النصرانية فيهم يُومِئون إلى المسيح عليه السلام بأنه ذلك الرجل الذى من الناصرة استخفافا ، يريدون الحَطَّ من شأنه ومن شأن أتباعه ، فاصطبغ اللفظُ عندهم بصبغة الذم . وعندما فَشَت النصرانيةُ فيهم ودَخَلُوا هم أنفسُهم فى دين "الناصرى" ، أنِفُوا أن يقال فيهم نصارى من تلك الناصرة ، وآثروا الانتسابَ إلى المسيحِ نفسه ، فقالوا "مسيحىٌ" ، "مسيحيون" ، أتباعُ هذه "المسيحية" التى جاء بها المسيح .

لم يكن هذا هو تاريخَ لفظة نصارى ونصرانىٌّ فى المشرق ، فقد تمسك أتباعُ المسيح فى فلسطين بالانتماء إلى هذا الناصرى الذى من الناصرة ، بل قُل وجدوا فيها شرفاً لا يَعْدِله شرف ، يتحدَّون به المُعَرِّضَ والمستهزىء . ومن فلسطين شاعت اللفظةُ فى كل شبه الجزيرة على أتباع المسيح ، لا يُقال إلا نصارى ، ونصرانى ، يَعْتَنِقُ "النصرانية" ، منسوبٌ إلى هذا الناصرىِّ المُبارَك ، صلواتُ الله عليه .

وقد ظلّت لفظةُ نصارى ونصرانية عَلَماً على أتباع هذا الدين عند جميع الناطقين بالعربية حتى أوائل هذا القرن العشرين ، خاصَّتهم وعامَّتهم ، نصارى وغير نصارى ، لا تَعْرفُ غيرَها ألسنتُهم وأقلامُهم . ولكن ، ما أن غُلِبَ هذا الشرقُ العربىّ على أمرِه تحت وطأة الغزو الأوروبى الكاسح مادياً وفكرياً منذ أواخر القرن التاسع عشر ،

وفَشَت فى الناس لَوْثَـةُ التطبعِ بطـبـاع الغـالـب ، واطَّلَع " المثقـفون " ، أو قل أدعـيـاءُ الثـقـافـة ، على تاريخ لفظة " النصرانى" فى الغـرب ، حـتى أنِفُوا منهـا هم أيضـا ، فأمسكوا عن إطلاقها على أتباع المسيح ، واستبدلوا منها " المسيحى " ، "المسيحية" ، لا تكاد تسمعُ اليوم غـيرَهُما فى موضعِ " نصرانى" ونصارى ، ونصرانيـة ، حتى بات يَقَعُ اللفظ - أعنى نصرانى ومشتقاتها - فى سَمْعِكَ غريبا ، وربما جَفَلَ منه "المسيحى" حين يسمعه منك . وما ذاك إلا لأن فكر هذا الشرق العربى المغلوب على نفسه وعقله وفكره ، بات فكراً مُتَرجَمـا ، يَنطِقُ بما يَسـمع لا بما يُحِسّ : يَقْرَؤُها Christian أو chrétien فيقول " مسيحى " ، ولـو وقـع فيـمـا يقرؤُه بلسانهم علىNazarene أو nazaréen لقال "نصرانى" ، غَيْرَ مُبالٍ . ولو فَطِن وفطنوا لأدركوا أن المسيحَ والناصرىَّ سواء ، كلاهما منسوبٌ إلى المسيحِ الناصرى ، عيسى بن مريم صلوات الله عليه . لا مسيحَ سواه .

والذى ينبغى التنويه به أن العبرية المعاصرة لم تفعل ما فَعَلَهُ العربُ بلغتهم فلا تزال العـبـرية تقـول "نُوصرى" ، "نُوصريم" (وأيضـا "نَصْرانى" ، "نَصْرانيم") تعنى النصرانى والنصارى . وتقولَ أيضا " نَصْرُوت " ، تَعْنِى النَّصْرانيةَ دين المسيح .

أما القرآن فقد قال " النَّصارى " ، على أصلِ ما نطق به أصحابُ المِلّةِ أنْفُسُهم : { **الذين قالوا إنَّا نصارى** } (المائدة : ٨٢) .

❑❑❑

وقد عَلِمَ مفسرو القرآن (راجع تفسير القرطبى للآية ٦٢ من سورة البقرة) ، كما عَلِمَ العربُ جميعا قبلَ نزول القرآن بستة قرون - أى منذ نَشْأة النصرانية - أن لفظةَ "النصرانى" هى نسبةٌ إلى بلدةِ "الناصرة" بالشام التى جاء منها المسيحُ وانتسب إليها أتباعهُ ، ففسروا لفظ "النصارى" ، "النصرانى" فى القرآن على هذا المعنى، الذى أصبح عَلَمًا على دين المسيح ، لا مجالَ للقولِ بغيرِه .

على أن بعضَ المفسرين (راجع القرطبى فى نفس الموضع) حاولوا اشتقاقَ لفظ "النصارى" من النصر والنُّصْرَة ، ربما لأن "النصارى" تصلح جمعاً لـ "نَصير" ، مثلما تقول " نَدَامى" فى جمع " نَديم " ، فَهُمُ " الأنصار" ، الذين انتصروا للمسيح ، فسعوا فى نشر دينه بعد أن رفعه الله إليه . وربما أيضا تنسيقاً على قوله عز وجل : {**قال الحواريون نحنُ أنصار الله**} (آل عمران : ٥٢) فهم النصارى، أنصار الله.

ولا يصح هذا من وجهين: الأول أنه لو كانت نصارى بمعنى أنصار لكان المفرد "نَصِير" أو" أنْصَارِيٌّ " ، لا " نَصرانِيٌّ " ، التى وردت فى القرآن مرة واحدة فى قوله عز وجل : { **ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفاً مسلماً** } (آل عمران : ٦٧) ، والثانى الذى لم يَعْلَمْهُ هؤلاءِ المفسرون الذين لا يعرفون العبرية والآرامية ـ لغة الحواريين أتباع المسيح ـ أن الحواريين حين قالوا "نحن أنصار الله" التى فى القرآن ، لم يقولوها بالعربية ، وإنما قالوها بلغتهم هم ، فلم تقع فى عبارتهم مادة "نَصَرْ" العبرية الآرامية ، لأن "نَصَرْ" عبريا وآراميا ليس هو بمعنى "نَصَرَ" العربى من النَّصْرِ والنُّصْرَة كما سترى ، فلا يصح افتراضُ تَطابُقِ المعنى بين "نصارى" ، "أنصار" .

على أن نُصْرَةَ الله عز وجل لا تصح فى تسمية مِلّةٍ بعينها دونَ غيرها من الملَل، كى تَختص بها النصرانية فحسب ، وإنما الانتصارُ لَله عز وجل فَرْضٌ على كل من آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . وقولُهُ عز وجل فى خطاب المسلمين : { **يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله ، قال الحواريون نحن أنصار الله** } (الصف : ١٤) لا يصح بالطبع فَهْمُهُ على أنه دَعْوَةٌ للمسلمين إلى الدخول فى النصرانية ترتيباً على أن النصارى هم أنصارُ الله على قَولِ هذا القائل ، وإنما هى دعوةٌ إلى الاقتداءِ بالذين قالوا نحن أنصارُ الله ثم عَمِلُوا بها فكانوا أنصارَ الله . لا يَصْدُقُ هذا فى كل الذين قالوا " إنا نصارى " ، وإنما هو فحسب فيمن قالها واصْطَبَر عليها فكان من أهلها ، حَوَارِياً وغير حَوارِيّ ، نصرانِّياً وغير نصرانى .

ليس أنصارُ الله من صحابة عيسى ـ من صَدَقَ منهم ما عاهدَ الله عليه فَعَمِلَ بها واصْطَبَرَ عليها ـ إلا كأنصارِ يَثْرب ، رَضِىَ اللهُ عنهم جميعاً ورَضُوا عنه .

❑❑❑

ولئن كانت "النصرانى" فى أصل اشتقاقها نسبةً على الموضِع ، أَعْنِى إلى تلك "الناصرة" التى بالشام التى نَشَأ فيها المسيح فسمى المسيحُ الناصرى ، فليس مفهومُ لفظة "النصرانى" كذلك ، وإنما هى نسبة إلى المسيحِ نفسه ، فهى نسبةٌ إلى "الناصرى"، لا إلى "الناصرة" ، ومن هنا يفترق مفهومُ "الناصرى" عن مفهوم "النصرانى" التى لا تَصِحُّ إلا فى أتباع المسيح ، وإن لم يكن "النصرانى" ناصرياً من أهل الناصرة .

والذى تتوقعه من القرآن ـ وفق منهجنا فى هذا الكتاب ـ أن يُفَسِّرَ لفظةَ النصرانى والنصارى لا على التبعية للمسيح الناصرى ، فهذا مفهومٌ معلومٌ لكّل عربى يتلو القرآن أو يُتْلَى عليه القرآن ، وإنما الذى تتوقعه من القرآن أن يفسر "النصرانّى" ومشتقاتها على أصل مادتها التى نُحِتَت منها فى لغةِ المسيح العبرية ـ الآرامية ، فَيفَسّرَ لك معنى " الناصرة " ذاتها المنسوبِ إليها الناصرى ، أعنى أن يفسر لك مادة "نَصَرْ" العبرية الآرامية ، التى اشْتُقَ منها اسمُ "الناصرة" .

فماذا تعنى مادة " نَصَرْ" عبريا وآراميا ؟ ليست هى النَّصْرُ و النُّصْرَة كما فى العربية، وإنما هى بمعنى حَرَس وحَفِظَ وراقب ورَعَى ، فهى كُفُء "نَطَرَ" العربى بالطاء. ومن شواهد هذا ، تَقْرأ فى سفر أشعيا : " فى ذلك اليوم غَنُّوا للكَرْمة المُشتهاة ، أنا الربُّ حارسُها" (أشعيا ٢٧ / ٢ـ٣) ـ تجد حارسها فى الأصل العبرانى "نُصراه" . فكأن " نُصِير" (زنة الفاعل عبريا من "نَصَرْ" العبرى) يعنى "الناطور" التى فى شطر بيت المتنبى : "نامت نَواطِيرُ مصرَ عن ثعالبِها" . وتجيء الرعايةُ أيضا فى "نَصَرْ" العبرى بمعنى المراعاة والتقيد والالتزام والاتباع، ومنها " نُصِرْى بريتُو" ، يعنى"حفاظ عهده" ، أى عهد الله وميثاقه ، يعنى المتبعون وصايا التوراة الذين يُراعون تعاليمَها [١] .

وبهذا المعنى الدقيق، الاتباع والمراعاة ، حُفاظِ العهد ، فَسَّر القرآن الأصلَ الأصيل للفظة "النصارى" الذى فى مادة " نَصَرْ " العبرى . وسبحان العليم الخبير.

□□□

وردت لفظة " النصرانى" على المفرد مرة واحدة فى القرآن كما مر بك . وجاءت لفظة "النصارى " على الجمع أربع عشرة مرة فى القرآن . وليس فى أى من هذه المرات الخمس عشرة تفسيرٌ لأصلِ مادة النصرانى والنصارى .

ولكنك تجد هذا التفسير جَلِيّاً بَيِّناً فى قوله عز وجل يَصِفُ أتباعَ عيسى ابن مريم : { **ثم قَفَّيْنا على آثارهم برسلنا ، وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفةً ورحمة ،**

---

(١) راجع المعجم العبرى " هملون هحداش لتناخ " ، المرجع المذكور ، عبرى / عبرى ، ص ٣٨٢ ، مادة " نصر " .

ورهبانيةً ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاءَ رضوانِ الله ، فما رَعَوْها حَقَّ رعايتها ، فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثيرٌ منهم فاسقون } ﴿الحديد : ٢٧﴾ . أى ما كتبنا عليهم من هذه الرهبانية التى ابتدعوها إلا ما كان منها يُرادُ به ابتغاءُ رِضوانِ الله . ولكنهم لم يَرْعوا هذه " الرهبانية " حَقَّ رعايتها ، أى لم يُحْسِنوا ابتغاءَ رِضوانِ اللهِ بها . فكأنهم أهْدَروها ولم يَرْعَوْها (وهى "لوُ نَصِرُوها" عبريا) .

ليس بعدَ هذا بيان ، فَأىُّ إعجازٍ وأىُّ عِلْم .

❑❑❑

ولا ينقضى القول فى مبحث " النصارى " قبل التصدى لتأصيل معنى لفظة "الحواريين" التى سَمَّى بها القرآن صحابة عيسى عليه السلام . وخلاصة قول المفسرين فى هذا (راجع تفسير القرطبى للآية ٥٢ من سورة آل عمران) - ولم يوفقوا فيه - هو اشتقاقها من " الحَوَر " على معنى البياض ، واخترعت فى تأييد هذا روايات لا سند لها فى المصادر المسيحية ، فقيل لبياض ثيابهم (وليس بلازم) وقيل كانوا "قَصَّارين" صَنْعَتُهم تبييض الثياب (وليس بصحيح) وقيل كانوا صيادين (وهذا وإن صح لا يوجب التزام الثياب البيض) وقيل على المجاز لبياض قلوبهم أى نقاء سريرتهم (ولا يصح هذا فى حق يهوذا الاسخريوطى بالذات الذى وشى بالمسيح). وقيل أيضا ان الحوارى هو الصاحب الناصر ، لقوله صلى الله عليه وسلم : "لكل نَبِىٍّ حَوارِىٌّ ، وحَوارِىَّ الزُّبَير !" وهذا الحديث وحده كافٍ فى امتناع تأصيل معنى "الحوارى" على "الحَوَر" بمعنى البياض ، بياض الثياب أو تبييض الثياب أو الاشتغال بصيد السمك ، فلم يكن الزبير بن العوام رضى الله عنه هذا أو ذاك ، ولا على المجاز من بياض القلب ونقاء السريرة ، لا لِمَغْمَزٍ - مَعاذَ الله - فى بياض قلب الزبير رضى الله عنه ونقاء سريرته وهو أحدُ العشرة المبشرين بالجنة ، وإنما لأنه واحد من كثير من صحابة رسول الله بيضِ القلوب أنقياءِ السريرة فلا يصح أن ينفرد وحده بلفظ الحوارى على هذا المعنى . ولا يصح أيضا انفراده وحده بالتسمية على معنى الصاحب والناصر وصحابة رسول الله رضى الله عنهم جميعا كانوا كلهم هذا الصاحب الناصر ، فضلا عن أن الصُّحبة والنُّصرة لا مجال لاشتقاقهما من الحَوَر على معنى البياض .

الصحيح أن " الحوارى " مشتقة من حار / يحور ، بمعنى رَجَع ، ومنه فى القرآن : { إنه ظَنَّ أنْ لنْ يَحُورَ } {الانشقاق : ١٤} ، أى ظن الكافرُ أنه ليس براجعٍ إلى ربه . وعلى هذا المعنى، قيل لولد الناقة منذ ولادته إلى أن يفطم وينفصل: "حُوَار" بضمٍ فَفَتْح ، لأنه يُلازم أمه لحاجة الرضاع ، لا يبعد عنها قَدْرَ رُمْحٍ فى لهوه ومراحه حتى يثوبَ إليها ، أى "يحور" ، فهو "حُوار" . "الحوارى" إذن منسوب إلى هذا "الحُوار" على المماثلة ، لأن صحابة عيسى عليه السلام كانوا فتيةً أيفاعا ، شأن الزبير رضى الله عنه يوم أسلم ، وكانوا يلازمون " مُعَلِّمَهُم " لا يفارقونه ، يرتضعون منه نَفَحات عِلْمِ النبوة .

أما لماذا لم يقل القرآن "التلاميذ" (Mathetai اليونانية فى أصول الأناجيل المترجمة إلى كل اللغات بلفظ "التلاميذ"، وهى فى الترجمة العبرية " تَلْمِيذيم") ، وانفرد وحده بتسميتهم "حواريين" ولماذا أيضا عدل القرآن عن ضم الحاء فى "حُوار" الناقة إلى فتحها فى " الحواريين" ، فهذا وذاك من إعجاز القرآن العلميِ الذى لم يفطن إليه أحد ، وامتن اللهُ علينا به سبحانه فضلاً منه ونعمة .

فى العبرية الآرامية (لغة المسيح وحوارييه) اللفظ الآرامى " حَڤار " بالڤاء المثلثة ويجمع آراميا على " حَڤارين " ، ومعناه الصاحب الرفيق المُخَالل (ومنه "حِڤرون" العبرية اسم مدينة "الخليل") ، وهو فى العبرية إلى الآن "حَڤير" وتجمع على "حَڤريم" بنفس المعنى ، الصُّحبة والرُّفقة والخُلة ، على التصغير، أى "الصُّوَيْحب". وكل هذا يكتب فى الخط العبرى ـ الآرامى بالباء المنطوقة ڤاء مثلثة على ما مر بك من قواعد النطق فى هاتين اللغتين . وليس أقرب فى علم الصوتيات من الانتقال بتلك الڤاء المثلثة الآرامية التى فى "حَڤار" ، "حَڤارين" إلى الواو العربية فتقول "حَوَار" ، "حَوَارين" .

والقرآن كما تعلم لا يترجم عن يونانية الأناجيل التى لم ينطق بها المسيح وحواريوه ، ولكنه يترجم عن " الأصل " الآرامى الذى تَنَادى به أصحابُ عيسى عليه السلام ، فيقولون ويقال لهم بالآرامية " حَڤارين " (وعلى النطق العربى "حَوَارين") ، أما كتبة الأناجيل فقد آثروا النسبة إلى "المعَلِّم" ، فكتبوها Mathetai أى التلاميذ. وهم لم يفعلوا ذلك على الراجح عندى تواضعاً منهم ، وإنما تسجيلا للواقع وخطابا

للقارىء اليونانى بما يفهمه ولا يشتبه عليه، لاختلاط معنى Philos و Syntrophos الخ . فى اليونانية بمعانى أخرى لا تنطبق على الصاحب الملازم : "حَقّار" الآرامية ، فضلا عن أن " التلاميذ " أدل فى اليونانية على معنى " المُصاحِب لطلب العلم " الذى كانَهُ صحابةُ عيسى عليه السلام ، أى حواريوه .

" الحواريون " إذن فى القرآن تعريبٌ مفسرٍ للفظة " حَقّارين " الآرامية (التى تنطق " حَوَارين" عربيا) ، جاء بها القرآن منسوبةً على المماثلة إلى " حُوار الناقة " ، على ما مر بك من معناه ، فأضاف ياء النسب فى آخره فأصبحت " حُوَارِىٌّ " ، وعدل عن ضم الحاء إلى فتحها فأصبحت "حَوَارِىٌّ"، التزاما لأصلها الأعجمى .

وسبحان العليم الخبير ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم .

(٥٩) الصابئـون

وردت لفظة " الصـابئين " فى القـرآن ثلاثَ مـرات، هى بتـرتيب ورودِها فى المصحف:

{ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرُهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هُم يَحزنون } (البقرة : ٦٢) .

{ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هُم يَحزنون } (المائدة : ٦٩) .

{ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمَجُوس والذين أشْركُوا إنَّ اللهَ يفصِلُ بينهم يومَ القيامة إِنَّ اللهَ على كُلِّ شيءٍ شهيد } (الحج : ١٧) .

والقرآنُ فى الآيتين الأُولَيَيْن ، التى فى " البقرة " والتى فى " المائدة " يُخاطب أربعَ فرق : المسلمين ـ اليهود ـ النصارى ـ الصابئين ، فقد علَمْتَ أن الذين هادوا هم اليهود ، أما " الذين آمنوا " فهى اصطلاحٌ قرآنى يُرادُ به أمَةُ محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنهم الذين آمنوا بِهِ وبالنورِ الذى أُنْزِلَ معه ، أى هذا القرآن، فَهُم أَهْلُ القرآن ، فهى على الصفة ، لا على المدح ، فى هذا السياقِ بالذات وفى أمثالِه فى القرآن ، يعنى أنهم المسلمون ، لا أكثر ولا أقل ، بَرُّهم وفاجِرُهم . لذلك اشترط القرآنُ فى الآيتين على أهل الفرقِ الأربعِ جميعا ـ ومنهم المسلمون ـ لنَيْلِ الأجرِ والدخولِ فى رضوان الله ـ شرطين : الإيمانُ باللهِ واليومِ الآخر ، ثم عَمَلُ الصالحات ، شرطان متلازمان، لا يُغْنِى أحَدُهما عن الآخر ، ولا يُقْبَلُ شطرٌ دون شطر ، فليس الإيمانَ بالذى يُكْتَنُّ فى السرائر ، وإنما هو الذى تُصَدِّقُهُ الجوارح من قولٍ وعَمَل . لا إيمانَ

بغيرِ عَمَلٍ على مُقتضى هذا الإيمان ، ولا عَمَلَ يَصِحُّ إنْ لم تُرِدْ به وجهَ اللهِ عز وجل واليومَ الآخر. لم يَسْتَثْنِ القرآنُ من هذين الشرطين أنبياءَ الله ورُسُلَه ، وهم المؤمنونَ سَريرةً ضَرْبَةَ لازب ، فخاطَبَهُم بقولِهِ عز وجل : { **يا أيها الرسل كُلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم** } (المؤمنون : ٥١) .

وليس معنى هذا أن القرآن يُقِرُّ أهل الكتاب والصابئين على مِلَّتهم وقت نزوله أو أنه يسَلِّمُ لمعاصريه من أهل الكتاب والصابئين وتابعى هؤلاء وهؤلاء إلى يوم القيامة بصواب ما هم عليه ، أو أنه يترك لهم الخِيرة من أمرهم إن شاءوا دخلوا فى الإسلام وإن شاءوا بقوا على ملتهم ، والكل ناجٍ ، من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا !

هذه سفسطاتٌ وأغاليط لا تنفع المحتج بها من غير أهل القرآن يوم يقوم الحساب لأنه يومئذ يحتج بآية أو آيتين من القرآن الذى أنكره هو من قبل وجحده ، ومات وبعث على إنكاره وجحوده ، شأنُهُ شأنُ من يتقدم إلى مَصرفٍ بحوالةٍ يُنكرُ هو توقيعَ صاحبها ، فلا يُصرَفُ له شىء ، إن لم يُضْبَط بتهمة التدليس . الذى يُصدِّق بخبر القرآن فى آية أو آيتين فقد لزمه القرآنُ كله ، والذى يكفر بحرفٍ واحدٍ من القرآن فقد كفر به كله ، فلا أحد يُؤمِنُ ببعض الكتاب ويكفر ببعض ، كالذى نعاهُ القرآنُ على بنى إسرائيل :{ **أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ فما جزاءُ من يفعل ذلك منكم إلا خِزْىٌ فى الحياة الدنيا ويومَ القيامة يُرَدُّونَ إلى أشد العذاب وما الله بغافلٍ عما تعملون** } (البقرة : ٨٥) .وإذا كان هذا كذلك ، وهو كذلك بالفعل ، أفليس فى القرآن : { **ومن يبتغِ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين** } (آل عمران : ٨٥) ؟ وأليس يأمرُ اللهُ فى القرآن الخلقَ أجمع باتباعِ خاتم النبيين :{ **قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتَّبِعُوهُ لعلكم تهتدون** } (الأعراف : ١٥٨) ؟ فما جزاءُ من يُفَرِّقُ بين الإيمان بالله وبين تصديق رسوله ؟ استمع إلى قوله عز وجل : { **إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يُفَرِّقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض**

ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا. أولئك هم الكافرون حقا ، وأعتدنا للكافرين عذابا مُهينا } (النساء : ١٥٠ ــ ١٥١) . قد قالها خاتمُ النبيين: "وأيْمُ اللهِ لو سَمِعَ بى موسى بنُ عمران لما وَسِعَهُ إلا اتّباعى!" وقال أيضا ، وهى الحاسمة القاطعة : "والذى نفسى بيده لا يسمع بى من هذه الأمة يهودىٌّ أو نصرانِىٌّ ثم لم يؤمن بى إلا دَخَلَ النار" .

وقد عَلِمْتَ أن القرآن اشترط على هذه الفرق الأربع جميعا لاستحقاق ثواب الله ورضوانه ، الإيمانَ بالله واليوم الآخر وإتيانَ الصالحات . ومر بك أنه لا يصح إيمانٌ بغيرِ عمل ، ولا يصح عَمَلٌ بغيرِ إيمان . ومِن ثَم تقطع بأن أهل هذه الملل الثلاث ، اليهود والنصارى والصابئين ـ من سمع منهم بخبر القرآن ولم يَأْبَه به ـ قد افتقدوا بعد القرآن شرطى الإيمان والعمل الصالح ، فلا إيمانَ بالله عز وجل لُمكذِّبٍ برسول الله ، ولا يصح عملٌ بغيرِ هذا الإيمان .

فمن المُخاطَبُ إذن من أهل هذه الفرق الثلاث بهاتين الآيتين التى فى سورة البقرة والتى فى سورة المائدة ؟ إنهم اليهودُ والنصارى والصابئون الذين لم يصل إلى أسماعهم نبأ البلاغِ الخاتم : الذين تَقَدَّموه ولم يُهِلَّ بعدُ زمانُه ، أو الذين أعقبوه فَحيلَ بينهم وبينه أو تقطعت بهم الأسباب . فلا إلزامَ بغيرِ تكليف ، ولا تكليفَ بغيرِ بلاغ .

على أن هذا أيضا لا يُعفى أهلَ هذه الملل الثلاث ، الذين حِيل بين أسماعهم وبين نبأ القرآن ، من واجب تصحيح إيمانِهم بالله واليومِ الآخر بتنقيته مما لم تَجِئْهم به رُسُلُهم ، لا يقال ثالثُ ثلاثة وعندهم فى الإنجيلَ أن اللهَ واحدٌ وليس آخَرُ سواه ، ولا يقال نحن أبناءُ الله وأحباؤه لن تَمَسَّنا النارُ إلا أياماً معدودة وعندهم فى التوراة من الوعيد ما تَرتَعِدُ لهُ الفرائص وتشيبُ الرؤوس .

□□□

أما الآيةُ الثالثة ـ التى فى سورة الحج ـ فهى تختلف عن الأولَيَيْن بأنها تُضيف إلى الفرَقِ الأربع، المُسلمين واليهودِ والنصارى والصابئين ، فِرْقَتَينِ أُخْرَيَيْن ، هما المَجوس والذين أشْرَكُوا .

وقد تَرَتَّبَ مباشرة على دخول المجوس والذين أشركوا فى هذه الآية ،ارتفاعُ الوعدِ بثواب اللهِ ورضوانه لمن آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا ، لِيَحلّ مَحَلَّه

الوعيدُ بيومِ الفصل : { **إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد** } ﴿الحج : ١٧﴾ ، يومَ يجيءُ كُلُ أُناسٍ بإمامهم ، أى يَشْهَدُ عليهم رسولُهم وكتابُهم فَيْحَاجُّون بوحى الله عليهم ، الذى حَفظُوه ، والذى أضاعوا منْهُ أو أنْسُوه . ولم يَفُت القرآنُ المعجز ـ وقد دَخَلَ المجوسىُّ والمُشرِك ـ أن يَدْحَضَ دعوى المُحتَجِّ بالمُشَعْوِذِ والعَرَّافِ والكاهن ، فقال عَزَّ منْ قائل : {**إن الله على كل شيء شهيد**} ﴿الحج : ١٧﴾ .

أما لماذا ارتفع بدخول المجوسى والمشرك فى الآية الوعدُ بثوابِ اللهِ ورضوانه لمن آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا ، فلأنه لا رجاءَ عند اللهِ عز وجل لمشرك ، والمجوسىُّ أيضا كذلك لأنه "ثَنَوِيٌّ" كما سوف ترى فى موضعه ، يتقربُ بالعبادةِ لإلهين ، إلهِ الخيرِ وإلهِ الشر ، الضارِ والنافع ، يَضْرِبُ هذا بذاك .

وربما قيل لك ان النصرانى أيضا مشرك ، لأنه يُعَدِّدُ آلهتَه ، فيقول ثلاثة . وهذا صحيحٌ فى ظاهره ، غيرُ صحيحٍ فى جوهره ، لأن المشرك يَعْبُدُ آلهةً متفرِّقة ، متضادَّةَ الإرادة ، متعاكسةَ الفعل ، يَغيظُ هذا بذاك ، ويستعينُ على هذا بذاك ، ويسترضى هذا بقربانٍ لذاك . أما " الثالوث " عند النصرانى فهو وحيدُ الإرادة ، وحيدُ الفعل ، المسيحُ عنده يصنع مشيئة " أبيه " الذى فى السموات ، والروح القدس جبريل لا يتكلمُ من عنده وإنما يتكلم بما يسمعُ من الآب ، والصلاةُ عند النصرانى صلاةٌ للآب، لا لعيسى ولا لجبريل : " أبانا الذى فى السموات ، ليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتك ، لتكن مشيئتك كما فى السماء فكذلك على الأرض ! " ، والتقرب بالابن تقربٌ إلى الآب ، و"موهبة " الروح القدس نعمةٌ من الآب ، وخَلْقُ السمواتِ والأرض وما بينهما خَلْقُ الآب ، والملكوتُ ملكوت الآب ، فهل بَقِىَ لعيسى وجبريلَ شيءٌ أم هما ذات الآب؟ بل قل هل بقى من عيسى وجبريل شيءٌ وقد فَنِيا أخيراً فى ذات الآب الذى انبثقا منه ليعودا إليه ؟ هذا اللاهوتُ أخطأ الطريقَ إلى تبجيل عيسى وتعظيم جبريل ، فوقع فى المُحالِ على الله عز وجل ، والمحالِ على عيسى وجبريل ، وما ذاك إلا لأنه تَصَدَّى لما لا يُحْسنه ، فليس هو بالواقف عند وحيِ الله على عيسى شأنَ المؤمنِ المُذعِن ، وليس هو أيضا بالمتفلسفِ الجيد الذى يُحْكِمُ مقولتَه فلا يَقَعُ فى المُحالات . هذا اللاهوت خائضٌ فى ذاتِ الله عز وجل بغيرِ علمٍ ولا هُدَىً ولا كتابٍ منير ، بل الأدلَّةُ من

وحيِ الله عز وجل كُلُها ضده ، ولكن ليس ثَمَّ إن تَمَعَّنْت ، جحودٌ لذات الله أو إنكار ، فالله الذى يعبدُه النصرانى هو إلهُ إبراهيمَ وإسحقَ ويعقوبَ والأسباطِ والنبيين من قبلُ ومن بعد ، ولكن اللاهوت وقع فى الإثم الغليظ فأضاف إليه عيسى وجبريل ، ظَانًا أنه يُكَرِّمُ بها عيسى وجبريل ، فأضاع عيسى وجبريل . هذه الأُغلوطة التى وقع فيها هذا اللاهوت اعتاصت عليهِ هو نفسه قبل أن تعتاصَ على من زينها لهم ، فما بَرِحَ يُرقِّعُ قولاً بقول : إنه يريد التوحيد ، لا يَمْلِكُ القولَ بغيرِه ، فاللهُ واحدٌ وليس آخرُ سواه ، ولو قال غيرَ هذا لذُبِحَ القائلُ قبل أن يقوم من مقامه ، ولكنه يريد أيضا تأليهَ عيسى وجبريل ، شأنَ الرومانِ فى تأليهِ عظمائِهم وملوكِهم بَعْدَ رحيلِهم ، وكأنه مُضْطرٌ إلى هذا لا يستطيعُ منهُ فكاكا ، فلا تدرى ما الذى اضطره إليه . إنها مُعْضلَةٌ بلا شك ، فماذا فعلَ اللاهوتُ مَجْمَعاً بعدَ مجمع ؟ أَدَمَجَ عيسى وجبريلَ فى ذاتِ الله عز وجل فلم يَعُدْ لهما خارجَ ذاتِ الله وجود ، فاحتفظ بمقولةِ التوحيد فى وجه المُنكرين عليه ، أو هكذا ظَن ، ثم أَخْرَجَ من ذاتِ الله عز وجل عيسى وجبريل يعملانِ الأعمالَ فى زِيّ نَبيٍ ومَلَك . أفليس الأنبياءُ رُسُلَ الله ؟ وأليس الملائكةُ جُنْدَ الله ؟ فما حاجةُ اللهِ إلى التزيى بزِيِّ عيسى وجبريل ؟ أسئلةٌ لا تَجدُ لها جواباً عند النصرانى المؤمن الذى لا التواء فيه ، بل هو يحترزُ كُلَّ الاحتراز من مناقشتها بعقله الذى لا يحتملُ كل هذا الخَلْطِ والتخليط : إنه فحسب يعبدُ الآب الذى فى السموات ، ويُحِبُّ المسيحَ ، ويُعَظِّمُ الروحَ القدس ، على القُربِ من الله عز وجل قُرْباً يَعْلُو على فهم البشر ، ويتركُ التفصيلَ والتقعيد لأصحابِ هذا اللاهوت . وقد عَلِمَ القرآنُ هذا قبلَ أن يَعْلَمَه غيرُه فقال فى خطاب أهل الكتابُ مُريداً النصارى بالتحديد: { **يا أهل الكتاب لا تَغْلُوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق: إنما المسيحُ عيسى ابن مريم رسولُ الله وكلمتُه ألقاها إلى مريم ورُوحٌ منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيراً لكم ، إنما اللهُ إلهٌ واحد ، سبحانَهُ أن يكونَ له ولد ، له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا** } ﴿النساء : ١٧١﴾ ، خَاطَبَ النصارى بيا أهلَ الكتاب ، يُذَكِّرُهم بكتاب موسى الذى يتعبَّدُون به ، وفيه اللهُ واحدٌ وليس آخرَ سواه ، فكيف تقولون ثلاثة وإلهكم هو إلهُ موسى ؟ ويذكرهُم أيضا بأن قائلَ هذه المقولةِ كافر ، وتَوَعَّدَ المُصرَّ عليها بالعذابِ الأليم يومَ يأتى كل أناس بإمامهم : { **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن**

مريم وقال المسيح يابنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم ، إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النارُ وما للظالمين من أنصار . لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالثُ ثلاثة وما من إلهٍ إلا إلهٌ واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليَمَسَّنَّ الذين كفروا منهم عذابٌ أليم } (المائدة : ٧٢ ، ٧٣) . وينبههم أيضا إلى أن هذا التوحيدَ المُثلَّث غيرُ مقبول ، عَبَثٌ عابثٍ لا طائلَ من ورائه إلا الوقوعُ فى الشرك الغليظ ، يُضاهئون به قولَ قومٍ قد كفروا من قبل ، فَضَلُّوا وأضَلُّوا . أما الذين تَوَلَّوا كِبْرَهُ من قبل ، ففى النار هم فيها خالدون .

هنا تَجِد فى الله رجاءً للنصرانيِّ المؤمن الذى لا التواءَ فيه ـ لا لأصحاب هذا اللاهوت ـ إنْ هو نَزَّهَ ذاتَ اللهِ عز وجل عما لا يليق بجلاله ، وأَصَمَّ أُذُنَيْهِ وقلبه عن سفسطةِ أصحاب اللاهوت ، واللهُ يهدِى من يشاء بقرآنٍ وبغيرِ قرآن ، وهو أَعْلَمُ بالمهتدين .

□□□

والذى تستنبطه من هذه الآيات الثلاث ، فتقطع به جازماً آمناً مطمئنا ، هو أن دخول الصابئين فى مَعِّيةِ اليهود والنصارى فى الآيتين الأوليين التى فى سورة البقرة والتى فى سورة المائدة ـ الداخلين فى الوعد بثواب الله ورضوانه لمن آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا ـ يفيد أن الصابئين هم من اليهود والنصارى قريب ، إن لم يكونوا بعضَ هؤلاءِ وهؤلاء "صَبَؤوا" عليهم . أعنى أنهم يعبدون ذات الإله الذى عبده إبراهيم وإسحق ويعقوب والأسباط والنبيون من قبل ومن بعد ، الذى له مُلْكُ السموات والأرض لا إله إلا هو يُحيى ويُميت ، اللهُ الذى لا إله غيره . وإلا لما جاز دخولُهم مع اليهود والنصارى فى جملة المؤمنين بالله واليوم الآخر ، وثُبوتُ الوعدِ للصابئين ـ من آمن باللهِ واليومِ الآخرِ وعَمِلَ صالحا ـ بثواب الله ورضوانه ، لم يرتفع فى الآية الثالثة ، التى فى سورة الحج ،إلا بدخول المجوسِ والذين أشركوا .

وتُلاحِظُ أيضا من النَّسَقِ القرآنى فى الآياتِ الثلاثِ جميعا ، تَوَسُّطَ الصابئين بين اليهود والنصارى فى الآيتين الثانية والثالثة ، التى فى المائدة والتى فى الحج ،

حيث قال عز وجل { **إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى** } (المائدة : ٦٩) ، { **إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا** } (الحج : ١٧) ، بينما هم يجيئون بعد اليهود والنصارى مباشرة فى الآية الأولى ، التى فى سورة البقرة : { **إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين** } (البقرة : ٦٢) ، فتستخلص من توسط الصابئين بين اليهود والنصارى فى الآيتين الثانية والثالثة أن " الصابئين " فرقةٌ من اليهود ، سبقوا النصارى فى الصُّبُوء (أى الخروج) على توراة موسى القاطعة بتوحيد الله عز وجل لا وَلِيٌّ من دونه ، لا " ابنَ " ولا " رُوحَ قُدُس " ، وتستخلص من مجيئهم بعد اليهود والنصارى فى الآية الأولى أن الصابئين أخلاطٌ من هؤلاء وهؤلاء ، أى مِنَ الصابئين من قد كانوا من قبل نصارى ، أو أن عقائدَ الصابئَةِ تجمع نتَفاً من عقائدِ اليهود ونَتِفاً من عقائدِ النصارى .

وربما استوقفك ما استوقف النُّحاةَ من قبل، أعنى تعليلُ ارتفاع لفظ "الصابئون" فى الآية ٦٩ من سورة المائدة "إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون" ، وهو فى موضع نصب ، عطفا بالواو على اسم " إنَّ " الذى انتصب به "الذين آمنوا" ، وقد علِمْتَ أن القرآن لا يُخالِفُ " ظاهر " النحوِ إلا لعلة . يعنى أن ارتفاعَ لفظ "الصابئون" على خلافِ ظاهرِ النحو ، مقصود . وقد عَلِمْتَ أن الآية التى فى المائدة ، التى ارتفع فيها لفظُ "الصابئون" على خلافِ ظاهر النحو ، هى آخرُ الآياتِ الثلاث نزولا ، لأن سورةَ "المائدة" هى من أواخرِ القرآنِ نزولا ، نَزَلت قطعا بعد "البقرة" وبعد "الحج". والرأىُ الذى به أقول هو أن ارتفاع لفظ "الصابئون" فى الآية التى فى "المائدة" جاء ليلفت النظر إلى واقع تاريخى مقطوعٍ به وهو أن " الصابئين " هم بعضُ الذين هادوا ، سَبَقَ وجودُهم نشأةَ النصرانية ، أعنِّى أنهم فرقة من الذين هادوا ، لا فرقة من الذين قالوا إنَّا نصارى ، وإن دخلت فى عقائدهم من بعد عقائدُ نصرانية ، أو دخل فى زُمرتهم من بعد نصارى "صَبَؤُوا" على نصرانيتهم. ومن هنا تُعَلِّلُ ارتفاعَ لفظ "الصابئون" وهو فى موضع نصب، بأنه ارتفاع على "القَطْع" ، يعنى على الاستدراك ، كما لو قيل "إن الذين آمنوا والذين هادوا ـ والصابئون منهم ـ والنصارى ، الخ" . والارتفاع على القطع هو التعليل الوحيد المقبول عند النُّحاة لتفسير مجىء الاسم مرفوعاً وهو معطوفٌ على غيرِ مرفوع . "الصابئون" إذن تجىء فى الآية التى فى سورة المائدة رفعاً على الابتداء

بعد القطع ، فلا يجوز تفسيرُ الآيةِ إلا به . وهذا عندى من دقيقِ القرآن فى تحديدِ هُوِيَّةِ " الصابئين " كما سترى .

❏❏❏

يجيء الجذرُ العبرانى "صَبَا" (ويُهْمَزُ قبل ضمائر الرفع كما فى "صبئُو"، "يِصْبئُو" وأمثالهما) فى أصله بمعنى "احتشد" . بينما يجيءُ كُفْؤُهُ العربى (صَبَأَ ، يَصْبَأُ ، صُبُوءا) بمعنى بَرَزَ وانتقل وخرج ، وأيضا هَجَم (وهذا الأخير باقٍ فى معانى "صَبَا" العبرى) . وغيرُ بعيدٍ عن هذا صَبَا / يَصْبُو / صَبْوا ، صَبَى / يَصْبَى / صَباءَ ، العربيان بمعنى مَالَ إليه وحَنَّ واشتاق . وتقول من " صبأ " العربى أيضا "صَبَأَت النجوم" يعنى طَلَعت .

ومن " صَبَا " العبرى بمعنى احتشد وهَجَم ، يجيء الاسمُ "صَبَا " (ويُجْمَعُ عبريا على "صِبَؤُوت ") بمعنى الجيش والجند . وكثيرا ما تلتقى فى الترجمة العربية للعهد القديم بعبارة " رب الجنود " التى أصلها العبرانى " إِلُوهِي هَصِّبَؤُوت " ، مُراداً منها اللهُ عز وجل ، فلا تفهم على التحقيق ـ مُسْلِماً كُنْتَ أو أَهْلَ كتاب ـ المعنى المقصود من تلك " الجنود " .

والذى يُقَرِّبُ لك المعنى ـ إن كنت من أهل القرآن ـ قَوْلُهُ عز وجل : { **وما يَعْلَمُ جنودَ رَبِّكَ إلا هو** } ﴿المُدَّثِر : ٣١﴾ ، يعنى " ملائكة " الله عز وجل ، وهم جُنْدُهُ تباركَ وتعالى .

استعارت العبرية إذن لفظ "الجند" لمعنى "الملائكة " ، تضع هذا فى موضع ذاك. وفى العبرية كذلك "صِبَؤُوت هَشَّمايم" يعنى "جُنْدُ السماء" يعنى الملائكة أيضا.

وكما استعارت العبرية لفظ الجند لمعنى الملائكة ، استعارته أيضا لمعنى "الأجرام السماوية" ، أى الشمس والقمر والنجوم [(١)]. هذا الخَلْطُ بين "ملائكة" السماء ونجومها يَدُلُّكَ بمحض اللغة على اختلاط عقيدة اليهود بديانة البابليين عَبَدة الكواكب ، الذين "يُشخِّصُون" أجرام السماء فيجعلون منها آلهة ، مثل "مردوخ" (المَرِّيخ على الراجح كما

(١) راجع المعجم "هَمِّلُون هِحَداش لَتَناخ" عبرى / عبرى ، المرجع المذكور ، مادة "صبا " ، الصفحة رقم ٤٩٢ .

مر بك)، رُقَباءَ وحَفَظَة ، أو عُتاةً مَرَدَة ، أو يجعلون منها فى أقل القليل كائنات عاقلة مُريدة ، مُؤثِرَةً فعّالة . من هذا فى تُراثِ أهل الكتاب تسميتهم إبليس " كوكب الصبح" Lucifer يعنى " كوكب الزهرة " ، وإبليس فى عقائد أهل الكتاب كان رئيس الملائكة قبل سقطته فى عداوة آدم . ويكفيك هذا مثلا على توحيدهم بين الملائكة والكواكب . وهذا عندى هو أصل الاعتقاد بالتنجيم وبتأثير النجوم عموما ما دامت كائنات مُشَخَصةً مُريدة فعالة ، تَضُرُّ وتنفع ، لا ما يقال لك اليوم بتأثيرها جَذْباً أو إشعاعاً فى محاولةٍ مغلوطة لتأصيل عقائد باطلة .

ومما يدلك على عقائد البابليين عصر إبراهيم عليه السلام ـ وقد عَلِمْتَ أنه نشأ ببلدة "أور الكلدانيين" بنواحى بابل جنوبى العراق ـ ما يحكيه القرآنُ عن إبراهيم قبل أن يَهْدِيَهُ اللهُ إليه : { **فلما جَنَّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى فلما أَفَلَ قال لا أحبُّ الآفلين . فلما رأى القمرَ بازغاً قال هذا ربى فلما أفَلَ قال لئِنْ لم يَهْدِنى ربّى لأكونَنَّ من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغةً قال هذا ربّى هذا أكبر فلما أفَلَت قال يا قومِ إنى برىءٌ مما تُشركون . إنّى وجَّهْتُ وجهى للذى فطر السمواتِ والأرضَ حنيفاً وما أنا من المشركين** } (الأنعام : ٧٦ ـــ ٧٩) ، وقوله "يا قومِ إنّى بَرِىءٌ مما تُشركون" يعنى أن شِركَهُم كان عبادةَ الكواكب . والذى ينبغى التنبيه إليه أن "الكواكب" فى عربية القرآن ـ لا فى عربية المعاجم العربية الحديثة ـ تشمل أجرام السماءِ جميعا ، نَجْماً وغيرَ نجم ، المُضىءَ بذاته والمُستضىءَ بغيره ، كما تستظهرُ من قوله عز وجل : { **إنا زَيَّنّا السماءَ الدُّنْيَا بزينةٍ الكواكب** } (الصافات : ٦) . ومجىءُ الكواكب بصورة الجمع فى هذه الآية يمنع من فهمها بمعنى القمرِ وَحْدَه وما فى حُكْمِه ، أعنى الأجرام السماوية " التُرابية " التى تُضىءُ ليلاً بانعكاس ضَوءِ الشمسِ عليها ، وإنما الكواكبُ هنا تعنى هذا وذاك ، فتدخل فيها النجومُ النَّيِّراتُ خاصة .

وقد كان لعقائد البابلين تأثيرٌ بالغُ القوة فى دياناتِ الشرق الأدنى القديم ، لا عِبْرَةَ بالذى "يَحْكُمَ " فى بابل ، الآراميين أو الأشوريين أو الفرس ، وقد اتسع نطاقُ هذا التأثير فى العصر "الهلينى" بعد غزوة الاسكندر المقدونى ، فتسللت عقائدُ البابليين إلى أوروبا ذاتِها ، حيث اختلط الحابلُ بالنابل ، واستطاع هذا الفكر البابلىُّ أن

يغزو العقيدة المسيحية فى قُرونِها الثلاثة الأُولى. وتكونَّت من مُرَقَّعات هذا الفكر البابلى مِلَلٌ ونِحَل ، أشهرُهم "الغُنُوصيُّون" (من gnosis اليونانية ومعناها "المَعْرِفَة") يعنى معرفة الحكمة ، وهى معرفة " لَدُنِّية " كما يقولُ المتصوفة ، تَهْبِطُ على أصحابها من " فَوْق " فُيُوضا . والغنوصية بلا شك ترجمة يونانية لمذهب "المَنْدَعيين" Mandaeanism أى المَعْرِفِيّين ، وهى من الآرامية "يَداع" يعنى " عَرَفَ " (والمصدر "مَيْدَع" ، "مَنْدَع" ، فهو "مَنْدَعيًا" أى "المعرفى")، وقد مر بك غَلَبة الآرامية على أقطار الشرق الأدنى كُلّه منذ القرن الثالث قبل الميلاد . وقد عانت المسيحيةُ كثيرا من هؤلاء الغنوصيين فى بواكيرِ نشأتها ، فدانت بالغنوصية أو اتهمَت بها طوائفُ مسيحيةٌ عديدة ، طاردَها المسيحيون من بعد بسيف قيصر بيزنطة الذى آل إليه منذ القرن الرابع سلطانُ المسيحيةِ وصَوْلَجانُها ، وكان طبيعيا أن تلجأ فلولُها إلى تُخوم نفوذ بيزنطة ، حيث "الفرس" أعداءُ القيصر ، فيتجمعون فى جنوبى العراق حيث كانت "بابل" .

هذه الفرقة المسيحية " المَنْدَعيَّة " أى المَعْرِفيَّة (أعنى الغنوصية إن آثرت اللفظ اليونانى الشائع فى كتب الفلسفة)، تُسميها الكنيسةُ باسم "مسيحيى القديس يوحنا"، ليس هو بالطبع يوحنا الحوارى أو يوحنا صاحب الإنجيل الرابع ، وإنما هو يوحنا بن زكريا ، يعنى بقية من تلاميذ يحيى عليه السلام .

ولا شك أن هذه الملل والنحل التى أضافت إلى وحى الله عز وجل مالم يُنَزِّلْ به سلطانا ، خَلَطَت سَيِّئاً بصالح ، تأخذُ نتَفا من هنا ونتَفا من هناك ، فأضاعت الأصلَ وجاءت بِمَسْخٍ مُشَوَّه . مثلما فعلت تلك الفلسفاتُ المتهافتة التى نشأت فى مدرسة الاسكندرية فجمعت بين أساطير اليونان وأباطيل البابليين ، تُحاولُ صهرَها فى بَوْتَقة فكر أرسطو وأفلاطون فتكون النتيجة المحتومة فكراً شائها غير متماسِك ، تُلَخِّصُهُ لك فلسفةُ أفلوطين الأسيوطى الاسكندرى .

وتستطيع أن تقول ان عقيدة نيقية التى استمدت من عقائد المصريين فى أسطورة إيزيس ، لم تبرأ رغم نضالها الضخم ضد "هَرْطَقات الغُنوصيين" . من تأثير بابلىٍ قديم ، يُؤَلِّهُ النجوم ، أو الملائكة ، أىَّ الوجهين شئْت فى فَهْمِ "صَبَا" العبرية ـ الآرامية ، عندما ارتأت ، بعد رفع المسيح بثلاثةِ قرونٍ ونصفِ قرن ، تأليهَ جبريلَ "النَّجْمِ ـ الملك" .

أما تلك الفرقة " الغُنوصية " المنسوبة إلى يحيى بن زكريا ، فقد وَفَدت فى بابل على سُلالةٍ من بنى إسرائيل تَسَمَّوْا بالصابئةِ من قبل ، وسرعان ما اختلط هذا بذاك .

□□□

فقد مر بك أن نَبُوخَذْ نصَّر مَلِكَ بابل اجتاح أُورشليم وهَدَم هيكلَ سليمان أوائلَ القرن السادس قبل الميلاد (٥٨٦ ق . م) وجعل أهلها أثلاثاً : ثُلُثُ فى القتلى ، وثُلُثُ استبقاه فى أورشليم ، وثُلُثُ أَخَذَهُ سَبْياً رَجَعَ بهِ إلى بابل . فكان أول جَلاءاتِ بنى إسرائيل . قَضَاءٌ قضاه اللهُ فى بنى إسرائيل جزاءً وفاقا ، مصداقاً لقوله عز وجل : {**وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لَتُفْسِدُنَّ فى الأرض مرتين ولَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كبيرا . فإذا جاء وعدُ أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأسٍ شديدٍ فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا** } (الإسراء : ٤ ـ ٥) ، أى كان هذا عقاباً على ظُلمِهم وإفسادهم . وكم بَغَى اليهودُ وأفْسَدُوا من بعد سُلَيْمان على نحو ما تقرأ فى كتبهم (العهد القديم : الملوك الثانى ـ أخبار الأيام الثانى) : نَبَذُوا عَهْد الله وراء ظهورهم ، فاسْتَحَلُّوا ما حَرَّمَ الله ، واستعان بعضُهم على بعض بعَبَدةِ النجومِ والأَوثان ، وسَجَدُوا لغير الله ، وطارَدُوا أنبياءَ الله ، بل وقَتَلوا أنبياءَ الله . كان منهم زكريا بن بَرَخِيًا ، الذى ذبحوه بين يدى المَذبح فى الهيكل ، فكانت النازلةُ الكبرى فى دينهم هَدْمَ هذا الهيكل على رؤوسهم ، واقتلاعهم من أورشليم ، وسبيَهُم فى بابل ، وبقى منهم من استبقاه البابليون فى أورشليم يَلْطُمُ على أطلالها ويَنُوح ، أو يطلبُ التَّقيةَ فيتقرب إلى الغزاة بالمودة ، وزاغ منهم من زاغ فشاركوا الغُزاة عبادتَهُم وأضاعوا كتابَ الله .

أما سبى بابل ، أُسارىَ نَبُوخَذْ نَصَّر ، فقد كان منهم من نَجَعَ فيه تأديبُ اللهِ عز وجل فعكف على توراته ، يستمسك بالعروةِ الوثقى ، مؤمنا بعدلِ الله عز وجل فيما أجراه على قومه ، الذى جَرَّهُ بنو إسرائيلَ على أنفسهم بنبذهم هذه التوراة ، لا مهْرَبَ من اللهِ إلا إليه . وكان منهم أيضا ـ كما تتوقع ـ الفريقُ الآخر ، الذى يلتمس الرِّفْعَةَ بالذِّلّة ، فيرتضى الدَّنِيَّةَ فى دينه ، لينال الحُظْوة ، فَلاينوا واستلانوا ، وكان لهم ما تَمَنَّوْا ، بل كان منهم من تسلل إلى بلاط الملك فكان بعضَ خُدَّامِه وحُجَّابِه وأعوانه ، على ما رأيت فى قصة "مُردِخَاى " الذى دفع بابنة أخيه " إسْتِير " إلى أحضانِ الملِك

غيرَ مُبالٍ مُتَعَلِلاً بأنه يستنقذُ بها شعبَ بنى إسرائيل فى بابل من مكيدةٍ كادها لهم عند المَلك كبيرُ بلاطه ، فصارت بها " إستير " بَطَلَةً من أبطال اليهود ، ليس هذا فحسب ، بل سَجَّلَ لها العهدُ القديم هذه البطولة فى سفرٍ باسمها فى "الكتاب المقدس" .
والذى يجب التنبيه إليه أن هذا الاسم "مُرُدِخَاى" معناه بالبابلية الآرامية "المَرِّيخى" عابدَ كوكب المريخ ، وهذا يدلك على أن سبى بابل كان منه فريقٌ استهوتْهُ عبادةُ البابليين ، عبدةِ الكواكب ، لا يَأنَفُ من الاعتزاء باسمه إلى بعضِ آلهتهم .

وليس معنى هذا الذى قلناه ، أنَّ هذا الفريق المنافق من سبى بابل ارتد عن توراة موسى إلى عبادة البابليين ، وإنما معناه أنهم مَزَجوا بتوراةِ موسى شيئاً من عقائد البابليين ، عبادةَ الكواكب ، أو تعظيمَ الكواكب ، أو فى أقل القليل الاعتقادَ بتأثيرِها وأنَّها فَعَّالة .

❑❑❑

وقد مر بك أن المَلِكَ أذِنَ من بعد لعِزرا الكاتب بالعودة بهذا السبى إلى أورشليم لإعادة بناء الهيكل الذى هدمه من قبل نبوخذنصر . وقد عاد عزرا بلفيفٍ فقط من هذا السبى ولم يَعُدْ بهم جميعا ، لقول الملك فى رسالته إلى عزرا : "كل من أراد فى ملكى من شعب إسرائيل وكهنته واللاويين أن يرجع معك إلى أورشليم فليرجع" (عزرا ١٣/٧) . وقد حرص عزرا فى سفره على تعيين العائدين معه إلى أورشليم بأسمائهم وأنسابهم . ولم يُسَمِّ بالطبع الذين لم "يرُيدوا " الرجوع معه ، الذين آثروا مصالحهم فى بابل على الرجوع إلى أورشليم وإعادة بناء الهيكل .

بقيت إذن باقيةٌ من هذا السبى فى بابل . وكان لابد مما ليس منه بد . فقد تسللت إلى عقيدة التوراة القاطعةِ بتوحيد الله عز وجل لا ولِىَّ من دونه ، التى يَدينُ بها هؤلاء الذين آثروا بابل على أورشليم ، تأثيراتٌ بابلية تُعَظِّمُ النجوم ـ أو الملائكة إن شئت ـ فجمعوا بين توحيد الله عز وجل وبين الاعتقاد بتأثير النجوم .

والذى يجب أن تَعلَمه أن البقيةَ الباقيةَ من " الصابئين " فى العالم لا تزالُ تعيشُ إلى الآن فى جنوبىِّ العراق ، حيث كانت " بابل " .

إنهم إذن سُلالةٌ من " الذين هادوا " صَبَؤُوا عليهم . والصابىءُ فى العربية يعنى الخارج على ملة آبائه ، الذى انتقل من عباده قومه إلى عبادةٍ لم يعرفوها .

ولا ينفع توحيدُ الواحد الأحد من عَبَدَ معه غيرَه ، مهما عَظُمَ جرمُه، أو مهما بَلَغَ قُرْبُه من الله عز وجل ، فكل ما عدا اللهِ خَلْقٌ من خلْقِه ، لا معبودَ سواه ، ولا تَوَسُّلَ إليهِ إلا بَه ، ولا وَلِيٌ من دونه .

أما اسمهم بلغتهم ، فهو " صِبَائِيِّين " آراميّاً ، " صِبَائِيم " عبرياً ، نسبةً إلى "صَبَا" العبرى ـ الآرامى يعنى " النَّجْمُ ـ المَلَك" ، والنسبةُ إليه فى الآرامية "صِبائى" والجمعُ " صِبَائِيِّن " ، وفى العبرية " صِبَائِى" والجمعُ " صِبَائِيم " .

إنهم " النُّجوميُّون" أو " الملائكيوُّن" ، عُبَّادُ الكواكب أو عُبَّاد الملائكة .

وإلى هذا الخَلْطِ فى مجازِ العبرية ـ الآرامية بين الملائكة والنجوم فى مادة "صَبَا" العبرية ـ الآرامية ، يرجع فيما أرى تفاوتُ مفسرى القرآن فى عبادة الصابئين ، فريقٌ يقولْ عُبَّادُ الكواكب وفريقٌ يقولُ عُبَّادُ الملائكة ، لتفاوتِ من تَرْجَمَ معنى "صَبَا" العبرى ـ الآرامى لمفسرى القرآن من رُواتِهم الآخذين مِنْ أفواه الصابِئة هؤلاءِ أنْفسِهم .

❏❏❏

اختلف مفسرو القرآن (راجع تفسير القرطبى للآية ٦٢ من سورة البقرة) فى عبادة الصابئين فقالت طائفةٌ إنهم فرقةٌ من أهل الكتاب (وهو الصحيح كما مر بك) ، وقالت طائفة هم قومٌ يشبه دينُهم دينَ النصارى (وهذا يؤكد لك اختلاط الصابئة بمسيحيى القديس يوحنا الغنوصيين أو المُدَّعِيِّن المَعرفيين) قبلتُهم مَهَبُّ الجنوب يزعمون أنهم على دين نوح (وقد علمت أن العهد القديم يَنْسبُ نوحاً إلى بابل) ، وقيل دينُهم يتركب من اليهودية والمجوسية لا تُنْكَحُ نساؤهم ولا تُؤكَلُ ذبائحُهم (وهذا يدلك على تأثر بعض الصابئة بدين سادتهم الفرس قبل الإسلام) ، وقيل بل قوم يعبدون الملائكة يُصلُّون إلى القبلة ويقرءون الزبور ويُصَلُّون الخمس (وليس بعد هذا تخليط ولكن الراوى ينقل بلا شك عن صابئةٍ يتملقونه فى أرض الإسلام) .

وانتهى القرطبى رحمه الله إلى أن خُلاصَة القولِ فيهم عند أشياخه هو أن الصابئين مُوَحِّدُون يعتقدون تأثيرَ النجوم وأنَّها فعَّالة ، وهذا كُفْرُهم .

هذا الخلط فى أقوال رواة مفسرى القرآن بين عبادة الصابئين النجوم وبين عبادتهم الملائكة ، ناشىء بلا شك عن ازدواج معنى "صَبَا" العبرى ـ الآرامى لدى

أصحاب الملة الذين نَقَلَ عنهم الرواةُ تفسيرَ عبادتهم، طائفةُ تقول للراوى النجوم وطائفةُ تقول الملائكة ، وهم فى حقيقة الأمر يَعْنُونَ شيئاً واحد ، لأن المَلَكَ عندهم نَجْمٌ والنَّجْمُ مَلَك .

قد جمع الصابئون إذن بين عبادة إله موسى وبين عبادة تلك النجوم التى فى بابل ، جُنْدِ السماءِ أو " صِبَؤُوت هَشَّمايِم " فى العهد القديم ، وقد زُيِّنَ لهم التخفيفُ من غلظة عبادة النجوم التى نَعاها آباؤهم على بابل فألبسوا تلك النجومَ ثيابَ الملائكة وفى وَهمِهم من مجازِ عبريةِ العهدِ القديم أن النَّجْمَ والمَلَكَ واحد : "صَبَا" ، "صِبؤوت".

وقد كَفَّرَ الملائكةُ فى القرآن من عبدوهم وتَبَرَّءُوا منهم : { **ويومَ يَحْشُرُهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون. قالوا سبحانك، أنتَ وَلِينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجِنَّ ، أكثرُهم بهم مؤمنون** } (سبأ : ٤٠ ـــ ٤١) .

وها هنا يلتقى الصابئةُ بالنصارى الذين جَمَعوا إلى عبادة الله عز وجل عبادةَ روحِ القدس جبريل صلواتُ الله عليه وعلى ملائكة الله أجمعين .

* * *

أما " الصابئون" التى فى القرآن فهى عربيةٌ بلا شك ، زِنَةُ جمعِ الفاعل من الجذر العربى صَبَأَ/يَصْبَأُ / صُبُوءا ، يعنى انتقل ، أى انتقل من عبادة آبائه إلى عبادةٍ لم يَعْرفْها آباؤهم . وقد قِيلت لمحمدٍ صلى الله عليه وسلم وصَحابته على الاستنكار من مُشرِكى قريش ، فقيل صَبَأَ محمد ، وصَبَأَ عُمَر ، الخ . يعنى خَرَجَ خاتمُ النبيين وأتباعُه على عبادة قومهم مشركى قريش . وقائلُها يقولُها على الذَّمِ ولا يقولُها قط على المَدْح ، صَحَّ قولُ القائلِ أو لم يصح . وهو لم يَصح بالطبع فى خاتم النبيين المبعوث لهدايةِ الخلق ، ولكنه يصِحُّ فى الصابئين ، صابئةِ بابل ، الذين صَبَؤُوا بعبادةِ النجوم أَو الملائكة على توراةِ موسى .

وقد تقول فلماذا يُفردُ القرآنُ " الصابئين " بهذا الاسم ، وقد صَبَأَ من قبل ومن بعد كُلُ خارجٍ على دين القَيِّمَة ، الذين تَبدلُوا قولاً غيرَ الذى قِيل لَهُم ؟

مر بك أن العرب تقول من "صَبَأَ " العربى : صَبَأَت النجوم ، يعنى طَلَعت ، من صَبَأَ بمعنى برز، كما يقولون صبأ نابُ الصَّبِى يعنى انشقت عنه لَثَتُه ، فالصابىءُ بمعنى

البـارِزُ البازِغُ . وعُبَّادُ النـجوم لا يعظّمـونهـا وهى فى مَحاقـهـا ، وإنما يُعَظّمـونهـا وهى صـوابىء ، على مـا مـر بك من قـول إبراهيـم عليـه السـلام فى القـرآن : { **فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى** } (الأنعام :٧٧) .

على أن " النجم" فى العربية تسميةٌ بالمصدر من الجذر العربى " نَجَم" بمعنى ظَهَرَ وبَزَغ ، فـهـو الذى " نَجَمَ " يعنى الذى بَزَغَ وصَبـأ ، فـالناجمُ والصـابِىءُ واحد حين تعنى بهما نجوم السماء ، ولكن العربية اشتقت اسم النجوم من مادة " نَجَم " واشتـقته العبرية ـ الآرامية من مادة " صبا " .

من هنا تستطيع أن تقول إن " الصابئين " هم الذين يُعَظِّمون نُجومَ السماء وهى صوابىء : يَصْبَؤُون إليها كلما صَبَأت .

احتفظ القرآنُ بلفظ " صبائِيين " الآرامى أو " صْبَائيم " العبرى على ما أُسْمَى بِهِ الصابئون أنْفُسَهُم ، فجاء به على التعريب المُفَسِّر : إنهم الصابِئَة ، أصحابُ النجوم الصوابىء .

وفى هذا التـعريب المفـسر أيضـا إضـافـةٌ ومَزَيدُ بيـان : ليـسـوا هم عُـبَّادَ النجوم بإطلاق شأن البـابليين مختـرعى هذه العـبادة ، ولكنهم الذين "صَبَؤوا " بعبـادَتِها على توراةِ موسى .

وسبحان العليم الخبير .

(٦٠) المجوس

وردت " المجوس" مرة واحدة فى كل القرآن ، بين " النصارى" و "الذين أشركوا" فى قوله عز وجل : { **إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شىء شهيد** } {الحج : ١٧} وقد مر بك .

وهى من الأعجمى المُعَرَّب الذى نَطَق بهِ العربُ حوالى القرن الثالث الميلادى قبل نزول القرآن بأكثر من ثلاثةِ قرون ، فهى ليست من مُعَرَّباتِ القرآن ، وإنما هى من مُواضَعَات العرب أنفسهم ، يصفون بها جيرانهم الفرس عَبَدَة النيران ، وقد أجْمَعَ المفسرون (راجع تفسير القرطبى للآية ١٧ من سورة الحج) على عُجْمَةِ هذه اللفظة ، إلا من شَذ منهم فقال على الذم والتحقير إن الميم فى "مَجُوس" مُبْدَلَةٌ من النون فهم "نَجُوس" ، تَوَصُّلا إلى وصفهم بالنجاسة ، وربما كان هذا القائل ينظر إلى قوله عز وجل : { **إنما المشركون نَجَس فلا يَقْرَبُوا المسجدَ الحرامَ بعد عامِهم هذا** } {التوبة : ٢٨}، وهذا عامٌ فى كُلُّ مُشْرِك ، فلا يصح اختصاصُ المجوس به حتى يُسَمُّوا على معنى " نجوس" . وهو لا يصح أيضا لأنه لم يُسْمَع من العرب "مَجَس" بمعنى "نَجَس" . ولا يصح أخيرا لأن "مجوس " لفظة فارسية بلا مراء كما سترى - إن اعتبرت الميم فيها أصلية لا زائدة - لا أصلَ لها فى العربية لأنه لا أصل لمادة "مَجَس" الثلاثية فى اللغات السامية الثلاث : العربية والآرامية والعبرية .

ومع ذلك ، أى على الرغم من فارسيةِ هذه اللفظة فى أصلِها ، فهى تَصْلُحُ من العربية ذاتها وصفا للمجوس بعبادتهم ، إن أخذتها على المفعولية من الجذر العربى جاس يجوس جوسا وجوسانا ، وهو التردد بين الشيئين ، وأجاسَهُ يعنى جعله يَجُوس ، وأيضا جَاسَ به، فهو "مَجُوسٌ" على معنى "مَجُوسٌ به". ولُبُّ عقيدةِ المجوس كما تعلم هو التردد بين إلهين ، إله الخير وإله الشر، يغدو المجوسى عليهما ويَرُوح. ولكن لم

يفطن العرب إلى هذا يوم سَمَّوْا المجوسَ مجوسا ، فلم يكن لهم عِلْمٌ بما وراء عبادةِ النيران ، ومن ثم لم يفطِن إليه أيضا المفسرون .

والذى ينبغى التنبيهُ إليه أن لفظة "المجوس" ليست اسم جنس يطلق على شعب أو أمة أو جيل من الناس ، كما تقول المصريون والبابليون والفرس والهنود . فلا يجوز على سبيل المثال إطلاقه على شعب إيران اليوم بحُسبانهم سُلالةً من هؤلاء الفرس الذين كانوا أول شعبٍ غير عربى يعتَنق الاسلام فَيُسهِمُ فى بناء حضارته إسهاماً ذا شأن . لا يجوز هذا ليس لأن آباء هؤلاء الإيرانيين أسلموا فَحَسُنَ إسلامُهم وكان منهم أئمة أمثال أبى حنيفة النُّعمان أقْدَمِ أئمةِ الفقه الأربعة ، وإنما أولا وبالأخص لأن "المجوس" ليست اسم الشعب الذى انحدروا منه وإنما اسم " الملة " التى كانوا عليها قبل إسلامهم ، يعنى كانوا " فُرْسَاً " قبل أن يكونوا " مجوسا " بل لم تكن المجوسية هى الملة التى خَلَقَهُم اللهُ عليها ، وإنما طرأت عليهم المجوسية حوالى القرن السادس قبل الميلاد ، جاءهم بها "زُرادِشْت" ، فهم الزُّرادشْتيون " أتباعُ زرادشت ، ولكن "الزُّرادشْتيَّة" لم يُكتَب لها انتشارٌ خارج حدود موطنها عدا الذى أَبَقَ من أتباعها إلى الهند عُقَيْبَ الفتح الإسلامى فِراراً بملتهم (وهم آباء طائفة Parsee " فَارِسِىٌّ " التى لا تزال إلى اليوم فى الهند يتعبدون النيرانَ فى معابدَ لهم) ، ولذا شاعت لفظةُ المجوس عند العرب عَلَما على الفرس أنفسهم ، وصفا لهم بملتهم .

وقد وقعت لفظة " المجوس " بمادتها فى حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم : " كل مولودٍ يُولَدُ على الفطرة ، فأبواه يُهَوِّدانه أو يُنَصِّرانِه أو يُمَجسانه " . وهذا قاطعٌ حاسم فى أن المجوسية دينٌ لا جنس . وبهذا المعنى أيضا وردت لفظة " المجوس" فى القرآن : إنهم إحدى الفرق الست (المسلمون واليهود والصابئون والنصارى والمجوس والذين أشركوا) يفصل اللهُ بينهم يوم القيامة .

□□□

على أن " المجوس" أتباع هذه الديانة لم يسموا أنفسهم " مجوسا " على الرغم من فارسية هذه اللفظة ، وإنما أسماهم بها العرب قبل الإسلام ، تسمية للديانة باسم كهنوتها .

ولم تقع هذه اللفظة الفارسية فى عبرية التوراة إلا مرة واحدة فقط ، فى عبارة وحيدة وردت فى سفر إرْمَيا الذى عاصر السبىَ البابلى : " ودخل كُلُ رؤساء ملك بابل وجلسوا فى الباب الأوسط ، نَرْجَل شَراصَر وسَمْجَرْنَبُو وسَرسَخيم رئيس الخصيان ونرجل شراصر رئيس المجوس وكل بقية رؤساء ملك بابل " (ارميا ٣/٣٩) . وليست هى رئيس المجوس كما ترجمها المترجم العربى لأسفار العهد القديم متأثرا بلفظة " المجوس" التى فى القرآن ، وإنما هى فى الأصل العبرانى لسفر ارميا " راب ـ ماج " أى " الماج الكبير" يعنى كبير كهنة هذا الكهنوت الفارسى الزرادشتى الذى واحِدُهُ فى الفارسية القديمة "ماجو" ، "ماجوس" . ورغم وقوع كاتب هذا السفر فى خطأٍ تاريخىٍّ بَيِّن ، هو إقحامه رئيساً لكهنة الفرس بين" رؤساء ملك بابل "فى بلاط مَلِك بابل على عهد نَبُوخَذْ نَصر ولم تكن بابلُ قد سقطت بعد فى أيدى الفرس حتى يكون للفرس كهنوتٌ فى بلاط بابل ، فالذى يعنينا هنا أن لفظة " ماج " العبرية المأخوذة من الفارسية "ماجو" لا تعنى عنده " المجوس" أتباع زرادشت وإنما هى تعنى فقط واحد هذا الكهنوت "الزُّرادِشْتِيّ". وهذا " الماج " هو أيضا الذى تجده على لسان متى فى إنجيله : " ولما وُلد يسوع فى بيت لحم اليهودية فى أيام هيرودس الملك، إذا مجوسٌ من المشرق قد جاءوا إلى أورشليم قائلين أين هو المولود ملك اليهود . فإننا رأينا نَجْمَهُ فى المشرق وجئنا لنسجد له " (متى ١/٢ ـ ٢) . وقد جاء لفظ "مجوس" هذا فى الأصل اليونانى بصيغة الجمع magoi على الجمع من magos (السين فيه زائدة للرفع) وهى الصورة اليونانية للفظة "ماج" العبرية المأخوذة من "ماجو" الفارسية . ورغم أن مَتى أخطأ هنا نفس الخطأ الذى وقع فيه كاتب سفر إرميا من قبل بخلطه بين كهنة بابل عبدة النجوم (فإننا رأينا " نجمه " فى المشرق) وبين كهنة المجوس أتباع زرادشت عبدة النيران فالذى يعنينا هنا أن magos اليونانية لا تعنى عنده وعند اليونان واحد المجوس أتباع زرادشت كما يقول العرب، وإنما هى تعنى فقط ـ ولا تزال تعنى فى كل لغات الأرض عدا العربية وحدها ـ " الماج " واحد الكهنوت الزرادشتى لا غير. ورغم أن العبرية المعاصرة استعارت من العرب لفظة "مجوس" بعد تشيين السين كدأبها ، فقالت "مَجُوش" ، "مَجُوشيم" ، فهى لا تعنى بها واحد المجوس أتباع الملة ، أو واحد الفرس عبدة النيران وصفا للفرس بملتهم كما يقول العرب، وإنما تعنى بها نفس الذى أراده منها

ارميا ومَتّى من قبل : الـ "ماج" واحد كهنوت المجوس ، أى على أصلها عند الفرس لا على مجازها العربى الذى بات عَلَماً على أهل الملة جميعا ، كهنوتاً وغير كهنوت .

وهذا يدلك على أن العرب انفردوا بتسمية المجوس مجوسا ، على معنى أهل الملة أجمع ، لم يستعيروها من يهودَ أو يونانَ أو نصارى ، وإنما أخذوها مباشرة على الراجح عندى من أفواه عرب الحِيرة الواقعين من قديم فى دائرة نفوذ فارس .

أما " ماجو" الفارسية هذه ، فمعناها فى تلك اللغة " ذو الحَوْل والحيلة " ، اسمٌ غَلَبَ على رُتبةٍ من هذا الكهنوت الزرادشتى بَرَعَت فى الإتيان بالعجائب حتى نُسبَت إليهم الخوارق . ومن هذا الجذر البعيد تجىء فى الألمانية مثلا mögen و Macht (وهما فى الانجليزية على الترتيب الفعل may والاسم Might على معنى القدرة والاستطاعة) . ومن "ماجوس" الفارسية " أيضا واحد هذا الكهنوت ذى الحول والحيلة ولدت فى اللغات الأوروبية جميعا اللفظة الانجليزية magic ونظائرها ومشتقاتها فى أخواتها الأوربيات بمعنى السحر الذى يعتمد على الحيلة فيخلب اللب ، لا sorcery ونظائرها فى اللغات الأوروبية بمعنى السحر الذى يعتمد على الجن والأرواح الشريرة . ولعله قد كان من حيل أولئك الكهنة المجوس تلك النيران التى لا تنطفىء فى معابدها وأصلها ـ كما لعلك حدست الآن ـ سحابات غاز تتسرب من أرض تعج ولا تزال بالنفط الخام .

ورغم انقطاع الصلة بين معنى الحَوْل والحيلة فى " مجوس " على أصلها فى لغة أهلها وبين مضمون العقيدة الزرادشتية الثَنَوِيَّة التى تتعبد لإلهى الخير والشر ، فقد وُفِّقَ العربُ كل التوفيق ـ دون أن يدروا ـ فى تسمية المجوس مجوسا . إذ ليس لديك شىء من تعاليم زُرادِشْت" الحقيقى" الذى تَنْتَسِبُ إليه هذه الملة ، إلا هذه الأَفِسْتا (Avesta ومعناها النص الأصلى) التى شرع فى كتابتها أو تجميعها هذا الكهنوت فى الربع الأول من القرن الثالث الميلادى بعد ثمانية قرون من وفاة زُرادِشْت وانتهوا من تدوينها فى القرن السابع الميلادى ، لا تدرى على وجه اليقين ما الذى فى الأفِسْتَا من قول الكهنة والذى فيها من قول زرادشت . ومن ثم يقتضى الإنصاف ـ وإن لم يَتَعمَّدْهُ العرب فى هذه التسمية ـ نسبةَ أُصول الملة إلى هذا الكهنوت نفسه ، لا إلى معلمهم .

ولعله لن يفوتك وقد عَلِمْتَ الآن أن الأڤسْتَا كتاب دوّنه الكهنوت الزُرادشْتيُّ ما بين القرنين الثالث والسابع الميلاديين ، لم يُنَزَّل على نَبِيٍ لهم ، زُرادشْت أو غير زُرادشْت ، مُبررٌ آخر يُضاف إلى ما ذكرناه فى مبحث " التوراة " يقطع بامتناع إدخال " المجوس" ضمن أهل الكتاب المعنيين فى القرآن ، أى اليهود والنصارى فحسب ، لا عبرة بمن يقول العكس .

□□□

تقول عقيدة " الأڤسْتَا " التى يدين بها المجوس ، أن هذا الكون تحكمه قوتان ، الخيْر والشر ، أو النور والظُّلمة . الأول " هُرْمَزدا " (وأصلها من الفارسية القديمة أهُورا + مَزْدا) أى إله الخير ، والثانى " أهْرِمَنْ " (وأصلها أهْرِى + مَنْ) يعنى روح الشر . لاتزال بينهما المغالبةُ والمدافعة ، جولةً هنا وجولة هناك ، والشرُّ أغلب ، حتى ينتصر الخيرُ فى النهاية . والإنسان الذى زُجَّ به فى هذا الصراع ـ أى هذا العالم ـ لا يدرى علّةَ ما يدور من حوله ، إذ ليس هو طرفاً فيه ، فهو صراعٌ بين عمالقة . ولكن الضربات تُكالُ له من حيث لا يحتسب، فى ظلامٍ دامس لا يدرى من أين يُؤْتَى ، فهو يُصانِعُ هذا الإله وهذا الإله ، يَدْرأ الواحد بالآخر : الأخيارُ يستعينون هرمزدا على أهرمن ، والأشرارُ يستعينون أهرمن لِيَكُفَّ أذاهُ عنهم ويُحقَقَ أهواءهم .

وربما قلت ان الأشرار أحصف وأحكم ، لأنهم لا يريدون ما وراءَ هذه الحياة الدنيا فقد عَلِمْت أنَّ الشرَّ أغلب ، وأن إلهَ الخير أو النور " هرمزدا " لا يحقق انتصارَهُ الحاسم إلا فى نهاية العالم . ولكن الأڤسْتَا تضع جائزة للأخيار : " الكمالُ والخلود " فى حياةٍ أخرى ينتقلون إليها بعد الموت ، لا مكان فيها للشر والأشرار .

ولأن هرمزدا إله الخير مرموزٌ إليه بالنور ، كما يُرْمَزُ بالظُّلْمَة إلى روح الشر أهرمن ، فقد كان لابد من تعظيم الشمس والقمر ، ضياءً يطردُ الظُّلْمَة ونوراً يُخَفِفُ من حُلْكَةِ الليل . وهاهنا فقط نقطة الالتقاء فى مظاهر العبادة بين البابليين عبدةِ النجوم والكواكب وبين المجوس عبدةِ النور والنيران . وليست عبادةُ النيران التى شُهِرَ بها المجوس إلا شيئا من هذا : إنها الاستضاءة ، أى استحضار " الإله النور" الذى يَطْرُدُ " الظُّلْمَة " أى روح الشر أهرمن . ولا يصلح فى هذا بالطبع الاستعانةُ بضوء

مصباحٍ ثابت اللهب ، بل لابد من نارٍ تتأجج فتبعث " الحياة " فى هذا الصراع المحموم بين هرمزدا وخصمه اللدود أهرمن .

وتستطيع أن تقول ان المجوس أحرزوا بعض " التقدم" على الذين أشركوا ، ليس فقط لأنهم اجتزءوا بإلهين اثنين عن العديد الذى لا يُحْصَى من آلهةِ الشرك ، ولا لأنهم صنفوا الآلهة فى جبهتين ، جبهة الخير وجبهة الشر ، الضار والنافع ، وإنما أيضا وبالأخص هذا التنظير الذى استحدثوه فى عبادات الشرك ليجعلوا لها مغزى ، فقالوا بهذا " الصراع " بين إله الخير وإله الشر ، يُغالبُه حتى يَغْلبَه فى نهاية العالم .

ولكن المجوس بتجميعهم قُوَى الشر فى واحد، جعلوا من أَهْرِمَنْ عملاقا لا يُغالَب لابد لهم من تعظيمه حتى يَكُفَّ أذاهُ عنهم إن ضَعُفَ هُرْمَزداً عن نجدتهم أو تباطأ .

أما الذين أشركوا فهم يتعاملون مع آحاد آلهتهم فُرادى ، يضربون هذا بذاك ، فضلا عن أنهم لا يُشَخصُون الخيريَة أو الشرِّيَّة فى إله دون إله ، ليس من آلهتهم خَيْرٌ بذاته أو شرير بذاته ، بل الكل يقبلون الرشوة ، أى الأتاوات والقرابين . والكل أيضا خَرِبُ الذمة ، لا يبالى إلا بمن يُزايدُ عليه فيدفع أكثر . إنهم إن تمعنت جُنْدٌ مُرتَزِقَة لا آلهةٌ تُعْبد ، خُدّام لا سادة ، ولا خيرَ بالذات ولا شرَّ بالذات ، وإنما هما الضُرُّ والنَّفْع الفرديان هاهنا والآن تختار لنفسك ما يحلو وبيدك الميزان ، لا حاجةَ بك إلى هرمزدا أو أهرمن .

المجوس إذن هم الثُنَويَّة ، فرقة من الفرق الست يفصل اللهُ بينهم يوم القيامة .

ومن إعجاز القرآن فى أنباء القرآن أنه يُلخِّص لك فى الآية ١٧ من سورة الحج عبادات الخلق جميعا عصر نزوله وإلى يوم القيامة ، لا تخرج عن هذه الفرق الست ملَّةً من الملل ، مُتَدرَّجا بهم من الذين آمنوا ، أصحاب التوحيد الخالص ، إلى الذين أشركوا أصحاب الآلهة المتعددة المتضادة، يُحَجِّرونها أوثاناً وأصناما ، أو يتمثلونها فى "قوى الطبيعة" ، المياه والرياح والأفلاك والنجم والشمس والقمر ، والبراكين والصخر والشجر والجبل ، إلى آخر ما تعلم. ولا يخرج عن هذا بالطبع " المُبْطِلون" الذين يقولون ليس البتةَ من إله بل هو العالَمُ السائرُ بذاته ، بمحض قوانينه ، التدافُع والتضادُّ والتفاعل ، لأن إله هؤلاء المبطلين هو هذا " العالَم" بكل أشتاته ، ومن يُهِن اللهُ فما لَهُ من مُكرِم.

بين هذين الطرفين ـ الذين آمنوا والذين أشركوا ـ تجيء على التتابع الفرقُ الأربع : اليهود الذين هادوا ثم لم يَهودوا ، والصابئون الذين "مَلأكوا" النجومَ ثم جعلوها بينهم وبين الله وسائط ، والنصارى الذين وَحَّدوا ثم ثَلَّثوا ثم قالوا ثلاثةٌ فى واحد ، والمجوس الذين ثَنَّوْا فقالوا بإلهينِ اثنين على التضادِّ والتعانُد .

وهو ترتيبُ تنازلى للفرق الست ، من قمة التوحيد إلى حضيض الشرك .

والذى قضى على الثنوية والمُعَدِّدَة ، أى على المجوس والذين أشركوا ، بالحرمان من وعد الله دون وعيده ـ على ما مر بك فى مبحث الصابئين ـ هو غفلتهم جميعا عن مبدأ الخلق والإيجاد ، الذى لا يصح فيه إلا خالقُ غيرُ مخلوق ، واحدُ أحد تَفَرَّد بالألوهية لتفرده بالملك ، الرازقُ المانع ، الضار النافع ، المُنشىءُ المُعيد . ولكن الثَنَوىُّ والمشرك اكتفيا بالعالم عن صاحبه ، أى بالمصنوع عن الصانع ، وإن كانت كل ذرة فى أحياء هذا الكون وجماده تنطق بالذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ، والذى أحكم فأمضى ، القاهر فوق خلقه ، لا يُنازَعُ سلطانُه . كان أجدر بهذين ـ الثنوىِّ والمشرك ـ وقد غَفَلا عن الخالق المالك واكتفيا بهذا العالم عن صاحبه ، ألا يلتمسا غيره ، آلهةً من هذا العالم تُلاعبهم ويُلاعبونها . ولكن هذا أيضا من آيات إعجاز الخالق فيمن خلق ، الذى فَطَرهم على فطرةٍ لا يملكون منها فِكاكا : التماسُ " الإله " الذى يَدينون له بالعبادة ، حتى المُبْطِل الذى قال ليس البَتَّةَ من إله وهو محكومُ بقوانين هذا العالم ، يَسيرُ فى إِسارها ولا يَملِكُ الخروجَ عليها ، فَيُؤَلِّهَ العالم .

أولئك الذين استحبوا العَمَى على الهدى ، فَحَقَّت عليهمُ الضلالة .

□□□

لا شك أن فكرة الصراع بين الخير والشر فكرة ورثتها الأِفستَا عن شعراء اليونان ، الذين استهوتهم " مأساة" هذا الصراع الخالد المزعوم بين الخير والشر ، يُلَوِّنونها لك ألوانا ، ويحَبِّرُونها تحبيرا ، ويُشخِّصُونها لك حتى لتكاد تتوهم معهم أن فى هذا الكون قوتين فاعلتين لا ثالث لهما ، الخيرُ والشر ، نِدَان متصارِعان ، لا هَمَّ لأحدِهما إلا إيقاعُ الضُّر بك ، ولا شغل للآخر إلا السعىُ فى دفع الأذى عنك ، وكأنَّ ليس فى الكون إلا أنت ، لُعبَة يتقاذفانِها . وتبلغُ المأساةُ عندهم ذُروتَها بانتصار قُوى

الشر قَدَراً مقدورا ، ويتوارى الخيرُ مُثْخَناً بجراحه ، يَستجمعُ قُواهُ لجولةٍ قادمة ، وقَلَّما يكونُ الظَّفَرُ من نصيبه .

ومع أن الفلسفة والتفلسف ليسا من مقاصد هذا الكتاب ، فلا بأس بقسطٍ منهما لاستقصاءِ مدلول الخير والشر في أفهام الناس . فعند الذين آمنوا حق الإيمان يجيء الخير والشر بمعنى البر والإثم : البرُّ هو إتيان ما أمر اللهُ به واجتنابُ ما نَهى عنه والإثمُ هو اجتراح ما نَهَى اللهُ عنه وتعطيلُ ما أَمَر اللهُ به . والخيرُ والشرُّ عند هؤلاءِ أيضا ، إن أخذته بمعنى الضُّرّ والنفع ، أي النّعْمة والنقْمَة ، ليسا هما بذاتهما هذه أو تلك ، وإنما هما معا ابتلاءٌ من الله عز وجل : { **ونبلوكم بالشر والخير فتنة** } (الأنبياء : ٣٥) ، من شكر في النعمة وصبر في النقمة فهو خيرٌ له ، ومن بَطَر في النعمة وجَزَعَ في النقمة فهو شَرٌّ له ، ولكنه يَسألُ العافية ، لقوله صلى الله عليه وسلم وهو يناجي رَبَّه : "إلا يَكُن بك عَلَيَّ غَضَبٌ فلا أبالي ، ولكنَّ عافيتَك هي أَوْسَعُ لي". وهذا هو مُنتَهى الحكمة ، لأن الغايةَ الأُولى والعُظمى لا غايةَ غيرُها هي رِضوانُ الله عز وجل ، فالخيرُ والشر بيده تبارك وتعالى ، ولأَنْ يَرضى اللهُ عنك في النعمة وأنت شاكرٌ غيرُ بَطِرٍ أَهْنَأُ لك من أن يرضى اللهُ عنك في النقمة صابراً محتسبا ، قد جمعت في الأولى خيرَ الدنيا وخيرَ الآخرة . فلا شك أن الراحةِ أَهْنَأُ من التعب ، والفَرَح أهنأ من الحُزن ، واللذةُ أهنأ من الألم ، واليُسرَ أهنأ من العُسر . ولكن الله عز وجل أعلمُ بالذي هو خيرٌ لعبده المؤمن ، فيبتليه بالذي هو خيرٌ له ، القمينةُ نفسُه بالصبر عليه نِعْمَةً أو نِقْمَة ، لقوله عز وجل: { **إن ربك يبسط الرزقَ لمن يشاءُ ويَقْدِر إنه كان بعبادهِ خبيراً بصيرا** } (الإسراء : ٣٠) .

أما عند غير هؤلاء ، فالخيرُ والشرُّ عند عامة الناس هما الضُّرُّ والنَّفْع ، يعني مباهجُ هذه الحياة الدنيا أو مصائبُها ، مثل الغِنَى والفقر ، والصحةِ والمرض ، والقوةِ والضعف ، والرفعة والضَّعَة ، والنصر والهزيمة ، والسعادةِ والشقاء ، واللذةِ والألم ، والاستمتاعِ بالأهلِ والوَلَدِ والصديق أو المُصيبةِ في الأهلِ أو الوَلَد أو الصديق ، إلى آخرِ ما تعلم من خيراتِ هذه الدنيا وشرورها . أولئك هم أصحابُ العاجلة ، لا يَفطنون إلى ما وراء هذه الحياةِ الدنيا ، الذين نَسُوا الغاية من وجودهم فيها : لم يجيئوها للتلذُّذِ والتَّنعُّم ، وإنما جاءوها لِيُفْتَنُوا فيها ، ثم ليشهدَ كُلٌ على نفسه بما

قَدَّمت يداه . قال عز وجل فى أصحاب العاجلة : { **من كان يريد العاجلة عَجَّلْنا لَهُ فيها ما نشاءُ لمن نُريد ثم جعلنا له جَهَنَّمَ يصلاها مذموماً مدحورا. ومن أراد الآخرة وسَعَى لها سَعْيَها وهو مؤمن فأولئك كان سَعْيُهم مشكورا. كُلاً نُمِدُّ ، هؤلاء وهؤلاء، من عطاء ربِّك، وما كان عطاءُ رَبِّكَ محظورا** } (الإسراء : ١٨ ـــ ٢٠) . أصحاب العاجلة أَقْمَنُ أن يُضَحوا بالخيرِ الأعظم، رضوانِ اللهِ عز وجل ، ليشتروا به فى هذه الدنيا ثَمَناً قليلا ، قد غَفَلُوا عن أن متاعَها متاعُ الغُرور ، فالموتُ آتٍ والحسابُ قريب، والساعَةُ كَلَمْحِ البصرِ أو هى أقرب .

ومن الناس أيضا فلاسفةُ شعراء ، الخيرُ والشرُّ عندهم قَضاءُ أعمى، بل هم بالأحرى لا يرون فى هذا العالم إلا شَرّاً، سواءً فى هذا "الشرُّ الكونيُ" من أمثال القَحْط والفيضان والمجاعات والزلازل والبراكين التى تُهْلكُ الحَرْثَ والنسل ، أو " الشرُّ الاجتماعِيُّ " المتمثلُ فى إفسادِ الطغاة البُغاة الظَّلَمَةَ . نَسِيَ هؤلاء أن هذا العالم مُسَيَّرٌ بقوانينه الطبيعية والاجتماعية ، كل شيءٍ فيه بقَدَر ، أى موزونٌ بميزان ، مقصودٌ مُتَعَمَّد ، سلاسلُ أحداث يركبُ بعضُها رقابَ بعض ، ويُفْضِي بعضُها إلى بعض . إن سَخطْت على " الشرِّ الاجتماعى" أى الظلمِ والإفساد ، فلا تنس أنهما بفعلك أنت ظالماً كُنْتَ أو مظلوما : إن كنت الظالمَ فما عليك إلا أن تَكفَّ النفسَ عن الظلمِ والإفساد. وإن كنت المظلومَ المَبْغيَّ عليه فلأنك تخاذلت وجَبُنْت عن نُصْرَةِ الحقِّ والعدل أو تموتَ دونَهُما شهيدَ الحقِّ والعدل. أما" الشرُّ الكونى" الذى لا ترى غيرَه فى هذا العالم، الذى تُسميه كوارثَ طبيعيةً تُهْلكُ الحَرْثَ والنسل، فهو فعْلُ " الكونِ" فى نفسه، لا سائلَ ولا مسئول، بل يُهلِكُ اللهُ بعضَ الناس بذنوبهم أو يَتَّخذَ منهم شهداء، ويُرى الخَلْقَ آياته، لتتعظَ أنت وتعتبر. ولكنك أيضا جاحد، تَغْمط حَقَّ هذا "الكونِ" عليك وأنت بَعْضُ ترابِه، المُنَعَّمُ فى خيراته، تَجْأَرُ فى الضَّرَّاء، والسَّراءِ ملءُ حياتك. وماكان اللهُ ليصنع هذا العالَم على حَسب دِماغك، وإنما جاء بك الى هذا العالم على ما هو عليه لِيفْتنَكَ فيه، وما أنت فيه بمُخَلَّد، فلا تتبطر وابتغِ إلى الله سبيلا. قال عز وجل: { **ومِنَ الناس من يعبد اللهَ على حرف، فإن أصابَه خيرٌ اطمأنَّ به، وإن أصابته فِتْنَةٌ انقلبَ على وجهه، خَسِرَ الدنيا والآخرة** } (الحج:١١).

ثَمَة أيضا فلاسفةٌ يَرَوْنَ ، لنكَدٍ فيهم ، أن هذا العالم ليس هو أفضلَ العوالم الممكنة ، يعنون أن اللهَ كان يستطيع خَلْقَ هذا العالم أكثر كمالا وأقلَّ نقصا ، فالخيرُ والشرُّ عندهم بمعنى الكمال والنقص. ولا بأسَ بهذا بالطبع إن أُرِيدَ به التنويهُ بقدرة الله عز وجل اللامتناهية على الخلق والإبداع ، لا حدودَ لكلماته تبارك وتعالى. بل لا شك أن جَنَّات عَدْنٍ التى عَرْضُها السمواتُ والأرض أفضلُ من هذا العالم بما لا يُقاس، كما أَخْبَرَ عز وجل . ولكن هذا القائل وأمثاله لا يقصدون هذا، وإنما يُنَصِّبُون أنفسَهم نُقَّاداً لإعجازِ الله فى خلقه فيقولون ان هذا العالم الذى نعيش فيه ليس مَبَّراً من النقص، بل مَلِيءُ بعيوبٍ كان يُمْكِنُ تلافيها ، بل لا يخلو من أوجه خَلَلٍ تُشَوِّهُ النظام، ثم يتطاولون والكُفْرُ ملءُ أشداقهم بأنه لا يَصِحُّ الاستدلالُ بهذا العالم على خالقه إن كان ثمة خالق ، لأن الناقص لا يَخْرُجُ من الكامل . وتستطيع بالطبع أن تَرُدَّ بأن هذا القائل أعمى أو جاهل ، وأن ما يراه هو نقصا بضآلة علمه وكلال بصره ليس إلا مَحْضَ الكمالِ والجمالِ والإحكام ، على مقتضى مقصوده عز وجل، وأن هذا القائل بحاجةٍ قَبْلَ غيرِه إلى قراءة القرآن وإن لم يكن من أهل القرآن، ليستدل على إعجاز الخالق فيما خلق ، فليس فى الكتب السابقة من هذا شىء، وليتوقف طويلا عند قوله عز وجل: {**تبارك الذى بيده المُلك وهو على كل شىءٍ قدير . الذى خَلَقَ الموتَ والحياة لِيَبْلُوكُم أيُّكمُ أَحسنُ عملا، وهو العزيزُ الغفور. الذى خلق سبعَ سمواتٍ طباقا ما تَرَى فى خلق الرحمن من تفاوت، فَارْجِعِ البَصَرَ هل تَرَى من فُطور . ثم ارْجِعِ البصر كَرَّتَيْنِ ينقلبْ إليك البَصَرُ خاسئاً وهو حسير** } ‹الملك : ١ــ ٤› .وتقول له أيضا من القرآن : { **هذا خَلْقُ الله ، فَأَرُونى ماذا خَلَقَ الذين مِنْ دونه** } ‹لقمان : ١١›. ولكنك تعلم أن على قلوبِ هؤلاء غِشاوة ، فتختصر الطريق وتقولُ لهذا القائل : إن لم يُعْجِبْكَ هذا العالَم فلتخرجْ منه . وما هو بخارج . فليس له بعد هذا العالَمَ عالَم . إلا النارُ وبئس مَثْوَى الظالمين .

وتستطيع أن تقول ان هذا العالم لو خلا من أحيائه فكان كوكباً قَفْراً كغيره من كواكب السماء ، لما كان ثمة معنى لخيرٍ أو شر . فما شأنُ بركانٍ يثورُ فى كوكبِ الزُهَرة ، أو زلزالٌ تنقصِفُ لَهُ الجبالُ فى زُحَل ؟ بل ما شأنُ ما وقع على هذه الأرض نفسها حِقَباً متطاولةً وهى تتشكلُ وتتهيأ لاستقبال الأحياءِ عليها ؟ لا خيرَ ولا شَرٌّ

بالطبع ، فليس هناك كائنٌ يُدْرِكُ ويُحِس ، يَتَّقِي الضُّرَّ ويتحرى النفع . بل ليس ثمة ذاتٌ تَعْقِلُ خيراً أو شرا . الإنسانُ هو وحده المَعْنِيُّ بالخير والشر .

وتستطيع ان تقول أيضا ان الخيرَ والشرَّ نسبيان، أى محكومان بالغاية والمآل، ما هو خيرٌ لهذا فهو شَرٌّ لذاك ، فالموتُ جهاداً فى سبيل الله عز وجل خَيْرٌ لا شك فيه ، بل هو الخير ، والموتُ صَدّاً عن سبيل الله أو إعلاءً لباطل شَرٌّ لا شك فيه ، وكلاهما مَوْت .

الذين آمنوا بالله عز وجل حق الإيمان ، ثم اتَّقَوْهُ حَقَّ تُقاته ، هم وحدَهم الذين فَهِمُوا حقيقة الخير والشر ،إذا أَمَرَهُم صَدَعوا ، وإذا نهاهم انْتَهَوا :الخيرُ فى طاعته عز وجل ، والشرُّ فى معصيته .

وهم أيضا أصحابُ اليقينِ الثابت أنَّ خالقَ كُلِّ شيءٍ هو نفسه خالقُ كُلِّ فِعْل ، لا فاعلَ في كونه غيرُه، ولا وَلِيَّ من دونه ، يبتليهم بالخيرِ والشرِّ فتنة ، وإليه يُرْجَعُون .

أما أصحابُ الأقستا فقد لَبَّس عليهم إبليسُ أن يتقوا بَأْسَه ، لأنه رَبُّ الشرورِ فى هذا العالم ، فَنَصَّبُوهُ إلها .

□□□

وربما قيل لك أفليس " أَهْرِمَنْ " هذا عند المجوس هو نفسه " إبليس" فى عقيدة المؤمنين بالواحد الأحد . وأليس " هُرْمَزْدا " إلهُ الخيرِ عندهم هو نفسه الله عز وجل ، فماذا تُنْكِرُ من عقيدةِ المجوس ؟

لا مقارنَة البتة . فى المجوسية لا خالقَ ولا مخلوق ، بل العالمَ مسرحٌ لا يُعْرَفُ صاحبُه لمباراةٍ بين نِدَّيْنِ وَفَدا عليه، يتواثبانِ ويتغالبان ، وباقى الخَلْقِ نَظَارة ، يتقربُون إلى هذا أو ذاك بالهُتاف ، أى بالخضوع والعبادة .

ما كان الخاسىءُ الذليل، يوم خرج من الجنة مَذْءوماً مدحورا ، ليَطْمَعَ من بنى آدمَ فى مثل هذا : أن يكون له نصيبٌ فى عبادتهم ،إلهاً مع الله، أو يتصوروه لله نِدّاً يُصاوِلُه ، ويُبادِلُهُ الضَّرَبات .

كان مُنتهى أمله يومَ انتصبَ لعداوةِ آدمَ وبنيه ـ ليس فى جعبته سَهْم إلا الإيهامُ والتلبيس ـ أن يصيبَهم ببعض سَخَطِ الله عليه، فلا يَجدَ اللهُ أكثرهم شاكرين : { **قال أنظرنى إلى يوم يُبْعَثون.قال إنك من المُنْظرين. قال فبما أغويتنى لأقْعُدَنَّ لهم صراطَكَ المستقيم. ثم لآتِيَنَّهُم من بينِ أيديهم ومن خَلْفِهم وعن أيمانِهم وعن شَمائلِهم ولا تَجِدُ أكثرَهم شاكرين** } (الأعراف : ١٤ ــ ١٧) ، وإذا هم يجعلونه كُفُواً للهِ عز وجل ، ويُتَوَجُونَهُ "أميرَ الظلام" رئيساً لهذا العالم إلى نهاية العالم .

أفقد كان إبليسُ يطمع فى أفضلَ من هذا وقد عَلِمَ من قبل أنَّهُ مَقْضِيٌّ عليه ، لا حَظٌّ له فى الآخرة إلا العذابُ الأكبر ؟

هذه "الأفِسْتا" وثيقةُ استسلامٍ للشيطان فى هذا العالم يفعلُ فيه ما يريد .

كان عصرُ تدوين الأفِسْتا وما قبله وتلاه، عصرَ شقاءٍ وآلام طحنت فى نفوس الناس كُلَّ أملٍ فى خلاصٍ قريب. ولو أنصفوا لعلموا أن هذا الشر من أنفسهم، والبغاة هم ، والطغاة منهم ، والعلاج بأيديهم. ولكن قَعَدَت بهم هِمَّتُهم ، فجلسوا فى الظل ينتظرون " المُخَلِّص" ، ويُؤثرون السلامةَ فى التسليمِ للباطل ، بحجةٍ زَيَّنُوها لأنفسهم : تلك حربٌ بين الخيرِ والشر ، بين النور والظلام ، بين هرمزدا وأهرمن ، لا ناقةَ لنا فيها ولا جمل ، فلينتصر هرمزدا لنفسه أو يَدَعَ ، ولن ينتصرَ هرمزدا إلا فى نهايةِ العالم .

تَجِدُ قريباً من هذا فى الفكر الإنجيلى الذى ينتظر مجىء الملكوت :" أبانا الذى فى السموات ، ليتقدس اسمُك ، ليأتِ ملكوتُك ، لتكن مشيئتُك كما فى السماء فكذلك على الأرض " (إن فَهِمْتَ الملكوتَ بمعناها فى الأصل اليونانى Basileia أى المُلك والمملكة) أى قد انفرد الشر ، إبليسُ أو أُهْرِمَن ، بالمُلكِ والمشيئة فى هذا العالم حتى مجىء الملكوت فى نهاية العالم ، وكَأَنَّ ليس للهِ على هذه الأرضِ مشيئة . وقد رَدَّ القرآنُ على هذا بقوله عز وجل : { **وهو الذى فى السماء إلهٌ وفى الأرضِ إله** } (الزخرف : ٨٤). تجد أيضا فى الأناجيل أثارةً من تعظيم إبليس فى تسميته " رئيس هذا العالم " (يوحنا ١٤/ ٣٠ و ١٦ /١١) ، وفى الإشارة إليه بعبارة " سلطان الظُّلْمَة " (لوقا ٢٢/٥٣)، وهى قريبةٌ من وصف أهرمن روح الشر أمير الظلام .

أفاسْتَقَت الأناجيلُ من الأفْسْتا أم استقت الأفستا من الأناجيل؟ لا هذا ولا ذاك، بل شاعت فى الناس فكرة " الخلاص المجانى" لا الخلاص بأيديهم هُمْ ، أى الخلاصُ بمُخَلِّص ، لا الخلاصُ بالإيمانِ والعمل الصالح .

□□□

ليس الخير والشر ذاتين حتى يَتجسَّدا فى آلهةٍ أو غيرِ آلهة بينهما صراعٌ ونزال بل هما معا فعْلُكَ أنت ، إن خيراً فخير وإن شَرّاً فشر . الخيرُ بالذات هو الإيمانُ والعملُ الصالح ، والشَّرُّ بالذات هو الكُفرانُ واجتراحُ السيئات . والصالحاتُ هى ما أُمِرْتَ بِهِ فى وَحْيِ الله على رُسُله ، والسيئاتُ هى ما نَهاك عَنْهُ هذا الوحى . وليس بعدَ هذا فى الحياةِ الآخرة إلا رِضوانُ الله أو سَخَطُه .

وليس للشيطان صراعٌ مع الله عز وجل ، تعالى اللهُ عن ذلك عُلُواً كبيرا . وإنما صراعُ الشيطانِ معك أنت ، يُضلُّكَ عن سبيل الله ، فَيُعميك عن الحسنة ويُزَيِّنُ لَكَ السيئة ، حتى إذا قُضِيَ الأمر راح يُبكِّتُ أولياءَه الذين يُنْحون عليه باللائمة يومَ الحساب ، فيقولُ لهم ما قاله القرآنُ على لسانه : { **وقال الشيطانُ لما قُضِيَ الأمر إن الله وعدكم وَعدَ الحقِّ ، ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لى عليكم من سُلطانٍ إلا أن دَعَوْتُكم فاستجبتم لى ، فلا تلومونى ولُوموا أنفسكم ، ما أنا بمُصْرِخِكُم وما أنتم بمُصْرِخِيَّ ، إنى كفرتُ بما أشركتمونِ من قبل ، إن الظالمين لهم عذابٌ أليم** } (إبراهيم : ٢٢)، يعنى أنه كافرٌ بما أَضَلَّهُم به ، يُنكِرِ أنْ يكونَ ثَمَّةَ إلهٌ مع الله . وكفى بهذا حسرةً وتحسيرا .

هذا الفكرُ الصبيانى ، أعنى تَصَوُّرُكَ الله عز وجل طَرَفاً فى صراعٍ أو نزالٍ بين الخير والشر ـ وإن جَمَّلَتْهُ الأفستا بانتصار الله ("هرمزدا " إله الخير) فى نهاية العالم ـ فكرٌ مريض ، بل هو كفرٌ صَراح ، ليس لأن هذا العالم كما يراه المتفائلون خيرٌ كله أو كما يراه المتشائمون شرٌّ كله ، بحيث ينعدمُ التضادُ فيمتنعُ الصراع ، وإنما أصلا وبالذات لأن الفاعل الأوحد فى هذا الكون كله ، النافذةَ فيه مشيئتُه ، هو اللهُ عز وجل وحدَه ، لَهُ الخلقُ والمُلكُ والأمر ، لا يقع فى ملكه شيءٌ دَقَّ أو عَظُم إلا بإذنه ، يعنى بعلمه وتمكينه وإنفاذه ، إن شاءَ أَمْضَى وإن شاءَ مَنَع ، لا حولَ ولا قوةَ إلا به .

أما أنه عز وجل لا حولَ ولا قوةَ إلا به، فهذا لأنه تبارك وتعالى هو المُخَوِّلُ المُمَكِّن ، لا يقعُ فعلٌ فى هذا العالم إلا بوسائطَ وأدوات هو خالقُها ومالكُها ومانحُها ، يُؤتيها من يشاءُ من خلقه وينْزِعُها ممن يشاء ، حتى البصائر والجوارح .

وهى كما تعلم وسائطُ وأدوات مُسَخَّرَة ذلول بتمكين الله عز وجل إياك: لاتعصاك قدماك إن مشيتَ بهما إلى طاعةٍ أو معصية ، ولا تعصاك يَدٌ بطشْتَ بها باغياً أو مَددتَها لتُقيمَ مُعْوَجًّا ، ولا يمتنعُ عليك لسانٌ أسْكَتَّهُ أو أنطقَتهُ حقاً أو باطلا، ولا يمتنعُ عليك مالٌ وضعتَهُ فى معروفٍ أو ولَغت به فى منكر، ولا يمتنعُ عليك سلطانٌ مُكِّنْتَ فيه أن تُسَخِّرَهُ فى إعلاء كلمة الحق والعدل أو تَعيث به فى الأرض فساداً تَركَبُ رِقابَ الناس ظُلْماً وعُلُواً. بل لا يمتنعُ عليك عقلُك إن استهديتَهُ فهداك أو استغويتَهُ فغواك ، ولا يمتنعُ عليك ضميرُك إن استيقظتَه فسَمعْتَ له وأطعت ولم تُحَكم فيك هواك . أنت ها هنا فاعلٌ مريدٌ ذو اختيار ، مُمَكَّنٌ فيما مَكَّنَكَ الله .

ولكن هذا كله ـ التمكين والإنفاذ ـ مُعَلَّقٌ بمشيئته عز وجل إن شاء أمضى وإن شاء منع : لا تتحقق للخلق فى هذا الكون مشيئةٌ إلا مشيئةٌ شاءَ لها اللهُ أن تتحقق ، يعنى لا يَخْرُجُ فِعْلُ الخلقِ من حَيِّزِ الفكر إلى حَيِّزِ التحقق إلا بإمضاء الله عز وجل ، على الوجه الذى أرادَهُ تبارك وتعالى . وهذا هو الفَهْمُ الجيد لقوله عز وجل :{ **وما تشاءون إلا أن يشاء الله، إن الله كان عليما حكيما** } (الإنسان : ٣٠)، يعنى لا "يتشيأ" شىءُ مما شِئتموه إلا بتشيئةِ اللهِ عز وجل إياه .

فهل بقيت للخلق فى هذا الكون إرادة؟ نعم، وبها وحدها أنت المحُاسَبُ المسئول : إرادةُ الخير الذى علّمك الله فى وحيه على رسله، تُصِرُّ عليه وتَبْذُلُ فى سبيله قُصارَى جهدِك، واتقاءُ الشرِّ الذى نُهيتَ عنه فى وحى الله على رسله، تَكُفُّ النفسَ عنه وتجاهدُه بما فى وُسْعِك. يعنى أن تكون جندياً لله عز وجل فى أرضه، تستهديه وتستعينه وتتوكل عليه. ولا عليك بما يُحْدِثُهُ اللهُ من بعد : شِئْتَ وشاء الله ، واللهُ عز وجل بالغُ أمْرِه .

□□□

وربما قال لك المُعاند : وهل بَقِيَ لى فعلٌ فى ظلِّ هذا القَهرِ العام ؟ فماذا لو أردتُ الخيرَ ولم يُرِد لى اللهُ أن أريده ؟ ماذا لو أردتُ الهُدى وشاء لى الضلال ؟ بل ماذا لو أردتُ طاعتَه واجتنابَ معصيته وأراد هو لى عصيانَهُ والفُسوقَ عن أمره ؟ فهل لى من الأمرِ شىء ؟

هذا القائل يَغُشُّ نفسَه ، يجادلُكَ أنت بها ولا يجادلُ ربَّه . فقد عَلِمَ هو من قبل أنه ما أراد الخيرَ قط واستعان اللهَ عليه إلا أعانه ، وما طَلَب الهُدى مخلصاً قط إلا ثَبَّتَ اللهُ عليه قلبَه ، وما دَخَل مخلصاً فى طاعةٍ قط فأخْرَجَهُ اللهُ منها إلى معصية .

إنما يقول هذا الذين يجترحون السيئات بعد أن يجترحوها ، يُزَيِّنونَ لأنفسهم سيئاتِ ما عملوا . وهذا أقبحُ الفسوق والعصيان ، لأن قائله لا يكتفى بركوب المعصيةِ ولكنه أيضا يستزيدُ من الإثم فينسب الأمر بالمعصية لله عز وجل ، لا لنفسه وإبليسه . وهو افتراءٌ على الله عز وجل يُراد به معذرةُ إبليسَ وأولياءِ إبليس . بل هى نفسُها مقولةُ إبليس يوم فسق عن أمر ربه فى فتنة الأمر بالسجود لآدم فحَقَّت على إبليسَ اللعنة لمحض عصيانه ، لا لخطئه فى تفضيل نفسه على آدم ، فما كان الله ليحاسب أحداً من خلقه بضآلة علمه وكلال بصره ، وإنما هو يحاسبه بطاعته أو بعصيانه قال إبليس لما حَقَّت عليه اللعنة : { **قال رب بما أغويتنى لأُزَيِّنَنَّ لهم فى الأرض ولأُغوِيَنَّهم أجمعين . إلا عبادك منهم المُخْلَصين . قال هذا صراطٌ علىَّ مستقيم . إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ، إلا من اتبعك من الغاوين . وإن جهنَّمَ لموعدُهم أجمعين** } (الحجر : ٣٩ ــ ٤٢) . تجد إبليس هاهنا ينسب ضلالته إلى الله عز وجل ، يعنى أن الله كان يريد منه عصيانه فأغواهُ عن طاعته . ولو كان إبليسُ مصيباً فى قوله لكان مطيعا لله فى عصيانه ، وكأنه قيل له : آمُرك بالسجود يا إبليس فاعْصنى ، أو اسجدُ يا أبليسُ ولا تسجد ، أىَّ الأمرينِ فعلت فأنت فى طاعتى ! وهذا هو العَتَهُ بعينه . وإلا لكان إبليسُ مستحقا ثوابَ اللهِ بعصيانه، لا الطردَ واللعنَ والإياسَ من رحمة الله كما أخبر القرآن.

وقد علَّمك اللهُ من نبأ إبليس ليكشفَ لك أمره كى تتعظَ بمصيره إن كنتَ من عباد الله المُخْلَصين الذين ليس لإبليسَ عليهم سلطان ، لا لتُرَدِّدَ قوله وتحذو حذوه وتَأْتَمَّ به ، شأنَ الذين اتبعوه من الغاوين فكان موعدهم جهنم أجمعين ، يحملُ إبليسُ لواءهم إلى النار وبئس القرار .

والذى ينبغى التنبيه إليه لا يُمَلُّ من ترديده ، أن الذين أكرمهم اللهُ بوحيه لا يَرَوْنَ الخيرَ خيراً لخيريَّةٍ فيه ، ولا يَرَوْنَ الشرَّ شراً لشَرِّيَّةٍ فيه ، وإنما الخيرُ بالذات صار عندهم خيراً لأنه المأمورُ به ، والشَّرُّ بالذات صار عندهم شَراً لأنه المَنهِيُّ عنه . والله عز وجل عند هؤلاء مُؤْتَمَن، لا يأمرُهم إلا بما هو خيرٌ لهم ، ولا ينهاهم إلا عما هو شَرٌّ لهم. من هنا استقر عند الذين آمنوا حَقَّ الإيمان ، أى عباد الله المُخْلَصين الذين لا حيلةَ لإبليسَ معهم ، أن الخيرَ كُلَّ الخيرِ فى الطاعة ، وأن الشَّرَّ كُلَّ الشرِّ فى المعصية، قد سَلَّموا بقوله عز وجل : { **وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خيرٌ لكم وعسى أن تُحِبُّوا شيئا وهو شَرٌّ لكم، والله يعلمُ وأنتم لا تعلمون** } (البقرة : ٢١٦). إنه إسلامُ الوجه لله ، تَصْدَعُ بأمره مُريداً غيرَ كارِه ، تستهديه وتستعينُه وتتوكل عليه. أولئك جُنْدُ اللهِ قد اختاروا قائدهم .

هذا القائلُ "ليس لى من الأمر شىء" منافقٌ لا يعبدُ اللهَ مخلصاً له الدين . لو أراد الخيرَ لالْتَمَسه فى الطاعة ، ولو أطاعَ اللهَ حَقَّ طاعته يُسارِعُ فى أمره لأَمِنَ الضلالة ، فاللهُ عز وجل لا يخادِعُ الذين آمنوا به حَقَّ الإيمان ولا يُضِلُّ جُنْدَه ، ليس لأن الذى بيده ملكوتُ كل شىء لا يَمْلِكُ الهُدى والضلال ، وإنما فحسب لوعده عز وجل : {**ويَزِيدُ اللهُ الذين اهتدوا هُدَىً**} (مريم : ٧٦) ، وقوله عز وجل : {**والذين اهتدوا زادهم هُدَىً وآتاهم تقواهم** } (محمد : ١٧) . يعنى أن نقطة البداية هى الكفرُ أو الإيمان ، وهى لك وحدك لقوله عز وجل : { **فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** } (الكهف : ٢٩) . وما بعدها مترتبٌ عليها ، الذين كفروا يَزيدُهم اللهُ ضلالاً إلى ضلالتهم : { **ولا يَزيدُ الكافرين كُفْرُهم إلا خَسارا** } (فاطر : ٣٩) {**فى قلوبهم مرضٌ فزادهم اللهُ مرضا**} (البقرة : ١٠)، والذين آمنوا يزيدهم الله هُدَىً إلى هُداهم كما مر بك . وهو عز وجل لا يزيدهم هُدَىً فحسب، وإنما هو أيضا " يُؤتيهم تقواهم" كما رأيت فى الآية ١٧ من سورة محمد ، أى يُسَلِّحُهم بما بِهِ يتقونَه، أى الإِخبات والخشية ، لا يخشون إلا إياه ، ولا يتقون سواه ، فلا يَضِلُّوا من بعد .

هذا هو مقطع الفصل فى فهم قوله عز وجل : { **واعلموا أن الله يَحُولُ بين المرءِ وقلبه**} (الأنفال : ٢٤) ، { **من يَهْدِ اللهُ فهو المُهتَد ومن يُضلِلْ فلن تَجِدَ لَهُ وليّاً مُرشِدا** } (الكهف : ١٧) ، { **كذلك يُضِلُّ اللهُ من يشاء**

ويَهْدِى من يشاء } (المدثر : ٣١) وأمثالها فى كل القرآن ، الذى تشابَهَ على المتفلسفة وأهل الكلام فخاضوا ، وهو مقيدٌ بما تلوناه عليك آنفا ، مُفَسَّرٌ بقوله عز وجل : { **إن ربك هو أعلمُ بمن ضَلَّ عن سبيله وهو أعلمُ بالمهتدين** } (القلم : ٧) . وفى هذا القدر كفاية ، والحمد لله .

أما أنت بالذات أيها القائل "ليس لى من الأمر شىء" فأنت وما قُلْت : ليس لك من الأمر شىء ، إلا أن تَرْعَوِى فتندمَ وتتوب ، ليس لك إلا هذا ، وإلا فقد حَقَّت عليك الضلالة .

□□□

يترتب على ما تقدم أن إبليس ، أو الشيطان ، أو " أُهْرمَن " ، أو ما شئْتَ من أسمائه ، لا فعْلَ له فى هذا العالم إلا ما استمهلَ اللهَ من أجْله لا يَمْلكُ غيرَه ، أى الغوايةُ والإضلال ، لا سلطانَ له إلا على الذين اتبعوه ، فهو وهم فى سواءِ جهنم .

والذى ينبغى التنبيهُ إليه لا يُمَلُّ من ترديده ، الذى يَذْهَلُ الناسُ عنه فى خِضَمِّ هذه الحياة وصَخَبِها ، أن هذه الدنيا ليست بدار شقاءٍ أو دارِ نعيم ، وإن شَقِىَ فيها بعضُ الناس أو نَعِمُوا ، وإنما هى "دار الفتنة" ، أى الاختبار والتمحيص ، كلهم مفتونٌ مُختَبَرٌ مُمَحَّص بما أوْسَعَ لَهُ الله أو ضَيَّق ، رَفَعَهُ أو خَفَضَه ، عافاهُ أو أَسْقَمَه ، سَرَّهُ أو أَحْزَنَه ، أعطاهُ أو حَرَمه ، بَسَطَ لَهُ فى الرزق أو أمْسَك . ليس فى هذا أو ذاك خيرٌ أو شر ، فما جئْتَ هذه الدنيا لهذا أو ذاك، وإنما جِىءَ بك إليها لتُفْتَنَ بهذا أو ذاك فتخرج منها بما عَمِلْتَ فيها إلى دار البقاء . إن فَهِمْتَ الخيرَ والشر بمعنى النفع والضُّر فى هذه الدنيا فأنتَ مخطىء، إلا نفعٌ أو ضُرٌّ ينفعك أو يَضُرُّك فى دار البقاء.

على أن النفع والضر بمفاهيم هذه الدنيا هما أيضا بيد الله عز وجل : { **وإن يَمْسَسْكَ اللهُ بضُرٍ فلا كاشفَ له إلا هو ، وإن يُرِدْك بخيرٍ فلا راد لفضله** } (يونس : ١٠٧) . بل هما معا على سواء ابتلاءُ من الله عز وجل : {**ونبلوكم بالشرِ والخير فتنة ، وإلينا ترجعون** } (الأنبياء : ٣٥) قد شَهِدَ كُلٌّ على نفسه وقامت البينة : { **ليهلِكَ من هَلَكَ عن بينة ويحيى من حَىَّ عن بينةٌ** } (الأنفال : ٤٢) . **يفتنُ اللهُ من شاء بالنعمة ، ويفتن من شاء بالنقمة، والمقصودُ فى الحالتين هو الفتنة ، أى الاختبارُ والتمحيص .**

وهو عز وجل أيضا يَفْتِنُ بعضَ خلقه ببعض خلقه : فتنةُ القوى بالضعيف وفتنة الضعيف بالقوى ، فتنة العالم بالجاهل وفتنة الجاهل بالعالم ، فتنة المظلوم بالظالم وفتنة الظالم بالمظلوم ، وفتنة الذين آمنوا بالذين كفروا ، وفتنة بنى آدم بإبليس .

وينفرد إبليسُ فى هذه الحياة الدنيا من دون الخلق جميعا (ولا تنس أن إبليس خَلْقٌ من خَلْقِ الله) بأنه فاتنٌ غيرُ مفتون . فقد هَلَكَ إبليسُ من قبل فى فتنته بآدم يومَ فسق إبليس عن أمر ربه فتأبَّى على السجود ، لا فتنةَ له من بعدها يُفْتَتَنُ بها ، فقد تَمَحَّصَ واختُبِرَ وحوكم وأُدين قضاءً غيرَ مردود ، لا يملك الإتيان بصالحةٍ تخفف عنه العذاب ، لأن الله عز وجل لا يُجرى الصالحات على يد كافرٍ مُصرٍ على عصيانه قد باء بالإثم الأكبر - عصيان الله عز وجل فى حَضْرَتِه كفاحاً دونَ وسيط [1] فلا تزيدُه فتنتُه الخَلْقَ فى هذه الدنيا إثما على إثمه ولا تزيده عذابا وهو محكومٌ عليه بأشدّ العذاب . ما هو بنافعٍ أولياءَه وما هم بنافعيه ، بل هو وهم سواءٌ فى النار ، قد أرجأ اللهُ عذابَه إلى يومِ يُبعثون ، ليكون بعضَ أدواته عز وجل فى فتنة الخلق بالخلق اختباراً وتمحيصا . وقد تَمَنَّى إبليسُ على اللهَ هذه المهلة عالماً أنها لا تُجديه شيئا بعد ما حَقَّت عليه اللعنة التى لا فكاكَ منها ، وكأنه أراد ألا يَسْبِقَ أولياءَهُ إلى النار وإنما يدخلها مع الداخلين يحملُ لواءَ العُصاة ، فكان له ما تَمَنَى . وقد كان اللهُ عز وجل ، فى تمحيص عباده بالخير والشر فى هذه الدنيا غنياً بالطبع عن هذا الدور الذى تمناه إبليس لنفسه ، فالله عز وجل قادرٌ على فتنة الخلق بما شاء وكيفما شاء ، وقد فَتَن إبليسَ نفسه بغير إبليس . ولكنه عز وجل - رحمةً بعباده - شاء أن يكون "رئيسُ فتنتهم" عدواً افتُضِحَ عندهم بعداوته لأبيهم آدم : { **يا بنى آدم لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشيطانُ كما أَخرجَ أبويكم من الجنة** } (الأعراف : ٢٧) ، إضعافاً لكيده ، وفَضْحَاً لفتنته، فَيُصمُّوا الأُذُنَ عن وسواسه ، إلا الذين يختانون أنفسهم ، فلا عُذْرَ لهم عند الله عز وجل بعدَ الوحىِ ولا معذرة .

إبليسُ فى هذه الدنيا كالذى مات فانقطع عمله ، مات يومَ لُعِن . وإنما الذين يَسْتَحْيُونَهُ هم الطُوَّافون على قبره ، المتعبِّدون فى ضريحه ، النافخون فى رَمادِه لتحرِقَهُم ناره .

□□□

(١) " كفاحا" يعنى مواجهة ، ودون وسيط يعنى دون توسط مَلَكٍ أو نبى أو رسول ، فإبليس عَصَى وهو مُعاين ، لا يملك التعلل بتكذيبِ وسيط .

وإذا كان لا فعل لإبليس فى هذه الدنيا إلا الغواية والإضلال ، فهو أيضا فعلٌ غيرُ نافذٍ فيك إلا باستجابتك أنت إليه : { **وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى** } (إبراهيم : ٢٢) ، واستجابتُكَ هى فعلُك أنت ، لا وزْرَ فيها على إبليس ، بل أنت بها وحدك المسئولُ المحاسب . لا تتمحَّك بإبليس وقد حَذَّرَكَ اللهُ منه ، ولَقَنَكَ الاستعاذةَ بالله منه ، وعلَّمَك اللهُ إنْ زَلَلْت فَضَلَلْتَ بإبليس كيف تستغفرُ وتتوب ، وسَنَّ لك العباداتِ التى تجعلك على ذكرٍ من ربِّكَ لا يغيب ، فتأمن الفتنةَ والضلال ، وطَمْأنك بأنه لا سلطانَ لإبليسَ إلا على الذين يتولَّونَه ، لا سلطانَ له على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون : { **إنه ليس له سلطانٌ على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانُهُ على الذين يتولَّونَه والذين هم به مشركون** } (النحل : ٩٩ ـــ ١٠٠) .

هذا " الشرْك " المَعْنِىُّ فى الآية ١٠٠ من سورة النحل ، هو تعظيمُ إبليس ، اتقاءَ بأسه واستجداءَ رضاه ، الذى لا يَملكُ لك ولا لنفسه ضَرًّا أو نفعا ، إلا ما شاء الله الذى خلقَك وخلق إبليس وخلق السموات والأرض وما فيهن من دابة ، فتترك تقوى الله إلى اتقاء إبليس، وتترك عبادة الله الواحد الأحد إلى عبادة إبليس الذى وضعه الله أسفل سافلين: أَهَنْتَ نفسَك فأهانَك الله، ومن يُهن اللهُ فما له من مُكرِم.

هذا "الشرْك" ـ الذى هو عبادةُ تلك المجوس أصحاب هرمزدا وأهرمن ـ هو أيضا شِرْكُ كلِّ مُتَقٍ غيرَ الله ، وكل متوسِّلٍ بغيرِ الله ، وكل متوكِّلٍ على غير الله ، إنه شِرْكُ الذى يدعو من دون الله ما لا يضر ولا ينفع، بل يدعو من ضَرُّه أقربُ من نفعه : { **يدعو من دون الله ما لا يضرُّهُ وما لاينفعه ذلك هو الضلالُ البعيد. يدعو لَمَنْ ضرُّه أقربُ من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير** } (الحج : ١٢ ـــ ١٣) .

ومن إعجاز القرآن فى بيان القرآن ـ بعد تسمية الفرق الست الباقية إلى يوم القيامة ـ تبكيتُه الذين يعبدون مع الله إلها آخر وكُلٌّ له ساجدون ، فيحصر معبوداتهم فى دائرةٍ لا يخرج عنها مَألوهُ ألَهُوه . قال عز وجل : { **إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ، إن الله على كل شىء شهيد . ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات والأرض ، والشمس والقمر والنجوم ،**

والجبال والشجر والدواب ، وكثيرٌ من الناس ، وكثيرٌ حَقَّ عليه العذاب ، ومن يُهِنِ اللهُ فما له من مُكرِمٍ ، إن الله يفعل ما يشاء } ﴿الحج : ١٧ ـــ ١٨﴾ . ترى فى هؤلاء الذين أهانهم الله ، عبدةَ الملائكة والأنبياء ، وعبدةَ إبليس ، وعبدةَ الشمس والقمر ، وعبدةَ النجوم والكواكب ، وعبدةَ الصخر والجبلِ والشجر ، وعبدةَ البقرِ والبهائم ، وكُلٌّ له داخرون .

❑❑❑

مر بك أن عبادة المجوس هى التردُّد على إلهين ، هرمزدا وأهرمن ، يغدو المجوسيُّ عليهما ويروح ، فهو "الجائس" ، من جاس / يجوس / جَوْساً وجَوَسانا ، يعنى الذاهب الجائى . وهو أيضا "مجوس" بِهِ على المفعولية ، لأن جَوَسانَهُ ما بين هرمزدا وأهرمن إنما كان بتلبيس إبليس ، فهو فى هذا الجَوَسانِ ملبوسٌ لُبِّسَ عليه ، كما يقال "مسعود" والمراد سعيد . ولكن العرب لم تنظر إلى هذا المعنى حين أَسْمَت المجوسَ مجوسا ، وإنما أسمتهم باسم كاهنهم ، "ماجوس" الفارسية ، لا تدرى أصلَ معناها فى لغة الفرس ، وهو ذو الحول والحيلة كما مر بك ، تُريد عَبَدة النيران ، لا عِلْمَ للعرب بما وراءِ هذه العبادة .

ولأن "المجوس" ليست من مُعَرَّبات القرآن ، بل نزل القرآنُ وهى من مُعَرَّبات العرب أنفسهم ، تواضعوا عليها فى تسمية جيرانهم الفرس عَبَدة النيران ، فلا تَصِحُّ نسبتُها إلى القرآن حتى يقال انها جاءت فيهُ مفسَّرَةً بالتعريب ، بل لا يصح هذا أصلا لأننا كما تعلم اشترطنا فى التفسير بالتعريب اتحاد الجذر فى اللفظ والمعنى بين لغتين من ذات الفصيلة اللغوية كالذى بين اللغات الساميَّة ، وليست الفارسية منها حتى يقال ان الجوس والجوسان ـ إشارةٌ إلى تَرَدُّدِ المجوسى أو جَوسانه بين هرمزدا وأهرمن ـ تَصِحُّ مقابلا للفظة "ماجوس" الفارسيـة التى معناها ذو الحول والحيلة . بل لم يُرِدِ العربُ هذا حين قالوه ، فضلا عن أنهم لم يريدوا بها " ماجوس " واحد كهنوت المجوس كما يقول الفرس ، وإنما أرادوا بها أهلَ الملةِ جميعا كهنوتاً وغير كهنوت .

اللفظةُ إذن من مُواضَعَات العربِ أنفسهم ،استقرَّ معناها عندهم على ما وضعوها له قبل نزول القرآن بأكثر من ثلاثةِ قرون ، لا تَعْتَجِمُ عليهم . وما كان القرآنُ ليفسِّرَها لهم بأصل معناها فى لغة الفرس ـ الحول والحيلة ـ وقد نقل العربُ هذا اللفظ

عن أصل معناه عند أصحابه . لهذا لم يُفَسِّرِ القرآنُ لفظة " المجوس " بأيٍ من أدواتِ التفسير المُعَوَّلِ عليها عندنا فى منهج هذا الكتاب .

ولكن القرآن المعجز لم يَفُتْهُ أن يقول لك من هم المجوس بمحض عبادتهم ، فخاطبهم بقوله : { **وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين ، إنما هو إلهٌ واحد ، فإيَّاىَ فارهبون** } (النحل : ٥١) . والمخاطَبُ ها هنا هم المجوس بلا مراء ، فلا ثَنَوِيَّةَ إلا المجوس ، وسبحان علام الغيوب .

(٦١) الـروم

وردت الروم مرة واحدة فحسب فى كل القرآن ، فى سورة افتتحت بهم فسميت باسمهم "الروم" . قال عز وجل : { **الم. غُلبتَ الرومِ فى أدنى الأرض وهم من بعد غَلَبِهم سَيَغْلِبُون. فى بضع سنينَ لله الأمرُ من قبل ومن بعد ويومئذٍ يفرحُ المؤمنون . بنصر الله ينصرُ من يشاءُ وهو العزيزُ الرحيم . وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَه ، ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون** } (الروم : ١ ــ ٦) .

وهذه الآياتُ الست كما سترى، من فرائد إعجازات القرآن فى نبوءات القرآن.

ولكن علماء القرآن الذين طالما استدلوا بهذه الآيات على إعجاز القرآن فى نبوءات القرآن ، لم يُوَفُّوا هذه الآياتِ حَقَّها من الإعجاز ، لأنهم تابَعُوا قُدامَى المفسرين (راجع تفسير القرطبى لهذه الآيات من سورة الروم) الذين احتفلوا لتحقق النبوءة بانتصار الروم فى بضع سنين من نزول الآيات ـ والبِضْعُ هو من الثلاثة إلى ما دون العشرة ، وقد تحققت النبوءةُ بالفعل ، فتوقفوا عند هذا ولم يلتفتوا إلى أن الآيات لا تَحْتَفِلُ لانتصارِ الروم من بعدِ هزيمتهم ، فلله الأمرُ من قبلُ ومن بعد ، ولكنها تُوقّتُ للمسلمين يومَ انتصارهم فى بدر ، يومَ ينصرُ اللهُ المؤمنين فيفرحون بنصره ، ينصرُ من يشاءُ وهو العزيزُ الرحيم .

□□□

أما " الروم " المعنيون فى الآيات ، فهم الروم البيزنطيون ، أصحاب القسطنطينية (استانبول من بعد أو الآستانة) ، الناطقون باليونانية ، **لا** الرومُ الغربيون ، أصحابُ روما ، الناطقون باللاتينية . فقد انهارت امبراطورية الروم الغربية نهائياً بسقوط روما فى أيدى القوط عام ٤٧٦ م ، ولم يَعُد من "الروم" عصرَ نزول القرآن مطلعَ القرن السابع الميلادى سوى رومُ المشرق ، أعنى روم "بيزنطة" التى وَرِثت

مجدَ روما القديم وخَلَفَتْها على أقاليمها فى مصرَ والشام ، بالإضافة إلى أراضيها الأصلية فى البَلقان ، وآسيا الصغرى (الأناضول) .

ولأن حكامَ بيزنطة كانوا سُلالَةً من قياصرةِ روما عند انقسام الإمبراطورية عام ٣٩٥ م إلى غربية فى روما وشرقية فى بيزنطة ، فقد تَسَمَّى الملوكُ البيزنطيون أيضا باسم القياصرة (المأخوذ من اسم قيصر كما تعلم): قيصرُ فى روما وقيصرُ فى بيزنطة. وما أن سقطت روما فى أيدى القوط وآل فيها الحكمُ إلى أقوامٍ من غير الروم ، حتى بات قيصرُ بيزنطةَ وحدَه هو القيصر ، وباتت بيزنطة ، أو القسطنطينية ، الوريثَ الشرعىَّ لمجدِ روما القديم . بل باتت بيزنطة هى"روما" ، ليس فقط فى أعين البيزنطيين أنفسهم، الذين لم يتردد بعضُهم فى إطلاق اسم روما مجازاً على عاصمتهم وإنما أيضا وبالأخص فى أعيُنِ أهل الأقاليم التابعة الذين لم يَرَوْا فى انتقال تبعيتهم من روما إلى بيزنطة سبباً يدفعهم إلى تعديل مُسَمَّى الدولة التى يخضعون لها : إنهم القيصرُ وولاةُ القيصر ، وهم أيضا "الروم" ، لاتينيين بالأمس أو بيزنطيين اليوم ، أصحابَ "روما الأولى" أو أصحاب "روما الثانية" . إنهم "الروم" فى كل حال .

لهذا كان العرب عصرَ نزول القرآن يقولون " الروم " يَعْنُون " اليونان" . بل مازلْت تسمعُ فى العربيةِ العامية لفظة " الرومى" فى موضع " اليونانى" . بل لم تعرف العربية الفصحى " اليونان " واليونانى إلا منذ العصر العباسى فى سياق ترجمات فلاسفة "اليونان" إلى العربية . على أن العرب كانوا يتوسعون فيطلقون اسم "الروم" على سكان شمالى البحر الأبيض المتوسط (بحر " الروم " عند قدامى الجغرافيين العرب) ، فهم إذن الأوروبيون بوجهٍ عام .

ورغم ذلك كله ، فإن لفظة "الروم" هى فى أصْلِها نِسبَة إلى "روما" بلا جدال، سواءً أردت روما التى فى إيطاليا ، أو "روما " الثانية التى على ضفاف البُسفور، أى بيزنطة المعنيةَ فى الآيات . ويتعين من ثم عند التماس التفسير القرآنى للفظة "الروم" على منهجنا فى هذا الكتاب التماس معنى "روما" هذه فى لغة أهلها، وسيأتى .

❑❑❑

أما الطَّرَفُ الآخر فى "المغالبةُ" المشار إليها فى الآيات فهم الفرس ، الذين لم تُسَمِّهم الآيات ، اكتفاءً بذكر عدوهم اللدود الغالب يومَ يفرحُ المؤمنون بنصر الله، ولاستفاضة شُهْرَةِ هذا الصراع الأزلى بين قُطْبَى العالم القديم: كسرى وقيصر.

كانت الحرب بين هاتين الدولتين سجالاً بين كسرى وقيصر ، يُدال من الروم للفرس لِيُدالَ من الفرسِ للروم ، فى صراعٍ طال أمده ، منذ بدأ اليونانُ يُنازعون الفرس - ورَثَة بابلَ وآشورَ ومصر - سلطانَهُم فى هذا الشرق الأدنى القديم . استمر الصراعُ - جولةً هنا وجولةً هناك - منذ غارة الاسكندر فى الربع الأول من القرن الرابع قبل الميلاد نحو ألف سنة حتى أواسط القرن السابع الميلادى ، حيث أَنْهَى "المؤمنون" الذين تتحدث عنهم الآيات هذا الصراع بقضائهم قضاءً باتًّا على دولة الفرس ، وطَرْدهم الرومَ البيزنطيين ، طرداً باتًّا أيضا ،من مصر والشام ، ليغزوهم من بعد فى آسيا الصغرى ويناجزوهم حتى أبواب القسطنطينية ، لينفردوا وحدَهم بالسيادة المطلقة على أراضى طَرَفَى النزاعِ معاً فى هذه المنطقة من العالم .

كان هذا الصراع بين الفرس والروم ، يَقْتُلُ بعضُهم بعضا ويُثْخِنُ بعضُهم فى بعض ، الذى طال أمدُه حتى شَهِدَ مبعث خاتم النبيين ، مقدمةً ضرورية لهزيمتهما معا فى وقت واحد ، على أيدى "حفنة" من العرب يَقِلُّونَ عنهما عدداً وعُدَّةً بما لا يُقاس ، فيفعلون بالفرس فى سنين قلائل ما لم يستطعه الرومُ فى ألف سنة ، ولا يكتفون بهذا وإنما يفعلون بالروم - أيضا وفى نفس الوقت - هذا الذى طالما تمناه الفرسُ ولم يتحقق لهم : القضاءُ الباتُّ على أطماعِ الرومِ فى الشرق الأدنى كله وحصارهم فى عقرِ دارهم لا يخرجون منه إلا مناوشاتٍ لا طائلَ من ورائها . ورغم هذا كله ، فأنت بإزاء معجزةٍ فَذَّةٍ من معجزاتِ التاريخ ، لا تَمْلِكُ أن تَغْمِطَ أولئك الرجالَ الذين صَدَقُوا ما عاهدوا اللهَ عليه أقدارَهم. كانوا رجالاً أفذاذاً لم يشهد التاريخُ أمثالَهم من قبلُ ومن بعد.

وتستطيع أن تقول أيضا - من الناحية الاستراتيجية البحت - ان كَرَّةَ الرومِ على الفرس كما تنبأت الآيات ، أى عودتَهُم إلى اقتطاع سورية وفلسطين ومصر من نفوذ فارس، أعنى عودةَ الدولتين إلى تقاسُم السيادة على أرض الشرق الأدنى القديم، العراقُ فى أيدى الفرس ، ومصرُ والشام فى أيدى الروم ، هَيَّأت مسرحَ الصراع المقبل بينهما وبين العرب ، تهيئةً مُواتيةً للذين آمنوا ، أَفْضَلَ بما لا يُقاس مما لو بقى الفرسُ فى مواقعهم بمصرَ والشام يومَ بَدَأَ الفتحُ العربى لهذه الأقطار ، يُغالبون الفرسَ وحدهم عليها . كان العرب عندئذ - لو بقى الفرس فى مصر والشام - سيلاقون عدواً واحداً متماسكاً متراصًا ، تخضعُ جيوشُهُ لقيادةٍ فارسيةٍ مُوَحَدَة فى كل من العراق والشام ومصر ، لا عَدُوَّيْنِ متناحرَيْنِ يتربص كُلٌّ منهما بالآخر - الفرس والروم - لا يأبَهُ أىٌّ منهما بانتصار العرب على خصمه اللدود ، ناهيك بالشماتة والاشتفاء .

وإلى هذا تُشير الآياتُ بقوله عز وجل : "للهِ الأمرُ من قبلُ ومن بعد"، أى كانت هزيمةُ الروم أمام الفرس ، لينتصر الروم من بعد عليهم ، بقضاء منه عز وجل وتدبير ، لأمر هو بالغه ، والله بالغ أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

□□□

والذى غفل عنه أكثر من تكلموا فى تفسير هذه الآيات فلم يوفقوا إلى فهمها على وجهها ، أن " النصر" فى اللغة هو العون والمظاهرة والتأييد ، ليس هو بذاته كما يظن الأكثرون الفوز والفتح والغلب ، وإنما هو العون والتأييد المؤديان إلى الفوز والغلب . ومن هنا تفهم عبارة "نصر الله" حيثما وقعت فى كل القرآن بمعنى تَدَخُّله عز وجل بِمَدَدٍ من عنده ، ملائكة وغيرِ ملائكة ، لنُصرة فريق وتخذيلِ فريق ، فتنقلب على الفور موازينُ القوى لصالح الفريق الذى "نصره الله" ، يعنى أَيَدَهُ وأعانَه ، فينتصر الذين كان نصرُ الله فى مَعِيَّتِهِم ليكونوا هم الغالبين .

ومن دقيق القرآن أنه حين تحدث عما كان بين الفرس والروم: { **الم . غُلِبَت الرومُ. فى أدنى الأرض وهم من بعد غَلَبِهم سَيَغْلِبون. فى بضع سنين...** } (الروم : ١ ـــ ٤) استخدم مادة "غَلَبَ" ولم يستخدم مادة "نصر" ، لأن الغَلَبَ هنا وهناك كان بأمرِ الله ، أى بقضائه وتدبيره : { **لله الأمر من قبل ومن بعد** } (الروم : ٤) ، ولم يكن بانتصاره عز وجل لفريقٍ على فريق، أى بتدخُّله عز وجل لصالح فريقٍ ضد فريق ، بِمدَدٍ من عنده ، ملائكةً وغيرِ ملائكة . وإلا لَقُلْتَ ان الله كان مع الفرس يوم غلبوا الروم ، يعنى كان راضياً عن الفرس ساخطاً على الروم ، ثم سَخِطَ على الفرس ورَضِيَ عن الروم فانتصر للرومِ عليهم . ولا يصح هذا لأن الله عز وجلَ لا يجوز عليه البُداء ، "يَبْدُو" لَهُ الأمر فَيُمْضيه ، ويَبْدُو لَهُ العكسُ من بعد فَيُمضيه ، إن صح هذا فى البشر ـ وهو مذمومٌ لأنه تَذَبْذُبٌ بين النقيض ونقيضه ـ فهو مُحال فى حَقِّ العزيزِ الحكيم . وقد كان الفرسُ مجوساً يوم كانت الكَرَّةُ لهم ، وكانوا مجوساً أيضاً يوم كانت الكَرَّةُ عليهم . وكان الرومُ أيضا أهلَ كتابٍ يوم غَلَبَهُم الفرسُ المجوس ، وبقوا أهلَ كتاب يوم أُديلَ لهم من الفرس . أما حين تحدثت الآيات عن "نصر الله" فهى تُريدُ انتصارَ الله عز وجل للمؤمنين الذين يَفْرَحُونَ بنصره . والمؤمنون كما مر بك فى مبحث "الصابئين" اصطلاحٌ قرآنى يُراد منه "المسلمون" أهل القرآن لا أهل الكتاب . وإنما ينتصر الله عز وجل لجنده فحسب ، أى للذين آمنوا.

والأصل فى هذا أن الله عز وجل الذى لا ينصر باطلاً على حق ، لا ينصر باطلاً على باطل ، وإنما هو ينتصر فحسب للحق على الباطل : { **بل نقذف بالحق على الباطل فَيَدْمغه فإذا هو زاهق** } (الأنبياء : ١٨) . يعنى لا يتعلق "نصر الله" حين ينسب الله النصر إليه تبارك وتعالى إلا بانتصاره عز وجل لجند هو قائدهم ، أى بانتصارِه للذين آمنوا . وقد انتصر الفرس من قبل ، فلا يقال اللهُ نَصَرَهم ، وانتصر الروم من بعد ، فلا يقال قد نَصَرَهم اللهُ على الفرس ، وإنما يقال ـ فى المرتين ـ الذى قالته الآيات : { **لله الأمْرُ من قبلُ ومن بعد** } (الروم : ٤) . لم ينهزم الفرس لأنهم مجوس أصحابُ هُرْمَزْدا وأَهْرِمَن ، ولم ينتصر الروم لأنهم نَصارى أهل كتاب يرُبِّبُونَ المسيحَ وجبريل ، فالكُفر كما تعلم مِلّةٌ واحدة ، وكلتا العبادتين عند الله باطل. وليس الباطل عند الله درجات بعضها دون بعض ، بل الكُلُّ باطل ، لا "يُؤازِرُهُ" اللهُ بنصره ، وإنما "يَقْضِيَ" فيه قضاءه .

هذا من جهة ، ومن جهةٍ أخرى فليس أهلُ الكتاب ـ يهودَ ونَصارى ـ بأولياءَ للذين آمنوا حتى يفرح المؤمنون ـ كما تنبأت الآيات ـ بنصر الله يوم ينتصر الروم على الفرس المجوس كما تَوَهَّم المفسرون . بل قد نهى الله الذين آمنوا عن تولّيهم : { **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضُهم أولياء بعض ومن يَتَوَلَّهم منكم فإنه منهم إن الله لا يَهدى القومَ الظالمين** } (المائدة : ٥١)، يُبَيِّنُ لك عز وجل عِلّةَ النهى عن تَوَلّيهم ، أى لأنّهم أولياءُ بعض ، يعنى أولياءُ بعض عليك ، لا تستنصر بإحدى الطائفتين على أختها ، ولا تستنصر بطائفةٍ منهما على عَدُوٍ لك ، فلن يَصْدُقُوك الولاية ، بل هم مَعاً عليك ، لا يَألُونَك خَبالا . ومن يَتَوَلَّهُم فقد ظَلَم ، لأنه صار فى مَعِيَّتِهم وبات منهم ، فلا يَهديهِ اللهُ سبيلا، واللهُ لا يَهدى الظالمين .

هذا النهى عن تَوَلّى أهلِ الكتاب من إعجاز القرآن فى توجيهات القرآن ، فلم يَعْرِف التاريخُ قديمه وحديثُه ـ بل وحديثُهُ بالذات ـ موقفا انتصر فيه أهلُ الكتاب للمسلمين على عَدُوّهم ، وإنما هم ينتصرون لعَدُوّ المسلمين عليهم ، أو ينتصرون لبعض المسلمين على بعض نكايةً فيهمُ جميعا ، وإذكاءً للفُرقةِ بينهم ، ليفشلوا وتذهبَ ريحُهم وأنت تعلم بالطبع أن توجيهات القرآن للذين آمنوا توجيهاتٌ عاملة ، ماضٍ فيهم حُكمُها إلى يومِ القيامة ، لا تَخُصُّ عصرَ التنزيل فحسب ، بل انطباقُها على هذا العصر أظهرُ وأَبيَن.

لن أذهبَ بك بعيدا ، فعندك من هذا فى الانتصار لعدو المسلمين عليهم ، مَثَلُ فلسطين . وعندك من هذا فى الانتصار لبعض المسلمين على بعض ، مَثَلُ حرب البَسوس بين العراق وإيران . وعندك من هذا فى التحريش بين المسلمين ثم التحريق عليهم . مَثَلُ حربُ النفط فى الخليج التى أتت على الأخضر واليابس فى أرض المُستغيث والمُستغاث منهُ على السواء . المستجيرُ بهم كالمستجير من الرمضاء بالنار، تحرقُك كما تَحرقُ أخاكَ المسلم الذى استنصرتَ بهم عليه، حليف الأمس وحليف اليوم، لا يَرْعَوْنَ فيهما إلاً ولا ذمة ، فلا يُبالون أين يَصُبُّونَ نيرانهم هنا أو هناك ، يُتَبرون ما عَلَوا تتبيرا ، فينسفون الفريقينِ نسفاً ويدَمرون عليهم . وتدفع أنت [(١)] ثمن هذه النيران التى أحرقوا بها دارك ودار أخيك، وتدفع له أيضا أَجْرَ تعمير ما خربوه بأيديهم، بل وتدفع أيضا نفقاتِ جيش الاحتلال الذى استدعيتَه ليفصلَ بينك وبين أخيك ، فما جاءوا لتحرير الكويت كما قد تظن أو لصدِّ العراق ، فقد استنفدوا أغراضَ التفويض الذى استصدروه لأنفسهم بتحرير الكويت وتجاوزوه إلى تركيع العراق ، ومازالت قواتٌ لهم ماضيةً فى احتلال العراق ونحن نكتب ما نكتب ، بحجة تأمين جيشهم فى جنوبى العراق ، وما خَفِيَ كان أعظم ، وإن كان قد بَرِحَ الخَفاء . وليس بعدَ هذا غَفْلَة . ولولا أن نخرجَ عن مقاصد هذا الكتاب لزدناك [(٢)] .

وليست آفةُ المسلمين اليوم أنهم تَشَرْذَموا دولا ، فالقرآنُ لم يستبعد هذا ولم يُؤَثِمه ، لقوله عز وجل : { **وإن طائفتانِ من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفيء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين . إنما المؤمنون إخوة ، فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون** } (الحجرات : ٩ ــ ١٠) . افترضَ القرآنُ فى "أخوَّة المؤمنين" انقسامهم طوائف ، يعنى دُولا ، وافترض فى هذه الدول قتالاً بين دولةٍ ودولةَ ، كما حدث بين العراقِ وإيران ، ثم بين العراق والكويت ، وافترض فيهم أيضا باغيا ومَبْغيًا عليه . ولكنه افترض قبل هذا وذاك وجود "الجماعة" التى تنتصر للمَبْغى عليه وتَرُدُّ بالقسط والعدل على الباغى، أى "الجماعة" المأمورة فى هاتين الآيتين

(١) " أنت " فى هذه الفقرة وما بعدها هم أنا وأنت وهو ، أى المسلمون أجمع .
(٢) نكتب هذه الفقرة فى استقبال شهر رمضان سنة ١٤١١ هـ (١٩٩١/٣/١٦م) ولم تنته فصول المأساة بعد .

بإقامة القسط والعدل . التى تحمل غيرها على الفَىْء إلى أمر الله . وقد غابت هذه "الجماعة" كما تعلم فى حرب العراق وإيران ، بل قد ظَاهَرَ مسلمونَ لا تَشُكُّ فى إسلامهم هذا العراق الباغى على إيران ، معتلين بشعوبيةٍ جاهلية تَقْسِمُ المسلمينَ إلى عربٍ وأعاجم، قد نسُوا قولَه عز وجل آنفا "إنما المؤمنون إخْوة فأصلِحُوا بين أخَوَيْكُم"، لا فَرْقَ فى هذه الأخُوَّة بين مسلمٍ ومسلم ، بل الكُلُّ فى "أخُوَّةِ المؤمنين" سواء . وما أسرع ما استدار الباغى على حلفاءِ الأمس ، فَحَسْبُكَ اللهُ ونِعْمَ الوكيل .

وإنما صار المسلمون اليوم إلى ما صاروا إليه لفقدانهم الإحساسَ بأنهم وحدهم من دون الخلق " أمَّة " ، الجامعُ بينهم هو الإسلامُ وحده .

وليس الإسلامُ شَعاراتٍ وبطاقاتِ هُوِيَّة ، ولكنه تحكيمُ القرآنِ والسنة فى كل شأنٍ من شؤون حياتك ، لا تأخذُ نتَفاً من هنا ونتفاً من هناك ـ كالذين يكتفون بإقامة الحدود وتغليظ الحجاب على استحياءٍ فى هذا وذاك ـ وإنما هو أولا وبالأخص تحكيمُ القرآنِ والسنة تحكيماً باتاً فى"القرار السياسى" الذى يُحَدِّد مَسارَ المجتمعِ وغاياتِه وأهدافَه ، ويُحَدِدُ ولاءاته وانتماءاته .

الذى يُؤَثِّمُهُ القرآن هو غيابُ هذه " الجماعة " المأمورةِ وحدَها فى هاتين الآيتين بإقامة القسط والعدل ، العاملةِ بأمر الله فى مجتمعاتها ، تَعْرِفُ ماهو ، فتحمِلُ غيرَها من المجتمعات المسلمة على أن " تَفِيءَ إلى أمر الله " .

ولم تَعُد فى المسلمين اليوم " الجماعةُ " المُؤَهَّلَةُ لهذا الدور ، لأنه لم يَعُد فى المجتمعات المسلمة اليوم مجتمعٌ واحد يحْكُمُ حقا وصدقا بالكتاب والسنة ، يعنى أولاً وآخراً يُحَكِّمُ القرآنَ والسنة فى " قراره السياسى" داخلَ المجتمع المسلم وخارجَه ، ناهيك بمن يَرْجُمُون الداعين إلى هذا أو يَصِمُونَهم بالرجعيةِ والتخلف .

الذين لا يرتضون تحكيمَ الكتاب والسنة فى أنفسهم بحجةِ أن الاحتكامَ إلى الكتابِ والسنة رجعيةٌ وتَخَلُّف ، لا يُقْبَلُ منهم التصدى للكلام بالإسلام فى نزاعٍ كلا طَرَفَيْهِ مسْلم. وإنما يحتكم المسلمون اليوم فى أنْزَعتهم إلى بطانةٍ من غيرهم لا يَألُونَهُمُ خَبالا ، قد نبذوا من القرآن ـ فيما نبذوا ـ قولَهُ عز وجل : { **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودُّوا ما عَنِتُّم ، قد بَدَت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورُهم أكبر ، قد بَيَّنا لكم الآيات**

إن كنتم تعقلون . ها أنتم أولاء تحبونهم ، ولا يُحبونكم ، وتؤمنون بالكتاب كله ، وإذا لقُوكم قالوا آمنا ، واذا خَلَوْاْ عضوا عليكم الأناملَ من الغيظ، قل موتوا بغيظكم ، إن الله عليمٌ بذاتِ الصدور. إن تَمْسَسْكُم حسنةٌ تَسُؤْهُم ، وإن تُصِبْكُم سيئةٌ يفرحوا بها ، وإن تَصْبِروا وتَتَقُوا لا يَضُرُّكُم كيدُهم شيئا ، إن الله بما يعملون محيط } (آل عمران : ١١٨ ـــ ١٢٠) .

هذه البطانة ، الذين لا يَأْلُونَك خَبالا ، الذين تحُبُّهم ولا يُحبُّونَك ، الذين إنْ تمَسَسْكَ حسنةٌ تَسُؤْهُم وإن تُصِبْكَ سيئةٌ يفرحوا بها ـ إن لم يكونوا هم الساعين فيها المُعينينَ عليها ـ الذين لا يَوَدُّونَ إلا إعناتَكَ وتعنيتَك ، هم هؤلاء الأوروبيون ـ الأَمريكيون شرقاً وغرْبا ، ورثةُ الروم الذين فى القرآن بالدمِّ والفكرِ والتَّوُّجهِ جميعا . شَهِدت هذا فى مواطأتهم إسرائيلَ عليك ، وما زلت تشهدُه ، ولن تزال . حتى تواضَعت أحلامُك فبات منتهى أملك وقد سَلَّمتَهُم أمرك أن يَردُّوا عليك جُزءا فحسب من فلسطين التى غَصَبُوكَ عليها ، مُتَشفِّعاً لديهم بتلك " الشِّرْعَةِ الدولية " التى أعمَلُوها فيك بهمةٍ لا تَعدِلُها همَّة يومَ تَداعَوْا عليك فى الخليج كما تَتَداعى الأكَلَةُ إلى قَصعتها (١) . وهيهات هيهات . إنها شرْعَتُهم هم ، ليس لكَ فيها نصيب . ما زلتَ تَحْلُمُ حتى تُفيقَ . ولن تُفيقَ حتى يَرُدَّ اللهُ عليكَ بصرك . ولن يَرُدَّ اللهُ عليكَ بصرك حتى تَفِيءَ إلى إسلامِك ، أى تَفِيءَ إلى " أمرِ الله " ، وإلا فما أنت بمسلم .

وإذْ لم تَعُدْ مسلماً إلا شِعاراتٍ وبطاقاتِ هُويَّة ، فانتصرْ بمن شئتَ وما تشاء . قد خَلَّى اللهُ بينك وبين قوانينَ النصر والهزيمة ، تَفعلُ فيك فعلَها ، لا يُؤازِرُكَ بنصره . وليتك وقد خُلِّيتَ لما اخترت ، تعمل فى إطار هذه القوانين فتتلمس أسبابَ النصر والغَلَبَة ، ولكنك لا تُقَلِّدَ غالبيك الذين فُتِنْتَ بهم إلا فى هزلهم ولَهْوِهم ومباذِلِهم ، لا شأنَ لك بجِدهم وعلمهم وصنائعهم .

قال عز وجل: {**وكان حقاً علينا نصرُ المؤمنين**} (الروم : ٤٧)، أى قد تَكَفَّلَ اللهُ بنصر الذين آمنوا حقا وصدقا فعملوا بإيمانهم. أما أنت فقد أسْلَمْتَ ولم تُؤمن.

---

(١) كما تنبأ صلى الله عليه وسلم . والحديث بتمامه : يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة الى قصعتها (أى كأنكم وليمة يدعو بعضهم بعضا عليها) . قالوا أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال لا. بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم كغثاء السيل" (يعنى كثير لا خير فيه). ولو رأيت احتشادهم عليك فى الخليج حتى حثالتهم وأراذلهم لما حسبت هذا الحديث إلا فيه.

وإذا كان الله عز وجل لا ينصر المسلمين اليوم لأنهم فحسب يخالفون عن أمره ، فما ظَنُّكَ بِمَن تَوهَّم أن الله كان في نصرِ نصارى الروم على مجوس الفرس، وكلا الفريقين من غيرِ جُنْدِه؟ قد قالت الفرس هُرْمَزْدا و أُهْرِمَن، وقالت الروم آبٌ وابنٌ ومَلَك.

لم ينتصر اللهُ للفرس على الروم يوم كانت الغَلَبة للفرس ، ولم ينتصر أيضا للروم يوم تحققت نبوءة القرآن بكرة الروم عليهم . ولكنه عز وجل - في المرتين - أعمل في كلا الفريقين قوانين النصر والهزيمة ، فانتصر الذى اتخذ للنصر عدته ، وانخذل الذى قصر وتوانى. أى أنه عز وجل خلى بين الفريقين وبين تلك القوانين ، ولم "يتدخل" لنصرة فريق على فريق ، فيقلب موازين القوى لصالح أولئك الذين كان نصره فى معيتهم ، كما فعل مع المسلمين فى " بدر" .

□□□

بل إن الله عز وجل الذى نصر المسلمين فى بدر وهم أذلّة : { **ولقد نصركم الله ببدرٍ وأنتم أذلةٌ** } (آل عمران : ١٢٣) يعنى وهم مستضْعَفونَ لا يملكون من أسباب الفوز إلا هذا الإيمان الذى استحقوا به " نصر الله " على عدو يتفوق عليهم بالعدد والعدة ، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم - القادر عليها فى كل حين - لم ينصر هؤلاء المسلمين أنفسهم يوم أحد ، وفيهم رسول الله ، بل خلى بينهم وبين قوانين النصر والهزيمة ، لا لشيء إلا لأن فريقا منهم - والمعركة دائرة وبوادر النصر تلوح - أطمعتهم الغنائم : { **منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة** } (آل عمران : ١٥٢) فتركوا مواقعهم وخالفوا عن أمر رسول الله ، وكانت العاقبة التى تعلم : { **إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون** } (آل عمران : ١٥٣) . قال عز وجل فى أولئك الذين كانوا يوم أحد سببا فى هزيمة جند الله وجند رسوله : { **إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا، ولقد عفا الله عنهم، إن الله غفور حليم** } (آل عمران : ١٥٥) . وإنما وسعهم حلم الله وغفرانه رحمة

منه عز وجل فلم يهلكهم بذنبهم ، بل استتابهم من زلتهم، لا يعصون نبيهم من بعد. وكانت " أحد " هي الموعظة والعبرة .

قال عز وجل يحذر الذين يخالفون عن أمر رسول الله الذي هو أمره تبارك وتعالى: { **فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم** } (النور : ٦٣) .

والذي حدث في " حنين " قريب من هذا وإن اختلف السبب : كانت الهزيمة في أحد عاقبة العصيان ، أي عاقبة المخالفة عن أمر رسول الله ، وكانت الكَسْرَةُ الأولى في حُنَيْن عاقبة الاستنصار بغير الله ، أي الاستنصارِ بالعَدَد والعُدَّة ، قالوا : لن نُغْلَب اليوم من قِلَّة ! يعني أنهم في كثرةٍ من العَدَدِ ووفرة من العُدَّة ، لا يحتاجون إلى مَدَدٍ من الله . فحجب اللهُ عنهم نصره وخَلَّى بينهم وبين قوانين النصر والهزيمة ، لأنه عز وجل غَنِيٌّ عمن استغنى بنفسه . ولكنه لَقَّنَهُم بها درساً لا يَنْسَوْنَه من بعد .

قال عز وجل يذكِّرُ بنصره الذين آمنوا إذ هم مستنصرونَ به ، ويُبَكِّتُهم بخُذلانِه إياهُم يومَ استغنوا بأنفسهم : { **لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ، ويومَ حنين إذ أعجبتكم كثْرَتُكم فلم تُغْنِ عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرضُ بما رَحُبَت ثم وَلَيْتُم مدبِرين** } (التوبة : ٢٥) .

ولو راجعت سجلَّ هزائمِ المسلمين وانتصاراتهم على مدى التاريخ منذ عصر النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا العصر وإلى ماشاء الله ، لما وَجَدْتَ إلا هذين السببين وراءَ هزائمهم : الاستنصار بغيره عز وجل أو النُّكُول عن أمره . عندئذ ينخلعُ "المسلم" من صفة "المؤمن" ، الطاعة والتوكل . وإنما يتكفل الله عز وجل بنصرِ "المؤمنين" فحسب .

انظر إلى بديع قوله تبارك وتعالى يشترط " الايمان " على الذين آمنوا أنفُسِهم ، كي يكون الله في نُصرَتهم : { **وأنتم الأعْلَوْنَ إن كنتم مؤمنين** } (آل عمران : ١٣٩) : قد علم أنه يخاطب الذين آمنوا ، ولكنه يشترط عليهم الاستمساك بهذا الإيمان والعمل به ، والا فلينتصروا لأنفسهم بأنفسهم إن استطاعوا.

تستظهر من هذا أن الله عز وجل لا ينتصر لجند ، أى لا يُمِدُّهم بمَدَد من عنده، إلا جندا هو قائدُهم . لا ينتصر لرومٍ أو فُرْس ، ولا ينتصرُ لعربٍ أو عَجَم ، بل ولا ينتصرُ للمسلمين أنفسهم ، وإنما ينتصر فحسب للمؤمنين " الذين آمنوا " ، لا يصح فَهْمَ عبارة " نصر الله " فى كل القرآن إلا بهذا المعنى وحده .

□□□

وإذْ قد تَقَرَّرَ هذا ، فلا يصح فَهْمَ قوله عز وجل فى الآيات الست من مفتتح سورة الروم " ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله " على أنه ـ كما تَوَهَّم مفسرون ـ فَرَحُ المؤمنين بانتصار الروم على الفرس ، وإنما النصر المبَشَّرُ به نصر آخر ، تتنبأ به تلك الآياتُ للمؤمنين ـ أى المسلمين ـ على عَدُوِّهم ، مشركى قريش ، فيفرحُ المؤمنون بنصرِ اللهِ إياهم .

دليلُكَ فى هذا ـ فوق ما تقدم ـ تعقيبه عز وجل على هذه البشرى بقوله : "ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم" ، ولا معنى للرحمة هنا فى انتصارٍ يُحْرِزُهُ الرومُ على الفرس ، وإنما كانت رحمتُهُ عز وجل بالمؤمنين ، يوم قَلَبَ موازينَ القوى لصالح هؤلاءِ المستضعفين فى بدر .

أما القاطعُ الحاسم ، فهو تعقيبُهُ عز وجل يُؤَكِّدُ وعده : { **وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون** } (الروم : ٦) ، فليس لرومٍ أو فرس وَعْدُ عِنْدَهُ عز وجل ، وإنما الوعد للمؤمنين الذين آمنوا .

ولا يصح أيضا ـ كما تَوَهَّم مفسرون ـ فَهْمُ " الوعد" على أنه وَعْدٌ للمؤمنين بتحقق نبوءة القرآن بانتصار الروم على الفرس فيفرحُ المؤمنون ـ فى مواجهةِ المنكرِينَ الوَحْيَ على القرآن ـ بأن القرآنَ صَدَقَ . هذا تافهٌ لا يُعْتَدُّ به . فقد ظل مشركو قريش على تكذيب القرآن بعد تحقق النبوءة بانتصار الروم على الفرس فى بضع سنين ، وما كان لِيُعْجِزَهُم أن يقولوا فى محمدٍ صلى الله عليه وسلم : عَرَّافٌ يَرْجُمُ بالغيبِ صَدَف .

ولا يصح أخيرا قولُ من قال ان المسلمين اغْتَمُّوا لهزيمة الروم من الفرس لأن الروم أهل كتاب والفرس مجوس عَبَدَةُ نيران أشبهُ بقريشٍ عبدةِ الأوثان ، الذين تهللوا لانتصار الفرس وَعَدُّوهُ انتصاراً لآلهةِ الشرك ، أمثالِ آلهة قريش ، وان الآيات نزلت لتبشر المسلمين بأن فرحةَ قريش لن تدوم ، فسينتصر الرومُ من بعد على الفرس ،

ويومئذ "يفرح المؤمنون" وتَغْتَمُّ قريش . هذا الكرُّ والفَرُّ بين الفرس والروم لَغْوٌ يتنزه القرآنُ عن إنزالِ آياتٍ فيه ، فضلا عن أن يحتفلَ له ، ناهيك بأن يكون قضية تشغلُ بالَ النبى صلى الله عليه وسلم فى مكة ، بل ما كان صلى الله عليه وسلم لينحاز الى روم أو فرس ، وكلاهما عَدُوٌّ للذين آمنوا . لو صح هذا لَتَحَالَفَ المسلمون مع الرومِ على الفرس ، ولكن المسلمين الذين أجهزوا من بعدُ على الفرس ، لم يُفْلِتُوا الروم .

الصحيح أن موقف عرب شبه الجزيرة من المعارك بين الفرس والروم كان موقفَ المتفرِّجِ لا موقفَ المشارِكِ ، لا تستثنى من هذا إلا مناذرةَ الحِيرة فى العراق ، مَوالى فارس ، وغساسنةَ الشام ، موالى الروم ، وكلاهما على دين النصرانية ، الغساسنة على مذهب قيصر بيزنطة آنذاك وأصحاب الحيرة نساطرةٌ يخالفونهم فى المذهب ، ومن هنا تَفْهَم حِلفَ الغساسنة مع الروم ، ولَواذ المناذرة بالفرس ، أعداءِ القيصر . أما قريشٌ وغيرُها من قبائل العرب فما كانوا يَرَوْنَ مصلحةً لهم فى هذا أو ذاك ، وإنما وقفوا موقف المتفرج على حربٍ لا ناقةَ لهم فيها ولا جمل ، إلا لَهْوَ الحديثِ وتزجيةُ الفراغ ، ذلك الترفُ السياسى الذى يَنْعَمُ فيه المتبطلون ، شُهودُ مباراةٍ بين فريقين لا تكتمل لَذَّتُهم إلا بالتشيع لهذا الفريق أو ذاك . وتستطيع أن تقول انه قد كان من سادة مشركى قريش من كان هَواهُ مع المناذرةِ موالى فارس ، هَلَّلُوا لانكسار الروم ، أى هَلَّلُوا لانتصار حزب المناذرة على حزب الغساسنة ، وكلا الفريقين نصارى كما مر بك ، لا مجوس ولا أهل كتاب . بل لم تكن حرب الفرس والروم أصلا حربَ تنصيرٍ أو تمجيس، وإنما كانت حرباً على السيادة والنفوذ فى الشرق الأدنى القديم . دليلك فى هذا أن الفرس يوم انتصروا لم يَسْعَوْا إلى نشر المجوسية فى مصر والشام ، وأن الرومَ لَمَّا انتصروا لم يَسْعَوْا فى تنصيرِ أعدائِهم المجوس .

وتستطيع أن تقول أيضا ان هذا الفريق من سادة قريش الذين هَلَّلُوا لانكسار الروم ـ كما تقرأ فى كتب السيرة وكتب التفسير ـ أرادوا أن يغيظوا بها النبى وصحابَتَه جادّين أو هازلين : لو كان إلهُ السموات والأرض ، إلهُ محمدٍ وإلهُ المسيح ، هو الإلهَ الحَقَّ ، أفكان ينكسرُ أمام آلهة النيران ؟ يَخْلِطُونَ بين ثالوث النصارى وبين الواحد الأحد لا إله غيره ، ويظنون ظَنَّ الجاهليةِ فى تَصَوُّرِها "آلهةً" تمشى على الأرض تحارب عن أتباعها ، فهو صراعٌ بين "الآلهة" لا صراعٌ بين البشر .

لم يكن هذا بالطبع موضوع "الرِّهان" بين أبى بكر رضى الله عنه وبين هذا النفر من سادة قريش عقب نزول هذه الآيات من سورة الروم ، أعنى رِهَانَهُ مشركى قريشٍ على انتصار الروم من بعد على الفرس فى بضع سنين من نزول الآيات . فلستَ ترتضى للصدِّيق رضى الله عنه أن يَغْتَمَّ لانتصارِ آلهةِ النيران على ثالوثِ النصارى ، أو أن يُرَاهِنَ على أن "الآب والابن والروح القُدُس" أقوى شكيمةً من "هُرْمُزْدا وأهْرِمَن" . هذا عبثٌ يتنزه عنه أبو بكر. وإنما قال هذا مفسرون يُنَسِّقُون مقولتَهم على أن بعض الشرِّ أهونُ من بعض ، ومن ثم فبعضُ الكفرِ أهونُ من بعض . ولا تصح هذه "النسبية" فى الدينِ بالذات . لأن الكفر كما تعلم ملةٌ واحدة . وقد كَفَّرَ القرآنُ عُبَّادَ المسيحِ وجبريل كما كَفَّرَ عُبَّادَ هُرْمَزْدا وأهْرِمَن، فلا ينتصر اللهُ لهذا الفريقِ أو ذاك . تسمع قريبا من هذا ممن أفتاك أواسط هذا القرن بالوقوف مع الغرب "المسيحى" ضد الشرق "الملحد" ، وكلاهما عَدُو للذين آمنوا . وهو كما ترى تنسيقٌ على ما قاله المفسرون من قبل فى تأصيل فهمهم تلك الآيات من سورة الروم ، أى أن بعضَ الكفر أهونُ من بعض . وهو خطأ مَحْض . فموقف المسلمين من غير المسلمين واحدٌ لا يَتَلَوَّن : إنهم سِلْمٌ لمن سَالَمَهم، حربٌ على من حاربهم: {**فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم**} (التوبة : ٧)[١] .

وإنما راهن أبو بكرٍ مشركى قريش الذين هللوا لانكسار الروم على صِدْقِ قوله عز وجل :{ **وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الأمرُ من قبلُ ومن بعد** } (الروم : ٣ ــ ٤) ، ولم يزد. وقد صدقت النبوءةُ بتمامها كما تعلم ، ورَبِحَ الرِّهانَ أبو بكر .

❑❑❑

الفهمُ الصحيحُ لهذه الآيات الست من سورة الروم هو أن الله عز وجل يَعِدُ جُنْدَهُ الذين آمنوا ـ وهم يومئذٍ قليلٌ مستضعفون فى الأرض ـ بالنصر على عدوهم مشركى قريش نصراً ما كان أحدٌ من الذين "لا يعلمون" كما وصفتهم الآيات ، يَحْسَبُهُ

---

(١) إقحام الدين فى السياسة محظور كما تعلم فى نظم الحكم العلمانى التى تقول لك : لا دين فى السياسة ولا سياسة فى الدين . ولكنها تستجيز لنفسها ما تحظره عليك ، فتتلفع بعباءة الدين حين تريد تأصيل مواقف سياسية تقررت ، على مقولات دينية بنت المناسبة ليتها محصت . هذا فحسب هو القدر المسموح به فى تلك النظم لكلمة الدين فى القرار السياسى : إنه تطويع الدين للسياسة لا تطويع السياسة للدين ، فبئس للظالمين بدلا .

ممكناً بأى معيارٍ أردت ، لولا أنه وعدٌ من الله عز وجل لا يُخْلِفُ اللهُ وعدَه . وحدَّدت الآياتُ لموعد هذا النصر علامة : ينتصر المسلمون يومَ يبلغُهم نبأُ انتصار الروم على الفرس فى بضع سنين من نزول الآيات . لم تقل الآيات "ينصر الله المؤمنين فى بضع سنين" كيلا يقال أنه وعدٌ على التراخى فى أىِّ يومٍ شئت خلال تسع سنين (والتسعة أقصى غاية البِضْع) ، ولكنها وَقَّتَت لانتصار المسلمين على عدوهم موعداً رَبَطَتْهُ بانتصار الروم على الفرس فى بضع سنين من نزول الآيات ، غيرَ مقصودٍ من الحديث عن المعارك بين الفرس و الروم إلا هذا وحدَه .

وأنت تعلم بالطبع أن رابطةَ السببية معدومةٌ تماما بأىِّ معيار أردت بين انتصار يحرزُه هِرَقْل قيصرُ بيزنطة على كِسرى أبْرويز ملكِ الفرس وبين أولِ انتصارٍ يحرزه الذين آمنوا على مشركى قريش . بل الحدَثانِ منفصلانِ كلَّ الانفصال فى المكان ، منفصلان كل الانفصال فى المقدّماتِ والنتائج . لم يكن كسرى حليفَ قريشٍ ولم يكن قيصرُ حليفَ الذين آمنوا ، ولم تكن مكةُ أو المدينة داخلتين فى استراتيجية الحرب بين الفرس والروم ، حتى يكونَ ثَمَّ مجالٌ للقول برابطة التداعى بين الحدثَيْن ، يُؤْذِنُ وقوع أولِهما بوقوع الثانى . أعنى أن النبوءةَ بوقوع الحدث الأول وهو انتصار الروم على الفرس ، لا تتضمنُ بذاتها النبوءةَ بوقوع الحدث الثانى وهو انتصار الذين آمنوا فى بدر، تَضَمُّنَ السببِ للنتيجة . وإنما هما نبوءتان منفصلتان ، تجمع بينهما نبوءةٌ ثالثة ، هى التنبؤُ بتزامُن تحقق النبوءتين الأولى و الثانية .

وهذا هو لُبُّ الإعجازِ فى هذه الآيات ، الذى يتحدَّى بِهِ القرآنُ مُنْكِرِى الوحْيِ عليه . لو وقفت النبوءة عند "توقع" انتصار الرومِ على الفرس فى بضع سنين لَقيلَ حكيمٌ حَصيف ، قَدَّرَ أن الحربَ بين الفرس والروم كَرٌّ وفَرٌّ ، كالعهد بالحرب بين كسرى وقيصر ، جولةٌ هنا وجولةٌ هناك ، وأن كَرَّةَ الرومِ على الفرس لن تتأخر بحساب الزمن سوى بِضْعَ سنين ، يُضَمِّدُ فيها قيصرُ جراحَه ، ويستجمعُ قُواه ، ويُعيدُ تنظيم فلول جيشه ، ويُعَبِّيءُ حُشودَه ، طالما أن القسطنطينية عاصمةَ الروم وقلبَ الامبراطورية صَمَدت لهَجَمات الفرس وردَّتْهم على أعقابهم . ليس هذا تنبؤاً يحتاجُ إلى وحى ، وإنما هو تقديرٌ حصيفٌ يستطيعه خبراءُ الاستراتيجية العسكرية فى كل العصور ، بل ما كُنْتَ لِتَعْدَمَ من يقول به من العرب أشياعِ الروم فى شبه الجزيرة ، بل ما كُنْتَ لتعدَمَ بين قادة جيوش الفرس أنفسِهم من يَحْسِبُ حسابَه ويُعِدُّ العُدَّةَ لمواجهته .

ولو قد توقفت النبوءة ـ من جهة أخرى ـ عند التنبؤ للذين آمنوا بالنصر على مشركي قريش في غدٍ قريب ، بِضْعَ سنين ، و المسلمون يومئذ في قبضة قريش تُنَكِّلُ بهم وتَسُومُهم العذابَ ألوانا ، لا أملَ لهم في مغالبة قريش ، إلا رجاءٌ أن تُكَفْكِفَ قريشٌ أذاها ، لَقُلْتَ انها نبوءةٌ جريئة بكل المقاييس ، لا يتورطُ في مثلها من خبراء الاستراتيجية أحَد . ولكنك تفوتُكَ خصوصيةُ النبوءة التي في هذه الآيات ، فالقرآنُ من قبل سورة الروم ومن بعدها لا يخلو من مثلها ، أعني لا يخلو من مَوْعِدَةِ المسلمين بالنصر على عدوهم في غدٍ قريب : { **ألا إنَّ نصرَ الله قريب** } (البقرة ٢١٤) ، أما هذه الآيات من سورة الروم فهي تُوَقِّتُ موعدَ هذا النصر على الجزم والتأكيد : "وعْدَ الله لا يُخْلِفُ اللهُ وعدَهُ " . ومع ذلك فما كنْتَ لتَعْدَمُ بين كفار قريش من يقول لك : وماذا في هذا ؟ صَحَّت النبوءةُ أو لم تَصِح ، رَجُلٌ (يعني محمداً صلى الله عليه وسلم) يستنهضُ هِمَّةَ أتباعهِ ، فَيُمَنِّيهمُ الأماني ، ويَعِدُهم بالمحالات .

ولكن النبوءة التي في الآيات لم تتوقف عند هذا أو ذاك ، ولكنها تَنَبَّأت بتزامُن وقوع حدَثَيْنِ مُنْبَتَّي الصلةِ والأسباب ، الأول وهو انتصارُ الرومِ على الفرس في بضع سنين، حدث محتمل غيرُ مستبعد بمنطق مسار الصراع بين نِدَّيْنِ متكافئين تدورُ الحربُ بينهما سِجالا ، يُدالُ لهذا من ذاك ، فتقول جازماً مطمئنا إنَّ الكَرَّةَ التي كانت اليومَ للفرس ستكونُ في الغد للروم غير بعيد . أما الحَدَثُ الثاني ، وهو انتصارُ المسلمين على مشركي قريش (في بدر) ، فالتَّنَبُّؤُ به يومَ نزلت الآيات تنبؤ بالمُحال في منطق الناس ، خُبَراء وغير خُبَراء ، لا يتورط في مثله عَرافٌ أو كاهن . وأَبْعَدُ من هذا وذاك التنبؤ بتوقيت واحد لوقوع هذين الحَدَثَيْنِ المنفصلين ، المُمكن والمُستحيل . لم تقل الآيات ينتصرُ الروم في بضع سنين ، وينتصرُ المؤمنون أيضا في بضع سنين ، كي تستجيزَ أن ينتصرَ الروم في خلال خمسِ سنين مثلا وينتصرَ المؤمنون في خلالِ سبع سنين ، أو العكس ، والخَمْسُ والسَّبْع كلتاهما داخلتانِ في " البِضْع " ، ولكن الآيات تقول "ويومئذٍ يفرحُ المؤمنون بنصر الله" ، يعني ينتصرُ المؤمنون يوم يبلغُهم نبأ انتصار الروم على الفرس ، لا قبل ولا بعد . وقد حَدَث ، فأي إعجاز وأي علم .

الوحيدُ الذي فَهِمَ النبوءة على وجهها يوم أنزلت الآيات هو بالطبع الصادق المصدوقُ صلى الله عليه وسلم ، ولكنه لم يفسِّرها لصحابته على معنى التزامُنِ بين

انتصار الروم فى بضع سنين وبين "اليوم" الذى يفرح فيه المؤمنون بنصر الله ، كما تستطيع أنت اليوم تفسيرَها وقد تحققت النبوءة . وإنما فَطَنَ إلى هذا من فَطَنَ من المسلمين والمفسرين من بعد بدر . وكانت هذه حكمةً بالغة : لو فَهِمَ المسلمون النبوءةَ على وجهها وبتوقيتها يومَ أنزلت الآيات لَتَهاونوا فى مُجاهَدَةِ قريش ، ولقعدوا يتسقّطون أنباء المعارك بين الفرس و الروم ، ينتصر المسلمون يوم ينهزمُ الفرس . وهذا يفسر لك لماذا اقتصر رهانُ أبى بكر على انتصار الروم فى بضع سنين ولم يزد . وهو يُفَسِّرُ لك أيضا احتفالَ المفسرين بربح أبى بكر الرهانَ وصِدْقِ نبوءةِ القرآن بانتصار الروم فى بضع سنين ، دون أن يلتفت أكثرهم إلى جوهر الإعجاز فى نبوءة هذه الآيات : توقيتُ يوم انتصار المسلمين فى بدر ، يومَ السابع عشر من رمضان فى السنة الثانية للهجرة .

ومما تَقْرَؤهُ فى كتب التفسير (ومنها تفسير القرطبى) أن جبريل عليه السلام نزل يوم بدر فأنبأ النبى بانتصار الروم على الفرس . هنا تفهم ما فَهِمَهُ صلى الله عليه وسلم من هذه البشرى ، ينتصرُ المسلمون يومَ ينتصرُ الروم على الفرس ، فما أن فَارَقَهُ جبريلُ حتى خَرَجَ يستنجزُ ربَّهُ ما وَعَدَه فى تلك الآيات من سورة الروم ، وأكَبَّ فى الدعاء حتى سَقَط عنهُ رداؤه : اللهُمَّ نَصْرَكَ الذى وعدتنى ! وجاء نصرُ الله الذى كان فاتحةَ كُلِّ نصرٍ يُحرِزُهُ المسلمون من بعد ، وصَدَقَ اللهُ وصَدَقَ رسولُه .

أما المفسرون الذين لم يربطوا بين انتصار الروم وبين توقيت النبوءة لانتصارٍ يحرزُهُ المسلمون على قريش ، وفاتهم من ثم جوهرُ الإعجازِ فى تلك الآيات ، فقد اضطروا إلى تعليل "فرحة المؤمنين يومئذ بنصر الله" بأنها الفرحة لانتصار أهلِ كتابٍ على مجوس ، وهو خطأ محض كما مر بك ، لا سندَ له من قرآنٍ أو سُنّة ، ولكنه كان التُّكأَةَ التى يتكىءُ عليها الذين يُفتونَكَ اليوم بموالاةِ أهل الكتاب على غيرهم ، مهما لَقِيتَ منهم أو شَقِيتَ بهم .

وأما المفسرون الذين التفتوا إلى هذا الربط بين انتصار الروم وبين انتصارٍ يحرزه المسلمون على عدوهم ، فقد تفاوتوا فى تحديد الغزوة التى انتصر فيها المسلمون يوم انتصر الروم على الفرس ، لأنهم لم يُعْنَوْا بتحديد التواريخ الدقيقة لسجل المعارك بين الفرس والروم ، كى يطابقوه على سجل المعارك بين المسلمين وبين قريش ، فَمِنْ قائلٍ

انها غزوةُ بدرٍ الكبرى فى السنة الثانية للهجرة (وهو الصحيح كما سترى) ، ومن قائل انها غزوةُ الحُدَيْبِيَة سنة ستٍّ ، وهذا يتعارضُ مع قوله عز وجل "فى بضع سنين" أى دون العَشْر ، وما بين نزول سورة الروم وغزوة الحديبية حوالى ثلاثُ عشرة سنة ، ولكن قائلَ هذا لم يَتَلَبَّث ، وربما زعم أن البضع السنين هى من موعد رِهان أبى بكر قريشاً ، وهو تخريجٌ سقيم يُناقِض نَصَّ الآيات ، فلا تلتفتُ إليه .

والذى لم يتلبث عنده أيضا هؤلاء المفسرون هو قوله عز وجل "فى أدنى الأرض"، يُحَدِدُ مكان الموقعة التى انهزم فيها الروم من الفرس والمَعْنيَّة فى الآيات ، والذى سيكون هو نفسُه فى بضع سنين مكانَ الموقعة التى سَيُدالُ فيها للروم من الفرس، لقوله عز وجل :"غُلِبَت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غَلَبِهِم سَيَغْلِبُون فى بضع سنين" ، أى غُلِبُوا فى أدنى الأرض وسَيَغْلِبُون فى أدنى الأرض أيضا فى بضع سنين من نزول الآيات . هذا هو الفهمُ المباشر لعبارة القرآن بمنطق اللغة العربية التى تجتزىء عن ذكر ظرفِ المكان فى الشِّقِّ الثانى بسَبْقِ النصِّ عليه فى الشق الأول حين يكون ظَرْفُ المكان فى الشِّقَّيْنِ واحدا ، ولاسيما حين تكون مادة الفعل فى الشقين هى نفسها "غُلِبَت" ، "سَيَغْلِبون" ، والمُسْنَدُ إليه فى الشقين واحد "الروم" ، وذلك كراهية التكرار الذى هو حَشْوٌ لا فائدةَ فيه . من ذلك قولك : "جِئْتُكَ فى دارِك بالأمس ، وسأجيئُكَ غدا" فتفهم منى مباشرة أنى سَأجيئُكَ غداً فى دارك أيضا لا فى غيرها ، وإلا لَنَصَصْتُ لك على المكان الآخر الذى سأجيئك فيه غدا . بهذا وحده يكتملُ فهم النبوءة بانتصار الروم على الفرس ـ المُتزامِنِ مع انتصارٍ يُحرِزُهُ المؤمنون فيفرحون به ـ فَهْمَاً مُحَدَّدا فى المكانِ و الزمان : فى أدنى الأرض ، وفى بضع سنين . أما إن تَرَكْتَ المكانَ غُفْلاً فى النبوءة ، فعندئذٍ تحتارُ فى اختيارِ الموقعة من بين مواقعَ انتصر فيها الرومُ على الفرس بعدَ نزول الآيات ، أهى انتصارُهم على الفرس فى مصر ، أم الشام ، أم فى الأناضول ، أم فى أرضِ الفرسِ نفسِها . ومن ثم يتفاوت قولك فى تحديد الموقعة المتزامنة التى انتصر فيها المسلمون على عدوهم . على أن هذا الفريق من المفسرين اختلف أيضا فى مدلول "أدنى الأرض" ، التى فهموها بمعنى "أَقْرَبُ الأرض" ، فمن قائلٍ انه أَقْربُ الأرضِ إلى الفرس ، ومن قائلٍ أقربُ الأرضِ إلى الروم ، ومن قائل أقربُ الأرضِ إلى العرب . هنا لا تدرى على وجه اليقين أى مكانٍ تعنيه الآياتُ بقولها "غلبت الروم فى أدنى الأرض" فتحتار فى اختيار المَوْقِعَةِ المعنية فى سلسلة معارك

الفرس والروم التى انتصر فيها الفرس على الروم ، وتخبط خَبْطَ عشواء فى تحديد التاريخ الذى تَبْدَأُ منه البضع السنين .

مفتاحُ فَهْمَ النبوءة على وجهها هو فَهْمُ معنى "أدنى الأرض" التى فى الآيات لأنها هى التى تحُدَدُ لك مكان الموقعة المعنية فى الآيات بين الفرس والروم كَرّاً وفَراً ، الأولى والثانية ، فتقطع بيقينٍ لا شك معه بمبدأ ومُنتهى الفاصلِ الزمنى بينهما ، الداخلِ فى إطار المهلة المضروبةِ فى القرآن لموعد كَرة الروم على الفرس ، الذى هو نفسه موعد انتصارِ المسلمين فى بدر كما سترى . ولم يوفق المفسرون إلى فهم مدلول "أدنى الأرض" رغم أَن منهم علماء فى اللغة العربية، فتشبثوا بأن معنى "الأدنى" هنا هو "الأقرب" من دَنا يدنو فهو دان ، لا معنى له غير هذا . ولكن "الأدنى" كما يعلم هؤلاء المفسرون ويعلم علماء العربية جميعا لا تجىء فقط بمعنى أفعل التفضيل من دنا يدنو فهو دانٍ ، أى قريب ، وإنما تجىء أيضا على معنى الأسفل الوطىء . لا يقول العرب فى أفعل التفضيل من " الدون" الأدْوَن ، وإنما يقولون " الأدنى" ، وكأنها " الأدنأ " من دَنُوءُ يدنُوءُ فهو دَنِىء ، سُهِّلَت همزتُه . ومن هذا تجىء " الدنيا " التى نعيش فيها ، مؤنث " الأدنى" . ليست هى من القُرْبِ والدُنُوِّ ، وإنما هى من السُّفْلِيَّة والتَّحْتِية والوَطاءة ، يعنى التى أهبِط إليها آدم . وقد استخدم القرآن لفظة " الأدنى " بالمعنيين كليهما ، فجاءت على معنى الأقرب فى مثل قوله عز وجل : { **ذلك أدنى ألا تعولوا** } (النساء : ٣) ، أى أقرب . وجاءت بمعنى الدون و الأدنأ فى مثل قوله عز وجل : { **أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير؟** } (البقرة :٦١) ، أى الأرذل لا الأقرب بالطبع ، وفى قوله عز وجل : { **ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم** } (المجادلة : ٧) ، يعنى أقل أى دون . بل إن القرآن يستخدم أحيانا مادة دنا يدنو نفسها لا بمعنى قَرُب، وإنما بمعنى هَبَط ، فى حديثه عن تَنَزُّل جبريلَ بالوحى : { **ثم دنا فتدلّى** } (النجم :٨) ، لا يصح فهمها بمعنى قَرُبَ فَتَدَلّى . واستخدمها أيضا على معنى التحتية والدونية فى قوله عز وجل : { **يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن** } (الأحزاب:٥٩) ، يعنى يُرَخينها إلى أسفل ، وليس يُقَرِبْنها من أجسادهن . الأدنى تجىء أيضا بمعنى الوطىء الهابط قطعا . والوطىء فى اللغات العبرانية والآرامية

والكنعانية هى "كَنْعان" ، التى تجد أثارةً منها فى مادة " كَنَع " العربية حين تقول "كنعت الشمسُ إلى المغيب" أى مالت .

لم يُوَفَّق المفسرون إلى هذا المعنى الآخر فى عبارة أدنى الأرض ، لأنهم لم يعلموا أن القرآن يستخدم هذه العبارة لا على الصفة ، وإنما على العَلَمية : إنها ترجمةُ القرآن المعجز لاسم فلسطين بلغة أصحاب الأرض " الكنعانيين " قبل أن يكون لبنى اسرائيل فى فلسطين وجود . إنها " كنعان " أو " إرص كنعان " (أَرْضُ كنعان) ، يعنى "الأرض الوطيئة " . وسبحان العليم الخبير القائل بكل اللغات ، الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم .

❑❑❑

نزلت تلك الآيات من سورة الروم ما بين السنتين السابعة والسادسة قبل الهجرة (٦١٤ م ـ ٦١٥ م) ، فهى تشير بالقطع إلى تلك الموقعة التى انهزم فيها الروم أمام الفرس على أرض فلسطين سنة ٦١٤م ، وكانت فاتحة لهزائم الروم أمام الفرس فى سورية ، وفى مصر وليبيا (سنة ٦١٩ م) ، وتَرَاجَعَ الرومُ فى الأناضول حتى أسوار القسطنطينية . ومفهوم الآيات المباشر أن " البِضْعَ السنين " ـ أى ما دُون العشر ـ تُحْسَبُ منذ بدءِ صولة الفرسِ على الروم سنة ٦١٤ م إلى مبدأ كرة الروم عليهم : "وهم من بعد غَلَبِهم سَيَغْلبون" ، يعنى لن تتأخر كرةُ الروم على الفرس إلى أبعد من سنة ٦٢٤ م قبل اكتمالِ عشر سنين ، متوافقة مع نصر الله الذى يفرح به المؤمنون فى بدر يوم السابع عشر من رمضان سنة ٢ هـ (إبريل سنة ٦٢٤ م) . والثابت تاريخيا أن الروم قبعوا وراء أسوار القسطنطينية حتى سنة ٦٢٢ م ، لم يخرجوا لمناجزة الفرس إلا يوم خرج هِرَقْلُ بجيشه فى تلك السنة فى أول حرب صليبية عَرَفَها التاريخ ، وهو يرتدى المُسوح ويرفع صورةً مقدسةً للعذراء ، تُهَلِّلُ له أجراسُ الكنائس ، وتُدَوِّى من خلفه صلواتٌ وترانيم ، تدعو له بالنصر على الفرس المجوس ، واستعادة المدينة المقدسة أورشليم، واسترداد "عود الصليب" الذى استلبه المجوس يومَ اسْتَوْلوا على أورشليم[1] . لم يكن الرجل قديسا يؤازره الله بنصره على الفرس المجوس كما توهم مفسرون ، أو كما تُصَوِّرُه لك بعضُ كتابات مؤرخى المسيحية ، فقد عَلِمَ الذين قَرَعُوا

(١) " عود الصليب " هو إحدى قطعتى الخشبة التى يُظَنُّ أنْ قد كان صَلْبُ المسيح عليها .

لمخْرَجه الأجراس وشَيَّعُوا جيشَهُ بالصلواتِ والترانيم أن نكاح المحارِمِ زناً صريح ، وقد نَكَحَ هِرَقْلُ "مارتينا" ابنة أختـه فاستـولدها تسعةً بنينَ وبنات ، وصَحِبَتْهُ فى حَمَلاته وغزواته ، ولكنها سياسةُ الملوك فى استنهاض الهمم بالدين . لا تستثار نَخْوَتُهم لشأنٍ من شؤون الدين إلا لهذا ، يَعصُونَ اللهَ ويتبجَّحُونِ فيسألونه النُّصْرة .

لم تكن أمام هرقل يوم خرج لمناجزة الفرس سنة ٦٢٢ م سوى سنة وبضع سنة من المهلة المضروبة فى الآيات لكرة الروم على الفرس فى بضع سنين تبدأ من سنة ٦١٤ م كما مر بك . ولكن المعارك بين الروم والفرس طالت بين كرٍ وفرّ حتى حَقَّقَ الرومُ نَصْرَهُمُ الحاسم على الفرس فى فبراير سنة ٦٢٨ م على أرض الفرس نفسها ، فسلم لهم الفرس بالسيادة على أراضى الروم فى آسيا الصغرى وفى الشام ومصر وما يليها ، وأعادوا إليهم " عُوَد الصليب " . وليست هذه بالطبع هى الموقعة المعنية فى الآيات ـ وإن توافقت مع غزوة الحديبية سنةَ ستٍ هجرية كما قال مفسرون ـ أولا لأنها تجاوزت المهلة المضروبة فى القرآن بسنوات أربعٍ ، إن قُلْتَ بها فقد خَطَّأْتَ القرآن ، أعنى لم تُحْسِن الفَهْمَ عنه ، لأن القرآن يريد مبدأ كرة الروم على الفرس لا مُنتهاها ، كما أراد مبدأ صَوْلَة الفرس على الروم سنة ٦١٤ م لا مُنتهاها سنة ٦٢٢ م . وثانيا لأن القرآن يريد معركةً بعينها بين الفرس والروم يَغْلِبُ فيها الرومُ الفرس مثلما غَلَبُوهم فى أدنى الأرض منذ بضع سنين . أعنى معركةً تدور على أرض فلسطين . ورغم اضطراب المؤرخين فى تحديد التواريخ الدقيقة لمعارك الفرس والروم منذ سنة ٦٢٢ م ، فالثابت تاريخيا أنه قد كانت للروم على الفرس كرتان ، انتهت أولاهما بدخولهم أرض الفرس سنة ٦٢٤ م ثم تراجعوا إلى الأناضول . وكَرَّ الفرس عليهم حتى ألجئوهم إلى ضفاف البوسفور سنة ٦٢٦ م ، ولكن كرة الفرس كانت تشبه صحوة الموت ، فما لبث الروم أن كروا عليهم كرتهم الثانية التى انتهت بانتصارهم الحاسم فى فبراير سنة ٦٢٨ م . ولا شك أن القرآن يعنى كرة الروم الأولى التى انتهت سنة ٦٢٤ م لا كرتهم الثانية ، دليلك فى هذا من القرآن "البِضْعُ السنين" محسوبةً ابتداء من سنة ٦١٤م كما مر بك الى أوائل سنة ٦٢٤م ميلادية على الأكثر (سنة ٢ هـ) قُبَيْلِ انتصار الذين آمنوا فى بدر يوم ١٧ رمضان سنة اثنتين للهجرة (إبريل سنة ٦٢٤ م) . وقد حفلت كرة الروم الأولى بانتصارات للروم على الفرس فى القوقاز وأرمينيا والأناضول حتى نهر الفرات ، وفى أرض الفرس نفسها حتى تبريز ، ومنها الذى يعنينا هنا استعادة القدس أواخر ٦٢٣م أو أوائل ٦٢٤م ، قبيل انتصار المسلمين فى بدر (إبريل ٦٢٤ م) .

هذه النبوءة التى ربطت بين انتصار الروم على الفرس فى أدنى الأرض وبين انتصار الذين آمنوا فى بدر ، أى بين الممكن والمستحيل فى منطق الناس ، هى نبوءة بغيب محض ، لا يستطيعها إلا علام الغيوب .

فسبحانَ عالمِ الغيبِ لا يُظهرُ على غيبِه أحدا ، الا من ارتضى من رسول .

❑❑❑

أما لفظة الروم التى تعنينا فى مباحث هذا الكتاب ، فهى كما مر بك نسبةٌ إلى "روما" الأصلية التى فى إيطاليا وإن انتسب إليها البيزنطيون المعنيون فى القرآن .

وأنت تعلم بالطبع أن "روما" الأصلية فى لغة أهلها اللاتين تكتب وتنطق Roma ، ولكن الذى لا تعلمه إن كنت لا تعرف اليونانية ، لغة البيزنطين المعنيين فى القرآن ، فهو أن روما هذه نفسها فى لغة اليونان تكتب وتنطق "رومى" Romi . وقد حار اللغويون فى تفسير أصل معنى "روما" Roma فى لغة أهلها ، إذ لا اشتقاق لها ترد إليه فى لغة اللاتين ، فقيل انها منحوتة من لغة أهل إترووريا ، قوم فى إيطاليا سكنوا قديما تُسكانيا وجزءا من أمبريا على الساحل الغربى من إيطاليا ، بادت لغتهم. وفى أساطير الرومان أن روما بناها حوالى ٧٥٣ قبل الميلاد الأخوان رومولوس وريموس، فربما جاء اسم روما على النسب إلى هذين . وهذا عند اللغويين لا يقدم ولا يؤخر ، لتعذر تفسير اشتقاق هذين الاسمين كذلك من اللغة الإترورية .

ولكن القرآن المعجز يفطنُ إلى ما لم يفطِن إليه أولئك اللغويون ، فيدرك منذ أربعة عشر قرنا أن تَحَوُّلَ اليونان فى لغتهم باللفظ Roma الإتروورى إلى Romi اليونانية لم يأتِ من فراغ بل أرادوا إصابة المعنى الذى أراده الإتروريون من لفظة Roma فى لغتهم ، وهو القوة وشدة البأس . ذلك أن "رومى" Romi اليونانية كما تعنى اسم مدينة روما تعنى أيضا فى اليونانية بذات حرفها ولفظها "القوة وشدة البأس" .

قال عز وجل يجانس على "الروم" ذوى القوة وشدة البأس ، يفسر معناها بالتقابل والترادف معا وفق منهجنا فى هذا الكتاب : { **الم . غُلِبَتِ الروم . فى أدنى الأرض وهم من بعد غَلَبهم سَيَغْلِبون** } (الروم ١ ــ ٣) ، يعنى غُلب

الشديدُ القوى وسَيَغلِبُ أيضا ، يكرر مادة الغَلَب فى شأنهم ثلاث مرات ، فِعْلَ القائلِ المتثبت ، المتمكِّنِ مما يقول .

لم يكن هذا موقف أصحاب المعاجم الذين تَصَدَّوْا مؤخرا لتفسير معنى "روما" الإترورية ، تنسيقا على "رومى" اليونانية ، فقالوا متظننين غير متثبتين (?) Rome = strength [١] (روما = القوة ؟) يُتبِعون تفسيرَهُم بعلامة استفهام ، فِعْلَ المتردد الذى لا يقطع بيقين . أما القرآن الذى قالها قبل أن يقولوها بأربعة عشر قرنا فهو يقولُها قَوْلَةَ العارِفِ المتيقن .

ألا فسبح معى العليم الخبير ، القائل بكل اللغات ، الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم .

و الحمدُ لله رَبِّ العالمين .

---

(1) WEBSTER'S DICTIONARY (UNABRIDGED), 2 nd edition, 1978, Supplements, Scripture Proper Names & Foreign Words, p. 96.

فى ختام البحث

الحمد لله وَلِيِّ النِّعَم : استهديناهُ فهدانا ، واستعنّاه فأعان .

بدأنا أولَ سطرٍ في هذا البحث أوائلَ شوال سنة ١٤٠٩ هـ (مايو سنة ١٩٨٩ م)، وفرغنا منه بفضل الله وعونِه وتوفيقِه في أواخرِ رمضان سنة ١٤١١ هـ (إبريل سنة ١٩٩١ م)، أي في عامينِ اثنين ، بل في عامينِ لم يكتملا إن استبعدتَ نحوَ ستةِ أشهر صَرَفَتْنَا خلالَها عن هذا البحث صوارفُ لا تَخلو من مثلها شواغلُ هذه الحياة . وكان متوسطُ ساعاتِ العمل اليومي في البحثِ والكتابةِ والمراجَعَة نحواً من أربعِ ساعات . وليس هذا بكثيرٍ على بحثٍ بهذه الضخامة ، وموضوعٍ بهذه الجدّية ، ناهيك بما يقتضيه الكلامُ في كتابِ الله عز وجل من تُؤَدَةٍ وأناة ، ومن تَحَرُّزٍ وتَثَبُّتٍ . ولكنه توفيقُ الله تباركَ وتعالى ، له الحمدُ في الأولى وفي الآخرة .

ولئن كان الجهدُ المبذولُ في هذا الكتاب شاقاً مضنياً ، فما شَقِينَا به البَتَّة ، بل قد سَعِدْنا به ونَعِمنا. بل قل كان لنا لذةٌ لا تَعْدِلُها لذة : صُحبةَ القرآن ، والجلوسَ إليه، والتَّمَعُّنَ فيه . وكان نَعيمُنَا الأعظم لحظةَ يَمُنُّ اللهُ علينا باستجلاءِ إعجاز القرآن في تفسيره معنى هذا العلم الأعجمي أو ذاك ، أو بانكشافِ وجهٍ جديد في فَهْمِ آياتٍ من القرآن لم يَفْطِن إليه قُدامى المفَسِّرين . وأنت تعلمُ بالطبع كيف تَدْمَعُ العينُ ويَخْشَعُ القلبُ لحظةَ يُقَالُ لكَ وجهٌ من وجوهِ إعجازِ هذا القرآن لم تَعْلَمْهُ من قبل ، فما بالُكَ بالذي ينكشفُ لَهُ قَبَسٌ من هذا الإعجاز بفضلٍ من الله ونعمة فَيُعَاينُ هذا الإعجازَ كِفَاحاً أوّلَ مرة ؟ تلك لحظاتٌ قِصَارٌ ثقال ، كنا فيها وَجْهاً لوجه مع فُتوحِ الباري جَلَّ جلاله ، نَقْبِسُ من فُيوضِ آلائه : القَلْبُ يَرْجُفُ في جَلالِ كَنَفه ، تسبيحاً وتحميداً ، والقلمُ يجري بما شاءَ له اللهُ أن يَجري ، والدموعُ مِلءُ المآقِي .

ما ذُقْتُ نعيماً في هذه الدنيا كالذي عِشْتُه وأنا أكتبُ في ظِلّ تلك اللحظاتِ القصارِ الثّقال . ومازالَ مَذَاقُهُ يملأُ كُلَّ وجداني ، يُغَالبُني الحنينُ إليه بين الفَيْنَة والفَيْنَة، فأُعَاوِدُ قراءةَ ما كتبتُه في لحظاتِ التَّجَلِّي ، أستَرْوِحُ جَلالَها وجَمالَها ، فيجيشُ القلب ، وتَدْمَعُ العين ، وتَتَجَدَّدُ النِّعْمَة .

وما أعْظَمَهُ من أجْرٍ في هذه الدنيا لِقَاءَ عَمَلٍ ما أردتُهُ الا خالصاً لوجهه عز وجل، أبتغي بِهِ رِضوانَ اللهِ في الآخرة ، طامعاً في جزيل ثوابه ، وواسعِ رحمته ،

وكـريم عَفْوِهِ وغُفْرانه ! أَسْتَقيلُكَ رَبِّ مِنْ عَثَرَاتِ قلم لا يخلو مِنْ مِثلِهـا قَوْلُ البشـر ، وأَبُوءُ إِليك سبحانَك بنعمةِ التوفيقِ فيما وُفِّقْتُ إليه .

□□□

أما فكرَةُ البحث نفسها فقد لاحت لى منذ نحو عشر سنين سَبَقَتِ الشروع فيه ، عشْتُها فى مدينة جنيف بسويسرا أثناء عملى بالأمم المتحدة هناك . كانت الفكرة تُومِضُ وتَخبُو ، تغدو وتروح . وربما سنحت لى أمثلة من "إعجاز القرآن فى أعجمى القرآن" طرحتها على إخوة زُملاء من أهل الفضل والعلم والفكر والأدب ، كانوا لى نِعْمَ الظهيرُ فى كتابةِ هذا البحث . منهم الذى دفعنى إلى الكتابة دفعاً وليس لى بالكتابة سابِقُ عَهْد ، ومنهم الذى يَسْعَى معى على قدميه إلى المكتبات نقلب رفوفها بحثا عن المراجع شديدة التخصص التى يرتكزُ عليها هذا البحث [١] بل وتَطوَّعَ فَأمَدَّنى بذلك المعجم النفيس فى ألفاظ " توراة الأنبياء والكتبة " (هَـمِّلُّون هحَداش لَتَناخ) عبرى / عبرى ، المطبوعِ فى إسرائيل ، ليكونَ لى على مقولات هذا الكتاب شاهدٌ من أهلها . وكان منهم أيضا الذى حدثنى عن كتاب أُعيدَ طبعُه لمستشرقٍ يتصدَّى للعَلَم الأعجمى فى القرآن [٢] ، ينبهنى إلى أننى قد أكون مسبوقا فيما أنوى أن أكتب ، يخشى أن يكون قد سبقنى إليه هذا المستشرق ، ولكن عِلْمِى بخبيئة أهل الاستشراق حين يتكلمون فى القرآن منعنى من تَصَوُّرِ مستشرقٍ يكتبُ فى إعجاز القرآن غيرَ مؤمن بأنهُ وحى الله على عبده ورسوله محمدٍ صلى الله عليه وسلم . القرآنُ فى آذان هؤلاء وقر ، وعلى أعْيُنهم عَمَى . ولكنى صابَرْتُ النفس على قراءة الكتاب ، وما أن فَرَغْتُ منه حتى أدركت أنه من أنْفَس المراجع المُضَادَّةِ لمقولات هذا البحث ، لأنه يُلَخِّصُ أبلغَ تلخيص مقولة الاستشراق فى أعلام القرآن ، لا حاجة بك معه إلى غيره ، إن أردت الاطلاع على غثاثة أولئك المستشرقين وفَسادِ طَوِيَتهم حين يتكلمون فى القرآن . وقد أغْلَظْنا على هذا المستشرق وإخوته فى تضاعيف هذا البحث ، فكان لابد من الإشارة إلى مُؤلَّفِهِ فى حواشى هذا الكتاب وإدراجِهِ فى قائمة مراجعِهِ .

---

(١) كان من بين أصحاب تلك المكتبات المتخصصة يهودٌ تَوَجَّسُوا منا ، وحاولوا التعمية علينا ، تشككا فى مقاصدنا ، ولكن صاحبى الذى يُجيد العبرية حدثهم بها فأزال هواجسهم .

(٢) J. HOROVITZ, Jewish Proper Names and Derivatives in the Koran, op. cit.

كان صُحْبَةُ جنيف ، الذين أدينُ لهم بالمودةِ والعرفان ما حييت ، هم أولَ قُرّاء هذا البحث ، فقد حَرَصْتُ على إقرائهم إياهُ تباعا حتى اكتمل . وكان حماسُهم البالغُ لما أكتب ، وتقريظُهم الذى أعْرِفُ وَزْنَه ، وإلحاحهم الدؤوبُ عَلَىَّ بالإسراعِ فى نشره فَوْرَ الفراغِ منه ، دافعى إلى الخروج بهذا البحث على جُمْهُورٍ لم يَقْرَأ بَعْدُ شيئاً لكاتبه .

❑❑❑

على أن تلك السنواتِ العشر التى قضيتُها فى جنيف قبل البدء فى كتابة هذا البحث ، لم تَمْضِ عبثا . فقد كانَ فى ذهنى مشروعُ كتابٍ فى تأصيل مفهوم الحكم بالإسلام فى المجتمع المسلم ، قطعت فيه شَوْطاً يَقْرُبُ من ثلثيه أو نِصْفِه ، ثم أرجأتُ المُضِىَّ فيه ، نُزولا على نصح أولئك الأخوة الزملاء ، إلى أن أفرغ من هذا الكتاب الذى بين يديك .

ولأن موضوع البحثينِ واحد ـ كتابُ الله عز وجل ـ فقد شُغلَتْ طيلةَ تلك السنوات العشر بشىءٍ واحد لا أعْدُوهُ إلى غيره إلا لماما ، وهو تدارُسُ القرآنِ فى كتب التفسير ، أبْدِىءُ فيها وأعيد ، فأقعُ على الدرِّ الثمين، وأصطدِمُ أيضا بما هو دونَ ذلك، الذى تَلَقَّاهُ الخَلَفُ عن السلف دون تمحيص .

فأنت تعلم بالطبع أن عِلْمَ التفسير يحتاج ممن يَتَصَدَّى له إلى جُملَةِ علوم ، أوَّلُها بإطلاق علومُ اللغة العربية وعِلْمُ الحديث ، وثانيها التاريخ ، وثالثها العلوم الطبيعيةُ والاجتماعية . ولكنه يحتاج أيضا ممن يتصدى له إلى القدرة على تحقيق النصوص التى يُسْتَشْهَدُ بها من خارجِ القرآن والحديثِ الصحيح عن الصادقِ المصدوق صلى الله عليه وسلم ، فى مصادرها المدَوَّنة بلغة الأَصل الذى كُتِبَت به ، فلا يَسْمَعُ لِرُواة أهل الكتاب ـ الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانِىَّ كما وَصَفَهُمُ الحق تبارك وتعالى ـ دون تمحيص ، وإنما يُحَقِّقُ ما يُرْوَىَ له فى مصادره الأصلية ، أى فى التوراة والإنجيل . ولم تكن على عصر تفاسير القرآن ثمة ترجمةٌ عربية للتوراة والإنجيل كما تجدُ لهما اليوم ترجماتٍ بكل اللغات . ولم يكن من أهل التفسير من يستطيع قراءة التوراةَ والإنجيل فى نَصِّهما الأصلى ، العبراني واليوناني ، فَيُمَحِّصُ ما يُلْقيه إليه رواة أهل الكتاب لِيَعْلَمَ أَن قد صَدَقَ الرُّواةُ أم كَذَبُوا ودلَّسُوا ، أو اخترعوا بُغْيَةَ لَهوَ الحديث . ومن هذه تلك الاسرائيلياتُ التى دَسَّها صغارُ رواةِ أهل الكتاب من يهودَ على أهل التفسير

وانخدع بها لفيفٌ منهم ، لا يَخْلو منها كتابٌ من كُتُبِ التفسير مهما جَلَّ قَدْرُ صاحبه ، فَيَضِلُّ بها القارىءُ العام غير المتخصص ، إلا من عَصَمَ ربُّك . وقد جرَّنى هذا إلى تَدارُسِ "الكتاب المقدس" بشطريه ـ التوراة والإنجيل ـ فى ترجماتهما العربية ، ثم إلى مراجعةِ هذه الترجمة حين يُعضِل فهمُ وجهِ الصواب فيها ، على الأصل العبرانى للتوراة، والأصل اليونانى للإنجيل .

كنت ـ دون أن أدرى ـ أعدُّ لمادةِ هذا البحث الذى بين يديك ، و أجمع أدواته . ولكن العبرانية ـ أعنى عبرية التوراة لا العبرية المعاصرة ـ واليونانية الكنسية ـ لغة الأناجيل ـ لا تكفيان وحدَهما فى تأصيل مقولات هذا البحث ، بل لابد من دراسة الآرامية ـ لغة أهل فلسطين على عصر المسيح ـ وأيضا المصرية الهيروغليفية التى لابد منها فى تحليل أسماء بعض أعلام القرآن ، كما رأيت فى موسى وفِرْعَونَ ومِصْرَ وسيناء . وقد أكرمنى الله عز وجل منذ الصِّبا بشىء لا أَحْسَبُهُ اليوم إلا إعدادى لكتابةِ هذا البحث بالذات ، وهو شَغَفِى الذى لم أَبْرَأْ منهُ بعد بالدراسات اللغوية ، الأمر الذى يَسَّرَ لى العِلْمَ بِعِدَّةِ لغات ، عِلْمَ الباحث لا علم المتكلم ذَرْبِ اللسان . وكانت هذه نعمة من اللهِ عز وجل ، أتاحت لى الغَوْصَ فى تلك اللغات ـ ومنها بائد ـ التى احتاجت إليها مباحثُ هذا الكتاب .

❑❑❑

ولأن مقولةَ هذا الكتاب ـ القائلةَ بأن القرآن يُفَسِّرُ أعلامه الأعجمية فى سياق الآيات بالترادف والتقابل والتعريب والترجمة والمُشاكَلة والسِّياق العام ـ مقولةٌ جديدة غيرُ مسبوقة ، لا أعلم أحداً لمح إليها من قبل ، ناهيك بأن كتب فيها ، فلن تَجِدَ بالطبع مراجعَ لهذا البحث فى كتُبٍ سبقت ، وإنما الأسانيد الأساسية لهذا البحث هى المراجع اللغويةُ فحسب ، أى المعاجم المتخصصة . وقد عنيت فى انتقاء هذه المراجع بما هو مُتاحٌ منها فى الأسواق ، تيسيرا على القارىء والناقد و الخَصْم ، ممن يَوَدُّون التثبت من مقولات هذا الكتاب أو التصدِّىَ لها .

وقد اجتَزأْتُ من تفاسيرِ القرآن بأوسَعِها فى هذا العصرِ انتشارا ، وهو أيضا أحكمُها وأشملُها ، أعنى تفسير الإمام القرطبى رحمه الله "الجامع لأحكام القرآن" الذى

تتمنى ألا يخلو منه بيتُ مسلم . وفى هذا التفسير أيضا فضيلة ، هى اهتمامه بالتأصيل اللغوى ، الذى يكمل النقص فى معاجم اللغة العربية الحديثة المنتشرة فى الأسواق ، وأهمها بالطبع " المعجم الوسيط " الصادر عن مجمع اللغة العربية بمصر .

أما كتب الحديث النبوى الشريف ، فإنى أرشّحُ لك " صحيح مسلم " (بشرح النووى) ، تجتزىءُ به عن غيره من كتب الصِّحاح الستة ، ليس فقط لأنه رائجٌ فى المكتبات ، وإنما أيضا لأنه أَخْصَرُ الصحاح بإطلاق فتأمن الزيادة والتَّزَيُّد . وهو أيضا ـ فيما تضمنه من حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم ـ أدقها مَتناً وأضبطُها إسنادا ، إن استشهدتَ منه بحديثٍ فقلت : خَرَّجَهُ مسلم ! فقد كُفيت . على أننا فى هذا الكتاب لم نُرِد الاستكثارَ من الحديث ، بل كان هَمُّنا الاستشهادَ للقرآن بالقرآنِ نفسه ، على ما يجدر ببحث فى "التفسير القرآنى" للعلم الأعجمى فى القرآن .

أما القرآن كتاب الله عز وجل ، فلديك مصحفُكَ والحمد لله . وانى لأعُوذُ بوجهه الكريم أن يُجَنِّبَ هذا البحث هِنات الطباعة فى لفظٍ أو حرف من كلامِ الله عز وجل . وقد عُنيتُ فى إيراد الآيات بذكر اسم السورة ورقم الآية ، كى تُراجِعَها معى على مصحفك فلا تتصحف عليك[1] .

ولا تفوتُنى الإشارة إلى "المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم" للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى رحمه الله ، الذى يَدُلُّكَ ـ بكلمةٍ واحدة تحفَظُها من الآية ـ على رقم الآية واسم السورة فى كتابِ الله عز وجل ، فلا يستغنى عنه دارسٌ للقرآن فى هذا العصر الذى شح فيه حُفَّاظُ القرآنِ عن ظهر قلب ، جزاه الله عن أهلِ القرآن خيرا .

هناك أيضا ـ على الجانب الآخر ـ التوراةُ والإنجيل ، ولديك فى المكتبات ترجماتُهما العربية المعتمدة من السلطة الدينية المختصة . وتستطيع أيضا ـ إن أردت ـ الرجوع إلى نَصِّهما الأصلى العبرانيِّ واليونانى ، وقد أَثْبَتُّ لك فى قائمةِ المراجع اسمَ الناشرِ واسمَ المكتبة .

وقد عُنيت فى كل نص استشهدتُ به من " الكتاب المقدس " بشطريه ـ أعنى التوراة والإنجيل ـ بذكر رقم الإصحاح ورقم " الآية " . والإصحاح من التوراة والإنجيل

(١) تَصَحَّفَ عليك اللفظ يعنى تَحَرَّف ، لخطأٍ فى رسمه أو فى ضبطه بالشكل والنقط .

يعنى فى مصطلح أهل الكتاب ما تعنيه " السورة " عند أهل القرآن ، وهو أيضا من معناها قريب [١] ، فهو مصدر من "الصحة" لا بمعنى السلامة من المرض والآفة ، وإنما هو بمعنى الكَمال والبراءةِ من النقص ، فهو المكتملُ غير مزيدٍ فيه أو منقوصٍ منه . أما "الآية" فقد استعاروها من مصطلحات أهل القرآن ، وليست هى أصلا بآية ، وإنما هى السطر أو البيت فى القصيد ونحوه verse أو هى العبارة أو الجملة المتكاملة . ولكنه تشبيهٌ لا بأس به ، يُقَرِّبُ المعنى إليك ، كما يُقَرِّبُهُ إلى أهل الملة القارئين بالعربية لا يعرفون غيرَها .

❑❑❑

وقد كان من شأن اختيارنا تفسير الأعلام الأعجمية فى القرآن بترتيبها التاريخى ، لا بترتيبها على حروف الهجاء ، اهتمامُنا برسم الإطار التاريخى لصاحب الاسم العَلَم والتعريف به . وكان هذا ضروريا لتحليل معنى الاسم العَلَم الذى فُسِّرَ به فى القرآن ، فهو يحدد لك اللغة التى صِيغ منها الاسم الأعجمى العَلَم ، كما رأيتَ فى الاسم "موسى" ، وهو أيضا يحدد لك مناسبة التسمية وانطباقها على المُسَمَّى ، كما رأيت على سبيل المثال فى الاسم "ابراهيم" الذى لا تستطيع بعد قراءة هذا الكتاب إلا أن تُفَسِّرَ معناهُ بما فَسَّرَهُ بِهِ القرآن : "إمامُ الناس" لا "أبو جمهور كثيرين" ، كما يَظُنُّ علماء العبريةِ وعلماءُ التوراة .

وقد عرجنا أيضا فى سياق البحث على موضوعاتٍ وقضايا ربما يظنُّها القارىءُ المتعجل دخيلةً على مباحث الكتاب ، وهى منه فى الصميم . ومن ذلك على سبيل المثال شرح عقيدة المسيحيين فى المسيح ، فما كان يُمْكِنُ تفادى هذا الشرح إن أردتَ تحليلَ الاسم "عيسى" (يِشُوَع العبرانية التى أصلها " يِهُوشُوَع ") ولفظة "إنجيل" (التى رددناها إلى "هَجِّلْيُون" العبرانية بمعنى المرآة الجالية المجْلُوَّة) بحيث لا يصح لك بعد قراءة هذا الكتاب إلا أن تفسر الاسم "عيسى" بما فسره به القرآن: المُخَلَّصُ الناجى، لا المُخَلِّص المُنَجِّى كما يظن أصحاب الإنجيل ، وإلا أن تفهم من لفظة "إنجيل" أنه المرآةُ الجالية المجلوة، أى "البينات" كما قالها القرآن ، لا البشارة أو الخبر السار كما يظن عامةُ أهل الكتاب. وقد أَفَضتُ فى هذا شرحاً وتعقيبا ، كما أفضت فى غيره من مباحث

---

(١) السورة اسم فعل بمعنى مفعول من سَارَهُ يَسُورهُ يعنى ضَرَبَ عليه سُورا ، فهى المُسَوَّرَة .

الكتاب، لأنى أحببتُ أن أوفر على من يَتَصَدونَ لانتقاد مقولات هذا الكتاب مؤونة الكَرّ والفَرّ ، فحرصتُ على أن أَسُدَّ عليهم مُقَدَّماً منافذَ القول : بذلتُ فى هذا قُصاراى، وما أَدَّعِي الكمال، فالكمال لله وحده، وما توفيقى إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

ولئن كان هذا البحث يتناول واحدا وستين اسما علما ـ أعجميا أو مُشْتَبَها فى عجمته ـ فقد تناولنا بالتفسير أيضا أعلاما أخرى غير منصوصٍ عليها فى القرآن ، عَرَضَت لنا فى سياق البحث ، وكان تناولها ضروريا فى الإطار التاريخى لصاحب الاسم العلم ، ومن ذلك الاسم "حواء" أم البشر والاسم "يوكابد" أم موسى ، والاسم "مِريام" أخت موسى وهرون ، وغيرها . كما تناولنا بالتفسير أيضا ألفاظا عربية من مثل "أخت هرون" ، "السامرى" ، "ذى الأوتاد" ، "الحواريين" ، "أدنى الأرض" ، وغيرها كثير ، مما فات معناه على جميع المفسرين ، وهُدِينا إليه بفضل من الله ونعمة .

إلى هذا وذاك ترجع ضخامةُ هذا البحث ، وإليه يُعزى أيضا تفاوتُ حجم فصوله فيما بينها . بل قد شَغَلَت فصولُهُ الثلاثة الأولى التى تُمَهِّدُ لمباحثه نحواً من خُمْسِ حجم الكتاب، ولكنها كما رأيت كانت ضرورية للدخول فى مباحثه ، على الأقل بالنسبة للقارىء العام غير المتخصص فى موضوعه. على أننا حاولنا التخفيف من صرامة هذا التمهيد الجاف بطبيعته ، فبثثنا فيه قسطاً من المرح ، وشيئا من التَّفَكُّه ، وكثيراً من التشويق .

❑❑❑

أما انطباقُ منهج هذا البحث على نتائجه ، فهو بفضل الله عز وجل الانطباقُ التام : لا تنتهى من قراءة هذا الكتاب إلا وقد سَلَّمْتَ معى بمقولته الأساسية ، وهى أن القرآن لم يترك علما أعجميا ورد به إلا وقد فَسَّرَ معناه بإحدى أدوات التفسير الستِّ المُسْتَخدَمَة فى مباحثه . ولا تفرغ منه أيضا إلا وأنت تسبح معى العليم الخبير ، القائل بكل اللغات ، ومنها البائد المنقرض .

لم يخرج عن فرضية هذا البحث إلا لفظٌ واحد ، هو " المجوس" التى لم تُفَسَّر فى القرآن بأىٍ من أدوات التفسير الست على منهجنا فى هذا الكتاب ، وقد بَيَّنا لك السبب فى مبحث " المجوس" .

أما الاسم "هامان" ، قرين فرعون موسى ورئيس كهنة آمون فيما نقول نحن ، الذى تراوحنا فيه بين الترجيح واليقين ، أهو فى القرآن على الترجمة لاسم هذا الرجل

أو لقبه بمعنى "عظيم الهامة" ، أو هو تعريبُ غيرُ مُفَسَّر من المصرية القديمة "ها + أمان" (هَوَّةٌ آمون) يعنى "المُدْلَفُ إلى آمون" ، فَمَرَدُّ تَوَقُّفنا فيه يرجع كما مر بك فى مبحث "هامان" إلى انعدام النظير الذى تقيس عليه مما عُرِفَ من تاريخ "فرعون موسى" وهو ما نرجو أن تُجَلِّيَهُ الأيام .

أما فرائدُ إعجاز القرآن فى تفسير أعلامه الأعجمية على منهج هذا الكتاب ، فهى عديدة : أعظمها بإطلاق عِلْمُ القرآن وقت نزوله بما لم يعلمه مخلوقٌ حتى أواسط القرن التاسع عشر لميلاد المسيح وأوائل هذا القرن ، من مثل موسى وفرعون ومصر وسيناء بلغة آل فرعون . وثانيها فى الترتيب مخالفة القرآن أهلَ الكتاب فى تفسير معانى أعلامهم ، من مثل آدم ونوح وإبراهيم وموسى وداود وعيسى وأيضا "إنجيل" : أَخْطَأَ أصحابُ اللغة وأصابَ القرآن .

□□□

وقد دأب لفيفٌ من علماء القرآن فى هذا العصر على التصدى لكل قائل بوجه من وجوه إعجاز القرآن "العلمى" ، أعنى سبق القرآنِ إلى هذه "النظرية" أو تلك مما ينكشفُ للعلم الحديث ، يَخْشَوْنَ أن تنهار "النظرية" فينهارَ وجهُ الإعجاز ، فكم انتقل العلمُ بنظرياته فى القرون الثلاثة الأخيرة من النقيض إلى النقيض . وقد بالغ بعضهم فى هذا فَرَدَّ القولَ بأن فى الآية الكريمة : { **وترى الجبال تحسبُها جامدةً وهى تَمُرُّ مَرَّ السحاب صُنْع اللهِ الذى أتقن كل شىء إنه خبير بما تفعلون** } (النحل : ٨٨) ما يشهد لدوران الأرض حول محورها قبل أن يقولها جاليليو ويحاكم من أجلها فى أوائل القرن السابع عشر ، وهى الآن قانون لا يَشُكُّ فيه أحد : آثروا الوقوف عند ما قاله قدامى المفسرين فقالوا هذا من مشاهد يوم القيامة ! وأهملوا تعقيبَهُ عز وجل: "صُنْع اللهِ الذى أتقن كل شىء" الذى لا يقالُ فى مشاهد يوم القيامة. هذا التَّحَرُّز، وإن حسنت النيات ، مرذول ، لأنه يَطْمسُ أعظم ما فى القرآن : دليلُ العلْمِ ودليلُ القدرة ، الشاهدُ له عصراً بعد عصر بأنه الحَقُّ من الحَقِّ نزل : { **سَنُريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكفِ بربِّك أنه على كل شىءٍ شهيد** } (فصلت : ٥٣) . على أن هذا اللفيف من علماء القرآن ـ حَسَنِى النية ـ الذين يَضْرِبون على أيدى " العلميين " المعاصرين المسلمين ليزجروهم عن التفسير " العلمى" للآيات " العلمية " فى القرآن بغير ما فسرت به فى

كتب التفسير حتى عصر القرطبى فى القرن السابع الهجرى ، لا يقفون من قُدامى المفسرين هؤلاء نفسَ الموقف ، بل يَغُضُّون الطرف عن اجتهادات أولئك المفسرين القدماء فى فهم تلك الآيات العلمية فى القرآن بحسب التصور "العلمى" الذى تحقق لهم فى عصرهم . ولم يقل أحد ان انهيار قول المفسرين القدماء فى تفسير هذه الآية أو تلك من الآيات العلمية فى القرآن ، قد نال من هيبة القرآن، فلا قداسةَ لقولٍ إلا قولُ الله وقولُ رسوله : سقط التفسيرُ القديم الذى صيغ فى حدود التصور العلمى السائد فى عصر هذا المفسر أو ذاك ، وحل محله تفسيرٌ أصَحُّ منه ، يُطابِق ما ارتقى إليه العلم . لا تثريبَ على هذا أو ذاك .

والذى ينبغى التنبيهُ إليه أن تفاسير القرآن فى كل عصر ، إنما يعكس كُلٌّ منها عُلومَ عصرِه ، أعنى "حالةَ العلم" فى العصر الذى كُتبَت فيه . ومن عجائب القرآن فى مقولاته "العلمية" تلك الصياغةُ التى اتسعت لكل التفاسير فى كل عصرٍ بمفهوم العصر، يأخذ كُلُ عصر بحَظِّه من فهمها ، وهى مع ذلك صياغةٌ غاية فى الدقة ، لا يَرْقَى إلى إحكامِها قول بشر ، وليس الإعجاز "العلمى" فى القرآن هو فحسب سَبْقَهُ إلى هذه الحقيقة العلمية أو تلك ، وإنما هو أيضا وبالأخص انطباقُ مقولة القرآن على كل مقولة يكتشفُها العلم ، أو " يُصحّحُها " العلم ، لا تستطيعُ البتة مهما تقدم العلمُ وتبدلّت النظريات أن تُخَطِّىءَ القرآن فى مقولةٍ علميةٍ واحدة قال بها ، وإنما تُخَطِّىءُ تفسيَرك " القديم" لهذه المقولة التى فى القرآنَ : ما أن تَنْبذَ مقولة علميةً اكتشف العلم خَطَأها حتى ترجع إلى تفسيرك "القديم" فتكتشف خطأ هذا التفسير الذى تَعَجَّلتَ فيه ، وتندهش كيف فاتك هذا اللفظُ أو ذاك ، أَخْطَأتَ وأصابَ القرآن ، كلامُ اللهِ القديم .

هذا الإعجاز الدائم المستمر ، دليلُ العلمِ الكُلّىِ المطلق ، إعجازٌ يعَظ بِهِ اللهُ الذين آمنوا فى كل عصر إلى قيام الساعة ، فيزيدهم إيمانا . أما الذين يُجادلون فى آيات اللهِ بغيرِ سلطانٍ أتاهم ، فَذَرْهُم فى جَهالتهم ، وما لهؤلاء نكتبُ هذا الكتاب.

□□□

أما هذا الوجهُ الجديد من إعجاز القرآن الذى فَتَحَ اللهُ علينا به فى هذا الكتاب، فهو الإعجازُ "المُعْجِز"، لأنه إعجازٌ محسوم، مقطوع به، لا يستطيع المعاندُ لَهُ دَحْضًا.

قد يجوز فى مقولات القرآن العلمية أن يتصدى لك الجاحد المكابر فيقول لك : ومن أدراك أن مقولة القرآن التى صدقت فى الماضى والحاضر ستصدقُ أيضا فى المستقبل وبابُ العلمِ مفتوح ، وربما ينكشف للعلميين غداً قولٌ جديد يُناقِضُ مقولة القرآن ؟

مثل هذا لا يجوز على مقولات هذا الكتاب الذى بين يديك ، فلفظة "فرعون" على سبيل المثال ("پرعا" فى المصرية القديمة) التى تعنى عند علماء المصريات "البيت الكبير" (أو "الصرح" كما فسرت فى القرآن) لا يمكن أن تعنى غدا أو بعد غد وإلى قيام الساعة شيئا آخر غير البيت الكبير أو الصرح ، أو أن المصريين القدماء يمكن أن ينقلوا هذا اللفظ عن معناه فى لغته ، كما يحدث فى غيرها من اللغات ، فقد انقرض المصريون القدماء وبادت لغتهم . قد انتهى الأمر ، وأصبحت مقولة "فرعون = الصرح" حقيقةً علمية لا تقبل التعديل إلى قيام الساعة ، كحقيقةِ دورانِ الأرضِ حولَ محوَرِها التىْ عاينها رواد الفضاء مثلما عاينوا الليلَ الذى ينسلخ منه النهار . وقد قالها القرآن "فرعون = الصرح" قبل ثلاثةَ عشر قرنا منْ يومِ كانت اللغة المصرية القديمة ، والتاريخُ المصرى القديم ، طلاسمَ مُطَلْسَمة ، لم يأخذ من أهل التوراة أن معناها "الملك" كما وَهُموا ، بل قد علَمَ القرآنُ منذ متى كَنّى المصريون القدماء عن ملوكهم بلقب "فرعون" ، فخص بها فرعون موسى وحده ، لم يُسَمِّ بها فرعونَ إبراهيم أو فرعونَ يوسف كما قال كتبةُ التوراة ، وإنما قال "الملك" . ولم يكتف القرآنُ بهذا بل حَدَّدَ لك من هو الفرعون المعنى ، فقال "فِرعَوْنُ ذو الأوتاد" .

هذا هو دليلُ العلمِ الكُلِّيِّ المطلق ، ليس إلى نَقْضِهِ من سبيل .

والحمدُ لله ربِّ العالمين .

□□□

اللهم اجعل هذا العمل خالصا لوجهك ، نافعا لعبادك ، تَهدى بِهِ من تشاءُ إلى صراطكَ المستقيم .

الاسكندرية فى ٢٧ رمضان سنة ١٤١١ هـ ١٢ إبريل سنة ١٩٩١ م

قائمة مراجع

أولا : القرآن والحديث

- المصحف الشريف .
- صحيح مسلم (بشرح النووى) ، كتاب الشعب ، القاهرة .
- تفسير القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) ، وقد صدر فى طبعات متعددة تزخر بها المكتبات ، فاختر أيها شئت .
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، محمد فؤاد عبد الباقى ، مطابع الشعب ، القاهرة .

ثانيا : التوراة والإنجيل (الكتاب المقدس بشطريه : العهد القديم والعهد الجديد)

- الكتاب المقدس ، ترجمة الفاتيكان العربية ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، فبراير ١٩٥١ .
- الكتاب المقدس ، ترجمة الكنيسة الأرثوذكسية المصرية ، دار الكتاب المقدس بمصر ، طبعة العيد المئوى (١٨٨٣ ـ ١٩٨٣) .
- تُورا نَبيئيم وكتُوبيم (توراة الأنبياء والكتبة) ، الأصل العبرانى مصحوبا بترجمة انجليزية :

The Holy Scriptures of the OLD TESTAMENT, Hebrew and English, London, The British and Foreign Bible Society

- هابريت هِحَداشا (العهد الجديد) ، ترجمة عبرانية عن الأصل اليونانى للأناجيل ، تطلبه من :

Trinitarian Bible Society, 217 Kingston Road, London SW 19 3 NN, England.

- العهد الجديد فى أصله اليونانى مصحوبا بترجمة انجليزية بينية حرفية :

The RSV Interlinear Greek - English NEW TESTAMENT by Alfred Marshall, Regency Reference Library, Zondervan Publishing House, Grand Rapids, Michigan, USA.

ثالثا : معاجم عامة ومتخصصة

- المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية بمصر .

- المنجد فى اللغة والأعلام ، دار المشرق ، بيروت .

- معجم وبستر (الكبير) فى اللغة الانجليزية :

Webster's New 20 th Century Dictionary of the English Langusge (Unabridged), second edition, 1978.

- معجم لاروس الثنائى فرنسى / عبرى - عبرى / فرنسى :

Nouveau Dictionnaire Hebreu - Francais/Francais - Hebreu (LAROUSSE), Librairie LAROUSSE, Paris, imprimé en Israel, 1986, par Achiasaf Publishing House, Tel - Aviv.

- هَمِّلُون هِحَداش لِتَناخ (المعجم الحديث لألفاظ توراة الأنبياء والكتبة)، عبرى/عبرى، دكتور صِفْى راداى وبروفيسور حَايِيم رابين ، القدس ، ١٩٨٩ ، تطلبه من :

Yehoshua Orenstein, "Yavneh" Publishing House Ltd., and Keter Publishing House Jerusalem Ltd., P. O. B. 7145, Jerusalem. (May be ordered under its English name "The New Bible Dictionary", Dr. Zvi Raday & Prof. Chaim Rabin).

- المعجم التحليلى العبرى الآرامى (لألفاظ التوراة) (مفسرة بالانجليزية) :

The Analytical Hebrew and Chaldee Lexicon, Benjamin Davidson, Regency Reference Library, Zondervan Publishing House, Grand Rapids, Michigan, USA.

رابعا : مراجع لغوية

- فى اللغة المصرية القديمة (الهيروغليفية) :

A. Gardiner, Egyptian Grammar, Oxford University Press, London, 3rd edition, revised, 1966.

- فى اللغة الآرامية :

1- Franz Rosenthal, Grammaire d'Araméen Biblique, Beauchesne, Paris, 1988.

2- Wm. B. Stevenson, D. Litt, Grammar of Palestinian Jewish Aramaic, 2nd edition, 1987, Clarendon Press, Oxford.

- فى عبرية التوراة :

R. K. Harrison, Biblical Hebrew, Teach Yourself Books, 1986, Richard Clay, The Chaucer Press Ltd., Bungay, Suffolk, Great Britain.

- فى يونانية الأناجيل :

Alfred Marshall, New Testament Greek Primer, Academie Books Zondervan Publishing House, Grand Rapids, Michigan, USA.

- فى اليونانية المعاصرة :

S. A. Sofroniou, Modern Greek, Teach Yourself Books, Random House Inc., 201 East 50 th Street, New York, NY 10022.

خامسا : مراجع متفرقة

- تاريخ اللغات السامية ، أ. ولفنسون ، دار القلم ، بيروت .

- مصر الفرعونية ، أحمد فخرى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٩ .

- معالم التاريخ الحضارى والسياسى فى مصر الفرعونية ، دكتورة نبيلة محمد عبد الحليم ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٨٨ .

- العبرى من الأعلام والمشتقات فى القرآن (بالانجليزية) :

J. Horovitz, Jewish Proper Names and Derivatives in the Koran, Georg Olms Verlagsbuchhandlung, Hildesheim, Germany.

إلى غير ذلك مما أشرنا إليه فى حواشى الكتاب ولم نذكره هنا .

تصويب أخطاء الجزء الأول

وقعت فى طباعة الجزء الأول من هذا الكتاب بعض الأخطاء ، منها هنات لا تغيب عن فطنة القارىء المتثبت ، ومنها كتابة بعض العبارات الانجليزية من اليمين إلى اليسار لا العكس . مما لايفوت العارفين بتلك اللغة ، ومنها أيضا مايتعين تصويبه والتنبيه عليه فيما يلى :

الموضع	الخطـــأ	الصـــواب
اسم المؤلف	رءوف	رؤوف
عنوان الكتاب	من إعجاز القرآن	من إعجاز القرآن فى أعجمى القرآن
ص ٢٩ س ١٢	عن طريق رسله بكلام	على رسله بكلام
ص ٣١ س ٢١و ٢٢و٢٣	الموجود بذاته	الموجود من ذاته
ص ٣٢ س ٣و٦	الموجود بذاته	الموجود من ذاته
ص ٣٢ س ١٣	مبدىء هذا الوجود	مبدأ هذا الوجود
ص ٣٢ س ١٩	وفى هذا الكون	فى هذا الكون
ص ٢٣ س ١٩	ألا يبتر له ساق قاحت	ألا يَبْتُر ساقا قاحت
ص ٣٥ س ٢٠	أنه الحق ، ومن الحق نزل	أنه الحق ، من الحق نزل
ص ٣٧ س ٢١ و ٢٢	عدم إثبات الفاصلة ❑❑❑ بين هذين السطرين	إثبات الفاصلة ❑❑❑ بين السطرين
ص ٣٨ س ٣	يلزم نفسه مالا يلزمه	يلْزم نفسه ما لا يلْزَمه
ص ٤١ س ١٥	وليس كل ما قال	ليس كل ما قال
ص ٤٥ س ٨	أى ثعبان حق ،	أى ثعبان حق الثعبان ،
ص ٤٥ س ١١	لعداوته	بعداوته
ص ٥٥ س ١٤	الاسكندر .	الاسكندر وهم فيما يُظَنُّ معظمْ جيشه
ص ٥٧ س ١٥	بعد مهبطهما	مهبطهُما
ص ٥٨ س ٢	بعد مهبطه	مهبطَهُ

الموضع	الخطــــأ	الصـــــواب
ص ٦٨ س ٢٧ و ٢٨	يأخذوا .. فيزدادوا .. ويمعنوا ..	يأخذون .. فيزدادون .. ويمعنون ..
ص ٧٥ حاشية ١	أو هو رقاق القصب	أو هو دقاق القصب
ص ٨٧ س ٨	«باريس» عاصمة فرنسا ،	«باريس» ،
ص ٨٨ س ٢١	شخصا عزيزا أو بطلا ، وربما أراد شخص نبى أو أراد ملكا	شخص عزيز أو بطل ، وربما شخصَ نبىٍ أو ملَك .
ص ١٠٢ س ٢	شهرة يعقوب	كنية يعقوب
ص ١٠٥ س ٣ و ٤	«يكرز ببشارة ملكوت»	«يكرز ببشارة ملكوت الله»
ص ١٠٥ س ١٦ و ١٧	angelion	aggelion
ص ١٠٥ س ١٨	angelos	aggelos
ص ١١٣ س ٤	(وشهرته اسرائيل)	(وكنيته اسرائيل)
ص ١١٣ س ٨	شهرة يعقوب	كنية يعقوب
ص ١٢٤ حاشية ١	Horovitz joseph	Joseph Horovtz
ص ١٣٠ س ١١ و ١٢	O Abba Pater	Abba o pater
ص ١٣١ حاشية ١	Aleph Prosthetic	Prosthetic Aleph
ص ١٣٧ س ١٦	شُهروا بها	تَكَنّوا بها
ص ١٣٧ س ٢٢	شهرة شهر بها	كُنية تكنى بها
ص ١٣٧ س ٢٤	ولكنها ألقاب وأسماء شهرة	ولكنها ألقاب وكُنَى
ص ١٣٨ س ١	على أن الشهرة كالاسم تماما	على أن الكُنية كالاسم تماما
ص ١٧٤ س ١٠	فسح لك الله	أفسح لك الله
ص ١٧٧ س ١	God of Man	Man of God
ص ١٧٧ س ٢	God of soldier	Soldier of God
ص ١٧٧ س ٤ و ٥	The God of one mighty	The mighty one of God

الموضع	الخطـــأ	الصـــواب
ص ١٩٠ حاشية ١	مثل «حلق» العبرى بمعنى حلق وخلق على السواء ، يتمايزان بالسياق	cutting up roots ، فى عبارة Joseph Horovitz المرجع المذكور
ص ٢٢١ س ١٩	هذا الكتاب	هذا الكاتب
ص ٢٣٣ س ١٤	فهوى النائخ	فهو النائخ
ص ٢٥٣ س ١١	لمعنى شهرتى حمى موسى	لمعنى كُنيتى حمى موسى
ص ٢٥٣ س ٢١	فى مهاجره بشهرته	فى مهاجره بكنيته
ص ٢٥٥ حاشية ٣	يتبادلان أحيانا	تُبادلان أحيانا
ص ٢٥٨ س ٢	(شهرة يعقوب)	(كُنية يعقوب)
ص ٢٥٨ س ١٢ و ١٣	شهرة ليعقوب من الله	كُنية ليعقوب كَنّاهُ بها الله
ص ٢٦٠ س ٩	شهرة شهر بها	كُنية تَكَنّى بها
ص ٢٦٩ س ١٠	«أبو جمهور كثير»	«أبو جمهور كثيرين»
ص ٢٧٦ س ٨	تبدل اسم ابراهيم من «أبرام» إلى «أبراهام»	تبدل ابراهيم من «أبرام» «أبراهام»
ص ٢٩١ س ١٨ و ١٩	فى المعجم العبرى صنوان. وفى اللغة العربية تتعاقب السين والصاد مثل «السراط» و «الصراط» وقد قرىء بهما .	فى المعجم العبرى صنوان .

الفهـــرس

فهرس الجزء الأول

الموضـــــــوع

فهرس الجزء الثانى